# جامع السعادات

رقم الكتاب في المكتبة الشاملة: ١٥٧٦٥
الطابع الزمني: ٢٠٢٢-١١-٢٥-٢٢-١٩-١٧
المكتبة الشاملة رابط الكتاب

# المحتويات


١ جامع السعادات (ج1) ٥
١.١ جامع السعادات (ج1) ٥
١.٢ جامع السعادات (ج1) ٨
١.٣ 01 ٨
١.٤ 02 ٢٣
١.٥ 03 ٤٢
١.٦ 04 ٦٠
١.٧ 05 ٧٩
١.٨ 06 ٩٨
١.٩ 07 ١١٧
١.١٠ 08 ١٣٧

٢ جامع السعادات (ج2) ١٥٦
٢.١ جامع السعادات (ج2) ١٥٦
٢.٢ جامع السعادات (ج2) ١٦٠
٢.٣ جامع السعادات (ج2) ١٦١
٢.٤ جامع السعادات (ج2) ١٧٩
٢.٥ جامع السعادات (ج2) ١٩٨
٢.٦ جامع السعادات (ج2) ٢١٧
٢.٧ جامع السعادات (ج2) ٢٣٥
٢.٨ جامع السعادات (ج2) ٢٥٤
٢.٩ جامع السعادات (ج2) ٢٧٣
٢.١٠ جامع السعادات (ج2) ٢٩١

٣ جامع السعادات (ج3) ٣١٠
٣.١ جامع السعادات (ج3) ٣١٠
٣.٢ جامع السعادات (ج3) ٣١٥
٣.٣ جامع السعادات (ج3) ٣١٥
٣.٤ جامع السعادات (ج3) ٣٣١
٣.٥ جامع السعادات (ج3) ٣٤٧
٣.٦ جامع السعادات (ج3) ٣٦٣
٣.٧ جامع السعادات (ج3) ٣٨٠
٣.٨ جامع السعادات (ج3) ٣٩٦
٣.٩ جامع السعادات (ج3) ٤١٢
٣.١٠ جامع السعادات (ج3) ٤٢٩
٣.١١ جامع السعادات (ج3) ٤٤٥
٣.١٢ جامع السعادات (ج3) ٤٥٥

# عن الكتاب

الكتاب : جامع السعادات
المؤلف : للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى محمد مهدي النراقي المتوفى ١٢٠٩ ه
دار النشر : مطبعة النعمان
البلد : النجف الأشرف
حققه وعلق عليه : العلامة السيد محمد كلانتر
قدم له : الشيخ محمد رضا المظفر
عدد الأجزاء : ٣
تم استيراده بواسطة مؤسسة بلاغ المبين

# عن المؤلف

# ١ جامع السعادات (ج1)

## ١٠١ جامع السعادات (ج1)

فهرس الكتب
كتاب جامع السعادات ج١
للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى محمد مهدي النراقي
:: العنوان
:: كلمة الدار
:: ترجمةالمؤلف: بقلم الشيخ محمد رضا المظفر
ـ جامع السعادات وعلم الأخلاق
ـ مراجع البحث في الترجمة
ـ جامع الأفكار وناقد الأنظار
:: مقدمة المؤلف
:: الباب الأول في المقدمات
ـ انقسام حقيقة الإنسان وحالاته بالاعتبار
ـ تجردالنفس وبقاؤها
ـ تلذذ النفس وبقاؤها
ـ فضائل الأخلاق ورذائلها
ـ الأخلاق الذميمة تحجب عن المعارف
ـ العمل نفس الجزاء
ـ تأثير المزاج على الأخلاق
ـ تأثير التربية على الأخلاق
ـ شرف علم الأخلاق لشرف موضوعه وغايته
ـ النفس وأسماؤها وقواها الأربع
ـ الأقوال في الخير والسعادة
ـ لا تحصل السعادة إلا بإصلاح جميع الصفات والقوى دائماً
ـ غاية السعادة التشبه بالمبدأ
ـ بإزاء كل واحدة من القوى الأربع لذة وألم
ـ إيقاظ فيه موعظة ونصحية
:: الباب الثاني: في أقسام الأخلاق
ـ أجناس الفضائل الأرب والأقوال في حقيقة العدالة
ـ العدالة انقياد العقل العملي للعقل النظري
ـ العقل النظري هو المدرك للفضائل والرذائل
ـ دفع الاشكال في تقسيم الحكمة
ـ تحقيق الوسط والأطراف
ـ أجناس الرذائل وأنواعها
ـ الفرق بين الفضيلة والرذيلة
ـ العدالة أشرف الفضائل
ـ إيقاظ

ـ دفع اشكال في دخول المتفضل في العدالة وهي المساواة
ـ لا حاجة إلى العدالة مع رابطة المحبة
ـ التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي
:: الباب الثالث: في الأخلاق المحمودة
- الطريق لحفظ اعتدال الفضائل
- قانون العلاج في الطب الروحاني
- فصل طريق معرفة الأمراض النفسانية
- فصل أسباب الأمراض النفسانية
- المعالجات الكلية لمرض النفس
- المعالجات الخاصة لمرض النفس
:: المقام الأول: في معالجة الرذائل المتعلقة بالقوة العاقلة
ـ شرف العلم والحكمة
ـ آداب التعلم والتعليم
ـ العلم الإلهي وعلم الأخلاق وافه أشرف العلوم
ـ أصول العقائد المجمع عليها
ـ أنواع الرذائل المتعلقة بالقوة وهي خمسة أنواع:
١: الجهل المركب
٢: الشك والحيرة
اليقين
علامات صاحب اليقين
مراتب اليقين
٣: الشرك
التوحيد في الفعل
ابتناء التوكل على حصر المؤثر في الله تعالى
مناجات السر لأرباب القلوب
٤: الخواطر النفسانية
أقسام الخواطر ومنها الإلهام
المطاردة بين جندي الملائكة والشيطان في معركة النفس
تسويلات الشيطان ووساوسه
العلائم الفارقة بين الإلهام والوسوسة
علاج الوساوس
ما يتم به علاج الوسواس
ما يتوقف عليه قطع الوسواس
حديث النفس لا مؤاخذة عليه
الخاطر المحمود والتفكر
مجاري التفكر في المخلوقات نصيحة
٥: المكر والحيل
:: المقام الثاني: فيما يتعلق بالقوة الغضبية
ـ التهور: الإفراط في قوة الغضب
ـ الجبن: التفريط في قوة الغضب
ـ الشجاعة: الوسط في قوة الغضب

ـ أنواع الرذائل ولوازمها المتعلقة بالقوة الغضبية وهي ٢١ نوعاً
١: الخوف
الخوف المذموم وأقسامه
الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته
بم يتحقق الخوف
الخوف من الله أفضل الفضائل الخوف
إذا جاوز حده كان مذموماً
طرق تحصيل الخوف الممدوح
خوف سوء الخاتمة وأسبابه
الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله
التلازم بين الخوف والرجاء
مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر
العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف
مداواة الناس بالخوف أو الرجاء على اختلاف أمراضهم
٢: صغر النفس
كبر النفس
الثبات أخص من كبر النفس
٣ـ دناءة الهمة
٤ـ عدم الغيرة والحمية
٥: العجلة
الاناءة والتوقف والسكينة والوقار
٦: سوء الظن بالخالق والمخلوق
ـ حسن الظن
٧: الغضب
الافراط والتفريط والاعتدال في قوة الغضب
الغضب
امكان ازالة الغضب وطرق علاجه
فضيلة الحلم وكظم الغيظ
٨ـ الانتقام
العفو
٩ـ العنف
فضيلة الرفق
المداراة
١٠: سوء الخلق بالمعنى الأخص
طرق اكتساب حسن الخلق
١: الحقد
١٢: العدواة الظاهرة
١٣: الضرب والفحش واللعن والطعن
١٤: العجب
ذم العجب
آفات العجب
علاج العجب إجمالاً وتفصيلاً
انكسار النفس
١٥: الكبر

ذم الكبر
التكبر على الله وعلى الناس
درجات الكبر
علاج الكبر علماً وعملاً
اشكال وحل
العلاج العملي للكبر
التواضع ومدحه
الذلة
١٦: الافتخار
١٧: البغي
١٨: تزكية النفس
١٩: العصبية
٢٠: كتمان الحق
الانصاف والاستقامة على الحق
٢١: القساوة

## ١٠٢ جامع السعادات (ج1)

الصفحة التالية ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ١
جامع السعادات
للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى محمد مهدي النراقي
المتوفى ١٢٠٩ ه
الجزء الأول
حققه وعلق عليه
العلامة السيد محمد كلانتر
عميد جامعة النجف الدينية
قدم له
الشيخ محمد رضا المظفر
عميد كلية الفقه منشورات
ص ٢
مطبعة النعمان
- النجف الأشرف
تلفون ٩٩٧

## ١٠٣ 01

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ٣
كلمة دار النعمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . كانت دار النعمان وما تزال بين آونة وأخرى ، تقدم لقرائها الكرام وللمكتبة الإسلامية : كتبا قيمة ومفيدة ، بأثمان زهيدة ، وهي ترمي من وراء ذلك إلى غرضين مهمين : أحدهما : إخراج تراثنا الإسلامي القديم إخراجا فنيا ، يرتضيه الذوق الحديث ويأنس به ، ليستطيع القراء من الاستفادة منه ويقبلوا على مطالعته . وثانيهما : جعل الكتاب الإسلامي في متناول الجميع ، بحيث يصبح في حوزة أكبر عدد ضخم من القراء الكرام ، ويحصل عليه الغني والفقير على

حد سواء . وإننا لنرجوا في هذه المرة بإخراجنا أجل كتاب من كتب الأخلاق - جامع السعادات - أن نكون قد وفقنا لما نصبوا إليه من نشر الثقافة الدينية الصحيحة ، خدمة للعقيدة ، وطلبا لرضى الخالق ، والله من وراء القصد . حسن محمد إبراهيم الكتبي
ص ٥
بسم الله الرحمن الرحيم
حياة المؤلف ١١٢٨ - ١٢٠٩up
هو الشيخ الجليل المولى محمد مهدي بن أبي ذر النراقي) أحد أعلام المجتهدين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الهجرة ، ومن أصحاب التأليفات القيمة . ويكاد أن يعد في الدرجة الثانية أو الثالثة من مشاهير علماء القرنين . وهو عصامي لا يعرف عن والده أبي ذر) إلا أنه كان موظفا في الدولة الايرانية بوظيفة صغيرة في قرية (نراق) ، ولولا ابنه هذا لذهب ذكره في طيان التأريخ كملا بين البشر من أمثاله ، ولا يعلم ما إذا كان لشيخنا النراقي أخوة ، ولكن له ولد نابه الذكر ، هو المولى أحمد النراقي المتوفى ١٢٤٤ ، صاحب (مستند الشيعة) المشهور في الفقه ، وصاحب التأليفات الثمينة ، أحد أقطاب العلماء في القرن الثالث عشر . وكفاه فخرا أنه أحد أساتذة الشيخ العظيم المولى مرتضى الأنصاري المتوفى ١٢٨١ . ولعل النراقي الصغير هذا هو من أهم أسباب شهرة والده وذيوع صيته ، لما وطئ عقبه وناف عليه بدقة النظر وجودة التأليف . كما حذا حذوة في تأليفاته . فإن الأب المكرم ألف في الفقه (معتمد الشيعة) ، والابن الجليل ألف مستندها . وذلك ألف في الأخلاق (جامع السعادات) - هذا الكتاب الذي نقدمه - وهذا ألف (معراج السعادة) في الفارسية . وذاك ألف (مشكلات العلوم) وهذا ألف (الخزائن) . . . وهكذا نسج على منواله وأحكم النسج .
ج : ١
ص ٦
مولده ووفاته ولد الشيخ المترجم له - رحمه الله تعالى - في (نراق) كعراق (١) ، وهي قرية من قرى كاشان بإيران ، تبعد عنها عشرة فراسخ . وكذا كانت مسقط رأس ولده المتقدم الذكر . ولم يذكر التأريخ سنة ولادته ، وعلى التقريب يمكن استخراجها من بعض المقارنات التأريخية ، فإنه تلمذ - في أول نشأته على ما يظهر - على الشيخ المحقق الحكيم المولى إسماعيل الخاجوئي ثلاثين سنة ، مع العلم أن أستاذه هذا توفي عام ١١٧٣ ، فتكون أول تلمذته عليه عام ١١٤٣ على أقل تقدير ، إذا فرضنا أنه لازمه إلى حين وفاته . ولنفرض على أقرب تقدير أنه قد حضر عليه وهو في سن ١٥ عاما ، وعليه فتكون ولادته عام ١٢٢٨ أو قبل ذلك . أما وفاته فقد كانت عام ١٢٠٩ في النجف الأشرف ، ودفن فيها ، فيكون قد بقي بعد وفاة أستاذه الوحيد البهبهاني سنة واحدة ، ويكون عمره ٨١ عاما على الأقل . وفي (رياض الجنة) المخطوط ، تأليف السيد حسن الزنوزي المعاصر للمترجم له - حسب نقل الأستاذ حسن النراقي - : إن عمره كان ٦٣ سنة ، فتكون ولادته سنة ١١٤٦ هـ. وهذا لا يتفق أبدا مع ما هو معروف في تأريخه : إنه تلمذ على المولى إسماعيل الخاجوئي ثلاثين سنة ، لأنه يكون عمره على حسب هذا التأريخ حين وفاة أستاذه ٢٧ سنة فقط . نشأته العلمية وأساتذته عاش شيخنا كما يعيش عشرات الآلاف من أمثاله من طلاب العلم : خامل الذكر ، فقير الحال ، منزويا في مدرسته ، لا يعرف من حاله إلا أنه طالب مهاجر ، ولا يتصل به إلا أقرانه في دروسه ، الذين لا يهمهم من شأنه إلا أنه طالب كسائر الطلاب ، يتردد في حياة رتيبة بين غرفته ومجالس دروسه ، ثم بعد ذلك لا ينكشف لهم من حاله إلا بزته الرثة التي ألفوا منظرها في آلاف طلاب العلم ، فلا تثير اهتمامهم ولا اهتمام الناس .
(هامش)
(١) وفي أعيان الشيعة - ج ١٠ ص ٢٥٠ - : إنها بفتح النون . (*)
ص ٧
وبطبيعة الحال لا يسجل له التأريخ شيئا في هذه النشأة ، وكذلك كل طالب علم لا يسجل حتى اسمه ما لم يبلغ درجة يرجع إليه الطلاب في تدريس ، أو الناس في تقليد ، أو تكون له مؤلفات تشتهر . ومن هنا تبتدئ معرفة حياة الرجل العالم ، وتظهر آثاره ويلمع اسمه . ومع ذلك ، فإنا نعرف عن شيخنا : إن أسبق أساتذته وأكثرهم حضورا عنده هو المولى إسماعيل الخاجوئي المتقدم الذكر . وهذا الأستاذ كان مقره في أصفهان ، وفيها توفي ودفن ، والظاهر أنه لم ينتقل عنها حتى في الكارثة التأريخية المفجعة التي أصابتها من

الأفغانيين الذين انتهكوها بما لم يحدث التأريخ عن مثلها ، وذلك سنة ١١٣٤ . فتكون نشأة شيخنا المترجم له العلمية في مبدأ تحصيله في أصفهان على هذا الشيخ الجليل . والظاهر أنه عليه قرأ الفلسفة ، لأن هذا الشيخ من أساتذة الفلسفة المعروفين الذين تنتهي تلمذتهم في ذلك العصر إلى المولى صدر الدين الشيرازي صاحب الأسفار . وكفى أن من تلاميذه المولى محراب ، الآلهي المعروف ، الذي طورد لقوله بوحدة الوجود ، ولما جاء إلى إحدى العتبات المقدسة متخفيا . وجد في الحرم شيخا ناسكا يسبح بلعن ملا صدرا وملا محراب ، ولما سأله عن السبب في لعنهما قال : لأنهما يقولان بوحدة واجب الوجود) ، فقال له ساخرا : إنهما حقا يستحقان منك اللعن ! ودرس أيضا شيخنا المترجم له - والظاهر أن ذلك في أصفهان أيضا - على العالمين الكبيرين : الشيخ محمد بن الحكيم العالم الحاج محمد زمان ، والشيخ محمد مهدي الهرندي . وهما من أساتذة الفلسفة على ما يظهر . ولا شك أنه انتقل إلى كربلا والنجف ، فدرس على الأعلام الثلاثة : الوحيد البهبهاني الآتي ذكره - وهو آخر أساتذته وأعظمهم ، وتخريجه كان على يديه - والفقيه العالم صاحب الحدائق الشيخ يوسف البحراني المتوفى ١١٨٦ ، والمحقق الجليل الشيخ مهدي الفتوني المتوفى ١١٨٣ .

بجملة أساتذته سبعة ، سماهم ولده في بعض إجازاته على ما نقل عنه بـ(الكواكب السبعة) . وهم خيرة علماء ذلك العصر ، وعلى رأسهم الآقا الوحيد أستاذ الأساتذة .

ص ٨

ولما فرغ هذا الشيخ من التحصيل في كربلا ، رجع إلى بلاده واستقام في كاشان . وهناك أسس له مركزا علميا تشد إليه الرحال ، بعد أن كانت كاشان مقفرة من العلم والعلماء . واستمرت بعده على ذلك مركزا من مراكز العلم في ايران ، وليس لدينا ما يشير إلى تأريخ انتقاله إلى كاشان . ورجع إلى العراق ، وتوفى في النجف الأشرف ودفن فيها . والظاهر أن مجيئه هذا - وكان معه ولده - بعد أستاذه الوحيد ، جاء لزيارة المشاهد المقدسة فتوفي . أما ولده فقد بقي بعده ليدرس العلم على أعلامه يومئذ ، كبحر العلوم ، وكاشف الغطاء . عصره يمضي القرن الثاني عشر للهجرة على العتبات المقدسة في العراق ، بل على أكثر المدن الشيعية في ايران التي فيها مركز الدراسة الدينية العالية - كأصفهان وشيراز وخراسان - وتطغى فيه ظاهرتان غريبتان على السلوك الديني : الأولى : النزعة الصوفية التي جرت إلى مغالاة فرقة الكشفية . والثانية : النزعة الإخبارية . وهذه الأخيرة خاصة ظهرت في ذلك القرن قوية مسيطرة على التفكير الدراسي ، وتدعو إلى نفسها بصراحة لا هوادة فيها ، حتى أن الطالب الديني في مدينة كربلا خاصة أصبح يجاهر بتطرفه ويغالي ، فلا يحمل مؤلفات العلماء الأصوليين إلا بمنديل ، خشية أن تنجس يده من ملامسة حتى جلدها الجاف . وكربلا يومئذ أكبر مركز علمي للبلاد الشيعية . وفي الحقيقة أن هذا القرن يمر والروح العلمية فاترة إلى حد بعيد ، حتى أنه بعد الشيخ المجلسي صاحب البحار المتوفى في أول هذا القرن عام ١١١٠ .

لم تجد واحدا من الفقهاء الأصوليين من يلمع اسمه ويستحق أن يجعل في الطبقة الأولى ، أو تكون له الرئاسة العامة ، إلا من ظهر في أواخر القرن ، كالشيخ الفتوني الجليل في النجف المتوفى ١١٨٣ ، ثم الشيخ آقا الوحيد البهبهاني في كربلا المتوفى ١٨٠٢ ، الذي تم على يديه تحول العلم إلى ناحية جديدة من التحقيق .

ص ٩

وهذا الفتور العلمي ، وطغيان نزعة التصوف من جهة ، ونزعة الإخبارية من جهة أخرى في هذا القرن بالخصوص ، مما يدعو إلى التفكير والعجب . وليس بأيدينا من المصادر ما يكفي للجزم بأسباب ذلك . وأغلب الظن أن أهم الأسباب التي نستطيع الوثوق بها هو الوضع السياسي والاجتماعي اللذان آلت إليهما البلاد الإسلامية في ذلك القرن ، من نحو التفكك واختلال الأمن في جميع أطراف البلاد ، والحروب الطاحنة بين الأمراء والدول ، لا سيما بين الحكومتين الايرانية والعثمانية وبين الإيرانية والأفغانية ، تلك الحروب التي اصطبغت على الأكثر بصبغة مذهبية . وهذا كله مما يسبب البلبلة في الأفكار والاتجاهات ، وضعف الروح العامة المعنوية . فأوجب ذلك من جهة ضعف ارتباط رجال الدين بالحياة الواقعية والسلطات الزمنية . ويدعو ذلك عادة إلى الزهد المغالي في جميع شؤون الحياة ، واليأس من الإصلاح

فتنشأ هنا نزعة التصوف ، وتتخذ يومئذ صرحا علميا على أنقاض الفلسفة الإشراقية الإسلامية المطاردة المكبوتة ، التي سبق أن دعا لها

أنصار أقوياء ، كالمولى صدر الدين الشيرازي المتوفى عام ١٠٥٠ وأضرابه وأتباعه ، مع المغالاة في أفكارها . وساند طريقة التصوف مبدئيا أن السلطة الزمنية في ايران - وهي (سلطة الصفويين) - قامت على أساس الدعوة إلى التصوف ، وظلت تؤيدها وتمدها سرا . ومن جهة أخرى يحدث رد فعل لهذا الغلو ، فينكر على الناس أن يركنوا إلى العقل وتفكيره ، ويلتجأ إلى تفسير التعبد بما جاء به الشارع المقدس بمعنى الاقتصار على الأخبار الواردة في الكتب الموثوق بها في كل شيء ، والجمود على ظواهرها . ثم يدعو الغلو بهؤلاء إلى ادعاء أن كل تلك الأخبار مقطوعة الصدور على ما فيها من اختلاف . ثم يشتد بهم الغلو ، فيقولون بعدم الأخذ بظواهر القرآن وحده ، من دون الرجوع إلى الأخبار الواردة . ثم ضربوا بعد ذلك علم الأصول عرض الجدار ، بادعاء أن مبانيه كلها عقلية لا تستند إلى الأخبار ، والعقل أبدا لا يجوز الركون إليه في كل شيء ، ثم ينكرون الاجتهاد وجواز التقليد . وهكذا تنشأ فكرة الإخبارية الحديثة إلى أول من دعا إليها أو غالى في الدعوة إليها المولى أمين الدين الاسترابادي المتوفى ١٠٣٣ . ثم يظهر

ص ١٠

آخر شخص لهذه النزعة له مكانته العلمية المحترمة في الفقه هو صاحب الحدائق المتقدم ذكره . وهذا الثاني - وإن كان أكثر اعتدالا من الأول وأضرابه - كاد أن يتم على يديه تحول الاتجاه الفكري بين طلاب العلم في كربلا إلى اعتناق فكرة الإخبارية هذه . وعندما وصلت هذه الفكرة الإخبارية إلى أوجها ، ظهر في كربلاء علم الأعلام الشيخ الوحيد الآقا البهبهاني ، الذي قيل عنه بحق : مجدد المذهب على رأس المائة الثالثة عشرة . فإن هذا العالم الجليل كان لبقا مفوها ومجاهدا خبيرا ، فقد شن على الأخبارية هجوما عنيفا بمؤلفاته ، وبمحاججاته الشفوية الحادة مع علمائها - وقد نقل في بعض فوائده الحائرية ورسائله نماذج منها - وبدروسه القيمة التي كان يلقيها على تلامذته الكثيرين الذين التفوا حوله ، وعلى يديه كان ابتداء تطور علم الأصول الحديث ، وخروجه عن جموده الذي ألفه عدة قرون ، واتجه التفكير العلمي إلى ناحية جديدة غير مألوفة . فانكمشت في عصره النزعة الإخبارية على نفسها ، ولم تستطع أن تثبت أمام قوة حجته . وتخرج على يديه جماعة كبيرة من أعلام الأمة ، كبحر العلوم ، وكاشف الغطاء ، والمحقق القمي ، والشيخ النراقي - المترجم له - وأشباههم . فيبرز شيخنا المترجم له في عنفوان المعركة الإخبارية والأصولية ، وساحتها كربلا ، وفي عنفوان معركة الدعوة إلى التصوف ، وساحتها أصفهان على الأكثر ، فيكون أحد أبطال هاتين المعركتين ، بل أحد القواد الذين رفعوا راية الجهاد بمؤلفاته وتدريسه ، وساعده على ذلك أنه - رحمه الله - كان متفننا في دراسة العلوم ، ولم يقتصر على الفقه والأصول ومقدماتهما ، فقد شارك العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة ، وله مؤلفات فيها سيأتي ذكرها .

كما درس الفلسفة ، ويظهر أثر تضلعه في الفلسفة في كتابه هذا (جامع السعادات) ، لا سيما في الباب الأول ، وفي تقسيمه لأبواب الكتاب وفصوله على أساس علمي متقن برز فيه على كتب الأخلاق السابقة عليه من هذه الناحية . وسيأتي بيان ذلك . كما أن تأليفه لهذا الكتاب يشعرنا بأمرين : (الأول) طغيان التصوف من جهة ، وطغيان التفكك الأخلاقي عند العامة

ص ١١

من جهة أخرى ، وإنهما هما اللذان ألجآه إلى أن يرشد الناس إلى الاعتدال في السلوك الأخلاقي المستقى من منابعه الشرعية ، فإنه في الوقت الذي يبني كتابه على مبادئ الفلسفة الإشراقية ، حارب فيه من طرف خفي نزعة التصوف ، وجعل آراءه ودعوته إلى الأخلاق على أساس الذوق الإسلامي الذي يتمثل في الأحاديث النبوية وما جاء عن آل البيت - عليهم السلام - ، فهو في وقت واحد هادم وبان ، وبهذا يختلف كتابه عن مثل (إحياء العلوم) الذي يعتمد بالدرجة الأولى على الروح الصوفية ، وهي غايته المثلى . و(الثاني) من الأمرين حسن اختيار صاحب الترجمة ، فإنه لم يسبقه أحد من علماء الإمامية - بعد خريت هذه الصناعة ابن مسكويه المتوفى ٤٢١ ، والشيخ المولى محسن الفيض المتوفى ١٠٩١ - إلى تأليف كتاب كامل في الأخلاق مبني على أساس علمي فلسفي موجود بين أيدينا . شخصية المترجم له وأخلاقه إن أعاظم الناس ونوابغهم لا تأتيهم العظمة والنبوغ عفوا ومصادفة ، من دون قوة كامنة في شخصيتهم أو ملكة راسخة في نفوسهم ، ، هي سر عظمتهم وتفوقهم على سائر الناس . وما كلمة الحظ في الباب إلا تعبير مبهم عن تلك القوة التي أودعها الله تعالى في شخص النابغة . وقد تكون تلك القوة مجهولة حتى لشخص صاحبها الذي يتحلى بها ، بل على الأكثر هي كذلك ، فيندفع العبقري إلى تلك القمة التي خلقت له أو خلق لها بدافع تلك القوة الكامنة اندفاعا لا شعوريا ، وإن كانت أعماله الجزئية التي

يقوم بها هي شعورية بمحض اختياره .
وتلاحظ قوة شخصية شيخنا المترجم له في صبره وقوة إرادته وتفانيه في طلب العلم ، ثم عزة نفسه ، وإن كانت هذه ألفاظا عامة قد يعبر بها عن كثير من الناس ، ويصح التعبير بها بلا كذب ولا خداع ، إلا أن الدرجة الخاصة من الصبر والإرادة والحب والعزة ونحوها التي بها يمتاز الشخص النابغ تضيق اللغة عن التعبير عنها بخصوصها إلا بهذه الألفاظ العامة الدارجة وتظهر الدرجة الخاصة التي يختص بها صاحبنا من هذه الأمور في ثلاث حوادث منقولة عنه :
ص ١٢
(
الأولى) - فيما ينقل أنه كان في أيام التحصيل في غاية الفقر والفاقة - والفقر دائما شيعة العلماء ، بل هو من أول شروط النبوغ في العلم ، وهو الذي يصقل النفس فيظهر جوهرها الحقيقي . فكان صاحبنا قد تشتد به الفاقة فيعجز عن تدبير ثمن السراج الذي لا يتجاوز في عصره عن أن يكون من زيت أو شمع ، فيدعوه حرصه على العلم إلى الدخول في بيوت مراحيض المدرسة ، ليطالع على سراجها ، ولكنه تأبى عزته أن يدع غيره يشعر بما هو فيه ، فيوهم الداخلين - بالتنحنح - أنه جالس للحاجة الخاصة . وتتجلى في هذه الحادثة الصغيرة عزة نفسه وقوة إرادته وصبره على طلب العلم بدرجة غير اعتيادية إلا للنوابغ الأفذاذ . (الحادثة الثانية) - إن أحد الكسبة الذي كان حانوته في طريق المدرسة بكاشان التي كان يسكنها هذا الطالب النراقي ، إن هذا الكاسب المؤمن لاحظ على هذا الطالب أنه رث الثياب ، وكان معجبا به ، إذ كان يشتري منه بعض الحاجيات كسائر الطلاب ، فرأى أن يكسيه تقربا إلى الله ، فهيأ له ملبوسا يليق بشأنه ، وقدمه له عندما اجتاز عليه ، فقبله بإلحاح . ولكن هذا الطالب الأبي في اليوم الثاني رجع إلى رفيقه الكاسب وأرجع له هذا الملبوس قائلا : إني لما لبسته لاحظت على نفسي ضعة لا أطيقها ، لا سيما حينما أجتاز عليك ، فلم أجد نفسي تتحمل هذا الشعور المؤلم ، وألقاه عليه ومضى معتزا بكرامته ، (الحادثة الثالثة) - فيما ينقل عنه أيضا - وهي أهم من الأولى والثانية - إنه كان لا يفض الكتب الواردة إليه ، بل يطرحها تحت فراشه مختومة ، لئلا يقرأ فيها ما يشغل باله عن طلب العلم . والصبر على هذا الأمر يتطلب قوة إرادة عظيمة ليست اعتيادية لسائر البشر .
ويتفق أن يقتل والده (أبو ذر) المقيم في نراق وطنه الأصلي ، وهو يومئذ في أصفهان ، يحضر على أستاذه الجليل المولى إسماعيل الخاجوئي ، فكتبوا إليه من هناك بالنبأ ليحضر إلى نراق ، لتصفية التركة وقسمة المواريث وشؤون أخرى ، ولكنه على عادته لم يفض هذا الكتاب ، ولم يعلم بكل ما جرى . ولما طالت المدة على من في نراق ، كتبوا له مرة أخرى ، ولكن لم يجبهم أيضا . ولما أيئسوا منه كتبوا بالواقعة إلى أستاذه المذكور ليخبره بالنبأ ويحمله على المجيئ . والأستاذ في دوره -
ص ١٣
على عادة الناس - خشي أن يفاجئه بالنبأ ، وعندما حضر مجلس درسه أظهر له - تمهيدا لإخباره - الحزن والكآبة ، ثم ذكر له : أن والده مجروح ، ورجح له الذهاب إلى بلاده . ولكن هذا الولد الصلب القوي الشكيمة لم تلن قناته ، ولم يزد أن دعا لوالده بالعافية ، طالبا من أستاذه أن يعفيه من الذهاب . وعندئذ اضطر الأستاذ إلى أن يصرح له بالواقع ، ولكن الولد أيضا لم يعبأ بالأمر ، وأصر على البقاء لتحصيل العلم . لا أن الأستاذ هذه المرة لم يجد بدا من أن يفرض عليه السفر ، فسافر امتثالا لأمره المطاع ، ولم يمكث في نراق أكثر من ثلاثة أيام ، على بعد الشقة وزيادة المشقة ، ثم رجع إلى دار هجرته . وهذه الحادثة لها مغزاها العميق في فهم نفسية هذا العالم الآلهي ، وتدل على استهانته بالمال وجميع شؤون الحياة في سبيل طلب العلم . مؤلفاته لشيخنا المترجم له عدة مؤلفات نافعة ، تدل على قابلية في التأليف وصبر على البحث والتتبع ، وعلى علم غزير . ونحن نعد منها ما وصل بحثنا إليه ، وأكثر اعتمادنا في تعدادها وبعض أوصافها على كتاب (رياض الجنة) المذكور في مصادر هذه الطبعة : (في الفقه) : ١ - (لوامع الأحكام في فقه شريعة الإسلام) : وهو كتاب استدلالي مبسوط ، وقد خرج منه كتاب الطهارة في مجلدين يقرب من (٣٠) ألف بيت . ٢ - (معتمد الشيعة في أحكام الشريعة) : هو أتم استدلالا وأخصر تعبيرا من كتاب اللوامع السالف الذكر ، خرج منه كتاب الطهارة ونبذ من الصلاة والحج والتجارة والقضاء . قال في الروضات عن الكتابين : ينقل عنهما ولده المحقق في المستند والعوائد كثيرا . ٣ - التحفة الرضوية في المسائل الدينية) : في الطهارة والصلاة فارسي ، يقرب من (١٠) آلاف بيت . ٤ - (أنيس التجار) : في المعاملات ، فارسي ، يقرب من (٨)

آلاف بيت . ٥ - (أنيس الحجاج) : في مسائل الحج والزيارات ، فارسي ، يقرب
ص ١٤
من (٤) آلاف بيت . ٦ - (المناسك المكية) : في مسائل الحج أيضا ، يقرب من ألف بيت ٧ - (رسالة صلاة الجمعة) : ذكرها وما قبلها حفيده (الأستاذ حسن النراقي) في رسالته لنا . (في أصول الفقه) : ٨ - (د تجري الأصول) : مشتمل على جميع مسائل الأصول مع اختصاره ، يقرب من (٣) آلاف بيت . قال عنه في الروضات : شرحه ولده في مجلدات غفيرة جمة . ٩ - (أنيس المجتهدين) : توجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة الإمام أمير المؤمنين (ع) العامة بالنجف الأشرف (برقم ٤٠٨ - سجل المخطوطات) ، تقع في ٤١١ صة ، بخط محمد حسين بن علي نقي البزاز ، فرغ منها بتأريخ ٣ صفر من سنة ١١٨١ . وفي تقدير رياض الجنة يقرب من (١٠) آلاف بيت . ١٠ - (جامعة الأصول) : يقرب من (٥) آلاف بيت . ١١ -) رسالة في الإجماع ( : يقرب من ٣) آلاف بيت . (في الحكمة والكلام) : ١٢ - (جامع الأفكار) : في الإلهيات ، يقرب من (٣٠) ألف بيت ، قد فرغ من تأليفه سنة ١١٩٣ ، وعليه فليس هو من أوائل مؤلفاته ، كما قال عنه صاحب (رياض الجنة) ، وستجد راموزا للصتين الأولى والأخيرة منه بخط المؤلف ، منقولتين عن النسخة التي هي بحوزة أحد أحفاده (الأستاذ حسن النراقي) . والذي يجلب الانتباه في الصة الأخيرة ما ذكره من الحوادث المروعة في الوباء وغيره التي وقعت في تلك الفترة . ١٣ - (قرة العيون) : في أحكام الوجود والماهية ، يقرب من (٥) آلاف بيت . ١٤ - (اللمعات العرشية) : في حكمة الاشراق ، يقرب من (٢٥) ألف بيت . ١٥ - (اللمعة) : وهو مختصر اللمعات ، تقرب من ألفي بيت . ١٦ - (الكلمات الوجيزة) : وهو مختصر اللمعة ، يقرب من ثمانمائة بيت .
ص ١٥
١٧ - (أنيس الحكماء) : في المعقول ، وهو من أواخر تأليفاته ، لم يتم . إحتوى على نبذ من الأمور العامة والطبيعيات ، يقرب من (٤) آلاف بيت . ١٨ - (أنيس الموحدين) : في أصول الدين ، فارسي ، يقرب من (٤) آلاف بيت . ١٩ - (شرح الشفا) : في الإلهيات ، النسخة الأصلية بخط المؤلف موجودة عند أحد أحفاده (الأستاذ حسن النراقي) . ٢٠ - (الشهاب الثاقب) : في الإمامة ، في رد رسالة الفاضل البخاري ، يقرب من (٥) آلاف بيت . (في الرياضيات) : ٢١ - (المستقصى) : في علوم الهيئة ، خرج منه مجلدان إلى مبحث أسناد الحركات ، يقرب من (٤٠) ألف بيت ، قال عنه في رياض الجنة : لم يعمل أبسط وأدق منه في علم الهيئة ، ولقد طبق فيه أكثر البراهين الهندسية بالدلائل العقلية ، لم يتم . ٢٢ - (المحصل) : كتاب مختصر في علم الهيئة ، يقرب من (٥) آلاف بيت . ٢٣ - (توضيح الأشكال) : في شرح تحرير إقليدس الصوري في الهندسة ، وقد شرحه إلى المقالة السابعة ، فارسي ، يقرب من (١٦) ألف بيت . ٢٤ - (شرح تحرير أكرثا ذو سنيوس) يقرب من (٣) آلاف بيت . ٢٥ - (رسالة في علم عقود الأنامل) : فارسية ، تقرب من ألف بيت . ٢٦ - (رسالة في الحساب) : ذكرها في روضات الجنات . (في الأخلاق والمواعظ) : ٢٧ - (جامع السعادات) : هذا المطبوع بثلاثة أجزاء - حسب تقسيمنا له - قال عنه في رياض الجنة : يقرب من (٢٥) ألف بيت . وقد طبع في ايران على الحجر سنة ١٣١٢ بجزءين ، وسيأتي وصفه ، وقد تقدم شيء من وصفه . وهذه الطبعة الثالثة له على الحروف بالنجف الأشرف . ٢٨ - (جامع المواعظ) : في الوعظ ، يقرب من (٤٠) ألف بيت ، لم يتم
ص ١٦
في المتفرقات : ٢٩ - (محرق القلوب) : في مصائب آل البيت ، فارسي ، يقرب من (١٨) ألف بيت ، قال عنه في روضات الجنات : طريف الأسلوب . ٣٠ - (مشكلات العلوم) : في المسائل المشكلة من علوم شتى ، مطبوع على الحجر بإيران ، يشبه بعض الشيء كشكول البهائي . وقد نسج على منواله ولده المحقق في كتابه (الخزائن) المطبوع على الحجر بإيران . ٣١ - (رسالة نخبة البيان) : ذكرها حفيده الأستاذ حسن النراقي . ٣٢ - (معراج السماء) : ذكره أيضا حفيده المذكور .
جامع السعادات وعلم الأخلاق up
لا شك أن القدرة على التأليف موهبة من الله تعالى فوق موهبة العلم والفهم ، وليس كل من كان عالما استطاع التأليف . والتأليف في حد ذاته من أبرز الخدمات التي يؤديها العالم للناس في حياته ، ومن أعظم الحظوظ للانسانية ، وبسببه استطاعت أن تتقدم على

مرور الأجيال . ومع ذلك ليس كل تأليف يعد خدمة للناس وحظا للانسانية . وإذا أردنا أن نضع المؤلفات في رفوف حسب قيمتها ، فإنما في فترات متقطعة تظهر مؤلفات من النوابغ يصح أن نضعها في الرف الأعلى ، ويصدق عليها بحق أنها مما ينفع الناس ، فتمكث في الأرض ، وتفرض نفسها للخلود والبقاء إذا سلمت من عوادي الدهر الغاشمة . ومن سوء الحظ أن الفراغ لا يزال كثيرا في هذا الرف الأعلى . ومن بين الفترات لا بد أن تبرز في كل علم من المؤلفات هي من حقها أن توضع في الرف الثاني أو ما دونه . وحظها أن تنسج على منوال غيرها لتحييها وتهيي انتهاء الفترة لظهور الأثر الخالد مما يوضع في الرف الأعلى . وهذه غير الغثاء الذي يذهب جفاء ، ومن حقه أن يلقى في سلة المهملات . وما أكثر هذا النوع الرخيص ، لا سيما في عصرنا الحاضر الذي سهلت له الطباعة الإسفاف . ويجب ألا نغالي في مؤلفات شيخنا النراقي فنضعها في الرف الأعلى ، ولكن (جامع السعادات) الذي نقدمه ، هو بالخصوص من الآثار الخالدة ، وإن لم يكن موضعه هذا الرف الأعلى كسائر الكتب الأخلاقية في الدورة الإسلامية .

ص ١٧

ولا ندري السر في ذلك ، ألأن الفترة بعد لم تنته لعلم الأخلاق بخصوصه كيما يظهر الأثر الخالد المنتظر الذي سيكون في الرف الأعلى ، أم لأن هذا العلم ليس له تلك الفترات ، بل كله في فترة مستديمة ليأس العلماء الأخلاقيين من التأثير على الناس بمجرد التأليف ؟ ! وهذا الثاني هو الأقرب إلى الواقع . والحق مع الأخلاقيين في يأسهم ، فإن الأخلاق لا تكتسب بالتعلم وقراءة الكتب ، وإنما هي صفات وملكات لا تحصل للانسان إلا بالتمرينات القاسية والتربية الطويلة ، لا سيما في أيام الطفولة وفي السن المبكرة قبل أن يفرض في الإنسان أن يكون أهلا للقراءة ، ولو كانت قراءة الكتب وحدها كافية لخلق الفضيلة في النفس أو تنميتها لكانت كتب الأخلاق من أثمن ما خلق الله ، ولأغنى البشرية كتاب واحد يفي بذكر الأخلاق الفاضلة ، بل لاكتفينا بالقرآن الكريم وحده ، أو بنهج البلاغة بعده الذي تريد خطبه ومواعظه أن تصهر الناس في بوتقتها الملتهبة لتخرجهم أبريزا صافيا كصاحبها ، ولكن البشرية الظالمة لنفسها بدل أن تنصهر بهذا اللهب تخبو جذوتها وتزيد جمودا على مساوئها . وليس هذا الرأي عن الكتب الأخلاقية فيه شيء من المغالاة على ما أعتقد ، إلا إني مع ذلك لا أظلم بعض زمرة صالحة من أهل الفتوة وأرباب القلوب الحية ، إذ نجدهم يتأثرون بالكلمة الأخلاقية الموجهة إليهم ممن يعول على قوله ، ويتتبعون بإخلاص مجهودات المؤلفين في الأخلاق ، ليترسموا خطاهم فيهذبوا أنفسهم . ومن هنا نجد السبيل إلى إنصاف الأخلاقيين وإعطاء مؤلفاتهم حقها من التقدير ، لنعتقد أنهم لم يعملوا عملا باطلا لا نفع فيه ، بل الحق أن له قيمته العظيمة ، وكفى أن يتأثر بدعوتهم بعض فتيان كرام بررة . وهذا التأثر على قلته له قيمة معنوية لا توازن بشيء في الدنيا ، بل سير الحياة وتقدمها يتوقف مبدئيا على هذا التأثر ، وإن كان محدودا .

وما التقدم الاجتماعي الذي يحصل في أمة في بعض الفترات من الزمن إلا نتيجة من نتائج هذا التأثر المحدود . ومع ذلك ، فإن تأثير الدعوة الأخلاقية هذا التأثير المحدود لا يأتي من مجرد شحن الكتاب النظريات الأخلاقية المجردة . بل لروحية المؤلف أعظم الأثر في اجتذاب قلوب الفتيان الكرام إلى الخير . ومن هنا اشترطوا في الواعظ .

ص ١٨

أن يكون متعظا . وعلى هذا الأساس ينبغي أن توضع كتب الأخلاق في رفوفها ، فليس للنظريات الفلسفية ورصانة التأليف وتركيزه على المبادئ العلمية - في نظر أرباب القلوب - تلك الأهمية الأخلاقية التي تعلق عليها ، ولا تقاس بالأثر الأخلاقي الذي يحصل من روحية المؤلف ومقدار تأثره هو بأقواله ، وما كانت شهرة (مجموعة ورام) ، وما كانت أهميتها إلا لأنها ناشئة من قلب صادق ، ذلك قلب الأمير الزاهد الآلهي (الشيخ ورام ابن أبي فراس المالكي الأشتري) ، وليس فيها صفة علمية أو فنية تقضي بهذا الاهتمام . ومن العجيب أن قلب الرجل الأخلاقي يبرز ظاهرا على قلمه في مؤلفاته ، فتلمسه في ثنايا كلماته . وبالعكس ذلك الذي لا قلب له ، فإنك لا تقرأ منه إلا كلاما جافا لا روح فيه ، مهما بلغت قيمته في حساب النظريات الفلسفية . وفي نظري أن قيمة (جامع السعادات) في الروح المؤمنة التي تقرأها في ثناياه أكثر بكثير من قيمته العلمية . وإني لأتحدى قارئ هذا الكتاب إذا كان مستعدا للخير أن يخرج منه غير متأثر بدعوته ، وهذا هو السر في أقبال الناس عليه وفي شهرته ، على أنه لا يزيد من ناحية علمية على بعض الكتب المتداولة التي لا نجد فيها هذا الذوق والروحانية . والكتاب نفسه يكشف لنا عن نفسية المؤلف ، وما كان عليه من خلق عال وإيمان صادق .

وإني لأؤمن إيمانا لا يقبل الشك : أن انتشار هذا الكتاب بين الناس في هذا العصر سيكون له أثره المحسوس في توجيه أمتنا نحو الخير ، بعد أن نفدت طبعته الأولى وعزت نسخته ، ولا سيما أن خطباء المنابر - فيما أعتقد - ستكون لهم الحصة الوافرة في التأثر به ونقل تأثرهم إلى سواد الأمة الذين هم المعول عليهم في نهضتنا الأخلاقية المقبلة .

وهذا ما دفعني - والله هو الشاهد علي - إلى السهر على تصحيح الكتاب وتدقيقه ، ليخرج بهذه الحلة ، وإن كانت ظروفي الخاصة كادت أن تحول دون التفرغ له ، لولا أني توكلت على الله تعالى ووطنت على تجاهلها وإهمال كثير مما يجب العناية به ، والحمد لله على توفيقه .

ص ١٩

النواحي الفنية في الكتاب من أهم ما يؤاخذ به كتابنا هذا ، اعتماده على المراسيل في الأحاديث ، وتسجيل كل ما يرى أمامه من المنقولات : غثها وسمينها ، من دون إشارة إلى التمييز ولا إلى المصادر ، حتى نقل كثيرا عن إحياء العلوم ، وتعمد النقل عن مثل جامع الأخبار ومصباح الشريعة ، اللذين يشهد أسلوبهما على وضع أكثر ما فيهما . وقد وجدنا صعوبة كبيرة في العثور على جملة من مصادر هذه المنقولات لتصحيحها . وقد يستغرق البحث للعثور على مصدر خبر واحد أياما كما قد يذهب البحث سدى . وما كان يهمنا من الرجوع إلى المصادر إلا تصحيح المنقولات لا إثبات مصادرها ، فلذلك لا نشير في الحاشية إلى المصدر إلا إذا وجدنا اختلافا في نصه في النسخ ، فنقول : صححناه على كذا مصدر . وبهذه المناسبة لا بد من الاعتراف بالجميل ، فتذكر الأستاذ الفاضل السيد عبد الرزاق المقرم بالشكر لما أعاننا عليه من الفحص عن بعض الروايات . والذي يهون الخطب في هذه المؤاخذة - على أن لها قيمتها الفنية - أنها لا تختص بهذا الكتاب وحده من بين كتب الأخلاق الإسلامية ، بل هذا ديدنها ، وكأن هو أصحابها من الاستشهاد بالمنقولات نفس أداء الفكرة ، فإذا كانت بحسب نظرهم صحيحة مقبولة في نفسها فلا يجب عندهم أن يكون الحديث الذي يتضمنها صحيحا مقبولا في عرف أهل الحديث ، فإذا قال المحدث : قال النبي والإمام كذا ، يعني بذلك أن هذا القول ثابت بالنقل الصحيح الموثوق به ، وإلا فيقول روى عنه كذا أو ما يشبه ذلك ، أما الأخلاقي فلا يعني بذلك القول إلا أنه مروي عنه بأي طريق كان .

ولعل لهذا التسامح عذرا مقبولا في مذهبهم على ما قدمنا ، لو لم تكن فيه إساءة إلى أمانة النقل في أهم تراث إسلامي ديني ، في حين كان الممكن تحاشيها بقليل من التحقيق والبحث ، على أن في الثابت الصحيح عن آل البيت - عليهم السلام - ما فيه الكفاية للإلمام بنواحي الأخلاق المطلوبة ، وما في (الكافي) كاف وحده في هذا الباب . وكنا نتمنى - أثناء التصحيح - على صاحب كتابنا هذا ألا يتبع هذه العادة عند الأخلاقيين ، فيزيد على فائدته الأخلاقية فائدة أخرى في تحقيق الأحاديث الصحيحة .

ص ٢٠

أما أسلوب الكتاب الأدبي ، فهو يمثل إلى حد ما عصره الذي ضعفت فيه اللغة إلى حد كبير ، بالرغم على أن الفلاسفة الإشراقيين اشتهروا في تلك العصور بحسن البيان وقوة الأسلوب ، لا سيما في العصر السابق على عصر المؤلف ، كالسيد الداماد العظيم المتوفى ١٠٤١ ، وتلميذه النابغة الجليل المولى صدرا المتقدم ذكره ، حتى كان يسمى الأول : أمير البيان ، ولعل الثاني أحق بهذا اللقب . غير أن صاحبنا لا يحسب في عداد الفلاسفة وإن ارتشف من منهلهم . على أنه كان يقتبس كثيرا نص عبارات غيره استراحة إليها . وهذه سنة مستساغة عند المؤلفين الأخلاقيين ، وكأن كتبهم يجدونها مشاعة بين الجميع ، أو لأن همهم أداء الفكرة كما كان عذرهم في مراسيل الأحاديث . وبهذه المناسبة نقول : إنا وجدنا أثناء تصحيح الكتاب كثيرا من الألفاظ والعبارات مما لم نجد له مسوغا من اللغة العربية ، ككلمة (القادسة) و(الهلاكة) . ، ففضلنا أن نبقيها على ما وجدناها ، حرصا على أمانة النقل وأهملنا التنبيه عليها ، ومثل كلمة (سيما) فضلنا أن نصححها ونضع كلمة (لا) بين قوسين إشارة إلى زيادتها منا . وإذا كانت أمانة النقل هي العذر لنا في ذلك ، فهي التي تقضي علينا أن نصرح أن عناوين الكتاب على الأكثر هي من وضعنا لا من وضع المؤلف . وأما أسلوبه العلمي ، فقد بناه مؤلفه من أوله إلى آخره على نظرية الوسط والأطراف في الأخلاق ، تلك النظرية الموروثة من الفلسفة اليونانية . وقد بحث عنها المؤلف في (الجزء الأول ص ٥٩) . وليس من حقنا أن نناقشها ، ولا يمتاز بها هذا الكتاب وحده ، فإن شأنه في الاعتماد على هذه النظرية الأساسية شأن سائر كتب الأخلاق الإسلامية العلمية .

ولكن الذي امتاز به كتابنا - بعد أن بحث مؤلفه بحثنا فلسفيا متوسطا عن النفس وقواها ، والخير والسعادة ، والفضائل والرذائل ، في البابين الأول والثاني ، كما صنع أسلافه - أن جعل أساس تقسيمه للكتاب على القوى الثلاث : العاقلة والشهوية والغضبية ، معللا

ذلك بأن جميع الفضائل والرذائل لا تخرج عن التعلق بالقوى الثلاث (١ / ٦٦) . وذكر لكل قوة ما يتعلق بها من أجناس الفضائل والرذائل منفردة ومنضمة إلى الأخرى ، ثم ذكر
ص ٢١
أنواعها ، واستقصى ذكر الأنواع ، مطبقا على كل نوع نظرية الوسط والأطراف ، فجاء في استقصائه وإلحاقه كل فصيلة ورذيلة بالقوة التي تتعلق بها ، بما لم يجئ به غيره ولم يسبقه إليه أحد فيما نعلم ، وهو نفسه ادعى ذلك فقال : إن إحصاء الفضائل والرذائل وضبطهما ، وإدخال البعض في البعض ، والإشارة إلى القوة الموجبة لها على ما فصلناه ، مما لم يتعرض له علماء الأخلاق (١ / ٧١) . وهذه أهم ناحية فنية في الكتاب ، وفتح جديد في تحقيق منشأ حدوث خلق الفضيلة والرذيلة ، لو اتفق لغيره أن يترسم خطاه ، ويتم ما فتحه من هذا الباب من التحقيق ، لتقدم على يديه علم الأخلاق تقدما كبيرا . وعلى أساس تحقيقه هذا أسقط فضيلة العدالة من حسابه ، فلم يجعلها جنسا مقابلا لأجناس الفضائل الثلاث الأخرى ، وهي الحكمة والعفة والشجاعة ، باعتبار أن العدالة جامعة لجميع الكمالات بأسرها ، لا إنها في مقابلها ، وقد فصل هذا الرأي في الباب الثاني ، ولا أظن أحدا يقره عليه ، ولا يثبت أمام النقد . ولكن هذه المقدمة تضيق عن مثل هذه الأبحاث الدقيقة ، كما تضيق عن مقارنة هذا التأليف بالمؤلفات الأخلاقية الأخرى . وقصدنا أن هذا التقسيم من المؤلف . وإرجاع الفضائل والرذائل إلى أسبابها ، وجعل مواضيع الأبحاث هي تلك القوى ، وإحصاء أنواع الأخلاق بنوعيها ولوازمها ، كل ذلك مستجد ، وهي طريقة علمية امتاز بها الكتاب . تصحيح الكتاب ومراجعه وعدت الأخ الفاضل الألمعي السيد محمد كلانتر ، ناشر الكتاب وملتزمه تصحيحا وتعليقا - جزاه الله خير ما يجزي العاملين - : على الاشتراك معه وأعانته على تدقيق وتحقيق هذا السفر الجليل وتصحيحه أيضا عند الطبع ، إذا توفق لتهيئة ما يلزم لطبعه ، وذلك قبل سنتين .
وشاء التوفيق أن يحقق هذه الأمنية ، فلم أجد للتخلي عن الوفاء بالوعد سبيلا مهما كلفني الأمر ، ويعجبني من هذا الرجل صبره وجلده على المشاق في سبيل نشره ، باعتباره أحد الكتب التي يجب إحياؤها في هذا العصر . وهذا منه أحد شواهدي على تأثر الفتيان الكرام الأبرار بهذا السفر الأخلاقي . وقد شاهدت ج : ١
ص ٢٢
صبره لأول مرة في ايران في صيف العام الماضي ، لما اشترك هو والعلامة الأخ بالروح الشيخ محمد شيخ الشريعة ، في قسم من الكتاب على النسخة المخطوطة الآتي ذكرها في المراجع رقم ٢ إلى حد ص ١٧٦ من الجزء الأول من هذا المطبوع ، فأودعا في التعليقة آراءهما القيمة في تحقيقه وتصحيحه . ولئن عدنا في التصحيح من أوله لما استقبلت المطبعة النسخة للطبع ، فإنا اعتمدنا كثيرا على تلك التحقيقات القيمة الماضية . ولا ننسى أن نذكر أن النسخة المطبوعة في ايران على الحجر ، فيها من التحريف والتصحيف ما يذهب بالاطمئنان إليها ، ويشوه المقصود والمعنى . ومن الغريب أن نجد التحريف حتى في الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة . أما تذكير المؤنث وتأنيث المذكر ، وتشويه الإملاء والتبويب ، فهذه أمور حدث عنها ولا حرج . ويكفي أن تقارن صة واحدة منها بمطبوعنا ، لتعرف أي مجهود بذل للتصحيح والإخراج ، وتجد العناية على كل سطر منه ، بل كل كلمة . ومن سوء الحظ ، أن النسخة المخطوطة المرجع رقم (٢) لم تكن أكثر حظا في الصحة من أختها المطبوعة . وهذا ما دعانا إلى أن نرجع إلى كتب أخرى تمت بالموضوع بصلة لتحقيق الكتاب ، كالكتب الأخلاقية وكتب الحديث وأكثر ما كان يعنينا تصحيح الأحاديث الشريفة بالرجوع إلى مصادرها الذي جشمنا بحثا مضنيا كان يستغرق أكثر أوقاتنا ، وقد تذكر أحيانا في التعليقة المصدر المرجوع إليه ، وعلى الأكثر لا نذكر المرجع إلا عندما يكون مخالفا لنسخ الكتاب . ويحسن الآن أن نذكر أهم المراجع التي اعتمدنا عليها لتصحيح الكتاب ، وهي : ١ - النسخة من الكتاب - المشار إليها آنفا - المطبوعة على الحجر بإيران سنة ١٣١٢ . ٢ - النسخة المخطوطة منه التي تفضل بها شيخنا الحجة الشيخ محمد محسن الشهير (آغا بزرگ) مؤلف الذريعة ، وقد نسخت سنة ١٢٠٨ . ونعبر عنها في التعليقة بـ(نسختنا الخطية) . ٣ - النسخة المخطوطة منه في مكتبة سپه سالار بطهران .
ولا يحضرنا الآن تأريخ نسخها ورقمها في المكتبة . وقد قوبلت النسخة إلى حد صة
ص ٢٣
١٧٦ من الجزء الأول . ٤ - النسخة المطبوعة ، التي يملكها الخطيب السيد جواد شبر ، وفيها بعض التقييدات والتصحيحات . ٥

- إحياء العلوم - للشيخ أبي حامد الغزالي . ٦ - إحياء الأحياء - المجلد الرابع المطبوع في ايران على الحجر سنة ١٣٢٦ ، للشيخ المولى محسن الفيض الكاشاني . ٧ - نسخة أصول الكافي - المخطوطة سنة ١١٠٣ ، في مكتبة منتدى النشر برقم (٤٤٦) ، وهي نسخة ظاهر عليها التصحيح ودقة المقابلة على نسخ صحيحة . ٨ - نسخة أصول الكافي - المخطوطة التي تحت تصرفنا . ٩ - فروع الكافي - المطبوع بالحجر سنة ١٣١٥ ، وهو من المطبوعات الحجرية الصحيحة . ١٠ - الوسائل - المطبوعة سنة ١٣٢٣ ، المعروفة بطبعة عين الدولة . ١١ - البحار - المجلد ١٥ بجميع أجزائه الأربعة ، المطبوع على الحجر . ١٢ - كنز العمال - المطبوع بحيدر آباد دكن سنة ١٣١٢ . ١٣ - مستدرك الوسائل - للشيخ المحدث النوري ، المطبوع على الحجر سنة ١٣١٩ . ١٤ - الوافي - للشيخ المولى محسن الفيض ، المطبوع على الحجر سنة ١٣٢٥ ، وهو من المطبوعات الحجرية الصحيحة . ١٥ - سفينة البحار - المطبوع على الحجر بالنجف الأشرف سنة ١٣٥٢ ، للمحدث الثقة الجليل الشيخ عباس القمي . ١٦ - جامع الأخبار - المطبوع بالهند على الحجر . ١٧ - مصباح الشريعة - المطبوع بالهند على الحجر . وهذه غير المراجع التي رجعنا إليها نادرا : كمجموعة الشيخ ورام ، والحقائق للفيض ، ومجمع البحرين للشيخ فخر الدين الطريحي ، ونهاية ابن

ص ٢٤

الأثير . . . ونحوها كثير لا فائدة في إحصائه . وهذه المراجع هي التي روجعت لتصحيح أجزاء الكتاب ، والله تعالى هو الموفق للصواب . ويجب ألا ننسى في الختام شكر حسن الشيخ إبراهيم الكتبي على جهوده التي بذلها في تصحيح الكتاب عند الطبع ، والاشتراك في مقابلة النسخة الأصلية وتدقيقها ، جزاه الله خير ما يجزي العاملين . النجف الأشرف ٢٠ رجب ١٣٦٨ همحمد رضا المظفر

مراجع البحث في الترجمةup

١ - (روضات الجنات) : للسيد محمد باقر الخوانساري ، المطبوع بإيران على الحجر سنة ١٣١٦ . ٢ - (الروضة البهية) : للسيد محمد شفيع الحسيني ، المطبوع بإيران على الحجر . ٣ - (أعيان الشيعة) : للسيد محسن الأمين - الطبعة الأولى - في ترجمة الشيخين : أحمد النراقي وإسماعيل الخاجوئي . ٤ - (مستدرك الوسائل) : - الجزء الثالث - للمحدث ميرزا حسين النوري . ٥ - (الذريعة) : - للشيخ محمد محسن الشهير بآغا بزرگ الطهراني . ٦ - (الإسناد المصفى) : له أيضا ، المطبوع بالنجف الأشرف سنة ١٣٥٦ . ٧ - (رياض الجنة) : المخطوط ، للسيد حسن الزنوزي المعاصر للمؤلف ، ومن تلامذة الوحيد البهبهاني ، نسخة منه محفوظة بخزانة الحاج حسين آغا ملك العامة بطهران تحت رقم (٤٣٨٠) . وقد اعتمدنا عليها في تجديد النظر في الترجمة سنة ١٣٨٣ ، على ما نقله لنا عنها مكاتبة أحد أحفاد المترجم له (الأستاذ حسن النراقي) . وأكثر ما اعتمدنا على هذا المصدر في تعداد مؤلفات المترجم له . ٨ - (قصص العلماء) : للميرزا محمد بن سليمان التنكابني ، المطبوع على الحجر بطهران .

ص ٢٥

ملاحظة : في سفرتي الأخيرة إلى ايران في العام الماضي - لأمور تخص : (جامعة النجف الدينية) - التقيت مع الأخ الأستاذ (حسن النراقي) - دام فضله - من أحفاد المؤلف - قدس سره - ، جرى الحديث فيه حول شيخنا المؤلف وعظمته . فأراني الأخ النراقي نموذجا من خطوط المؤلف الراقية ، فجذبني حسن الخط وروعته ، ولا سيما تلكم الصات من كتاب : (جامع الأفكار وناقد الأنظار) ففكرت في طبع نموذج الصة الأولى والأخيرة من الكتاب المذكور ، تثبيتا لعظمة ناحية أخرى من نواحي حياة المؤلف المليئة بجلائل الفنون الروائع . وقد أبدى الأستاذ النراقي موافقته على ذلك في إطار من التبجيل الصادق والأدب الجميل . . . مما يخص نفسيته الواسعة . فشكرا له وتقديرا . السيد محمد كلانتر

ص ٢٦

نموذج الصفحة الأولى من كتاب (جامع الأفكار وناقد الأنظار) بخط المؤلف

ص ٢٧

جامع الأفكار وناقد الأنظارup

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي دل على ذاته بذاته وتجلى لخلقه ببدايع مصنوعاته ، أظهر من عجائب قدرته ما حير ثواقب العقول والأفهام ، وابرز من غرائب عظمته ما بهر نوافذ المدارك والأوهام ، خرق علمه باطن غيب السترات ، وأحاط بغموض عقائد السريرات ، والصلاة

على مهابط المعارف والأسرار ووسائط الفيوضات والأنوار ، من الأنبياء المكرمين الأخيار وخلفائهم الراشدين الأطهار . وبعد فيقول أضعف المحتاجين : مهدي بن أبي ذر النراقي - نور الله قلبه بنور اليقين وجعله من الصادقين المقربين - : هذا يا أخواني ما أردتم من أصول المعارف الحقيقية وجوامع العقائد اليقينية : من العلم بالله وصفات كماله ومعرفة أسمائه ونعوت جلاله ، وما يتلوهما من المباحث الآلهية العالية والمطالب الحقة المتعالية ، مما يرتقى به إلى منازل الأخيار ويعرج به إلى عوالم العقول والأنوار ، ويتوجه به إلى شطر كعبة الملكوت ويسلك به إلى صقع عالم الجبروت . وقد بعث الله السفراء لأجله ، وانعقد إجماع الأمة على وجوب أخذه فيلزم على الكل حمله ولا يسع لأحد جهله ، وأسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه ويحرسه عن غير أهله ، ولاشتماله على جمع الأفكار الإلهية ونقدها ، سيما ما تعلق بالشرح الجديد للتجريد من الحواشي ، وسميته بـ(جامع الأفكار وناقد الأنظار) ، ورتبته على مقدمات ومقالات : المقدمة الأولى - في إبطال ترجح المساوي والمرجوح وترجيحهما . بيان الأول : إن معنى المساوات كون شيئين في مرتبة واحدة بالنظر إلى ثالث ، ومعنى المرجوحية كون الشيئين أحدهما أبعد من الآخر ، والراجحية كونه أقرب منه ، فلو ترجح المساوي أو المرجوح لزم التناقض .

ص ٢٨

وبعد ما ثبت أن الواجب - سبحانه - صرف الوجود ومحض الموجود وليس فيه نقص ولا ممازجة ، وإنه ليس جسما وجسمانيا ، ثبت معه نفي التحيز والجهة والحلول والاتحاد والألم واللذة المزاجية عنه سبحانه ، وبذلك تم مباحث الصفات السلبية ، وهو آخر ما أردنا إيراده في هذا الكتاب . والحمد لله على تأييده على الإتمام ، والصلاة على سيد الأنام وعلى عترته أمناء الإسلام . ووقع إتمامه في أول يوم من شهر ربيع الأول من سنة ١١٩٣ - ثلاث وتسعين ومائة بعد الألف من الهجرة المباركة النبوية - وقد كان ذلك عند تراكم الهموم والأحزان وتفاقم الغموم والأشجان ، وفرط الملال وضيق البال ، من هجوم المصائب والمحن وتواتر النوائب والفتن ، من ابتلائنا أولا في بلدة كاشان - حماها الله عن طوارق الحدثان - بالزلازل الهائلة المفزعة والرجفات المزعزعة المزعجة ، وانهدام جميع الأبنية والمساكن وجل البيوت والمواطن ، وهلاك كثير من الأصدقاء والأحباب وذهاب غير واحد من الأحبة والأصحاب ، ثم ابتلائنا بالأمراض الشديدة الغريبة والأسقام الوبائية العجيبة ، بعد ارتحالنا لعدم السكنى وغيره من اختلال الأمور إلى بعض القرى ، واحتراق فؤادي بذهاب بعض أولادي الذي تقر به عيني في ظلمات الأحزان والهموم ويسكن الله قلبي عند اضطرابه من هجوم الأشجان والغموم ، ثم وقوعنا في الداهية العظمى والفتنة الكبرى : أعني موت السلطان ووقوع الاضطراب والوحشة بين أهل ايران . فأحمد الله على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء ، ونسأله أن يكون ذلك آخر الرزايا والمصائب وخاتمة البلايا والنوائب ، وأن يصلح جميع أمور المسلمين بمحمد وآله سادات الخلق أجمعين .

ص ٢٩

نموذج الصة الأخيرة من كتاب (جامع الأفكار وناقد الأنظار) بخط المؤلف

ص ٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلفup

الحمد الله الذي خلق الإنسان ، وجعله أفضل أنواع الأكوان ، وصيره نسخة لما أوجده من عوالم الإمكان ، أظهر فيه عجائب قدرته القاهرة . وابرز فيه غرائب عظمته الباهرة ، ربط به الناسوت باللاهوت ، وأودع فيه حقائق الملك والملكوت ، خمر طينته من الظلمات والنور ، وركب فيه دواعي الخير والشرور ، عجنه من المواد المتخالفة ، وجمع فيه القوى والأوصاف المتناقضة ، ثم ندبه إلى تهذيبها بالتقويم والتعديل ، وحثه على تحسينها بعد ما سهل له السبيل ، والصلاة على نبينا الذي أوتي جوامع الحكم ، وبعث لتتميم محاسن الأخلاق والشيم ، وعلى آله مصابيح الظلم ، ومفاتيح أبواب السعادة والكرم صلى الله عليه وعليهم وسلم . أما بعد فيقول طالب السعادة الحقيقية (مهدي بن أبي ذر النراقي) بصره الله نفسه ، وجعل يومه خيرا من أمسه : إنه لا ريب في أن الغاية من وضع النواميس والأديان ، وبعثة المصطفين من عظماء الإنسان ، هو سوق الناس من مراتع البهائم والشياطين ، وإيصالهم إلى روضات العليين ،

وردعهم عن مشاركة أسراء ذل الناسوت ، ومصاحبة قرناء جب الطاغوت إلى مجاورة سكان صقع الملكوت ، ومرافقة قطان قدس الجبروت ، ولا يتيسر ذلك إلا بالتخلي عن ذمائم الأخلاق ورذائلها ، والتحلي بشرائف الصفات وفضائلها . فيجب على كل عاقل أن يأخذ أهبته ، ويبذل همته في تطهير قلبه عن أوساخ الطبيعة وأرجاسها ، وتغسيل نفسه عن أقذار الجسمية وأنجاسها قبل أن يتيه في بيداء الشقاق ، ويهوي في مهاوي الضلالة والهلاكة ، ويصرف جده ويجتهد جهده في استخلاص نفسه عن لصوص القوى الأمارة ما دام الاختيار بيده ، إذ لا تنفعه الندامة والحسرة في غده . ثم لا ريب في أن التزكية موقوفة على معرفة مهلكات الصفات ومنجياتها ، والعلم بأسبابها ومعالجاتها ، وهذا هو الحكمة الحقة التي مدح الله أهلها ،

ص ٣١

ولم يرخص لأحد جهلها ، وهي الموجبة للحياة الحقيقية ، والسعادة السرمدية ، والتارك لها على شفا جرف الهلكات ، وربما أحرقته نيران الشهوات . وقد كان السلف من الحكماء يبالغون في نشرها وتدوينها ، وجمعها وتبيينها ، على ما أدت إليه قوة أنظارهم ، وأدركوه بقرائحهم وأفكارهم ، ولما جاءت الشريعة النبوية على صادعها ألف صلاة وتحية حثت على تحسين الأخلاق وتهذيبها ، وبينت دقائقها وتفصيلها بحيث اضمحل في جنبها ما قرره أساطين الحكمة والعرفان ، وغيرهم من أهل الملل والأديان ، إلا أنه لما كان ما ورد منها منتشرا في موارد مختلفة ، ومتفرقا في مواضع متعددة ، تعسر أن يحيط به فلا بد من ضبطه في موضع واحد ليسهل تناوله للكل ، فجمعت في هذا الكتاب خلاصة ما ورد من الشريعة الحقة ، مع زبدة ما أورده أهل العرفان والحكمة على نهج تقربه أعين الطالبين ، وتسر به أفئدة الراغبين . ونذكر أولا بعض المقدمات النافعة في المطلوب ، ثم نشير إلى أقسام الأخلاق ، ومبادئها من القوى ونضبطها بأجناسها وأنواعها ونتائجها وثمراتها ، ثم إلى المعالجة الكلية لذمائم الأخلاق والجزئية لكل خلق مذموم : مما له اسم مشهور ، وما ينشأ عنه من الأفعال المذمومة ، وفي تلوه نذكر ضده المحمود ، وما يدل على فضله عقلا ونقلا ، لأن العلم بفضيلة كل خلق والمداومة على آثاره أقوى علاج لإزالة ضده ، ولا نتابع القوم من تقديم الرذائل بأسرها على الفضائل ، بل نذكر أولا ما يتعلق بالقوة العقلية من الفضائل والرذائل على النحو المذكور ، ما يتعلق بالغضبية ، ثم ما يتعلق بالشهوية ، ثم ما يتعلق باثنتين منها أو ثلاث ، لأن ذلك أدخل في ضبط الأخلاق ، ومعرفة أضدادها ، والعلم بمبادئها وأجناسها ، وهو من أهم الأمور لطالبي هذا الفن . وما تعرضت لتدبير المنزل وسياسة المدن ، لأن غرضنا في هذا الكتاب إنما هو مجرد إصلاح النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وسميته بجامع السعادات ورتبته على ثلاثة أبواب .

ص ٣٢

الباب الأول في المقدمات up

إنقسام حقيقة الإنسان وحالاته بالاعتبار - تجرد النفس وبقاؤها - التذاذ النفس وتألمها - فضائل الأخلاق ورذائلها - الأخلاق الذميمة تحجب عن المعارف - حصول الملكات بتضاعف الأعمال - العمل نفس الجزاء - القول بتجسد الأعمال والملكات - المضادة بين الدنيا والآخرة - للجبلة والمزاج دخل في جودة الملكات ورداءتها - حقيقة الخلق وماهية الملائكة - الأقوال في تبدل الأخلاق والملكات - شرف علم الأخلاق - تعريف النفس وأساميها باختلاف الاعتبارات - في الإشارة إلى اعتبار مدافعة القوى الأربع - إنقهار النفس بتسخير القوة العالية - إختلاف الصفات يوجب اختلاف النفوس - إئتلاف حقيقة الإنسان من الجهات المتقابلة - حقيقة الخير والسعادة - والجمع بين الأقوال المختلفة فيها - شرائط حصول السعادة - غاية ما يمكن الوصول إليه من السعادة - تقسيم اللذات والآلام - اللذة في الحقيقة هي العقلية دون الحسية - إيقاظ فيه موعظة ونصيحة - التنبيه على أن الفائت لا يتدارك .

فصل: انقسام حقيقة الإنسان وحالاته بالاعتبارup

إعلم أن الإنسان منقسم إلى سر وعلن وروح وبدن ولكل منهما منافيات وملائمات ، وآلام ولذات ، ومهلكات ومنجيات . ومنافيات البدن وآلامه هي الأمراض الجسمانية وملائماته هي الصحة واللذات الجسمانية . والمتكفل لبيان تفاصيل هذه الأمراض ومعالجاتها هو علم الطب . ومنافيات الروح وآلامه هي رذائل الأخلاق التي تهلكه وتشقيه ، وصحته رجوعه إلى فضائلها التي تسعده وتنجيه وتوصله إلى مجاورة أهل الله ومقربيه . والمتكفل لبيان هذه الرذائل ومعالجاتها هو (علم الأخلاق) . ثم إن البدن مادي فان ، والروح مجرد

باق ، فإن اتصف بشرائف الصنات كان في البهجة والسعادة أبدا ، وإن اتصف برذائلها كان في العذاب والشقاوة مخلدا ، ولا بد لنا من الإشارة إلى تجرده وبقائه بعد خراب البدن ترغيبا للطالبين على السعي في تزكيته وحفظه عن الشقاوة الأبدية .
ص ٣٣
فصل: في تجرد النفس وبقائها up
لا ريب في تجرد النفس وبقائها بعد مفارقتها عن البدن . أما الأول (والمراد به عدم كونها جسما وجسمانية) فيدل عليه وجوه : (منها) إن كل جسم لا يقبل صورا وأشكالا كثيرة لزوال كل صورة أو شكل فيه بطريان مثله ، والنفس تقبل الصور المتعددة المختلفة من المحسوسات والمعقولات من دون أن نزول الأولى بورود الأخرى ، بل كلما قبلت صورة إزدادت قوتها على قبول الأخرى ، ولذلك تزيد القوة على إدراك الأشياء بالرياضيات الفكرية وكثرة النظر ، فثبت عدم كونها جسما . و(منها) إن حصول الأبعاد الثلاثة للجسم لا يتصور إلا بأن يصير طويلا عريضا عميقا وحصول الألوان والطعوم والروائح له لا يتصور إلا بأن يصير ذا لون وطعم ورائحة وهي تحصل للنفس وقوتها الوهمية بالإدراك من غير أن تصير كذلك ، وأيضا حصول بعضها للجسم يمنع من حصول مقابله له ، ولا يمنع ذلك في النفس بل تقبلها كلها في آن واحد على السواء . و(منها) أن النفس تلتذ بما لا يلائم الجسم من الأمور الإلهية والمعارف الحقيقية ، ولا تميل إلى اللذات الجسمية والخيالية والوهمية ، بل تحن أبدا إلى الابتهاجات العقلية الصرفة التي ليس في الجسم وقواه فيها نصيب ، وهذا أوضح دليل على أنها غيرهما ، إذ لا ريب في أن ما يحصل لبعض النفوس الصافية عن شوائب الطبيعة من البهجة والسرور بإدراك العلوم الحقة الكلية والذوات المجردة النورية القدسية ، وبالمناجاة والعبادات والمواظبة على الأذكار في الخلوات مع صفاء النيات لا مدخلية للجسم فيها وقواه الخيالية والوهمية وغيرهما ، إذ النفس قد تغفل في تلك الحالة عنها بالكلية ، وربما استغرقت بحيث لا تشعر بالبدن ولا تدري أن لها بدنا فكأنها منخلعة عنه ، فهذا يدل على أنها من عالم آخر غير عالم الجسم وقواه ، إذ التذاذهما منحصر بالملائمات الجزئية التي تدركها الحواس الظاهرة والباطنة .
و(منها) أن النفس تدرك الصور الكلية المجردة فتكون محلا لها ، ولا ريب في أن المادي يكون محلا للمجرد إذ كل مادي ذو وضع قابل
ص ٣٤
للانقسام ، وكون المحل ذا وضع قابل للانقسام يستلزم أن يكون حاله أيضا كذلك كما ثبت في محله ، والمجرد لا يمكن كذلك وإلا خرج عن حقيقته ، فالنفس لا تكون مادية وإذا لم تكن مادية كانت مجردة لعدم الواسطة . و(منها) أن القوى الجسمية الباطنية لا تكتسب العلوم إلا من طريق الحواس الظاهرة إذ ما لم يدرك الشيء بها لم تتمكن الحواس الباطنة أن تدركه وهذا وجداني وضروري . والنفس قد تدرك ما لا طريق الشيء من الحواس إلى إدراكه كالأمور المجردة والمعاني البسيطة الكلية ، وأسباب الاتفاقات والاختلافات التي بين المحسوسات ، والضرورة العقلية قاضية بأنه لا مدخلية لشيء من الحواس في إدراك شيء من ذلك . وأيضا تحكم بأنه لا واسطة بين النقيضين ، وهذا الحكم غير مأخوذ من مبادئ حسية إذ لو كان مأخوذا منها لم يكن قياسا أوليا ، فمثله مأخوذ من المبادئ الشريفة العالية التي تبنى عليها القياسات الصحيحة . وأيضا هي حاكمة على الحس في صدقه وكذبه وقد تخطئه في أفعاله وترد عليه أحكامه كتخطئته للبصر فيما يراه أصغر ما هو عليه في الواقع أو بالعكس ، وفيما يراه مستديرا وهو مربع ، أو مكسورا وهو صحيح ، أو معوجا وهو مستقيم ، أو منكوسا وهو منتصب ، أو مختلفا في وضعه الواقعي ، وفي رؤيته للأشياء المتحركة على الاستدارة كالحلقة والطوق ، وكتخطئته للسمع فيما يدركه في المواضع الصقيلة المستديرة عند الصدى ، وللذوق في إدراكه الحلو مرا ومثله ، كذا الحال في الشم واللمس ، ولا ريب في أن تخطئة النفس الحواس في هذه الإدراكات وحكمها بما هو المطابق للواقع إنما يكون مسبوقا بالعلم الذي لا يكون مأخوذا من الحس ، لأن الحاكم على الشيء أعلى رتبة منه فلا يكون علمه الذي هو مناط مأخوذا عنه .
ومما يؤكد ذلك أنها عالمة بذاتها وبكونها مدركة لمعقولاتها . ومعلوم إن هذا العلم مأخوذ من جوهرها دون مبادي ، أخر . و(منها) إنا نشاهد أن البدن وقواه يضعفان في أفعالهما وآثارهما ، والنفس تقوى في إدراكاتها وصفاتها ، كما في سن الكهولة ، أو يكونان قويين في الأفعال مع كونها ضعيفة فيها كما في سن الشباب ، فلو كانت جسما أو
ص ٣٥

جسمانية لكانت تابعة لهما في الضعف والقوة . (فإن قلت) الإدراك وسائر الصفات الكمالية للنفس يضعف أو يختل بضعف البدن أو اختلاله كما نشاهد في المشايخ والمرضى وتجردها ينافي ذلك . (قلنا) الضعف أو الاختلال إنما يحدث في الإدراك والأفعال المتعلقة بالقوى الجسمية ، وأما ما يحصل للنفس بجوهرها أو بواسطة القوى الجسمية بعد صيرورته ملكة لها يحصل فيه اختلال وضعف ، يصير ظهوره أشد وتأثيره أقوى . وأما الثاني أعني بقاءها بعد المفارقة عن البدن فالدليل عليه بعد ثبوت تجردها أن المجرد لا يتطرق إليه الفساد لأنه حقيقة والحقيقة لا تبيد كما صرح به المعلم الأول وغيره ، ووجهه ظاهر .

فصل: بيان تلذذ النفس وتألمها up

إذا عرفت تجرد النفس وبقاءها أبدا ، فاعلم أنها إما ملتذة متنعمة دائما أو معذبة متألمة كذلك . والتذاذها يتوقف على كمالها الذي يخصها ، ولما كانت لها قوتان النظرية والعملية ، فكمال القوة النظرية الإحاطة بحقائق الموجودات بمراتبها والاطلاع على الجزئيات غير المتناهية بإدراك كلياتها . والترقي منه إلى معرفة المطلوب الحقيقي وغاية الكل حتى يصل إلى مقام التوحيد ويتخلص عن وساوس الشيطان ويطمئن قلبه بنور العرفان . وهذا الكمال هو الحكمة النظرية . وكما القوة العملية التخلي عن الصفات الردية والتحلي بالأخلاق المرضية ثم الترقي منه إلى تطهير السر وتخليته عما سوى الله سبحانه . وهذا هو الحكمة العملية التي يشتمل هذا الكتاب على بيانها . وكمال القوة النظرية بمنزلة الصورة وكمال القوة العملية بمنزلة المادة ، فلا يتم أحدهما بدون الآخر ، ومن حصل له الكمالان صار بانفراده عالما صغيرا مشابها للعالم الكبير ، وهو الإنسان التام الكامل الذي تلألأ قلبه بأنوار الشهود وبه تتم دائرة الوجود .

ص ٣٦

فصل: في فضائل الأخلاق ورذائلها up

فضائل الأخلاق من المنجيات الموصلة إلى السعادة الأبدية ، ورذائلها من المهلكات الموجبة للشقاوة السرمدية ، فالتخلي عن الثانية والتحلي بالأولى من أهم الواجبات والوصول إلى الحياة الحقيقية بدونهما من المحالات . فيجب على كل عاقل أن يجتهد في اكتساب فضائل الأخلاق التي هي الأوساط (١) المثبتة من صاحب الشريعة والاجتناب عن رذائلها التي هي الأطراف ، ولو قصر أدركته الهلاكة الأبدية ، إذ كما أن الجنين لو خرج عن طاعة ملك الأرحام المتوسط في الخلق لم يخرج إلى الدنيا سويا سميعا بصيرا ناطقا ، كذلك من خرج عن طاعة نبي الأحكام المتوسط في الخلق لم يخرج إلى عالم الآخرة كذلك . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا (٢) . ثم ما لم تحصل التخلية لم تحصل التحلية ولم تستعد النفس للفيوضات القدسية ، كما أن المرآة ما لم تذهب الكدورات عنها لم تستعد لارتسام الصور فيها ، والبدن ما لم تزل عنه العلة لم تتصور له إفاضة الصحة ، والثوب ما لم ينق عن الأوساخ لم يقبل لونا من الألوان ، فالمواظبة على الطاعات الظاهرة لا تنفع ما لم تتطهر النفس من الصفات المذمومة كالكبر والحسد والرياء ، وطلب الرياسة والعلى وإرادة السوء للاقران والشركاء وطلب الشهرة في البلاد وفي العباد ، وأي فائدة في تزيين الظواهر مع إهمال البواطن . ومثل من يواظب على الطاعات الظاهرة ويترك تفقد قلبه كبئر الحش (٣) ظاهرها جص وباطنها نتن ، وكقبور الموتى ظاهرها مزينة وباطنها

(هامش)

(١) إشارة إلى أن الفضيلة وسط بين رذيلتين وقد دعى الشارع إلى تحصيل الوسط بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : خير الأمور أواسطها) وسيأتي شرح المعنى من الوسط والطرفين . (٢) الإسراء الآية ٧٢ . (٣) الحش بالفتح أو الضم ثم التشديد والفتح أكثر من الضم : المخرج وموضع الحاجة وأصله من الحش بمعنى البستان ، لأنهم كانوا يتغوطون في

ص ٣٧

جيفة ، أو كبيت مظلم وضع السراج على ظاهره فاستنار ظاهره وباطنه مظلم ، أو كرجل زرع زرعا فنبت ونبت معه حشيش يفسده فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه عن أصله فأخذ يجز رأسه ويقطعه فلا يزال يقوى أصله وينبت فإن الأخلاق المذمومة في القلب هي مغارس المعاصي فمن لم يطهر قلبه منها لم تتم له الطاعات الظاهرة ، أو كمريض به جرب وقد أمر بالطلاء ليزيل ما على ظهره ويشرب الدواء ليقلع مادته من باطنه فقنع بالطلاء وترك الدواء متناولا ما يزيد في المادة فلا يزال يطلي الظاهر والجرب يتفجر من المادة التي في الباطن . ثم إذا تخلت عن مساوئ الأخلاق وتحلت بمعاليها على الترتيب العملي استعدت لقبول الفيض من رب الأرباب ،

ولم يبق لشدة القرب بينهما حجاب ، فترتسم فيها صور الموجودات على ما هي عليها ، على سبيل الكلمة ، أي بحدودها ولوازمها الذاتية لامتناع إحاطتها بالجزئيات من حيث الجزئية ، لعدم تناهيها ، وإن علمت في ضمن الكليات لعدم خروجها عنها ، وحينئذ يصير (٤) موجودا تاما أبدى الوجود سرمدي البقاء ، فائزا بالرتبة العليا ، والسعادة القصوى ، قابلا للخلافة الإلهية ، والرئاسة المعنوية فيصل إلى اللذات الحقيقية ، والابتهاجات العقلية التي ما رأتها عيون الأعيان ، ولم تتصورها عوالي الأذهان .

فصل الأخلاق الذميمة تحجب عن المعارف up

الأخلاق المذمومة هي الحجب المانعة عن المعارف الإلهية ، والنفحات القدسية إذ هي بمنزلة الغطاء للنفوس فما لم يرتفع عنها لم تتضح لها جلية الحال اتضاحا ، كيف والقلوب كالأواني فإذا كانت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء ، فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها معرفة الله وحبه وأنسه ، وإلى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : لولا أن الشياطين يحرمون

(هامش)

البساتين ، فلما اتخذوا الكنف أطلقوا عليها الاسم مجازا ، فالمراد هنا من بئر لحش ا خزانة الكنيف . (٤) تذكير الضمير باعتبار إرادة الإنسان لأنه صاحب النفس بل هو هي . ج :

ص ٣٨

إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض فبقدر ما تتطهر القلوب عن هذه الخبائث تتحاذى شطر الحق الأول (٥) وتلألأ فيها حقائقه كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وآله : إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها ، فإن التعرض لها إنما هو بتطهير القوب عن الكدورات الحاصلة عن الأخلاق الردية (٦) فكل إقبال على طاعة وإعراض عن سيئة يوجب جلاء ونورا للقلب يستعد به لإفاضة علم يقيني ، ولذا قال سبحانه : والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا . (٧) . وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم فالقلب إذا صفى عن الكدورات الطبيعية بالكلية يظهر له من المزايا الإلهية والإفاضات الرحمانية ما لا يمكن لأعاظم العلماء كما قال سيد الرسل : إن لي مع الله حالات لا يحتملها ملك مقرب ولا نبي مرسل . وكل سالك إلى الله إنما يعرف من الألطاف الإلهية والنفحات الغيبية ما ظهر له على قدر استعداده ، وأما ما فوقه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به إيمانا بالغيب كما إنا نؤمن بالنبوة وخواصها ونصدق بوجودها ولا نعرف حقيقتهما كما لا يعرف الجنين حال الطفل والطفل حال المميز والمسير من العوام حال العلماء والعلماء حال الأنبياء والأولياء . فالرحمة الإلهية بحكم العناية الأزلية مبذولة على الكل غير مضنون بها على أحد ، لكن حصولها موقوف على تصقيل مرآة القلب وتصفيتها عن الخبائث الطبيعية ، ومع تراكم صدأها الحاصل منها لا يمكن أن يتجلى فيها شيء من الحقائق ، فلا تحجب الأنوار العلمية والأسرار الربوبية عن قلب من القلوب لبخل من جهة المنعم تعالى شأنه عن ذلك ، بل الاحتجاب إنما هو من جهة القلب لكدورته وخبثه واشتغاله بما يضاد ذلك .

ثم ما يظهر للقلب من العلوم لطهارته وصفاء جوهره هو العلم الحقيقي

(هامش)

(٥) المراد من الحق الأول عون الله تبارك وتعالى فكما أن الحق صفة له كذلك الأول فهو صفة بعد صفة . (٦) المراد من النفحات هي الإفاضات المعنوية لا التمسك كما وردت بالمعنى الثاني في بعض الأخبار . (٧) العنكبوت الآية : ٦٩ .

ص ٣٩

النوراني الذي لا يقبل الشك وله غاية الظهور والانجلاء لاستفادته من الأنوار الإلهية والإلهامات الحقة الربانية ، وهو المراد بقوله (ع) : إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء وإليه أشار مولانا أمير المؤمنين (ع) بقوله : أن من أحب عباد الله إليه عبدا أعانه الله على نفسه فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف فزهر مصباح الهدى في قلبه (إلى أن قال) : قد خلع سرابيل الشهوات ، وتخلى من الهموم إلا هما واحدا انفرد به ، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى ، وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى ، قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره ، وقطع غماره (٨) ، واستمسك من العرى بأوثقها ومن الجبال بأمتنها فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس وفي كلام آخر له (ع) قد أحيي قلبه وأمات نفسه ، حتى دق جليله (٩) ولطف غليظه ، وبرق له لامع كثير البرق ، فأبان له الطريق وسلك به السبيل ، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة ، وثبت رجلاه لطمأنينة بدنه في قرار الأمن

والراحة بما استعمل قلبه وأرضى به .
وقال (ع) في وصف الراسخين من العلماء : هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى وبالجملة ما لم يحصل للقلب التزكية لم يحصل له هذا القسم من المعرفة إذ العلم الحقيقي عبادة القلب وقربة السر ، وكما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الظاهر إلا بعد تطهيره من النجاسة الظاهرة فكذلك لا تصح عبادة الباطن إلا بعد تطهيره من النجاسة الباطنية التي هي رذائل الأخلاق وخبائث الصفات ، كيف وفيضان أنوار العلوم على القلوب إنما هو بواسطة الملائكة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب فإذا كان بيت القلب مشحونا بالصفات الخبيثة التي هي كلاب نابحة لم تدخل فيه الملائكة القادسة والحكم بثبوت النجاسة الظاهرة للمشترك ، مع كونه مغسول الثوب نظيف البدن ، إنما هو لسراية نجاسته الباطنية فقوله صلى الله
(هامش)
(٨) غمرة الشيء شدته ومزدحمة جمعه غمرات وغمار وغمر ومنه غمرات الموت أي مكارهه وشدائده . (٩) الجليل : الكبير في الحجم . (*)
ص ٤٠
عليه وآله وسلم بني الدين على النظافة يتناول زوال النجاستين . وما ورد من أن الطهور نصف الإيمان المراد به طهارة الباطن عن خبائث الأخلاق ، وكان النصف الآخر تحليته بشرائف الصفات وعمارته بوظائف الطاعات . وبما ذكر ظهر أن العلم الذي يحصل من طريق المجادلات الكلامية والاستدلالات الفكرية ، من دون تصقيل لجوهر النفس ، لا يخلو عن الكدرة والظلمة ، ولا يستحق اسم اليقين الحقيقي الذي يحصل للنفوس الصافية ، فما يظنه كثير من أهل التعلق بقاذورات الدنيا أنهم على حقيقة اليقين في معرفة الله سبحانه خلاف الواقع ، لأن اليقين الحقيقي يلزمه روح (١٠) ونور وبهجة وسرور ، وعدم الالتفات إلى ما سوى الله ، والاستغراق في أبحر عظمة الله ، وليس شيء من ذلك حاصلا لهم ، فما ظنوه يقينا إما تصديق مشوب بالشبهة ، أو اعتقاد جازم لم تحصل له نورانية وجلاء وظهور وضياء ، لكدرة قلوبهم الحاصلة من خبائث الصفات . والسر في ذلك أن منشأ العلم ومناطه هو التجرد كما بين في مقامه ، فكلما تزداد النفس تجردا إيمانا ويقينا ، ولا ريب في أنه ما لم ترتفع عنها أستار السيئات وحجب الخطيئات لم يحصل لها التجرد الذي هو مناط حقيقة اليقين فلا بد من المجاهدة العظيمة في التزكية والتحلية حتى تنفتح أبواب الهداية وتنضح سبل المعرفة كما قال سبحانه : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (١١) .
فصل إن العمل نفس الجزاءup
كل نفس في يده الخلقة خالية عن الملكات بأسرها ، وإنما تتحقق كل ملكة بتكرر الأفاعيل والآثار الخاصة به (١٢) بيان ذلك أن كل قول أو فعل ما دام وجوده في الأكوان الحسية لاحظ له من الثبات لأن الدنيا دار
(هامش)
(١٠) هذه الكلمة غير موجودة في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى . (١١) العنكبوت الآية : ٦٩ . (١٢) هكذا وجدت في النسخة المطبوعة ونسختنا الخطية والأصح بها وإن كانت الكلمة غير موجودة في نسخة خطية أخرى .
الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

١٠٤ 02

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب
ص ٤١
التجدد والزوال ، ولكنه يحصل منه أثر في النفس ، فإذا تكرر استحكم الأثر فصار ملكة راسخة مثاله الحرارة التي تحدث في الفحم فإنها ضعيفة أولا وإذا اشتدت تجمرت ثم استضاءت ، ثم صارت صورة نارية محرقة لما قارنها مضيئة لما قابلها ، وكذلك الأحوال النفسانية إذا تضاعفت قوتها صارت ملكات راسخة وصورا باطنة تكون مبادئ للآثار المختصة بها ، فالنفوس الإنسانية في أوائل الفطرة

كصحائف خالية من النقوش والصور تقبل كل خلق بسهولة ، وإذا استحكمت فيها الأخلاق تعسر قبولها لأضدادها ، ولذلك سهل تعليم الأطفال وتأديبهم وتنقيش نفسهم بكل صورة وصفة ويتعسر أو يتعذر تعليم الرجال البالغين وردهم عن الصفات الحاصلة لهم لاستحكامها ورسوخها . ثم لا خلاف في أن هذه الملكات وأفعالها اللازمة لها إن كانت فاضلة كانت موجبة للالتذاذ والبهجة ومرافقة الملائكة والأخيار ، وإن كانت ردية كانت مقتضية للألم والعذاب ومصاحبة الشياطين والأشرار ، وإنما الخلاف في كيفية إيجابها للثواب أو العذاب ، فمن قال إن الجزاء مغاير للعمل قال إن كل ملكة وفعل يصير منشأ لترتب ثواب أو عقاب مغاير له بفعل الله سبحانه على التفصيل الوارد في الشريعة .

ومن قال إن العمل نفس الجزاء قال إن الهيئات النفسانية اشتدت وصارت ملكة تصير متمثلة ومتصورة في عالم الباطن والملكوت بصورة يناسبها إذ كل شيء يظهر في كل عالم بصورة خاصة ، فإن العلم في عالم اليقظة أمر عرضي يدرك بالعقل أو الوهم وفي عالم النور يظهر بصورة اللبن ، فالظاهر في العالمين شيء واحد وهو العلم لكنه تجلى في كل عالم بصورة ، والسرور يظهر في عالم النوم بصورة البكاء ، ومنه يظهر أنه قد يسرك في عالم ما يسوءك في عالم آخر ، فاللذات الجسمانية التي تسرك في هذا العالم تظهر في دار الجزاء بصورة تسوءك وتؤذيك ، وتركها وتحمل مشاق العبادات والطاعات والصبر على المصائب والبليات يسرك في عالم الآخرة مع كونها مؤذية في هذا العالم . ثم القائل بهذا المذهب قد يطلق على هذه الصورة اسم الملك إن كانت

ص ٤٢

من فضائل الأخلاق أو فواضل الأعمال واسم الشيطان إن كانت من أضدادها وقد يطلق على الأولى اسم الغلمان والحور وأمثالهما ، وعلى الثانية اسم الحيات والعقارب وأشباههما ، ولا فرق بين الاطلاقين في المعنى ، وإنما الاختلاف في الاسم . وهذا المذهب يرجع إلى القول بتجسد الأعمال بصورة مأنوسة مفرحة أو صورة موحشة معذبة ، وقد ورد بذلك أخبار كثيرة : منها : ما روى أصحابنا عن قيس بن عاصم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : يا قيس إن مع العز ذلا ومع الحياة موتا ومع الدنيا آخرة ، وإن لكل شيء رقيبا وعلى كل شيء حسيبا ، وإن لكل أجل كتابا ، وإنه لا بد لك من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت ، فإن كان كريما أكرمك ، وإن كان لئيما ألأمك ، ثم لا يحشر إلا معك ولا تحشر إلا معه ولا تسأل إلا عنه ، فلا تجعله إلا صالحا : فإنه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلا منه وهو فعلك . ومنها : ما استفاض من قولهم عليهم السلام إن من فعل كذا خلق الله تعالى ملكا يستغفر له إلى يوم القيامة . ومنها : ما ورد إن الجنة قيعان وغراسها سبحان الله : ومنها ما روي إن الكافر خلق من ذنب المؤمن ومنها : قولهم المرء مرهون بعمله . ومنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم : الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجري في بطنه نار جهنم ويدل عليه قوله سبحانه : (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) (١٣) . وربما كان بقوله تعالى : (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) (١٤) وقوله تعالى : (إنما تجزون ما كنتم تعملون) (١٥) . إشارة إليه حيث قال عز وجل (ما كنتم) ولم يقل بما كنتم . وقال : فيثاغورس الحكيم ستعارض لك في أفعالك وأقوالك

(هامش)

(١٣) التوبة الآية : ٤٩ . (١٤) يس الآية : ٥٤ . (١٥) الطور الآية : ١٦ . (*)

ص ٤٣

وأفكارك (١٦) وسيظهر لك من كل حركة فكرية أو قولية أو عملية صورة روحانية ، فإن كانت الحركة غضبية أو شهوية صارت مادة لشيطان يؤذيك في حياتك ويحجبك عن ملاقاة النور بعد وفاتك ، وإن كانت الحركة عقلية صارت ملكا تلتذ بمنادمته في دنياك وتهتدي به في أخراك إلى جوار الله وكرامته انتهى . وهذه الكلمات صريحة في أن مواد الإشخاص الأخروية هي التصورات الباطنية والنيات القلبية والملكات النفسية المتصورة بصور روحانية وجودها وجود إدراكي ، والانسان إذا انقطع تعلقه عن هذه الدار وحان وقت مسافرته إلى دار القرار وخلص عن شواغل الدنيا الدنية وكشف عن بصره غشاوة الطبيعة ، فوقع بصره على وجه ذاته والتفت إلى صة باطنه وصحيفة نفسه ولوح قلبه وهو المراد بقوله سبحانه : (وإذا الصحف نشرت) (١٧) وقوله تعالى : (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) (١٨) . صار إدراكه فعلا وعلمه عينا وسره عيانا ، فيشاهد ثمرات أفكاره وأعماله ، ويرى نتائج أنظاره وأفعاله ويطلع على جزاء حسناته وسيئاته ، ويحضر عنده جميع حركاته وسكناته . ويدرك حقيقة قوله سبحانه : وكل إنسان ألزمناه طائره في

عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) (١٩) . فمن كان في غفلة عن أحوال نفسه ومضيعا لساعات يومه وأمسه يقول : (ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا) (٢٠) (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) (٢١) . وقد أيد هذا المذهب أعني صيرورة الملكات صورا روحانية باقية أبد الدهر موجبة للجبهة والالتذاذ والتوحش والتألم ، بأنه لو لم تكن تلك الملكات
(هامش)
)
١٦) هكذا وجدنا العبارة في النسخة الخطية والمطبوعة ولا يخفى ما فيها من الإجمال . (١٧) التكوير الآية ١٠ . (١٨) في الآية ٢٢ . (١٩) الإسراء الآية ١٣ - ١٤ . (٢٠) الكهف الآية ٤٩ . (٢١) آل عمران الآية ٣٠ .
ص ٤٤
والنيات باقية أبدا لم يكون للخلود في الجنة أو النار وجه صحيح ، إذ لو كان المقتضي للثواب أو العذاب نفس العمل والقول ، وهما زائلان لزم بقاء المسبب مع زوال السبب وهو باطل ، وكيف يجوز للحكيم أن يعذب عباده أبد الدهر لأجل المعصية في زمان قصير ، فإذا منشأ الخلود هو الثبات في النيات والرسوخ في الملكات ، ومع ذلك فمن يعمل مثقال ذرة من الخير أو الشر يرى أثره في صحيفة نفسه أو في صحيفة أعلى وأرفع من ذاته أبدا كما قال سبحانه : (في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة) (٢٢) . والسر فيه أن الأمر الذي يبقى مع النفس إلى حين مفارقتها من الدنيا ولم يرتفع عنها في دار التكليف يبقى معها أبدا ولا يرتفع عنها أصلا لعدم تجدد ما يوجب إزالته بعد مفارقته عن عالم التكليف . ثم الظاهر أن هذا المذهب - عند من قال به من أهل الشرائع - بيان لكيفية الثواب والعقاب الروحانيين مع إذعانه بالجنة والنار الجسمانيين إذ لو كان مراده قصر اللذة والثواب والألم والعقاب والجنات والقصور والغلمان والحور والنار والجحيم والزقوم والضريع وساير ما ورد في الشريعة القادسة من أمور القيامة على ما ذكر فهو مخالف لضرورة الدين .
)
تنبيه) الدنيا والآخرة متضادتان ، وكل ما يقرب العبد إلى إحداهما يبعد عن الأخرى وبالعكس ، كما دلت عليه البراهين الحكمية والشواهد الذوقية والأدلة السمعية ، فكل ملكة أو حركة أو قول أو فعل يقرب العبد إلى دار الطبيعة والغرور يبعده عن عالم البهجة والسرور ، وبالعكس ، فأسوأ الناس حالا من لم يعرف حقيقة الدنيا والآخرة وتضادهما ولم يخف سوء العاقبة وأفنى عمره في طلب الدنيا وإصلاح أمر المعاش وقصر سعيه على جر المنفعة لبدنه من نيل شهوة أو بلوغ لذة أو اكتساب ترفع ، ورئاسة أو جمع المال من غير تصور لما يصل إليه من فائدته ، كما هو عادة أكثر أبناء الدنيا ، ولم يعرف غير هذه الأمور من المعارف الحقيقية والفضائل الخلقية والأعمال الصالحة المقربة إلى عالم البقاء فكأنه يعلم خلوده في الدنيا ، ولا يرجو بعد الموت ثواب عمل ، ولا جزاء فعل ، ولا يعتقد بما يرجوه المؤمنون
(هامش)
(٢٢) عبس الآية : ١٣ - ١٥ . (*)
ص ٤٥
ويؤمله المتقون من الخير الدائم ، واللذات المخالفة لهذه اللذات الفانية التي يشارك فيها السباع والبهائم ، فإذا أدركه الموت مات على حسرة وندامة آيسا من رحمة الله قائلا : يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله (٢٢) . أعاذنا الله تعالى من سوء الخاتمة ووفقنا لتحصيل السعادة الدائمة . ]
فصل تأثير المزاج على الأخلاق up
للمزاج مدخلية تامة في الصفات : فبعض الأمزجة في أصل الخلقة مستعد لبعض الأخلاق ، وبعضها مقتض لخلافه ، فإنا نقطع بأن بعض الأشخاص بحسب جبلته ، ولو خلي عن الأسباب الخارجية ، بحيث يغضب ويخاف ويحزن بأدنى سبب ، ويضحك بأدنى تعجب ، وبعضهم بخلاف ذلك . وقد يكون اعتدال القوى فطريا بحيث يبلغ الإنسان كامل العقل ، فاضل الأخلاق غالبة قوته العاقلة على قوتي الغضب والشهوة ، كما في الأنبياء والأئمة عليهم السلام . وقد يكون مجاوزتها عن الوسط كذلك بحيث يبلغ ناقص العقل

ردي الصفات مغلوبة عاقلته تحت سلطان الغضب والشهوة ، كما في بعض الناس . إلا أن الحق - كما يأتي - إمكان زوالها بالمعالجات المقررة في علم الأخلاق ، فيجب السعي في إزالة نقائضها وتحصيل فضائلها . وعجبا لأقوام يبالغون في إعادة الصحة الجسمانية الفانية ، ولا يجتهدون في تحصيل الصحة الروحانية الباقية ، يطيعون قول الطبيب المجوسي في شرب الأشياء الكريهة ومزاولة الأعمال القبيحة ، لأجل صحة زائلة ، ولا يطيعون أمر الطبيب الإلهي لتحصيل السعادة الدائمة . وبقاء النفس على النقصان إما لعدم صرفها طلب المقصود لملابسة العوائق والمواقع ، أو مزاولة النقيض لتمكن موجبة ، أو لكثرة اشتغالها بالشواغل المحسوسة ، أو لضعف القوة العاقلة ، فإن لم تدركها العناية الإلهية فلا يزال يتزايد النقصان ويبعد عن الكمال الذي خلق لأجله ، إلى أن تدركها الهلاكة الأبدية والشقاوة السرمدية ، نعوذ بالله من ذلك ، وإن أدركته الرحمة

(هامش)

(٢٣) الزمر الآية ٥٦ . (*)

ص ٤٦

الأزلية ، فيصرف همه في إزالة النقائص ، واكتساب الفضائل ، فلا يزال يتصاعد من مرتبة من الكمال إلى فوقها ، حتى يصير من أهل مشاهدة الجلال والجمال ، ويتشرف بجوار الرب ، المتعال ويصل إلى السرور الحقيقي . الذي لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وإلى قرة الأعين التي يشير إليها في قوله سبحانه : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) (٢٤) .

فصل تأثير التربية على الأخلاق up

الخلق عبارة عن ملكة للنفس مقتضية لصدور الأفعال بسهولة من دون احتياج إلى فكر وروية والملكة : كيفية نفسانية بطيئة الزوال . وبالقيد الأخير خرج الحال لأنها كيفية نفسانية سريعة الزوال ، وسبب وجود الخلق إما المزاج كما مر ، أو العادة بأن يفعل فعلا بالروية ، أو التكلف ويصبر عليه إلى أن يصير ملكة له (٢٥) ويصدر عنه بسهولة وإن كان مخالفا لمقتضى المزاج . واختلف الأوائل في إمكان إزالة الأخلاق وعدمه ، وثالث الأقوال أن بعضها طبيعي يمتنع زواله وبعضها غير طبيعي حاصل من أسباب خارجة يمكن زواله . ورجح المتأخرون الأول وقالوا : ليس شيء من الأخلاق طبيعيا ولا مخالفا للطبيعة ، بل النفس بالنظر إلى ذاتها قابلة للاتصاف بكل من طرفي التضاد ، إما بسهولة إن كان موافقا للمزاج ، أو بعسر إن كان مخالفا له فاختلاف الناس في الأخلاق لاختلافهم في الاختيار والمزاولة لأسباب خارجة . (حجة القول الأول) أن كل خلق قابل للتغيير وكل قابل للتغيير ليس طبيعيا فينتج لا شيء من الخلق بطبيعي والكبرى بديهية ، والصغرى وجدانية . فإنا نجد أن الشرير يصير بمصاحبته الخير خيرا ، والخير بمجالسته الشرير

(هامش)

(٢٤) السجدة الآية ١٧ . (٢٥) ما بين القوس في الموضع غير موجود في نسختنا الخطية لكنه موجود في نسخة خطية أخرى وفي المطبوعة . (*)

ص ٤٧

شريرا . ونرى أن التأديب في السياسات ٢٦ فيه أثر عظيم في زوال الأخلاق ، ولولاه لم يكن لقوة الروية فائدة وبطلت التأديبات والسياسات ولغت لشرائع والديانات ، ولما قال الله سبحانه : (قد أفلح من زكاها) (٢٧) . ولما قال النبي صلى الله عليه وآله : حسنوا أخلاقكم ، ولما قال : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . ورد : بمنع كلية الصغرى فإنا نشاهد أن بعض الأخلاق في بعض الأشخاص غير قابل للتبديل (لا) سيما ما يتعلق بالقوة النظرية ، كالحدس والتحفظ ، وجودة الذهن ، وحسن التعقل ، ومقابلاتها كما هو معلوم من حال بعض الطلبة ، فإنه لا ينجح سعيهم في التبديل مع مبالغتهم في المجاهدة . وما قيل : من لزوم تعطل القوة المميزة وبطلان التأديب والسياسات مردود : بأن هذا اللزوم إذا لم يكن شيء من الأخلاق قابلا للتغيير ، وأما مع قبول بعضها أو أكثرها له فلا يلزم شيء مما ذكر ، ولو كان عدم قبول بعض الأخلاق للتغيير موجبا لبطلان علم الشرائع والأخلاق لكان عدم قبول بعض الأمراض للصحة مقتضيا لبطلان علم الطب ، مع إنا نعلم بديهة أن بعض الأمراض لا يقبل العلاج . (وحجة القول الثاني) إن الأخلاق بأسرها تابعة للمزاج ، والمزاج لا يتبدل ، واختلاف مزاج شخص واحد في مراتب سنة لا ينافي ذلك ، لجواز تابعيتها لجميع مراتب عرض المزاج ، وأيد ذلك بقوله (ص) : (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام) وبقوله (ص)

: (إذا سمعتم أن جبلا زال عن مكانه فصدقوه ، وإذا سمعتم برجل زال عن خلقه فلا تصدقوه ، فإنه سيعود إلى ما جبل عليه) .
و(الجواب) إن توابع المزاج من المقتضيات التي يمكن زوالها لا من اللوازم التي يمتنع انفكاكها ، لما ثبت في الحكمة من أن النفوس الإنسانية متفقة في الحقيقة ، وفي بدو فطرتها خالية عن جميع الأخلاق والأحوال كما هو شأن العقل الهيولائي . ثم ما يحصل لها منهما أما من مقتضيات الاختيار
(هامش)
)
٢٦) ما بين القوس في الموضعين غير موجود في نسختنا الخطبة لكنه موجود في نسخة خطبة أخرى وفي المطبوعة . (٢٧) الشمس الآية : ٩ . (*)
ص ٤٨
والعادة أو استعدادات الأبدان والأمزجة ، والمقتضي ما يمكن زواله كالبرودة للماء ، لا ما يمتنع انفكاكه كالزوجة للأربعة . والخبر الأول لا يفيد المطلوب بوجه . والثاني مع عدم ثبوته عندما يدل على خلاف مطلوبهم ، لأن قوله : (سيعود إلى ما جبل عليه) يفيد إمكان إزالة الخلق بالأسباب الخارجية من التأديب والنصائح وغيرهما ، وبعد إزالته بها يعود بارتفاعها كبرودة الماء التي تزول ببعض الأسباب وتعود بعد زوال السبب ، فلو دام على حفظ الأسباب وإبقائها لم يحصل العود أصلا . وإذ ثبت بطلان القولين الأولين فالحق القول بالتفصيل ، يعني قبول بعض الأخلاق بل أكثرها بالنسبة إلى الأكثر التبديل للحس والعيان ، ولبطلان السياسات والشرائع لولاه ولإمكان تغير خلق البهائم ، إذ ينتقل الصيد من التوحش إلى الأنس والفرس من الجماح إلى الانقياد والكلب من الهراشة إلى التأدب ، فكيف لا يمكن في حق الإنسان ، وعدم قبول بعضها بالنسبة إلى البعض له ، للمشاهدة والتجربة ، وهذا البعض مما لا يكون متعلق التكليف كالأخلاق المتعلقة بالقوة العقلية من الذكاء والحفظ وحسن التعقل وغيرها . والتص يعطي اختلاف الأشخاص والأخلاق في الإزالة والاتصاف بالضد بالإمكان والتعذر والسهولة والتعسر وبالتقليل والرفع بالمرة ، ولذا لو تصت أشخاص العالم لم تجد شخصين متشابهين في جميع الأخلاق ، كما لا تجد اثنين متماثلين في الصورة . ويشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وآله : أعملوا فكل ميسر لما خلق له . وقال أرسطاليس : يمكن صيرورة الأشرار أعيارا بالتأديب إلا أن هذا ليس كليا ، فإنه ربما أثر في بعضهم بالزوال وفي بعضهم بالتقليل وربما لم يؤثر أصلا .
ثم المراد من التغيير ليس رفع الغضب والشهوة مثلا وإماطتهما بالكلية فإن ذلك محال لأنهما مخلوقتان لفائدة ضرورية في الجبلة ، إذ لو انقطع الغضب عن الإنسان بالكلية لم يدفع عن نفسه ما يهلكه ويؤذيه وامتنع جهاد الكفار ، ولو انعدم عنه شهوة الطعام لم تبق حياته ، ولو بطل عنه شهوة الوقاع بالمرة لضاع النسل ، بل المراد ردهما من الإفراط والتفريط إلى
ص ٤٩
الوسط فالمطلوب في صفة الغضب خلو النفس عن الجبن والتهور ، والاتصاف بحس الحمية ، وهو أن يحصل إذا استحسن حصوله شرعا وعقلا ، ولا يحصل إذا استحسن عدمه كذلك . وكذا الحال في صفة الشهوة . ولا ريب في أن رد بعض الموجودات الناقصة من القوى وغيرها إذا جدت و فيه قوة الكمال إلى كماله ممكن إذا كان له شرط يرتبط باختيار العبد ، فكما أن النواة يمكن أن تصير نخلا بالتربية ، لوجود قوة النخلية فيه ، وتوقف فعليتها على شرط التربية التي بيد العبد ، فكذلك يمكن تعديل قوتي الغضب والشهوة بالرياضة والمجاهدة ، لوجود قوة التعديل فيهما ، وتوقف فعليتهما على شرط ارتبط باختيار العبد أعني الرياضة والمجاهدة ، وإن لم يمكن لنا قلعهما بالكلية ، كما لا يمكن لنا إعدام شيء من الموجودات ، ولا إيجاد شيء من المعدومات . ثم شرائط الرد تختلف بالنسبة إلى الأشخاص والأخلاق ، ولذا ترى أن التبديل يختلف باختلاف مراتب السياسيات والتأديب ، فيمكن أن لا يرتفع مذموم خلق بمرتبة من التأديب ، ويرتفع بمرتبة منه فوقها ، والأسهل قبول لكل خلق الأطفال لخلو نفوسهم عن الأضداد المانعة من القبول ، فيجب على الآباء تأديبهم بالآداب الجميلة ، وصونهم عن ارتكاب الأعمال القبيحة ، حتى تعتاد نفوسهم بترك الرذائل ، وارتكاب الفضائل ، والمؤدب الأول هو الناموس الإلهي ، والثاني أولو الأذهان القويمة من أهل المعارف الحقة ، فيجب تقييد من يراد تأديبه بالنواميس الربانية أولا ، وتنبيهه بالحكم والمواعظ ثانيا .

فصل: شرف علم الأخلاق لشرف موضوعه وغايتهup

لما عرفت أن الحياة الحقيقية للانسان تتوقف على تهذيب الأخلاق الممكن بالمعالجات المقررة في هذه الصناعة ، تعرف أنها أشرف العلوم وأنفعها لأن شرف كل علم إنما هو بشرف موضوعه أو غايته ، فشرف صناعة الطب على صناعة الدباغة بقدر شرف بدن الإنسان وإصلاحه على جلود البهائم ، وموضوع هذا العلم هو النفس الناطقة التي هي حقيقة الإنسان ولبه ، وهو أشرف الأنواع الكونية كما برهن عليه في العلوم العقلية ، وغايته إكمال وإيصاله

ص ٥٠

من أول أفق الإنسان إلى آخره ، ولكونه ذا عرض عريض متصلا أوله بأفق البهائم وآخره بأفق الملائكة ، لا يكاد أن يوجد التفاوت الذي بين أشخاص هذا النوع في أفراد سائر الأنواع ، فإن فيه أخس الموجودات ومنه أشرف الكائنات كما قيل : ولم أر أمثال الرجال تفاوتت * لدى المجد حتى عد ألف بواحد وبالفارسية : أي نقد أصل وفرع ندانم چه گوهري * كز آسمان بلندتر واز خاك كمتري وإلى ذلك التفاوت يشير قول الرسل صلى الله عليه وآله وسلم : إني وزنت بأمتي فرجحت بهم ولا ريب في أن هذا التفاوت لأجل الاختلاف في الأخلاق والصفات ، لاشتراك الكل في الجسمية ولواحقها . وهذا العلم هو الباعث للوصول إلى أعلى مراتبهما ، وبه تتم الإنسانية ، ويعرج من حضيض البهيمية إلى ذرى الرتب الملكية ، وأي صناعة أشرف مما يوصل أخس الموجودات إلى أشرفها ، ولذلك كان السلف من الحكماء لا يطلقون العلم حقيقة إلا عليه ، ويسمونه بالأكسير الأعظم ، وكان أول تعاليمهم ، ويبالغون في تدوينه وتعليمه ، والبحث عن إجماله وتفصيله ، ويعتقدون أن المتعلم ما لم يهذب أخلاقه لا تنفعه سائر العلوم . وكما أن البدن الذي ليس بالنقي كلما غذوته فقد زدته شرا ، فكذلك النفس التي ليست نقية عن ذمائم الأخلاق لا يزيده تعلم العلوم إلا فسادا .

ولذا ترى أكثر المتشبهين بزي العلماء أسوأ حالا من العوام مائلين عن وظائف الإيمان والإسلام ، إما لشدة حرصهم على جمع المال ، غافلين عن حقيقة المآل ، أو لغلبة حبهم الجاه والمنصب ، ظنا منهم أنه ترويج للدين والمذهب ، أو لوقوعهم في الضلالة والحيرة لكثرة الشك والشبهة ، أو لشوقهم إلى المراء والجدال في أندية الرجال ، إظهارا لتفوقهم على الأقران والأمثال ، أو لإطلاق ألسنتهم على الآباء المعنوية من أكابر وأعاظم الحكماء ، ولعدم تعبدهم برسوم الشرع والملة ، ظنا منهم أنه مقتضى قواعد الحكمة ، ولم يعلموا أن الحكمة الحقيقية ما أعطته النواميس الإلهية والشرائع النبوية ، فكأنهم لم يعلموا أن العلم بدون العمل ضلال ، ولم يتفطنوا قول نبيهم صلى الله عليه

ص ٥١

وآله وسلم : قصم ظهري رجلان ، عالم متهتك ، وجاهل متنسك ولم يتذكروا قوله صلى الله عليه وآله وسلم : البلاهة أدنى إلى الإخلاص من فطانة بتراء وكل ذلك ليس إلا لعدم سعيهم في تهذيب الأخلاق وتحسينها وعدم الامتثال لقوله سبحانه : وأتو البيوت من أبوابها (٢٨) .

فصل: النفس وأسماؤها وقواها الأربعup

ما عرفت من تجرد النفس إنما هو التجرد في الذات دون الفعل لافتقارها فعلا إلى الجسم والآلة ، فحدها أنها جوهر ملكوتي يستخدم البدن في حاجاته ، وهو حقيقة الإنسان وذاته ، والأعضاء والقوى آلاته التي يتوقف فعله عليها ، وله أسماء مختلفة بحسب اختلاف الاعتبارات ، فيسمى (روحا) لتوقف حياة البدن عليه و(عقلا) لإدراكه المعقولات و(قلبا) لتقلبه في الخواطر ، وقد تستعمل هذه الألفاظ في معان أخرى تعرف بالقرائن . وله قوى أربع : قوة عقلية ملكية ، وقوة غضبية سبعية ، وقوة شهوية بهيمية ، وقوة وهمية شيطانية . و(الأولى) شأنها إدراك حقائق الأمور ، والتمييز بين الخيرات والشرور ، والأمر بالأفعال الجميلة ، والنهي عن الصفات الذميمة و(الثانية) موجبة لصدور أفعال السباع من الغضب والبغضاء ، والتوثب على الناس بأنواع الأذى . و(الثالثة) لا يصدر عنها إلا أفعال البهائم من عبودية الفرج والبطن ، والحرص على الجماع والأكل . و(الرابعة) شأنها استنباط وجوه المكر والحيل ، والتوصل إلى الأغراض بالتلبيس والخدع . والقائدة في وجود القوة الشهوية بقاء البدن الذي هو آلة تحصيل كمال النفس . وفي وجود الغضبية أن يكسر سورة الشهوية والشيطانية ، ويقهرها عند انغمارهما في الخداع والشهوات ، وإصرارهما عليهما ، لأنهما

لتمردهما لا تطيعان العاقلة بسهولة ، بخلاف الغضبية فإنهما تطيعانها وتتأدبان بتأديبها بسهولة .
(هامش)
(٢٨) البقرة الآية ١٢٩ . (*)
ص ٥٢
ولذا قال أفلاطون في صفة السبعية والبهيمية : أما هذه أي السبعية فهي بمنزلة الذهب في اللين والانعطاف ، وأما تلك أي البهيمية فهي بمنزلة الحديد في الكثافة والامتناع وقال أيضا : ما أصعب أن يصير الخائض في الشهوات فاضلا ، فمن لا تطيعه الواهمية والشهوية في إيثار الوسط فليستعن بالقوة الغضبية المهيجة للغيرة ، والحمية حتى يقهرهما فلو لم يمتثلا مع الاستعانة فإن لم تحصل له ندامة بعد ارتكاب مقتضاهما دل على غلبتهما على العاقلة ومقهوريتها عنهما ، وحينئذ لا يرجى صلاحه ، وإلا فالإصلاح ممكن فليجتهد فيه ولا ييأس من روح الله ، فإن سبل الخيرات مفتوحة ، وأبواب الرحمة الإلهية غير مسدودة . والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (٢٩) . والفائدة في القوة الوهمية إدراك المعاني الجزئية ، واستنباط الحيل والدقائق التي يتوصل بها إلى المقاصد الصحيحة . وبيان ذلك أن الواهمة والخيال والمتخيلة ثلاث قوى متباينة ، ومباينة للقوى الثلاث الأول ، وشأن الأولى إدراك المعاني الجزئية ، وشأن الثانية إدراك الصور ، وشأن الثالثة التركيب والتفصيل بينهما . وكل من مدركاتها إما مطابق للواقع ، أو مخترع من عند أنفسها من غير تحقق له في نفس الأمر أيضا ، وأما من مقتضيات العقل والشريعة ، ومن الوسائل إلى المقاصد الصحيحة ، أو من دواعي الشيطان وما يقتضيه الغضب والشهوة ، وعلى الأول يكون وجودها خيرا وكمالا ، وإن كان وجودها على الثاني شرا وفسادا . والحال في جميع القوى كذلك . هذا وقيل : ما ورد في القرآن من النفس المطمئنة واللوامة والأمارة بالسوء ، إشارة إلى القوى الثلاث أعني العاقلة والسبعية والبهيمية .
والحق أنها أوصاف ثلاثة للنفس بحسب اختلاف أحوالها ، فإذا غلبت قوتها العاقلة على الثلاث الأخر ، وصارت منقادة لها مقهورة منها ، وزال اضطرابها الحاصل من مدافعتها سميت مطمئنة ، لسكونها حينئذ تحت الأوامر والنواهي ، وميلها إلى ملائماتها التي تقتضي جبلتها ، وإذا لم تتم
(هامش)
(٢٩) العنكبوت الآية : ٦٩ . (*)
ص ٥٣
غلبتها وكان بينها تنازع وتدافع ، وكلما صارت مغلوبة عنها بارتكاب المعاصي حصلت للنفس لوم وندامة سميت لوامة . وإذا صارت مغلوبة منها مذعنة لها من دون دفاع سميت أمارة بالسوء لأنه لما اضمحلت قوتها العاقلة وأذعنت للقوى الشيطانية من دون مدافعة ، فكأنما هي الآمرة بالسوء . ثم مثل اجتماع هذه القوى في الإنسان كمثل اجتماع ملك ، أو حكيم وكلب وخنزير وشيطان في مربط واحد . وكان بينها منازعة ، وأيها صار غالبا كان الحكم له ، ولم يظهر من الأفعال والصفات إلا ما تقتضيه جبلته ، فكان إهاب الإنسان وعاء اجتمع فيه هذه الأربع ، فالملك أو الحكيم هو القوة العاقلة ، والكلب هو القوة الغضبية ، فإن الكلب ليس كلبا ومذموما للونه وصورته بل لروح معنى الكلبية والسبعية أعني الضراوة والتكلب على الناس بالعقر والجرح . والقوة الغضبية موجبة لذلك ، فمن غلب فيه هذه القوة هو الكلب حقيقة ، وإن أطلق عليه اسم الإنسان مجازا . والخنزير هو القوة الشهوية ، والشيطان هو القوة الوهمية ، والتقريب فيها كما ذكر ، والنفس لا تزال محل تنازع هذه القوى وتدافعها إلى أن يغلب إحداها ، فالغضبية تدعوه إلى الظلم والإيذاء ، والبغضاء ، والبهيمية تدعوه إلى المنكر والفاحش و ، والحرص على المآكل والمناكح ، والشيطانية تهيج غضب السبعية وشهوة البهيمية ، وتزيد (٣٠) فعلهما .
وتغري إحداهما بالأخرى ، والعقل شأنه أن يدفع غيظ السبعية بتسليط الشهوية عليها ، ويكسر سورة الشهوية بتسليط السبعية عليها ، ويرد كيد الشيطان ومكره بالكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ، ونورانيته الباهرة ، فإن غلب على الكل بجعلها مقهورة تحت سياسته غير مقدمة على فعل إلا بإشارته جرى الكل على المنهج الوسط ، وظهر العدل في مملكة البدن ، وإن لم يغلب عليها وعجز عن قهرها قهروه واستخدموه فلا يزال الكلب في العقر والإيذاء ، والخنزير في المنكر والفحشاء ، والشيطان في استنباط الحيل ، وتدقيق الفكر في وجوه المكر والخدع ، ليرضى الكلب ويشبع الخنزير ، فلا يزال في عبادة كلب عقور ، أو خنزير هلوع أو شيطان عنود ، فتدركه الهلاكة الأبدية ، والشقاوة السرمدية
(هامش)

(٣٠) وفي نسختنا الخطية هكذا تزين . ج : ١ (*)
ص ٥٤
إن لم تغثه العناية الإلهية ، والرحمة الأزلية . وقد يمثل اجتماع هذه القوى في الإنسان براكب بهيمة طالب للصيد يكون معه كلب وعين من قطاع الطريق ، فالراكب هو العقل ، والبهيمة هي الشهوة ، والكلب هو الغضب ، والعين هو القوة الوهمية التي هي من جواسيس الشيطان ، فإن كان الكل تحت سياسة الراكب فعل ما يصلح للكل ونال ما بصدده ، وإن كانت الغلبة والحكم للبهيمة أو الكلب لهلك الراكب بذهابه معهما فيما لا يصلح له من التلال والوهاد ، واقتحامه في موارد الهلكات وإن كان الكل تحت نهي العين وأمره ، وافتتنوا بخدعه ومكره لأضلهم بتلبيسه عن سواء السبيل حتى يوصلهم إلى أيدي السارقين . وكذلك لو كانت القوى بأسرها تحت إشارة العقل وقهرها وغلب عليها وقعت لانقيادها له المسالمة والممازجة بين أكل ، وصار الجميع كالواحد ، لأن المؤثر والمدبر حينئذ ليس إلا قوة واحدة تستعمل كلا منها في المواضع اللائقة والأوقات المناسبة ، فيصدر عن كل منها ما خلق لأجله ، على ما ينبغي من القدر والوقت والكيفية ، فتصلح النفس وقواها . قد أفلح من زكاها (٣١) . ولو لم يغلب العقل حصل التدافع والتجاذب بينه وبين سائر القوى ، ويتزايد ذلك إلى أن يؤدي إلى انحلال الآلة والقوة لو يصير العقل مغلوبا فتهلك النفس وقواها . وقد خاب من دساها (٣٢) . (تتميم) لما تبين أن للنفس أربع قوى متخالفة ، ولها قوى أخر أيضا كما تبين في العلم الطبيعي ، فبحسب غلبة بعض هذه القوى على بعض يحصل في النفس اختلاف عظيم ، والاختلاف في النفوس إنما هو باختلاف صفاتها الحاصلة من غلبة بعض قواها المتخالفة . إذ هي في بدو فطرتها خالية عن جميع الأخلاق والملكات ، وليس لها فعلية ، بل هي محض القوة ، ولذا ليس
(هامش)
(٣١) الشمس الآية ٩ . (٣٢) الشمس الآية ١٠ . (*)
ص ٥٥
لها قوام بذاتها وإنما تتقوم بالبدن ، ثم بتوسط قواها تكتسب العلوم والأخلاق وترتسم بالصور والأعمال إلى أن تتقوم بها ، وتصل إلى ما خلقت لأجله . ولما كانت قواها متخالفة متنازعة فما لم يغلب إحداها لم تدخل النفس في عالمه (٣٣) الذي تخصه فلا تزال من تنازعها معركة للآثار المختلفة والأحكام المتباينة إلى أن يغلب إحداها فتظهر في النفس آثاره ويدخل في عالمه الخاص . ولما كانت القوة العاقلة من سنخ الملائكة ، والواهمة من حزب الأبالسة والغضبية من أفق السباع ، والشهوية من عالم البهائم ، فبحسب غلبة واحدة منها تكون النفس إما ملكا أو شيطانا أو كليا أو خنزيرا ، فلو كانت الغلبة والسلطنة لقهرمان العقل ظهر في مملكة النفس أحكامه وآثاره ، وانتظمت أحوالها ، ولو كانت لغيره من القوى ظهر فيها آثاره فتهلك النفس ويختل معاشها ومعادها . ثم المنشأ للتنازع والتجرد والبقاء في نفس الإنسانية إنما هو قوتها العقلية لأن التدافع إنما بينها وبين سائر القوى ، فليس في نفوس سائر الحيوانات لفقدانها العاقلة تنازع وتجادب وإن اختلفت في غلبة ما فيها من القوى ، فإن الغلبة في الشياطين للواهمة ، وفي السباع للغضب ، وأما الملائكة فتنحصر قوتها بالعاقلة فليس فيها سائر القوى فلا يتحقق فيها تدافع وتنازع . فالجامع لعوالم الكل هو الإنسان وهو المخصوص من بين المخلوقات بالصفات المتقابلة ، ولذلك صار مظهرا للأسماء المتقابلة الإلهية ، وقابلا للخلافة الربانية وقائما بعمارة عالمي الصورة والمعنى .
والملائكة وإن كانوا مخصوصين بالجنة الروحانية ولوازمها من الإشراقات العلمية ، وتوابعها من اللذات العقلية ، إلا أنه ليس لهم جهة جسمانية ولوازمها والأجسام الفلكية وإن كانت لها نفوس ناطقة على قواعد الحكمة إلا أنها خالية عن الطبائع المختلفة ، والكيفيات المتباينة ، وليس لها سير في المدارج المتخالفة ، والمراتب المتفاوتة ، ولا تقلب في أطوار النقص والكمال ، ولا تحول في جميع التقاليب والأحوال ، بخلاف الإنسان فإنه محيط بجميع المراتب المختلفة ، وسائر في الأطوار المتباينة من الجمادية والنباتية والحيوانية
(هامش)
(٣٣) في نسختنا الخطية هكذا في علله التي تخصها . (*)
ص ٥٦
والملكية ، وله الترقي عن جميع تلك المراتب بأن تتحقق له مرتبة مشاهدة الوحدة الصرفة فيتجاوز عن أفق الملائكة ، فهو النسخة الجامعة لحقائق الملك والملكوت ، والمعجون المركب من عالمي الأمر والخلق ، قال أمير المؤمنين (ع) إن الله خص الملك بالعقل دون الشهوة والغضب ، وخص الحيوانات بهما دونه وشرف الإنسان بإعطاء الجميع ، فإن انقادت شهوته وغضبه لعقله صار أفضل من الملائكة

لوصوله إلى هذه المرتبة مع وجود المنازع والملائكة ليس لهم مزاحم . وصل قد ظهر بما ذكر أن الإنسان ذو جنبة روحانية يناسب بها الأرواح الطيبة والملائكة القادسة ، وذو جنبة جسمانية يشابه بها السباع والأنعام ، فبالجزء الجسماني أقيم في هذا العالم الحسي مدة قصيرة ، وبالجزء الروحاني ينتقل إلى العالم العلوي ، ويقيم فيه أبدا في مصاحبة الأرواح القدسية ، بشرط أن يتحرك بقواه نحو كمالاتها الخاصة ، حتى يغلب الجزء الروحاني على الجسماني وينفض عن نفسه كدورات الطبيعة ، وتظهر فيه آثار الروحانيات من العلم بحقائق الأشياء والأنس بالله تعالى والحب له والتحلي بفضائل الصفات . وحينئذ يقوم بغلبة روحانيته بين الملأ الأعلى يستمد منهم لطائف الحكمة .

ويستنير بالنور الإلهي ويزيد ذلك بحسب دفع العلائق الجسمية ، حتى إذا ارتفعت عنه حجب الغواسق الطبيعية بأسرها ، وأزيلت عنه أستار العوائق الهيولانية برمتها ، خلي عن جميع الآلام والحسرات ، وكان أبدا مسرورا بذاته ، مغتبطا بحاله ، مبتهجا بما يرد عليه من فيوضات النور الأول ، ولا يسر إلا بتلك اللذات ، ولا يغتبط إلا بها ، ولا يهش إلا بإظهار الحكمة الحقة بين أهلها ، ولا يرتاح إلا بمن ناسبه وأحب الاقتباس منه ، ولا يبالي بمفارقة الدنيا وما فيها ، ويرى جسمه وماله وجميع خيرات الدنيا وبالا وكلا عليه إلا ما هو ضروي يحتاج إليه بدنه الذي يفتقر إليه في تحصيل كما له ، ويحن أبدا إلى مصاحبة الذوات النورية ، ولا يفعل إلا ما أراد الله تعالى منه ، ولا يتعرض إلا لما يقربه إليه ، ولا يخالفه في متابعة الشهوات الردية ، ولا يخدع

ص ٥٧

بخدائع الطبيعة ، ولا يلتفت إلى شيء يعوقه عن سعادته ، ولا يحزن على فقد محبوب ، ولا فوت مطلوب ، وإذا صفى من الأمور الطبيعية بالكلية زالت عنه العوارض النفسانية ، والخواطر الشيطانية بأسرها ، وفنى عنه إرادته المتعلقة بالأمور الخارجة . وحينئذ يمتلي من المعارف الإلهية ، والشوق الإلهي والبهجة الإلهية ، والشعار الإلهي ، وتتقرر الحقائق في عقله كتقرر القضايا الأولية فيه ، بل يكون علمه بها أشد إشراقا وظهورا من علمه بها . وإذا بلغ هذه الغاية فقد استعد للوصول إلى المرتبة القصوى ، ومجاورة الملأ الأعلى فيصل إلى ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ويفوز بما أشير إليه في الكتاب الإلهي بقوله : فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين (٣٤) .

فصل الأقوال في الخير والسعادة والتوفيق بينها up

إعلم أن الغاية في تهذيب النفس عن الرذائل وتكميلها بالفضائل هو الوصول إلى الخير والسعادة . والسلف من الحكماء قالوا : إن الخير على قسمين مطلق ومضاف ، والمطلق هو المقصود من إيجاد الكل ، إذ الكل يتشوقه وهو غاية الغايات ، والمضاف ما يتوصل به إلى المطلق . و السعادة هو وصول كل شخص بحركته الإرادية النفسانية إلى كماله الكامن في جبلته . وعلى هذا فالفرق بين الخير والسعادة أن الخير لا يختلف بالنسبة إلى الأشخاص والسعادة تختلف بالقياس إليهم . ثم الظاهر من كلام أرسطاطاليس إن الخير المطلق هو الكمالات النفسية والمضاف ما يكون معدا لتحصيلها كالتعلم والصحة ، أو نافعا فيه كالمكنة والثروة . وأما السعادة فعند الأقدمين من الحكماء راجعة إلى النفوس فقط ، وقالوا ليس للبدن فيها حظ ، فحصروها في الأخلاق الفاضلة ، واحتجوا على ذلك بأن حقيقة الإنسان هي النفس الناطقة والبدن آلة لها ، فلا يكون ما يعد كمالا له سعادة للانسان . وعند المتأخرين منهم كأرسطو ومن تابعه راجعة إلى الشخص حيث التركيب ، سواء تعلقت بنفسه أو بدنه ، لأن كل ما يلائم جزءا

(هامش)

(٣٤) السجدة الآية : ١٧ . (*)

ص ٥٨

من شخص معين فهو سعادة جزئية بالنسبة إليه ، مع أنه يتعسر صدور الأفعال الجميلة بدون اليسار ، وكثرة الأعوان والأنصار ، والبخت المسعود ، وغير ذلك مما لا يرجع إلى النفس ، ولذا قسموا السعادة إلى ما يتعلق بالبدن من حيث هو كالصحة واعتدال المزاج ، وإلى ما يتوصل به إلى إفشاء العوارف ، ومثله مما يوجب استحقاق المدح كالمال وكثرة الأعوان ، وإلى ما يوجب حسن الحديث وشيوع المحمدة ، وإلى ما يتعلق بإنجاح المقاصد والأغراض على مقتضى الأمل ، وإلى ما يرجع إلى النفس من الحكمة والأخلاق المرضية . وقالوا كمال السعادة لا يحصل بدون هذه الخمسة ، وبقدر النقصان فيها تنقص . قالوا وفوق ذلك سعادة محضة لا تدانيها سعادة ،

وهو ما يفيض الله سبحانه على بعض عباده من المواهب العالية ، والإشراقات العلمية ، والابتهاجات العقلية بدون سبب ظاهر . ثم الأقدمون لذهابهم إلى نفي السعادة للبدن صرحوا بأن السعادة العظمى لا تحصل للنفس ما دامت متعلقة بالبدن ، وملوثة بالكدورات الطبيعية ، والشواغل المادية ، بل حصولها موقوف عنها ، لأن السعادة المطلقة لا تحصيل لها ما لم تصر مشرقة بالإشراقات العقلية ، ومضيئة بالأنوار الإلهية ، بحيث يطلق عليها اسم التام ، وذلك موقوف على تخلصها التام عن الظلمة الهيولانية ، والقصورات المادية . وأما المعلم الأول وأتباعه فقالوا إن السعادة العظمى تحصل للنفس مع تعلقها بالبدن أيضا ، لبداهة حصولها لمن استجمع الفضائل بأسرها ، واشتغل بتكميل غيره ، وما أقبح أن يقال مثله ناقص وإذا مات يصير تاما ، فالسعادة لها مراتب ، ويحصل للنفس الترقي في مدارجها بالمجاهدة إلى أن تصل إلى أقصاها وحينئذ يحصل تمامها وإن كان قبل المفارقة ، وتكون باقية بعدها أيضا .

ثم المتأخرون عن الطائفتين من حكماء الإسلام قالوا إن السعادة في الأحياء لا تتم إلا باجتماع ما يتعلق بالروح والبدن ، وأذناها أن تغلب السعادة البدنية على النفسية بالفعل ، إلا أن الشوق إلى الثانية ، والحرص على اكتسابها يكون أغلب ، وأقصاها أن تكون الفعلية والشوق كلاهما في الثانية أكثر ، إلا أنه قد يقع الالتفات إلى هذا العالم وتنظيم أموره بالعرض . وأما في الأموات فيختص بما يتعلق بالنفس فقط لاستغنائهم عن الأمور

ص ٥٩

البدنية ، فتختص السعادة فيهم بالملكات الفاضلة ، والعلوم الحقة اليقينية ، والوصول إلى مشاهدة جمال الأبد ، ومعاينة جلال السرمد . وقالوا إن الأولى لشوبها الزخارف الحسية ، ولكدورات الطبيعية ناقصة كدرة ، وأما الثانية فدخلوها عنها تامة صافية ، لأن المتصف بها يكون أبدا مستنيرا بالأنوار الإلهية ، مستضيئا بالأضواء العقلية ، مستهترا (٣٥) بذكر الله وأنسه ، مستغرقا في بحر عظمته وقدسه ، وليس له التفات إلى ما سوى ذلك ، ولا يتصور له تحسر على فقده لذة أو محبوب ، ولا شوق إلى طلب شيء مرغوب ، ولا رغبة إلى أمر من الأمور ، ولا رهبة من وقوع محذور ، بل يكون منصرفا بجزئه العقلي مقصورا همه على الأمور الإلهية من دون التفات إلى غيرها . وهذا القول ترجيح لطريقة المعلم الأول ، من حيث إثبات سعادة للبدن ، ولطريقة الأقدمين من حيث نفي حصول السعادة العظمى للنفس ما دامت متعلقة بالبدن . وهو الحق المختار عندنا ، إذ لا ريب في كون ما هو وصلة إلى السعادة المطلقة سعادة إضافية . ومعلوم أن غرض القائل يكون متعلقات الأبدان كالصحة والمال والأعوان سعادة أنها سعادة إذا جعلت آلة لتحصيل السعادة الحقيقية لا مطلقا ، إذ لا يقول عاقل إن الصحة الجسمية ، والحطام الدنيوي سعادة ، ولو جعلت وسيلة إلى اكتساب سخط الله وعقابه ، وحاجبة عن الوصول إلى دار كرامته وثوابه ، وكذا لا ريب في أن النفس ما دامت متعلقة بالبدن مقيدة في سجن الطبيعة لا يحصل لها العقل الفعلي ، ولا تنكشف لها الحقائق كما هي عليه انكشافا تاما ، ولا تصل إلى حقيقة ما يترتب على العلم والعمل من الابتهاجات العقلية واللذات الحقيقية . ولو حصلت لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون في آن واحد ويمر كالبرق الخاطف .

هذا وقد ظهر من كلمات الجميع أن حقيقة الخير والسعادة ليس إلا المعارف الحقة ، والأخلاق الطيبة ، والأمر وإن كان كذلك من حيث أن حقيقتهما ما يكون مطلوبا لذاته ، وباقيا مع النفس أبدا وهما كذلك ، إلا أنه لا ريب في أن ما يترتب عليهما من حب الله وأنسه ، والابتهاجات العقلانية ، واللذات الروحانية مغاير لهما من حيث الاعتبار ، وإن لم ينفك عنهما ، ومطلوبيته

(هامش)

(٣٥) مستهترا به على بناء اسم المفعول أي مولع به لا لمتحدث بغيره . (*)

ص ٦٠

لذاته أشد وأقوى ، فهو باسم الخير والسعادة أولى وأحرى ، وإن كان الجميع خيرا وسعادة . وبذلك يحصل الجمع بين أقوال أرباب النظر والاستدلال ، وأصحاب الكشف والحال ، وأخوان الظاهر من أهل المقال ، حيث ذهبت (الفرقة الأولى) إلى أن حقيقة السعادة هو العقل والعلم ، و(الثانية) إلى أنها العشق ، و(الثالثة) إلى أنها الزهد ، وترك الدنيا .

فصل لا تحصل السعادة إلا بإصلاح جميع الصفات والقوى دائما up

لا تحصل السعادة إلا بإصلاح جميع الصفات والقوى دائما ، فلا تحصل بإصلاحها بعضا دون بعض ، ووقتا دون وقت ، كما أن الصحة الجسمية ، وتدبير المنزل ، وسياسة المدن لا تحصل إلا بإصلاح جميع الأعضاء والأشخاص والطوائف في جميع الأوقات ،

فالسعيد المطلق من أصلح جميع صفاته وأفعاله على وجه الثبوت والدوام بحيث لا يغيره تغير الأحوال والازمان ، فلا يزول صبره بحدوث المصائب والفتن ، ولا شكره بورود النوائب والمحن ، ولا يقينه بكثرة الشبهات ، ولا رضاه بأعظم النكبات ، ولا إحسانه بالإساءة ، ولا صداقة بالعداوة . وبالجملة لا يحصل التفاوت في حاله ، ولو ورد عليه ما ورد على أيوب النبي عليه السلام أو على برناس الحكيم ، لشهامة ذاته ، ورسوخ أخلاقه وصفاته ، وعدم مبالاته بعوارض الطبيعة ، وابتهاجه بنورانيته وملكاته الشريفة . بل السعيد الواقعي لتجرده وتعاليه عن الجسمانيات خارج عن تصرف الطبائع الفلكية ، متعال عن تأثير الكواكب والأجرام الأثيرية فلا يتأثر عن سعدها ونحسها ، ولا ينفعل عن قمرها وشمسها . أهل التسبيح والتقديس لا يبالون التثليث والتسديس ، وربما بلغ تجردهم وقوة نفوسهم مرتبة تحصل لهم ملكة الاقتدار على التصرف في مواد الكائنات ، ولو في الأفلاك وما فيها ، كما حصل لفحل الأنبياء وسيد الأوصياء صلوات الله عليهما وآلهما من شق القمر ورد الشمس . وقد ظهر مما ذكر أن من من يجزع بورود المصائب الدنيوية ، ويضطرب من الكدورات الطبيعية ، ويدخل نفسه في معرض شماتة الأعداء وترحم

ص ٦١

الأحباء ، خارج عن زمرة السعداء ، لضعف غريزته وغلبة الجبن على طبيعته ، وعدم نيله بعد إلى الابتهاجات التي تدفع عن النفس أمثال ذلك . ومثله لو تكلف الصبر والرضا وتشبه ظاهرا بالسعداء لكان في الباطن متألما مضطربا ، وهذا ليس سعادة لأن السعادة الواقعية إنما هو صيرورة الأخلاق الفاضلة ملكات راسخة بحيث لا تغيرها المغيرات ظاهرا وباطنا . بلغنا الله وجميع الطالبين إلى هذا المقام الشريف .

فصل غاية السعادة التشبيه بالمبدأ up

صرح الحكماء بأن غاية المراتب للسعادة أن يتشبه الإنسان في صفاته بالمبدأ : بأن يصدر عنه الجميل لكونه جميلا ، لا لغرض آخر من جلب منفعة ، أو دفع مضرة ، وإنما يتحقق ذلك إذا صارت حقيقته المعبر عنها بالعقل الإلهي والنفس الناطقة خيرا محضا ، بأن يتطهر عن جميع الخبائث الجسمانية ، والأقذار الحيوانية ، ولا يحوم حوله شيء من العوارض الطبيعية ، والخواطر النفسانية ، ويمتلئ من الأنوار الإلهية ، والمعارف الحقيقية ، ويتيقن بالحقائق الحقة الواقعية ، ويصير عقلا محضا بحيث يصير جميع معقولاته كالقضايا الأولية ، بل يصير ظهورها أشد ، وانكشافها أتم ، وحينئذ يكون له أسوة حسنة بالله سبحانه ، في صدور الأفعال وتصير إلهية أي شبيهة بأفعال الله سبحانه في أنه لصرافة حسنة يقتضي الحسن ، ولمحوضة جماله يصدر عنه الجميل من دون داع خارجي ، فتكون ذاته غاية فعله ، وفعله غرضه بعينه ، وكلما يصدر عنه بالذات وبالقصد الأول فإنما يصدر لأجل ذاته ، وذات الفعل وإن ترشحت منه الفوائد الكثيرة على الغير بالقصد الثاني وبالعرض . قالوا وإذا بلغ الإنسان هذه المرتبة فقد فاز بالبهجة الإلهية ، واللذة الحقيقية الذاتية ، فيشمئز طبعه من اللذات الحسية الحيوانية ، لأن من أدرك اللذة الحقيقية علم أنها لذة ذاتية ، والحسية ليست لذة بالحقيقة لتصرمها ودثورها وكونها دفع وألم . وأنت خبير بأن هذا التصريح محل تأمل لمخالفته ظواهر الشرع فتأمل .

ص ٦٢

فصل بإزاء كل واحدة من القوى الأربع لذة وألمup

لما عرفت أن القوى في الإنسان أربع : قوة نظرية عقلية ، وقوة وهمية خيالية ، وقوة سبعية غضبية ، وقوة بهيمية شهوية - فاعلم أنه بإزاء كل واحدة منها لذة وألم ، لأن اللذة إدراك الملائم ، والألم إدراك غير الملائم ، فلكل من الغرائز المدركة لذة هو نيله مقتضى طبعه الذي خلق لأجله ، وألم هو إدراكه خلاف مقتضى طبعه : (بغريزة العقل) لما خلقت لمعرفة حقائق الأمور ، فلذتها في المعرفة والعلم ، وألمها في الجهل ، و(غريزة الغضب) لما خلقت للتشفي والانتقام فلذتها في الغلبة التي يقتضيها طبعها وألمها في عدمها ، و(غريزة الشهوة) لما خلقت لتحصيل الغذاء الذي به قوام البدن ، فلذتها في نيل الغذاء ، وألمها في عدم نيله ، وهكذا في غيرها ، فاللذات والآلام أيضا على أربعة أقسام : العقلية والخيالية والغضبية والبهيمية . فاللذة العقلية كالانبساط (٣٦) الحاصل من معرفة الأشياء الكلية وإدراك الذوات المجردة النورية ، والألم العقلي كالانقباض الحاصل من الجهل . واللذة الخيالية كالفرح الحاصل من إدراك الصور والمعاني الجزئية الملائمة ، والألم الخيالي كإدراك غير الملائمة منها . واللذة المتعلقة بالقوة الغضبية كالانبساط الحاصل من الغلبة ونيل المناصب

والرياسات ، والألم المتعلق بها كالانقباض الحاصل من المغلوبية والعزل والمرؤسية . واللذة البهيمية هي المدركة من الأكل والجماع وأمثالهما ، والألم البهيمي ما يدرك من الجوع والعطش والحر والبرد وأشباهها . وهذا اللذات والآلام تصل إلى النفس وهي الملتذة والمتألمة حقيقة إلا أن كلا منها يصل إليها بواسطة القوة التي تتعلق بها . والفرق بين الكل ظاهر . وربما يشتبه بين ما يتعلق بالوهم والخيال وما يتعلق بالقوة الغضبية من حيث اشتراكهما في الترتب على التخيل . ويدفع الاشتباه بأن ما يتعلق بالغضبية وإن توقف على التخيل إلا أن

(هامش)

(

٣٦) وفي النسخة المخطوطة عندنا الابتهاج . (*)

ص ٦٣

المتأثر بالالتذاذ والتألم بعد التخيل هو الغضبية وبواسطتها تتأثر النفس ، ففي هذا النوع من اللذة والألم تتأثر الغضبية لم تتأثر النفس . وأما ما يتعلق بالوهم والخيال فالمتأثر بالالتذاذ والتألم هاتان القوتان ويصل التأثر منهما إلى النفس من دون توسط القوة الغضبية . ومما يوضح الفرق أن الالتذاذ والتألم الخياليين لا يتوقفان على وجود غلبة ومغلوبية مثلا في الخارج ، وأما الغضبيان فيتوقفان عليهما . ثم أقوى اللذات هي العقلية لكونها فعلية ذاتية غير زائلة باختلاف الأحوال ، وغيرها من اللذات الحسية انفعالية عرضية منفعلة زائلة ، وهي في مبدأ الحال مرغوبة عند الطبيعة ، وتتزايد بتزايد القوة الحيوانية ، وتتضعف بعضها إلى أن تنتفي بالمرة ، ويظهر قبحها عند العقل ، وأما العقلية فهي في البداية منتفية ، لأن إدراكها لا يحصل إلا للنفوس الزكية المتحلية بالأخلاق المرضية ، وبعد حصولها يظهر حسنها وشرفها ، وتتزايد بتزايد القوة العقلية ، إلى أن ينتهي إلى أقصى المراتب ، ولا يكون لها نقص ولا زوال . والعجب ممن ظن انحصار اللذة في الحسية وجعلها غاية كمال الإنسان وسعادته القصوى . والمتشرعون منهم قصروا اللذات الآخرة على الجنة والحور والغلمان وأمثالها ، وآلامها على النار والعقارب والحيات وأشباهها ، وجعلوا الوصول إلى الأولى والخلاص عن الثانية غاية لزهدهم وعبادتهم ، وكأنهم لم يعلموا أن هذه عبادة الأجراء والعبيد تركوا قليل المشتبهات ليصلوا إلى كثيرها .

وليت شعري أن ذلك كيف يدل على الكمال الحقيقي والقرب من الله سبحانه ! ولا أدري أن الباكي خوفا من النار وشوقا إلى اللذات الجسمية المطلوبة للنفس البهيمية كيف يعد من أهل التقرب إلى الله سبحانه ويستحق التعظيم ويوصف بعلو الرتبة ! وكأنهم لم يدركوا الابتهاجات الروحانية ، ولا لذة المعرفة بالله وحبه وأنسه ولم يسمعوا قول سيد الموحدين (٣٧) (ص) إلهي ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا في جنتك ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك . وبالجملة لا ريب في أن الإنسان في اللذة الجسمية يشارك الخنافس

(هامش)

(٣٧) المعني به هو أمير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام . (*)

ص ٦٤

والديدان والهمج من الحيوان ، وإنما يشابه الملائكة في البصيرة الباطنة والأخلاق الفاضلة ، وكيف يرتضي العاقل أن يجعل النفس الناطقة الشريفة خادمة للنفس البهيمية الخسيسة . والعجب من هؤلاء الجماعة (٣٨) مع هذا الاعتقاد يعظمون من يتنزه عن الشهوات الحيوانية ويستهين باللذات الحسية ويتخضعون له ويعدون أنفسهم أشقياء بالنسبة إليه ، ويذعنون أنه أقرب الناس إلى الله سبحانه وأعلى رتبة منهم بتنزهه عن الشهوات الطبيعية ، وقد اتفق كلهم على تنزه مبدع الكل وتعاليه عنها مستدلين بلزوم النقص فيه لولاه ، وكل ذلك يناقض رأيهم الأول . والسر فيه أنهم وإن ذهبوا إلى هذا الرأي الفاسد إلا أنه لما كانت غريزة العقل فيهم بعد موجودة ، وإن كانت ضعيفة ، فيرى ما هو كمال حقيقي لجوهرها كمالا ، ويحكم بنورانيتها الذاتية ، على كون ما هو فضيلة في الواقع فضيلة ، وما هو رذيلة في نفس الأمر رذيلة ، فيضطرهم إلى إكرام أهل التنزه عن الشهوات ، والاستهانة بالمكبين عليها . ومما يدل على قبح اللذات الحيوانية أن أهلها يكتمونها ويحفون ارتكابها ويستحيون عن إظهارها ، وإذا وصفوا بذلك تتغير وجوههم ، كما هو ظاهر من وصف الرجل بكثرة الأكل والجماع ، مع أن الجميل على الإطلاق يحسن إذاعته ، وصاحبه يحب أن يظهره ويوصف به . هذا مع أن البديهة حاكمة بأن هذه اللذات ليست لذات حقيقية ، بل هي دفع آلام حادثة للبدن (٣٩) فإن ما يتخيل لذة عند الأكل والجماع إنما هو

راحة من ألم الجوع ولذع المني ولذا لا يلتذ الشبعان من الأكل ، ومعلوم أن الراحة من الألم ليس كمالا وخيرا ، إذ الكمال الحقيقي والخير المطلق ما يكون كمالا وخيرا أبدا .
(هامش)
)
٣٨) المراد هم الذين حضروا اللذات في الحسية والكلام كله في هذا الرأي . (٣ ٩) الحق أن كل لذة بدنية ونفسية إنما هي إشباع شهوة أو غريزة تتطلب الإشباع ، حتى طلب المعارف والعلم إنما هو لإشباع غريزة حب الاستطلاع إلا أن طلب العلم لا يصل إلى حد الإشباع أبدا ، ولذا قال صلى الله عليه وآله وسلم : منهومان لا يشبعان طالب علم ، وطالب مال وليست كذلك الغريزة الجنسية وغريزة حب الأكل وأمثالهما فإنها تصل إلى حد الإشباع فتكتفي . (*)
ص ٦٥
إيقاظ فيه موعظة ونصيحة up
لما عرفت أن الإنسان في اللذة العقلية يشارك الملائكة ، وفي غيرها من الحسية المتعلقة بالقوى الثلاث ، أعني السبعية والبهيمية والشيطانية ، يشارك السباع والبهائم والشياطين - فاعلم أن من غلبت عليه إحدى اللذات الأربع كانت مشاركته لما ينسب إليه أكثر حتى إذا صارت الغلبة تامة لكان هو هو . فأنظر يا حبيبي أين تضع نفسك ، فإن الغلبة لو كانت لقوتك الشهوية حتى يكون أكثر همك الشهوات الحيوانية كالأكل والشرب والجماع وسائر النزوات البهيمية ، كنت واحدا من البهائم . وإن كانت لقوتك الغضبية حتى يكون جل ميلك إلى المناصب والرياسات الردية ، وإيذاء الناس بالضرب والشتم ، وباقي الحركات السبعية ، نزلت منزلة السباع . وإن كانت لقوتك الشيطانية حتى يكون غالب سعيك في استنباط وجوه المكر والحيل للوصول إلى مقتضيات قوتي الشهوة والغضب بأنواع الخداع والتلبيسات الوهمية دخلت في حزب الأبالسة . وإن كانت لقوتك العقلية حتى يكون جدك مقصورا على أخذ (٤٠) المعارف الإلهية واقتفاء (٤١) الفضائل الخليقة عرجت إلى أفق الملائكة القادسية . فمن كان عاقلا غير عدو لنفسه وجب عليه أن يصرف جل همه في تحصيل السعادة العلمية والعملية ، وإزالة النقائض الكامنة في نفسه ، وليقتصر على الأمور الشهوانية ، واللذات الجسمانية بقدر الضرورة ، بأن يكتفي من الغذاء بما يحفظ اعتدال مزاجه وقوام حياته ، ولا يكون قصده منه الالتذاذ ، بل سد الضرورة ودفع الألم ، ولا يضيع وقته في تحصيل أزيد من ذلك ، فإن تجاوز عنه فبقدر ما يحفظ رتبته ، ولا يوجب مهانته وذلته ، ومن اللباس بقدر ما يستر العورة ، ويدفع الحر والبرد ، فإن تجاوز عن ذلك فبقدر ما لا يؤدي إلى حقارته ، ولا يوجب السقوط بين أقرانه وأهل طبقته ، ومن الجماع بقدر ما يحفظ نوعه ، ويبقي
(هامش)
(٤٠) لم توجد في نسختنا الخطية ولكنها موجودة في نسخة خطية أخرى وفي المطبوعة . (٤١) في نسختنا الخطية هكذا واقتناء . (*)
ص ٦٦
نسله ، وإن تعدى فبقدر ما لا يخرجه عن السنة ، وليحذر عن الانهماك في مقتضيات قوتي الشهوة والغضب . لأنه يوجب الشقاوة الدائمة والهلاكة السرمدية . فالله الله في نفوسكم معاشر الأخوان أدركوها قبل أن تغرقوا في بحار المهالك ، وتنبهوا عن نوم الغفلة قبل أن تنسد عليكم السبل والمهالك ، وبادروا إلى تحصيل السعادات قبل أن تستحكم فيكم الملكات المهلكة ، والعادات المفسدة ، فإن إزالة الرذائل بعد استحكامها في غاية الصعوبة والمجاهدة مع أحزاب الشياطين بعد الكبر قلما يفيد الأثر ، والغلبة على النفس الأمارة بعد ضعف الهرم في غاية الإشكال ، إلا أنه في أي حال لا ينبغي أن تيأسوا من روح الله ، فاجتهدوا بقدر القوة والاستطاعة ، فإنه خير من التمادي في الباطل ، فلعل الله يدرككم بعظيم رحمته . ولقد قال الشيخ (٤٢) الفاضل أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه وهو الأستاذ في علم الأخلاق ، وأقدم الإسلاميين في تدوينه : إني تنبهت عن نوم الغفلة بعد الكبر واستحكام العادة ، فتوجهت إلى فطام نفسي عن رذائل الملكات ، وجاهدت جهادا عظيما حتى وفقني الله لاستخلاصها عما يهلكها ، فلا ييأس أحد من رحمة الله ، فإن النجاة لكل طالب مرجوة ، وأبواب الإفاضة أبدا مفتوحة فبادروا إخواني إلى تهذيب نفوسكم قبل
(هامش)

)
٤٢) هو الحكيم الأعظم والفيلسوف الأكبر أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب ابن مسكويه الخازن الرازي الأصل والأصفهاني المسكن والخاتمة كان من أعيان العلماء وأركان الحكماء معاصرا للشيخ أبي علي بن سينا . صحب الوزير المهلبي في أيام شبابه وكان من خاصته إلى أن اتصل بصحبة عضد الدولة البويهي فصار من كبار ندمائه ورسله إلى نظرائه ثم اختص بالوزير ابن العميد وابنه أبي الفتح له مؤلفات كثيرة بعضها في الحكمة ومنه كتاب الفوز الأكبر وكتاب الفوز الأصغر وجاويدان خرد بالفارسية في الحكمة وهو يقرب من خمسة آلاف بيت وبعضها في التأريخ ومنه تجارب الأمم وبعضها في الأخلاق ومنه كتاب الطهارة المشهور وهو الذي قصده المصنف ره هنا لأنه أول كتاب صنف في علم الأخلاق ، وقد مدحه أستاذ البشر وأعلم أهل البدو والحضر الحجة الأعظم الفيلسوف المحقق الخواجة نصير الدين الطوسي قدس سره بأبيات . وكان (ره) من علمائنا الإمامية قدس الله أسرارهم وقبره (بأصفهان) على باب (درب جناد) وقد اشتهر أن السيد (الدماد) الذي كان من أعاظم علمائنا وأكابر حكمائنا كان كلما اجتاز يقف على قبره ويقرأ الفاتحة (الترجمة عن الكنى والألقاب للمحدث الشهير الحاج شيخ (عباس القمي) قدس سره مع تصرف يسير منا) . (*)
ص ٦٧
أن يصير الرئيس مرؤسا ، والعقل مقهورا ، فيفسد جوهركم ، وتمسخ حقيقتكم ، ويدرككم الانتكاس في الخلق الذي هو خروج عن أفق الإنسان ودخول في زمرة البهائم والسباع والشياطين ، نعوذ بالله ونسأله العصمة من الخسران الذي لا نهاية له . وقد شبه الحكماء من أهمل سياسة نفسه الغافلة بمن له ياقوتة شريفة حمراء ، فرماها في نار مضطرمة فيحرقها ، حتى تصير كلسا (٤٣) لا منفعة فيها . (تتميم) ولا تظنن أن ما يفوت عن النفس من الصفاء والبهجة لأجل ما يعتريها من الكدرة الحاصلة من معصية من المعاصي يمكن تداركه ، فإن ذلك محال ، إذ غاية الأمر أن تتبع تلك المعصية بحسنة تمحي آثارها ، وتعيد النفس إلى ما كانت عليه قبل تلك المعصية ، فلا تزداد بتلك الحسنة أشرافا وسعادة ، ولو جاء بها من دون سيئة لزاد بها نور القلب وبهجته ، وحصلت له درجة في الجنة ، ولما تقدمت السيئة سقطت هذه الفائدة وانحصرت فائدتها في مجرد عود القلب إلى ما كان عليه قبلها ، وهذا نقصان لا حيلة لجبره ، ومثال ذلك أن المرآة التي تدنست بالخبث والصدأ إذا مسحت بالمصقلة وإن زال به هذا الخبث ، إلا أنه لا تزيد به جلاء وصفاء ، بخلاف ما إذا لم تتدنس أصلا ، فإن التصقيل يزيدها صفاء وجلاء ، وإلى ما ذكر أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : من قارف ذنبا فارقه عقل لم يعد إليه أبدا .
(هامش)
(٤٣) الكلس ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما ويتخذ منها بإحراقها . (*)
ص ٦٨
الباب الثاني
في بيان أقسام الأخلاقي وتفصيل القول فيها up
وفيه فصول أجناس الفضائل الأربعة والأقوال في حقيقة العدالة - حقيقة العدالة انقياد العقل العملي للعقل النظري ولوازم الأقوال في العدالة - العقل النظري هو المدرك للفضائل والرذائل - دفع أشكال في تقسيم الحكمة - تحقيق الوسط والأطراف - أجناس الرذائل وأنواعها - الفرق بين الفضيلة الرذيلة - العدالة أشرف الفضائل - إصلاح النفس قبل إصلاح الغير وأشرف وجوه العدالة عدالة السلطان - لا حاجة إلى العدالة مع رابطة المحبة - التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي .
ص ٦٩
فصل أجناس الفضائل الأربع والأقوال في حقيقة العدالةup
قد تبين في العلم الطبيعي أن للنفس الناطقة قوتين : أولاهما : قوة الإدراك و ثانيتهما : قوة التحريك ، ولكل منهما شعبتان : (الشعبة الأولى) للأولى العقل النظري ، وهو مبدأ التأثر عن المبادئ العالية بقبول الصور العلمية ، و(الشعبة الثانية) لها العقل العملي ، وهو مبدأ تحريك البدن في الأعمال الجزئية بالروية (١) . وهذه الشعبة من حيث تعلقها بقوتي الشهوة والغضب مبدأ لحدوث (٢) بعض الكيفيات الموجبة لفعل أو انفعال ، كالخجل والضحك والبكاء وغير ذلك ، ومن حيث استعمالها الوهم والمتخيلة مبدأ لاستنباط الآراء

والصنائع الجزئية . ومن حيث نسبتها بالعقل وحصول الازدواج بينهما سبب لحصول الآراء الكلية المتعلقة بالأعمال كحسن الصدق ، وقبح الكذب ، ونظائرهما . (الشعبة الأولى) للثانية قوة الغضب وهي مبدأ دفع غير الملائم على وجه الغلبة ، و(لشعبة الثانية) لها قوة الشهوة وهي مبدأ جلب الملائم . ثم إذا كانت القوة الأولى غالبة على سائر القوى ولم تنفعل عنها ، بل كانت هي مقهورة عنها مطيعة لها فيما تأمرها به وتنهاها عنه ، كان تصرف كل منها على وجه الاعتدال ، وانتظمت أمور النشأة الإنسانية ، وحصل تسالم القوى الأربع وتمازجها ، فتهذب كل واحد منها ، ويحصل له ما يخصه من الفضيلة ، فيحصل من تهذيب العاقلة العلم وتنبعه الحكمة ، ومن تهذيب العاملة العدالة ، ومن تهذيب الغضبية الحلم وتنبعه الشجاعة ، ومن تهذيب الشهوية العفة وتتبعه السخاوة . وعلى هذا تكون العدالة كمالا للقوة العملية . بطريق آخر قيل : إن النفس لما كانت ذات قوى أربع العاقلة والعاملة والشهوية

(هامش)

(١) إذا كان العقل العملي مبدأ لتحريك البدن فهو قوة تحريك لا قوة إدراك وفي الحقيقة أن غرضهم من العقل العملي هو إدراك ما ينبغي أن يعمل . (٢) وفي النسخة المخطوطة عندنا الحصول . ج : ١ (*)

ص ٧٠

والغضبية ، فإن كانت حركاتها على وجه الاعتدال ، وكانت الثلاث الأخيرة مطيعة للأولى ، واقتصرت من الأفعال على ما تعين لها ، حصلت أولا فضائل ثلاث هي الحكمة والعفة والشجاعة ، ثم يحصل من حصولها المترتب على تسالم القوى الأربع ، وانقهار الثلاث تحت الأولى حالة متشابهة هي كمال القوى الأربع وتمامها ، وهي العدالة . وعلى هذا لا تكون العدالة كمالا للقوة العملية فقط ، بل تكون كمالا للقوى بأسرها . وعلى الطريقين تكون أجناس الفضائل أربعا : الحكمة وهي معرفة حقائق الموجودات على ما هي عليه والموجودات إن لم يكن وجودها بقدرتنا واختيارنا فالعلم المتعلق بها هو الحكمة العملية . والعفة هي انقياد القوة الشهوية للعاقلة فيما تأمرها به وتنهاها عنه حتى تكتسب الحرية ، وتتخلص عن أسر عبودية الهوى . والشجاعة وهي إطاعة القوة الغضبية للعاقلة في الإقدام على الأمور الهائلة ، وعدم اضطرابها بالخوض فيما يقتضيه رأيها حتى يكون فعلها ممدوحا ، وصبرها محمودا . وتفسير هذه الفضائل الثلاث لا يتفاوت بالنظر إلى الطريقين . وأما العدالة فتفسيرها على الطريق الأول هو انقياد العقل العملي للقوة العاقلة وتبعيته لها في جميع تصرفاته ، أو ضبطه الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع الذي يحكم العقل أيضا بوجوب إطاعته ، أو سياسة قوتي الغضب والشهوة ، وحملها على مقتضى الحكمة ، وضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاه . وإلى هذا يرجع تعريف الغزالي إنها حالة للنفس وقوة بها يسوس الغضب والشهوة ، ويحملهما على مقتضى الحكمة ، ويضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها إذ المراد من الحالة والقوة هنا قوة الاستعلاء التي للعقل العملي لا نفس القوة العملية . وتفسيرها على الطريق الثاني هو إئتلاف جميع القوى ، واتفاقها على امتثالها للعاقلة ، بحيث يرتفع التخالف والتجاذب ، وتحصل لكل منها فضيلته المختصة به . ولا ريب في أن اتفاق جميع القوى وائتلافها هو كمال لجميعها لا للقوة العملية فقط .

ص ٧١

اللهم إلا أن يقال إن الائتلاف إنما يتحقق باستعمال كل من القوى على الوجه اللائق ، واستعمال كل قوة ولو كانت قوة نظرية إنما يكون من القوة العملية ، لأن شأنها تصريف القوى في المحال اللائقة على وجه الاعتدال ، وبدونها لا يتحقق صدور فعل عن قوة . ثم العدالة على الطريق الأول تكون أمرا بسيطا مستلزمة للملكات الثلاث أعني الحكمة والعفة والشجاعة ، وعلى الثاني تحتمل البساطة والتركيب على الظاهر ، وإن كانت البساطة أقرب نظرا إلى أن الاعتدال الخلقي بمنزلة الاعتدال المزاجي الحاصل من ازدواج العناصر المتخالفة ، وقد برهن في أصول الحكمة أن المزاج كيفية بسيطة . وتفصيل الكلام في المقام أنه إذا حصلت الملكات الثلاث حصل للعقل العملي قوة الاستعلاء والتدبير على جميع القوى ، بحيث كانت الجميع منقادة له ، واستعمل كلا منها على ما يقتضيه رأيه ، فإن جعلت العدالة عبارة عن نفس هذه القوة ، أو نفس تدبير التصرف في البدن وأمور المنزل والبلد ، دون الملكات الثلاث كانت العدالة بسيطة وكانت كمالا للعقل العملي فقط ، وإن جعلت نفس الملكات كانت مركبة ، وحينئذ لا يناسب جعلها فضيلة على حدة معدودة في أعداد الفضائل ، لأن جميع الأقسام لا يكون قسما منها ، وليس الائتلاف والامتزاج هيئة وحدانية عارضة للملكات الثلاث حتى تكون شيئا على حدة ونوعا مركبا . ثم على الطريقين يتحقق التلازم بين العدالة والملكات الثلاث إلا أنه على الطريق الأول تكون العدالة

علة ، والملكات الثلاث معلولة ، وعلى الطريق الثاني ينعكس ذلك لتوقف حصول العدالة على وجود تلك الملكات وامتزاجها ، فهي أجزاء للعدالة أو بمنزلتها .

تكملة العدالة انقياد العقل العملي للعقل النظري up

الحق أن حقيقة العدالة هو التفسير الأول المذكور في الطريق الأول ، أعني انقياد العقل العملي للقوة العاقلة ، وسائر التفاسير المذكورة في الطريقين لازمة له ، إذ الانقياد المذكور يلزمه اتفاق القوى وقوة الاستعلاء والسياسة

ص ٧٢

للعقل : العملي على قوتي الغضب شهوة ، أو نفس سياسته إياهما وضبطهما تحت إشارة العقل النظري ، وأمثال ذلك ، وعلى هذه التفاسير اللازمة للأول يلزم أن تكون العدالة جامعة لجميع الفضائل ، ويتحقق معناها في كل فضيلة حتى تكون فردا لها . . وتحقيق المقام أن انقياد العقل العملي للعاقلة يستلزم ضبط قوتي الغضب والشهوة تحت إشارة العقل ، وسياسته إياهما ، واستعلائه عليهما . وهذا يستلزم اتفاق جميع القوى وامتزاجها . فجميع الفضائل الصادرة عن قوتي الغضب والشهوة ، بل عن العاقلة أيضا إنما تكون بتوسط العقل العملي وضبطه إياها ، إلا أن ذلك لا يوجب كونها كمالا له حتى يعد من فضائله ، ووجهه ظاهر ، ولا كون الضبط المذكور عدالة . فالحق أن حقيقة العدالة هو مجرد انقياد العاملة للعاقلة ، ومثل الضبط والاستعلاء والسياسة من لوازمه ، والفضائل الصادرة عن القوى الأخرى بتوسط العقل العقلي إنما تندرج تحت لازم العدالة ، لا عينها . فمن أدرج جميع الفضائل تحت العدالة نظره إلى اعتبار ما يلزمها ، ومن لم يدرجه تحتها نظره إلى عدم اعتباره وعلى هذا لا بأس بأن يقال أن للعدالة إطلاقين (أحدهما) العدالة بالمعنى الأخص (وثانيهما) العدالة بالمعنى الأعم . ثم إن القوم ذكروا لكل واحد من الفضائل الأربع أنواعا ، فكما أدرجوا تحت كل من الحكمة والعفة والشجاعة أنواعا ، فكذا أدرجوا تحت العدالة أيضا أنواعا كالوفاء والصداقة والعبادة وغيرها .

وأنت - بعد ما علمت أن العدالة بالتفسير الأول هو انقياد العاملة للعاقلة في استعمال نفس العاقلة وقوتي الغضب والشهوة - تعلم أن الفضائل بأسرها إنما تحصل باستعمال العاملة القوى الثلاث ، فكل فضيلة إنما تتعلق حقيقتها بإحدى الثلاث ، وإن كان حصولها بتوسط العاملة وضبطها الثلاث ، إذ كون الاستعمال والضبط منها لا يقتضي استناد ما يحصل من الفضائل باستعمالها إليها مع صدورها حقيقة عن سائر القوى . وكذا لا يقتضي استناد ما يحصل من الرذائل لعدم انقيادها للعاقلة إليها . ومعلوم أنه لا يترتب على مجرد انقيادها أو عدمه لها فضائل ورذائل لم يكن لها تعلق بالثلاث أصلا ،

ص ٧٣

إذ كل فضيلة ورذيلة إما متعلق بالقوة العقلية ، أو بقوتي الغضب والشهوة بتوسط العاملة ، وليس لها في نفسها فضيلة ورذيلة على حدة كما لا يخفى . مع أنه لو كان الاستعمال والضبط منشأ لاستناد ما يحصل من الفضائل إليها لزم أن تستند إليها جميع الفضائل ، فكان اللازم إدخال جميع الفضائل تحت العدالة . وكذا الحال على تفسير العدالة بالطريق الثاني كما ظهر . وعلى هذا فيلزم من عدهم بعض الفضائل أنواع العدالة دون بعض آخر تخصيص بلا مخصص ، فالفضائل التي جعلوها أنواعا مندرجة تحت العدالة بعضها من أنواع الشجاعة أو لوازمها ، وبعضها من أنواع العفة أو آثارها ، وإن كان للعاملة من حيث التوسط مدخلية في حصول الجميع . فنحن لا نتابع القوم ، ونجري على مقتضى النظر من جعل أنواع الفضائل والرذائل وأصنافها ونتائجها متعلقة بالقوى الثلاث دون العقل العملي ، وإدخال جميعها تحت أجناسها على ما ينبغي من دون إدخال شيء منها تحت العدالة وضدها . ثم إن الرذائل والفضائل مع مدخلية القوة العملية فيها بالاستعمال ، إما متعلقة بمجرد إحدى القوى الثلاث ، أو باثنتين منها ، وبالثلاث . ومنال المتعلق بإحداها ظاهر كالجهل والعلم المتعلقين بالعاقلة ، والغضب والحلم المتعلقين بالقوة الغضبية ، والحرص والقناعة المتعلقين بالقوة الشهوية ، أما ما يتعلق باثنتين منها أو الثلاث ، فأما إن يكون له أصناف يتعلق بعضها ببعض وبعضها ببعض آخر ، كحب الجاه أعني طلب المنزلة في القلوب : فإنه إن كان المقصود منه الاستيلاء على الخلق والتفوق عليهم ، كان من رذائل قوة الغضب . وإن كان المقصود منه طلب المال ليتوسل به إلى شهوة البطن والفرج ، كان من رذائل قوة الشهوة ، وكذا الحسد أعني تمني زوال النعمة عن الغير : إن كان باعثه العداوة كان من رذائل القوة الغضبية . وإن كان باعثه مجرد وصول النعمة إليه كان من رذائل القوة الشهوية .

أو يكون للثلاث أو الاثنتين مدخلية بالاشتراك في نوع الفضيلة والرذيلة أو بعض أصنافه ، كالحسد الذي باعثه العداوة ، وتوقع وصول

النعمة إليه معا ، وكالغرور وهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، وتمييل النفس إليه بخدعة من الشيطان ، فإن النفس إن كانت مائلة بالطبع إلى شيء من مقتضيات
ص ٧٤
الشهوة ، واعتقدت جهلا كونه خيرا لها كان ذلك من رذائل قوتي العاقلة والشهوة ، وإن كانت مائلة إلى شيء من مقتضيات قوة الغضب . واعتقدت جهلا كونه خيرا لها كان ذلك من رذائل قوتي العاقلة والغضب ، وإن كانت مائلة إلى شيء من مقتضياتهما معا مع اعتقادها كونه خيرا لها كان من رذائل الثلاث معا . ثم مرادنا من تعلق صفة بالقوى المتعددة وكونها معدودة من رذائلها أو فضائلها أن يكون لكل منها تأثير في حدوثها وإيجادها ، أي يكون من جملة عللها الفاعلة الموجدة ، بحيث لو قطع النظر عن فعل واحدة منها لم تتحقق هذه الصفة ، فإن الغرور يتحقق بالميل والاعتقاد ، بمعنى أن كلا منهما مؤثر في إيجاده وإحداثه ، ولو لم يكن الاعتقاد المتعلق بالعاقلة والميل المتعلق بالشهوة والغضب لم يوجد غرور . فلو كانت مدخلية قوة في صفة بمجرد الباعثية ، أي كانت باعثة لقوة أخرى على إيجاد هذه الصفة وإحداثها ، بحيث أمكن تحقق هذه الصفة مع قطع النظر عن هذه القوة بباعث آخر لم تكن متعلقة بها ، ولم نعدها من رذائلها أو فضائلها ، بل كانت متعلقة بالقوة الأخرى التي هي مباشرة لإحداثها وإيجادها ، مثل الغضب الحاصل من فقد شيء من مقتضيات شهوة البطن والفرج ، وإن كان باعثه قوة الشهوة إلا أنه ليس لقوة الشهوة وفعلها شركة في إحداثه وإيجاده ، بل الإحداث إنما هو من القوة الغضبية ، ومدخلية الشهوية إنما هو بتحريكها وتهييجها الغضبية للإحداث والإيجاد ، ولا ريب في أن للعاقلة هذه الباعثية في صدور أكثر الصفات مع عدم عدها من رذائلها أو فضائلها (٣) .

وإذا عرفت ذلك فاعلم أنا نذكر أولا ما يتعلق بالعاقلة من الرذائل والفضائل ثم ما يتعلق بالقوة الغضبية منهما ، ثم ما يتعلق بالشهوية منهما ، ثم ما يتعلق بهما أو الثلاث .

(هامش)

(٣) لم توجد في نسختنا الخطبة لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى وفي المطبوعة . (*)

ص ٧٥

فصل العقل النظري هو المدرك للفضائل والرذائلup

إعلم أن كل واحد من العقل العملي والعقل النظري رئيس مطلق من وجه أما الأول فمن حيث أن استعمال جميع القوى حتى العاقلة على النحو الأصلح موكول إليه ، وأما الثاني فمن حيث أن السعادة القصوى وغاية الغايات أعني التحلي بحقائق الموجودات مستندة إليه ، وأيضا إدراك ما هو الخير والصلاح من شأنه فهو المرشد والدليل للعقل العملي في تصرفاته . وقيل : إن إدراك فضائل الأعمال ورذائلها من شأن العقل العملي ، كما صرح به الشيخ في الشفاء بقوله : إن كمال العقل العملي استنباط الآراء الكلية في الفضائل والرذائل من الأعمال على وجه الابتناء على المشهورات المطابقة في الواقع للبرهان ، وتحقيق ذلك البرهان متعلق بكمال القوة النظرية . والحق أن مطلق الإدراك والإرشاد إنما هو من العقل النظري فهو بمنزلة المشير الناصح ، والعقل العملي بمنزلة المنفذ الممضي لإشاراته وما ينفذ فيه الإشارة فهو قوة الغضب والشهوة .

دفع الإشكال في تقسيم الحكمة up

إن قيل : إن القوم قسموا الحكمة أولا إلى النظرية والعملية ، ثم قسموا العملية إلى ثلاثة أقسام : واحد منها علم الأخلاق المشتمل على الفضائل الأربع التي إحداها الحكمة ، فيلزم أن تكون الحكمة قسما من نفسها . قلنا : الحكمة التي هي المقسم هو العلم بأعيان الموجودات ، سواء كانت لموجودات إلهية أي واقعة بقدرة الباري سبحانه ، أو موجودات إنسانية أي واقعة بقدرتنا واختيارنا ، ولما كان هذا العلم أعني الحكمة التي هي المقسم قسما من الموجودات بالمعنى الثاني ، فلا بأس بالبحث عنه في علم الأخلاق ، فإن غاية ما يلزم أن تكون الحكمة موضوعا لمسألة هي جزؤها بأن يجعل عنوانا فيها ويحمل عليها كونها ملكة محمودة ، أو طريق اكتسابها كذا . وبالجملة لا مانع من أن يجعل علم يبحث فيه عن أحوال الموجودات
ص ٧٦
موضوعا لمسألة ، ويبحث عنه فيه بإثبات صفة له لأجل أنه أيضا من الموجودات كما إنه في العلم الأعلى الذي يبحث فيه عن الموجودات

من حيث وجودها ، يبحث عن نفس العلم لكونه من الموجودات ، ويجعل موضوعا لمسألة من مسائله ، ولا يلزم من هذا كون الشيء جزءا لنفسه . وأيضا نقول كما أن الحكمة العملية قسم من مطلق الحكمة لتعلق العمل بالنظر ، فكذا المطلق قسم منها لتعلق النظر بالعمل ، وحينئذ كما أن العدالة من الحكمة باعتبار فكذا الحكمة من العدالة باعتبار آخر ، فتختلف الحيثية ولا يلزم محذور . وقيل : في الجواب أن المراد من الحكمة التي هي إحدى الفضائل الأربع استعمال العقل على الوجه الأصلح ، وحينئذ فلا يرد إشكال أصلا لعدم كون الحكمة بهذا المعنى عين المقسم لأنها جزء له . وفيه أن الحكمة بهذا المعنى هي العدالة على ما تقرر ، مع أن العدالة أيضا إحدى الفضائل الأربع . تنبيه قد صرح علماء الأخلاق بأن صاحب الفضائل الأربع لا يستحق المدح ما لم تتعد فضائلها إلى الغير ، ولذا لا يسمى صاحب ملكة السخاء بدون البذل سخيا بل منفاقا ، ولا صاحب ملكة الشجاعة بدون ظهور آثارها شجاعا بل غيورا ، ولا صاحب ملكة الحكمة بدونها حكيما بل مستبصرا . والظاهر أن المراد باستحقاق المدح هو حكم العقل بوجوب المدح ، فإن من تعدى أثره يرجى نفعه ، ويخاف ضره ، فيحكم العقل بلزوم مدحه جلبا للنفع ، أو دفعا للضرر ، وأما من لا يرجى خيره وشره فلا يحكم العقل بوجوب مدحه وإن بلغ في الكمال ما بلغ .

فصل تحقيق الوسط والأطرافup

لا ريب . في أنه بإزاء كل فضيلة رذيلة هي ضدها ، ولما عرفت أن أجناس الفضائل أربعة فأجناس الرذائل أيضا في بادئ النظر أربعة : الجهل ، وهو ضد الحكمة ، والجبن ، وهو ضد الشجاعة ، والشره وهو ضد العفة ، والجور ، وهو ضد العدالة . وعند التحقيق يظهر أن لكل فضيلة حدا معينا ، والتجاوز عنه بالإفراط أو التفريط يؤدي إلى الرذيلة ، فالفضائل بمنزلة الأوساط ، والرذائل بمثابة الأطراف ، والوسط واحد معين لا يقبل التعدد ،

ص ٧٧

والأطراف غير متناهية عددا . فالفضيلة بمثابة مركز الدائرة ، والرذائل بمثابة سائر النقاط المفروضة من المركز إلى المحيط ، فإن المركز نقطة معينة ، مع كونه أبعد النقاط من المحيط ، وسائر النقاط المفروضة من جوانبه غير متناهية ، مع أن كلا منها أقرب منه من طرف إليه . فعلى هذا يكون بإزاء كل فضيلة رذائل غير متناهية ، لأن الوسط محدود معين ، والأطراف غير محدودة ، وتكون الفضيلة في غاية البعد عن الرذيلة التي هي نهاية الرذائل ، ويكون كل منها أقرب منها إلى النهاية (٤) ، ومجرد الانحراف عن الفضيلة من أي طرف اتفق يوجب الوقوع في رذيلة . والثبات على الفضيلة والاستقامة في سلوك طريقها بمنزلة الحركة على الخط المستقيم وارتكاب الرذيلة كالانحراف عنه ، ولا ريب في أن الخط المستقيم هو أقصر الخطوط الواصلة بين النقطتين ، وهو لا يكون إلا واحدا ، وأما الخطوط المنحنية بينهما فغير متناهية ، فالاستقامة في طريق الفضيلة وملازمتها على نهج واحد ، والانحراف عنه تكون له مناهج غير متناهية ، ولذلك غلبت دواعي الشر على بواعث الخير . ويظهر مما ذكر أن وجدان الوسط الحقيقي صعب ، والثبات عليه بعد الوجدان أصعب . لأن الاستقامة على جادة الاعتدال في غاية الإشكال ، وهذا معنى قول الحكماء إصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها ، ولزوم الصوب (٥) بعد ذلك حتى لا يخطيها أسر ولذلك لما أمر فخر الرسل بالاستقامة في قوله تعالى : فاستقم كما أمرت (٦) . قال شيبتني سورة هود عليه السلام ، إذ وجد أن الوسط الحقيقي فيما بين الأطراف العير المتناهية المتقابلة مشكل ، والثبات عليه بعد الوجدان أشكل . وقال (المحقق الطوسي) وجماعة : إن ما ورد في إشارات النواميس من أن الصراط المستقيم أدق من الشعر ، وأحد من السيف إشارة إلى هذا المعنى وغير خفي بأن هذا التأويل جرأة على الشريعة القويمة ، وهتك لأستار السنة

(هامش)

(

٤) أي أن كلا من الرذائل أقرب من الفضيلة إلى النهاية . (٥) الصواب : يقال فلان مستقيم الصوت إذا لم يزغ عن قصده يمينا وشمالا . (٦) هود الآية : ١١٢ . (*)

ص ٧٨

الكريمة . والواجب الإذعان بظاهر ما ورد من أمور الآخرة . نعم يمكن أن يقال كما مر : إن الأمور الأخروية التي حصل بها الوعد والوعيد كلها أمور محققة ثابتة على ما أخبر به ، إلا أنها صور للأخلاق ، والصفات المكتسبة في هذه النشأة قد ظهرت بتلك الصور في

دار العقبى بحسب المرتبة ، إذ ظهورات الأشياء مختلفة بحسب اختلاف المراتب والنشآت ، فمواد ما يؤذي ويريح من الصور في موطن المعاد إنما هو الأخلاق والنيات المكتسبة في هذه النشأة . وهذا المذهب مما استقر عليه آراء أساطين الحكمة والعرفان ، وذكرنا الظواهر الدالة عليه من الآيات والأخبار ، وأشرنا إلى حقيقة الحال فيه . وعلى هذا فالصراط المستقيم الممدود كالجسر على الجحيم صورة لتوسط الأخلاق ، والجحيم صورة لأطرافها ، فمن ثبت قدمه على الوسط هنا لم يزل عن الصراط هناك ووصل إلى الجنة التي وعدها الله المتقين ، ومن مال إلى الأطراف هنا سقط هناك في جهنم التي أحاطت بالكافرين . ثم الوسط إما حقيقي وهو ما تكون نسبته إلى الطرفين على السواء كالأربعة بالنسبة إلى الاثنين والستة ، وهذا كالمعتدل الحقيقي الذي أنكر الأطباء وجوده ، أو إضافي وهو أقرب ما يمكن تحققه للنوع أو الشخص إلى الحقيقي ، ويتحقق به كمالهما اللائق بحالهما (٧) وإن لم يصل إليه ، فالتسمية بالوسط إنما هو بالنسبة إلى الأطراف التي هي أبعد من الحقيقي بالإضافة إليه .

وهذا كالاعتدالات النوعية والشخصية التي أثبتها الأطباء ، فإن المراد منها الاعتدالات التي يمكن تحققها للأنواع والأشخاص ، وهو القدر الذي يليق بكل نوع أو شخص أن يكون عليه ، وإن لم يكن اعتدالا حقيقيا بمعنى تساوي الأجزاء البسيطة العنصرية وتكافؤها في القوة والأقربية إلى الحقيقي بالنسبة إلى سائر الأطراف سمي إضافيا . ثم الوسط المعتبر هنا هو الإضافي لتعذر وجدان الحقيقي والثبات عليه ، ولذا تختلف الفضيلة باختلاف الأشخاص والأحوال والازمان ، فربما كانت مرتبة من الوسط الإضافي فضيلة بالنظر إلى شخص أو حال أو

(هامش)

(٧) غير موجودة في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى وفي المطبوعة . (*)

ص ٧٩

وقت ، ورذيلة بالنسبة إلى غيره . وتوضيح الكلام أنه لا ريب في أن الوسط الحقيقي في الأخلاق لكونه في حكم نقطة غير منقسمة لا يمكن وجدانه ولا الثبات عليه ، ولذا ترى من هو متصف بفضيلة من الفضائل لا يمكن الحكم بكون تلك الفضيلة هي الوسط الحقيقي ، إلا أنه لما كانت تلك الفضيلة (٨) قريبة إليه ولا يمكن وجود الأقرب منها إليه له ، يحكم بكونها وسطا إضافيا لأقربيتها إليه بالنسبة إلى سائر المراتب فالاعتدال الإضافي له عرض ، وسطه الاعتدال الحقيقي ، وطرفاه طرفا الإفراط والتفريط ، إلا أنه ما لم يخرج عن هذين الطرفين يكون اعتدالا إضافيا ، وكلما كان أقرب إلى الحقيقي كان أكمل وأقوى ، وإذا خرج عنهما دخل في الرذيلة . لا يقال على هذا ينبغي أن يكون الاعتدال الطبي في المزاج أيضا كذلك أي له عرض وسطه الاعتدال الحقيقي وطرفاه خارجان عن الاعتدال الطبي ، حتى أنه كلما قرب إلى الحقيقي صار الطبي أقوى وأكمل مع أنه ليس الأمر كذلك ، إذ القياس يقتضي الخروج عن الاعتدال الطبي ، أو ضعفه لقربه إلى الحقيقي . بيان ذلك أن الاعتدال الحقيقي في المزاج أن تكون أجزاء العناصر متكافئة القوة ، والاعتدال الطبي في نوع الإنسان أو شخص من أشخاصه أن تكون الأجزاء الحارة مثلا من عشرة إلى اثني عشرة ، والباردة من ثمانية إلى تسعة ، واليابسة من سبعة إلى ثمانية ، والرطبة من ستة إلى سبعة ، فإذا كانت الأجزاء الحارة ستة ، والباردة خمسة ، واليابسة أربعة ، والرطبة ثلاثة كانت خارجة عن الاعتدال الطبي ، مع صيرورته أقرب إلى الحقيقي ، بل إذا فرضت تكافؤ أجزاء العناصر الأربعة حتى حصل نفس الاعتدال الحقيقي خرجت أيضا عنه ، فلا يكون الحقيقي وسط الطبي حتى أنه كلما يصير إليه أقرب يكون أقوى وأكمل . لأنا نقول نحن لا ندعي : أن الحقيقي وسط الطبي بل هو أمر مغاير له ، والحقيقي في طرفه الخارج ، فإن له طرفين : أحدهما أن تصير

(هامش)

(

٨) هذه العبارة بتمامها لم توجد في نسختنا الخطية . (*)

ص ٨٠

الأجزاء أقرب في التساوي مما كان للطبي إلى أن يبلغ إلى الحقيقي ، والثاني أن يصير أبعد فيه مما كان له إلى غير النهاية ، إلا أن بعض مراتب الطرفين التي منها الاعتدال الحقيقي غير ممكن الوقوع فتأمل . فإن قيل : إن الوسط المعتبر هنا إن كان إضافيا ، لكان له عرض كعرض المزاج ، فلا يناسب وصفه بالحدة والدقة ، قلنا : كما في عرض المزاج مرتبة هي أفضل المراتب وأقربها إلى الحقيقي ،

وهي المطلوبة بالذات ، ولا ريب في أن خصوص هذه ليس لها عرض واسعة ، فلا بأس بوصفها بالدقة والحدة ، وأما سائر المراتب المعدودة من الوسط وإن لم تكن خالية عن شوائب الإفراط والتفريط ، إلا أنه لما كان لها قرب محدود إلى المرتبة المطلوبة بحيث يصدق معه كون النوع أو الشخص باقيا على كماله اللائق به عدت من الأوساط والفضائل ، كما أن غير الأقرب إلى الاعتدال الحقيقي من مراتب عرض المزاج يعد من الاعتدال : لكون النوع أو الشخص معه باقيا محفوظا بحيث لا يظهر خلل بين في أفعاله وإن لم يخل عن الانحراف ، ولو وصف هذه المراتب أيضا بالحدة والدقة مع سعتها فوجهه أن وجدانها والثبات عليها لا يخلو أيضا من صعوبة .

فصل أجناس الرذائل وأنواعهاup

قد ظهر مما ذكر أنه بإزاء كل فضيلة رذائل غير متناهية من طرفي الإفراط والتفريط ، وليس لكل منها اسم معين ولا يمكن عد الجميع وليس على صاحب الصناعة حصر مثلها ، لأن وظيفته بيان الأصول والقوانين الكلية ، لا إحصاء الأعداد الجزئية . والقانون اللازم بيانه هو أن الانحراف عن الوسط إما إلى طرف الإفراط أو إلى طرف التفريط ، فيكون بإزاء كل فضيلة جنسان من الرذيلة ، ولما كانت أجناس الفضائل أربعة فتكون أجناس الرذائل ثمانية (اثنان) بإزاء الحكمة الجربزة والبله : و(الأول) في طرف الإفراط وهو استعمال الفكر في ما لا ينبغي أو في أقل منه ، والأولى أن يصير عنهما (بالسفسطة) أي الحكمة المموهة ، و(الجهل) أي البسيط منه ، لأن حقيقة الحكمة هو العلم

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

١٠٥ 03

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ٨١

بحقائق الأشياء على ما هي عليه وهو موقوف على اعتدال القوة العاقلة ، فإذا حصلت له حدة خارجة عن الاعتدال يخرج عن الحد اللائق ويستخرج أمورا دقيقة غير مطابقة للواقع ، والعلم بهذه الأمور هو ضد الحكمة من طرف الإفراط وإذا حصلت لها بلادة لا ينتقل إلى شيء فلا يحصل لها العلم بالحقائق وهذا هو الجهل وهو ضده من طرف التفريط (واثنان) بإزاء الشجاعة التهور والجبن : (الأول) في طرف الإفراط وهو الإقدام على ما ينبغي الحذر عنه ، و(الثاني) في طرف التفريط وهو الحذر عما ينبغي الإقدام عليه . (واثنان) بإزاء العفة وهما : الشره والخمود : و(الأول) في طرف الإفراط وهو الانهماك - اللذات الشهوية على ما لا يحسن شرعا وعقلا ، و(الثاني) في طرف التفريط وهو سكون النفس عن طلب ما هو ضروري للبدن . (واثنان) بإزاء العدالة وهما : الظلم والانظلام : و(الأول) في طرف الإفراط وهو التصرف في حقوق الناس وأموالهم بدون حق ، و(الثاني) في طرف التفريط وهو تسكين الظالم من الظلم عليه وانقياده له فيما يريده من الجبر والتعدي على سبيل المذلة ، هكذا قيل . والحق أن العدالة مع ملاحظة ما لا ينفك عنها من لازمها ، لها طرف واحد يسمى جورا وظلما ، وهو يشمل جميع ذمائم الصفات ، ولا يختص بالتصرف في حقوق الناس وأموالهم بدون جهة شرعية ، لأن العدالة بهذا المعنى - كما عرفت - عبارة عن ضبط العقل العملي جميع القوى تحت إشارة العقل النظري ، فهو جامع للكمالات بأسرها ، فالظلم الذي هو مقابله جامع للنقائص بأسرها ، إذ حقيقة الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وهو يتناول جميع ذمائم الصفات والأفعال فتمكين الظالم من ظلمه لما كان صفة ذميمة يكون ظلما ، على أن من مكن الظالم من الظلم عليه وانقاد له ذلة ، فقد ظلم نفسه ، والظلم على النفس أيضا من أقسام الظلم .

هذا هو بيان الطرفين لكل من الأجناس الأربعة للفضيلة . ثم لكل واحد من أجناس الرذائل والفضائل أنواع ولوازم من الأخلاق والأفعال ذكرها علماء الأخلاق في كتبهم ، وقد ذكروا للعدالة أيضا أنواعا ، وقد عرفت فيما تقدم أن تخصيص بعض الصفات بالاندراج تحتها مما لا وجه

ص ٨٢

له ، إذ جميع الرذائل والفضائل لا يخرج عن التعلق بالقوى الثلاث ، أعني العاقلة والغضبية والشهوية ، وإن كان للقوة العملية مدخلية في الجميع من حيث التوسط ، فنحن ندخل الجميع تحت أجناس القوى الثلاث من غير اندراج شيء منها تحت العدالة ، وقد عرفت

أن بعضها متعلق بالعاقلة فقط ، وبعضها بالقوة الغضبية فقط ، وبعضها بالشهوية فقط ، وبعضها بالاثنين منها أو الثلاث معا . ، فنحن نذكر ذلك في مقامات أربعة . ولمزيد الإحاطة نشير هنا إجمالا إلى أسماء الأجناس والأنواع واللوازم التي لكل جنس ، ونذكر أولا ما يتعلق بالغضبية ، ثم ما يتعلق بالشهوية ، ثم ما يتعلق بالثلاث أو الاثنتين منها ، وتذكر أولا الرذيلة ، ثم نشير إلى ضدها من الفضيلة إن كان له اسم ، ثم في باب المعالجات نذكر معالجة كل رذيلة من الأجناس والأنواع والنتائج ونذيلها بذكر ضدها من الفضيلة ، ونذكر أولا جنسي الرذيلة لكل قوة ، ونذيلهما بضدهما الذي هو جنس فضيلتها ، ثم نذكر الأنواع والنتائج على النحو المذكور ، أي نذكر أولا الرذيلة بأحكامها ومعالجاتها (٩) ، ثم نشير إلى ضدها ، وما ورد في مدحه ترغيبا للطالبين على أخذه والاجتناب عن ضده ، ولذلك لم نتابع القوم في التفريق بين الرذائل والفضائل وذكر كل منهما على حدة .

ثم بيان الأنواع واللوازم على ما ذكر أكثره القوم لا يخلو عن الاختلال إما في التعريف والتفسير ، أو في الفرق والتمييز ، أو في الادخال تحت ما جعلوه نوعا له ، أو غير ذلك من وجوه الاختلال ، فنحن لا نتبعهم في ذلك ، ونبينها إدخالا وتمييزا وتعريفا ما يقتضيه النظر الصحيح ، فنقول : أما جنسا الرذيلة للقوة العقلية ، فأولهما (الجربزة والسفسطة) وهي من طرف الإفراط ، و ثانيهما (الجهل البسيط) وهو من طرف التفريط وضدهما (العلم والحكمة) ، وأما الأنواع واللوازم المترتبة عليهما ، فمنها (الجهل المركب) وهو منم باب رداءة الكيفية . ومنها (الحيرة والشك) وهو من طرف الإفراط على ما قيل ، وضد الجهل المركب إدراك ما هو الحق أو زوال العلم بأنه يعلم ، وضد الحيرة الجزم بأحد الطرفين . وبذلك يظهر أن

(هامش)

(٩) هذه الكلمة موجودة في نسختنا الخطية فقط . (*)

ص ٨٣

اليقين ضد لكل منهما ، لأنه اعتقاد جازم مطابق للواقع ، فمن حيث اعتبار الجزم فيه يكون ضدا للحيرة ، ومن حيث اعتبار المطابقة للواقع يكون ضدا للجهل المركب ، ومنشأ حصول اليقين هو استقامة الذهن وصفاؤه مع مراعاة شرائط الاستدلال ، ومنشأ الجهل المركب اعوجاج الذهن ، أو حصول الخطأ في الاستدلال ، أو وجود مانع من إفاضة الحق كعصبية ، أو تقليد أو أمثال ذلك ، ومنشأ الحيرة هو قصور الذهن وكدرته ، أو الالتهاب الموجب للتجاوز عن المطلوب ، أو عدم الإحاطة بمقدماته ، ومنها (الشرك) وضده التوحيد . ومنها الوساوس النفسانية والخواطر الباطلة الشيطانية ، وهذا أيضا من باب رداءة الكيفية ، وكان الظاهر أن يعد ذلك من رذائل قوتي الوهم والمتخيلة دون العاقلة ، إذ الغالب أنها لا تنفك عن الاختلال فيهما ، إلا أنك قد عرفت العذر في ذلك ، وضدها الخواطر المحمودة التي من جملتها الفكر في بدائع صنع الله سبحانه وعجائب مخلوقاته . ومنها (استنباط المكر والحيلة) للوصول إلى مقتضيات الشهوة والغضب ، وهو من طرف الإفراط . وأما جنسا الرذائل للقوة الغضبية ، فأولهما (التهور) وثانيهما (الجبن) وقد عرفت أن ضدهما من الفضيلة (الشجاعة) . وأما الأنواع واللوازم والنتائج المترتبة عليها ، فمنها (الخوف) وهو هيئة نفسانية مؤذية تحدث من توقع مكروه أو زوال مرغوب ، وهو مذموم إلا ما كان لأجل المعصية والخيانة ، أو من الله وعظمته . والمذموم من رذائل تلك القوة ومن نتائج الجبن وضده الأمن من مكر الله ، وهو - أي الممدوح من الخوف - يلازم الرجاء وضده الأمن من مكر الله ، وهو - أي الممدوح من الخوف - يلازم الرجاء وضده اليأس . ومنها (صغر النفس) أي ملكة العجز عن تحمل الواردات وهو من نتائج الجبن ، وضده كبر النفس أي ملكة التحمل لما يرد عليه كائنا ما كان .

ومن جملة التحمل التحمل على الخوض في الأهوال ، وقوة المقاومة مع الشدائد والآلام ويسمى (بالثبات) فهو أخص من كبر النفس ، وضده الاضطراب في الأهوال والشدائد . ومن جملة الثبات الثبات في الإيمان ، ومنها (دناءة الهمة) وهو القصور عن طلب معالي الأمور وهو من لوازم ضعف النفس وصغرها ، وضده (علو الهمة) الذي هو من لوازم

ص ٨٤

كبر النفس وشجاعتها ، أي السعي في تحصيل السعادة والكمال وطلب الأمور العالية من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها . ومن أفراد علو الهمة الشهامة ، ويأتي تفسيرها . ومنها (عدم الغيرة والحمية) أي الإهمال في محافظة ما يلزم حفظه ، وهو أيضا من نتائج صغر النفس وضعفها وضده ظاهر . ومنها (العجلة) وهو المعنى الراتب (١٠) في القلب الباعث على الإقدام على الأمر بأول خاطر من

دون توقف فيه ، وهو أيضا من نتائج صغر النفس وضعفها ، وضدها الأناءة والتأني ، (التعسف) قريب من العجلة ، وضده أعني (التوقف) قريب من الأناءة ، ويأتي الفرق بينهما ، والوقار يتناول التأني والتوقف ، وهو اطمئنان النفس وسكونها عند الحركات والأفعال في الابتداء والأثناء ، وهو من لوازم كبر النفس وشجاعتها . ومنها (سوء الظن بالله تعالى وبالمؤمنين) وهو من لوازم الجبن وضعف النفس ، وربما كان من باب رداءة الكيفية ، فضده أعني حسن الظن بهما من آثار الشجاعة وكبر النفس . ومنها (الغضب) وهو حركة نفسانية يوجب حركة الروح من الداخل إلى الخارج للغلبة وهو من باب الإفراط ، وضده الحلم . ومنها (الانتقام) وهو من نتائج الغضب ، وضده العفو . ومنها (العنف) وهو أيضا من نتائج الغضب ، وضده الرفق . ومنها (سوء الخلق) بالمعنى الأخص وهو أيضا من نتائجه ، وضده (حسن الخلق) بالمعنى الأخص ، ومنها (الحقد) وهو العداوة الكامنة ، أي إرادة الشر وقصد زوال الخير من المسلم ، وهو أيضا من ثمرات الغضب . ومنها (العداوة) الظاهرة ، وضدها (النصيحة) أي إرادة الخير والصلاح ، ودفع الشر والفساد عن كل مسلم . ثم للغضب والحقد لوازم هي الضرب والفحش واللعن والطعن . ومنها (العجب) وهو استعظام النفس ، وضده انكسارها واستحقارها (١١) . ومنها (الكبر) وهو التعظيم الموجب لرؤية النفس فوق الغير ، وضده ( التواضع) وهو أن لا يرى لنفسه مزية على الغير .

ومنها (الافتخار) وهو المباهاة بما يظنه كمالا وهو من شعب الكبر . ومنها (البغي) وهو عدم

(هامش)

(١٠) الراتب : عيش راتب : أي دائم ثابت . (١١) من كلمة (منها) إلى قوله و(استحقارها) بتمام العبارة لم توجد في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى . (*)

ص ٨٥

الانقياد لمن يجب أن ينقاد وهو أيضا من شعب الكبر . وضده (التسليم) والانقياد لمن يجب الانقياد إليه وإطاعته ، وقد يفسر بمطلق العلو والاستطالة (١٢) ومنها (تزكية النفس) وضده الاعتراف بنقائصها . ومنها (العصبية) وهي الحماية عن نفسه وعما ينتسب إليه بالباطل والخروج عن الحق . ومنها (كتمان الحق) وضدهما الإنصاف والاستقامة على الحق . ومنها (القساوة) وهو عدم التأثر عن مشاهدة تألم أبناء النوع ، وضدها الرحمة . وأما جنسا الرذائل المتعلقة بالقوة الشهوية فأحدهما (الشره) وثانيهما (الخمود) وضدهما (العفة) ، وأما الأنواع والنتائج واللوازم المتعلقة بها ، فمنها (حب الدنيا) . ومنها (حب المال) وضدها الزهد . ومنها (الغنى) وضده الفقر . ومنها (الحرص) وضده القناعة . ومنها (الطمع) وضده الاستغناء عن الناس . (البخل) وضده السخاء ، وتندرج تحته وجوه الإنفاقات بأسرها . ومنها (طلب الحرام) وعدم الاجتناب عنه ، وضده الورع والتقوى بالمعنى الخاص . ومنها (الغدر والخيانة) وضدهما الأمانة . ومنها (أنواع الفجور) من الزنا واللواط وشرب الخمر والاشتغال بالملاهي وأمثالها . ومنها (الخوض في الباطل) . ومنها (التكلم بما لا يعني وبالفضول) وضدهما الترك والصمت ، أو بالتكلم بما يعني يقدر الضرورة . وأما الرذائل والفضائل المتعلقة بالقوى الثلاث ، أو باثنتين منها : فمنها (الحسد) وضده النصيحة . ومنها (الإيذاء والإهانة والاحتقار) وضدها كف الأذى والاكرام والتعظيم ، والإيذاء قريب من الظلم بالمعنى الأخص أو أعم منه ، وضد الظلم بالمعنى الأخص العدالة بالمعنى الأخص .

ومنها (إخافة المسلم وإدخال الكرب في قلبه) وضدها إزالة الخوف والكرب عنه . ومنها (ترك إعانة المسلمين) وضده قضاء حوائجهم . ومنها (المداهنة) في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وضده السعي فيهما . ومنها (الهجرة والتباعد عن الأخوان) وضده التآلف والتزاور . ومنها (قطع الرحم) وضده الصلة . ومنها (عقوق الوالدين) وضده البر إليهما . ومنها (تجسس العيوب)

(هامش)

(١٢) من كلمة (منها) إلى قوله و(الاستطالة) بتمام العبارة لم توجد في نسختنا الخطية لكنها موجودة في نسخة خطية أخرى . ج : ١ (*)

ص ٨٦

وضده الستر . ومنها (إفشاء السر) وضده الكتمان . ومنها (الافساد بين الناس) وضده الإصلاح بينهم . ومنها (الشماتة بمسلم) . ومنها (المراء والجدال والخصومة) وضدهما طيب الكلام . ومنها (السخرية والاستهزاء) أو ضدهما المزاح . ومنها (الغيبة) وضدها المدح ودفع الذم . ومنها (الكذب) وضده الصدق ، ولجميع آفات اللسان مما له ضد خاص ، ومما ليس له ضد بخصوصه ضد عام هو

الصمت . ومنها (حب الجاه والشهرة) وضده حب الخمول . ومنها (حب المدح وكراهة الذم) وضده مساواتهما . ومنها (الريا) وضده الإخلاص . ومنها (النفاق) وضده استواء السر والعلانية . ومنها (الغرور) وضده الفطانة والعلم والزهد . ومنها (طول الأمل) وضده قصره . ومنها (مطلق العصيان) وضده الورع والتقوى بالمعنى الأعم . ومنها (الوقاحة) وضده الحياء . ومنها (الإصرار على المعصية) وضده التوبة ، وأقصى مراتبها الإنابة والمحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة في ضديتها للإصرار . ومنها (الغفلة) وضدها النية والإرادة . ومنها (عدم الرغبة) وضده الشوق . ومنها (الكراهة) وضده الحب . ومنها (الجفاء) وضده الوفاء وهو من تمام الحب . ومنها (البعد) وضده الأنس ومن لوازمه حب الخلوة والعزلة . ومنها (السخط) وضده الرضا ، وقريب منه التسليم ويسمى تفويضا ، بل هو فوق الرضا كما يأتي . ومنها (الحزن) وضده السرور . ومنها (ضعف الوثوق والاعتماد على الله) وضده التوكل . ومنها (الكفران) وضده الشكر . ومنها (الجزع والهلع) وضده الصبر . ومنها (الفسق) وهو الخروج عن طاعة الله وعبادته ، وضده الطاعة والعبادة ، وتندرج تحتها (العبادات الموظفة في الشرع) (١٣) من الطهارة ، والصلاة ، والذكر وتلاوة القرآن ، والزكاة والخمس والصوم والحج والزيارات . ونحن نذكر الزكاة والخمس في وجوه الإنفاق ، وما سواهما في العبادات . (

تنبيه) إعلم أن إحصاء الفضائل والرذائل وضبطهما ، وإدخال البعض في البعض ، والإشارة إلى القوة الموجبة لها على ما فصلناه ، مما لم يتعرض

(هامش)

(١٣) هذه العبارة بتمامها غير موجودة في نسختنا الخطبة . (*)

ص ٨٧

له علماء الأخلاق ، بل إنما تعرضوا لبعضها ، ويظهر من كلامهم في بعض المواضع المخالفة في الادخال . والسر فيه أن كثيرا من الصفات لها جهات مختلفة كل منها يناسب قوة كما أشرنا إليه ، فالاختلاف في الادخال لأجل اختلاف الاعتبار للجهات وقد عرفت أن ما له جهات مختلفة يتعلق بالقوى المتعددة نحن نجعل مبدأه الجميع ونعده من رذائله أو فضائله ، ولا نخصه بواحدة منها . ثم بعض الصفات ربما كان ببعض الاعتبارات معدودا من الرذائل ، وذلك كالمحبة والخوف والرجاء ، فإن الحب إن كان متعلقا بالدنيا ومتعلقاتها كان مذموما وإن كان متعلقا بالله وأوليائه كان محمودا معدودا من الفضائل . والخوف إن كان مما لا يخاف منه عقلا كان من رذائل قوة الغضب ، وإن كان من المعاصي أو من عظمة الله كان من فضائلها ، والرجاء إن لم يكن في موقعه كان من الرذائل ، وإن كان في موقعه كان من الفضائل ، وقس عليها غيرها مما له الاعتبارات المختلفة .

فصل الفرق بين الفضيلة والرذيلةup

قد دريت إجمالا أن الفضائل المذكورة ملكات مخصوصة ، لها آثار معلومة ، وربما صدر عن بعض الناس أفعال شبيهة بالفضائل ، وليست بها ، فلا بد من بيان الفرق بينهما لئلا يشتبه على الغافل فيضل ويضل ، فنقول : قد عرفت أن فضيلة الحكمة عبارة عن العلم بأعيان الموجودات على ما هي عليه ، وهو لا ينفك عن اليقين والطمأنينة ، فمجرد أخذ بعض المسائل وتقريرها على وجه لائق من دون وثوق النفس واطمئنانها ليست حكمة ، والأخذ بمثله ليس حكيما ، إذ حقيقة الحكمة لا تنفك عن الإذعان القطعي واليقيني وهما مفقودان فيه ، فمثله كمثل الأطفال في التشبه بالرجل ، أو بعض الحيوانات في محاكاة ما للانسان من الأقوال والأفعال . وأما فضيلة العفة ، فقد عرفت أنها عبارة عن ملكة انقياد القوة الشهوية للعقل ، حتى يكون تصرفها مقصورا على أمره ونهيه ، فيقدم على ما فيه المصلحة وينزجر عما يتضمن المفسدة بتجويزه ، ولا يخالفه في أوامره ونواهيه ،

ص ٨٨

وينبغي أن يكون الباعث للاتصاف بتلك الملكة وصدور آثارها مجرد كونها فضيلة وكمالا للنفس وحصول السعادة الحقيقية بها ، لا شيء آخر من دفع ضر ، أو جلب نفع ، أو اضطرار وإلجاء ، فالإعراض عن اللذات الدنيوية لتحصيل الأزيد من جنسها ليس عفة ، كما هو شأن بعض تاركي الدنيا للدنيا وكذا الحال في تركها لخمود القوة وقصورها وضعف الآلة وفتورها ، أو وصول النفرة من كثرة تعاطيها ، أو للحذر من حدوث الأمراض والأسقام ، أو اطلاع الناس وتوبيخهم ، أو لعدم درك تلك اللذات كما هو شأن بعض أهالي الجبال والبوادي . . إلى غير ذلك . وأما فضيلة الشجاعة ، فقد عرفت أنها ملكة انقياد القوة الغضبية للعقل حتى يكون تصرفها بحسب أمره ونهيه ، ولا يكون للاتصاف بها وصدور آثارها داع سوى كونها كمالا وفضيلة ، فالإقدام على الأمور الهائلة ، والخوص

في الحروب العظيمة ، وعدم المبالاة من الضرب والقطع والقتل لتحصيل الجاه والمال ، أو الظفر بامرأة ذات جمال ، أو للحذر من السلطان ومثله ، أو للشهوة بين أبناء جنسه ، ليست صادرة عن ملكة الشجاعة ، بل منشأها إما رذيلة الشره أو الجبن ، كما هو شأن عساكر الجائرين ، وقاطعي الطرق والسارقين ، فمن كان أكثر خوضا في الأهوال ، وأشد جرأة على الأبطال للوصول إلى شيء من تلك الأغراض ، فهو أكثر جبنا وحرصا ، لا أكثر شجاعة ونجدة . وقس على ذلك الوقوع في المهالك والأهوال ، تعصبا عن الأقارب والأتباع ، وربما كان باعثه تكرر ذلك منه مع حصول الغلبة ، فاغتر بذلك ولم يبال بالإقدام اتكالا على العادة الجارية . ومثله مثل رجل ذي سلاح لم يبال بالمحاربة مع طفل أعزل ، فإن عدم الحذر عنه ليس لشجاعته ، بل لعجز الطفل . ومن هذا القبيل ما يصدر عن بعض الحيوانات من الصولة والإقدام ، فإنه ليس صادرا عن ملكة الشجاعة ، بل عن طبيعة القوة والغلبة .

وبالجملة : الشجاع الواقعي ما كانت أفعاله صادرة عن إشارة العقل ولم يكن له باعث سوى كونها جميلة ، فربما كان الحذر عن بعض الأهوال من مقتضيات العقل فلا ينافي الشجاعة ، وربما لم يكن الخوض في بعض الأخطار من موجباته فينافيها ، ولذا قيل عدم الفزع مع شدة الزلازل وتواتر

ص ٨٩

الصواعق من علائم الجنون دون الشجاعة ، وإيقاع النفس في الهلكات بلا داع عقلي أو شرعي كتعرضه للسباع المؤذية ، أو القاء نفسه من المواضع الشاهقة ، أو في البحار والشطوط الغامرة من دون علم بالسباحة من أمارات القحة والحماقة . ثم الشجاع الحقيقي من كان حذره من العار والفضيحة أكثر من خوفه من الموت والهلاك ، فمن لا يبالي بذهاب شرفه ، وفضيحة أهله وحرمه ، فهو من أهل الجنون والحماقة ، ولا يستحق اسم العقل والشجاعة ، كيف والموت عند الشجاع مع بقاء الفضيلة أحسن من الحياة بدونها ، ولذا يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة . على أن الشجاعة في المبادئ ربما كانت مؤذية ، وإنما تظهر لذتها في العاقبة (لا) سيما إذا حصلت بها الحماية عن الدين والملة ، والذب عن العقائد الحقة ، فإن الشجاع لحبه الجميل وثباته على الرأي الصحيح إذا علم أن عمره في معرض الزوال والدثور ، وأثر الفعل الجميل يبقى على مر الدهور ، يختار الجميل الباقي على الرذيل الفاني ، فيحامي عن دينه وشريعته ، ولا يبالي بما يحذر عنه غيره من أبناء طبيعته ، لعلمه بأن الجبان المقصر في حماية الدين ، ومقاومة جنود الشياطين إن بقي أياما معدودة ، فمع تكدرها بالذل والصغار تكون زائلة ، ولا ترضى نفسه بالحرمان عن السعادة الباقية ، ولذا قال فخر الشجعان وسيد ولد عدنان عليه صلوات الله الملك الرحمان لأصحابه : أيها الناس إنكم إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف على الرأس أهون من ميتة على الفراش .

وبالجملة : كل فعل يصدر عن الشجاع في أي وقت يكون مقتضى للعقل مناسبا لهذا الوقت واقعا في موقعه ، وله قوة التحمل على المصائب ، وملكة الصبر على الشدائد والنوائب ، ولا يضطرب من شدائد الأمور ، ويستخف بما يستعظمه الجمهور ، وإذا غضب كان غضبه بمقتضى العقل ، وكان انتقامه مقصورا على على ما يستحسن عقلا وشرعا ، ولا يتعدى إلى ما لا ينبغي . وليس مطلق الانتقام مذموما ، فربما كان في بعض المواضع مستحسنا عند العقل والشرع ، وقد صرح الحكماء بأن عدم الانتقام ممن يستحقه يحدث في النفس

ص ٩٠

ذبولا لا يرتفع إلا بالانتقام ، وربما أدى هذا الذبول إلى بعض الرذائل المهلكة . وأما العدالة فقد عرفت أنها عبارة عن انقياد القوة العملية للعاقلة ، أو امتزاج القوى وتسالمها وانقهار الجميع تحت العاقلة ، بحيث يرتفع بينها التنازع والتجاذب ، ولا يغلب بعضها على بعض ، ولا يقدم على شيء غير ما تسقط له العاقلة . وإنما يتم ذلك إذا حصلت للانسان ملكة راسخة تصدر لأجلها جميع الأفعال على نهج الاعتدال بسهولة ، ولا يكون له غاية في ذلك سوى كونها فضيلة وكمالا ، فمن يتكلف أعمال العدول رياء وسمعة ، أو لجلب القلوب ، أو تحصيل الجاه والمال ليس عادلا . وقس على ذلك جميع أنواع الفضائل المندرجة تحت الأجناس المذكورة فإنه بإزاء كل منها رذيلة شبيهة بها ، فينبغي لطالب السعادة أن يعرفها ويجتنب عنها ، مثلا السخاء عبارة عن ملكة سهولة بذل المال على المستحق ، مع كون الغاية الباعثة له عليه مجرد كونه فضيلة وكمالا ، دون الأغراض الأخر ، فبذل المال لتحصيل الأزيد ، أو لدفع الضرر ، أو نيل الجاه ، للوصول إلى شيء من اللذات الحيوانية ليس سخاء ، وكذا بذله لغير المستحق والإسراف في إنفاقه ، فإن المبذر جاهل بعظم قدر المال

، والاحتياج إليه في مواقع لولاه لأدى إلى تضييع الأهل والعيال والعجز عن كسب المعارف وفضائل الأعمال ، وله دخل عظيم في ترويج أحكام الملة ونشر الفضيلة والحكمة ، ولذا ورد في الصحيفة السليمانية (إن الحكمة مع الثروة يقظان ، ومع الفقر نائم) (١٤) وربما كان منشأ التبذير عدم العلم بصعوبة تحصيل الحلال منه ، وهكذا يكون في الأغلب لمن يظفر بمال بغتة من ميراث أو غيره مما لا يحتاج إلى كد وعمل ، فإن مثله غافل عن صعوبة كسب الحلال منه ، إذ المكاسب الطيبة قليلة جدا ، وارتكابها للأحرار مشكل ، ولذا ترى أفاضل الأحرار ناقصي الحظوظ منه شاكين عن بختهم ، وأضدادهم على خلاف ذلك ، لعدم مبالاتهم من تحصيله بأي نحو كان .

وقد قال بعض الحكماء : إن تحصيل المال بمنزلة نقل الحجر إلى قلة الجبل وإنفاقه كإطلاقه .

(هامش)

(١٤) كذا في النسخ ولم نعثر على مصدر لهذه الكلمة لتصحيحها . (*)

ص ٩١

فصل العدالة أشرف الفضائلup

العدالة أشرف الفضائل وأفضلها ، إذ قد عرفت أنها كل الفضائل أو ما يلزمها ، كما أن الجور كل الرذائل أو ما يوجبها ، لأنها هيئة نفسانية يقتدر بها على تعديل جميع الصفات والأفعال ، ورد الزائد والناقص إلى الوسط ، وانكسار سورة التخالف بين القوى المتعادية ، بحيث يمتزج الكل وتتحقق بينها مناسبة واتحاد تحدث في النفس فضيلة واحدة تقتضي حصول فعل متوسط بين أفعالها المتخالفة ، وذلك كما نحصل الامتزاج والوحدة بين الأشياء المتخالفة صورة وحدانية يصدر عنها فعل متوسط بين أفعالها المتخالفة فجميع الفضائل مترتبة على العدالة ، ولذا قال أفلاطون الإلهي : (العدالة إذا حصلت للانسان أشرق بها كل واحد من أجزاء نفسه ، ويستضئ بعضها من بعض ، فتنتهض النفس حينئذ لفعلها الخاص على أفضل ما يكون ، فيحصل لها غاية القرب إلى مبدعها سبحانه) .

ومن خواص العدالة وفضيلتها أنها أقرب الصفات إلى الوحدة ، وشأنها إخراج الواحد من الكثرات ، والتأليف بين المتباينات ، والتسوية بين المختلفات ، ورد الأشياء من القلة والكثرة والنقصان والزيادة إلى التوسط الذي هو الوحدة فتصير المتخالفات في هذه المرتبة متحدة نوع اتحاد ، وفي غيرها توجد أطراف متخالفة متكاثرة ، ولا ريب في أن الوحدة أشرف من الكثرة ، وكلما كان الشيء أقرب إليها يكون أفضل وأكمل وأبقى وأدوم ، ومن تطرق البطلان والفساد أبعد ، فالمتخالفات إذا حصل بينها مناسبة واتحاد وحصلت منها هيئة وحدانية صارت أكمل مما كان ، ولذا قيل : كمال كل صفة أن يقارب ضدها ، وكما كل شخص أن يتصف بالصفات المتقابلة بجعلها متناسبة متسالمة ، وتأثير الأشعار الموزونة والنغمات والايقاعات المتناسبة ، وجذب الصور الجميلة للنفوس ، إنما هو لوحدة التناسب ، ونسبة المساواة في صناعة الموسيقى أو غيرها أشرف النسب لقربها إلى الوحدة ، وغيرها من النسب يرجع إليها ، وبالجملة : اختلاف الأشياء في الكمال والنقص بحسب اختلافها في الوحدة والكثرة ، فأشرف الموجودات هو الواحد الحقيقي الذي هو موجد

ص ٩٢

الكل ومبدؤه ، ويفيض نور الوحدة على كل موجود بقدر استعداده كما يفيض عليه نور الوجود كذلك ، فكل وحدة من الوحدات جوهرية كانت أو خلقية أو فعلية أو عددية أو مزاجية ، فهو ظل من وحدته الحقة ، وكلما كان أقرب إليها يكون أشرف وجودا ، ولولا الاعتدال والوحدة العرضية التي هي ظل الوحدة الحقيقية لم تتم دائرة الوجود ، لأن تولد المواليد من العناصر الأربعة يتوقف على حصول الاتحاد والاعتدال ، وتعلق النفس الربانية بالبدن إنما هو لحصول نسبة الاعتدال ، ولذا يزول تعلقها به بزوالها ، بل النفس عاشقة لتلك النسبة الشريفة أينما وجدت . والتحقيق أنها معنى وحداني يختلف باختلاف محالها ، فهي في الأجزاء العنصرية الممتزجة اعتدال مزاجي ، وفي الأعضاء حسن ظاهري ، وفي الكلام فصاحة ، وفي الملكات النفسية عدالة ، وفي الحركات غنج ودلال ، وفي النغمات أبعاد شريفة لذيذة والنفس عاشقة لهذا المعنى في أي مظهر ظهر ، وبأي صورة تجلى ، وبأي لباس تلبس . فإني أحب الحسن حيث وجدته * وللحسن في وجه الملاح مواقع والكثرة والقلة والنقصان والزيادة تفسد الأشياء إذا لم تكن بينها مناسبة يحفظ عليها الاعتدال والوحدة بوجد ما ، وفي هذا المقام تفوح نفحات قدسية تهتز بها نفوس أهل الجذبة والشوق ، ويتعطر منها مشام أصحاب التأله والذوق ، فتعرض لها إن كنت أهلا لذلك . إذا و عرفت شرف العدالة وإيجابها للعمل بالمساواة ، ورد كل ناقص وزائد إلى الوسط ، فاعلم : أنها إما متعلقة بالأخلاق والأفعال ، أو بالكرامات وقسمة الأموال ، أو بالمعاملات والمعارضات ، أو بالأحكام

والسياسات .
والعادل في كل واحد من هذه الأمور ما يحدث التساوي فيه برد الإفراط والتفريط إلى الوسط ، ولا ريب في أنه مشروط بالعلم بطبيعة الوسط ، حتى يمكن رد الطرفين إليه ، وهذا العلم في غاية الصعوبة ، ولا يتيسر إلا بالرجوع إلى ميزان معرف للأوساط في جميع الأشياء ، وما هو إلا ميزان الشريعة الإلهية الصادرة عن منبع الوحدة الحقة الحقيقية ، فإنها هي المعرفة للأوساط في جميع الأشياء على ما ينبغي ، والمتضمنة لبيان تفاصيل جميع مراتب الحكمة
ص ٩٣
العملية ، فالعادل بالحقيقة يجب أن يكون حكيما عالما بالنواميس الإلهية الصادرة من عند الله سبحانه لحفظ المساواة . وقد ذكر علماء الأخلاق أن العدول ثلاثة : الأول العادل الأكبر ، وهو الشريعة الإلهية الصادرة من عند الله سبحانه لحفظ المساواة . الثاني العادل الأوسط ، وهو الحاكم العادل التابع للنواميس الإلهية والشريعة النبوية فإنه خليفة الشريعة في حفظ المساواة . الثالث العادل الصامت ، وهو الدينار لأنه يحفظ المساواة في المعاملات والمعاوضات . بيان ذلك : أن الإنسان مدني بالطبع فيحتاج بعض أفراده إلى بعض آخر ، ولا يتم عيشهم إلا بالتعاون ، فيحتاج الزارع إلى عمل التاجر وبالعكس والنجار إلى عمل الصباغ وبالعكس ، وهكذا فتقع بينهم معاوضات ، فلا بد من حفظ المساواة بينها دفعا للتنازع والتشاجر ، ولا يمكن حفظها بالأعمال لاختلافها بالزيادة والنقصان والقلة والكثرة وغير ذلك ، وربما كان أدنى عمل مساويا لعمل كثير كنظر المهندس ، وتدبير صاحب الجيش ، فإن نظرهما في لحظة واحدة بما ساوى عملا كثيرا لمن يعمل ويحارب ، فحفظ المساواة بينها بالدينار والدرهم بأن تقوم بهما الأعمال والأشياء المختلفة ، ليحصل الاعتدال والاستواء ، ويتبين وجه الأخذ والإعطاء ، وتصح المشاركات والمعاملات على نهج لا يتضمن إفراطا ولا تفريطا قيل : وقد أشير إلى العدول الثلاثة في الكتاب الإلهي بقوله سبحانه : (وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) (١٥) . فإن الكتاب إشارة إلى الشريعة ، والميزان إلى آلة معرفة النسبة بين المختلفات ومنها الدينار ، والحديد إلى سيف الحاكم العادل المقوم للناس على الوسط . هذا والمقابل المعادل - أعني الجائر المبطل للتساوي أيضا - أما جائر أعظم - وهو الخارج عن حكم الشريعة - ويسمى كافرا - أو جائر أوسط - وهو من لا يطيع عدول الحكام في الأحكام - ويسمى طاغيا وباغيا - أو
(هامش)
(
١٥) الحديث : الآية : ٢٥ . (*)
ص ٩٤
جائر أصغر - وهو من لا يقوم عني حكم الدينار ، فيأخذ لنفسه أكثر من حقه ويعطي غيره أقل من حقه - ويسمى سارقا وخائنا - . ثم العدالة على أقسام ثلاثة : أحدها ما يجري بين العباد وبين خالقهم سبحانه ، فإنها لما كانت عبارة عن العمل بالمساواة على قدر الإمكان ، والواجب سبحانه واهب الحياة والكمالات وما يحتاج إليه كل حي من الأرزاق والأقوات ، وهيأ لنا في عالم آخر من البهجة والسرور ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، وما من يوم إلا ويصل إلينا من نعمه وعطاياه ما تكل الألسنة عن حصره وعده ، فيجب أن يكون له تعالى علينا حق يقابل به تلك النعم التي لا تحصى كثرة حتى تحصل عدالة في الجملة ، إذ من أعطي خيرا ولم يقابله بضرب من المقابلة فهو جائر . ثم المقابلة والمكافأة تختلف باختلاف الأشخاص ، فإن ما يؤدي به حق إحسان السلطان غير ما يؤدي به حق إحسان غيره ، فإن مقابلة إحسانه إنما تكون بمثل بالدعاء ونشر المحاسن ، ومقابلة إحسان غيره تكون بمثل بذل المال والسعي في قضاء حوائجه وغير ذلك . والواجب سبحانه غني عن معونتنا ومساعينا ، ولا يحتاج إلى شيء من أعمالنا وأفعالنا ، ولكن يجب علينا بالنظر إلى شرع العدالة حقوق تحصل بها مساواة في الجملة ، كمعرفته ومحبته ، وتحصيل العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة ، والاجتهاد في امتثال ما جاءت به رسله وسفراؤه من الصوم والصلاة ، والسعي إلى المواقف الشريفة وغير ذلك وإن كان التوفيق لإدراك ذلك كله من جملة نعمائه ، إلا أن العبد إذا أدى ما له فيه مدخلية واختيار من وظائف الطاعات ، وترك ما تقتضي الضرورة بتمكنه على تركه من المعاصي والسيئات ، لخرج عن الجور المطلق ولم يصدق عليه أنه جائر مطلق ، وإن كان أصل تمكنه واختياره ، بل أصل وجوده وحياته كلها من الله سبحانه .
الثاني ما يجري بين الناس بعضهم لبعض : من أداء الحقوق وتأدية الأمانات والنصفة في المعاملات والمعاوضات وتعظيم الأكابر

والرؤساء وإغاثة المظلومين والضعفاء ، فهذا القسم من العدالة يقتضي أن يرضى بحقه ، ولا يظلم أحدا ، ويقيم كل واحد من أبناء نوعه على حقه بقدر الإمكان ، لئلا يجور
ص ٩٥
بعضهم بعضا ، ويؤدي حقوق أخوانه المؤمنين بحسب استطاعته . وقد ورد في الحديث النبوي : إن للمؤمن على أخيه ثلاثين حقا لا براءة له منها إلا بالأداء أو العفو : يغفر زلته ، ويرحم غربته ، ويستر عورته ، ويقيل عثرته ، ويقبل معذرته ، ويرد غيبته ، ويديم نصيحته ، ويحفظ خلته ، ويرعى ذمته ، ويعود مرضته ، ويشهد ميتته ، ويجيب دعوته ، ويقبل هديته ، ويكافئ صلته ، ويشكر نعمته ، ويحسن نصرته ، ويحفظ حليلته ، ويقضي حاجته ، ويشفع مسألته ، ويسمت عظمته ، ويرشد ضالته ، ويرد سلامه ، ويطيب كلامه ، ويبر إنعامه ، ويصدق أقسامه ، ويواليه ولا يعاديه ، وينصره ظالما أو مظلوما ، فأما نصرته ظالما فيرده عن ظلمه ، وأما نصرته مظلوما فيعينه ظلمه ، وأما نصرته مظلوما فيعينه على أخذ حقه ، ولا يسأمه ، ولا يخذله ، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه ، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه . الثالث ما يجري بين الأحياء وذوي حقوقهم من الأموات : من أداء ديونهم وإنفاذ وصاياهم والترحم عليهم بالصدقة والدعاء . وقد أشار خاتم الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم إلى أقسام العدالة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم في خبر آخر : الدين النصيحة . قيل لمن ؟ قال : لله ولرسوله ولعامة المؤمنين .
إيقاظ up
قد ظهر مما ذكر أن الكمال كل الكمال لكل شخص هو العدل والتوسط في جميع صفاته وأفعاله الباطنة والظاهرة ، سواء كانت مختصة بذاته أو متوسطة بينه وبين أبناء نوعه ، ولا تحصل النجاة والسعادة إلا بالاستقامة على وسط الأشياء المتخالفة ، والتثبت على مركز الأطراف المتباعدة . فكن يا حبيبي جامعا للكمالات ، متوسطا بين مراتب السعادات ، ومركزا لدائرة نيل الإفاضات . فكن أولا متوسطا بين العلم والعمل جامعا بينهما بقدر الإمكان ، ولا تكتف بأحدهما حتى لا تكون واحدا من الرجلين القاصمين (١٦)
(هامش)
(١٦) إشارة إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (قصم ظهري رجلان : عالم متهتك وجاهل متنسك) .
ص ٩٦
لظهر فخر الثقلين صلى الله عليه وآله وسلم . وكن في العمل متوسطا بين حفظ الظاهر والباطن ، فلا تكن في باطنك خبيثا وظاهرك نقيا ، حتى تكون كشوهاء ملبسة بزي حوراء مدلسة بأنواع التدليسات ، ولا بالعكس لتكون مثل درة ملوثة بأقسام القاذورات ، بل ينبغي أن يكون ظاهرك مرآة لباطنك حتى يظهر من محاسنك بقدر ما اقتضته ملكاتك الفاضلة الباطنة . وكن في جميع ملكاتك الباطنة وأفعالك الظاهرة متوسطا بين الإفراط والتفريط على ما يقرع سمعك في هذا الكتاب . ثم كن في العلوم متوسطا بين العلوم الباطنة العقلية والعلوم الظاهرة الشرعية ، فلا تكن من الذين قصروا أنظارهم على ظواهر الآيات ولم يعرفوا من حقائق البينات ، يذمون علماء الحقيقة وينسبونهم إلى الإلحاد والزندقة ، ولا من الذين صرفوا أعمارهم في فضول أهل يونان وهجروا ما جاء به حامل الوحي والفرقان ، يذمون علماء الشريعة ويثبتون لهم سوء القريحة ، يدعون لأنفسهم الذكاء والفطانة وينسبون ورثة الأنبياء إلى الجهل والبطالة . ثم كن في العقليات متوسطا بين طرق العقلاء من غير جمود على واحدة منها بمجرد التقليد أو التعصب ، فتوسط بين الحكمة والكلام والإشراق والعرفان ، واجمع بين الاستدلال وتصفية النفس بالعبادة والرياضة ، فلا تكن متكلما صرفا لا تعرف سوى الجدل ، ولا مشائيا محضا أضاع الدين وأهمل ، ولا متصوفا استراح بدعوى المشاهدة والعيان من دون بينة وبرهان . وكن في العلوم الشرعية متوسطا بين الأصول والفروع ، فلا تكن إخباريا تاركا للقواعد القطعية ، ولا أصوليا عاملا بقياسات عامية . وقس على ذلك جميع أمورك الباطنة والظاهرة ، واعمل به حتى يرشدك إلى طريق السداد ، ويوفقك لاكتساب زاد المعاد .
دفع إشكال up
إن قيل : قد تلخص مما ذكر : أن الفضيلة في جميع الأخلاق والصفات إنما هو المساواة من غير زيادة ونقصان ، مع إنه قد ثبت أن للتفضل محمود وهو زيادة فلا يدخل تحت العدالة الراجعة إلى المساواة . (قلنا) : التفضل احتياط يقع لتحصيل القطع بعدم الوقوع في النقصان ، وليس الوسط في طرفين من الأخلاق على نهج واحد ، فإن الزيادة في السخاء إذا لم يؤد إلى

ص ٩٧
الإسراف أحسن من النقصان عنه ، وأشبه بالمحافظة على شرائطه ، فالتفضل إنما يصدر عن فضيلة العدالة ، لأنها مبالغة فيها ولا يخرجها عن حقيقتها ، إذ المتفضل من يعطي المستحق أزيد مما يستحقه ، وهذه الزيادة ليست مذمومة بل هي العدالة مع الاحتياط فيها ، ولذا قيل : إن المتفضل أفضل من العادل ، والمذموم أن يعطي غير المستحق أو يترك المساواة بين المستحقين لأنه أنفق فيما لا ينبغي أو على ما لا ينبغي ، وصاحبه لا يسمى متفضلا بل مضيعا ، ولكون التفضل احتياطا إنما يحسن من الرجل بالنسبة إلى صاحبه في المعاملة التي بينهما ، ولو كان بين جماعة ولم يكن له نصيب في ما يحكم فيه لم يسعه إلا العدل المحض ولم يجز له التفضيل .

تتميم

قد تلخص أن حقيقة العدالة أو لازمها أن يغلب العقل الذي هو خليفة الله على جميع القوى حتى يستعمل كلا منها فيما يقتضي رأيه ، فلا يفسد نظام العالم الإنساني ، فإن الواجب سبحانه لما ركب الإنسان بحكمته الحقة ومصلحته التامة عن القوى الكثيرة المتضادة ، فهي إذا تهايجت وتغالبت ولم يقهرها قاهر خير ، حدثت فيه بهيجانها واضطرابها أنواع الشر ، وجذبه كل واحدة منها إلى ما يقتضيه ويشتهيه ، كما هو الشأن في كل مركب . وقد شبه المعلم الأول مثله بمن يجذب من جهتين حتى ينقطع وينشق بنصفين أو من جهات كثيرة فيتقطع بحسبها . فيجب على كل إنسان أن يجاهد حتى يغلب عقله الذي هو الحكم العدل والخير المطلق على قواه المختلفة ، ليرفع اختلافها وتجاذبها ويقيم الجميع على الصراط القويم . ثم كل شخص ما لم يعدل قواه وصفاته لم يتمكن من إجراء أحكام العدالة بين شركائه في المنزل والبلد ، إذ العاجز عن إصلاح نفسه كيف يقدر على إصلاح غيره ، فإن السراج الذي لا يضئ قريبه كيف يضئ بعيده ، فمن عدل قواه وصفاته أولا واجتنب عن الإفراط والتفريط واستقر على جادة في أرضه ، وإذا كان مثله حاكما بين الناس وكان زمام مصالحهم في قبضة اقتداره ، لتنورت البلاد بأهلها ، وصلحت أمور العباد بأسرها ، وزاد

ص ٩٨
الحرث والنسل ، ودامت بركات السماء والأرض . وغير خفي أن أشرف وجوه العدالات وأهمها وأفضل صنوف السياسات وأعمها هو عدالة السلطان ، إذ غيرها من العدالات مرتبطة بها ولولاه لم يتمكن أحد من رعاية العدالة ، كيف وتهذيب الأخلاق وتدبير المنزل يتوقف على فراغ البال وانتظام الأحوال ، ومع جور السلطان أمواج الفتن متلاطمة ، وأفراج المحن متراكمة ، وعوائق الزمان متزاحمة ، وبوائق (١٧) الحدثان متصادمة ، وطالبو الكمال كالحيارى في الصحارى لا يجدون إلى منازله سبيلا ولا إلى جداوله مرشدا ودليلا ، وعرصات العلم والعمل دراسة الآثار ، ومنازلهما مظلمة الأرجاء والأقطار ، فلا يوجد ما هو الملاك في تحصيل السعادات ، أعني تفرغ الخاطر والاطمئنان وانتظام أمر المعاش الضروري لأفراد الإنسان . ولذا لو تصت في أمثال زماننا زوايا المدن والبلاد واطلعت على بواطن فرق العباد ، لم تجد من الألوف واحدا تمكن من إصلاح نفسه ويكون يومه خيرا من أمسه ، بل لا تجد دينا إلا وهو باك على فقد الإسلام وأهله ، ولا طالبا إلا وهو لعدم المكنة باق على جهله ، ولعمري أن هذا الزمان هو الزمان الذي أخبر عنه سيد الأنام وعترته الأبرار الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام من أنه : لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه . وبالجملة : المناط كل المناط في تحصيل الكمالات وإخراج النفوس من الجهالات ، هو عدالة السلطان ، واعتناؤه بإعلاء الكلمة ، وسعيه في ترويج أحكام الدين والملة ، ولذا ورد في الآثار : (إن السلطان إذا كان عادلا كان شريكا في ثواب كل طاعة تصدر عن كل رعية ، وإن كان جائرا كان سهيما في معاصيهم) . وقال سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم : أقرب الناس يوم القيامة إلى الله تعالى الملك العادل وأبعدهم عنه الملك الظالم . وورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم : عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة .

والسر أن أثر عدل ساعة واحدة ربما يصل إلى جميع المدن والأمصار ويبقى على مر الدهور والأعصار ، وقال بعض الأكابر : لو علمت أنه يستجيب

(هامش)
(١٧) البائقة : الداهية والشر . ويقال : رفعت بائقة فلان أي غائلته وشره ، جمعه بوائق .

ص ٩٩
لي دعوة واحدة لخصصتها بإصلاح حال السلطان حتى يعم نفعه .

تنوير : لا حاجة إلى العدالة مع رابطة المحبة up
لو استحكمت رابطة المحبة وعلاقة المودة بين الناس لم يحتاجوا إلى سلسلة العدالة ، فإن أهل الوداد والمحبة في مقام الإيثار ولو كان بهم خصاصة ، فكيف يجور بعضهم على بعض . والسر أن رابطة المحبة أتم وأقوى من رابطة العدالة ، لأن المحبة وحدة طبيعية جبلية ، والعدالة وحدة قهرية قسرية . على أنها لا تنتظم بدون المحبة ، لكونها باعثة للإيجاد ، كما أشير إليه في الحديث القدسي : كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف . فالمحبة هو السلطان المطلق ، والعدالة نائبها وخليفتها (١٨) .
وصل: التكميل الصناعي لاكتساب الفضائل على طبق ترتيب الكمال الطبيعي up
لاكتساب الفضائل ترتيب ينبغي أن لا يتعدى عنه . وبيان ذلك : أن مبادئ الحركات المؤدية إلى الكمالات : إما طبيعية كحركة النطفة في الأطوار المختلفة إلى بلوغ كمال الحيوانية ، أو صناعية كحركة الخشب بتوسط الآلات إلى بلوغ كمال السريرية . ثم الطبيعية وتحريكاتها لاستنادها إلى المبادئ العالية تكون متقدمة على الصناعية المستندة إلى الإنسان ، ولما كان كمال الثواني أن تتشبه بالأوائل ، ينبغي أن تقتدي الصناعية في تحريكاتها المؤدية إلى كمالها بالطبيعية . وإذ ثبت ذلك فاعلم : أن تهذيب الأخلاق لما كان أمرا صناعيا لزم أن يقتضي في تحصيله من حيث الترتيب بأفعال الطبيعة في ترتيب حصولها ، فنقول : لا ريب في أن أول ما يحصل في الطفل قوة طلب الغذاء ، وإذا زادت تلك القوة يبكي ويرفع صوته لأجل الغذاء ، وإذا قويت حواسه وتمكن من حفظ
(هامش)
(
١٨) ولذلك إن الشريعة الإسلامية أول ما دعت فيما دعت إلى الأخوة والتآلف بين الناس ، وكثير من أحكامها مثل الجماعة والجمعة والإيثار والاحسان وتحريم الغيبة والنبز ونحو ذلك تستهدف إيجاد رابطة الحب بين الشعوب والقبائل والأفراد ، ليستغنوا عن الأخذ بقانون العدل الصارم المر .
ص ١٠٠
بعض الصور يطلب صورة الأم أو الظئر (١٩) ، وجميع ذلك متعلق بالقوة الشهوية . ونهاية هذه القوة وكمالها أن يتم ما يتعلق بالشخص من الأمور الشهوية وينبعث منه الميل إلى استبقاء النوع ، فيحدث ميل النكاح والوقاح . ثم تظهر فيه آثار القوة الغضبية حتى يدفع عن نفسه ما يؤذيه ولو بالاستعانة بغيره . وغاية كمال هذه القوة حصول التمكن من حفظ الشخص والإقدام على حفظ النوع ، فيحدث فيه الميل إلى ما يحصل به التفوق من أصناف الرئاسات والكرامات . ثم تظهر فيه آثار قوة التمييز وتتزايد إلى أن يتمكن من تعقل الكليات . وهنا يتم ما يتعلق بالطبيعة من التدبير والتكميل ، ويكون ابتداء التكميل الصناعي ، فلو لم يحصل الاستكمال بالكسب والصناعة بقي على هذه الحالة ، ولم يبلغ إلى الكمال الحقيقي الذي خلق الإنسان لأجله ، لأنه لم يخلق أحد مجبولا على الإنصاف بجميع الفضائل الخلقية إلا من أيد من عند الله بالنفس القدسية ، وإن كان بعض الناس أكثر استعدادا لتحصيل بعض الكمالات من بعض آخر ، فلا بد لجل الأنام في تكميل نفوسهم من الكسب والاستعلام .
فظهر مما ذكر : إن الطبيعة تولد أولا قوة الشهوة ، ثم قوة الغضب ، ثم قوة التمييز ، فيجب أن يقتدى به في التكميل الصناعي ، فيهذب أولا القوة الأولى ليكتسب العفة ، ثم الثانية ليتصف بالشجاعة ، ثم الثالثة ليتحلى بالحكمة ، فمن حصل بعض الفضائل على الترتيب الحكمي كان تحصيل الباقي له في غاية السهولة ، ومن حصله لا على الترتيب ، فلا يظن أن تحصيل الباقي حينئذ متعذر بل هو ممكن ، وإن كان أصعب بالنسبة إلى تحصيله بالترتيب ، فإن عدم الترتيب يوجب عسر الحصول لا تعذره ، كما إن الترتيب يوجب يسره لا مجرد إمكانه . فلا يترك السعي والجد في كل حال ولا ييأس من رحمة الله الواهب المتعال ، وليشمر ذيل الهمة على منطقة الطلب حتى ييسر الله له الوصول إلى ما هو المقصد والمطلب . ثم الفضيلة إن كانت حاصلة لزم السعي في حفظها وإبقائها ، وإن لم تكن حاصلة بل كان ضدها حاصلا وجب تحصيلها بإزالة الضد . ولذا كان فن الأخلاق على قسمين : (أحدهما) راجع إلى حفظ الفضائل ، (وثانيهما)
(هامش)
(١٩) يريد بها المرضعة .
ص ١٠١

نافع في دفع الرذائل ، فيكون شبيها بعلم الطب ، من حيث انقسامه إلى قسمين : (أحدهما) في حفظ الصحة ، (وثانيهما) في دفع المرض ، ولذا يسمى طبا روحانيا ، كما إن الطب المتعارف يسمى طبا جسمانيا . ومن هنا كتب جالينوس إلى روح الله (ع) : من طبيب الأبدان إلى طبيب النفوس . فكما إن لكل من حفظ الصحة ودفع المرض في الطب الجسماني عاجلا خاصا ، فكذلك لكل من حفظ الفضائل وإزالة الرذائل في الطب الروحاني معالجات معينة ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

ص ١٠٢

الباب الثالث

في طريق حفظ اعتدال الأخلاق المحمودة

واستحصالها بإزالة نقائضها المذمومةup

الطريق لحفظ اعتدال الفضائل - قانون العلاج في الطب الروحاني - طريقة معرفة الأمراض النفسية - المعالجات الكلية لأمراض النفس - المعالجات الخاصة لأمراض النفس . وله أربعة مقامات : (الأول) ما يتعلق بالقوة العاقلة من الرذائل والفضائل وكيفية علاج الرذائل (الثاني) ما يتعلق بالقوة الغضبية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج . (الثالث) ما يتعلق بالقوة الشهوية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج . (الرابع) ما يتعلق بالقوى الثلاث أو باثنتين منها .

ص ١٠٣

وفيه فصول (١) :

فصل الطريق لحفظ اعتدال الفضائل up

قد تقرر في الطب الجسماني أن حفظ الصحة بإيراد المثل وملائم المزاج ، فيجب أن يكون حفظ اعتدال الفضائل أيضا بذلك . وإيراد المثل لحفظ اعتدالها يكون بأمور : منها اختيار مصاحبة الأخيار ، والمعاشرة مع أولي الفضائل الخلقية ، واستماع كيفية سلوكهم مع الخالق والخليقة ، والاجتناب عن مجالسة الأشرار وذوي الأخلاق السيئة ، والاحتراز عن استماع قصصهم وحكاياتهم وما صدر عنهم من الأفعال ومزخرفاتهم ، فإن المصاحبة مع كل أحد أقوى باعث على الاتصاف بأوصافه ، فإن الطبع يسترق من الطبع كلا من الخير والشر . والسر : أن النفس الإنسانية ذات قوى بعضها يدعو إلى الخيرات والفضائل وبعضها يقتضي الشرور والرذائل ، وكلما حصل لأحدهما أدنى باعث لما تقتضيه جبلته مال إليه وغلب على صاحبه إلى الخير ، ولكون دواعي الشر من القوى أكثر من بواعث الخير منها ، يكون الميل إلى الشر أسرع وأسهل بالنسبة إلى الميل إلى الخير ، ولذا قيل : إن تحصيل الفضائل بمنزلة الصعود إلى الأعالي ، وكسب الرذائل بمثابة النزول منها . وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وآله وسلم : حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات . ومنها أعمال القوى في شرائف الصفات ، والمواظبة على الأفعال التي هي آثار فضائل الملكات ، وحمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق الذي يريد حفظه ، فالحافظ لملكة الجود يجب أن يواظب على إنفاق المال وبذله على المستحقين ، ويقهر على نفسه عند وجدان ميلها إلى الامساك ، والحافظ لملكة الشجاعة يجب ألا يترك الإقدام في الأخطار والأهوال بشرط إشارة العقل ، ويغضب على نفسه عند وجدان الجبن منها . وهكذا الحال في سائر الصفات . وهذا بمثابة الرياضة الجسمانية في حفظ الصحة البدنية .

(هامش)

(١) هذه الفصول كتمهيد للمقامات الأربعة التي تتعلق بالعلاج الخاص لذمائم الأخلاق . (*)

ص ١٠٤

ومنه أن يقدم التروي على كل ما يفعله ، لئلا تصدر عنه غفلة خلاف ما تقتضيه الفضيلة . ولو صدر عنه أحيانا خلاف مقتضاها ، فليؤدب نفسه بارتكاب ما يضاده ، ويشق عليها عقوبة ، بعد تعييرها وتوبيخها ، كما إذا أكل ما يضره من المطاعم فليؤدبها بالصوم ، وإذا صدر عنه غضب مذموم في واقعة فليؤدبها بإيقاعها في مثلها مع الصبر عليها ، أو في معرض إهانة السفهاء حتى يكسر جاهه أو يؤديها بارتكاب ما يشق عليها من النذر والصدقة وغير ذلك . وينبغي ألا يترك الجد والسعي في التحصيل والحفظ وإن بلغ الغاية ، لأن التعطيل يؤدي إلى الكسالة وهي إلى انقطاع فيوضات عالم القدس ، فتنسلخ الصورة الإنسانية وتحصل الهلاكة الأبدية ، والسعي يوجب ازدياد تجرد النفس وصفائها والأنس بالحق والألف بالصدق (٢) ، فيتنفر عن الكذب والباطل ، ويتصاعد في مدارج الكمالات ومراتب السعادات ، حتى تنكشف له الأسرار الإلهية والغوامض الربانية ، ويتشبه بالروحانيات القادسة ، وينخرط في سلك الملائكة

المقدسة . ويجب أن يكون سعيه في أمور الدنيا بقدر الضرورة ، ويحرم على نفسه تحصيل الزائد ، لأنه لا شقاوة أشد من صرف الجوهر الباقي النوراني في تحصيل الخزف الفاني الظلماني الذي يفوت عنه وينتقل إلى أعدائه من الوراث وغيرهم . ومنها أن يحترز عما يهيج الشهوة والغضب رؤية وسماعا وتخيلا ، ومن هيجهما كمن هيج كلبا عقورا أو فرسا شموسا ، ثم يضطر إلى تدبير الخلاص عنه . وإذا تحركا بالطبع فليقتصر في تسكينهما بما يسد الخلة ولا ينافي حفظ الصحة ، وهو القدر الذي جوزه العقل والشريعة . ومنها أن يستقصي في طلب خفايا عيوب نفسه ، وإذا عثر على شيء منها اجتهد في إزالته .

ولما كانت النفس عاشقة لصفاتها وأفعالها ، فكثيرا ما يخفى عليها بعض عيوبها ، فيلزم على كل طالب للصحة وحافظها أن يختار بعض أصدقائه ليتفحص عن عيوبه ويخبره بما اطلع عليه ، وإذا أخبره بشيء منها فليفرح وليبادر إلى إزالته حتى يثق صديقه بقوله ، ويعلم أن إهداء شيء من عيوبه إليه أحسن عنده من كل ما يحبه ويهواه ، وربما كان العدو

(هامش)

(٢) كذا في النسخ . والصحيح للصدق

ص ١٠٥

في هذا الباب أنفع من الصديق ، لأن الصديق ربما يستر العيب ولا يظهره ، والعدو مصر على إظهاره ، بل ربما يتجاوز إلى البهتان ، فإذا أظهر الأعداء عيوبه فليشكر الله على ذلك وليبادر إلى رفعها وقمعها . ومما ينفع في المقام أن يجعل صور الناس مرايا لعيوبه ويتفقد عيوبهم ، وإذا عثر على عيب منهم تأمل في قبحه ، ويعلم أن هذا العيب إذا صدر عنه يكون قبيحا ويدرك غيره هذا القبح ، فليجتهد في إزالته . وينبغي أن يحاسب نفسه في آخر كل يوم وليلة ، ويتفحص عن جميع ما صدر من الأفعال فيهما ، فإن لم يصدر عنه شيء من القبائح والذمائم فليحمد الله على حسن تأييده ، وإن صدر عنه شيء من ذلك فليعاتب نفسه ويتوب ، ويجتهد في ألا يصدر عنه بعد ذلك مثله .

قانون العلاج في الطب الروحاني (تنبيه):up

قد تبين أن للطلب الروحاني أسوة بالطب الجسماني . والقانون في معالجة الأمراض الجسمانية أن يعرف جنس المرض أولا ، ثم الأسباب والعلامات ، ثم يبين كيفية العلاج . والعلاج فيه إما كلي يتناول جميع الأمراض ، أو جزئي يختص بمرض دون مرض ، فكذلك الحال في الطب الروحاني . ونحن نشير إلى ذلك في فصول :

فصل طريق معرفة الأمراض النفسانيةup

الأمراض النفسانية هي انحرافات الأخلاق عن الاعتدال . وطريق معرفتها : أنك قد عرفت أن القوى الإنسانية محصورة في أنواع ثلاثة : (أحدها) قوة التمييز ، (وثانيها) قوة الغضب ويعبر عنها بقوة الدفع ، (وثالثها) قوة الشهوة ويعبر عنها بقوة الجذب . وانحراف كل منها إما في الكمية أو في الكيفية ، والانحراف في الكمية إما للزيادة من الاعتدال أو للنقصان عنه . والانحراف في الكيفية إنما يكون برداءتها . فأمراض كل قوة إما بحسب الإفراط أو التفريط ، أو بحسب رداءة الكيفية . فالافراط في قوة التمييز : كالجربزة والدهاء ، والتجاوز عن حد النظر ،

ص ١٠٦

والمبالغة في التنقير (٣) ، والتوقف في غير موضعه للشبه الواهية ، والحكم على المجردات بقوة الوهم . وأعمال الذهن في إدراك ما لا يمكن دركه ، والتفريط فيه كالبلاهة ، وقصور النظر عن درك مقدار الواجب ، كإجراء أحكام المحسوسات على المجردات . والرداءة كالسفسطة في الاعتقاد ، والميل إلى العلوم الغير اليقينية - كعلم الجدل والخلاف - أزيد مما يميل إلى اليقينيات ، واستعمالهما في مقام اليقينيات ، والشوق إلى علم الكهانة والشعبذة وأمثالهما للوصول إلى الشهوات الخسيسة . وأما الإفراط في قوة الدفع : كشدة الغضب والغيظ وفرط الانتقام بحيث يتشبه بالسباع . وأما التفريط : كعدم الغيرة والحمية والتشبه بالأطفال والنسوان في الأخلاق والصفات . وأما الرداءة فيها : كالغيظ على الجمادات والبهائم أو على الناس لا بسبب موجب للانتقام . وأما الإفراط في قوة الجذب : فكالحرص على الأكل والجماع أزيد من قدر الضرورة . والتفريط فيه : فكالفتور عن تحصيل الأقوات الضرورية وتضييع العيال والخمود عن الشهوة حتى ينقطع عنه النسل . أما الرداءة فيها : كشهوة الطين والميل إلى مقاربة الذكور . ثم إنك قد عرفت أن أجناس الفضائل أربعة ، فأجناس الرذائل بحسب الكمية ثمانية ، لكل فضيلة ضدان كل منهما ضد للآخر ، وبحسب الكيفية أربعة ، ويحصل

من تركيبها وامتزاجها أنواع وأصناف لا يعد كثرة ، كما عرفت أكثرها .
فصل أسباب الأمراض النفسانيةup
إعلم أن أسباب الانحراف في الأخلاق ، إما نفسية حاصلة في النفس في بدو فطرتها ، أو حادثة من مزاولتها للأعمال الردية ، أو جسمية - وهي الأمراض الموجبة لبعض الملكات الردية - والسر في ذلك أن النفس لما كانت متعلقة بالبدن علاقة ارتباطية ، فيتأثر كل منهما بتأثر الآخر ، وكل كيفية تحدث في أحدهما تسري في الآخر ، كما أن غضب النفس أو تعشقها يوجب اضطراب البدن وارتعاشه ، وتأثر البدن بالأمراض ، (لا) سيما إذا حدثت
(هامش)
)
٣) التنقير : البحث والتتبع .
ص ١٠٧
في الأعضاء الرئيسية يوجب النقص في إدراك النفس وفساد تخيلها . وكثيرا ما يحدث من بعض الأمراض السوداوية فساد الاعتقاد والجبن وسوء الظن ، ومن بعضها التهور ، ويحصل من أكثر الأمراض سوء الخلق .
فصل المعالجات الكلية لمرض النفس up
سبب الانحراف إن كان مرضا جسمانيا فيجب أن يبادر إلى إزالته بالمعالجات الطبية ، وإن كان نفسانيا فالمعالجة الكلية هنا كالمعالجة الكلية في الطب الجسماني . والمعالجة الكلية فيه أن يعالج المرض أولا بالغذاء الذي هو ضد المرض طبعا ، كأن يعالج المرض البارد بالغذاء الحار ، فإن لم ينفع فبالدواء ، وإن لم ينجع فبالسمومات ، وإن لم يحصل بها البرء فبالكي أو القطع ، وهو آخر العلاج . فالقانون الكلي في المعالجة هنا أيضا كذلك ، وهو أن يبادر بعد معرفة الانحراف إلى تحصيل الفضيلة التي هي ضده ، والمواظبة على الأفعال التي هي آثارها ، وهذا بمنزلة الغذاء المضاد للمرض . فكما أن حصول الحرارة في المزاج يدفع البرودة الحادثة فيه ، فكذا كل فضيلة تحدث في النفس تزيل الرذيلة التي هي ضدها . فإن لم ينفع فليوبخ النفس ويعيرها على هذه الرذيلة فكرا أو قولا أو عملا ، ويعاتبها ويخاطبها بلسان الحال والمقال : أيتها النفس الأمارة قد هلكت وتعرضت لسخط الله وغضبه ، وعن قريب تعذبين في النار مع الشياطين والأشرار . فإن لم يؤثر ذلك فليرتكب آثار الرذيلة التي هي ضد هذه الرذيلة ، بشرط محافظة التعديل ، فصاحب الجبن مثلا يعمل أعمال المتهورين ، فيخوض في المخاوف والأهوال ويلقي نفسه في موارد الحذر والأخطار . وصاحب البخل يكثر من بذل الأموال ، بشرط أن يكف إذا قرب زوال الجبن والبخل لئلا يقع في التهور والإسراف ، وهذا بمنزلة المداواة بالسم .
فإن لم ينفع ذلك لقوة استحكام المرض فليعذب النفس بأنواع التكاليف الشاقة والرياضات المتعبة المضعفة للقوة الباعثة على هذه الرذيلة ، وهذا بمثابة الكي والقطع ، وهو آخر العلاج .
المعالجات الخاصة لمرض النفس up
تنبيه لما عرفت المعالجة الكلية الشاملة لجميع الرذائل بأجناسها
ص ١٠٨
وأنواعها وأصنافها ، فلنشتغل الآن ببيان معالجة كل من الرذائل بخصوصه . وقد عددنا قبل ذلك ما يتعلق بالقوى الثلاث من الرذائل وأضدادها من الفضائل مما له اسم مشهور ، فههنا نذكر معالجة كل رذيلة بخصوصها ، ونذيله بذكر ما يضادها من الفضيلة ، وما ورد في مدحها عقلا ونقلا ، لأن العلم بمعرفة كل فضيلة وحسنة أعون شيء على إزالة ما يضادها من الرذيلة . وربما كانت جملة من الرذائل المختلفة في الاسم مشتركة في المعالجة ، وربما كان للرذائل أو الفضائل المتعددة ضد واحد منها ، فنحن نشير إلى ذلك ، ونشير أيضا في تلو كل رذيلة وفضيلة إلى ما يتولد منهما من أفعال الجوارح مع معالجته - إن كان له ذلك - ونراعي الترتيب المذكور في مقام الإجمال : فنذكر أولا ما يتعلق بالقوة العاقلة من الجنسين وأنواعهما ، ثم ما يتعلق بالقوة الغضبية ، ثم ما يتعلق بالشهوية ، ثم ما يتعلق بالثلاث والاثنين منها ، فهنا أربعة مقامات :
المقام الأول
في معالجة الرذائل المتعلقة بالقوة العاقلةup

الجربزة وعلاجها - الجهل البسيط وعلاجه - شرف العلم والحكمة - آداب التعلم والتعليم - العلم الإلهي والأخلاق والفقه أشرف العلوم - أصول العقائد المجمع عليها - الجهل المركب والشك - اليقين - علامات صاحبه - مراتب اليقين - الشرك - التوحيد - التوكل على الله - حق التوكل بماذا يحصل - مناجاة السر لأرباب القلوب - الخواطر النفسانية والوساوس - أقسام الخواطر ومنها الإلهام - المطاردة بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس - العلائم الفارقة بين الإلهام والوسوسة - علاج الوساوس - ما يتم به علاج الوساوس - ما يتوقف قطع الوساوس عليه - حديث النفس لا مؤاخذة عليه - الخاطر المحمود والتفكر - مجاري التفكر في العوالم والمخلوقات .

ص ١٠٩

أما جنسا رذائلها (٤) (فأولهما) : الجربزة الموجبة للخروج في الفكر عن الحد اللائق وعدم استقالة الذهن على شيء ، بل لا يزال يستخرج أمورا دقيقة غير مطابقة للواقع ويتجاوز عن الحق ولا يستقر عليه ، وربما أدى في العقليات إلى الإلحاد وفساد الاعتقاد ، بل إلى نفي حقائق الأشياء رأسا كما للسوفسطائية ، وفي الشرعيات إلى الوساوس . (وعلاجه) بعد تذكر قبحه وإيجابه للهلاك ، أن يكلف نفسه على الاستقامة على مقتضى الأدلة المعتبرة عند أولي الأفهام المستقيمة ، ولا يتجاوز عن معتقدات أهل الحق المعروفين بالتحقيق واستقامة القريحة ، ولا يزال يكلف نفسه على ذلك حتى يعتاد القيام على الوسط . وربما كان للاشتغال بالتعليمات نفع في ذلك . (وثانيهما) : الجهل البسيط وقد عرفت أنه من باب التفريط ، وهو خلو النفس عن العلم من دون اعتقاد بكونها عالمة . وهو في البداية غير مذموم لتوقف التعلم عليه ، إذ ما لم تعتقد النفس جهلها بالمعارف لم تنتهض لتحصيلها . وأما الثبات عليه فهو من المهلكات العظيمة . والطريق في إزالته أمور : (الأول) أن يتذكر ما يدل على قبحه ونقصه عقلا ، وهو أن يعلم أن الجاهل ليس إنسانا بالحقيقة ، وإنما يطلق عليه الإنسان مجازا ، إذ فضل الإنسان عن سائر الحيوانات إنما هو إدراك الكلي المعبر عنه بالعلم ، لمشاركتها معه في سائر الأمور من الجسمية والقوى الغضبية والشهوية والصوت وغير ذلك ، فلولا علمه بحقائق الأشياء وخواصها لكان حيوانا بالحقيقة ، ولذا ترى أن من كان في محل محاورات العلماء وكان جاهلا بأقوالهم لم يكن فرق بينه وبين البهائم بالنسبة إليهم . وأي هلاك أعظم من الخروج عن حدود الإنسانية والدخول في حد البهيمية . (الثاني) أن يتذكر ما ورد في الشريعة من الذم عليه مثل قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : ستة يدخلون في النار

(هامش)

(٤) أي القوة العاقلة .

ص ١١٠

قبل الحساب لستة وعد منهم أهل الرساتيق بالجهالة . (الثالث) أن يتذكر ما يدل على فضيلة العلم عقلا ونقلا كما نذكره . وإذا وقف على جميع ذلك فليتيقظ عن سنة الغفلة ، ويصرف في إزالته الهمة ، ويجتهد في تحصيل العلم عن أهاليه ، ويصرف فيه أيامه ولياليه .

فصل شرف العلم والحكمة up

قد علم أن ضد الجنسين - أي الجربزة والسفسطة والجهل - هو الحكمة ، أعني العلم بحقائق الأشياء . فلنذكر أولا بعض ما يدل على شرافته عقلا ونقلا ، ترغيبا للطالبين على السعي في تحصيله وإزالة الجهل عن نفوسهم ، فنقول : لا ريب في أن العلم أفضل الفضائل الكمالية وأشرف النعوت الجمالية ، بل هو أجل الصفات الربوبية وأجمل السمات الألوهية ، وهو الموصل إلى جوار رب العالمين والدخول في أفق الملائكة المقربين ، وهو المؤدي إلى دار المقامة التي لا تزول ومحل الكرامة التي لا تحول ، وقد تطابق العقل والبرهان وإجماع أرباب الأديان على : أن السعادة الأبدية والقرب من الله سبحانه لا يتيسران بدونه ، وأي شيء أفضل مما هو ذريعة إليهما . وأيضا قد ثبت في الحكمة المتعالية : إن العلم والتجرد متلازمان ، فكلما تزداد النفس علما تزداد تجردا ، ولا ريب في أن التجرد أشرف الكمالات المتصورة للانسان ، إذ به يحصل التشبه بالملأ الأعلى وأهل القرب من الله تعالى . ومن جملة العلوم معرفة الله التي هي السبب الكلي لإيجاد العلم العلوي والسفلي ، كما دل عليه الخبر القدسي : كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق . على أن العلم لذيذ في نفسه محبوب في ذاته ، وما يحصل منه من اللذة والابتهاج فلما يحصل من غيره . والسر فيه أن إدراك الأشياء والإحاطة بها نوع تملك وتصرف لها ، إذ تتقرر في ذات المدرك حقائقها وصورها ، ومثل هذا التملك لدوامه وجزئية المدرك للمدرك أقوى من ملكية

الأعيان المبائنة لذات المالك الزائلة عنه .
والتحقيق : أن إطلاق الملكية عليه مجازي ، والنفس لكونها من سنخ عالم الربوبية تحب القهر والاستيلاء على
ص ١١١
الأشياء والمالكية لها بأي نحو كان ، إذ معنى الربوبية التوحيد بالكمال والاقتدار والغلبة على الأشياء . ثم من فوائد العلم في الدنيا العز والاعتبار عند الأخيار والأشرار ، ونفوذ الحكم على الملوك وأرباب الاقتدار ، فإن طباع الأنام من الخاص والعام مجبولة على تعظيم أهل العم وتوقيرهم ووجوب إطاعتهم واحترامهم ، بل جميع الحيوانات من البهائم والسباع مطيعة للانسان مسخرة له ، لاختصاصه بقوة الإدراك ومزيد التمييز . ولو تصت آحاد الناس لم تجد أحدا له تفوق وزيادة على غيره في جاه أو مال أو غير ذلك إلا وهو راجع إلى اختصاصه بمزيد تمييز وإدراك ، ولو كان من باب المكر والحيل . هذا وما يدل على شرافة العلم من الآيات والأخبار أكثر من أن تحصى . نبذة منها قوله تعالى : إنما يخشى الله من عباده العلماء (٥) . وقوله تعالى : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٦) . وقوله تعالى : ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا (٧) . وقوله تعالى : وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون (٨) . وقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : اللهم ارحم خلفائي . قيل : يا رسول الله : من خلفاؤك ؟ قال : الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي . وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأبي ذر : جلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب إلى الله تعالى من قيام ألف ليلة يصلى في كل ليلة ألف ركعة وأحب إليه من ألف غزوة ، ومن قراءة القرآن كله اثنى عشر
(هامش)
(٥) الفاطر ، الآية : ٢٨ . (٦) الزمر ، الآية : ٩ . (٧) البقرة ، الآية : ٢٦٩ . (٨) العنكبوت ، الآية : ٤٣ . (*)
ص ١١٢
ألف مرة ، وخير من عبادة سنة صام نهارها وقام ليلها ، ومن خرج من بيته ليلتمس باب من العلم كتب الله عز وجل له بكل قدم ثواب نبي من الأنبياء ، وثواب ألف شهيد من شهداء بدر ، وأعطاه الله بكل حرف يسمع أو يكتب مدينة في الجنة ، وطالب العلم يحبه الله وتحبه الملائكة والنبيون ، ولا يحب العلم إلا السعيد ، وطوبى لطالب العلم ، والنظر في وجه العالم خير من عتق ألف رقبة ، ومن أحب العلم وجبت له الجنة ، ويصبح ويمسي في رضى الله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يشرب من الكوثر ويأكل من ثمرة الجنة ، ولا يأكل الدود جسده ، ويكون في الجنة رفيق خضر (ع) . وقول أمير المؤمنين : إن كمال الدين طلب العلم والعمل به ، وإن طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال ، وإن المال مقسوم مضمون لكم قد قسمه عادل بينكم ، وقد ضمنه وسيفي لكم ، والعلم مخزون عند أهله فاطلبوه . وقوله (ع) : إذا مات مؤمن وترك ورقة واحدة عليها علم ، تكون تلك الورقة سترا بينه وبين النار ، وأعطاه الله بكل حرف عليها مدينة أوسع من الدنيا سبع مرات . وقول سيد الساجدين علي بن الحسين - عليهما السلام - : لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ، ولو بسفك المهج وخوض اللجج . وقول الباقر (ع) : عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد . وقول الصادق لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ما مدوا أعينهم إلى ما متع به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها ، وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطؤن بأرجلهم ، ولتنعموا بمعرفة الله وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله .
إن معرفة الله تعالى أنس من كل وحشة ، وصاحب من كل وحدة ، ونور من كل ظلمة ، وقوة من كل ضعف ، وشفاء من كل سقم ، قد كان قوم قبلكم قوم يقتلون ويحرقون وينشرون وتضيق عليهم الأرض برحبها ، فما يردهم عماهم عليه شيء مما هو فيه من غير ترة وتروا من فعل ذلك بهم ولا أذى بما نقموا منهم : إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد (٩) .
(هامش)
(٩) البروج ، الآية : ٨ . (*)
ص ١١٣
فاسألوا ربكم درجاتهم ، واصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم . وعن الرضا (ع) عن آبائه - عليهم السلام - عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، فاطلبوا العلم في مظانه ، واقتبسوه من أهله ، فإن تعلمه لله تعالى حسنة ،

وطلبه عبادة ، - والمذاكرة به تسبيح ، والعمل به جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة إلى الله ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبيل الجنة ، والمؤنس في الوحشة ، والصاحب في الغربة والوحدة ، والمحدث في الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء . والزين عند الأخلاء ، يرفع الله به أقواما ، ويجعلهم في الخير قادة ، تقتبس آثارهم ، ويقتدى بأفعالهم ، وينتهى إلى آرائهم ، ترغب الملائكة في خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم وفي صلاتها تبارك عليهم ، ويستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه . إن العلم حياة القلوب من الجهل ، وضياء الأبصار من الظلمة ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ بالعبد منازل الأخيار ومجالس الأبرار والدرجات العلى في الآخرة والأولى . الذكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام . وبه يطاع الرب ويعبد ، وبه توصل الأرحام ، ويعرف الحلال والحرام . العلم إمام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء ، فطوبى لمن لم يحرمه الله من حظه .

آداب التعلم والتعليم (تنبيه): up

لكل من التعلم والتعليم آداب وشروط : (أما آداب التعلم) : (فمنها) أن يجتنب المتعلم عن اتباع الشهوات والهوى والاختلاط بأبناء الدنيا . ولقد قال بعض الأكابر : كما أن الحاسة الجليدية إذا كانت مؤوفة برمد ونحوه فهي محرومة من الأشعة الفائضة عن الشمس ، كذلك البصيرة إذا كانت مؤوفة بمتابعة الشهوات والهوى والمخالطة بأبناء الدنيا فهي محرومة من إدراك الأنوار القدسية ومحجوبة عن ذوق اللذات الإنسية . (ومنها) أن يكون تعلمه لمجرد التقرب إلى الله والفوز بالسعادات

ص ١١٤

الأخروية ، ولم يكن باعثه شيئا من المراء والمجادلة ، والمباهاة والمفاخرة ، والوصول إلى جاه ومال ، أو التفوق على الأقران والأمثال . قال الباقر عليه السلام : من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس فليتبوأ مقعده من النار ، إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها . وقال الصادق (ع) : طلبة العلم ثلاثة ، فأعرفهم بأعيانهم وصفاتهم : صنف يطلبه للجهل (١٠) والمراء ، وصنف يطلبه للاستطالة والختل ، وصنف يطلبه للفقه والعقل . فصاحب الجهل والمراء مؤذ ممار ، متعرض للمقال في أندية الرجال بتذاكر العلم وصفة الحلم ، وقد تسربل بالخشوع وتخلى من الورع ، فدق الله من هذا خيشومه وقطع منه حيزومه . وصاحب الاستطالة والختل ذو خب وملق ، يستطيل على مثله من أشباهه ، ويتواضع للأغنياء من دونه ، فهو لحلوانهم (١١) هاضم ولدينه حاطم ، فأعمى الله على هذا خبره وقطع من آثار العلماء أثره . وصاحب الفقه والعقل ذو كآبة وحزن وسهر ، قد تحنك في برنسه وقام الليل في حندسه ، يعمل ويخشى وجلا داعيا مشفقا مقبلا على شأنه عارفا بأهل زمانه مستوحشا من أوثق أخوانه ، فشد الله من هذا أركانه وأعطاه يوم القيامة أمانه . (ومنها) أن يعمل بما يفهم ويعلم ، فإن من عمل بما يعلم ورثه الله ما لم يعلم . وقال الصادق (ع) : العلم مقرون إلى العمل ، من علم عمل ، ومن عمل علم ، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل عنه . وعن السجاد (ع) : مكتوب في الإنجيل : لا تطلبوا علم ما لا تعملون ولما تعملوا بما علمتم ، فإن العلم إذا لم يعمل به لم يزدد صاحبه إلا كفرا ولم يزدده من الله إلا بعدا . وعن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : من أخذ العلم من أهله وعمل بعلمه نجا ، ومن أراد به الدنيا فهي حظه . وعنه (هامش)

(

١٠) (الجهل) هنا بمعنى الجفاء والغلظة . (١١) قال الشيخ (ملا صالح المازندراني) تعليقته على أصول الكافي عن هذا الحديث الحلوان - بضم الحاء المهملة وسكون اللام - ما تأخذه الحكام والقضاة والكاهن من الأجر والرشوة على أعمالهم ، يقال : حلوته أحلوه حلوانا ، فهو مصدر كالغفران ، ونونه زائدة ، وصله من الحلاوة ، وفي بعض النسخ (بحلوائهم) - بالهمزة بعد الألف - والحلوا . - بالمد والقصر - ما يتخذ من الحلاوة . (*)

ص ١١٥

- صلى الله عليه وآله وسلم : العلماء رجلان : رجل عالم أخذ بعلمه فهذا تاج ، وعالم تارك لعلمه فهذا هالك ، وأن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه ، وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبدا إلى الله فاستجاب له وقبل منه ، فأطاع الله فأدخله الجنة

، وأدخل الداعي النار بترك عمله (١٧) واتباعه الهوى وطول الأمل ، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق وطول الأمل ينسي الآخرة . (ومنها) أن يحافظ شرائط الخضوع والأدب للمعلم ، ولا يرد عليه شيئا بالمواجهة ، ويكون محبا له يقلبه ، ولا ينسى حقوقه ، لأنه والده المعنوي الروحاني ، وهو أعظم الآباء الثلاثة . قال الصادق (ع) : أطلبوا العلم وتزينوا معه بالحلم والوقار ، وتواضعوا لمن تعلمونه العلم ، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم ، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم . هذا وقد أشرنا سابقا إلى أن اللازم لكل متعلم أن يطهر نفسه أولا من رذائل الأخلاق وذمائم الأوصاف بأسرها ، إذ ما لم يجرد لوح نفسه عن النقوش الردية لم تشرق عليه لمعات أنوار العلم والحكمة من ألواح العقول الفعالة القدسية . (فمنها) أن يخلص المعلم تعليمه لله سبحانه ولم يكن له فيه باعث دنيوي من طمع مالي أو جاه ورئاسة أو شهرة بين الناس ، بل يكون الباعث مجرد التقرب إلى الله تعالى والوصول إلى المثوبات الأبدية ، فإن من علم غيره علما كان شريكا في ثواب تعليم هذا الغير لآخر ، وفي ثواب تعليم هذا الآخر لغيره . . . وهكذا إلى غير النهاية ، فيصل بتعليم واحد إلى مثوبات التعاليم الغير المتناهية ، وكفى بهذا له فضلا وشرفا . (ا ومنه) أن يكون مشفقا على المتعلم ناصحا له ، مقتصرا في الإفادة على قدر فهمه ، متكلما معه باللين والهشاشة لا بالغلظة والفظاظة . (ومنها) أن لا يضمن العلم من أهله ويمنعه عن غير أهله ، لأن بذل

(هامش)

(١٢) صححناه على بعض نسخ أصول الكافي المصححة وفي نسخ جامع السعادات هكذا : (بتركه علمه) . (*)

ص ١١٦

الحكمة للجهال ظلم عليها ، ومنعها عن أهلها ظلم عليهم ، كما ورد في الخبر (١٣) . (ومنها) أن يقول ما يعلم ويسكت عما لا يعلم حتى يرجع إليه ويعلمه ، ولا يخبر المتعلمين ببيان خلاف الواقع . وهذا الشرط لا يختص بالمعلمين ، بل يعم كل من تصدر عنه المسائل العلمية كالمفتي والقاضي وأمثالهما . وقال الباقر (ع) : حق الله على العباد أن يقولوا ما يعلمون ويقفوا عنه ما لا يعلمون (١٤) وقال الصادق (ع) : إن الله تعالى خص عباده بآيتين من كتابه : ألا يقولوا حتى يعلموا ولا يردوا ما لم يعلموا ، فقال : ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق (١٥) . وقال : بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله (١٦) . وعنه (ع) : إذا سئل الرجل منكم عما لا يعلم ، فليقل : لا أدري ، ولا يقل : الله أعلم ، فيوقع في قلب صاحبه شكا . وإذا قال المسؤل : لا أدري ، فلا يتهمه السائل وعنه (ع) : إياك وخصلتين ففيهما هلك من هلك . إياك أن تفتي الناس برأيك ، أو تدين بما لا تعلم . وعن الباقر (ع) : من أفتى الناس بغير علم ولا هدى لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، ولحقه وزر من عمل بفتياه . وربما كان لكل من المتعلم والمعلم آداب أخر تظهر لمن وقف على فن الأخلاق . ثم العارف بأهل زماننا يعلم أن آداب التعلم والتعليم كسائر الآداب والفضائل فيهم مهجورة ، والأمر في مثل الزمان كما قال في وصفه بعض أهل العرفان : قد فسد الزمان وأهله ، وتصدى للتدريس من قل علمه وكثر جهله ، فانحطت مرتبة العلم وأصحابه ، واندرست مراسمه بين طلابه .

(هامش)

(

١٣) روي في أصول الكافي في باب بذل العلم عن الصادق - عليه السلام - : قام عيسى بن مريم خطيبا في بني إسرائيل فقال : يا بني إسرائيل ! لا تحدثوا الجهال بالحكمة فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم . (١٤) الحديث المروي في أصول الكافي هكذا : عن زرارة بن أعين قال : سألت أبا جعفر - عليه السلام - ماحق الله على العباد ؟ قال : أن يقولوا ما يعلمون . . . إلى آخر الحديث .

(١٥) الأعراف ، الآية : ١٦٩ . (١٦) يونس ، الآية : ٣٩ . (*)

ص ١١٧

تتميم: العلم الإلهي وعلم الأخلاق والفقه أشرف العلوم up

العلم كله وإن كان كمالا للنفس وسعادة ، إلا أن فنونه متفاوتة في الشرافة والجمال ووجوب التحصيل وعدمه ، فإن بعضها كالطب والهندسة والعروض والموسيقى وأمثالها ، مما ترجع جل فائدته إلى الدنيا ولا يحصل بها مزيد بهجة وسعادة في العقبى ، ولذا عدت من علوم الدنيا دون الآخرة ، ولا يجب تحصيلها ، وربما وجب تحصيل بعضها كفاية . وما هو علم الآخرة الواجب تحصيله ، وأشرف

العلوم وأحسنها هو العلم الإلهي المعرف لأصول الدين ، وعلم الأخلاق المعرف لمنجيات النفس ومهلكاتها ، وعلم الفقه المعرف لكيفية العبادات والمعاملات ، والعلوم التي مقدمات لهذه الثلاثة كالعربية والمنطق وغيرهما يتصف بالحسن ووجوب التحصيل من باب المقدمة . وهذه العلوم الثلاثة وإن وجب أخذها إجمالا إلا أنها في كيفية الأخذ مختلفة : فعلم الأخلاق يجب أخذه عينا على كل أحد على ما بينته الشريعة وأوضحه علماء الأخلاق ، وعلم الفقه يجب أخذ بعضه عينا إما بالدليل أو التقليد من مجتهد حي ، والتارك للطريقين غير معذور ، ولذا ورد الحث الأكيد عن التفقه في الدين قال الصادق (ع) : عليكم فقه بالت في دين الله ولا تكونوا أعرابا ، فإنه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر إليه يوم القيامة ولم يزك له عملا ، وقال : ليت السياط على رؤس أصحابي حتى يتفقهوا في الحلال والحرام ، وقال (ع) : إن آية الكذاب أن يخبرك خبر السماء والأرض والمشرق والمغرب ، فإذا سألته عن حرام الله وحلاله لم يكن عنده شيء . وأما أصول العقائد فيجب أخذها عينا من الشرع والعقل ، وهما متلازمان لا يتخلف مقتضى أحدهما عن مقتضى الآخر ، إذ العقل هو حجة الله الواجب امتثاله والحاكم العدل الذي تطابق أحكامه الواقع ونفس الأمر ، فلا يرد حكمه ، ولولاه لما عرف الشرع ، ولذا ورد : إنه ما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه ، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل (١٧) .

(هامش)

)

١٧) هذا الحديث رواه في أصول الكافي عن النبي - صلى الله عليه ج : ١ (*)

ص ١١٨

فهما متعاضدان ومتظاهران ، وما يحكم به أحدهما يحكم به الآخر أيضا ، وكيف يكون مقتضى الشرع مخالفا لمقتضى ما هو حجة قاطعة وأحكامه للواقع مطابقة ، فالعقل هو الشرع الباطن والنور الداخل ، والشرع هو العقل الظاهر والنور الخارج . وما يتراءى في بعض المواضع من التخالف بينها إنما هو لقصور العقل أو لعدم ثبوت ما ينسب إلى الشرع منه ، فإن كل عقل ليس تاما ، وكلما ينسب إلى الشرع ليس ثابتا منه ، فالمناط هو العقل الصحيح وما ثبت قطعا من الشريعة ، وأصح العقول وأقواها وأمتنها وأصفاها هو عقل صاحب الوحي . ولذا يدرك بنوريته ما لا سبيل لأمثال عقولنا إلى دركه ، كتفاصيل أحوال نشأة الآخرة ، فاللازم في مثله أن نأخذه منه إذعانا وإن لم نعرف مأخذه العقلي .

أصول العقائد المجمع عليها up

ثم ما أجمعت الأمة المختارة عليه من أصول العقائد هو : أن الواجب سبحانه موجود ، وإنه واحد في الألوهية ، وبسيط عن شوائب التركيب ، ومنزه عن الجسمية وعوارضها ، وإن وجوده وصفاته عين ذاته ، وإنه متقدم على الزمان والمكان ومتعال عنهما ، وإنه حي قديم أزلي قادر مريد عالم بجميع الأشياء ، وعلمه بها بعد إيجادها كعلمه بها قبله ، ولا يزداد بإحداثها علما ، وإن قدرته عامة بالنسبة إلى جميع الممكنات ، وإنه يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد ، ولا يكون شيء إلا بمشيئته ، وإنه عدل في حكمه صادق في وعده . وبالجملة مستجمع لجميع الصفات الكمالية ، وليس كمثله شيء ، ولا يتصور عقل ولا وهم مثله ، بل هو تام فوق التمام . وإن القرآن كلامه ، ومحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - رسوله ، ما أتى به من أمور النشأة الآخرة من الجنة والنار والحساب والثواب والعقاب والصراط والميزان والشفاعة وغير ذلك مما ثبت في شريعته المقدسة حق ثابت ، فيجب على كل مؤمن أن يأخذ بجميع ذلك ويتشبث به ويجرد باطنه له ، بحيث لو أورد عليه ما ينقضه لم يقبله ولم يعرضه شك وريب .

(هامش)

وآله - في كتاب العقل والجهل فصححناه عليه ، وفي نسخ جامع السعادات اختلاف عما هنا . (*)

ص ١١٩

ثم إن المكلفين مختلفون في كيفية التصديق والاذعان بالعقائد المذكورة ، فبعضهم فيها على يقين مثل ضوء الشمس ، بحيث لو كشف عنهم الغطاء ما ازدادوا يقينا (١٨) ، وبعضهم على يقين دون ذلك ، وأقل هؤلاء رتبة أن تصل مرتبة يقينهم إلى طمأنينة لا اضطراب فيها ، وبعضهم على مجرد تصديق ظني يتزلزل من الشبهات وإلقاء النقيض ، وإلى هذا الاختلاف أشار الإمام محمد بن علي الباقر - عليهما السلام - بقوله : إن المؤمنين على منازل : منهم على واحدة ، ومنهم على اثنتين ، ومنهم على ثلاث ، ومنهم على أربع ، ومنهم

على خمس ، ومنهم على ست ، ومنهم على سبع ، فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقو ، وعلى صاحب الثنتين ثلاثا لم يقو . . إلى آخره (١٩) . والإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام بقوله : إن للإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل ، فمنه التام المنتهي تمامه ، ومنه الناقص البين نقصانه ، ومنه الراجح الزائد رجحانه . ولا ريب في أن تحصيل ما يطمئن به القلب في العقائد الواجبة أخذها مما لا بد منه لكل مكلف ، ومجرد التصديق من غير اطمئنان القلب غير كاف للنجاة في الأخرى والوصول إلى مراتب المؤمنين . ومع حصول الاطمئنان تحصل النجاة والفوز بالفلاح ، وإن لم يكن حصوله من تفاصيل البراهين الحكمية والدلائل الكلامية ، بل كان حاصلا من دليل إجمالي برهاني أو اقناعي ، إذ الشرع الشريف لم يكلف بأكثر من التصديق والجزم بظاهر العقائد المذكورة ، ولم يكلف البحث والتفتيش عن كيفياتها وحقائقها وعن تكلف ترتيب الأدلة في نظمها ، فلو حصل لأحد طمأنينة في اتصاف الواجب بجميع الصفات الكمالية وبراءته عن الصفات السلبية ، بمجرد أن عدم الاتصاف بالأولى والاتصاف بالثانية نقص لا يليق بذاته الأقدس ، كان كافيا في النجاة والدخول في زمرة المؤمنين . وكذا إذا حصل له ذلك بمجرد أن هذا مما

(هامش)

(

١٨) كما قال أمير المؤمنين - عليه الصلاة والسلام - : لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا . (١٩) الحديث مروي في أصول الكافي في باب درجات الإيمان وبقيته : وعلى صاحب الثلاث أربعا لم يقو ، وعلى صاحب الأربع خمسا لم يقو ، وعلى صاحب الخمس ستا لم يقو ، وعلى صاحب الست سبعا لم يقو . . . وعلى هذه الدرجات . (*)

ص ١٢٠

اتفق عليه فرق الأنبياء وأساطين الحكماء والعلماء ، وقوة عقولهم ودقة أفهامهم تأبى عن اتفاقهم على محض الخطأ . وقس على ذلك غيره مما يفيد الاطمئنان كائنا ما كان . قال العلامة (الطوسي) - ره - في بعض تصانيفه : أقل ما يجب اعتقاده على المكلف هو ما ترجمة قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ثم إذا صدق الرسول ينبغي أن يصدقه في صفات الله واليوم الآخر وتعيين الإمام المعصوم ، كل ذلك مما يشتمل عليه القرآن من غير مزيد برهان : أما في صفات الله فبأنه حي عالم قادر مريد متكلم ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وأما في الآخرة فبالإيمان بالجنة والنار والصراط والميزان والحساب والشفاعة وغيرها ولا يجب عليه أن يبحث عن حقيقة الصفات ، وإن الكلام والعلم وغيرهما حادث أو قديم ، بل لو لم تخطر هذه بباله ومات مات مؤمنا ، فإن غلب على قلبه شك أو إشكال ، فإن أمكن إزالته بكلام قريب من الأفهام وإن لم يكن قويا عند المتكلمين ولا مرضيا فذلك كاف ، ولا حاجة إلى تحقيق الدليل ، فإن الدليل لا يتم إلا بذكر الشبهة والجواب ، ومهما ذكرت الشبهة لا يؤمن أن تتشبث بالخاطر والقلب فيظنها حقة لقصوره عن إدراك جوابها ، إذ الشبهة قد تكون جلية والجواب دقيقا لا يحتمله عقله ، ولذا ورد الزجر عن البحث والتفتيش في الكلام ، وإنما زجر ضعفاء العوام ، وأما أئمة الدين فلهم الخوض في غمرة الإشكالات .

ومنع العوام عن الكلام يجري مجرى منع الصبيان عن شاطئ دجلة خوفا من الغرق ، ورخصة الأقوياء فيه أيضا هي رخصة الماهر في صنعة السباحة ، إلا أن ههنا موضع غرور ومزلة قدم ، وهو إن كل ضعيف في عقله يظن أنه يقدر على إدراك الحقائق كلها ، وإنه من جملة الأقوياء فربما يخوضون ويغرقون في بحر الجهالات منم حيث لا يشعرون ، فالصواب منع الخلق كلهم - إلا الشاذ النادر الذي لا تسمح الأعصار إلا بواحد منهم أو اثنين - من تجاوز سلوك أهل العلم في الإيمان المرسل والتصديق المجمل بكل ما أنزل الله وأخبر به رسول الله (ص) فمن اشتغل بالخوض فيه فقد أوقع نفسه في شغل شاغل ، إذ قال رسول الله (ص) حين رأى أصحابه يخوضون ، بعد أن غضب حتى احمرت وجنتاه : أفبهذا أمرتم ؟ تضربون

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

١٠٦ 04

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ١٢١

كتاب الله بعضه ببعض ! انظروا فيما أمركم الله فافعلوا وما نهاكم عنه فانتهوا فهذا تنبيه على منهج الحق . ثم لا ريب في أن نورانية اليقين ووضوحه ، بل واطمئنان القلب وسكونه لا يحصل من مجرد صنعة الجدل والكلام ، كما لا يحصل من محض التلقين وتقليد العوام . بل (الأول) - أعني الاستضاءة بنور اليقين - يتوقف على ملازمة الورع والتقوى ، وفطام النفس عن الهوى ، وإزالة كدرتها وصدأها : وقد أفلح من زكاها (٢٠) . وتطهيرها عن ذمائم الصفات والاشتغال بمشاق الرياضة والمجاهدات ، حتى يقذف في قلبه نورا إلهي تنكشف به الحجب والأستار عن حقائق هذه العقائد ، وهو غاية مقصد الطالبين وقرة عيون الصديقين والمقربين ، وله درجات ومراتب ، والناس فيه مختلفون بحسب اختلافهم في القوة والاستعداد والسعي والاجتهاد ، كما هم مختلفون في إدراك أنواع العلوم والصنائع وكل ميسر لما خلق له (٢١) . وأما (الثاني) - أعني مجرد الاعتقاد الجازم الراسخ بظواهر تلك العقائد - فيمكن أن يحصل بما دون ذلك ، بأن يشتغل - بعد تلقين هذه العقائد والتصديق بها - بوظائف الطاعات ، ويصرف برهة من وقته في شرائف العبادات ، ويواظب على تفسير القرآن وتلاوته ، ودرس الحديث ودرايته ، ويحترز عن مخالطة أولي المذاهب الفاسدة وذوي الآراء الباطلة ، بل يجتنب كل الاجتناب عن مرافقة أرباب الهوى وأصحاب الشر والشقاء ، ويختار مصاحبة أهل الورع واليقين ، ومجالسة الأتقياء والصالحين ، ويلاحظ سيماهم وسيرتهم وهيئاتهم في الخضوع لله والاستكانة ، فيكون التلقين كإلقاء البذر في الصدر ، وهذه الأمور كالسقي والتربية له ، فينمو ذلك البذر بها ويتقوى ويزداد رسوخا ، حتى يرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء .

ثم من وصل إلى مقام العقيدة الجازمة إن اشتغل بالشواغل الدنيوية ولم يشتغل بالرياضة والمجاهدة لم ينكشف له غيره ولكنه إذا مات مات مؤمنا على الحق

(هامش)

(٢٠) الشمس ، الآية : ٩ . (٢١) حديث نبوي مشهور ، تقدم ذكره صة ٢٦ . (*)

ص ١٢٢

وسلم في الآخرة ، وإن اشتغل بتصقيل النفس وارتياضها الشرح صدره وانفتح له باب الإفاضة ، ووصل إلى المرتبة الأولى .

أنواع الرذائل المتعلقة بالعاقلة up

أما الأنواع المتعلقة بالعاقلة فمنها :

• الجهل المركب : up

وهو خلو النفس عن العلم وإذعانها بما هو خلاف الواقع ، مع اعتقاد كونها عالمة بما هو الحق ، فصاحبه لا يعلم ، ولا يعلم أنه لا يعلم ، ولذا سمي مركبا . وهو أشد الرذائل وأصعبها ، وإزالته في غاية الصعوبة ، كما هو ظاهر من حال بعض الطلبة . وقد اعترف أطباء النفوس بالعجز عن معالجته كما اعترف أطباء الأبدان بالعجز عن معالجة بعض الأمراض المزمنة ، ولذا قال عيسى عليه السلام : إني لا أعجز عن معالجة الأكمه والأبرص وأعجز عن معالجة الأحمق . والسر فيه : أنه مع قصور النفس بهذا الاعتقاد الفاسد لا يتنبه على نقصانها ، فلا يتحرك للطلب ، فيبقى في الضلالة والردى ما دام باقيا في دار الدنيا . ثم المنشأ له إن كان اعوجاج السليقة فأنفع العلاج له تحريض صاحبه على تعلم العلوم الرياضية من الهندسة والحساب ، فإنها موجبة لاستقامة الذهن لألفه لأجلها باليقينيات فيتنبه على خلل اعتقادها ، فيصير جهلها بسيطا ، فينتهض للطلب . وإن كان خطأ في الاستدلال ، فليوازن استدلاله لاستدلالات أهل التحقيق والمشهورين باستقامة القريحة ، ويعرض أدلة المطلوب على القواعد الميزانية باحتياط تام واستقصاء بليغ ، حتى يظهر خطأه . وإن كان وجود مانع من عصبية أو تقليد أو غير ذلك فليجتهد في إزالته . ومنها

• الشك والحيرة : up

وهو من باب رداءة الكيفية وهو عجز النفس عن تحقيق الحق وإبطال الباطل في المثالب الخفية ، والغالب حصوله من تعارض الأدلة ، ولا ريب أنه مما يهلك النفس ويفسدها ، إذ الشك ينافي اليقين الذي لا يتحقق الإيمان بدونه . قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه : لا ترتابوا فتشكوا ولا تشكوا فتكفروا وكأن الارتياب في كلامه عليه السلام مبدأ الشك .

ص ١٢٣

وقال الباقر عليه السلام : لا ينفع مع الشك والجحود عمل . وقال الصادق عليه السلام : إن الشك والمعصية في النار ليس منا ولا إلينا . وسئل عليه السلام عن قول الله تعالى : الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم (٢٢) . قال : بشك . وقال - عليه السلام - : من شك

في الله تعالى بعد مولده على الفطرة لم يفئ إلى خير أبدا . وقال - عليه السلام - : من شك أو ظن فأقام على أحدهما أحبط الله عمله ، إن حجة الله هي الحجة الواضحة . وقال عليه السلام : من شك في الله تعالى وفي رسوله (ص) فهو كافر . وبمضمونه وردت أخبار أخر . وغير خفي أن المراد بالشك ما يضعف الاعتقاد ويزيل اليقين لا مجرد الوسوسة وحديث النفس ، لما يأتي أنه لا ينافي الإيمان ، بل الظاهر من بعض الأخبار أن إيجاب الشك للكفر إذا انجر إلى الجحود ، كما روي أن أبا بصير سأل الصادق عليه السلام ما تقول فيمن شك في الله تعالى ؟ قال : كافر ، قال : فشك في رسول الله (ص) ؟ قال كافر ، ثم التفت إلى زرارة فقال : إنما يكفر إذا جحد . ثم علاجه أن يتذكر أولا قضية بديهية ، هي : أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان ، ومنه يعلم إجمالا إن أحد الشقوق العقلية المتصورة في المطلوب ثابت في الواقع ونفس الأمر والبواقي باطلة ، ثم يتص المقدمات المناسبة للمطلوب ويعرضها على الأقيسة المنطقية باستقصاء بليغ واحتياط تام في كل طرف ، حتى يقف على موضع الخطأ ويجزم بحقية أحد الشقوق وبطلان الآخر . والغرض من وضع المنطق (لا) سيما مباحث القيامات السوفسطائية المشتملة على المغالطات إزالة هذا المرض . ولو كان ممن لا يقتدر على ذلك فالعلاج في حقه أن يواظب على العبادة وقراءة القرآن ، ويشتغل بمطالعة الأحاديث وسماعها من أهلها ، ويجالس الصلحاء والمتقين وأصحاب الورع وأهل اليقين ، لتكتسب نفسه بذلك نورانية يدفع بها ظلمة شكه .

(هامش)

(٢٢) الأنعام ، الآية : ٨٢ . (*)

ص ١٢٤

وصل (اليقين) : up

قد عرفت : إن ضد الجهل المركب والحيرة والشك هو (اليقين) وأول مراتبه اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع غير زائل بشبهة وإن قويت ، فالاعتقاد الذي لا يطابق الواقع ليس يقينيا ، وإن جزم به صاحبه واعتقد مطابقته للواقع ، بل هو - كما أشير إليه - جهل مركب ينشأ عن اعوجاج القريحة ، أو خطأ في الاستدلال ، أو حصول مانع من إفاضة الحق كتقليد أو عصبية أو غير ذلك . فاليقين من حيث اعتبار المطابقة للواقع فيه يكون ضدا للجهل المركب . ثم العلم إن لم يعتبر فيه المطابقة للواقع ففرقه عن اليقين ظاهر ، وإلا فيتساويان ويتشاركان في المراتب المثبتة لليقين . هذا ومتعلق اليقين إما أجزاء الإيمان ولوازمه ، من وجود الواجب وصفاته الكمالية وسائر المباحث الإلهية من النبوة وأحوال النشأة الآخرة ، أو غيرها من حقائق الأشياء التي لا يتم الإيمان بدونها . ولا ريب في أن مطلق اليقين أقوى أسباب السعادة ، الأخروية ، لتوقف الإيمان عليه ، بل هو أصله وركنه ، وغيره من المراتب فرعه وغصنه ، والنجاة في الآخرة لا تحصل إلا به ، والفاقد له خارج عن زمرة المؤمنين داخل في حزب الكافرين . وبالجملة : اليقين أشرف الفضائل الخلقية وأهمها ، وأفضل الكمالات النفسية وأعظمها ، وهو الكبريت الأحمر الذي لا يظفر به إلا أوحدي من أعاظم العرفاء أو ألمعي من أكابر الحكماء . ومن وصل إليه فاز بالرتبة القصوى والسعادة العظمى . قال سيد الرسل (ص) : أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أوتي حظه منهما لم يبال ما فاته من صيام النهار وقيام الليل ، وقال (ص) : اليقين الإيمان كله ، وقال (ص) : ما آدمي إلا وله ذنوب ، ولكن من كانت غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب ، لأنه كلما أذنب ذنبا تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة .

وقال الصادق عليه السلام : إن العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله تعالى من العمل الكثير على غير يقين ، وعنه عليه السلام : إن الله

ص ١٢٥

تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط . وفي وصية لقمان لابنه : يا بني ، لا يستطاع العمل إلا باليقين ، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ، ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه

علامات صاحب اليقين : up

ثم لصاحب اليقين علامات : (منها) ألا يلتفت في أموره إلى غير الله سبحانه ، ولا يكون اتكاله في مقاصده إلا عليه ، ولا ثقته في مطالبه إلا به ، فيتبرى عن كل حول وقوة سوى حول الله وقوته ، ولا يرى لنفسه ولا لأبناء جنسه قدرة على شيء ولا منشأية لأثر .

ويعلم أن ما يرد عليه منه تعالى وما قدر له وعليه من الخير والشر سيساق إليه ، فتستوي عنده حالة الوجود والعدم ، والزيادة والنقصان ، والمدح والذم ، والفقر والغنى ، والصحة والمرض ، والعز والذل ، ولم يكن له خوف ورجاء إلا منه تعالى . والسر فيه : أنه يرى الأشياء كلها من عين واحدة هو مسبب الأسباب ، ولا يلتفت إلى الوسائط ، بل يراها مسخرة تحت حكمه . قال الإمام أبو عبد الله (ع) : من ضعف يقينه تعلق بالأسباب ، ورخص لنفسه بذلك ، واتبع العادات وأقاويل الناس بغير حقيقة والسعي في أمور الدنيا وجمعها وإمساكها ، مقرا باللسان أنه لا مانع ولا معطي إلا الله ، وإن العبد لا يصيب إلا ما رزق وقسم له ، والجهد لا يزيد في الرزق ، وينكر ذلك بفعله وقلبه ، قال الله سبحانه : يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون (٢٣) . وقال - عليه السلام - : ليس شيء إلا وله حد قيل : فما حد التوكل ؟ قال : اليقين ، قيل : فما حد اليقين ؟ قال : ألا تخاف مع الله شيئا . وعنه - عليه السلام - : من صحة يقين المرء المسلم ألا يرضي

(هامش)

(

٢٣) الآية من سورة آل عمران : ١٦١ . وهذا الحديث منقول عن (مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة) المنسوب إلى الصادق - عليه السلام - . وهذا الكتاب قال فيه المجلسي - قدس سره - في مقدمة البحار : فيه ما يريب اللبيب الماهر ، وأسلوبه لا يشبه سائر كلمات الأئمة وآثارهم ، ثم قال : وإن سنده ينتهي إلى الصوفية ، ولذا اشتمل على كثير من اصطلاحاتهم وعلى الرواية عن مشايخهم . (*)

ص ١٢٦

الناس بسخط الله ولا يلومهم على ما لم يؤته الله ، فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا ترده كراهية كاره ، ولو أن أحدكم فر من رزقه كما يفر من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت . (ومنها) أن يكون في جميع الأحوال خاضعا لله سبحانه ، خاشعا منه ، قائما بوظائف خدمته في السر والعلن ، مواظبا على امتثال ما أعطته الشريعة من الفرائض والسنن ، متوجها بشراشره إليه ، متخضعا متذللا بين يديه ، معرضا عن جميع ما عداه ، مفرغا قلبه عما سواه ، منصرفا بفكره إلى جناب قدسه ، مستغرقا في لجة حبه وأنسه . والسر أن صاحب اليقين عارف بالله وعظمته وقدرته ، وبأن الله تعالى مشاهد لأعماله وأفعاله ، مطلع على خفايا ضميره وهواجس خاطره ، وأن : من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٢٤) . فيكون دائما في مقام الشهود لديه والحضور بين يديه ، فلا ينفك لحظة عن الحياء والخجل والاشتغال بوظائف الأدب والخدمة ، ويكون سعيه في تخلية باطنه عن الرذائل وتحليته بالفضائل لعين الله الكالئة أشد من تزيين ظاهره لأبناء نوعه . وبالجملة : من يقينه بمشاهدته تعالى لأعماله الباطنة والظاهرة وبالجزاء والحساب ، يكون أبدا في مقام امتثال أوامره واجتناب نواهيه . ومن يقينه بما فعل الله في حقه من أعطاء ضروب النعم والاحسان ، يكون دائما في مقام الانفعال والخجل والشكر لمنعمه الحقيقي . ومن يقينه بما يعطيه المؤمنين في الدار الآخرة من البهجة والسرور ، وما أعده لخلص عبيده مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد ، يكون دائما في مقام الطمع والرجاء . ومن يقينه باستناد جميع الأمور إليه سبحانه ، وبأن صدور ما يصدر في العالم أنما يكون بالحكمة والمصلحة والعناية الأزلية الراجعة إلى نظام الخير ، يكون أبدا في مقام الصبر والتسليم والرضا بالقضاء من دون عروض تغير وتفاوت في حاله .

(هامش)

(٢٤) الزلزال ، الآية : ٨ - ٩ . (*)

ص ١٢٧

ومن يقينه يكون الموت داهية من الدواهي العظمى وما بعده أشد وأدهى ، يكون أبدا محزونا مهموما . ومن يقينه بخساسة الدنيا وفنائها ، لا يركن إليها . قال الصادق (ع) في الكنز الذي قال الله تعالى : وكان تحته كنز لهما (٢٥) . بسم الله الرحمن الرحيم : عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن أيقن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يركن إليها . ومن يقينه بعظمة الله الباهرة وقوته القاهرة ، يكون دائما في مقام الهيبة والدهشة . وقد ورد أن سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - كان من شدة خضوعه وخشوعه لله تعالى وخشيته منه تعالى بحيث إذا كان يمشي يظن أنه يسقط على الأرض . ومن يقينه

بكمالاته الغير المتناهية وكونه فوق التمام ، يكون دائما في مقام الشوق والوله والحب . وحكايات أصحاب اليقين من الأنبياء والمرسلين والأولياء والكاملين في الخوف والشوق وما يعتريهم من الاضطراب والتغير والتلون وأمثال ذلك في الصلاة وغيرها مشهورة ، وفي كتب التواريخ والسير مسطورة ، وكذا ما يأخذهم من الوله والاستغراق والابتهاج والانبساط بالله سبحانه . وحكاية حصول تكرر الغشيات لمولانا أمير المؤمنين - عليه السلام في أوقات الخلوات والمناجاة وغفلته عن نفسه في الصلوات مما تواتر عند الخاصة والعامة ، وكيف يتصور لصاحب اليقين الواقعي بالله وبعظمته وجلاله وباطلاعه تعالى على دقائق أحواله ، أن يعصيه في حضوره ولا يحصل له الانفعال والخشية والدهشة وحضور القلب والتوجه التام إليه عند القيام لديه والمثول بين يديه ، مع أنا نرى أن الحاضر عند من له أدنى شوكة مجازية من الملوك والأمراء مع رذالته وخساسته أولا وآخرا يحصل له من الانفعال والدهشة والتوجه إليه بحيث يغفل عن ذاته .

(هامش)

(٢٥) الكهف الآية : ٨٢ . (*)

ص ١٢٨

)

ومنها) أن يكون مستجاب الدعوات ، بل له الكرامات وخرق العادات . والسر فيه أن النفس كلما ازدادت يقينا ازدادت تجردا ، فتحصل لها ملكة التصرف في موارد الكائنات . قال الإمام أبو عبد الله الصادق - عليه السلام - : اليقين يوصل العبد إلى كل حال سني ومقام عجيب ، كذلك أخبر رسول الله - صلى الله عليه وآله - من عظم شأن اليقين حين ذكر عنده أن عيسى بن مريم - عليه السلام - كان يمشي على الماء ، فقال : لو زاد يقينه لمشي في الهوى . فهذا الخبر دل على أن الكرامات تزداد بازدياد اليقين ، وأن الأنبياء مع جلالة محلهم من الله متفاوتون في قوة اليقين وضعفه .

مراتب اليقين : up

وقد ظهر مما ذكر : أن اليقين جامع جميع الفضائل ولا ينفك عن شيء منها ، ثم له مراتب : (أولها) علم اليقين ، وهو اعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع - كما مر - وهو يحصل من الاستدلال باللوازم والملزومات ، ومثاله اليقين بوجود النار من مشاهدة الدخان . و(ثانيها) عين اليقين ، وهو مشاهدة المطلوب ورؤيته بعين البصيرة والباطن ، وهو أقوى في الوضوح والجلاء من المشاهدة بالبصر ، وإلى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين (ع) بقوله : لم أعبد ربا لم أره بعد سؤال ذعلب اليماني عنه - عليه السلام - : أرأيت ربك ؟ وبقوله - عليه السلام - : رأى قلبي ربي . وهو إنما يحصل من الرياضة والتصفية وحصول التجرد التام للنفس ، ومثاله اليقين بوجود النار عند رؤيتها عيانا . و(ثالثها) حق اليقين ، وهو أن تحصل وحدة معنوية وربط حقيقي بين العاقل والمعقول ، بحيث يرى العاقل ذاته رشحة من المعقول ومرتبطا به غير منفك عنه ، ويشاهد دائما ببصيرته الباطنة فيضان الأنوار والآثار منه إليه ، ومثاله اليقين بوجود النار بالدخول فيها من غير احتراق . وهذا إنما يكون لكمل العارفين بالله المستغرقين في لجة حبه وأنسه ، المشاهدين ذواتهم بل سائر الموجودات من رشحات فيضه الأقدس ، وهم الصديقون الذين قصروا أبصارهم الباطنة على ملاحظة جماله ومشاهدة أنوار جلاله . وحصول هذه المرتبة يتوقف على مجاهدات شاقة

ص ١٢٩

ورياضات قوية ، وترك رسوم العادات وقطع أصول الشهوات ، وقلع الخواطر النفسانية وقمع الهواجس الشيطانية ، والطهارة عن أدناس جيفة الطبيعة ، والتنزه عن زخارف الدنيا الدنية ، وبدون ذلك لا يحصل هذا النوع من اليقين والمشاهدة : وكيف ترى ليلي بعين ترى بها * سواها وما طهرتها بالمدامع ثم فوق ذلك مرتبة يثبتها بعض أهل السلوك ويعبرون عنه (بحقيقة حق اليقين) والفناء في الله ، وهو أن يرى العارف ذاته مضمحلا في أنوار الله محترقا من سبحات وجهه ، بحيث لا يرى استقلالا ولا تحصيلا أصلا ، ومثاله اليقين بوجود النار بدخوله فيها واحتراقه منها . ثم لا ريب في أن اليقين الحقيقي النوراني المبري عن ظلمات الأوهام والشكوك ولو كان من المرتبة الأولى لا يحصل من مجرد الفكر والاستدلال ، بل يتوقف حصوله على الرياضة والمجاهدة وتصقيل النفس وتصفيتها عن كدورات ذمائم الأخلاق وصدأها ، ليحصل لها التجرد التام فتحاذي شطر العقل الفعال ، فتتضح فيها جلية الحق الاتضاح . والسر أن النفس بمنزلة المرآة تنعكس إليها صور الموجودات من العقل الفعال ، ولا ريب في أن انعكاس الصور من ذوات الصور إلى

المرآة يتوقف على تمامية شكلها وصقالة جوهرها وحصول المقابلة وارتفاع الحائل بينهما والظفر بالجهة التي فيها الصور المطلوبة ، فيجب في انعكاس حقائق الأشياء من العقل إلى النفس : ١ - عدم نقصان جوهرها ، فلا يكون كنفس الصبي التي لا تنجلي لها المعلومات لنقصانها ٢ - وصفاؤها عن كدورات ظلمة الطبيعة وأخباث المعاصي ، ونقاؤها عن رسوم العادات وخبائث الشهوات ، وهو بمنزلة الصقالة عن الخبث والصدأ ٣ - وتوجهها التام وانصراف فكرها إلى المطلوب ، فلا يكون مستوعب ألهم بالأمور الدنيوية وأسباب المعيشة وغيرهما من الخواطر المشوشة لها . وهو بمنزلة المحاذاة ٤ - وتخليتها عن التعصب والتقليد .

وهو بمثابة ارتفاع الحجب ٥ - واستحصال المطلوب من تأليف مقدمات مناسبة للمطلوب على الترتيب المخصوص والشرائط المقررة ، وهو بمنزلة العثور على الجهة التي فيها الصورة .

ص ١٣٠

ولولا هذه الأسباب المانعة للنفوس عن إفاضة الحقائق اليقينية إليها ، لكانت عالمة بجميع الأشياء المرتسمة في العقول الفعالة ، إذ كل نفس لكونها أمرا ربانيا وجوهرا ملكوتيا فهي بحسب الفطرة صالحة لمعرفة الحقائق ، ولذا امتازت عن سائر المخلوقات من السماوات والأرض والجبال ، وصارت قابلة لحمل أمانة الله (٢٦) التي هي المعرفة والتوحيد ، فحرمان النفس عن معرفة أعيان الموجودات إنما هو لأحد هذه الموانع ، وقد أشار سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى مانع التعصب والتقليد بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه ويمجسانه (٢٧) وينصرانه ، وإلى مانع كدورات المعاصي وصدأها بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : لولا أن الشياطين يحرمون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض . فلو ارتفعت عن النفس حجب السيئات والتعصب وحاذت شطر الحق الأول تجلت لها صورة عالم الملك والشهادة بأسره ، إذ هو متناه يمكن لها الإحاطة به ، وصورة عالمي الملكوت والجبروت بقدر ما يتمكن منه بحسب مرتبته ، لأنهما الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المختصة بإدراك البصائر ، وهي غير متناهية ، وما يلوح منها للنفس متناه ، وإن كانت في نفسها وبالإضافة إلى علم الله سبحانه غير متناهية ، ومجموع تلك العوالم يسمى بـ(العالم الربوبي) ، إذ كل ما في الوجود من البداية إلى النهاية منسوب إلى الله سبحانه ، وليس في الوجود سوى الله سبحانه وأفعاله وآثاره ، فالعالم الربوبي والحضرة الربوبية هو العالم المحيط بكل الموجودات ، فعدم تناهيه

(هامش)

)

٢٦) إشارة إلى قوله تعالى : إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا الأحزاب ، الآية : ٧٢ . (٢٧) روى السيد المرتضى علم الهدى هذا الحديث في الجزء الثالث من أماليه بدون كلمة (يمجسانه) ، وكذا في غوالي اللئالي ، إلا أن المعروف في روايته إضافة كلمة (يمجسانه) ولكنها بعد كلمة (ينصرانه) ، كما أرسلها في مجمع البيان : ج ٨ ص ٣٠٣ طبع صيدا ، وكذا في مجمع البحرين في مادة (فطر) ، وكذا في صحيح البخاري : ج ١ ص ٢٠٦ ، وصحيح مسلم : ج ٢ ص ٤١٣ ، ومعالم التنزيل في هامش تفسير الخازن : ج ٥ ص ١٧٢ ، وغير هؤلاء . (*)

ص ١٣١

ظاهر بين ، فلا يمكن للنفس أن تحيط بكله ، بل يظهر لها منه بقدر قوتها واستعدادها ، ثم بقدر ما يحصل للنفس من التصفية والتزكية وما يتجلى لها من الحقائق والأسرار ، ومن معرفة عظمة الله ومعرفة صفات جلاله ونعوت جماله ، تحصل لها السعادة والبهجة واللذة والنعمة في نعيم الجنة ، وتكون سعة مملكته فيها بحسب سعة معرفته بالله وبعظمته وبصفاته وأفعاله ، وكل منها لا نهاية له . ولذا لا تستقر النفس في مقام من المعرفة . والبهجة والكمال والتفوق والغلبة تكون غاية طلبتها ، ولا تكون طالبة لما فوقها . وما اعتقده جماعة من أن ما يحصل للنفس من المعارف الإلهية والفضائل الخلقية هي الجنة بعينها فهو عندنا باطل ، بل هي موجبة لاستحقاق الجنة التي هي دار السرور والبهجة . ومنها :

• الشرك up

وهو أن يرى في الوجود مؤثرا غير الله سبحانه ، فإن عبد هذا الغير - سواء كان صنما أو كوكبا أو إنسانا أو شيطانا - كان شرك عبادة ، وإن لم يعبده ولكن لاعتقاده كونه منشأ أثر أطاعه فيما لا يرضي الله فهو شرك طاعة ، والأول يسمى بالشرك الجلي ، والثاني يسمى

بالشرك الخفي ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون (٢٨) . وكون الشرك أعظم الكبائر الموبقة وموجبا لخلود النار مما لا ريب فيه وقد أنعقد عليه إجماع الأمة ، والآيات والأخبار الواردة به خارجة عن حد الاحصاء . ثم للشرك مراتب تظهر في بحث ضده الذي هو التوحيد ، والشرك وإن كان شعبة من الجهل ، كما أن التوحيد الذي هو ضده من أفراد اليقين والعلم ، فذكرهما على حدة لم يكن لازما هنا ، إلا أنه لما كان المتعارف ذكر التوحيد في كتب الأخلاق . فنحن أيضا ذكرنا له عنوانا على حدة تأسيا بها ، وأشرنا إلى لمعة يسيرة منه ، إذ الاستقصاء فيه والخوض في غمراته مما ليس

(هامش)

(٢٨) يوسف ، الآية : ١٠٦ . (*)

ص ١٣٢

في وسعنا ولا يليق هنا ، فإن التوحيد هو البحر الخضم الذي لا ساحل له .

وصل: التوحيد في الفعل up

ضد الشرك (التوحيد) ، وهو إما توحيد في أصل الذات بمعنى عدم تركيب خارجي وعقلي في ذاته تعالى وعينية وجوده وصفاته لذاته ، ويلزمه كونه تعالى صرف الوجود وبحته ، أو توحيد في وجوب وجوده بمعنى نفي الشرك في وجوب الوجود عنه (ولا بحث لنا هنا عن إثبات هذين القسمين لثبوتهما في الحكمة المتعالية) ، أو توحيد في الفعل والتأثير والإيجاد ، بمعنى أن لا فاعل ولا مؤثر إلا هو ، وهو الذي نذكر هنا مراتبه وما يتعلق به ، فنقول : هذا التوحيد - على ما قيل - له أربع مراتب : قشر ، وقشر القشر ، ولب ، ولب اللب كالجوز الذي له قشرتان وله لب ، واللب دهن وهو لب اللب . (فالمرتبة الأولى) أن يقول الإنسان باللسان : لا إله إلا الله ، وقلبه منكر وغافل عنه ، كتوحيد المنافقين ، وهذا توحيد بمجرد اللسان ولا فائدة فيه إلا حفظ صاحبه في الدنيا من السيف والسنان . (الثانية) أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه ، كما هو شأن عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام وصاحبه موحد ، بمعنى أنه معتقد بقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه . وهو عقد على القلب لا يوجب انشراحا وانفتاحا صفاء له . ولكنه يحفظ صاحبه عن العذاب في الآخرة إن مات عليه ولم يضعف بالمعاصي . (الثالثة) أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها بكثرتها صادرة عن الواحد الحق ، وهو مقام المقربين ، وصاحبه موحد ، بمعنى أنه لا يشاهد إلا فاعلا ومؤثرا واحدا ، لأنه انكشف له الحق كما هو عليه . (الرابعة) لا يرى في الوجود إلا واحدا ، ويسميه أهل المعرفة الفناء في التوحيد ، لأنه من حيث لا يرى إلا واحدا . فلا يرى نفسه أيضا ، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالواحد كان فانيا عن نفسه في توحيده ، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه ، وهو مشاهدة الصديقين ، وصاحبه موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث أنه كثير بل من حيث أنه واحد .

وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد .

ص ١٣٣

فالمرتبة الأولى : كالقشرة العليا من الجوز ، وكما أن هذه القشرة لا خير فيها أصلا ، بل إن أكلتها فهي مر المذاق ، وإن نظرت إلى باطنها فهو كريه المنظر ، وإن اتخذتها حطبا أطفأت النار وأكثرت الدخان ، وإن تركتها في البيت ضيقت المكان ، فلا تصلح إلا أن تترك مدة على الجوز لحفظ القشرة السفلى ، ثم ترمى ، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن ، لكن ينفع مدة في حفظ المرتبة الثانية إلى وقت الموت . والمرتبة الثانية : كالقشرة السفلى ، فكما أن هذه القشرة ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا ، فإنها تصون اللب عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا ، ولكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب ، فكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالنسبة إلى مجرد نطق اللسان ، إذ تحصل به النجاة في الآخرة ، لكنه ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والعيان الذي يحصل بانشراح الصدر وانفتاحه بإشراق نور الحق فيه . والمرتبة الثالثة : كاللب ، وكما أن اللب نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر وكأنه المقصود لكنه لا يخلو عن شرب عصارة بالإضافة إلى الدهن منه ، فكذلك توحيد الفعل على طريق الكشف مقصد عال للسالكين ، إلا أنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق . والمرتبة الرابعة : كالدهن المستخرج من اللب ، وكما أن اللب هو المطلوب بذاته والمرغوب في نفسه ، فكذلك قصر النظر على مشاهدة الحق الأول هو المقصود لذاته والمحبوب في نفسه .

تنبيه إن قيل : كيف يمكن تحقيق المرتبة الرابعة من التوحيد لتوقفها على عدم مشاهدة غير الواحد ، مع أن كل أحد يشاهد الأرض والسماء وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة ، فكيف يكون الكثير واحدا ؟ (قلنا) : من تيقن أن الممكنات بأسرها إعدام صرفة في نفسها ، وإن ما به تحققها من الله سبحانه ، ثم أحاط على قلبه نور عظمته وجلاله بحيث بهره وغلب على قلبه الحب والأنس حتى عن غيره أغفله ، فأي استبعاد في أن يوجب شدة استغراقه في لجة العظمة والجلال والكمال والجمال وغلبة الحب والأنس عليه مع عدمية الكثرة ووحدة ما به التحقق عنده ورسوخ ذلك ، وارتكازه في ج : ١
ص ١٣٤
قلبه أن لا يرى في نظر شهوده إلا هو ، ويغيب عنه غيره ، لقصر نظر بصيرته الباطنة على ما هو الحقيقة والواقع . ومما يكسر سورة استبعادك : إن المشغول بالسلطان والمستغرق في ملاحظة سطوته ربما غفل عن مشاهدة غيره وإن العاشق قد يستغرق في مشاهدة جمال معشوقه ويبهره حبه بحيث لا يرى غيره ، مع تحقق الكثرة عنده ، وإن الكواكب موجودة في النهار مع إنها لا ترى لمغلوبية أنوارها واضمحلالها في جنب نور الشمس ، فإذا جاز أن يغلب نور الشمس على نور الكواكب ويقهرها بحيث يضمحل ويغيب عن بصر الظاهر ، فأي استبعاد في أن يغلب نور الوجود الحقيقي القاهر على الموجودات الضعيفة الإمكانية ويقهرها ، بحيث يغيب عن نظر العقل والبصيرة ، ثم هذه المشاهدات التي لا يظهر فيها إلا الله الواحد الحق لا تدوم ، بل هي كالبرق الخاطف والدوام فيها عزيز نادر .

فصل ابتناء التوكل على حصر المؤثر في الله تعالى up

إعلم : أنه لا يمكن التوكل على الله تعالى في الأمور حق التوكل إلا بالبلوغ إلى المرتبة الثالثة من التوحيد ، وهي التي يرتبط بها التوكل دون غيرها من المراتب ، إذ المرتبة الرابعة لا يتوقف ولا يبتني عليها التوكل ، والأولى مجرد نفاق لا يفيد شيئا ، والثانية - أعني مجرد التوحيد بالاعتقاد - لا يورث حال توكل كما ينبغي ، فإنه موجود في عموم المسلمين مع عدم وجود التوكل كما ينبغي فيهم . فالمناط في التوكل هو ثالث المراتب في التوحيد ، وهو أن ينكشف للعبد بنور الحق أن لا فاعل إلا الله ، وإن كل موجود : من خلق ورزق ، وعطاء ومنع ، وغنى وفقر ، وصحة ومرض ، وعز وذل ، وحياة وموت . . إلى غير ذلك مما يطلق عليه اسم ، فالمتفرد بإبداعه واختراعه هو الله تعالى لا شريك له فيه ، وإذا انكشف له هذا لم ينظر إلى غيره ، بل كان منه خوفه وإليه رجاؤه ، وبه ثقته وعليه اتكاله ، فإنه الفاعل بالانفراد دون غيره ، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة في ملكوت السماوات والأرض وإذا انفتح له أبواب المعارف اتضح له هذا اتضاحا أتم من المشاهدة بالبصر ، وإنما يصده الشيطان عن هذا التوحيد ، ويوقع في قلبه شائبة الشرك بالالتفات
ص ١٣٥
إلى بعض الوسائط التي يتراءى في بادي النظر منشئيتها لبعض الأمور ، كالاعتماد على الغيم في نزول المطر ، وعلى المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها ، وعلى بعض نظرات الكواكب واتصالاتها في حدوث بعض الحوادث في الأرض ، وكالالتفات إلى اختيار بعض الحيوانات وقدرتها على بعض الأفعال ، فيوسوس الشيطان في قلبه ويقول له : كيف ترى الكل من الله تعالى ، وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره فإن شاء أعطاك وإن شاء منع ، وهذا الشخص قادر على حز رقبتك بسيفه فإن شاء حز رقبتك وإن شاء عفى عنك ، فكيف لا تخافه ولا ترجوه وأمرك بيده ، وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ؟ ولا ريب في أن أمثال هذه الالتفاتات جهل بحقائق الأمور ، ومن مكن الشيطان وسلطه على نفسه حتى يوقع هذه الوساوس في قلبه فهو من الجاهلين بأبواب المعارف ، إذ من انكشف له أمر العالم كما هو عليه ، علم أن السماء والكواكب والريح والغيم والمطر والانسان والحيوان . . وغير ذلك من المخلوقات كلهم مقهورون مسخرون للواحد الحق الذي لا شريك له ، فيعلم أن الريح مثلا هواء ، والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يحركه محرك ، وهذا المحرك لا يحرك الهواء ما لم يحركه على التحريك محرك آخر . . وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه . وكذا الحال في توسط غيره من الأفلاك ونجومها ، وكائنات الجو ، والموجودات على الأرض من الجماد والنبات والحيوان .

فالتفات العبد في نجاته إلى بعض الأشياء من الرياح والأمطار أو الإنسان أو الحيوان يضاهي التفات من أخذ لتنجز رقبته ، فأمر الملك

كاتبه بأن يكتب توقيعا بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ العبد يشتغل بمدح الحبر أو الكاغد أو القلم أو الكاتب ، ويقول : لولا الحبر أو القلم أو الكاغد أو الكاتب ما تخلصت ، فيرى نجاته من الحبر والكاغد دون القلم أو من القلم دون محركه - أعني الكاتب - أو من الكاتب دون الملك الذي هو محرك الكاتب ومسخره . ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب وإن الكاتب لا حكم له وإنما هو مسخر تحت يد الملك ،

ص ١٣٦

لم يلتفت إلى القلم والكاتب ولم يشكر إلا الملك ، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك عن أن يخطر بباله الكاغد والحبر والقلم والكاتب . ولا ريب في أن جميع المخلوقات من الشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر والأرض وكل حيوان أو جماد مسخرات في قبضة القدرة ، كتسخير القلم في يد الكاتب وتسخير الكاتب في يد السلطان ، بل هذا تمثيل في حق العبد أن الكاتب هو الله سبحانه كما قال تعالى : وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى (٢٩) . فمن انكشف له أن جميع ما في السماوات والأرض مسخرات للواجب الحق ، لم ير في الوجود مؤثر إلا هو ، وانصرف عنه الشيطان خائبا ، وأيس عن مزج توحيده بهذا الشرك . وأما من لم ينشرح بنور الله صدره ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السماوات والأرض ومشاهدة كونه وراء الكل ، فوقف في الطريق على بعض المسخرات ، وهو جهل محض . وغلطه في ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ، ولم يمتد بصرها إلى الأصابع واليد ، فضلا عن صاحب اليد ، وظنت أن القلم هو المسود للبياض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها .

فصل مناجاة السر لأرباب القلوبup

قال بعض العارفين (٣٠) : أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله في حقهم كل ذرة في الأرض والسماوات بقدرته التي أنطق بها كل شيء ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها وشهادتها على نفسها بالعجز ، بلسان الواقع الذي هو ليس بعربي ولا أعجمي ، وليس فيه حرف وصوت ، ولا يسمعه أحد إلا

(هامش)

(٢٩) الأنفال ، الآية : ١٧ . (٣٠) المقصود به (أبو حامد الغزالي) في إحياء العلوم ، راجع الجزء الرابع ص ١١٤ المطبوع بالمطبعة العثمانية بمصر سنة ١٣٥٢ ، وسترى أن هذه الفصول مقتبسة منه بتغيير في العبارة وتقديم وتأخير . وكذلك هذا الفصل المنقول عنه فيه تغيير واختصار كثير ، وصاحب الكتاب اعترف - فيما سيأتي - باقتباس هذه الفصول من الغزالي . (*)

ص ١٣٧

بالسمع العقلي الملكوتي دون السمع الظاهر الحسي الناسوتي ، وهذا النطق الذي لكل ذرة من الأرض السماوات مع أرباب القلوب إنما هو (مناجاة السر) ، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى ، فإنها كلمات تستمد (٣١) من بحر كلام الله الذي لا نهاية له : قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا (٣٢) . ثم إنها لما كانت مناجية بأسرار الملك والملكوت ، وليس كل أحد موضعا للسر ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار ، فاختصت مناجاتها بالأحرار من أرباب القلوب . وهم أيضا لا يحكون هذه الأسرار لغيرهم ، إذ إفشاء السر لؤم ، وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك قد نوجي بخفاياه فينادي بها على الملأ من الخلق ، ولو جاز إفشاء كل سر لما نهى النبي (ص) عن إفشاء سر القدر ، ولما خص أمير المؤمنين عليه السلام ببعض الأسرار ، ولما قال صلى الله عليه وآله وسلم : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، بل كان يذكر لهم ذلك حتى يبكون ولا يضحكون . فأذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدة مانعان : (أحدهما) المنع عن إفشاء السر ، (وثانيهما) خروج كلماتها عن الحصر والنهاية . ونحن نحكي في فعل الكتابة قدرا يسيرا من مناجاة بعض ما يرى أسبابا ووسائط ، وإقرارها بالعجز على أنفسها ، ليقاس عليه جميع الأفعال الصادرة عن جميع الأسباب والوسائط المسخرة تحت قدرة الله ، ويفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ، ونرد لضرورة التفهم كلماتها الملكوتية إلى الحروف والأصوات ، وإن لم تكن أصواتا وحروفا ، فنقول : قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله للكاغد ، وقد رأى وجهه اسود بالحبر : لم سودت وجهك وقد كان أبيض مشرفا ؟ . فقال : ما سودت وجهي ، وإنما سوده الحبر ، فاسأله لم فعل كذا ؟ فسأل الحبر عن ذلك ، فقال : هذا السؤال على القلم الذي

(هامش)
(
٣١) وفي نسختنا الخطية : (لأنها كلام يستمد) . ولكن الموجود في المطبوعة وفي نسخة إحياء العلوم كما أثبتناه في المتن . (٣٢) الكهف ، الآية : ١٠٩ . (*)
ص ١٣٨
أخرجني من مستقري ظلما . فسأل القلم ، فأحاله إلى اليد والأصابع ، وهي إلى القدرة والقوة ، وهي إلى الإرادة ، معترفا كل واحد منهم بعجز نفسه ، وبكونه مقهورا مسخرا تحت قهر المحال عليه من دون استطاعة لمخالفته . ولما سأل الإرادة ، قالت : ما انتهضت بنفسي ، بل بعثت على أشخاص القدرة وإنهاضها ، وبحكم رسول قاهر ورد علي من حضرة القلب بلسان العقل ، وهذا الرسول هو العلم ، فالسؤال عن انتهاضي يتوجه على العقل والقلب والعلم . ولما سألها قال (العقل) : أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكني أشعلت . وقال (القلب) : أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكني بسطت . وقال (العلم) : أما أنا فنقش نقشت في لوح القلب لما أشرق سراج العقل ، وما انتقشت بنفسي بل نقشني غيري ، فسل القلم الذي نقشني ورسمني على لوح القلب بعد اشتعال سراج العقل . وعند هذا تحير السائل وقال : ما هذا القلم وهذا اللوح وهذا الخط وهذا السراج ؟ فإني لا أعلم قلما إلا من القصب ، ولا لوحا إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطا إلا بالحبر ، ولا سراجا إلا من النار . وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والقلم والخط والسراج ، ولا أشاهد من ذلك شيئا .
فقال له (العلم) : فإذن بضاعتك مزجاة ، وزادك قليل ، ومركبك ضعيف ، والمهالك في الطريق الذي توجهت إليه كثيرة ، فإن كنت راغبا في استتمام الطريق إلى المقصد ، فاعلم أن العوالم في طريقك ثلاثة : (أولها) عالم الملك والشهادة ، وقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد والأصابع من هذا العلم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، (وثانيها) عالم الملكوت الأسفل ، وهو يشبه السفينة التي بين الأرض والماء ، فلا هي حد اضطراب الماء ، ولا هي في حد الأرض وثباتها ، والقدرة والإرادة والعلم من منازل هذا العالم . (وثالثها عالم الملكوت الأعلى ، وهو من ورائي ، فإذا
ص ١٣٩
جاوزتني انتهيت إلى منازله . وأول منازله القلم الذي يكتب به العلم على لوح القلب . وفي هذا العالم المهامه الفسيحة والجبال الشاهقة والبحار المغرقة . فقال له السائل السالك : قد تحيرت في أمري ولست أدري أني أقدر على قطع هذا الطريق المخوف أم لا ، فهل لذلك علامة أعرف بها تمكني على قطع هذا الطريق ؟ . فقال : نعم ! افتح بصرك ، واجمع ضوء عينك وحدقه نحوي ، قال ظهر لك القلم الذي به يكتب في لوح القلب ، فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز الملكوت الأسفل وقرع أول باب من الملكوت الأعلى كوشف بالقلم . أما ترى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كوشف به وأنزل عليه قوله تعالى - : اقرأ بأسم ربك الذي خلق . . . إلى قوله : اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم (٣٣) . وهذا القلم قلم إلهي ليس بقصب ولا خشب . أوما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت ؟ وقد علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات ، فليس في ذاته بجسم ولا هو في مكان ، فكذلك لا تشبه يده سائر الأيدي ، ولا قلمه سائر الأقلام ، ولا كلامه سائر الكلام ، ولا خطه سائر الخطوط بل هذه أمور إلهية من عالم الملكوت الأعلى ، فليست يده من لحم وعظم ودم ، ولا قلمه من قصب ، ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه من صوت وحرف ، ولا خطه من نقش ورسم ورقم ، ولا حبره من زاج وعفص . فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فأنت من أهل التشبيه والتجسم وما عرفت ربك ، إذ لو نزهت ذاته تعالى وصفاته عن ذات الأجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن الحروف والأصوات ، فما بالك تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه ، ولا تنزهها عن الجسمية والتشبيه بغيرها ؟ . فلما سمع السائل السالك من العلم ذلك ، استشعر قصور نفسه وفتح بصر بصيرته ، بعد الابتهال إلى ربه ، فانكشف له القلم الإلهي ، فإذا هو
(هامش)
(٣٣) العلق ، الآية : ١ ، ٣ - ٥ . (*)
ص ١٤٠

كما وصفه العلم ، ما هو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب ، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر أصناف العلم ، فشكر العلم وودعه ، وسافر إلى حضرة القلم الإلهي ، وقال له : أيها القلم ! مالك تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الإرادات إلى إنهاض القدرة وأشخاصها وصرفها المقدورات ؟ . فقال له (القلم الإلهي) : أفنسيت ما رأيت في عالم الملك وسمعته من جواب القلم الآدمي حيث أحالك إلى اليد ؟ فجوابي مثل جوابه ، فإني مسخر تحت يد الله تعالى الملقبة بـ(يمين الملك) ، فاسأله عن شأني فإني في قبضته وهو الذي يرددني ، وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الإلهي والقلم الآدمي في معنى التسخير ، وإنما الفرق في ظاهر الصورة . فقال السائل : من يمين الملك ؟ . قال القلم : أما سمعت قوله تعالى : والسماوات مطويات بيمينه ؟ (٣٤) . قال : نعم ! سمعته . قال : والأقلام أيضا في قبضته وهو الذي يرددها . فسافر السائل من عند القلم إلى اليمين ، حتى شاهده ، ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ، ورأى أنه يمين لا كالأيمان ، ويد لا كالأيدي ، وإصبع لا كالأصابع ، فرأى القلم متحركا في قبضته ، فسأله عن سبب تحريكه القلم . فقال : جوابي ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة ، وهو الحوالة على القدرة ، إذ اليد لا حكم لها في نفسها ، وإنما محركها القدرة . فسافر إلى عالم القدرة ورأى فيها من العجائب ما استحقر لأجلها ما قبلها ، فسألها عن سبب تحريكها اليمين . فقالت : إنما أنا صفة فاسأل القادر ، إذ العهدة على الموصوف دون الصفة . وعند هذا كاد أن يزيغ قلب السائل ، وينطلق بالجرأة لسان السؤال ،

(هامش)

(٣٤) الزمر ، الآية : ٦٧ . (*)

ص ١٤١

فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء سرادقات الحضرة : لا يسأل عما يفعل وهم يسألون (٣٥) . فغشيته دهشة الحضرة ، فخر صعقا في غشيته مدة ، فلما أفاق قال : سبحانك ! ما أعظم شأنك وأعز سلطانك ، تبت إليك وتوكلت عليك ، وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ، ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك ، وبرضاك من سخطك ، وما لي إلا أن أسألك وأتضرع إليك ، وأقول : (إشرح في صدري) لأعرفك ، (واحلل عقدة من لساني) ٣٦) لاثني عليك . فنودي من وراء الحجاب : إياك أن تطمع في الثناء ، فإن سيدا الأنبياء - صلى الله عليه وآله وسلم - ما زاد في هذه الحضرة على أن قال : ( سبحانك لا أثني ثناء عليك كما أنت أثنيت على نفسك) . وإياك أن تطمع في المعرفة ، فإن سيد الأوصياء قال : (العجز عن درك الإدراك إدراك ، والفحص عن سر ذات السر إشراك) . فيكفيك نصيبا من حضرتنا أنك عاجز عن ملاحظة جلالنا وجمالنا ، وقاصر عن إدراك دقائق حكمنا وأفعالنا . فعند هذا رجع السائل السالك ، واعتذر عن أسئلته ومعاتبته ، وقال للقدرة واليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعدها : أقبلوا عذري فإني كنت غريبا جديد العهد بالدخول في هذه البلاد . والآن قد صح عندي عذركم وانكشف لي أن المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار ، وما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته ، مرددون في قبضته ، وهو الأول بالإضافة إلى الوجود ، إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد ، وهو الآخر بالإضافة إلى سير المسافرين إليه ، فإنهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى حضرته ، فهو أول في الوجود وآخر في المشاهدة ، وهو الظاهر بالإضافة إلى من يطلبه بالسراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت ، وهو الباطن

(هامش)

(٣٥) الأنبياء ، الآية : ٢٣ . (٣٦) طه ، الآية : ٢٥ ، ٢٧ . (*)

ص ١٤٢

بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لإدراكه بالحواس . وهذا هو التوحيد في الفعل للسالكين ، الذين انكشف لهم وحدة الفاعل بالمشاهدة واستماع كلام ذرات الملك والملكوت ، وهو موقوف على الإيمان بعالم الملكوت والتمكن من المسافرة إليه واستماع الكلام من أهله . ومن كان أجنبيا من هذا العالم ولم يكن له استعداد الوصول إليه ولم يمكنه أن يسلك السبيل الذي ذكرناه ، فينبغي أن يرد مثله إلى التوحيد الاعتقادي الذي يوجد في عالم الشهادة ، وهو أن يعلم ببعض الأدلة وحدة الفاعل ، مثل أن يقال له : إن كل أحد يعلم أن المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأميرين ، فإله العالم ومدبره واحد ، إذ : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا (٣٧)

. فيكون ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة ، فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق بقدر عقه واستعداده ، وقد كلفوا الأنبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم . ثم الحق أن هذا التوحيد الاعتقادي إذا قوي يصلح أن يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه ، إذ الاعتقاد إذا قوي عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال ، إلا أنه في الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب ، فيحتاج إلى من يحرسه بكلامه ، وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه ، فلا يخاف عليه شيء من ذلك ، بل لو كشف له الغطاء لما أزداد يقينا وإن كان يزداد وضوحا . (تنبيه) إعلم أن ما يبتني عليه التوحيد المذكور ، أعني كون جميع الأشياء من الأسباب والوسائط مقهورات مسخرات تحت القدرة الأزلية ظاهر . وسائر ما أوردنا في هذا المقام مما ذكره أبو حامد الغزالي وتبعه بعض أصحابنا ولا إشكال فيه إلا في أفعال الإنسان وحركاته (٣٨) . فإن البديهة تشهد بثبوت نوع اختيار له ، لأنه يتحرك إن شاء ويسكن إن شاء ، مع أنه لو كان مسخرا مقهورا في جميع أفعاله وحركاته ، لزم الجبر ولم يصح التكليف والثواب والعقاب . ولتحقيق هذه المسألة موضع آخر ،
(هامش)
)
٣٧) الأنبياء ، الآية : ٢٢ . (٣٨) هكذا في المطبوعة وفي نسختنا الخطية والنسخة الأخرى : ولا ريب في لزوم الإشكال في أفعال الإنسان وحركاته . (*)
ص ١٤٣
ولا يليق ذكرها هنا . والحق أن كل ما قيل فيها لا يخلو عن قصور ونقصان ، والأولى فيها السكوت والتأدب بآداب الشرع (٣٩) . ومنها :
• الخواطر النفسانية والوساوس الشيطانية up
إعلم أن الخاطر ما يعرض في القلب من الأفكار فإن كان مذموما داعيا إلى الشر سمي (وسوسة) ، وإن كان محمودا داعيا إلى الخير سمي (إلهاما) . وتوضيح ذلك : إن مثل القلب بالنسبة إلى ما يرد عليه من الخواطر مثل هدف تتوارد عليه السهام من الجوانب ، أو حوض تنصب إليه مياه مختلفة من الجداول ، أو قبة ذات أبواب يدخل منها أشخاص متخالفة ، أو مرآة منصوبة تجتاز إليها صور متباينة . فكما أن هذه الأمور لا تنفك عن تلك السوانح ، فكذا القلب لا ينفك عن واردات الخواطر . فلا تزال هذه اللطيفة الإلهية مضمار لتطاردها ومعركة لجولانها وتزاحمها ، إلى أن يقطع ربطها عن البدن ولذاته ، ويتخلص عن لدغ عقارب الطبع وحياته . ثم لما كان الخاطر أمرا حادثا فلا بد له من سبب ، فإن كان سببه شيطانا فهو الوسوسة ، وإن كان ملكا فهو الإلهام . وما يستعد به القلب لقبول الوسوسة يسمى إغواء وخذلانا ، وما يتهيأ به لقبول الإلهام يسمى لطفا وتوفيقا . وإلى ذلك أشار سيد الرسل (ص) بقوله : في القلب لمتان (٤٠) : لمة من الملك
(هامش)
)
٣٩) هذا اعتراف بالعجز وهروب من حل هذه المعضلة التأريخية في سر الخلق ، والحل الذي لم يسبق إليه البشر حتى عند فلاسفتهم الأقدمين والمتأخرين ما قاله إمامنا الصادق (ع) : لا جبر ولا تفويض ، ولكن أمر بين أمرين . فإن الفاعل الذي منه الوجود هو الله تعالى وحده لا شريك له في خلقه ، والفاعل الذي به الوجود هو العبد المختار في فعله . (٤٠) روى الحديث في إحياء العلوم ج ٢ ص ٢٣ هكذا : في القلب لمتان : لمة من المالك إيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله . سبحانه وليحمد الله . ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم تلا قوله تعالى : الشيطان يعدكم الفقر . . . الآية . تلا قوله تعالى : الشيطان يعدكم الفقر . . . الآية . وهذا الحديث لم نعثر عليه من طرقنا ، وكذا الحديث الآتي : في نهاية ابن الأثير في حديث ابن مسعود : لابن آدم لمتان : لمة من الملك ولمة من الشيطان . اللمة الهمة والخطرة تقع في القلب ، أراد إلمام الملك أو الشيطان به والقرب منه . (*)
ص ١٤٤
عاد إي بالخير وتصديق بالحق ، ولمة من الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق . وبقوله (ص) : قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن .
فصل أقسام الخواطر ومنها الإلهام up

الخاطر ينقسم إلى ما يختلج بالبال من دون أن يكون مبدأ للفعل : وهي الأماني الكاذبة والأفكار الفاسدة ، وإلى محرك الإرادة والعزم على الفعل ، إذ كل فعل مسبوق بالخاطر أولا ، فمبدأ الأفعال الخواطر ، وهي تحرك الرغبة ، والرغبة العزم ، والعزم النية ، والنية تبعث الأعضاء على الفعل ، (والثاني) كما عرفت إن كان مبدأ للخير يكون إلهاما ومحمودا ، وإن كان مبدأ للشر يكون وسواسا ومذموما . (والأول) له أنواع كثيرة : (منها) ما يرجع إلى التمني ، سواء كان حصول ما يتمناه ممكنا أو محالا ، وسواء كان المتمني حسنا محمودا أو قبيحا مذموما ، وسواء كان عدمه مستندا إلى قضاء الله وقدره أو إلى تقصيره وسوء تدبيره فيخطر بباله أنه يا ليت لم يفعل كذا أو فعل كذا . (ومنها) ما يرجع إلى تذكر الأحوال الغالبة ، إما بدون اختياره أو مع اختيار ما ، بأن يتصور ما له من النفائس الفانية فيستر به ، أو يتخيل فقده فيحزن لأجله ، أو يتفكر في ما اعتراه من العلل والأسقام واختلال أمر المعاش وسوء الانتظام ، أو يذهب وهمه إلى حساب المعاملين أو جواب المعاندين وتصوير إهلاك الأعداء بالأنواع المختلفة من دون تأثير وفائدة . (ومنها) ما يرجع إلى التطير ، وربما بلغ حدا يتخيل كثيرا من الأمور الاتفاقية الدالة على وقوع مكروه بنفسه أو بما يتعلق به ، ويضطرب بذلك ، وإن لم تكن مشهورة بذلك عند الناس ، وربما حدثت في القوة الوهمية خباثة وشيطنة تذهب غالبا إلى ما يؤذيه ويكرهه ولا يذهب إلى ما يريده ويسره ، فيتخيل ذهاب أمواله وأولاده وابتلاءه بالأمراض والأسقام ووصول المكروه من الغير ومغلوبيته من عدوه ، وربما حصل لنفسه نوع إذعان لهذه التخيلات لمغلوبية العاقلة للواهمة . فيعتريه نوع اضطراب وانكسار ، وقلما يذهب مثل هذه القوة الوهمية فيما يشاء ويريده من تخيل الغلبة وحصول

ص ١٤٥

التوسعة في الأموال والأولاد ، بحيث يحصل لنفسه نوع إذعان لها ، فتنبسط وتهتز . وهذا شر الوساوس وأردؤها ، وربما كان المنشأ لبعضها نوع اختلال في الدماغ . وجميع الأنواع المذكورة بأقسامها مفسدة للنفس يحدث فيها نوع ذبول وانكسار ويصدها عما خلقت لأجله . (ومنها) ما يرجع إلى التفاؤل ، وهذا ليس مذموما . وقد ورد من رسول الله (ص) : إنه يحب التفاؤل ، وكثيرا ما يتفاءل ببعض الأمور . (ومنها) الوسواس في العقائد ، بحيث لا يؤدي إلى الشك المزيل لليقين ، فإنه قادح في الإيمان كما تقدم . ومرادنا بالوسوسة وحديث النفس في العقائد هنا ما لا يضر بالإيمان ولا يؤاخذ به - كما يأتي - . تذنيب قد ظهر مما ذكر : إن أكثر جولان الخاطر إنما يكون في فائت لا تدارك له ، أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر ، وكيف كان هو تضييع لوقته ، إذ آلة العبد قلبه وبضاعته عمره ، فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله أو عن فكر يستفيد معرفة الله ليستفيد بالمعرفة حبا لله ، فهو مغبون ، وهذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات ، مع أن الغالب ليس كذلك ، بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات ، إذ لا يزال ينازع في الباطن كل من فعل فعلا مخالفا لغرضه ، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالفه في رأيه ، بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده ثم يتفكر في كيفية زجرهم وقهرهم وجوابهم عما يتعللون في مخالفتهم ، فلا يزال في شغل دائم مضيع لدينه ودنياه .

فصل المطاردة بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس up

قد عرفت أن الوسواس أثر الشيطان الخناس ، والإلهام عمل الملائكة الكرام . ولا ريب في أن كل نفس في بدو فطرتها قابلة لأثر كل منهما على التساوي ، وإنما يترجح أحدهما بمتابعة الهوى وملازمة الورع والتقوى ، فإذا مالت النفس إلى مقتضى شهوة أو غضب وجد الشيطان مجالا فيدخل بالوسوسة ، وإذا انصرفت إلى ذكر الله ضاق مجاله وارتحل فيدخل الملك بالإلهام . فلا يزال التطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس .

ص ١٤٦

لهيولانية وجودها وقابليتها للأمرين بتوسط قوتيها العقلية والوهمية ، إلى أن يغلب أحد الجندين ويسخر مملكة النفس ويستوطن فيها ، وحينئذ يكون اجتياز الثاني على سبيل الاختلاس ، وحصول الغلبة إنما هو بغلبة الهوى أو التقوى ، فإن غلب عليها الهوى وخاضت فيه صارت مرعى الشيطان ومرتعه وكانت من حزبه ، وإن غلب عليها الورع والتقوى صارت مستقر الملك ومهبطه ودخلت في جنده ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : خلق الله الإنس ثلاثة أصناف : صنف كالبهائم ، قال الله تعالى : لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها (٤١) . وصنف أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين ، وصنف كالملائكة في ظل

الله يوم لا ظل إلا ظله . ولا ريب في أن أكثر القلوب قد فتحها جنود الشياطين وملكوها ، ويتصرفون فيها بضروب الوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة واطراح الأجلة . والسر فيه : أن سلطنة الشيطان سارية في لحم الإنسان ودمه ومحيطة بمجامع قلبه وبدنه ، كما أن الشهوات ممتزجة بجميع ذلك ، ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الشيطان ليجري من بني آدم مجرى الدم ، وقال الله سبحانه - حكاية عن لسان اللعين - : لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم (٤٢) . فالخلاص من أيدي الشياطين يحتاج إلى مجاهدة عظيمة ورياضة شاقه فمن لم يقم في مقام المجاهدة كانت نفسه هدفا لسهام وساوسهم وداخلة في أحزابهم .

فصل تسويلات الشيطان ووساوسهup

لما كانت طرق الباطل كثيرة وطريق الحق واحدة ، فالأبواب المفتوحة للشيطان إلى القلب كثيرة ، وباب الملائكة واحدة ، ولذا روي أن النبي صلى

(هامش)

(٤١) الأعراف ، الآية : ١٧٩ . (٤٢) الأعراف الآية : ١٦ ، ١٧ . (*)

ص ١٤٧

الله عليه وآله وسلم خط يوما لأصحابه خطا وقال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطا عن يمينه وشماله فقال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، ثم تلا قوله سبحانه : وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله (٤٣) . ثم لسهولة ميل النفس إلى الباطل وعسر انقيادها للحق تكون الطرق المؤدية إلى الباطل التي هي أبواب الشيطان جلية ظاهرة ، فكانت أبواب الشيطان مفتوحة أبدا ، والطرق المؤدية إلى الحق التي هي باب الملائكة خفية ، فكان باب الملائكة مسدودا دائما ، فما أصعب بالمسكين ابن آدم أن يسد هذه الأبواب الكثيرة الظاهرة المفتوحة ويفتح بابا واحدا خفيا مسدودا . على أن اللعين ربما يلبس بين طريقي الحق والباطل ويعرض الشر في موضع الخير ، بحيث يظن أنه لمة الملك وإلهامه ، لا وسوسة الشيطان وإغواؤه ، فيهلك ويضل من حيث لا يعلم ، كما يلقى في قلب العالم أن الناس لكثرة غفلتهم أشرفوا على الهلاك ، وهم من الجهل موتى ، ومن الغفلة هلكى ، أما لك رحمة على عباد الله ؟ أما تريد الثواب والسعادة في العقبى ؟ فما بك لا تنبههم عن رقدة الغفلات بوعظك ، ولا تنقذهم من الهلاك الأبدي بنصحك ؟ وقد من الله عليك بقلب بصير وعلم كثير ولسان ذلق ولهجة مقبولة ! فكيف تخفى نعم الله تعالى ولا تظهرها ؟ ! فلا يزال يوسوسه بأمثال ذلك ويثبتها في لوح نفسه ، إلى أن يسخره بلطائف الحيل ويشتغل بالوعظ ، فيدعوه إلى التزين والتصنع والتحسن بتحسين اللفظ ، والسرور بتملق الجماعة ، والفرح بمدحهم إياه ، والانبساط بتواضعهم لديه وانكسارهم بين يديه ، ولا يزال في أثناء الوعظ يقرر في قلبه شوائب الرياء وقبول العامة ، ولذة الجاه وحب الرياسة ، والتعزز بالعلم والفصاحة ، والنظر إلى الخلق بعين الحقارة ، فيهدي الناس ويضل نفسه ، ويعمر يومه ويخرب أمسه ، ويخالف الله ويظن أنه في طاعته ويعصيه ويحسب أنه في عبادته ، فيدخل في جملة من قال الله فيهم :

(

هامش)

(٤٣) الأنعام ، الآية : ١٥٣ . (*)

ص ١٤٨

قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحيوة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (٤٤) . ويكون ممن قال رسول الله (ص) فيهم : إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم ، إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر . فلا نجاة من مصائد الشيطان ومكائده إلا ببصيرة باطنة نورانية وقوة قدسية ربانية ، كما لا نجاة للمسافر الحيران في بادية كثيرة الطرق غامضة المسلك في ليلة مظلمة إلا بعين بصيرة صحيحة وطلوع شمس مشرقة نيرة .

فصل العلائم الفارقة بين الإلهام والوسوسة up

من تمكن من معرفة الخير والشر سهل عليه التفرقة بين الإلهام والوسوسة وقد قيل إن إلهام الملك ووسوسة الشيطان يقع في النفوس على

وجوه وعلامات : (أحدها) كالعلم واليقين الحاصلين من جانب يمين النفس . وتقابله الشهوة والهوى الحاصلان من جانب شمالها . (وثانيها) كالنظر إلى آيات الآفاق والأنفس على سبيل النظام والأحكام المزيل للشكوك والأوهام ، والمحصل للمعرفة والحكمة في القوة العاقلة هي جانب الأيمن من النفس ويقابله النظر إليها على سبيل الاشتباه والغفلة والإعراض عنها ، الناشئة منها الشبه والوساوس في الواهمة والمتخيلة التي على الجانب الأيسر منها ، فإن الآيات المحكمات بمنزلة الملائكة المقدسة من العقول والنفوس الكلية ، لأنها مبادئ العلوم اليقينية ، والمتشابهات الوهميات بمنزلة الشياطين والنفوس الوهمانية ، لأنها مبادئ المقدمات السفسطية . (وثالثها) كطاعة الرسول المختار والأئمة الأطهار في مقابلة أهل الجحود والانكار وأرباب التعطيل والتشبيه من الكفار . فكل من سلك سبيل الهداية فهو بمنزلة الملائكة المقدسين الملهمين للخير ، ومن سلك سبيل الضلال فهو بمنزلة الشياطين المغوين بالشرور . (ورابعها) كتحصيل العلوم والإدراكات التي هي في الموضوعات العالية والأعيان الشريفة ، كالعلم بالله وملائكته ورسله ، واليوم الآخر ، وللبعث ، وقيام

(هامش)

(٤٤) الكهف الآية ١٠٣ - ١٠٤ . (*)

ص ١٤٩

الساعة ، ومثول الخلائق بين يدي الله تعالى ، وحضور الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين ، في مقابلة تحصيل العلوم والإدراكات التي هي من باب الحيل والخديعة والسفسطة ، والتأمل في أمور الدنيا الغير الخارجة عن دار المحسوسات ، فإن الأول يشبه الملائكة الروحانية وجنود الرحمن الذين هن سكان عالم الملكوت السماوي ، والثاني يشبه الأبالسة المطرودة عن باب الله الممنوعة من ولوج السماوات ، المحبوسة في الظلمات ، المحرومة في الدنيا عن الارتقاء ، والمحجوبة في الآخرة عن دار النعيم .

فصل علاج الوساوس up

الوساوس إن كانت بواعث الشرور والمعاصي ، فالعلاج في دفعها أن يتذكر سوء عاقبة العصيان ووخامة خاتمته في الدنيا والآخرة ، ويتذكر عظيم حق الله وجسيم ثوابه وعقابه ، ويتذكر أن الصبر عما تدعو إليه هذه الوساوس أسهل من الصبر على نار لو قذفت شرارة منها إلى الأرض أحرقت نبتها وجمادها ، فإذا تذكر هذه الأمور وعرف حقيقتها بنور المعرفة والإيمان ، حبس عنه الشيطان وقطع عنه وسواسه ، إذ لا يمكن أن ينكر عليه هذه الأمور الحقة ، إذ يقينه الحاصل من قواطع البرهان يمنعه عن ذلك ويخيبه ، بحيث يرجع هاربا خائبا . فإن التهاب نيران (٤٥) البراهين بمنزلة رجوم الشياطين ، فإذا قوبلت بها وساوسهم فرت فرار الحمر من الأسد . وإن كانت مختلجة بالبال بلا إرادة واختيار ، من دون أن تكون مبادئ الأفعال ، فقطعها بالكلية في غاية الصعوبة والإشكال ، وقد أعترف أطباء النفوس بأنها الداء العضال ويتعسر دفعه بالمرة ، وربما قيل بتعذره ولكن الحق إمكانه ، لقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : من صلى ركعتين لم تتحدث نفسه فيها بشيء غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولولا إمكانه لم يتصور ذلك . والسر في صعوبة قطعها بالكلية أن للشيطان جندين : جندا يطير وجندا يسير ، والواهمة جنده الطيار ، والشهوة جنده السيار ، لأن غالب ما خلقتا

(هامش)

(

٤٥) وفي نسختنا الخطية هكذا : فإن نيرات البراهين . (*)

ص ١٥٠

منه هي النار التي خلق منها الشيطان ، فالمناسبة اقتضت تسلطه عليهما وتبعيتهما له . ثم لما كانت النار بذاتها مقتضية للحركة ، إذ لا تتصور نار مشتعلة لا تتحرك ، بل لا تزال تتحرك بطبعها ، فشأن كل من الشيطان والقوتين أن يتحرك ولا يسكن ، إلا أن الشيطان لما خلق من النار الصرفة من دون امتزاج شيء آخر بها فهو دائم الحركة والتحريك للقوتين بالوسوسة والهيجان ، والقوتان لما امتزج بغالب مادتهما - أعني النار - شيء من الطين لم تكونا بمثابة ما خلق من صرف النار في الحركة ، إلا أنهما استعدتا لقبول الحركة منه ، فلا يزال الشيطان ينفخ فيهما ويحركهما بالوسوسة والهيجان ويطير ويجول فيهما . ثم الشهوة لكون النارية فيها أقل فسكونها ممكن ، فيحتمل أن يكف تسلط الشيطان عن الإنسان فيها ، فيسكن بالكلية عن الهيجان . وأما الواهمة فلا يمكن أن يقطع تسلطه عنها ، فيمتنع قطع وسواسه عن الإنسان ، إذ لو أمكن قطعه أيضا بالمرة ، لصار اللعين منقادا للانسان مسخرا له ، وانقياده له هو سجوده له ، إذ روح السجود وحقيقته هو الانقياد والاطاعة ، ووضع الجبهة حالته وعلامته ، وكيف يتصور أن يسجد الملعون لأولاد آدم (ع)

مع عدم سجوده لأبيهم واستكباره من أن يطمئن عن حركته ساجدا له معللا بقوله : (خلقتني من نار وخلقته من طين (٤٦) .
فلا يمكن أن يتواضع لهم بالكف عن الوسوسة ، بل هو من المنظرين لإغوائهم إلى يوم الدين ، فلا يتخلص منه أحد إلا من أصبح وهمومه هم واحد ، فيكون قلبه مشتغلا بالله وحده ، فلا يجد الملعون مجالا فيه ، ومثله من المخلصين الداخلين في الاستثناء (٤٧) عن سلطنة هذا اللعين ، فلا تظنن أنه يخلو عنه قلب فارغ ، بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وسيلانه مثل الهواء في القدح ، فإنك إن أردت أن تخلي القدح عن الهواء من غير أن تشغله بمثل الماء فقد طمعت في غير مطمع ، بل بقدر ما يدخل فيه
(هامش)
(٤٦) الأعراف ، الآية : ١٢ . (٤٧) إشارة إلى قوله تعالى : قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين الحجر ، الآية : ٤٠ . (*)
ص ١٥١
الماء يخلو عن الهواء ، فكذلك القلب إذا كان مشغولا بفكر مهم في الدين يمكن أن يخلو من جولان هذا اللعين ، وأما لو غفل عن الله ولو في لحظة ، فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان ، كما قال سبحانه : ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين (٤٨) . وقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : إن الله يبغض الشاب الفارغ لأن الشاب إذا تعطل عن عمل مباح يشغل باطنه لا بد أن يدخل في قلبه الشيطان ويعيش فيه ويبيض يفرخ ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد الحيوانات ، لأن الشيطان طبعه من النار ، والشهوة في نفس الشاب كالحلفاء (٤٩) اليابسة ، فإذا وجدها كثر توله وتولدت النار من النار ولم تنقطع أصلا . فظهر أن وسواس الخناس لا يزال يجاذب قلب كل إنسان من جانب إلى جانب ، ولا علاج له إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا ، والفرار عن الأهل والمال والولد والجاه والرفقاء ، ثم الاعتزال إلى زاوية ، وجعل الهموم هما واحدا هو الله . وهذا أيضا غير كاف ما لم يكن له مجال في الفكر وسير في الباطن في ملكوت السماوات والأرض وعجائب صنع الله ، فإن استيلاء ذلك على القلب واشتغاله به يدفع مجاذبة الشيطان ووسواسه ، وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من الصلوات والأذكار والأدعية والقراءة . ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور ، إذ الأوراد الظاهرة لا تستغرق القلب ، بل التفكير بالباطن هو الذي يستغرقه ، وإذا فعل كل ذلك لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها ، إذ لا يخلو في بعضها عن حوادث تتجدد وتشغله عن الفكر والذكر ، كمرض أو خوف أو إيذاء وطغيان ، ولو من مخالطة بعض لا يستغنى عنه في الاستعانة في بعض أسباب المعيشة .
(هامش)
(٤٨) الزخرف ، الآية ٣٥ . (٤٩) الحلفاء : ثبت أطرافه محددة كأنها سعف النخل والخوص ، ينبت في مغايض المياه . الواحدة (حلفة وحلفاء) . (*)
ص ١٥٢
فصل ما يتم به علاج الوسواسup

لو أمكن العلاج في القطع الكلي للوساوس فإنما يتم بأمور ثلاثة : (الأول) سد الأبواب العظيمة للشيطان في القلب ، وهي الشهوة ، والغضب ، والحرص ، والحسد ، والعداوة ، والعجب ، والحقد ، والكبر ، والطمع ، والبخل ، والخفة ، والجبن ، وحب الحطام الدنيوي الدائم ، والشوق إلى التزين بالثياب الفاخرة ، والعجلة في الأمر ، وخوف الفاقة والفقر ، والتعصب لغير الحق ، وسوء الظن بالخالق . . . وغير ذلك من رؤس ذمائم الصفات ورذائل الملكات ، فإنها أبواب عظيمة للشيطان ، فإذا وجد بعضها مفتوحا يدخل منه في القلب بالوساوس المتعلقة به ، وإذا سدت لم يكن له إليه سبيل إلا على طريق الاختلاس والاجتياز . (الثاني) عمارة القلب بأضدادها من فضائل الأخلاق وشرائف الأوصاف ، والملازمة للورع والتقوى ، والمواظبة على عبادة ربه الأعلى . (الثالث) كثرة الذكر بالقلب واللسان . فإذا قلعت عن القلب أصول ذمائم الصفات المذكورة التي هي بمنزلة الأبواب العظيمة للشيطان ، زالت عنه وجوه سلطنته وتصرفاته ، سوى خطراته واجتيازاته ، والذكر يمنعها ويقطع تسلطه وتصرفه بالكلية ، ولو لم يسد أبوابه أو لا لم ينفع مجرد الذكر اللساني في إزالتها ، إذ حقيقة الذكر لا يتمكن في القلب إلا بعد تخليته عن الرذائل وتحليته بالفضائل ، ولولاهما لم يظهر على القلب سلطانه ، بل كان بمجرد قولك : إخسأ ، وإن كان عندك شيء منها لم يندفع عنك بمجرد مثل كلب جائع ، ومثل هذه الصفات

المذمومة مثل لحم أو خبز أو غيرهما من مشتهيات الكلب ، ومثل الذكر مثل قولك له : إخسأ . ولا ريب في أن الكلب إذا قرب إليك ولم يكن عندك شيء من مشتهياته فهو ينزجر عنك بمجرد قولك : أخسا ، وإن كان عندك شيء منها لم يندفع عنك بمجرد هذا القول ما لم يصل إلى مطلوبه .

فالقلب الخالي عن قوت الشيطان يندفع عنه بمجرد الذكر ، وأما القلب المملو منه فيدفع الذكر إلى حواشيه ، ولا يستقر في سويدائه ، لاستقرار الشيطان فيه . وأيضا الذكر بمنزلة الغذاء

ص ١٥٣

المقوي فكما لا تنفع الأغذية المقوية ، ما لم ينق البدن عن الأخلاط الفاسدة ومواد الأمراض الحادثة ، كذلك لا ينفع الذكر ما لم يطهر القلب عن الأخلاق الذميمة التي هي مورد مرض الوساوس ، فالذكر إنما ينفع للقلب إذا كان مطهرا عن شوائب الهوى ومنورا بأنوار الورع والتقوى ، كما قال سبحانه : إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون (٥٠) . وقال سبحانه : إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب (٥١) . ولو كان مجرد الذكر مطردا للشيطان لكان كل أحد حاضر القلب في الصلاة ، ولم يخطر بباله فيها الوساوس الباطلة والهواجس الفاسدة ، إذ منتهى كل ذكر وعبادة إنما هو في الصلاة . مع أن من راقب قلبه يجد أن خطور الخواطر في صلاته أكثر من سائر الأوقات ، وربما لا يتذكر ما نسيه من فضول الدنيا إلا في صلاته ، بل يزدحم عندها جنود الشياطين على قلبه ويصير مضمارا لجولاتهم ، ويقلبونه شمالا ويمينا بحيث لا يجد فيه إيمانا ولا يقينا ، ويجاذبونه إلى الأسواق وحساب المعاملين وجواب المعاندين ، ويمرون به في أودية الدنيا ومهالكها . ومع ذلك كله لا تظنن أن الذكر لا ينفع في القلوب الغافلة أصلا ، فإن الأمر ليس كذلك ، إذ للذكر عند أهله أربع مراتب كلها تنفع الذاكرين ، إلا أن لبه وروحه والغرض الأصلي من ذلك المرتبة الأخيرة : (الأولى) اللساني فقط . (الثانية) اللساني والقلبي ، مع عدم تمكنه من القلب ، بحيث أحتاج القلب إلى مراقبته حتى يحضر مع الذكر ، ولو خلي وطبعه استرسل في أودية الخواطر . (الثالثة) القلبي الذي تمكن من القلب واستولى عليه ، بحيث لم يمكن صرفه عنه بسهولة ، بل أحتاج ذلك إلى سعي وتكلف ، كما احتيج في الثانية

(هامش)

(

٥٠) الأعراف ، الآية : ٢٠١ . (٥١) ق آ ، الآية : ٣٦ . (*)

ص ١٥٤

إليهما في قراره معه ودوامه عليه . (الرابعة) القلبي الذي يتمكن المذكور من القلب بحيث انمحى عند الذكر ، فلا يلتفت القلب إلى نفسه ولا الذكر ، بل يستغرق بشراشره في المذكور ، وأهل هذه المرتبة يجعلون الالتفات إلى الذكر حجابا شاغلا . وهذه المرتبة هي المطلوبة بالذات . والبواقي مع اختلاف مراتبها مطلوبة بالعرض ، لكونها طرقا إلى ما هو المطلوب بالذات .

فصل ما يتوقف عليه قطع الوساوس up

السر في توقف قطع الوساوس بالكلية على التصفية والتخلية أولا ، ثم المواظبة على ذكر الله : إن بعد حصول هذه الأمور للنفس تحصل لقوتها العاقلة ملكة الاستيلاء والاستعلاء على القوى الشهوية والغضبية والوهمية ، فلا تتأثر عنها وتؤثر فيها على وفق المصلحة ، فتتمكن من ضبط الواهمة والمتخيلة بحيث لو أرادت صرفهما عن الوساوس لأمكنها ذلك ، ولم تتمكن القوتان من الذهاب في أودية الخواطر بدون رأيها ، وإذا حصلت للنفس هذه الملكة وتوجهت إلى ضبطهما كلما أرادتا الخروج عن الانقياد والذهاب في أودية الوساوس وتكرر منها هذا الضبط ، حصل لهما ثبات الانقياد بحيث لم يحدث فيهما خاطر سوء مطلقا ، بل لم يخطر فيها إلا خواطر الخير من خزائن الغيب وحينئذ تستقر النفس على مقام الاطمئنان ، وتنسد عنها أبواب الشيطان وتنفتح فيها أبواب الملائكة ، ويصير مستقرها ومستودعها ، فتستضاء بشروق الأنوار القدسية من مشكاة الربوبية ، ويشملها خطاب : يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية (٥٢) . ومثل هذه النفس أحسن النفوس وأشرفها ، وتقابلها النفس المنكوسة المملؤة من الخبائث الملوثة بأنواع الذمائم والرذائل ، وهي التي انفتحت فيها أبواب الشيطان وانسدت منها أبواب الملائكة ، ويتصاعد منها دخان مظلم إليها ، فتملأ جوانبها ويطفئ نور اليقين ويضعف سلطان الإيمان ، حتى

(هامش)

(٥٢) الفجر ، الآية : ٢٧ - ٢٨ . (*)
ص ١٥٥
تخمد أنواره بالكلية ، ولا يخطر فيها خاطر خير أبدا ، وتكون دائما محل الوساوس الشيطانية ، ومثلها لا يرجع إلى الخير أبدا ، وعلامتها عدم تأثرها من النصائح والمواعظ ، ولو اسمعت الحق عميت عن الفهم وصمت عن السمع ، وإلى مثلها أشير بقوله سبحانه : أرأيت من اتخذا إلهه هواه أفانت تكون عليه وكيلا (٥٣) . ويقوله تعالى : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة (٥٤) . وبقوله سبحانه : إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا (٥٥) . وبقوله تعالى : وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (٥٦) . وبقوله عز وجل : لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون (٥٧) . وبين هاتين النفسين نفس متوسطة في السعادة والشقاوة ، ولها مراتب مختلفة في اتصافها بالفضائل والرذائل بحسب الكم والكيف والزمان ، فيختلف فيها فتح أبواب الملائكة والشياطين بالجهات المذكورة ، فتارة يبتدئ فيها خاطر الهوى فيدعوها إلى الشر ، وتارة يبتدئ فيها خاطر الإيمان فيبعثها على الخير ، ومثلها معركة تطارد جندي الشياطين والملائكة وتجاذبهما ، فتارة يصول الملك على الشيطان فيطرده ، وتارة يحمل الشيطان على الملك فيغلبه ، ولا تزال متجاذبة بين الحزبين مترددة بين الجندين ، إلى أن تصل إلى ما خلقت لأجله لسابق القضاء والقدر . ثم النفس الأولى في غاية الندرة ، وهي نفوس الكمل من المؤمنين الموحدين ، والثانية في نهاية الكثرة وهي نفوس الكفار بأسرهم ، والثالثة نفوس أكثر المسلمين ، ولها مراتب شتى ودرجات لا تحصى ولها عرض عريض ، فيتصل أحد طرفيه بالنفس الأولى ، وآخرهما بالثانية .
(هامش)
(٥٢) الفرقان ، الآية : ٤٣ . (٥٤) البقرة ، الآية : ٧ . (٥٥) الفرقان ، الآية : ٤٤ . (٥٦) يس ، الآية : ١٠ . (٥٧) يس ، الآية : ٧ . (*)
ص ١٥٦
فصل حديث النفس لا مؤاخذة عليه up
قد عرفت أن الوساوس بأقسامها مشتركة في إحداث ظلمة وكدرة في النفس ، إلا أن مجرد الخواطر - أي (حديث النفس) وما يتولد عنه بلا اختيار كالميل وهيجان الرغبة - لا مؤاخذة عليهما ، ولا يكتب بهما معصية ، لعدم دخولهما تحت الاختيار ، فالمؤاخذة عليهما ظلم ، والنهي عنهما تكليف بما لا يطاق ، والاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي بأنه يفعل هذا فيؤاخذ به ، لكونه اختياريا . وكذا الهم بالفعل والعزم عليه ، إلا أنه إن يفعل مع الهم خوفا من الله وندم عنه كتبت له حسنة ، وإن لم يفعل لمانع منه لا لخوف الله سبحانه كتبت عليه سيئة . والدليل على هذا التفصيل : أما على عدم المؤاخذة على مجرد الخاطر فما روي في الكافي : إنه جاء رجل إلى النبي (ص) فقال : يا رسول الله هلكت ، فقال له هل أتاك الخبيث فقال لك من خلقك ؟ فقلت : الله تعالى ، فقال لك : الله من خلقه ؟ فقال له : أي والذي بعثك بالحق لكان كذا . فقال رسول الله (ص) : ذاك والله محض الإيمان . ومثله ما روي : إن رجلا أتى رسول الله (ص) فقال يا رسول الله ! نافقت ، فقال : والله ما نافقت ! ولو نافقت ما أتيتني تعلمني ، ما الذي رابك ؟ أظن أن العدو الحاضر أتاك ، فقال : من خلقك ؟ فقلت : الله تعالى خلقني ، فقال لك : من خلق الله ؟ فقال : أي والذي بعثك بالحق لكان كذا ، فقال : إن الشيطان أتاكم من قبل الأعمال فلم يقو عليكم ، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلكم ، فإذا كان كذلك فليذكر أحدكم الله وحده . وقريب منه ما روي : إن رجلا كتب إلى أبي جعفر (ع) يشكو إليه لمما يخطر على باله ، فأجابه في بعض كلامه : إن الله إن شاء ثبتك فلا يجعل لإبليس عليك طريقا .
قد شكى قوم النبي (ص) لمما يعرض لهم لإن تهوي بهم الريح أو يقطعوا أحب إليهم من أن يتكلموا به ، فقال رسول الله : أتجدون ذلك ؟ قالوا : نعم ! قال : والذي نفسي بيده إن ذلك لصريح الإيمان ، فإذا وجدتموه فقولوا : آمنا بالله ورسوله ولا حول ولا قوة إلا بالله وسئل الصادق (ع) عن الوسوسة
ص ١٥٧
وإن كثرت ، فقال : لا شيء فيها ، تقول لا إله إلا الله . وعن جميل بن دراج قال : قلت للصادق (ع) : إنه يقع في قلبي أمر عظيم ، فقال : قل لا إله إلا الله ، قال جميل : فكلما وقع في قلبي قلت : لا إله إلا الله ، فيذهب عني . ومما يدل على عدم المؤاخذة

عليه وعلى الميل وهيجان الرغبة إذا لم يكونا داخلين تحت الاختيار ما روي : إنه لما نزل قوله تعالى : وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله (٥٨) . جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله (ص) وقالوا : كلفنا ما لا نطيق ، إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يجب أن يثبت في قلبه ، ثم يحاسب بذلك ؟ فقال رسول الله (ص) : لعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل : سمعنا وعصينا ، قولوا : سمعنا وأطعنا ، فقالوا : سمعنا وأطعنا ، فأنزل الله الفرج بعد سنة بقوله تعالى : لا يكلف الله نفسها إلا وسعها (٥٩) . وما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله سبحانه : وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله : إن هذه الآية عرضت على الأنبياء والأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها من ثقلها ، وقبلها رسول الله (ص) وعرضها على أمته فقبلوها . فلما رأى الله عز وجل منهم القبول على أنهم لا يطيقونها ، قال : أما إذا قبلت الآية بتشديدها وعظم ما فيها وقد عرضتها على الأمم السابقة فأبوا أن يقبلوها وقبلتها أمتك ، فحق على أن أرفعها عن أمتك ، وقال عز من قائل : لا يكلف الله نفسا إلا وسعها . وما روي عن النبي (ص) أنه قال : وضع على أمتي تسع خصال : الخطأ ، والنسيان ، وما لا يعلمونه ، وما لا يطيقونه ، وما اضطروا عليه ، وما استكرهوا عليه ، والطيرة ، والوسوسة في التفكر في الخلق ، والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد . وما روي أنه سئل الصادق (ع) عن رجل يجيئ منه الشيء على حد الغضب يؤاخذه الله تعالى ؟ فقال (ع) : إن الله تعالى أكرم من أن يستغلق

(هامش)

(٥٨) البقرة ، الآية : ٢٨٤ . (٥٩) البقرة ، الآية : ٢٨٦ . (*)

ص ١٥٨

على عبده ، والمراد من الغضب فيه : الغضب الذي سلب الاختيار . وبالجملة : القطع حاصل بعدم المؤاخذة والمعصية على ما لا يدخل تحت الاختيار من الخواطر والميل وهيجان الرغبة ، إذ النهي عنها مع عدم كونها اختيارية تكليف بما لا تطاق ، وإن لم ينفك عن إحداث خباثة في النفس . وأما (٦٠) على أنه يكتب سيئة على الاعتقاد والهم بالفعل والتصميم عليه مع تركه لمانع لا لخوف من الله ، فهو إن كلا من الاعتقاد والهم بالمعصية فعل من الأفعال الاختيارية للقلب ، وقد ثبت في الشريعة ترتب الثواب والعقاب على فعل القلب إذا كان اختياريا ، قال الله سبحانه : إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا (٦١) . وقال سبحانه : لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم (٦٢) . وقال رسول الله (ص) : إنما يحشر الناس على نياتهم . وقال (ص) : إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار ، قيل : يا رسول الله ! هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : لأنه أراد قتل صاحبه . وقال (ص) : لكل امرئ ما نوى . والآثار الواردة في ترتب العقاب على الهم بالمعصية كثيرة ، وإطلاقها محمول على غير صورة الترك خوفا من الله لما يأتي من أنه في هذه الصورة تكتب بها حسنة ، وكيف لا يؤاخذ على أعمال القلوب مع أن المؤاخذة على الملكات الردية من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وغيرها قطعي الثبوت من الشرع ، معت كونها أفعالا قلبية ، وقد ثبت في الشريعة أن من وطأ امرأة ظانا أنها أجنبية كان عاصيا وإن كانت زوجته . وأما على أنه يكتب حسنة على الترك بعد الهم خوفا من الله ، فما روي عن النبي (ص) أنه قال : قالت الملائكة : رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر ، فقال : راقبوه فإن عملها فاكتبوها عليه بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها لأجلي . وما روي عن الإمام محمد

(هامش)

(

٦٠) أي وأما الدليل على أنه يكتب سيئة . (٦١) بني إسرائيل ، الآية : ٣٨ . (٦٢) البقرة ، الآية : ٢٢٥ . (*)

ص ١٥٩

ابن علي الباقر (ع) : إن الله تعالى جعل لآدم في ذريته من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة وعملها كتبت له عشرا ، ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه سيئة ، ومن هم بها وعملها كتبت عليه سيئة ، وقوله : لم يكتب عليه محمول على صورة عدم العمل خوفا من الله ، لما تقدم من أنه إن لم يعملها لمانع غير خوف الله كتبت عليه سيئة . وما روي عن الصادق (ع) أنه قال : ما من مؤمن إلا وله ذنب يهجره زمانا ثم يلم به وذلك قوله تعالى : إلا اللمم (٦٣) . وقال : واللمم : الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه ، وقد وردت بهذا المضمون أخبار أخر .

وصل: الخاطر المحمود والتفكر up
قد عرفت أن ضد الوسوسة الخاطر المحمود المستحسن شرعا وعقلا ، لأن القلب إذا كان مشغولا بشيء لا يمكن أن يشغله شيء آخر ، فإذا كان مشغولا بشيء من الخواطر المحمودة لا سبيل للخواطر المذمومة إليه ، وربما كان للغفلة التي هي ضد النية تقابل لكل من الوسوسة والخاطر المحمود ، إذ عند الغفلة لا يتحقق شيء منهما ، إلا أن خلو القلب عن كل نية وخاطر بحيث يكون ساذجا في غاية الندرة ، على أن الظاهر أن مرادهم من الغفلة خلو الذهن من القصد الباعث وإن كان مشغولا بالوساوس الباطلة ، كما يأتي تحقيقه . ثم الخاطر المحمود إن كان قصدا ونية لفعل جميل معين كان متعلقا بالقوة التي يتعلق هذا الفعل بها ، وإلا كان راجعا إما إلى الذكر القلبي أو إلى التدبر في العلوم والمعارف والتفكر في عجائب صنع الله وغرائب عظمته ، أو إلى التدبر الإجمالي الكلي فيما يقرب العبد إلى الله سبحانه أو ما يبعده عنه تعالى ، وليس وراء ذلك خاطر محمود متعلق بالدين أو غير ذلك من الخواطر المذمومة المتعلقة بالدنيا . وإذا عرفت ذلك فاعلم أنه من معالجات مرض الوسواس معرفة شرافة
(هامش)
(
٦٣) النجم ، الآية : ٣٢ . (*)
ص ١٦٠
ضده الذي هو الخاطر المحمود ، ليبعثه على المواظبة عليه الموجبة لدفع الوساوس . وفضيلة الخواطر المحمودة الباعثة عن الأفعال الجميلة يأتي ذكرها في باب النية ، وربما يعلم من بيان فضيلة نفس هذه الأفعال أيضا كما يأتي ذكرها في باب النية ، وفضيلة الذكر القلبي يعلم في باب مطلق الذكر . أما بيان شرافة التفكر وبعض مجاريه من أفعال الله تعالى والإشارة إلى كيفية التفكر فيها وفيما يقرب العبد إلى الله تعالى وفيما يبعده عنه ، فلنشر إلى مجمل منه هنا لتعلقه بالقوة النظرية ، فنقول : التفكر : هو سير الباطن من المبادئ إلى المقاصد ، والمبادئ : هي آيات الآفاق والأنفس ، والمقصد : هو الوصول إلى معرفة موجدها ومبدعها والعلم بقدرته القاهرة وعظمته الباهرة ، ولا يمكن لأحد أن يترقى من حضيض النقصان إلى أوج الكمال إلا بهذا السير ، وهو مفتاح الأسرار ومشكاة الأنوار ، ومنشأة الاعتبار ومبدأ الاستبصار ، وشبكة المعارف الحقيقية ومصيدة الحقائق اليقينية ، وهو أجنحة النفس للطيران إلى وكرها القدسي ، ومطية الروح للمسافرة إلى وطنها الأصلي ، وبه تنكشف ظلمة الجهل وأستاره وتنجلي أنوار العلم وأسراره ، ولذا ورد عليه الحث والمدح في الآيات والأخبار كقوله سبحانه : أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق (٦٤) . وقوله تعالى : أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء (٦٥) . وقوله تعالى : فاعتبروا يا أولي الأبصار (٦٦) . وقوله تعالى : قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق (٦٧) .
(هامش)
(٦٤) الروم ، الآية : ٨ . (٦٥) الأعراف ، الآية : ١٨٥ . (٦٦) الحشر ، الآية : ٢ . (٦٧) العنكبوت ، الآية : ٢٥ . (*)
الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

١٠٧ 05
الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب
ص ١٦١
وقوله تعالى : إن في خلق السماوات والأرض لآيات لأولي الألباب (٦٨) . وقوله تعالى : وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون (٦٩) . وقوله تعالى : الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض (٧٠) . وقول رسول الله (ص) : التفكر حياة قلب البصير ، وقوله (ص) فكرة ساعة خير من عبادة سنة ، ولا ينال منزلة التفكر إلا من خصه الله عز وجل بنور التوحيد والمعرفة ، وقوله (ص) : أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وفي قدرته (٧١) ، ومراده من التفكر في الله التفكر في قدرته وصنعه وفي عجائب أفعاله ومخلوقاته وغرائب آثاره ومبدعاته ، لا التفكر في ذاته ، لكونه ممنوعا عنه في الأخبار

، ومعللا بأنه يورث الحيرة والدهشة واضطراب العقل ، وقد ورد : إياكم والتفكر في الله ، ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه . واشتهر عن النبي (ص) أنه قال : تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله ، فإنكم لن تقدروا قدره وقول أمير المؤمنين (ع) : التفكر يدعو إلى البر والعمل به ، وقوله عليه السلام : نبه بالتفكر قلبك ، وجاف عن الليل جنبك ، واتق الله ربك ، وقول الباقر (ع) : بإجالة الفكر يستدر الرأي المعشب ، وقول الصادق عليه السلام : الفكر مرآة الحسنات وكفارة السيئات ، وضياء للقلوب وفسحة للخلق ، وإصابة في صلاح المعاد ، واطلاع على العواقب ، واستزادة في العلم ، وهي خصلة لا يعبد الله بمثلها ، وقول الرضا (ع) : ليس العبادة كثرة في الصلاة والصوم ، إنما العبادة التفكر في أمر الله عز وجل .

(هامش)

(٦٨) آل عمران ، الآية : ١٩٠ . (٦٩) الذاريات ، الآية : ٢٠ - ٢١ . (٧٠) آل عمران ، الآية ١٩١ . (٧١) روى هذه الأحاديث في الكافي في (باب التفكر) عن أبي عبد الله - عليه السلام - كما هنا . (*)

ص ١٦٢

تكملة: مجاري التفكر في المخلوقات up

الموجودات بأسرها مجاري التفكر ومطارح النظر ، إذ كل ما في الوجود سوى واجب فهو ممن رشحات وجوده وآثار فيضه وجوده ، وكل موجود ومخلوق من جوهر أو عرض مجرد أو مادي ، فلكي أو عنصري ، بسيط أو مركب ، فعل الله وصنعه ، وما من ذرة من ذرات العالم إلا وفيها ضروب من عجائب حكمته وغرائب عظمته ، بحيث لو تشمر عقلاء الأقطار وحكماء الأمصار مدى الأعصار لاستنباطها ، انقضت أعمارهم دون الوقوف على عشر عشيرها وقليل من كثيرها . ثم إن الموجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصله فلا يمكننا التفكر فيه ، وإلى ما يعرف أصله ومجمله من دون معرفة تفاصيله فيمكننا التفكر في تفصيله لتزداد لنا معرفة وبصيرة مخالفه . وهو إلى ما لا يدرك بحس البصر ويسمى بـ(الملكوت) ، كالملائكة والجن والشياطين وعوالم العقول والنفوس المجردة ، ولها أجناس وطبقات لا يحيط بها إلا موجدها ، وإلى ما يدرك به ، وله أجناس ثلاثة : عالم السماوات المشاهدة بكواكبها ونجومها ودورانها في طلوعها وغروبها ، وعالم الأرض المحسوسة بحارها وجبالها ووهادها وتلالها ومعادنها وأنهارها ونباتها وأشجارها وحيوانها وجمادها ، وعالم الجو المدرك بسحبه وغيومه وأمطاره وثلوجه وشهبه وبروقه ورياحه ورعوده ، وكل من هذه الأجناس الثلاثة ينقسم إلى أنواع ، ويتشعب كل نوع إلى أقسام وأصناف غير متناهية ، مختلفة في الصفات والهيئات ، واللوازم والآثار والخواص ، والمعاني الظاهرة والباطنة ، وليس شيء منها إلا وموجده هو الله سبحانه ، وفي وجوده وحركته وسكونه حكم ومصالح لا تحصى . وكل ذلك مجاري التفكر والتدبر لتحصيل المعرفة والبصيرة بخالقها الحكيم وموجدها القيوم العليم ، إذ كلها شواهد عدل وبينات صدق على وحدانيته وحكمته وكمال كبريائه وعظمته ، فمن قدم قدم حقيقته ، ودار عالم الوجود وفتح عين بصيرته ، وشاهد مملكة ربه الودود ، لظهر له في

ص ١٦٣

كل ذرة من ذرات الخلق عجائب حكمة وغرائب قدرة ، بهر منها عقله ووهمه ، وحسر دونها لبه وفهمه . ثم لا ريب في أن طبقات العوالم المنتظمة المرتبة على النحو الأصلح والنهج الأحسن بأمر موجدها الحكيم ومدبرها العليم ، مبتدأة في الصدور من الأشرف فالأشرف ، حتى ينتهي إلى أسفل العوالم وأخسها ، وهو عالم الأرض بما فيه ، وكل عالم أسفل لا قدر له بالنسبة إلى ما فوقه ، فلا قدر للأرض بالنظر إلى عالم الجو ، ولا للجو بالقياس إلى عالم السماوات ، ولا للسماوات بالنسبة إلى عالم المثال ، ولا للمثال بالنظر إلى عالم الملكوت ، ولا للملكوت بالقياس إلى الجبروت ، ولا للجميع بالنسبة إلى ما لا سبيل لنا إلى دركه تفصيلا وإجمالا من عوالم الألوهية ، كما ظهر لعلماء الطبيعة وأهل الرصد والهندسة ، ووضح لأرباب المكاشفة والعرفان وأصحاب المشاهدة والعيان . ثم أخس العوالم الذي عرفت حاله - أعني الأرض - لا قدر لما على ظهرها من الحيوان والنبات والجماد ، بالنظر إلى نفسها ، ولذا يفسد من أدنى تغير لها جل ما عليها ، ولكل جنس مما عليها أنواع وأقسام وأصناف غير متناهية . وأضعف أنواع الحيوان البعوضة والنحل ، وأشرف أنواعه الإنسان . فنحن نشير إلى نبذة يسيرة من الحكم والعجائب المودعة فيها ، وكيفية التفكر فيها ، ليقاس عليها البواقي إجمالا . فإن بيان مجاري التفكر بأسرها في حيز المحال ، وما يمكن منه خارج عن حيطة الضبط والتدوين ، ولذا ترى أن البارعين من الحكماء والفائقين من أجله العرفاء بذلوا وسعهم في بيان مجاري التفكر ومطارحه وشرح مجال النظر ومسارحه ، فسطروا فيه الأساطير وملأوا

منه الطوامير ، وخاضوا في عمرات بحار الأفكار وغاصوا في تيار لجج الأنظار ، ومع ذلك لم يعودوا بالنظر إلى ما هو الواقع الأصفر اليدين ورجعوا آخر الأمر (يخفي حنين) .

ونحن لو تعرضنا لشرح ما يمكن لنا دركه من الحكم والغرائب المودعة في عضو واحد من أعضائها على التفصيل ، لخرجنا عن وضع الكتاب ، وارتكبنا ما يمل الناظرين من الإطناب ، فنشير إجمالا إلى بعض ما فيها من الحكم والعجائب ، تنبيها للطالبين على كيفية التفكر في الصنائع الإلهية ، فنقول :

ص ١٦٤

أما (البعوض) فانظر كيف خلقه الله على صغر قدره على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات ، إذ خلق له خرطوما كخرطومه ، وخلق له مع صغره جميع الأعضاء التي خلقها للفيل بزيادة جناحين ، فقسم أعضاءه الظاهرة فأنبت جناحيه وأخرج يديه ورجليه ، وشق سمعه وبصره ، ودبر في باطنه أعضاء الغذاء ، وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب في الحيوانات العظيمة - كما يأتي في الإنسان - ثم هداه إلى غذائه الذي هو دم الإنسان وغيره من الحيوانات ، فأنبت له آلة الطيران إلى الإنسان ، وخلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس ، وهداه إلى الامتصاص من مسام بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه في واحد من مسامه ، ويغرز فيه ويمص الدم ويتجرعه ، وخلق خرطومه - مع دقته - مجوفا حتى يجري فيه الدم الصافي الرقيق وينتهي إلى باطنه وينتشر في معدته وفي سائر أعضائه ، وعرفه أن الإنسان يقصده بيده فعله حيلة الهرب ، وخلق له السمع الذي يسمع به حفيف حركة اليد مع كونها بعيدة منه ، فيترك المص ويهرب ، وإذا سكنت اليد عاد ، وخلق له حدقتين حتى يبصر مواضع غذائه فيقصده مع صغر حجمهم وجهه . ولما كانت حدقة كل حيوان صغيرة بحيث لا يحتمل الأجفان لصغره ، وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار ، خلق للبعوض والذباب وغيرهما من الحيوانات الصغيرة يدين ليمسح بهما حدقتيه ويطهرها عن الغبار والقذى ، أولا ترى الذباب أنه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه ؟ .

وأما الإنسان وغيره من الحيوانات العظيمة خلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة ، فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميها إلى أطراف الأهداب . فهذه لمعة يسيرة من عجائب صنع الله فيه ، وفيها من العجائب الظاهرة والباطنة ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الإحاطة بكنهها عجزوا عن حقيقتها . أما النحل - فانظر كيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت : من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٧٢) . واستخرج من لعابها الشمع والعسل ، وجعل أحدهما ضياء والآخر

(هامش)

(٧٢) النحل ، الآية : ٦٨ . (*)

ص ١٦٥

شفاء . وانظر في عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنهار واجتنابها عن النجاسات والأقذار ، وفي طاعتها وانقيادها لواحد من جملتهم ، وأكبرهم شخصا ، وهو أميرهم . وانظر كيف علم الله أميرهم أن يحكم بالعدل والإنصاف بينهم ، حتى أنه ليقتل على باب النفذ كل ما وقع منها على نجاسة . ثم انظر إلى بناء بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال المسدس ، فلا يبنى مستديرا ولا مربعا ولا مخمسا ، بل اختار المسدس لخاصية يقصر عن دركها أفهام المهندسين ، وهو أن أوسع الأشكال وأجودها المستدير ، ثم ما يقرب منه ، فإن المربع تخرج منه زوايا ضايعة ، وشكل النحل مستدير مستطيل ، فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة ، ولو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضايعة ، لأن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصة ، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الوسعة والاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس ، فهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف علم الله النحل مع صغر جرمها لطفا بها وعناية بوجودها ليهنأ عيشها ، فسبحانه ما أعظم شأنه . وما ذكرناه قدر يسير من عجائب الحكمة المودعة فيها ، وما فيها من العجائب الظاهرة والباطنة مما لا يمكن الإحاطة به .

وأما الإنسان - فنقول : لا ريب في أن أول كل إنسان قطرة من ماء قذرة ، لو خليت بنفسها لأنتنها الهواء وأفسدها ، وكانت متفرقة في جميع أجزاء بدن الذكر ، فألقى الله بلطائف حكمته محبة بينه وبين الأنثى وقادهما بسلاسل الشهوة إلى الاجتماع ، واستخرج هذه النطفة المنتنة بحركة الوقاع ، وأعطى لآلة الرجل قوة دافعة ، ولرحم الأنثى قوة جاذبة ، حتى جذبتها من فم الإحليل إلى نفسها ،

وامتزجت بمني الأنثى بحيث صارتا واحدة ، واستقرت في الرحم ، وجعل مبدأ عقد الصورة في مني الذكر ، ومبدأ انعقادها في مني الأنثى ، فهما بالنظر إلى الجنين كالأنفحة واللبن بالقياس إلى الجبن ، والحق إن لكل من المنيين القوة العاقدة والمنعقدة ، إلا أن الأولى في الذكوري والثانية في الأنوثي أقوى ، وإلا لم يتحدا شيئا واحدا ، ولم ينعقد الذكوري حتى يصير جزأ من الولد . فلو كان مزاج ج : ١
ص ١٦٦
الأنثى ذكوريا كما في النساء الشريفة النفوس القوية القوى ، وكان مزاج كبدها حارا ، كان المني المنفصل عن كليتها اليمنى أحر كثيرا من المنفصل عن كليتها اليسرى ، فإذا اجتمعا في الرحم ، وكان مزاج الرحم قويا في الامساك والجذب ، قام المنفصل عن الكلية اليمنى مقام مني الذكر في شدة قوة العقد ، والمنفصل من اليسرى مقام مني الذكر في شدة قوة العقد ، والمنفصل من اليسرى مقام مني الأنثى في قوة الانعقاد ، فيختلق الولد ، وبهذا تصحح ولادة مريم البتول عليها السلام حيث تمثل لها روح القدس بشرا سويا حسن الصورة ، فمع تحقق ما ذكر لها تأيدت به - أي بروح القدس - وسرى أثر اتصالها به إلى الطبيعة والبدن ، وتغير مزاجها ومد جميع القوى في أفعالها بالمدد الروحاني ، فصارت أقدر على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس ثم ابتدأ خلق الجنين في استقرار الماءين في الرحم ، وشبه بالعجين إذا ألصق بالتنور ، فغيره الله تعالى سبحانه عن حاله قليلا . كالبذر إذا نبت من الأرض ، فصارت نطفة ، فاستجلب دم الحيض من أعماق العروق إليها ، حتى ظهرت فيها نقط دموية منه وصارت علقة . ثم أظهر فيها حمرة ظاهرة حتى صار شبيها بالدم الجامد ، وهيج فيها ريحا حارة فصارت مضغة .
ثم أظهر فيها رسوم الأعضاء وشكلها وصورها ، فأحسن تصويرها ، فقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة من العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم والشحم ثم ركب الأعضاء الظاهرة والباطنة من اللحم والعروق والأعصاب ، فدور الرأس ، وشق البصر والسمع والفم والأنف وسائر المنافذ ، ومد إليه والرجل ، وقسم رؤوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ، وخلق كل واحد من القلب والدماغ والكبد والطحال والمعدة والرئة والرحم والمثانة والأمعاء وغيرها من الأعضاء على شكل مخصوص ، وجعل لكل واحد منها عملا معينا وفعلا مخصوصا ، وجميع ذلك يحصل للجنين وهو في ظلمة الأحشاء محبوس وفي دم الحيض مغموس ، منضم في صرة ، كفاه على خديه ، ومرفقاه على حقويه ، جمعت ركبتاه على صدره وذقنه على رأس ركبتيه ، وهو كشبه نائم ، سرته متصلة بسرة أمه يمتص منها الغذاء ، ووجهه إلى وجهها إن كان أنثى وإلى ظهرها إن كان ذكرا . فتتوارد عليه تلك النقوش العجيبة والتصويرات الغريبة من غير خبر منها له وللرحم ، ولا للأب والأم ، ولا يرى داخل
ص ١٦٧
النطفة أو الرحم ولا خارجهما نقاش يصل إليه أثر نقشه ، فكأن الجنين بلسان حاله ينادي قلوب العارفين بنغمات تهيجها وترقصها : تصوروني في ظلمة الأحشاء مغموسا بدم الحيض ، كيف يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش أجفاني وحدقتي ، ويصور المصور خدي وشفتي ، ولا يزال يظهر علي نقش بعد نقش وصورة بعد صورة ، ولا أرى نقاشا ولا مصورا ، أولا تتعجبون من هذا النقاش الذي لا يحتاج إلى تماس ومزاولة ولا يفتقر إلى آلة ومباشرة ، أولا تنتقلون من عجيب صنعه إلى عظيم قدرته وجسيم عظمته ، أو ليس لكم أعين بها تبصرون أو قلوب بها تفقهون ، فكيف تنظرون إلى تكون أعضائي وعجائبها ولا تعتبرون ؟ ! فانظر الآن - يا حبيبي - في نبذ من العجائب والحكم المودعة في بعض من هذه الأعضاء ، فتأمل في (العظام) التي هي أجسام قوية صلبة كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ، وأحكمها وصلبها في الرحم بين المياه ، مع أن صلابة المائع في الماء محال عادة ، وجعلها قواما ودعامة للبدن ، ولذا صلبها وأحكمها لئلا تنكسر عند الحركات العنيفة ، وقدرها مقادير مختلفة وشكلها على أشكال متفاوتة ، ففيها صغير وكبير وطويل وقصير ومستقيم ومستدير ودقيق وعريض ومجوف ومصمت ، على ما اقتضته الحكم والمصلحة ، ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة ، تارة بجملة بدنه ، وتارة ببعض أعضائه ، لم يخلقه من عظم واحدا ، بل جعل له عظاما كثيرة بينها مفاصل ، حتى تتيسر له الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه ، وقدر شكل كل واحد منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، وما لم تكن فيه فائدة سوى كونه عمادا للبدن خلقه مصمتا ، وإن جعل فيه المسام والخلل التي لا بد منها ، وما يحتاج إليه للحركة أيضا ، زاد في تجويفه ليكون أخف ، وجعل تجويفه في الوسط واحدا لئلا يحتاج في وصول الغذاء إليه إلى التجاويف والخلل المتفرقة ، فيصير رخوا ، بل صلبه مع تجويفه ، لئلا

ينكسر عند الحركات العنيفة ، وما كانت الحاجة فيه إلى
الوثاقة أشد جعل تجويفه أقل ، وما كان الاحتياج فيه إلى الخفة أكثر جعل تجويفه أزيد ، وجمع غذاءه وهو المخ في حشوه ليغذوه ويرطبه دائما ، لئلا يتفتت بتجفيف الحركة . ثم وصل مفاصلها وربط بعضها بالبعض بأوتار أنبتها من أحد العظمين
ص ١٦٨
وألصقها بالآخر ، كان كالرباط ، وخلق في أحدهما زوائد خارجة منه وفي الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد ، ليدخل فيها وينطبق عليها ، ولذلك لو أراد الإنسان أن يحرك جزأ من بدنه دون سائر أعضائه لم يتعسر عليه ، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك . ثم وسط بين العظام الصلبة واللحوم الرخوة (الغضاريف) وهي من العظم ألين ومن اللحم أصلب ، ليحسن اتصال الصلب باللين ، فلا يتأذى منه ، وخصوصا عند الضربة والضغطة ، وليحسن به مجاورة المفاصل المتحاكة ، فلا تتراض لصلابتها . ثم انظر - يا أخي - في (العروق) وما فيها من العجائب والحكم ، فإنها خلقت على نوعين : (أحدهما) الشرايين : وهي العروق الضوارب المتحرك ، ومنبتها القلب . ولما كان القلب ينبوع الحياة ومنبع الروح والحرارة الغريزية خلقت هذه العروق مبتدأة منه منتشرة في سائر الأعضاء لإيصال الروح والحياة منه إليها ، ولها حركتان ، إنقباضية يقبض بها الأبخرة الدخانية عن القلب ، وانبساطية يجذب بها صافي النسيم إليه ، ليستريح ، ولولا هذا القبض والجذب لاختنق القلب بالبخار الدخاني ، وخلقت ذات صفاقين لئلا تنشق بقوة حركتها ولئلا يتحلل ما فيها من الروح ، وجعل الصفاق الداخل أصلب لأنه الملاقي لقوة الحرارة الغريزية ومصادمة حركة الروح ، فأوجبت الحكمة الإلهية زيادة أحكامها حفظا لها عن الانشقاق ، لقوة حركة الروح ، وتقوية لمحل الحرارة الغريزية ، لئلا يتحلل شيء منها يتحلل محلها .
وواحد من هذه الشرايين ، ويسمى الشريان الوريدي ، لما كان حاملا لغذاء الرية لأن غذاءها من القلب ، فيغوص فيها ويصير شعبا ، فخلق لذلك ذا صفاق واحد لئلا يزاحم بصلابته الرية لرخاوتها ولينها ، مع عدم مصادمة لحمها له عند الحركة لكثرة لينه ورخاوته . فلم تكن حاجة إلى زيادة استحكامه ، على أن الرية تحتاج إلى الغذاء على سبيل الترشح بسرعة وسهولة ، وكثرة الصلابة منافيه لذلك . (وثانيهما) العروق الساكنة : وتسمى الأوردة ، وشأنها جذب الغذاء من المعدة إلى الكبد ومنه إلى سائر الأعضاء ، وهي ذات صفاق واحد لأنها ساكنة ، فلا يخشى انشقاقها . وجعل واحد منها ويسمى الوريد
ص ١٦٩
الشرياني ذا صفاقين لنفوذه في التجويف الأيمن من القلب ، فكان اللازم زيادة وثاقته ، لئلا يعتريه انشقاق بقوة حركة القلب وصلابته ، وهو الذي يأتي بغذاء الرية إلى القلب ، وإذا خلص عن القلب وجاوزه يأخذ الشريان الوريدي منه ويذهب به إلى الرية . فانظر - يا أخي - إلى عجيب حكمة ربك ، فإن حامل غذاء الرية ما دام نافذا في القلب ومصادما لحركته خلق صلبا ذا صفاقين ، وإذا خلص عنه إلى الرية التي لا تتحمل الصلب جعل رخوا ذا صفاق واحد ، فسبحانه ما أجل شأنه وأعظم برهانه . ثم تفكر أيها المتفكر في (الرأس) وعجيب خلقه ، حيث ركبه من عظام مختلفة الأشكال والصور ، وألف بعضها إلى بعض حتى استوت كرة كما تراه ، وجعله مجمع الحواس ، ولذا جعله مستديرا ، لأن المستدير أبعد من الآفات بالقياس إلى ذي الزاوية ، وأعظم مساحة منه مع تساوي إحاطتهما ، وجعل استدارته إلى طول ، لأن منابت الأعصاب الدماغية موضوعة في الطول ، فلو لم يتسع منبتها لازدحمت وانضغطت ، وألف قحفه (٧٣) من ستة أعظم : اثنان بمنزلة السقف وأربعة بمثابة الجدران ، ووصل بعضها ببعض بالدروز والشؤون ، وجعل الجدران أصلب من اليافوخ الذي هو السقف ، لأن الصدمات عليها أكثر ، وتخلخل اليافوخ مما لا بد منه لخروج الأبخرة المتحللة (وعدم ثقله على الدماغ) (٧٤) وفائدة الدروز أن تخرج منها الأبخرة المتحللة في الدماغ لئلا يؤدي مكثها إلى الصداع وغيره من الأمراض الدماغية ، وجعل أصلب الجدران مؤخرها لأنه غائب عن البصر فلا يحرسه فاحتاج إلى زيادة وثاقه . وخلق فيها الدماغ لينا دسما ، لتنطبع فيه المحسوسات بسهولة ، ولتكون الأعصاب النابتة منه لزجة لئلا تنكسر ، وجعل مزاجه رطبا باردا لتنفعل القوى المودعة فيه عن مدركاتها ، ولئلا يشتعل بالحرارة الحاصلة عن الحركات
(هامش)
)
٧٣) القحف : العظم فوق الدماغ وما انفلق من الجمجمة فبان قال في القاموس : ولا يدعى قحفا حتى يبين أو ينكسر منه شيء
(٧٤) هذه الجملة مطابقة لنسختنا الخطية والمطبوعة ، لكنها غير موجودة في النسخة الخطية الأخرى . (*)

ص ١٧٠
الفكرية ، وجعل مقدمه الذي هو منبت الأعصاب الحسية ألين من مؤخره الذي هو منبت أعصاب الحركة ، لأن الحركة لا تحصل إلا بالقوة ، والقوة إنما تحصل بالصلابة . ثم جلل الدماغ بغشاءين : (أحدهما) رقيق لين ملاصق لجوهره ، و(ثانيهما) غليظ صلب ملاصق للقحف ، وهو مثقب بثقب كثيرة لاندفاع الفضول منه ، وانشعبت منه شعب دقاق تصعد من دروز القحف إلى ظاهره ، ليتشبث بها هذا الغشاء بالقحف ولا ينفصل عنه ، وجعل بين جزئي الدماغ المقدم والمؤخر حجابا لطيفا ليحجب عن مماسة الألين بالأصلب فيتأذى منه ، وخلق تحت الدماغ بين الغشاء الغليظ والعظم نسيجه (٧٥) شبيهة بالشباك ، وقد تكونت من الشرايين الصاعدة من القلب والكبد إلى الدماغ ، وقد فرشت هذه الشبكة تحت الدماغ ، ليبرد فيها الدم الشرياني والروح ، ويتشبه بالمزاج الدماغي بعد النضج ، ثم يتخلص إلى الدماغ على التدريج ، ولولاه لم يصلح الدم الكبدي والروح القلبي الكثرة حرارتهما لتغذية الدماغ ، ولم يناسبا جوهره ، وجعل الفرج التي بين فروع هذه الشريانات محشوة بلحم غددي لئلا تبقى خالية ، ولتعتمد عليه تلك الفروع وتبقى على أوضاعها . ثم لما كان الدماغ مبدأ الحس والحركة . ولم يكن لسائر الأعضاء حس وحركة بذاتها ، وكان اللازم إيصالهما منه إليهما ، ولم يكن ذلك ممكنا بدون واسطة في الايصال ، فخلق (الأعصاب) من جوهره ، ووصلها منه إلى سائر الأعضاء من العظام وغيرها ، ليفيدها الدماغ بتوسطها حسا وحركة ، وليشد ويتقوى بها اللحم والبدن ، وأيضا لم يجعلها متصلة بالعظم مفردة ، بل بعد اختلاطها باللحم والرباط ، لئلا يتأذى من صلابته .

ثم لما كان نزول جميع الأعصاب التي يحتاج إليها من الدماغ موجبا لثقل الرأس وعظمه ، خلق الله من جوهر الدماغ أشبه شيء به وهو (النخاع) وجعل في أسفل القحف ثقبا وأخرجه منها ، وخصه بالعنق والصلب ، وأخرج منه كثيرا من الأعصاب المحتاج إليها إلى الأعضاء . فالدماغ بمنزلة العين والينبوع للحس والحركة ، والنخاع بمثابة النهر النهر العظيم الجاري منه

(هامش)
(٧٥) الموجود في نسختنا الخطية فسحة بل (تسيجة) . (*)

ص ١٧١
والأعصاب كالجداول . والمنبع ألين من النهر والنهر ألين من الجداول . ثم انظر - يا حبيبي - كيف خلق (العين) وفتحها وأحسن شكلها ولونها وهيئتها ، ورتب لها سبع طبقات وثلاث رطوبات كل منها على شكل خاص ولون مخصوص ، لو تغير شيء منها عما عليه لاختل أمر الأبصار ، وتأمل كيف أظهر في حدقتها التي بمقدار العدسة صورة السماء مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها ، وحماها بالأجفان ليسترها ويحفظها ويصقلها ، وجعلها وقاية لها يدفع بها الأقذاء عنها ، ويمنعها عن وصول الغبار والدخان والشعاع إليها عند انطباقها ، وجعل الجفن الأسفل أصغر من الأعلى ، لأن الأعلى يستر الحدقة تارة ويكشفها أخرى لتحركه ، وأما الأسفل فغير متحرك ، فلو زيد على هذا القدر يستر شيئا من الحدقة دائما ، ويجتمع فيه الفضول ولا تسيل . ثم زين الأجفان بـ(الأهداب) ليمنع من الحدقة بعض الأشياء التي لا يمنعها الأجفان مع انفتاح العين - كما ترى عند هبوب الرياح التي يأتي بالأقذاء - فيفتح العين أدنى فتح ، وتتصل الأهداب الفوقانية بالسفلانية ، فيحصل شبه شباك ينظر من وراءه ، فتحصل الرؤية مع دفع القذى . ثم انظر كيف شق (الأذن) وأودعها ما يحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها ، وجعل ثقبها محاطة بصدفة مرتفعة لئلا تتأذى من البرد والحر وغيرهما مما يؤذي ، وليجتمع فيها الهواء المتحرك من الأصوات فينفذ فيها ويحرك الهواء الذي في داخلها ويموجه - كما ترى من دوائر الماء إذا وقع فيه شيء - حتى يصل إلى العصبة المفروشة على الصماخ التي فيها قوة السمع ، فيدرك الصوت . وجعل في منفذها تجويفات واعوجاجات كثيرة لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقها ، فيتنبه صاحبها إذا قصدته دابة مؤذية فيدفع شرها وخلق فيها جرما نتنا عفنا لتنفر عنه الدواب المؤذية ولا تدخلها . ثم تأمل كيف زين الوجه بـ(الحاجبين) وحسنهما بدقة الشعر واستقواس الشكل .

وزين وجه الرجل بـ(اللحية) ووجه المرأة بعدمها ، والمتأمل يعرف إن اللحية زين للرجل وشين للمرأة ، وهذا من عجائب الحكمة . وزين الوجه برفع (الأنفس) من وسطه ، وحسن شكله وفتح منخريه ، وأودع فيهما حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ،

ص ١٧٢
وليستنشق الهواء الطيب الصافي ، ويدفع الهواء الحار الدخاني ، ترويحا لقلبه ، وجعل له منخرين لتميل الفضلات النازلة من الدماغ

غالبا إلى أحدهما ، ويبقى الآخر مفتوحا ، فلا تسد طرق الاستنشاق بأسرها . ثم أنظر إلى (الفم) وعجائبه وإلى اللسان وغرائبه ، فإنه سبحانه لعظيم قدرته وحكمته فتح الفهم ، وأودعه اللسان وجعله ناطقا معربا عما في القلب ، ومكنه من التكلم باللغات المتخالفة وتقطيع الأصوات وإخراج الحروف المتباينة ، وجعل له قدرة على الحركة في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع طريق النطق بكثرتها . وخلق (الفكين) وركب فيهما الأسنان لتكون آلة للطحن والقطع والكسر ، فأحكم أصولها ، وحسن لونها ، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب ، كالدرر المنظومة ، مختلفة الأشكال باختلاف الأغراض والمقاصد ، متفاوتة الأوضاع بتفاوت الغايات والفوائد ولما كان الطعام يحتاج تارة إلى الكسر وتارة إلى القطع وأخرى إلى الطحن . فقسم الأضراس إلى عريضة طواحن كالأضراس ، وإلى حادة قواطع كالرباعيات ، وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب . والأضراس التي في الفك الأعلى لما كانت معلقة جعل أصولها ثلاثة أو أربعة ، والتي في الفك الأسفل اكتفى في أصولها باثنين أو ثلاثة لعدم الاحتياج ، وجعل لسائر الأسنان أصلا واحدا لعدم ثقل فيها . ثم جعل مفصل (الفكين) متخلخلا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى ، وهو ثابت لا يتحرك ، فيتم الطحن بذلك . فانظر في عجيب صنع الله في هذه الرحى حيث يدور الأسفل . منها على الأعلى على خلاف سائر الأرحية ، لدوران الأعلى منها على الأسفل .

والحكمة في تحرك الأسفل دون الأعلى : إن الأعلى مجمع الدماغ والحواس ، فتحركه كان موجبا لأذيتهما واضطرابهما ، وأيضا هو مفصل الرأس والعنق ، فلو تحرك لم يستحكم ، مع أن الوثاقة فيه لازمة . ثم لما كان مضغ الطعام محتاجا إلى تحركه فيما تحت الأسنان ، فأعطى الله سبحانه قدرة اللسان على أن يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة . ولما كان الطعام يابسا فلم يمكن ابتلاعه إلا بنوع رطوبة ، فخلق تحت اللسان عينا جارية يفيض منها اللعاب وينصب

ص ١٧٣

بقدر الحاجة ، حتى يعجن به الطعام ويقدر على ابتلاعه . ثم تفكر كيف خلق (الحناجر) وهيأها لخروج الأصوات ، وجعلها مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والطول والقصر وصلابة الجوهر ورخاوته ، حتى اختلفت بها الأصوات ، فلا يتشابه صوتان ، بل يظهر به بين كل صوتين فرق حتى يميز السامع أصوات آحاد الناس بمجرد سماعها في الظلمة والغيبة . ثم مد (العنق) وجعله مركبا للرأس ، وركبه من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تجويفات وزيادات ونقصان ، لينطبق البعض على البعض ، ولما كان أكثر منافعه في الحركة جعل مفاصله سلسلة ، ولم يجعل زوائدها المفصلية كبيرة كزوائد فقرات الصلب ، لتكون حركاته أسرع ، وتدارك تلك السلاسة بأعصاب وعضلات كثيرة محيطة به . ثم انظر إلى عجائب (المعدة) وآلاتها التي يتم بها الأكل ، فجعل سطح الفم متصلا بفم المعدة بحيث كأنهما سطح واحد ، حتى يحصل أولا نوع انهضام بالمضغ ، ثم هيأ (المرئ) (٧٦) والحنجرة ، وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يهوي الطعام من دهليز المرئ إلى المعدة ، وإذا ورد عليها لا يصلح لأن يصير عظما ولحما ودما على هذه الهيئة ، بل لا بد أن ينطبخ انطباخا تاما تتشابه أجزاؤه ، فخلق الله المعدة على هيئة قدر يقع فيه الطعام وتنغلق عليه الأبواب ، وخلق فيها حرارة صالحة للطبخ ، ومع ذلك جعلها محاطة من جوانبها الأربعة بالحرارة المنبجسة من الكبد والطحال والترب ولحم الصلب ، فمن هذه الحرارات ينطبخ الطعام في المعدة وينهضم ، حتى يصير كيلوسا (٧٧) أي جوهرا سيالا ليشبه ماء الكشك (٨٧) الثخين . ثم خلق الله بعظيم حكمته ورأفته لإيصال صفو ما طبخ في المعدة إلى الكبد قسمين من العروق : (أحدهما) العروق المخلوقة في تحت المعدة المتصلة

(هامش)

)

٧٦) هو الخرطوم المتصل بالأوداج الأربعة إلى الحنجرة . (٧٧) كلمة يونانية ، المراد منه هو الطعام المطبوخ في المعدة طبخا ناقصا (٧٨) ماء الكشك : هو ماء الشعير . (*)

ص ١٧٤

بالمعاء المسماة بـ(ماساريقا) (٧٩) ، وجعل لها فوهات كثيرة لينصب لطيف المطبوخ فيها ، و(ثانيهما) العرق المسمى بباب الكبد النافذ فيه بعد تفرقه بعروق شعرية ليفية منتشرة في أجزائه ، وجعل الماساريقا متصلة بباب الكبد فإذا انصب خالص الكيلوس في

الماساريقا يوصله إلى باب الكبد ، وينصب منه إلى العروق الليفية المتفرقة في جهر الكبد ، فتستولي قوة الكبد على هذا الكيلوس ، بحيث يلاقي كله كله ، ولذا يصير فعله فيه أشد وأسرع ، فيمتصه ويجذبه إلى نفسه فيطبخه ويفيده الحرارة والحمرة ، حتى ينصبغ بلون الدم ، ومن هذا الطبخ يحصل شيء كالرغوة وهي (الصفراء) ، وشيء كالدودي وهو (السوداء) ، وشيء كبياض البيض وهو (البلغم) ، وهو كما يتكون من هذا الطبخ يتكون من الطبخ الأول أيضا ، وقد يصير شيء من هذا البلغم إلى الكبد مع عصارة الطعام ، ويبقى المتصفي من هذه الجملة دما ناضجا ذا رطوبة مائية منتشرة في العروق الشعرية ، فلو بقيت الصفراء والسوداء والبلغم والمائية مختلطة بالدم ولم تنفصل عنه لفسد مزاج البدن ، فخلق الله بحكمته الكليتين والمرارة والطحال ، وجعل لكل منهما عنقا ممدودا في الكبد ، وجعل عنقي الآخرين داخلا في تجويف الكبد ، ولم يجعل عنقي الكليتين داخلا في تجويفه ، بل جعلهما متصلين بالعروق الطالعة من حدبة الكبد حتى يجذبا مائيته بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد ، إذ لو اجتذبت قبل ذلك لغلظت ولم تخرج بسهولة عن العروق الدقيقة الشعرية .

ثم إذا انجذبت المائية من جانب محدب الكبد من طريق العروق الطالعة منه إلى الكليتين ، حملت مع نفسها من الدم ما يكون صالحا كما وكيفا لغذائهما فتغذوان الدسومة والدموية من تلك المائية ، ويندفع باقيها إلى المثانة ومنها إلى الإحليل . وأما (المرارة) فتأخذ الرغوة الصفراوية من محدب الكبد بعنقها الذي اتصل بالكبد ، وتقذفها من منفذ آخر لها إلى الأمعاء ، ليلذعها بحدتها فتحركها على دفع الأثقال التي بقيت من الكيلوس بعد ذهاب صفوه إلى الكبد ، فينضغط حتى تندفع منها الأثقال ، وبخروجها تخرج تلك الرغوة الصفراوية ، وصفرتها لذلك . وأما (الطحال) فيأخذ بعنقه المتصل

(هامش)

(٧٩) أي العروق تحت المعدة المتصلة بالمعاء . والكلمة يونانية . (*)

ص ١٧٥

بمحدب الكبد منه الرسوب السوداوي ويحيله حتى يكتسب قبضا وحموضة ثم يرسل منه في كل يوم شيئا إلى فم المعدة لتتنبه بالجوع ، فيحرك الشهوة بحموضته وقبضه ، ثم يخرج بخروج الثفل أيضا . وأما (الدم) فيتوجه إلى الأعضاء ويتوزع عليها في شعب العرق الأجوف العظيم الثابت من محدب الكبد ، فيسلك في الأوردة المتشعبة منه في جداول ، ثم في سواقي الجداول ، ثم في رواضع السواقي ، ثم في العروق الشعرية الليفية ، ثم يترشح من فوهاتها في الأعضاء بتقدير خالق الأرض والسماء . ومما ذكر ظهر أنه لو حدث بواحد من المرارة والطحال والكليتين آفة ، فسد الدم وحصلت أمراض الخلط الذي يجذبه من الكبد ، فلو عرضت آفة بالمرارة حدثت الأمراض الصفراوية ، ولو حلت آفة بالطحال حصلت أمراض سوداوية ، ولو لم تندفع المائية إلى الكلى بعروض آفة لها حصل مرض الاستسقاء . وأما (البلغم) فما يتكون في الكبد أو يصير إليه مع عصارة الطعام انهضم فيه وصار دما ، وما بقي منه في الأمعاء ولم يخدر إلى الكبد انغسل بمرة الصفراء التي شأنها تنقية الأمعاء من الفضول بحرافتها وحدتها وسيلانها ، ومن البلغم ما يبقى في البدن لاحتياجه إليه في حركة المفاصل وترطيب الأمعاء ومنه ما يخرج من الفم بالقئ والبصاق أو يخدر من الرأس إلى الفم ويخرج منه بالتنخع . ثم انظر - يا أخي - في (القلب) وعجائبه ، حيث خلقه جسما صنوبريا وجعله منبعا لروح الحياة ، ولذا خلقه صلبا ليكون محفوظا من الوارادت ، وجعل هذا الروح جرما حارا لطيفا نورانيا شفافا ، وجعله مطية للنفس وقواها ، وأناط به حياة الإنسان وبقاءه ، فيبقى ببقائه ويفنى بفنائه ، فكل عضو يفيض عليه من سلطان نوره يكون حيا ، وإلا كان ميتا ، ولذا لو حصل بعضو سدة مانعة من نفوذه فيه بطل حسه وحركته . ويتوزع هذا الروح من القلب الذي هو منبعه إلى سائر الأعضاء العالية والسافلة ، بوساطة سفراء الشرايين والأوردة .

فما يصعد منه إلى الدماغ بأيدي خوادم الشرايين ويعتدل بكسب البرودة من جوهر الدماغ ، ثم يفيض على الأعضاء المدركة

ص ١٧٦

والمتحركة منبثا في جميع البدن ، يسمى (روحا نفسانيا) . وما ينزل بصحابة أمناء الأوردة إلى الكبد الذي هو مبدأ القوى النباتية ، ومنه يتفرق إلى سائر الأعضاء ، يسمى (روحا طبيعيا) . وقد خلق الله سبحانه هذا الروح من لطائف الأمشاج الأربعة ، كما خلق الأعضاء من كثائفها . وهذا الروح مثاله جرم نار السراج ، والقلب الذي محله كالمسرجة له ، والدم الأسود الذي في باطن القلب ويتكون هذا البخار اللطيف منه بمنزلة الفتيلة له ، والغذاء له كالزيت ، والحياة الظاهرة في جميع أجزاء البدن بسببه كالضواء للسراج في

جملة البيت ، وكما إن السراج إذا انقطع زيته انطفأ ، فسراج الروح أيضا ينطفئ مهما انقطع غذاؤه ، وكما إن الفتيلة قد تحترق وتصير رمادا بحيث لا تقبل الزيت ، فكذلك الدم الأسود الذي في باطن القلب قد يحترق بحيث لا يقبل الغذاء الذي تبقى الروح به ، كما لا يقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به ، وكما إن السراج ينطفئ تارة بسبب من داخل - كما ذكرنا - وتارة بسبب من خارج ، كهبوب ريح أو إطفاء إنسان ، فكذلك انطفاء الروح تارة يكون بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج ، كالقتل ، وكما إن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده كذلك انطفاء الروح هو منتهى وقت وجود الإنسان ، وهو أجله الذي أجل له في أم الكتاب . وكما إن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله كذلك الروح إذا انطفأ أظلم البدن كله ، وفارقته أنواره التي كان يستفيدها من الروح ، وهي أنوار الاحساسات والقدرة والإرادات وسائر ما يجمعها معنى الحياة .

ثم انظر - يا حبيبي - إن كنت من أهل اليقظة في (اليدين) وحكمتهما ، حيث طولهما لتمتدا إلى المقاصد ، وعرض الكهف ووضع عليها الأصابع الخمس ، وقسم كل إصبع بثلاث أنامل ، وجعل الإبهام في جانب ، والبواقي في جانب ، ليدور عليها ، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهان آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام من الأربع وترتبها في صف واحد وتفاوتها في الطول والقصر ، على أن يكون هذا الوجه أزين وأصلح منه أو مثله وشبهه في الزينة والمصلحة لم يقدروا عليه ، إذ بهذا الترتيب صلحت للقبض والإعطاء ، فإن بسطتها كانت

ص ١٧٧

لك طبقا تضع عليها ما تريد ، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب ، وإن نشرتها ثم ضممتها كانت آلة للقبض ، وإن ضممتها ضما غير نام كانت لك مغرفة ، وإن وضعت الإبهام على السبابة كانت لك مخرقة ، وإن بسطت الكف مع اتصال الأصابع كانت لك مجرفة . وإن بسطت الكف وجمعت عليها الأصابع كانت لك محرزة ، إلى غير ذلك من المنافع . ثم خلق (الأظفار) على رؤوسها ، زينة للأنامل وعمادا لها من ورائها ، حتى لا تنفت ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة ، فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وحدثت به حكة لكان أضعف الخلق وأعجزهم ، ثم هدى (اليد) إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في حالة النوم والغفلة ، من غير حاجة إلى فحص وطلب ، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك . ثم خلق (الرجلين) مركبتين من الفخذ والساق والقدم ، كل منها على شكل خاص وتركيب خاص ، ليتحرك بهما الإنسان إلى أي موضع أراد ، ولو تغير شيء من الشكل أو الوضع أو التركيب في جزء من أجزائهما لاختل أمر الحركة ، ووضع عليهما جملة البدن وجعلهما دعامة وأساسا له وحاملين لثقله ، مع خفتهما وصغر جثتهما بالنسبة إليه ، إذ حسن التركيب وسهولة الحمل والحركة في مثل هذا الخلق لا يتصور بدون ذلك . فانظر في عجيب حكمة ربك حيث جعل الأخف والأدق والأصغر أساسا وحاملا للأثقل والأغلظ والأكبر ، مع إن كل بناء يكون أساسه أكبر وأغلظ مما يبنى عليه ، وكل حامل يكون أعظم جثة من المحمول ، فسبحانه من خالق لا نهاية لعجائب حكمته وغرائب قدرته . ثم خلق جميع ذلك في النطفة في جوف الرحم في ظلمات ثلاث ، ولو كشف عنها الغطاء وامتد إليها البصر ، لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئا فشيئا ، ولا يرى المصور ولا آلته ، فسبحانه من مصور فاعل يتصرف في مصنوعه من دون احتياج إلى مباشرة آلة ولا افتقار إلى مكادحة عمل .

تذنيب

ثم تأمل - أيها المتأمل - في عجائب حكم ربك : إنه لما كبر الصبي

ص ١٧٨

وضاق عنه الرحم كيف هداه السبيل إلى الخروج حتى تنكس وتحرك ، وخرج من ذلك المضيق كأنه عاقل بصير ، ولما خرج وكان محتاجا إلى الغذاء ولم يحتمل بدنه الأغذية الكثيفة للينه ورخاوته خلق له اللبن اللطيف ، واستخرجه من بين الفرث والدم ، خالصا سائغا ، وخلق الثديين وجمع فيهما هذا اللبن ، وأنبت منهما الحلمة على قدر ما ينطبق فم الصبي ، وهداه إلى التقامها ، وفتح فيها ثقبا ضيقة جدا ، حتى لا يخرج اللبن إلا بعد المص تدريجا ، لأن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ، ثم هداه إلى الامتصاص حتى يستخرج من مثل هذا المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ، وأخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين ، لأنه لا يحتاج فيهما إليها لتغذيه باللبن ، وما دام مغتذيا به لما كان في دماغه رطوبة كثيرة سلط عليه البكاء ، لتسيل به تلك الرطوبة ، فلا تنزل إلى بصره أو إلى غيره من

أعضائه فتفسده . ثم لما كبر ولم يوافقه اللبن السخيف وافتقر إلى الأغذية الغليظة المحتاجة إلى المضغ والطحن أنبت له الأسنان عند الحاجة من دون تقديم وتأخير ، وحنن عليه قلوب الوالدين بالقيام على تربيته وتكفل حاله ما دام عاجزا عن تدبير نفسه . ثم رزقه الإدراك والفهم والقدرة والعقل على التدريج حتى بلغ ما بلغ ، وأودع في نفسه المجردة وقواها الباطنة أسرارا عجيبة تحير طوامح العقول وتدهش منها نواقب الأنظار والفهوم . فانظر إلى قوة الخيال بعرضيتها الغير المنقسمة كيف تطوى السماء والأرض وتتحرك من المغرب إلى المشرق في آن واحد ، وإلى قوة الوهم كيف تستنبط كثرة المعاني الجزئية في لحظة واحدة ، وتأخذها من حواق الأشياء ، وإلى المتخيلة كيف تركب بعضها بالبعض وتأخذ منها ما فيه الصلاح والرشاد في أمر المعاش والمعاد .

ثم انظر في عجائب النفس وعالمها : من إحاطتها بالبدن كله وتدبيرها له ، مع تنزهها عن صقع المكان واتصافها بالعلم والقدرة وسائر الصفات الكمالية ، وتمكنها من الإحاطة على حقائق الأشياء بأسرها ، وتصرفها في الملك والملكوت بقوتها العقلية والعملية ، ومع ذلك عاجزة عن معرفة ذاتها وحقيقتها ، ومن تطوراتها في الأطوار المختلفة ، وتقلبها في النشآت المتباينة ، وترقياتها بحسب درجاتها ومقاماتها ، من لدن تعلقها بالنطفة القذرة إلى صيرورتها عالما ربانيا

ص ١٧٩

محيطا بحقائق الأشياء متصلا بالملكوت الأعلى ، ومن اجتماع عوالم السباع والبهائم والملائكة والشياطين فيه (٨٠) ، وإطاعة جميع الموجودات له ، حتى السباع تخضع لديه والطيور تخفض أجنحة الذل بين يديه ، ويستخدم الجن ويسخر الكواكب وروحانيتها ، ومن عجائب عالمه الطبع الموزون والصوت الحسن ، وعلمه بصناعة الموسيقى ، واستنباطه أنواع صنائع الأرض ، وقد يتعدى إلى عالم العجيبة والحرف الغريبة . ومنها أمر الرؤيا وإخباره بالمغيبات لاتصاله بالجواهر الروحانية ، وتأثيره في مواد الأكوان ينزع صورة وإلباس أخرى ، فيؤثر فانقطاعه إلى الله في استحالة الهواء إلى الغيم ونزول الأمطار ، وإزالة أنواع الأمراض ، وإهلاك قوم وإنجائهم ، وتمكنه من فعل أو تحريك يخرج عن وسع مثله ، وإمساك عن القوت مدة غير معتادة ، واقتداره على إظهار بدنه المثالي في مواضع مختلفة في وقت واحد ، وإحضاره ما يريده من المطاعم والملابس ، ومصاحبته مع الملائكة وأخذ العلوم . فانظر - يا أخي - إن كنت من أهل اليقظة إلى قدرة ربك العظيم حيث أودع جميع ذلك فيما عرفت حاله من النطفة السخيفة القذرة ، وهذه النطفة هي التي قد تصير ملكا شديد الهمة والبطش مسخرا للربع المسكون ، بحيث ينوط به انتظام النوع واختلاله ، وقد يصير بحيث تظهر منه خوارق العادات وغرائب المعجزات في عالم الأرض ، وقد يتعدى إلى عالم الأفلاك ، فينشق القمر ويرد الشمس .

وليت شعري إن الناس كيف يتعجبون من صيرورة الميت حيا ، مع أنه جثته كانت موجودة وإنما أفيض عليه مجرد حس وحركة ، ولا يتعجبون من بلوغ قطرة ماء قذرة إلى المراتب التي عرفتها ، وليس المنشأ لذلك إلا كثرة مشاهدتهم وتكرر ملاحظتهم له ، مع أن هذا لا يدفع العجب والغرابة لو نظروا بعين العبرة والبصيرة ، إذ منشأهما إما عظم الصنع وحسن الابداع ، فهما في بلوغ النطفة إلى المراتب المذكورة أقوى وأشد من إحياء ميت ، أو دلالة هذا الصنع والفعل على صانع حكيم وفاعل عليهم ، فلا ريب أيضا في

(هامش)

(٨٠) تذكير الضمير هنا وفيما يأتي باعتبار الإنسان ، وتقدم مثله ص (١١) . (*)

ص ١٨٠

إن دلالة الأول على ذلك أشد من دلالة الثاني عليه ، إذ كل من رزق أدنى حظ من البصيرة يعلم أن بلوغ قطرة ماء قذرة إلى المراتب المذكورة ليس إلا من قدرة قادر حكيم وصنع صانع عليم ، أو من حدوث الفعل من دون مشاهدة سبب مباشر ، فهذا في أمر النطفة أظهر ، وعلى أي تقدير كان يكون التعجب والغرابة في بلوغ النطفة السخيفة القذرة إلى المراتب المذكورة أشد وأحرى من التعجب في إحياء ميت أو إبراء أكمه أو أبرص أو تكلم حيوان أو نبات أو جماد أو غير ذلك من خوارق العادات وغرائب المعجزات ، فالنظر الذي لا يقتضي منه العجب إنما هو نظرة حمقاء لم ينشأ عن حقيقة الروية والاتقان ولم يصدر عن ذي قلب يقظان . وبالجملة : الحكم والعجائب المودعة في النشأة الإنسانية أكثر من أن تحصى ، وإنما أشرنا إلى نبذة قليلة منها تبصرة لمن استبصر ، وتنبيها على كيفية التفكر في سائر مجاري الفكر والنظر قال الإمام أبو عبد الله الصادق (ع) : إن الصورة الإنسانية أكبر حجة لله على خلقه ، وهي الكتاب الذي كتبه بيده ، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته ، وهي مجموع صور العالمين ، وهي المختصر من العلوم في اللوح المحفوظ ، وهي الشاهد على

كل غائب ، وهي الحجة على كل جاحد ، وهي الطريق المستقيم إلى كل خير ، وهي الصراط الممدود بين الجنة والنار . * * * وإذ عرفت نبذا من عجائب نفسك وبدنك ، فقس عليه عجائب الأرض التي هي مقرك : بوهادها وتلالها وسهلها وجبالها وأشجارها وأنهارها بحارها وأزهارها وبرارها وعمارها ومدنها وأمصارها ومعادنها وجمادها وحيوانها ونباتها ، فإن كل ما نظرت إليه منها لو تأملته لوجدته مشتملا على غرائب حكم لا تعد وعجائب مصالح لا تحد ، ولرأيته آية باهرة على عظمة مبدعه وحجة قاطعة على جلالة موجده .

فانظر - أولا - إلى (رواسي الجبال) وشوامخ الصم الصلاب ، كيف أحكم بها جوانب الأرض وأودع المياه تحتها ، فانفجرت من هذه الأحجار اليابسة والتربة الكدرة عذبة صافية ، وأودع فيها الجواهر النفيسة العالية وهدى الناس إلى استخراجها واستعمالها فيما ينبغي ، وخلق في الأرض معادن

ص ١٨١

يحتاج إليها نوع الإنسان ، ولو فقد واحدا منها لم يتم انتظامه ، ولم يترك معمورة لم يكن في قربها هذه المعادن ، وجعل ما يكون الاحتياج إليه أشد وأكثر أعم وجودا وأقرب مسافة ، كالملح ومثله . ثم انظر إلى (أنواع النبات) بكثرتها واختلافها في الأشكال والألوان والطعوم والروائح والخواص والمنافع ، فهذا يغذي ، وهذا يقوي ، وهذا يقتل ، وهذا يحيي ، وهذا يسخن ، وهذا يبرد ، وهذا يجفف ، وهذا يرطب وهذا يسهر ، وهذا ينوم ، وهذا يحزن ، وهذا يفرح . . إلى غير ذلك من المنافع المختلفة والقوائد المتباينة ، مع اشتراكها في السقي من ماء واحد ، والخروج من أرض واحدة . (

فإن قلت) : اختلافها لاختلاف بذورها ، (قلنا) : متى كانت في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ؟ ومتى كانت في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ؟ وانظر إلى كل شجره ونبت إذا أنزل عليها الماء كيف يهتز ويربو وخضر وينمو بجميع أجزائه من الأصول والأغصان والأوراق والأثمار على نسبة واحدة ، من غير زيادة لجزء على آخر ، لوصول الماء إليها على نسبة واحدة وقسمته عليها بالسوية ، فمن هذا القاسم العدل في فعل ما ليس له شعور ولا إدراك ؟ فتبا لأقوام يسندون هذه الحكم المتقنة الظاهرة والمصالح المحكمة الباهرة إلى ما لا خبر له بوجوده وذاته ولا بأفعاله وصفاته ! ثم انظر إلى (أنواع الحيوانات) وأصنافها وكثرتها واختلافها : من الطيور والوحوش والسباع والبهائم ، كيف هدى الله كل واحد منها إلى ترتيب المنزل وتحصيل القوت ، وجعل ما لا يتم معاش الإنسان بدونه من الأنعام والبهائم مأنوسا به غير متوحش عنه ، وغيره وحشيا عنه غير ألف به ، وجعل في كل منها من عجائب الحكم وغرائب المصالح ما تتحير منه العقول ، فمن ذا الذي يقدر أن يحيط بعجائب خلق العنكبوت والنحلة - بل البقة والنملة - وغرائب أفعالها مع كونها من صغار الحيوانات ، من وضع منازلها وجمع أقواتها وادخارها لنفسها وهدايتها إلى حوائجها ؟ فأي مهندس يقدر على رسم بيوت النحل والعنكبوت على هذا التناسب الهندسي ؟ وانظر كيف جعل العنكبوت بيته شبكة ليصيد بها البق والذباب . ج : ١

ص ١٨٢

وبالجملة : كل شخص من الحيوان أودع فيه من العجائب ما لا يمكن وصفه ، وكل أحد إنما يدرك قدر ما يصل إليه فهمه . ثم انتقل من عالم الأرض إلى (عالم البحر) وعجائبه من الحيوانات والجواهر والنفائس ، فإن العجائب المودعة فيه أضعاف عجائب الأرض ، كما أن سعته أضعاف سعته ، وكل حيوان يوجد في الأرض يوجد فيه ، وفيه حيوانات أخر ليس لها نظير في البر أصلا ، وقد يوجد فيه من الحيوانات ما عظمه بقدر جزيرة عظيمة ، وكثيرا ما ينزل الركبان عليه فيتحرك . ومن عجائبه خلق اللؤلؤ في صدفة تحت الماء ، وإنبات المرجان من صم الصخور تحته ، مع كونه على هيئة شجرة ثابتة نامية . . . وقس عليه الغير وسائر النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه . وبالجملة : عجائب البحر أضعاف عجائب البر ، وقد صنف جماعة فيها مجلدات من الكتب ، ومع ذلك لم يأتوا إلا باليسير ، ولم يذكروا إلا قليلا من كثير . ثم انتقل إلى (عالم الجو) وعجائبه من السحب والغيوم والأمطار والثلوج والشهب والبروق والصواعق والرعود ، فانظر إلى السحاب الخفيف مع رخاوته كيف يحمل الماء الثقيل ويسكن في جو صاف لا يتحرك إلا أن يأذن الله سبحانه في إرساله الماء ، وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي شاء وأراد ، فينزل قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها أخرى ، ولا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم ، حتى يصيب الأرض قطرة قطرة ، وعين كل قطرة لجزء من الأرض أو قوتا لحيوان معين ، ولو كنت - يا حبيبي - ذا قلب لشاهدت في كل قطرة خطا إلهيا مكتوبا بقلم إلهي : إنه يصيب الجزء الفلاني من الأرض ، أو رزق للحيوان الفلاني في الموضع الفلاني . * * * ثم ارفع رأسك إلى هذا (السقف الأخضر) قائلا : سبحانك ! ما خلقت هذا باطلا .

وانظر إلى هذه الأجرام النورية وعجائبها ، واصرف برهة من وقتك في الفحص عن حقائق غرائبها : من الشمس وإضاءتها عالم الأكوان ، والقمر واختلاف تشكلاته في الزيادة والنقصان ، وسائر الأنجم الدائرة ، والكواكب الثابتة والسائرة ، واختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها
ص ١٨٣
وأوضاعها ، وتفاوت مشارقها ومغاربها ، وتباين منازلها ومواضعها ، واجتماعها واتصالها ، وتفرقها وانفصالها ، وطلوعها وأفولها ، وكسوفها وخسوفها ، وانتظام حركاتها واتساق دورانها ، وحسن وضعها وترتيبها وعجيب نضدها وترصيعها ، بحيث حصل من كيفية نضدها ووضعها صور جميع الحيوانات : من العقرب والحمل والثور والجدي والانسان والحوت والسرطان ، بل صور غير الحيوان : من السنبلة والميزان والقوس والدلو وغير ذلك ، حتى ما من صورة في الأرض إلا ولها تمثال في السماء ، أيظن عاقل أن وضع هذه الكواكب على هذه الصورة واختلاف بعضها في اللون : ككمودة زحل ، وحسرة المريخ ، وقلب العقرب ، وصفرة عطارد ، ورصاصية الزهرة والمشتري بمجرد الاتفاق ، وليس لخالقها في ذلك حكمة ومصلحة ؟ فما أشد جهلا وحمقا من توهم ذلك ! ثم انظر إلى حركة (الشمس) يسير فلكها وإتمامها الدور بهذا السير في سنة ، وبه تقرب من وسط السماء وتبعد عنه ، وبسير آخر تطلع وتغرب في كل يوم ، وتتم الدور بيوم وليلة فلولا سيرها الأول الموجب لغاية قربها إلى وسط السماء مدة ، وغاية بعدها عنه تارة ، وتوسطها بين الغايتين مرتين ، ولم تحصل الفصول الأربعة الموجبة لنشو النباتات والثمار ونضجها وبلوغها إلى غاياتها المطلوبة ، ولولا سيرها الثاني لم يختلف الليل والنهار ، فلم يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة ، ولم تعرف المواقيت من الشهور والأعوام والساعات والأيام . وتأمل في أنه لو لم تكن السماوات مستديرة وحركاتها دورية ، لم يتم شيء من الفوائد والحكم المطلوبة من الحركة والزمان وما ارتبط بها من أمور العالم السفلي .

ثم انظر إلى عظم أقدار هذه الأجرام السماوية ، حتى لا قدر لجميع العوالم السفلية من الأرض والبحار وعالم الجو بالنسبة إليها ، فلا يمكن أن يقال جميع ذلك بالنسبة إليها ، بل بالنسبة إلى فلك الشمس فقط - مثلا - كنسبة قطرة إلى البحر المحيط ، وقد قال المهندسون : إن جرم كوكب الشمس فقط مائة ونيف وستون ضعف الأرض بجميعها ، بل قال بعضهم أكثر من ذلك ، ومع ذلك بينوا أن ثخن فلك المريخ ثلاثة أمثال غلظ فلك
ص ١٨٤
الشمس ، مع ما فيه من أفلاك الزهرة وعطارد والقمر والعناصر الأربعة ، ثم أصغر كوكب تراه في السماء هو مثل جميع الأرض ثماني مرات ، وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مثلا للأرض . ثم انظر مع هذا العظم إلى سرعة حركتها وخفتها ، فإن شدة سرعة حركتها مما لا يمكن دركها ، إلا أنك لا تشك في أن كل جزء من الفلك في لحظة يسيرة يسير مقدار عرض كوكب ، والزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه في غاية القلة . وقد علمت أن هذا الكوكب إما مثل الأرض مائة ونيف وستين مرة أو أكثر أو مائة وعشرين مرة أو مائة مرة ، والأقل قدرا أن يكون مثلها ثماني مرات ، فقد دار كل جزء من الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة وسبعين مرة أو مائة وعشرين مرة . وقد عبر روح الأمين عليه السلام عن سرعة حركة الفلك ، إذ قال سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - : هل زالت الشمس ؟ قال : لا . نعم ! فقال له : كيف تقول لا . نعم ! فقال : من حيث قلت : لا ، إلى أن قلت نعم ، سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام . فتيقظ - يا أخي - من نوم الطبيعة ، وتأمل من الذي حرك هذه الأجسام الثقيلة العظيمة بهذه الحركة السريعة الخفيفة ، وأدخل صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين يصغرها ، وتفكر من ذا الذي سخرها وأدار رحاها ، فقل : (بسم الله مجريها ومرسيها) ، ولو نظرت إليها بعين البصيرة لعلمت أنها عباد طائعون خاضعون ، وعشاق إلهيون والهون ، وبإشارة من ربهم إلى يوم القيامة رقاصون دائرون .

وبالجملة : لو نظرت بعين العبرة في ذرات الوجود لا تجد ذرة من ملكوت السماوات والأرض إلا وفيها غرائب حكمة يكل البيان عن وصفها ، ولو كان لك قلب وألقيت السمع وأنت شهيد ، لعلمت أن جميع ذرات الكائنات شواهد ظاهرة وآيات متظافرة على عظمة ربك الأعلى ، وما من ذرة إلا وهي بلسان حالها ناطقة وعن جلالة بارئها مفصحة ، قائلة لأصحاب الشهود بحركاتها وسكناتها ، ومنادية لأرباب القلوب بنغماتها : أوما تنظرون إلى خلقي وتكويني وتصويري وتركيبي واختلاف صفاتي وحالاتي وتحولي

ص ١٨٥
في أطواري وتقلباتي ؟ أولا تشاهدون كثرة فوائدي ومنافعي وغرائب حكمي ومصالحي ؟ أتظنون أني تكونت بنفسي أو خلقني أحد من جنسي ؟ أو تستحيون تنظرون في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف ، فتجزمون أنها صنعة آدمي مريد عالم ومتكلم قادر ، ثم تنظرون إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صات وجهي والعجائب الربانية المودعة في باطني وظاهري ومع ذلك عن عظمة ربي غافلون وعن علمه وحكمته ذاهلون ؟ ! تميم قد دريت إجمالا أن التفكر محصور بين التفكر في صفات الله وعجائب أفعاله ، والتفكر في ما يقرب العبد إلى الله ليفعله وفيما يبعده عنه ليتركه . وغير ذلك من الأفكار ليس نافعا ولا متعلقا بالدين . مثال ذلك : أن حال السائر إلى الله الطالب للقائه ، كحال العاشق المستهتر ، فكما أن تفكره لا يتجاوز عن التفكر في معشوقه وجماله وفي صفاته وأفعاله وفي افعال نفسه التي تقربه منه وتحببه إليه ليتصف بها ، أو التي تبعده عنه وتسقطه عن عينه ليتنزه عنها ، ولو تفكر في غير ذلك كان ناقص العشق ، كذلك المحب الخالص لله ينبغي أن يحصر فكره في الله وفي صفاته وأفعاله وفيما يقربه منه ويحببه إليه أو يبعده عنه ، ولو تفكر في غير ذلك كان كاذبا فيما يدعيه من الشوق والحب . ثم التفكر في ذات الله ، بل في بعض صفاته مما لا يجوز ، وقد منعته الشريعة الحقة الإلهية والحكمة المتعالية الحقيقية ، لأن ذاته أجل من أن تكون مرقى لأقدام الأفهام ، أو مرمى لسهام الأوهام ، فطرح النظر إليه يورث اختلاط الذهن والحيرة ، وجولان الفكر فيه يوجب اضطراب العقل والدهشة وبعض الصديقين المتجردين عن جلباب البدن لو أطاقوا إليه مد البصر فإنما هو كالبرق الخاطف ، ولو تجاوزوا عن ذلك لاحترقوا من سبحات وجهه .
وحال الصديقين في ذلك كحال الإنسان في النظر إلى الشمس ، فإنه وإن قدر على مد البصر إليها ، إلا أن إدامته يورث الضعف والعمش ، بل لا مشابهة بين الحالين ، وإنما هو مجرد تقريب وتفهيم ، فإن المناسبة بين نور الشمس ونور البصر في الجملة ثابتة ، وأين مثل هذه المناسبة بين نور البصر ونور
ص ١٨٦
الأنوار القاهر على كل نور بالإحاطة والغلبة ، وما من نور إلا وهو منبجس من نوره ومترشح عن ظهوره ، فكل نور في مرتبة نوره زائل ، وكل ظهور في جنب ظهوره وشروقه مضمحل باطل . ولما كان التفكر في ذاته تعالى مذموما ، فانحصر التفكر الممدوح في التفكر في عجائب صنعه وبدائع خلقه - وقد تقدم - وفي ما يرقب العبد إلى الله من الفضائل الخلقية والطاعات العضوية ، وما يبعده عنه من الملكات الباطنة والمعاصي الظاهرة . وهذه الملكات والأفعال هي المعبرة عنها بالمنجيات والمهلكات والطاعات والسيئات التي تذكر في هذا الكتاب وفي غيره من كتب الأخلاق ، والمراد بالتفكر فيها ههنا أن يتفكر العبد في كل يوم وليلة في وقت واحد أو أوقات متعددة في أخلاقه الباطنة وأعماله الظاهرة ، ويتفحص عن حال قلبه وأعضائه ومجتنبا عن الرذائل الباطنة ، ووجد أعضاءه ملازمة للطاعات والعبادات المتعلقة بها تاركة للمعاصي المنسوبة إليها ، فليشكر الله على عظيم توفيقه ، وإن وجد في قلبه شيئا من الرذائل أو رآه خاليا عن بعض الفضائل ، فليبادر إلى العلاج بالقوانين المقررة ، بعد التفكر في سوء خاتمته وأدائه إلى مقت الله وهلاكه ، وكذلك إن عثر بالتفكر على صدور معصية أو ترك طاعة منه فليتداركه بالندم والتوبة وقضاء تلك الطاعة . ولا ريب في أن هذا القسم من التفكر له مجال متسع والقدر الضروري منه يستغرق اليوم بليلته ، والاستقصاء فيه خارج عن حيطة شهر وسنة ، إذ اللازم منه أن يتفكر في كل يوم وليلة في كل واحد من الملكات المهلكة : من البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحقد ، والحسد ، والجبن ، وشدة الغضب والحرص والطمع وشره الطعام والوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه ، والنفاق ، وسوء الظن ، والغفلة ، والغرور . . . وغير ذلك . وينظر بنور الفكرة والبصيرة في زوايا قلبه ، ويتفقد منها هذه الصفات ، فإن وجدها بظنه خالية عنها ، فليتفكر في كيفية امتحان القلب والاستشهاد بالعلامات الدالة على البراءة اليقينية ، فإن النفس قد تلبس الأمر على صاحبها : فإن ادعت البراءة من الكبر ، فينبغي أن يمتحن بحمل قربة ماء أو حزمة حطب
ص ١٨٧
في السوق ، فإن ادعت البراءة من الغضب فليجرب بإيقاعها في معرض إهانة السفهاء ، وهكذا فليمتحن في غيرهما من الصفات بالامتحانات التي كان الأولون والسلف الصالحون يجربون بها أنفسهم ، حتى يطمئن بانقطاع أصولها وفروعها من قلبه . ولو وجد بالامتحان أو تصريح المشاهدة والعيان شيئا منها في قلبه ، فليتفكر في كيفية الخلاص من المعالجة بالضد أو بالموعظة والنصيحة والتوبيخ والملامة ، أو ملازمة أولي الأخلاق الفاضلة ومجالسة أصحاب الورع والتقوى ، أو بالرياضة والمجاهدة وغير ذلك . فإن نفع شيء منها

في الإزالة بالسهولة فليحمد الله على ذلك ، وإلا فليواظب على هذه المعالجات وتكررها حتى يوفقه الله للخلاص بمقتضى وعده . ثم يتفكر في كل واحد من الفضائل المنجية : كاليقين ، والتوكل ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والشجاعة والسخاء والزهد والورع ، والاخلاص في العمل ، وستر العيوب ، والندم على الذنوب ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله والخشوع له . . . وغير ذلك ، فإن وجد قلبه متصفا بالجميع فليجزيه بالعاملات حتى يطمئن من تلبيس النفس - كما علمت طريقه - وإن وجد قلبه خاليا من شيء منها فليفكر في طريق تحصيله - كما أشير إليه - . ثم يتوجه إلى كل واحد من أعضائه ويتفكر في المعاصي المتعلقة به ، مثل أن ينظر في لسانه ، ويتفكر في أنه هل صدر منه شيء من الغيبة ، أو الكذب ، أو الفحش ، أو فضول الكلام ، أو النميمة ، أو الثناء على النفس ، أو غير ذلك . ثم ينظر في بطنه هل عصى الله بأكل حرام أو شبهة ، أو كثرة مانعة عن صفاء النفس وغير ذلك . . . وهكذا يفعل في كل عضو عضو .

ثم يتفكر في الطاعات المتعلقة بكل واحد منها وفيما خلق هذا العضو لأجله من الفرائض والنوافل ، فإن وجد - بعد التفكر - عدم صدور شيء من المعاصي عن شيء منها ، وإتيانها بالطاعات المفروضة عليها بأسرها وبالنوافل المرغبة إليها بقدر اليسر والاستطاعة ، فليحمد الله على ذلك ، وإن عثر على صدور شيء من المعاصي أو ترك شيء من الفرائض ، فليتفكر أولا في الأسباب الباعثة على ذلك ، من الاشتغال بفضول الدنيا أو مصاحبة أقران

ص ١٨٨

السوء أو غير ذلك ، فليبادر إلى قطع السبب ، ثم التدارك بالتوبة والندم ، لئلا يكون غده مثل يومه . وهذا القدر من التفكر في كل يوم وليلة لازم لكل دين معتقد بالنشأة الآخرة ، وقد كان ذلك عادة وديدنا لسلفنا المتقين في صبيحة كل يوم أو عشية كل ليلة ، بل كانت لهم جريدة يكتبون فيها رؤس المهلكات والمنجيات ويعرضون في كل يوم وليلة صفاتهم عليها ، ومهما اطمأنوا بقطع رذيلة أو الاتصاف بفضيلة يخطون عليها في الجريدة ، ويدعون الفكر فيها ، ثم يقبلون على البواقي ، وهكذا يفعلون حتى يخطوا على الجميع ومن كان أقل مرتبة منهم من الصلحاء ربما يثبتون في جريدتهم بعض المعاصي الظاهرة ، من أكل الحرام ، والشبهة ، وإطلاق اللسان ، والكذب ، والغيبة والمراء ، والنميمة ، والمداهنة مع الخلق بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . وغير ذلك ، ويفعلون بمثل ما مر . وبالجملة : كان إخواننا السالفون وسلفنا الصالحون لا ينفكون عن هذا النوع من التفكر ، ويرونه من لوازم الإيمان بالحساب ، فأف علينا حيث تركنا بهم التأسي والقدوة ، وخضعنا في غمرات الغفلة ، ولعمري أنهم لو رأونا لحكموا بكفرنا وعدم إيماننا بيوم الحساب ، كيف وأعمالنا لا تشابه أعمال من يؤمن بالجنة والنار . فإن من خاف شيئا هرب منه ، ومن رجا شيئا طلبه ، ونحن ندعي الخوف من النار ونعلم أن الهرب منها بترك المعاصي ومع ذلك منهمكون فيها ، وندعي الشوق إلى الجنة ونعلم أن الوصول إليها بكثرة الطاعات ومع ذلك مقصرون في فعلها .

ثم هذا النوع من التفكر إنما هو تفكر العلماء والصالحين ، وأما تفكر الصديقين فأجل من ذلك ، لأنهم مستغرقون في لجة الحب والأنس ، منقطعون بشراشرهم إلى جناب القدس ، ففكرهم مقصور على جلال الله وجماله وقلبهم مستهتر به ، بحيث فنى عن نفسه ونسي صفاته وأحواله ، فحالهم أبدا كحال العشاق المستهترين عند لقاء المعشوق ، ولا تظنن أن هذا التفكر - بل أدنى مراتب التلذذ بالتفكر في عظمة الله وجلاله - ممكن الحصول بدون الانفكاك عن جميع الرذائل المهلكة والاتصاف بجميع الفضائل المنجية ، فإن حال المتفكر في جلال الله وعظمته مع اتصافه بالأخلاق الرذيلة ، كحال العاشق الذي خلي

ص ١٨٩

بمحبوبه ، وكان تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى ، فتمنعه عن لذة المشاهدة والأنس . ولا يتم ابتهاجه إلا بإخراجها عن ثيابه . ولا ريب أن الملكات الرذيلة كلها كالحيات والعقارب مؤذيات ومشوشات ، ومن كان له أدنى معرفة وتوجه إلى مناجاة ربه وكان في نفسه شيء منها ، يجد أنه كيف يشوشه ويصده عن الابتهاج ، ثم إن لدغ هذه الصفات لا يظهر ظهورا بينا للمنهمكين في علائق الطبيعة ، وبعد مفارقة النفس عن البدن يشتد ألم لدغها بحيث يزيد على ألم لدغ الحيات والعقارب بمراتب شتى . نصيحة تيقظ - يا حبيبي - من نوم الغفلة ، وتفكر اليوم لغدك ، قبل أن تنشب مخالب الموت في جسدك ، ولا تنفك قوتك العاقلة عن التفكر في

صفاتك وأحوالك ، واعلم على سبيل القطع واليقين أن كل ما في نفسك من فضيلة أو رذيلة وكل ما يصدر عنك من طاعة أو معصية يكون بإزائه جزاء عند رحلتك عن هذه الدار الفانية ، واسمع قول سيد الرسل (ص) ولو كنت ذا قلب لكفاك إيقاظا وتنبيها ، حيث قال : إن روح القدس نفث في روعي : أحب ما أحببت فإنك مفارقه ، وعش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به . ولعمري أنك إن كنت مؤمنا بالمبدأ والمعاد لكفاك هذا الكلام واعظا وحائلا بينك وبين الالتفات إلى الدنيا وأهلها . وبالجملة : ينبغي للمؤمن ألا يخلو في كل يوم وليلة عن التفكر في صفاته وأفعاله ، وإذا صرف برهة من وقته في هذا التفكر وبرهة أخرى في التفكر في عجائب قدرة ربه ، وصار ذلك معتادا له ، حصل لنفسه كمال قوتيها العقلية والعملية ، وخلصت عن الوساوس الشيطانية والخواطر النفسانية ، وفقنا الله بعظيم فضله للوصول إلى ما خلقنا لأجله . (ومنها) - أي ومن رذائل القوة العاقلة - استنباط وجوده :

• المكر والحيل up

للوصول إلى مقتضيات قوتي الغضب والشهوة . وأعلم أن المكر ، والحيلة ، والخدعة ، والنكر ، والدهاء : ألفاظ مترادفة ، وهي في اللغة قد تطلق على شدة الفطانة ، وأرباب المعقول يطلقونها على استنباط بعض الأمور

ص ١٩٠

من المآخذ الخفية البعيدة على ما تجاوز عن مقتضى استقامة القريحة ، ولذا جعلوها ضدا للذكاء وسرعة الفهم ، والعرف خصصها باستنباط هذه الأمور إذا كانت موجبة لإصابة مكروه إلى الغير من حيث لا يعلم ، وربما فسر بذلك في اللغة أيضا ، وهذا المعنى هو المراد هنا . ولتركبه من إصابة المكروه إلى الغير ومن التلبيس عليه ، يكون ضده استنباط الأمور المؤدية إلى الخيرية ، والنصيحة لكل مسلم ، واستواء العلانية للسريرية . ثم فرق المكر ومرادفاته عن التلبيس والغش والغدر وأمثالها ، إما باعتبار خفاء المقدمات وبعدها فيها دونها . أو بتخصيص الأولى بنفس استنباط الأمور المذكورة والثانية بارتكابها ، ولذا عدت الأولى من رذائل القوة الوهمية أو العاقلة للعذر المذكور ، والثانية من رذائل الشهوية ، وربما كان استعمالهما على الترادف ، وأطلق كل منهما على ما تطلق عليه الأخرى . هذا وللمكر مراتب شتى ودرجات لا تحصى من حيث الظهور والخفاء ، فربما لم يكن فيه كثير دقة وخفاء فيشعر به من له أدنى شعور ، وربما كان في غاية الغموض والخفاء بحيث لم يتفطن به الأذكياء . ومن حيث الموارد والمواضع كالباعث لظهور المحبة والصداقة واطمئنان عاقل ، ثم التهجم عليه بالإيذاء والمكروه ، والباعث لظهور الأمانة والديانة وتسليم الناس أموالهم ونفائسهم إليه على سبيل الوديعة أو المتشاركة أو المعاملة ، ثم أخذها وسرقها على نحو آخر من وجوه المكر . وكالباعث لظهور ورعه وعدالته واتخاذ الناس إياه إماما أو أميرا فيفسد عليهم باطنا دينهم ودنياهم . وقس على ذلك غيره من الموارد والمواضع .

ثم المكر من المهلكات العظيمة ، لأنه أظهر صفات الشيطان ، والمتصف به أعظم جنوده ، ومعصيته أشد من معصية إصابة المكروه إلى الغير في العلانية ، إذ المطلع بإرادة الغير إيذاءه يحتاط ويحافظ نفسه عنه ، فربما دفع أذيته ، وأما الغافل فليس في مقام الاحتياط ، لظنه أن هذا المكار المحيل محب وناصح له ، فيصل إليه ضره وكيده في لباس الصدقة والمحبة . فمن أحضر طعاما مسموما عند الغير مريدا إهلاكه فهو أخبث نفسا وأشد

ص ١٩١

معصية ممن شهر سيفه علانية مريدا قتله ، إذ الثاني أظهر ما في بطنه وأعلم هذا الغير بإرادته ، فيجزم بأنه عدو محارب له فيتعرض لصرف شره ومنع ضره ، فربما تمكن من دفعه ، وأما الأول فظاهره في مقام الإحسان وباطنه في مقام الإيذاء والعدوان ، والغافل المسكين لا خبر له عن خباثة باطنه ، فيقطع بأنه يحسن إليه ، فلا يكون معه في مقام الدفع والاحتياط ، بل في مقام المحبة والوداد ، فيقتله وهو يعلم أنه يحسن إليه ، ويهلكه وهو في مقام النجل منه . وبالجملة : هذه الرذيلة أخبث الرذائل وأشدها معصية ، ولذلك قال رسول الله (ص) : ليس منا من ماكر مسلما . وقال أمير المؤمنين (ع) : لولا أن المكر والخديعة في النار لكنت أمكر الناس ، وكان عليه السلام كثيرا ما يتنفس الصعداء ويقول : واويلاه يمكرون بي يعلمون أني بمكرهم عالم وأعرف منهم بوجوه المكر ، ولكني أعلم أن المكر والخديعة في النار فأصبر على مكرهم ولا ارتكب مثل ما ارتكبوا . وطريق علاجه - بعد اليقظة - أن يتأمل في سوء خاتمته ووخامة عاقبته ، وفي تأديته إلى النار ومجاورة الشياطين والأشرار ، ويتذكر أن وبال وشهدت به التجربة والاعتبار . ثم يتذكر فوائد ضد المكر ومحامده ، أعني استنباط ما يوجب النصيحة والخيرية للمسلمين وموافقة ظاهره لباطنه في أفعاله وأقواله - كما يأتي في محله -

وبعد ذلك لو كان عاقلا مشفقا على نفسه لاجتنب عنه كل الاجتناب ، وينبغي أن يقدم التروي في كل فعل يصدر عنه لئلا يكون له فيه مكر وحيلة ، وإذا عثر على فعل يتضمنه فليتركه معاتبا لنفسه ، وإذا تكرر منه ذلك نزول عن نفسه أصول المكر وفروعه بالكلية بعون الله وتوفيقه .

ص ١٩٢

المقام الثاني

فيما يتعلق بالقوة الغضبية

من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج up

التهور والجبن والشجاعة - الخوف - الخوف المذموم وأقسامه - الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته - بم يتحقق الخوف - الخوف من الله أفضل الفضائل - الخوف إذا جاوز حده كان مذموما - طرق تحصيل الخوف الممدوح - خوف سوء الخاتمة وأسبابه - الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله - التلازم بين الخوف والرجاء - - مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر - العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف - مداواة الناس بالخوف والرجاء على اختلاف أمراضهم - صغر النفس وكبرها وصلابتها - الثبات - دناءة الهمة وعلوها - الغيرة والحمية وعدمهما - الغيرة على الدين والحريم والأولاد - العجلة - الأناة والتوقف والوقار والسكينة - سوء الظن - حسن الظن - الغضب - الإفراط والتفريط والاعتدال في قوته - ذم الغضب - إمكان إزالة الغضب وطرق علاجه - فضيلة الحلم وكظم الغيظ - الانتقام والعفو - العنف والرفق - فضيلة الرفق - المداراة - سوء الخلق بالمعنى الأخص - طرق اكتساب حسن الخلق - الحقد - العداوة الظاهرة - الضرب والفحش واللعن والطعن - العجب - ذمه - آفاته - علاجه إجمالا وتفصيلا - انكسار النفس - الكبر - ذمه - التكبر على الله والناس - درجات الكبر - علاجه علما وعملا - التواضع - الذلة - الافتخار - البغي - تزكية النفس - العصبية - كتمان الحق - الإنصاف والاستقامة على الحق - القساوة . فنقول : أما جنسا رذائلها (٨١) فأحدهما :

التهورup

كما علم ، وهو من طرف الإفراط : أي الإقدام على ما لا ينبغي والخوض في ما يمنعه العقل والشرع من المهالك والمخاوف . ولا ريب في أنه من المهلكات في الدنيا والآخرة . ويدل على ذمه كل ما ورد في وجوب محافظة النفس وفي

(هامش)

(٨١) أي القوة الغضبية . (*)

ص ١٩٣

المنع عن إلقائها في المهالك ، كقوله تعالى : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة (٨٢) . وغير ذلك من الآيات والأخبار ، والحق أن من لا يحافظ نفسه عما يحكم العقل بلزوم المحافظة عنه فهو غير خال عن شائبة من الجنون ، وكيف يستحق اسم العقل من ألقى نفسه من الجبال الشاهقة ولم يبال بالسيوف الشاهرة ، أو وقع (٨٣) في الشطوط الغامرة الجارية ولم يحذر من السباع الضارية . كيف ومن ألقى نفسه فيما يظن به العطب ، فهلك ، كان قاتل نفسه بحكم الشريعة ، وهو يوجب الهلاكة الأبدية والشقاوة السرمدية . وعلاجه - بعد تذكر مفاسده في الدنيا والآخرة - أن يقدم التروي في كل فعل يريد الخوض فيه ، فإن جوزه العقل والشرع ولم يحكما بالحذر عنه ارتكبه ، وإلا تركه ولم يقدم عليه . وربما أحتاج في معالجته أن يلزم نفسه الحذر والاجتناب عن بعض ما يحكم العقل بعدم الحذر عنه ، حتى يقع في طرف التفريط ، وإذا علم من نفسه زوال التهور تركه وأخذ بالوسط الذي هو الشجاعة . وثانيهما :

الجبن up

وهو سكون النفس عن الحركة إلى الانتقام أو غيره ، مع كونها أولى . والغضب إفراط في تلك الحركة ، فله ضدية للغضب باعتبار ، وللتهور باعتبار آخر . وعلى الاعتبارين هو في طرف التفريط من المهلكات العظيمة ، ويلزمه من الأعراض الذميمة : مهانة نفس ، والذلة ، وسوء العيش ، وطمع الناس فيما يملكه ، وقلة ثباته في الأمور ، والكسل ، وحب الراحة ، وهو يوجب الحرمان عن السعادات بأسرها وتمكين الظالمين من الظلم عليه ، وتحمله للفضائح في نفسه وأهله ، واستماع القبائح من الشتم والقذف ، وعدم مبالاته بما يوجب الفضيحة والعار ، وتعطيل مقاصده ومهماته ، ولذلك ورد في ذمه من الشريعة ما ورد قال رسول الله (ص) : لا ينبغي للمؤمن

(هامش)
(٨٢) البقرة ، الآية : ١٩٥ . (٨٣) كذا في النسختين ، ولعل الصحيح (أو أوقع نفسه) (*) .
ص ١٩٤
أن يكون بخيلا ولا جبانا ، وقال (ص) : اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر . وعلاجه - بعد تنبيه نفسه عن نقصانها وهلاكها - أن يحرك الدواعي الغضبية فيما يحصل به الجبن ، فإن القوة الغضبية موجودة في كل أحد ، ولكنها تضعف وتنقص في بعض الناس فيحدث فيهم الجبن ، وإذا حركت وهيجت على التواتر تقوى وتزيد ، كما أن النار الضعيفة تتوقد وتلتهب بالتحريك المتواتر . وقد نقل عن الحكماء أنهم يلقون أنفسهم في المخاطرات الشديدة والمخاوف العظيمة دفعا لهذه الرذيلة . ومما ينفع من المعالجات أن يكلف نفسه على المخاصمة مع من يأمن غوائله ، تحريكا لقوة الغضب ، وإذا وجد من نفسه حصول ملكة الشجاعة فليحافظ نفسه لئلا يتجاوز ويقع في طرف الإفراط .
وصل: الشجاعة up
قد عرفت أن ضد هذين الجنسين هو (الشجاعة) ، فتذكر مدحها وشرافتها ، وكلف نفسك المواظبة على آثارها ولوازمها ، حتى يصير ما تكلفته طبعا وملكة ، فترتفع عنك آثار الضدين بالكلية . وقد عرفت أن الشجاعة طاعة قوة الغضب للعاقلة في الإقدام على الأمور الهائلة وعدم اضطرابها بالخوض في ما يقتضيه رأيها . ولا ريب في أنها أشرف الملكات النفسية وأفضل الصفات الكمالية ، والفاقد لها برئ عن الفحلية والرجولية ، وهو بالحقيقة من النسوان دون الرجال ، وقد وصف الله خيار الصحابة بها في قوله : أشداء على الكفار (٨٤) . وأمر الله نبيه بها بقوله : وأغلظ عليهم (٨٥) . إذ الشدة والغلظة من لوازمها وآثارها ، والأخبار مصرحة باتصاف المؤمن بها . قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المؤمن : نفسه
(هامش)
(٨٤) الفتح ، الآية : ٢٩ . (٨٥) التوبة ، الآية : ٧٣ . (*)
ص ١٩٥
أصلب من الصلد . وقال الصادق عليه السلام : المؤمن أصلب من الجبل إذ الجبل يستفل (٨٦) منه والمؤمن لا يستفل من دينه .
* * *
أنواع الرذائل ولوازمها المتعلقة بالقوة الغضبية up
فمنها :
• الخوف up
وهو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال مشكوك الوقوع ، فلو علم أو ظن حصوله سمى توقعه انتظار مكروه ، وكان تألمه أشد من الخوف ، وكلامنا في كليهما . وفرقه عن الجبن على ما قررناه من حدهما ظاهر ، فإن الجبن هو سكون النفس عما يستحسن شرعا وعقلا من الحركة إلى الانتقام أو شيء آخر ، وهذا السكون قد يتحقق من غير حدوث التألم الذي هو الخوف ، مثلا من لا يجترئ على الدخول في السفينة أو النوم في البيت وحده أو التعرض لدفع من يظلمه ويتعرض له يمكن اتصافه بالسكون المذكور مع عدم تألم له بالفعل ، فمثله جبان وليس بخائف . ومن كان له ملكة الحركة إلى الانتقام وغيره من الأفعال التي يجوزها الشرع والعقل ربما حصل له التألم المذكور من توقع حدوث بعض المكاره ، كما إذا أمر السلطان بقتله ، فمثله خائف وليس بجبان . ثم الخوف على نوعين : (أحدهما) مذموم بجميع أقسامه ، وهو الذي لم يكن من الله ولا من صفاته المقتضية للهيبة والرعب ، ولا من معاصي العبد وجناياته ، بل يكون لغير ذلك من الأمور التي يأتي تفصيلها . وهذا النوع من رذائل قوة الغضب من طرف التفريط ، ومن نتائج الجبن . و(ثانيهما) محمود وهو الذي يكون من الله ومن عظمته ومن خطأ العبد وجنايته ، وهو من فضائل القوة الغضبية ، إذ العاقلة تأمر به وتحسنه ، فهو حاصل من انقيادها لها . ولنفصل القول في أقسام النوعين ، وبيان العلاج في إزالة أقسام الأول وتحصيل الثاني :
(هامش)
(٨٦) استقل الشيء : أخذ منه أدنى جزء كعشره . (*)
ص ١٩٦
فصل الخوف المذموم وأقسامه up

للنوع الأول أقسام يقبحها العقل بأسرها ولا يجوزها ، فلا ينبغي للعاقل أن يتطرقها إلى نفسه . بيان ذلك : إن باعث هذا الخوف يتصور على أقسام : (الأول) أن يكون أمرا ضروريا لازم الوقوع ، ولم يكن دفعه في مقدرة البشر . ولا ريب في أن الخوف من مثله خطأ محض ، ولا يترتب عليه فائدة سوى تعجيل عقوبة بصده عن تدبير مصالحه الدنيوية والدينية . والعاقل لا يتطرق على نفسه مثل ذلك ، بل يسلي نفسه ويرضيها بما هو كائن إدراكا لراحة العاجل وسعادة الأجل . (الثاني) أن يكون أمرا ممكنا لم يجزم بشيء من طرفيه ، ولم يكن لهذا الشخص مدخلية في وقوعه ولا وقوعه . ولا ريب في أن الجزم بوقوع مثله والتألم لأجله خلاف مقتضى العقل ، بل اللازم إبقاؤه على إمكانه من دون جزم بحصوله ، فـ: لعل الله يحدث تعد ذلك أمرا (٨٧) . وهذا القسم مع مشاركته للأول في استلزامه تعجيل العقوبة بلا سبب ، لعدم مدخليته لاختياره فيه ، يمتاز عنه بعدم الجزم بوقوعه ، فهو بعدم الخوف أولى منه . (الثالث) أن يكون أمرا ممكنا فاعله هذا الشخص ، وهو ناشئ عن سوء اختياره ، فعلاجه ألا يرتكبه ولا يقدم على فعل يخاف من سوء عاقبته ، فإنه إما فعل غير قبيح من شأنه التأدي إلى ما يضره ، ولا ريب في أن ارتكاب مثله خلاف حكم العقل ، ولو ظهر التأدي بعد إيقاعه فيكون من الثاني ، أو فعل قبيح لو ظهر أوجب الفضيحة والمؤاخذة ، وإنما فعله ظنا منه أنه لا يظهر ، ثم يخاف من الظهور والمؤاخذة ، ولا ريب في أن هذا الظن ناشئ عن الجهل ، إذ كل فعل يصدر عن كل فاعل ولو خفية يمكن أن يظهر ، وإذا ظهر يمكن إيجابه للفضيحة والمؤاخذة . والعاقل العالم بطبيعة الممكن لا يرتكب مثله ، فباعث الخوف في الثاني هو الحكم على الممكن بالوجوب ، وفي هذا الحكم عليه بالامتناع ، ولو حكم عليه بما يقتضي

(هامش)

(٨٧) الطلاق ، الآية : ١ . (*)

ص ١٩٧

ذاته أمن من الخوفين . (الرابع) أن يكون مما تتوحش منه الطباع ، بلا داع عقلي ولا باعث نفس أمري ، كالميت والجن وأمثالهما ، (لا) سيما في الليل مع وحدته . ولا ريب في أن هذا ناشئ عن قصور العقل ومقهوريته عن الواهمة ، فليحرك القوة الغضبية ويهيجها لتغلب به العاقلة على الوهم . وربما ينفع إلزام نفسه على الوحدة في الليالي المظلمة والصبر عليها ، حتى يزول عنه هذا الخوف على التدريج . ثم لما كان خوف الموت أشد أقسام هذا النوع وأعمها ، فلنشر إلى علاجه بخصوصه ، فنقول : باعث خوف الموت يحتمل أمورا : (الأول) تصور فناء ذاته بالكلية وصيرورته عدما محضا بالموت . ولا ريب في كونه ناشئا عن محض الجهل ، إذ الموت ليس إلا قطع علاقة النفس عن بدنه ، وهي باقية أبدا ، كما دلت عليه القواطع العقلية والشواهد الذوقية والظواهر السمعية ، ولعل ما تقدم يكفي لإثبات هذا المطلوب . ومع قطع النظر عن ذلك نقول : كيف يجوز لمن له أدنى بصيرة أن يجتمع عظماء نوع الإنسان بحذافيرهم ، كأهل الوحي والإلهام وأساطين الحكمة والعرفان على محض الكذب وصرف الباطل ! فمن تأمل أدنى تأمل يتخلص من هذا الخوف . (الثاني) تصور إيجابه ألما جسمانيا عظيما لا يتحمل مثله ولم يدرك في الحياة شبهه . وهذا أيضا من الخيالات الفاسدة ، فإن الألم فرع الحياة ، والألم الجسماني ما دامت الحياة لا يكون أشد مما رآه كل إنسان في حياته من الأوجاع وقطع الاتصال ، وبعد زوال الحياة لا معنى لوجوده ، إذ كل جسماني إدراكه بواسطة الحياة ، وبعد انقطاعها لإدراك ، فلا ألم . (الثالث) تصور عروض نقصان لأجله . وهو أيضا غفلة عن حقيقة الموت والانسان ، إذ من علم حقيقتهما بعلم أن الموت متمم الإنسانية وآثارها ، والمائت جزء لحد الإنسان . ولذا قال أوائل الحكماء : (الإنسان حي ناطق مائت) ، وحد الشيء يوجب كماله لا نقصانه ، فبالموت تحصل التمامية

ص ١٩٨

دون النقصان نشنيده اي كه هر كه بمرد أو تمام شد (٨٨) فالإنسان الكامل يشتاق إلى الموت ، لاقتضائه تماميته وكماله ، وخروجه عن ظلمة الطبيعة ومجاورة الأشرار إلى عالم الأنوار ومرافقة الأخيار من العقول القادسة والنفوس الطاهرة ، وأي عاقل لا يرجح الحياة العقلية والابتهاجات الحقيقية على الحياة الموحشة الهيولانية ، المشوبة بأنواع الآلام والمصائب وأصناف الأسقام والنوائب ! فياحبيبي ! تيقظ من نوم الغفلة وسكر الطبيعة ، واستمع النصيحة ممن هو أحوج منك إلى النصيحة : حرك الشوق الكامن في جوهر ذاتك إلى عالمك الحقيقي ومقرك الأصلي ، وانسلخ عن القشورات الهيولانية ، وانفض عن روحك القدسي ما لزقه من الكدورات الجسمانية ، وطهر نفسك الزكية عن أدناس دار الغرور وأرجاس عالم الزور ، واكسر قفصك الترابي الظلماني وطر بجناح همتك إلى وكرك القدسي

النوراني ، وارتفع عن حضيض الجهل والنقصان إلى أوج العزة والعرفان ، وخلص نفسك عن مضيق سجن الناسوت وسيرها في فضاء قدس اللاهوت ، فما بالك نسيت عهود الحمى ورضيت بمصاحبة من لا ثبات له ولا وفاء ؟ ! . زد سحر طائر قدسم زسر سدره صفير * كه در اين دامگه حادثة آرام مگير (٨٩) (الرابع) صعوبة قطع علاقته من الأولاد والأموال والمناصب والأحباب ، ومعلوم أن هذا ليس خوفا من الموت في نفسه بل هو حزن على مفارقة بعض الزخارف الفانية . وعلاجه أن يتذكر أن الأمور الفانية مما لا يليق (هامش)
(
٨٨) هذه الجملة ممن الكلمات الحكمية القصار ، ومعناها : (أما سمعت بأن كل من مات صار إنسانا كاملا) . (٨٩) هذا البيت للشاعر الفارسي الفيلسوف الشهير (حافظ الشيرازي) وهو من أبيات العرفان . وأراد (بالسحر) على سبيل الرمز وقت استكمال النفس وتنبهها ، و(بالطائر القدسي) ما يرمز إليه العرفاء المسمى عندهم أيضا (البيضائي) ، وهو أحد العقول المجردة الذي بصفيره يوقظ الراقدين في مراقد الظلمات ، وبصوته ينبه الغافلين عن تذكر الآيات ، و(بالسدرة) سدرة المنتهى المقصود منها منتهى قوس الصعود في سلسلة الممكنات . وحاصل معنى البيت المطابقي : قد صفر الطائر القدسي المنسوب إلى من على السدرة في السحر ، ويقول في صفيره : لا تستقر في المصيدة المخيفة (وهي الدنيا وعوالم السفليات) ، والمراد أن يذهب عنها إلى عالم المجردات النوراني حرا طليقا . (*)
ص ١٩٩
بالعاقل أن يرتبط بها قلبه ، وكيف يحب العاقل خسائس عالم الطبيعة ويطمئن إليها ، مع علمه بأنه قريب يفارقها ، فاللازم أن يخرج حب الدنيا وأهلها عن قلبه ليتخلص من هذا الألم . (الخامس) تصور سرور الأعداء وشماتتهم بموته . وهذا وسوسة شيطانية صادرة عن محض التوهم إذ مسرة الأعداء أو شماتتهم لا توجب ضررا في إيمانه ودينه ، ولا ألما في روحه وجسمه ، على أن ذلك لا يختص بالموت ، إذ العدو يشمت ويفرح بما يرد عليه في حال الحياة أيضا من البلايا والمحن ، فمن كره ذلك فليجتهد في قطع العداوة وإزالتها بالمعالجات المقررة للحقد والحسد . (السادس) تصور تضييع الأولاد والعيال ، وهلاك الأعوان والأنصار . وهذا أيضا من الوساوس الباطلة الشيطانية والخواطر الفاسدة النفسانية ، إذ ذلك يوجب ظن منشئيته لاستكمال الغير وعزته ، ومدخليته في قوته وثروته ، وذلك ناشئ من جهله بالله وبقضائه وقدره ، إذ فيضه الأقدس اقتضى إيصال كل ذرة من ذرات العالم إلى ما يليق بها وإبلاغها إلى ما خلقت لأجله ، وليس لأحد أن بغير ذلك أو يبدله . ولذا ترى أكثر الأفاضل يجتهدون في تربية أولادهم ولا ينجح سعيهم أصلا ، وتشاهد غير واحد من الأغنياء يخلفون لأولادهم أموالا كثيرة ونخرج عن أيديهم في مدة قليلة ، وترى كثيرا من أيتام الأطفال لا تربية لهم ولا مال ، ومع ذلك يبلغون بالتربية الأزلية مدراج الكمال ، أو يحصلون ما لا حصر له من الأموال . والغالب أن الأيتام الذين ذهب عنهم الآباء في حالة الصبي تكون ترقياتهم في الآخرة والدنيا أكثر من الأولاد الذين نشأوا في حجر الآباء . والتجربة شاهدة بأن من اطمأن من أولاده بمال يخلفه لهم أو ذي قوة يفوض إليه أمورهم اعتراهم بعده الفقر والفاقة والذلة والمهانة ، وربما صار ذلك سببا لهلاكهم وانقراضهم . ومن فرض أمورهم إلى رب الأرباب وخالق العباد أزداد لهم بعده عزا وقوة وكثرة وثروة .
فاللائق بالعقلاء أن يفوضوا أمور الأولاد وغيرهم من الأقارب والأنصار إلى من خلقهم ورباهم ، ويوكلهم إلى موجدهم ومولاهم ، وهو نعم المولى ونعم الوكيل . وقد ظهر أن
ص ٢٠٠
الخوف من الموت لأجل البواعث المذكورة لا وجه له . ثم ينبغي للعاقل أن يتفكر في أن كل كائن فاسد ألبتة ، كما تقرر في الحكمة . وهو من الكائنات . والفساد ضروري له فمن أراد وجود بدنه أراد فساده اللازم له ، فتمنى دوام الحياة من الخيالات الممتنعة ، والعاقل لا يحوم حولها ولا يتمنى مثلها . بل يعلم يقينا أن ما يوجد في النظام الكلي هو الأصلح الأكمل وتغييره ينافي الحكمة والخيرية ، فيرضى بما هو واقع على نفسه وغيره من غير ألم وكدورة . ثم من يتمنى طول عمره فمقصوده منه إن كان حب اللذات الجسمية وامتداد زمانها ، فليعلم أن الشيب إذا أدركه ضعفت الأعضاء واختلت القوى وزالت عنه الصحة التي هي عمدة لذاته فضلا عن غيرها ، فلا يلتذ بالأكل والجماع وسائر اللذات الحسية ، ولا يخلو لحظة عن مرض وألم ، وتتراجع جميع أحواله ، فتتبدل قوته بالضعف وعزه بالذل ، وكذا سائر أحواله ، كما أشير إليه في الكتاب الإلهي بقوله تعالى : ومن نعمره ننكسه في الخلق (٩٠) . ومع ذلك لا يخلو كل يوم من

مفارقة حبيب أو شفيق ، ومهاجرة قريب أو رفيق . وربما ابتلى بأنواع المصيبات ، ويهجم عليه الفقر والفاقة والنكبات ، وطالب العمر في الحقيقة طالب هذه الزحمات . وإن كان مقصوده منه اكتساب الفضائل العلمية والعملية ، فلا ريب في أن تحصيل الكمالات بعد أوان الشيخوخة في غاية الصعوبة ، فمن لم يحصل الفضائل الخلقية إلى أن أدركه الشيب ، واستحكمت فيه الملكات المهلكة من الجهل وغيره ، فإني يمكنه بعد ذلك إزالتها وتبديلها بمقابلاتها ، إذ رفع ما رسخ في النفس مع الشيخوخة التي لا يقتدر معها على الرياضات والمجاهدات غير ممكن .

ولذا ورد في الآثار : أن الرجل إذا بلغ أربعين سنة ولم يرجع إلى الخير ، جاء الشيطان ومسح على وجهه وقال : بأبي وجه من لا يفلح أبدا . على أن الطالب للسعادة ينبغي أن يكون مقصور الهم في كل حال على تحصيلها ، ومن جملتها دفع طول الأمل والرضا بما قدر له من طول العمر وقصره ،

(هامش)

(٩٠) يس ، الآية : ٦٨ . (*)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

١٠٨ 06

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ٢٠١

ويكون سعيه أبدا في تحصيل الكمالات بقدر الإمكان والتخلص عن مزاحمة الزمان والمكان ، وقطع علاقته من الدنيا وزخارفها الفانية والميل إلى الحياة واللذات الباقية ، والاهتمام في كسب الابتهاجات العقلية والاتصال التام بالحضرة الإلهية ، حتى يتخلص عن سجن الطبيعة ويرتقي إلى أوج عالم الحقيقة ، فيتفق له الموت الإرادي الموجب للحياة الطبيعية ، كما قال (معلم الاشراق) : مت بالإرادة تحي بالطبيعة ، فينقل إلى مقصد صدق هو مستقر الصديقين ، ويصل إلى جوار رب العالمين ، وحينئذ يشتاق للموت ولا يبالي بتقديمه وتأخيره ، ولا يركن إلى ظلمات البرزخ الذي هو منزل الأشقياء والفجار ومسكن الشياطين والأشرار ، ولا يتمنى الحياة الفانية أصلا ، ينطق بلسان الحال : خرم آن روز كزين منزل ويران بروم راحت جان طلبم وزپي جانان بروم بهواي لب أو ذره صفت رقص كنان تالب چشمه خورشيد درخشتان بروم (٩١) (السابع) تصور العذاب الجسماني والروحاني المترتب على ذمائم الأعمال وقبائح الأفعال . ولا ريب في أن الخوف من ذلك ممدوح ، وهو معدود من أقسام النوع الثاني ، إلا أن البقاء عليه وعدم السعي فيما يدفعه من ترك الخطيئات وكسب الطاعات جهل وبطالة ، إذ هذا الخوف ناشئ من سوء الاختيار ، وقد بعث الله الرسل وأوصياءهم لاستخلاص الناس عنه . فعلاجه ترك المعاصي وتحصيل معالي الأخلاق . ومعلوم أن المنهمك في المعاصي مع خوفه من العذاب كالملقي نفسه في البحر أو النار مع خوفه من الغرق والحرق ، ولا ريب في أن إزالة هذا الخوف باختياره ، فليترك

(هامش)

(

٩١) البيتان للشاعر الفيلسوف (حافظ الشيرازي) . ومعنى الأول : إن سروري يكون في يوم الرحيل من هذه الدار الخربة طلبا لراحة نفسي ولقاء الحبيب . وبقصد بحبيبه : الحق الأول ، وبراحة نفسه : النعيم الأبدي ، وبالرحيل عن الدار الخربة : انتقال نفسه من بدنه بالموت . ومعنى البيت الثاني : إني لشوقي إلى لقاء الحبيب اهتز اهتزاز الذرة في ضوء الشمس لكي أصل إلى لقاء عين الشمس المتوهجة . ويقصد بعين الشمس : خالق الكائنات . (*)

ص ٢٠٢

المعاصي ويجتهد في كسب وظائف الطاعات ليتخلص عنه ، واهتمام أكابر الدين من الأنبياء والمرسلين والحكماء والصديقين في وظائف الطاعات وصبرهم على مشاق العبادات ومجاهدتهم مع جنود الشياطين إنما هو لدفع هذا الخوف عن نفوسهم ، فهو في الحقيقة ناشئ منك ومن سوء اختيارك ، فبادر إلى تقليله بالمواظبة على صوالح الأعمال وفضائل الأفعال . وقد يأتي أن هذا الخوف هو سوط الله الباعث على العمل ، ومعه لو كان مفرطا فليعالج بأسباب الرجاء ، وبدونه فلا بد أن يكون حتى يبعثه عليه ، على أنه مع عظم جرمه

وقصور باعه عن تداركه فلا ينبغي أن ييأس من روح الله ، فلعل واسع الرحمة السابقة على الغضب يدركه بسابقة من القضاء والقدر .
فصل الخوف المحمود وأقسامه ودرجاته up
وللنوع الثاني من الخوف أقسام : (الأول) أن يكون من الله سبحانه ومن عظمته وكبريائه ، وهذا هو المسمى بالخشية والرهبة في عرف أرباب القلوب . (الثاني) من جناية العبد باقترافه المعاصي . (الثالث) أن يكون منهما جميعا . وكلما ازدادت المعرفة بجلال الله وعظمته وتعاليه وبعيوب نفسه وجناياته ، ازداد الخوف ، إذ إدراك القدرة القاهرة والعظمة الباهرة والقوة القوية والعزة الشديدة ، يوجب الاضطراب والدهشة . ولا ريب في أن عظمة الله وقدرته وسائر صفاته الجلالية والجمالية غير متناهية شدة وقوة ويظهر منها على كل نفس ما يطيقه ويستعد له . وأتى لأحد من أولي المدارك أن يحيط بصفاته على ما هي عليه ، فإن المدارك عن إدراك غير المتناهي قاصرة . نعم ، لبعض المدارك العالية أن يدركه على الإجمال . مع أن ما يظهر للعقلاء من صفاته ليس هو من حقيقة صفاته ، بل هو غاية ما تتأدى إليه عقولهم ويتصور كما لا . ولو ظهر قدر ذرة من حقيقة بعض صفاته لأقوي العقول وأعلى المدارك ، لاحترق من سبحات وجهه ، وتفرقت أجزاؤه من نور ربه . ولو انكشف من بعضها الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب ، فغاية ما للمدارك العالية من العقول والنفوس القادسة ، أن يتصور عدم
ص ٢٠٣
تناهيها في الشدة والقوة ، وكونها في الكمال والبهاء غاية ما يمكن ويتصور ويحتمله ظرف الواقع ونفس الأمر ، كما هو الشأن في ذاته سبحانه . وإدراك هذه الغاية أيضا يختلف باختلاف علو المدارك ، فمن كان في الدرك أقوى وأقدم كان بربه أعرف ، ومن كان به أعرف كان منه أخوف ، ولذا قال تعالى : إنما يخشى الله من عباده العلماء (٩٢) . وقال سيد الرسل : أنا أخوفكم من الله . وقد قرع سمعك حكايات خوف زمرة المرسلين ومن بعدهم من فرق الأولياء والعارفين ، وعروض الغشيات المتواترة في كل ليلة لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام . وهذا مقتضى كمال المعرفة الموجب لشدة الخوف ، إذ كمال المعرفة يوجب احتراق القلب . فيفيض أثر الحرقة من القلب إلى البدن بالنحول والصفار والغشية والبكاء ، وإلى الجوارح بكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط في جنب الله ومن لم يجتهد في ترك المعاصي وكسب الطاعات فليس على شيء من الخوف ، ولذا قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال بعض الحكماء من خاف شيئا هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه ، وقال بعض العرفاء : لا يكون العبد خائفا حتى ينزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام . وإلى الصفات بقمع الشهوات وتكدر اللذات ، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العمل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف كونه مسموما ، فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويحصل في القلب الذبول والذلة والخشوع والاستكانة ، وتفارقه ذمائم الصفات ، ويصير مستوعب الهم يخوفه والنظر في خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون له شغل إلا المجاهدة والمحاسبة والمراقبة والضنة بالأنفاس واللحظات ، ومؤاخذة النفس في الخطرات والكلمات ، ويشتغل ظاهره وباطنه بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره ، وكما أن من وقع في مخالب ضاري السبع يكون مشغول الهم به ولا شغل له بغيره .
وهذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه ، كما جرى عليه جماعة من الصحابة والتابعين
(هامش)
(٩٢) الفاطر ، الآية : ٢٨ . (*)
ص ٢٠٤
ومن يحذوهم من السلف الصالحين . فقوة المجاهدة والمحاسبة بحسب شدة الخوف الذي هو حرقة القلب وتألمه ، وهو بحسب قوة المعرفة بجلال الله وعظمته وسائر صفاته وأفعاله ، وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال . وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال أن يكف عن المحظورات ، ويسمى الكف منها (ورعا) ، فإن زادت قوته كف عن الشبهات ، ويسمى ذلك (تقوى) ، إذ التقوى أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ، وقد يحمله على ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس ، وهو الصدق في التقوى ، فإذا انضم إليه التجرد للخدمة ، وصار ممن لا يبني ما لا يسكنه ، ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنه يفارقها ، ولا يصرف إلى غير الله نفسا عن أنفاسه فهو (الصدق) ، ويسمى صاحبه (صديقا) ، فيدخل في الصدق التقوى ، وفي التقوى الورع ،

وفي الورع العفة ، لأنها عبارة عن الامتناع من مقتضى الشهوات . فإذن يؤثر الخوف في الجوارح بالكف والأقدام .

فصل بم يتحقق الخوف up

إعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه ، والمكروه إما أن يكون مكروها في ذاته كالنار ، أو مكروها لإفضائه إلى المكروه في ذاته كالمعاصي المفضية إلى المكروه لذاته في الآخرة ، ولا بد لكل خائف أن يتمثل في نفسه مكروه من أحد القسمين ، ويقوى انتظاره في قلبه حتى يتألم قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ، ويختلف مقام الخائفين فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحظورة : فالذين يغلب على قلوبهم خوف المكروه لذاته ، فإما أن يكون خوفهم من سكرات الموت وشدته وسؤال النكيرين وغلظته ، أو عذاب القبر ووحدته وهول المطلع ووحشته ، أو من الموقف بين يدي الله وهيبته والحياء من كشف سريرته ، أو من الحساب ودقته والصراط وحدته ، أو من النار وأهوالها والجحيم وأغلالها ، أو الحرمان من دار النعيم وعدم وصوله إلى الملك المقيم

ص ٢٠٥

أو من نقصان درجاته في العليين وعدم مجاورته المقربين أو من الله سبحانه بأن يخاف جلاله وعظمته والبعد والحجاب منه ويرجو القرب منه ، وهذا أعلاها رتبة ، وهو خوف أرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف ، والعالمين بلذة الوصال وألم البعد والفراق ، والمطلعين على سر قوله : ويحذركم الله نفسه (٩٣) ، وقوله : اتقوا الله حق تقاته (٩٤) . وقيل : ذلك خوف العابدين والزاهدين وكافة العاملين . وأما الذين غلب على قلوبهم خوف المكروه لغيره ، فإما يكون خوفهم من الموت قبل التوبة ، أو نقضها قبل انقضاء المدة ، أو من ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله ، أو تخليته مع حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله ، أو من الميل عن الاستقامة ، أو إلى أتباع الشهوات المألوفة استيلاء للعادة ، أو تبديل رقة القلب إلى القساوة ، أو تبعات الناس عنده من الغش والعداوة ، أو من الاشتغال عن الله بغيره ، أو حدوث ما يحدث في بقية عمره أو من البطر والاستدراج بتواتر النعم ، أو انكشاف غوائل طاعته حتى يبدو له من الله ما لم يعلم ، أو من الاغترار بالدنيا وزخارفها الفانية ، أو تعجيل العقوبة بالدنيا وافتضاحه بالعلانية ، أو من اطلاع الله على سريرته وهو عنه غافل ، وتوجهه إلى غيره وهو إليه ناظر ، أو من الختم له عند الموت بسوء الخاتمة ، أو مما سبق له في الأزل من السابقة . وهذه كلها مخاوف العارفين . ولكل واحد منها خصوص فائدة ، هو الحذر عما يفضي إلى الخوف ، فالخائف من تبعات الناس يجتهد في براءة ذمته عنها ، ومن استيلاء العادة يواظب على فطام نفسه عنها ، ومن اطلاع الله على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس . وهكذا في بقية الأقسام .

وأغلب هذه المخاوف على المتقين خوف سوء الخاتمة ، وهو الذي قطع قلوب العارفين ، إذ الأمر فيه مخطر - كما يأتي - وأعلى الأقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة ، لأن الخاتمة فرع السابقة ، ويترتب عليها بعد تخلل أسباب كثيرة ، ولذا قال العارف الأنصاري : الناس يخافون

(هامش)

(٩٣) آل عمران ، الآية : ٢٨ . (٩٤) آل عمران ، الآية : ١٥٢ . (*)

ص ٢٠٦

من اليوم الآخر وأنا أخاف من اليوم الأول . فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب . وإليه أشار النبي (ص) في المنبر ، حيث رفع يده اليمنى قابضا على كفه ، ثم قال : أتدرون أيها الناس ما في كفي ؟ ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم إلى يوم القيامة . ثم رفع يده اليسرى وقال : أيها الناس ! أتدرون ما في كفي ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال : أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم إلى يوم القيامة . ثم قال : حكم الله وعدل ، حكم الله فريق في الجنة وفريق في السعير (٩٥) . وقال (ص) : يسلك بالسعيد في طريق الأشقياء حتى يقول الناس : ما أشبهه بهم بل هو منهم ، ثم تتداركه السعادة . وقد يسلك بالشقي طريق السعداء حتى يقول الناس : ما أشبهه بهم ، بل هو منهم ، ثم يتداركه الشقاء . إن من كتبه الله سعيدا وإن لم يبق من الدنيا إلا فواق ناقة ختم له بالسعادة (٩٦) .

فصل الخوف من الله أفضل الفضائل up

الخوف منزلة من منازل الذين ومقام من مقامات الموقنين ، وهو أفضل الفضائل النفسانية ، إذ فضيلة الشيء بقدر إعانته على السعادة ، ولا سعادة كسعادة لقاء الله والقرب منه ، ولا وصول إليها إلا بتحصيل محبته والأنس به . ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر ، ولا تتيسر المواظبة على الفكر والذكر إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب ، ولا ينقلع ذلك إلا بقمع لذاتها وشهواتها ، وأقوى ما تنقمع به الشهوة هو نار الخوف ، فالخوف هو النار المحرقة للشهوات ، فإذن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات ويكف من المعاصي وبحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف - كما مر - .

(هامش)

(٩٥) الشورى ، الآية : ٧ . (٩٦) هذا الحديث مروي في أصول الكافي في (باب السعادة والشقاوة) عن أبي عبد الله الصادق - عليه السلام - .

ص ٢٠٧

وقيل : من أنس بالله ، وملك الحق قلبه ، وبلغ مقام الرضا ، وصار مشاهدا لجمال الحق : لم يبق له الخوف ، بل يتبدل خوفه بالأمن ، كما يدل عليه قوله سبحانه : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون (٩٧) . إذ لا يبقى له التفات إلى المستقبل ، ولا كراهية عن مكروه ، ولا رغبة إلى محبوب ، فلا يبقى له خوف ولا رجاء ، بل صار حاله أعلى منها . نعم ، لا يخلو عن الخشية - أي الرهبة من الله ومن عظمته وهيبته - وإذا صار متجليا بنظر الوحدة لم يبق فيه أثر من الخشية أيضا . لأنه من لوازم التكثر وقد زال . ولذا قيل : الخوف حجاب بين الله وبين العبد . وقيل أيضا : إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها محل لخوف ولا رجاء . وقيل أيضا : المحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا في دوام الشهود الذي هو غاية المقامات . وأنت خبير بأن هذه الأقوال مما لا التفات لنا إليها ، فلنرجع إلى ما كنا بصدده من بيان فضيلة الخوف . فنقول : الآيات والأخبار الدالة عليه أكثر من أن تحصى ، وقد جمع الله للخائفين العلم والهدى والرحمة والرضوان ، وهي مجامع مقامات أهل الجنان ، فقال : إنما يخشى الله من عباده العلماء (٩٨) . وقال : هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون (٩٩) . وقال : رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه (١٠٠) . وكثير من الآيات مصرحة يكون الخوف من لوازم الإيمان ، كقوله تعالى : إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم (١٠١) . وقوله : وخافون إن كنتم مؤمنين (١٠٢) . ومدح الخائفين بالتذكر في قوله :

(هامش)

(٩٧) الأنعام ، الآية : ٨٢ . (٩٨) الفاطر ، الآية : ٢٨ . (٩٩) الأعراف ، الآية : ١٥٤ . (١٠٠) البينة ، الآية ٨ . (١٠١) الأنفال ، الآية : ٢ . (١٠٢) آل عمران ، الآية : ١٧٥ . (*)

ص ٢٠٨

سيذكر من يخشى (١٠٣) . ووعدهم الجنة وجنتين ، بقوله : وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى (١٠٤) . وقوله : ولمن خاف مقام ربه جنتان (١٠٥) . وفي الخبر القدسي : وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له آمنين ، فإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة . وقال رسول الله (ص) : رأس الحكمة مخافة الله وقال (ص) : من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء (١٠٦) ، وقال لابن مسعود : إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي وقال : (ص) أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا . وعن ليث بن أبي سليم قال : سمعت رجلا من الأنصار يقول : بينما رسول الله مستظل بظل شجرة في يوم شديد الحر ، إذ جاء رجل فنزع ثيابه ، ثم جعل يتمرغ في الرمضاء ، يكوي ظهره مرة ، وبطنه مرة ، وجبهته مرة ، ويقول : يا نفس ذوقي ، فما عند الله أعظم ما صنعت بك . ورسول الله ينظر إليه ما يصنع . ثم إن الرجل ليس ثيابه ، ثم أقبل ، فأومى إليه النبي (ص) بيده ودعاه ، فقال له : يا عبد الله ! رأيتك صنعت شيئا ما رأيت أحدا من الناس صنعه ، فما حملك على ما صنعت ؟ فقال الرجل : حملني على ذلك مخافة الله ، فقلت لنفسي : يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم مما صنعت بك . فقال النبي (ص) : لقد خفت ربك حق مخافته ، وإن ربك ليباهي بك أهل السماء ، ثم قال لأصحابه :

يا معشر من حضر ! ادنوا من صاحبكم حتى يدعو لكم . فدنوا منه ، فدعا لهم ، وقال : اللهم أجمع أمرنا على الهدى ، واجعل التقوى زادنا ، والجنة مآبنا . وقال (ص) : ما من مؤمن يخرج من عينيه دمعة ، وإن كانت مثل
(هامش)
(١٠٣) الأعلى ، الآية : ١٠ . (١٠٤) النازعات ، الآية : ٤٠ - ٤١ . (١٠٥) الرحمن ، الآية : ٤٦ . (١٠٦) روي الحديث في أصول الكافي في باب الخوف والرجاء من الصادق - عليه السلام - . (*)
ص ٢٠٩
رأس الذباب ، من خشية الله ، ثم يصيب شيئا من حر وجهه ، إلا حرمه الله على النار ، وقال : إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجر ورقها ، قال : لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع . وقال سيد الساجدين (ع) في بعض ادعيته : سبحانك ! عجبا لمن عرفك كيف لا يخافك . وقال الباقر عليه السلام : صلى أمير المؤمنين عليه السلام بالناس الصبح بالعراق ، فلما انصرف وعظهم ، فبكى وأبكاهم من خوف الله ، ثم قال : أما والله لقد عهدت أقواما على عهد خليلي رسول الله (ص) : وإنهم ليصبحون ويمسون شعثا غيرا حمصا بين أعينهم كركب البعير يبيتون لربهم سجدا وقياما ، يراوحون بين أقدامهم وجباههم ، يناجون ربهم في فكاك رقابهم من النار ، والله لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون ، وفي رواية أخرى ، وكأن زفير النار في آذانهم ، إذا ذكر الله عندهم مادوا كما تميد الشجر كأنما القوم باتوا غافلين ، ثم قال (ع) : فما رئي عليه السلام بعد ذلك ضاحكا حتى قبض . وقال الصادق عليه السلام : من عرف الله خاف الله ، ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا ، وقال عليه السلام : إن من العبادة شدة الخوف من الله تعالى يقول : إنما يخشى الله من عباده العلماء . وقال : فلا تخشوا الناس واخشون (١٠٧) . وقال : ومن يتق الله يجعل له مخرجا (١٠٨) . وقال : إن حب الشرف والذكر لا يكونان في قلب الخائف الراهب ، وقال (ع) : المؤمن بين مخافتين : ذنب قد مضى ما يدري ما صنع الله فيه ، وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك ، فهو لا يصبح إلا خائفا ولا يصلحه إلا الخوف وقال عليه السلام : خف الله كأنك تراه وإن كنت لا تراه فإنه يراك ، وإن كنت ترى أنه لا يراك ، فقد كفرت ، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك ، وقال عليه السلام : لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون خائفا
(هامش)
(
١٠٧) المائدة ، الآية : ٤٤ . (١٠٨) الطلاق ، الآية : ٢ . (*)
ص ٢١٠
راجيا ، ولا يكون خائفا راجيا حتى يكون عاملا لما يخاف ويرجو ، وقال عليه السلام : مما حفظ من خطب النبي (ص) أنه قال : أيها الناس ! إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين : بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، وفي الحياة قبل الممات فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار إلا الجنة أو النار . ثم الأخبار الواردة في فضل العلم والتقوى والورع والبكاء والرجاء تدل على فضل الخوف ، لأن جملة ذلك متعلقة به تعلق السبب أو تعلق المسبب ، إذ العلم سبب الخوف ، والتقوى والورع يحصلان منه ويترتبان عليه - كما ظهر مما سبق - والبكاء ثمرته ولازمه ، والرجاء يلازمه ويصاحبه ، إذ كل من رجا محبوبا فلا بد أن يخاف فوته ، إذ لو لم يخف فوته لم يحبه فلا ينفك أحدهما عن الآخر ، وإن جاز غلبة أحدهما على الآخر ، إذ من شرطهما تعلقها بالمشكوك ، لأن المعلوم لا يرجى ولا يخاف فالمحبوب المشكوك فيه تقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء ، وتقدير عدمه يؤلمه وهو الخوف ، والتقديران يتقابلان . نعم ، أحد طرفي الشك قد يترجح بحضور بعض الأسباب ، ويسمى ذلك ظنا ، ومقابله وهما ، فإذا ظن وجود المحبوب قوي الرجاء وضعف الخوف بالإضافة إليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان ، ولذلك قال الله سبحانه : ويدعوننا رغبا ورهبا (١٠٩) . وقال : يدعون ربهم خوفا وطمعا (١١٠) . وقد ظهر أن ما يدل على فضل الخمسة يدل على فضيلته ، وكذا ما ورد في ذم الأمن من مكر الله يدل على فضيلته ،

لأنه ضده ، وذم الشيء مدح لضده الذي ينفيه . ومما يدل على فضيلته ما ثبت بالتواتر من كثرة
(هامش)
(
١٠٩) الأنبياء ، الآية : ٩٠ . (١١٠) السجدة ، الآية : ١٦ . (*)
ص ٢١١
خوف الملائكة والأنبياء وأئمة الهدى - عليهم السلام - نكخوف جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وحملة العرش ، وغيرهم من الملائكة المهيمين والمسلمين . ونكخوف نبينا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وداود ويحيى . . . وغيرهم . وخوف أمير المؤمنين وسيد الساجدين وسائر الأئمة الطاهرين عليهم السلام وحكاية خوف كل منهم في كتب المحدثين مذكورة وفي زبرهم مسطورة ، فليرجع إليها من أراد ، ومن الله العصمة والسداد .
فصل الخوف إذا جاوز حده كان مذموما up
إعلم أن الخوف ممدوح إلى حد ، جاوزه كان مذموما . وبيان ذلك : إن الخوف سوط الله الذي يسوق به العباد إلى المواظبة على العلم والعمل ، لينالوا بهما رتبة القرب إليه تعالى ولذة المحبة والأنس به ، وكما أن السوط الذي تساق به البهيمة ويأدب به الصبي ، له حد من الاعتدال ، لو قصر عنه لم يكن نافعا في السوق والتأديب ، ولو تجاوز عنه في المقدار أو الكيفية أو المبالغة في الضرب كان مذموما لأدائه إلى إهلاك الدابة والصبي ، فكذلك الخوف الذي هو سوط الله لسوق عباده له حد في الاعتدال والوسط وهو ما يوصل إلى المطلوب ، فإن كان قاصرا عنه كان قليل الجدوى ، وكان كقضيب ضعيف يضرب به دابة قوية ، فلا يسوقها إلى المقصد . ومثل هذا الخوف يجري مجرى رقة النساء عند سماع شيء محزن يورث ففيهن البكاء ، وبمجرد انقطاعه يرجعن إلى حالهن الأولى ، أو مجرى خوف بعض الناس عند مشاهدة سبب هائل ، وإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة . فهذا خوف قاصر قليل الجدوى . فالخوف الذي لا يؤثر في الجوارح يكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفا . ولو كان مفرطا ربما جاوز إلى القنوط وهو ضلال : ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون (١١١) . أو إلى اليأس وهو كفر :
(هامش)
(١١١) الحجر ، الآية : ٥٦ . (*)
ص ٢١٢
لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون (١١٢) . ولا ريب في أن الخوف المجاوز إلى اليأس والقنوط يمنع من العمل ، لرفعهما نشاط الخاطر الباعث على الفعل ، وإيجابهما كسالة الأعضاء المانعة من العمل . ومثل هذا الخوف محض الفساد والنقصان وعين القصور والخسران ، ولا رجحان له في نظر العقل والشرع مطلقا ، إذ كل خوف بالحقيقة نقص لكونه منشأ العجز ، لأنه متعرض لمحذور لا يمكنه دفعه ، وباعث الجهل لعدم اطلاعه على عاقبة أمره ، إذ لو علم ذلك لم يكن خائفا لما مر من أن الخوف هو ما كان مشكوكا فيه ، فبعض أفراد الخوف إنما يصير كمالا بالإضافة إلى نقص أعظم منه ، وباعتبار رفعه المعاصي وإفضائه إلى ما يترتب عليه من الورع والتقوى والمجاهدة والذكر والعبادة وسائر الأسباب الموصلة إلى قرب الله وأنه ، ولو لم يؤد إليها كان في نفسه نقصا لا كمالا ، إذ الكمال في نفسه هو ما يجوز أن يوصف الله تعالى به ، كالعلم والقدرة وأمثالهما ، وما لا يجوز وصفه به ليس كمالا في ذاته ، وربما صار محمودا بالإضافة إلى غيره وبالنظر إلى بعض فوائده ، فما لا يفضي إلى فوائده المقصودة منه لإفراطه فهو مذموم ، وربما أوجب الموت أو المرض أو فساد العقل ، وهو كالضرب الذي يقتل الصبي أو يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضوا من أعضائها . وإنما مدح صاحب الشرع الرجاء وكلف الناس به ، ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي إلى اليأس أو إلى أحد الأمور المذكورة .
فالخوف المحمود ما يفضي إلى العمل مع بقاء الحياة وصحة البدن وسلامة العقل ، فإن تجاوز إلى إزالة شيء منها فهو مرض يجب علاجه ، وكان بعض مشايخ العرفاء يقول للمرتاضين من مريديه الملازمين للجوع أياما كثيرة : احفظوا عقولكم ، فإنه لم يكن الله تعالى ولي ناقص العقل وما قيل : إن من مات من خوف الله تعالى مات شهيدا معناه إن موته بالخوف أفضل من موته في هذا الوقت بدونه ، فهو بالنسبة إليه فضيلة ، لا بالنظر إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وتحصيل المعارف ، إذ للمترقي في درجات المعارف والطاعات له في كل

(هامش)
(١١٢) يوسف ، الآية : ٨٧ . (*)
ص ٢١٣
لحظة ثواب شهيد أو شهداء ، فأفضل السعادات طول العمر في تحصيل العلم والعمل ، فكل ما يبطل العمر أو العقل والصحة فهو خسران ونقصان .
فصل طرق تحصيل الخوف الممدوحup
لتحصيل الخوف لممدوح وجلبه طرق : (الأول) أن يجتهد في تحصيل اليقين : أي قوة الإيمان بالله ، واليوم لآخر ا ، والجنة ، والنار ، والحساب ، والعقاب . ولا ريب في كونه مهيجا للخوف من النار والرجاء للجنة . ثم الخوف والرجاء يؤديان إلى الصبر على المكاره والمشاق ، وهو إلى المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ، ويقوي دوام الذكر على الأنس ، ودوام الفكر على كمال المعرفة ، ويؤدي الأنس وكمال المعرفة إلى المحبة ، ويتبعها الرضا والتوكل وسائر المقامات . وهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين ، فليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدها مقام سوى الصبر ، ولا بعده سوى المجاهدة والتجرد لله ظاهرا وباطنا ، ولا بعده سوى الهداية والمعرفة ، ولا بعدهما سوى الأنس والمحبة . ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته ، وهو التوكل . فاليقين هو سبب الخوف ، فيجب تحصيل السبب ليؤدي إلى المسبب . (الثاني) ملازمة التفكر في أحوال القيامة ، وأصناف العذاب في الآخرة ، واستماع المواعظ المنذرة ، والنظر إلى الخائفين ومجالستهم ، ومشاهدة أحوالهم واستماع حكاياتهم . وهذا مما يستجلب الخوف من عذابه تعالى ، وهو خوف عموم الخلق ، وهو يحصل بمجرد أصل الإيمان بالجنة والنار ، وكونهما جزأين على الطاعة والمعصية ، وإنما يضعف للغفلة أو ضعف الإيمان ، وتزول الغفلة والضعف بما ذكر ، وأما الخوف من الله بأن يخاف البعد والحجاب ويرجو القرب والوصال ، وهو خوف أرباب القلوب ، العارفين من صفاته ما يقتضي الخوف والهيبة ، المطلعين على سر قوله : ويحذركم الله نفسه (١١٢) . وقوله : اتقوا الله حق تقاته (١١٤) .
(هامش)
(١١٣) آل عمران ، الآية : ٢٨ . (١١٤) آل عمران ، الآية : ١٠٢ . ج : ١ (*)
ص ٢١٤
فالعلاج في تحصيله الارتقاء إلى ذروة المعرفة ، إذ هذا الخوف ثمرة المعرفة بالله وبصفات جلاله وجماله ، ومن لم يمكنه ذلك فلا يترك سماع الأخبار والآثار وملاحظة أحوال الخائفين من هيبته وجلاله ، كالأنبياء والأول وزمرة العرفاء ، فإنه لا يخلو عن تأثير . (الثالث) أن يتأمل في أن الوقوف على كنه صفات الله في حيز المحال ، وإن الإحاطة بكنه الأمور ليس في مقدرة البشر ، إذ هي مرتبطة بالمشية ارتباطا يخرج عن حد المعقول والمألوف . ومن عرف ذلك على التحقيق يعلم إن الحكم على أمر من الأمور الآتية غير ممكن بالحدس والقياس ، فضلا عن القطع والتحقيق ، وحينئذ يعظم خوفه ويشتد ألمه ، وإن كانت الخيرات كلها له ميسرة ونفسها عن الدنيا بالمرة منقطعة ، وإلى الله بشراشرها ملتفتة ، إذ خطر الخاتمة وعسر الثبات على الحق مما لا يمكن دفعه ، وكيف يحصل الاطمئنان من تغير الحال ، وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن ، وإنه أشد تقلبا من القدر في غليانها ، وقد قال مقلب القلوب : إن عذاب ربهم غير مأمون (١١٥) . فأنى للناس أن يطمئنوا وهو يناديهم بالتحذر ، ولذا قال بعض العرفاء : لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة اسطوانة فما لم أقطع له بالتوحيد ، لأني لا أدري ما ظهر له من التقلب (١١٦) .
فصل خوف سوء الخاتمة وأسبابه up
قد أشير إلى أن أعظم المخاوف خوف سوء الخاتمة ، وله أسباب مختلفة ترجع إلى ثلاثة : (الأول) وهو الأعظم ، وهو أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله ، إما الجحود أو الشك فتقبض الروح في تلك الحالة ، وتصير عقدة الجحود أو الشك حجابا بينه وبين الله تعالى ، وذلك يقتضي البعد الدائم ، والحرمان اللازم ، وخسران الأبد ، والعذاب المخلد .
(هامش)
(١١٥) المعارج ، الآية : ٢٨ . (١١٦) نقل هذه الكلمة في إحياء العلوم (ج ٤ ص ١٤٩) عن بعض العارفين ولم يذكر اسمه أيضا . (*)

ص ٢١٥
ثم هذا الجحود أو الشك إما يتعلق ببعض العقائد الأصولية ، كالتوحيد وعلمه تعالى أو غير ذلك من صفاته الكمالية ، أو بضروريات أمر الآخرة والنبوة . وكل واحد من ذلك كاف في الهلاك وزهوق النفس على الزندقة . أو يتعلق بجميعها إما أصالة أو سراية ، والمراد بالسراية أن الرجل ربما اعتقد في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف ما هو الحق والواقع ، إما برأيه ومعقوبه ، أو بالتقليد ، فإذا قرب الموت وظهرت سكراته واضطرب القلب بما فيه ، ربما انكشف بطلان ما اعتقده جهلا ، إذ حال الموت حال كشف الغطاء ، ويكون ذلك سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو الشك فيها ، وإن كانت صحيحة مطابقة للواقع ، إذ لم يكن عنده أولا فرق بين هذا الاعتقاد الفاسد الذي انكشف فساده وبين سائر عقائده الصحيحة ، فإذا علم خطأه في البعض لم يبق له اليقين والاطمئنان في البواقي . كما نقل أن (الفخر الرازي) بكى يوما ، فسألوه عن سبب بكائه ، قال : اعتقدت في مسألة منذ سبعين سنة على نحو انكشف اليوم لي بطلانه ، فما أدراني أن لا تكون سائر عقائدي كذلك . وبالجملة : إن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن ينيب ويعود إلى أصل الإيمان ، فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك ، أعاذنا الله منه ، وثبتنا على الاعتقاد الحق لديه ، وهم المقصودون من قوله : وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (١١٧) . ومن قوله : قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (١١٨) . والبله : أعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا مجملا راسخا ، بمعزل عن هذا الخطر ، ولذلك ورد : إن أكثر أهل الجنة البله . وورد المنع من البحث والنظر والخوض في الكلام ، والأخذ بظواهر الشرع مع اعتقاد كونه تعالى منزها عن النقص متصفا بما هو الغاية والنهاية من صفات الكمال .
والسر في ذلك : أن البله إذا أخذوا بما ورد من الشرع واعتقدوا به ، يثبتون عليه لقصور أذهانهم عن درك الشبهات وعدم اعتيادهم (هامش)
(١١٧) الزمر ، الآية : ٤٧ . (١١٨) الكهف ، الآية : ١٠٣ - ١٠٤ . (*)
ص ٢١٦
بالتشكيك ، فلا يختلج ببالهم شك وشبهة ولو عند الموت . وأما الخائضون في غمرات البحث والنظر ، والآخذون عقائدهم من عقولهم المزجاة ، فليس لهم تثبت على عقائدهم ، إذ العقول عن درك صفات الله وسائر العقائد الأصولية على ما هي عليه قاصرة ، والأدلة التي يستخرجها مضطربة متعارضة وأبواب الشكوك والشبهات بالخوض والبحث تصير مفتوحة . فأذهانهم دائما محل تعارض العقائد والشكوك ، فربما ثبتت لهم عقيدة بملاحظة بعض دلائله ، فيحصل لهم فيها طمأنينة ، ثم يعرض لهم شك يرفعها أو يضعفها ، فهم دائما في غمرات الحيرة والاضطراب . فإذا كان حالهم هذا فأخذتهم سكرات الموت ، فأي استبعاد في أن يختلج لهم حينئذ شك في بعض عقائدهم . ومثله مثل من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج ، والغالب في مثله الهلاك ، وإن اتفق نادرا أن يرميه موج إلى الساحل . وقد نقل عن (نصير الدين الحلي) - وهو من أعاظم المتكلمين - أنه قال : إني تفكرت في العلوم العقلية سبعين سنة ، وصنفت فيها من الكتب ما لا يحصى ، ولم يظهر لي منها شيء سوى أن لهذا المصنوع صانعا ، ومع ذلك عجائز القوم في ذلك أشد يقينا مني . فالصواب تلقى أصل الإيمان والعقائد من صاحب الوحي ، مع تطهير الباطن عن خبائث الأخلاق ، والاشتغال بالطاعات وصوالح الأعمال ، وعدم التعرض لما هو خارج عن طاقتهم من التفكر في حقائق المعارف ، إلا من أيده الله بالقوة القدسية والقريحة المستقيمة ، وأشرق نور الحكمة في قلبه . وشمله خفي الألطاف من ربه ، فله الخوض في غمرات العلوم .
وأما غيره فينبغي أن يأخذ منه أصول عقائده الواردة من الشرع ، ويشتغل بخدمته حتى تشمله بركات أنفاسه ، فإن العاجز عن المجاهدة في صفه القتال ينبغي أن يسقي القوم ويتعهد دوابهم ، ليحشر يوم القيامة في زمرتهم وإن كان فاقدا لدرجتهم . (الثاني) ضعف الإيمان في الأصل ، ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله وقوي حب الدنيا في القلب ، واستولى عليه بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله إلا من حيث حديث النفس ، فلا يظهر له أثر في مخالفة
ص ٢١٧
النفس والشيطان ، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات ، حتى يظلم القلب ويسود ، وتتراكم ظلمة الذنوب عليه ، ولا يزال يطفئ ما فيه من نور الإيمان حتى ينطفئ بالكلية ، فإذا جاءت سكرة الموت ازداد حب الله ضعفا ، وربما عدم بالمرة ، لما يستشعر من فراق

محبوبه الغالب على قلبه ، وهو الدنيا ، فيتألم ويرى ذلك من الله ، فيختلج ضميره بإنكار ما قدره الله من الموت ، وربما يحدث في باطنه بغض الله بدل الحب ، لما يرى أن موته من الله ، كما إن من يحب ولده حبا ضعيفا ، إذا أخذ ما لا له هو أحب إليه منه وأتلفه ، انقلب حبه بعضا . فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطر فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء . نعود بالله من ذلك . وقد ظهر أن السبب المفضي إلى ذلك غلبة حب الدنيا مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله ، فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا فهو أبعد من هذا الخطر ، وإن أحب الدنيا أيضا ، ومن وجد في قلبه عكس ذلك فهو قريب من هذا الخطر . والسبب في قلة حب الله قلة المعرفة به ، إذ لا يحب الله إلا من عرفه ، وإلى هذا القسم من سوء الخاتمة أشير في الكتاب الإلهي بقوله : قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره (١١٩) . فمن فارقته روحه في حالة كراهة فعل الله وبغضه له في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه ، فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهرا ، ولا يخفى ما يستحق مثله من الخزي والنكال وأما الذي يموت على حب الله والرضا بفعله كان قدومه قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه ، ولا يخفي ما يلقاه من الفرح والسرور . (والثالث) كثرة المعاصي وغلبة الشهوات ، وإن قوى الإيمان .

وبيان ذلك : أن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة

(هامش)

(١١٩) التوبة ، الآية : ٢٤ . (*)

ص ٢١٨

الألف والعادة ، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره في قلبه عند موته ، فإن كان أكثر ميله إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره عند الموت طاعة الله ، وإن كان أكثر ميله إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عنده ، وإن كان أكثر شغله السخرية والاستهزاء والمزاح وأمثال ذلك كان الغالب عند الموت ذلك ، وهكذا الحال في جميع الأشغال والأعمال الغالبة في عمره ، فإنها تغلب على قلبه عند موته ، فربما يقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي ، فيعتقد بها قلبه ، ويصير محجوبا عن الله تعالى . وهو المراد بالختم على السوء . فالذي غلبت عليه المعاصي والشهوات ، وكان قلبه أميل إليها منه إلى الطاعة ، فهذا الخطر قريب في حقه ، ولا يميل إليها أصلا ، فهو بعيد منه جدا . ومن غلبت عليه الطاعات ولم يقارف المعاصي إلا نادرا ، فلعل الراجح في حقه النجاة منه ، وإن أمكن حصوله . ومن لم يغلب شيء من طاعاته ومعاصيه على الآخر فأمره في هذا الخطر إلى الله ، ولا يمكن لنا الحكم بشيء من القرب والبعد في حقه . والسر في ذلك : أن الغشية المتقدمة على الموت شبيهة بالنوم ، فكما إن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره وألفها ، حتى أنه لا يرى في منامه إلا ما يماثل مشاهداته في اليقظة ، وحتى أن المراهق الذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع ، فكذلك حاله عند سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية ، لكونه شبيها بالنوم وإن كان فوقه ، فيقتضي ذلك تذكر المألوفات وعودها إلى القلب ، فربما يكون غلبة الألف سببا لأن تمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل نفسه إليها وتقبض عليها روحه ، ويكون ذلك سبب سوء خاتمته ، وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها بعناية الله وفضله .

وكما إن ما يخطر بالبال في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص لا يعلمه بحقيقته أحد إلا الله ، فكذلك ما يرى في آحاد المنامات وما يختلج في القلب عند سكرات الموت له أسباب عند الله لا نعرف بعضها ، وربما تمكن من معرفة بعضه ، فإنا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه ، أما بالمشابهة ، بأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلا آخر ، وأما بالمضادة ، بأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحا ، وأما بالمقارنة ، بأن ينظر إلى

ص ٢١٩

فرس قد رآه من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الإنسان . وقد ينتقل الخاطر من شيء إلى شيء ، ولا يدري وجه المناسبة له ، وربما ينتقل إلى شيء لا يعرف سببه أصلا . وكذلك انتقالات الخواطر بالمنام وعند سكرات الموت لها أسباب لا نعرف بعضها ونعرف بعضها بالنحو المذكور . ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال إلى المعاصي والشهوات ، فلا طريق له إلا المجاهدة طول عمره في

فطام نفسه عنها ، وفي قمع الشهوات عن قلبه ، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ، ويكون طول المجاهدة والمواظبة على العلم وتخلية السر عن الشواغل الدنيوية وتقييده بالتوجه إلى الله وحبه وأنسه عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت ، إذ المرء يموت على ما عاش عليه ، ويحشر على ما مات عليه ، كما ورد في الخبر (١٢٠) . وقد دلت المشاهدة على أن كل أحد يكون عند موته مشغول القلب بما هو الغالب عليه طول عمره ، حيث يظهر منه عنده ذلك ، وإنما المخوف الموجب لسوء الخاتمة هو خاطر سوء يخطر ، ومنه عظم خوف العارفين ، إذ اختلاج الخواطر والاتفاقات المقتضية لكونها مذمومة أو ممدوحة لا يدخل تحت الاختيار دخولا كليا ، وإن كان لطول الألف والعادة تأثير ومدخلية ، ولذا إذا أراد الإنسان ألا يرى في المنام إلا الأنبياء والأئمة عليهم السلام وأحوال الصالحين والعبادات لم يتيسر له ، وإن كانت كثرة الحب والمواظبة على الصلاح والطاعة مؤثرة فيه . وبالجملة : اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط ، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة .

وبذلك يعلم أن أعمال العبد كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح ، وإن السلامة مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة ، ولذلك قال رسول الله (ص) : إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فواق ناقة ، فيختم له بما سبق به الكتاب ومعلوم إن فواق الناقة لا يتسع لأعمال توجب الشقاوة ، بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر

(هامش)

(١٢٠) لم نعثر على مصدر لهذا الخبر ، وجاء ذكر هذا الخبر مرسلا في (الحقائق) - ص ٨٨ طبع ايران - للشيخ (ملا محسن الفيض) ولم يذكر المصدر له . (*)

ص ٢٢٠

خطور البرق الخاطف . ومن هنا قيل (١٢١) : إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك ، ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا ، وورد (١٢٢) : إن الملائكة إذا صعدت بروح المؤمن ، وقد مات على الخير والإسلام ، تعجبت الملائكة منه ، وقالوا : كيف نجا من دنيا فسد فيها خيارنا . ولذلك قيل (١٢٣) : من وقعت سفينته في لجة البحر ، وهجمت عليه الرياح العاصفة ، واضطربت الأمواج ، كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة ، وأمواج الخواطر أعظم التطاما من أمواج البحر ، ومقلب القلوب هو الله . ومن هنا يظهر سر قوله : الناس كلهم هلكى ألا العالمون ، والعالمون ، كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم (١٢٤) . ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مطلوبة وموت الفجأة مكروها ، إذ موت الفجأة ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب . وأما الشهادة في سبيل الله فإنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب غير حب الله ، وخرج حب الدنيا والمال والولد . فإن من هجم على صف القتال بأمر الله وأمر رسوله يكون موطنا نفسه على الموت لرضا الله وحبه ، بائعا دنياه بآخرته ، راضيا بالبيع الذي بايعه الله به في قوله : إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة (١٢٥) . وبذلك يظهر أن القتل لا بسبب الشهادة التي حقيقتها ما فسر ، لا يفيد الاطمئنان من هذا الخطر ، وإن كان ظلما ، وإن كان في الجهاد ، إذا لم تكن

(هامش)

(

١٢١) القائل هو (مطرف بن عبد الله) كما في إحياء العلوم : ج ٤ ص ١٥٥ . (١٢٢) يظهر من كلمة (ورد) أن هذا حديث . وفي إحياء العلوم - ج ٤ ص ١٥٥ - كلام ينقله عن (حامد اللفاف) . (١٢٣) القائل هو (الغزالي) في إحياء العلوم ، في الصة المتقدمة . (١٢٤) جاء نص هذا الكلام في أثناء كلام (الغزالي) في إحياء العلوم - ج ٤ ص ١٥٦ - وكأنه من كلام نفسه . إلا أنه جاء نص هذه العبارة في (مجموعة الشيخ ورام) ص ٣٢٠ ، عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - مرسلا . وكذلك جاء في (مصباح الشريعة) المنسوب إلى الصادق - عليه السلام - في الباب ٧٧ ما يقرب من هذا النص . فماذا تظن أراد المؤلف بقوله : (سر قوله) هل أراد الغزالي يا ترى ؟ . (١ ٢٥) التوبة ، الآية : ١١١ . (*)

ص ٢٢١

هجرته فيه إلى الله ورسوله ، بل إلى دنيا يصيبها أو امرأة يأخذها . وقد ظهر مما ذكر : أن سوء الخاتمة باختلاف أسبابه راجع إلى أحوال

القلب ، وحالة القلب إما خاطر خير أو خاطر سوء أو خاطر مباح ، فمن زهق روحه على خاطر مباح لم يكن الحكم بأنه ختم على خير أو سوء ، بل أمره إلى الله ، وإن كانت النجاة له أقرب بعد غلبة صالحات أعماله على فاسداتها ومن زهق روحه على خاطر سوء وهو أحد الخواطر المتقدمة : فقد ضل ضلالا بعيدا ، و خسر خسرانا مبينا (١٢٦) . ومن زهق روحه على خاطر خير وهو أن يكون قلبه في حالة الموت متوجها إلى الله ممتليا من حبه وأنسه فقد فاز فوزا عظيما . وهذا موقوف على المجاهدة في فطام النفس عن الشهوات الحيوانية ، وإخراج حب الدنيا عنها رأسا ، . الاحتراز عن فعل المعاصي ومشاهداتها والتفكر فيها ، وعن مجالسة أهلها واستماع حكاياتهم ، بل عن مباحات الدنيا بالكلية ، وتخلية السر عما سوى الله ، والانقطاع بشراشره إليه ، وإخراج محبة كل شيء سوى محبته عن قلبه ، حتى يصير حبه سبحانه والأنس به ملكة راسخة ، ليغلب على القلب عند سكرة الموت ، وبدون ذلك لا يمكن القطع بذلك ، كيف وقد علمت أن الغشية المتقدمة على الموت شبه النوم ، وأنت في غالب الرؤيا الظاهرة عليك في المنام لا تجد في قلبك حبا لله وأنسا به وتوجها إليه ، بل لا يخطر ببالك أن لك ربا متصفا بالصفات الكمالية ، بل ترى ما كنت تألفه وتعتاده من الأمور الباطلة والخيالات الفاسدة ، فإن زهق روحك عند اشتغال خاطرك بشيء من الأمور الدنيوية ، ولم يكن متوجها إلى الله ومستحضرا معرفته ومبتهجا بحبه وأنسه ، لبقيت على تلك الحالة أبدا ، وهو الشقاوة العظمى والخيبة الكبرى .

فتيقظ - يا حبيبي - من سنة الغفلة ، وتنبه عن سكر الطبيعة ، واخرج حب الدنيا عن قلبك ، وتوجه بشراشرك إلى جناب ربك ، واكتف من الدنيا بقدر ضرورتك ولا تطلب منها فوق حاجتك ، واقنع من الطعام ما يقيم صلبك ولا تكثر التناول منه ليزيل من ربك قربك ، وارض من اللباس بما

(هامش)

(١٢٦) النساء ، الآية ١١٦ ، ١١٩ . (*)

ص ٢٢٢

يستر عورتك ولا يظهر للناس سوءتك ، واكتف من المسكن بما يحول بينك وبين الأبصار ويدفع عنك حر الشمس ويرد الأمطار ، فإن جاوزت عن ذلك تشعبت همومك وتكثرت غمومك ، وأحاط بك الشغل الدائم والعناء اللازم ، وذهب عنك جل خيراتك وضاعت بركات أوقاتك . وبعد ذلك راقب قلبك في جميع الأوقات ، وإياك أن تهمله لحظة من اللحظات ، واحفظه من أن يكون محلا لغير معرفة الله وحبه ، وليكن القرب إلى الله والأنس به غاية همك ، إذ العاقل إنما يميل ويشتاق إلى ما هو الأشرف والأكمل ، ويسر ويرتاح بما له أحسن وأنفع ، ولا ريب في أن أشرف الموجودات وأكملها هو سبحانه ، بل هو الموجود الحقيقي والكمال الواقعي ، وغيره من الموجودات والكمالات من لوازم فيضه ورشحات وجوده وفضله ، وله غاية ما يتصور من العلو والكمال والبهاء والجلال ، إن معرفته وحبه أحسن الأشياء وأنفعها لكل أحد ، لأنه الباعث للسعادة الأبدية والبهجة الدائمية ، فلا ينبغي للعاقل أن يترك ذلك اشتغالا بفضول الدنيا وخسائسها ، بل يلزم عليها أن يترك حبلها على غاربها ، ويخلص نفسه الشريفة عن مخالبها ، ويتوجه بكليته إلى جناب ربه ، ولم يكن فرحه وابتهاجه إلا بحبه وأنسه .

فصل الفرق بين الاطمئنان والأمن من مكر الله up

ضد الخوف المذموم هو اطمئنان القلب في الأمور المذكورة ، ولا ريب في كونه فضيلة وكما لا ، إذ قوة القلب وعدم اضطرابه مما يحكم العقل بعدم الحذر عنه صفة كمال ، ونقيضه نقص ورذيلة . وأما الخوف الممدوح ، فضده الأمن من مكر الله ، وهو من المهلكات ود ورد به الذم في الآيات والأخبار ، قال الله سبحانه : فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون (١٢٧) . وقد ثبت بالتواتر : أن الملائكة والأنبياء كانوا خائفين من مكره ، كما روي : أنه لما ظهر على إبليس ما ظهر ، طفق جبرئيل وميكائيل يبكيان ، فأوحى الله إليهما : ما لكما تبكيان ؟ فقالا : يا رب ! لا نأمن مكرك ، فقال

(هامش)

(١٢٧) الأعراف ، الآية : ٩٩ . (*)

ص ٢٢٣

الله : هكذا كونا ، لا تأمنا مكري . وروي : أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وجبرئيل بكيا من خوف الله تعالى ، فأوحى الله إليهما : لم تبكيان وقد أمنتكما ؟ فقالا : ومن يأمن مكرك ؟ وكأنهما لم يأمنا أن يكون قوله (قد أمنتكما) ابتلاء لهما وامتحانا . حتى أن

سكن خوفهما (١٢٨) ظهر أنهما قد أمنا المكر وما وفيا بقولهما ، كما أن إبراهيم (ع) لما وضع في المنجنيق قال : حسبي الله . وكان هذا القول منه من الدعاوي العظيمة ، فامتحن وعورض بجبرئيل (ع) في الهواء حتى قال : أنك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . وكان ذلك وفاء بمقتضى قوله ، فأخبر الله تعالى عنه وقال : وإبراهيم الذي وفى (١٢٩) . وبالجملة ينبغي للمؤمن ألا يأمن من مكر ربه ، كما لم يأمن منه الملائكة والأنبياء ، وإذا لم يأمن منه كان خائفا منه دائما .

تتميم التلازم بين الخوف والرجاء up

الرجاء ارتياح القلب لانتظار المحبوب ، وهو يلازم الخوف ، إذ الخوف - كما عرفت - عبارة عن التألم من توقع مكروه ممكن الحصول ، وما يمكن حصوله يمكن عدم حصوله أيضا ، وما كان حصوله مكروها كان عدم حصوله محبوبا ، فكما إنه يتألم بتوقع حصوله يرتاح ليتوقع عدم حصوله أيضا ، فالخوف عن الشيء وجودا يلزمه الرجاء عدما ، وعنه عدما يلزمه الرجاء وجودا . وقس عليه استلزام الرجاء للخوف ، فهما متلازمان ، وإن أمكن غلبة أحدهما نظرا إلى كثرة حصول أسبابه . وإن تيقن الحصول أو عدمه لم يكن انتظارهما خوفا ورجاء ، بل سمي انتظار مكروه أو انتظار محبوب . ثم كما إن الخوف من متعلقات قوة الغضب ، وإن الممدوح منه من فضائلها ، لكونه مقتضى العقل والشرع ، وباعثا للعمل من حيث الرهبة ،

(هامش)

(١٢٨) هذه العبارة لبيان الابتلاء والامتحان ، يعني : إنهما يخشيان إذا سكن خوفهما أن يظهر إنهما قدامنا المكر ولم يوفيا بقولهما فيكون ذلك امتحانا لهما . (١٢٩) النجم ، الآية : ٣٧ . (*)

ص ٢٢٤

فكذا الرجاء متعلق بها ومن فضائلها ، لكونه مقتضاهما وباعثا للعمل من حيث الرغبة . إلا أن الخوف لترتبه على ضعف القلب يكون أقرب إلى طرف التفريط ، والرجاء لترتبه على قوته يكون أقرب إلى طرف الإفراط وإن كان كلاهما ممدوحين . ثم لا بد أن يحصل أكثر أسباب حصول المحبوب حتى يصدق اسم الرجاء على انتظاره ، كتوقع الحصاد ممن ألقى بذرا جيدا في أرض طيبة يصلها الماء . وأما انتظار ما لم يحصل شيء من أسبابه فيسمى غرورا وحماقة ، كتوقع من ألقى بذرا في أرض سبخة لا يصلها الماء . وانتظار ما كان أسبابه مشكوكة يسمى تمنيا ، كما إذا صلحت الأرض ولا ماء . وتفصيل ذلك : أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر ، والطاعات هي الماء الذي تسقي به الأرض ، وتطهير القلب من المعاصي والأخلاق الذميمة بمنزلة تنقية الأرض من الشوك والأحجار والنباتات الخبيثة ، ويوم القيامة هو وقت الحصاد . فينبغي أن يقاس رجاء العبد (المغفرة) برجاء صاحب الزرع (التنمية) ، وكما أن من ألقى البذر في أرض طيبة ، وساق إليها الماء في وقته ، ونقاها الشوك والأحجار ، وبدل جهده في قلع النباتات الخبيثة المفسدة للزرع ، ثم جلس ينتظر كرم الله ولطفه مؤملا أن يحصل له وقت الحصاد مائة قفيز مثلا ، سمي انتظاره رجاء ممدوحا فكذلك العبد إذا طهر أرض قلبه عن شوك الأخلاق الردية وبث فيه بذر الإيمان بماء الطاعات ، ثم انتظر من فضل الله تثبيته إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة ، كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه . وكما أن من تغافل عن الزراعة واختار الراحة طول السنة ، أو ألقى البذر في أرض سبخة مرتفعة لا ينصب إليها ماء ولم يشتغل بتعهد البذر وإصلاح الأرض من النباتات المفسدة للزرع ، ثم جلس منتظرا إلى أن ينبت له زرع يحصده سمى انتظاره حمقا وغرورا .

كذلك من لم يلق بذر الإيمان في أرض قلبه أو ألقاه مع كونه مشحونا برذائل الأخلاق منهمكا في خسائس الشهوات واللذات ، ولم يسق إليها ماء الطاعات ، ثم انتظر المغفرة ، كان انتظار حمقا وغرورا . وكما أن من بث البذر في أرض طيبة لا ماء لها ، وجلس ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ، وإن لم يمتنع أيضا ، سمي انتظاره

ص ٢٢٥

تمنيا . كذلك من ألقى بذر الإيمان في أرض قلبه ، ولكنه لم يسق إليه ماء الطاعات ، وانتظر المغفرة بلطفه وفضله ، كان انتظاره تمنيا . فإذن ، اسم (الرجاء) إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . فالأحاديث الواردة في الترغيب على الرجاء وفي سعة عفو الله وجزيل رحمته ووفور مغفرته . إنما هي مخصوصة بمن يرجو الرحمة والغفران بالعمل الخاص المعد لحصولهما وترك الانهماك في المعاصي

المفوت لهذا الاستعداد . فاحذر أن يغرك الشيطان ويثبطك عن العمل ويقنعك بمحض الرجاء والأمل . وانظر إلى حال الأنبياء والأولياء واجتهادهم في الطاعات وصرفهم العمر في العبادات ليلا ونهارا ، أما كانوا يرجون عفو الله ورحمته ؟ بلى والله ! إنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأرجى لها منك ومن كل أحد ، ولكن علموا أن رجاء الرحمة من دون العمل غرور محض وسفه بحت ، فصرفوا في العبادات أعمارهم وقصروا على الطاعات ليلهم ونهارهم . ونحن نشير (أولا) إلى بعض ما ورد في الرجاء من الآيات والأخبار ، ثم نورد نبذا مما يدل على أنه لا معنى للرجاء بدون العمل ، ليعلم أن إطلاق الأول حمول على الثاني . فنقول : الظواهر الواردة في الرجاء أكثر من أن تحصى ، وهي على أقسام : (الأول) ما ورد في النهي عن القنوط واليأس من رحمة الله كقوله تعالى : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله (١٣٠) . وقول علي عليه السلام لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : أيا هذا ! يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وما روي : أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - لما قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون إلى ربكم . فهبط جبرئيل عليه السلام فقال : إن ربك يقول : لم تقنط عبادي ؟ نخرج عليهم ورجاهم وشوقهم .

وما ورد : أن رجلا من بني إسرائيل

(هامش)

(١٣٠) الزمر ، الآية : ٥٢ . (*)



كان يقنط الناس ويشدد عليهم ، فيقول الله له يوم القيامة : اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها . (الثاني) ما ورد في الترغيب على خصوص الرجاء وكونه سبب النجاة كما ورد في أخبار يعقوب من أنه تعالى أوحي إليه أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف ؟ لقولك : وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون (١٣١) . لم خفت الذئب ولم ترجني أو لم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي ؟ وقول أمير المؤمنين - عليه السلام - لرجل قال عند النزع : أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي : ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجاه وأمنه مما يخاف (١٣٢) . وقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإن لقنه الله حجته ، قال : رب رجوتك وخفت الناس ، فيقول الله : قد غفرته لك . وما روي عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - : إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان ، فيقول الله لجبرئيل : إذهب فأتني بعبدي ، فيجئ به ، فيوقفه على ربه ، فيقول الله له : كيف وجدت مكانك ؟ فيقول : شر مكان ، فيقول : رده إلى مكانه . قال : فيمشي ويلتفت إلى ورائه ، فيقول الله عز وجل ، إلى أي شيء تلتفت ؟ فيقول : لقد رجوت ألا تعيدني إليها بعد إذ أخرجتني منها ، فيقول الله تعالى : اذهبوا به إلى الجنة . وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - ؟ قال الله تعالى : لا يتكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي ، فإنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم أعمارهم في عبادتي ، كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادي ، فيما يطلبون عندي من كرامتي ، والنعيم في جناتي ، ورفيع الدرجات العلي في جواري ، ولكن برحمتي فليثقوا ، وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا ، وفضلي فليرجوا (١٣٣) ،

(هامش)

(

١٣١) يوسف ، الآية : ١٣ . (١٣٢) روي (إحياء العلوم : ج ٤ ص ١٢٥) هذا الحديث عن النبي (ص) . (١٣٣) في الكافي في (باب حسن الظن بالله عز وجل) تقديم وتأخير عما هنا ، فقد جاء فيه : وفضلي فليرجوا وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا . (*)



فإن رحمتي عند ذلك تدركهم ، ومني يبلغهم رضواني ، ومغفرتي تلبسهم عفوي ، فإني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت . وعن أبي جعفر عليه السلام قال : وجدنا في كتاب علي (ع) أن رسول الله (ص) قال وهو على منبره : والذي لا إله إلا هو ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين ، والذي لا إله إلا هو لا

يعذب الله مؤمنا بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله وتقصيره من رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين ، والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبده المؤمن ، لأن الله كريم بيده الخيرات يستحيي (١٣٤) أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يختلف ظنه ورجاءه ، فأحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه . (الثالث) ما ورد في استغفار الملائكة والأنبياء للمؤمنين كقوله تعالى : والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض (١٣٥) . وقوله (ص) : حياتي خير لكم وموتي خير لكم ، أما حياتي فأسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع ، وأما موتي فإن أعمالكم تعرض علي ، فما رأيت منها حسنا حمدت الله عليه ، وما رأيت منها سيئا استغفرت الله لكم . (الرابع) ما ورد في تأجيل المذنب إلى أن يستغفر ، كقول الباقر (ع) : إن العبد إذا أذنب أجل من غدوة إلى الليل ، فإن استغفر لم يكتب عليه (١٣٦) . وقول الصادق (ع) : من عمل سيئة أجل فيها سبع ساعات من النهار ، فإن قال : استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات ، لم تكتب عليه . (الخامس) ما ورد في شفاعة النبي (ص) كقوله تعالى : ولسوف يعطيك ربك فترضى (١٣٧) .

وقد ورد في تفسيره أنه لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار ،

(هامش)

(١٣٤) في الكافي في (باب حسن الظن) : (يستحي) . (١٢٥) الشورى ، الآية : ٥ . (١٣٦) روى الكافي في (باب الاستغفار من الذنب) هذا الحديث عن الصادق - عليه السلام - . (١٣٧) الضحى ، الآية : ٥ . (*)

ص ٢٢٨

وقوله (ص) : ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ، وكذا ما ورد في شفاعة الأئمة والمؤمنين . (السادس) ما ورد من البشارات للشيعة ومن عدم خلودهم في النار ، ومن أن حب النبي (ص) والعترة الطاهرة ينجيهم من العذاب ، وإن فعلوا ما فعلوا . (السابع) ما دل على أن النار إنما أعدها الله لأعدائه من الكافرين ، وإنما يخوف بها أولياءه ، كقوله تعالى : لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده (١٣٨) ، وقوله واتقوا النار التي أعدت للكافرين (١٣٩) وقوله : لا يصلاها إلا الأشقى . الذي كذب وتولى (١٤٠) . (الثامن) ما ورد في سعة عفو الله ومغفرته ووفور رأفته ورحمته ، كقوله : وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم (١٤١) وما روي في تفسير قوله تعالى : يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه (١٤٢) . إن الله أوحى إلى نبيه : إني أجعل حساب أمتك إليك ، فقال : لا يا رب ! أنت خير لهم مني (١٤٣) ، فقال : إذن لا أخزيك فيهم . وما روي : إنه (ص) قال يوما : يا كريم العفو ! فقال جبرئيل : أتدري ما تفسير يا كريم العفو ؟ هو : إنه يعفو عن السيئات برحمته ثم يبدلها حسنات بكرمه (١٤٤) . وما ورد : أن العبد إذا أذنب فاستغفر ، يقول الله لملائكته : انظروا إلى عبدي أذنب ذنبا ، فعلم أنه له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب : أشهدكم أني قد غفرت له . وما ورد في الخبر القدسي : إنما خلقت الخلق ليربحوا علي ، ولم أخلقهم لأربح عليهم . وما ورد من أنه لو لم يذنبوا ، لخلق الله تعالى خلقا يذنبون ليغفر لهم وقوله (ص) : والذي نفسي بيده . الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها .

وما ورد

(هامش)

(١٣٨) الزمر ، الآية : ١٦ . (١٣٩) آل عمران ، الآية : ١٣١ . (١٤٠) الليل ، الآية : ١٥ - ١٦ . (١ ٤١) الرعد ، الآية : ٦ . (١٤٢) التحريم ، الآية : ٨ . (١٤٣) في (إحياء العلوم : ج ٤ ص ١٢٨) هكذا : أنت أرحم بهم مني وكذا بدل لا أخزيك : لا نخزيك . (١٤٤) في (إحياء العلوم : ص ١٢٩ من ج ٤) هكذا : هو إن عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه . (*)

ص ٢٢٩

من أنه سبحانه ليغفرن يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد ، حتى أن إبليس يتطاول لها رجاء أن تصيبه . والآيات والأخبار الواردة في هذا المعنى متجاوزة عن حد التواتر . (التاسع) ما دل على أن ابتلاء المؤمن في الدنيا بالبلايا والأمراض كفارة لذنوبه ، كقوله (ص) : الحمى من قيح جهنم ، وهي حظ المؤمن من النار . (العاشر) ما ورد في أن الإيمان لا يضر معه عمل ، كما أن الكفر لا ينفع معه عمل ، وفي أنه قد يغفر الله عبدا ويدخله الجنة لأجل مثقال ذرة من الإيمان أو عمل جزئي من الأعمال

الصالحة . (الحادي عشر) ما ورد في الترغيب على حسن الظن بالله ، كقوله (ص) : لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ، وقوله (ص) : يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء . وقول الرضا (ع) : أحسن الظن بالله ، فإن الله عز وجل يقول : أنا عند ظن عبدي لي ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر . وقول الصادق (ع) : حسن الظن بالله : ألا ترجو إلا الله ، ولا تخاف إلا ذنبك . وقد تقدم بعض أخبار أخر في هذا المعنى . ثم إيجاب حسن الظن للرجاء وجلبه له مما لا ريب فيه . (الثاني عشر) ما دل على أن الكفار أو النصاب يكونون يوم القيامة فداء للمؤمنين أو الشيعة ، كما روي أنه (ص) قال : أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة ، وعجل عقابها في الدنيا بالزلازل والفتن ، فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمتي رجل من أهل الكتاب ، فقيل هذا فداؤك من النار . وعن أهل البيت عليهم السلام : إن النصاب يجعلون فداء لشيعتنا بظلمهم إياهم ووقيعتهم فيهم .

وعن الصادق (ع) : سيؤتى بالواحد من مقصري شيعتنا في أعماله ، بعد أن صان الولاية والتقية وحقوق إخوانه ، ويوقف بإزائه ما بين مائة وأكثر من ذلك إلى مائة ألف من النصاب ، فيقال له : هؤلاء فداؤك من النار ، فيدخل هؤلاء المؤمنون إلى الجنة وأولئك النصاب إلى النار ، وذلك ما قال الله تعالى : ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين (١٤٥) .

(هامش)

(١٤٥) الحجر ، الآية : ٢ . ج : ١ (*)

ص ٢٣٠

في الدنيا منقادين للإمامة ، ليجعل مخالفوهم من النار فداءهم . وأما (الثاني) - أعني ما يدل على أن رجاء المغفرة والعفو والرحمة إنما بعدهو العمل - فأكثر من أن يحصى ، كقوله تعالى : إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله (١٤٦) . وقوله : فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا (١٤٧) . وقول النبي (ص) : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة . وما روي عن الصادق (ع) أنه قيل له : قوم يعملون بالمعاصي ويقولون : نرجوا ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت ، فقال : هؤلاء قوم يترجحون في الأماني كذبوا ليسوا براجين ، إن (١٤٨) من رجا شيئا طلبه ، ومن خاف من شيء هرب منه . وعن علي بن محمد ، قال : قلت له عليه السلام : إن قوما من مواليك يلمون بالمعاصي ويقولون نرجوا ، فقال : كذبوا ، ليسوا لنا بموال ، أولئك قوم تربحت بهم الأماني . من رجا شيئا عمل له ، ومن خاف شيئا هرب منه . وعنه قال : لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون خائفا واجبا ، ولا يكون خائفا راجيا حتى يكون عاملا لما يخاف ويرجو .

وصل (مواقع الخوف والرجاء وترجيح أحدهما على الآخر) up

قد عرفت أن الخوف والرجاء محمودان ، لكونهما باعثين على العمل ودواءين يداوى بهما أمراض القلوب ، ففضل كل منها إنما هو بحسب ما يترتب عليه من فائدة العمل ومعالجة المرض . وهذا يختلف باختلاف الأشخاص : فمن كان تأثير الخوف في بعثه على العمل أكثر من تأثير الرجاء فيه ، فالخوف له أصلح من الرجاء ، ومن كان بالعكس فبالعكس . ومن غلب عليه مرض الأمن من مكر الله والاغترار به فالخوف له أصلح . ومن غلب عليه اليأس والقنوط ، فالرجاء له أصلح ،

(هامش)

(١٤٦) البقرة ، الآية : ٢١٨ . (١٤٧) الأعراف ، الآية : ١٦٩ . (١٤٨) روي الحديث في الكافي (باب الرجاء) ، وليس فيه كلمة إن . (*)

ص ٢٣١

ومن انهمك في المعاصي ، فالخوف له أصلح . ومن ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه ، فالأصلح له أن يعتدل خوفه ورجاؤه . والوجه في ذلك ، أن كل ما يراد به المقصود ، ففضله إنما يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه ، فلو فرض تساويهما في البعث على العمل ولم يغلب شيء من المذكورات ، فالأصلح اعتدالهما ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام لبعض ولده : يا بني ! خف الله خوفا ترى إنك إن أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك ، وارج الله رجاء كأنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك . وقال الباقر عليه السلام : ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران : نور خيفة ، ونور رجاء ، لو وزن هذا لم يزد على هذا ، وقد جمع

الله سبحانه بينهما في وصف من أثنى عليهم ، فقال : يدعون ربهم خوفا وطمعا ، وقال : يدعوننا رغبا ورهبا . وعن الحارث بن المغيرة قال : قلت للصادق (ع) : ما كان في وصية لقمان ؟ قال : كان فيها الأعاجيب ، وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه : خف الله عز وجل خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك ، وارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك ، ثم قال عليه السلام : كان أبي عليه السلام يقول : إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران : نور خيفة ، ونور رجاء ، لو وزن هذا لم يزد على هذا ، ولو وزن هذا لم يزد على هذا . وقال عليه السلام : الخوف رقيب القلب ، والرجاء شفيع النفس ، ومن كان بالله عارفا كان من الله خائفا وإليه راجيا ، وهما جناحا الإيمان ، يطير العبد المحلق بهما إلى رضوان الله ، وعينا عقله ، يبصر بهما إلى وعد الله ووعيده ، والخوف طالع عدل الله وناعي وعيده ، والرجاء داعي فضل الله ، وهو يحيي القلب ، والخوف يميت النفس . .

ومن عبد الله على ميزان الخوف والرجاء لا يضل ، ويصل إلى مأموله ، وكيف لا يخاف العبد وهو غير عالم بما تختم صحيفته ، ولا له عمل يتوسل به استحقاقا ، ولا قدرة له على شيء ولا مفر ، وكيف لا يرجو وهو يعرف نفسه بالعجز ، وهو غريق في بحر آلاء الله ونعمائه ، من حيث لا تحصى ولا تعد ، والمحب يعبد ربه على الرجاء بمشاهدة أحواله بعين سهر (١٤٩) ، والزاهد يعبد على

(هامش)

(١٤٩) هكذا في نسخ هذا الكتاب ونسخة البحار ، ولم نعثر على استعمال = (*)

ص ٢٣٢

الخوف (١٥٠) . وقد ظهر مما ذكر : أن الرجاء أصلح وأفضل في موضعين : (أحدهما) في حق من تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض ، وكان الرجاء باعثا له على التشمير والنشاط للطاعات ، ومثله ينبغي أن يرجي نفسه نعم الله تعالى وما وعد الله به الصالحين في العليين ، حتى ينبعث من رجائه نشاط العباد . (وثانيهما) في حق العاصي المنهمك إذا خطر له خاطر التوبة ، فيقنطه الشيطان من رحمة الله ، ويقول له كيف تقبل التوبة من مثلك ؟ فعند هذا يجب عليه أن يقمع قنوطه بالرجاء ويتذكر ما ورد فيه ، كقوله تعالى : لا تقنطوا من رحمة الله (١٥١) . وقوله : وإني لغفار لمن تاب (١٥٢) . ويتوب ويتوقع المغفرة مع التوبة لا بدونها ، إذ لو توقع المغفرة مع الإصرار كان مغرورا . والرجاء الأول يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمير ، والثاني يقطع القنوط المانع من التوبة .

فصل (العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف) up

العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد أحبهم إليه ، والحب يغلب بالرجاء . واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء لعطائه ، ولذلك غير الله أقواما يظنون السوء بالله ، قال : وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم (١) وقال : وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا (٢) . وورد في الرجاء وحسن الظن ما ورد - كما تقدم - وفي الخبر : إن الله تعالى أوحى إلى داود : أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى خلقي ،

(هامش)

= كلمة (سهر) للمبالغة في معنى ساهرة . (١٥٠) هذه الرواية نقلها في البحار (الجزء الثاني من المجلد ١٥ في باب الخوف والرجاء) عن مصباح الشريعة . وقد تقدم رأي صاحب البحار في مصباح الشريعة ص ١٢١ في تعليقتنا . وهذه الرواية ظاهرة أنها ليست من أسلوب كلام الإمام - عليه السلام - . (١٥١) الزمر ، الآية : ٥٣ . (١٥٢) طه ، الآية : ٨٢ . (١) فصلت ، الآية : ٢٣ . (٢) الفتح ، الآية : ١٢ . (*)

ص ٢٣٣

فقال : يا رب ! كيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : اذكرني بالحسن الجميل ، وأذكر آلائي وإحساني ، وذكرهم ذلك ، فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل . ورأى بعض الأكابر في النوم - وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء - فقال : أوقفني الله بين يديه ، فقال : ما الذي حملك على ذلك ؟ فقلت : أردت أن أحببك إلى خلقك . فقال : قد غفرت لك . هذا مع أن الرجاء أفضل من الخوف للعبد بالنظر إلى مطلعهما ، إذ الرجاء مستقى من بحر الرحمة والخوف مستقى من بحر الغضب . ومن لاحظ من صفات الله ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب ، وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضي الغضب ، فلا

تمازجه المحبة كممازجتها للرجاء . نعم ، لما كانت المعاصي والاغترار على الخلق أغلب ، (لا) سيما على الموجودين في هذا الزمان ، فالأصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط ألا يخرجهم إلى اليأس وقطع العمل ، بل يحثهم على العمل ، ويكدر شهواتهم ، ويزعج قلوبهم عن الركون إلى دار الغرور ، ويدعوهم إلى التجافي عن عالم الزور ، إذ مع غلبة المعاصي على الطاعات لا ريب في أصلحية الخوف ، (لا) سيما أن الآفات الخفية : من الشرك الخفي ، والنفاق ، والرياء ، وغير ذلك من خفايا الأخلاق الخبيثة في أكثر الناس موجودة ، ومحبة الشهوات والحطام الدنيوي في بواطنهم كامنة ، وأهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده ممكنة ، ومناقشات الحساب ورد أعمالهم الصالحة لأسباب خفية محتملة ، فمن عرف حقائق هذه الأمور ، فإن كان ضعيف القلب جبانا في نفسه غلب خوفه على رجائه ، وإن كان قوي القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه .

وأما أن يغلب رجاؤه فلا ، بل غلبته إنما هو من الاغترار وقلة التدبر ، كما في غالب الناس ، بل الأصلح لهم غلبة الخوف ، ولكن قبل الإشراف على الموت ، وأما عنده فالأصلح لهم غلبة الرجاء وحسن الظن ، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل ، وقد انقضى وقته ، وهو لا يطيق هنا أسباب الخوف ، لأنها تقطع نياط قلبه وتعين على تعجيل موته . وأما روح الرجاء فيقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه .

ص ٢٣٤

وينبغي أن لا يفارق أحد الدنيا إلا محبا لله ، ليكون محبا للقائه ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن أحب الله ولقاءه وعلم أنه تعالى أيضا يحب لقاءه ، اشتاق إليه تعالى ، وكان فرحانا بالقدوم عليه ، إذ من قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوبه اشتد عذابه ومحنته ، فمهما كان الغالب على القلب عند الموت حب الأهل والولد والمال كانت محابه كلها في الدنيا ، فكانت الدنيا جنته ، إذ الجنة هي البقعة الجامعة لجميع المحاب ، فكان موته خروجا عن الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه . وهذا أول ما يلقاه كل محب للدنيا ، فضلا عما أعد الله له من ضروب الخزي والنكال والسلاسل والأغلال . وأما إذا لم يكن له محبوب سوى الله وسوى معرفته وحبه وأنسه ، فالدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب ، فالدنيا أول سجنه ، إذ السجن هي البقعة المانعة عن الوصول إلى محابه ، فموته خلاص له من السجن وقدوم على المحبوب ، ولا يخفى حال من خلص من السجن وخلى بينه وبين محبوبه ، وهذا أول ابتهاج يلقاه من كان محبا لله غير محب للدنيا وما فيها ، فضلا عما أعده الله له مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

فصل (مداواة الناس بالخوف أو الرجاء على اختلاف أمراضهم) up

قد عرفت أن المحتاج إلى تحصيل دواء الرجاء من غلب عليه اليأس فترك العبادة ، أو غلب عليه الخوف فأسرف فيها حتى أضر بنفسه وأهله . وأما المنهمكون في طغيان الذنوب والمغرورون بما هم فيه من الفساد والخوف - كأكثر أبناء زماننا - فأدوية الرجاء بالنسبة إليهم سموم مهلكة ، إذ لا يزداد سماعهم لها إلا تماديا في طغيانهم وفسادا في فسادهم وعصيانهم ، فواعظ الخلق ينبغي أن يعرف أمراضهم وينظر إلى مواقع عللهم ، ويعالج كل علة بما يضادها لا بما يزيدها ، ففي مثل هذا الزمان ينبغي ألا يذكر لهم بواعث الرجاء ، بل يبالغ في ذكر أسباب الخوف ، لئلا يهلكهم ويرديهم بالكلية ، ولا يقصد بموعظته استمالة القلوب وتوقع الثناء من الناس ، فينتقل إلى الترغيب على الرجاء لكونه أخف على القلوب وألذ عند النفوس

ص ٢٣٥

فيهلك ويهلكهم ويضل ويضلهم . وبالجملة : الطريق إلى تحصيل الرجاء لمن يحتاج إليه : أن يتذكر الآيات والأخبار المتواترة الواردة فيه وفي سعة رحمته ووفور عفوه ورأفته - كما تقدم شطر منها - ثم يتأمل في لطائف نعمائه وعجائب آلائه لعباده في دار الدنيا ، حتى أعد لهم كل ما هو ضروري لهم في دوام الوجود ، بل لم يترك لهم شيئا جزئيا يحتاجون إليه نادرا يفوت بفقده ما هو الأصلح الأولى لهم من الزينة والجمال . فإذا لم تقصر العناية الإلهية عن عباده في جميع ما يحب ويحسن لهم من اللطف والاحسان في دار الدنيا - وهي حقيقة دار البلية والمحنة لا دار النعمة والراحة - ولم يرض أن يفوته شيء من المزائد والمزايا في الحاجة والزينة ، فكيف يرضى في دار الآخرة التي هي دار الفيض والجود بسياقهم إلى الهلاك المؤبد والعذاب المخلد ، مع أنه تعالى أخبر بأن رحمته سابقة على غضبه ؟

! وأقوى ما يجلب به الرجاء أن يعلم أن الله تعالى خير محض لا شرية فيه أصلا ، وفياض على الإطلاق ، وإنما أوجد الخلق لإفاضة الجود والاحسان عليهم ، فلا بد أن يرحمهم ولا يبقيهم في الزجر الدائم . از خير محض جز نكوئى نآيد * خوش باش كه عاقبت نكو خواهد شد (١) ومنها :

• صغر النفس up

وهو ملكة العجز عن تحمل الواردات ، وهو من نتائج الجبن ، ومن خبائث الصفات . وتلزمه الذلة والمهانة ، وعدم الاقتحام في معالي الأمور ، والمسامحة في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف ، والاضطراب بعروض أدنى شيء من البلايا والمخاوف . وقد ورد في الأخبار بأن المؤمن برئ عن ذلة النفس ، قال الصادق عليه السلام : إن الله عز وجل فوض إلى المؤمن أموره كلها ولم يفوض إليه أن يكون ذليلا : أما تسمع الله تعالى يقول : ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ؟ (٢)

(هامش)

(١) وحاصل معنى هذا البيت : (إن الخير المحض لا يصدر عنه إلا الجميل فكن مطمئنا أن عاقبتك ستكون إلى الجميل) . (٢) المنافقون ، الآية : ٨ . (*)

ص ٢٣٦

فالمؤمن يكون عزيزا ولا يكون ذليلا ، إن المؤمن أعز من الجبل ، الجبل يستقل منه (٣) بالمعاول والمؤمن لا يستقل من دينه شيء . وقال عليه السلام : إن الله فوض إلى المؤمن كل شيء إلا إذلال نفسه . وقد وردت بهذا المضمون أخبار أخر . وعلاجه ما تقدم في معالجة الجبن .

وصل (كبر النفس وصلابتها) up

وضده (كبر النفس وصلابتها) ، وقد عرفت أنه ملكة التحمل لما يرد عليه كائنا ما كان . وقد دلت الأخبار على أن المؤمن ذو صلابة وعزة ومهابة ، وكل ذلك فرع كبر النفس . قال الباقر عليه السلام : المؤمن أصلب من الجبل ، وقال عليه السلام : إن الله تعالى أعطى المؤمن ثلاث خصال : العز في الدنيا والآخرة ، والفلح في الدنيا والآخرة : والمهابة في صدور الظالمين . وصاحب هذه الملكة لا يبالي بالكرامة والهوان ، ويتساوى عنده الفقر واليسار والغنى والإعسار ، بل الصحة والمرض والمدح والذم ، ولا يتأثر بتقلب الأمور والأحوال . وهي ملكة شريفة ليست شريعة لكل وارد ، ولا يصل إليها إلا واحد بعد واحد ، بل لا يحوم حولها إلا أوحدي من أفاضل الحكماء ، أو ألمعي قوي القلب من أماثل العرفاء . وطريق تحصيلها - بعد تذكر شرافتها - أن يتكلف في المواظبة على آثارها والاجتناب عما ينافيها ، حتى تحصل بالتدريج .

تتميم (الثبات أخص من كبر النفس) up

قد عرفت أن الثبات أخص من كبر النفس ، وهو ملكة التحمل على الخوض في الأهوال ، وقوة المقاومة مع الشدائد والآلام ، بحيث لا يعتريه الانكسار ، وإن زادت وكثرت . وضده الاضطراب في الأهوال والشدائد ،

(هامش)

)

٣) تقدم في صة (٢٠٨) مضمون هذا الحديث ، ورجحنا فيه كلمة (يستفل) بدل (يستقل) وفسرناها ثم بعد التحقيق وجدنا ذلك الحديث المتقدم في أصول الكافي في باب صفات المؤمن بكلمة (يستقل) - بالقاف - وكذلك نسخ جامع السعادات هنا وهناك وجاء في البحار (الجزء الأول المجلد ١٥ - باب علامات المؤمن وصفاته ص ٥٩٦) في شرح هذا الحديث هكذا : الجبل يستقل منه : من القلة ، أي ينقص ويؤخذ منه بعضه بالفأس والمعول ونحوهما . (*)

ص ٢٣٧

ومن جملة الثبات الثبات في الإيمان ، وهو اطمئنان النفس في عقائدها ، بحيث لا يتزلزل فيها بالشبهات ، قال الله تعالى : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي الآخرة (٤) . وهذا الاطمئنان من شرائط كسب الكمال وفضائل الأعمال ، إذ ما لم تستقر النفس على معتقداتها في المبدأ والمعاد لم يحصل لها العزم البالغ على تحصيل ما يتوقف فائدته عليها ، فمن ليس له هذا الثبات لا تجده ثابتا ومواظبا على شيء من الأعمال الفاضلة ، بل هو : كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران (٥) والمتصف به مواظب

لها دائما من غير فتور . وعدم هذا الثبات لعدم البصيرة الباطنة أو لضعف في النفس . فوجوده يحصل من المعرفة وقوة النفس ، فهو من فضائل العاقلة وقوة الغضب ، وعدمه من رذائل إحداهما أو كليهما . ومنها :

• دناءة الهمة up

وهو قصور النفس عن طلب معالي الأمور وقناعتها بأدانيها ، وهو من نتائج ضعف النفس وصغرها . وضده (علو الهمة) ، وهو ملكة السعي في تحصيل السعادة والكمال وطلب معالي الأمور ، من دون ملاحظة منافع الدنيا ومضارها ، حتى لا يعتريه السرور بالوجدان ولا الحزن بالفقدان ، بل لا يبالي في طريق الطلب بالموت والقتل وأمثالهما . وصاحب هذه الملكة هو المؤمن الحقيقي الشائق للموت ، والموت تحفة له ، وأعظم سرور يصل إليه ، كما ورد في الأخبار . وهو الذي يقول : آن مرد نيم كز عدمم بين آيد * كان بيم مرا خوشتر از اين بيم آيد جاني است مرا بعاريت داده خدا * تسليم كنم چو وقت تسليم آيد (٦)

(هامش)

(٤) إبراهيم ، الآية : ٢٧ . (٥) الأنعام ، الآية : ٧١ . (٦) الأبيات كلها لـ(حافظ الشيرازي) المتقدم ذكره . ومعنى البيتين : (لست بذلك الرجل الذي يخشى من فناء نفسه ، فإن ما أخشى منه - وهو الموت - أحسن عندي من نفس الخوف منه ، لأن نفسي قد أعارنيها الله تعالى فعلي أن أسلمها عندما يطلب تسليم العارية) . (*)

ص ٢٣٨

ويقول : مرگ اگر مرد است گو نزد من آي * تا در آغوشش در آرم تنگ تنگ من از آن عمرى ستانم جاودان * آن زمن دلقى ستاند رنگ رنگ (٧) ويقول : أين جان عاريت كه بحافظ سپرده دوست * روزى رخش ببينم وتسليم وى كنم (٨) وهذه الملكة من نتائج كبر النفس وشجاعتها ، وهي أعظم الفضائل النفسانية ، إذ كل من وصل إلى المراتب العظيمة والأمور العالية فإنما وصل إليها لأجلها ، إذ صاحبها لا يرضى بالمراتب الدنية ، ويشمر لتحصيل المراتب العالية والأمور المتعالية ، وفي جوهر الإنسان وجبلته أن يصل إلى كل ما يجتهد في طلبه : والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (٩) . من طلب الشيء وجد وجد . ومن أفراد علو الهمة الشهامة ، وهو الحرص على اقتناء عظائم الأمور توقعا لجميل الذكر على مر الدهور . ومنها :

• عدم الغيرة والحمية up

وهو الإهمال في محافظة ما يلزم محافظته : من الدين ، والعرض ، والأولاد ، والأموال . وهو من نتائج صغر النفس وضعفها ، ومن المهلكات العظيمة ، وربما يؤدي إلى الديائة والقيادة . قال رسول الله (ص) : إذا لم يغر الرجل فهو منكوس القلب . وقال (ص) : إذا غير الرجل في أهله أو بعض مناكحه من مملوكته فلم يغر ، بعث الله إليه طائرا يقال له (القندر) حتى يسقط على عارضة بابه ، ثم يمهله أربعين يوما ، ثم يهتف به : إن الله غيور يحب كل غيور ، قال هو غار وغير وأنكر ذلك فأكبره ، وإلا

(هامش)

(٧) معنى البيتين : (لو أن الموت رجل ، فقال له : يأتيني حتى أحتضنه شوقا إليه ، وألزه لزا . وذلك لأني آخذ منه الحياة الخالدة ويأخذ مني هذه الزخارف الفانية للوارث) . (٨) معنى البيت : (إن هذه النفس العارية التي أمنها الحبيب عند حافظ - ويعني نفسه - لا بد أن أسلمها في يوم من الأيام عندما أرى وجه الحبيب - يعني بالحبيب : الله تعالى -) . (٩) العنكبوت ، الآية : ٦٩ . (*)

ص ٢٣٩

طار حتى يسقط على رأسه فيخفق بجناحيه على عينيه ثم يطير عنه ، فينزع الله منه بعد ذلك روح الإيمان ، وتسميه الملائكة : الديوث . وقال (ص) : كان إبراهيم غيورا وأنا أغير منه ، وجدع الله أنف من لا يغار على المؤمنين والمسلمين . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : يا أهل العراق ! نبئت أن نساءكم يدافعن الرجال في الطريق ، أما تستحيون ؟ . وقال (ع) : أما تستحيون ولا تغارون ، نساؤكم يخرجن إلى الأسواق ويزاحمن العلوج ؟ . وصل (الغيرة والحمية) وضده (الغيرة والحمية) ، وهو السعي في محافظة ما يلزم محافظته ، وهو من نتائج الشجاعة وكبر النفس وقوتها ، وهي شرائف الملكات ، وبها تتحقق الرجولية والفحلية ، والفاقد لها غير معدود من الرجال . قال رسول الله (ص) : إن سعدا لغيور ، وأنا أغير من سعد ، والله أغير مني . وقال (ص) : إن الله لغيور ، ولأجل غيرته حرم الفواحش وقال : إن الله يغار ، والمؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه . وقال الصادق عليه السلام : إن

الله تعالى غيور ويحب الغيرة ، ولغيرته حرم الفواحش ظاهرها وباطنها . فصل (الغيرة على الدين والحريم والأولاد) مقتضى الغيرة والحمية في (الدين) أن يجتهد في حفظه عن بدع المبتدعين ، وانتحال المبطلين ، وقصاص المرتدين وإهانة من يستخف به من المخالفين ، ورد شبه الجاحدين ، ويسعى في ترويجه ونشر أحكامه ، ويبالغ في تبيين حلاله وحرامه ، ولا يتسامح في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومقتضى الغيرة على (الحريم) ألا يتغافل عن مبادئ الأمور التي تخشى غوائلها ، فيحفظهن عن أجانب الرجال ، ويمنعهن عن الدخول في الأسواق قال رسول الله (ص) لفاطمة (ع) : أي شيء خير للمرأة ؟ قالت : أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل . فضمها إليه ، وقال : ذرية بعضها من بعض . وكان أصحاب النبي (ص) يسدون الثقب والكوى في الحيطان ، لئلا تطلع

ص ٢٤٠

النساء على الرجال . وقال (ص) : من أطاع امرأته أكبه الله على وجهه في النار . وما روي أنه (ص) : أذن للنساء في حضور المساجد ، وقال لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ، فالظاهر أنه كان مختصا بنساء عصره (ص) ، لعلمه بعدم ترتب فساد على حضورهن فيها . والصواب اليوم أن يمنعن من حضور المساجد والذهاب إلى المشاهد إلا العجائز منهن ، للقطع بترتب الفساد والمعصية على خروج نساء هذا العصر إلى أي موضع كان . وسئل الصادق (ع) عن خروج النساء في العيدين ، فقال : لا ! إلا العجوز عليها منقلاها . يعني الخفين . وفي رواية أخرى أنه (ع) : سئل عن خروج النساء في العيدين والجماعة ، فقال : لا ! إلا امرأة مسنة . وبالجملة : من اطلع على أحوال نساء أمثال عصرنا يعلم أن مقتضى الغيرة أن يبالغ في حفظهن عن جميع ما يحتمل أن يؤدي إلى فتنة وفساد ، سواء كان في نفسه محرما ، كالنظر إلى الرجال الأجانب واستماع كلامهم بلا ضرورة شرعية وارتكاب الملاهي المحرمة ، أولا ، كالخروج عن البيت بلا داع شرعي أو ضروري ، ولو إلى المساجد والمشاهد المشرفة ومجامع تعزية مولانا أبي عبد الله الحسين عليه السلام ، إذ ذلك وإن كان في نفسه راجحا إلا أن الغالب عدم انفكاكه عما ينافي الغيرة والحمية على ما هو المشاهد في عصرنا ، فإن أقل ما في الباب أنه لا ينفك عن نظرهن إلى الأجانب واستماع كلامهم ، بل عن نظرهم إليهن واستماع كلامهن ، وهذا خروج للطرفين إلى الانحراف عن قانون العفة . مع إنا نعلم قطعا أن خروج أكثرهن لا يخلو عن غرض فاسد أو مرجوح ، وما أقل فيهن أن يكون خروجها إلى أحد المواضع المذكورة لمحض القربة والثواب . فالصواب أن يمنعن في أمثال هذا العصر عن مطلق الخروج ، إلا إلى سفر واجب ، كالحج ، أو إلى بيت عالم عادل لأخذ ما يجب عليهن من المسائل ، إذا لم يتمكن أزواجهن من أخذها وإيصالها إليهن .

نعم ، لو فرض خروجها إلى أحد المشاهد أو إلى مجمع تعزية من مجامع النساء بل إلى مجمع العرس ، على نحو اطمأن الزوج منها وتيقن بعدم حدوث ما ينافي الغيرة وعدم ترتب فساد ومعصية وريبة عليه ، فالظاهر جواز الإذن بل رجحانه . وجميع ذلك إنما هو في الشواب

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

١٠٩ 07

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ٢٤١

من النساء ، وأما العجائز فلا بأس بخروجهن إلى المواضع المذكورة ! ومقتضى الغيرة أن يمنعن من استماع الكلمات الملهية والحكايات المهيجة للشهوة ، وعن مجالسة العجائز اللاتي يحضرن مجامع الرجال وينقلن حكاياتهم وقصصهم لأنهن ناقصات العقل والإيمان ، ومع ذلك شهوتهن في غاية القوة والغلبة ، فاستماعهن لشيء من المذكورات يوجب ثوران الشهوة وهيجانها فيهن ، فلما لم يكن فيهن قاهر العقل ومانع الإيمان فربما أدى ذلك إلى فساد عظيم . ولذلك ورد في الأخبار منعهن عن تعلم سورة يوسف عليه السلام ، إذ استماعهن الأمثال القصة المذكورة فيها ربما أدى إلى انحرافهن عن طريق العفة . قال أمير المؤمنين (ع) : لا تعلموا نساءكم سورة يوسف ولا تقرؤهن إياها فإن فيها الفتن ، وعلموهن سورة النور فإن فيها المواعظ . وقال (ع) : لا تحملوا الفروج على السروج فتهيجوهن للفجور . وقال رسول الله (ص) : لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور . وبالجملة : مقتضى العقل والنقل أن يمنعن عن جميع ما يمكن أن يؤدي إلى فساد وريبة . وعن مبادئ الأمور التي تخاف غوائلها ، وينبغي لصاحب الغيرة أن يجعل

نفسه مهيبا في نظرها ، حتى تكون منه على خوف وحذر ، ولا تطمئن منه فتتبع هواها وما تقتضيه جبلتها ، وأن يجعلها مشغولة في كل وقت بأمر من الأمور ، كتدبير المنزل وإصلاح أمر المعيشة ، أو بكسب من المكاسب ، حتى يكون لها دائما شغل شاغل ، ولا تكون فارغة عنه في وقت من الأوقات ، إذ لو خلت عن الأشغال وتعطلت عن المهمات أوقعها الشيطان في أودية الأفكار الردية ، فتميل إلى الزينة والخروج والتفرج ، والنظر إلى أجانب الرجال ، والملاعبة والمضاحكة للنسوان ، فينجر أمرها إلى الفساد .

وينبغي أيضا لصاحب الغيرة أن يعطي امرأته ما تحتاج إليه من القوت واللباس وسائر الضروريات ، حتى لا تضطر إلى ارتكاب ما لا ينبغي من الحركات والأفعال توصلا إلى أخذ شيء من ذلك من غير زوجها . ثم ينبغي ألا توقعه الغيرة في طرف الإفراط فيبالغ في إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن ، فقد نهى رسول الله (ص) : أن يتبع عورات النساء

ص ٢٤٢

وأن يتعنت بهن . وفي الخبر المشهور : إن المرأة كالضلع ، إن أردت أن تقيمه كسرته ، فدعه تستمتع به على عوج . وقال (ص) : من الغيرة غيرة يبغضها الله ورسوله ، وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة . وقال أمير المؤمنين (ع) : لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك . وقال عليه السلام في رسالته إلى الحسن (ع) : إياك والتغاير في غير موضع الغيرة ، فإن ذلك يدعوهن إلى السقم ، ولكن أحكم أمرهن فإن رأيت عيبا فعجل النكير على الصغير والكبير ، بأن تعاقب منهن البريئة فتعظم الذنب وتهون العيب . وبالجملة : لا ينبغي المبالغة في الفحص والتفتيش ، إذ لا ينفك ذلك عن سوء الظن الذي نهينا عنه ، فإن بعض الظن إثم . وأما مقتضى الغيرة على (الأولاد) : إن تراقبهم من أول أمرهم ، فاستعمل في حضانة كل مولود له وإرضاعه امرأة صالحة تأكل الحلال ، إذ الصبي الذي تتكون أعضاؤه من اللبن الحاصل من غذاء حرام يميل طبعه إلى الخبائث ، لأن طينته انعجنت من الخبث . وإذا بدأت فيه مخائل التمييز فينبغي أن يؤدب بآداب الأخيار . ولما كان أول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام ، فينبغي أن يؤدب فيه بأن يؤمر بألا يأخذ إلا بيمينه ، ويقول (باسم الله) عند أكله ، ويأكل مما يليه ، ولا يبادر إلى الطعام قبل غيره ، ولا يحدق إلى الطعام ولا إلى من يأكل ، ولا يسرع في الأكل ، ويمضغ الطعام مضغا جيدا ، ولا يلطخ ثوبه ولا يده . ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يذم كثير الأكل ويشبه بالبهائم ، ويمدح الصبي الذي يقنع بالقليل ، ويحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به ، والقناعة بأي طعام اتفق . ثم يؤدب في أمر اللباس ، حتى لا يخرج فيه عن زي الأبرار وأهل الورع ، فيحبب إليه ثياب القطن والبيض ، دون الإبريسم الملون ، ويقرر عنده بأن ذلك شأن النساء والمخنثين ، والرجال يستنكفون منه ، ويحفظ من الصبيان الذين تعودوا التنعم والترفه والزينة . ثم يؤدب في الأخلاق والأفعال ويبالغ في ذلك ، لأن الصبي إذا أهمل في أول نشوه خرج في الأكثر ردي الأخلاق والأفعال ، فيكون كذابا ، حسودا ، لجوجا ، عنودا سارقا ، خائفا ، ذا ضحك وفضول ، وربما صار مخنثا مائلا إلى الفسوق

ص ٢٤٣

والفجور ، فينبغي أن يحفظ من قرناء السوء ، وهو الأصل في تأديبه . يسلم إلى معلم دين صالح ، يعلمه القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار ، لينغرس في نفسه حب الصالحين . ويحفظ عن الأشعار التي فيها ذكر الفسوق وأهله ، إذ ذلك يغرس في قلبه بذر الفساد . وينبغي أن يعود الصبر والسكوت إذا ضربه المعلم ، حتى لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد حينئذ ، ويذكر له أن ذلك دأب الرجال والشجعان ، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان . وينبغي أن يؤذن له بعد الفراغ من المكتب باللعب المباح الجميل حتى يستريح من تعب الأدب ، ولا يموت قلبه ، ولا ينقص ذكاه . ويعلم محاسن الأخلاق والأفعال ، ويجنب عن خبائث الصفات ورذائل الأعمال فيخوف من الحسد ، والعداوة ، والجبن ، والبخل ، والكبر ، والعجب ويحذر من السرقة ، وأكل الحرام ، والكذب ، والغيبة ، والخيانة ، والفحش واللعن ، والسب ، ولغو الكلام . . وغير ذلك . ويرغب في الصبر ، والشكر ، والتوكل ، والرضا ، والشجاعة ، والسخاء ، والصدق ، والنصيحة . . . وغير ذلك من محاسن الأخلاق وفضائلها . ويمدح عنده الأخيار ويذم الأشرار ، حتى يصير الخير عنده محبوبا ، ويصير الشر عنده مبغوضا . وإذا بلغ سن التمييز ، يؤمر بالطهارة والصلاة ، وبالصوم في بعض الأيام من شهر رمضان ، ويعلم أصول العقائد وكل ما يحتاج إليه من حدود الشرع . ومهما ظهر منه خلق جميل أو فعل محمود ، فينبغي أن يكرم عليه ويجازى لأجله بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس .

وإن ظهر منه فعل قبيح مرة واحدة ينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك سره ، ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ، (لا) سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه ، فإن إظهار ذلك ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة بعد ذلك ، فإن عاد ثانيا إلى مثله ، فينبغي أن يعاتب عليه سرا ويعظم الأمر فيه ، ويقال له : إياك أن يطلع على فعلك هذا أحد فتفتضح عند الناس . ولا يكثر العتاب عليه حتى يسقط وقع الكلام من قلبه . وليكن الأب حافظا هيبته في الكلام والحركات معه . وينبغي للأم أن تخوفه بالأب . وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله خفية ، فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح ، فإذا ترك يعود

ص ٢٤٤

فعل القبيح . ويعود الوقار والطمأنينة في المشي وسائر الحركات والأفعال وعدم كشف أطرافه ، والتواضع والاكرام لكل من عاشره ، والتلطف معه في الكلام ، ويعلم طاعة والديه ، ومعلمه ، ومؤدبه ، وكل من هو أكبر سنا منه ، من قريب وبعيد ، ويعود النظر إليهم بعين التعظيم والجلالة وترك اللعب بين أيديهم . ويمنع من الفخر على أقرانه بشيء مما تملكه نفسه أو والده . ويخوف من أخذ شيء من الصبيان أو الرجال ، أو يذكر له أن الرفعة في العطاء ، والأخذ لؤم وخسة ومهانة وذلة ، فإنه دأب الكلب ، إذ هو يتبصبص في انتظار لقمة ، ويقبح عنده حب الذهب والفضة ، ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب ، إذ آفة حبهما أكثر من آفة السموم وقد هلك لأجله كل من هلك العالم . ويعود ألا يبصق في مجلسه ، ولا يتخط ، ولا يتمطط ، ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضرب كفه تحت ذقنه ، لأنه دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس والحركة والسكون . ويمنع من النوم في النهار ، ومن التنعم في المفرش والملبس والمطعم ، بل يعود الخشونة فيها حتى تتصلب أعضاؤه ، ولا يستخف بدنه ، يذكر له أنها خلقت لدفع الضرر والألم لا لأجل اللذة الأطعمة.وإن أدوية يتقوى الإنسان بها على عبادة الله ، وإن الدنيا كلها لا أصل لها ولا بقاء لها ، وإن الموت يقطع نعيمها ، وإنها دار ممر لا دار مقر . وإن الآخرة هي دار القرار ومحل الراحة واللذات ، والكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة . وينبغي أن يمنع من كثرة الكلام ، ومن الكذب ، واليمين ولو كان صدقا ، ومن اللهو واللعب والسخرية وكثرة المزاح ، ومن أن يبتدئ بالكلام ، ويعود ألا يتكلم إلا جوابا وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر سنا منه ، وأن يقوم لمن هو أكبر منه ، ويوسع له المكان ويجلس بين يديه .

فإذا تأدب الصبي بهذه الآداب في صغره صارت له بعد بلوغه ملكات راسخة ، فيكون خيرا صالحا . وإن نشأ على خلاف ذلك ، حتى ألف اللعب والفحش ، والوقاحة ، والخرق ، وشره الطعام ، واللباس ، والتزين والتفاخر بلغ وهو خبيث النفس كثيف الجوهر ، وكان وبالا لوالديه ، وصدر منه

ص ٢٤٥

ما يوجب الفضيحة والعار . فيجب على كل والد ألا يتسامح في تأديب ولده في حالة الصبا ، لأنه أمانة الله عنده ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة عن كل نقش وصورة ، وقابل للخير والشر ، وأبواه يميلان به إلى أحدهما ، فإن عود الخير نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم ومؤدب ، وإن عود الشر وأهمل شقى وهلك ، وكان الوزر في رقبة أبيه أو من كان فيما ووليا له . ثم الصبية تؤدب بمثل ما مر ، إلا فيما يتفاوت به الصبي والصبية ، فيستعمل ما يليق بها ، ويجب السعي في جعلها ملازمة للبيت ، والحجاب ، والوقار ، والعفة ، والحياء ، وسائر الخصال التي ينبغي أن تتصف بها النساء . ثم ينبغي أن يتفرس من حال الصبي أنه مستعد لأي علم وصناعة ، فيجعل مشغولا باكتسابه ويمنع من اكتساب غيره ، لئلا يضيع عمره ولا تترتب عليه فائدة ، إذ كل أحد ليس مستعدا لكل صناعة ، وإلا لاشتغل الجميع بأشرف الصناعات ، واختلاف الناس وتفاوتهم في هذا الاستعداد لتوقف قوام النوع وانتظام العالم عليه . وأما الغيرة على (المال) ، فلا تظن أنها ليست ممدوحة لسرعة فناء المال وعدم اعتناء الأخيار ، إذ كل إنسان ما دام في دار الدنيا محتاج إليه ، وتحصيل الآخرة أيضا يتوقف عليه . إذ كسب العلم والعمل موقوف على بقاء البدن وهو موقوف على بدل مما يتحلل عنه من الأغذية والأقوات .

فلا بد لكل عاقل أن يعتني بالمال ويجتهد في حفظه وضبطه ، بعد تحصيله من المداخل الطيبة والمكاسب المحمودة ، ومقتضى السعي في حفظه المعبر عنه بالغيرة عليه أللايصرفها في مصرف لا تترتب عليه فائدة لآخرته أو دنياه ، كإنفاقه للرياء والمفاخرة والتضيف ، أو

بذله على غير المستحقين بلا داع ديني أو دنيوي أو عادي ، أو تمكينه الظلمة والسارقين وأهل الخيانة من أخذه علانية أو سرا ، أو عدم مبالاته بتضييعه من غير أن يصل نفعه إلى أحد ، أو إسرافه في بذله ، أو غير ذلك من المصارف التي ليست راجحة بحسب العقل والشرع ولا يعود إليه عوض في الآخرة والدنيا . بل مقتضى الغيرة عليه أن يصرف ج : ١
ص ٢٤٦
جميع أمواله في حياته في المصارف التي تعود فائدتها إلى نفسه ، ولا يترك شيئا منها لورائه إلا للأخيار من أولاده ، إذ بقاؤهم بمنزلة بقائه ، ويترتب على وجودهم - مع حسن حالهم وعيشهم - جميل الذكر وجزيل الثواب له بعد موته . وكيف يرضى صاحب الغيرة أن يترك ماله الذي أتعب نفسه في اكتسابه وفنى عمره في تحصيله ويحاسب عليه في عرصات القيامة ، لزوج امرأته ، فيأكله ويجامعها ، وغاية رضى هذه المرأة الخبيثة التي ليست لها حمية ووفاء ولا لها مطلوب أهم من مقاربة الرجال ، أن يأكل هذا الرجل صفو ماله ليتقوى على مجامعتها ، وهذا محنة لا يتحمل مثلها أهل الديانة والقيادة ، فضلا عن صاحب الغيرة والحمية . وقس على ذلك تخليف الأموال لسائر الوراث الذين لا يعرفون الحقوق ، وليسوا من أهل الخير والصلاح والوفاء ، من أولاد السوء وأزواج البنات ، وسائر الأقارب من الأخوان والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات . وهؤلاء وإن لم يكونوا بمثابة زوج امرأته ، إلا أن ترك الأموال لهم إذا لم يكونوا من أهل الخير والصلاح لا تثمر له فائدة سوى الوزر والوبال وذكره بالسوء والشتم والفحش ، كما هو المشاهد في زماننا هذا . ومنها :

• العجلة up

وهي المعنى الراتب في القلب ، الباعث على الإقدام على الأمور بأول خاطر ، من دون توقف واستبطاء في أتباعها والعمل بها . وقد عرفت أنه من لوازم ضعف النفس وصغرها ، وهو من الأبواب العظيمة للشيطان ، قد أهلك به كثيرا من الناس . قال رسول الله (ص) : العجلة من الشيطان ، والتأني من الله . وقد خاطب الله تعالى نبيه (ص) بقوله : ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه (١٠) . وقد روي : أنه لما ولد عيسى عليه السلام أتت الشياطين إبليس ، فقالت : أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها . فقال : هذا حادث قد حدث ،
(هامش)
(١٠) طه ، الآية : ١١٤ . (*)
ص ٢٤٧
مكانكم . فطار حتى جاء خافقي الأرض ، فلم يجد شيئا ، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد ، وإذا الملائكة قد حفت حوله ، فرجع إليهم ، فقال : إن نبيا قد ولد البارحة . ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا بحضرتها ، إلا هذا ، فايأسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ، ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخفة . والظواهر في ذم العجلة أكثر من أن تحصى ، ولذلك أفتى بعض علماء العامة بالمنع من التعجيل لمن خاف فوت صلاة الجمعة . والسر في شدة ذمها : أن الأعمال ينبغي أن تكون بعد المعرفة والبصيرة ، وهما موقوفان على التأمل والمهلة ، والعجلة تمنع من ذلك ، فمن يستعجل في أمر يلقي الشيطان شره عليه من حيث لا يدري . والتجربة شاهدة بأن كل أمر يصدر على العجلة يوجب الندامة والخسران ، وكل ما يصدر على التأني والتثبت لا تعرض بعده ندامة ، بل يكون مرضيا ، وبأن كل خفيف عجول ساقط عن العيون ولا وقع له عند القلوب . والمتأمل في الأمور يعلم أن العجلة هو السبب الأعظم لتبديل نعيم الآخرة وملك الأبد بخسائس الدنيا ومزخرفاتها . وبيان ذلك : أنه لا ريب في أن أحب اللذات وألذها للنفس هو الغلبة والاستيلاء ، لأنها من صفات الربوبية التي هي مطلوبة بالطبع للنفوس المجردة والسر فيه : أن كل معلول من سنخ علته ، ويناسبها في صفاتها وآثارها ، وغاية ابتهاجه أن يتصف بمثل كمالاتها ، ولذا قيل : كل ما يصدر عن شيء لا يمكن أن يكون من جميع الجهات هو هو ، ولا أن يكون من جميع الجهات ليس هو ، بل من جهة هو هو ومن جهة ليس هو . وهذا معنى كلام قدماء الحكمة : (الممكن زوج تركيبي) . ولا ريب في أن جميع الموجودات معلولة للواجب سبحانه ، صادرة عن محض وجوده ومترشحة عن فيضه وجوده ، فهو غاية الكل والكل طالبة نحو كمالاته ، إلا أن ما هو في سلسلة الصدور إليه أقرب والواسطة بينهما أقل ، تكون مناسبة له أتم وشوقه إلى الاتصاف بكماله أشد .

ولا ريب في أن الذوات المجردة النورية التي هي من عالم الأمر مقتبسة من مشكاة نوره ، فلها غاية القرب

ص ٢٤٨
إليه في سلسلة الصدور ، فتكون شديدة الشوق إلى الإنصاف بنحو كماله . والنفس الإنسانية لكونها منها ومن عالم الأمر - كما قال الله تعالى - : قال الروح من أمر ربي (١١) . تكون مثلها في القرب إليه تعالى أو في المناسبة له ، فلها غاية الشوق في الاتصاف بصفاته وكمالاته التي من جملتها الغلبة والاستعلاء ، وليس ذلك مذموما ، إذ ينبغي لكل عبد أن يطلب ملكا عظيما لا آخر له ، وسعادة دائمية لا نفاد لها ، وبقاء لا فناء فيه ، وعزا لا ذل معه ، وأمنا لا خوف فيه ، وغنى لا فقر معه ، وكمالا لا نقصان فيه . وهذه كلها من أوصاف الربوبية وطالبها طالب للعلو والعز والكمال لا محالة . فالمذموم من الرئاسة والاستيلاء إنما هو الغلط الذي وقع للنفس بسبب تغرير المعين المبعد عن عالم الأمر ، إذ حسدها على كونها من عالم الأمر ، فأضلها وأغواها من طريق العجلة ، فزين في نظره الملك الفاني المشوب بأنواع الآلام ، لكونه عاجلا ، وصده عن الملك المخلد الدائم الذي لا يشوبه كدر ولا يقطعه قاطع ، لكونه آجلا . والمسكين المخذول ابن آدم لما خلق عجولا راغبا في العاجلة ، لما جاءه المطرود من عالم الأمر ، وتوسل إليه بواسطة العجلة التي في طبعه ، واستغواه بالعاجلة ، وأمال قلبه إلى عدم الاعتناء بالآجلة ، وزين له الحاضرة ، ووعده بالغرور وبالتمني على الله في باب الآخرة ، فانخدع بغروره واشتغل بطلب ملك الدنيا ومزخرفاتها مع فنائها ، وترك سلطنة الآخرة مع بقائها ، ولم يتأمل المسكين في أن ملك الدنيا ورئاستها ليس كمالا ولا علوا واستيلاء في الحقيقة ، بل هو صفة نقض يصده عن الكمال الحقيقي والرئاسة المعنوية .
مثال ذلك : أنه لا ريب في أن الحب والعشق صفة كمال ، ولكن إذا وقع في موقعه ، وذلك إذا كان المحبوب شريفا كاملا في ذاته وصفاته ، فحب الله سبحانه أشرف الصفات الكمالية ، وحب الجمادات وخسائس الحيوانات أخس الرذائل النفسية ، فكل من كان جاهلا بحقائق الأمور ينخدع بغروره ، ويختار الملك العاجل الفاني على
(هامش)
(١١) الإسراء ، الآية : ٨٥ . (*)
ص ٢٤٩
السلطنة الأجلة الباقية ، وأما العالم الموفق فلا يتدلى بحبل غروره ، إذ علم مداخل مكره ، فأعرض عن العاجلة واختار الأجلة . ولما استطار مكر اللعين في كافة الخلق ، أرسل الله إليهم الأنبياء ، واشتغلوا بدعوتهم من الملك المجازي الذي لا أصل له ولا دوام أن سلم إلى الملك الحقيقي الذي لا زوال له أصلا ، فنادوا فيهم : يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل (١٢) . وذموا من اختار العاجلة الفانية على الآخرة الباقية ، كما قال سبحانه : إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا (١٣) . وقال : كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة (١٤) . فالغرض من بعثة الرسل ليس إلا دعوة الخلق إلى الملك المخلد ، ليكونوا ملوكا في الآخرة بسبب القرب من الله تعالى ، ودرك بقاء لا فناء فيه ، وعز لا ذل معه ، وقرة عين أخفيت لا يعلمها أحد . والشيطان يدعوهم من طريق العجلة إلى ملك الدنيا الفاني ، لعلمه بأن ما سمى ملك الدنيا ، مع أنه لا يسلم ولا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات ، يفوت به ملك الآخرة ، إذ الدنيا والآخرة ضرتان . بل يفوت به الملك الحاضرة الذي هو الزهد في الدنيا ، إذ معناه أن يملك العبد شهوته وغضبه ، فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان . وهذا ملك بالاستحقاق ، إذ به يصير صاحبه حرا ، وباستيلاء الشهوة يصير عبدا لبطنه وفرجه وسائر أعضائه ، فيكون مسخرا مثل البهيمة ، مملوكا يسخره زمام الشهوة ، أخذ المخنقة إلى حيث يريد ويهوى . فما أعظم اغترار الإنسان ، إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكا ، وينال الربوبية بأن يصير عبدا . ومثل هذا هل يكون إلا معكوسا في الدنيا منكوسا في الآخرة ؟ . فقد ظهر أن منشأ الخسران في الدنيا
(هامش)
)
١٢) التوبة ، الآية : ٣٨ . (١٣) الدهر ، الآية : ٢٧ . (١٤) القيامة ، الآية : ٢٠ - ٢١ . (*)
ص ٢٥٠
والآخرة هو العجلة . والطريق في علاجها : أن يتذكر فسادها ، وسوء عاقبتها ، وإيجابها للخفة والمهانة عند الناس ، وتأديتها إلى الندامة والخسران . ثم يتذكر شرافة الوقار الذي هو ضده ، وكونه صفة الأنبياء والأخيار ، فيوطن نفسه على ألا يرتكب فعلا إلا بعد التأمل

والمهلة ، ولا يترك الطمأنينة والسكون باطنا وظاهرا في جميع أفعاله وسكناته ، فإذا فعل ذلك مدة ، ولو بالتكلف والتعمل ، يصير ذلك عادة له ، فتزول عنه هذه الصفة ، وتحدث صفة الوقار والسكينة .

وصل (الأناة والتوقف والوقار والسكينة) up

ضد العجلة (الأناة) (١) ، وهو المعنى الراتب في القلب ، الباعث على الاحتياط في الأمور والنظر فيها ، والتأني في أتباعها والعمل بها . ثم (التوقف) قريب من التأني والأناة ، والفرق بينهما : أن التوقف هو السكون قبل الدخول في الأمور حتى يستبين له رشدها ، والتأني سكون وطمأنينة بعد الدخول فيها ، حتى يؤدي لكل جزء منها حقه ، وضد التوقف والتعسف . و(الوقار) يتناول الأناة والتوقف كليهما ، فهو طمأنينة النفس وسكونها في الأقوال والأفعال والحركات قبل الدخول فيها وبعده . وهو من نتائج قوة النفس وكبرها . وما قل من الفضائل النفسانية أن يبلغ مرتبته في الشرافة ، ولذا يمدح به الأنبياء والأصفياء ، وورد في الأخبار : إن المؤمن متصف به البتة . فينبغي لكل مؤمن أن يتكلف آثاره في الحركات والأفعال ، حتى يصير بالتدريج ملكة ، وتكلف الطمأنينة في الأفعال والحركات قبل أن تصير ملكة يختص باسم الوقار ، وإذا صارت ملكة سميت سكينة ، إذ هي طمأنينة الباطن ، والوقار اطمئنان الظاهر .

(هامش)

(١) في النسخ (الأناءة) ، فصححناه كما هنا . (*)

ص ٢٥١

ومنها :

• سوء الظن بالخالق والمخلوق up

وهو من نتائج الجبن وضعف النفس ، إذ كل جبان ضعيف النفس تذعن نفسه لكل فكر فاسد يدخل في وهمه ويتبعه ، وقد يترتب عليه الخوف والغم ، وهو من المهلكات العظيمة ، وقد قال الله سبحانه : يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم (٢) . وقال تعالى : وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم (٣) . وقال : وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا (٤) . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه ، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءا وأنت تجد لها في الخير محملا . ولا ريب في أن من حكم بظنه على غيره بالشر ، بعثه الشيطان على أن يغتابه أو يتوانى في تعظيمه وإكرامه ، أو يقصر فيما يلزمه من القيام بحقوقه ، أو ينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيرا منه . وكل ذلك من المهلكات ، على أن سوء الظن بالناس من لوازم خبث الباطن وقذارته ، كما أن حسن الظن من علائم سلامة القلب وطهارته ، فكل من يسئ الظن بالناس ويطلب عيوبهم وعثراتهم فهو خبيث النفس سقيم الفؤاد وكل من يحسن الظن بهم ويستر عيوبهم فهو سليم الصدر طيب الباطن ، فالمؤمن يظهر محاسن أخيه ، والمنافق يطلب مساويه ، وكل إناء يترشح بما فيه . والسر في خباثة سوء الظن وتحريمه وصدوره عن خبث الضمير واغواء الشيطان : أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لأحد أن يعتقد في حق غيره سوءا إلا إذا انكشف له بعيان لا يقبل التأويل ، إذ حينئذ لا يمكنه ألا يعتقد ما شاهده وعلمه ، وأما ما لم يشاهده ولم يعلمه ولم يسمعه وإنما وقع في قلبه ، فالشيطان ألقاه إليه ، فينبغي أن يكذبه ، لأنه أفسق الفسقة . وقد قال الله :

(هامش)

(٢) الحجرات ، الآية : ١٢ . (٣) فصلت ، الآية : ٢٣ . (٤) الفتح ، الآية : ١٢ . (*)

ص ٢٥٢

إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة (٥) . فلا يجوز تصديق اللعين في نبأه ، وإن حف بقرائن الفساد ، ما احتمل التأويل والخلاف فلو رأيت عالما في بيت أمير ظالم لا تظنن أن الباعث طلب الحطام المحرمة ، لاحتمال كون الباعث إغاثة مظلوم . ولو وجدت رائحة الخمر في فم مسلم فلا تجز من بشرب الخمر ووجوب الحد ، إذ يمكن أنه تمضمض بالخمر ومجه وما شربه ، أو شربه إكراها وقهرا . فلا يستباح سوء الظن إلا بما يستباح به المال ، وهو صريح المشاهدة ، أو قيام بينة فاضلة . ولو أخبرك عدل واحد بسوء من مسلم ، وجب عليك أن تتوقف في إخباره من غير تصديق ولا تكذيب ، إذ لو كذبته لكنت خائنا على هذا العدل إذ ظننت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن ، وكذا إن ظننت به العداوة أو الحسد أو المقت لتتطرق لأجله التهمة ، فترد شهادته ، ولو صدقته لكنت خائنا على المسلم المخبر عنه ، إذ ظننت به السوء ، مع احتمال كون العدل المخبر ساهيا ، أو التباس الأمر عليه بحيث

لا يكون في إخباره بخلاف الواقع آثما وفاسقا . وبالجملة : لا ينبغي أن تحسن الظن بالواحد وتسئ بالآخر ، فتذكر المذكور حاله على ما كان في الستر والحجاب ، إذ لم ينكشف لك حاله بأحد القواطع ، ولا بحجة شرعية يجب قبولها ، وتحمل خبر العدل على إمكان تطرق شبهة مجوزة للإخبار ، وإن لم يكن مطابقا للواقع . ثم المراد بسوء الظن هو عقد القلب وميل النفس دون مجرد الخواطر وحديث النفس ، بل الشك أيضا ، إذ المنهي عنه في الآيات والأخبار إنما هو أن يظن ، والظن هو الطرف الراجح الموجب لميل النفس إليه . والأمارات التي بها يمتاز العقد عن مجرد الخواطر وحديث النفس ، هو أن يتغير القلب منه عما كان من الألف والمحبة إلى الكراهة والنفرة ، والجوارح عما كانت عليه من الأفعال اللازمة في المعاشرات إلى خلافها .

والدليل على أن المراد هو ما ذكر ، قوله (ص) : ثلاث في المؤمن لا تستحسن وله منهن مخرج فمخرجه من سوء الظن ألا يحققه أي لا يحقق في نفسه بعقد ولا فعل ، لا في القلب ولا في الجوارح .

(هامش)

(٥) الحجرات ، الآية : ٦ . (*)

ص ٢٥٣

ثم لكون سوء الظن من المهلكات ، منع الشرع من التعرض للتهمة ، صيانة لنفوس الناس عنه ، فقال (ص) اتقوا مواقع التهم ، وقال أمير المؤمنين عليه السلام : من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن . وروي : أنه (ص) كان يكلم زوجته صفية بنت حي ابن أخطب ، فمر به رجل من الأنصار ، فدعاه رسول الله ، وقال ، يا فلان ! هذه زوجتي صفية . فقال : يا رسول الله ! أفنظن بك إلا خيرا ؟ قال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فخشيت أن يدخل عليك . فانظر كيف أشفق رسول الله (ص) على دينه فحرسه ، وكيف علم الأمة طريق الاحتراز عن التهمة ، حتى لا يظن العالم الورع المعروف بالتقوى والدين أن الناس لا يظنون به إلا خيرا ، إعجابا منه بنفسه ، فإن ما لا جزم بتحققه في حق سيد الرسل وأشرفهم ، فكيف يجزم بتحققه في حق غيره ، وإن بلغ من العلم والورع ما بلغ . والسر في ذلك : أن أورع الناس وأفضلهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة ، بل إن نظر إليه بعضهم بعين الرضا ينظر إليه بعض آخر بعين السخط : وعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن السخط تبدي المساويا فكل عدو وحاسد لا ينظر إلا بعين السخط ، فيكتم المحاسن ويطلب المساوئ ، وكل شرير لا يظن بالناس كلهم إلا شرا ، وكل معيوب مفتضح عند الناس يحب أن يفتضح غيره وتظهر عيوبه عندهم ، لأن البلية إذا عمت هانت ، ولأن يشتغل الناس به فلا تطول ألسنتهم فيه . فاللازم لكل مؤمن ألا يتعرض لموضع التهمة حتى يوقع الناس في المعصية بسوء الظن ، فيكون شريكا في معصيتهم ، إذ كل من كان سببا لمعصية غيره يكون شريكا له في هذه العصية .

ولذا قال الله تعالى : ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم (٦) . وقال رسول الله (ص) : كيف ترون من يسب أبويه ؟ فقالوا : هل من أحد يسب أبويه ؟ فقال : نعم ! يسب أبوي غيره فيسبون أبويه . ثم طريق المعالجة في إزالته - بعد تذكر ما تقدم من فساده وما يأتي من فضيلة ضده - : أنه إذا خطر لك خاطر سوء على مسلم : لا تتبعه ،

(هامش)

(٦) الأنعام ، الآية : ١٠٨ . (*)

ص ٢٥٤

ولا تحققه ، ولا تغير قلبك عما كان عليه بالنسبة إليه ، من المراعاة والتفقد والاكرام والاعتماد بسببه ، بل ينبغي أن تزيد في مراعاته وإعظامه وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يقنط الشيطان ويدفعه عنك ، فلا يلقي إليك خاطر السوء خوفا من اشتغالك بالدعاء وزيادة الاكرام . ومهما عرفت عثرة من مسلم فانصحه في السر ولا تبادر إلى اغتيابه ، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على عيبه ، لتنظر إليه بعين الحقارة ، مع أنه ينظر إليك بعين التعظيم بل ينبغي أن يكون قصدك استخلاصه من الإثم ، وتكون محزونا كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان ، وينبغي أن يكون تركه ذلك العيب من غير نصيحتك أحب إليك من تركه بنصيحتك ، وإذا فعلت ذلك جمعت بين أجر نصيحته وأجر الحزن بمصيبته وأجر الإعانة على آخرته .

وصل (حسن الظن) up

قد عرفت أن ضد سوء الظن بالخالق والمخلوق هو (حسن الظن بهما) . ولما كان الأول من لوازم ضعف النفس وصغرها ، فالثاني من نتائج قوتها وثباتها ، وفوائده أكثر من أن تحصى ، وقد تقدمت الظواهر الواردة في مدحه ، فينبغي لكل مؤمن ألا ييأس من روح الله ، ولا يظن أنه لا يرحمه ويعذبه ألبتة ولا يخلصه من العقاب ، وإن ما يرد عليه في الدنيا من البلايا والمصائب هو شر له وعقوبة ، بل ينبغي أن يعلم أنه أرحم وأرأف به من والديه ، وإنما خلقه لأجل الفيض والجود ، فلا بد أن يرحمه في دار الآخرة ، ويخلصه من عذاب الأبد ويوصله إلى نعيم السرمد ، وما يرد عليه من المصائب والبلايا في دار الدنيا خير له وصلاح ، وذخيرة له في يوم المعاد . وكذا لا يظنن السوء ، والشر بالمسلمين ، ولا يحملن ما له وجه صحيح من أعمالهم وأقوالهم على وجه فاسد ، بل يجب أن يحمل كل ما يشاهده من أفعالهم وحركاتهم على أحسن الوجوه وأصحها ، ما لم يجزم بفساده ، ويكذب وهمه وسائر حواسه ، فيما يذهب إليه من المحامل الفاسدة والاحتمالات القبيحة المحرمة ، ويكلف نفسه على ذلك ، حتى يصير ذلك ملكة له ، فترتفع عنه ملكة سوء الظن بالكلية ، نعم ، الحمل على الوجه الصحيح على

ص ٢٥٥

تقدير عدم مطابقته للواقع ، لو كان باعثا لضرر ما لي أو فساد ديني أو عرضي ، لزم فيه الحزم والاحتياط ، وعدم تعليق أموره الدينية والدنيوية عليه لئلا يترتب عليه الخسران والأضرار ، وتلزمه الفضيحة والعار . ومنها :

• الغضب up

وهو كيفية نفسانية موجبة لحركة الروح من الداخل إلى الخارج للغلبة ، ومبدؤه شهوة الانتقام ، وهو من جانب الإفراط ، وإذا اشتد يوجب حركة عنيفة ، يمتلئ لأجلها الدماغ والأعصاب من الدخان المظلم ، فيستر نور العقل ويضعف فعله ، ولذا لا يؤثر في صاحبه الوعظ والنصيحة ، بل تزيده الموعظة غلظة وشدة . قال بعض علماء الأخلاق : الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة ، إلا أنها لا تطلع إلا على الأفئدة ، وإنها لمستكنة في طي الفؤاد استكان الجمر تحت الرماد ، وتستخرجها حمية الدين من قلوب المؤمنين ، أو حمية الجاهلية والكبر الدفين من قلوب الجبارين ، التي لها عرق إلى الشيطان اللعين ، حيث قال : خلقني من نار وخلقته من طين (٧) . فمن شأن الطين السكون والوقار ، ومن شأن النار التلظي والاستعار . ثم قوة الغضب تتوجه عند ثورانها إما إلى دفع المؤذيات إن كان قبل وقوعها ، أو إلى التشفي والانتقام إن كان بعد وقوعها ، فشهوتها إلى أحد هذين الأمرين ولذتها فيه ، ولا تسكن إلا به . فإن صدر الغضب على من يقدر أن ينتقم منه ، واستشعر باقتداره على الانتقام ، انبسط الدم من الباطن إلى الظاهر ، واحمر اللون ، وهو الغضب الحقيقي . وإن صدر على من لا يتمكن أن ينتقم منه لكونه فوقه ، واستشعر باليأس عن الانتقام ، انقبض الدم من الظاهر إلى الباطن ، وصار حزنا . وإن صدر على من يشك في الانتقام منه انبسط الدم تارة أو انقبض أخرى ، فيحمر ويصفر ويضطرب .

(هامش)

(٧) الأعراف ، الآية : ١٢ وص ، الآية : ٧٦ . (*)

ص ٢٥٦

فصل (الإفراط ،والتفريط والاعتدال في قوة الغضب) up

الناس في هذه القوة على إفراط وتفريط واعتدال . فالافراط : أن تغلب هذه الصفة حتى يخرج عن طاعة العقل والشرع وسياستهما ، ولا تبقى له فكرة وبصيرة . والتفريط : أن يفقد هذه القوة أو تضعف بحيث لا يغضب عما ينبغي الغضب عليه شرعا وعقلا . والاعتدال : أن يصدر غضبه فيما ينبغي ولا يصدر في ما لا ينبغي ، بحيث يخرج عن سياسة الشرع والعقل ، بل يكون تابعا لهما في الغضب وعدمه ، فيكون غضبه وانتقامه بأمرهما . ولا ريب في أن الاعتدال ليس مذموما ، ولا معدودا من الغضب ، بل هو من الشجاعة . والتفريط مذموم معدود من الجبن والمهانة ، وربما كان أخبث من الغضب ، إذ الفاقد لهذه القوة لا حمية له ، وهو ناقص جدا . ومن آثاره عدم الغيرة على الحرم وصغر النفس ، والجور ، وتحمل الذل من الأخساء ، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والفحشاء . ولذا قيل : من استغضب فلم يغضب فهو حمار (٨) . وقد وصف الله خيار الصحابة بالحمية والشدة ، فقال : أشداء على الكفار (٩) وخاطب نبيه (ص) بقوله : وأغلظ عليهم (١٠) والشدة والغلظة من آثار قوة الغضب ، ففقد هذه

القوة بالكلية ، أو ضعفها مذموم . وقد ظهر أن الغضب المعدود من الرذائل هو حد الإفراط الذي يخرجه عن مقتضى العقل والدين ، وحد التفريط وإن كان رذيلة إلا أنه ليس غضبا ، بل هو ضد له معدود من الجبن ، وحد الاعتدال فضيلة وضد له ومعدود من الشجاعة ، فانحصر الغضب بالأول . ثم الناس كما هم مختلفون في أصل قوة الغضب ، كذلك مختلفون في حدوثه وزواله سرعة وبطأ ، فيكونان في بعضهم سريعين ، وفي بعضهم بطيئين

(هامش)

(٨) هذه الكلمة منسوبة للشافعي - على ما في إحياء العلوم : ج ٣ ص ١٤٥ و١٥٦ - . (٩) الفتح ، الآية : ٢٩ . (١٠) التوبة ، الآية : ٨٣ . (*)

ص ٢٥٧

وفي بعضهم يكون أحدهما سريعا والآخر بطيئا ، وفي بعضهم يكون كلاهما أو أحدهما متوسطا بين السرعة والبط ، وما كان من ذلك بإشارة العقل فهو ممدوح معدود من أوصاف الشجاعة ، وغير مذموم محسوب من آثار الغضب أو الجبن .

فصل (الغضب) up

(الغضب) من المهلكات العظيمة ، وربما أدى إلى الشقاوة الأبدية ، من القتل والقطع ، ولذا قيل : (إنه جنون دفعي) . قال أمير المؤمنين (ع) : الحدة ضرب من الجنون ، لأن صاحبها يندم ، فإن لم يندم فجنونه مستحكم . وربما أدى إلى اختناق الحرارة ، ويورث الموت فجأة . وقال بعض الحكماء : السفينة التي وقعت في اللجج الغامرة ، واضطربت بالرياح العاصفة وغشيتها الأمواج الهائلة ، أرجى إلى الخلاص من الغضبان الملتهب . وقد ورد به الذم الشديد في الأخبار ، قال رسول الله (ص) : الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل . وقال الباقر (ع) : إن هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم ، وإن أحدكم إذا غضب احمرت عيناه وانتفخت أوداجه ودخل الشيطان فيه ، فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض ، فإن رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك . وقال الصادق عليه السلام : وكان أبي عليه السلام يقول : أي شيء أشد من الغضب ؟ إن الرجل بغضب فيقتل النفس التي حرم الله ، ويقذف المحصنة . وقال عليه السلام (١١) : إن الرجل ليغضب فما يرضى أبدا حتى يدخل النار . وقال الصادق عليه السلام : الغضب مفتاح كل شر . وقال عليه السلام : الغضب ممحقة لقلب الحكيم . وقال عليه السلام : من لم يملك غضبه لم يملك عقله . ثم مما يلزم الغضب من الآثار المهلكة الذميمة ، والأغراض المضرة القبيحة : انطلاق اللسان بالشتم والسب ، وإظهار السوء والشماتة بالمساءة

(هامش)

(١١) أي : الباقر (ع) وقد روى هذه الأخبار المذكورة هنا الكافي في باب الغضب ، فروى هذا الخبر عنه (ع) لا عن الصادق (ع) . (*)

ص ٢٥٨

وإفشاء الأسرار وهتك الأستار والسخرية والاستهزاء ، وغير ذلك من قبيح الكلام الذي يستحيي منه العقلاء ، وتوثب الأعضاء بالضرب والجرح والتمزيق والقتل ، وتألم القلب بالحقد والحسد والعداوة والبغض ومما تلزمه : الندامة بعد زواله ، وعداوة الأصدقاء ، واستهزاء الأراذل ، وشماتة الأعداء . وتغير المزاج ، وتألم الروح وسقم البدن ، ومكافأة العاجل وعقوبة الأجل . والعجب ممن توهم أن شدة الغضب من فرط الرجولية ، مع أن ما يصدر عن الغضبان من الحركات القبيحة إنما هو أفعال الصبيان والمجانين دون الرجال والعاقلين ، كيف وقد تصدر عنه الحركات غير المنتظمة ، من الشتم والسب بالنسبة إلى الشمس ، والقمر ، والسحاب ، والمطر ، والريح ، والشجر ، والحيوانات والجمادات ، وربما يضرب القصعة على الأرض ، ويكسر المائدة ، ويخاطب البهيمة والجماد كما يخاطب العقلاء ، وإذا عجز عن التشفي ، وربما مزق ثوبه ، ولطم وجهه ، وقد يعدو عدو المدهوش المتحير ، وربما اعتراه مثل الغشية ، أو سقط على الأرض لا يطيق النهوض والعدو . وكيف يكون مثل هذه الأفعال القبيحة من فرط الرجولية وقد قال رسول الله (ص) : الشجاع من يملك نفسه عند غضبه .

فصل (إمكان إزالة الغضب وطرق علاجه) up

قد اختلف علماء الأخلاق في إمكان إزالة الغضب بالكلية وعدمه ، فقيل : قمع أصل الغضب من القلب غير ممكن ، لأنه مقتضى

الطبع ، إنما الممكن كسر سورته وتضعيفه ، حتى لا يشتد هيجانه . وأنت خبير بأن الغضب الذي يلزم إزالته هو الغضب المذموم ، إذ غيره مما يكون بإشارة العقل والشرع ليس غضبا فيه كلامنا ، بل هو من آثار الشجاعة ، والاتصاف به من اللوازم وإن أطلق عليه اسم الغضب أحيانا حقيقة أو مجازا ، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : كان النبي (ص) لا يغضب للدنيا ، وإذا أغضبه الحق لم يصرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له . ولا ريب أن الغضب الذي يحصل لرسول الله (ص) لم يكن غضبا مذموما ، بل كان غضبا ممدوحا يقتضيه منصب النبوة ، وتوجيه الشجاعة النبوية ، ثم الغضب

ص ٢٥٩

المذموم ممكن الزوال ، ولولا إمكانه لزم وجوده للأنبياء والأوصياء ، ولا ريب في بطلانه . ثم علاجه يتوقف على أمور ، وربما حصل ببعضها : (الأول) إزالة أسبابه المهيجة له ، إذ علاج كل علة بحسم مادتها ، وهي ، والفخر ، والكبر ، والغدر ، واللجاج ، والمراء ، والمزاح ، والاستهزاء ، والتعيير ، والمخاصمة ، وشدة الحرص على فضول الجاه والأموال الفانية ، وهي بأجمعها أخلاق ردية مهلكة ، ولا خلاص من الغضب مع بقائها ، فلا بد من إزالتها حتى تسهل إزالته . (الثاني) أن يتذكر قبح الغضب وسوء عاقبته ، وما ورد في الشريعة من الذم عليه ، كما تقدم . (الثالث) أن يتذكر ما ورد من المدح والثواب على دفع الغضب في موارده ، ويتأمل فيما وردد من فوائد عدم الغضب ، كقول النبي (ص) : من كف غضبه عن الناس كف الله تبارك وتعالى عنه عذاب يوم القيامة وقول الباقر عليه السلام : مكتوب في التوراة : فيما ناجى الله به موسى : أمسك غضبك عمن ملكتك عليه اكف عنك غضبي . وقول الصادق (ع) : أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : يا ابن آدم ! اذكرني في غضبك أذكرك في غضبي ، ولا أمحقك فيمن أمحق ، وإذا ظلمت بمظلمة فارض بانتصاري لك ، فإن انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك . وقوله (ع) : سمعت أبي يقول : أتى رسول الله (ص) رجل بدوي ، فقال : إني أسكن البادية ، فعلمني جوامع الكلم . فقال : آمرك ألا تغضب . فأعاد الأعرابي عليه المسألة ثلاث مرات ، حتى رجع الرجل إلى نفسه ، فقال : لا أسأل عن شيء بعد هذا ، ما أمرني رسول الله (ص) إلا بالخير . وقوله عليه السلام : إن رسول الله (ص) أتاه رجل ، فقال : يا رسول الله ! علمني عظة أتعظ بها ، فقال له : انطلق ولا تغضب ، ثم عاد عليه ، فقال له : انطلق ولا تغضب . . . ثلاث مرات وقوله عليه السلام : من كف غضبه ستر الله عورته . . . إلى غير ذلك من الأخبار . (الرابع) أن يتذكر فوائد ضد الغضب ، أعني الحلم وكظم الغيظ ،

ص ٢٦٠

وما ورد من المدح عليهما في الأخبار - كما يأتي - ويواظب على مباشرته ولو بالتكلف ، فيتحلم وإن كان في الباطن غضبانا ، وإذا فعل ذلك مدة صار عادة مألوفة هنيئة على النفس ، فتنقطع عنها أصول الغضب . (الخامس) أن يقدم الفكر والروية على كل فعل أو قول يصدر عنه ، ويحافظ نفسه من صدور غضب عنه . (السادس) أن يحترز عن مصاحبة أرباب الغضب ، والذين يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ، ويسمون ذلك شجاعة ورجولية ، فيقولون : نحن لا نصبر على كذا وكذا ، ولا نحتمل من أحد أمرا . ويختار مجالسة أهل الحلم ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس . (السابع) أن يعلم إن ما يقع أنما هو بقضاء الله وقدره ، وإن الأشياء كلها مسخرة في قبضة قدرته ، وإن كل ما في الوجود من الله ، وإن الأمر كله لله ، وإن الله لا يقدر له ما فيه الخيرة ، وربما كان صلاحه في جوعه أو مرضه ، أو فقره ، أو جرحه أو قتله ، أو غير ذلك . فإذا علم بذلك غلب عليه التوحيد ، ولا يغضب على أحد ، ولا يغتاظ عما يرد عليه ، إذ يرى - حينئذ - أن كل شيء في قبضة قدرته أسير ، كالقلم في يد الكاتب . فكما أن من وقع عليه ملك بضرب عنقه لا يغضب على القلم ، فكذلك من عرف الله وعلم أن هذا النظام الجملي صادر منه على وفق الحكمة والمصلحة ولو تغيرت ذرة منه عما هي عليه خرجت عن الأصلحية ، لا يغضب على أحد ، إلا أن غلبة التوحيد على هذا الوجه كالكبريت الأحمر وتوفيق الوصول إليه من الله الأكبر . ولو حصل لبعض المتجردين عن جلباب البدن يكون كالبرق الخاطف ، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعا طبيعيا ، ولو تصور دوام ذلك لأحد لتصور لفرق الأنبياء ، مع أن التفاتهم في الجملة إلى الوسائط مما لا يمكن إنكاره . (الثامن) أن يتذكر إن الغضب مرض قلب ونقصان عقل ، صادر عن ضعف النفس ونقصانها ، لا عن شجاعتها وقوتها ، ولذا يكون

المجنون أسرع غضبا من العاقل ، والمريض أسرع غضبا من الصحيح .
والشيخ الهرم أسرع غضبا من الشاب ، والمرأة أسرع غضبا من الرجل ، وصاحب الأخلاق
ص ٢٦١
السيئة والرذائل القبيحة أسرع غضبا من صاحب الفضائل . فالرذيل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة ، والبخيل يغتاظ لبخله إذا فقد الحبة ، حتى يغضب لفقد أدنى شيء على أعز أهله وولده . والنفس القوية المتصفة بالفضيلة أجل شأنا من أن تتغير وتضطرب لمثل هذه الأمور ، بل هي كالطود الشاهق لا تحركه العواصف ، ولذا قال سيد الرسل (ص) : ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب . وإن شككت في ذلك فافتح عينيك وانظر إلى طبقات الناس الموجودين ، ثم ارجع إلى كتب السير والتواريخ ، واستمع إلى حكايات الماضين ، حتى تعلم : أن الحلم والعفو وكظم الغيظ شيمة الأنبياء والحكماء وأكابر الملوك والعقلاء ، والغضب خصلة الجهلة والأغبياء . (التاسع) أن يتذكر أن قدرة الله عليه أقوى وأشد من قدرته على هذا الضعيف الذي يغضب عليه ، وهو أضعف في جنب قوته القاهرة بمراتب غير متناهية من هذا الضعيف في جنب قوته ، فليحذر ، ولم يأمن إذا أمضى غضبه عليه أن يمضي الله عليه غضبه في الدنيا والآخرة ، وقد روي : أنه ما كان في بني إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم ، إذا غضب أعطاه صحيفة فيها : (إرحم المساكين ، واخش الموت ، واذكر الآخرة) ، فكان يقرأها حتى يسكن غضبه . وفي بعض الكتب الإلهية : يا ابن آدم ! اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب ، فلا أمحقك فيمن أمحق (١٢) . (العاشر) أن يتذكر أن من يمضي عليه غضبه ربما قوي وتشمر لمقابلته ، وجرد عليه لسانه بإظهار معائبه والشماتة بمصائبه ، ويؤذيه في نفسه وأهله وماله وعرضه . (الحادي عشر) أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الغيظ والغضب فإن كان الخوف الذلة والمهانة والاتصاف بالعجز وصغر النفس عند الناس ، فليتنبه أن الحلم وكظم الغيظ ودفع الغضب عن النفس ليست ذلة ومهانة ، ولم يصدر من ضعف النفس وصغرها ، بل هو من آثار قوة النفس وشجاعتها .
(
هامش)
(١٢) روى الكافي في باب الغضب نفس هذا الحديث عن الصادق (ع) بهذه العبارة : إن في التوراة مكتوبا : يا بن آدم ! اذكرني حين تغضب أذكرك عند غضبي ، فلا أمحقك فيمن أمحق . . . وقد تقدم مثله ص ٢٩١ . ج : ١ (*)
ص ٢٦٢
وأضدادها تصدر من نقصان النفس وخورها . فدفع الغضب عن نفسه لا يخرجه من كبر النفس في الواقع ، ولو فرض خروجه به منه في أعين جهلة الناس فلا يبالي بذلك ، ويتذكر أن الاتصاف بالذلة والصغر عند بعض أرذال البشر أولى من خزي يوم المحشر والافتضاح عند الله الملك الأكبر . وإن كان السبب خوف أن يفوت منه شيء مما يحبه ، فليعلم أن ما يحبه ويغضب لفقده إما ضروري لكل أحد ، كالقوت والمسكن واللباس وصحة البدن ، وهو الذي أشار إليه سيد الرسل - صلى الله عليه وآله وسلم - بقوله : من أصبح آمنا في سربه ، معافى في بدنه ، وله قوت يومه ، فكأنما خيرت له الدنيا بحذافيرها . أو غير ضروري لأحد ، كالجاه والمنصب وفضول الأموال . أو ضروري لبعض الناس دون بعض ، كالكتاب للعالم ، وأدوات الصناعات لأربابها . ولا ريب أن كل ما ليس من هذه الأقسام ضروريا فلا يليق أن يكون محبوبا عند أهل البصيرة وذوي المروات ، إذ ما لا يحتاج إليه الإنسان في العاجل لا بد له من تركه في الآجل ، فما بال العاقل أن يحبه ويغضب لفقده ، وإذا علم ذلك لم يغضب على فقد هذا القسم ألبتة . وأما ما هو ضروري للكل أو البعض ، وإن كان الغضب والحزن من فقده مقتضى الطبع لشدة الاحتياج إليه . إلا أن العاقل إذا تأمل يجد أن ما فقد عنه من الأشياء الضرورية إن أمكن رده والوصول إليه يمكن ذلك بدون الغيظ والغضب أيضا ، وإن لم يمكن لم يمكن معهما أيضا . وعلى أي حال بعد التأمل يعلم أن الغضب لا ثمرة له سوى تألم العاجل وعقوبة الآجل ، وحينئذ لا يغضب ، وإن غضب يدفعه عن نفسه بسهولة . (
الثاني عشر) أن يعلم إن الله يحب منه ألا يغضب ، والحبيب يختار ألبتة ما يحب محبوبه ، فإن كان محبا لله فليطفئ شدة حبه له غضبه . (الثالث عشر) أن يتفكر في قبح صورته وحركاته عند غضبه ، بأن يتذكر صورة غيره وحركاته عند الغضب . تتميم إعلم أن بعض

المعالجات المذكورة يقتضي قطع أسباب الغضب وحسم مواده ، حتى لا يهيج ولا يصدر ، وبعضها يكسر سورته أو يدفعه إذا صدر
ص ٢٦٣
وهاج . ومن علاجه عند الهيجان الاستعاذة من الشيطان ، والجلوس إن كان قائما ، والاضطجاع إن كان جالسا ، والوضوء أو الغسل بالماء البارد ، وإن كان غضبه على ذي رحم فليدن منه وليمسه ، فإن الرحم إذا مست سكنت ، كما ورد في الأخبار (١٣) .
وصل (فضيلة الحلم وكظم الغيظ) up
قد عرفت أن الحلم هو طمأنينة النفس ، بحيث لا يحركها الغضب بسهولة ولا يزعجه المكروه بسرعة ، فهو الضد الحقيقي للغضب ، لأنه المانع من حدوثه وبعد هيجانه لما كان كظم الغيظ مما يضعفه ويدفعه ، فمن هذه الحيثية يكون كظم الغيظ أيضا ضدا له . فنحن نشير إلى فضيلة الحلم وشرافته ، ثم إلى فوائد كظم الغيظ ومنافعه ، ليجتهد طالب إزالة الغضب في الاتصاف بالآل فلا يحدث فيه أصلا ، وبالثاني ، فيدفعه عند هيجانه . فنقول : أما (الحلم) فهو أشرف الكمالات النفسية بعد العلم ، بل لا ينفع العلم بدونه أصلا ، ولذا كلما يمدح العلم أو يسأل عنه يقارن به ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : اللهم أغنني بالعلم وزيني بالحلم . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : خمس من سنن المرسلين . . . وعد منها الحلم . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : وابتغوا الرفعة عند الله . قالوا : وما هي يا رسول الله ! ؟ قال : تصل من قطعك وتعطي من حرمك ، وتحلم عمن جهل عليك . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : إن الرجل المسلم لدرك بالحلم درجة الصائم القائم . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - إن الله يحب الحيي الحليم ، ويبغض الفاحش البذي . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله : تقوى تحجزه عن معاصي الله ، وحلم يكف به السفيه ، وخلق يعيش به في الناس . وقال (ص) : إذا جمع الخلائق يوم القيامة ، نادى مناد : أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس - وهم يسير - فينطلقون سراعا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون : إنا نراكم سراعا إلى الجنة ؟ فيقولون : نحن أهل الفضل . فيقولون : ما
(هامش)
(١٣) روي ذلك في الكافي في باب الغضب عن الباقر (ع) . (*)
ص ٢٦٤
كان فضلكم ؟ فيقولون : كنا إذا ظلمنا صبرنا ، وإذا أسئ إلينا عفونا ، وإذا جهل علينا حلمنا . فقال لهم ادخلوا الجنة فنعم أجر العالمين وقال (ص) : ما أعز الله بجهل قط ، ولا أذل بحلم قط . وقال أمير المؤمنين (ع) : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك . وقال علي بن الحسين (ع) : إنه ليعجبني الرجل أن يدركه حلمه عند غضبه . وقال الصادق (ع) : كفى بالحلم ناصرا . وقال (ع) : وإذا لم تكن حليما فتحلم . وقال (ع) : إذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان ، فيقول للسفيه منهما : قلت وقلت وأنت أهل لما قلت ، وستجزي بما قلت ، ويقولان للحليم منهما : صبرت وحلمت سيغفر لك إن أتممت ذلك . قال (ع) : فإن رد الحليم عليه ارتفع الملكان . وبعث (ع) غلاما له في حاجة فأبطأ ، فخرج على أثره فوجده نائما ، فجلس عند رأسه يروحه حتى انتبه ، فقال له : يا فلان ! والله ما ذلك لك ! تنام الليل والنهار ، لك الليل ولنا منك النهار . وقال الرضا (ع) : لا يكون الرجل عابدا حتى يكون حليما . وأما (كظم الغيظ) - فهو وإن لم يبلغ مرتبة الحلم فضيلة وشرافة ، لأنه التحلم : أي تكلف الحلم ، إلا أنه إذا واظب عليه حتى صار متعادا تحدث بعد ذلك صفة الحلم الطبيعي ، بحيث لا يهيج الغيظ حتى يحتاج إلى كظمه ، ولذا قال رسول الله (ص) إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم . فمن لم يكن حليما بالطبع لا بد له من السعي في كظم الغيظ عند هيجانه ، حتى تحصل له صفة الحلم . وقد مدح الله سبحانه كاظمي الغيظ في محكم كتابه ، وتوارت الأخبار على شرافته وعظم أجره . قال رسول الله (ص) - : من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا (١٤) . وقال (ص) - ما جرع عبد جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى . وقال (ص) - : إن لجهنم بابا لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى . وقال - (ص) من كظم غيظا وهو يقدر على أن ينفذه

(
هامش)
(١٤) روى الحديث الكافي في باب كظم الغيظ عن أبي عبد الله (ع) . (*)
ص ٢٦٥
دعاه الله يوم القيامة على رؤس الخلائق ، حتى يخبر من أي الحور شاء (١٥) وقال - (ص) : من أحب السبيل (١٦) إلى الله تعالى جرعتان : جرعة غيظ يردها بحلم ، وجرعة مصيبة يردها بصبر وقال سيد الساجدين (ع) وما تجرعت جرعة أحب إلي من جرعة غيظ لا أكافي بها صاحبها . وقال الباقر عليه السلام : من كظم غيظا وهو يقدر على إمضائه ، حشا الله تعالى قلبه أمنا وإيمانا يوم القيامة . وقال (ع) لبعض ولده (١٧) : يا بني ما من شيء أقر لعين أبيك من جرعة غيظ عاقبتها صبر ، وما يسرني أن لي بذل نفسي حمر النعم . وقال الصادق (ع) : نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها ، فإن عظيم الأجر البلاء ، وما أحب الله قوما إلا ابتلاهم . وقال (ع) : ما من عبد كظم غيظا إلا زاده الله - عز وجل - عزا في الدنيا والآخرة وقد قال الله - عز وجل - : والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين (١٨) . وأثابه الله مكان غيظه ذلك . وقال أبو الحسن الأول (ع) : اصبر على أعداء النعم ، فإنك لن تكافي من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله فيه ومنها :
• الانتقام up
بمثل ما فعل به ، أو بالأزيد منه - وإن كان محرما ممنوعا من الشريعة وهو من نتائج الغضب ، إذ كل انتقام ليس جائزا ، فلا يجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ، والفحش بالفحش ، والبهتان بالبهتان ، والسعاية إلى الظلمة بمثلها . وهكذا في سائر المحرمات . قال سيد الرسل (ص) - : إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه . وقال (ص) : المستبان شيطانان يتهاتران . وقد
(هامش)
(
١٥) صححنا هذا الحديث على ما في البحار الجزء الثاني من المجلد ١٥ في باب الحلم) رواه عن جامع الأخبار للشيخ الجليل الحسن بن فضل الطبرسي وفيه اختلاف كثير عما في نسخ جامع السعادات . (١٦) كذا وجدنا الحديث في البحار والكافي ونسخ جامع السعادات . والظاهر أن الأصح (السبل) . (١٧) في الكافي في باب كظم الغيظ روي هذا الحديث هكذا : عن أبي جعفر (ع) قال : قال لي أبي : يا بني ! ما من شيء . . . إلى آخر الحديث ، فالقائل هو سيد الساجدين لا الباقر - عليهما السلام - . (١٨) آل عمران ، الآية : ١٣٤ . (*)
ص ٢٦٦
ورد : أن رجلا شتم أبا بكر بحضرة النبي (ص) وهو ساكت ، فلما ابتدأ لينتصر منه ، قام رسول الله (ص) وقال مخاطبا له : إن الملك كان يجيب عنك ، فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان ، فلم أكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان . فكل فعل أو قول يصدر من شخص بالنسبة إلى غيره ظلما ، إن كان له في الشرع قصاص وغرامة ، فيجب ألا يتعدى عنه ، وإن كان العفو عن الجائر أيضا أفضل وأولى وأقرب إلى الورع والتقوى ، وإن لم يرد له بخصوصه من الشرع حكومة معينة ، وجب أن يقتصر في الانتقام وما يحصل به التشفي على ما ليس فيه حرمة ولا كذب ، مثل أن يقابل الفحش والذم وغيرهما من الأذايا التي لم يقدر لها في الشرع حكومة معينة ، بقوله : يا قليل الحياء . ويا سئ الخلق . ويا صفيق الوجه . . . وأمثال ذلك ، إذا كان متصفا بها ومثل قوله : جزاك الله وانتقم منك . ومن أنت ؟ وهل أنت إلا من بني فلان ومثل قوله : يا جاهل . ويا أحمق . وهذا ليس فيه كذب مطلقا ، إذ ما من أحد إلا وفيه جهل وحمق ، (أما الأول) فظاهر ، (وأما الثاني) فلما ورد من أن الناس كلهم حمقى في ذات الله . والدليل على جواز هذا القدر من الانتقام ، قول النبي (ص) المستبان ما قالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدي المظلوم (١٩) وقول الكاظم (ع) في رجلين يتسابان : البادئ منهما أظلم ، ووزره ووزر صاحبه عليه ما لم يتعد المظلوم (٢٠) . وهما يدلان على جواز الانتصار لغير البادئ من دون وزر ما لم يتعد ، ومعلوم أن المراد بالسبب فيهما أمثال الكلمات المذكورة دون الفحش والكلمات الكاذبة ، ولا ريب في أن الاقتصار على مجرد ما وردت به الرخصة بعد الشروع في الجواب مشكل ، ولعل السكوت عن أصل الجواب وحوالة

الانتقام إلى رب الأرباب أيسر وأفضل ، ما لم يؤد إلى فتور الحمية وللغيرة ، إذ أكثر الناس لا يقدر على ضبط نفسه عند فور الغضب ، لاختلاف حالهم في حدوث
(هامش)
(
١٩) صححنا الحديث على ما في إحياء العلوم (ج ٣ ص ١٠٦) وعلى نسختنا الخطية . وفي المطبوعة : حتى يتعذر إلى المظلوم .
(٢٠) صححنا الحديث على ما في أصول الكافي في باب السفه . وفي نسختنا الخطية والمطبوعة : ما لم يعتذر إلى المظلوم . (*)
ص ٢٦٧
الغضب وزواله . قال رسول الله (ص) : ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى منهم بطئ الغضب سريع الفيئ ، ومنهم سريع الغضب سريع الفيئ ، قتلك بتلك . ومنهم سريع الغضب بطئ الفيئ ، ومنهم بطئ الغضب بطئ الفيئ وإنألا خيرهم البطئ الغضب السريع الفيئ ، وشرهم السريع الغضب البطئ الفيئ . وقد ورد في خبر آخر : إن المؤمن سريع الغضب سريع الرضا ، فهذه بتلك . ثم طريق العلاج في ترك الانتقام : أن يتنبه على سوء عاقبته في العاجل والأجل ، ويتذكر فوائد تركه ، ويعلم أن الحوالة إلى المنتقم الحقيقي أحسن وأولى ، وإن انتقامه أشد وأقوى ، ثم يتأمل في فوائد العفو وفضيلته ، كما يأتي
وصل (العفو) up
ضد الانتقام (العفو) ، وهو إسقاط ما يستحقه من قصاص أو غرامة ، ففرقه عن الحلم وكظم الغيظ ظاهر ، والآيات والأخبار في مدحه وحسنه أكثر من تحصى ، قال الله تعالى سبحانه : خذ العفو وأمر بالمعروف (٢١) . وقال : وليعفوا وليصوا (٢٢) . وقال : وإن تعفوا أقرب للتقوى (٢٣) . وقال رسول الله (ص) : ثلاث والذي نفسي بيده إن كنت حالفا لحلفت عليهن : ما نقصت صدقة من مال فتصدقوا ، ولا عفا رجل من مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزا يوم القيامة ، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر . وقال (ص) : العفو لا يزيد العبد إلا عزا ، فاعفوا يعزكم الله . وقال (ص) لعقبة : ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة : تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك (٢٤) وقال (ص) قال موسى : يا رب أي عبادك أعز عليك ؟ قال : الذي إذا قدر عفى وقال سيد الساجدين (ع) إذا كان يوم القيامة ، جمع الله الأولين والآخرين في
(
هامش)
(٢١) الأعراف ، الآية : ١٩٩ . (٢٢) النور ، الآية : ٢٢ . (٢٣) البقرة ، الآية : ٢٣٧ . (٢٤) في أصول الكافي في باب العفو : ألا أدلكم على خير أخلاق الدنيا والآخرة : تصل من قطعك . . . إلى آخر الحديث . (*)
ص ٢٦٨
صعيد واحد ، ثم ينادي مناد : أين أهل الفضل ؟ قال فيقوم عنق من الناس فتلقاهم الملائكة ، فيقولون : وما فضلكم ؟ فيقولون : كنا نصل من قطعنا ، ونعطي من حرمنا ، ونعفو عمن ظلمنا ، قال : فيقال لهم : صدقتم ، ادخلوا الجنة . وقال الباقر (ع) : الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة . وقال الصادق (ع) ثلاث من مكارم الدنيا والآخرة : تعفو عمن ظلمك . . إلى آخر الحديث وقال أبو الحسن (ع) ما التقت فئتان قط إلا نصر أعظمهما عفوا . وكفى للعفو فضلا وشرافة أنه من أجمل الصفات الإلهية ، وقد يمدح الله تعالى به مقام الخضوع والتذلل ، قال سيد الساجدين عليه السلام : أنت الذي سميت نفسك بالعفو ، فاعف عني . وقال (ع) أنت الذي عفوه أعلى من عقابه . ومنها :
• العنف up
وهو الغلظة والفظاظة في الأقوال أو الحركات أيضا ، وهو من نتائج الغضب ، وضده (الرفق) ، أي اللين فيهما ، وهو من نتائج الحلم . ولا ريب في أن الغلظة في القول والفعل ينفر الطباع ويؤدي إلى اختلال أمر المعاش والمعاد ، ولذلك نهى الله - سبحانه - نبيه عنه في مقام الإرشاد ، وقال : ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك (٢٥) . وروي عن سلمان : أنه قال : إذا أراد الله تعالى هلاك عبد نزع منه الحياء ، فإذا نزع منه الحياء ، لم يلقه إلا خائنا مخونا ، وإذا كان خائنا مخونا نزعت منه الأمانة ، فإذا نزعت منه الأمانة لم يلقه إلا فظا غليظا ، فإذا كان فظا غليظا نزعت منه ربقة الإيمان ، فإذا نزعت منه ربقة الإيمان لم يلقه إلا شيطانا ملعونا

. ويظهر من هذا الكلام أن من كان من أهل الغلظة والفظاظة فهو الشيطان حقيقة ، فيجب على كل عاقل أن يجتنب عن ذلك كل الاجتناب ، ويقدم التروي على كل ما يصدر عنه من القول والفعل ، ليحافظ نفسه عن التعنف والغلظة فيه ، ويتذكر ما ورد في فضيلة الرفق ، ويرتكبه في حركاته ، ولو بالتكلف
(هامش)
(٢٥) آل عمران ، الآية : ١٥٩ . (*)
ص ٢٦٩
إلى أن يصير ملكة ، ونزول عن نفسه آثار العنف بالكلية .
وصل ( فضيلة الرفق)up
الأخبار في فضيلة الرفق وفوائده أكثر من أن تحصى ، ونحن نشير إلى شطر منها هنا ، قال رسول الله (ص) : لو كان الرفق خلقا يرى ، ما كان فيما خلق الله شيء أحسن منه . وقال (ص) : إن الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه . وقال (ص) : لكل شيء قفل ، وقفل الإيمان الرفق . وقال (ص) : إن الله رفيق يحب الرفيق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف (٢٦) . وقال (ص) : ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجرا وأحبهما إلى الله تعالى ، أرفقهما بصاحبه . وقال (ص) : الرفق يمن ، والخرق شؤم . وقال (ص) : من كان رفيقا في أمره نال ما يريده من الناس . وقال (ص) إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق . وقال (ص) : من أعطى حظه من الرفق أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الدنيا والآخرة . وقال (ص) : إذا أحب الله عبدا أعطاه الرفق ، ومن يحرم الرفق يحرم الخير كله . وقال (ص) : أتدرون من يحرم على النار ؟ كل هين لين سهل قريب . وقال الكاظم (ع) : الرفق نصف العيش . وقال عليه السلام لمن جرى بينه وبين رجل من القوم كلام : ارفق بهم ، فإن كفر أحدكم في غضبه ، ولا خير فيمن كان كفره في غضبه . ثم التجربة شاهدة بأن إمضاء الأمور وإنجاح المقاصد موقوف على الرفق واللين مع الخلائق ، فكل ملك كان رفيقا بجنده ورعيته انتظم أمره ودام ملكه ، وإن كان فظا غليظا اختل أمره وانفض الناس من حوله ، وزال ملكه وسلطانه في أسرع زمان . وقس عليه غيره من طبقات الناس من العلماء والأمراء وغيرهما ، من ذوي المناصب الجليلة ، وأرباب المعاملة والمكاسبة ، وأصحاب الصنايع والحرف .
(هامش)
(٢٦) روي هذان الحديثان في أصول الكافي ، في باب الرفق ، عن أبي جعفر الباقر - عليهما السلام - . (*)
ص ٢٧٠
تكملة (المداراة) up
)
المداراة) : قريب من الرفق معنى ، لأنها ملائمة الناس ، وحسن صحبتهم ، واحتمال أذاهم ، وربما فرق بينهما باعتبار تحمل الأذى في المداراة دون الرفق ، وقد ورد في مدحها وفوائدها الدنيوية والأخروية أخبار كثيرة كقول النبي (ص) : المداراة نصف الإيمان ، وقوله (ص) : ثلاث من لم يكن فيه لم يتم عمله : ورع يحجزه عن معاصي الله ، وخلق يداري به الناس ، وحلم يرد به جهل الجاهل وقوله (ص) : أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض . وقول الباقر عليه السلام : في التوراة مكتوب : فيما ناجى الله - عز وجل - به موسى بن عمران عليه السلام : يا موسى ! أكتم مكتوم سري في سريرتك وأظهر في علانيتك المداراة عني لعدوي وعدوك من خلقي . . إلى آخر الحديث (٢٧) . وقول الصادق عليه السلام : جاء جبرئيل إلى النبي (ص) فقال : يا محمد ! ربك يقرئك السلام ، ويقول : دار خلقي . وقوله عليه السلام : إن قوما من الناس قلت مداراتهم للناس فنفوا (٢٨) من قريش ، وأيم الله ما كان بأحسابهم بأس ، وإن قوما من غير قريش حسنت مداراتهم فألحقوا بالبيت الرفيع . . ثم قال من كف يده عن الناس ، فإنما يكف عنهم يدا واحدة ويكفون عنه أيدي كثيرة . ومنها :
• سوء الخلق بالمعنى الأخص up
وهو التضجر ، وانقباض الوجه ، وسوء الكلام ، وأمثال ذلك . وهو
(هامش)

(٢٧) وتمام الحديث في أصول الكافي في باب المداراة : ولا تستسب لي عندهم بإظهار مكتوم سري ، فتشرك عدوي وعدوك في سبي . قال في الوافي : ولا تستسب لي : أي لا تطلب سبي ، فإن من لم يفهم السر يسب من تكلم به ، فتشرك : أي تكون شريكا له ، لأنك أنت الباعث له عليه . (٢٨) هكذا في النسخة المطبوعة . وفي بعض نسخ الكافي المصححة فأنفوا ، وفي بعضها فألقوا . قال في الوافي : فأنفوا ، كأنه صبغة مجهول من الآنفة ، بمعنى الاستنكاف ، إذ لم يأت الانفاء بمعنى النفي ، وفي بعض النسخ : فألقوا من الإلقاء ، ولعله الأصح . (*)

ص ٢٧١

أيضا من نتائج الغضب ، كما أن ضده - أعني (حسن الخلق بالمعنى الأخص) وهو أن تلين جناحك : وتطيب كلامك ، وتلقى أخاك ببشر حسن - من نتائج الحلم ، وأكثر ما يطلق سوء الخلق وحسنه في الأخبار يراد به هذا المعنى ، ولا ريب في أن سوء الخلق مما يبعد صاحبه عن الخالق والخلق ، والتجربة شاهدة بأن الطباع متنفرة عن كل سئ الخلق ، ويكون دائما أضحوكة للناس ، ولا ينفك لحظة عن الحزن والألم ، ولذا قال الصادق عليه السلام : من ساء خلقه عذب نفسه ، وقد يعتريه لأجله الضرر العظيم . هذا كله مع سوء عاقبته في الآخرة وأدائه إلى العذاب الأبدي ، ولذا ورد به الذم الشديد من الشريعة . قال رسول الله (ص) : لما خلق الله الإيمان قال : اللهم قوني ، فقواه بحسن الخلق والسخاء . ولما خلق الله الكفر قال : اللهم قوني ، فقواه بحسن الخلق والسخاء . ولما خلق الله الكفر قال : اللهم قوني ، فقواه بالبخل وسوء الخلق . وروي أنه قيل له (ص) : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها . قال : لا خير فيها ! هي من أهل النار . وعنه (ص) : سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل (٢٩) وعنه (ص) : إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم . وعنه (ص) : أبي الله لصاحب الخلق السئ بالتوبة قيل : فكيف ذاك يا رسول الله ! ؟ قال : لأنه إذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم منه . وقال (ص) : سوء الخلق ذنب لا يغفر . وقال الإمام جعفر بن محمد عليهما السلام : إذا خلق الله العبد في أصل الخلق كافرا لم يمت حتى يحبب الله إليه الشر ، فيقرب منه ، فابتلاه بالكبر والجبروت ، فقسى قلبه ، وساء خلقه ، وغلظ وجهه وظهر فحشه ، وقل حياؤه ، وكشف الله تعالى سره ، وركب المحارم ولم ينزع عنها ، ثم ركب معاصي الله ، وأبغض طاعته ، ووثب على الناس لا يشبع من الخصومات ، فاسألوا الله العافية واطلبوها منه .

وقال بعض الأكابر : لئن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبني عابد

(هامش)

(٢٩) روى هذا الحديث أصول الكافي في باب سوء الخلق عن الصادق (ع) ولكن جاء فيه ليفسد العمل بدل يفسد العمل . (*)

ص ٢٧٢

سئ الخلق . وطرق العلاج في إزالته : أن يتذكر أولا أنه يفسد آخرته ودنياه ، ويجعله ممقوتا عند الخالق والخلق ، فيعد نفسه لإزالته ، ثم يقدم التروي والتفكر عند كل حركة وتكلم ، فيحفظ نفسه عنده - ولو بالتحمل والتكلف - من صدور سوء الخلق ، ويتذكر ما ورد في مدح حسن الخلق الذي هو ضده - كما يأتي - ويواظب حتى نزول على التدريج آثاره بالكلية .

وصل (طرق اكتساب حسن الخلق) up

قد عرفت أن ضد هذه الرذيلة (حسن الخلق بالمعنى الأخص) ، فمن معالجاتها أن يواظب عليه حتى ترتفع آثارها بالكلية . وأقوى البواعث على اكتسابه والمواظبة عليه أن يتذكر ما يدل على شرافته ومدحه عقلا ونقلا . أما حكم العقل على مدحه فظاهر لا يحتاج إلى بيان ، وأما النقل فالأخبار التي وردت به أكثر من أن تحصى ، ونحن نورد شطرا منها تذكرة لمن أراد أن يتذكر ، قال رسول الله (ص) : ما يوضع في ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخلق وقال : يا بني عبد المطلب ! إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فالقوهم بطلاقة الوجه ، وحسن البشر . وقال (ص) إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ، ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق ، ألا فزينوا دينكم بهما . وقال (ص) : حسن الخلق خلق الله الأعظم . وقيل له (ص) : أي المؤمنين أفضلهم إيمانا ؟ قال : أحسنهم خلقا . وقال (ص) : إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم خلقا . وقال (ص) : ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن فلا يعتد بشيء من علمه : تقوى تحجزه عن محارم الله ، وحلم يكف به السيئة وخلق يعيش به في الناس . وقال (ص)

: إن الخلق الحسن يميت الخطيئة ، كما تميت الشمس الجليد (٣٠) وقال (ص) : إن العبد ليبلغ بحسن خلقه
(هامش)
)
٣٠) روي هذا الحديث في الكافي في باب حسن الخلق عن أبي عبد الله الصادق (ع) ، وفي نهاية ابن الأثير : في الحديث : حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد ، ويذيب بمعنى يميت . (*)
ص ٢٧٣
عظيم درجات الآخرة وأشرف المنازل ، وإنه يضعف العبادة وقال (ص) لأم حبيبة : إن حسن الخلق ذهب بغير الدنيا والآخرة وقال لها - بعد ما سألته أن المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلان الجنة لأيهما هي ؟ - : إنها لأحسنهما خلقا . وقال (ص) : إن حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم (٣١) . وقال (ص) : أكثر ما يلج به أمتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق . وقال (ص) : أفاضلكم أحسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا (٣٢) الذين يألفون ويؤلفون . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : المؤمن مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف . ولا ريب في أن سئ الخلق تتنفر عنه الطباع ، فلا يكون مألوفا . وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليهما السلام : إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وقال عليه السلام : أتى رجل رسول الله ، فقال : يا رسول الله ! أوصني فكان فيما أوصاه أن قال : (إلق أخاك بوجه منبسط) . وقال الصادق عليه السلام : ما يقدم المؤمن على الله - عز وجل - بعمل بعد الفرائض أحب إلى الله تعالى من أن يسع الناس بخلقه . وقال عليه السلام : البر وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار . وقال عليه السلام : إن الله تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يعدو عليه ويروح . وقال عليه السلام : ثلاث من أتى الله بواحدة منهن أوجب الله له الجنة : الإنفاق من إقتار ، والبشر لجميع العالم ، والإنصاف من نفسه . وقال عليه السلام : صنايع المعروف وحسن البشر يكسبان المحبة ويدخلان الجنة ، والبخل وعبوس الوجه يبعدان من الله ويدخلان النار .
ومن تأمل في هذه الأخبار ، ورجع إلى الوجدان والتجربة ، وتذكر أحوال الموصوفين بسوء الخلق وحسنه ، يجد أن كل سئ الخلق بعيد من
(هامش)
(٣١) هذا الحديث مروي في الكافي في باب حسن الخلق عن أبي عبد الله - عليه السلام - . (٣٢) قال المبرد في الكامل ص ٣ : قوله (ص) : الموطئون أكنافا ، مثل وحقيقته : إن التوطئة هي التذليل والتمهيد . . . فأراد القائل بقوله : موطأ الأكناف ، إن ناحيته يتمكن فيها صاحبها غير مؤذي ولا ناب به موضعه . (*)
ص ٢٧٤
الله ومن رحمته ، والناس يبغضونه ويشمئزون منه ، ولذا يحرم من يرهم وصلتهم ، وكل حسن الخلق محبوب عند الله وعند الناس ، فلا يزال محلا لرحمة الله وفيوضاته ، ومرجعا للمؤمنين بإيصال نفعه وخيره إليهم ، وإنجاح مقاصده ومطالبه منهم ، ولذلك لم يبعث الله سبحانه نبيا إلا وأتم فيه هذه الفضيلة ، بل هي أفضل صفات المرسلين وأشرف أعمال الصديقين ، ولذا قال الله تعالى لحبيبه مثنيا عليه ومظهرا نعمته لديه : (وإنك لعلى خلق عظيم) (٣٣) . ولعظم شرافته بلغ رسول الله (ص) فيه ما بلغ من غايته ، وتمكن على ذروته ونهايته ، حتى ورد : بينا رسول الله (ص) ذات يوم جالس في المسجد ، إذ جاءت جارية لبعض الأنصار وهو قائم (٣٤) فأخذت بطرف ثوبه فقام لها النبي (ص) فلم تقل شيئا ولم يقل لها النبي (ص) شيئا ، حتى فعلت ذلك ثلاث مرات ، فقام لها النبي (ص) في الرابعة ، وهي خلفه ، فأخذت هدبة من ثوبه ثم رجعت ، فقال لها الناس : فعل الله بك وفعل ! (٣٥) حبست رسول الله ثلاث مرات لا تقولين له شيئا ولا هو يقول لك شيئا ! ما كانت حاجتك إليه ؟ قالت : إن لنا مريضا فأرسلني أهلي لأخذ هدبة من ثوبه يستشفى (٣٦) بها ، فلما أردت أخذها رآني فقام ، استحييت أن آخذها وهو يراني ، وأكره أن أستأمره في أخذها ، فأخذتها (٣٧) .
(هامش)
)
٣٣) القلم ، الآية : ٤ . (٣٤) قال في البحار - ج ١٥ في باب حسن الخلق ص ٢٠٧ - : حال عن بعض الأنصار أي إن القائم

هذا البعض صاحب الجارية ؟ النبي (ص) . (٣٥) قال في البحار - في الموضع المتقدم - : كناية عن كثرة الدعاء عليها بإيذائها النبي (ص) وهذا شائع في عرف العرب والعجم . (٣٦) قال في البحار - في الموضع المذكور ص ٢٠٨ - : في بعض النسخ - بل أكثرها - : ليستشفي . (٣٧) صححنا الحديث على أصول الكافي في باب حسن الخلق . وفي نسخ جامع السعادات اختلاف كثير عما أثبتناه ، وقد جاء في أصول الكافي في صدر الحديث : قال أبو عبد الله (ع) : يا بحر حسن الخلق يسر . . . ثم قال : ألا أخبرك بحديث ما هو في يدي أحد من أهل المدينة ؟ قلت : بلى ! قال : بينا رسول الله . . . إلى آخر الحديث . (*)

ص ٢٧٥

ومنها :

• الحقد up

عرفت وقد أنه إضمار العداوة في القلب ، وهو من ثمرة الغضب ، لأن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال ، رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ، وهو من المهلكات العظيمة . وقد قال رسول الله (ص) : المؤمن ليس بحقود . والغالب أن الحقد يلزمه من الآفات : الحسد ، والهجرة ، والانقطاع عن المحقود ، وإيذاؤه بالضرب ، والتكلم فيه بما لا يحل : من الكذب ، والغيبة ، والبهتان ، وإفشاء السر ، وهتك الستر ، وإظهار العيوب ، والشماتة بما يصيبه من البلاء والسرور به ، والانبساط بظهور عثراته وهفواته ، والمحاكاة عنه بالاستهزاء والسخرية ، والإعراض عنه استصغارا له ، ومنع حقوقه من دين أو رد مظلمة أو صلة رحم . وكل ذلك حرام يؤدي إلى فساد الدين والدنيا . وأضعف مراتبه أن يحترز عن الآفات المذكورة ، ولا يرتكب لأجله ما يعصى الله به ، ولكن يستثقله بالباطن ولا ينتهي قلبه عن بغضه . وهو أيضا من الأمراض المؤلمة للنفس ، المانعة لها عن القرب إلى الله والوصول إلى الملأ الأعلى . ويمنع صاحبه عما ينبغي أن يصدر عنه بالنسبة إلى أهل الإيمان : من الهشاشة والرفق والتواضع والقيام بحوائجهم والمجالسة معهم والرغبة إلى إعانتهم ومواساتهم . . . وغير ذلك . وهذا كله مما ينقص درجته في الدين ، ويحول بينه وبين مرافقة المقربين . ولما كانت حقيقته عبارة عن العداوة الباطنة ، فجميع الأخبار الواردة في ذم المعاداة تدل على ذمه ، كقول النبي (ص) : ما كان جبرئيل يأتيني إلا قال : يا محمد ! اتق شحناء الرجال وعداوتهم . وقوله (ص) : ما عهد إلي جبرئيل قط في شيء ما عهد إلي في معاداة الرجال . وقول الصادق (ع) : من زرع العداوة حصد ما بذر . . وقس عليها غيرها .

وطريق العلاج في إزالته : أن يتذكر أن هذه العداوة الباطنة تؤلمه في العاجل ، إذ الحقود المسكين لا يخلو من التألم والهم لحظة ، ويعذبه في الآجل ، ومع ذلك لا يضر المحقود أصلا ، والعاقل لا يدوم على حالة تكون مضرة

ص ٢٧٦

لنفسه ونافعة لعدوه . وبعد هذا التذكر ، فليجتهد في أن يعامله معاملة أحبائه . من مصاحبته بالانبساط والرفق ، والقيام بحوائجه ، وغير ذلك ، بل يخصه بزيادة البر والاحسان ، مجاهدة للنفس وارغاما للشيطان ، ولا يزال يكرر ذلك حتى ترتفع عن نفسه آثار هذه الرذيلة بالكلية . ثم لما كان الحقد عبارة عن العداوة الباطنة ، وحقيقتها اضمار الشر وكراهة الخير لمن يعاديه ، فضده (النصيحة) التي هي قصد الخير وكراهة الشر ، لا المحبة - كما يتراءى في بادئ الرأي - إذ هي ضد الكراهة دون العداوة - كما يأتي في محله - فمن معالجات الحقد أن يتذكر فوائد النصيحة ومدحها - كما يأتي - ليعين على إزالته . ومنها :

• العداوة الظاهرة up

وهي من لوازم الحقد ، لأنه إذا قوي قوة لا يقدر معها على المجاملة أظهر العداوة بالمكاشفة . والأخبار الواردة في ذمها كثيرة ، وقد تقدم بعضها . وعلاجها كما تقدم في الحقد ، وضدها النصيحة الظاهرة ، أعني فعلية الخير والصلاح لا مجرد قصدهما فليكلف نفسه عليها حتى تصير ملكة له ويزول ضدها . ومنها :

• الضرب والفحش واللعن والطعن up

وهذه ناشئة غالبا عن العداوة والحقد ، وربما صدرت من مجرد الغضب وسوء الخلق ، وربما صدر الفحش من الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق ، وربما كان الباعث في بعض أفرادها حب المال وفقده المعدود من رذائل قوة الشهوة ، إلا أن الفاعل المباشر لهذه الأمور هي القوة الغضبية ، أو النفس لهيجان قوة الغضب ، وإن كان الهيجان حاصلا بوساطة فعل قوة الشهوة ، وعلى أي تقدير يكون من رذائل القوة الغضبية على قاعدتنا ، ولذا أدرجناها تحتها فقط . ثم لا ريب في كون هذه الأمور مذمومة محرمة في الشريعة ، وموجبة

ص ٢٧٧
لحبط الأعمال وخسران المال . وجميع ما يدل على ذم الإيذاء والإضرار يدل على ذمها ، لكونها بعض أفرادهما . والعقل والشرع متطابقان على شدة قبح كل واحد منها بخصوصه وإيجابه للهلاك : أما (الضرب) - فلأنه لا ريب في أن ضرب مسلم بلا داع شرعي مما يقبحه كل عاقل ، ويذمه جميع طوائف العالم ، حتى نفاة الأديان ، والأخبار الواردة في ذمه كثيرة ، وفي عدة منها : إن من ضرب رجلا سوطا لضربه الله سوطا من النار . وأما (الفحش والسب وبذاءة اللسان) - فلا ريب في كونه صادرا عن خباثة النفس . قال رسول الله (ص) : ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ، ولا الفاحش ولا البذي . وقال (ص) : إياكم والفحش ، فإن الله لا يحب الفحش والتفحش . وقال (ص) : الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها . وقال (ص) : إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء وقال (ص) : البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق وروي : أن المراد بالبيان : كشف ما لا يجوز كشفه . وقال (ص) : أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى . . وعد منهم : رجلا يسيل فوه قيحا ، وهو من كان في الدنيا فاحشا . وقال (ص) : لا تسبوا الناس فتكسبوا العداوة منهم (٣٨) . وقال (ص) : إن الله حرم الجنة على كل فحاش بذي قليل الحياء لا يبالي ما قال ولا ما قيل له ، فإنك إن فتشته لم تجده إلا لغية (٣٩) أو شرك شيطان . وقال (ص) : إذا رأيتم الرجل لا يبالي ما قال ولا ما قيل فيه فإنه - لغية أو شرك شيطان . وقال (ص) : إن الله ليبغض الفاحش البذي والمسائل الملحف . وقال (ص) : إن من شرار عباد الله من تكره مجالسته لفحشه . وقال (ص) : سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية ، وحرمة ماله كحرمة دمه . وقال (ص) : سباب المؤمن كالمشرف على الهلكة . وقال (ص) : شر الناس عند الله تعالى يوم القيامة الذين يكرمون اتقاء شرهم . وقال (ص) : المتسابان

(هامش)

(

٣٨) وفي بعض نسخ الكافي في باب السباب : (بينهم) بدل (منهم) . (٣٩) قال في القاموس في مادة (غوى) : ولدغية - ويكسر - أي زنية ، فيكون معنى (لغية) أي (لزنية) . (*)

ص ٢٧٨
شيطانان متعاديان ومتهاتران . وقال الصادق عليه السلام : من علامات شرك الشيطان الذي لا يشك فيه أن يكون فحاشا لا يبالي ما (٤٠) قال ولا ما (٤٠) قيل فيه . وقال عليه السلام : البذاء من الجفاء ، والجفاء في النار ، وقال عليه السلام : من خاف الناس لسانه فهو في النار ، وقال : إن أبغض خلق الله تعالى عبد اتقى الناس لسانه . وعن الكاظم عليه السلام في رجلين يتسابان : فقال : البادي منهما أظلم ، ووزره ووزر صاحبه عليه ما لم يتعد المظلوم (٤١) . (تنبيه) إعلم أن حقيقة الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارة الصريحة . ويجري أكثر ذلك في ألفاظ الوقاع وآلاته وما يتعلق بهما ، بأن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون من التعرض لها ، بل يكنون عنها ويعبرون عنها بالرموز . قال بعض الصحابة : إن الله حيي كريم يعف ويكنى ، كنى باللمس عن الجماع . فالمس ، واللمس ، والدخول ، والصحبة ، كنايات عن الوقاع ، وليست بفاحشة ، وعنه عبارات فاحشة يستقبح ذكرها . وليس هذا يختص بالوقاع بل الكناية بقضاء الحاجة عن التبول والتغوط أولى من لفظة التغوط والخراء وغيرهما ، وكذا التعبير عن المرأة ، فهذا أيضا مما يخفى ويستحيي منه ، فلا ينبغي أن تذكر ألفاظه الصريحة باللسان ، بل يكنى عنها ، فلا يقال : قالت زوجك أو امرأتك ، بل يقال : قيل في الحجرة ، أو قيل من وراء الستر ، وقالت أم الأولاد ، وأمثال ذلك . وكذلك من به عيوب يستحي منها ، فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها ، كالبرص والقرح والبطن ، وأمثال ذلك ، بل يكنى عنها بعبارات غير صريحة ، مثل العارض الذي عرض وما يجري مجراه ، إذ التصريح بجميع ذلك داخل في الفحش .
ثم ألفاظ الفحش لا ريب - حينئذ - في كونها محظورة بأسرها مذمومة وإن كان بعضها أفحش من بعض ، فيكون إثمه أشد ، سواء استعمل في ال الإيذاء أو لا يستعمل فيه ، بل في المزاح والهزل وغيرهما . وحينئذشتم

(هامش)

(٤٠) وفي بعض نسخ الكافي في باب البذاء (بما) في الموضعين . (٤١) قد مضى في الصة (٣٠٠) تصحيح الحديث على ما في

أصول الكافي في باب السفه . فصححناه هنا أيضا . (*)
ص ٢٧٩
لما كانت هذه العبارات متفاوتة في الفحش بعضها أفحش من بعض ، وربما اختلف بعادة البلاد ، فيكون بعضها مكروها وبعضها محظورا ، فإن من قال لغيره مزاحا أو اعتيادا حاصلا من مخالطة الفساق : (فرج امرأتك ضيق أم لا ؟) لا ريب في كونه فحشا محرما مذموما ، مع أنه لم يستعمل في الشتم . وبالجملة : أوائل هذه العبارات مكروهة وأواخرها محظورة ، وبينهما درجات تتردد بين الكراهة والحرمة . وأما (اللعن) - فلا ريب في كونه مذموما ، لأنه عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى ، وهذا غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده بنص الشريعة وقد ورد عليه الذم الشديد في الأخبار ، قال رسول الله (ص) : المؤمن ليس بلعان . وعن الباقر عليه السلام قال : خطب رسول الله (ص) ، فقال : ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : الذي يمنع رفده ويضرب عبده ، ويتردد وحده . فظنوا أن الله لم يخلق خلقا هو شر من ذلك ثم قال : ألا أخبركم بمن هو شر من ذلك ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : المفتحش اللعان الذي إذا ذكر عنده المؤمنون لعنهم ، وإذا ذكروه لعنوه . وقال الباقر عليه السلام : إن اللعنة إذا خرجت من فم صاحبها ترددت بينهما فإن وجدت مساغا وإلا رجعت إلى صاحبها . لماثم كان اللعن هو الحكم بالبعد أو طلب الإبعاد من الله . (والأول) غيب لا يطلع عليه إلا الله . (والثاني) لا يجوز إلا على من اتصف بصفة تبعده منه ، فينبغي ألا يلعن أحدا إلا من جوز صاحب الشرع لعنه ، والمجوز من الشرع إنما هو اللعن على الكافرين والظالمين والفاسقين ، كما ورد في القرآن ولا ريب في جواز ذلك بالوصف الأعم ، كقولك : لعنة الله على الكافرين . أو بوصف يخص بعض الأصناف ، كقولك : لعنة الله على اليهود والنصارى . والحق جواز اللعن على شخص معين علم اتصافه بصفة الكفر أو الظلم أو الفسق . (
وما قيل) من عدم جواز ذلك إلا على من يثبت لعنه من الشرع كفرعون وأبي جهل ، لأن كل شخص معين كان على إحدى الصفات الثلاثة ربما رجع عنها ، فيموت مسلما أو تائبا ، فيكون مقربا عند الله لا مبعدا عنه (كلام ينبغي) أن يطوى ولا يروى ، إذ المستفاد من كلام الله تعالى وكلام
ص ٢٨٠
رسوله (ص) وكلام أئمتنا الراشدين : جواز نسبته إلى الشخص المعين ، بل المستفاد منها أن اللعن على بعض أهل الجحود والعناد من أحب العبادات وأقرب القربات ، قال الله سبحانه : أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين (٤٢) . وقال : أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون (٤٣) . وقال النبي (ص) : لعن الله الكاذب ولو كان مازحا . وقال (ص) في جواب أبي سفيان حين هجاه بألف بيت : اللهم إني لا أحسن الشعر ولا ينبغي لي ، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة . وقد لعن أمير المؤمنين عليه السلام جماعة . وروي أنه كان يقنت في الصلاة المفروضة بلعن معاوية وعمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري وأبي الأعور الأسلمي ، مع إنه أحلم الناس وأشدهم صا عمن يسوء به ، فلولا أنه كان يرى لعنهم من الطاعات لما يتخير محله في الصلوات المفروضات . وروى الشيخ الطوسي : إن الصادق عليه السلام كان ينصرف من الصلاة بلعن أربعة رجال . ومن نظر إلى ما وقع للحسن عليه السلام مع معاوية وأصحابه وكيف لعنهم ، وتتبع ما ورد من الأئمة في الكافي وغيره من كتب الأخبار والأدعية في لعنهم من يستحق اللعن من رؤساء الضلال والتصريح بأسمائهم ، يعلم أن ذلك من شعائر الدين ، بحيث لا يعتريه شك ومرية . وما ورد من قوله عليه السلام لا تكونوا لعانين ، ومثله : نهى عن اللعن على غير المستحقين ، وما روي أن أمير المؤمنين عليه السلام نهى عن لعن أهل الشام ، فإن صح ، فلعله كان يرجو إسلامهم ورجوعهم إليه ، كما هو شأن الرئيس المشفق على الرعية .
وبالجملة : اللعن على رؤساء الظلم والضلال والمجاهرين بالكفر والفسق جائز ، بل مستحب ، وعلى غيرهم من المسلمين غير جائز ، إلا أن يتيقن باتصافه بإحدى الصفات الموجبة له . وينبغي ألا يحكم باتصافه بشيء منها بمجرد الظن والتخمين ، إذ لا يجوز أن يرمى مسلم بكفر وفسق من غير تحقيق ، قال رسول الله (ص) : لا يرمي رجل رجلا بالكفر فلا يرميه بالفسق إلا ارتد عليه إن لم يكن كذلك . (هامش)
(٤٢) البقرة ، الآية : ١٦١ . (٤٣) البقرة ، الآية : ١٥٩ . (*)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

١٠١٠ 08

الصفحة السابقة ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ٢٨١

ثم اللعن على الأموات أشد وزرا وأعظم إثما ، لقول النبي (ص) : لا تسبوا الأموات ، فإنهم قد افضوا إلى ما قدموا . ولا ينبغي أن يلعن الجماد والحيوان أيضا . لما روي : أنه ما لعن أحد الأرض إلا قالت : اللعن على أعصانا لله ، وما روي : أن النبي (ص) أنكر على امرأة لعنت ناقة ، وعلى رجل لعن بعيرا . ثم الدعاء على المسلم بالشر قريب من اللعن عليه ، فلا ينبغي ارتكابه ولو على الظالم ، إلا إذا اضطر إليه لشره وأضراره ، وقد ورد أن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافيه ، ثم يبقى للظالم عنده فضيلة يوم القيامة . وقال علي بن الحسين عليهما السلام : إن الملائكة إذا سمعوا المؤمن يذكر أخاه بالسوء ويدعو عليه قالوا : بئس الأخ أنت لأخيك ! كف أيها المستر على ذنوبه وعورته ، وأربع على نفسك ، وأحمد الله الذي ستر عليك ! (٤٤) . ثم ضد ذلك - أعني الدعاء للأخ المسلم بما يحب لنفسه - من أحب الطاعات وأقرب القربات ، وفوائده أكثر من أن تحصى ، بل عند التحقيق دعاؤك له دعاء لنفسك ، قال رسول الله (ص) : إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك : ولك مثل ذلك . وقال (ص) : يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه . وقال علي بن الحسين عليهما السلام : إن الملائكة إذا سمعوا المؤمن يدعو لأخيه المؤمن بظهر الغيب أو يذكره بخير ، قالوا : نعم الأخ أنت لأخيك ! تدعو له بالخير وهو غائب عنك ، وتذكره بالخير . قد أعطاك الله عز وجل مثلي ما سألت له ، وأثنى عليك مثلي ما أثنيت عليه ، ولك الفضل عليه ومثله ورد عن الباقر (ع) أيضا .

والأخبار في فضيلة الدعاء للأخوان أكثر من أن تحصى ، وأي كرامة أعظم لك من أن تصل منك إلى المؤمن وهو تحت أطباق الثرى هدايا الاستغفار والأدعية ، وهل تدري كيف تسر روحه منك بهذا العمل ؟ فإن أهله يقسمون ميراثه ويتنعمون بما خلف ، وأنت متفرد بحزنك تدعو له في ظلمة الليل ، وقد قال رسول الله (ص) : مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء ، ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ أو قريب ، وإنه ليدخل على قبور الأموات

(هامش)

(٤٤) هذه الرواية من تتمة الرواية الآتية عن علي بن الحسين (ع) . (*)

ص ٢٨٢

دعاء من الأحياء من الأنوار مثل الجبال وهو للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء ، فيدخل الملك على الميت معه طبق من نور عليه منديل من نور فيقول هذه هدية لك من عند أخيك فلان ، من عند قريبك فلان ، فيفرح كما يفرح الحي بالهدية (٤٥) . وأما (الطعن) - فهو أيضا من ذمائم الأفعال ، ويورث الضرر في الدنيا والعذاب في الأخرى . قال الباقر عليه السلام : إياكم والطعن على المؤمنين . وقال (ع) : ما من إنسان يطعن في عين مؤمن إلا مات شر ميتة ، وكان قمنا ألا يرجع إلى خير . واعلم أن هذه الأمور - أعني الفحش واللعن والطعن وأمثالها مما يأتي في موضعه : من الغيبة والكذب والبهتان والاستهزاء والمزاح والخوض في الباطل والتكلم بالفضول وما لا يعني : من آفات اللسان ، ويأتي إن لجميع آفات اللسان ضدا عاما هو الصمت ، ويأتي بيان فضيلته وكثرة فوائده ، ويأتي أيضا ما يدل بعمومه على ذم جميع آفات اللسان - أعني ما ورد في ذم اللسان ، وكون شره أعظم من شر سائر الأعضاء - فإنه بعمومه يدل على ذم هذه الأمور . ومنها - أي ومن رذائل القوة الغضبية - :

• العجب up

وهو استعظام نفسه لأجل ما يرى لها من صفة كمال ، سواء كانت له تلك الصفة في الواقع أم لا . وسواء كانت صفة كمال في نفس الأمر أم لا ، وقيل : هو إعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم وهو قريب مما ذكر ، ولا يعتبر في مفهومه رؤية نفسه فوق الغير في هذا الكمال وهذه النعمة ، وبذلك يمتاز عن الكبر ، إذ الكبر هو أن يرى لنفسه مزية على غيره في صفة كمال ، وبعبارة أخرى هو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه ، فالكبر يستدعي متكبر عليه ومتكبرا به .

(هامش)
(٤٥) هذا الكلام من بعد الحديث الذي وضعناه بين قوسين رواه في إحياء العلوم - ج ٢ ص ١٦٤ - عن بعض السلف ، وبمضمونه أحاديث مروية عن آل البيت (ع) ، روى منها في الوسائل في أبواب الاحتضار من كتاب الطهارة (باب استحباب الصلاة عن الميت والصوم والحج) . (*)
ص ٢٨٣
والعجب لا يستدعي غير المعجب ، بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجبا ، ولا يتصور أن يكون متكبرا ، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفة الكمال ، ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا ، فإنه قد يستعظم نفسه ، ولكن يرى في غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه ، فلا يتكبر عليه ، فهو معجب وليس متكبرا . ولا يكفي أن يستحقر غيره ، فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر أو رأى غيره مثل نفسه لم يكن متكبرا ، بل المتكبر هو أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره . والحاصل : أن العجب مجرد إعظام النفس لأجل كمال أو نعمة ، وإعظام نفس الكمال والنعمة مع الركون ونسيان إضافتهما إلى الله ، فإن لم يكن معه ركون وكان خائفا على زوال النعمة مشفقا على تكدرها أو سلبها بالمرة ، أو كان فرحه بها من حيث أنها من الله من دون إضافتها إلى نفسه لم يكن معجبا ، فالمعجب ألا يكون خائفا عليها ، بل يكون فرحا بها مطمئنا إليها ، فيكون فرحه بها من حيث أنها صفة كمال منسوبة إليه ، لا من حيث أنها عطية منسوبة إلى الله تعالى . ومهما غلب على قلبه أنها نعمة من الله مهما شاء سلبها : زال العجب . ثم لو انضاف العجب - أي غلب على نفس المعجب - أن له عند الله حقا ، وإنه منه بمكان ، واستبعد أن يجري عليه مكروه ، وكان متوقعا منه كرامة لعمله ، سمي ذلك (إدلالا) بالعمل ، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة فهو وراء العجب وفوقه إذ كل مدل معجب ، ورب معجب لا يكون مدلا ، إذ العجب مجرد الاستعظام ونسيان الإضافة إلى الله من دون توقع جزاء على عمله ، والإدلال يعتبر فيه توقع الجزاء بعمله ، إذ المدل يتوقع إجابة دعوته ويستنكر ردها بباطنه ويتعجب منه ، فالإدلال عجب مع شيء زائد .
وعلى هذا ، فمن أعطى غيره شيئا ، فإن استعظمه ومن عليه كان معجبا وإن استخدمه مع ذلك أو اقترح عليه الاقتراحات واستبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه . وكما إن العجب قد يكون مما يراه صفة كمال وليس كذلك العجب بالعمل قد يكون بعمل هو مخطئ فيه ويراه حسنا ، كما قال
ص ٢٨٤
سبحانه : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا (٤٦) . وقال أبو الحسن عليهما السلام : العجب درجات : ومنها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسنا ، فيعجبه ويحسب أنه يحسن صنعا . ومنها أن يؤمن العبد بربه ، فيمن على الله - عز وجل - ولله عليه فيه المن .
فصل (ذم العجب) up
العجب من المهلكات العظيمة وأرذل الملكات الذميمة ، قال رسول الله (ص) : ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه . وقال (ص) : إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك نفسك . وقال (ص) : لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك : العجب العجب . وقال (ص) : بينما موسى (ع) جالس (٤٧) ، إذ أقبل عليه إبليس وعليه برنس ذو ألوان ، فلما دنى منه خلع البرنس ، وقام إلى موسى عليه السلام فسلم عليه ، فقال له موسى : من أنت ؟ فقال : أنا إبليس قال أنت ! فلأقرب الله دارك ، قال : إني إنما جئت لأسلم عليك لمكانك من الله ، فقال له موسى عليه السلام : فما هذا البرنس ؟ قال : به اختطف قلوب بني آدم ، فقال موسى : فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه ، قال : إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه . وقال (ص) : قال الله - عز وجل - : يا داود ! بشر المذنبين وأنذر الصديقين ، قال : كيف أبشر المذنبين - وأنذر الصديقين ؟ قال : بشر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفوا عن الذنب ، وأنذر الصديقين ؟ ألا يعجبوا بأعمالهم ، فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك . وقال الباقر (ع) : دخل رجلان المسجد ، أحدهما عابد والآخر فاسق ، فخرجا من المسجد والفاسق صديق والعابد فاسق ، وذلك أنه يدخل العابد المسجد مدلا بعبادته يدل بها ، فتكون فكرته في ذلك ، وتكون فكرة الفاسق في الندم على فسقه ، ويستغفر الله مما صنع من الذنوب . وقال الصادق (ع) : إن

(هامش)
(٤٦) الفاطر ، الآية : ٨ . (٤٧) وفي بعض نسخ الكافي في باب العجب هكذا : (جالسا) - بالنصب - . (*)
ص ٢٨٥
الله علم أن الذنب خير للمؤمن من العجب ، ولولا ذلك ما ابتلي مؤمنا بذنب أبدا . وقال عليه السلام : من دخله العجب هلك . وقال (ع) إن الرجل ليذنب الذنب فيندم عليه ، ويعمل العمل فيسره ذلك ، فيتراخى عن حاله تلك ، فلإن يكون على حاله تلك خير له مما دخل فيه . وقال عليه السلام : أتى عالم عابدا فقال له : كيف صلاتك ؟ فقال : مثلي يسأل عن صلاته وأنا أعبد الله منذ كذا وكذا ، قال : فكيف بكاؤك ؟ قال : أبكي حتى تجري دموعي ، فقال له العالم : فإن ضحكك وأنت خائف أفضل من بكائك وأنت مدل ، إن المدل لا يصعد من عمله شيء . وقال (ع) العجب كل العجب ممن يعجب بعمله وهو لا يدري بما يختم له ، فمن أعجب بنفسه وفعله ، فقد ضل عن نهج الرشاد ، وادعى ما ليس له ، والمدعي من غير حق كاذب وإن أخفى دعواه وطال دهره . وإن أول ما يفعل بالمعجب نزع ما أعجب به ليعلم أنه عاجز حقير ، ويشهد على نفسه ليكون الحجة عليه أوكد ، كما فعل بإبليس . والعجب نبات حبها الكفر ، وأرضها النفاق ، وماؤها البغي ، وأغصانها الجهل ، وورقها الضلالة ، وثمرها اللعنة والخلود في النار ، فمن اختار العجب فقد بذر الكفر وزرع النفاق ، ولا بد أن يثمر (٤٨) . وقيل له عليه السلام : الرجل يعمل العمل وهو خائف مشفق ، ثم يعمل شيئا من البر فيدخله شبه العجب به ، فقال : هو في حالة الأولى وهو خائف أحسن حالا منه في حال عجبه . وقال عليه السلام : إن عيسى بن مريم عليهما السلام كان من شرائعه المسيح في البلاد ، فخرج في بعض سيحه ومعه رجل من أصحابه قصير ، وكان كثير اللزوم لعيسى ، فلما إنتهى عيسى إلى البحر قال : بسم الله ، بصحة يقين منه ، فمشى على ظهر الماء .
فقال الرجل القصير حين نظر إلى عيسى جازه : بسم الله ، بصحة يقين منه ، فمشى على الماء ، ولحق بعيسى - صلى الله عليه - ، فدخله العجب بنفسه فقال : هذا عيسى روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي على الماء ، فما فضله علي ؟ قال : فرمس في الماء ، فاستغاث بعيسى (ع) ، فتناوله
(هامش)
(٤٨) صححنا هذه الرواية على ما في البحار - الجزء الثالث من المجلد الخامس عشر في باب العجب - وقد نقلها عن مصباح الشريعة ، وفيه اختلاف عن نسخ جامع السعادات . (*)
ص ٢٨٦
من الماء فأخرجه ، ثم قال له : ما قلت يا قصير ؟ ! قال قلت : هذا روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي ، فدخلني من ذلك عجب ، فقال له عيسى : لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعك الله ، فمقتك الله على ما قلت ، فتب إلى الله عز وجل مما قلت ، قال : فتاب الرجل ، وعاد إلى مرتبته التي وضعه الله فيها (٤٩) .
فصل آفات العجبup
العجب آفاته كثيرة : (منها) الكبر لأنه أحد أسبابه - كما يأتي - (ومنها) إنه يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها ، فلا يتذكر شيئا منها ، وإن تذكر بعضا منها يستصغرها ولا يستعظمها ، فلا يجتهد في تداركها وتلافيها ، بل يظن أنها تغفر له . وأما العبادات ، فيستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ، وإذا أعجب بها عمي عن آفاتها . ومن لم يتفقد آفات الأعمال ضل سعيه ، إذ الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب فلما تنفع ، وإنما يتفقد الخائف المشفق دون المعجب ، لأنه يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ، ويظن أنه عند الله بمكان ، وإن له عند الله حقا بأعماله التي هي من عطاياه تعالى ونعمه وربما يخرجه العجب إلى تزكية نفسه والثناء عليها . وإن أعجب برأيه وعقله وعلمه منعه ذلك من السؤال والاستفادة والاستشارة ، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف عن سؤال الأعلم ، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له ، فيفرح بكونه من خواطره ولا يعتني بخواطر غيره بعين الاستحقار والاستجهال فإن كان رأيه الفاسق متعلقا بأمر دنيوي أضره وفضحه ، وإن كان متعلقا بأمر ديني - (لا) سيما في أصول العقائد - أضله وأهلكه . ولو اتهم نفسه يثقولم برأيه ، واستعان بعلماء الدين وسؤال أهل البصيرة ، لكان خيرا له

وأحسن ، وموصلا له إلى الحق المتيقن . ومن آفاته أنه يفتر في الجد والسعي ، لظنه أنه قد استغنى وفاز بما ينجيه ، وهو الهلاك الصريح الذي
(هامش)
(٤٩) صححنا أكثر هذه الأحاديث على الكافي في باب العجب والحسد . (*)
ص ٢٨٧
لا شبهة فيه .
فصل (علاج العجب إجمالا وتفصيلا) up
إعلم أن للعجب علاجين : إجماليا وتفصيليا (٥٠) : أما العلاج الإجمالي - فهو أن يعرف ربه ، وأنه لا تليق العظمة والعزة إلا به ، وأن يعرف نفسه حق المعرفة ، ليعلم أنه بذاته أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل ، ولا تليق به إلا الذلة والمهانة والمسكنة ، فما له والعجب واستعظام نفسه ، فإنه لا ريب في كونه ممكنا ، وكل ممكن في ذاته صرف العدم ومحض اللاشئ ، كما ثبت في الحكمة المتعالية ، ووجوده وتحققه وكماله وآثاره جميعا من الواجب الحق ، فالعظمة والكبرياء إنما تليق بمفيض وجوده وكمالاته ، لا لذاته التي هي صرف العدم ومحض الليس ، فإن شاء أن يستعظم شيئا ويفتخر به فليستعظم ربه وبه افتخر ، ويستحقر نفسه غاية الاستحقار وحتى يراها صرف العدم ومحض اللاشئ . وهذا المعنى يشترك فيه كل ممكن كائنا من كان . وأما المهانة والذلة التي تخص هذا المعجب وبني نوعه ، فكون أوله نطفة قذرة وآخره جيفة عفنة ، وكونه ما بين ذلك حمال نجاسات منتنة ، وقد مر على ممر البول ثلاث مرات . وتكفيه آية واحدة من كتاب الله تعالى لو كان له بصيرة ، وهي قوله تعالى : قتل الإنسان ما أكفره . من أي شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره (٥١) . فقد أشارت الآية إلى أنه كان أولا في كتم العدم غير المتناهي ، ثم خلقه من أقذر الأشياء الذي هو نطفة مهينة ، ثم أماته وجعله جيفة منتنة خبيثة . وأي شيء أخس وأرذل ممن بدايته محض العدم ، وخلقته من أنتن الأشياء وأقذرها ، ونهايته الفناء وصيرورته جيفة خبيثة . وهو ما بين المبدأ والمنتهى عاجز ذليل ، لم يفرض إليه أمره ، ولم يقدر على شيء لنفسه ولا
(هامش)
(٥٠) وفي النسخ : (إجمالي وتفصيلي) . (٥١) عبس ، الآية : ١٧ - ٢٢ . (*)
ص ٢٨٨
لغيره ، إذ سلطت عليه الأمراض الهائلة ، والأسقام العظيمة ، والآفات المختلفة والطبائع المتضادة ، من المرة والدم والريح والبلغم ، فيهدم بعض أجزائه بعضا ، شاء أم أبى ، رضي أم سخط ، فيجوع كرها ، ويعطش كرها ، ويمرض كرها ، ويموت كرها ، لا يملك لنفسه نفعا وضرا ولا خيرا وشرا ، يريد أن يعلم الشيء فيجهله ، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ، ويريد أن ينسى الشيء فلا ينساه ، ويريد أن ينصرف قلبه إلى ما يهمه فيجول في أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار . فلا يملك قلبه قلبه ، ولا نفسه نفسه . يشتهي الشيء وفيه هلاكه ، ويكره الشيء وفيه حياته ، يستلذ ما يهلكه ويرديه ، ويستبشع ما ينفعه وينجيه ، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وعلمه وقدرته ، وتفلج أعضاؤه ، ويختلس عقله ، وتخطف روحه ، ويسلب جميع ما يهواه في دنياه ، وهو مضطر ذليل إن ترك فني ، وإن خلي ما بقي ، عبد مملوك ، لا يقدر على شيء من نفسه ولا من غيره . فأي شيء أذل منه لو عرف نفسه ؟ وأنى يليق العجب به لولا جهله ؟ . وهذا وسط أحواله .
وأما آخره ، فهو الموت - كما عرفت - فيصير جيفة منتنة قذرة ، ثم تضمحل صورته ، وتبلى أعضاؤه ، وتنخر عظامه ، وتتفتت أجزاؤه ، فيصير رميما رفاتا ، ثم يصير روثا في أجواف الديدان ، يهرب منه الحيوان ، ويستقذره كل إنسان ، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان ، فيصير ترابا تعمل منه الكيزان ، ويعمر منه البنيان ، فما أحسنه لو ترك ترابا ، بل يحيى بعد طول البلى ليقاسي شدائد البلا ، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ، ويساق إلى عرصات القيامة ، فيرى سماء مشققة ، وأرضا مبدلة ، وجبالا مسيرة ، ونجوما منكدرة ، وشمسا منكسفة ، وجحيما مسعرة ، وجنة مزينة ، وموازين منصوبة ، وصحائف منشورة ، فإذا هو في معرض المؤاخذة والحساب عليه ملائكة غلاظ شداد ، فيعطى كتابه إما بيمينه أو شماله ، فيرى فيه جميع أعماله وأفعاله ، من قليل وكثير ونقير وقطمير .

فإن غلبت سيئاته على حسناته وكان مستحقا للعذاب والنار ، تمنى أن يكون كلبا أو خنزيرا ، لصير مع البهائم ترابا ولا يلقى عقابا ولا عذابا . ولا ريب في أن
ص ٢٨٩
الكلب والخنزير أحسن وأطيب ممن عصى ربه القهار ويعذب في النار ، إذ أولهما وآخرهما التراب ، وهو بمعزل عن العقاب والعذاب ، والكلب والخنزير لا يهرب منهما الخلق ، ولو رأى أهل الدنيا من يعذب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته . ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقاه في بحار الدنيا صارت أنتن من الجيفة المنتنة . فما لمن هذه حاله والعجب واستعظام نفسه ! وما أغفله من التدبر في أحوال يومه وأمسه ! ولو لم يدركه العذاب ولم يؤمر به النار فإنما ذلك للعفو ، لأنه ما من عبد إلا وقد أذنب ذنبا ، وكل من أذنب ذنبا استحق عقوبة ، فلو لم يعاقب فإنما ذلك للعفو . ولا ريب في أن العفو ليس يقينا بل هو مشكوك فيه ، فمن استحق عقوبة ولا يدري أيعفى عنها أم لا ، يجب أن يكون أبدا محزونا خائفا ذليلا ، فكيف يستعظم نفسه ويلحقه العجب ، ألا ترى أن من جنى على بعض الملوك بما استحق به ألف سوط مثلا ، فأخذ وحبس في السجن . وهو منتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق ، وليس يدري أيعفى عنه أم لا ، كيف يكون ذله في السجن ؟ أفترى إنه مع هذه الحالة يكون معجبا بنفسه ؟ ! ولا أظنك أن تظن ذلك . فما من عبد مذنب ، ولو أذنب ذنبا واحدا ، إلا وقد استحق عقوبة من الله ، والدنيا سجنه ، ولا يدري كيف يكون أمره ، فيكفيه ذلك خوفا ومهانة وذلة . فلا يجوز له أن يعجب ويستعظم نفسه . هذا هو العلاج الإجمالي للعجب . وأما التفصيلي - فهو أن يقطع أسبابه - أعني ما به العجب - وهي العلم ، والمعرفة ، والعبادة ، والطاعة ، وغير ذلك من الكمالات النفسية ، كالورع ، والشجاعة ، والسخاوة ، والنسب ، والحسب ، والجمال ، والمال والقوة ، والبطش ، والجاه ، والاقتدار ، وكثرة الأعوان والأنصار ، والكياسة ، والتفطن لدقائق الأمور ، والرأي الخطأ .

أما (العجب بالعلم) : فعلاجه أن يعلم أن العالم الحقيقي هو الذي يعرف نفسه وخطر الخاتمة ، وإن من تليق به العظمة والعزة والكبرياء هو الله
ص ٢٩٠
سبحانه ، وما عداه هالك الهوية والذات فاقد الكمال والصفات . وهذا العلم يزيد الخوف والذلة والمهانة والمسكنة ، والاعتراف بالقصور والتقصير في أداء حقوق الله ، والشكر بإزاء نعمه ، ولذا قيل : من ازداد علما ازداد وجعا . فالعلم الذي لا يوجب ذلك ويورث العجب ، إما ليس علما حقيقيا بل هو من العلوم الدنيوية التي ينبغي أن تسمى صناعات لا علوم ، إذ صاحبه خاض فيه وهو خبيث النفس ردئ الأخلاق لم يهذب نفسه أولا ولم يزكها بالمجاهدات ولم يرضها في عبادة ربه ، فيبقى خبيث الجوهر ، فإذا خاض في العلم وإن كان علما حقيقيا صادف من قلبه منزلا خبيثا ، فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخبر أثره ، فإن العلم مثله مثل الغيث ينزل من السماء عذبا صافيا ، فإذا شربته الأشجار والنباتات ازداد المر مرارة والحلو حلاوة كذلك العلم إذا صادف القلوب ازداد القلب المظلم الخبيث ظلمة وخباثة . والطيب الصافي طيبا وصفاء . وإذا علم ذلك ، يعرف أنه لا ينبغي العجب بالعلم ، ويجب أيضا أن يعلم أنه إذا أعجب بنفسه صار ممقوتا عند الله مبغوضا لديه ، لما تقدم من الأخبار ، وقد أحب الله منه الذلة والحقارة عند نفسه . وقال بواسطة سفرائه إن لك عندي قدرا ما لم تر لنفسك قدرا ، فإن رأيت لنفسك قدرا فلا لك قدر عندي (٥٢) . وقال : صغروا أنفسكم ليعظم عندي محلكم .

فلا بد أن يكلف نفسه ما يحب مولاه ، وأن يعلم أن حجة الله على أهل العلم أوكد ، وإنه يتحمل من الجاهل ما لا يتحمل عشره من العالم ، لأن العالم إذا زل زل بزلته كثير من الناس ، ولأن من عصى الله عن علم ومعرفة كانت جنايته أفحش ، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم ، ولذلك قال رسول الله (ص) : يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيطيف به أهل النار ، فيقولون : ما لك ؟ فيقول : كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه ، وقد
(هامش)
(٥٢) هذا كلام بنصه مذكور في إحياء العلوم - ج ٣ ص ٣١٢ - ويظهر منه أنه من كلامه هو أو مقتبس من مضامين الأخبار ،

إلا أنه نص حديث ، وكذا ما بعده وهو قوله : صغروا . . . . (*)
ص ٢٩١
مثل الله تعالى علماء (اليهود) بالحمار (٥٣) ، وبلعلم بن باعوراء بالكلب (٥٤) لعدم عملهم بما علموه . وقال رسول الله (ص) : يكون قوم يقرون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا ، ثم التفت إلى أصحابه فقال : أولئك منكم أيها الأمة ، أولئك هو وقود النار . وقال (ص) : إن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه ، وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبدا إلى الله فاستجاب له وقبل منه ، فأطاع الله فأدخله الله الجنة ، وأدخل الداعي النار بتركه علمه واتباعه الهوى وطول الأمل وقال روح الله (ع) : ويل لعلماء السوء (٥٥) كيف تتلظى عليهم النار . وقال الصادق عليه السلام : يغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد . ولا ريب في أن كل عالم يأمر الناس بالتواضع وذل النفس وانكسارها ، وينهاهم عن العجب والكبر ، وهو معجب متكبر ، يكن من علماء السوء وممن لم يعمل بعلمه ، فيكون داخلا تحت هذه الأخبار . وأي عالم يتصور في أمثال هذه الأزمنة أن يجزم بأنه عمل بجميع ما علم وأمر به ، ولم يضع شيئا من أوامر ربه من الجنايات الظاهرة والذنوب الباطنة ، كالرياء والحسد والعجب والنفاق وغير ذلك ؟ وكيف يمكنه القطع بأنه امتثل ما أمر به من التكاليف العامة والخاصة به ؟ فخطره أعظم من خطر غيره ، كيف وقد روي : إن حذيفة صلى بقوم ، فلما سلم قال : لتلتمسن إماما غيري أو لتصلن وحدانا ، فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني . فإذا كان مثله لا يسلم ، فكيف يسلم الضعفاء ، من متأخري هذه الأمة ، فما أعز على بسيط الأرض في هذه الأعصار علماء الآخرة الذين أقبلوا على شأنهم ،
(هامش)
(
٥٣) إشارة إلى قوله تعالى - في سورة الجمعة الآية ٥ - : مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . (٥٤) إشارة إلى قوله تعالى - في سورة الأعراف الآية ١٧٦ - : فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . (٥٥) في النسخ المصححة للكافي - باب لزوم الحجة على العالم - هكذا : للعلماء السوء - بتعريف العلماء - ونحن ربحنا نسخة جامع السعادات المطبوعة فأثبتناه بلا تعريف قال صاحب مجمع البحرين - مادة (سوء) - تقول هذا رجل سوء بالإضافة ، ثم تدخل عليه الألف واللام ، فتقول هذا رجل السوء . ولا يقال الرجل السوء . كذا قاله الجوهري . (*)
ص ٢٩٢
واستوحشوا من أوثق إخوانهم ، وشغلهم عظيم الأمر عن الالتفات إلى الدنيا وزهرتها ، وأزعجهم خوف الرحمن من مضاجعهم في حنادس الليالي وظلمتها ولا يشتهون من نعيم الدنيا حارا ولا باردا ، وصارت همومهم هما واحدا ، هيهات ! فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم ، فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول وقد انقرضوا في القرون الأول ، بل يعز أن يوجد في زماننا هذا عالم لا تكون له استطالة وخيلاء ، ولم يكن متكبرا على الفقراء ، ومتواضعا للأغنياء . فينبغي لكل عالم أن يتفكر في أحواله وأعماله وما أريد منه ، وفي عظم خطره حتى تنكسر نفسه ، ويظهر خوفه وحزنه ويبطل كبره وعجبه . وأما (العجب بالعبادة والطاعة) فعلاجه أن يعلم أن الغرض من العبادة هو إظهار الذل والانكسار ، وصيرورتهما ملكة للنفس ليحصل له معنى العبودية وحقيقتها ، فالعجب لمنافاته الغرض المقصود منها يبطلها ، وبعد بطلانها فلا معنى للعجب بها . وأيضا آفات العبادة الموجبة لحبطها كثيرة ، وكذلك شرائطها وآدابها التي لا يصح بدونها كثرة ، فيمكن أن تدخلها بعض الآفات أو تفقد عنها بعض الشرائط والآداب ، فلا تكون مقبولة عند الله ، ومع إمكان ردها وعدم قبولها كيف يعجب العاقل بها ؟ ومن يمكنه القطع بسلامة طاعاته وعباداته عن جميع الآفات ؟ ومن قطع بذلك فهو في غاية الجهل بحقائق الأمور ، على أن فائدة العبادة إنما هو إذا كان عند الله سعيدا ، ومن جوز أن يكون عند الله شقيا ، وقد سبق القضاء الإلهي بشقوته ، فأي نفع يتصور لعبادته حتى يعجب بها ؟ ولا ريب في أنه لا يخلو عبد عن هذا التجويز ، فما لأحد إلى العجب والتكبر في حال من الأحوال سبيل .
وأما (العجب بالورع ، والتقوى ، والصبر ، والشكر ، والسخاوة ، والشجاعة ، وغيرها من الفضائل النفسية) : فعلاجه أن يعلم أن

هذه الفضائل إنما تكون نافعة ومنجية إذا لم يدخلها العجب ، وإذا دخلها العجب أبطلها وأفسدها ، فما للعاقل أن يرتكب رذيلة تضيع ماله من الفضائل ، وأنى له لا يظهر الذلة والتواضع في نفسه حتى يزيد فضيلة على فضائلها ، ويختم لأجلها الجميع بالخير ، وتصير عاقبته محمودة ، وتكون مساعيه مقبولة مشكورة . وينبغي أن يعلم أن كل واحد من الفضائل التي يثبتها

ص ٢٩٣

لنفسه موجودة مع الزيادة في كثير من بني نوعه ، وإذا علم اشتراك الناس معه في هذه الفضيلة زال إعجابه بها . وقد نقل أن واحدا من مشاهير الشجعان إذا قابل خصمه أصفر لونه وارتعدت فرائصه واضطرب قلبه ، فقيل له : ما هذه الحالة وأنت أشجع الناس وأقواهم ؟ فقال : إني لم أمتحن خصمي ، فلعله أشجع مني . وأيضا النصر والغلبة وحسن العاقبة مع الذلة والمسكنة ، لامع الاعجاب بالقوة والشجاعة ، فإن الله عند المنكسرة قلوبهم . ومن المعالجات النافعة للعجب بكل واحد من الصفات الكمالية : أن يقابل سببه بضده ، إذ علاج كل علة بمقابلة سببها بضده ، ولما كانت علة العجب هو الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة له ، فنقول : الكمال الذي به يعجب إما أن يكون يعجب به من حيث أنه فيه وهو محله ومجراه ، أو من حيث أنه نشأ منه وحصل بسببه وقوته وقدرته . فإن كان (الأول) ، فهو محض الجهل ، لأن المحل مسخر ، وإنما يجري ما يجري فيه وعليه من جهة غيره ، ولا مدخل له في الايجاد والتحصيل ، فكيف يعجب بما ليس له ، وإن كان (الثاني) ، فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه ، وسائر الأسباب التي بها يتم كماله وعمله ، إنها من أين كانت له : فإن كان علم أن جميع ذلك نعمة من الله إليه من غير حق سبق له ، فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله تعالى وكرمه وفضله ، إذ أفاض عليه ما لا يستحقه ، وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة ، فإن ظن أنه تعالى وفقه لهذا العمل لاتصافه ببعض الصفات الباطنة المحمودة ، كحبه له تعالى أو مثله ، فيقال له : الحب والعمل كلاهما نعمتان من عنده ، ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك ، إذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فليكن الاعجاب بجوده ، إذ أنعم بوجودك وبوجود صفاتك وأعمالك وأسباب أعمالك .

فإذن لا معنى لعجب العالم بعلمه ، وعجب العابد بعبادته ، وعجب الشجاع بشجاعته ، وعجب الجميل بجماله ، وعجب الغني بماله ، لأن كل ذلك من فضل الله ، وإنما هو محل لفيضان فضل الله وجوده . والمحل أيضا من فضله وجوده ، فإنه هو الذي خلقك ، وخلق أعضاءك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ، وخلق لك العقل والعلم والإرادة ، ولو أردت أن تنفي ج : ١

ص ٢٩٤

شيئا من ذلك لم تقدر عليه ، ثم خلق الحركات في أعضائك مستبدا باختراعها من غير مشاركة لك معه في الاختراع ، إلا أنه خلقها على ترتيب ، فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة وفي القب إرادة ، ولم يخلق العلم ما لم يخلق القلب الذي هو محله ، فتدريجه في الخلق شيئا بعد شيء هو الذي خيل إليك أنك مستقل بإيجاد عملك ، وقد غلطت ، فإن تحريك البواعث وصرف العوائق ، وتهيئة الأسباب ، كلها من الله ، ليس شيء منها إليك . ومن العجائب أن تعجب بنفسك ، ولا تعجب بمن إليه الأمر كله ، ولا تعجب بجوده وكرمه ، وفضله في إيثاره إياك على الفساق من عباده ، إذ مكنهم من أسباب الشهوات واللذات ، وزواها عنك ، وصرف عنهم بواعث الخير وهيأها لك ، حتى يتيسر لك الخير من غير وسيلة سابقة منك . روي : أن أيوب عليه السلام قال : (إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاء ، وما ورد علي أمر إلا آثرت هواك على هواي) ، فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت : يا أيوب ! أنى لك ذلك ؟ قال : فأخذ رمادا فوضعه على رأسه ، وقال : منك يا رب ! فرجع عن نسيانه ، وأضاف ذلك إلى الله تعالى ، ولذلك قال الله تعالى : ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا (٥٦) . وقال النبي (ص) : ما منكم من أحد ينجيه عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ! قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته . (فإن قيل) : ما ذكرت من استناد الصفات والأفعال ومحلها جميعا إلى الله تعالى ، يؤدي إلى الجبر ونفي التكليف ، وبطلان الثواب والعقاب ، (قلنا) : هذا فرع باب مسألة يتعلق بعلم آخر ، ولا يليق بيانها هنا (٥٧) . ونحن لم نسلب القدرة والاختيار عن العبد بالكلية في متعلق التكليف - أعني أفعاله العرضية - بل نفينا استقلاله فيها . نعم ، في غيرها من المحال والأسباب والصفات اللازمة ، والتوفيق ، وتحريك البواعث ، وصرف الموانع ، لا قدرة له فيها أصلا ، ولا يلزم منه فساد .

(هامش)
)
٥٦) النور ، الآية : ٢١ . (٥٧) تقدم ذكر هذا الأمر ص ١٤١ . (*)
ص ٢٩٥
وأما (العجب بالحسب والنسب) : فعلاجه يتم بمعرفة أمور : الأول - أن يعلم أن التعزز بكمال الغير غاية السفاهة والجهل ، فإنه لو كان خسيسا في صفات ذاته ، فمن أين يجبر خسته كمال غيره ، ولو كان أباه أوجده ، بل لو كان يعجب به بالانتساب حيا لكان له أن يقول الفضل لي لا لك وأنت دودة خلقت من فضلتي ، أفترى أن الدودة التي خلقت من فضلة الإنسان أشرف من الدودة التي خلقت من فضلة حمار ؟ ! هيهات ! فإنهما متساويان في الخسة ، إن الشرف للانسان لا للدودة ، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام : أنا ابن نفسي وكنيتي أدبي * من عجم كنت أو من العرب إن الفتى من يقول ها أنذا * ليس الفتى من يقول كان أبي وقيل : لئن نفرت بآباء ذوي شرف * لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا وقد روي : إن أبا ذر قال بحضرة النبي (ص) لرجل : (يا ابن السوداء !) ، فقال النبي (ص) : يا أبا ذر ! طف الصاع طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل . فاضطجع أبو ذر وقال للرجل : قم فطأ على خدي . وروي : إن بلالا لما أذن يوم الفتح على الكعبة قال جماعة : هذا العبد الأسود يؤذن ! فنزل قوله تعالى : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم (٥٨) . وقال رسول الله (ص) : إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية - أي كبرها - كلكم بنو آدم وآدم من تراب . ونقل : أن واحدا من رؤساء اليونان افتخر على غلام ، فقال له : إن كان منشأ افتخارك آباؤك فالتفوق لهم لا لك ، وإن كان لباسك فالشرافة له دونك ، وإن كان مركوب فالفضيلة له لا لك ، فليس لك شيء يصلح للعجب والمفاخرة . ولذا قال متمم مكارم الأخلاق (ص) : لا تأتوني بأنسابكم وائتوني بأعمالكم . الثاني - أن يعرف نسبه الحقيقي ، قال أباه القريب نطفة قذرة ،
(هامش)
(٥٨) الحجرات ، الآية : ١٣ . (*)
ص ٢٩٦
وجده البعيد تراب ذليل ، وقد عرفه الله نسبه فقال : وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين (٥٩) . والأصل الذي يوطأ بالأقدام أو تغسل منه الأجسام أي رفعه يكون لفرعه ! الثالث - أن يعلم إن من يعجب بهم بالانتساب من أسلافه ، إن كانوا من أهل الديانة والخصال المرضية والشرافة الحقيقية ، فظاهر أنه ما كان من أخلاقهم العجب ، بل الذلة والإزراء على النفس ومذمتها واستعظام الخلق ، فإن اقتدى بهم في أخلاقهم فلا يليق به العجب والتعزز ، وإلا كان طاعنا في نسبه بلسان حاله . وإن لم يكونوا من أهل الديانة الواقعية والشرافة العلمية والعملية بل كان لهم مجرد شوكة ظاهرية ، كالسلاطين الظلمة وأعوانهم ، فأف لمن يفتخر بهم ويعجب بنفسه لأجلهم ! إذ الانتساب إلى الكلاب والخنازير أحسن من الانتساب إليهم ، كيف وإنهم ممقوتون عند الله معذبون في النار ، بحيث لو نظر إلى صورهم في النار وما لحقهم فيها من النتن والقذارة ، لاستنكف منهم وتبرأ من الانتساب إليهم . ولذلك قال (ص) : ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما في جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدوف بآنافهم القذر وروي : أنه افتخر رجلان عند موسى (ع) ، فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان ، حتى عد تسعة ، فأوحى الله تعالى إلى موسى : قل للذي افتخر : بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم ! . وأما (العجب بالجمال) : فعلاجه أن يعلم أنه في معرض الزوال بالعلل والآلام والأمراض والأسقام ، وأي عاقل يعجب بشيء تزيله حمى يوم أو قرحة أو جدري ! بر مال وجمال خويشتن غره مشو كآن را بشبي برند واين رابه تبي (٦٠) ولو لم يرتفع بها ، فهل يشك عاقل زواله بذهاب الشباب ومجئ الشيب وبالموت الذي لا بد أن تذوقه كل نفس ؟ فانظر إلى الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة ، كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور ، بحيث استقذرتها الطباع . أنه على لو نظر نظر العقلاء في باطنه عند اتصافه بغاية جماله ، لرأى
(هامش)
(٥٩) السجدة ، الآية : ٧ - ٨ . (٦٠) معنى البيت : لا تغتر بمالك وجمالك ، فإن ذلك يذهب بليلة وهذا بحمى واحدة) . (*)

ص ٢٩٧
من الفضائح ما يكدر عليه العجب والتعزز به ، فإنه وكلت إليه (٦١) الأقذار في جميع أجزائه : (البصاق) في فمه ، ، (والمخاط) في أنفه ، (والوسخ) في أذنه ، (والنتن) تحت إبطه ، (والصديد) تحت بشرته ، (والفضلات) في معدته ، (والرجيع) في أمعائه ، (والديدان) في أحشائه ، (والبول) في مثانته (والصفراء) في مرارته ، يتردد إلى الخلاء كل يوم مرتين ، ويغسل الغائط كل يوم بيده مرتين ، يخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلا أن يمسه أو يشمه . وفي أول أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور : من النطفة ودم الحيض ، وخرج عن مجاري الأقذار . أعني الصلب والذكر والرحم والفرج . ولو ترك نفسه في حياته يوما لم يتعهده بالغسل والتنظيف ، لثارت منه الأنتان والأقذار ، وصار أقذر وأنتن من الدواب المهملة . هذا أوله ووسطه ، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار . فما للعاقل أن يعجب ويتعزز بهيئة حاصلة لبدن هذه حقيقته ! وأما (العجب بالمال) : فهو عجب بأمر خارج عن ذات الإنسان ، فهو أقبح أنواع العجب .
وعلاجه أن يتفكر في آفات المال ، وكونه في معرض الفناء والزوال ، من الغضب والنهب والحرق والغرق ، وغير ذلك من الآفات السماوية والأرضية ، ويتذكر أن في اليهود والهندو من يزيد عليه في المال واف لشرف يسبقه اليهود والهندو ! واف لشرف يأخذه السارق في لحظة فيعود صاحبه ذليلا مفلسا ! ! ويتذكر ما ورد في ذم المال وحقارة الأغنياء ، وفي فضيلة الفقر وشرافة الفقراء ، وسبقهم إلى الجنة في القيامة ، وما ورد في عقوبة المعجب بالمال بخصوصه ، كقوله (ص) : بينما رجل يتبختر في حلة له قد أعجبته نفسه ، إذ أمر الله الأرض فأخذته ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة (٦٢) ، أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه . وكيف يتصور المؤمن العاقل أن يعجب بالمال ويفرح به ، مع كثرة حقوقه وعظم غوائله ، وإيجابه المؤاخذة وطول المحاسبة في القيامة ، والعقوبة والنكال إن كان حراما ، وانحطاط المرتبة والدرجة إن كان حلالا ، بل ينبغي له ألا يخلو ساعة عن الخوف من تقصيره ، في القيام بحقوقه ، وأخذه من حله ،
(هامش)
(٦١) وفي النسخ : وكل به ، وربحنا ما أثبتناه . (٦٢) هذا الحديث صححناه على ما في إحياء العلوم - ٣ : ٣٢٢ - . (*)
ص ٢٩٨
ووضعه في حقه . وأما (العجب بالقوة وشدة البطش) : فعلاجه أن يتذكر ما سلط عليه من العلل والأمراض ، وإن حمى يوم تضعف قوته ويتحلل منها ما لا ينجبر في مدة ، وإنه لو وجع عرق واحد من بدنه صار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل ، وإنه لو سلبه الذباب شيئا لم يستنقذه منه ، وإن بقة لو دخلت في أنفه أو نملة دخلت في أذنه لقتلته ، وإن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته . ثم أقوى إنسان لا يكون أقوى من حمار أو جمل أو فيل أو بقر ، وأي عجب وافتخار في صفة يسبقه البهائم فيها ، هذا مع أن الغالب أن من يعجب بقوته يسلبها الله تعالى عنه بأدنى آفة يسلطها عليه . وأما (العجب بالجاه ، والمنصب ، وولاية السلاطين ، وكثرة الأتباع والأنصار : من الأولاد والأقارب والقبائل والعشائر والخدم والغلمان) : فعلاجه أن يعلم أن كل ذلك في معرض الانقطاع ، وعن قريب يقع بينه وبينها المفارقة ، إما بفنائه وموته أو بفنائها وهلاكها ، بل العاقل يجدها كسراب بقيعة ، وإنما هي خيالات تظن شيئا وليست بشيء ، وستفترق عنه إذا مات ودفن في قبره ذليلا مهينا وحده ، لا يرافقه أهل وأولاد ولا أعوان وأتباع ، فيسلمونه إلى البلاء وإلى العقارب والحيات والديدان ، ولا يغنون عنه شيئا وهو في أحوج أوقاته إليهم ، وكيف يعجب العاقل بمن يفارقه في أشد أحواله ! على أنهم في الدنيا يتبعونه ما دام يحصل منه ما يشتهونه من البذل والإعطاء ، فلا بد له من إيقاع نفسه في المهالك وتعرضه لسخط الله وعقوبته ، لتحصيل الأموال من الوجوه المحرمة وصرفها إليهم ، ليستمروا على متابعته وإعانته ، ولو نقص شيء مما يتمنونه تعرضوا لمقته وعداوته ، فضلا عن بقائهم على حمايته وإطاعته . ثم المعجب بتمكين السلطان وولايته بناء أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر ، إذ لو تغير عليه كان أذل الخلق .
وأما (العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور) : فعلاجه أن يعلم أن ذلك يزول عنه بأدنى مرض يصيب دماغه ، وربما زال عقله دفعة . مع أنه إن كان في الواقع فطنا كيسا في الأمور يلزم عليه أن يشكر الله تعالى
ص ٢٩٩

على ذلك ، ويستصغر (٦٣) عقله وفطانته ، ليبقي الله تعالى عليه تلك النعمة ، ولا يسلبها عنه لأجل عجبه . وأما (العجب بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله) : فهو أقبح أنواع العجب ، إذ جميع أهل البدع والضلال والفرق الذين اختاروا مذاهب باطلة وآراء فاسدة إنما أصروا عليها لعجبهم بها ، ولذا يفتخرون بمذاهبهم على غيرهم ، وبذلك هلكت الأمم إذا افترقت فرقا ، وكل معجب برأيه ، و : كل حزب بما لديهم فرحون (٦٤) . فكل من استحسن ما يسوقه الهوى والشبهة - مع ظن كونه حقا - يكون له هذا العجب ، وقد أخبر رسول الله (ص) : إن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة . وعلاجه أشد من علاج غيره ، لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطأه ، ولو عرفه لتركه . ولا يعالج الداء الذي لا يعرف ، إذ العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه إذا لم يكن معجبا برأيه وجهله ، وإذا كان معجبا به يتهمه ولا يصغي إليه حتى يعالجه ، فقد سلطت عليه بلية تهلكه وهو يظن أنها نعمة . وكيف يطلب الهرب مما يعتقد أنه سبب سعادته ! وإنما علاجه في الجملة أن يكون متهما لرأيه لا يغتر به ، لا أن يشهد له قاطع عقلي أو نقلي لا يعتريه ريب وشبهة . ومعرفة أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكان الغلط فيها موقوفة على عقل ثابت ، وقريحة تامة مستقيمة ، مع جد وتشمير في الطلب ، وممارسة الكتاب والسنة ، ومجالسة أهل العلم ، ومدارسة العلوم طول العمر ، ومع ذلك لا يؤمن عليه الغلط ، فالصواب للكل - إلا من أيده الله بقوة قدسية يتمكن بها من الخوض في غمرات العلوم - ألا يخوض في المذاهب الباطلة ولا يصغي إليها ، ويتبع أهل الوحي فيما جاؤا به من عند الله في الأصول والفروع .

وصل (انكسار النفس)up

ضد العجب انكسار النفس واستحقارها وكونها في نظره ذليلة مهينة . *(هامش)*(٦٣) في النسخ : يستغفر ، فرجحنا ما أثبتناه . (٦٤) المؤمنون ، الآية : ٥٣ . (*)

ص ٣٠٠

وكما أن العجب مجرد استعظام النفس من دون اعتبار استصغار الغير معه ، فكذا ضده مجرد استحقار النفس من دون اشتراط إعظام الغير معه ، إذ الأول مع اعتبار الثاني تكبر ، والثالث مع اشتراط الرابع تواضع ، وهما ضدان . ثم لا ريب في فوائد انكسار النفس واستصغارها ، وكل من بلغ مرتبة عظيمة فإنما بلغ بهذه الصفة ، لأن الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم ، وقال رسول الله (ص) : ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة (٦٥) يمسكانها ، فإن هو رفع نفسه جبذاها (٦٦) ثم قالا : اللهم ضعه ، وإن وضع نفسه قالا : اللهم ارفعه (٦٧) . وروي : أنه أوحى الله تعالى إلى موسى (ع) : أن يا موسى ! أتدري لم اصطفيتك بكلامي دون خلقي ؟ قال : يا رب ! ولم ذلك ؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه : أني قلبت عبادي ظهرا لبطن ، فلم أجد فيهم أحدا أذل نفسا لي منك ، يا موسى ! إنك إذا صليت وضعت خدك على التراب . وروي : أنه لما أوحى الله تعالى إلى الجبال أني واضع سفينة نوح عبدي على جبل منكن ، فتطاولت وشمخت ، وتواضع الجودي ، وهو جبل عندكم ، فضربت السفينة بجؤجؤها الجبل فقال نوح عند ذلك : (يا ماري أتقن) وهو بالسريانية : رب اصلح (٦٨) ومنها :

• الكبر up

وقد عرفت : إنه الركون إلى رؤية النفس فوق الغير ، وبعبارة أوضح : هو عزة وتعظيم يوجب رؤية النفس فوق الغير واعتقاده المزية والرجحان عليه ، فهو يستدعي متكبرا عليه . وبه ينفصل عن العجب ، إذ العجب مجرد استعظام النفس من دون اعتبار رؤيتها فوق الغير ، فالعجب سبب الكبر والكبر من نتائجه . ثم الكبر - أي العزة الموجبة لرؤية النفس فوق الغير - هو خلق الباطن يقتضي أعمالا في الظاهر هي ثمراته ، وتسمى تلك الأعمال الظاهرة

(هامش)

)

٦٥) الحكمة بالتحريك : ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه . (٦٦) بمعنى جذباها . (٦٧) صححنا الحديث على ما في إحياء العلوم - ج ٢ ص ٣٢٩ - . (٦٨) هذا الحديث وما قبله رواهما الكافي في باب التواضع ، فصححناهما عليه . (*)

ص ٣٠١

الصادرة منه تكبرا ، ولذا من تعزز ورأى نفسه باطنا فوق الغير ، من دون صدور فعل على جوارحه ، يقال له (كبر) ، وإذا ظهرت

الأعمال يقال له (تكبر) . وهذه الأعمال الظاهرة التي هي ثمرات خلق الكبر أفعال وأقوال توجب تحقير الغير والإزراء به ، كالترفع عن مواكلته ومجالسته ، والاستنكاف عن مرافقته ومصاحبته ، وإبعاده عن نفسه ، وإبائه عن الجلوس بجنبه ، وانتظاره أن يسلم عليه ، وتوقعه أن يقوم ماثلا بين يديه . والاستنكاف من قبول وعظه ، وتعنيفه في إرشاده ونصحه ، وتقدمه عليه في المحافل والطرقات وعدم الالتفات إليه في المحاورات ، وتوقع التقديم عليه في كل ما يدل على التعظيم عرفا . وبالجملة : الأعمال الصادرة عن الكبر كثيرة ، ولا حاجة إلى إحصائها ، لكونها مشهورة معروفة ، ومن جملتها الاختيال في المشي وجر الثياب ، إذ فاعلها يرى نفسه فوق الأكثر ويقصد بهما استحقارهم ، فهما يقتضيان متكبرا عليه ، فيكونان من أنواع التكبر ، وما ورد في ذمهما يدل أيضا على ذمه ، كما يأتي . وهذه الأفعال المعبر عنها بالتكبر قد تصدر عن الحقد أو الحسد أو الرياء ، وإن لم تكن في النفس عزة وتعظم .

فصل (ذم الكبر) up

الكبر آفة عظيمة وغائلته هائلة ، وبه هلك خواص الأنام فضلا من غيرهم من العوام ، وهو الحجاب الأعظم للوصول إلى أخلاق المؤمنين ، إذ فيه عز يمنع عن التواضع ، وكظم الغيظ ، وقبول النصح ، والدوام على الصدق ، وترك الغضب والحقد والحسد والغيبة والإزراء بالناس ، وغير ذلك . فما من خلق مذموم إلا وصاحب الكبر مضطر إليه ، ليحفظ به عزه ، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه . خوفا من فوات عزه . ولذا ورد في ذمه ما ورد من الآيات والأخبار ، قال الله سبحانه : كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار (٦٩) . وقال : سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون (٧٠) . وقال : والملائكة باسطوا أيديهم

(هامش)

(٦٩) غافر ، الآية : ٣٥ . (٧٠) الأعراف ، الآية : ١٤٦ . (*)

ص ٣٠٢

أخرجوا أنفسكم . . . إلى قوله : وكنتم عن آياته تستكبرون (٧١) . وقال : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٢) . وقال : فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهو مستكبرون (٧٣) . وقال : إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٧٤) . وقال : إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه (٧٥) . وقال رسول الله (ص) : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر (٧٦) ، وقال : من تعظم في نفسه واختال في مشيته ، لقي الله وهو عليه غضبان . وقال (ص) : لا ينظر الله إلى رجل يجر أزاره بطرا . وقال (ص) : قال الله . الكبرياء ردائي والعظمة أزاري ، فمن نازعني في واحد منهما ألقيته في جهنم . وقال (ص) : لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم من العذاب . وقال (ص) : يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق ، يقول وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلها آخر ، وبالمصورين . وقال : (ص) : لا يدخل الجنة جبار ، ولا بخيل ، ولا سئ الملكة . وقال (ص) : ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك جبار ، ومقل مختال . وقال (ص) : بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى ، بئس العبد عبد تجتر واختال ونسي الكبير المتعال ، وبئس العبد عبد غفل وسها ونسي المقابر والبلى ، وبئس العبد عبد عتا وبغي ونسي المبدأ والمنتهى . وقال (ص) : ألا أخبركم بأهل النار : كل عتل جواظ جعظري متكبر (٧٧) . وقال (ص) :

(هامش)

(

٧١) الأنعام ، الآية : ٩٣ . (٧٢) الزمر ، الآية : ٧٢ . (٧٣) النحل ، الآية : ٢٣ . (٧٤) غافر ، الآية : ٦٠ . (٧٥) غافر ، الآية : ٥٦ . (٧٦) روي الحديث في الكافي عن أحد الصادقين - عليهما السلام - في باب الكبر ، وجاء فيه هكذا : الكبر بتعريف كبر . (٧٧) صححنا الحديث على كنز العمال - ج ٢ ص ١٠٧ - . والجواظ : المتكبر الجافي والجعظري : الفظ الغليظ . (*)

ص ٣٠٣

إن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا في الآخرة الثرثارون والمتشدقون المتفيهقون : أي المتكبرون . وقال (ص) : يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر ، تطأهم الناس ذرا في مثل صور الرجال ، يعلوهم كل شيء من الصغار ، ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له

(يولس) ، تعلوهم نار شر أنيار (٧٨) ، يسقون من طينة الخبال وعصارة أهل النار . وقال (ص) : يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطأهم الناس لهوانهم على الله تعالى ، وقال : إن في جهنم واديا يقال له (هبهب) ، حق على الله أن يسكنه كل جبار ، وقال : إن في النار قصرا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم ، وقال : إذا مشت أمتي المطيطاء وخدمتهم (فارس) و(الروم) سلط الله بعضهم على بعض ، والمطيطاء : مشية فيها اختيال . وقال عيسى بن مريم : كما أن الزرع يثبت في السهل ولا ينبت على الصفاء ، كذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر ، ألا ترون أنه يتشمخ برأسه إلى السقف شجه ، ومن يطأطئ أظله وأكنه . ولما حضرت نوحا الوفاة ، دعا ابنيه فقال : إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين : أنهاكما عن الشرك والكبر وآمركما بلا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده . وقال سليمان بن داود يوما للطير والجن والإنس والبهائم : أخرجوا ، فخرجوا في مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن ، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السماوات ، ثم خفض حتى مست أقدامه البحر ، فسمع صوتا يقول : لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته . وقال الباقر (ع) : الكبر رداء الله ، والمتكبر ينازع الله رداءه ، وقال : العز رداء الله والكبر أزاره ، فمن تناول شيئا منه أكبه الله في جهنم . وقال الصادق (ع) : إن في جهنم لواديا للمتكبرين يقال له (سقر) شكى إلى الله شدة حره وسأله أن يأذن له يتنفس ، فتنفس فأحرق جهنم .

وقال عليه السلام : إن المتكبرين يجعلون في صور الذر ، يتوطأهم الناس حتى

(هامش)

(٧٨) كذا في النسخ . وفي نسخة إحياء العلوم - ج ٢ ص ٢٩٠ - : (نار الأنيار) ، ولم نعثر على جمع نار على أنيار ، وإنما جملة جموعها (نيار) . (*)

ص ٣٠٤

يفرغ الله من الحساب . وقال (ع) : ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه . وقال (ع) : إن في السماء ملائكة موكلين بالعباد فمن تواضع رفعاه ، ومن تكبر وضعاه . وقال (غ) : الجبار الملعون من غمض الناس وجهل الحق ، قال الراوي : أما الحق فلا أجهله ، والغمض لا أدري ما هو قال : من حقر الناس وتجبر عليهم فذلك الجبار . وقال عليه السلام : ما من عبد إلا وفي رأسه حكمة وملك يمسكها ، فإذا تكبر قال له : اتضع وضعك الله ، فلا يزال أعظم الناس في نفسه وأصغر الناس في أعين الناس ، وإذا تواضع رفعها الله - عز وجل - ثم قال له : انتعش نعشك الله ، فلا يزال أصغر الناس في نفسه وأرفع الناس في أعين الناس .

فصل (التكبر على الله وعلى الناس) up

التكبر قد يكون على الله ، كما كان لنمرود وفرعون ، وسببه الطغيان ومحض الجهل ، وهو أفحش أنواع الكبر ، إذ هو أعظم أفراد الكفر ، ولذا تكررت في ذمه الآيات ، كقوله تعالى : إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٧٩) . وقوله : ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فيحشرهم إليه جميعا (٨٠) . وقوله تعالى : ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا (٨١) . وقوله : فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون (٨٢) . وقد يكون على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن انقيادهم ، كما كان لمن يقول : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا (٨٣) . ولمن يقول : أنؤمن لبشرين مثلنا (٨٤) . إن أنتم إلا بشر مثلنا (٨٥) . ولئن أطعتم بشرا مثلكم

(هامش)

(

٧٩) غافر ، الآية : ٦٠ . (٨٠) النساء ، الآية : ١٧٢ . (٨١) مريم ، الآية : ٦٩ . (٨٢) النحل ، الآية : ٢٣ . (٨٣) الأنعام ، الآية : ٥٣ . (٨٤) المؤمنون ، الآية : ٤٧ . (٨٥) إبراهيم ، الآية : ١٠ . (*)

ص ٣٠٥

إنكم إذا لخاسرون (٨٦) . ولمن قال : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا (٨٧) . وهذا في الشناعة قريب من التكبر على الله ، وإن كان دونه . وقد يكون على العباد بأن يستعظم نفسه ويستصغرهم ، وهذا وإن كان دون

الأولين ، إلا أنه من المهلكات العظيمة ، من حيث أنه يؤدي إلى مخالفة الله سبحانه ، إذ صاحبه إذا سمع من عبد استنكف من قبوله واشمأز بجحده ، ومن حيث أن العز والعظمة والعلى لا يليق إلا بالعلي الأعلى ، فمهما تكبر العبد نازع الله في صفة من صفاته ، ولذا قال الله سبحانه : والعظمة أزاري والكبرياء ردائي ، فمن نازعني فيهما قصمته .

فصل (درجات الكبر) up

الكبر درجات ثلاث : (الأولى) أن يكون مستقرا في قلبه ، يرى نفسه خيرا من غيره ، ويظهره في أفعاله : بالترفع في المجالس ، والتقدم على الأقران ، وأن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم ، ويعبس وجهه ، ويقطب جبينه . وفي أقواله : بإظهار الإنكار على من يقصر فيما يتوقعه ، من التعظيم ، وإبداء الدعوى ، والمفاخرة والمباهاة ، وتزكية النفس ، والتشمير لغلبة الغير في العلم والعمل . وهذه الدرجة أقبح الدرجات وأشدها ، إذ صاحبها قد رسخت في قلبه شجرة الكبر وارتفعت أغصانها وفروعها ، بحيث أحاطت على جميع جوارحه . (الثانية) كالأولى . إلا في إظهاره على اللسان ، وهي دون الأولى ، لكونها أقل أغصانا منها . (الثالثة) أن يكون مستقرا في قلبه بحيث رأى نفسه خيرا من غيره ، إلا أنه يجتهد في التواضع ، ويفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه . وهذا وإن رسخت في قلبه شجرة الكبر ، إلا أنه قطع أغصانها بالكلية . فإن كان مع ذلك منكرا على نفسه فيما رسخ فيها ، ومغضبا علمها ومتشمرا لإزالتها ، إلا أنه لم يقدر على دفعه بسرعة وسهولة ، وتميل النفس إلى ما تشتهيه في

(هامش)

(٨٦) المؤمنون ، الآية : ٣٤ . (٨٧) الفرقان ، الآية : ٢١ . (*)

ص ٣٠٦

بعض الأحيان بدون اختيار ، ولكنه كان في مقام المجاهدة ، فلعله لم يكن عليه كثير إثم ، ومثله يوفقه الله للوصول إلى ما يطلبه بمقتضى وعده .

فصل (علاج الكبر علما وعملا) up

الكبر كالعجب في كيفية العلاج إجمالا وتفصيلا ، إذ الكبر لما تضمن معنى العجب - أي استعظام النفس - وكان العجب منشأ له ، فما ذكر لعلاج مطلق العجب هو العلاج لمطلق الكبر أيضا . ولكن ما به الكبر - أعني بواعثه - هي بواعث العجب بعينها ، فما ذكر لعلاج العجب بالبواعث المذكورة مشترك بينهما . ومن المعالجات المختصة بالكبر : أن يتذكر ما ورد في ذمه من الآيات والأخبار المذكورة وغيرها ، ويتأمل فيما ورد في مدح ضده أعني التواضع - كما يأتي . ولكون الكبر مشتملا على شيء زائد على العجب هو رؤية النفس فوق الغير ، فينبغي أن يعلم أن الحكم بخيرية نفسه من الغير غاية الجهل والسفاهة ، فلعل في الغير من خفايا الأخلاق الكريمة ما ينجيه . وفيه من الملكات الذميمة ما يهلكه ويرديه . وكيف يجترئ صاحب البصيرة أن يرجح نفسه على الغير ، مع إبهام الخاتمة وخفاء الأخلاق الباطنة واشتراك الكل في الانتساب إلى الله تعالى ، وفي صدورها وترشحها منه ومعلوليتها ولازميتها له ، فالواقف بخطر الخاتمة وإناطة النجاة والهلاك بالبواطن لا يرى لنفسه مزية على غيره ، والعارف بكون كل فرد من أفراد الموجودات أثرا من آثار ذاته ولمعة من لمعات أنوار صفاته ، بل رشحة من رشحات فضله وجوده وقطرة من قطرات تيار فيض وجوده ، لا ينظر إلى أحد بنظر السوء والعداوة ، بل يشاهد الكل بعين الخيرية والمحبة .

أشكال وحل up

(فإن قيل) : كيف يحسن أن يتواضع العالم الورع للجاهل الفاسق ويراه خيرا من نفسه ، مع ظهور جهله وفسقه ، وقطعه باتصاف نفسه بالعلم والورع وخلوه عنهما ؟ وكيف يجوز له أن يحب فاسقا أو كافرا أو مبتدعا ويتواضع له ولا يعاديه ، مع إنه مبغوض عند الله ، فيكون مأمورا ببغضه والجمع بين الحب والتواضع وبين البغض جمع بين النقيضين ؟

ص ٣٠٧

(

أجبنا) عن (الأول) بأن حقيقة التواضع ألا يرى النفس لذاتها مزية واقعية وخيرية حقيقية على الغير ، لا ألا يرى مزية لذاتها عليه في الصفات الظاهرة التي يجزم باتصاف نفسه بها وعدم اتصافه بها ، كالعلم والعبادة والسخاوة والعدالة والاجتناب عن الأموال المحرمة

وغير ذلك ، إذ العالم ببعض العلوم لا يمكنه أن يدفع عن نفسه القطع بكونه عالما بها وكون فلان العامي غير عالم بها . لكن المزية الواقعية والخيرية النفس الآمرية إنما هو يحصل بمجرد تعلم بعض العلوم والمواظبة على بعض العبادات أو غير ذلك من الصفات المحمودة ، بل المناط فيه حسن الخاتمة ، وهو أمر مبهم ، إذ العواقب مطوية عن العباد ، فيمكن أن يسلم الكافر ويختم له بالإيمان ويضل هذا العالم الورع ويختم له بالكفر ، فعلى كل عبد إن رأى من هو شرا منه ظاهرا أن يقول : لعل هذا ينجو وأهلك أنا ، فلا يراه شرا من نفسه في الواقع خائفا من العاقبة ، ويقول : لعل بر هذا باطن ، بأن يكون فيه خلق كريم بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال ، وبري ظاهر لا آمن أن تدخله الآفات فتحبطه . وبالجملة : ملاحظة الخاتمة والسابقة والعلم بأن الكمال في القرب من الله وسعادة الآخرة دون ما يظهر في الدنيا من الأعمال الظاهرة يوجب نفي الكبر والتواضع لكل أحد . وعن (الثاني) إن الحب ينبغي أن يكون لأجل النسبة الشريفة المذكورة والتواضع لأجل ملاحظة الخاتمة ، وبغضه وغضبه عليه لأجل ما ظهر منه من الكفر والفسوق .

وأي منافاة بين الغضب لله في صدور معصية من عبد وبين عدم الكبر والإذلال ؟ ! إذ الغضب إنما هو لله لا لنفسك ، إذا أمرك بأن تغضب عند مشاهدة المنكر ، والتواضع وعدم الكبر إنما هو بالنظر إلى نفسك ، بألا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا في حال غضبك عليه لأمر الله ، بل يكون خوفك على نفسك مما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة ، فليس من ضرورة الغضب والبغض لله أن تتكبر على المغضوب عليه ، وترى قدرك فوق قدره . ومثال ذلك : أن نكون لملك غلام وولد ، وقد وكل الملك الغلام على

ص ٣٠٨

ولده بأن يراقبه ويضربه مهما ساء أدبه ، ويغضب عليه إذا اشتغل بما لا يليق به ، فإن كان الغلام مطيعا محبا لمولاه يغضب عليه إذا ساء أدبه امتثالا لأمر مولاه ، ومع ذلك يحبه لانتسابه إلى مولاه بالولادة ، ولا يتكبر عليه ويتواضع له ، ويرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام .

تذنيب (العلاج العملي للكبر) up

ما ذكرناه لعلاج الكبر إنما هو العلاج العلمي ، وأما (العلاج العملي) ، فهو أن يتواضع بالفعل ولسائر الخلق ، ويواظب على أخلاق المتواضعين ، ويكلف نفسه على ذلك إلى أن تقطع عن قلبه شجرة الكبر بأصولها وفروعها ، ويصير التواضع ملكة له . وللقطع الكلي وحصول ملكة التواضع امتحانات يعرفان بها ، فلا بد أن يمتحن نفسه بها حتى يطمئن بأنه متواضع ، إذ النفس قد تضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر ، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها : (الأول) أن يناظر مع أقرانه في بعض المسائل ، فإذا ظهر شيء من الحق على لسانهم ، فإن اعترف به مع السرور والاهتزاز والشكر لهم لتنبيههم إياه على ما غفل عنه فهو علامة التواضع ، وإن ثقل عليه القبول والاعتراف ولم يسر بظهور الحق على لسانهم فهو دليل بقاء الكبر بعد فليعالجه من حيث العلم بأن يتذكر سوء عاقبته وخسة نفسه وخباثتها ، من حيث أن قبول الحق يثقل عليها ، ومن حيث العمل بأن يكلف نفسه على ما يثقل عليها من الاعتراف بالحق وإطلاق اللسان بالثناء والشكر ، والاقرار على نفسه بالعجز والقصور ، ويقول : ما أحسن فطانتك ! لقد أرشدتني إلى الحق ، فجزاك الله خيرا . فإذا واظب على ذلك مرات متوالية ، صار ذلك له طبعا ، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ، وإن لم يثقل عليه في الخلوة وثقل عليه في الملأ ، فليس فيه كبر ، بل فيه رياء ، فليعالج بما يأتي في معالجة الرياء . (الثاني) أن يقدم الأقران والأمثال على نفسه في المحافل ، ويمشي خلفهم في الطرق ، فإن لم يثقل ذلك عليه فهو متواضع ، وإلا فمتكبر ، فليقدمهم بالتكلف ، ويجلس تحتهم ، ويظهر السرور والارتياح بذلك ،

ص ٣٠٩

حتى يسقط عنه ثقله . قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام : إن من التواضع أن يجلس الرجل دون شرفه . وقال (ع) : من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس ، وأن تسلم على من تلقى ، وأن تترك المراء وإن كنت محقا ، ولا تحب أن تحمد على التقوى . ومن المتكبرين من إذا لم يجد مكانا في الصدر يجلس في صف النعال ، أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأراذل ولا يجلس تحتهم ،

وغرضهم من ذلك استحقار الأقران أو إيهام أن تركهم للصدر إنما هو بالتفضل ، فهو أشد أنواع التكبر . (الثالث) أن يجيب دعوة الفقير ، ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب ، ويجعل حاجتهم وحاجة نفسه منه إلى البيت ، فإن لم يثقل عليه ذلك في الخلوة والملأ فليس فيه كبر ورياء ، وإن ثقل عليه فيهما ففيه كبر ورياء ، وإن ثقل عليه عند مشاهدة الناس دون الخلوة ففيه رياء دون الكبر . قال أمير المؤمنين عليه السلام : لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله . وروي : أنه اشترى لحما بدرهم فحمله في ملحفته فقال له بعضهم : أحمل عنك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لا ! أبو العيال أحق أن يحمل . وروي : أن الصادق عليه السلام : نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئا وهو يحمله ، فلما رآه الرجل استحيى منه ، فقال له أبو عبد الله عليه السلام : اشتريته لعيالك وحملته إليهم ، أما والله لولا أهل المدينة لأحببت أن أشتري لعيالي الشيء ثم أحمله إليهم . (الرابع) أن يلبس ثيابا بذلة ، فإن لم يثقل عليه ذلك أصلا فليس فيه كبر ورياء ، وإلا كان متكبرا أو مرائيا ، قال رسول الله (ص) : من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر . وقال (ص) : إنما أنا عبد آكل في الأرض ، والبس الصوف ، واعقل البعير ، والعق أصابعي ، وأجيب دعوة المملوك ، فمن رغب عن سنتي فليس مني .

وقيل لسلمان : لم لا تلبس ثوبا جديدا ؟ فقال : إنما أنا عبد ، فإذا أعتقت يوما لبست جديدا : أشار به إلى العتق في الآخرة . وقال رسول الله (ص) : البذاذة - أي الدون من اللباس - من الإيمان . وعوتب أمير المؤمنين عليه السلام في إزار مرقوع ، فقال : يقتدي به المؤمن وتخشع له القلوب .

ص ٣١٠

(الخامس) أن يأكل مع خدامه وغلمانه ، فإن لم يثقل عليه فهو متواضع وإلا فمتكبر . وروي رجل من أهل بلخ ، قال : كنت مع الرضا (ع) في سفره إلى خراسان ، فدعا يوما بمائدة ، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم ، فقلت : جعلت فداك ! لو عزلت لهؤلاء مائدة ، قال عليه السلام إن الرب تعالى واحد ، والدين واحد ، والأم واحدة ، والأب واحد ، والجزاء بالأعمال . والامتحانات لبقاء الكبر ليست منحصرة بما ذكر ، بل هي كثيرة : كأن يحب قيام الناس له أو بين يديه ، قال أمير المؤمنين عليه السلام : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام . وقال بعض الصحابة : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك . وأن يحب أن يمشي خلفه غيره ، وقد روي أنه لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مشى خلفه . وكان رسول الله (ص) في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب ، فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم . وألا يزور غيره ، وإن كان في زيارته فائدة دينية . وأن يستنكف من مجالسة الفقراء والمعلولين والمرضى . روي أنه دخل على رسول الله رجل وعليه جدري قد تقشر ، وعنده ناس من أصحابه يأكلون ، فما جلس عند أحد إلا قام من جنبه . فأجلسه النبي (ص) إلى جنبه . وكان (ص) في نفر من أصحابه يأكلون في بينه . إذ دخل عليهم رجل به زمانة تنكره الناس لأجلها ، فأجلسه رسول الله على فخذه وقال له : أطعم ، وكأن رجلا من قريش اشمأز منه وتكره ، فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها .

ومر سيد الساجدين عليه السلام على المجذومين (٨٨) وهو راكب حماره ، وهم يتغدون ، فدعوه إلى الغداء ، فقال ، أما إني لولا أني صائم لفعلت فلما صار إلى منزله أمر بطعام فصنع ، وأمر أن يتنوقوا فيه ، ثم دعاهم فتغدوا عنده وتغدى معهم . . وقس على هذه غيرها من الامتحانات . ولقد كانت سيرة رسول الله (ص) جامعة لجميع ما يمتحن به التواضع

(هامش)

(٨٨) وفي بعض نسخ الكافي المصححة في باب التواضع هكذا : (المجذمين) . (*)

ص ٣١١

بريئة عن جميع ما يصدر من الكبر من الأفعال والحركات ، فينبغي لكل مؤمن أن يقتدي به . وقد روى أبو سعيد الخدري : أنه (ص) كان يعلف الناضح ، ويعقل البعير ، ويقم البيت ، ويحلب الشاة ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويأكل مع خادمه ، ويطحن عنه إذا أعيى ، ويشتري الشيء من السوق ، ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه وينقلب إلى أهله . يصافح الغني والفقير والصغير والكبير ، ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة ،

ليست له حلة لمدخله ولا حلة لمخرجه ، لا يستحيي من أن يجيب إذا دعي ، وإن كان أشعث أغبر ، ولا يحقر ما دعي إليه ، وإن لم يجد إلا حشف الرقل (٨٩) ، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء . هين المؤنة ، لين الخلق كريم الطبيعة ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه ، بساما من غير ضحك ، محزونا من غير عبوس ، شديدا في غير عنف ، متواضعا في غير مذلة ، جوادا من غير سرف ، رحيما لكل ذي قربى ، قريبا من كل ذمي ومسلم ، رقيق القلب دائم الإطراق ، لم يبسم قط من شبع ، ولا يمد يده إلى طمع . هذا وقال أبو الحسن عليهما السلام : التواضع : أن تعطي الناس ما تحب أن تعطاه . وسئل عن حد التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعا ، فقال : التواضع درجات : منها أن يعرف المرء قدر نفسه ، فينزلها منزلتها بقلب سليم لا يحب أن يأتي إلى أحد إلا مثل ما يؤتى إليه ، إن رأى سيئة درأها بالحسنة ، كاظم الغيظ عاف عن الناس ، والله يحب المحسنين .

وصل (التواضع ومدحه) up

قد أشير إلى أن ضد الكبر (التواضع) ، وهو انكسار للنفس يمنعها من أن يرى لذاتها مزية على الغير ، وتلزمه أفعال وأقوال موجبة لاستعظام الغير وإكرامه ، والمواظبة عليها أقوى معالجة لإزالة الكبر . ولا بد من الإشارة إلى الأخبار الواردة في مدح التواضع وفوائده ، تحريكا للطالبين السعي إلى في تحصيله الموجب لإزالة ضده ، وهذه الأخبار كثيرة خارجة

(هامش)

(٨٩) في إحياء العلوم - ج ٣ ص ٣٠٦ - هكذا : (الدقل) وكل من النسختين يصح به . (*)

ص ٣١٢

عن حد الاحصاء ، فنكتفي بإيراد بعض منها : قال رسول الله (ص) : ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله . وقال (ص) : طوبى لمن تواضع في غير مسكنة ، وأنفق مالا جمعه من غير معصية ، ورحم أهل الذلة والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة . وروي : أن الله سبحانه أوحى إلى موسى : إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي وألزم قلبه خوفي وقطع نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي . وقال رسول الله (ص) لأصحابه : مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة ! قالوا : وما حلاوة العبادة ؟ قال : التواضع . وقال (ص) : إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة . وقال (ص) : إذا هدى الله عبدا الإسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعا ، فذلك من صفوة الله . وقال (ص) : أربع لا يعطيهن الله إلا من يحبه : الصمت وهو أول العبادة ، والتوكل على الله ، والتواضع ، والزهد في الدنيا . وقال (ص) : ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه . وقال (ص) : من تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبر خفضه الله ، ومن اقتصد في معيشة رزقه الله ، ومن بذر حرمه الله ، ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله ، ومن أكثر ذكر الله أظله الله في جنته . وروي أنه أتى رسول الله (ص) ملك ، فقال : إن الله تعالى يخيرك أن تكون عبدا رسولا متواضعا أو ملكا رسولا . فنظر إلى جبرئيل عليه السلام وأومى بيده أنت تواضع ، فقال : عبدا متواضعا رسولا ، فقال الرسول يعني الملك - : مع أنه لا ينقصك مما عند ربك شيئا . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : طوبى للمتواضعين في الدنيا ! هم أصحاب المنابر يوم القيامة ، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا ! هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة . طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا ! هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة . وقال (ص) : إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ، فتواضعوا يرحمكم الله .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود ! كما إن أقرب الناس إلى الله المتواضعون كذلك أبعد الناس من الله المتكبرون .

وروي : أن سليمان بن داود إذا

ص ٣١٣

أصبح تص وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيئ إلى المساكين فيقعد معهم ويقول مسكين مع مساكين . وروي : أنه ورد على أمير المؤمنين (ع) أخوان له مؤمنان ، أب وابن ، فقام إليهما وأكرمهما وأجلسهما في صدر مجلسه وجلس بين أيديهما . ثم أمر بطعام فأحضر فأكلا منه ، ثم جاء قنبر بطست وإبريق خشب ومنديل ، وجاء ليصب على يد الرجل ، فوثب أمير المؤمنين وأخذ الإبريق ليصب على يد الرجل ، فتمرغ الرجل في التراب ، وقال : وقال : يا أمير المؤمنين ! الله يراني وأنت تصب على يدي ! قال : اقعد واغسل ، فإن

الله - عز وجل - يراك وأخوك الذي لا يتميز منك ولا ينفصل عنك يخدمك . يريد بذلك في خدمته في الجنة مثل عشرة أضعاف عدد أهل الدنيا . فقعد الرجل . وقال له علي عليه السلام : أقسمت عليك بعظيم حقي الذي عرفته لما غسلت مطمئنا كما كنت تغسل لو كان الصاب عليك قنبر ، ففعل الرجل ذلك ، فلما فرغ ناول الإبريق محمد بن الحنفية ، وقال : يا بني ! لو كان هذا الابن حضرني دون أبيه لصببت على يده ، ولكن الله عز وجل يأبى أن يسوي بين ابن وأبيه إذا جمعهما مكان ، لكن قد صب الأب على الأب فليصب الابن على الابن ، فصب محمد بن الحنفية على الابن (٩٠) . وقال الصادق عليه السلام : التواضع أصل كل شرف نفيس ومرتبة رفيعة ، ولو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب . والتواضع ما يكون لله وفي الله ، وما سواه فكبر . ومن تواضع لله شرفه الله على كثير من عباده . ولأهل التواضع سيماء يعرفها أهل السماوات من الملائكة وأهل الأرض من العارفين . قال الله عز وجل : وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم (٩١) . وأصل التواضع من إجلال الله وهيبته وعظمته .

وليس لله عز وجل عبادة يقبلها ويرضاها إلا وبابها التواضع . ولا يعرف ما في معنى حقيقة

(هامش)

(٩٠) روي هذا الحديث في البحار - في الجزء الرابع من المجلد الخامس عشر ص ١٤٩ باب التواضع - عن الاحتجاج والتفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام . (٩١) الأعراف ، الآية : ٤٦ . (*)

ص ٣١٤

التواضع إلا المقربون من عباده المستقلين بوحدانيته ، قال الله عز وجل : وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (٩٢) . وقد أمر الله - عز وجل - أعز خلقه وسيد بريته محمدا (ص) بالتواضع ، فقال عز وجل : واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين (٩٣) . والتواضع مزرعة الخضوع والخشوع والخشية والحياء ، وإنهن لا يأتين إلا منها وفيها ، ولا يسلم الشرف التام الحقيقي إلا للمتواضع في ذات الله تعالى (٩٤) . وقال الإمام أبو محمد الحسن بن علي العسكري عليهم السلام : أعرف الناس بحقوق إخوانهم وأشدهم قضاء لهم أعظمهم عند الله شأنا ، ومن تواضع في الدنيا لإخوانه فهو عند الله من الصديقين ومن شيعة علي تميم ابن أبي طالب عليه السلام حقا (٩٥) .

(الذلة) up

لما عرفت أن كل فضيلة وسط له طرفان مذمومان ، فأحد طرفي التواضع (الكبر) - كما عرفت - وهو من طرف الإفراط ، وآخرهما (الذلة) والتخاسس ، وهو من طرف التفريط . فكما إن الكبر مذموم ، فكذلك المذلة والتخاسس أيضا مذموم ، إذ كلا طرفي الأمور ذميم ، والمحمود : هو التواضع من دون الخروج إلى شيء من الطرفين ، إذ أحب الأمور إلى الله أوسطها . وهو أن يعطي كل ذي حق حقه ، وهو العدل ، فلو وقع في طرف النقصان فليرفع نفسه ، إذ ليس للمؤمن أن يذل نفسه ، فالعالم إذا دخل عليه إسكاف نخلى له مجلسه وأجلسه فيه ، وترك تعليمه وإفادته ، وإذا قام عدا إلى الباب خلفه ، فقد تخاسس وتذلل ، وهو غير محمود ،

(هامش)

)

٩٢) الفرقان ، الآية : ٦٣ . (٩٣) الشعراء ، الآية : ٢١٥ . (٩٤) روي هذا الحديث في البحار أيضا في الموضع المتقدم عن مصباح الشريعة . (٩٥) هذا الحديث من نفس الحديث المتقدم عن الاحتجاج والتفسير المنسوب إلى الإمام . (*)

ص ٣١٥

بل هو رذيلة في طرف التفريط . فاللازم إذا وقع فيه أن يرفع نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم . فإن العدل أن يتواضع بمثل ما ذكر لأمثاله ولمن يقرب درجته . فأما تواضعه للسوقي ، فبالبشر الكلام في ، والرفق في السؤال ، وإجابة دعوته ، والسعي في حاجته ، وأمثال ذلك ، وألا يرى نفسه خيرا منه ، نظرا إلى خطر الخاتمة . ثم ينبغي ألا يتواضع للمتكبرين ، إذ الانكسار والتذلل لمن يتكبر ويتعزز مع كونه من التخاسس والمذلة المذمومة يوجب إضلال هذا المتكبر ، وتقريره على تكبره ، وإذا لم يتواضع له الناس وتكبروا عليه ربما تنبه وترك التكبر ، إذا المتكبر لا يرضى بتحمل المذلة والإهانة من الناس ، ولذا قال رسول الله (ص) :

إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم ، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم ، فإن ذلك لهم مذلة وصغار . ومنها :

• الافتخار up

أي المباهاة باللسان بما توهمه كمالا ، والغالب كون المباهاة بالأمور الخارجة عن ذاته ، وهو بعض أصناف التكبر - كما أشير إليه - فكل ما ورد في ذمة يدل على ذمه ، والأسباب الباعثة عليه هي أسباب التكبر . وقد تقدم أن شيئا منها لا يصلح لأن يكون منشأ للافتخار ، فهو ناش من محض الجهل والسفاهة . قال سيد الساجدين (ع) : عجبا للمتكبر الفخور الذي كان بالأمس نطفة ثم (هو) (٩٦) غدا جيفة . وقال الباقر (ع) : عجبا للمختال الفخور ، وإنما خلق من نطفة ثم يعود جيفة ، وهو فيما بين ذلك لا يدري ما يصنع به . وقال (ع) : صعد رسول الله (ص) المنبر يوم فتح مكة ، فقال : أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها ، ألا إنكم من آدم وآدم من طين ، ألا إن خير عباد الله عبد اتقاه . وقال له (ع) عقبة بن بشير الأسدي : أنا في الحسب الضخم عزيز في قومي ، فقال له : تمن علينا بحسبك ! إن الله تعالى رفع بالأيمان من كان الناس يسمعونه وضيعا إذا كان مؤمنا ، ووضع بالكفر من كان الناس يسمعونه

(هامش)

(٩٦) في بعض نسخ الكافي في باب الفخر والكبر زيادة كلمة (هو) . (*)

ص ٣١٦

شريفا إذا كان كافرا . فليس لأحد فضل على أحد إلا بتقوى الله . وقال الصادق (ع) : قال رسول الله (ص) : آفة الحسب الافتخار والعجب . وقال (ع) : أتى رسول الله (ص) رجل ، فقال : يا رسول الله ! أنا فلان بن فلان . . . حتى عد تسعة ، فقال رسول الله : أما إنك عاشرهم في النار ! . ونقل : أن قريشا تفاخروا عند سلمان ، فقال : لكني خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم إلى الميزان ، فإن ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لئيم . ثم ضده استحقار نفسه وترجيح غيره عليها بالقول . ومنها :

• البغي up

ويسمى البذخ أيضا ، وهو صعوبة الانقياد والتابعية لمن يجب أن ينقاد (له) ، وقد فسر بمطلق العلو والاستطالة ، سواء تحقق في ضمن عدم الانقياد لمن يجب أن ينقاد (له) ، أو في ضمن أحد أفعال الكبر ، أو في ضمن الظلم والتعدي على الغير . وعلى أي تقدير هو أفحش أنواع الكبر ، إذ عدم الانقياد لمن يجب أن ينقاد (له) - كالأنبياء وأوصيائهم - يؤدي إلى الكفر الموجب للهلاك الأبدي . ولقد هلك بذلك أكثر طوائف الكفار ، كاليهود والنصارى وكفار قريش وغيرهم . وكذا الظلم والتعدي على المسلم وإذلاله بالمقهورية والمغلوبية من المهلكات العظيمة ، ولذا ورد في ذمه ما ورد ، قال رسول الله (ص) : إن أعجل الشر عقوبة البغي . وقال (ص) : حق على الله عز وجل ألا يبغي شيء على شيء إلا أذله الله ، ولو أن جبلا بغى على جبل لهد الله الباغي منهما . وقال أمير المؤمنين (ع) : أيها الناس ! إن البغي يقود أصحابه إلى النار ، وإن أول من بغى على الله عناق بنت آدم ، وأول قتيل قتله الله عناق ، وكان مجلسها جريبا في جريب ، وكان لها عشرون أصبعا في كل إصبع ظفران مثل المنجلين ، فسلط الله عليها أسدا كالفيل ، وذئبا كالبعير ، ونسرا كالبغل ، فقتلنها . وقد قتل الله تعالى الجبابرة على أفضل أحوالهم وأمن ما كانوا . وقال الصادق (ع) : يقول إبليس لجنوده : ألقوا بينهم الحسد والبغي فإنهما يعدلان عند الله الشرك . وكتب (ع) إلى بعض أصحابه : انظر ألا تكلمن بكلمة بغي أبدا ، وإن

ص ٣١٧

أعجبتك نفسك وعشيرتك . وعلاجه : أن يتذكر - أولا - هذه الأخبار الواردة في ذمه ، و- ثانيا - ما ورد في مدح ضده - أعني التسليم والانقياد لمن يلزم إطاعته وتابعيته - كقولهم عليهم السلام : شيعتنا المسلمون . والآيات والأخبار الواردة في وجوب إطاعة الله وإطاعة النبي (ص) وأولي الأمر ، وغيرهم من العلماء والفقهاء الذين هم نواب الأئمة في زمن الغيبة . وبعد ذلك يكلف نفسه التابعية والاطاعة لمن يجب أن يطاع ، ويتخضع له قولا وفعلا ، حتى يصير ذلك له ملكة . ومنها :

• تزكية النفس up

أي نفي النقائص عنها ، وإثبات الكمالات لها . وهو من نتائج العجب . وقبحه أظهر من أن يخفى ، إذ من عرف حقيقة الإمكان ، ثم أطلع على خلق الإنسان ، يعلم أنه عين القصور والنقصان ، فلا يطلق بمدح نفسه اللسان . على أنه يتضمن بخصوصه قبحا يشهد به

الذوق والوجدان ، والوجدان ، ولذا قال أمير المؤمنين (ع) : تزكية المرء لنفسه قبيحة . وقد تقدم ما يكفيك لمعرفة حقارة الإنسان وخساسته . ثم ضد التزكية عدم تبرئة من العيوب والاقرار بها وإثبات النقائص لها ، فإذا كلف نفسه عليه وفعل ذلك مرات متوالية ، يصير معتادا له ، ويزول عنه ما اعتاده من مدح نفسه . ومنها :

• العصبية up

وهي السعي في حماية نفسه أو ماله إليه نسبة : من الدين ، والأقارب والعشائر ، وأهل البلد ، قولا أو فعلا : فإن كان ما يحميه ويدفع عنه السوء مما يلزم حفظه وحمايته ، وكانت حمايته بالحق من دون خروج من الإنصاف والوقوع في ما لا يجوز شرعا ، فهو الغيرة الممدوحة التي هي من من فضائل قوة الغضب - كما مر - . وإن كان مما يلزم حمايته ، أو كانت حمايته بالباطل ، بأن يخرج عن الإنصاف وارتكب ما يحرم شرعا ، فهو

ص ٣١٨

التعصب المذموم ، وهو من رداءة قوة الغضب . وإلى ذلك يشير كلام سيد الساجدين (ع) حيث سئل عن العصبية ، فقال : العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيرا من خيار قوم آخرين ، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه ، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم . والغالب إطلاق العصبية في الأخبار على التعصب المذموم ، ولذا ورد بها الذم ، كقول النبي (ص) : من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربق الإيمان من عنقه . وقوله (ص) : من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية . وقال السجاد (ع) : لم يدخل الجنة حمية غير حمية حمزة بن عبد المطلب ، وذلك حين أسلم عصبا للنبي (ص) في حديث السلى الذي ألقي على النبي (ص) . وقال الصادق (ع) : إن الملائكة كانوا يحسبون أن إبليس منهم ، وكان في علم الله أنه ليس منهم ، فاستخرج ما في نفسه بالحمية والعصب ، فقال : خلقتني من نار وخلقته من طين (٩٧) . ومنها :

• كتمان الحق والانحراف عنه up

وباعثه إما العصبية أو الجبن ، فهو من نتائج واحدة منهما ، فعلم (الأول) يكون من رذائل قوة الغضب من جانب الإفراط ، وعلى (الثاني) يكون من رذائلها من جانب التفريط . وربما كان الباعث في بعض أفراده الطمع المالي ، إلا أن الظاهر كون الفاعل المباشر النفس مع رداءة قوة الغضب ، كما في نفس الغضب وغيره ، إذ ما لم يحصل في النفس ضعف وفي القوة الغضبية خمود لم يتحقق كتمان الحق . ويندرج تحته الميل في الحكم ، وكتمان الشهادة ، وشهادة الزور ، وتصديق المبطل ، وتكذيب المحق ، وغير ذلك . والظواهر الدالة على ذمه مطلقا ، وعلى كل واحد من الأصناف المندرجة تحته كثيرة ، ولا حاجة إلى ذكرها لاشتهارها . وعلاج العصبية وكتمان الحق : أن يتذكر - أولا - إيجابهما لسخط الله ومقته ، وربما تأديا إلى

(هامش)

(٩٧) الأعراف ، الآية : ١٢ . ص ، الآية : ٧٦ . (*)

ص ٣١٩

الكفر ، و- ثانيا - فوائد ضدهما ، أعني الإنصاف والاستقامة على الحق . وبعد ذلك يكلف نفسه على إظهار ما هو الحق والعمل به ، ولو بالمشقة الشديدة ، إلى أن يصير ذلك عادة له ، فيزول عن نفسه ما صار لها ملكة من التعصب وكتمان الحق .

وصل (الإنصاف والاستقامة على الحق) up

لما كان ضدهما الإنصاف والاستقامة على الحق ، فلنشر إلى بعض ما ورد في مدحهما تحريكا للطالبين إلى الأخذ بهما ، قال رسول الله (ص) : لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الإنفاق من الاقتار ، والإنصاف من نفسه ، وبذل السلام . وكان (ص) يقول في آخر خطبته : طوبى لمن طاب خلقه ، وطهرت سجيته ، وصلحت سريرته وحسنت علانيته ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، وأنصف الناس من نفسه وقال (ص) : سيد الأعمال إنصاف الناس من نفسك . . إلى آخره . وقال (ص) : من واسى الفقير من ماله وأنصف الناس من نفسه ، فذلك المؤمن حقا . وقال (ص) ثلاث خصال من كن فيه أو واحدة منهن كان في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله : رجل أعطى الناس عن نفسه ما هو سائلهم . . . الحديث . وقال أمير المؤمنين (ع) في كلام له : ألا إنه من ينصف من نفسه لم يزده الله إلا عزا . وقال الصادق (ع) من يضمن لي أربعة بأربعة أبيات في الجنة : أنفق ولا تخف فقرا ، وافش السلام في العالم ، واترك المراء وإن كنت محقا ، وأنصف الناس من نفسك . وقال (ع) :

لا أخبركم بأشد ما فرض الله على خلقه ، فذكر ثلاثة أشياء أولها : (إنصاف الناس من نفسك) . وقال (ع) : من أنصف الناس من نفسه رضي به حكما لغيره . وقال (ع) : ما تدارى اثنان في أمر قط فأعطى أحد النصف صاحبه فلم يقبل منه إلا أديل منه . وقال (ع) : ثلاثة هم أقرب الخلق إلى الله تعالى يوم القيامة حتى يفرغ من الحساب : رجل لم تدعه قدرة في حال غضبه على أن يحيف على من تحت يده ، ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر بشعيرة ،

ص ٣٢٠

ورجل قال بالحق فيما له وعليه . وقال (ع) : إن لله جنة لا تدخلها إلا ثلاثة ، أحدهم من حكم في نفسه بالحق (٩٨) . ومنها :

• القساوة up

وهي ملكة عدم التأثر عن تألم أبناء النوع . ولا ريب في كونه ناشئا من غلبة السبعية ، وأكثر ذمائم الصفات : من الظلم والإيذاء ، وعدم إغاثة المظلومين ، وعدم مواساة الفقراء والمحتاجين وغير ذلك يترتب عليه . وضده الرحمة والرقة ، وهو التأثر عن مشاهدة تألم أبناء نوعه ، ويترتب عليه من الصفات المرضية أضداد ما ذكر . وقد ورد به المدح والترغيب في الأخبار الكثيرة ، كقول النبي (ص) : يقول الله تعالى : أطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم ، فإني جعلت فيهم رحمتي . ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم ، فإني جعلت فيهم سخطي . وكقول الصادق (ع) : اتقوا الله وكونوا أخوة برة متحابين في الله متواصلين متراحمين . . . . وقوله (ص) : تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا أخوة برة كما أمركم الله . وقوله (ع) : يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض ، حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل : رحماء بينهم متراحمين مغتمين لما غاب عنكم من أمرهم على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول الله (ص) . وقد ورد : إن من ترحم على العباد يرحمه الله . والأخبار الواردة في فضيلة مطلق الرحمة ، وفي فضيلة خصوص كل واحد واحد فيما يندرج تحته : من إعانة المحتاج ، وإغاثة المظلوم ، ومواساة الفقير ، والاغتمام بمصائب المؤمنين ، وأمثال ذلك ، أكثر من أن تحصى . ثم إن إزالة القساوة واكتساب الرحمة في غاية الإشكال ، إذ القساوة صفة راسخة في القلب لا يقدر على تركها بسهولة ، فطريق العلاج أن يترك لوازمها وآثارها من الأفعال الظاهرة ، ويواظب على ما يترتب على الرحمة من الصفات الاختيارية ، ويكلف نفسه على ذلك حتى يرتفع على التدريج مبدأ الأولى ويحصل مبدأ الثانية .

(

هامش)

(٩٨) هذا الحديث رواه في الكافي في باب الإنصاف والعدل عن الباقر (ع) . (*).

الصفحة السابقة ... up ... جامع السعادات (ج١) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

# ٢ جامع السعادات (ج2)

## ٢٠١ جامع السعادات (ج2)

فهرس الكتب

كتاب جامع السعادات (ج٢)

:: العنوان

:: المقام الثالث: فيما يتعلق بالقوة الشهوية من الرذائل والفضائل

ـ الشره

ـ فوائد الجوع

ـ الشهوية الجنسية

ـ الخمود

ـ العفة

ـ الأنواع والنتائج والآثار المتعلقة بالقوة الشهوية، وهي ١١ نوعاً:

١: حب الدنيا
لابد للمؤمن مكسب
الدنيا المذمومة هي الهوى
ذم الدنيا وأنها عدوة الله والإنسان
خسائس صفات الدنيا
تشبيهات الدنيا وأهلها
عاقبة حب الدنيا وبغضها
٢: حب المال
ذم المال
الجمع بين ذم المال ومدحه
غوائل المال وفوائده
الأمور المنجية من غوائل المال
الزهد
مدح الزهد
اعتبارات الزهد ودرجاته
الزهد الحقيقي
٣: الغنى
ذم الغنى
الفقر
اختلاف أحوال الفقراء
مراتب الفقر ومدحه
الموازنة بين الفقر والغنى
ما ينبغي للفقير
وظيفة الفقراء
موارد قبول العطاء وردها
لا يجوز السؤال من غير حاجة
٤: الحرص
القناعة
علاج الحرص
٥: الطمع
الاستغناء عن الناس
٦: البخل
ذم البخل
السخاء
معرفة ما يجب أن يبذل
الايثار
علاج مرض البخل
الأمور الواجبة (٣) أنواع:
١: الزكاة
سر وجوب الزكاة وفضيلة سائر الانفاقات
الحث على التعجيل في الاعطاء
فضيلة اعلان الصدقة الواجبة
ذم المن والأذى في الصدقة
ما ينبغي للمعطي
ما ينبغي للفقراء في أخذ الصدقة

زكاة الأبدان
٢: الخمس
٣: الانفاق على الأهل والعيال
ما ينبغي في الانفاق على العيال
الأمور المستحبة من الانفاق الداخلية تحت السخاء، و(٩) أنواع:
١: صدقة التطوع
فضيلة الاسرار في الصدقة المندوبة
٢: الهدية
٣: الضيافة
ما ينبغي أن يقصد في الضيافة
آداب الضيافة
٤: الحق المعلوم وحق الحصاد والجذاذ
٥: القرض
٦: أنظار العسر والتحليل
٧: بذل الكسوة والسكنى ونحوهما
٨: ما يبذل لوقاية العرض والنفس
٩: ما ينفق في المنافع العامة
الفرق بين الانفاق والبر والمعروف
٧: طلب الحرام
عزة تحصيل الحلال
أنواع الأموال
الفرق بين الرشوة والهدية
الورع عن الحرام
مدح الورع
مداخل الحلال
درجات الورع
٨: الغدر والخيانة
٩: أنواع الفجور
١٠: الخوض في الباطل
١١: التكلم بما لا يعني أو الفضول
حد التكلم بما لا يعني
علاج الخوض بما لا يعني
الصمت
:: المقام الرابع فيما يتعلق بالقوى الثلاث أو باثنتين منها من الرذائل والفضائل وهي (٣٢) نوعاً
١: الحسد
ذم الحسد
المنافسة والغبطة
بواعث الحسد
فصل لا تحاسد بين علماء الآخرة والعارفين
القدر الواجب في نفي الحسد
النصيحة
٢: الايذاء والاهانة والاحتقار
كف الأذى عن المسلمين

ذم الظلم بالمعنى الأخص
العدل بالمعنى الأخص
٣: إخافة المؤمن
إدخال السرور في قلب المؤمن
٤: ترك إعانة المسلمين
فضاء حوائج المسلمين
٥: التهاون والمراهنة
السعي في الأمر بالمعروف
وجوب الأمر بالمعروف وشروطه
عدم اشتراط العدالة فيه
مراتب الأمر بالمعروف
معنى وجوبهما كفائياً
ما ينبغي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
أنواع المنكرات
٦: الهجرة والتباعد
التزاور والتآلف
٧: قطع الرحم
صلة الرحم
٨: عقوق الوالدين
بر الوالدين
حق الجوار
حدود الجوار وحقه
٩: طلب العثرات
ستر العيوب
١٠: إفشاء السر
كتمان السر
النميمة
السعاية
١١: الافساد بين الناس
الاصلاح
١٢: الشماتة
١٣: المراء والجدال والخصومة
علاج المراء
طيب الكلام
١٤: السخرية والاستهزاء
١٥: المزاح
المذموم من المزاح
١٦: الغيبة
لا تنحصر الغيبة باللسان
بواعث الغيبة
ذم الغيبة
علاج الغيبة
مسوغات الغيبة
كفارة الغيبة
البهتان

المدح ومواضع حسنه وقبحه
١٧: الكذب
ذم الكذب
مسوغات الكذب
التورية والمبالغة
شهادة الزور واليمين الكاذب وخلف الوعد
علاج الكذب
الصدق ومدحه
أقسام الصدق
اللسان أضر الجوارح
الصمت
١٨: حب الجاه والشهرة
ذم حب الجاه والشهرة
الجاه أحب من المال
لابد للإنسان من جاه
دفع أشكال في حب المال والجاه
الكمال الحقيقي في العلم والقدرة والمال والجاه
علاج حب الجاه
حب الخمول
١٩: حب المدح
مراتب حب المدح وكراهة الذم
أسباب حب المدح
علاج المدح وكراهة الذم
ضد حب المدح
٢٠: الرياء
ذم الرياء
أقسام الرياء
تأثير الرياء على العبادة
السرور بالاطلاع على العبادة
متعلقات الرياء
بواعث الرياء
الرياء الجلي والخفي
كيف يفسد الرياء العمل
شوائب الرياء مبطلة للعمل
علاج الرياء
الاخلاص وحقيقته
مدح الاخلاص
آفات الاخلاص
٢١: النفاق

## ٢٠٢ جامع السعادات (ج2)

الصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ١
جامع السعادات
للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى
محمد مهدي النراقي
المتوفى ١٢٠٩ هـ
الجزء الثاني
حققه وعلق عليه
العلامة
السيد محمد كلانتر
عميد جامعة النجف الدينية
قدم له
الشيخ محمد رضا المظفر
عميد كلية الفقه
الطبعة الرابعة

## ٢٠٣ جامع السعادات (ج2)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ٢
المقام الثالث
فيما يتعلق بالقوة الشهوية من الرذائل والفضائل وكيفية العلاج
الشره - فوائد الجوع - الشهوة الجنسية - خمود الشهوة - العفة - الاعتدال في الشهوة - حب الدنيا - لا بد للمؤمن من مكسب - الدنيا المذمومة هي الهوى - ذم الدنيا وإنها عدوة الله والانسان - خسائس صفات الدنيا - تشبيهات الدنيا وأهلها - عاقبة حب الدنيا وبغضها - الجمع بين ذم المال ومدحه - حب المال - ذم المال - غوائل المال وفوائده - الأمور المنجية من غوائل المال - الزهد - مدح الزهد - اعتبارات الزهد ودرجاته - الزهد الحقيقي - ذم الغنى - الفقر - اختلاف أحوال الفقراء - مراتب الفقر ومدحه - الموازنة بين الفقر والغنى - ما ينبغي للفقير - وظيفة الفقراء - موارد قبول العطاء وردها - لا يجوز السؤال من غير حاجة - الحرص وذمة - القناعة - علاج الحرص - الطمع وذمة - الاستغناء عن الناس - البخل - ذم البخل - السخاء - معرفة ما يجب أن يبذل - الإيثار - علاج البخل - الزكاة - سر وجوب الزكاة وفضيلة سائر الإنفاقات - الحث على التعجيل في الاعطاء - فضيلة إعلان الصدقة الواجبة - ذم المن والأذى في الصدقة - ما ينبغي للمعطى - ما ينبغي للفقراء في أخذ الصدقة - زكاة الأبدان - الخمس - الإنفاق على الأهل والعيال - ما ينبغي في الإنفاق على العيال - صدقة التطوع - فضيلة الأسرار في الصدقة المندوبة - الهدية - الضيافة - ما ينبغي أن يقصد في الضيافة - آداب الضيافة - الحق المعلوم وحق الحصاد والجذاذ - القرض - إنظار المعسر والتحليل - بذل الكسوة والسكنى ونحوهما - ما يبذل لوقاية العرض والنفس - ما ينفق في المنافع العامة - الفرق بين الإنفاق والبر والمعروف - طلب الحرام - عزة تحصيل الحلال - أنواع الأموال.
الفرق بين الرشوة والهدية - الورع عن الحرام - مدح الورع - مداخل الحلال - درجات الورع - الغدر - أنواع الفجور - الخوض في الباطل - التكلم بما لا يعني - حد التكلم بما لا يعني - أسباب الخوض فيما لا يعني - الصمت.
ص ٣
فنقول: أما جنسا رذائلها (١) فأحدهما:
الشره up
وهو إطاعة شهوة البطن والفرج، وشدة الحرص على الأكل والجماع، وربما فسر باتباع القوة الشهوية في كل ما تدعو إليه: من شهوة البطن والفرج وحب المال، وغير ذلك، ليكون أعم من سائر رذائل قوة الشهوة، وتتحقق جنسيته، وعلى الأول يكون بعض رذائلها كحب الدنيا المتعلق بها أعم منه، لا أن القوم لما فسروه بالأول فنحن اتبعناهم، إذ الأمر في مثله هين. وبالجملة: رذيلة الشره من

طرف الإفراط ولا ريب في كونه أعظم المهلكات لابن آدم، ولذا قال رسول الله (ص): من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقى ، والقبقب: البطن، والذبذب: الفرج، واللقلق: اللسان. وقال (ص): ويل للناس من القبقبين!، فقيل: وما هما يا رسول الله؟! قال: الحلق والفرج . وقال (ص): أكثر ما يلج به أمتي النار الأجوفان: البطن والفرج . وقال (ص): ثلاث أخافهن على أمتي من بعدي: الضلالة بعد المعرفة، ومضلات الفتن، وشهوة البطن والفرج . ويدل على ذم (الأول) - أعني شهوة البطن والحرص على الأكل والشرب - قوله (ص): ما ملأ ابن آدم وعاءا شرا من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، وإن كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه . وقال (ص): لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء . وقال (ص): أفضلكم منزلة عند الله أطولكم جوعا وتفكرا، وأبغضكم إلى الله تعالى كل نؤوم أكول شروب وقال (ص): المؤمن يأكل في معاء واحد والمنافق يأكل في سبعة أمعاء ، أي يأكل سبعة أضعاف ما يأكله المؤمن أو تكون شهوته سبعة أمثال شهوته، فالمعاء كناية عن الشهوة.

وقال (ص): إن أبغض الناس إلى الله المتخمون الملأى، وما ترك عبد أكلة يشتهيها إلا كانت له درجة في الجنة . وقال (ص) بئس العون على الدين قلب نخيب وبطن رغيب

(هامش)

(١) أي القوة الشهوية. (*)

ص ٤

ونعظ شديد (٢) وقال (ص): أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا في الدنيا . وقال (ص): لا يدخل ملكوت السماوات من ملأ بطنه . وفي التوراة: إن الله ليبغض الحبر السمين ، لأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل. وفي بعض الآثار: إن الله يبغض القارئ السمين . وقال لقمان لابنه: يا بني! إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة . وقال الباقر (ع): إذا شبع البطن طغى . وقال عليه السلام: ما من شيء أبغض إلى الله عز وجل من بطن مملوء . وقال الصادق عليه السلام: إن البطن ليطغي من أكلة، وأقرب ما يكون العبد من الله إذا خف بطنه، وأبغض ما يكون العبد إلى الله إذا امتلأ بطنه . وقال (ص): ليس لابن آدم بد من أكلة يقيم بها صلبه، فإذا أكل أحدكم طعاما، فليجعل ثلث بطنه للطعام، وثلث بطنه للشراب، وثلثه للنفس، ولا تسمنوا تسمن الخنازير للذبح . وقال (ع) ما من شيء أضر لقلب المؤمن من كثرة الأكل، وهي مورثة شيئين: (قسوة) القلب، و(هيجان) الشهوة. والجوع أدام للمؤمن، وغذاء للروح، وطعام للقلب، وصحة للبدن . والأخبار الواردة بهذه المضامين كثيرة، ولا ريب في أن أكثر الأمراض والأسقام تترتب على كثرة الأكل. قال الصادق عليه السلام: كل داء من التخمة إلا الحمى فإنها ترد وروداً . وقال عليه السلام: الأكل على الشبع يورث البرص . وكفى لشهوة البطن ذما أنها صارت منشأ لإخراج آدم وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار، إذ نهيا عن أكل الشجرة فغلبتهما شهوتهما حتى أكلا منها، فبدت لهما سوآتهما.

والبطن منبت الأدواء والآفات وينبوع الشهوات، إذ تتبعها شهوة الفرج وشدة السبق إلى المنكوحات، وتتبع شهوة المطعم والمنكح شدة الرغبة في الجاه والمال، ليتوسل بهما إلى التوسع في المطعومات والمنكوحات، ويتبع ذلك أنواع الرعونات، وضروب المحاسدات والمنافسات، وتتولد من ذلك

(هامش)

(٢) صححنا الحديث على نسخ الوسائل المصححة في كتاب الأطعمة، والوافي - ١١: ٦٦ - وكذا ذكره في مجمع البحرين مادة (نخب)، والنخيب: الجبان الذي لا فؤاد له. والرغيب: الواسع. (*)

ص ٥

آفة الرياء، وغائلة التفاخر والتكاثر والعجب والكبر، ويداعى ذلك إلى الحقد والعداوة والبغضاء، ويفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء. وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد من بطر الشبع والامتلاء ولو ذلل العبد نفسه بالجوع، وضيق مجاري الشيطان، لم يسلك سبيل البطر والطغيان، ولم يخر به إلى الانهماك في الدنيا والانغمار فيما يفضيه إلى الهلاك والردى، ولذا ورد في فضيلة الجوع والصبر عليه ما ورد من الأخبار، قال رسول الله (ص): جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش، فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله، وإنه ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش . وقال (ص): أفضل الناس من قل مطعمه وضحكه ورضي

بما يستر عورته . وقال (ص) سيد الأعمال الجوع، وذل النفس لباس الصوف وقال (ص): اشربوا وكلوا في أنصاف البطون، فإنه جزء من النبوة . وقال (ص): قلة الطعام هي العبادة . وقال (ص) إن الله يباهي الملائكة بمن قل مطعمه في الدنيا، يقول: انظروا إلى عبدي ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فصبر وتركهما، اشهدوا يا ملائكتي: ما من أكلة يدعها إلا أبدلته بها درجات في الجنة . وقال (ص): أقرب الناس من الله عز وجل يوم القيامة من المال جوعه وعطشه حزنه في الدنيا . وقال عيسى عليه السلام: أجيعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم، لعل قلوبكم ترى الله عز وجل . وقالت بعض زوجاته (ص): إن رسول الله لم يمتلئ قط شبعا، وربما بكيت رحمة مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه بيدي، وأقول: نفسي لك الفداء! لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ويمنعك من الجوع، فيقول: إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم، فأجدني استحيي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غدا دونهم، فأصبر أياما يسيرة أحب إلي من أن ينقص بي حظي غدا في الآخرة، وما من شيء أحب إلي من اللحوق بأصحابي وإخواني .

وروي: أنه جاءت فاطمة عليها السلام ومعها كسيرة من خبز، فدفعتها إلى النبي (ص) فقال: ما هذه الكسيرة؟ قالت: قرص خبزته للحسن والحسين عليهما السلام جئتك

ص ٦

منه بهذه الكسيرة، فقال: أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث (٣).

فوائد الجوع up

ثم للجوع فوائد: هي صفاء القلب ورقته، واتقاد الذهن وحدته، والالتذاذ بالمناجاة والطاعة، والابتهاج بالذكر والعبادة، وكسر شهوات المعاصي المستولية بالشبع، دفع النوم الذي يضيع العمر ويكل الطبع ويفوت القيام التهجد، والتمكن من الإيثار والتصديق بالزائد، وخفة المؤنة الموجبة للفراغ عن الاهتمام بالتحصيل والإعداد، وصحة البدن ودفع الأمراض إذ المعدة بيت كل داء والحمية رأس كل دواء، وورد: كلوا في بعض بطونكم تصحوا ، وأضداد هذه الفوائد من المفاسد يترتب على الشبع. ثم علاج الشره بالأكل والشرب: أن يتذكر الأخبار الواردة في ذمه، وينبه نفسه على رذالة المأكولات وخساستها، وعلى خسة الشركاء من الحيوانات، ويتأمل في المفاسد المترتبة على الولوع به: من الذلة، والمهانة وسقوط الحشمة والمهابة، وفتور الفطنة، وظهور البلادة، وحدوث العلل والأمراض الكثيرة، وبعد ذلك يحافظ نفسه عن الإفراط في الأكل ولو بالتكلف حتى يصير الاعتدال فيه عادة.

الشهوة الجنسية up

)

وأما الثاني) - أعني طاعة شهوة الفرج والافراط في الوقاع - فلا ريب في أنه يقهر العقل حتى يجعل الإنسان مقصور الهم على التمتع بالنسوان والجواري، فيحرم من سلوك طريق الآخرة، أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش وربما انتهت هذه الشهوة بمن غلب وهمه على عقله إلى العشق البهيمي الذي ينشأ من استيلاء الشهوة، فيسخر الوهم العقل لخدمة الشهوة، وقد خلق العقل ليكون مطاعا لا ليكون خادما للشهوة. وهذا مرض قلوب فارغة خلت عن محبة الله وعن الهمم العالية. ويجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة الفكر والنظر، وإذا استحكم عسر دفعه، وكذلك حب باطل من الجاه والمال والعقار والأولاد. فمثل من يكسره في أول انبعاثه مثل من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب

(هامش)

(٣) صححنا الحديث على ما في سفينة البحار - ١: ١٩٥ -. (*)

ص ٧

ليدخله، وما أهون منعها بصرف عنانها، ومثل من يعالجه بعد استحكامه مثل من يترك الدابة حتى تدخل وتتجاوز الباب ثم يأخذ بذنبها ويجرها إلى ورائها، وما أعظم التفاوت بين الأمرين في اليسر والعسر. فليكن الاحتراز والاحتياط في بدايات الأمور، إذ في أواخرها لا تقبل العلاج إلا بجهد شديد يكاد يوازي نزع الروح. وربما انتهى إفراط هذه الشهوة بطائفة إلى أن يتناولوا ما يقويها ليستكثروا من الجماع، ومثلهم كمثل من بلي بسباع ضارية تغفل عنه في بعض الأوقات فيحتال لإثارتها وتهييجها في هذا الوقت ثم يشتغل بعلاجها وإصلاحها. والتجربة شاهدة بأن من ينقاد لهذه الشهوة ويسعى في تكثير ما يهيجها من النسوان وتجديدهن والتخيل والنظر وتناول

الأغذية والأدوية المحركة لها يكون ضعيف البدن سقيم الجسم قصير العمر، وقد ينجر إفراطها إلى سقوط القوة اختلال القوى الدماغية وفساد العقل - كما يرهن عليه في الكتب الطبية -. والوقاع أضر الأشياء بالدماغ، إذ جل المواد المنوية يجلب منه، ولذا شبه الغزالي هذه الشهوة بالعامل الظالم الذي لو أطلقه السلطان ولم يمنعه من ظلمه أخذ أموال الرعية على التدريج بأسرها. وابتلاهم بالفقر والفاقة، فأهلكهم الجوع وعدم تمكنهم من تحصيل القوت، وكذا هذه القوة لو لم يقهرها سلطان العقل ولم يقمها على طريق الاعتدال صرفت جميع المواد الصالحة والأخلاط المحمودة التي اكتسبتها القوى الغاذية لبدل ما يتخلل من الأعضاء في مصارف نفسها وجعلها بأسرها منيا، وتبقى جميع الأعضاء بلا قوت، فتضعف ويدركها الفناء بسرعة. ولو كانت مطيعة للعقل، بحيث تقدم على ما يأمرها به وتنزجر عما ينهاها عنه، كانت كالعامل الذي يأخذ الخراج على طريق العدل والمروة، ويصرفه في مصارف المملكة من سد الثغور وإصلاح القناطر وخروج العساكر، وتبقى سائر أموال الرعية لأنفسهم، فيبقى لهم القوت وسائر ما يحتاجون إليه.

ولعظم آفة هذه الشهوة اقتضائها هلاك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم ترد إلى حد الاعتدال، ورد في ذمها ما ورد من الأخبار، وقال رسول الله (ص) في بعض دعواته: اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري

ص ٨

وقلبي وشر مني . وروي: أنه إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله . وورد في تفسير قوله تعالى: ومن شر غاسق إذا وقب (٤). أي: ومن شر الذكر إذا قام أو دخل. وقال (ص): النساء حبائل الشيطان وقال (ص): ما بعث الله نبيا فيما خلا إلا لم ييأس إبليس أن يهلكه بالنساء ولا شيء أخوف عندي منهن (٥) وقال (ص) اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء . وروي: إن الشيطان قال لموسى (ع): لا تخل بامرأة لا تحل لك. فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها . وروي أيضا: أن الشيطان قال: المرأة نصف جندي، وهي سهمي الذي أرمي فلا أخطئ، وهي موضع سري، وهي رسولي في حاجتي . ولا ريب في أنه لولا هذه الشهوة لما كان للنساء تسلط على الرجال. وقد ظهر بالعقل والنقل: أن الإفراط في هذه الشهوة وكثرة الطروقة والنزو على النسوان مذموم. ولا تغرنك كثرة نكاح رسول الله (ص) فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا، وكان استغراقه في حب الله بحيث يخشى احتراق قلبه والسراية منه إلى قالبه، فكان (ص) يكثر من النسوان ويشغل نفسه الشريفة بهن، وليبقى له نوع التفات إلى الدنيا، ولا يؤدي به كثرة الاستغراق إلى مفارقة الروح عن البدن، ولذا إذا غشيته كثرة الاستغراق وخاض في غمرات الحب والأنس، يضرب يده على فخذ عائشة ويقول (ص): كلميني واشغليني يا حميراء! وهي تشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه، لقصور طاقة قالبه عنه. ثم لما كانت جبلته الأنس بالله، وكان أنسه بالخلق عارضا يتكلفه رفقا ببدنه، فإذا طالت مجالسته معهم لم يطق الصبر معهم وضاق صدره، فيقول: أرحنا يا بلال! ، حتى يعود إلى ما هو قرة عينه. فالضعيف إذا لاحظ

(

هامش)

(٤) الفلق، الآية: ٣. (٥) في إحياء العلوم - ٣: ٨٦ - إن هذا الكلام من قول سعيد بن المسيب لا من كلام النبي - (ص). (*)

ص ٩

أحواله فهو معذور، لأن الأفهام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله (٦). ثم علاج إفراط هذه الشهوة - بعد تذكر مفاسدها المذكورة - كسرها بالجوع، وسد الطرق المؤدية إليها: من التخيل والنظر والتكلم والخلوة، فإن أقوى الأسباب المهيجة لها هو النظر والخلوة، ولذا قال الله تعالى: قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم (٧). وقال النبي (ص): النظرة سهم مسموم ممن سهام إبليس، فمن تركها خوفا من الله تعالى أعطاه الله إيمانا يجد حلاوته في قلبه . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: لكل عضو من أعضاء ابن آدم حظ من الزنا، فالعينان تزنيان وزناهما النظر . وقال (ص): لا تدخلوا على المغيبات - أي التي غاب عنها زوجها - فإن الشيطان يجري من أحدكم مجرى الدم . وقال عيسى بن مريم (ع): إياكم والنظرة، فإنها تزرع في القلب شهوة، وكفى بها فتنة وقيل ليحيى بن زكريا: ما بدء الزنا؟ قال: النظرة والتمني . وقال داود (ع) لابنه: يا بني! امش خلف الأسد (و) (٨) الأسود ولا تمش خلف المرأة . وقال إبليس:

النظرة قوسي وسهمي الذي لا أخطئ به . ولكون النظر مهيجا للشهوة، حرم في الشريعة نظر كل من الرجل والمرأة إلى الآخر، وكذا حرم استماع كل منهما لكلام الآخر، إلا مع الضرورة وعموم الحاجة، وكذا حرم نظر الرجال إلى المرد من الصبيان إذا كان مورثا للفتنة، ولذا كان كبراء الأخيار وعظماء الأبرار في الأعصار والأمصار محترزين عن النظر إلى وجوه الصبيان، حتى قال بعضهم: ما أنا بأخوف على الشباب الناسك من سبع ضار نكوفي عليه من غلام أمرد يجلس إليه . ثم إن لم تنقمع الشهوة بالجوع والصوم وحفظ النظر، فينبغي كسرها

(هامش)

)

٦) هذا الكلام كله عن تعليل كثرة طروق النبي - صلى الله عليه وآله - مأخوذ من كلام الغزالي في أحياء العلوم - ٣: ٨٧ -:

(٧) النور، الآية: ٣٠. (٨) حرف (و) موجود في نسختنا الخطية وفي إحياء العلوم - ٣: ٨٧ -، ولكنه قد شطب عليها في النسخة المطبوعة.

ص ١٠

بالنكاح، بشرط الاستطاعة والأمن من غوائله. وقال (ص): معاشر الشباب! عليكم بالباءة، فمن لم يستطع فعليه بالصوم، فإن الصوم له رجاء . وقال (ص): إن المرأة إذا أقبلت أقبلت بصورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن معها مثل الذي معها . (وثانيهما) - أي ثاني جنسي رذائل قوة الشهوة -:

الخمود up

وهو التفريط في كسب ضروري القوت، والفتور عما ينبغي من شهوة النكاح، بحيث يؤدي إلى سقوط القوة وتضييع العيال وانقطاع النسل. ولا ريب في كون ذلك مذموما غير مستحسن في الشرع، إذ تحصيل المعارف الإلهية واكتساب الفضائل الخلقية والعبادات البدنية موقوف على قوة البدن، فالتفريط في إيصال بدل ما يتحلل إلى البدن يوجب الحرمان عن تحصيل السعادات وهو غاية الخسران. وكذا إهمال قوة شهوة النكاح يوجب الحرمان عن الفوائد المترتبة عليها، فإن هذه القوة إنما سلطت على الإنسان لبقاء النسل ودوام الوجود، ولأن يدرك لذته فيقيس بها لذات الآخرة، فإن لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى اللذات الجسمانية، كما أن ألم النار أعظم الآلام الجسدانية، فالترغيب والترهيب يسوقان الخلق إلى سعاداتهم، وليس ذلك إلا بلذة مدركة وألم محسوس مشابهين للذات والآلام الأخروية. ولبقاء النسل فوائد: موافقة محبة الله بالسعي في تحصيل الولد لبقاء نوع الإنسان، وعدم قطعه السلسلة التي وصلت إليه من مبدأ النوع، وطلب محبة رسول الله (ص) في تكثير من به مباهاته، وطلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده، وطلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله، كما استفاضت به الأخبار. ومن فوائد النكاح: كسر التوقان والتحن من الشيطان، بغض البصر وحفظ الفرج وقطع الوساوس وخطرات الشهوة من القلب، وإليه الإشارة بقوله (ص): من تزوج فقد أحرز نصف دينه . ومن فوائد النكاح: تفريغ القلب عن تدبير المنزل، والتكفل بشغل الطبخ والفرش والكنس، وتنظيف الأواني وتهيئة أسباب المعيشة، فإن

ص ١١

الفراغ عن ذلك أعون شيء على تحصيل العلم والعمل، ولذا قال النبي (ص): ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة مؤمنة صالحة تعينه على آخرته . ومنها: مجاهدة النفس ورياضتها بالسعي في حوائج الأهل والعيال، والاجتهاد في إصلاحهم وإرشادهم إلى طريق الدين، وفي تحصيل المال الحلال لهم من المكاسب الطيبة، والقيام بتربية الأولاد، والصبر على أخلاق النساء وكل ذلك من الفضائل العظيمة، ولذا قال رسول الله (ص): الكاد في نفقة عياله كالمجاهد في سبيل الله . وقال (ص): من حسنت صلاته، وكثر عياله، وقل ماله، ولم يغتب المسلمين: كان معي في الجنة كهاتين . وقال (ص): من الذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب المعيشة . وقال (ص): من كانت له ثلاث بنات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله تعالى له الجنة . ولا ريب في أن الخمود عن الشهوة يلزمه الحرمان عن الفوائد المذكورة فهو مرجوح. ثم لما كان للنكاح آفات أيضا، كالاحتياج إلى المال وصعوبة تحصل الحلال منه - لا سيما في أمثال زماننا - والعجز عن القيام بحقوق النسوان والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، وتفرق الخاطر لأجل القيام بتدبير المعيشة وتهيئة ما يحتاجون إليه، وتأدية ذلك غالبا إلى ما لا ينبغي من الانغمار في الدنيا والغفلة عن الله - سبحانه - وعما خلق لأجله، فاللائق أن يلاحظ في كل شخص أن الراجح في حقه ماذا؟ - بعد ملاحظة الفوائد والمفاسد - فيأخذ به.

وصل: العفة up
قد عرفت أن ضد الجنسين (العفة)، وهو انقياد قوة الشهوة للعقل في الإقدام على ما يأمرها به من المأكل والمنكح كما وكيفا، والاجتناب عما ينهاها عنه، وهو الاعتدال الممدوح عقلا وشرعا، وطرفاه من الإفراط والتفريط مذمومان، فإن المطلوب في جميع الأخلاق والأحوال هو الوسط،
ص ١٢
إذ خير الأمور أوسطها، وكلا طرفيها ذميم، فلا تظنن مما ورد في فضيلة الجوع أن الإفراط فيه ممدوح، فإن الأمر ليس كذلك، بل من أسرار حكمة الشريعة أن كلما يطلب الطبع فيه طرف الإفراط بالغ الشرع في المنع عنه على وجه يتوهم الجاهل منه أن المطلوب طرف التفريط، والعالم يدرك أن المقصود هو الوسط، فإن الطبع إذا طلب غاية الشبع، فالشرع ينبغي أن يطلب غاية الجوع، حتى يكون الطبع باعثا والشرع مانعا، فيتقاومان ويحصل الاعتدال. ولما بلغ النبي (ص): في الثناء على قيام الليل وصيام النهار، ثم علم من حال بعضهم أنه يقوم الليل كله ويصوم الدهر كله، فنهى عنه. والأخبار الواردة في مدح العفة وفضيلتها كثيرة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: أفضل العبادة العفاف . وقال الباقر (ع) ما من عبادة أفضل من عفة بطن وفرج . وقال (ع): ما عبد الله بشيء أفضل من عفة بطن وفرج . وقال (ع): أي الاجتهاد أفضل من عفة بطن وفرج . وفي معناها أخبار أخر. وإذا عرفت هذا، فاعلم أن الاعتدال في الأكل أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا بألم الجوع، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه أصلا، فإن المقصود من الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة، وثقل الطعام يمنع العبادة، وألم الجوع أيضا يشغل القلب ويمنع منها. فالمقصود أن يأكل أكلا معتدلا بحيث لا يبقى للأكل فيه أثر، ليكون متشبها بالملائكة المقدسين عن ثقل الطعام وألم الجوع، وإليه الإشارة بقوله تعالى. وكلوا واشربوا ولا تسرفوا (٩). وهذا يختلف بالنسبة إلى الأشخاص والأحوال والأغذية، والمعيار فيه ألا يأكل طعاما حتى يشتهيه، ويرفع يده عنه وهو يشتهيه، وينبغي ألا يكون غرضه من الأكل التلذذ، بل حفظ القوة على تحصيل ما خلق لأجله، فيقتصر من أنواع الطعام على خبز البر في بعض الأوقات، وعلى خبز الشعير في بعضها، ولو ضم إليه الأدام فيكتفي بأدام واحد في بعض الأحيان، ولا يواظب على اللحم، ولا يتركه بالمرة، قال أمير المؤمنين (ع): من ترك
(
هامش)
(٩) الأعراف، الآية: ٣٠.
ص ١٣
اللحم أربعين يوما ساء خلقه، ومن داوم عليه أربعين يوما قسى قلبه . الاعتدال في الشهوة والاعتدال أن يكتفي في اليوم بليلته بأكلة واحدة في وقت السحر، بعد الفراغ عن التهجد أو بعد صلاة العشاء، أو بأكلتين: التغدي والتعشي - إن لم يقدر على الاكتفاء بمرة واحدة - وقد استفاضت أخبار أئمتنا الراشدين - عليهم السلام - بالحث على التعشي. ثم للعرفاء ترغيبات على الجوع وتصريحات على كثرة فوائده، وعلى توقف كشف الأسرار الإلهية والوصول إلى المراتب العظيمة عليه، ولهم حكايات في إمكان الصبر عليه، وعلى عدم الأكل شهرا أو شهرين أو سنة، ونقلوا حصوله عن بعضهم، وهذا أمر وراء ما وردت به السنة وكلفت به عموم الأمة، فإن كان ممدوحا فإنما هو لقوم مخصوصين. وأما الجماع، فالاعتدال فيه أن يقتصر فيه على ما لا ينقطع عنه النسل، ويحصل له التحصن، وتزول به خطرات الشهوة، ولا يؤدي إلى ضعف البدن والقوى. وأما غير الجنسين من
الأنواع والنتائج والآثار المتعلقة بالقوة الشهويةup
وإن كان بعضها أعم من الجنسين أو مساويا لهما -: فمنها:
• حب الدنيا up
إعلم أن للدنيا ماهية في نفسها وماهية في حق العبد، أما ماهية الدنيا وحقيقتها في نفسها، فعبارة عن أعيان موجودة: هي الأرض وما عليها، والأرض هي العقار والضياع وأمثالهما، وما عليها تجمعه المعادن والنبات والحيوان، والمعادن تطلب لكونها إما من الآلات والزينة كالنحاس والرصاص والجواهر وأمثالها، أو من النقود كالذهب والفضة، والنبات يطلب لكونه من الأقوات أو الأدوية، والحيوانات

تطلب إما لملكية أبدانها واستخدامها كالعبيد والغلمان أو لملكية قلوبها وتسخيرها ليترتب عليه التعظيم والاكرام وهو الجاه، أو للتمتع والتلذذ بها كالجواري والنسوان، أو للقوة والاعتضاد كالأولاد. هذه هي الأعيان المعبر عنها بالدنيا، وقد جمعها الله سبحانه في قوله:
ص ١٤
زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا (١٠). وحب جميع ذلك من رذائل قوة الشهوة، إلا حب تسخير القلوب لقصد الغلبة والاستيلاء، فإنه من رذائل قوة الغضب - كما تقدم - وبذلك يظهر أن حب الدنيا المتعلق بقوة الشهوة أعم من الشره بأول تفسيريه - كما أشير إليه -. وأما ماهيتها في حق العبد، فعبارة عن جميع ماله قبل الموت، كما أن بعد الموت عبارة عن الآخرة، فكل ما للعبد فيه نصيب وشهوة وحظ وغرض ولذة في عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقه، وللعبد فيه علاقتان، علاقة بالقلب: وهو حبه له، وعلاقة بالبدن: وهو إشغاله بإصلاحه، ليستوفي منه حظوظه. إلا أن جميع ماله إليه ميل ورغبة ليس بمذموم، وذلك لأن ما يصحبه في الدنيا وتبقى ثمرته معه بعد الموت - أعني العلم النافع والعمل الصالح - فهو من الآخرة في الحقيقة، وإنما سمي بالدنيا باعتبار دنوه، فإن كلا من العالم والعابد قد يلتذ بالعلم والعبادة بحيث يكون ذلك ألذ الأشياء عنده، فهو وإن كان حظا عاجلا له في الدنيا، إلا أنه ليس من الدنيا المذمومة، بل هو من الآخرة في الحقيقة، وإن عد من الدنيا من حيث دخوله في الحس والشهادة، فإن كل ما يدخل فيهما فهو من عالم الشهادة - أعني الدنيا - ولذا جعل نبينا - (ص) الصلاة من الدنيا، حيث قال: حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وقرة عيني في الصلاة ، مع أنها من أعمال الآخرة. فالدنيا المذمومة عبارة عن حظ عاجل، لا يكون من أعمال الآخرة ولا وسيلة إليها، وما هو إلا التلذذ بالمعاصي والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الضرورة في تحصيل العلم والعمل. وأما قدر الضرورة من الرزق، فتحصيله من الأعمال الصالحة - كما نطقت به الأخبار - قال رسول الله (ص): العبادة سبعون جزءا، أفضلها طلب الحلال . وقال (ص): ملعون من ألقى كله على الناس،
(هامش)
(
١٠) آل عمران، الآية: ١٤. (*)
ص ١٥
وقال السجاد (ع): الدنيا دنيا آن: دنيا بلاغ، ودنيا ملعونة . وقال الباقر (ع): من طلب الدنيا استعفافا عن الناس، وسعيا على أهله، وتعطفا على جاره، لقي الله - عز وجل - يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر . وقال الصادق (ع): الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله . وقال (ع) إن الله تبارك وتعالى ليحب الاغتراب في طلب الرزق . (ع) وقال: ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه . وقال (ع): لا تكسلوا في طلب معايشكم. فإن آباءنا كانوا يركضون فيها ويطلبونها . وقال له (ع) رجل: إنا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها، فقال: تحب أن تصنع بها ماذا؟ قال: أعود بها على نفسي وعيالي، وأصل بها وأتصدق، وأحج واعتمر، فقال أبو عبد الله (ع): ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة . وكان أبو عبد الله (ع): ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة . وكان أبو الحسن (ع) يعمل في أرض قد استنقعت قدماه في العرق، فقيل له. جعلت فداك! أين الرجال؟ فقال: وقد عمل باليد من هو خير مني في أرضه ومن أبي، فقيل: ومن هو؟ فقال: رسول الله (ص) وأمير المؤمنين وآبائي كلهم كانوا قد عملوا بأيديهم، وهو من عمل النبيين والمرسلين والأوصياء والصالحين . وقد ورد بهذه المضامين أخبار كثيرة أخر مشهورة
تذنيب لا بد للمؤمن من مكسب up
وقد ظهر من هذه الأخبار أن الراجح - بل اللازم - لكل مؤمن أن يكون له مكسب طيب يحصل منه ما يحتاج إليه من الرزق وغيره من المخارج المحمودة، وقد صرح بذلك في أخبار كثيرة أخر، قال أمير المؤمنين (ع): أوحى الله - عز وجل - إلى داود (ع): إنك نعم العبد لولا أنكم تأكل من بيت المال ولا تعمل بيدك شيئا، قال: فبكى داود أربعين صباحا، فأوحى الله - عز وجل - إلى الحديد أن لن لعبدي داود، فألان الله له الحديد، وكان يعمل كل يوم درعا فيبيعها بألف درهم، فعمل ثلثمائة وستين درعا فباعها بثلثمائة وستين ألفا، واستغنى عن بيت المال . وقال الصادق عليه السلام من أحبنا أهل البيت فليأخذ من الفقر جلبابا أو تجفافا ،
ص ١٦

والجلباب: كناية عن الستر على فقره، والتجفاف (١١)، كناية عن كسب طيب يدفع فقره. وقيل له في رجل قال: لأقعدن في بيتي، ولأصلين، ولأصومن، ولأعبدن ربي، فأما رزقي فسيأتيني: قال أبو عبد الله: هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم . وهذا - أي ملكة تحصيل المال الحلال من المكاسب الطيبة وصرفها في المخارج المحمودة - هو الحرية بأخذ المعنيين، إذ للحرية إطلاقان: (أحدهما) ذلك، وهو الحرية بالمعنى الأخص، (وثانيهما) التخلص عن أسر الهوى وعبودية القوة الشهوية، وهو الحرية بالمعنى الأعم المرادفة، وضده الرقية بالمعنى الأعم الذي هو طاعة الشهوة ومتابعة الهوى. وضد الأول - أعني الرقية بالمعنى الأخص - هو افتقاره إلى الناس فيما يحتاج إليه من الرزق، وإلقاء نظره إلى أيديهم، وحوالة رزقه على أموالهم إما على وجه محرم، كالغضب والنهب والسرقة وأنواع الخيانات، أو غير محرم، كأخذ وجوه الصدقات وأوساخ الناس، بل مطلق الأخذ منهم إذا جعل يده يدا سفلى ويدهم يدا عليا. ولا ريب في كون الرقية بهذا المعنى مذمومة، إذ الوجه (الأول) محرم في الشريعة وموجب للهلاك الأبدي، والوجه (الثاني) وإن لم يكن محرما إذا كان فقيرا مستحقا، إلا أنه لا يجابه التوقع من الناس وكون نظره إليهم يقتضي المذلة والانكسار والتخضع للناس والرقية والعبودية لهم، وهذا يرفع الوثوق بالله والاعتماد والتوكل عليه، ينجز ذلك إلى سلب التوكل على الله بالكلية، وترجيح المخلوق على الخالق، وهذا ينافي مقتضى الإيمان والمعرفة الواقعية بالله سبحانه.

فصل الدنيا المذمومة هي الهوى up

قد ظهر مما ذكر: أن الدنيا المذمومة حظ نفسك الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة، ويعبر عنه بالهوى، وإليه أشار قوله تعالى:

(هامش)

(

١١) التجفاف: آلة للحرب يتقى بها كالدرع. وعن تفسير أمثال هذا الحديث راجع الجزء الأول من المجلد الخامس عشر من البحار ص ٦٥، ففيه تفصيل معناه. وقد نقل عن ابن الأثير في النهاية، وابن أبي الحديد في شرحه: كلاما في هذا الباب. (*)

ص ١٧

ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى (١٢). ومجامع الهوى هي المذكورة في قوله تعالى: إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد (١٣). والأعيان التي تحصل منها هذه الأمور هي المذكورة في قوله سبحانه: زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب (١٤). فهذه أعيان الدنيا، وللعبد معها علاقتان: (علاقة مع القلب): وهي حبه لها وحظه منها وانصراف همه إليها، حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بها، ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المتعلقة بالدنيا: كالرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة والحسد والحقد والغل والكبر وحب المدح والتفاخر والتكاثر. فهذه هي الدنيا الباطنة، والظاهرة هي الأعيان المذكورة. و(علاقة مع البدن): وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره، وهذا الاشتغال عبارة عن الصناعات والحرف التي اشتغل الناس بها، بحيث أنستهم أنفسهم وخالقهم وأغفلتهم عما خلقوا لأجله ولو عرفوا سبب الحاجة إليها واقتصروا على قدر الضرورة، لم يستغرقهم اشتغال الدنيا والانهماك فيها، ولما جهلوا بالدنيا وحكمتها وحظهم منها لم يقتصروا على قدر الاحتياج، فأوقعوا أنفسهم في أشغالها، وتتابعت هذه الأشغال واتصلت بعضها ببعض، وتداعت إلى غير نهاية محدودة، فغفلوا عن مقصودها، وتاهوا في كثرة الأشغال.

فإن أمور الدنيا لا يفتح منها باب إلا وتنفتح لأجله عشرة أبواب أخر، وهكذا يتداعى إلى غير حد محصور وكأنها هاوية لا نهاية لعمقها، ومن وقع في مهواة منها سقط منها إلى أخرى

(هامش)

(١٢) النازعات، الآية: ٤٠. (١٣) الحديد، الآية: ٢٠. (١٤) آل عمران، الآية: ١٤. ج: ٢ (*)

ص ١٨

.. وهكذا على التوالي، ألا ترى إن ما يضطر إليه الإنسان بالذات منحصر بالمأكل والملبس والمسكن؟ ولذلك حدثت الحاجة إلى خمس صناعات هي أصول الصناعات: الفلاحة، والرعاية للمواشي، والحياكة، والبناء، والاقتناص - أي تحصيل ما خلق الله من الصيد

والمعادن والحشائش والأحطاب - وتترتب على كل من هذه الصناعات صناعات أخر، وهكذا إلى أن حدثت جميع الصناعات التي تراها في العالم، وما من أحد إلا وهو مشتغل بواحدة منها أو أكثر إلا أهل البطالة والكسالة، حيث غفلوا عن الاشتغال في أول الصبا، أو منعهم مانع واستمروا على غفلتهم وبطالتهم، حتى نشأوا بلا شغل واكتساب، فاضطروا إلى الأخذ مما يسعى فيه غيرهم ولذلك حدثت حرفتان خبيثتان هي (اللصوصية) و(الكدية) (١٥)، ولكل واحد منهما أنواع غير محصورة لا تخفى على المتأمل.

فصل ذم الدنيا وأنها عدوة الله والانسان up

إعلم أن الدنيا عدوة لله ولأوليائه ولأعدائه: أما عداوتها لله، فإنها قطعت الطريق على العبادة، ولذلك لم ينظر إليها مذ خلقها، كما ورد في الأخبار (١٦). وأما عداوتها لأوليائه وأحبائه، فإنها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها، حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها. وأما عداوتها لأعدائه، فإنها استدرجتهم بمكرها ومكيدتها واقتنصتهم بشباكها وحبائلها حتى وثقوا بها وعولوا عليها، فاجتبوا منها حيرة وندامة تنقطع دونها الأكباد، ثم حرمتهم عن السعادة أبد الآباد، فهم على فراقها يتحسرون، ومن مكائدها يستغيثون ولا يغاثون، بل يقال لهم: إخسؤا فيها ولا تكلمون (١٧). أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون (١٨). والآيات الواردة في ذم الدنيا وحبها كثيرة، وأكثر القرآن مشتمل

(هامش)

(١٥) قال في المنجد: الكدية: الاستعطاء وحرفة السائل الملح. (١٦) سيأتي الخبر بهذا المعنى - ص ٢٥ - وهو عامي. (١٧) المؤمنون، الآية: ١٠٩. (١٨) البقرة، الآية: ٨٦. (*)

ص ١٩

على ذلك وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة، بل هو المقصود من بعثة الأنبياء، فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها. فلنشر إلى نبذة من الأخبار الواردة في ذم الدنيا وحبها وفي سرعة زوالها، قال رسول الله (ص): لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء . وقال رسول الله (ص): الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها . وقال (ص): الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر . وقال (ص): من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء، وألزم الله قلبه أربع خصال: هما لا ينقطع عنه أبدا، وشغلا لا يتفرغ منه أبدا، وفقرا لا ينال غناه أبدا، وأملا لا يبلغ منتهاه أبدا . وقال - صلى الله عليه وآله -: يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور! . وقال (ص): لتأتينكم بعدي دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب . وقال: ألهاكم التكاثر، يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأبقيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟ . وقال: أوحى الله - تعالى - إلى موسى: لا تركنن إلى حب الدنيا، فلن تأتين بكبيرة هي أشد عليك منها . وقال (ص): حب الدنيا رأس كل خطيئة . وقال (ص): من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه. فآثروا ما يبقى على ما يفنى . ومر (ص) على مزبلة، فوقف عليها وقال: هلموا إلى الدنيا! وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة وعظاما قد نخرت، فقال: هذه الدنيا! . وقال (ص): إن الله لم يخلق خلقا أبغض إليه من الدنيا، وإنه لم ينظر إليها منذ خلقها . (ص): الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادي من لا علم عنده، وعليها يحسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له . وقال (ص): لما هبط آدم من الجنة إلى الأرض قال له: ابن للخراب ولد للفناء .

وقال (ص): لتجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة، فيؤمر بهم إلى النار ، فقيل: يا رسول الله! أمصلين؟ قال: نعم،! كانوا يصومون ويصلون ويأخذون هنيئة من الليل، فإذا عرض

ص ٢٠

لهم من الدنيا شيء وثبوا عليه . وقال (ص): هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرا؟ ألا إنه من رغب في الدنيا وطال فيها أمله أعمى الله قلبه على قدر ذلك، ومن زهد في الدنيا وقصر أمله فيها أعطاه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية . وقال (ص): فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم . وقال: أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض ، فقيل: ما بركات الأرض؟ قال: زهرة

الدنيا . وقال (ص): دعوا الدنيا لأهلها، من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر . وقال (ص): سيأتي قوم بعدي يأكلون أطايب الطعام وأنواعها، وينكحون أجمل النساء وألوانها، ويلبسون ألين الثياب وألوانها، ويركبون أقوى الخيل وألوانها، لهم بطون من القليل لا تشبع، وأنفس بالكثير لا تقنع، عاكفين على الدنيا، يغدون ويروحون إليها، اتخذوها آلهة دون إلههم وربا دون ربهم إلى أمرهم ينتهون وهواهم يلعبون، فعزيمة من محمد بن عبد الله لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبكم وخلف خلفكم أبدا لا يسلم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتبع جنائزهم ولا يوقر كبيرهم، ومن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام . وقال (ص): ما لي وللدنيا وما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثلها كمثل راكب سار في يوم صائف، فرفعت له شجرة، فقال تحت ظلها ساعة، ثم راح وتركها . وقال (ص): إحذروا الدنيا، فإنها أسحر من هاروت وماروت . وقال (ص): حق على الله ألا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه .

وقال عيسى بن مريم (ع): ويل لصاحب الدنيا! كيف يموت ويتركها، ويأمنها وتغره، ويثق بها وتخذله، ويل للمغترين! كيف ألزمهم ما يكرهون، وفارقهم ما يحبون، وجاءهم ما يوعدون ويل لمن أصبحت الدنيا همه والخطايا عمله! كيف يفتضح غدا بذنبه . وقال (ع): من ذا الذي يبني على أمواج البحر دارا تلكم الدنيا، فلا تتخذوها قرارا . وقال (ع): لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد . وأوحى الله - تعالى -

ص ٢١

إلى موسى: يا موسى! ما لك ولدار الظالمين! إنها ليست لك بدار، أخرج منها همك وفارقها بعقلك فبئست الدار هي، إلا لعامل يعمل فيها فنعمت الدار هي، يا موسى! إني مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم . وأوحى إليه: يا موسى! لا تركنن إلى حب الدنيا، فلن تأتين بكبيرة هي أشد منها . ومر موسى (ع) برجل وهو يبكي، ورجع وهو يبكي، فقال موسى: يا رب! عبدك يبكي من مخافتك ، فقال تعالى: يا بن عمران! لو نزل دماغه مع عينيه ورفع يديه حتى يسقطا لم أغفر له وهو يحب الدنيا! . وقال أمير المؤمنين (ع) - بعد ما قيل له صف لنا الدنيا -: وما أصف لك من دار من صح فيها سقم، ومن أمن فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها افتتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها العقاب . وقال (ع): إنما مثل الدنيا كمثل الحية، ما ألين مسها وفي جوفها السم الناقع، يحذرها الرجل العاقل ويهوى إليها الصبي الجاهل . وقال في وصف الدنيا: ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها فاتته، ومن قعد عنها أتته، ومن بصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته . وقال عليه السلام في بعض مواعظه: ارفض الدنيا، فإن حب الدنيا يعمي ويصم ويبكم ويذل الرقاب، فتدارك ما بقي من عمرك، ولا تقل غدا وبعد غد، فإنما هلك من كان قبلك بإقامتهم على الأماني والتسويف حتى أتاهم أمر الله بغتة وهم غافلون، فنقلوا على أعوادهم إلى قبورهم المظلمة الضيقة، وقد أسلمهم الأولاد والأهلون، فانقطع إلى الله بقلب منيب من رفض الدنيا وعزم ليس فيه انكسار ولا انخزال .

وقال عليه السلام لتغرنكم الحياة الدنيا، فإنها دار بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة، فكل ما فيها إلى زوال، وهي بين أهلها دول وسجال، لا تدوم أحوالها، ولا يسلم من شرها نزالها، بينا أهلها منها في رخاء وسرور إذا هم منها في بلاء وغرور، أحوال مختلفة، وتارات متصرمة، العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها، وتفنيهم بحمامها. واعلموا عباد الله إنكم وما أنتم فيه من

ص ٢٢

هذه الدنيا على سبيل من قد مضى، ممن كان أطول منكم أعمارا، وأشد منكم بطشا، وأعمر ديارا وأبعد آثارا، فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلبها، وأجسادهم بالية، وديارهم على عروشها خاوية، وآثارهم عافية، استبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والنمارق الممهدة الصخور والأحجار المسندة في القبور اللاطئة الملحدة، فحلها مقترب، وساكنها مغترب، بين أهل عمارة موحشين، وأهل محلة متشاغلين، لا يستأنسون بالعمران، ولا يتواصلون تواصل الجيران والأخوان، على ما بينهم من قرب الجوار ودنو الدار، وكيف يكون بينهم تواصل، وقد طحنهم بكلكله البلاء، وأكلتهم الجنادل، والثرى، وأصبحوا بعد الحياة أمواتا، وبعد نضارة العيش رفاتا، فجع بهم الأحباب، وسكنوا تحت التراب، وظعنوا فليس لهم إياب، هيهات هيهات! كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون

(١٩). فكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلى والوحدة في دار المثوى، وارتهنتم في ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع، وكيف بكم لو عاينتم الأمور، وبعثرت القبور، وحصل ما في الصدور، وأوقفتم للتحصيل بين يدي الملك الجليل، فطارت القلوب لإشفاقها منم سالف الذنوب، وهتكت عنكم الحجب والأستار، فظهرت منكم العيوب والأسرار، هنا لك. تجزى كل نفس بما كسبت (٢٠). وقال أيضا عليه السلام في بعض خطبه: أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم، وإن كنتم لا تحبون تركها، المبلية أجسامكم، وأنتم تريدون تجديدها، فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقا، وكأنهم قد قطعوه، وأفضوا إلى علم، فكأنهم قد بلغوه، وكم عسى أن يجري المجرى حتى ينتهي إلى الغاية، وكم عسى أن يبقى من له يوم في الدنيا، وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها، فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال، عجبت لطالب الدنيا والموت

(هامش)

(١٩) المؤمنون، الآية: ١٠١. (٢٠) المؤمن، الآية: ١٧. (*)

ص ٢٣

يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه . وقال السجاد عليه السلام: إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، إلا وكونوا من الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، إلا أن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الأرض بساطا والتراب فراشا والماء طيبا، وقرضوا من الدنيا تقريضا، ألا ومن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصائب، إلا أن لله عبادا كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين وكمن رأى أهل النار في النار معذبين، شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة أنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا أياما قليلة، فصاروا بعقبى راحة طويلة، أما الليل فصافون أقوامهم، تجري دموعهم على خدودهم، وهم يجأرون إلى ربهم، يسعون في فكاك رقابهم، وأما النهار فحلماء علماء بررة أتقياء كأنهم القداح، قد براهم الخوف من العبادة، ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى، وما بالقوم من مرض، أم خولطوا، فقد خالط القوم أمر عظيم من ذكر النار وما فيها . وقال عليه السلام: ما من عمل بعد معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله (ص) أفضل من بغض الدنيا، فإن لذلك لشعبا كثيرة وللمعاصي شعبا. فأول ما عصي الله به الكبر معصية إبليس حين أبى واستكبر وكان من الكافرين. ثم الحرص، وهي معصية آدم وحواء حين قال الله عز وجل لهما: فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (٢١). فأخذا ما لا حاجة بهما إليه، فدخل ذلك على ذريتهما إلى يوم القيامة وذلك أن أكثر ما يطلب ابن آدم ما لا حاجة به إليه. ثم الحسد، وهو معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله، فتشعب من ذلك حب النساء وحب الدنيا، وحب الرئاسة، وحب الراحة وحب الكلام وحب العلو والثروة، فصرن سبع خصال، فاجتمعن كلهن في حب الدنيا.

فقال الأنبياء العلماء - بعد معرفة ذلك -: حب الدنيا رأس كل خطيئة، والدنيا دنيا آن:

(هامش)

(٢١) الأعراف، الآية: ١٩. (*)

ص ٢٤

دنيا بلاغ ودنيا ملعونة . وقال الباقر عليه السلام لجابر: يا جابر! إنه من دخل قلبه صافي خالص دين الله شغل قلبه عما سواه، يا جابر! ما الدنيا وما عسى أن تكون الدنيا؟! هل هي الاطعام أكلته، أو ثوب لبسته أو امرأة أصبتها؟ يا جابر! إن المؤمنين لم يطمأنوا إلى الدنيا ببقائهم فيها ولم يأمنوا قدومهم الآخرة. يا جابر! الآخرة دار قرار، والدنيا دار فناء وزوال، ولكن أهل الدنيا أهل غفلة، وكان المؤمنون هم الفقهاء أهل فكرة وعبرة، لم يصمهم عن ذكر الله جل اسمه ما سمعوا بآذانهم، ولم يعمهم عن ذكر الله ما رأوا من الزينة بأعينهم، ففازوا بثواب الآخرة كما فازوا بذلك العلم (٢٢). وقال الصادق عليه السلام: مثل الدنيا كمثل ماء البحر، كلما شرب منه العطشان ازداد عطشا حتى يقتله . وقال: فيما ناجى الله عز وجل به موسى: يا موسى! لا تركن إلى الدنيا ركون الظالمين وركون من اتخذها أبا وأما. يا موسى! لو وكلتك إلى نفسك لتنظر لها إذن لغلب عليك حب الدنيا وزهرتها. يا موسى! نافس في الخير أهله واستبقهم إليه فإن الخير كاسمه، واترك من الدنيا ما بك الغنى عنه، ولا تنظر عينك إلى كل مفتون بها وموكل إلى نفسه، واعلم أن كل فتنة بدؤها حب الدنيا، ولا تغبط أحدا بكثرة المال، فإن مع كثرة المال تكثر الذنوب لواجب الحقوق ولا تغبطن أحدا يرضى الناس عنه، حتى

تعلم أن الله راض عنه، ولا تغبطن مخلوقا بطاعة الناس له، فإن طاعة الناس له واتباعهم إياه على غير الحق هلاك له ولمن تبعه .
وأوحى الله تعالى إلى موسى وهرون لما أرسلهما إلى فرعون: لو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا، يعرف فرعون حين يراها أن مقدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت، ولكني أرغب لكما عن ذلك وأزوي ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، إني لأزويهم عن نعيمها، كما يزوي الراعي الشفيق غنمه عن مواقع الهلكة، وإني لأجنبهم عيش سلوتها، كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مواقع الغرة، وما ذلك لهوانهم علي، ولكن
(هامش)
(٢٢) صححنا الحديث على الكافي في باب ذم الدنيا، وصدر الحديث هكذا: قال جابر: دخلت على أبي جعفر - عليه السلام - فقال: يا جابر! والله لمحزون! وإني لمشغول القلب، قلت فداك! وما شغلك وما حزن قلبك... إلى آخر الحديث. (*)
ص ٢٥
ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالما موفورا، إنما يتزين إلي أوليائي: بالذل والخشوع والخوف والتقوى . وقال الكاظم عليه السلام: قال أبو ذر - رحمه الله -: جزى الله الدنيا عن مذمة بقدر رغيفين من الشعير، أتغدى بأحدهما وأتعشى بالآخر، وبعد شملتي الصوف، أتزر بإحداهما وأتردى بالأخرى . وقال لقمان لابنه: يا بني! بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعا . وقال له: يا بني! إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها ناس كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل وحشوها الإيمان، وشراعها التوكل على الله، لعلك ناج وما أراك ناجيا . وقال: يا بني! إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم، فلم يبق ما جمعوا ولم يبق من جمعوا له، وإنما أنت عبد مستأجر قد أمرت بعمل ووعدت عليه أجرا، فاوف عملك واستوف أجرك، ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتى سمنت، فكان حتفها عند سمنها، ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها وتركتها، ولم ترجع إليها آخر الدهر، أخربها ولا تعمر، فإنك لم تؤمر بعمارتها، واعلم أنك ستسأل غدا إذا وقفت بين يدي الله - عز وجل - عن أربع: شبابك فيما أبليته. وعمرك فيما أفنيته: ومالك مما اكتسبته، وفيما أنفقته فتأهب لذلك، وأعد له جوابا، ولا تأس على ما فاتك من الدنيا. قال قليل الدنيا لا يدوم بقاؤه، وكثيرها لا يؤمن بلاؤه، فخذ حذرك وجد في أمرك واكشف الغطاء عن وجهك، وتعرض لمعروف ربك، وجدد التوبة في قلبك واكمش في فراغك قبل أن يقصد قصدك، ويقضى قضاؤك، ويحال بينك وبين ما تريد . وقال بعض الحكماء: الدنيا دار خراب، وأخرب منها قلب من يعمرها. والجنة دار عمران، وأعمر منها قلب من يعمرها . وقال بعضهم، الدنيا لمن تركها، والآخرة لمن طلبها .
وقال بعضهم: إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك، ويكون له أهل بعدك، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداء يوم، فلا تهلك نفسك في أكلة، وصم الدنيا، وأفطر على الآخرة، فإن رأس مال الدنيا الهوى، وربحها النار .
ص ٢٦
وقال بعض أكابر الزهاد: الدنيا تخلق الأبدان، وتجدد الآمال، وتقرب المنية، وتبعد الأمنية، ومن ظفر بها تعب، ومن فاتته نصب . وقال بعضهم: ما في الدنيا شيء يسرك إلا وقد التزق به شيء يسؤك . وقال آخر: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث: إنه لم يشبع مما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما قدم عليه . وقال حكيم: كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب ولا أكون فيها، فكيف أسكن إليها؟ فإن عيشها نكد، وصفوها كدر، وأهلها منها على وجل، إما بنعمة زائلة، أو بلية نازلة، أو منية قاضية . وقال بعض العرفاء: الدنيا حانوت الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئا، فيجئ في طلبك ويأخذك . وقال بعضهم: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى، لكان ينبغي أن يختار العاقل خزفا يبقى على ذهب يفنى، فكيف والآخرة ذهب يبقى والدنيا أدون من خزف يفنى؟ وقد ورد: إن العبد إذا كان معظما للدنيا، يوقف يوم القيامة، ويقال: هذا عظم ما حقره الله . وروي: أنه لما بعث النبي (ص) أتت إبليس جنوده، فقالوا: قد بعث نبي وأخرجت أمة، قال: يحبون الدنيا؟ قالوا: نعم! قال: إن كانوا يحبونها ما أبالي ألا يعبدوا الأوثان، وأنا أغدو عليهم وأروح بثلاثة: أخذ المال من غير حقه، وإنفاقه في غير حقه، وإمساكه عن حقه، والشر كله لهذا تبع . وروي: إنه أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: إحذر مقتك، فتسقط من عيني، فأصب عليك الدنيا صبا . وقال بعض

الصحابة: ما أصبح أحد من الناس في الدنيا إلا وهو ضيف، وماله عارية. فالضيف مرتحل، والعارية مردودة . وقال بعضهم: إن الله جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن وجزء للمنافق، وجزء للكافر.
فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع . وقيل: من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها حتى يصير رمادا، ومن أقبل على الآخرة صفته نيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع بها، ومن أقبل على الله سبحانه، أحرقته نيران التوحيد، فصار جوهرا لا حد لقيمته . وقيل أيضا: العقلاء ثلاثة: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وارتضى خالقه قبل أن يلقاه . وسأل بعض الأمراء رجلا
ص ٢٧
بلغ عمره مائتي سنة عن الدنيا، فقال: سنيات بلاء، وسنيات رخاء، يوم فيوم، وليلة فليلة، يولد ولد، ويهلك هالك، فلولا المولود باد الخلق، ولولا الهالك لضاقت الدنيا بمن فيها ، فقال له الأمير: سل ما شئت قال: أريد منك أن ترد علي ما مضى من عمري، وتدفع عني ما حضر من أجلي ، قال: لا أملك ذلك، قال: فلا حاجة لي عليك . والأخبار والآثار في ذم الدنيا وحبها، وفي سرعة زوالها وعدم الاعتبار بها، وفي هلاك من يطلبها ويرغب إليها، وفي ضديتها للآخرة، أكثر من أن تحصى. وما ورد في ذلك من كلام أئمتنا الراشدين، (لا) سيما عن مولانا أمير المؤمنين - صلوات الله عليهم أجمعين إلى يوم الدين - فيه بلاغ لقوم زاهدين. ومن تأمل في خطب علي (ع) ومواعظه - كما في نهج البلاغة وغيره - يظهر له خساسة الدنيا ورذالتها. وقضية السؤال والجواب بين روح الأمين ونوح في كيفية سرعة زوال الدنيا مشهورة، وحكاية مرور روح الله على قرية هلك أهلها من حب الدنيا معروفة (٢٣). ولعظم آفة الدنيا وحقارتها ومهانتها عند الله، لم يرضها لأحد من أوليائه، وحذرهم عن غوائلها، فتزهدوا فيها وأكلوا منها قصدا، وقدموا فضلا. أخذوا منها ما يكفي، وتركوا ما يلهي. ولبسوا من الثياب ما ستر العورة، وأكلوا من الطعام ما سد الجوع. نظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية، وإلى الآخرة أنها باقية، فتزودوا منها كزاد الراكب، فخربوا الدنيا وعمروا بها الآخرة، ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنهم سينظرون إليها بأعينهم، فارتحلوا إليها بقلوبهم لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم. صبروا قليلا ونعموا طويلا.
فصل خسائس صفات الدنيا up
إعلم أن للدنيا صفات خسيسة قد مثلت في كل صفة بما تماثله فيها: فمثالها في سرعة الفناء والزوال وعدم الثبات: مثل النبات الذي اختلط به ماء السماء فاخضر، ثم أصبح هشيما تذروه الرياح، أو كمنزل
(هامش)
(
٢٣) ذكرها (الكافي) عن أبي عبد الله الصادق (ع) في باب حب الدنيا بتمامها. (*)
ص ٢٨
نزلته ثم ارتحلت عنه، أو كقنطرة تعبر عنها ولا تمكث عليها. وفي كونها مجرد الوهم والخيال، وكونها مما لا أصل لها ولا حقيقة، كفيء الظلال، أو خيالات المنام وأضغاث الأحلام، فإنك قد تجد في منامك ما تهواه، فإذا استيقظت ليس معك منه شيء. وفي عداوتها لأهلها وإهلاكها إياهم: بامرأة تزينت للخطاب، حتى إذا نكحتهم ذبحتهم. فقد روي: أن عيسى (ع) كوشف بالدنيا، فرآها في صورة عجوز شمطاء هتماء عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى (ع): بؤسا لأزواجك الباقين، كيف لا يعتبرون بالماضين؟ كيف تهلكينهم واحدا واحدا ولا يكونون منك على حذر؟! . وفي مخالفة باطنها لظاهرها: كعجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها. فإذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها، ظهرت لهم قبائحها. روي: أنه يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء، أنيابها بادية، مشوه خلقها، فتشرف على الخلائق، ويقال لهم: تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه! فيقال: هذه الدنيا التي تفاخرتم عليها، وبها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم وأغررتم، ثم يقذف بها في جهنم فتنادي: أي رب! أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله - عز وجل -: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها . وفي قصر عمرها لكل شخص بالنسبة إلى ما تقدمه من الأزل وما يتأخر عنه من الأبد: كمثل خطوة واحدة، بل أقل من ذلك، بالنسبة إلى سفر طويل، بل بالنسبة إلى كل مسافة الأرض أضعافا غير متناهية. ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن

إليها، ولم يبال كيف انقضت أيامه في ضيق وضر أو في سعة ورفاهية، بل لا يبني لبنة على لبنة. توفي سيد الرسل (ص) وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة. ورأى بعض أصحابه يبني بيتا من جص، فقال: أرى الأمر أعجل من هذا .

وإلى هذا أشار عيسى (ص) حيث قال: الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها . وفي نعومة ظاهرها وخشونة باطنها: مثل الحية التي يلين مسها

ص ٢٩

ويقتل سمها. وفي قلة ما بقي منها بالإضافة إلى ما سبق: مثل ثوب شق من أوله إلى آخره، فبقي متعلقا في آخره، فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع. وفي قلة نسبتها إلى الآخرة: كمثل ما يجعل أحد إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع إليه من الأصل. وفي تأدية علائقها بعض إلى بعض حتى ينجر إلى الهلاك: كماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشا حتى يقتله. وفي تأدية الحرص عليها إلى الهلاك غما: كمثل دودة القز كلما ازدادت على نفسها لفا كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غما. وفي تعذر الخلاص من تبعاتها واستحالة عدم التلوث بقاذوراتها بعد الخوض فيها كالماشي في الماء، فإنه يمتنع إلا تبتل قدماه. وفي نضارة أولها وخباثة عاقبتها: كالأطعمة التي تؤكل، فكما أن الطعام كلما كان ألذ طعما وأكثر دسومة كان رجيعة أقذر وأشد نتنا، فكذلك كل شهوة من شهوات الدنيا التي كانت للقلب أشهى وأقوى، فنتنها وكراهيتها والتأذي بها عند الموت أشد، وهذا مشاهد في الدنيا. فإن المصيبة والألم والتفجع في كل ما فقد بقدر الالتذاذ بوجوده وحرصه عليه وحبه له، ولذا ترى أن من نهبت داره وأخذت أهله وأولاده، يكون تفجعه وألمه أشد مما إذا أخذ عبد من عبيده، فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ، فهو عند الفقد أدهى وأمر، وما للموت معنى إلا فقد ما في الدنيا. وفي تنعم الناس بها ثم تفجعهم على فراقها: مثل طبق ذهب عليه بخور ورياحين، في دار رجل هيأه فيها، ودعا الناس على الترتيب واحدا بعد واحد ليدخلوا داره، ويشمه كل واحد وينظر إليه، ثم يتركه لمن يلحقه، لا ليتملكه ويأخذه، فدخل واحد وجهل رسمه، فظن أنه قد وهب ذلك له، فتعلق به قلبه، لما ظن أنه له، فلما استرجع منه ضجر وتألم، ومن كان عالما برسمه انتفع به وشكره ورده بطيب قلب وانشراح صدر.

فكذلك من عرف سنة الله في الدنيا، علم أنها دار ضيافة سبلت على المجتازين لينتفعوا بما فيها، كما ينتفع المسافر بالعواري، ثم يتركوها ويتوجهوا إلى مقصدهم

ص ٣٠

من دون صرف قلوبهم إليها، حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها، ومن جهل سنة الله فيها، ظن أنها مملوكة له، فيتعلق بها قلبه، فلما أخذت منه عظمت بليته واشتدت مصيبته. وفي اغترار الخلق بها وضعف إيمانهم بقوله تعالى في تحذيره إياهم غوائلها: كمفازة غبراء لا نهاية لها، سلكوها قوم وتاهوا فيها بلا زاد وماء وراحلة، فأيقنوا بالهلاك، فبينا هم كذلك إذ خرج عليهم رجل وقال أرأيتم إن هديتكم إلى رياض خضر وماء رواء ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك في شيء. فأخذ منهم عهودا ومواثيق على ذلك، فأوردهم ماء رواء ورياضا خضراء، فمكث فيهم ما شاء الله، ثم قال: الرحيل! قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم، وإلى رياض ليست كرياضكم. فقال أكثرهم: لا نريد عيشا خيرا من هذا، فلم يطيعوه. وقالت طائفة - وهم الأقلون -: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله ألا تعصوه، وقد صدقكم في أول حديثه؟ فوالله إنه صادق في هذا الكلام أيضا! فاتبعه هذا الأقل، فذهب فيهم إلى أن أوردهم في ماء ورياض أحسن بمراتب شتى مما كانوا فيه أولا، وتخلف عنه الأكثرون، فبدرهم عدو، فأصبحوا من بين قتيل وأسير.

تذنيب: تشبيهات الدنيا وأهلها up

قد شبه بعض الحكماء حال الإنسان واغتراره بالدنيا، وغفلته عن الموت وما بعده من الأهوال، وانهماكه في اللذات العاجلة الفانية الممتزجة بالكدورات: بشخص مدلي في بئر، مشدود وسطه بحبل، وفي أسفل ذلك البئر ثعبان عظيم متوجه إليه، منتظر سقوطه، فاتح فاه لالتقامه، وفي أعلى ذلك البئر جرذان أبيض وأسود، لا يزالان يقرضان ذلك الحبل شيئا فشيئا، ولا يفتران عن قرضه آنا من الآنات، وذلك الشخص، مع أنه يرى ذلك الثعبان ويشاهد انقراض الحبل آنا فآنا، قد أقبل على قليل عسل قد لطخ به جدار ذلك البئر وامتزج بترابه واجتمعت عليه زنابير كثيرة، وهو مشغول بلطعة منهمك فيه، ملتذ بما أصاب منه مخاصم

ص ٣١

لتلك الزنابير عليه، قد صرف باله بأجمعه إلى ذلك، غير ملتفت إلى ما فوقه وإلى ما تحته. فالبئر هو الدنيا، والحبل هو العمر، والثعبان الفاتح فاه هو الموت، والجرذان الليل والنهار القارضان للعمر، والعسل المختلطة بالتراب هو لذات الدنيا الممتزجة بالكدورات والآلام، والزنابير هم أبناء الدنيا المتزاحمون عليها. وشبه بعض العرفاء الدنيا وأهلها، في اشتغالهم بنعيمها وغفلتهم عن الآخرة، وحسراتهم العظيمة بعد الموت، من فقدهم نعيم الجنة بسبب انغمارهم في خسائس الدنيا: بقوم ركبوا السفينة، فانتهت بها إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة، وحذرهم المقام فيها، وخوفهم مرور السفينة واستعجالها، فتفرقوا في نواحي الجزيرة، فقضى بعضهم حاجته، وبادر إلى السفينة، فصادف المقام خاليا، فأخذ أوسع الأماكن وأوفقها بمراده. وبعضهم توقف في الجزيرة، واشتغل بالنظر إلى أزهارها وأنوارها وأشجارها وأحجارها ونغمات طيورها، ثم تنبه لخطر فوات السفينة، فرجع إليها، فلم يصادف إلا مكانا ضيقا، فاستقر فيه. وبعضهم، بعد التنبه لخطر مرور السفينة، لما تعلق قلبه ببعض أحجار الجزيرة وأزهارها وثمارها، لم تسمح نفسه بإهمالها، فاستصحب منها جملة ورجع إلى السفينة، فلم يجد فيها إلا مكانا ضيقا لا يسعه إلا بالتكلف والمشقة، وليس فيه مكان لوضع ما حمله، فصار ذلك ثقلا عليه ووبالا، فندم على أخذها، ولم يقدر على رميها، فحملها في السفينة على عنقه متأسفا على أخذها، وبعضهم اشتغل بمشاهدة الجزيرة، بحيث لم يتنبه أولا من خطر مرور السفينة ومن نداء الملاح، حتى امتلأت السفينة، فتنبه أخيرا ورجع إليها، مثقلا بما حمله من أحجار الجزيرة وحشائشها، ولما وصل إلى شاطئ البحر سارت السفينة ولم يجد فيها موضعا أصلا، فبقي على شاطئ البحر.

وبعضهم لكثرة الاشتغال بمشاهدة الجزيرة وما فيها نسوا المركب بالمرة، ولم يبلغهم النداء أصلا، لكثرة انغمارهم في أكل الثمار وشرب المياه والتنسم بالأنوار والأزهار والتفرج بين الأشجار، فسارت السفينة وبقوا في الجزيرة من دون تنبههم بخطر مرورها، فتفرقوا فيها، فبعضهم نهشته العقارب والحيات، وبعضهم

ص ٣٢

افترسته السباع، وبعضهم مات في الأوحال، وبعضهم هلك من الندامة والحسرة والغصة. وأما من بقي على شاطئ البحر فمات جوعا، وأما من وصل إلى المركب مثقلا بما أخذه، فشغله الحزن بحفظها والخوف من فوتها وقد ضيق عليه مكانه، فلم يلبث أن ذبلت ما أخذه من الأزهار، وعفنت الثمار، وكمدت ألوان الأحجار، فظهر نتن رائحتها، فتأذى من نتن رائحتها ولم يقدر على إلقائها في البحر لصيرورتها جزءا من بدنه، وقد أثر فيه ما أكل منها، ولم ينته إلى الوطن إلا بعد إحاطة الأمراض والأسقام عليه لأجل ما لم ينفك عنه من النتن، فبلغ إليه سقيما مدنفا، فبقي على سقمه أبدا، أو مات بعد مدة. وأما من رجع إلى المركب بعد تضيق المكان، فما فاته إلا سعة المحل، فتأذى، بضيق المكان مدة، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح ومن رجع إليه أولا ووجد المكان الأوسع فلم يتأذ من شيء أصلا ووصل إلى الوطن سالما. فهذا مثال أصناف أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونسيانهم وطنهم الحقيقي، وغفلتهم عن عاقبة أمرهم. وما أقبح بالعاقل البصير أن تغره بأحجار الأرض وهشيم النبت،: مع مفارقته عند الموت وصيرورته كلا ووبالا عليه.

فصل عاقبة حب الدنيا وبغضها up

إعلم أنه لا يبلغ مع العبد عند الموت إلا صفاء القلب، أعني ظهارته عن أدناس الدنيا وحبه لله وأنسه بذكره، وصفاء القلب وطهارته لا يحصل إلا بالكف عن شهوات الدنيا، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة، والمعرفة لا تحصل إلا بدوام الفكرة، والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله والمواظبة عليه، وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت، وهي الباقيات الصالحات. أما طهارة القلب عن أدناس الدنيا، فهي الجنة بين العبد وبين عذاب الله، كما ورد في الخبر: إن أعمال العبد تناضل عنه، فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه، وإذا جاء من قبل يديه جاءت الصدقة تدفع عنه... الحديث.

ص ٣٣

وأما الحب والأنس، فهما يوصلان العبد إلى لذة المشاهدة واللقاء. وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت إلى أن يدخل الجنة، فيصير القبر روضة من رياض الجنة، وكيف لا يصل صاحب الصفات الثلاث بعد موته غاية البهجة ونهاية اللذة بمشاهدة جمال الحق، ولا يكون القبر عليه روضة من الرياض الخلد، ولم يكن له إلا محبوب واحد، وكانت العوائق تعوقه عن الأنس بدوام ذكره ومطالعة جماله، وبالموت ارتفعت العوائق وأفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه، فقدم عليه مسرورا سالما من الموانع آمنا من الفراق؟ وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبا ولم يكن له محبوب إلا الدنيا وقد غصبت منه وحيل بينه وبينها، وسدت عليه طرق الحيلة في

الرجوع إليه؟ وليس الموت عدما، إنما هو فراق لمحاب الدنيا وقدوم على الله، فإذن سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث، وهي: الذكر، والفكر، والعمل الذي يفطمه عن شهوات الدنيا ويبغض إليه ملاذها ويقطعه عنها. وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن، وصحة البدن لا تنال إلا بالقوت والملبس والمسكن، ويحتاج كل واحد إلى أسباب، فالقدر الذي لا بد منه من هذه الثلاثة إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا وكانت الدنيا في حقه مزرعة الآخرة، وإن أخذ ذلك على قصد التنعم وحظ النفس صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها. إلا أن الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الله في الآخرة، وسمي ذلك حراما، وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلى ويعرضه لطول الحساب، ويسمى ذلك حلالا. والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضا عذاب، فمن نوقش في الحساب عذب، ولذلك قال رسول الله (ص): في حلالها حساب وفي حرامها عقاب . بل لو لم يكن الحساب لكان ما يفوت عن الدرجات العلى في الجنة وما يرد على القلب من التحسر على تفويتها بحظوظ حقيرة خسيسة لابقاء لها، هو أيضا عذاب.

ويرشدك إلى ذلك حالك في الدنيا إذا نظرت إلى أقرانك، وقد سبقوك إلى السعادات الدنيوية، كيف ينقطع قلبك عليها حسرات، مع علمك بأنها سعادات متصرمة لا بقاء لها، ومنغصة بكدورات لا صفاء لها، فما حالك ج: ٢

ص ٣٤

في فوات سعادات لا يحيط الوصف بعظمتها وتنقطع الأذهان والدهور دون غايتها؟ وكل من تنعم في الدنيا، ولو بسماع صوت من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو بشربة ماء بارد، فهو ينقص من حظه في الآخرة، والتعرض لجواب السؤال فيه ذل، وحذر، وخوف، وخطر، ونجل، وانكسار، ومشقة، وانتظار، وكل ذلك من نقصان الحظ. فالدنيا - قليلها وكثيرها، حلالها وحرامها - ملعونة، إلا ما أعان على تقوى الله، فإن ذلك القدر ليس من الدنيا، وكل من كانت معرفته أقوى وأتم كان حذره من نعيم الدنيا أشد وأعظم، حتى أن عيسى (ع) وضع رأسه على حجر لما نام ثم رمى به، إذ تمثل له إبليس وقال: رغبت في الدنيا. وحتى أن سليمان عليه السلام في ملكه كان يطعم الناس من لذائذ الأطعمة وهو يأكل خبز الشعير، فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتحانا وشدة، فإن الصبر من لذيذ الأطعمة مع وجودها أشد. ولذا زوى الله تعالى الدنيا على نبينا (ص) فكان يطوي أياما، وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع، ولذا سلط الله المحن والبلاء على الأنبياء والأولياء، ثم الأمثل فالأمثل في درجات العلى. كل ذلك نظرا لهم وامتنانا عليهم، ليتوفر من الآخرة حظهم، كما يمنع الوالد المشفق ولده لذائذ الفواكه والأطعمة ويلزمه القصد والحجامة، شفقة عليه وحبا له لا بخلا به عليه. وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فليس من الدنيا. ثم الأشياء على أقسام ثلاثة: (الأول) ما لا يتصور أن يكون لله، بل من الدنيا صورة ومعنى، وهي أنواع المعاصي والمحظورات وأصناف التنعم بالمباحات، وهي الدنيا المحضة المذمومة على الإطلاق. (

الثاني) ما صورته من الدنيا، كالأكل والنوم والنكاح وأمثالها، ويمكن أن يجعل معناه لله، فإنه يمكن أن يكون المقصود منه حظ النفس، فيكون معناه كصورته أيضا من الدنيا، ويمكن أن يكون المقصود منه الاستعانة على التقوى، فهو لله بمعناه وإن كانت صورته صورة الدنيا، قال رسول الله (ص): من طلب من الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا لقي الله

ص ٣٥

وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافا عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر . (الثالثة) ما صورته لله، ويمكن أن يجعل معناه من الدنيا بالقصد، وهو ترك الشهوات، وتحصيل العلم، وعمل الطاعات والعبادات. فهذه الثلاث إذا لم يكن لها باعث سوى أمر الله واليوم والآخر فهي لله صورة ومعنى، ولم تكن من الدنيا أصلا، وإن كان الغرض منها حفظ المال والحمية والاشتهار بالزهد والورع وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة صار من الدنيا معنى وإن كان يظن بصورته أنه لله ومنها:

• حب المال up

وهو من شعب حب الدنيا، إذ حب الدنيا يتناول حب كل حظ عاجل، والمال بعض أجزاء الدنيا، كما أن الجاه بعضها، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها، وتشفي الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها، والكبر وطلب العلو بعضها. وبالجملة: لها أبعاض كثيرة يجمعها كل ما

للانسان فيه حظ عاجل، فآفات الدنيا كثيرة الشعب والأرجاء، واسعة الأرجاء والأكناف، ولكن أعظم آفاتها المتعلقة بالقوة الشهوية هو (المال)، إذ كل ذي روح محتاج إليه ولا غناء له عنه، فإن فقد حصل الفقر الذي يكاد أن يكون كفرا، وإن وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسرا، فهو لا يخلو من فوائد وآفات، وفوائده من المنجيات وآفاته من المهلكات، وتمييز خيرها وشرها من المشكلات، إذ من فقده تحصل صفة الفقر، ومن وجوده تحصل صفة الغناء، وهما حالتان يحصل بهما الامتحان. ثم (للفاقد) حالتان: القناعة، والحرص. وإحداهما محمودة والأخرى مذمومة. و(للحريص) حالتان: تشمر للحرف والصنائع مع اليأس عن الخلق، وطمع بما في أيديهم. وإحدى الحالتين شر من الأخرى. و(للواجد) حالتان: إمساك، وإنفاق. وأحدهما مذموم والآخر ممدوح. و(للمنفق) حالتان: إسراف، واقتصاد. والأول مذموم والثاني ممدوح. وهذه أمور متشابهة لا بد أولا من تمييزها، ثم الأخذ بمحمودها والترك
ص ٣٦
لمذمومها، حتى تحصل النجاة من غوائل المال وفتنتها. ومن هنا قال بعض الأكابر: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه. قيل وما رقيته؟ قال: أخذه من حله، ووضعه في حقه.

فصل ذم المال up

الكتاب والسنة متظاهران في ذم المال وكراهة حبه، قال الله سبحانه: يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون (٢٤). وقال: وأعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة (٢٥). وقال: المال والبنون زينة الحياة الدنيا... الآية (٢٦). وقال رسول الله (ص): حب المال والشرف ينبتان النفاق، كما ينبت الماء البقل . وقال (ص): ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فسادا من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم ، وقال: شر أمتي الأغنياء . وقال (ص): يقول الله - تعالى -: يا ابن آدم! مالي. مالي! وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟! وقال (ص): أخلاء ابن آدم ثلاثة: واحد يتبعه إلى قبض روحه وهو ماله، وواحد يتبعه إلى قبره وهو أهله، وواحد يتبعه إلى محشره وهو عمله . وقال (ص): يجاء بصاحب الدنيا الذي أطاع الله فيها وماله بين يديه، كلما يكفأ به الصراط قال له ماله: إمض وقد أديت حق الله في. ثم يجاء بصاحب الدنيا الذي لم يطع الله فيها وماله بين كفيه، كلما يكفأ به الصراط قال ماله: ويلك؟ ألا أديت حق الله في؟... فما يزال كذلك حتى يدعو بالثبور والويل . وقال (ص): إن الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم، وهما مهلكاكم . وقال (ص): لكل أمة عجل، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم . وقال (ص): يؤتى برجل يوم القيامة، وقد جمع مالا من حرام وأنفقه في حرام. فيقال: إذهبوا
(هامش)
(٢٤) المنافقون، الآية: ٩. (٢٥) الأنفال، الآية: ٢٨. (٢٦) الكهف، الآية: ٤٧. (*)
ص ٣٧
به إلى النار. ويؤتى برجل قد جمع مالا من حلال وأنفقه في حرام، فيقال: إذهبوا به إلى النار. ويؤتى برجل قد جمع مالا من حرام وأنفقه في حلال، فيقال اذهبوا به إلى النار. ويؤتى برجل قد جمع مالا من حلال وأنفقه في حلال، فيقال له: قف لعلك قصرت في طلب هذا بشيء مما فرضت عليك من صلاة لم تصلها لوقتها، وفرطت في شيء من ركوعها وسجودها ووضوئها فيقول: لا يا رب! كسبت من حلال وأنفقت في حلال، ولم أضيع شيئا مما فرضت، فيقال: لعلك إختلت في هذا المال في شيء من مركب أو ثوب باهيت به، لا يا رب! لم أختل ولم أباه في شيء، فيقال: لعلك منعت حق أحد أمرتك أن تعطيه من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فيقول: لا يا رب! لم أضيع حق أحد أمرتني أن أعطيه. فيجئ أولئك فيخاصمونه، فيقولون: يا رب. أعطيته وأغنيته وجعلته بين أظهرنا وأمرته أن يعطينا، فإن كان قد أعطاهم وما ضيع مع ذلك شيئا من الفرائض ولم يختل في شيء، فيقال: قف الآن هات شكر نعمة أنعمتها عليك من أكلة أو شربة أو لقمة أو لذة... فلا يزال يسأل . فليت شعري - يا أخي - إن الرجل الذي فعل في الحلال، وأدى الفرائض بحدودها، وقام بالحقوق كلها، إذا حوسب بهذه المحاسبة، فكيف يكون حال أمثالنا الغرقى في فتن الدنيا وتخاليطها، وشبهاتها وشهواتها وزينتها، فيا لها من مصيبة ما أفظعها، ورزية ما أجلها، وحسرة ما أعظمها! لا ندري ما تفعل بنا الدنيا

غدا في الموقف عندي يدي الجبار. ولخوف هذا الخطر قال بعض الصحابة: ما يسرني أن اكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقها في طاعة الله، ولم يشغلني الكسب عن صلاة الجماعة ، قالوا له: ولم ذلك رحمك الله؟ قال: لأني غني عن مقامي يوم القيامة، فيقول الله - عبدي من أين اكتسبت وفي أي شيء أنفقت؟ . فينبغي لكل مؤمن تقي ألا يتلبس بالدنيا، فيرضى بالكفاف، وإن كان معه فضل فليقدمه لنفسه، إذ لو بقي بعده لكان له مفاسد وآفات.

روي: أنه قال رجل: يا رسول الله، ما لي لا أحب الموت؟ فقال: هل معك من مال؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: قدم مالك أمامك، فإن قلب المؤمن مع

ص ٣٨

ماله، إن قدمه أحب أن يلحقه، وإن خلفه أحب أن يتخلف معه . ووضع أمير المؤمنين (ع) درهما على كفه، ثم قال: أما إنك ما لم تخرج عني لا تنفعني . وروي: إن أول ما ضرب الدينار والدرهم رفعهما إبليس، ثم وضعهما على جبهته، ثم قبلهما وقال: من أحبكما فهو عبدي حقا . وقال عيسى (ع): لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا، فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم . وقال بعض الأكابر: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته ، قيل: وما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كل . ثم جميع ما ورد في ذم الغنى ومدح الفقر - كما يأتي بعضه -، وجميع ما ورد في ذم الدنيا - كما تقدم بعضه - يتناول ذم المال، لأنه أعظم أركان الدنيا.

فصل الجمع بين ذم المال ومدحهup

إعلم أنه كما ورد ذم المال في الآيات والأخبار ورد مدحه فيهما أيضا، وقد سماه الله خيرا في مواضع، فقال: إن ترك خيرا الوصية... (٢٧). وقال في مقام الامتنان: ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا (٢٨). وقال رسول الله (ص): نعم المال الصالح للرجل الصالح . وكل ما جاء في ثواب الصدقة، والضيافة، والسخاء، والحج، وغير ذلك مما لا يمكن الوصول إليه إلا بالمال، فهو ثناء عليه. ووجه الجمع بين الظواهر المادحة والذامة هو: أن المال قد يكون وسيلة إلى مقصود صحيح هو السعادة الأخروية، إذ الوسائل إليها في الدنيا ثلاث، وهي: الفضائل النفسية، والفضائل البدنية، والفضائل الخارجية التي عمدتها المال. وقد يكون وسيلة إلى مقاصد فاسدة، وهي المقاصد الصادة عن السعادة الأخروية والحياة الأبدية، والصادة سبيل العلم والعمل.

(هامش)

(٢٧) البقرة، الآية: ١٨٠. (٢٨) نوح، الآية: ١٢. (*)

ص ٣٩

فهو إذن محمود ومذموم بالإضافة إلى المقصودين. فالظواهر الذامة محمولة على صورة كونه وسيلة إلى مقاصد فاسدة، والمادحة على صورة كونه وسيلة إلى مقاصد صحيحة. ولما كانت الطبائع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله، وكان المال مسهلا لها وآلة إليها، عظم الخطر في ما يزيد على قدر الكفاية، فاستعاذ طوائف الأنبياء والأولياء من شره، حتى قال نبينا (ص): اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا . وقال (ص): اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا .

فصل غوائل المال وفوائدهup

قد ظهر مما ذكر: أن المال مثل حية فيها سم وترياق، فغوائله سمه، وفوائده ترياقه، فمن عرفها أمكنه أن يحترز من شره ويستدر منه خيره. ولبيان ذلك نقول: إن غوائله إما دنيوية أو دينية: والدنيوية: هي ما يقاسيه أرباب الأموال: من الخوف والحزن، والهم، والغم، وتفرق الخاطر، وسوء العيش، والتعب في كسب الأموال وحفظها، ودفع الحساد وكيد الظالمين، وغير ذلك. والدينية ثلاثة أنواع: أولها - أداؤه إلى المعصية. إذ المال من الوسائل إلى المعاصي، ونوع من القدرة المحركة لداعيتها. فإذا استشعرها الإنسان من نفسه، انبعثت الداعية، واقتحم في المعاصي، وارتكب أنواع الفجور. ومهما كان آيسا عن القدرة لم يتحرك داعية إليها. إذ العجز قد يحول بين المرء وبين المعصية، ومن العصمة ألا يقدر، وأما مع القدرة، فإن اقتحم ما يشتهيه هلك، وإن صبر وقع في شدة. إذ الصبر مع القدرة أشد، وفتنة السراء من فتنة الضراء أعظم. وثانيها - أداؤه إلى التنعم في المباحات. فإن الغالب أن صاحب المال يتنعم بالدنيا ويمرن عليه نفسه، فيصير التنعم محبوبا عنده مألوفا، بحيث لا يصبر عنه، ويجره البعض منه إلى البعض. وإذا اشتد ألفه به وصار عادة له،

ربما لم يقدر عليه من الحلال، فيقتحم في الشبهات ويخوض في
ص ٤٠
المحرمات: من الخيانة، والغصب، والرياء، والكذب، والنفاق والمداهنة، وسائر الأخلاق المهلكة، والأشغال الردية، لينتظم أمر دنياه ويتيسر له تنعمه. وما أقل لصاحب الثروة والمال ألا يصير التنعم مألوفا له، إذ متى يقدر أن يقنع بخبز الشعير ولبس الخشن وترك لذيذ الأطعمة بأسرها، فإنما ذلك شأن نادر من أولي النفوس القوية القدسية، كسليمان بن داود (ع) وأمثاله. على أن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس، ومن أحتاج إلى الناس فلا بد أن ينافقهم ويسخط الله في طلب رضاهم، فإن سلم من الآفة الأولى، أعني مباشرة المحرمات، فلا يسلم من هذه أصلا. ومن الحاجة إلى الناس تثور العداوة والصداقة، ويحصل الحقد، والحسد، والكبر، والرياء، والكذب، والغيبة، والبهتان، والنميمة، وسائر معاصي القلب واللسان، وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه وإصلاحه.
وثالثها - وهو الذي لا ينفك عنه أحد من أرباب الأموال، وهو أنه يلهيه إصلاح ماله وحفظه عن ذكر الله تعالى، وكل ما يشغل العبد عن الله تعالى فهو خسران ووبال. ولذا قال روح الله (ع): في المال ثلاث آفات، أن يأخذه من غير حله ، فقيل: إن أخذه من حله؟ قال: يضعه في غير حقه ، فقيل: إن وضعه في حقه؟ فقال: يشغله إصلاحه عن الله . وهذا هو الداء العضال، إذ أصل العبادات وروحها وحقيقتها هو الذكر والفكر في جلال الله تعالى، وذلك يستدعي قلبا فارغا. وصاحب الضيعة يصبح ويمسي متفكرا في خصومة الفلاح ومحاسبته وخيانته، ومنازعة الشركاء وخصومتهم في المال والحدود، وخصومة أعوان السلطان في الخراج، وخصومة الأجراء في التقصير في العمارة وغير ذلك. وصاحب التجارة يكون متفكرا في خيانة الشركاء وانفرادهم بالربح وتقصيرهم في العمل وتضييعهم المال، ويكون غالبا في بلاد الغربة متفرق الهم محزون القلب من كساد ما يصحبه من مال التجارة. وكذلك صاحب المواشي وغيره من أرباب أصناف الأموال.
وأبعدها عن كثرة الشغل النقد المكنون تحت الأرض، وصاحبه أيضا لا يزال متفكرا مترددا فيما يصرف إليه، وفي كيفية حفظه، وفي الخوف ممن يعثر عليه، وفي دفع طمع الخلق منه. وبالجملة: أودية
الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

## ٢٠٤ جامع السعادات (ج2)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب
ص ٤١
أفكار أهل الدنيا لا نهاية لها، والذي ليس معه إلا قوت يومه أو سنته، ولا يطلب أزيد من ذلك، فهو في سلامة من جميع ذلك.
وأما فوائده: فهي أيضا دنيوية ودينية: أما الدنيوية: فهي ما يتعلق بالحظوظ العاجلة: من الخلاص من ذل السؤال، وحقارة الفقر، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق، وكثرة الأخوان والأصدقاء والأعوان، وحصول الوقار والكرامة في القلوب. وأما الدينية: فثلاثة أنواع: أولها - أن ينفقه على نفسه في عبادة، كالحج والجهاد، أو فيما يقوى على العبادة، كالمطعم والملبس والمسكن. وثانيا - أن يصرفه إلى أشخاص معينة: كالصدقة، والمروة، ووقاية العرض، وأجرة الاستخدام. وأما الصدقة بأنواعها، فلا يحصى ثوابها وربما نشير إلى فضيلتها في موضعها. وأما المروة، ونعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة أو هدية أو إعانة وما يجري مجراها مما يكتسب به الأخوان والأصدقاء ويجلب به صفة الجود والسخاء، إذ لا يتصف بالجود إلا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل الفتوة والمروة، فلا ريب في كونه مما يعظم ثوابه. فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات وإطعام الطعام، من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها. وأما وقاية العرض، ونعني بها بذل المال لدفع ثلب السفهاء، وهجو الشعراء، وقطع السنة الفاحشين والمغتابين، ومنع شر الظالمين وأمثال ذلك، فهو أيضا من الفوائد الدينية. قال رسول الله (ص): ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة .
وأما أجرة الاستخدام، فلا ريب في إعانته على أمور الدين، إذ الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذي هو أعلى مقامات السالكين، ومن لا مال له يحتاج أن يتولى بنفسه

جميع الأعمال التي يحتاج إليها في الدنيا، حتى نسخ الكتاب الذي يفتقر إليه، وكلما يتصور أن يقوم به الغير فتضييع الوقت فيه خسران وندامة. وثالثها - أن يصرفه إلى غير معين يحصل به خير عام، وهي الخيرات
ص ٤٢
الجارية: من بناء المساجد، والمدارس، والقناطر، والرباطات، ونصب الخشبات في الطرق، وإجراء القنوات، ونسخ المصاحف والكتب العلمية، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات المؤبدة، الدائرة بعد الموت، المستجلبة ببركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية.
فصل الأموال المنجية من غوائل المال up
من أراد النجاة من غوائل المال، فليحافظ على أمور: الأول - أن يعرف مقصود المال وباعث خلقه وعلة الاحتياج إليه، حتى لا يكتسب ولا يحفظ إلا قدر حاجته. الثاني - أن يراعي جهة دخله، فيجتنب الحرام والمشتبه، والجهات المكروهة القادحة في المروة والحرية، كالهدايا المشوبة بالرشوة، والسؤال الذي فيه الانكسار والذلة. الثالث - أن يراعي جهة الخرج، ويقتصد في الإنفاق، غير مبذر ولا مقتر. قال الله تعالى: والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (٢٩). وقال النبي (ص): ما عال من اقتصد . ثم للاقتصاد في المطعم والملبس والمسكن درجات ثلاث: أدنى وأوسط وأعلى، وربما كان الميل إلى الأولى أحرى وأولى، ليدخل في زمرة المخفين يوم القيامة. الرابع - أن يضع ما اكتسبه من حله في حقه، ولا يضعه في غير حقه فإن الإثم في الأخذ من غير حله والوضع في غير حقه سواء. الخامس - أن يصلح نيته في الأخذ والترك والإنفاق والإمساك، فيأخذ ما يأخذ استعانة به على ما خلق لأجله، ويترك ما يترك زهدا فيه واستحقارا له واجتنابا عن وزره وثقله، وإذا فعل ذلك لم يضره وجوده. قال أمير المؤمنين عليه السلام: لو أن رجلا أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله فهو زاهد، ولو ترك الجميع ولم يرد به وجه الله فليس بزاهد .
(هامش)
(٢٩) الفرقان، الآية: ٦٧. (*)
ص ٤٣
فينبغي لكل مؤمن أن يكون باعث جميع أفعاله التقرب إلى الله ليصير الجميع عبادة. فإن أبعد الأفعال من العبادة الأكل والوقاع وقضاء الحاجة، ويصير بالقصد عبادة. فمن أخذ من المال ما يحتاج إليه في طريق الدين، وبذل ما فضل منه على إخوانه المؤمنين، فهو الذي أخذ من حية المال ترياقها واتقى سمها، فلا تضره كثرة المال. إلا أنه لا يتأتى ذلك إلا لمن كثر علمه واستحكمت في الدين قدمه. والعامي إذ يشتبه به في الاستكثار من المال، فشأنه شأن الصبي الذي يرى المعزم الحاذق يأخذ بالحية ويتصرف بها ليأخذ ترياقها، فيقتدي به ويأخذ مستحسنا صورتها وشكلها ومستلينا جلدها فتقتله في الحال. إلا أن قتيل الحية يدري أنه قتيل، وقتيل المال قد لا يعرف ذلك. وكما يمتنع أن يتشبه الأعمى بالبصير في التخطي قلل الجبال وأطراف البحار والطرق المشوكة، فيمتنع أن يتشبه العامي الجاهل بالعالم الكامل في الاستكثار من المال.
وصل الزهد up
ضد حب الدنيا والرغبة إليها هو (الزهد)، وهو ألا يريد الدنيا بقلبه ويتركها بجوارحه، إلا بقدر ضرورة بدنه. وبعبارة أخرى: هو الإعراض من متاع الدنيا وطيباتها، من الأموال والمناصب وسائر ما يزول بالموت. وبتقرير آخر: هو الرغبة عن الدنيا عدولا إلى الآخرة، أو عن غير الله، عدولا إلى الله، وهو الدرجة العليا. فمن رغب عن كل ما سوى الله حتى الفراديس، ولم يحب إلا الله، فهو الزاهد المطلق. ومن رغب عن حظوظ الدنيا خوفا من النار أو طمعا في نعيم الجنة، من الحور والقصور والفواكه والأنهار، فهو أيضا زاهد، ولكنه دون الأول. ومن ترك بعض حظوظ الدنيا دون بعض، كالذي يترك المال دون الجاه، أو يترك التوسع في الأكل دون التجمل في الزينة، لا يستحق اسم الزاهد مطلقا. وبما ذكر يظهر: أن الزهد إنما يتحقق إذا تمكن من نيل الدنيا وتركها، وكان باعث الترك هو حقارة المرغوب عنه وخساسته، أعني الدنيا بالإضافة إلى المرغوب إليه وهو الله والدار الآخرة، فلو كان الترك لعدم قدرته
ص ٤٤
عليها، أو لغرض غير الله تعالى وغير الدار الآخرة، من حسن الذكر، واستمالة القلوب، أو الاشتهار بالفتوة والسخاء، أو الاستثقال لما في حفظ الأموال من المشقة والعناء أو أمثال ذلك، لم يكن من الزهد أصلا.
فصل مدح الزهد up

الزهد أحد منازل الدين وأعلى مقامات السالكين. قال الله سبحانه: فخرج على قومه في زينته... وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير (٣٠). فنسب الزهد إلى العلماء، ووصف أهله بالعلم، وهو غاية المدح. وقال: ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى (٣١). وقال: ومن يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب (٣٢). وقال رسول الله (ص) من أصبح وهمه الدنيا، شتت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له. ومن أصبح وهمه الآخرة، جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة . وقال (ص): إذا رأيتم العبد قد أعطى صمتا وزهدا في الدنيا فاقتربوا منه، فإنه يلقى الحكمة . وقال (ص): من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم، وهدى بغير هداية، فليزهد في الدنيا . وقال (ص): إزهد في الدنيا يحبك الله. وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس . وقال (ص) لأمير المؤمنين عليه لسلام يا علي، من عرضت له دنياه وآخرته فاختار الآخرة وترك الدنيا فله الجنة ومن اختار الدنيا استخفافا بآخرته فله النار وقال (ص): سيكون بعدي قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ولا الغنى إلا بالفخر والبخل، ولا المحبة إلا باتباع الهوى. ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم،

(هامش)

(٣٠) القصص، الآية: ٧٩ - ٨٠. (٣١) طه، الآية: ١٣. (٣٢) الشورى، الآية: ٢٠. (*)

ص ٤٥

فصبر على الفقر وهو يقدر على الغناء، وصبر للبغضاء وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العز، لا يريد بذلك إلا وجه الله، أعطاه الله ثواب خمسين صديقا . وقال (ص): بعد ما سئل عن معنى شرح الصدر للإسلام -: إن النور إذا دخل القلب انشرح له وانفسح ، قيل: يا رسول الله، وهل لذلك من علامة؟ قال: نعم! التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله . وقال (ص): استحيوا من الله حق الحياء ، قالوا: إنا لنستحيي منه تعالى، قال: فليس كذلك، تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون . وروي أنه قدم عليه بعض الوفود، وقالوا: إنا مؤمنون. قال: وما علامة إيمانكم؟ فذكروا الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضى بمواقع القضاء، وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء. فقال (ص): إن كنتم كذلك. فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون . فجعل الزهد من مكملات إيمانهم. وقال (ص): من جاء بلا إله إلا الله،، لا يخلط معها غيرها، وجبت له الجنة ، وفسر (غيرها) بحب الدنيا وطلبها. وقال (ص): من زهد في الدنيا، أدخل الله الحكمة قلبه، فأنطق بها لسانه، وعرفه دار الدنيا ودواءها، وأخرجه منها سالما إلى دار السلام . وروي: أن بعض زوجاته بكت مما رأت به من الجوع، وقالت له: يا رسول الله، ألا تستطعم الله فيطعمك؟ فقال والذي نفسي بيده! لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهبا لأجراها حيث شئت من الأرض، ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها، وفقر الدنيا على غنائها، وحزن الدنيا على فرحها. إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد. إن الله لم يرض لأولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر على محبوبها، ثم لم يرض لي إلا أن يتكلفني مثل ما كلفهم فقال: فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل (٣٣). والله ما لي بد من طاعته! وإني والله لأصبرن كما صبروا بجهدي ولا

(هامش)

(

٣٣) الأحقاف، الآية: ٣٥. (*)

ص ٤٦

قوة إلا بالله! . وقال (ص): لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون ألا يعرف أحب إليه من أن يعرف، وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته . وقال (ص) إذا أراد الله بعبد خيرا، زهده في الدنيا، ورغبة في الآخر، وبصره بعيوب نفسه . وقال (ص) من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لهى عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات وقال (ص): إن ربي عز وجل عرض علي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا، فقلت: لا يا رب، ولكن أجوع يوما وأشبع يوما. فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك واثني عليك . وروي: أنه (ص): خرج

ذات يوم يمشي ومعه جبرئيل، فصعد على الصفا، فقال له رسول الله (ص): يا جبرئيل، والذي بعثك بالحق! ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق فلم يتم كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفزعته، فقال رسول الله (ص): أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال: لا! ولكن هذا إسرافيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك. فأتاه إسرافيل، فقال: إن الله عز وجل سمع ما ذكرت، فبعثني بمفاتيح الأرض، وأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فعلت، وإن شئت نبيا ملكا، وإن شئت نبيا عبدا. - فأومأ إليه جبرئيل أن تواضع لله. فقال: نبيا عبدا، ثلاثا وقال (ص): قال الله تعالى: إن من أغبط أوليائي عندي رجلا حفيف الحال ذا حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه بالغيب، وكان غامضا في الناس، جعل رزقه كفافا فصبر عليه، عجلت منيته فقال تراثه وقل بواكيه (٣٤). وعن علي بن الحسين - صلوات الله عليهما - قال: مر رسول الله (ص): براعي إبل، فبعث يستسقيه، فقال: أما ما في ضروعها فصبوح الحي، وأما في آنيتنا فغبوقهم. فقال رسول الله (ص) اللهم كثر ماله وولده. ثم مر براعي غنم، فبعث إليه يستسقيه، فحلب له ما في ضروعها وأكفأ ما في إنائه في إناء رسول الله (ص)، وبعث إليه بشاة، وقال: هذا ما عندنا، وإن أحببت أن نزيدك زدناك، قال: رسول

(هامش)

(٣٤) صححنا الحديث على (الكافي): باب الكفاف. قال في (الوافي): الخفيف - بالمهملة -: العيش السوء وقلة المال. والغامض: الخامل الذليل. (*)

ص ٤٧

الله (ص): اللهم أرزقه الكفاف. فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله، دعوت للذي ردك بدعاء عامتنا نحبه، ودعوت للذي أسعفك بحاجتك بدعاء كلنا نكرهه. فقال رسول الله (ص): إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى. اللهم ارزق محمدا وآل محمد الكفاف (٣٥). وقال أمير المؤمنين (ع): الناس ثلاثة: زاهد، وصابر، وراغب، فأما الزاهد، فقد خرجت الأحزان والأفراح من قلبه، فلا يفرح بشيء من الدنيا ولا يأسى على شيء منها فاته، فهو مستريح. وأما الصابر، فإنه يتمناها بقلبه، فإذا نال منها ألجم نفسه عنها بسوء عاقبتها وشناءتها، ولو اطلعت على قلبه لعجبت من عفته وتواضعه وحزمه. وأما الراغب، فلا يبالي من أين جاءته الدنيا، من حلها أو حرامها، ولا يبالي ما دنس فيها عرضه وأهلك نفسه وأذهب مروته، فهم في غمرته يعمهون ويضطربون . وقال (ع): إن من أعون الأخلاق على الدين الزهد في الدنيا وقال (ع): من جمع ست خصال لم يدع للجنة مطلبا ولا عن النار مهربا: عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الدنيا فتركها، وعرف الآخرة فطلبها، وعرف الباطل فاتقاه وعرف الحق فاتبعه . وقال (ع): من اشتاق الجنة سارع إلى الخيرات .- جامع السعادات ج ٢ - محمد مهدي النراقي ص ٤٧: ومن خاف النار لهى عن الشهوات، ومن ترقب الموت ترك اللذات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات . وقال (ع): إن علامة الراغب في ثواب الآخرة زهده في عاجل زهرة الدنيا، أما إن زهد الزاهد في هذه الدنيا لا ينقصه مما قسم الله عز وجل له فيها وإن زهد وإن حرص الحريص على عاجل زهرة الدنيا لا يزيده فيها وإن حرص. فالمغبون من حرم حظه من الآخرة (٣٦). وقال علي بن الحسين (ع): ما من عمل بعد معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله (ص) أفضل من بغض الدنيا... الحديث (٣٧). وقال الباقر (ع): أكثر ذكر الموت، فإنه لم يكثر إنسان ذكر الموت إلا زهد في الدنيا

وقال (ع): قال الله تعالى: وعزتي وجلالي وعظمتي وبهائي وعلو ارتفاعي! لا يؤثر عبد مؤمن هواي على هواه في شيء من أمر

(هامش)

(٣٥) صححنا الحديث على ما في (أصول الكافي): باب الكفاف. (٣٦) صححنا الحديث على (الكافي): باب ذم الدنيا. (٣٧) الحديث مروي في (أصول الكافي): باب ذم الدنيا وقد مضى ذكره في صفحة ٣٠. (*)

ص ٤٨

الدنيا، إلا جعلت غناه في نفسه، وهمته في آخرته، وضمنت السماوات والأرض رزقه، وكنت له من وراء تجارة كل تاجر . وقال (ع): أعظم الناس قدرا من لا يناول الدنيا في يد من كانت. فمن كرمت عليه نفسه صغرت الدنيا في عينيه، ومن هانت عليه نفسه كبرت الدنيا في عينيه . وقال الصادق (ع): جعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا . وقال (ع): ما كان شيء

أحب إلى رسول الله (ص) من أن يظل خائفا جائعا في الله تعالى . وقال (ع): إذا أراد الله بعبد خيرا، زهده في الدنيا، وفقهه في الدين، وبصره عيوبها. ومن أوتيهن فقد أوتي خير الدنيا والآخرة . وقال (ع): لم يطلب أحد الحق بباب أفضل من الزهد في الدنيا، وهو ضد لما طلب أعداء الحق، قلت: جعلت فداك، مما ذا؟ قال: من الرغبة فيها ، وقال: ألا من صبار كريم؟ فإنما هي أيام قلائل! ألا إنه حرام عليكم أن تجدوا طعم الإيمان حتى تزهدوا في الدنيا (٣٨) وقال (ع): الزهد مفتاح باب الآخرة والبراءة من النار، وهو تركك كل شيء يشغلك عن الله من غير تأسف على فوتها، ولا إعجاب في تركها، ولا انتظار فرج منها ولا طلب محمدة عليها، ولا عوض منها، بل يرى فوتها راحة وكونها آفة ويكون أبدا هاربا من الآفة معتصما بالراحة، والزاهد الذي يختار الآخرة على الدنيا والذل على العز والجهد على الراحة والجوع على الشبع وعافية الأجل على محبة العاجل والذكر على الغفلة، وتكون نفسه في الدنيا وقلبه في الآخرة ، وقال الرضا (ع): من أصبح وأمسى معافى في بدنه، آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما خيرت له الدنيا . وكفى للزهد فضيلة ومدحا أنه أعرف صفات الأنبياء والأولياء، ولم يبعث نبي إلا به، ولو لم يتوقف التقرب إلى الله والنجاة في دار الآخرة عليه، لما ضيق عظماء نوع الإنسان وأعرف الناس بحقيقة الحال على أنفسهم في فطامها عن شهوات الدنيا ولذاتها. فانظر إلى كليم الله موسى (ع) كيف كان غالب قوته نبت الأرض

(هامش)

(

٣٨) صححنا الحديث على (الكافي): باب ذم الدنيا. (*)

ص ٤٩

وأوراق الأشجار، وكان ضعف بدنه من كثرة رياضته، بحيث ترى الخضرة من صفات بطنه، كما أخبر به أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة. ثم انظر إلى روح الله (ع) كيف يلبس الشعر ويأكل الشجر، ولم يكن له ولد يموت يخرب ولا يدخر لغد، أينما يدركه المساء نام، وقال له الحواريون يوما، يا نبي الله لو أمرتنا أن نبني بيتا تعبد الله فيه ، قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء فقالوا: كيف يستقيم بنيان على الماء؟ قال فكيف تستقيم عبادة على حب الدنيا ، وروي: أنه اشتد به يوما المطر والرعد والبرق، فجعل يطلب بيتا يلجأ إليه، فرفعت إليه خيمة من بعيد فأتاها فإذا فيها امرأة فحاد عنها، فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا فيه أسد، فوضع يده عليه وقال: إلهي جعلت لكل شيء مأوي ولم تجعل لي مأوى فأوحى الله إليه مأواك في مستقر من رحمتي، لأزوجنك يوم القيامة ألف حوراء خلقتها بيدي، ولأطعمنك في عرسك أربعة آلاف عام، يوم منها كعمر الدنيا ولآمرن مناديا ينادي أين الزهاد في الدنيا، زوروا عرس الزاهد عيسى بن مريم . ثم انظر إلى يحيى بن زكريا، حيث يلبس المسوح حتى قب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حسن اللمس فسألته أمه أن يلبس مكانها جبة من صوف ففعل، فأوحى الله إليه: يا يحيى آثرت علي الدنيا ، فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه.

ثم افتح بصيرتك وتأمل في سيرة رسول الله (ص) وزهده في الدنيا، فإنه لبث في النبوة ما لبث، ولم يشبع هو وأهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية، ولم يشبعوا عشية إلا جاعوا غدوة، ولم يشبع من التمر هو وأهل بيته حتى فتح الله عليهم خيبر، وقرب إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه، فأمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على الأرض، وكان ينام على عباءة مثنية فثنوها له ليلة أربع طاقات فنام عليها، فلما استيقظ قال منعتموني قيام الليلة هذه بهذه العباءة أثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها، وكان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة. وروي: أن امرأة من بني ظفر صنعت له (ص) كساء بن إزارا ورداء ج: ٢

ص ٥٠

وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره قد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك . وشدة زهد علي (ع) وتركه الدنيا أشهر من أن يحتاج إلى بيان وكذا من بعده من الأئمة الراشدين والأصحاب والتابعين وغيرهم من أكابر الدين وللسلف الصالحين، حتى كان أحدهم يعيش خمسين سنة وستين لم يطوله ثوب ولم ينصب له قدر ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ولا أمر من في بيته بصنعة طعام، فعلى أطرافهم يقومون ووجوههم على الأرض يفترشون تجري دموعهم على خدودهم

ويناجون ربهم في فكاك رقابهم من النار. وقد حكي أن بعض الخلفاء أرسل إلى بعضهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها فشق ذلك على أهله، فقال أتدرون؟ ما مثلي ومثلكم إلا كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها فلما هرمت ذبحوها لينتفعوا بجلدها، فكذلك أنتم أردتم ذبحي على كبر سني فموتوا جوعا خير لكم من أن تذبحوني. وقد بلغ بعضهم من الزهد بحيث يطلب لقيام الليل موضعا لا يصيبه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به. وكان لبعضهم حب مكسور، فيه ماؤه، لا يرفعه من الشمس ويشرب الماء الحار ويقول من وجد لذة الماء البارد يشق عليه مفارقة الدنيا. فيا حبيبي أفق من سكر الهوى واعرف المضادة التي بين الآخرة والدنيا، واقتد بالواقفين على جلية الحال والمطلعين على حقيقة المآل في المواظبة على الزهد والتقوى وفطام النفس عن لذائذ الدنيا، فإن ذلك وإن كان شاقا فمدته قريبة، والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين أنفسهم بسياسة الشرع المبين المعتصمين بعروة اليقين بما وعد الله في الآخرة لعباده الزاهدين.

فصل اعتبارات الزهد ودرجاته up

إعلم أن للزهد اعتبارات تتحقق له بكل اعتبار درجات: (الأول) اعتبار نفسه أي من حيث نفس الترك للدنيا وبهذا الاعتبار له درجات ثلاث: (الأولى) أن يزهد في الدنيا مع ميله إليها وحبه لها بأن

ص ٥١

يكف نفسه عنها بالمجاهدة والمشقة، وهذا هو التزهد. (الثانية) أن يترك الدنيا طوعا وسهولة من دون ميل إليها لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما يطمع فيه من لذات الآخرة، وهذا كالذي يترك درهما لأجل درهمين معاوضة فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى قليل انتظار، ومثله ربما أعجب بنفسه وبزهده لاحتمال أن يظن بنفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه. (الثالثة) وهي أعلى الدرجات أن يترك الدنيا طوعا وشوقا ولا يرى أنه ترك شيئا، إذ عرف أن الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خنفساء وأخذ ياقوتة صافية حمراء، فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيئا وسبب هذا الترك كمال المعرفة، فإن العارف على اليقين بأن الدنيا بالإضافة إلى الله ونعيم الآخرة أخس من خنفساء بالنظر إلى ياقوتة، ومثل هذا الزاهد في أمن من خطر الالتفات إلى الدنيا، كما أن تارك الخنفساء بالياقوتة في أمن من طلب الإقالة في البيع. وقد ذكر أرباب القلوب من أهل المعرفة أن مثل تارك الدنيا بالآخرة مثل من منعه عن باب الملك كلب يكون وفي بابه فألقى إليه لقمة خبز نالها من موائد الملك فشغله بنفسه ودخل الباب ونال غاية القرب من الملك حتى نفذ أمره في جميع مملكته، أفترى أنه يرى لنفسه عوضا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلب في مقابلة ما يناله مع كون هذه اللقمة أيضا من الملك. فالشيطان كلب على باب الله يمنع الناس من الدخول، مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز إن أكلها فلذتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع ثم يبقى ثقله في المعدة ثم ينتهي إلى النتن والقذر ويحتاج إلى إخراجه، فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها.

ولا ريب في نسبة الدنيا لكل شخص أعني ما يسلم له منها وإن عمر ألف سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا، إذ لا سبة لمتناهي إلى غير المتناهي، والدنيا متناهية، ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدورة لكان لا نسبة لها إلى الأبد، فكيف ومدة العمر قصيرة ولذاتها مكدرة غير صافية فأي نسبة لها إلى نعيم الأبد. * * *

ص ٥٢

)

الثاني) اعتبار المرغوب عنه أعني ما يترك وبهذا الاعتبار له خمس درجات: (الأولى) أن يترك المحرمات وهو الزهد في الحرام، ويسمى زهد فرض. (الثانية) أن يترك المشتبهات أيضا وهو الزهد في الشبهة، ويسمى زهد سلامة. (الثالثة) أن يزهد في الزائد عن قدر الحاجة من الحلال أيضا ولا يزهد في التمتع بالقدر الضروري من المطعم والملبس والمسكن وأثاثه والمنكح وما هو وسيلة إليها من المال والجاه، وإلى هذه الدرجات كلا أو بعضا أشار مولانا أمير المؤمنين (ع) بقوله: كونوا على قبول العمل أشد عناية منكم على العمل، الزهد في الدنيا قصر الأمل وشكر كل نعمة والورع عن كل ما حرم الله عز وجل (٣٩) ومولانا الصادق (ع) بقوله: الزهد في الدنيا ليس بإضاعة المال ولا تحريم الحلال بل الزهد في الدنيا ألا تكون بما في يدك أوثق بما في يد الله عز وجل (٤٠) وهذا مع ما يأتي بعده هو الزهد في الحلال، ويسمى زهد ثقل. (الرابعة) أن يترك جميع ما للنفس فيه تمتع ويزهد فيه ولو في قدر الضرورة، لا بمعنى ترك

هذا القدر بالمرة، إذ ذلك متعذر، بل تركه من حيث التمتع به وإن ارتكبه اضطرارا من قبيل أكل الميتة مع الإكراه له باطنا، وهذا يتناول ترك جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرئاسة والمال والجاه غيرها، وإلى هذه الدرجة أشار الصادق (ع) بقوله: (الزاهد في الدنيا الذي يترك حلالها مخافة حسابه ويترك حرامها مخافة عذابه) وإليها يرجع قول أمير المؤمنين (ع): (الزهد كله بين كلمتين من القرآن قال الله سبحانه: لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم (٤١).

(هامش)

(٣٩) صححنا الحديث على ما في البحار الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر في باب الزهد ص ١٠١. (٤٠) صححنا الحديث على ما في سفينة البحار ج ١ ص ٥٦٨. (٤١) الحديد الآية ٢٣. (*)

ص ٥٣

فمن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه (٤٢). وقوله (ع) (الزهد في الدنيا ثلاثة أحرف: زاء وهاء ودال أما الزاء فترك الزينة وأما الهاء فترك الهوى وأما الدال فترك الدنيا . (الخامسة) أن يترك جميع ما سوى الله ويزهد فيه حتى في بدنه ونفسه أيضا بحيث كان ما يصحبه ويتركه في الدنيا الجاء وإكراها من دون استلذاذ وتمتع به، وإلى هذه الدرجة أشار مولانا الصادق (ع) في كلامه المنقول سابقا (ص ٤٨) حيث قال: الزهد مفتاح باب الآخرة والبراءة من النار وهو تركك كل شيء يشغلك عن الله من غير تأسف على فوتها ولا إعجاب في تركها ولا انتظار فرج منها ولا طلب محمدة عليها ولا عوض منها بل يرى فوتها راحة وكونها آفة إلى آخر الحديث (٤٣). ثم الالتفات إلى بعض ما سوى الله والاشتغال به ضرورة، كضروري الأكل والملبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وأمثال ذلك، لا ينافي هذه المرتبة من الزهد، إذ معنى الانصراف من الدنيا إلى الله تعالى إنما هو الإقبال بكل القلب إليه تعالى ذكرا وفكرا، وهذا لا يتصور بدون البقاء إلا بضرورات المعيشة فمتى اقتصر من الدنيا عليها قصدا لدفع المهلكات عن البدن والاستعانة بالبدن على العبادة وسائر ما يقربه إلى الله لم يكن مشتغلا بغير الله، إذ ما لا يتوصل إلى شيء إلا به فهو منه، فالمشتغل بعلف دابته في طريق الحج ليس معرضا عن الحج، ولكل ينبغي أن يكون البدن في طريق الله مثل الدابة في طريق الحج، فكما أن قصدك من تهيئة ما تحتاج إليه دابتك دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك دون تنعمها، فكذلك ينبغي أن يكون قصدك من الأكل والشرب واللباس والسكنى صيانة بدنك عما يهلك من الجوع والعطش والحر والبرد فتقتصر على قدر الضرورة وتقصد به التقوى على طاعة الله دون التلذذ والتنعم، وذلك لا ينافي الزهد بل هو شرطه، ثم ترتب التلذذ على ذلك لا يضرك إذا لم يكن مقصودا

(هامش)

(

٤٢) هذا الحديث مروي في البحار الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر في باب الزهد ص ١٠٢. (٤٣) صححنا الحديث هنا وهناك على ما في البحار الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر في باب الزهد ص ١٠٠ والحديث منقول فيه عن مصباح الشريعة الذي تقدم ذكره في الجزء الأول ص ١٢١، ٢٥٤. (*)

ص ٥٤

بالذات لك فإن الإنسان قد يستريح في قيام الليل بنسيم الأسحار وصوت الطيور وهذا لا يضر بعبادته إذا لم يقصد طلب موضع خاص لهذه الاستراحة، على أنه لا لذة حقيقية في الأكل والشرب واللباس وإنما تندفع بها آلام الجوع والعطش والحر والبرد. ثم لا يخفى أن الفضول من أمور الدنيا من المطعم والمشرب والملبس والمسكن وأثاثه والمنكح والمال والجاه ينبغي تركها والزهد فيها إذ الأخذ بما لا يحتاج إليه ينافي الزهد. (وأما) غير الفضول مما يحتاج إليه الإنسان ويكون مهما له من الأمور الثمانية، فينبغي ألا يترك الزهد فيها، إذ ما هو المهم الضروري يتطرق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته فينبغي ألا يترك الزهد فيه أيضا. ومقتضى غاية الزهد فيه أن يقتصر من القوت على قوت يومه وليلته فإن كان عنده أزيد من ذلك فليبذله على بعض المستحقين، فإن اقتصر من جنسه على خبز الشعير فهو نهاية الزهد في القوت، إلا أن أكل خبز الحنطة في بعض الأحيان بل أكل أدام واحد في بعض الأوقات إذا لم يكن من اللذائذ الشديدة من أطعمة المتنعمين من أهل الدنيا لا ينافي الزهد، وربما لم يكن أكل اللحم في بعض الأحيان منافيا له. ويقتصر من (اللباس) بعد كونه من القطن أو الصوف على ما يستر الأعضاء ويحفظها من الحر والبرد، ولا بأس بكونه اثنين ليلبس الآخر عند

غسل أحدهما. ومن (المسكن) على ما يحفظ نفسه وأهله من الحر والبرد. ومن (أثاثه) أعني الفرش والظرف والقدر والكوز وأمثال ذلك، ما يدفع حاجته من غير تعد إلى ما يمكن زوال ضرورته بدونه.
ومن (المنكح) على ما تنكسر به سورة شبقه ويحفظه عن النظر والوساوس الشهوية المانعة عن الحضور في العبادات. ومن (المال) على ما يقضي به حاجة يومه بليلته فإن كان كاسبا فإذا اكتسب حاجة يومه فليترك كسبه ويشتغل بأمر الدين، وإن كانت له ضيعة ولم يكن له مدخل آخر يمكن أن يصل إليه كل يوم قدر حاجته فيه، فالظاهر عدم خروجه عن الزهد بإمساك قدر ما يكفي لسد رمقه بسنة واحدة بشرط أن يتصدق بكل ما يفضل من كفاية نفقته. وربما قيل إن مثله من
ص ٥٥
ضعفاء الزهاد، بمعنى أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات العالية والدرجات الرفيعة لا يناله، وإن صدق عليه كونه زاهدا، إذ مثله ليس له قوة اليقين، لا صاحب اليقين الواقعي إذا كان له قوت يومه لا يدخر شيئا لغده، ومن شرط التوكل في الزهد فلا يكون هذا من الزهاد عنده. وهذا غاية الزهد في الأمور المذكورة، وعليه جرت طوائف الأنبياء وزمرة الأوصياء ومن بعدهم من السلف الأتقياء. والحق أن حكم الزهد فيها يختلف باختلاف الأشخاص والأوقات فإن أمر المتفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل، ومن قصر جميع همه على تحصيل العلم والعمل ولم يقدر على كسب، حاله يخالف حال أهل الكسب، وكذا في بعض الأوقات وفي بعض الأماكن يمكن تحصيل قدر الحاجة في كل يوم وفي بعض آخر منهما لا يمكن ذلك، فاللائق لكل أحد أن يلاحظ حاله ووقته ومكانه ويتأمل في أن الأصلح بأمر آخرته والأعون على تحصيل ما خلق لأجله إمساك أي قدر من المال وصرف أي قدر وجنس من القوت، بحيث لو كان أقل منه لم يتمكن من تحصيل ما يقربه إلى ربه فيأخذ به ويترك الزائد، فإن بعد صحة النية وخلوص القصد في ذلك لا يخرج به عن الزهد الواقعي وإن تصور الاكتفاء بأقل من ذلك مع إيجابه لفقد ما هو أهم في تكميل النفس. وأما (الجاه) فقد تقدم أن القدر الضروري منه في أمر المعيشة كتحصيل منزلة في قلب خادمه ليخدمه، وفي قلب السلطان ليدفع الأشرار عنه، لا بأس به، فالظاهر عدم منافاة هذا القدر للزهد، وقال بعض العلماء: (هذا القدر وإن لم يكن به بأس إلا أنه يتمادى إلى هاوية لا عمق لها ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه) وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضرر أو لخلاص من ظلم: أما النفع فيغني عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن لمستأجره عنده قدر، وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة، ومعلوم أن من أراد أن يخدم بغير أجرة فهو من الظالمين فكيف يكون من الزاهدين.
وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل العدل فيها وأن يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في القلوب أو محل له عند السلطان. وقدر
ص ٥٦
الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك، بل حق الزاهد ألا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلا، فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين. وأما التوهمات والتقديرات التي تخرج إلى الزيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة، إذ من طلب الجاه أيضا لم يخل عن أذى في بعض الأوقات فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه، فإذن طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلا واليسير منه داع إلى الكثير وضراوته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره، نعم ما أعطاه الله لبعض عبيده من دون سعيه في طلبه لنشر دينه أو لاتصافه ببعض الكمالات المختصة لحصول منزلة له في القلوب، فليس به بأس ولا ينافي الزهد، فإن جاء رسول الله (ص) كان أوسع الجاه مع كونه أزهد الناس. والحق كما تقدم أن الجاه كالمال في نفي البأس من قدر يضطر إليه الإنسان إذا وقع في زمان أو بلد توقف أمر معيشته عليه. فالقدر الضروري منهما غير محذور وغير مناف للزهد، والزائد على الحاجة سم قاتل، فلا ينبغي أن ينسب المقتصر على الضرورة إلى الدنيا، بل ذلك القدر من الدين، لأنه من شرطه والشرط من جملة المشروط.
ويدل عليه ما روي أن إبراهيم عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرض شيئا فلم يقرضه، فرجع مهموما، فأوحى الله تعالى إليه: (لو سألت خليلك لأعطاك)، فقال يا رب: (عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها)، فأوحى الله إليه: (ليس الحاجة

من الدنيا) ويدل عليه أيضا كلام الصادق عليه السلام مع سفيان الثوري كما أورده بطوله شيخنا الأقدم رحمه الله في جامعه الكافي. فإذن قدر الحاجة من الدين وما وراءه وبال في الآخرة، بل في الدنيا أيضا، ويعرف ذلك بالتأمل في أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه وتحمل الذل فيه، وغاية سعادته أن يتركه لورثته، فيأكلونه وهم أعداؤه، أو يستعينون به على المعصية، فيكون معينا لهم عليها، ولذلك شبه جامع الدنيا وتابع الشهوات بدود القز، لا يزال ينسج

ص ٥٧

على نفسه حتى يقتلها، ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا فيموت ويهلك بسبب العمل الذي عمله بنفسه كما قيل في ذلك: ألم تر أن المرء طول حياته * معنى بأمر لا يزال يعالجه كدود كدود القز ينسج دائما * ويهلك غما وسط ما هو ناسجه فكل مكب على الدنيا متبع للشهوات لا يزال يقيد نفسه بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها، إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين شهواته دفعة، فتبقى السلاسل من قلبه معلقة بالدنيا التي فائته وخلفها، وهي تجاذبه إلى الدنيا، ومخالب ملك الموت قد تعلقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة فأهون أحواله عند الموت أن يكون مثل شخص ينشر بالمناشير ويفصل أحد جانبيه عن الآخر. فهذا أول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرات نزوله في أسفل السافلين ومنعه عن أعلى عليين وجوار رب العالمين. فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله، وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم، إذ النار لكل محجوب معدة، كما قال الله تعالى: كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم (٤٤). ولما انكشف لأرباب القلوب أن العبد يهلك نفسه باتباع الهوى والخوض في الدنيا إهلاك دود القز نفسه، رفضوا الدنيا بالكلية. فنسأل الله تعالى أن يقرر في قلوبنا ما نفث في روع حبيبه (ص)، حيث أوحى إليه: أحبب ما أحببت، فإنك مفارقه . * * *(الثالث) اعتبار المرغوب فيه: أعني ما يترك لأجله. وله بهذا الاعتبار ثلاث درجات. الأولى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار وسائر عذاب الآخرة، وهذا زهد الخائفين. الثانية: أن يكون ثواب الله ونعيم الجنة، وهذا زهد الراجين. الثالثة: وهي الدرجة العليا، ألا تكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت إلى الآلام ليقصد منها الخلاص، ولا إلى اللذات ليقصد نيلها، بل كان مستغرق الهم بالله، وهذا زهد العارفين لأنه لا يحب الله خاصة إلا من عرفه بصفاته الكمالية. فكما إن من عرف

(هامش)

(٤٤) المطففين، الآية: ١٥ - ١٦. (*)

ص ٥٨

الدينار والدرهم، وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما، لم يحب إلا الدينار. كذلك من عرف الله، وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم، وعرف أن الجمع بين تلك اللذة ولذة التنعم بالحور العين والنظر إلى القصور وخضرة الأشجار غير ممكن، فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره. وقال بعض العرفاء: ولا تظنن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم الجنة، كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق، بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به. والطالبون لنعيم الجنة، عند أهل المعرفة وأرباب القلوب، كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك، لا لأن اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق.

تتميم الزهد الحقيقي up

لا تظنن أن كل من يترك مال الدنيا أنه زاهد، فإن ترك المال وإظهار التضييق والخشونة في المأكل والمأكل والملبس سهل على من أحب المدح بالزهد. فكم من الرهبان والمرائين تركوا مال الدنيا وروضوا (٤٥) أنفسهم كل يوم على قدر قليل من القوت، واكتفوا من المسكن بأي موضع اتفق لهم، وكان غرضهم من ذلك أن يعرفهم الناس بالزهد ويمدحهم عليه، فهم تركوا المال لنيل الجاه. فالزهد الحقيقي ترك المال والجاه، بل جميع حظوظ النفس من الدنيا. وعلامة ذلك استواء الغنى والفقر والذم والمدح والذل والعز لأجل غلبة الأنس بالله، إذ ما لم يغلب على القلب الأنس بالله والحب له لم يخرج عنه حب الدنيا بكليته. إذ محبة الله ومحبة الدنيا في القلب كالماء والهواء في القدح، فإذا دخل أحدهما خرج الآخر، فكلاهما لا يجتمعان ولا يرتفعان أيضا. فالقلب المملوء من حب الدنيا يكون خاليا عن حب الله، كما أن القلب المشغول بحب الله وأنسه فارغ عن حب الدنيا، وبقدر ما

(هامش)
)
٤٥) في بعض النسخ (ردوا)، وفي بعض آخر (رودوا). والظاهر أن الصحيح ما أثبتناه. (*)
ص ٥٩
يقدر ما يخرج أحدهما يدخل الآخر وبالعكس. ومنها:
• الغنى up
وهو وجود كل ما يحتاج إليه من الأموال، وهذا أقل مراتبه، وفوق ذلك مراتب لا تحصى، حتى ينتهي إلى جمع أكثر أموال الدنيا، كما اتفق لبعض الملوك. ثم (الغني) إما أن يكون بحيث يسعى في طلب المال وجمعه ويتعب في تحصيله ويكره خروجه عن يده ويتأذى به، وهذا غني حريص. أو يكون بحيث لا يتعب ولا يسعى في تحصيله، إلا أنه لما أتاه أخذه وفرح به، مع تأذيه بفقده وكراهته له، وهذا أيضا لا يخلو عن الحرص لحزنه بفقده. أو يكون بحيث لا يتعب في طلبه ولا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله ويتأذى بفقده، ولكن لما أتاه رضي به: إما مع تساوي وجوده وعدمه أو مع كون وجوده أحب إليه من عدمه، ومثله الغني الراضي والقانع. وأيضا الغني إما أن يكون جميع ماله حلالا، أو يكون بعضه أو كله حراما. وأيضا إما يمسكه غاية الامساك، بحيث لا يؤدي شيئا من حقوقه الواجبة والمستحبة، أو ينفقه في مصارفه اللائقة. وللإنفاق مراتب شتى: أدناها أن يؤدي الحقوق الواجبة، وأعلاها أن يبذل كل ما يزيد عن أقل مراتب الغنى، بحيث لو تعدى عنه يسيرا صار فقيرا.
فصل ذم الغنى up
الغنى الحاصل من الحلال، مع بذل ما يفضل عن أقل مرتبته في المصارف اللائقة ومساواة وجوده وعدمه عند صاحبه، سالم من الآفات والأخطار. وغير ذلك من أقسامه لا يخلو عن آفة أو خطر، وحبه بعض أفراد حب الدنيا، بل هو راجع إلى حب المال بعينه. فيدل على ذمه ما ورد في ذمهما. وقد ورد في ذمه بخصوصه بعض الآيات والأخبار، قال الله سبحانه: إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى (٤٦).
(هامش)
(٤٦) العلق، الآية: ٦ - ٧. (*)
ص ٦٠
وقيل لرسول الله (ص): أي أمتك أشر؟ قال: الأغنياء . وقال (ص) لبلال: إلق الله فقيرا، ولا تلقه غنيا . وقال (ص): يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام . وقال (ص): اطلعت على الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء. واطلعت على النار، فرأيت أكثر أهلها الأغنياء . وفي طريق: فقلت: أين الأغنياء؟ فقال: حسبهم الجد وأوحى الله تعالى إلى موسى: يا موسى، إذا رأيت الفقر مقبلا، فقل: مرحبا بشعار الصالحين. وإذا رأيت الغني مقبلا، فقل: ذنب عجلت عقوبته . وروي: إنه ما من يوم إلا وملك ينادي من تحت العرش: يا ابن آدم، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك . وقال عيسى (ع): بشدة يدخل الغني الجنة .
وصل الفقر up
ضد الغنى (الفقر). وهو فقد ما يحتاج إليه. ولا يسمى فقد ما لا حاجة إليه فقرا. فإن عمم ما يحتاج إليه ولم يخص بالمال، لكان كل موجود ممكن محتاجا، لاحتياجه إلى دوام الوجود وغيره من الحاجات المستفادة من الله سبحانه، وانحصر الغنى بواحد واجب لذاته ومفيد لوجود غيره من الموجودات، أعني الله سبحانه. فهو الغني المطلق، وسائر الأشياء الموجودة فقراء محتاجون. وقد أشير إلى هذا الحصر في الكتاب الإلهي بقوله تعالى: والله الغني وأنتم الفقراء (٤٧). وإن خص بالمال لم يكن كل الناس فقراء، بل من فقد المال الذي هو محتاج إليه كان فقيرا بالإضافة إليه، والفقر بهذا المعنى هو الذي نريد بيانه هنا.
فصل اختلاف أحوال الفقراء up
(الفقير) إما أن يكون راغبا في المال محبا له، بحيث لو وجد إليه سبيلا لطلبه، ولو بالتعب والمشقة، وإنما ترك طلبه لعجزه منه، ويسمى هذا فقيرا (حريصا).
(هامش)
(٤٧) محمد (ص)، الآية: ٣٧. (*)

ص ٦١
أو يكون وجود المال أحب إليه من عدمه، ولكن لم يبلغ حبه له حدا يبعثه على طلبه، بل إن أتاه بلا طلب أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى سعي في طلبه لم يشتغل به، ويسمى هذا فقيرا (قانعا). أو يكون بحيث لا يحبه ولا يرغب فيه، ويكره وجوده ويتأذى به، ولو أتاه هرب منه، مبغضا له ومحترزا عن شره، ويسمى هذا فقيرا (زاهدا). فإعراضه عنه وعدم سعيه في محافظته وضبطه لو وجده، إن كان لخوف العقاب فهو (فقر الخائفين). وإن كان لشوق الثواب فهو (فقر الراجين). وإن كان لعدم التفاته اللازم لإقباله على الله تعالى بشراشره من دون غرض دنيوي أو أخروي فهو (فقر العارفين). أو يكون بحيث لا يحبه حبا يفرح بحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه، بل يستوي عنده وجوده وعدمه، فلا يفرح بحصوله ولا يتأذى بفقده، بل كان راضيا بالحالتين على السواء، وغنيا عن دخوله وبقائه وخروجه من يده، من غير خوف من الاحتياج إذا فقد، كالحريص والقانع ولا حذار من شره وأضراره إذا وجد كالزاهد. فمثله لو كانت أموال الدنيا بأسرها في يده لم تضره، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله لا في يد نفسه، فلا تفريق بين أن تكون في يده أو في يد غيره، فيكون بحيث يستوي عنده المال والهواء المخلوق في الجو، فكما أن كثرة الهواء في جواره لا يؤذيه ولا يكون قلبه مشغولا بالفرار عنه ولا يبغضه بل يستنشق منه بقدر الضرورة ولا يبخل به على أحد، فكذلك كثرة المال لا يؤذيه ولا يشغل قلبه، ويرى نفسه وغيره فيه على السواء في المالكية. ومثله ينبغي أن يسمى (مستغنيا راضيا)، لاستغنائه عنه وجودا وعدما، ورضائه بالحالتين من دون تفاوت، ومرتبته فوق الزاهد، إذ غاية درجة الزهد كمال الأبرار، وصاحب هذه المرتبة من المقربين فالزهد في حقه نقصان، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين.

والسر فيه: أن الزاهد كاره للدنيا، فهو مشغول بالدنيا، كما إن الراغب فيها مشغول بها، والشغل بما سوى الله حجاب عن الله، سواء كان بالحب أو بالبغض. فكل ما سوى الله، كالرقيب الحاضر في مجلس جمع العاشق والمعشوق. فكما إن التفات قلب العاشق إلى الرقيب وبغضه وكراهته حضوره نقص في العشق

ص ٦٢
فكذلك التفات قلب العبد إلى غير الله تعالى وبغضه وكراهته نقصان في الحب والأنس، كما أن التفاته بالحب نقص فيهما. إذ كما لا يجتمع في قلب واحد حبان في حالة واحدة، فكذلك لا يجتمع فيه حب وبغض في حالة واحدة. فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها، وإن كان الثاني أسوأ حالا من الآخر. إذ المشغول بحبها غافل في غفلته، سالك في طريق البعد، والمشغول ببغضها غافل، وهو في غفلته سالك في طريق القرب، فيحتمل زوال غفلته وتبدلها بالشهود، فالكمال مرتقب له، إذ بغض الدنيا مظنة توصل العبد إلى الله. وهرب الأنبياء والأولياء من المال، وفرارهم عنه، وترجيحهم فقده على وجوده - كما أشير إليه في بعض الأخبار والآثار -: أما نزول منهم إلى درجة الضعفاء ليقتدوا بهم في الترك، إذ الكمال في حقهم حب الترك وبغض الوجود، لأن مع وجوده يتعذر في حقهم استواء وجوده وفقده وكونه عندهم كماء البحر، فلو لم يظهر الأنبياء النفار والكراهة من المال ويقتدي الضعفاء بهم في الأخذ لهلكوا. فمثل النبي كمثل المعزم الحاذق، يفر بين يدي أولاده من الحية، لا لضعفه عن أخذها، بل لعلمه بأنه لو أخذها لأخذها أولاده أيضا إذا رأوها، وهلكوا. فالسير بسيرة الضعفاء صفة الأنبياء والأوصياء. أو غير الهرب والنفار اللازمين للبغض والكراهة وخوف الاشتغال به، بل كان نفارهم منه كنفارهم من الماء، على معنى أنهم شربوا منه بقدر حاجتهم، وتركوا الباقي في الشطوط والأنهار للمحتاجين من غير اشتغال قلوبهم بحبه وبغضه.

لا ترى أنه قد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله وخلفائه، فأخذوها ووضعوها في مواضعها، من غير هرب منه وبغض له، وذلك لاستواء المال والماء والحجر والذهب عندهم. ثم تسمية صاحب هذه المرتبة بالفقير والمستغني لا يوجب التنافي، إذ إطلاق الفقير عليه لمعرفته بكونه محتاجا إليه تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة، فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقر بها، فإنه أحق باسم العبد من الغافلين، وإن كان عاما للخلق. ثم كل مرتبة من المراتب المذكورة للفقر، ما عدا الأخيرة، أعم من أن يكون بالغا حد الاضطرار، بأن يكون ما فقده من المال مضطرا

ص ٦٣
إليه، كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب، أم لا. وأنت، بعدما فهمت اشتراك الفقر بين المعاني المذكورة، لم يشكل عليك الجمع

بين ما ورد في مدح الفقر - كما يأتي - وبين ما ورد في ذمه، كقوله (ص): كاد الفقر أن يكون كفرا ، وقوله (ص): الفقر الموت الأكبر . وقول أمير المؤمنين عليه السلام: من ابتلى بالفقر فقد ابتلى بأربع خصال: بالضعف في يقينه، والنقصان في عقله، والرقة في دينه، وقلة الحياء في وجهه. فنعوذ بالله من الفقر! .

فصل مراتب الفقر ومدحه up

قد عرفت أن بعض مراتب الفقر راجع إلى الزهد، وبعضها إلى ما هو فوقه أعني الرضى والاستغناء، وبعضها إلى القناعة. ففضيلة هذه المراتب ظاهرة، والأخبار الواردة في فضيلة الزهد والرضى والقناعة تدل على فضيلة المراتب المذكورة من الفقر. وأما المرتبة الأولى المتضمنة للحرص، فهو أيضا لا يخلو عن فضيلة بالنظر إلى الغنى المتضمن له والأخبار الواردة في مدح الفقر تناول بعمومها جميع مراتبه، قال الله سبحانه: للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم (٤٨). وقال: للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله... الآية (٤٩). ساق الله سبحانه الكلام في معرض المدح، وقدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة الاحصار، وفيه دلالة جلية على مدح الفقر (٥٠). وقال رسول الله (ص): خير هذه الأمة فقراؤها، وأسرعها تصعدا في الجنة ضعفاؤها . وقال - (ص): اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين . وقال (ص): إن لي حرفتين اثنتين، فمن أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني: الفقر والجهاد . وقال - صلى الله عليه وآله -: الفقر أزين للمؤمنين من العذار الحسن على خد الفرس . وسئل عن الفقر، فقال: خزانة من خزائن الله وسئل عنه

(هامش)

(٤٨) الحشر، الآية: ٨. (٤٩) البقرة، الآية: ٢٧٣. (٥٠) قال المحقق (الفيض) في (إحياء الأحياء): لا دلالة في الآيتين على مدح الفقر، وإنما سيقتا لبيان أن مصرف المال إنما هم الفقراء المتصفون بهذه الصفات . (*)

ص ٦٤

ثانيا، فقال: كرامة من الله . وسئل عنه ثالثا، فقال: شيء لا يعطيه إلا نبيا مرسلا أو مؤمنا كريما على الله . وقال (ص) إن في الجنة غرفة من ياقوتة حمراء، ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء لا يدخل فيها إلا نبي فقير أو مؤمن فقير . وقال: يوم فقراء أمتي يوم القيامة وثيابهم خضر، وشعورهم منسوجة بالدر والياقوت، وبأيديهم قضبان من نور يخطبون على المنابر، فيمر عليهم الأنبياء، فيقولون: هؤلاء من الملائكة، وتقول الملائكة: هؤلاء من الأنبياء. فيقولون: نحن لا ملائكة ولا أنبياء! بل من فقراء أمة محمد (ص)، فيقولون: بم نلتم هذه الكرامة؟ فيقولون: لم تكن أعمالنا شديدة، ولم نصم الدهر، ولم نقم الليل، ولكن أقمنا على الصلوات الخمس، وإذا سمعنا ذكر محمد فاضت دموعنا على خدودنا . وقال (ص): كلمني ربي فقال: يا محمد، إذا أحببت عبدا، اجعل له ثلاثة أشياء: قلبه حزينا، وبدنه سقيما، ويده خالية من حطام الدنيا. وإذا أبغضت عبدا، اجعل له ثلاثة أشياء: قلبه مسرورا، وبدنه صحيحا، ويده مملوءة من حطام الدنيا . وقال (ص): الناس كلهم مشتاقون إلى الجنة، والجنة مشتاقة إلى الفقراء . وقال (ص): الفقر فخري . وقال (ص): تحفة المؤمن من الدنيا الفقر . وقال (ص): يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الأخ إلى أخيه في الدنيا، فيقول: وعزتي وجلالي! ما زويت الدنيا عنك لهوانك علي، ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة. أخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف، فمن أطعمك في أو كساك في يريد بذلك وجهي، فخذ بيده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم الغرق. فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به، ويدخله الجنة . وقال (ص): أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي، فإن لهم دولة ، قالوا: يا رسول الله، وما دولتهم؟ قال: إذا كان يوم القيامة، قيل لهم: انظروا إلى من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا، فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة .

وقال (ص): ألا أخبركم بملوك أهل الجنة؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذي طمرين

ص ٦٥

لا يؤبه به لو أقسم على الله لأبره . ودخل (ص) على رجل فقير، ولم ير له شيئا، فقال: لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم . وقال (ص): إذا أبغض الناس فقراءهم، وأظهروا عمارة الدنيا، وتكالبوا على جمع الدراهم والدنانير، رماهم الله بأربع خصال:

بالقحط من الزمان، والجور من السلطان، والجناية من ولاة الحكام، والشوكة من الأعداء (٥١). وورد من طريق أهل البيت عليهم السلام: إن الله تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه، فإذا أحبه الحب البالغ أفتناه. قيل: وما أفتناه؟ قال: لم يترك له أهلا ولا مالا . وقال أمير المؤمنين عليه السلام: وكل الرزق بالحمق، ووكل الحرمان بالعقل، ووكل البلاء بالصبر . وقال الباقر عليه السلام: إذا كان يوم القيامة، أمر الله تعالى مناديا ينادي بين يديه: أين الفقراء؟ فيقوم عنق من الناس كثير، فيقول: عبادي! فيقولون: لبيك ربنا! فيقول: إني لم أفقركم لهون بكم علي، ولكن إنما اخترتكم لمثل هذا اليوم. تصفحوا وجوه الناس، فمن صنع إليكم معروفا لم يصنعه إلا في فكافوه عني بالجنة . وقال الصادق عليه السلام: لولا إلحاح المؤمنين على الله في طلب الرزق، لنقلهم من الحال التي هم فيها إلى حال أضيق منها . وقال عليه السلام: ليس لمصاص (٥٢) شيعتنا في دولة الباطل إلا القوت، شرقوا إن شئتم أو غربوا، لن ترزقوا إلا القوت . وقال عليه السلام: ما كان من ولد آدم مؤمن إلا فقيرا ولا كافر إلا غنيا، حتى جاء إبراهيم عليه السلام، فقال: ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا (٥٣). فصير الله في هؤلاء أموالا وحاجة . وقال عليه السلام: إن فقراء المؤمنين يتقلبون في رياض الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفا ، ثم قال: سأضرب لك مثل ذلك: إنما مثل ذلك مثل ذلك مثل سفينتين مر بهما على عاشر، فنظر في إحداهما فلم ير فيها شيئا، فقال اسربوها.

ونظر في الأخرى، فإذا هي موقرة، فقال: احبسوها . وفي بعض

(هامش)

(٥١) هذه الأخبار كلها عامية، فصححناها على (إحياء العلوم)، و(إحياء الأحياء). (٥٢) المصاص: خالص كل شيء. قاله الجوهري. (٥٣) الممتحنة، الآية: ٥. ج: ٢ (*)

ص ٦٦

الأخبار: فسر الخريف بألف عام، والعام بألف سنة. وعلى هذا، فيكون المراد من أربعين خريفا أربعين ألف ألف عام. وقال الصادق عليه السلام: المصائب منح من الله، والفقر مخزون عند الله : أي المصائب عطايا من الله يعطيها عباده، والفقر من جملتها مخزون عنده عزيز لا يعطيه إلا من خصه بمزيد العناية. وقال عليه السلام: إن الله عز وجل يلتفت يوم القيامة إلى فقراء المؤمنين شبيها بالمعتذر إليهم، فيقول: وعزتي وجلالي! ما أفقرتكم في الدنيا من هوان بكم علي، ولترون ما أصنع بكم اليوم، فمن زود منكم في دار الدنيا معروفا فخذوا بيده فأدخلوه الجنة ، قال: فيقول رجل منهم: يا رب، إن أهل الدنيا تنافسوا في دنياهم، فنكحوا النساء، ولبسوا الثياب اللينة، وأكلوا الطعام، وسكنوا الدور، وركبوا المشهور من الدواب. فاعطني مثل ما أعطيتهم. فيقول تبارك وتعالى: لك ولكل عبد منكم مثل ما أعطيت أهل الدنيا منذ كانت الدنيا إلى أن انقضت الدنيا سبعون ضعفا . وقال عليه السلام: إن الله جل ثناؤه ليعتذر إلى عبده المؤمن المحوج في الدنيا كما يعتذر الأخ إلى أخيه، فيقول: وعزتي وجلالي! ما أحوجتك في الدنيا من هوان كان بك علي، فارفع هذا السجف، فانظر إلى ما عوضتك من الدنيا. قال: فيرفع، فيقول: ما ضرني ما منعتني ما عوضتني . وقال عليه السلام: إذا كان يوم القيامة قام عنق من الناس حتى يأتوا باب الجنة، فيضربوا باب الجنة، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون نحن الفقراء، فيقال لهم: اقبلوا الحساب، فيقولون: ما أعطيتمونا شيئا تحاسبونا عليه، فيقول الله عز وجل: صدقوا، ادخلوا الجنة .

وقال - لبعض أصحابه: أما تدخل للسوق؟ أما ترى الفاكهة تباع والشئ مما تشتهيه؟ فقلت: بلى! فقال: أما إن لك بكل ما تراه فلا تقدر على شراه حسنة . وقال الكاظم عليه السلام: إن الله عز وجل يقول: إني لم أغن الغني لكرامة به علي، ولم أفقر الفقير لهوان به علي، وهو مما ابتليت به الأغنياء بالفقراء، ولولا الفقراء لم يستوجب الأغنياء الجنة (٥٤).

(هامش)

(٥٤) صححنا أغلب الأحاديث المروية عن أهل البيت - عليهم السلام - في هذا الفصل على (الكافي): باب الفقر. وعلى (سفينة البحار): ٢ / ٣٧٧. وعلى (إحياء الأحياء): كتاب الفقر. (*)

ص ٦٧

وقال عليه السلام: إن الأنبياء وأولاد الأنبياء وأتباع الأنبياء خصوا بثلاث خصال: السقم في الأبدان، وخوف السلطان، والفقر .

وقال الرضا عليه السلام: من لقي فقيرا مسلما وسلم عليه خلاف سلامه على الغني لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان . وقال عليه السلام: الفقر شين عند الناس وزين عند الله يوم القيامة وقال موسى عليه السلام في بعض مناجاته: إلهي، من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك؟ فقال: كل فقير . وقال عيسى عليه السلام: إن أحب الأسامي إلي أن يقال: يا مسكين . وقال بعض الصحابة: ملعون من أكرم الغني وأهان الفقير . وقال لقمان لابنه: لا تحقرن أحدا لخلقان ثيابه، قال ربك وربه واحد . ومما يدل على فضيلة الفقر، إذا كان مع الرضى أو القناعة أو الصبر أو الصدق أو الستر، قوله (ص): يا معشر الفقراء: أعطوا الله الرضى من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم، فإن لم تفعلوا فلا ثواب لكم . وقوله (ص): إن أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضي عن الله تعالى . وقوله (ص): لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا . وقوله (ص): يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟ فتقول الملائكة: من هم يا ربنا؟ فيقول: فقراء المسلمين القانعين بعطائي الراضين بقدري، ادخلوهم الجنة. فيدخلونها، ويأكلون ويشربون، والناس في الحساب يترددون . وقوله (ص): ما من أحد، غني ولا فقير، إلا ود يوم القيامة إنه كان أوتي قوتا في الدنيا وقوله (ص): طوبى للمساكين بالصبر وهم الذين يرون ملكوت السماوات والأرض . وقوله (ص): من جاع أو أحتاج، فكتمه عن الناس وأفشاه إلى الله تعالى، كان حقا على الله أن يرزقه رزق السنة من الحلال . وقوله (ص): إن لكل شيء مفتاحا، ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصابرين، وهم جلساء الله يوم القيامة . وما روي: إن الله أوحى إلى إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي. قال: ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون .

وقال رسول الله (ص) لأمير المؤمنين عليه السلام: يا علي، إن الله جعل الفقر أمانة عند خلقه، فمن ستره أعطاه الله تعالى مثل أجر الصائم القائم، ومن

ص ٦٨

أفشاه إلى من يقدر على قضاء حاجته فلم يفعل فقد قتله أما إنه ما قتله بسيف ولا رمح ولكنه قتله بما نكأ من قلبه . ثم لا ريب في أن كل من لم يجد القوت من التعفف وستر احتياجه هذا وصبر ورضي يكون داخلا تحت هذه الأخبار وتثبت له الفضيلة التي وردت فيها، ولا ريب في أن هذه صفة لا توجد في ألف ألف واحد. وأما الفقير الحريص الذي يظهر فقره ويجزع معه، فظاهر بعض الأخبار وإن تناوله، إلا أن الظاهر خروجه منها كما أومأت إليه بعض الأخبار المذكورة وإن كان أحسن حالا من الغني الذي مثله في الحرص.

فصل الموازنة بين الفقر والغنى up

لا ريب في أن الفقر مع الصبر والقناعة وقصد الفراغ أفضل من الغنى مع الحرص والإمساك، كما لا ريب في أن الغنى مع الإنفاق وقصد الاستعانة على العبادة أفضل من الفقر مع الحرص والجزع، وإنما وقع الشك في الترجيح بين الفقر والغنى في مواضع: (الأول) في الترجيح بين الفقر مع الصبر، والقناعة والغنى مع الإنفاق وقصد الاستعانة على العبادة، فقال قوم إن الأول أفضل، لما روي: إن رسول الله (ص) قال لأصحابه: أي الناس خير؟ فقالوا: موسر من المال يعطي حق الله تعالى من نفسه وماله، فقال: نعم الرجل هذا وليس به المراد، قالوا فمن خير الناس يا رسول الله؟ فقال: فقير يعطي جهده ، وما روي: إن الفقراء بعثوا رسولا إلى رسول الله (ص)، فقال: إني رسول الفقراء إليك، فقال: مرحبا بك وبمن جئت من عندهم، جئت من عند قوم أحبهم، فقال: قالوا إن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجون ولا نقدر عليه، ويعتمرون ولا نقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم، فقال النبي (ص): بلغ عني الفقراء إن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء: أما (الأولى) فإن في الجنة غرفا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء، لا يدخلها إلا نبي فقير، أو شهيد فقير، أو مؤمن فقير، (والثانية) يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء

ص ٦٩

بنصف يوم وهو خمسمائة عام. (والثالثة) إذا قال الغني: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وقال الفقير مثل ذلك، لم يلحق الغني بالفقير وإن أنفق فيها عشرة آلاف درهم، وكذلك أعمال البر كلها، فرجع إليهم، فقالوا رضينا . وقال آخرون: الثاني أفضل، لأن الغنى من صفات الربوبية، والفقر من لوازم العبودية، ووصف الحق أفضل من وصف العبد. (وأجيب عنه) بأن غنى الواجب

سبحانه ليس بالأسباب والأغراض، وغنى العبد بهما، إذ هو غني بوجود المال ومفتقر إلى بقائه، فأنى يكون الغنى الذي يتصف العبد به من أوصاف الربوبية، نعم الغنى بمعنى الاستغناء من وجود المال وعدمه جميعا بأن يستوي كلاهما عنده يشبه أوصاف الحق، إلا أنك قد عرفت أنه نوع من الفقر، وبأن التكبر من أوصاف الربوبية، فينبغي أن يكون أفضل من التواضع، مع أن الأمر ليس كذلك، بل الحق إن الأفضل للعبد إنما هو صفات العبودية كالخوف والرجاء، إذ صفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها، ولذلك قال الله سبحانه: والعظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما قصمته . وعلى هذا فالفقر أفضل من الغنى. والحق أن ترجيح واحد من صفات الربوبية وصفات العبودية على الآخر للعبد على الإطلاق غير صحيح، إذ كما ينتقض ترجيح الأولى على الثانية بالتكبر ينتقض العكس بالعلم والمعرفة والجهل والغفلة، فإن العلم من صفات الربوبية، والجهل من صفات العبودية، مع أن الأول أفضل من الثاني ضرورة.

والحق أن الأفضل من الفقر والغنى ما لا يشغل العبد عن الله، فإن كان الفقر يشغله فالغنى أولى به، وإن كان الغنى يشغله عن الله فالفقر أولى به، وذلك لأن الغنى ليس محذورا بعينه، بل لكونه عائقا عن الوصول إلى الله، والفقر ليس مطلوبا لذاته، بل لعدم كونه عائقا عن الله، وليس مانعية الأول وعدم مانعية الثاني كليا، إذ رب فقير يشغله الفقر عن المقصد وكم من غني لا يصرفه الغنى عنه، إذ الشاغل ليس إلا حب الدنيا، لمضادته حب الله تعالى، والمحب للشئ مشغول به، سواء كان في وصاله أو في فراقه.

ص ٧٠

فإذن فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبهما بالمال وجودا وعدما، فإن تساويا فيه تساوت درجتهما. وإن تفاوتا فيه فأيهما أقل تعلقا درجته أعلى وأفضل بل مع وجود تعلق لهما وتساويهما فيه يكون وجود قدر الحاجة من المال أفضل من فقده، إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة والطاعة. ومع عدم تعلق قلبهما أصلا بحيث يستوي عندهما وجود المال وعدمه كان المال عندهما كهواء الجو وماء البحر - وبالجملة حصلت لهما المرتبة الأخيرة من الفقر، أعني الاستغناء والرضا - كان الواجد أفضل من الفاقد، لاستوائهما في عدم الالتفات إليه، ومزية الواجد باستفادة أدعية الفقراء والمساكين. ثم الحكم بانقطاع القلب رأسا عن المال وجودا وعدما إنما يتصور في الشاذ النادر الذي لا يسمح الدهر بمثله إلا بعد أزمنة متطاولة، وقلوب جل الناس غير خالية عن حب المال والتعلق به.

فتفصيل القول بأفضلية من هو أقل تعلقا بالمال، إستواء درجتهما مع استوائهما في التعلق، ومزية الواجد على الفاقد مع انقطاع قلبهما بالكلية عنه مزلة الأقدام وموضع الغرور، إذ الغني ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال ويكون حبه دفينا في باطنه وهو لا يشعر به، وإنما يشعر به إذا فقده، فما عدا الأنبياء والأولياء وشر ذمة قليلة من أكابر الأتقياء لو ظنوا انقطاعهم عن الدنيا إذا جربوا أنفسهم بإخراج المال من أيديهم يظهر لهم أنهم مغرورون وليس لهم تمام الانقطاع عن الدنيا، وإذا كان ذلك محالا أو بعيدا فليطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الناس وأفضل، لأنه عن الخطر أبعد، إذ فتنة السراء من فتنة الضراء أشد، وعلاقة الفقير وأنسه بالدنيا غالبا أضعف، وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب أذكاره وعبادته، إذ حركات اللسان والجوارح ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور وتأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ عن غير المذكور أشد من تأثيرها في قلب مشغول، ولهذا وردت الأخبار مطلقة في فضل الفقر على الغنى، وفي فضل الفقراء على الأغنياء. (الثاني) في الترجيح بين الفقر مع الحرص والجزع، والغنى مع الحرص والإمساك. والتحقيق فيه أن مطلوب الفقير إن كان ما لا بد منه في

ص ٧١

المعيشة وكان حرصه في تحصيل هذا القدر دون الزائد منه وكان قصده الاستعانة به على الدين، وكذا كان حرص الغني وإمساكه في هذا القدر بهذا القصد، فحال الوجود أفضل لأن الفقد يصده عن أمور الدين لاضطراره في طلب القوت، وهو أولى بالتفضيل إذا كان قصد الغني ذلك وكان مطلوب الفقير فوق الحاجة، أو قدر الحاجة بدون قصد الاستعانة به إلى أمر الدين. وإن كان مطلوب كل منها فوق الحاجة، أو لم يكن قصدهما الاستعانة به على أمر الدين، فالفقد أصلح وأفضل، لأنهما استويا في الحرص وحب المال، وفي عدم قصد الاستعانة به على الدين، لكنهما افترقا في أن الواجد يتأكد حب الدنيا في قلبه، ويطمئن إليها لأنسه بها، والفاقد يتجافى قلبه عنها اضطرارا، أو تكون الدنيا عنده كالسجن الذي يطلب الخلاص منه. وهو أولى وأحرى بالتفضيل، إذا كان قصد الفقير ذلك وكان قصد الغنى فوق الحاجة، أو قدر بدون الاستعانة به على أمر الدين. (الثالث) في الترجيح بين فقير حريص متكالب على الدنيا ليس له

هم سواه، وغنى هو دونه في الحرص على حفظ المال، وتفجعه بفقد المال لو فقده أقل من تفجع الفقير بفقده، والظاهر حينئذ كون الفقير أسوأ حالا، إذ البعد عن الله بقدر قوة التفجع بفقد المال، والقرب بقدر ضعف التفجيع به.

فصل ما ينبغي للفقير up

ينبغي للفقير ألا يكون كارها للفقر من حيث إنه فعل الله ومن حيث أنه فقر، بل يكون راضيا به طالبا له فرحانا به لعلمه بغوائل الغنى، وأن يكون متوكلا في باطنه على الله، واثقا به في إتيان قدر ضرورته، ويكون قانعا به، كارها للزيادة عليه، منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم، وغير حريص على اكتساب المال كيف كان، وأن يكون صابرا شاكرا على فقره، قال أمير المؤمنين (ع): إن لله عقوبات بالفقر، ومثوبات بالفقر، فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه، ويطيع به ربه، ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره، ومن

ص ٧٢

علاماته إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه، ويعصي ربه بترك طاعته، ويكثر الشكاية، ويتسخط بالقضاء ، وهذا يدل على أن كل فقير ليس مثابا على فقره، بل من يرضى بفقره، ويفرح به، ويقنع بالكفاف، ويقصر الأمل، وإن لم يرض به وتشوف إلى الكثرة وطول الأمل، وفاته عز القناعة، وتدنس بذل الحرص والطمع، وجره الحرص والطمع إلى مساوي الأخلاق، وارتكاب المنكرات الخارقة للمروات حبط أجره وكان آثما قلبه. وينبغي أن يظهر التعفف ويستر الفقر ويستر أنه يستر، وألا يخالط الأغنياء، ولا يرغب في مجالستهم، ولا يتواضع لهم لأجل غناهم بل يتكبر عليهم. قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله ، وألا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء، وطمعا بما في أيديهم، ولا يفتر بسبب فقره عن عبادة الله، ويبذل قليل ما يفضل عنه، فإن ذلك جهد المقل، وفضله أكثر من أموال كثيرة يبذلها الغني، قال رسول الله (ص): درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف دينار ، قيل وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف دينار يتصدق بها، وأخرج رجل درهما من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب مائة ألف دينار ، وينبغي ألا يدخر أزيد من قدر الحاجة، فإن لم يدخر أكثر من قوت يومه وليلته فهو من الصديقين، وإن لم يدخر أكثر من قوت أربعين يوما كان من المتقين، وإن لم يدخر أكثر من قوت سنة - وهو الفضل المشترك بين الفقر والغنى - كان من الصالحين، ولو زاد عليه خرج عن زمرة الفقراء.

فصل وظيفة الفقراء up

ما يعطى الفقير بغير سؤاله: إن كان (حراما أو شبهة) وجب عليه رده والاجتناب عنه، وإن كان (حلالا)، فإن كان (هدية) استحب قبوله تأسيا برسول الله (ص) إن لم تكن فيه منة، ولو كانت فيه منة فالأولى تركه. وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول له أتركه عندك،

ص ٧٣

وانظر إن كنت أنا بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول فأخبرني حتى آخذه وإلا فلا، وعلامة ذلك أن يشق على المعطي رده، ويفرح بالقبول، ويرى المنة على نفسه في قبوله، وإن كان (صدقة أو زكاة) أو غير ذلك مما يكون للثواب المحض فينبغي أن ينظر في استحقاقه لذلك، فإن كان من أهله قبله وإلا رده، وإن كان المعطي أعطاه لوصف يعلمه فيه كعلم أو ورع أو كونه علويا، ولو لم يكن له هذا الاختصاص لنفر طبعه، ولما تقرب إلى الله بإعطائه، ولم يكن له باطنا كذلك فأخذه حرام، وإن لم يكن هدية ولا صدقة بل أعطاه للشهرة والرياء والسمعة فينبغي أن يرد عليه ولا يقبله، وإلا كان معينا له على غرضه الفاسد، والاعانة على الإثم إثم.

فصل موارد قبول العطاء وردها up

ما يعطى الفقير إن كان محتاجا إليه ولم يكن أزيد من حاجته فالأفضل له الأخذ إذا سلم من الآفات المذكورة، قال رسول الله (ص): ما المعطي من سعة بأعظم أجرا من الآخذ إذا كان محتاجا ، وقال (ص): من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه فلا يرده ، وإن كان زائدا على قدر حاجته فليرد الزائد إن كان طالبا طريق الآخرة، إذ الزيادة على قدر

الحاجة إنما يأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه، وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك، فأنت في أخذ قدر الحاجة مثاب، وفيما زاد عليه إما عاص أو متعرض للحساب، قال رسول الله (ص): لا حق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يواري عورته، وبيت يسكنه، فما زاد فهو حساب ، فلا ينبغي لطالب السعادة أن يأخذ الأزيد من قدر الحاجة، إذ النفس إذا رخصت في نقض العزم والعهد ألفت به، وردها بعد الألف والعادة مشكل. والحاصل أن أخذ قدر الحاجة راجح لكونه مما لا بد منه، وإيجابه ثواب المعطي، ولذلك لما أمر موسى بن عمران (ع) بأن يفطر عند بني إسرائيل قال: إلهي ما بالي فرقت رزقي على أيدي بني إسرائيل يغديني هذا يوما ويعشيني ذا ليلة، فأوحى الله إليه: هكذا أصنع بأوليائي

ص ٧٤

أجري أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم . فلا ينبغي أن يرى المعطي إلا من حيث إنه مسخر مأجور. وأما أخذ الزيادة على قدر الحاجة فليس مما ينبغي: نعم من كان حاله التكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم، لما في طبعه من البذل والسخاء، والرفق والعطاء، فيجوز له أخذ الزيادة ليبذلها على المستحقين، ولكن يلزم أن يبادر إلى الصرف إليهم ولا ينبغي أن يدخر، إذ في إمساكه ولو في يوم واحد أو ليلة واحدة فتنة واختبار، فربما مالت النفس إلى الامساك ويصير وبالا عليها، وقد نقل أن جماعة تصدوا لخدمة الفقراء والتكفل لأحوالهم فخدعتهم النفس الأمارة بإعانة الشيطان فاتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال، والتنعم في المطعم والمشرب، وانجر أمرهم إلى الهلاك.

فصل لا يجوز السؤال من غير حاجة up

ينبغي للمؤمن ألا يسأل الناس من غير حاجة اضطر إليها، بل يستعف عن السؤال ما استطاع، لأنه فقر معجل، وحساب طويل يوم القيامة، والأصل فيه التحريم لتضمنه الشكوى من الله، وإذلال السائل نفسه عند غير الله، وإيذاء المسؤل غالبا، إذ ربما لم تسمح نفسه بالبذل عن طيب القلب، وبعد السؤال ألجأه الحياء أو الرياء إليه، ومعلوم أن الاعطاء استحياء أو رياء لئلا ينقص جاهه عند الناس بنسبتهم إياه إلى البخل لا يكون له حلية شرعا. ولتضمنه هذه المفاسد ورد في الشريعة المنع منه، قال: رسول الله (ص): مسألة الناس من الفواحش ، وقال (ص): من سأل عن ظهر غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم، ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع ليس عليه لحم . وقال: من سأل الناس وعنده قوت ثلاثة أيام لقي الله يوم يلقاه وليس على وجهه لحم (٥٥) وقال (ص): ما من عبد فتح على نفسه بابا من المسألة إلا فتح الله عليه سبعين بابا من

(هامش)

(٥٥) روى هذا الحديث عينه عن الصادق (ع) (الوسائل كتاب الزكاة أبواب الصدقة الباب ٣٢ الحديث ٥). (*)

ص ٧٥

الفقر . وقال: إن المسألة لا تحل إلا لفقر مدقع أو غرم مفظع . وقال: السؤال عن ظهر غنى صداع في الرأس، وداء في البطن . وقال: من سأل الناس أموالهم تكثرا فإنما هي جمرة فليستقل منه أو ليستكثر . وروي: أنه جاءت نخذ من الأنصار إلى رسول الله (ص) فسلموا عليه فرد عليهم السلام، فقالوا يا رسول الله إن لنا إليك حاجة فقال: (هاتوا حاجتكم) فقالوا إنها حاجة عظيمة فقال: (هاتوها ما هي) قالوا: تضمن لنا على ربك الجنة، فنكس رأسه، ثم نكت (٥٦) في الأرض، ثم رفع رأسه فقال: (أفعل ذلك بكم على ألا تسألوا أحدا شيئا)، فكان الرجل منهم يكون في السفر فيسقط سوطه، فيكره أن يقول لانسان ناولنيه فرارا من المسألة وينزل فيأخذه، ويكون على المائدة ويكون بعض الجلساء أقرب إلى الماء منه فلا يقول ناولني حتى يقوم فيشرب (٥٧) وبايع (ص) قوما على الإسلام، فاشترط عليهم السمع والطاعة، ثم قال لهم خفية: لا تسألوا الناس شيئا ، فكان بعد ذلك تقع المخفرة من يد أحدهم فينزل لها ولا يقول لأحد ناولنيها. وكان (ص) يأمر غالبا بالتعفف عن السؤال، ويقول: من سألنا أعطيناه، ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا وقال: وما قل من السؤال فهو خير قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال: ومني . وقال: لو أن أحدكم أخذ حبلا فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها ويكف بها وجهه، خير له من أن يسأل . وقال سيد الساجدين (ع): ضمنت على ربي أنه لا يسأل أحد أحدا من غير حاجة إلا اضطرته المسألة يوما إلى أن يسأل من حاجة ونظر (ع) يوم عرفة إلى رجال ونساء يسألون،

فقال هؤلاء شرار خلق الله، الناس مقبلون على الله وهم مقبلون على الناس ، وقال الباقر (ع): أقسم بالله وهو حق ما فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه
(هامش)
)
٥) نكت الأرض بقضيب أو بأصبعه ضربها به حال التفكر فأكثر فيها، (٥٧) صححنا الحديث على الوسائل (كتاب الزكاة أبواب الصدقة الباب ٣٣ الحديث ٤) وهو يرويه عن الكافي. (*)
ص ٧٦
باب فقر ، وقال الصادق (ع): طلب الحوائج إلى الناس استلاب (٥٨) للعز مذهبة للحياء، واليأس مما في أيدي الناس عز للمؤمن في دينه، والطمع هو الفقر الحاضر . وقال الصادق (ع): لو يعلم السائل ما عليه من الوزر ما سأل أحد أحدا، ولو يعلم المسؤل ما عليه إذا منع ما منع أحدا أحدا . وقال: من سأل من غير حاجة فكأنما يأكل الجمر . ثم المنع والتحريم إنما هو في السؤال بدون الاضطرار، وأما مع الحاجة والاضطرار فلا ريب في جوازه، وقد وردت به الرخصة، قال الله سبحانه: وأما السائل فلا تنهر (٥٩). وقال رسول الله: لا تردوا السائل ولو بشق تمرة وقال (ص): لولا أن السائل يكذب ما قدس من ورده وقال (ص): للسائل حق وإن جاء على الفرس وقال (ص): لا تردوا السائل ولو بظلف محترق (٦٠). ولو كان السؤال مطلقا حراما لما أجاز الله ورسوله إعانة العاصي على معصيته. ثم الحاجة المجوزة للسؤال: ما بلغت حد الاضطرار، كسؤال الجائع الخائف على نفسه بالموت أو المرض لو لم يصل إليه قوت، وسؤال العاري الذي بدنه مكشوف ويخاف من الحر والبرد - أو لم تبلغ إليه، وهي إما حاجة (مهمة) كالاحتياج إلى الجبة في الشتاء بحيث لولاها لتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهي إلى حد الضرورة، والاحتياج إلى الكرى مع القدرة على المشي مع المشقة، أو حاجة (خفيفة) كالاحتياج إلى الإدام مع وجود الخبز - فالظاهر جواز السؤال في جميع ذلك (مع رجحانه في الأول، وإباحته في الثاني، ومرجوحيته في الثالث)، بشرط إخلائه عن المحذورات المذكورة،
(هامش)
)
٥٨) الاستلاب بمعنى السلب، وهو من باب الافتعال. (٥٩) الضحى، الآية: ١٠. (٦٠) صححنا أكثر الأحاديث هنا على ما في سفينة البحار الجزء الأول ص ٥٨٥ وكتاب الزكاة من الوسائل أبواب الصدقة باب ٢٣ - ٣٧ وإحياء الأحياء في كتاب الفقر. (*)
ص ٧٧
أعني. الشكوى والذل والإيذاء، وتندفع هذه المحذورات بأن يظهر حاجته تعريضا بعد تقديم الشكر لله، وإظهار الاستغناء عن الخلق عند بعض الأصدقاء أو الأسخياء، إذ السؤال من الصديق لا يوجب الإذلال، والسخي لا يتأذى بالسؤال بل يفرح به. ثم ما ذكر إنما هو في السؤال للاحتياج إليه بعد النسبة لما يحتاج إليه في الحال، وأما السؤال لما يحتاج إليه في الاستقبال، فإن كان يحتاج إليه بعد السنة فهو حرام قطعا، وإن كان يحتاج إليه قبلها، سواء كان بعد أربعين يوما من يومه أو خمسين أو أقل أو أكثر، فإن أمكنه السؤال عند بلوغ وقت الحاجة فلا يحل له السؤال، وإن علم بأنه لا يتمكن من السؤال عنده فهو جائز مع الكراهة والمرجوحية، وكلما كان تراخي الحاجة عن يومه أكثر كانت الكراهة أشد. ثم معرفة درجات الحاجة وضعفها وشدتها والوقت الذي يحتاج فيه موكول إلى العبد ومنوط باجتهاده ونظره لنفسه بينه وبين الله، فليعمل به بعد استغناء قلبه على ما يقتضيه سلوك طريق الآخرة، وكلما كان يقينه أقوى، وثقته بمجئ الرزق أتم، وقناعته بقوت الوقت أظهر، فدرجته عند الله أعلى. فيا حبيبي، لا تهبط نفسك من أوج التوكل والاعتماد على الله إلى حضيض الخوف والاضطراب في مجئ رزقك، ولا تصغ إلى تخويف الشيطان، فإنه يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، وكن مطمئنا بوعد ربك، إذ قال: والله يعدكم مغفرة منه وفضلا (٦١). واسمع قول نبيك (ص) حيث قال: لو توكلتم على الله حق توكله، لرزقتم كما ترزق الطيور، تغدوا خماصا وتروح بطانا . ومنها:
• الحرص up
وهو معنى راتب في النفس، باعث على جميع ما لا يحتاج إليه ولا يفيده من الأموال، من دون أن ينتهي إلى حد يكتفى به، وهو

أقوى شعب حب
(هامش)
(٦١) البقرة، الآية: ٢٦٨. (*)
ص ٧٨
الدنيا وأشهر أنواعه. ولا ريب في كونه ملكة مهلكة وصفة مضلة، بل بادية مظلمة الأرجاء والأطراف، وهاوية غير متناهية الأعماق والأكناف، من وقع فيها ضل وباد، ومن سقط فيها هلك وما عاد. والتجربة والاعتبار والأخبار والآثار متظاهرة على أن الحريص لا ينتهي إلى حد يقف دونه، بل لا يزال يخوض في غمرات الدنيا إلى أن يغرق، وتطرحه أرض إلى أرض حتى يهلك. قال رسول الله (ص): لو كان لابن آدم واديان من ذهب، لابتغى وراءهما ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب . وقال (ص): منهومان لا يشبعان: منهوم العلم، ومنهوم المال . وقال (ص): يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان: الحرص، وطول الأمل . وقال أبو جعفر الباقر (ع): مثل الحريص على الدنيا كمثل دودة القز، كلما ازدادت على نفسها لفا كان أبعد لها من الخروج، حتى تموت غما . وقال الصادق (ع): إن فيما نزل به الوحي من السماء: لو أن لابن آدم واديين يسيلان ذهبا وفضة لابتغى لهما ثالثا. يا ابن آدم، إنما بطنك بحر من البحور وواد من الأودية، لا يملأه شيء إلا التراب . وقال بعض الأكابر: من عجيب أمر الإنسان، إنه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع وتوقع الزوال . ثم ما ورد من الأخبار في ذمه أكثر من أن تحصى، ولا حاجة إلى إيرادها لاشتهارها. وقال الباقر (ع): رب حريص على أمر قد شقي به حين أتاه، ورب كاره لأمر قد سعد به حين أتاه . وأي خسران أشد من أن يسعى الإنسان في طلب به هلاكه؟ وأي تأمل في أن كلما يحرص عليه الإنسان من أموال الدنيا يكون مهلكا له؟!
وصل القناعة up
ضد الحرص (القناعة). وهي ملكة للنفس: توجب الاكتفاء بقدر الحاجة والضرورة من المال، من دون سعي وتعب في طلب الزائد عنه، وهي صفة فاضلة يتوقف عليها كسب سائر الفضائل، وعدمها يؤدي بالعبد
ص ٧٩
إلى مساوي الأخلاق والرذائل، وهي المظنة للوصول إلى المقصد، وأعظم الوسائل لتحصيل سعادة الأبد، إذ من قنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس، ويقتصر على أقله قدرا أو أخسه نوعا، ويرد أمله إلى يومه أو إلى شهره، ولا يشغل قلبه بالزائد عن ذلك، كان فارغ البال مجتمع الهم فيتمكن من الاشتغال بأمر الدين وسلوك طريق الآخرة، ومن فاته القناعة وتدنس بالحرص والطمع وطول الأمل، وخاض في غمرات الدنيا، تفرق قلبه وتشتت أمره. فكيف يمكنه التشمر لتحصيل أمر الدين والوصول إلى درجات المتقين؟ ولذلك ورد في مدح القناعة ما ورد من الأخبار، قال رسول الله (ص): طوبى لمن هدي للإسلام، وكان عيشه كفافا وقنع به وقال: ما من أحد، من غني ولا فقير، إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا . وقال (ع) -: أيها الناس، أجملوا في الطلب، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له في الدنيا، وأن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له في الدنيا وهي راغمة . وقال (ص) نفث روح القدس في روعي: إنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها. فاتقوا الله وأجملوا في الطلب . وقال (ص): كن ورعا تكن أعبد الناس، وكن قانعا تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا وفي الخبر القدسي يا ابن آدم، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك، فأنا إليك محسن . وروي: إن موسى سأل ربه تعالى، وقال: أي عبادك أغنى؟ قال: أقنعهم لما أعطيته .
وقال أمير المؤمنين (ع): ابن آدم ، إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك، فإن أيسر ما فيها يكفيك، وإن كنت إنما تريد ما لا يكفيك، فإن كل ما فيها لا يكفيك وقال أبو جعفر الباقر (ع): إياك أن تطمح بصرك إلى من هو فوقك، فكفى بما قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم (٦٢). وقال: ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا (٦٣).
(هامش)
(٦٢) التوبة، الآية: ٥٥. (٦٣) طه، الآية: ١٣١. (*)

ص ٨٠
فإن دخلك من ذلك شيء، فاذكر عيش رسول الله (ص) فإنما كان قوته الشعير، وحلواه التمر، ووقوده السعف إذا وجده (٦٤) وقال: من قنع بما رزقه الله فهو من أغنى الناس . وقال الصادق (ع) من رضي من الله باليسير من المعاش رضي الله عنه باليسير من العمل وقال: مكتوب في التوراة: ابن آدم، كن كيف شئت كما تدين تدان، من رضي من الله بالقليل من الرزق قبل الله منه اليسير من العمل، ومن رضي باليسير من الحلال خفت مؤنته وزكت مكسبته وخرج من حد الفجور وقال: إن الله عز وجل يقول: يحزن عبدي المؤمن إن قترت عليه، وذلك أقرب له مني، ويفرح عبدي المؤمن إن وسعت عليه، وذلك أبعد له مني وقال: كلما ازداد العبد إيمانا ازداد ضيقا في معيشته . والأخبار الواردة في فضيلة القناعة أكثر من أن تحصى، وما أوردناه كاف لأهل البصيرة.
فصل علاج الحرص up
طريق المعالجة في إزالة الحرص وتحصيل القناعة: أن يتذكر أولا ما في القناعة من المدح والشرافة، وعز النفس وفضيلة الحرية، وما في الحرص من الذم والمهانة، وتحمل الذلة ومتابعة الشهوة. ويعرف أن من لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن، فهو قليل العقل ناقص الإيمان. ثم يتذكر ما في جميع المال من الآفات الدنيوية والعقوبات الأخروية، ويكثر التأمل فيما مضى عليه عظماء الخلق وأعز أصنافهم، أعني الأنبياء والأوصياء ومن سار بسيرتهم من السلف الأتقياء، من صبرهم على القليل، وقناعتهم باليسير، وفيما يجري عليه الكفار من الهندو واليهود والنصارى وأراذل الناس وأغنيائهم وأمثالهم، من التنعم وجمع المال الكثير. وبعد هذا التأمل لا أظنه يشك في أن الاقتداء بأعز الخلائق أحسن من الاقتداء بأراذلهم، بل المتأمل يعرف أن الحريص
(هامش)
(٦٤) صححنا الحديث وما قبله على ما في (الكافي): باب القناعة، وكذا الحديثين المذكورين بعده. إلا أن هذا الحديث مروي في (الكافي) عن أبي جعفر - عليه السلام -. وروي في (الوسائل) عن كتاب الزهد، في أبواب جهاد النفس من كتاب الجهاد: الباب ٦١ الحديث ١١، ما يقرب من عبارة هذا الحديث عن أبي عبد الله - عليه السلام -. (*)
الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

## ٢٠٥ جامع السعادات (ج2)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب
ص ٨١
المتكالب على لذات الدنيا خارج عن أفق الإنسانية، وداخل في جريدة البهائم إذ الحرص على شهوات البطن والفرج من لوازم البهيمية وأحرص الناس على الشهوات لا يبلغ رتبة البهائم في ذلك. فما من حريص على التنعم في البطن إلا والحمار أكثر أكلا منه، وما من حريص على الجماع إلا والخنزير أشد نزوا منه. فظهر أن الحريص في مرتبة الخنزير والحمار واليهود والهندو، والقانع لا يساهمه في الرتبة إلا الأنبياء والأولياء. وبعد التأمل في جميع ما ذكر، يتم العلاج العلمي، وبه تسهل إزالة الحرص واكتساب القناعة. فليبادر إلى العلاج العملي، وهو العمل بالاقتصاد في أمر المعيشة، ليسد أبواب الخرج ما أمكن، ورد النفس إلى ما لا بد منه. فإن من كثر خرجه واتسع إنفاقه، لم تمكنه القناعة، فإن كان وحده، اكتفى بثوب خشن، ويقنع بأي طعام كان ويقلل من الأدام ما أمكنه، وهكذا الحال في سائر ما يضطر إليه ويوطن نفسه عليه. وإن كان له عيال رد كل واحد منهم إلى هذا القدر. وإذا بنى أمره على الاقتصاد، لم يحتاج إلى كثير جهد وإن كان معيلا. قال رسول (ص) ما عال من اقتصد (٦٥). وقال (ص): ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغناء والفقر، والعدل في الرضا والغضب وقال: التدبير نصف المعيشة . وقال: من اقتصد أغناه الله، ومن بذر أفقره الله . وقال: الاقتصاد، وحسن الصمت، والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءا من النبوة . وقال أمير المؤمنين عليه السلام القصد مثراة والسرف متواة (٦٦) وقال السجاد عليه السلام -: لينفق الرجل بالقصد وبلغة الكفاف، ويقدم منه الفضل لآخرته، فإن ذلك أبقى للنعمة، وأقرب إلى المزيد من الله تعالى، وأنفع في العافية . وقال الصادق عليه السلام: إن القصد أمر يحبه

الله، وإن السرف أمر يبغضه الله،
(هامش)
)
٦٥) روى في (سفينة البحار): ٢ / ٤٣١، عن أمير المؤمنين - عليه السلام - مثل هذا الحديث هكذا: ما عال امرؤ اقتصد . وكذا في (بحار الأنوار): ٢ مج ١٥ / ١٩٩. (٦٦) صححنا الحديث على ما في (الوافي): ٥ / ٢٩٥، قال فيه: كلاهما بكسر الميم: اسم آلة من الثروة. والتوى - بالمثناة - بمعنى الهلاك والتلف . ج: ٢ (*)
ص ٨٢
حتى طرحك النواة، فإنها تصلح لشيء، وحتى صبك فضل شرابك (٦٧). وقال (ع) ضمنت لمن أقصد ألا يفتقر وقال (ع) -: إن السرف يورث الفقر، وإن القصد يورث الغناء والأخبار في مدح الاقتصاد أكثر من أن تحصى. ثم إذا تيسرت له المعيشة في الحال، فلا ينبغي أن يكون مضطربا لأجل الاستقبال، ويعتمد على فضل الله ووعده بأن الرزق الذي قدر له يأتيه وإن لم يكن حريصا ولا مضطربا لأجله ولا يعلم لنفسه مدخلا يأتي رزقه منه وقال الله تعالى: وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها (٦٨). وقال: ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب (٦٩). وقال رسول الله (ص) أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب ثم ينبغي ألا ينظر إلى من هو فوقه، بل ينظر إلى من هو دونه في التنعم وفي مال الدنيا، فإن الشيطان يصرف نظره في أمر الدنيا إلى من هو فوقه ويقول: لم تفتر عن طلب الدنيا وأرباب الأموال يتنعمون في المطاعم والملابس ويصرف نظره في أمر الدين إلى من هو دونه، ويقول: لم تضيق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك ولا يخاف الله؟ قال أبو ذر (ره): أوصاني خليلي رسول الله أن أنظر إلى من هو دوني، لا إلى من هو فوقي في الدنيا وقال (ص): إذا نظر أحدكم إلى من فضله الله عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه . ومنها:
• الطمع up
وهو التوقع من الناس في أموالهم، وهو أيضا من شعب حب الدنيا ومن أنواعه، ومن الرذائل المهلكة. قال رسول الله: إياك والطمع، فإنه الفقر الحاضر . وقال أمير المؤمنين عليه السلام: إستغن عمن شئت تكن نظيره، وارغب إلى من شئت تكن أسيره
(هامش)
(٦٧) صححنا الحديث على ما في (الوافي): ٥ / ٢٤٥. (٦٨) هود، الآية: ٦. (٦٩) الطلاق، الآية: ٢ - ٣. (*)
ص ٨٣
وأحسن إلى من شئت تكن أميره . وقال الباقر (ع) بئس العبد عبد له طمع يقوده وبئس العبد عبد له رغبته تذله وقيل للصادق (ع) ما الذي يثبت الإيمان في العبد: قال: الورع، والذي يخرجه منه الطمع (٧٠) والأخبار في ذم الطمع كثيرة، وكفى به ذما أن كل طامع يكون ذليلا مهينا عند الناس، وأن وثوقه بالناس واعتماده عليهم أكثر من وثوقه بالله، إذ لو كان اعتماده على الله أكثر من اعتماده على الناس لم يكن نظره إليهم، بل لم يطمع من أحد شيئا إلا من الله سبحانه.
وصل الاستغناء عن الناس up
ضد الطمع و(الاستغناء عن الناس). وهو من الفضائل الموجبة لتقرب العبد إلى الله سبحانه، إذ من استغنى بالله عن غير الله أحبه الله. والأخبار الآمرة بالاتصاف به والمادحة له كثيرة. قال رسول الله (ص): ليس الغنى عن كثرة العروض، إنما الغنى غنى النفس . وقال لأعرابي طلب منه موعظة: إذا صليت فصل صلاة مودع، ولا تحدث بحديث تعتذر منه غدا، واجمع اليأس عما في أيدي الناس . وقال (ص): عليك باليأس عما في أيدي الناس، فإنه الغني الحاضر . وقال أمير المؤمنين - عليه السلام - ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، فيكون افتقارك إليهم في لين كلامك وحسن بشرك، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزك وقال سيد الساجدين (ع): رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع عما في أيدي الناس، ومن لم يرج الناس في شيء، ورد أمره إلى الله تعالى في جميع أموره، استجاب الله تعالى له في كل شيء . وقال الباقر (ع): سخاء المرء عما في أيدي الناس أكثر من سخاء النفس والبذل، ومروءة الصبر في حال الفاقة والحاجة والتعفف والغنى أكثر من مروءة الإعطاء، وخير المال الثقة بالله واليأس

مما في أيدي الناس .
(هامش)
(٧٠) صححنا الحديث على (الكافي) في باب الطمع كما أثبتناه، لكن في (سفينة البحار): ٢ / ٩٣، رواه عن الصادق - عليه السلام - هكذا: قال: قلت: ما الذي يثبت الإيمان في قلب العبد؟ قال: الذي يثبته فيه الورع، والذي يخرجه منه الطمع . (*)
ص ٨٤
وقال (ع): اليأس مما في أيدي الناس عز المؤمن في دينه . وقال الصادق (ع): شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس . وقال (ع): شيعتنا من لا يسأل الناس، ولو مات جوعا . وقال (ع): ثلاث هن فخر المؤمن وزينته في الدنيا والآخرة: الصلاة في آخر الليل، ويأسه مما في أيدي الناس، وولايته للإمام من آل محمد - عليهم السلام - . وقال (ع): إذا أراد أحدكم ألا يسأل ربه شيئا إلا أعطاه، فلييأس من الناس كلهم، ولا يكون له رجاء إلا عند الله، فإذا علم الله ذلك من قلبه، لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه (٧١).
ثم طريق العلاج في قطع الطمع وكسب الاستغناء قريب مما ذكر في علاج إزالة الحرص وتحصيل القناعة، فتذكر. ومنها:
• البخل up
وهو الامساك حيث ينبغي البذل، كما أن الإسراف هو البذل حيث ينبغي الامساك، وكلاهما مذمومان، والمحمود هو الوسط، وهو الجود والسخاء: إذ لم يؤمر رسول الله (ص) إلا بالسخاء، وقيل له: ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط (٧٢).
وقال تعالى: والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (٧٣) فالجود وسط بين الإقتار والإسراف، وبين البسط والقبض، وهو تقدير البذل والإمساك بقدر الواجب اللائق. ولا يكفي في تحقق الجود والسخاء أن يفعل ذلك بالجوارح ما لم يكن قلبه طيبا غير منازع له فيه. فإن بذل في محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو يضايرها فهو متسخ وليس بسخي، بل ينبغي ألا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له، وهو صرفه إلى ما يجب أو ينبغي صرفه إليه.
(هامش)
(٧١) صححنا الأحاديث هنا - ابتداء من الحديث المروي عن علي عليه السلام - على (الكافي): باب الاستغناء عن الناس. و(الوسائل): كتاب الزكاة، أبواب الصدقة، الباب ٣٧. (٧٢) الإسراء، الآية: ٢٩. (٧٣) الفرقان، الآية: ٦٧. (*)
ص ٨٥
فصل ذم البخل البخل up
من ثمرات حب الدنيا ونتائجه، وهو من خبائث الصفات ورذائل الأخلاق. ولذا ورد في ذمه ما ورد من الآيات والأخبار. قال الله سبحانه: الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله... الآية (٧٥). وقال الله تعالى: ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة (٧٦). وقال رسول الله (ص): إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم . وقال (ص): لا يدخل الجنة بخيل، ولا خب، ولا خائن، ولا سئ الملكة . وقال (ص): البخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار. وجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل، وأدوى الداء البخل، (٧٧). وقال (ص): الموبقات ثلاث: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه . وقال (ص): إن الله يبغض الشيخ الزاني، والبخيل المنان، والمعيل المختال . وقال (ص) إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، ومرهم بالكذب فكذبوا، وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا (٧٨). وقال (ص): البخل شجرة تنبت في النار، فلا يلج النار إلا بخيل . وقال: خلق البخل من مقتة، وجعل رأسه راسخا في أصل شجرة الزقوم، ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بغصن منها أدخله النار. إلا أن البخل من الكفر، والكفر في النار . وقتل في الجهاد رجل من أصحاب رسول الله (ص) فبكته باكية، وقالت: واشهيداه!
(هامش)
(٧٥) النساء، الآية: ٣٦. (٧٦) آل عمران، الآية: ١٨٠. (٧٧) الأحاديث كلها عامية، صححناها على (إحياء العلوم) وإحياء الأحياء). (٧٦) صححنا الحديث (على البحار): ج ٣ من المجلد الخامس عشر ص ١٤٣، وكذا الحديث المتقدم. (*)
ص ٨٦

فقال النبي (ص): ما يدريك أنه شهيد؟ فلعله كان يتكلم بما لا يعنيه، أو يبخل بما لا ينقصه . وقال (ص): إن الله يبغض البخيل في حياته والسخي عند موته . وقال (ص): السخي الجهول أحب إلى الله عز وجل من العابد البخيل . وقال: الشح والإيمان لا يجتمعان في قلب واحد . وقال أيضا: خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق . وقال (ص): لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلا ولا جبانا . وقال (ص): يقول قائلكم: الشحيح أعذر من الظالم. وأي ظلم أظلم عند الله من الشح؟ حلف الله بعزته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل . وقال: اللهم إني أعوذ بك من البخل! . وروي أنه (ص) كان يطوف بالبيت، فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي ذنبي! قال رسول الله (ص): وما ذنبك؟ صفه لي. قال: هو أعظم من أن أصفه لك. قال: ويحك! ذنبك أعظم أم الأرضون؟ قال بل ذنبي يا رسول الله. قال (ص): ويحك! ذنبك أعظم أم الجبال؟ قال: بل ذنبي يا رسول الله. قال (ص): فذنبك أعظم أم البحار؟ قال: بل ذنبي يا رسول الله قال (ص): فذنبك أعظم أم السماوات؟ قال: بل ذنبي يا رسول الله. قال: ذنبك أعظم أم العرش؟ قال: بل ذنبي يا رسول الله. قال: ذنبك أعظم أم الله؟ قال: بل الله أعظم وأعلى وأجل. قال: ويحك! فصف لي ذنبك. قال: يا رسول الله إني رجل ذو ثروة من المال، وإن السائل ليأتيني ليسألني فكأنما يستقبلني بشعلة من النار. فقال رسول الله (ص): إليك عني! لا تحرقني بنارك! فوالذي بعثني بالهداية والكرامة، لو قمت بين الركن والمقام، ثم صليت ألفي ألف عام، وبكيت حتى تجري من دموعك الأنهار وتسقى بها الأشجار ثم مت وأنت لئيم، لأكبك الله في النار! ويحك! أما علمت أن الله يقول. ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه (٧٩). ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ؟! (٨٠). وقال أمير المؤمنين (ع): سيأتي على الناس زمان عضوض، يعض

(هامش)

(

٧٩) محمد، الآية: ٣٨. (٨٠) الحشر، الآية: ٩. التغابن، الآية: ١٦. (*)

ص ٨٧

المؤمن على ما في يديه، ولم يؤمر بذلك. قال الله تعالى: ولا تنسوا الفضل بينكم (٨١). وروي: أنه ما من صباح إلا وقد وكل الله تعالى ملكين يناديان: اللهم اجعل لكل ممسك تلفا، ولكل منفك خلفا! . والأخبار في ذم البخل أكثر من أن تحصى، مع أن تضمنه للمفاسد الدنيوية والأخروية مما يحكم به الوجدان ولا يحتاج إلى دليل وبرهان، حتى أن النظر إلى البخيل يقسي القلب، ومن كان له صفاء سريرة، يكرب قلبه ويظلم من ملاقاته، وقد قيل: (أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه).

وصل السخاء up

ضد البخل (السخاء). وقد عرفت معناه، وهو من ثمرة الزهد، كما أن البخل من ثمرة حب الدنيا. فينبغي لكل سالك لطريق الآخرة أن يكون حاله القناعة إن لم يكن له مال، والسخاء واصطناع المعروف إن كان له ال. ولا ريب في كون الجود والسخاء من شرائف الصفات ومعالي الأخلاق، وهو أصل من أصول النجاة، وأشهر أوصاف النبيين، وأعرف أخلاق المرسلين. وما ورد في مدحه خارج عن حد الاحصاء، قال رسول الله (ص): السخاء شجرة من شجر الجنة، أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن أخذ منها غصنا قاده ذلك الغصن إلى الجنة . وقال (ص): إن السخاء من الإيمان والإيمان في الجنة . وقال (ص): السخاء شجرة تنبت في الجنة، فلا يلج الجنة إلا سخي . وقال (ص): قال الله سبحانه: إن هذا دين ارتضيته لنفسي، وإن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما استطعتم . وقال (ص): ما جعل الله أولياءه إلا على السخاء وحسن الخلق . وقال (ص): إن من موجبات المغفرة: بذل الطعام، وإفشاء السلام، وحسن الكلام . وقال (ص): إن السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار . وقال (ص):

(هامش)

(٨١) البقرة، الآية ٢٣٧. (*)

ص ٨٨

تجافوا ن ذنب السخي، فإن الله آخذ بيده كلما عثر . وقال (ص): طعام الجواد دواء، وطعام البخيل داء (٨٢). وقال (ص):

خلقان يحبهما الله، وهما: حسن الخلق، والسخاء . وقال (ص): إن الله جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها . وقال (ص): الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير، وإن الله تعالى ليباهي بمطعم الطعام الملائكة (ع): . وقال (ص): إن عبادا يخصهم بالنعم لمنافع العباد، فمن بخل بتلك المنافع عن العباد، نقلها الله عنه وحولها إلى غيره . وقال (ص): الجنة دار الأسخياء . وقال (ص): لشاب سخي مرهق في الذنوب، أحب إلى الله من شيخ عابد بخيل (٨٣). وقال (ص): اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس بأهله، فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله . وقال (ص): إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام، ولكن دخلوها بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للمسلمين . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: إن الله عز وجل جعل للمعروف وجوها من خلقه، حبب إليهم المعروف وحبب إليهم فعاله، ووجه طلاب المعروف إليهم ويسر عليهم إعطاءه، كما ييسر الغيث إلى البلدة الجدبة فيحييها ويحيي بها أهلها . (ص): السخي محبب في السماوات ومحبب في الأرضين، خلق من طينة عذبة، وخلق عينيه ما الكوثر، والبخيل مبغض في السماوات مبغض في الأرضين، خلق من طينة سبخة، وخلق ماء عينيه من ماء العوسج . وقال (ص): إن أفضل الناس إيمانا أبسطهم كفا . وقال (ص): يؤتى يوم القيامة برجل، فيقال: احتج، فيقول: يا رب، خلقتني وهديتني، وأوسعت علي فلم أزل أوسع على خلقك، وأنشر عليهم لكي تنشر علي هذا اليوم رحمتك وتيسره. فيقول الرب - تعالى ذكره -: صدق عبدي، أدخلوه الجنة . وروي: إنه أتى النبي (ص) وفد من اليمن، وفيهم رجل كان أعظمهم كلاما وأشدهم استقصاء في محاجة النبي

(هامش)

(

٨٢) (البحار): ٢ مج ١٥ / ٢٢١، باب السخاء والسماحة. (٨٣) صححنا الحديث على (البحار) في الموضع المتقدم: (الشحيح) بدل (البخيل). (*)

ص ٨٩

- صلى الله عليه وآله وسلم -: فغضب النبي حتى التوى عرق الغضب بين عينيه، وتربد وجهه وأطرق إلى الأرض، فأتاه جبرئيل (ص) فقال: ربك يقرئك السلام، ويقول لك: هذا رجل سخي يطعم الطعام. فسكن عن النبي (ص): الغضب، ورفع رأسه، وقال: لولا أن جبرئيل أخبرني عن الله عز وجل إنك سخي تطعم الطعام لشردت بك، وجعلتك حديثا لمن خلفك! فقال له الرجل: إن ربك يحب السخاء؟ فقال: نعم! فقال: إني أشهد ألا إله إلا الله، وإنك رسول الله، والذي بعثك بالحق، لا رددت عن مالي أحدا (٨٥)، وقال (ص): كل معروف صدقة، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة، وما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة، وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها . (ص): كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله، والله تعالى يحب إغاثة اللهفان . وروي: أنه أوحى الله إلى موسى (ع): لا تقتل السامري، فإنه سخي (٨٥). وقال عيسى (ع): استكثروا من شيء لا تأكله النار ، قيل: وما هو؟ قال: المعروف . وقال أمير المؤمنين (ع): ومن يبسط يده بالمعروف إذا وجده، يخلف الله له ما أنفق في دنياه، ويضاعف له في آخرته (٨٦). وقال الباقر (ع): إن الشمس لتطلع ومعها أربعة أملاك: ملك ينادي: يا صاحب الخير أتم وأبشر، وملك ينادي: يا صاحب الشر أنزع وأقصر، وملك ينادي: أعط منفقا خلفا وآت ممسكا تلفا، وملك ينضح الأرض بالماء ولولا ذلك اشتعلت الأرض . وقال الصادق (ع) لبعض جلسائه: ألا أخبرك بشيء تقرب به من الله وتقرب من الجنة وتباعد من النار؟ ، فقال: بلى. فقال: عليك بالسخاء . وقال: خياركم سمحاؤكم، وشراركم بخلاؤكم. ومن خالص الإيمان: البر بالأخوان والسعي في حوائجهم، وأن البار بأخوان ليحبه الرحمن، وفي ذلك مرغمة للشيطان، وتزحزح

(هامش)

(

٨٤) صححنا الحديث على (سفينة البحار): ١ / ٦٠٧، وعلى (الوافي): ٥ / ٢٩٣، في باب الجود والبخل، لكن بينهما اختلاف يسير، فرجحنا تصحيح الحديث على ما في (السفينة). (٨٥) الروايات كلها عامية، صححناها على أحياء العلوم: ٣ / ٢١٠. (٨٦) صححنا الحديث على (الوافي): ٥ / ٢٩٤، باب الجود والبخل. (*)

ص ٩٠
عن النيران ودخول الجنان . وقال الكاظم (ع): السخي الحسن الخلق في كنف الله، لا يستخلي الله منه حتى يدخله الجنة. وما بعث الله نبيا ولا وصيا إلا سخيا، ولا كان أحد من الصالحين إلا سخيا، وما زال أبي يوصيني بالسخاء حتى مضى .

فصل معرفة ما يجب أن يبذل up

لعلك تقول: إنك قلت: السخاء هو الوسط بين الإقتار والإسراف، وهو صرف المال إلى ما يجب أو ينبغي صرفه إليه، وهذا غير كاف لمعرفة حد السخاء، لتوقفه على معرفة ما يجب أو ينبغي، وهو عندنا مبهم. قلنا: ما يجب أو ينبغي يتناول الواجب واللائق بحسب الشرع والمروة والعادة. فالسخي هو الذي يؤدي واجب الشرع وواجب المروة والعادة جميعا، فإن منع واحدا منها فهو بخيل، وإن كان الذي يمنع واجب الشرع أبخل. ثم ما يجب بذله شرعا مضبوط معين، من الزكاة والخمس وغيرهما من أطيب ماله أو وسطه دون الخبيث منه، والإنفاق على أهله وعياله على قدر احتياجهم. فمن أدى جميع ذلك فقد أدى الواجب الشرعي، ويستحق اسم السخي شرعا، إذا كان الأداء بطيبة من قلبه، من دون أن يشق عليه، إذ لو شق عليه ذلك كان بخيلا بالطبع ومتسخيا بالتكلف. وأما ما يجب مروة وعادة، فهو ترك المضايقة في بذل ما يستقبح المضايقة فيه عرفا وعادة وهو يختلف في الأحوال والأشخاص، فتستقبح من الغني المضايقة ما لا يستقبح من الفقير، ومع الأهل والأقارب ما لا يستقبح مع الأجانب، ومع الجار ما لا يستقبح من البعيد، وفي الضيافة ما لا يستقبح أقل منه في المبايعة والمعاملة، ويستقبح من المضايقة في الأطعمة ما لا يستقبح في غيرها. وبالجملة: يختلف ذلك بما فيه المضايقة من ضيافة أو معاملة، وبما فيه المضايقة من طعام أو ثوب أو فرش أو غير ذلك، وبمن معه المضايقة من صديق أو قريب أو جار أو أجنبي أو بعيد، وبمن منه المضايقة من غني أو فقير أو أمير أو رعية أو عالم أو جاهل أو صبي أو كامل. فالسخي هو الذي لا يمنع حيث ينبغي ألا يمنع شرعا أو مروة أو عادة، والبخل من

ص ٩١
يمنع شيئا مما ينبغي ألا يمنع شرعا أو مروة أو عادة. ولا يمكن التنصيص على مقدار ذلك، فلعل حد البخل هو إمساك لغرض ذلك الغرض أهم من حفظ المال، وفي مقابله الجود والسخاء. ثم من يؤدي الواجب ويحفظ العادة والمروة، ولكن له مال كثير قد جمعه، لا يصرفه إلى المحتاجين ولا ينفقه في الصدقات المستحبة ليكون له عدة على نوائب الزمان، وإن لم يكن بخيلا عند عوام الخلق، ولكنه بخيل عند أهل الفطانة والكياسة. إذ التبري عن البخل والاتصاف بصفة الجود والسخاء لا يتحقق عندهم ما لم يبذل زيادة على قدر واجب الشرع وواجب المروة والعادة اللائقة به، لطلب الفضيلة والثواب، ونيل الدرجات في الآخرة، وتختلف هذه الزيادة باختلاف مقدار ماله، وباختلاف حاجة المحتاجين وصلاحهم وورعهم. فاتصافه بالجود، بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير، وتختلف درجات ذلك. فاصطناع المعروف أمر وراء ما توجبه العادة والمروة، وهو الجواد بشرط أن يكون عن طيبة من النفس، ولا يكون لأجل غرض، من خدمة أو مدح وثناء. إذ من يبذل المال بعوض المدح والثناء أو غيره فليس بجواد، بل هو بياع يشتري المدح بماله، لكون المدح ألذ عنده من المال. فالجواد هو بذل الشيء عن طيبة من القلب من غير غرض، وهذا وإن كان حقيقة، إلا أنه لا يتصور في غير حق الله، إذ ما من إنسان يبذل الشيء إلا لغرض، لكن إذا لم يكن غرضه إلا الثواب في الآخرة، ورفع الدرجات، واكتساب فضيلة الجود، وتطهير النفس عن رذيلة البخل، سمي جوادا، وإن كان غرضه شيئا من الأمور الدنيوية لم يسم جوادا.

تنبيه الإيثار up

أرفع درجات الجود والسخاء (الإيثار)، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه. قال الله سبحانه في معرض الثناء على أهل الإيثار: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (٨٧).

(هامش)

(٨٧) الحشر، الآية: ٩. (*)

ص ٩٢
وقال رسول الله (ص): أيما أمرؤ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه، غفر له . وكان الإيثار من شعار رسول الله (ص)، ولقد قالت بعض زوجاته: أنه (ص) ما شبع ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا، ولم شئنا لشبعنا، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا . وروي: أن

موسى بن عمران قال: يا رب، أرني بعض درجات محمد وأمته. قال: يا موسى، إنك لن تطيق ذلك، لكني أريك منزلة من منازله، جليلة عظيمة، فضلته بها عليك وعلى جميع خلقي. قال (٨٨): فكشف له عن ملكوت السماوات، فنظر إلى منزلة كادت أن تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله، فقال: يا رب، بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة؟ قال تعالى: بخلق اختصصته به من بينهم، وهو الإيثار. يا موسى، لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتا من عمره إلا استحييت من محاسبته، وبوأته من جنتي حيث يشاء . وسئل الصادق (ع): أي الصدقة أفضل؟ قال (ع): جهد المقل. أما سمعت قول الله عز وجل: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؟ . وإيثار علي (ع) غيره في جميع أوقات عمره مشهور، وفي الكتب مسطور. ولقد آثر حياة رسول الله (ص) على حياته ليلة المبيت، فباهى الله به الملائكة، وأنزل فيه: ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله (٨٩). ولقد كان الخواص من شيعته والمقتدون به في سنته وسيرته، يجتهدون في المحافظة على هذه الفضيلة مهما أمكن.

فصل علاج مرض البخل up

علاج مرض البخل يتم بعلم وعمل. والعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود، والعمل يرجع إلى البذل على سبيل التكلف إلى أن يصير طبعا له. فكل طالب لإزالة البخل وكسب الجود ينبغي أن يكثر التأمل في أخبار ذم البخل ومدح السخاء، وما توعد الله به على البخل من العذاب

(هامش)

(٨٨) أي الراوي. (٨٩) البقرة، الآية: ٢٠٧. (*)

ص ٩٣

العظيم، ويكثر التأمل في أحوال البخلاء وفي نفرة الطبع عنهم، حتى يعرف بنور المعرفة أن البذل خير له من الامساك في الدنيا والآخرة. ثم يكلف نفسه على البذل ومفارقة المال، ولا يزال يفعل ذلك إلى أن يهيج رغبته في البذل، وكلما تحركت الرغبة ينبغي أن يجتنب الخاطر الأول ولا يتوقف، لأن الشيطان بعده الفقر ويخوفه ويوسوسه بأنواع الوساوس الصادة عن البذل. ولو كان مرض البخل مزمنا غير مندفع بما مر، فمن معالجاته أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالجود، فيبذل على قصد الرياء، حتى تسمح نفسه بالبذل طمعا في الاشتهار بصفة الجود، فيكون قد زال عن نفسه رذيلة البخل واكتسب خبث الرياء، ولكن يتعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه، ويكون طلب الشهرة والاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال، كما يسلى الصبي عند فطامه عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها، لا لكون اللعب مطلوبا بذاته، بل لينتقل من الثدي إليه ثم ينتقل عنه إلى غيره. فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلط بعضها على بعض حتى يندفع الجميع، فتسلط الشهوة على الغضب حتى تكسر سورته بها، ويسلط الغضب على الشهوة حتى تكسر رعونتها به. وقد جرت سنة الله بدفع المؤذيات والمهلكات بعضها ببعض، إلى أن يندفع الجميع، سواء كانت من الصفات المؤذية أو من الأشخاص المؤذية من الظلمة والأشرار، ألا ترى إنه يسلط الظالمين والأشرار بعضهم على بعض إلى أن يهلك الجميع؟ ومثال ذلك - كما قيل -: إن الميت تستحيل جميع أجزائه دودا، ثم يأكل بعض الديدان بعضا، إلى أن يرجع إلى اثنين قويين، ثم لا يزالان يتقابلان ويتعارضان، إلى أن يغلب أحدهما الآخر فيأكله ويسمن به، ثم لا يزال يبقى وحده جائعا إلى أن يموت. فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلط بعض على بعضها حتى يقمعها، فيجعل الأضعف قوتا للأقوى، إلى أن لا تبقى إلا واحدة.

ثم تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة، وهو منع القوت منها، أي عدم العمل بمقتضاها، فإنها تقتضي لا محالة آثارا، فإذا خولفت خمدت وماتت. مثلا البخل يقتضي إمساك المال، فإذا منع مقتضاه

ص ٩٤

وبذل المال مع الجهد والمشقة مرة بعد أخرى، ماتت صفة البخل وصارت صفة البذل طبعا، وسقط التعب والمشقة فيه. ثم العمدة في علاجه أن يقطع سببه، حب المال، وسبب حب المال: أما حب الشهوات التي يتوقف الوصول إليها على المال مع طول الأمل إذ لو لم يكن له طول أمل وعلم أنه يموت بعد أيام قلائل ربما لم يبخل بماله أو ادخاره وإبقاؤه لأولاده، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه، فيمسك المال لأجلهم، أو حبه عين المال من حيث إنه مال فيجب، فإن بعض الناس من المشايخ والمعمرين يكون له من المال ما يكفيه لغاية ما يتصور من بقية عمره وتزيد مع أموال كثيرة، ولا ولد له ليحتاط لأجله، مع ذلك لا تسمح نفسه بإخراج مثل الزكاة ومداواة نفسه

عند المرض، بل هو محب للدنانير، عاشق لها، يتلذذ بوجودها في يده، مع علمه بأنه عن قريب يموت، فتضيع أو تأخذها أعداؤه، ومع ذلك لا تسمح نفسه بأن يأكل منها أو يتصدق ببعضها. وهذا مرض عسر العلاج، لا سيما في كبر السن، إذ حينئذ يكون المرض مزمنا والطبيعة المدافعة له قاصرة والبدن ضعيفا. ومثله مثل من عشق شخصا فأحب رسوله، ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله فإن الدنانير رسول مبلغ إلى الحاجات. وهي محبوبة من هذه الحيثية، لا من حيث إنها دنانير، فمن نسي الحاجات صارت الدنانير محبوبة عنده في نفسها، فهو في غاية الضلالة والخسران، بل من رأى بين الفاضل منها عن قدر الحاجة وبين الحجر فرقا، فهو في غاية الجهل.

ثم لما كان الطريق في قطع سبب كل علة أن يواظب على ضد هذا السبب، فيعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر، ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم، ويعالج التفات القلب إلى الأولاد بأن الذي خلقهم خلق أرزاقهم، وكم من ولد لم يرث مالا من أبيه وحاله أحسن ممن ورث، وبأن يعلم إن ولده إن كان تقيا صالحا فيكفيه الله، وإن كان فاسقا فيستعين بماله على المعصية وترجع مظلمته عليه، ويعالج حب المال من حيث إنه مال، بأن يتفكر في مقاصد المال وإنه لماذا خلق، فلا يحفظ منه إلا بقدر حاجته، ويبذل الباقي على المستحقين وليبقى له ثوابه في الآخرة.

ص ٩٥

تذنيب إعلم أن بذل الأموال وإنفاقها المترتب على صفة الجود والسخاء يتناول أمورا: بعضها واجب، وبعضها مندوب. وقد ورد في فضيلة كل منها بخصوصه أخبار، فلا بد لنا أن نشير إلى ذلك تأكيدا لبيان فضل السخاء، وإلى بعض ما لها من الآداب والدقائق الباطنة، ونحيل ما لها من الأحكام والشروط الظاهرة إلى كتب الفقه، فنقول:

أما الأمور الواجبة

• فأولها: الزكاة up

والآيات والأخبار الواردة في ذم تاركها ومدح فاعلها كثيرة. قال الله سبحانه: فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة (٩٠). وقال تعالى: والذين يكنزون الذهب الفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم (٩١). ومعنى الإنفاق في سبيل الله إخراج الزكاة، كما ورد عن أهل البيت - عليهم السلام -، وأجمع عليه المفسرون. وقال رسول الله (ص): إذا منعت الزكاة منعت الأرض بركاتها . وقال الباقر (ع): إن الله عز وجل قرن الزكاة بالصلاة، قال: فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة (٩٢). فمن أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة، فلم يقم الصلاة . وقال الصادق (ع): ما من ذي مال ذهب أو فضة يمنع زكاة ماله، إلا حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر، وسلط عليه شجاعا أقرع يريده وهو يحيد عنه، فإذا رأى أنه لا يتخلص منه، أمكنه من يده، فقضمها كما يقضم الفحل، ثم يصير طوقا في عنقه، وذلك قول الله تعالى: سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة (٩٣). وما من ذي إبل أو غنم أو بقر يمنع زكاة ماله، إلا حبسه الله

(هامش)

(٩٠) و(٩١) الحج، الآية: ٧٨. المجادلة، الآية: ١٣. (٩٢) التوبة، الآية: ٣٥. (٩٣) لا عمران، الآية، ١٨٠. (*)

ص ٩٦

بيوم القيامة بقاع قرقر، تطأه كل ذات ظلف بظلفها، وتنهشه كل ذات ناب بنابها: وما من ذي مال نخل أو كرم أو زرع يمنع زكاتها، إلا طوقه الله تعالى ريعة أرضه إلى سبع أرضين إلى يوم القيامة (٩٤). وقال (ع): ما فرض الله على هذه الأمة شيئا أشد عليهم من الزكاة، وفيها تهلك عامتهم . وقال: من منع قيراطا من الزكاة فليس بمؤمن ولا مسلم، وهو قوله تعالى: قال رب ارجعون، لعلي أعمل صالحا فيما تركت (٩٥). وقال (ع): إنما وضعت الزكاة اختيارا للأغنياء، ومعونة للفقراء. ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم، ما بقي مسلم فقيرا محتاجا، ولاستغنى بما فرض الله له. وإن الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء، وحقيق على الله أن يمنع رحمته ممن منع حق الله في ماله. وأقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرزق: إنه ما ضاع مال في بر ولا بحر إلا بترك الزكاة. وما صيد صيد في بر ولا بحر إلا بتركه التسبيح في من أدى زكاة ماله، ولم يبخل على المؤمنين بما افترض الله لهم في ماله . وقال (ع) إن الزكاة ليس يحمد بها صاحبها، وإنما هو شيء ظاهر حقن بها دمه وسمي بها مسلما، ولو لم يؤدها لم تقبل له صلاة (٩٦). والأخبار في فضل الزكاة وذم تاركها أكثر من أن تحصى، وما ذكرناه كاف لإيقاظ الطالبين.

فصل سر وجوب الزكاة، وفضيلة سائر الإنفاقات up
السر في إيجاب الزكاة، بل فضيلة مطلق إنفاق المال، ثلاثة أمور:
(هامش)
(٩٤) قال في (الوافي): ٦ / ٢٤١، باب الزكاة: بيان القاع): الأرض السهلة المطمئنة. و(القرقر): الأرض المستوية اللينة. و(الشجاع) - بالضم والكسر -: الحية، أو الذكر منها، أو ضرب منها و(الفحل) - بالمهملة -: الذكر من كل حيوان، ومن الإبل خاصة، وهو المراد هنا. (الرابع) - بكسر الراء وفتحها -: المرتفع من الأرض . (٩٥) المؤمنون، الآية: ٩٩ - ١٠٠. (*)
ص ٩٧
الأول - أن التوحيد العام ألا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد، إذ المحبة لا تقبل الشركة، والتوحيد باللسان قليل الجدوى، وإنما تمتحن درجة الحب بمفارقة سائر المحاب، والأموال محبوبة عند الناس، لأنها آلة تمتعهم بالدنيا، ولأجلها يأنسون بهذا العالم، ويخافون من الموت ويتوحشون منه، مع أن فيه لقاء المحبوب، فامتحنوا في صدق دعواهم الحب التام لله تعالى بمفارقتهم عن بعض محابهم، أعني المال، ولذلك قال الله سبحانه: إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة (٩٧). ولفهم هذا السر في بذل الأموال، انقسم الناس بحسب درجاتهم في التوحيد والمحبة ثلاثة أقسام: (قسم) صدقوا التوحيد ووفوا بعهده، ولم يجعلوا قلوبهم إلا محلا لحب واحد. فنزلوا عن جميع أموالهم، ولم يدخروا شيئا من الدرهم والدينار وغيرهما من أنواع المال، ولم يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم، حتى قيل لبعضهم: كم يجب من الزكاة في مائتي درهم؟ فقال: أما على العوام - بحكم الشرع - فخمسة دراهم، أما نحن فيجب علينا بذل الجميع. وسئل الصادق (ع): في كم تجب الزكاة من المال؟ فقال: أما الزكاة الظاهرة، ففي كل ألف خمسة وعشرون، وأما الباطنة، فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج إليه منك . و(قسم) درجتهم دون هذا، وهم الذين أمسكو أموالهم، ولكنهم راقبوا مواقيت الحاجات ومراسم الخيرات، ويكون قصدهم من الامساك الإنفاق على قدر الحاجة، دون التنعم، وصرف الفاضل عن قدر الحاجة إلى وجوه البر. وهؤلاء لا يقتصرون على إعطاء مجرد ما يجب عليهم من الزكاة والخمس، بل يؤدون جميع أنواع البر والمعروف أو أكثرها. و(قسم) اقتصروا على أداء الواجب، فلا يزيدون عليه ولا ينقصون منه. وهو أدون الدرجات وأقل المراتب، وهو درجة العوام الراغبين إلى المال، لجهلهم بحقيقته وفائدته، وضعف حبهم للآخرة.
الثاني - تطهير النفس عن رذيلة البخل، فإنه من المهلكات - كما تقدم -، وإنما تزول هذه الرذيلة ببذل المال مرة بعد أخرى حتى يتعود، إذ حب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته، حتى يصير ذلك اعتيادا.
(هامش)
(٩٧) التوبة، الآية: ١١١. ج: ٢ (*)
ص ٩٨
وعلى هذا، فالاتفاق يطهر صاحبه من خبث البخل المهلك، وإنما طهارته بقدر بذله، وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى. الثالث - شكر النعمة، فإن لله سبحانه على عبده نعمة في نفسه ونعمة في ماله. فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن، والمالية شكر لنعمة المال. وما أقبح بالغني المسلم أن ينظر إلى فقير مسلم، وقد ضيق الرزق عليه وأحوج إليه، ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال، وإحواج غيره إليه، بإعطاء عشر أو ربع عشر من ماله.
فصل الحث على التعجيل في الاعطاء up
ينبغي للمعطي المنفق، عند ظهور داعية الخير من باطنه، أن يغتنم الفرصة، ويسارع إلى الامتثال، تعجيلا لإدخال السرور في قلوب الفقراء. وحذرا عن عوائق الزمان المانعة عن الخيرات، وعلما بأن في التأخير آفات، وتنبها بأن انبعاث داعية الخير لمة الملك، وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن، فما أسرع تقلبه، والشيطان بعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر، وله لمة عقيب لمة الملك، وصونا للفقراء عن الاضطرار إلى السؤال إذ ورد: إن الاعطاء معه مكافأة لوجهه المبذول وثمن لما أخذ منه، وليس بمعروف. وروي: أن أمير المؤمنين (ع) بعث إلى رجل بخمسة أوساق من ثمر البغيبغة، وكان الرجل ممن ترجى نوافله، ويؤمل نائله ورفده، وكان لا يسأل عليا ولا غيره شيئا. فقال رجل لأمير المؤمنين (ع): والله ما سألك فلان شيئا! ولقد كان يجزيه من الخمسة أوساق وسق واحد. فقال

له أمير المؤمنين (ع): لأكثر الله في المؤمنين ضربك! أعطي أنا، وتبخل أنت! لله أنت! إذا أنا لم أعط الذي يرجوني إلا من بعد المسألة، ثم أعطيه بعد المسألة، فلم أعطه إلا ثمن ما أخذت منه، وذلك لأني عرضته أن يبذل لي وجهه الذي يعفره في التراب لربي وربه عز وجل عند تعبده له وطلب حوائجه إليه. فمن فعل هذا بأخيه المسلم، وقد عرف أنه موضع لصلته ومعروفه، فلم يصدق الله في دعائه، حيث يتمنى له الجنة
ص ٩٩
بلسانه، يبخل عليه بالحطام من ماله (٩٨). ثم ينبغي أن يعين لأداء صدقته وقتا فاضلا، كيوم الغدير وشهر ذي الحجة، (لا) سيما العشرة الأولى، أو شهر رمضان، (لا) سيما العشرة الأخيرة. وقد ورد أن رسول الله (ص) كان أجود الخلق، وكان في رمضان كالريح المرسلة، لا يمسك فيه شيئا.
فصل فضيلة إعلان الصدقة الواجبة up
الصدقة الواجبة، أعني الزكاة، إعلانها أفضل من أسرارها - إن كان في إظهارها ترغيب للناس في الاقتداء، وأمن من تطرق الرياء، ولم يكن الفقير بحيث يستحي من أخذها علانية. قال الصادق (ع): كلما فرض الله عليك، فإعلانه أفضل من إسراره، وكلما كان تطوعا فإسراره أفضل من إعلانه، ولو أن رجلا حمل زكاة ماله على عاتقه وعلانية، كان ذلك حسنا جميلا . وقال في قوله تعالى: وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم (٩٩): هي ما سوى الزكاة، فإن الزكاة علانية غير سر . فلو دخل في نفسه الرياء مع الإظهار، أو كان الفقير يستحي من أخذها علانية، كان الأسرار بها أفضل: أما الأول: فظاهر، وأما الثاني: فلما روي: إنه قيل لأبي جعفر الباقر (ع): الرجل من أصحابنا يستحيي من أن يأخذ من الزكاة، فاعطيه من الزكاة ولا أسمي له أنها من الزكاة. فقال: اعطه ولا تسم له، ولا تذل المؤمن . وبالجملة: الاعلان كما يتصور فيه فائدة الترغيب، يتطرق إليه محذور الرياء والمن والأذى، وذلك يختلف بالأحوال والأشخاص. فبالنظر إلى بعض الأحوال والأشخاص، يكون الاعلان أفضل، وبالنظر إلى بعض
(هامش)
(٩٨) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٨٦، باب آداب الاعطاء. قال: (البغيبغة) ضيعة بالمدينة، و(النوافل): العطايا، و(لله أنت!): أي كن لله وأنصفني في القول. (٩٩) البقرة، الآية: ٢٧١. (*)
ص ١٠٠
آخر، يكون الإسرار أفضل. فلا بد لكل منفق أن يلاحظ حاله ووقته، ويقابل الفائدة بالمحذور، ويختار ما هو الأفضل. ومن عرف الفوائد والغوائل، ولم ينظر بعين الشهوة، اتضح له ما هو الأولى والأليق.
فصل ذم المن والأذى في الصدقة up
ينبغي للمتصدق أن يجتنب عن المن والأذى. قال الله سبحانه: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى (١٠٠). وقال: قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى (١٠١). وقال رسول الله (ص): إن تبارك وتعالى كره لي ست خصال وكرهتهن للأوصياء من ولدي وأتباعهم من بعدي: العبث في الصلاة، والرفث في الصوم، والمن بعد الصدقة، وإتيان المساجد جنبا، والتطلع في الوفد، والضحك بين القبور . و(المن): أن يرى نفسه محسنا. ومن ثمراتها الظاهرة: الإظهار بالاتفاق، والتحدث به، وطلب المكافأة منه، بالشكر والخدمة والتعظيم، والمتابعة في الأمور. و(الأذى): التعيير، والتوبيخ، والاستخفاف، والاستخدام، والقول السيئ، وتقطيب الوجه، وهتك الستر. ثم معرفة الأذى ظاهرة، وكذا معرفة الثمرات الظاهرة للمن. وأما المن الباطني، أي رؤية نفسه محسنا، فيعرف بأن يكون استبعاده من خيانة القابض بعد العطاء أكثر من استبعاده منه قبله. وعلاج المن: أن يعرف أن المحسن هو الفقير القابض لإيصاله الثواب والإنجاء من العذاب، وكونه نائبا عن الله تعالى، وكون ما يعطيه حقا من الله سبحانه، أحال عليه الفقير إنجازا لما وعده من الرزق. وعلاج الأذى: أن يعرف أن سببه استكثار العطاء وكراهية إنفاق المال والتكبر على الفقير القابض برؤية نفسه خيرا منه، لغنائه واحتياجه، وجميع ذلك جهل وحماقة. أما استكثاره العطاء، فلأن ما أعطاه بالنظر إلى ما يطلبه لأجله
(هامش)
(١٠٠) البقرة، الآية: ٢٦٤. (١٠١) البقرة، الآية: ٢٦٣. (*)
ص ١٠١

من رضا الله وثواب الآخرة في غاية القلة والخسة، وكيف يستعظم العاقل بذل خسيس فإن إذا أخذ في مقابله، خطيرا باقيا. وأما استحقاره الفقير، فلما تقدم من فضل الفقير على الغني، فكيف يرى نفسه خيرا منه؟ وكفى للفقير فضلا: إن الله سبحانه جعل الغني مسخرا له، بأن يكتسب المال بالجهد والتعب، ويسعى في حفظه، ويسلمه إلى الفقير بقدر حاجته، ويكف عنه الفاضل الذي يضره لو سلمه إليه. فالغني يخدم الفقير في طلب المال، مع كون ما يحمد منه للفقير، وكون ما يذم منه، من تحمل المشاق وتقلد المظالم وحراسة الفضلات إلى أن يموت فتأكله الأعداء، على الغنى. وبالجملة: العاقل، بعد التأمل، يعلم أن ما يعطيه قليل في مقابلة ما يأخذه، وأن الفقير محسن إليه. قال أمير المؤمنين (ع): ومن علم أن ما صنع إنما صنع إلى نفسه، لم يستبطئ الناس في شكرهم، ولم يستزدهم في مودتهم، فلا تلتمس من غيرك شكر ما أتيت إلى نفسك ووقيت به عرضك، واعلم أن الطالب إليك لحاجة لم يكرم وجهه عن وجهك، فأكرم وجهك عن رده (١). وينبغي للمحترز عن المن والأذى أن يتواضع ويتخضع للفقير عند إعطائه، بأن يضع الصدقة لديه، ويمثل قائما بين يديه، أو يبسط كفه ليأخذ الفقير، وتكون يد الفقير هي العليا.

فصل ما ينبغي للمعطي up

ومما ينبغي للمعطي أن يستصغر العطية ليعظم عند الله، وإن استعظمها صغرت عند الله، قال الصادق (ع): رأيت المعروف لا يصلح إلا بثلاث خصال: تصغيره، وتستيره، وتعجيله. فأنت إذا صغرته عظمته عند من تصنعه إليه، وإذا سترته تممته، وإذا عجلته هنأته، وإن كان غير ذلك محقته ونكدته (٢). واستعظام العطاء غير المن والأذى، إذ الصرف إلى عمارة المسجد ومثله يتأتى فيه الاستعظام، ولا يتأتى فيه المن والأذى، وأن يعطي

(هامش)

(١) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ١٩٠، كتاب الزكاة، باب ٥٧ المعروف وفضله. (٢) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٩١، كتاب الزكاة، باب آداب المعروف. (*)

ص ١٠٢

الأجود والأحب والأبعد عن الشبهة، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإخراج غير الجيد سوء أدب بالنسبة إلى الله، إذ إمساك الجيد لنفسه وأهله، وإنفاق الردئ في سبيل الله، يوجب إيثار غير الله وترجيحه عليه، ولو فعل هذا لضيف وقدم إليه أردأ طعام في البيت لانكسر قلبه ووغر به صدره. هذا إذا كان نظره إلى الله بأن يتصدق لوجه الله، من غير ملاحظة عوض لنفسه في دار الآخرة، وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه في الآخرة، فلا ريب في أن العاقل لا يؤثر غيره على نفسه، وليس له من ماله إلا ما تصدق فأبقى، وأكل فأفنى. ولعظم فائدة إنفاق الأجود الأحب، وقبح إنفاق الردئ الأخس، قال الله تعالى: أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه (٣): أي لا تأخذونه إلا مع كراهية وحياء، وهو معنى الإغماض، وما هذا شأنه عندكم فلا تؤثروا به ربكم. وقال سبحانه: لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون! . (٤) وقال: ويجعلون لله ما يكرهون (٥). وفي الخبر: سبق درهم مائة ألف درهم . وذلك بأن يخرجه الإنسان وهو من أحل ماله وأجوده، فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبذل وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله، فيدل على أنه ليس يؤثر الله بشيء مما يحبه. ومما ينبغي له أن يغني الفقير إذا قدر، ففي الخبر إذا أعطيته فأغنه، وأن يقبل يده بعد الاعطاء، لأنه يقع في يد الله تعالى أولا. قال أمير المؤمنين (ع): إذا ناولتم السائل فليرد الذي ناوله يده إلى فيه فيقبلها، فإن الله عز وجل يأخذ الصدقات . وقال النبي (ص): ما تقع صدقة المؤمن في يد السائل حتى تقع في يد الله ، ثم تلا هذه الآية:

(هامش)

(٣) البقرة، الآية: ٢٦٧. (٤) آل عمران، الآية: ٩٢. (٥) النحل، الآية: ٦٢. (*)

ص ١٠٣

ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات؟ (٦). وقال الصادق (ع): إن الله تعالى يقول: ما من شيء إلا وقد وكلت به من يقبضه غيري، إلا الصدقة، فإني أتلقفها بيدي تلقفا، حتى أن الرجل ليتصدق بالتمر أو بشق تمرة، فأربيها له كما يربي الرجل

فلوه وفصيلة، فتأتي يوم القيامة وهي مثل أحد وأعظم من أحد (٧). وأن يلتمس الدعاء من الفقير، لأن دعاءه يستجاب فيه، كما روي: أن علي بن الحسين (ع) كان يقول للخادم: أمسك قليلا حتى يدعوا، فإن دعوة السائل الفقير لا ترد . وإنه (ع) كان يأمر الخادم إذا أعطى السائل، أن يأمره أن يدعو بالخير. وعن أحدهما - عليهما السلام - إذا أعطيتموهم فلقنوهم الدعاء، فإنه يستجاب لهم فيكم، ولا يستجاب لهم في أنفسهم . وما قيل من أن أرباب القلوب لا يتوقعون الدعاء من القابض، لأنه شبيه المكافأة، وكانوا يقابلون الدعاء بمثله، ولو أرسلوا معروفا إلى فقير، قالوا للرسول إحفظ ما يدعوا به ليردوا عليه مثل قوله، خلاف طريقة أئمتنا الراشدين - عليهم السلام -، فلا اعتبار به عندنا. ومما ينبغي له أيضا أن يصرف الصدقات إلى من يكثر بإعطائه الأجر كأهل الورع والعلم، وأرباب التقوى والصدق، والكاملين في الإيمان والتشيع. قال رسول الله (ص): لا يأكل طعامك إلا تقي . وقال - صلى الله عليه وآله -: أطعموا طعامكم الأتقياء . وقال (ص): أضف بطعامك من تحبه في الله . ولكن يرفعهم من الزكاة الواجبة والصدقات، لأنها أوساخ الأموال، ويوسع عليهم بالهدايا والصلات، ففي الخبر: مستحقو الزكاة المستضعفون من شيعة محمد وآله: الذين لم تقو بصائرهم، وأما من قويت بصيرته وحسنت بالولاية لأوليائهم والبراءة من أعدائهم معرفته، فذاك أخوكم في الدين، أمس بكم رحمة من الآباء والأمهات المخالفين، فلا تعطوه زكاة ولا صدقة، فإن موالينا وشيعتنا منا كالجسد الواحد، تحرم على جماعتنا الزكاة والصدقة. وليكن ما تعطونه (هامش)

(

٦) التوبة، الآية: ١٠٥. (٧) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٦٢، باب فضل الصدقة. (*)

ص ١٠٤

أخوانكم المستبصرين البر، وارفعوهم عن الزكاة والصدقات، ونزهوهما عن أن تصبوا عليهم أوساخكم. أيحب أحدكم. أن يغسل وسخ بدنه ثم يصبه على أخيه المؤمن؟ إن وسخ الذنوب أعظم من وسخ بدنه ثم يصبه على أخيه المؤمن؟ إن وسخ الذنوب أعظم من وسخ البدن، فلا توسخوا أخوانكم... الحديث. ولا ينبغي أن يصرف إلى من نظره إلى الوسائط، بل ينبغي الصرف إلى من بلغ مقام التوحيد، ويرى النعمة من الله، ولا ينظر إلى الوسائط. إذ من لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث إنهم وسائط، فغير خال من نوع من الشرك الخفي. قال الصادق (ع) في قول الله تعالى: وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون (٨): هو قول الرجل: لولا فلان لهلكت! ولولا فلان لما أصبت كذا! ولولا فلان لضاع عيالي! ألا ترى أنه قد جعل لله شريكا في ملكه، يرزقه أو يدفع عنه؟ ، فقال الراوي: يجوز أن يقال: لولا إن الله من علي بفلان لهلكت؟ قال نعم! لا يأس بهذا . ومن أهل المزية والاختصاص بالبذل إليه، من كان مستترا ساترا للحاجة، كائنا من أهل المروة، متغشيا في جلباب التجمل، محصورا في سبيل الله، محبوسا في طريق الآخرة بعيلة أو مرض أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب أو سبب آخر من الأسباب، والأولى من الكل الأقارب وأولو الأرحام من أهل الاحتياج، فإن الإنفاق عليهم صدقة وصلة. وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يخفى، قال أمير المؤمنين (ع): لأن أصل أخا من أخواني بدرهم، أحب إلي من أن أتصدق بعشرين درهما، ولأن أصله بعشرين درهما أحب إلي من أن أتصدق بمائة درهم، ولأن أصله بمائة درهم أحب إلي من أن أعتق رقبة . وفي خبر آخر: لا صدقة وذو رحم محتاج، الصدقة بعشرة والقرض بثمانية عشر، وصلة الأخوان بعشرين، وصلة الرحم بأربعة وعشرين .

وفي الخبر: إن أفضل الصدقات والصلات الإنفاق على ذي الرحم الكاشح : يعني المبغض، وكأنه لمخالفة الهوى وصدوره عن الخلوص والتقوى.

(هامش)

(٨) يوسف، الآية: ١٠٦. (*)

ص ١٠٥

فصل ما ينبغي للفقراء في أخذ الصدقة up

ينبغي للفقير الأخذ أن يعلم أن الله تعالى أوجب صرف المال إليه ليكفي مهمته، فتتجرد للعبادة والاستعداد للموت، فينبغي أن يتأهب لذلك ولا يصرفه عنه فضول الدنيا، ويشكر الله على ذلك، ويشكر المعطي، فيدعو له ويثني عليه مع رؤية النعمة من الله سبحانه، قال

رسول الله (ص): من لم يشكر الناس لم يشكر الله . وقال الصادق (ع): لعن الله قاطعي سبيل المعروف قيل: وما قاطعو سبل المعروف؟ قال: الرجل يصنع إليه المعروف فيكفره. فيمنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره (٩) وقال أمير المؤمنين (ع): من صنع بمثل ما صنع إليه فإنما كافأه، ومن ضعفه كان شكورا، ومن شكر كان كريما .

وينبغي له أيضا أن يستر عيوب صاحب العطاء، ولا يذمه ولا يحقره، ولا يعيره بالمنع إذا منع، ويفخم عند نفسه وعند الناس إعطاءه، بحيث لا يخرجه عن كونه واسطة، لئلا يكون مشركا، وأن يتوقى مواقع الحرمة والريبة والشبهة في أصله ومقداره، فلا يأخذ من لا يحل ماله أو يشتبه، كعمال السلاطين والجنود ومن أكثر كسبه من الحرام، ولا الزيادة على قدر الحاجة، ولا يسأل على رؤس الملأ ممن يستحي الرد، وأن يتورع العالم والمتقي من أخذ الزكاة والصدقات ما لم يضطر إليها، تنزيها لنفسه عن الأوساخ وأن يستر الأخذ بنية أنه أبقى لستر المروة والتعفف، وأصون لنفسه عن الاهانة والإذلال، وأعون للمعطي على الإخفاء والأسرار، وسلم لقلوب الناس من الحسد وسوء الظن، أو يظهره بنية الإخلاص والصدق، وإظهار المسكنة والعبودية، والتبري عن الكبر، وتلبيس الحال وإقامة سيئة الشكر، أو غير ذلك، فإنه يختلف باختلاف النيات والأشخاص والأحوال، ولكل امرئ ما نوى، وكل مراقب للأحوال عارف بالفوائد والمفاسد، يمكنه الأخذ بالأنفع الأرجح.

(هامش)

(٩) صححنا الحديث على (الكافي): ٤ / ٣٣، كتاب الزكاة، باب من كفر المعروف، ط طهران ١٣٧٧ هـ. (*)

ص ١٠٦

تتميم زكاة الأبدان up

إعلم أنه كما في المال زكاة فكذلك للبدن زكاة، وهو نقصه ليزيد الخير والبركة لصاحبه. وهذا النقص إما أن يكون اختيارا، بأن يصرف في الطاعة ويمنع عن المعصية، أو اضطرارا، بأن يصاب بمرض وآفة. قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - يوما لأصحابه: ملعون كل مال لا يزكى، ملعون كل جسد لا يزكى، ولو في كل أربعين يوما مرة. قيل له: يا رسول الله، أما زكاة المال فقد عرفناها، فما زكاة الأجساد؟ قال (ص): أن يصاب بآفة . فتغيرت وجوه الذين سمعوا منه ذلك، فلما رآهم قد تغيرت ألوانهم، قال: هل تدرون ما عنيت بقولي؟ فقالوا: لا يا رسول الله! قال: إن الرجل يخدش الخدشة، وينكب النكبة، ويعثر العثرة، ويمرض المرضة، ويشاك الشوكة، وما أشبه هذا... ، حتى ذكر في حديثه اختلاج العين. وقال (ص): لكل شيء زكاة، وزكاة الأبدان الصيام . وقال الصادق (ع): على كل جزء من أجزائك زكاة واجبة لله عز وجل بل على كل منبت شعر من شعرك، بل على كل لحظة من لحاظك زكاة. فزكاة العين: النظرة بالعبرة (١٠) والغض عن الشهوات وما يضاهيها. وزكاة الأذن: استماع العلم والحكمة والقرآن، وفوائد الدين من الموعظة والنصيحة وما فيه نجاتك، وبالإعراض عما هو ضده من الكذب والغيبة وأشباههما. وزكاة اللسان: النصح للمسلمين، والتيقظ للغافلين، وكثرة التسبيح والذكر وغيرها. وزكاة اليد: البذل والعطاء والسخاء بما أنعم الله عليك به، وتحريكها بكتابة العلم ومنافع ينتفع بها المسلمون في طاعة الله تعالى، والقبض عن الشر وزكاة الرجل: السعي في حقوق الله، من زيارة الصالحين، ومجالس الذكر، وإصلاح الناس، وصلة الأرحام، والجهاد، وما فيه صلاح قلبك وسلامة دينك (١١).

(هامش)

(١٠) في نسخ (جامع السعادات): النظر بالعبر ، ولعله الأولى. (١١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): (الباب ٢٢، وفيه اختلاف كثير عن نسخ (جامع السعادات) بما لم يحرج عن المعنى. (*)

ص ١٠٧

• وثانيها: الخمس up

وقد فرضه الله تعالى على عباده صونا لذرية نبيه (ص) عن الافتقار، وتنزيها لهم عن الصدقات التي هي أوساخ الناس، فقال سبحانه: وأعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، والله على كل شيء قدير (١٢). والمستفاد من الآية: إن مانع الخمس لا إيمان له. وقال أمير

المؤمنين - عليه السلام - هلك الناس في بطونهم وفروجهم، لأنهم لا يؤدون إلينا حقنا . ولا ريب في عظم الثواب والأجر في أدائه وإيصاله إلى أهله، وكيف لا وهو إعانة ذرية الرسول (ص) وقضاء حوائجهم، وقد قال رسول الله (ص): حقت شفاعتي لمن أعان ذريتي بيده ولسانه وماله (١٣). وقال (ص): أربعة أنالهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في أمورهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه . وقال (ص): من اصطنع إلى أحد من أهل بيتي يدا، كافيته يوم القيامة . وعن الصادق (ع) قال: إذا كان يوم القيامة، نادى مناد: أيها الخلائق، انصتوا، فإن محمدا يكلمكم. فتنصت الخلائق، فيقوم النبي (ص) فيقول: يا معشر الخلائق، من كانت له عندي يد أو منة أو معروف فليقم حتى أكافيه. فيقولون: بآبائنا وأمهاتنا! وأي يد وأي منة وأي معروف لنا؟ بل اليد والمنة والمعروف لله ولرسوله على جميع الخلائق. فيقول لهم: بلى! من آوى أحدا من أهل بيتي، أو برهم، أو كساهم من عرى، أو أشبع جائعهم، فليقم حتى أكافيه. فيقوم أناس قد فعلوا ذلك، فيأتي النداء من عند الله: يا محمد، يا حبيبي، قد جعلت مكافأتهم إليك، فأسكنهم من الجنة حيث شئت. قال: فيسكنهم في الوسيلة حيث لا يحجبون عن محمد

(هامش)

(١٢) الأنفال، الآية: ٤١. (١٣) صححنا هذا الحديث على (جامع الأخبار): الباب ٢، الفصل ٦. (*)

ص ١٠٨

وأهل بيته - صلوات الله عليهم (١٤). وقد ظهر مما تقدم بعض ما تعلق به من الأسرار والآداب والشرائط الباطنة. وينبغي أن يكون معطيه في غاية الحذر عن استعظامه وعن المن والأذى، وأن يكون في غاية التخضع والتواضع للذرية العلوية عند إعطائه إياهم، ويعلم أنه عبد من عباد الله، أعطاه مولاه نبذا من أمواله، ثم أمره بأن يوصل قليلا منها إلى ذرية نبيه (ص)، وجعل له أيضا في مقابلة هذا الايصال زيادة المال في الدنيا وعظيم الأجر والثواب في العقبى. فما أقبح بالعاقل - مع ذلك - أن يستعظم ما يعطيه، ويمن على أولاد نبيه (ص).

• وثالثها: الإنفاق على الأهل والعيال والتوسع عليهم

وهو أيضا من الواجبات، على النحو لمقرر في كتب الفقه. وما ورد في مدحه وعظم أجره أكثر من أن يحصى، قال رسول الله (ص): الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله (١٥) وقال (ص): خيركم خيركم لأهله . وقال (ص): المؤمن يأكل بشهوة أهله، والمنافق يأكل أهله بشهوته (١٦). وقال: أفضل الصدقة صدقة عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى، ولا يلوم الله على الكفاف (١٧). وقال (ص): دينار أنفقته على أهلك، ودينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، وأعظمها أجرا الدينار الذي أنفقته على أهلك . وقال (ص): ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة، وإن الرجل ليؤجر في رفع اللقمة إلى فم امرأته . وقال (ص):

(هامش)

(

١٤) صححنا الأحاديث الثلاثة الأخيرة على (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف، أبواب الأمر بالمعروف، الباب ١٧. (١٥) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب التجارة، أبواب مقدماتها الباب ٢٢. وروي الحديث في (المستدرك) عن! (غوالي اللئالي). (١٦) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب النكاح، أبواب النفقات، الباب ٢١. وكذا الحديث الآتي: ملعون ملعون.... (١٧) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٨٩، وهو بمضمونه من المشهورات التي يرويها العامة والخاصة. (*)

ص ١٠٩

من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم يطلب المعيشة . وقال (ص): من كانت له ثلاث بنات. فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنه، أوجب الله تعالى له الجنة، لا أن يعمل عملا لا يغفر الله له . وقال (ص) يوما لأصحابه: تصدقوا. فقال رجل: إن عندي دينار. قال أنفقه على نفسك. فقال: إن عندي آخر قال: أنفقه على زوجتك. قال: إن عندي آخر. قال: أنفقه على ولدك. قال: إن عندي آخر. قال: أنفقه على خادمك. قال: إن عندي آخر. قال (ص): أنت أبصر به (١٨). وقال (ص): ملعون ملعون من ألقى كله على الناس! ملعون ملعون من ضيع من يعوله! ، وقال (ص) لأمير المؤمنين (ع) بعد ما رآه في البيت ينقي العدس،

وفاطمة عليها السلام جالسة عند القدر: اسمع مني يا أبا الحسن، وما أقول إلا من أمر ربي: ما من رجل يعين امرأته في بيتها، إلا كان له بكل شعرة على بدنه عبادة سنة صيام نهارها وقيام ليلها، وأعطاه الله من الثواب مثل ما أعطاه الصابرين وداود النبي ويعقوب وعيسى - عليه السلام -. يا علي، من كان في خدمة العيال في البيت ولم يأنف، كتب الله اسمه في ديوان الشهداء، وكتب له بكل يوم وليلة ثواب ألف شهيد، وكتب له بكل قدم ثواب حجة وعمرة، وأعطاه الله بكل عرق في جسده مدينة في الجنة. يا علي ساعة في خدمة البيت خير من عبادة ألف سنة، وألف حجة، وألف عمرة، وخير من عتق ألف رقبة، وألف غزوة، وألف مريض عاده، وألف جمعة وألف جنازة، وألف جائع يشبعهم، وألف عار يكسوهم، وألف فرس يوجهه في سبيل الله، وخير له من ألف دينار يتصدق على المساكين، وخير له من أن يقرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ومن ألف أسيرة اشتراها فأعتقها، وخير له من ألف بدنة بعضي للمساكين، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى مكانه في الجنة. يا علي، من لم يأنف من خدمة العيال دخل الجنة بغير حساب. يا علي، خدمة العيال كفارة للكبائر، وتطفئ غضب الرب، ومهور حور العين، وتزيد في الحسنات والدرجات.

يا علي، لا يخدم العيال

(هامش)

(١٨) صححنا الحديث على (إحياء العلوم): ١ / ٢٠٣. (*)

ص ١١٠

إلا صديق أو شهيد، أو رجل يريد الله به خير الدنيا والآخرة (١٩). وقال السجاد (ع): أرضاكم عند الله أسبغكم على عياله . وقال - عليه السلام -: لئن أدخل السوق، ومعي دراهم ابتاع لعيالي لحما، وقد قرموا (٢٠) إليه، أحب إلي من أن أعتق نسمة . وقال الصادق (ع): كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعوله . وقال (ع): من سعادة الرجل أن يكون القيم على عياله . وقال الكاظم (ع): إن عيال الرجل أسراؤه، فمن أنعم الله عليه نعمة فليوسع على أسرائه، فإن لم يفعل أو شك أن تزول النعمة . وقال أبو الحسن الرضا (ع): ينبغي للرجل أن يوسع على عياله لئلا يتمنوا موته . وقال (ع): صاحب النعمة يجب عليه التوسعة على عياله (٢١). والأخبار الواردة في ثواب الإنفاق على العيال وخدمتهم والتوسع عليهم مما لا تعد كثرة. وما ذكرناه كاف لإيقاظ أهل الاستبصار.

فصل ما ينبغي في الإنفاق على العيال up

ينبغي لطالب الأجر والثواب في إنفاق العيال، أن يقصد في كده وسعيه في تحصيل النفقة وفي إنفاقه وجه الله وثواب الآخرة، إذ لا ثواب بدون القربة، وأن يجتنب عن تحصيل الحرام والشبهة، ولا يدخل على عياله إلا الحلال، إذ أخذ الحرام وإنفاقه أعظم الذنوب وأشد المعاصي، وأن يقصد في التحصيل والإنفاق، فليحترز عن الإقتار لئلا يضيع عياله، وعن الإسراف لئلا يضيع عمره في طلب المال، فيكون من الخاسرين الهالكين. قال الله

(هامش)

(

١٩) صححنا الحديث على (جامع الأخبار): الباب ٨، الفصل ٣، طبع بمبي سنة ١٣٣٨. ولم نعثر على الحديث في الكتب المعتبرة، إلا أنه في (مستدرك الوسائل) نقله عن (جامع الأخبار) نفسه في أبواب مقدمات التجارة: الباب ١٧. (٢٠) قال في (الوافي): ٦ / ٢٨٨، باب التوسيع على العيال، في شرح هذا الحديث: القرم: شدة شهوة اللحم . (٢١) صححنا الأحاديث، ابتداء من الرواية عن السجاد، على الوسائل): كتاب النكاح، أبواب النفقات، الباب ٢٠ و٢١. (*)

ص ١١١

سبحانه: وكلوا واشربوا ولا تسرفوا (٢٢). وقال ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط (٢٣). وقال: والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (٢٤). وعن الصادق (ع): أنه تلا هذه الآية: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما)، فأخذ قبضة من حصى وقبضها بيده، فقال: هذا الإقتار الذي ذكره الله في كتابه. ثم أخذ قبضة أخرى، فأرخى كفه كلها، ثم قال: هذا الإسراف. ثم أخذ قبضة أخرى، فأرخى بعضها وأمسك بعضها، وقال: هذا القوام (٢٥). وينبغي ألا يستأثر نفسه أو بعض عياله بمأكول طيب، ولا يطعم سائرهم منه، فإن ذلك يوغر الصدر ويبعد عن المعاشرة بالمعروف، إلا أن

يضطر إليه، لمرض أو ضعف أو غير ذلك. وينبغي ألا يصف عندهم طعاما ليس يريد اطعامهم إياه، وأن يقعد عياله كلهم على مائدة عند الأكل، فقد روي: إن الله وملائكته يصلون على أهل بيت يأكلون في جماعة .

وأما الأمور المستحبة من الإنفاق، الداخلة تحت السخاء

• فأولها: صدقة التطوع up

وفضلها عظيم، وفوائدها الدنيوية والأخروية كثيرة. قال رسول الله - صلى الله عليه وآله -: تصدقوا ولو بتمرة، فإنها تسد من الجائع، وتطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار . وقال (ص): اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة . وقال (ص): ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيبا، إلا كان الله آخذها بيمينه، فيربيها له كما يربي أحدكم فصيله، حتى تبلغ التمرة

(هامش)

(٢٢) الأعراف، الآية: ٣٠. (٢٣) الإسراء، الآية: ٢٩. (٢٤) الفرقان، الآية: ٦٧. (٢٥) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٩٦. باب فضل القصد بين الإسراف والتقتير (*)

ص ١١٢

مثل أحد . وقال (ص): ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عز وجل الخلافة على تركته . وقال (ص): كل امرئ في ظل صدقته، حتى يقضي بين الناس . وقال (ص): أرض القيامة نار، ما خلا ظل المؤمن، فإن صدقته تظله . وقال (ص): إن الله لا آله إلا هو، ليدفع بالصدقة الداء والدبيلة: والحرق والغرق، والهدم والجنون... وعد سبعين بابا من الشر. وقال (ص): صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل (٢٦). وقال (ص): إذا أطرقكم سائل ذكر بالليل فلا تردوه . وفائدة التخصيص بالذكر والليل: إن من يسألك ليلا في صورة الإنسان، يحتمل أن يكون ملكا أتاك للامتحان، كما روي: أنه سبحانه أوحى إلى موسى بن عمران (ع)، وقال: يا موسى، أكرم السائل ببذل يسير أو برد جميل، إنه يأتيك من ليس بإنس ولا جان، بل ملائكة من ملائكة الرحمن، يبلونك فيما خولتك، ويسألونك فيما نولتك، فانظر كيف أنت صانع يا ابن عمران . ولذلك حث رسول الله (ص) على عدم رد السائل، وقال: اعط السائل ولو على ظهر فرس . وقال (ص): لا تقطعوا على السائل مسألته، فلولا أن المساكين يكذبون ما أفلح من ردهم . وقال الباقر (ع): البر والصدقة ينفيان الفقر، ويزيدان في العمر، ويدفعان عن صاحبهما سبعين ميتة سوء . وقال الصادق (ع): داووا مرضاكم بالصدقة، وادفعوا البلاء بالدعاء، واستنزلوا الرزق بالصدقة، فإنها تفك من بين لحى سبعمائة شيطان، وليس شيء أثقل على الشيطان من الصدقة على المؤمن، وهي تقع في يد الرب تعالى قبل أن تقع في يد العبد . وقال (ع): الصدقة باليد تقي ميتة السوء، وتدفع سبعين نوعا من البلاء، وتفك عن لحى سبعين شيطانا كلهم يأمره ألا يفعل . وقال (ع): يستحب للمريض أن يعطي السائل بيده، ويأمره أن يدعو له . وقال عليه السلام: باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطاها، ومن تصدق بصدقة

(هامش)

(٢٦) الأخبار النبوية المذكورة في هذا الفصل أغلبها عامية صححناها على (إحياء العلوم): ج ١ بيان فضيلة الصدقة. (*)

ص ١١٣

أول النهار رفع الله عنه شر ما ينزل من السماء في ذلك اليوم، فإن تصدق أول الليل دفع الله شر ما ينزل من السماء في تلك الليلة . وكان (ع) إذا أعتم أي صلى العتمة - وذهب من الليل شطره، أخذ جرابا فيه خبز ولحم ودراهم، فحمله على عنقه، ثم ذهب به إلى أهل الحاجة من أهل المدينة، فقسمه فيهم ولا يعرفونه، فلما مضى أبو عبد الله (ع)، فقدوا ذلك، فعلموا أنه كان أبا عبد الله (ع). وسئل (ع) عن السائل يسأل ولا يدري ما هو، فقال: اعط من أوقع في قلبك الرحمة . وقال (ع) في السؤال: أطعموا ثلاثة، وإن شئتم أن تزدادوا فازدادوا، وإلا فقد أديتم حق يومكم . وقال (ع) في الرجل يعطي غيره الدراهم يقسمها، قال: يجري له من الأجر مثل ما يجري للمعطي، ولا ينقص من أجره شيئا. ولو أن المعروف جرى على سبعين يد، لأوجروا كلهم من غير أن ينقص من أجر صاحبه شيء . وقد وردت أخبار كثيرة في فضل تصدق الماء وثوابه، قال أمير المؤمنين (ع): أول ما يبدأ به في الآخرة صدقة الماء، يعني في الأجر . وقال أبو جعفر (ع): إن الله تعالى يحب إبراد الكبد الحراء، ومن سقى الماء كبدا حراء، من بهيمة وغيرها، أظله

الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله . وقال الصادق (ع): من سقى الماء في موضع يوجد فيه الماء، كان كمن أعتق رقبة، ومن سقى الماء في موضع لا يوجد فيه الماء، كان كمن أحيى نفسا، ومن أحيى نفسا فكأنما أحيى الناس جميعا . (تنبيه): سئل رسول الله (ص): أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تتصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل البقاء وتخشى الفاقة، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا .

فصل فضيلة الأسرار في الصدقة المندوبة up

لا كلام في أن الأسرار في الصدقة المندوبة أفضل من إظهارها للمعطي في إعطائها، ويدل عليه قول الصادق (ع): الصدقة في السر والله أفضل ج: ٢

ص ١١٤

من الصدقة في العلانية (٢٧). وقوله (ع): كلما فرض الله عليك، فإعلانه أفضل من أسراره، وكلما كان تطوعا، فإسراره أفضل من إعلانه . وإنما الكلام في أن الأفضل للأخذ في أخذها، أن يأخذها سرا أو علانية. فقيل: الأفضل له أخذها، لأنه أبقى للتعفف وستر المروة، وأسلم لقلوب الناس وألسنتهم من الحسد وسوء الظن والغيبة، وعون للمعطي على أسرار العمل، وقد علمت أفضلية السر على الجهر في الاعطاء، وأصون لنفسه عن الإذلال والإهانة، وأخلص من شوب شركة الحضار، فإن المستفاد من الأخبار: أن الحضار شركاء من أهدي له في الهدية. والظاهر أن الصدقة مثلها إذا كان الحضار من أهلها. قال رسول الله (ص): من أهدي له هدية وعنده قوم، فهم شركاؤه فيها . وقال الباقر (ع): جلساء الرجل شركاؤه في الهدية . وقال (ع): إذا أهدي للرجل هدية من طعام، وعنده قوم، فهم شركاؤه في الهدية الفاكهة أو غيرها . وقيل: الأفضل أخذها علانية، والتحدث بها، لتنقية الكبر والرياء، وتلبيس الحال، وإيجابه الإخلاص والصدق، وإقامة منة الشكر، وإسقاط الجاه المنزلة، وإظهار العبودية والمسكنة، مع أن العارف ينبغي ألا ينظر إلا إلى الله، والسر والعلانية في حقه واحد، فاختلاف الحال شرك في التوحيد. والحق أن الحكم بأفضلية أحدهما على الإطلاق غير صحيح، إذ تختلف أفضلية كل منهما باختلاف النيات، وتختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص. فينبغي لطالب السعادة أن يراقب نفسه، ويلاحظ حاله ووقته، ويرى أن أي الحالتين من السر والجهر بالنظر إليه أقرب إلى الخلوص والقربة، وأبعد من الرياء والتلبيس وسائر الآفات، فيختار ذلك، ولا يتدلى بحبل الغرور ولا يخدع بتلبيس الطبع ومكر الشيطان.

مثلا إذا كان طبعه مائلا إلى الإسرار، ورأى أن باعث هذا الميل حفظ الجاه والمنزلة، وخوف سقوط *(الهامش)*(٢٧) صححنا أغلب هذه الأخبار المروية عن أهل البيت - عليهم السلام - في هذا المقام على (الوافي): ٦ / ٢٨٢، ٢٨٤ باب فضل الصدقة وباب فضل صدقة السر.

ص ١١٥

القدر من أعين الناس، ونظر الخلق إليه بعين الازدراء، وإلى المعطي كونه منعما محسنا إليه، أو خوف ألا يعطيه الناس بعد ذلك لعلمهم بما أخذه، فلينتقل عن الإسرار ويأخذها علانية، إذ لو أبقى نفسه على ما استكن فيها من الداء الدفين، وعمل بمقتضاها، صار هالكا - وإن كان طبعه مائلا إلى الإسرار، وأيقن بأن باعث الميل إليه: إبقاء التعفف، وستر المروة، وصيانة الناس عن الحسد، وسوء الظن والغيبة، ولم يكن باعثه شيء من المفاسد المذكورة، فالأولى أن يأخذها سرا. ويعرف ذلك بأن يكون تألمه بانكشاف أخذه للصدقة كتألمه بانكشاف صدقة أخذها بعض أقرانه وأخوانه المؤمنين، فإنه إن كان طالبا لبقاء السر وإعانة المعطي على الأسرار، وصيانة العلم عن الابتذال، وحفظ الناس عن الحسد والغيبة وسوء الظن، فينبغي أن يكون طالبا لها في صدقة أخيه أيضا، إذ يحصل ما يحذر منه: من هتك الستر، وابتذال العلم، ووقوع الناس في الغيبة والحسد بانكشاف صدقة أخيه أيضا. فإن كان انكشاف صدقته أثقل عليه من انكشاف صدقة غيره، فتقديره الحذر من هذه المعاني تلبيس من النفس ومكر من الشيطان. وإذا كان طبعه مائلا إلى الإظهار، ووجد منه أن باعث هذا الميل هو التطيب لقلب المعطي، والاستحثاث له على مثله، والإظهار للغير بأنه من المبالغين في الشكر، حتى يرغبوا في الإحسان إليه، فليتنبه أن هذا الداء من الداء الدفين الذي يهلكه لو لم يعالجه، فليترك أخذها جهرا والتحدث بها، وينتقل إلى الأخذ خفية.

وإن تيقن من نفسه بأن الباعث هو إقامة السنة في الشكر، والتحدث بالنعمة، وإسقاط الجاه والمنزلة، وإظهار العبودية والمسكنة، أو غير

ذلك من المقاصد الصحيحة، من دون تطرق شيء من المفاسد المذكورة، فالإظهار أفضل، ويعرف ذلك بأن تميل نفسه إلى الشكر، حيث لا ينتهي الخبر إلى المعطي ولا إلى من يرغب في عطائه، وبين يدي جماعة يعلم أنهم يكرهون إظهار العطية، ويرغبون في إخفائها، وعادتهم ألا يعطوها لا من يخفيها ولا يتحدث بها ولا يشكر عليها. ثم إذا جزم يكون الباعث إقامة السنة في الشكر، فينبغي أن يغفل عن قضاء حق المعطي، فينظر أنه إن كان ممن يحب الشكر والنشر فيخفي الأخذ ولا يشكر، لأن قضاء حقه ألا

ص ١١٦

ينصره على الإثم، وإن كان ممن لا يحب الشكر ولا يطلب النشر، فالأولى أن يشكره ويظهر صدقته. وينبغي لكل من يراعي قلبه أن يلاحظ هذه الدقائق ولا يهملها، إذ أعمال الجوارح مع إهمالها ضحكة للشيطان وشماتة له، لكثرة التعب فيها مع عدم تصور نفع لها، والعلم بهذه الدقائق وملاحظتها هو العلم الذي ورد فيه أن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة، إذ بهذا العلم تحيي عبادة العمر، وبالجهل به تموت عبادة العمر.

• وثانيها: الهدية up

وهي ما يعطي ويرسل إلى أخيه المسلم، فقيرا كان أم غنيا، طلبا للاستيناس، وتأكيدا للصحبة والتودد. وهو مندوب إليه من الشرع، ومع سلامة القصد والنية يكون عبادة. قال رسول الله (ص): تحابوا تهادوا، فإنها تذهب بالضغائن . وقال (ص): لو أهدي إلي ذراع لقبلت . وقال أمير المؤمنين (ع): لإن أهدي لأخي المسلم هدية أحب إلي من أن أتصدق بمثلها . وقال (ع): من تكرمة الرجل لأخيه المسلم، أن يقبل تحفته وأن يتحفه بما عنده، ولا يتكلف له شيئا .

• وثالثها: الضيافة up

وثوابها جزيل، وأجرها جميل، وفضلها عظيم، وثمرها جسيم. قال رسول الله (ص): لا خير فيمن لا يضيف . ومر (ص) برجل له إبل وبقر كثير، فلم يضيفه، ومر بامرأة لها شويهات، فذبحت له، فقال (ع): انظروا إليهما، فإنما هذه الأخلاق بيد الله عز وجل، فمن شاء أن يمنحه خلقا حسنا فعل . وقال (ص): الضيف إذا جاء فنزل بالقوم، جاء برزقه معه من السماء، فإذا أكل غفر الله لهم بنزوله . وقال: ما من ضيف حل بقوم إلا ورزقه في حجره . وقال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه . وقال (ص): لا تزال أمتي بخير: ما تحابوا، وأدوا الأمانة، واجتنبوا الحرام، وأقرأوا الضيف، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، فإذا لم يفعلوا ذلك ابتلوا بالقحط والسنين . وقال (ص):

ص ١١٧

إذا أراد الله بقوم خيرا أهدى لهم هدية. قالوا: وما تلك الهدية؟ قال: الضيف ينزل برزقه، ويرتحل بذنوب أهل البيت . وقال (ص): كل بيت لا يدخل فيه الضيف لا تدخله الملائكة . وقال (ص): الضيف دليل الجنة . وقال أمير المؤمنين (ع): ما من مؤمن يحب الضيف إلا ويقوم من قبره ووجهه كالقمر ليلة البدر، فينظر أهل الجمع، فيقولون: ما هذا إلا نبي مرسل! فيقول ملك: هذا مؤمن يحب الضيف ويكرم الضيف، ولا سبيل له إلا أن يدخل الجنة . وقال (ع): ما من مؤمن يسمع بهمس الضيف وفرح بذلك، إلا غفرت له خطاياه، وإن كانت مطبقة بين السماء والأرض . وبكى - (ع) يوما، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون الله قد أهانني . وعن محمد بن قيس، عن أبي عبد الله (ع) - قال: ذكر أصحابنا قوما، فقلت والله ما أتغدى ولا أتعشى إلا ومعي منهم اثنان أو ثلاثة أو أقل أو أكثر، فقال - (ع): فضلهم عليك أكثر من فضلك عليهم. قلت: جعلت فداك! كيف ذا وأنا أطعمهم طعامي، وأنفق عليهم من مالي، ويخدمهم خادمي؟ فقال: إذا دخلوا عليك دخلوا من الله بالرزق الكثير، وإذا خرجوا بالمغفرة لك . وكان إبراهيم الخليل (ع) إذا أراد أن يأكل، خرج ميلا أو ميلين يلتمس من يتغدى معه، وكان يكنى (أبا الضيفان). وجميع الأخبار الواردة في فضيلة الطعام المؤمن وسعيه تدل على فضيلة الضيافة، كقوله (ص) بعد سؤاله عن الحج المبرور: هو إطعام الطعام وطيب الكلام . وقال (ص): من أطعم ثلاثة نفر من المسلمين أطعمه الله من ثلاث جنان في ملكوت السماوات: الفردوس، وجنة عدن، وطوبى شجرة تخرج في جنة عدن غرسها ربنا بيده . وقول الصادق (ع) من أشبع مؤمنا وجبت له الجنة وقوله (ع): من أطعم مؤمنا حتى يشبعه، لم يدر أحد من خلق الله ما له من الأجر في الآخرة، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، إلا الله رب

العالمين . وسئل (ص): ما الإيمان؟ فقال: إطعام الطعام.
وبذل السلام وقال: إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها، من ظاهرها، يسكنها من أمتي من أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى
ص ١١٨
بالليل والناس نيام . وقال (ص): من أحب الأعمال إلى الله تعالى: إشباع جوعة المؤمن، وتنفيس كربته، وقضاء دينه وقال (ص) الله يحب الاطعام في الله، ويحب الذي يطعم الطعام في الله، والبركة في بيته أسرع من الشفرة في سنام البعير وقال (ص) خيركم من أطعم الطعام وقال صلى الله عليه وآله: من أطعم الطعام أخاه المؤمن حتى يشبعه، وسقاه حتى يرويه، بعده الله من النار سبع خنادق، ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام وفي الخبر: إن الله تعالى يقول للعبد في القيام ة: يا ابن آدم، خفت فلم تطعمني. فيقول: كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول: جاع أخوك فلم تطعمه، ولو أطعمته كنت أطعمتني . وقال (ص): من سقى مؤمنا من ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم . وقال (ص) من سقى مؤمنا شربه من ماء من حيث يقدر على الماء، أعطاه الله بكل شربة سبعين ألف حسنة، وإن قاه من حيث لا يقدر على الماء، فكأنما أعتق عشر رقاب من ولد إسماعيل (٢٨).
فصل ما ينبغي أن يقصد في الضيافة up
ينبغي أن يقصد في ضيافته التقرب إلى الله، والتسنن بسنة رسول الله واستمالة قلوب الأخوان، وإدخال السرور على قلوب المؤمنين، ولا يقصد به الرياء والمفاخرة والمباهاة، وإلا ضاع عمله، وأن يدعو الفقراء والأتقياء، وإن كان في ضيافة الأغنياء ومطلق الناس فضيلة أيضا. وينبغي ألا يهمل في ضيافة الأقارب والجيران، إذا إهمالهم قطع رحم وإيحاش، وألا يدعو من يعلم إنه تشق عليه الإجابة. وينبغي أن يعجل في إحضار الطعام، لأنه من إكرام الضيف وقد ورد: إن العجلة من الشيطان، إلا في خمسة أشياء، فإنها من سنة رسول الله (ص): إطعام الضيف، وتجهيز البيت وتزويج البكر، وقضاء الدين والتوبة من الذنوب وأن يحضر من الطعام قدر الكفاية، إذ التقليل عنه نقص في المروة، والزيادة عليه تضييع، وأن يسعى في إكرام الضيف: من طلاقة الوجه *(الهامش)*(٢٨) صححنا أحاديث هذا الفصل على (البحار): ٤ مج ١٥ / ١١٠، باب إطعام المؤمن. و٢٤٢ - ٢٤٤: باب آداب الضيف. وعلى (الكافي): باب إطعام المؤمن. وعلى (الوسائل): في آداب المائدة من كتاب الأطعمة والأشربة.
ص ١١٩
وطيب الكلام معه عند دخوله وخروجه وعلى المائدة، والخروج معه إلى باب الدار إذا خرج، قال رسول الله (ص): إن من سنة الضيف أن يشيعه إلى باب الدار . ومما ينبغي له ألا يستخدم الضيف، قال الباقر (ع): من الجفاء استخدام الضيف . وكان عند الرضا (ع) ضيف، فكان يوما في بعض الحوائج، فنهاه عن ذلك، وقام بنفسه إلى تلك الحاجة، وقال: نهى رسول الله (ص) عن أن يستخدم الضيف .
فصل آداب الضيافة up
ينبغي لكل مؤمن أن يجيب دعوة أخيه إلى الضيافة، من غير أن يفرق بين الغني والفقير، بل يكون أسرع إجابة إلى الفقير، وألا يمنعه بعد المسافة عن الإجابة إذا أمكن احتمالها عادة. قال رسول الله (ص): أوصي الشاهد من أمتي والغائب، أن يجيب دعوة المسلم ولو على خمسة أميال، ولا يمنعه صوم التطوع عن الإجابة، بل يحضر، فإن علم سرور أخيه بالافطار فليفطر ويحتسب في إفطاره أفضل ما يحتسب في صومه . وقال الصادق (ع): - من دخل على أخيه وهو صائم، فأفطر عنده ولم يعلمه بصوم فيمن عليه، كتب الله له صوم سنة، وإن علم أنه متكلف ولا يسر بإفطاره فليتعلل . وينبغي ألا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن، ليدخل عمله في أمور الدنيا، بل ينوي الاقتداء بسنة رسول الله (ص) وإكرام أخيه المؤمن، ليكون في عمله مطيعا لله مثابا في الآخرة، وأن يحترز عن الإجابة إذا كان الداعي من الظلمة أو الفساق، أو كانت ضيافة للفخر والمباهاة، ومن كان طعامه حراما أو شبهة، أو لم يكن موضعه أو بساطه المفروش حلالا، أو كان في الموضع شيء من المنكرات، كإناء فضة، أو تصوير حيوان على سقف أو حائط، أو أحد آلات اللهو من المزامير، وأمثالها، أو التشاغل بشيء من اللهو واللعب والهزل، فكل ذلك مما يمنع الإجابة، ويوجب تحريمها أو كراهيتها. قال الصادق

(ع) لا ينبغي للمؤمن أن يجلس مجلسا يعصى الله تعالى فيه ولا يقدر على تغييره. ومن ابتلى بحضور طعام ظالم إكراها وتقية، فليقلل الأكل، ولا يأكل أطايب الأطعمة .
ص ١٢٠
وينبغي للضيف - أيضا - إذا دخل الدار ألا يتصدر، ولا يقصد أحسن الأماكن، بل يتواضع ويرضى بالدون من المجلس، وإن أشار إليه صاحب الدار بموضع فلا يخالفه ويجلس فيه، وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع أو الانحطاط، وألا يجلس في مقابلة باب حجرة النسوان، ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام، فإنه دليل الشره وخسة النفس، وأن يخص بالتحية والسلام أولا من يقرب منه. وينبغي لمن دعي إلى الضيافة ألا يطول الانتظار عليهم، ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد.
• ورابعها: الحق المعلوم وحق الحصاد والجذاذ up
والمراد من الأول: ما يعرضه الرجل ويقدره في ماله، من قليل أو كثير غير الصدقات الواجبة، يعطيه محتاجا أو يصل به رحمه. والمراد بالثاني: ما يعطى به إلى الفقراء من الضغث بعد الضغث: أي القبضة بعد القبضة من الزرع يوم حصاده، ومن الحفنة بعد الحفنة: أي ملء الكف من التمر أو الحنطة أو غيرهما من الثمار والفواكه والحبوبات عند قطعها وتصفيتها. وهذان النوعان من الإنفاق معدودان في صدقة التطوع، وقد وردت بخصوصهما أخبار كثيرة لشدة استحبابهما. قال الصادق (ع): إن الله فرض للفقراء في أموال الأغنياء فريضة لا يحمدون إلا بأدائها، وهي الزكاة، بها حقنوا دماءهم وبها سموا مسلمين، ولكن الله تعالى فرض في أموال الأغنياء حقوقا غير الزكاة فقال الله تعالى: والذين في أموالهم حق معلوم (٢٩). والحق المعلوم غير الزكاة، وهو شيء يفرضه الرجل على نفسه في ماله، يجب عليه أن يفرضه على قدر طاقته وسعة ماله، فيؤدي الذي فرض على نفسه إن شاء كل يوم، وإن شاء كل جمعة، وإن شاء كل شهر (٣٠).
(هامش)
(٢٩) المعارج، الآية: ٢٤. (٣٠) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٨١، باب جملة ما يجب في المال من الحقوق. (*)
الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

## ٢٠٦ جامع السعادات (ج2)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب
ص ١٢١
وقال (ع): الحق المعلوم ليس من الزكاة، هو الشيء تخرجه من مالك، إن شئت كل جمعة، وإن شئت كل شهر، ولكل ذي فضل فضله، وقول الله تعالى: (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم)، فليس من الزكاة، والماعون ليس من الزكاة، وهو المعروف تصنعه والقرض تقرضه ومتاع البيت تعيره، وصلة قرابتك ليس من الزكاة. وقال الله تعالى: (والذين في أموالهم حق معلوم)، فالحق المعلوم غير الزكاة، وهو شيء يفرضه الرجل على نفسه أنه في ماله ونفسه، ويجب له أن يفرضه على قدر طاقته ووسعه (٣١) وقال (ع): وإن عليكم في أموالكم غير الزكاة. فقلت: أصلحك الله، وما علينا في أموالنا غير الزكاة؟ فقال: سبحان الله! أما تسمع قول الله تعالى؟ يقول في كتابه: والذين في أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم (٣٢). قال: قلت: فماذا الحق المعلوم الذي علينا؟ قال: هو والله الشيء يعلمه الرجل في ماله، يعطيه في اليوم أو في الجمعة أو الشهر، قل أو كثر، غير أنه يدوم عليه (٣٣). وقال (ع) في قول الله تعالى: (في أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم): هو الرجل يؤتيه الله الثروة من المال فيخرج منه الألف والألفين والثلاثة آلاف والأقل والأكثر، فيصل به رحمه ويحمل به الكل عن قومه . وقال (ع): في الزرع حقان: حق تؤخذ به، وحق تعطيه. قلت: وما الذي أؤخذ به وما الذي أعطيه؟ قال: أما الذي تؤخذ به، فالعشر ونصف العشر، وأما الذي تعطيه، فقول الله: وآتوا حقه يوم حصاده (٢٤). يعني من حصدك الشيء ثم الشيء - ولا أعلمه إلا قال الضغث ثم
(هامش)
)

٣١) نفس المصدر: باب جملة ما يجب فيه الزكاة (الوسائل): ٢ / ٧، باب الحقوق في المال سوى الزكاة. (٣٢) المعارج، الآية: ٢٤، ٢٥. (٣٣) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٨١، باب جملة ما يجب في المال من الحقوق وعلى (الوسائل): ٢ / ٧، باب جملة ما يجب فيه الزكاة. (٣٤) الأنعام، الآية: ١٤١. (*)

ص ١٢٢

الضغث - حتى تفرغ (٣٥). وقال (ع): لا تصرم بالليل، ولا تحصد بالليل، ولا تضح بالليل، ولا تبذر بالليل. فإنك إن فعلت ذلك لم يأتك القانع والمعتر. فقلت: وما القانع والمعتر؟ فقال: القانع: الذي يقنع بما أعطيته، والمعتر: الذي يمر بك فيسألك. وإن حصدت بالليل لم يأتك السؤال، وهو قول الله تعالى: (وآتوا حقه يوم حصاده) عند الحصاد، يعني القبضة بعد القبضة إذا حصدته، فإذا خرج فالحفنة بعد الحفنة، وكذلك عند الصرام، وكذلك عند البذر. ولا تبذر بالليل، لأنك تعطى من البذر كما تعطى من الحصاد . وقال الباقر (ع) في قول الله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده): هذا من الصدقة، ويعطي المسكين القبضة بعد القبضة، ومن الجذاذ الحفنة بعد الحفنة، حتى يفرغ . وفي مضمون هذه الأخبار كثيرة أخر.

• وخامسها: القرض up

وهو أيضا من ثمرات السخاء، لأن السخي تسمح نفسه بأن يقرض أخاه المحتاج بعض أمواله إلى حين استطاعته، كما تسمح نفسه بأن يبذل عليه أصل ماله، والبخيل يشق عليه ذلك. وثواب القرض عظيم، وفضله جسيم. قال الباقر (ع): من أقرض رجلا قرضا إلى ميسرة، كان ماله في زكاة، وكان هو في الصلاة مع الملائكة حتى يقبضه . وقال الصادق - عليه السلام -: مكتوب على باب الجنة: الصدقة بعشرة، والقرض بثمانية عشر . وقال (ع): ما من مؤمن أقرض مؤمنا يلتمس به وجه الله، إلا حسب الله له أجره بحساب الصدقة، حتى يرجع ماله إليه، يعني أعطاه الله في كل آن أجر صدقة، ذلك لأن له قضاءه في كل آن، فلما لم يفعل فكأنما أعطاه ثانيا وثالثا وهلم جرا، إلى أن يقبضه . وقال (ع): لا تمانعوا قرض الخمير والخبز واقتباس النار، فإنه يجلب الرزق على أهل البيت مع ما فيه من مكارم الأخلاق . وقال: لا تمانعوا قرض

(هامش)

(٣٥) صححنا الحديث على (الوافي) ٦ / ٢٨٢، وعلى (فروع الكافي): كتاب الزكاة، باب الحصاد والجذاذ. وكذا ما بعده. (*)

ص ١٢٣

الخمير والخبز، فإن منعهما يورث الفقر (٣٦).

• وسادسها: إنظار المعسر والتحليل up

وهو أيضا من أفراد البذل المترتب على السخاء، وقد ورد في فضله أخبار كثيرة، قال الصادق (ع): من أراد أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، فلينظر معسرا، أو يدع له من حقه . وقال (ص): إن رسول الله (ص) قال في يوم حار - وحنا كفه -: من أحب أن يستظل من فور جهنم؟ - قالها ثلاث مرات - فقال الناس في كل مرة: نحن يا رسول الله. فقال: من أنظر غريما أو ترك المعسر . وقال (ع): صعد رسول الله (ص) المنبر ذات يوم، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على أنبيائه، ثم قال: أيها الناس، ليبلغ الشاهد الغائب منكم، لا ومن أنظر معسرا كان له على الله في كل يوم ثواب صدقة بمثل ماله، حتى يستوفيه . وقيل له (ع): إن لعبد الرحمن بن سبابة دينا على رجل قد مات، وقد كلمناه أن يحلله فأبى، فقال: ويحه! أما يعلم أن له بكل درهم عشرة إذا حلله،، وإن لم يحلله فإنما هو درهم بدرهم؟ (٣٧). وفي معناها أخبار كثيرة أخر.

• وسابعها: بذل الكسوة والسكنى ونحوهما up

غير ما ذكر من وجوه الإعانة بالمسلم، كبذل الكسوة والسكنى، وحمله على الدابة، وإعطائه الماعون، وإعارته المتاع وسائر ما يحتاج إليه، وإطراق الفحل وغير ذلك، فإن جميع ذلك من ثمرات السخاء، ومنعها من نتائج البخل. وفي كل واحد منها فضيلة وثواب، وورد في فضيلة كل منها أخبار. ومما يدل على مدح كسوة المؤمن، قول الباقر (ع): لإن أحج حجة أحب إلي من أن أعتق رقبة ورقبة ورقبة (حتى انتهى إلى عشرة)، ومثلها

(هامش)

(٣٦) صححنا الأحاديث الواردة في هذا المقام على (الوافي): ٦ / ٢٩٢، باب القرض. (٣٧) صححنا جميع الأحاديث الواردة في

هذا المقام على (الوافي): ٦ / ٢٩٢ باب إنظار المعسر والتحليل. وعلى (فروع الكافي): باب إنظار المعسر، كتاب الزكاة. (*)
ص ١٢٤
ومثلها (حتى انتهى إلى سبعين). ولإن أعول أهل بيت من المسلمين، أشبع جوعتهم، وأكسو عورتهم، واكف وجوههم عن الناس، أحب إلي من أن أحج حجة وحجة (حتى انتهى إلى عشر)، وعشر مثلها ومثلها (حتى انتهى إلى سبعين) (٣٨). وقال الصادق (ع): من كسا أخاه كسوة شتاء أو صيف، كان حقا على الله أن يكسوه من ثياب الجنة، وأن يهون عليه من سكرات الموت، وأن يوسع عليه في قبره، وأن يلقى الملائكة إذا خرج من قبره بالبشرى. وهو قول عز وجل في كتابه: وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون (٣٩). وقال: من كسا أحدا من فقراء المسلمين ثوبا من عري، أو أعانه بشيء مما يقويه على معيشته، وكل الله عز وجل به سبعة آلاف ملك من الملائكة، يستغفرون لكل ذنب عمله، إلى أن ينفخ في الصور (٤٠).
• وثامنها: ما يبذل لوقاية العرض والنفس up
ما يبذل لوقاية العرض، وحفظ الحرمة، ورفع شر الأشرار وظلم الظلمة. فإن السخي لا يقصر في شيء من ذلك، والبخيل ربما منع بخله عن ذلك، فيهتك عرضه ويذهب حرمته. وفي بعض الأخبار دلالة على أن البذل ذلك صدقة. وتقدم أن ما وقي المرء به عرضه فهو له صدقة، وكذا بذل ما تقتضيه المروة والعادة من ثمرات الجود والسخاء، ومن منعه كان بخيلا.
• وتاسعها: ما ينفق في المنافع العامة up
والخيرات الجارية، من بناء المساجد والمدارس والربط والقناطير، وإجراء القنوات، وأمثال ذلك مما يبقى أثره على مر الدهور، ويصل نفعه وثوابه إلى صاحبه في كل وقت إلى يوم النشور. ولا يخفى ثواب ذلك.
(هامش)
(٣٨) صححنا الحديث على (الوافي): ٦ / ٢٨٢، باب فضل الصدقة. (٣٩) الأنبياء، الآية: ١٠٣. (٤٠) صححنا الأحاديث الواردة في هذا المقام على (الكافي): باب من كسا مؤمنا. (*)
ص ١٢٥
والأخبار الواردة في مدحه وفضيلته أكثر من أن تحصى، ولا حاجة إلى ذكرها لاشتهارها بين الناس.
تنبيه: الفرق بين الإنفاق والبر والمعروف up
إعلم أن لفظ الإنفاق والمعروف والبر يتناول جميع ما تقدم من الانفاقات الواجبة والمستحبة. والفرق بينها: أن الإنفاق خاص بالمال والمعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والاحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع من فعل وترك، وهو من الصفات الغالبة، أي أمر معروف بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه، والغالب في الأخبار إرادة ما يتعلق بالمال من معانيه. والبر كالمعروف في شموله لجميع أعمال الخير في الأصل، وانصراف إطلاقه غالبا في الأخبار إلى ما يتعلق بالمال من وجوه الانفاقات المتقدمة بأسرها، وربما خص بما سوى الصدقة منها، لما ورد: أن البر والصدقة ينفيان الفقر ويزيدان في العمر. والظاهر أن مبنى الخبر على ذكر الخاص بعد العام، فلا وجه للتخصيص. ثم الصدقة تتناول جميع ما تقدم من وجوه الإنفاق، سوى المروة، وعلى أي تقدير، لا ريب في أن ما ورد ن الآيات والأخبار في فضيلة مطلق الإنفاق والمعروف والبر يدل على فضيلة كل واحد مما تقدم من وجوه الإنفاق، كقوله سبحانه: أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم (٤١). وقوله: وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون (٤٢) وقوله: وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى... الآية (٤٣). وقوله: قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين... الآية (٤٤). وقوله: يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة (٤٥). وقوله: مثل
(هامش)
البقرة، الآية: ٢٦٧. (٤٢) البقرة، الآية: ٢٧٢. (٤٣) البقرة، الآية: ١٧٦. (٤٤) البقرة، الآية: ٢١٥. (٤٦) البقرة، الآية: ٢٥٤. (*)
ص ١٢٦
الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة... الآية (٤٦). وقوله: الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٤٧). وقول رسول الله

(ص): أول من يدخل الجنة المعروف وأهله، وأول من يرد على الحوض . وقوله (ص): إن البركة أسرع إلى البيت الذي يمتاز فيه المعروف من الشفرة في سنام الجزور، أو من السبيل إلى منتهاه . وقول الباقر (ع): إن من أحب عباد الله إلى الله، لمن حبب إليه المعروف وحبب إليه فعاله . وقول الصادق (ع): إن من بقاء المسلمين وبقاء الإسلام أن تصير الأموال عند من يعرف فيها الحق ويصنع المعروف، وإن من فناء الإسلام وفناء المسلمين أن تصير الأموال في أيدي من لا يعرف فيها الحق ولا يصنع فيها المعروف . وقوله (ع): رأيت المعروف كاسمه، وليس شيء أفضل من المعروف إلا ثوابه! . وقوله (ع) مخاطبا لزرارة: ثلاثة إن تعلمهن المؤمن كانت زيادة في عمره وبقاء لنعمه عليه. فقلت: وما هن؟ فقال: تطويله في ركوعه وسجوده في صلاته، وتطويله لجلوسه على طعامه إذا أطعم على مائدته، واصطناعه المعروف إلى أهله . وقوله (ع): أقيلوا لأهل المعروف عثراتهم، واغفروا لهم، فإن كف الله عليهم هكذا - وأومأ بيده كأنه يظلل بها شيئا . وقوله (ع): صنائع المعروف تقي مصارع السوء . وقال (ع): إن للجنة بابا يقال له المعروف، لا يدخله إلا أهل المعروف. وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة : يعني كما أنهم يصنعون المعروف في الدنيا كذلك يصنعونه في الآخرة، يهبون حسناتهم لمن شاؤا، كما قال الصادق (ع) في خبر آخر: يقال لهم في الآخرة: إن ذنوبكم قد غفرت لكم، فهبوا حسناتكم لمن شئتم وادخلوا الجنة . وقال (ع): قال أصحاب رسول الله (ص): يا رسول الله، فداك آباؤنا وأمهاتنا! إن

(هامش)

(٤٦) البقرة، الآية: ٢٦١. (٤٧) البقرة، الآية: ٢٦٢. (*)

ص ١٢٧

أصحاب المعروف في الدنيا عرفوا بمعروفهم، فبم يعرفون في الآخرة؟ فقال (ص): إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة، أمر ريحا عبقة طيبة فلصقت بأهل المعروف، فلا يمر أحد منهم بملأ من أهل الجنة إلا وجدوا ريحه، فقالوا: هذا من أهل المعروف (٤٨). ومنها - أي من رذائل القوة الشهوية -:

طلب الحرام وعدم الاجتناب عنه

ولا ريب في كونه مترتبا على حب الدنيا والحرص عليها، وهو أعظم المهلكات، به هلك أكثر من هلك، وجل الناس حرموا عن السعادة لأجله، ومنعوا عن توفيق الوصول إلى الله بسببه. ومن تأمل يعلم أن أكل الحرام أعظم الحجب للعبد من نيل درجة الأبرار، وأقوى الموانع له عن الوصول إلى عالم الأنوار، وهو موجب لظلمة القلب وكدرته وهو الباعث لخبثه وغفلته، وهو العلة العظمى لخسران النفس وهلاكها، وهو السبب الأقوى لضلالتها وخباثتها، وهو الذي أنساها عهود الحمى، وهو الذي أهواها في مهاوي الضلالة والردى، وما للقلب المتكون من الحرام والاستعداد لفيوضات عالم القدس! وأنى للنطفة الحاصلة منه والوصول إلى مراتب الأنس! وكيف يدخل النور والضياء في قلب أظلمته أدخنة المحرمات؟! وكيف تحصل الطهارة والصفاء لنفس أخبثتها قذارات المشتبهات؟! ولأمر ما حذر عنه أصحاب الشرع وأمناء الوحي غاية التحذير، وزجروا منه أشد الزجر. قال رسول الله (ص): إن لله ملكا على بيت المقدس، ينادي كل ليلة: من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل : أي لا نافلة ولا فريضة. وقال (ص): من لم يبال من أين اكتسب المال، لم يبال الله من أين أدخله النار . وقال (ص): كل لحم نبت من حرام فالنار

(هامش)

(٤٨) صححنا الأحاديث الواردة هنا على (الوافي): ٦ / ٢٨٩ - ٢٩٠. وعلى (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف، أبواب فعل المعروف، الباب ١ - ٦. (*)

ص ١٢٨

أولى به . وقال (ص): من أصاب مالا من مأثم، فوصل به رحما أو تصدق به أو أنفقه في سبيل الله، جمع الله ذلك جمعا، ثم أدخله في النار، وقال (ص): إن أخوف ما أخاف على أمتي من بعدي هذه المكاسب الحرام، والشهوة الخفية والربا . وقال (ص): من اكتسب مالا من الحرام، فإن تصدق به لم يقبل منه، وإن تركه وراءه كان زاده إلى النار (٤٩). وقال (ع): إذا اكتسب الرجل مالا من غير حله، ثم حج فلبى، نودي، لا لبيك ولا سعديك! وإن كان من حله، نودي: لبيك وسعديك! (٥٠). وقال (ع): كسب الحرام يبين في الذرية . وقال (ع) في قوله تعالى: وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (٥١). إن كانت أعمالهم أشد

بياضا من القباطي، فيقول الله عز وجل لها: كوني هباء وذلك أنهم كانوا إذا شرع لهم الحرام أخذوه (٥٢). وقال الكاظم (ع): إن الحرام لا ينمى، وإن نمى لم يبارك فيه، وإن أنفقه لم يؤجر عليه، وما خلفه كان زاده إلى النار. وفي بعض الأخبار: إن العبد ليوقف عند الميزان، وله من الحسنات أمثال الجبال، فيسأل عن رعاية عياله والقيام بهم، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، حتى تفني تلك المطالبات كل أعماله، فلا تبقى له حسنة. فتنادي الملائكة: هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا، وارتهن اليوم بأعماله. وورد: إن أهل الرجل وأولاده يتعلقون به يوم القيامة، فيوقفونه بين يدي الله تعالى، ويقولون: يا ربنا، خذ لنا بحقنا منه، فإنه ما علمنا ما نجهل، وكان يطعمنا من الحرام

(هامش)

هذه النبويات - عدا الخامس - مذكورة في (إحياء العلوم): ٢ / ٨١، وصححناها عليه. أما الخامس، فقد رواه في (الوسائل) عن الكافي): كتاب التجارة، أبواب ما يكتسب منه، الباب ١، الحديث ١. (٥٠) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب التجارة، أبواب ما يكتسب به، باب عدم جواز الإنفاق من الكسب الحرام، الحديث ٣. وفي نسخ (جامع السعادات): إذا كسب. (٥١) الفرقان، الآية: ٢٣. (٥٢) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب التجارة، أبواب ما يكتسب به، الباب ١، الحديث ٦. وكذا ما قبله في هذا الباب، الحديث ٣. (*)

ص ١٢٩

ونحن لا نعلم. فيقتص لهم منه (١)

فصل عزة تحصيل الحلال up

ينبغي لطالب النجاة أن يفر من الحرام فراره من الأسد، ويحترز منه احترازه من الحية السوداء، بل أشد وأنى يمكنه ذلك في أمثال زماننا الذي لم يبق فيه من الحلال إلا الماء الفرات والحشيش النابت في أرض الموات، وما عداه قد أخبثته الأيدي العادية، وأفسدته المعاملات الفاسدة! ما من درهم إلا وقد غضب من أهله مرة بعد أولى، وما من دينار إلا وقد خرج من أيدي من أخذه قهرا كرة غب أولى، جل المياه (كذا) أو لأراضي من أهلها مغصوبة، وأنى يمكن القطع بحلية الأقوات وأكثر المواشي والحيوانات من أهلها منهوبة، فأنى يتأتى الحزم بحلية اللحوم والألبان والدسوم، فهيهات ذلك هيهات! ما من تاجر إلا ومعاملته مع الظالمين، وما من ذي عمل إلا وهو مخالط للجائرين من عمال السلاطين. وبالجملة: الحلال في أمثال زماننا مفقود، والسبيل دون الوصول إليه مسدود. ولعمري! إن فقده آفة عم في الدين ضررها، ونار استطار في الخلق شررها. والظاهر أن أكثر الأعصار كان حالها كذلك. ولذلك قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع): المؤمن يأكل في الدنيا بمنزلة المضطر. وقال رجل للكاظم (ع): ادع الله جل وعز يرزقني الحلال، فقال: أتدري ما الحلال؟ قال: الكسب الطيب. فقال: كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول: الحلال قوت المصطفين. لكن قل: أسألك من رزقك الواسع. ومع ذلك كله، لا ينبغي للمؤمن أن ييأس من تحصيل الحلال، ويترك الفرق والفصل بين الأموال، فإن الله سبحانه أجل وأعظم من أن يكلف عباده بأكل الحلال ويسد عنهم طريق تحصيله.

(هامش)

(١) هذان الخبران الأخيران لم نعثر لهما على مستند وقد ذكرهما في (إحياء العلوم): ٣ / ٣٠، فقال عن الأول: وفي الخبر، وعن الثاني: ويقال. ج: ٢ (*)

ص ١٣٠

فصل أنواع الأموال up

إعلم أن الأموال على أقسام ثلاثة: حلال بين، وحرام بين، وشبهات بينهما. ولكل منها درجات، فإن الحرام وإن كان كله خبيثا، إلا أن بعضه أخبث من بعض، فإن ما يؤخذ بالمعاملة الفاسدة مع التراضي ليس في الحرمة كمال اليتيم الذي يؤخذ قهرا. وكذا الحلال وإن كان كله طيبا، إلا أن بعضه أطيب من بعض. والشبهة كلها مكروهة، ولكن بعضها أشد كراهة من بعض. وكما أن الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة، ولكن يقول بعضه حار في الدرجة الأولى، وبعضه في الثانية. وبعضه في الثالثة، وبعضه في الرابعة، فكذلك الحرام بعضه خبيث في الدرجة الأولى، وبعضه في الثانية وبعضه في الثالثة، وبعضه في الرابعة. وكذلك درجات الحلال في الصفاء والطيبة، ودرجات الشبهة في الكراهة. ثم الحرام إما يحرم لعينه، كالكلب والخنزير والتراب وغيرها من المحرمات العينية، أو لصفة، حادثة فيه،

كالخمر لإسكاره، والطعام المسموم لسميته، أو لخلل في جهة إثبات اليد عليه. وله أقسام غير محصورة، كالمأخوذ بالظلم والقهر والغصب والسرقة والخيانة في الأمانة وغيرها، والغش والتلبيس والرشوة، وبالبخس في الوزن والكيل، وبإحدى المعاملات الفاسدة، من الربا والصرف والاحتكار، وغير ذلك مما هو مذكور في كتب الفقه. وقد نهى الله سبحانه عن جميع ذلك في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل (٢). وقوله: إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما... الآية (٣). وعن خصوص الربا بقوله: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا أن كنتم مؤمنين ، ثم قال: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، ثم قال: وإن تبتم فلكم رؤس أموالكم (٤)، ثم قال: ومن عاد فأولئك أصحاب النار (٥).

(هامش)

(٢) البقرة، الآية: ١٨٨. (٣) النساء، الآية: ٩. (٤) البقرة، الآية: ٢٧٨ - ٢٧٩. (٥٠) البقرة، الآية: ٢٧٥. (*)

ص ١٣١

جعل أكل الربا في أول الأمر مؤديا إلى محاربة الله، وفي آخره متعرضا للنار. وقد ورد الذم الشديد على كل واحد منها بخصوصه في أخبار كثيرة، وهي في كتب الأخبار والفقه مذكورة، وتفصيل جميع المحرمات موكول إلى كتب الفقه، وليس هنا موضع بيانه فليرجع فيه إلى كتب الفقهاء .

الفرق بين الرشوة والهدية up

وربما يتوهم الاشتباه في بعض الموارد بين الرشوة والهدية، فلنشر إلى جلية الحال فيهما، فنقول: ههنا صور: الأولى - أن يسلم أو يرسل مالا إلى بعض الإخوان طلبا للاستئناس، وتأكيدا للصحبة والتودد. وقد عرفت كونه هدية وحلالا، سواء قصد به الثواب في الآخرة والتقرب إلى الله تعالى أيضا، أو لم يقصد به الثواب، بل قصد مجرد الاستئناس والتودد. الثانية - أن يقصد بالذل عوض مالي معين في العاجل، كأن يهدي الفقير إلى الغني أو الغني شيئا طمعا في عوض أكثر أو مساو من ماله. وهذا أيضا نوع هدية، وحقيقته ترجع إلى هبة بشرط العوض، وإذا وفى بما (يطمع فيه) (٦) من العوض فلا ريب في حليته. قال الصادق (ع): الربا رباءان: ربا يؤكل وربا لا يؤكل. فأما الذي يؤكل فهديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها، فذلك الربا الذي يؤكل، وهو قول الله تعالى: وما أتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله (٧). وأما الذي لا يؤكل، فهو الذي نهى الله عز وجل عنه، وأوعد عليه النار (٨). وعنه عليه السلام: قال: قال رسول الله (ص): الهدية على ثلاثة وجوه: هدية مكافأة، وهدية مصانعة، وهدية لله عز وجل (٩). وفي بعض الأخبار نوع إشعار بالحل، وإن لم يتحقق الوفاء بما (يطمع فيه) ١٠)

(هامش)

(٦) في النسخ: يطعمه ، فرجحنا ما أثبتناه. (٧) الروم، الآية: ٣٩. (٨) صححناه على (الوسائل): كتاب التجارة، أبواب الربا، الباب ٣، الحديث ١. (٩) صححناه على (الوسائل): كتاب التجارة، أبواب ما يكتسب به، الباب ١١٦، الحديث ١. (١٠) في النسخ: يطمعه . (*)

ص ١٣٢

من العوض، نكبر إسحق بن عمار عن الصادق عليه السلام: قال: قلت له عليه السلام: الرجل الفقير يهدي إلي الهدية، يتعرض لما عندي فآخذها ولا أعطيه شيئا أيحل لي؟ قال نعم، هي لك حلال ولكن لا تدع أن تعطيه (١١). وهل يحل مع إعطائه العوض المطموع فيه إذا لم يكن من ماله، بل كان من الأموال التي أعطته الناس ليصرف إلى الفقراء من الزكوات والأخماس وسائر وجوه البر، والظاهر الحل إذا كان المهدي من أهل الاستحقاق والمهدي له معطيا إياه، وإن لم يكن ليهدي له شيئا. وفيه تأمل، كما يظهر بعد ذلك. الثالثة - أن يقصد به الإعانة بعمل معين، كالمحتاج إلى السلطان أو ذي شوكة يهدي إلى وكيلهما، أو من له مكانة عندهما، فينظر إلى ذلك العمل، فإن كان حراما، كالسعي في تنجز إدرار حرام أو ظلم إنسان أو غير ذلك. أو واجبا، كدفع ظلم أو استخلاص حق ينحصر الدفع والاستخلاص به، أو شهادة معينة، أو حكم شرعي يجب عليه، أو أمثال ذلك، فهو رشوة محرمة يحرم أخذها، وإن كان العمل مباحا لا حراما ولا واجبا. فإن كان فيه تعب، بحيث جاز الاستئجار عليه، فما يأخذه حلال وجار مجرى الجعالة، كأن يقول: أوصل هذه الفضة إلى السلطان، ولك دينار. أو اقترح على فلان أن يعينني على كذا أو يعطيني كذا، وتوقف تنجز غرضه على

تعب أو كلام طويل، فما يأخذه في جميع ذلك مباح، إذا كان الغرض مشروعا مباحا، وهو مثل ما يأخذه وكيل القاضي للخصومة بين يديه، بشرط ألا يتعدى من الحق. وإن لم يكن العمل مما فيه تعب، بل كان مثل كلمة أو فعلة لا تعب فيها أصلا، ولكن كانت تلك الكلمة أو تلك الفعلة من مثله مفيدة، لكونه ذا منزلة، كقوله للبواب لا تغلق دونه باب السلطان، فقال بعض العلماء: الأخذ على هذا حرام، إذ لم يثبت في الشرع جواز ذلك. ويقرب من هذا أخذ الطبيب العوض على كلمة واحدة ينبه بها على دواء يتفرد بمعرفته. وفيه نظر، إذ الظاهر جواز هذا

(هامش)

)

١١) صححناه على (الوسائل): كتاب التجارة، أبواب ما يكتسب به، ١١٩، الحديث ٢ (*)

ص ١٣٣

الأخذ مع مشروعية الغرض وعدم كونه واجبا عليه. الرابعة - أن يطلب به حصول التودد والمحبة، ولكن لا من حيث إنه تودد فقط، بل ليتوصل بجاهه إلى أغراض ينحصر جنسها وإن لم ينحصر عينها، وكان بحيث لولا جاهه لكان لا يهدى إليه، فإن كان جاهه لأجل علم أو ورع أو نسب فالأمر فيه أخف، والظاهر كون الأخذ حينئذ مكروها، لأنه هدية في الظاهر مع كونه مشابها للرشوة. وإن كان لأجل ولاية تولاها، من قضاء أو حكومة أو ولاية صدقة أو وقف أو جباية مال أو غير ذلك من الأعمال السلطانية، فالظاهر كون ما يأخذه حراما لو كان بحيث لا يهدى إليه لولا تلك الولاية، لأنه رشوة عرضت في معرض الهدية، إذ القصد بها في الحال طلب التقرب والمحبة، ولكن لأمر ينحصر في جنسه، لظهور أن ما يمكن التوصل إليه بالولايات ماذا، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله -: يأتي على الناس زمان يستحل فيه لسحت بالهدية، والقتل بالموعظة، يقتل البرئ لتوعظ به العامة . وروي: أنه (ص) بعث واليا على صدقات الأزد، فلما جاء أمسك بعض ما معه، وقال: هذا لكم وهذا لي هدية. فقال (ص): ألا جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هدية إن كنت صادقا! ثم قال: ما لي استعمل الرجل منكم، فيقول: هذه لكم وهذه هدية لي، ألا جلس في بيت أمه ليهدى له! والذي نفسي بيده! لا يأخذ منكم أحد شيئا بغير حقه إلا أتى الله بحمله، ولا يأتين أحدكم يوم القيامة ببعير له رغاء، أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر... ثم رفع يديه حتى رأوا بياض إبطيه، وقال: اللهم هل بلغت؟ (١٢).

وعلى هذا، فينبغي لكل وال أو حاكم وقاض وغيرهم من عمال السلاطين، أن يقدر نفسه في بيت أبيه وأمه معزولا بلا شغل، فما كان يعطى حينئذ يجوز له أن يأخذه في ولايته أيضا، وما لا يعطى مع عزله ويعطى لولايته يحرم أخذه، وما أشكل عليه من عطايا أصدقائه فهو شبهة، وطريق الاحتياط فيها واضح.

(هامش)

(١٢) صححنا هذين النبويين على ما في (إحياء العلوم): ٢ / ١٣٧. (*)

ص ١٣٤

وصل الورع عن الحرام up

ضد عدم الاجتناب عن الحرام التنزه والاحتياط عنه، وهو الورع بأحد إطلاقيه. فإن الورع قد يفسر بملكة التنزه والاجتناب عن مال الحرام أكلا وطلبا وأخذا واستعمالا، وقد يفسر بكف النفس عن مطلق المعاصي ومنعها عما لا ينبغي. فعلى الأول يكون ضدا لعدم الاجتناب عن المال الحرام، ويكون من رذائل قوة الشهوة، وعلى الثاني يكون دا لملكة الولوع على مطلق المعصية، ويكون من رذائل القوة الغضبية والشهوية جميعا. ثم الظاهر أن التقوى مرادفة للورع، فإن لها أيضا تفسيرين: أحدهما: الاتقاء عن الأموال المحرمة، وقد أطلقت التقوى في بعض الأخبار على هذا المعنى. وثانيهما: ملكة الاتقاء عن مطلق المعاصي، خوفا من سخط الله وطلبا لرضاه. فعلى الأول يكون ضدا لعدم التنزه عن المال الحرام ورذيلة للقوتين معا. ثم اللازم على طريقتنا أن يذكر الورع والتقوى بالتفسير الأول هنا. وبالتفسير الثاني في المقام الرابع الذي نذكر فيه ما يتعلق بالقوتين أو بالثلاث من الرذائل والفضائل. إلا أنا نذكر ما ورد في فضيلتهما هنا، لدلالة ما ورد في فضيلتهما بالتفسير الثاني على فضيلتهما بالتفسير الأول أيضا، ولعدم فائدة في استئناف عنوان على حدة لمطلق المعصية وذكر ما ورد في ذمها، ثم تذييلها بضدها الذي هو الورع والتقوى بتفسيريهما العام. إذ بعد ذكر جميع الأجناس والأنواع والأصناف من المعاصي والطاعات، بأحكامها ولوازمها وذمها ومدحها، لا فائدة لاستئناف ذكر مطلق المعصية أو الطاعة، إذ لا يتعلق بهما غرض

سوى ذكر ما ورد في ذم مطلق المعصية، وما ورد في مدح مطلق الطاعة، وهذا أمر ظاهر لا حاجة إليه في كتب الأخلاق. نعم، نشير إلى مطلق العصيان وضده، أعني الورع والتقوى بالمعنى الأعم، إجمالا، ضبطا للأنواع والأقسام.

ص ١٣٥

فصل مدح الورع up

الورع والتقوى عن الحرام أعظم المنجيات، وعمدة ما ينال به إلى السعادات ورفع الدرجات. قال رسول الله (ص): خير دينكم الورع . وقال (ص): من لقى الله سبحانه ورعا، أعطاه الله ثواب الإسلام كله . وفي بعض الكتب السماوية: وأما الورعون، فإني أستحيي أن أحاسبهم . وقال الباقر (ع): إن أشد العبادة الورع . وقال (ع): ما شيعتنا إلا من أتقى الله وأطاعه، فاتقوا الله وأعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة. أحب العباد إلى الله تعالى وأكرمهم عليه أبقاهم وأعملهم بطاعته . وقال الصادق (ع): أوصيك بتقوى الله والورع والاجتهاد، واعلم أنه لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه . وقال: اتقوا الله وصونوا دينكم بالورع . وقال (ع): عليكم بالورع، فإنه لا ينال ما عند الله إلا بالورع . وقال (ع): إن الله ضمن لمن اتقاه، أن يحوله عما يكره إلى ما يحب، ويرزقه من حيث لا يحتسب . وقال (ع): إن قليل العمل مع التقوى خير من كثير بلا تقوى . وقال (ع): ما نقل الله عبدا من ذل المعاصي إلى عز التقوى، إلا أغناه من غير مال، وأعزه من غير عشيرة، وآنسه من غير بشر . وقال (ع): إنما أصحابي من اشتد ورعه، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه: هؤلاء أصحابي . وقال (ع): ألا وإن من أتباع أمرنا وإرادته الورع، فتزينوا به يرحمكم الله، وكيدوا أعداءنا به ينعشكم الله . وقال (ع): أعينونا بالورع، قال من لقي الله تعالى منكم بالورع، كان له عند الله فرجا. إن الله عز وجل يقول: ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (١٣). فمنا النبي، ومنا الصديق والشهداء والصالحون . وقال أبو جعفر - عليه السلام -: قال الله عز وجل: يا بن آدم، اجتناب ما حرم عليك،

(هامش)

(١٣) النساء، الآية: ٦٨. (*)

ص ١٣٦

تكن من أورع الناس . وسئل الصادق - عليه السلام - عن الورع من الناس، فقال: الذي يتورع عن محارم الله عز وجل (١٤). ولكون طلب الحرام وعدم الاجتناب عنه باعثا للهلاك، وتوقف النجاة والسعادة في الآخرة على الورع عن المحرمات، مع افتقار الناس في الدنيا إلى المطاعم والملابس، ورد في فضيلة كسب الحلال ومدحه ما ورد. قال رسول الله (ص): طلب الحلال فريضة على كل مسلم ومسلمة . وقال (ع): من بات كالا من طلب الحلال، بات مغفورا له . وقال (ص): العبادة سبعون جزأ، أفضلها طلب الحلال . وقال (ص): العبادة عشرة أجزاء، تسعة أجزائه في طلب الحلال . وقال (ص): من أكل من كد يده، نظر الله إليه بالرحمة، ثم لا يعذبه أبدا . وقال (ص): من أكل من كد يده حلالا، فتح الله له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء . وقال (ص): من أكل من كد يده، كان يوم القيامة في عداد الأنبياء، ويأخذ ثواب الأنبياء . وقال (ص): من طلب الدنيا استعفافا عن الناس وسعيا على أهله وتعطفا على جاره، لقي الله عز وجل يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر (١٥). وكان (ص) إذا نظر إلى الرجل وأعجبه، قال: هل له حرفة؟ فإن قال: لا، قال: سقط من عيني. قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: لأن المؤمن إذا لم تكن له حرفة يعيش بدينه . وقال - صلى الله عليه وآله -: من سعى على عياله من حله، فهو كالمجاهد في سبيل الله . وقال (ص): من طلب الدنيا حلالا في عفاف، كان في درجة الشهداء . وقال (ص): من أكل الحلال أربعين يوما، نور الله قلبه، وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه . وطلب منه

(هامش)

(

١٤) صححنا الأحاديث الواردة في هذا الفصل على الكافي باب الطاعة والتقوى، وباب الورع. وعلى (البحار): ٢ مج ١٥ / ٩٦ - ٩٨ باب الطاعة والتقوى، وباب الورع واجتناب الشبهات. (١٥) صححنا أكثر الأحاديث المذكورة هنا على الوسائل: كتاب لتجارة،

أبواب مقدماتها، الباب ٤ وعلى فروع الكافي: كتاب المعيشة، باب الحث على الطلب والتعرض للرزق. (*)
ص ١٣٧
- صلى الله عليه وآله - بعض الصحابة أن يجعله الله تعالى مستجاب الدعوة، فقال له: أطب طعمتك تستجب دعوتك . وقال الصادق عليه السلام: اقرؤا من لقيتم من أصحابكم السلام، وقولوا لهم: إن فلان بن فلان يقرؤكم السلام، وقولوا لهم: عليكم بتقوى الله عز وجل، وما ينال به ما عند الله، إني والله ما آمركم إلا بما تأمر به أنفسنا، فعليكم بالجد والاجتهاد، وإذا صليتم الصبح وانصرفتم، فبكروا في طلب الرزق، واطلبوا الحلال، فإن الله عز وجل سيرزقكم ويعينكم عليه (١٦).
فصل مداخل الحلال up
إعلم أن مداخل الحلال خمسة: الأول - ما لا يؤخذ من مالك، كنيل المعادن، وإحياء الموات، والاصطياد، والاحتطاب، والاحتشاش، والاستقاء من الشطوط والأنهار، وهذا حلال بشرط عدم صيرورته مختصا بذي حرمة من الناس، وتفصيل ذلك موكول إلى كتاب أحياء الموات. الثاني - ما يؤخذ قهرا ممن لا حرمة له، وهو الفيئ، والغنيمة، وسائر أموال الكفار المحاربين. وذلك حلال للمسلمين بالشروط المقررة في كتاب الغنائم والجزية. الثالث - ما ينتقل إليه بالرضى من غير عوض، من حي أو ميت، كالهبة، والميراث، والوصية، والصدقات. وهذا حلال بشرط أن يكون المنقول منه اكتسبه من مداخل الحلال، وبضمن سائر الشروط المقررة في كتاب الهبات والفرايض والوصايا والصدقات. الرابع - ما يؤخذ تراضيا بمعاوضة، وذلك حلال بالشرائط والآداب المقررة في فن المعاملات من الفقه، من البيع، والسلم، والإجارة، والصلح، والشركة، والمضاربة، والمزارعة، والمساقاة، والحوالة، والضمان، والكتابة، والخلع، والصداق، وغير ذلك من المعاوضات. الخامس - ما يحصل من الزراعة ومنافع الحيوانات. وهو حلال
(هامش)
صححنا الحديث على الوسائل: كتاب التجارة، في الباب المتقدم. (*)
ص ١٣٨
إذا كان الأرض والبذر والماء والحيوانات حلالا بأحد الوجوه المتقدمة. فهذه مداخل الحلال، فينبغي لطالب النجاة أن يكون ما يكتسبه من المال من أحد هذه المداخل، بعد فتوى الفقيه العدل بحصول شرائط الحلية.
فصل درجات الورع up
قسم بعض العلماء الورع والتقوى عن الحرام على أربع درجات: الأول - ورع العدول: وهو الاجتناب عن كل ما يلزم الفسق باقتحامه، وتسقط به العدالة، ويثبت به العصيان والتعرض للنار، وهو الورع عن كل ما يحرمه فتوى المجتهدين. الثانية - ورع الصالحين: وهو الاجتناب من الشبهات أيضا. الثالثة - الورع عما يخاف أداؤه إلى محرم أو شبهة أيضا، وإن لم يكن في نفسه حراما ولا شبهة، فهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس. الرابعة - ورع الصديقين: وهو الاجتناب عن كل ما ليس لله، ويتناول لغير الله، وغير نيته التقوى على عبادته وإن كان حلالا صرفا لا يخاف أداؤه إلى حرام أو شبهة. والصديقون الذين هذه درجتهم هم الموحدون المتجردون عن حظوظ أنفسهم، المتفردون لله تعالى بالقصد، الراؤن كل ما ليس لله تعالى حراما، العاملون بقوله سبحانه: قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون (١٧). تتميم قال الصادق (ع): التقوى على ثلاثة أوجه: تقوى من خوف النار والعقاب، وهو ترك الحرام، وهو تقوى العام. وتقوى من الله، وهو ترك الشبهات فضلا عن الحرام، وهو تقوى الخاص. وتقوى في الله، وهو ترك الحلال فضلا عن الشبهة (١٨) وإلى هذه المراتب الثلاث
(هامش)
(١٧) الأنعام، الآية: ٩١. (١٨) هذا مقتبس من (مصباح الشريعة): الباب ٨٣ وفيه تقديم وتأخير في مراتب التقوى عما هنا ولم يتبين لنا وجه صحة التعبير: تقوى العام وتقوى الخاص، فأثبتناه كما وجدناه. (*)
ص ١٣٩
أشير في الكتاب الإلهي بقوله: ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين (١٩). ومنها:
• الغدر والخيانة up

في المال أو العرض أو الجاه. ويدخل تحته الذهاب بحقوق الناس خفية، وحبسها من غير عسر، وبالبخس في الوزن والكيل، وبالغش بما يخفى، وغير ذلك من التدليسات المموهة والتلبيسات المحرمة. وجميع ذلك من خباثة القوة الشهوية ورذائلها، ومن الرذائل المهلكة وخبائثها. وقد وردت في ذم الخيانة وبأقسامها أخبار كثيرة، وجميع ما يدل على ذم الذهاب بحقوق الناس وأخذ أموالهم بدون رضاهم يدل على ذمها. وضد الخيانة (الأمانة)، وقد وردت في مدحها وعظم فوائدها أخبار كثيرة، كقول الصادق عليه السلام: إن الله عز وجل لم يبعث نبيا إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البر والفاجر . وقوله عليه السلام: لا تغتروا بصلاتهم ولا بصيامهم، فإن الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم بصدق الحديث وأداء الأمانة (٢٠) وقوله عليه السلام: انظر ما بلغ به علي عليه السلام عند رسول الله (ص) فألزمه فإن عليا عليه السلام إنما بلغ ما بلغ به عند رسول الله (ص) بصدق الحديث وأداء الأمانة (٢١). وقوله عليه السلام ثلاث لا عذر فيها لأحد: أداء الأمانة إلى البر والفاجر، والوفاء بالعهد إلى البر والفاجر، وبر الوالدين

(هامش)

(١٩) المائدة، الآية: ٩٦. (٢٠) في نسخ جامع السعادات والبحار والوسائل: عند صدق الحديث... . وربحنا نسخة الكافي. (٢١) صححنا هذه الأحاديث الثلاثة على البحار: ٢ مج ١٥ / ١٢٣ - ١٢٤، باب الصدق ولزوم أداء الأمانة وعلى الكافي: باب الصدق وأداء الأمانة. وعلى الوسائل: كتاب الوديعة الباب ١. (*)

ص ١٤٠

برين كانا أو فاجرين (٢٢). وقوله عليه السلام: كان أبي يقول: أربع من كن فيه كمل إيمانه، وإن كان من قرنه إلى قدمه ذنوبا لم ينقصه ذلك وهي: الصدق، وأداء الأمانة، والحياء، وحسن الخلق (٢٣). وقوله عليه السلام: أهل الأرض مرحومون ما يخافون وأدوا الأمانة وعملوا بالحق . وقيل له عليه السلام: إن امرأة بالمدينة كان الناس يضعون عندها الجواري فيصلحن، ومع ذلك ما رأينا مثل ما رأينا مثل ما صب عليها من الرزق. فقال: إنها صدقت الحديث وأدت الأمانة، وذلك يجلب الرزق (٢٤). والأخبار في فضيلة الأمانة كثيرة. ولقد قال لقمان: ما بلغت إلى ما بلغت إليه من الحكمة، إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة . فمن تأمل في ذم الخيانة وإيجابها الفضيحة والعار في الدنيا والعذاب والنار في الآخرة، وفي فضيلة الأمانة وأدائها إلى خير الدنيا وسعادة الآخرة، سهل عليه ترك الخيانة والاتصاف بالأمانة. ومنها:

• أنواع الفجور up

من الزنا، واللواط، وشرب الخمر، والاشتغال بالملاهي، واستعمال آلاتها، من العود، والمزمار، والرباب، والدف، وأمثالها. فإن كل ذلك من رذائل القوة الشهوية. وكذا لبس الذهب والحرير للرجال. وقد وردت في ذم كل واحد منهما بخصوصه أخبار كثيرة، ولا حاجة إلى ذكرها، لشيوعها واشتهارها. ومنها:

• الخوض في الباطل up

وهو التكلم في المعاصي والفجور وحكايتها، كحكايات أحوال النساء،

(هامش)

(٢٢) روى في الكافي باب بر الوالدين -: هذا الحديث عن أبي جعفر - عليه السلام - وجاء فيه: ثلاث لم يجعل الله عز وجل لأحد فيهن رخصة... ، ولكن في الوسائل - كتاب الوديعة الباب ٢ الطبعة الحجرية - رواه عن الكافي كما في المتن. (٢٣) روي في الكافي باب حسن الخلق - هذا الحديث عن الصادق - عليه السلام -، وليس فيه: كان أبي يقول . (٢٤) صححنا الحديث على الوسائل: كتاب الوديعة، الباب، ١، وهو يرويه عن الكافي. (*)

ص ١٤١

ومجالس الخمر، ومقامات الفساق، وتنعم الأغنياء، وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، وأمثال ذلك. فكل ذلك من رداءة القوة الشهوية وخباثتها. ثم لما كانت أنواع الباطل غير محصورة لكثرتها، فالخوض فيه أيضا كذلك، وتكون له أنواع غير متناهية، ولا يفتح باب كلام إلا وينتهي إلى واحد منها، فلا خلاص منه إلا باقتصار الكلام على قدر الحاجة من مهمات الدين والدنيا. وربما وقعت من الرجل من أنواع الخوض في الباطل كلمة تهلكه وهو مستحقر لها، فإن أكثر الخوض في الباطل حرام، ولذا قال رسول

الله (ص): أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا في الباطل . وإليه الإشارة بقوله تعالى: وكنا نخوض مع الخائضين (٢٥). وقوله تعالى: فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره (٢٦). وقال (ص): إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة (٢٧). وقال سلمان الفارسي - رضي الله عنه -: أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة، أكثرهم كلاما في معصية الله . وكان رجل من الأنصار يمر على مجلس الخائضين في الباطل، فيقول لهم: توضؤا، فإن بعض ما تقولون شر من الحدث . ثم الخوض في الباطل هو ذكر محظورات سبق وجودها بمجرد شهوة النفس، من دون حاجة داعية إليه، فلا مدخلية له بمثل الغيبة والنميمة والفحش والمراء والجدال وأمثالها، ويدخل فيه الخوض في حكايات البدع والمذاهب الفاسدة، فإن الحديث عنها خوض في الباطل، وورد النهي عنه.

(هامش)

(٢٥) المدثر، الآية: ٤٥. (٢٦) النساء، الآية: ١٣٩. (٢٧) صححناه على كنز العمال: ٢ / ١١٢. (*)

ص ١٤٢

ومنها:

• التكلم بما لا يعني أو بالفضول up

والمراد بالأول: التكلم بما لا فائدة فيه أصلا، لا في الدين ولا في الدنيا، والثاني - أعني فضول الكلام -: أعم منه، إذ يتناول الخوض في ما لا يعني والزيادة في ما يعني على قدر الحاجة. فإن من يعنيه أمر ويتمكن من تقريره وتأديته وتأدية مقصوده بكلمة واحدة، ومع ذلك ذكر كلمتين، فالثانية فضول، أي فضل على الحاجة. ولا ريب في أن التكلم بما لا يعني وبالفضول مذموم، وإن لم يكن فيه إثم، وهو ناش عن رداءة القوة الشهوية، إذ الباعث عليه ليس إلا مجرد تشهي النفس وهواها. والسر في ذمه: أنه يوجب تضييع الوقت، والمنع من الذكر والفكر، وربما يبنى لأجل تهليله أو تسبيحه قصر في الجنة، وربما ينفح من نفحات رحمة الله عند الفكرة ما يعظم جدواه. فمن قدر على أن يأخذ كنزا الكنوز، فأخذ بدله مدرة لا ينتفع بها، كان خاسرا. فمن ترك ذكر الله والفكر في عجائب قدرته، واشتغل بمباح لا يعنيه، وإن لم يأثم، إلا أنه قد خسر، حيث فاته الربح العظيم بذكر الله وفكره. فإن رأس مال العبد أوقاته، ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه، ولم يدخر بها ثوابا في الآخرة، فقد ضيع رأس ماله. على أن الغالب تأدية الخوض في ما لا يعني وفي الفضول إلى الخوض في الباطل، وربما أدى إلى الكذب بالزيادة والنقصان. ولذا ورد في ذمه ما ورد، وقد روي: أنه استشهد يوم أحد غلام من أصحاب النبي (ص)، ووجد على بطنه حجر مربوط من الجوع، فمسحت أمه التراب عن وجهه، وقالت: هنيئا لك الجنة يا بني! فقال النبي (ص): وما يدريك؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضره؟ . وورد أيضا: أن رسول الله (ص) قال لبعض أصحابه - وهو مريض -: أبشر. فقالت أمه: هنيئا لك الجنة! فقال رسول الله (ص): وما يدريك؟ لعله قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يعنيه؟ : يعني إنما تتهنأ الجنة لمن لا يحاسب، ومن يتكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه، وإن كان كلامه مباحا، فلا تتهنأ له الجنة مع المناقشة في الحساب، فإنه نوع من العذاب.

وروي: أنه تكلم رجل

ص ١٤٣

عند النبي (ص) فأكثر، فقال له النبي: كم دون لسانك من حجاب؟ فقال: شفتاي وأسناني. فقال: أفما كان في ذلك ما يرد كلامك؟ . وفي رواية أخرى: إنه قال ذلك في رجل أثنى عليه، فاستهتر في الكلام، ثم قال: ما أوتي رجل شرا من فضل في لسانه . وروي: أنه قدم رهط من بني عامر على رسول الله (ص)، فشرعوا بالمدح والثناء عليه. فقال (ص): قولوا قولكم، ولا يستهوينكم الشيطان! (٢٨). ومراده (ص): إن اللسان إذا أطلق الثناء، ولو بالصدق، فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها. وقال بعض الصحابة: إن الرجل ليكلمني بالكلام وجوابه أشهى إلي من الماء البارد على الظمآن، فأتركه خيفة أن يكون فضولا . وقال بعض الأكابر: من كثر كلامه كثر كذبه . وقال بعضهم: يهلك الناس في خصلتين: فضول المال، وفضول الكلام .

فصل حد التكلم بما لا يعني up

التكلم بما لا يعني وبالفضول لا تنحصر أنواعه وأقسامه، لعدم تناهيها وإنما حده أن تتكلم بما لو سكت عنه لم تأثم، ولم تتضرر في شيء مما يتعلق بك، ولم يعطل شيء من أمورك. مثاله: أن تحكي مع قوم أسفارك، وما رأيت فيها من جبال وأنهار، وما وقع لك من الوقايع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم. فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تتضرر، ولا يتصور فيها فائدة دينية ولا دنيوية لأحد، فإذا بالغت في الاجتهاد حتى لا تمتزج بحكايتك زيادة ونقصان، ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة، ولا اغتياب شخص ولا مذمة شيء مما خلقه الله، فإنك مع ذلك كله مضيع وقتك. ثم كما إن التكلم بما لا يعنيك مذموم، كذلك سؤالك غيرك عما لا يعنيك مذموم، بل هو أشد ذما، لأنك بالسؤال مضيع وقتك، وقد الجأت أيضا صاحبك بالجواب إلى تضييع وقته. وهذا إذا كان الشيء مما لا يتطرق

(هامش)

(

٢٨) صححنا أحاديث الباب كلها على (إحياء العلوم): ٣ / ٩٣ - ٩٩، وعلى (كنز العمال): ٢ / ١٣٠، ١٨٤. (*)

ص ١٤٤

إلى السؤال عنه آفة، ولو كان في جوابه آفة - كما هو الشأن في أكثر الأسئلة عما لا يعنيك - كنت آثما عاصيا. مثلا: لو سألت غيرك عن عبادته، فتقول: هل أنت صائم؟ فإن قال: نعم، كان مظهرا عبادته، فيدخل عليه الرياء، وإن لم يدخل الرياء سقطت عبادته - على الأقل - من دون عبادة السر، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات، وإن قال: لا، كان كاذبا، وإن سكت، كان مستحقرا إياك وتأذيت به، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى تعب وجهد فيه. فقد عرضته بالسؤال إما للرياء والكذب، أو للاستحقار، أو التعب في حيلة الدفع. وكذلك سؤالك عن كل ما يخفى ويستحيي من إظهاره، أو عما يحتمل أن يكون في إظهاره مانع، كان يحدث به أحد غيرك، فتسأله وتقول: ماذا تقول؟ وفيم أنتم؟ وكأن ترى إنسانا في الطريق فتقول: من أين؟ إذ ربما يمنع مانع من إظهار مقصوده. ومن هذا القبيل سؤالك غيرك: لم أنت ضعيف؟ أو ما هذا الضعف أو الهزال الذي حدث بك؟ أو أي مرض فيك؟ وأمثال ذلك. وأشد من ذلك أن تخوف مريضا بشدة مرضه، وتقول: ما أشد مرضك وما أسوأ حالك! فإن جميع ذل وأمثالها، مع كونها من فضول الكلام والخوض في ما لا يعني، يتضمن إثما وإيذاء. وليس من مجرد التكلم بما لا يعني والفضول، وإنما مجرد ما لا يعني ما لا يتصور فيه إيذاء وكسر خاطر واستحياء من الجواب، كما روي: أن لقمان دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع، ولم يكن يراها قبل ذلك، فجعل يتعجب مما يرى. فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته الحكمة، فأمسك نفسه ولم يسأله. فلما فرغ داود، قام ولبسها، وقال: نعم الدرع للحرب! فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله . وهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وإيقاع في رياء أو كذب، فهو مما لا يعني، وتركه من حسن الإسلام.

فصل علاج الخوض فيما لا يعني up

سبب الخوض في ما لا يعني وفي فضول الكلام: إما الحرص على معرفة

ص ١٤٥

ما لا حاجة إليه، أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد، أو تزجية الوقت بحكايات أحوال لا فائدة فيها، وكل ذلك من رداءة قوة الشهوة. وعلاج ذلك من حيث العلم: أن يتذكر ذمه كما مر، ومدح ضده، أعني الصمت وتركه - كما يأتي - ويعلم أن الموت بين يديه، وإنه مسؤول عن كل كلمة وإن أنفاسه رأس ماله، وإن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين: فإهماله وتضييعه خسران، ومن حيث العمل أن يعتزل عن الناس مهما أمكن، ويلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعينه ليتعود لسانه ترك ما لا يعنيه، وأن يقدم التأمل والتروي على كل كلام يريد أن يتكلم به، فإن كان فيه فائدة دينية أو دنيوية تكلم به وإلا تركه. وكان بعضهم يضع في فمه حجرا، خوفا من التكلم بالفضول وما لا يعنيه.

وصل الصمت up

ضد التكلم بما لا يعنيه وبالفضول تركها، إما بالصمت أو بالتكلم فيما يعنيه مما يتعلق بدينه أو دنياه. وفوائد الصمت ومدحه يأتي في

موضعه. وقد وردت أخبار في المدح على خصوص ترك ما لا يعني وفضول الكلام، كقول النبي (ص): من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . وقوله (ص): طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه، وأنفق الفضل من ماله! . وانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك، فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان. وروي: أنه (ص) قال ذات يوم: إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة. فلما دخل هذا الرجل، قالوا له: أخبرنا بأوثق عملك في نفسك ترجو به. فقال: إني رجل ضعيف العمل، وأوثق ما أرجو الله به سلامة الصدر وترك ما لا يعنيني . وقال (ص) لأبي ذر: ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان. قال: بلى يا رسول الله. قال: هو الصمت، وحسن الخلق، وترك ما لا يعنيك . قال ابن عباس: خمس هن أحسن من الدراهم المونقة: لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر. ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا، فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت. ولا تمار حليما ج: ٢

ص ١٤٦

ولا سفيها، فإن الحليم يغلبك بصمته، وإن السفيه يؤذيك بمنطقه. واذكر أخاك إذا تغيب عن بما تحب أن يذكرك به، واعفه مما تحب أن يعفيك منه. واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالاحسان مأخوذ بالاحترام (٢٩). وقيل للقمان: ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيت، ولا أتكلف ما لا يعنيني . وما ورد في فضيلة ترك الفضول وما لا يعني في أخبار الحجج عليهم السلام وكلمات الأكابر من الحكماء والعرفاء أكثر من أن تحصى، وما ذكرناه كاف لأهل الاستبصار.

(هامش)

(٢٩) ذكر هذه الرواية عن ابن عباس في (إحياء العلوم): ٣ / ٩٧. وفيه اختلاف كثير عما هنا، ولم يحصل لنا أن نحققها على مصدر آخر. والأحاديث النبوية هنا رواها في (إحياء العلوم) أيضا في الموقع المذكور. (*)

ص ١٤٧

المقام الرابع

فيما يتعلق بالقوى الثلاث

من العاقلة وقوتي الغضب والشهوة، أو باثنتين منها من الرذائل والفضائل up

الحسد وذمه - الغبطة - بواعث الحسد - لا تحاسد بين علماء الآخرة والعارفين - علاج الحسد - القدر الواجب في نفي الحسد - النصيحة - الإيذاء والإهانة - كف الأذى - ذم الظلم - العدل - إخافة المؤمن - إدخال السرور على المؤمن - ترك إعانة المسلمين - قضاء حوائج المسلمين - المداهنة في الأمر بالمعروف - السعي فيه - وجوبه وشروطه - لا تشترط العدالة فيه - مراتبه - ما ينبغي في الآمر والناهي - أنواع المنكرات - الهجران - التآلف - قطع الرحم - صلة الرحم - المراد منه - عقوق الوالدين - برهما - حق الجوار - حدود الجو أو وحقه - طلب العثرات - ستر العيوب - إفشاء السر - كتمان السر - النميمة - السعاية - الافساد بين الناس - الإصلاح - الشماتة - المراء - علاجه - طيب الكلام - السخرية - المزاح - المذموم منه - الغيبة - لا تنحصر الغيبة باللسان - بواعثها - ذمها - مسوغاتها - كفارتها - البهتان - المدح - الكذب - ذمة - مسوغاته - التورية والمبالغة - شهادة الزور - علاج الكذب - الصدق ومدحه - أنواعه - اللسان أضر الجوارح - الصمت - حب الجاه - ذمه - الجاه أحب من المال - لا بد للانسان من جاه - دفع إشكال - الكمال الحقيقي في العلم والقدرة والجاه والمال - علاج حب الجاه - الخمول - مراتب حب المدح - أسبابه - علاجه - ضد حب المدح - الرياء - ذمه - أقسامه - تأثير الرياء على العبادة - السرور بالاطلاع على العبادة - متعلقات الرياء - بواعثه - الرياء الجلي والخفي - كف يفسد الرياء العمل - شوائب الرياء المبطلة للعمل - علاجه - الوسوسة بالرياء - الإخلاص - مدحه - آفاته - النفاق.

ص ١٤٨

فمنها:

• الحسد up

وهو تمني زوال نعم الله تعالى عن أخيك المسلم مما له فيه صلاح، فإن لم ترد زوالها عنه ولكن تريد لنفسك مثلها فهو (غبطة) ومنافسة، فإن لم يكن له فيها صلاح واردت زوالها عنه فهو (غيرة). ثم إن كان باعث حسدك مجرد الحرص على وصول النعمة إلى نفسك، فهو من رداءة القوة الشهوية وإن كان باعثه محض وصول المكروه إلى المحسود، فهو من رذائل القوة الغضبية، ويكون من نتائج الحقد

الذي من نتائج الغضب، وإن كان باعثه مركبا منهما، فهو من رداءة القوتين. وضده (النصيحة)، وهي إرادة بقاء نعمة الله على أخيك المسلم مما له فيه صلاح. ولا ريب في أنه لا يمكن الحكم على القطع بكون هذه النعمة صلاحا أو فسادا. فربما كانت وبالأعلى صاحبه فسادا له، مع كونها نعمة وصلاحا في بادئ النظر. فالمناط في ذلك غلبة الظن، فما ظن كونه صلاحا فإرادة زواله حسد وإرادة بقائه نصيحة، وما ظن كونه فاسدا فإرادة زواله غيرة. ثم إن اشتبه عليك الصلاح والفساد، فلا ترد زوال نعمة أخيك ولا بقاءها إلا مقيدا بالتفويض وشرط الصلاح، لتخلص من حكم الحسد ويحصل لك حكم النصيحة. والمعيار في كونك ناصحا: أن تريد لأخيك ما تريد لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك. وفي كونك حاسدا: أن تريد له ما تكره لنفسك. وفي كونك حاسدا: أن تريد له ما تكره لنفسك، وتكره له ما تريد لنفسك.

فصل ذم الحسد up

الحسد أشد الأمراض وأصعبها، وأسوأ الرذائل وأخبثها، ويؤدي بصاحبه إلى عقوبة الدنيا وعذاب الآخرة، لأنه في الدنيا لا يخلو لحظة عن الحزن والألم، إذ هو يتألم بكل نعمة يرى لغيره، ونعم الله تعالى غير متناهية لا تنقطع عن عباده، فيدوم حزنه وتألمه. فوبال حسده يرجع إلى نفسه، ولا يضر المحسود أصلا، بل يوجب ازدياد حسناته ورفع درجاته من حيث

ص ١٤٩

إنه يعيبه، ويقول فيه ما لا يجوز في الشريعة، فيكون ظالما عليه، فيحمل بعضا من أوزاره وعصيانه، وتنقل صالحات أعماله إلى ديوانه، فحسده لا يؤثر فيه إلا خيرا ونفعا، ومع ذلك يكون في مقام التعاند والتضاد مع رب الأرباب وخالق العباد، إذ هو الذي أفاض النعم والخيرات على البرايا كما شاء وأراد بمقتضى حكمته ومصلحته، فحكمته الحقة الكاملة أوجبت بقاء هذه النعمة على هذا العبد، والحاسد المسكين يريد زوالها، وهل هو إلا سخط قضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وتمنى انقطاع فيوضات الله التي صدرت عنه بحسب حكمته وإرادة خلاف ما أراد الله على مقتضى مصلحته؟! بل هو يريد نقصه سبحانه، وعدم اتصافه بصفاته الكمالية. إذ إفاضة النعم منه سبحانه في أوقاتها اللائقة على محالها المستعدة من صفاته الكمالية التي عدمها نقص عليه تعالى، وإلا لم يصدر عنه، وهو يريد ثبوت هذا النقص، ثم لتمنيه زوال النعم الإلهية التي هي الوجودات ورجوع الشرور إلى الإعدام يكون طالبا للشر ومحبا له. وقد صرح الحكماء بأن من رضي بالشر، ولو بوصوله إلى العدو، فهو شرير. فالحسد أشد الرذائل، والحاسد شر الناس. وأي معصية أشد من كراهة، راحة مسلم من غير أن يكون له فيها مضرة؟ ولذا ورد به الذم الشديد في الآيات والأخبار، قال الله سبحانه في معرض الإنكار: أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله (١). وقال: ود كثير من أهل الكتاب أن يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم (٢). وقال: إن تمسكم حسنة تسؤوهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها (٣). وقال رسول الله (ص): الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب . وقال (ص): قال الله عز وجل لموسى بن عمران: يا بن عمران لا تحسدن الناس على ما آتيتهم من فضلي، ولا تمدن عينيك إلى ذلك،

(هامش)

(١) النساء، الآية: ٥٣. (٢) البقرة، الآية: ١٠٩. (٣) آل عمران، الآية: ١٢٠. (*)

ص ١٥٠

ولا تتبعه نفسك، فإن الحاسد ساخط لنعمي، صاد لقسمي الذي قسمت بين عبادي. ومن يك كذلك، فلست منه وليس مني . وقال (ص): لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله أخوانا . .- جامع السعادات ج ٢ - محمد مهدي النراقي ص ٥٠: وقال (ص): دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضة هي الحالقة، لا أقول حالقة الشعر، ولكن حالقة الشعر. والذي نفس محمد بيده! لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم! . وقال (ص): كاد الفقر أن يكون كفرا، وكاد الحسد أن يغلب القدر . وقال (ص): سيصيب أمتي داء الأمم. قالوا: وما داء الأمم؟ قال: الأشر، والبطر، والتكاثر، والتنافس في الدنيا، والتباعد والتحاسد، حتى يكون البغي ثم الهرج . وقال (ص): أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتتلون . وقال (ص): إن لنعم الله أعداء. فقيل: ومن هم؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . وورد في بعض الأحاديث القدسية: إن الحاسد عدو لنعمتي، متسخط لقضائي،

غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي . وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليهما السلام: إن الرجل ليأتي بأدنى بادرة فيكفر (٤) وأن الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب . وقال أبو عبد الله (ع): آفة الدين: الحسد والعجب والفخر . وقال (ع): إن المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط (٥). وقال: الحاسد مضر بنفسه قبل أن يضر بالمحسود، كإبليس أورث بحسده لنفسه اللعنة، ولآدم الاجتباء والهدى والرفع إلى محل حقائق العهد والاصطفاء. فكن محسودا ولا تكن حاسدا فإن ميزان الحاسد أبدا خفيف بثقل ميزان المحسود، والرزق مقسوم،

(هامش)

(

٤) في بعض نسخ (الكافي): ليتأذى وفي نسخ (جامع السعادات): ليأتي بأي . ورجحنا نسخة (الوسائل) و(البحار) كما في المتن.
(٥) صححنا أحاديث هذا الفصل على (البحار): ٣ مج ١٥ / ١٣١ - ١٣٢، باب الحسد، وعلى (الكافي): باب الحسد. وعلى (سفينة البحار): ١ / ٢٥٠ - ٢٥١. وعلى (إحياء العلوم): ٣ / ١٦٢ - ١٦٤. وعلى (الوسائل): أبواب جهاد النفس، الباب ٥٤. (*)

ص ١٥١

فماذا ينفع الحسد الحاسد، وماذا يضر المحسود الحسد. والحسد أصله من عمى القلب والجحود بفضل الله تعالى، وهما جناحان للكفر، وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد، وهلك مهلكا لا ينجو منه أبدا، ولا توبة للحاسد، لأنه مصر عليه معتقد به مطبوع فيه، يبدوا بلا معارض به ولا سبب، والطبع لا يتغير عن الأصل، وإن عولج (٦). وقال بعض الحكماء: الحسد جرح لا يبرأ . وقال بعض العقلاء: ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه . وقال بعض الأكابر: الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلا، ولا من الملائكة إلا لعنة وبغضا، ولا ينال من الخلق إلا جزعا وغما، ولا ينال عند النزع إلا شدة وهولا، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالا . والأخبار والآثار في ذم الحسد أكثر من أن تحصى، وما ذكرناه يكفي لطالب الحق. ثم ينبغي أن يعلم أنه إذا أصاب النعمة كافر أو فاجر وهو يستعين بها على تهيج الفتنة وإيذاء الخلق وإفساد ذات البين، فلا مانع من كراهتها عليه وحب زوالها منه، من حيث إنها آلة للفساد لا من حيث إنها نعمة.

فصل المنافسة والغبطة up

قد علمت أن المنافسة هي تمني مثل ما للمغبوط، من غير أن يريد زواله عنه، وليست مذمومة، بل هي في الواجب واجبه، وفي المندوب مندوبة، وفي المباح مباحه. قال الله سبحانه: وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (٧). وعليها يحمل قول النبي (ص): لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالا، فسلطه على ملكه في الحق. ورجل آتاه الله علما، فهو يعمل به ويعلمه الناس : أي لا غبطة إلا في ذلك، سميت الغبطة حسدا كما يسمى الحسد منافسة، اتساعا لمقارنتهما. وسبب الغبطة حب النعمة التي للمغبوط، فإن كانت أمرا دينيا فسببها حب الله وحب طاعته، وإن كانت دنيوية فسببها

(هامش)

(٦) هذ الخبر في (مصباح الشريعة): الباب ٥١، وصححناه عليه. (٧) المطففين، الآية: ٢٦. (*)

ص ١٥٢

حب مباحات الدنيا والتنعم فيها. والأول لا كراهة فيه بوجه، بل هو مندوب إليه. والثاني وإن لم يكن حراما، إلا أنه ينقص درجته في الدين، ويحجب عن المقامات الرفيعة، لمنافاته الزهد والتوكل والرضا. ثم الغبطة لو كانت مقصورة على مجرد حب الوصول إلى مثل ما للمغبوط، لكونه من مقاصد الدين والدنيا، من دون حب مساواته له وكراهة نقصانه عنه، فلا حرج فيه بوجه، وإن كان معه حب المساواة وكراهة التخلف والنقصان، فهنا موضع خطر. إذ زوال النقصان إما بوصوله إلى نعمة المغبوط أو بزوالها عنه، فإذا انسدت إحدى الطريقتين تكاد النفس لا تنفك عن شهوة الطريقة الأخرى. إذ يبعد أن يكون إنسان مريدا لمساواة غيره في النعمة فيعجز عنها، ثم لا ينفك عن ميل إلى زوالها، بل الأغلب ميله إليه، حتى إذا زالت النعمة عنه كان ذلك عنده أشهى من بقائها عليه، إذ بزوالها يزول نقصانه وتخلفه عنه. فإن كان بحيث لو ألقى الأمر إليه ورد إلى اختياره لسعى في إزالة النعمة عنه، كان حاسدا حسدا مذموما. وإن منعه مانع العقل من ذلك السعي، ولكنه وجد من طبعه الفرح والارتياح بزوال النعمة عن المغبوط، من غير كراهة لذلك ومجاهدة لدفعه، فهو أيضا من مذموم الحسد، وإن لم يكن في المرتبة الأولى. وإن كره ما يجد في طبعه من السرور والانبساط

بزوال النعمة بقوة عقله ودينه، وكان في مقام المجاهدة لدفع ذلك عن نفسه، فمقتضى الرحمة الواسعة أن يعفى عنه، لأن دفع ذلك ليس في وسعه وقدرته إلا بمشاق الرياضات. إذ ما من إنسان إلا ويرى من هو فوقه من معارفه وأقاربه في بعض النعم الإلهية، فإذا لم يصل إلى مقام التسليم والرضا، كان طالبا لمساواته له فيه، وكارها عن ظهور نقصانه عنه. فإذا لم يقدر أن يصل إليه، مال طبعه بلا إختيار إلى زوال النعمة عنه، واهتز وارتاح به حتى ينزل هو إلى مساواته.

وهذا وإن كان نقصا تخط به النفس عن درجات المقربين، سواء كان من مقاصد الدنيا أو الدين، إلا أنه لكراهته له بقوة عقله وتقواه، وعدم العمل بمقتضاه، يعفى عنه إن شاء الله، وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له. وقد ظهر من تضاعيف ما ذكر: أن الحسد المذموم له مراتب أربع:

ص ١٥٣

الأولى - أن يحب زوال النعمة عن المحسود وإن لم تنتقل إليه، وهذا أخبث المراتب وأشدها ذما. الثانية - أن يحب زوالها لرغبته في عينها، كرغبته في دار حسنة معينة، أو امرأة جميلة بعينها، ويحب زوالها من حيث توقف وصوله إليها عليه، لا من حيث تنعم غيره بها. ويدل على تحريم هذه المرتبة وذمها قوله تعالى: ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض (٨). الثالثة - ألا يشتهي عينها، بل يشتهي لنفسه مثلها، إلا أنه إن عجز عن مثلها أحب زوالها عنه، كيلا يظهر التفاوت بينهما، ومع ذلك لو خلي وطبعه، إجتهد وسعى في زوالها. الرابعة - كالثالثة، إلا أنه إن اقتدر على إزالتها منعه قاهر العقل أو غيره من السعي فيه، ولكنه يهتز ويرتاح به من غير كراهة من نفسه لذلك الارتياح. والغبطة لها مرتبتان: الأولى - أن يشتهي الوصول إلى مثل ما للمغبوط، من غير ميل إلى المساواة وكراهة للنقصان، فلا يجب زوالها عنه. الثانية - أن يشتهي الوصول إليه مع ميله إلى المساواة وكراهته للنقصان، بحيث لو عجز عن نيله، وجد من طبعه حبا خفيا لزوالها عنه، وارتاح من ذلك إدراكا للمساواة ودفعا للنقصان، إلا أنه كان كارها من هذا الحب، ومغضبا على نفسه لذلك الارتياح، وربما سميت هذه المرتبة بـ(الحسد المعفو عنه) وكأنه المقصود من قوله (ص): ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد، والظن، والطيرة... ثم قال: وله منهن مخرج، إذا حسدت فلا تبغ - أي إن وجدت في قلبك شيئا فلا تعمل به، وكن كارها له - وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فأمض .

(هامش)

(٨) النساء، الآية: ٣١. (*)

ص ١٥٤

فصل بواعث الحسد up

بواعث الحسد سبعة: الأول - خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله. فإنك تجد في زوايا العالم من يسر ويرتاح بابتلاء العباد بالبلايا والمحن، ويحزن من حسن حالهم وسعة عيشهم فمثله إذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم، وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم، يجد من طبعه الخبيث فرحا وانبساطا، وإن لم يكن بينه وبينهم عداوة ولا رابطة، ولم يوجب ذلك تفاوتا في حاله من وصوله إلى جاه أو مال أو غير ذلك. وإذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله وانتظام أموره، شق ذلك عليه، وإن لم يوجب ذلك نقصا في شيء مما له. فهو يبخل بنعمة الله على عباده من دون قصد وغرض. ولا تصور انتقال النعمة إليه، فيكون ناشئا عن خبث نفسه ورذالة طبعه. ولذا يعسر علاجه، لكونه مقتضى خباثة الجبلة، وما يقتضيه الطبع والجبلة تعسر إزالته، بخلاف ما يحدث من الأسباب العارضة. الثاني - العداوة والبغضاء. وهي أشد أسبابه، إذ كل أحد - إلا أو حدى من المجاهدين - إذا أصابت عدوه بلية فرح بذلك، إما لظنها مكافأة من الله لأجله، أو لحبه طبعا ضعفه وهلاكه. ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك، لأنه ضد مراده، وربما تصور لأجله أنه لا منزلة له عند الله، حيث لم ينتقم من عدوه وأنعم عليه، فيحزن لذلك. الثالث - حب الرئاسة وطلب المال والجاه. فإن من غلب عليه حب التفرد والثناء، واستقره الفرح بما يمدح به من أنه وحيد الدهر وفريد العصر في فنه، من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو غير ذلك، لو سمع بنظير له في أقصى العالم ساءه ذلك، وارتاح بموته أو زوال النعمة التي يشاركه فيها، ليكون فائقا على الكل في فنه، ومتفردا بالمدح والثناء في صفته. الرابع - الخوف من المقاصد. وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، فإن كل واحد، منهما يحسد صاحبه في وصوله هذا المقصود،

ص ١٥٥
طلبا للتفرد به كتحاسد الضرات في مقاصد الزوجية، والأخوة في نيل المنزلة في قلب الأبوين توصلا إلى مالهما، والتلامذة لأستاذ واحد في نيل المنزلة في قلبه، وندماء الملك وخواصه في نيل المنزلة والكرامة عنده، والوعاظ والفقهاء المتزاحمين على أهل بلدة واحدة في نيل القبول والمال عندهم، إذا كان غرضهم ذلك. الخامس - التعزز: وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه بعض أقرانه، ويعلم أنه لو أصاب بعض النعم يستكبر عليه ويستصغره، وهو لا يطيق ذلك لعزة نفسه، فيحسده لو أصاب تلك النعمة تعززا لنفسه. فليس غرضه أن يتكبر، لأنه قد رضي بمساواته، بل غرضه أن يدفع كبره. السادس - التكبر: وهو أن يكون في طبعه الترفع على بعض الناس، ويتوقع منه الانقياد والمتابعة في مقاصده، فإذا نال بعض النعم خاف ألا يحتمل تكبره ويترفع عن خدمته، وربما أراد مساواته أو التفوق عليه، فيعود مخدوما بعد أن كان خادما، فيحسده في وصول النعمة لأجل ذلك. وقد كان حسد أكثر الكفار لرسول الله (ص) من هذا القبيل، حيث قالوا: كيف يتقدم علينا غلام فقير يتيم؟ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (٩). السابع - التعجب: وهو أن يكون المحسود في نظر الحاسد حقيرا، والنعمة عظيمة، فيعجب من فوز مثله بمثلها، فيحسده ويحب زوالها عنه، ومن هذا القبيل حسد الأمم لأنبيائهم، حيث قالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا (١٠). فقالوا: أنؤمن لبشرين مثلنا؟ (١١). ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون (١٢). فتعجبوا من فوز من هو مثلهم برتبة الوحي والرسالة، وحسدوه
(هامش)
(٩) الزخرف، الآية: ٣١. (١٠) يس، الآية: ١٥. (١١) المؤمنون، الآية: ٤٨. (١٢) المؤمنون، الآية: ٣٤. (*)
ص ١٥٦
بمجرد ذلك، من دون قصد تكبر أو رئاسة أو عداوة أو غيرها من أسباب الحسد. وقد تجتمع هذه الأسباب أو أكثرها في شخص واحد، فيعظم لذلك حسده، وتقوى قوة لا يقدر معها على المجاملة، فتظهر العداوة بالمكاشفة. وربما قوي الحسد بحيث يتمنى صاحبه أن يزول عن كل أحد ما يراه له من النعمة، وينتقل إليه. ومثله لا ينفك عن الجهل والحرص، إذ هو يتمنى استجماع جميع النعم والخيرات الحاصلة لجميع الناس له، ولا ريب في استحالة ذلك، ولو قدر إمكانه لا يمكنه الاستمتاع بها، فلو لم يكن حريصا لم يتمن ذلك أصلا، ولو كان عالما لدفع هذا التمني بقوته العاقلة. (تنبيه) بعض الأسباب المذكورة، كما يقتضي أن يتمنى زوال النعمة والسرور به كذلك يقتضي تمني حدوث البلية والارتياح منه. إلا أن المعدود من الحسد هو الأول والثاني معدود من العداوة. فالعداوة أعم منه، إذ هي تمني وقوع مطلق الضرر بالعدو، سواء كان زوال نعمة أو حدوث بلية. والحسد تمني زوال مجرد النعمة.
فصل لا تحاسد بين علماء الآخرة والعارفين up
الأسباب المذكورة إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون لأجلها في مجالس المخاطبات ويتواردون على الأغراض، فإذا خالف بعضهم بعضا في غرض من أغراضه، أبغضه وثبت فيه الحقد، فعند ذلك يريد استحقاره والتكبر عليه، ويكون في صدد مكافأته على المخالفة لغرضه، ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه، فيتحقق الحسد. ولذا ترى أنه لا تحاسد بين شخصين في بلدتين متباعدتين، لعدم رابطة بينهما، إلا إذا تجاورا في محل واحد، وتواردا على مقاصد تظهر فيها مخالفة بينهما، فيحدث منهما التباغض، وتثور منه بقية أسباب الحسد. وترى كل صنف يحسد مثله دون غيره، لتواردهما على المقاصد، وتزاحمهما على صنعة واحدة. فالعالم يحسد العالم دون العابد، والتاجر يحسد التاجر دون غيره إلا بسبب آخر سوى الاجتماع على الحرفة، وهكذا يغم من اشتد حرصه على حب الجاه وأحب الصيت والاشتهار في جميع أطراف العالم وشقاق
ص ١٥٧
التفرد بما هو فيه، فإنه يحسد كل من في العالم ممن يشاركه في الفن الذي يتفاخر به. ثم منشأ جميع ذلك حب الدنيا، إذ منافعها لضيقها وانحصارها تصير محل التزاحم والتعارك، بحيث لا يمكن وصول منفعة منها، كمنصب أو مال، إلى أحد إلا بزوالها عن الآخر. وأما الآخرة، فلا ضيق فيها، فلا تنازع بين أهلها. ومثالها في الدنيا العلم، فإنه منزه عن المزاحمة، فمن يحب العلم بالله وصفاته وأفعاله ومعرفة النظام الجملي من البدو إلى النهاية، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضا. إذ العلم لا يضيق عن كثرة العالمين، والمعلوم الواحد يعرفه ألف ألف عالم، ويفرح كل واحد منهم بمعرفته ويلتذ به، ولا ينقص ما لديه بمعرفة غيره، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الإنس وثمرة

الإفادة والاستفادة. إذ معرفة الله بحر واسع لا ضيق فيه، وكل علم يزيد بالإنفاق وتشريك غيره من أبناء النوع، يصير منشأ لزيادة اللذة والبهجة، وقس على العلم التقرب والمنزلة عند الله وغيرهما من النعم الأخروية. فإن أجل ما عند الله من النعم وأعلى مراتب المنزلة والقرب عنده تعالى لذة لقائه، ولس فيها ممانعة ومزاحمة، ولا يضيق بعض أهل اللقاء على بعض، بل يزيد الأنس بكثرتهم. وقد ظهر مما ذكر: أنه لا تحاسد بين علماء الآخرة، لأنهم يلتذون ويبتهجون بكثرة المشاركين في معرفة الله وحبه وأنسه، وإنما يقع التحاسد بين علماء الدنيا، وهم الذين يقصدون بعلمهم طلب المال والجاه. إذ المال أعيان وأجسام، إذا وقعت في يد واحد خلت عنها أيدي الآخرين. والجاه ملك القلوب، وإذا امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم، أنصرف عن تعظيم الآخر، أو نقص عنه لا محالة، فيكون ذلك سببا للتحاسد. وأما إذا امتلأ قلبه من الابتهاج بمعرفة الله، لم يمنع ذلك من أن يمتلئ غيره به. فلو ملك إنسان جميع ما في الأرض، لم يبق بعده مال يملكه غيره لضيقه وانحصاره. وأما العلم فلا نهاية له، ومع ذلك لو ملك إنسان بعض العلوم، لم يمنع ذلك من تملك غيره له.

فظهر أن الحسد إنما هو في التوارد على مقصود مضيق عن الوفاء

ص ١٥٨

بالكل، فلا حسد بين العارفين ولا بين أهل العليين، لعدم ضيق ومزاحمة في المعرفة ونعيم الجنة، ولذا قال الله سبحانه فيهم: ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين (١٣). بل الحسد من صفات المسجونين في سجن السجين. فيا حبيبي، إن كنت مشفقا على نفسك، طالبا لعمارة رمسك، فاطلب نعمة لا مزاحمة فيها، ولذة لا مكدر لها. وماهي إلا لذة معرفة الله وحبه وأنسه، والانقطاع إلى جناب قدسه، وإن كنت لا تلتذ بذلك، ولا تشتاق إليه، وتنحصر لذاتك بالأمور الحسية والوهمية، فاعلم أن جوهر ذاتك معيوب، وعن عالم الأنوار محجوب، وعن قريب تحشر مع البهائم والشياطين وتكون مغلولا معهم في أسفل السافلين. ومثلك في عدم درك هذه اللذة يختص بإدراكها رجال أصحاء. فكذلك لذة المعرفة يختص بإدراكها: رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله (١٤). ولا يشتاق غيرهم إليها، إذ الشوق بعد الذوق، فمن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك كان مطرودا عن العليين، ممنوعا عن مجاورة المقربين، محبوسا مع المحرومين في أضيق دركات السجين: ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين (١٥).

فصل علاج الحسد up

لما علم أن الحسد من الأمراض المهلكة للنفوس، فأعلم أن أمراض النفوس لا تداوي إلا بالعلم والعمل. والعلم النافع لمرض الحسد أن تعرف أنه يضرك في الدين والدنيا، ولا يضر محسودك فيهما، بل ينتفع به فيهما، ومهما عرفت ذلك عن بصيرة وتحقيق، ولم تكن عدو نفسك لا صديق

(هامش)

(١٣) الحجر، الآية: ٤٧. (١٤) النور، الآية: ٣٧. (١٥) الزخرف، الآية: ٣٦. (*)

ص ١٥٩

عدوك، فارقت الحسد. وأما أنه يضر بدينك ويؤدي بك إلى عذاب الأبد وعقاب السرمد، فلما علمت من الآيات والأخبار الواردة في ذمه وعقوبة صاحبه، ولما عرفت من كون الحاسد ساخطا لقضاء الله تعالى، وكارها لنعمه التي قسمها لعباده ومنكرا لعدله الذي أجراه في ملكه. ومثل هذا السخط والانكار، لا يجابه الضدية والعناد لخالق العباد، كاد أن يزيل أصل التوحيد والإيمان، فضلا عن الإضرار بهما. على أن الحسد يوجب الغش والعداوة بالمؤمن، وترك نصيحته وموالاته وتعظيمه ومراعاته ومفارقة أنبياء الله وأوليائه في حبهم الخير والنعمة له، ومشاركة الشيطان وأحزابه في فرحهم بوقوع المصائب والبلايا عليه، وزوال النعم عنه وهذه خبائث في النفس، تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. وأما إنه يضرك في الدنيا، لأنك تتألم وتتعذب به، ولا تزال في تعب وغم وكد وهم، إذ نعم الله لا تنقطع عن عباده ولا عن أعدائك، فأنت تتعذب بكل نعمة تراها لهم، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى دائما مغموما محزونا، ضيق النفس منشعب القلب، باختيارك تجر إلى نفسك ما تريد لأعدائك ويريد أعداؤك لك. وما أعجب من العاقل أن يتعرض لسخط الله ومقته في الآجل، ودوام الضرر والألم في العاجل، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى وفائدة. وأما إنه لا يضر المحسود

في دينه ودنياه فظاهر، لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك. إذ ما قدره الله من النعم على عباده لا بد أن يستمر إلى وقته، ولا ينفع التدبير والحيلة في دفعه، لا مانع لما أعطاه ولا راد لما قضاه: لكل أجل كتاب . وكل شيء عنده بمقدار (١٦). ولو كانت النعم تزول بالحسد، لم تبق عليك وعلى كافة الخلق نعمة، لعدم خلوك وخلوهم عن الحسد، بل لم تبق نعمة الإيمان على المؤمنين، إذ الكفار يحسدونهم، كما قال الله سبحانه: ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون (١٧).

(هامش)

(١٦) الرعد، الآية: ٤٠، ٩. (١٧) آل عمران، الآية: ٦٩. (*)

ص ١٦٠

ولو تصورت زوال النعمة عن محسودك بحسدك، وعدم زوالها عنك بحسد حاسدك، لكنت أجهل الناس وأشدهم غباوة. نعم، ربما صار حسدك منشأ لانتشار فضل المحسود، كما قيل: وإذا أراد الله نشر فضيلة * طويت، أتاح لها لسان حسود فإذا لم تزل نعمته بحسدك، لم يضره في الدنيا، ولا يكون عليه إثم في الآخرة. وأما إنه ينفعه في الدين، فذلك ظاهر من حيث كونه مظلوما من جهتك (لا) سيما إذا أخرجك الحسد إلى ما لا ينبغي من القول والفعل. كالغيبة، والبهتان، وهتك ستره، وإفشاء سره، والقدح فيه، وذكر مساويه. فتحتمل بهذه الهدايا التي تهديها إلى بعضا من أوزاره وعصيانه، وتنقل شطرا من حسناتك إلى ديوانه، فيلقاك يوم القيامة مفلسا محروما عن الرحمة كما كنت تلقاه في الدنيا محروما عن النعمة. فأضفت له نعمة إلى نعمة. ولنفسك نقمة إلى نقمة. وأما إنه ينفعه في الدنيا، فهو إن أهم أغراض الناس مساءة الأعداء، وسوء حالهم، وكونهم متألمين معذبين. ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد. فقد فعلت بنفسك ما هو غاية مراد حسادك في الدنيا. وإذا تأملت هذا، عرفت أن كل حاسد عدو نفسه، وصديق عدوه. فمن تأمل في ذلك، وتذكر ما يأتي من فوائد النصيحة وحب الخير والنعمة للمسلمين، ولم يكن عدو نفسه، فارق الحسد ألبتة. وأما العمل النافع فيه، فهو أن يواظب على آثار النصيحة التي هي ضده، بأن يصمم على أن يكلف نفسه بنقيض ما يقتضيه الحسد من قول وفعل، فإن بعثه الحسد على التكبر عليه، ألزم نفسه التواضع له، وإن بعثه على غيبته والقدح فيه، كلف لسانه المدح والثناء عليه، وإن بعثه على الغش والخرق بالنسبة إليه، كلف نفسه بحسن البشر واللين معه، وإن بعثه على كف الأنعام عنه، ألزم نفسه زيادته. ومهما فعل ذلك عن تكلف وكره ودوام عليه، انقطعت عنه مادة الحسد على التدريج. على أن المحسود إذا عرف منه ذلك طاب قلبه وأحبه، وإذا ظهر حبه للحاسد زال حسده وأحبه

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

## ٢٠٧ جامع السعادات (ج2)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ١٦١

أيضا، فتتولد بينهما الموافقة، وترتفع عنهما مادة المحاسدة، وهذا هو المعالجة الكلية لمطلق مرض الحسد. والعلاج النافع لكل نوع منه، أن يقمع سببه، من خبث النفس وحب الرئاسة والكبر وعزة النفس وشدة الحرص وغير ذلك مما ذكر، وعلاج كل واحد من هذه الأسباب يأتي في محله.

تنبيه القدر الواجب في نفي الحسد up

إعلم أن مساواة حسن حال العدو وسوء حاله، وعدم وجدان التفرقة بينهما في النفس، ليست مما تدخل تحت الاختيار. فالتكليف به تكليف بالمحال. فالواجب في نفي الحسد وإزالته هو القدر الذي يمكن دفعه، وبيان ذلك - كما أشير إليه - أن الحسد. (١) إما يبعث صاحبه على إظهاره بقول أو فعل، بحيث يعرف حسده من آثاره الاختيارية. ولا ريب في كونه مذموما محرما، وكون صاحبه عاصيا آثما، لا لمجرد آثاره الظاهرة التي هي الغيبة والبهتان مثلا، إذ هي أفعال صادرة عن الحسد، محلها الجوارح، وليست عين الحسد، إذ هو صفة للقلب لا صفة للفعل، ومحله القلب دون الجوارح، قال سبحانه: ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا (١٨). وقال: ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء (١٩). وقال: إن تمسسكم حسنة تسؤهم (٢٠). فلو كان الإثم على مجرد أفعال الجوارح، لم

يكن أصل الحسد الذي هو صفة القلب معصية، والأمر ليس كذلك، فيكون عاصيا لنفس الحسد الذي في قلبه أيضا، أعني ارتياحه بزوال النعمة مع عدم كراهة ذلك من نفسه. والإثم حقيقة على عدم كراهته وعدم مقته وقهره على نفسه لهذا الارتياح الذي يجده منها، لكونه اختياريا ممكن الزوال، لا على نفس الارتياح والاهتزاز، لما أشير إليه من أنه طبيعي غير ممكن الدفع لكل أحد.
(هامش)
(١٨) الحشر، الآية: ٩. (١٩) النساء، الآية: ٨٨. (٢٠) آل عمران، الآية: ١٢٠. ج: ٢ (*)
ص ١٦٢
فهذا القسم من الحسد أشد أنواعه، لترتب معصيته على أصله، وأخرى على ما يصدر من آثاره المذمومة. (٢) أو لا يبعثه على إظهاره بالآثار القولية والفعلية، بل يكف ظاهره عنها، إلا أنه بباطنه يحب زوال النعمة من دون كراهة في نفسه لهذه الحالة. ولا ريب في كونه مذموما محرما أيضا، لأنه كسابقه بعينه، ولا فرق إلا في أنه لا تصدر منه الآثار الفعلية والقولية الظاهرة، فهو ليس بمظلمة بحسب الاستحلال منها، بل معصية بينه وبين الله، لأن الاستحلال إنما هو من الأفعال الظاهرة الصادرة من الجوارح. (٣) أو لا يبعثه على الآثار الذميمة الظاهرة، ومع ذلك يلزم قلبه كراهة ما يترشح منه طبعا من حب زوال النعمة، حتى أنه يمقت نفسه ويقهرها على هذه الحالة التي رسخت فيها. والظاهر عدم ترتب الإثم عليه، إذ تكون كراهته التي من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع، فقد أدى الواجب عليه. وأصل الميل الطبيعي لا يدخل تحت الاختيار غالبا، إذ تغير الطبع بحيث يستوي عنده المحسن والمسئ، وعدم التفرقة بين ما يصل منهما إليه من النعمة والبلية، ليس شريعة لكل وارد.
نعم من تنور قلبه بمعرفة ربه، وأشرقت نفسه بأضواء حبه وأنسه، وصار مستغرقا بحب الله تعالى مثل السكران الواله، واستشعر بالارتباط الخاص الذي بين العلة والمعلول، والاتحاد الذي بين الخالق والمخلوق، وعلم أنه أقوى النسب والروابط، ثم تيقن بأن الموجودات بأسرها من رشحات وجوده، والكائنات برمتها صادرة عن فيضه وجوده، وإن الأعيان الممكنة متساوية في ارتضاع لبان الوجود من ثدي واحدة، والحقائق الكونية غير متفاوتة في شرب ماء الرحمة والجود من مشرع الوحدة الحقيقية - فقد ينتهي أمره إلى ألا تلتفت نفسه إلى تفاصيل أحوال العباد، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة، وهي عين الرحمة، ويرى الكل عباد الله وأفعاله، ويراهم مسخرين له، فلا ينظر إلى شيء بعين السخط والمساءة، وإن ورد منه ما ورد من السوء والبلية، لأنه لا ينظر إليه من حيث هو حتى يظهر التفاوت بل من حيث انتسابه إليه سبحانه، والكل في الانتساب إليه سواء.
ص ١٦٣
ثم من الناس من ذهب إلى أنه لا إثم على الحسد ما لم تظهر آثاره على الجوارح، وعلى هذا ينحصر الحسد المحرم في القسم الأول. واحتج على ما ذهب إليه بما ذكرناه من قوله (ص): ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد... ،، وبقوله (ص): ثلاث في المؤمن له منهن مخرج، ومخرجه من الحسد ألا يبغي والصحيح أن تحمل أمثال هذه الأخبار على القسم الثالث. وهو ما يكون فيه ارتياح النفس بزوال النعمة طبعا، مع كراهة له من جهة العقل والدين، حتى تكون هذه الكراهة في مقابلة حب الطبع. إذ أخبار ذم الحسد تدل بظاهرها على أن كل حاسد آثم، والحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال الظاهرة. وعلى هذا المذهب، لا يكون إثم على صفة القلب، بل إنما يكون على مجرد الأفعال الظاهرة على الجوارح. فقد اتضح بما ذكر، إن الأحوال المتصورة لكل أحد بالنسبة إلى أعدائه ثلاثة: الأولى: أن يحب مساءتهم، ويظهر الفرح بمساءتهم بلسانه وجوارحه أو يظهر ما يؤذيهم قولا أو فعلا، وهذا محظور محرم قطعا، وصاحبه عاص آثم جزما. الثانية: أن يحب مساءتهم طبعا، ولكن يكره حبه لذلك بعقله، ويمقت نفسه عليه، ولو كانت له حيلة في إزالة ذلك الميل لأزاله. وهذا معفو عنه وفاقا، وفاعله غير آثم إجماعا. الثالثة: وهي ما بين الأوليين: أن يحسد بالقلب من غير مقته لنفسه على حسده، ومن غير إنكار منه على قلبه، ولكن يحفظ جوارحه عن صدور آثار الحسد عنها، وهذا محل الخلاف. وقد عرفت ما هو الحق فيه.
وصل النصيحة up
قد عرفت أن ضد الحقد والحسد (النصيحة)، وهي إرادة بقاء نعمة الله للمسلمين، وكراهة وصول الشر إليهم. وقد تطلق في الأخبار على إرشادهم إلى ما فيه مصلحتهم وغبطتهم، وهو لازم للمعنى الأول. فينبغي أن نشير إلي فوائدها وما ورد في مدحها، تحريكا للطالبين على المواظبة عليها ليرتفع بها ضدها. إعلم أن من أحب الخير والنعمة للمسلمين كان شريكا في الخير، بمعنى

ص ١٦٤
إنه في الثواب كالمنعم وفاعل الخير، وقد ثبت من الأخبار، إن من لم يدرك درجة الأخيار بصالحات الأعمال، ولكنه أحبهم، يكون يوم القيامة محشورا معهم، كما ورد: إن المرء يحشر مع من أحب . وقال أعرابي لرسول الله: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم. فقال (ص): المرء مع من أحب . وقال رجل بحضرة النبي - بعد ما ذكرت الساعة -: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام، لا إني أحب الله ورسوله. فقال (ص): أنت مع من أحببت قال الراوي: فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذ، إذا أكثر ثقتهم كانت بحب الله وبحب رسوله. وروي: أنه قيل له (ص): الرجل يحب المصلين ولا يصلي، ويحب الصوام ولا يصوم - حتى عد أشياء - فقال: هو مع من أحب . وبهذا المضمون وردت أخبار كثيرة. والأخبار الواردة في مدح خصوص النصيحة وذم تركها، وفي ثواب ترك الحسد وعظم فوائده، أكثر من أن تحصى. عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله (ص): إن أعظم الناس منزلة عند الله يوم القيامة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه . وعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله (ص): لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه . وقال الباقر عليه السلام: يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة . وقال الصادق عليه السلام: يجب المؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب . وقال عليه السلام: عليك بالنصح لله في خلقه، فلن تلقاه بعمل أفضل منه . وبمضمونها أخبار أخر، وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله (ص): من سعى في حاجة لأخيه فلم ينصحه، فقد خان الله ورسوله . وقال الصادق عليه السلام: من مشى في حاجة أخيه، ثم لم يناصحه فيها، كان كمن خان الله ورسوله، وكان الله خصمه (٢١). والأخبار الأخر بهذا المضمون أيضا كثيرة. وروي: أن رسول الله (ص) شهد لرجل من الأنصار بأنه من أهل الجنة ، وكان باعثه - بعد التفتيش - خلوه عن الغش والحسد على خير
(هامش)
)
٢١) صححنا الأحاديث في النصيحة كلها على (الكافي): باب نصيحة المؤمن وباب من لم يناصح أخاه المؤمن. (*)
ص ١٦٥
أعطى أحدا من المسلمين. وروي: أن موسى عليه السلام لما تعجل إلى ربه، رأى في ظل العرش رجلا، فغبطه بمكانه، وقال: إن هذا لكريم على ربه. فسأل ربه أن يخبر باسمه، فلم يخبره باسمه، وقال: أحدثك عن عمله: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، وكان لا يعق والديه ولا يمشي بالنميمة . وغاية النصحية، أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، قال رسول الله (ص): المؤمن يحب للمؤمن ما يحب لنفسه . وقال (ص): لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وقال (ص): إن أحدكم مرآة أخيه، فإذا رأى به شيئا فليمط عنه هذا . ومنها:
• الإيذاء والإهانة والاحتقار up
ولا ريب في كون ذلك في الغالب مترتبا على العداوة والحسد، وإن ترتب بعض أفرادها في بعض الأحيان على مجرد الطمع أو الحرص ليكون من رداءة القوة الشهوية، أو على مجرد الغضب وسوء الخلق والكبر، وإن لم يكن حقد وحسد. وعلى أي تقدير، لا شبهة في أن الإيذاء للمؤمن واحتقاره محرم في الشريعة، موجب للهلاك الأبدي. قال الله سبحانه: والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا (٢٢). وقال رسول الله (ص): من آذى مؤمنا فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فهو ملعون في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . وفي خبر آخر: فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين (٢٣). وقال (ص): المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه . وقال (ص): لا يحل للمسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه . وقال (ص): لا أنبئكم بالمؤمن! من أئتمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم. ألا أنبئكم بالمسلم! من سلم المسلمون من لسانه ويده. والمؤمن حرام على المؤمن أن يظلمه أو يخذله أو يغتابه أو يدفعه دفعة . وقال الصادق (ع)
(هامش)
)
٢٢) الأحزاب، الآية: ٥٨. (٢٣) صححنا الحديثين على (جامع الأخبار): الباب ٧، الفصل ٤. (*)

ص ١٦٦
قال الله عز وجل: ليأذن بحرب مني من آذى عبدي المؤمن . وقال (ع): إذا كان يوم القيامة، نادى مناد: أين المؤذون لأوليائي؟ فيقوم قوم ليس على وجوههم لحم، فيقال، هؤلاء الذين آذوا المؤمنين، وتصبوا لهم وعاندوهم وعنفوهم في دينهم. ثم يؤمر بهم إلى جهنم . وقال (ع): قال رسول الله (ص): قال الله تبارك وتعالى: من أهان لي وليا فقد أرصد لمحاربتي . وقال عليه السلام، إن الله تبارك وتعالى يقول: من أهان لي وليا فقد أرصد لمحاربتي، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي . وقال عليه السلام: قال رسول الله (ص): قال الله عز وجل: قد نابذني من أذل عبدي المؤمن . وقال عليه السلام: من حقر مؤمنا مسكينا أو غير مسكين، لم يزل الله عز وجل حاقرا له ما قتا، حتى يرجع عن محقرته إياه (٢٤). وفي معناها أخبار كثيرة أخر. ومن عرف النسبة التي بين العلة والمعلول، والربط الخاص الذي بين الخالق والمخلوق، يعلم أن إيذاء العباد وإهانتهم يرجع في الحقيقة إلى إيذاء الله وإهانته، وكفاه بذلك ذما. فيجب على كل عاقل أن يكون دائما متذكرا لذم إيذاء المسلمين واحتقارهم، ولمدح ضدهما، من رفع الأذية عنهم وإكرامهم - كما يأتي -، ويحافظ نفسه عن ارتكابهما، لئلا يفتضح في الدنيا ويعذب في الآخرة.

وصل كف الأذى عن المسلمين up

لا ريب في فضيلة أضداد ما ذكر وفوائدها، من كف الأذى عن المؤمنين والمسلمين وإكرامهم وتعظيمهم. والظواهر الواردة في مدح دفع الضرر وكف الأذى عن الناس كثيرة، كقول النبي (ص): من رد عن قوم من المسلمين عادية ماء أو نار وجبت له الجنة (٢٥). وقوله (ص): أفضل المسلمين
(هامش)
)
٢٤) صححنا الأحاديث هنا على (أصول الكافي): باب من آذى المسلمين واحتقرهم. وعلى (إحياء العلوم): ٢ / ١٧١، ١٧٢.
(٢٥) صححناه على (فروع الكافي): كتاب الجهاد، في ملحق باب فضل الشهادة. وعلى (أصوله): في باب الاهتمام بأمور المسلمين.
(*)
ص ١٦٧
من سلم المسلمون من لسانه ويده . وقوله (ص) في حديث طويل أمر فيه بالفضائل: ... فإن لم تقدر فدع الناس من الشر، فإنها صدقة تصدقت بها على نفسك . وقوله (ص): رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين . وقال (ص): من زحزح من طريق المسلمين شيئا يؤذيهم، كتب الله له به حسنة أوجب له بها الجنة (٢٦). وكذا الأخبار التي وردت في مدح إكرام المؤمن وتعظيمه كثيرة. قال الصادق عليه السلام: قال الله سبحانه: ليأمن غضبي من أكرم عبدي المؤمن . وقال رسول الله (ص): من أكرم أخاه المسلم بكلمة يلطفه بها، وفرج عنه كربته، لم يزل في ظل الله الممدود، عليه الرحمة ما كان في ذلك . وقال (ص): ما في أمتي عبد ألطف أخاه في الله بشيء من لطف، إلا أخدمه الله من خدم الجنة . وقال (ص): أيما مسلم خدم قوما من المسلمين إلا أعطاه الله مثل عددهم خداما في الجنة . وقال الصادق عليه السلام: من أخذ من وجه أخيه المؤمن قذاة، كتب الله عز وجل له عشرة حسنات ومن تبسم في وجه أخيه كانت له حسنة . وقال عليه السلام: من قال لأخيه: مرحبا، كتب الله له مرحبا إلى يوم القيامة . وقال عليه السلام: من أتاه أخوه المؤمن فأكرمه، فإنما أكرم الله عز وجل . وقال عليه السلام لإسحاق بن عمار: أحسن يا إسحاق إلى أوليائي ما استطعت، فما أحسن مؤمن إلى مؤمن ولا إعانة إلا خمش وجه إبليس وقرح قلبه (٢٧).
ثم ينبغي تخصيص بعض طبقات الناس بزيادة التعظيم والاكرام، كأهل العلم والورع، لما ورد من الحث الأكيد في الأخبار على إكرامهم والاحسان إليهم، وكذا ينبغي تخصيص ذي الشيبة المسلم بزيادة التوقير والتكريم، وقد ورد ذلك في الأخبار الكثيرة، قال رسول الله (ص): من عرف فضل كبير لسنه فوقره، آمنه الله من فزع يوم القيامة . وقال الصادق عليه السلام إن من إجلال الله عز وجل إجلال الشيخ الكبير . وقال عليه السلام: ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا . والأخبار في هذا
(هامش)

(٢٦) صححنا هذه الأحاديث الأربعة الأخيرة على (إحياء العلوم): ٢ / ١٧١، ١٧٢. (٢٧) صححنا الأحاديث هنا على (أصول الكافي): باب إلطاف المؤمن وإكرامه وباب من آذى المسلمين واحتقرهم. (*)
ص ١٦٨
المضمون كثيرة. وكذا ينبغي تخصيص كريم القوم بزيادة الاكرام، لقول النبي (ص): إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه (٢٨). وكذا تخصيص الذرية العلوية بزيادة الاكرام والتعظيم. قال رسول الله (ص): حقت شفاعتي لمن أعان ذريتي بيده ولسانه وماله . وقال (ص): أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في أمورهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه (٢٩) وقال (ص): أكرموا أولادي، وحسنوا آدابي . وقال (ص): أكرموا أولادي الصالحون لله والطالحون لي . والأخبار في فضل السادات وثواب من يكرمهم ويعينهم أكثر من أن تحصى. وإضرار المسلم قريب من معنى إيذائه، وربما كان الإضرار أخص منه فما يدل على ذمه يدل على ذمه، كقول النبي (ص): خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر: الشرك بالله تعالى، والضر بعباد الله . وكذا ضده، أعني إيصال النفع إليه، قريب من معنى ضده وأخص منه. فما يدل على مدحه ولا ريب في أن إيصال النفع إلى المؤمنين من شرائف الصفات والأفعال. والأخبار الواردة في فضيلته كثيرة، قال رسول الله (ص): الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيته سرورا . وسئل (ص): من أحب الناس إلى الله؟ قال: أنفع الناس للناس (٣٠). وقال رسول الله (ص): خصلتان من الخير ليس فوقهما شيء من البر: الإيمان بالله، والنفع لعباد الله .

تنبيه ذم الظلم بالمعنى الأخص up

إعلم أن الظلم قد يراد به ما هو ضد العدالة، وهو التعدي عن الوسط في أي شيء كان، وهو جامع للرذائل بأسرها - كما أشير إليه -. وهذا
(هامش)
(٢٨) صححنا هذه الأحاديث على (أصول الكافي): باب إجلال الكبير، وباب وجوب إجلال ذي الشيبة، وباب إكرام الكريم. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ٦٧. (٢٩) تقدم هذان الحديثان في ص ١٣٩ من هذا الجزء. (*)
ص ١٦٩
هو الظلم بالمعنى الأعم، وقد يطلق عليه الجور أيضا، وقد يراد به ما يرادف الإضرار والإيذاء بالغير، وهو يتناول قتله وضربه وشتمه وقذفه وغيبته وأخذ ماله قهرا ونهبا وغصبا وسرقة وغير ذلك من الأقوال والأفعال المؤذية. وهذا هو الظلم بالمعنى الأخص، وهو المراد إذا أطلق في الآيات والأخبار وفي عرف الناس. وباعثه إن كانت العداوة والحسد، يكون من رذائل قوة الغضب، وإن كان الحرص والطمع في المال، يكون من رذائل قوة الشهوة. وهو أعظم المعاصي وأشدها عذابا باتفاق جميع الطوائف. ويدل على ذمه - بعد ما ورد في ذم كل واحد من الأمور المندرجة تحته كما يأتي بعضها - ما تكرر في القرآن من اللعن على الظالمين، وكفاه ذما أنه تعالى قال في مقام ذم الشرك: أن الشرك لظلم عظيم (٣١). وقال: إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم (٣٢). وقال: ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون (٣٣). وقال وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون (٣٤). وقال رسول الله (ص): إن أهون الخلق على الله، من ولي أمر المسلمين فلم يعدل لهم . وقال (ص): جور ساعة في حكم، أشد وأعظم عند الله من معاصي تسعين سنة . وقال (ص): إتقوا الظلم، فإنه ظلمات يوم القيامة . وقال (ص): من خاف القصاص، كف عن ظلم الناس . وروي: أنه تعالى أوحى إلى داود: قل للظالمين لا تذكروني. فإن حقا علي أن أذكر من ذكرني، وإن ذكري إياهم أن ألعنهم . وقال علي بن الحسين عليهما السلام لابنه أبي جعفر عليه السلام حين حضرته الوفاة: يا بني، إياك وظلم من لا يجد عليك ناصرا إلا الله . وقال أبو جعفر
(هامش)
(٣٠) هذان الحديثان صححناهما على (أصول الكافي): باب الاهتمام بأمور المسلمين. (٣١) لقمان، الآية: ١٣. (٣٢) الشورى، الآية: ٤٢. (٣٣) إبراهيم، الآية: ٤٢. (٣٤) الشعراء، الآية: ٢٢٧. (*)

ص ١٧٠
عليه السلام: ما من أحد يظلم بمظلمة إلا أخذه الله تعالى بها في نفسه أو ماله . وقال رجل له عليه السلام: إني كنت من الولاة، فهل لي من توبة؟ فقال: لا! حتى تؤدي إلى كل ذي حق حقه . وقال عليه السلام: الظلم ثلاثة: ظلم يغفره الله تعالى، وظلم لا يغفره الله تعالى، وظلم لا يدعه الله. فأما الظلم الذي لا يغفره الله تعالى، وظلم لا يغفره الله تعالى، وظلم لا يدعه الله. فأما الظلم الذي لا يغفره الله عز وجل فالشرك، وأما الظلم الذي يغفره الله عز وجل فظلم الرجل نفسه فيما بينه وبين الله عز وجل، وأما الظلم الذي لا يدعه فالمداينة بين العباد . وقال الصادق (ع) في قوله تعالى: إن ربك لبالمرصاد (٣٥): قنطرة على الصراط، لا يجوزها عبد بمظلمة . وقال عليه السلام: ما من مظلمة أشد من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عونا إلا الله تعالى . وقال: من أكل مال أخيه ظلما، ولم يرده إليه، أكل جذوة من النار يوم القيامة . وقال عليه السلام: إن الله عز وجل أوحى إلى نبي من أنبيائه في مملكة جبار من الجبارين: أن ائت هذا الجبار، فقل له: إني لم استعملك على سفك الدماء واتخاذ الأموال، وإنما استعملته لتكف عني أصوات المظلومين، فإني لن أدع ظلامتهم وإن كانوا كفارا . وقال عليه السلام: أما إن المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم.. ثم قال: من يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فعل به. أما إنه يحصد ابن آدم ما يزرع. وليس يحصد أحد من المر حلوا، ولا من الحلو مرا . وقال عليه السلام: من ظلم، سلط الله عليه من يظلمه، أو على عقبه أو على عقب عقبه . قال الراوي: قلت: هو يظلم، فيسلط الله على عقبه أو على عقب عقبه؟! قال: فإن الله تعالى يقول: وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا (٣٦). والظاهر أن مؤاخذة الأولاد بظلم آبائهم إنما هو في الأولاد الذين

(هامش)

(

٣٥) الفجر، الآية: ١٤. (٣٦) صححنا أحاديث الباب على (أصول الكافي): باب الظلم. والآية من الحديث الأخير: سورة النساء، الآية: ٨. (*)

ص ١٧١
كانوا راضين بفعل آبائهم أو وصل إليهم أثر ظلمهم، أي انتقل إليهم منهم بعض أموال المظلومين. وقال بعض العلماء: الوجه في ذلك، إن الدنيا دار مكافأة وانتقام، وإن كان بعض ذلك مما يؤخر إلى الآخرة. وفائدة ذلك أما بالنسبة إلى الظالم فإنه يردعه عن الظلم إذا سمع، وأما بالنسبة إلى المظلوم فإنه يستبشر بنيل الانتقام في الدنيا مع نيله ثواب الظلم الواقع عليه في الآخرة فإنه ما ظفر أحد بخير مما ظفر به المظلوم، لأنه يأخذ من دين الظالم أكثر مما أخذ الظالم من ماله، كما تقدم. وهذا مما يصحح الانتقام من عقب الظالم أو عقب عقبه، فإنه وإن كان في صورة الظلم، لأنه انتقام من غير أهله، مع أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، إلا أنه نعمة من الله عليه في المعنى من جهة ثوابه في الدارين، فإن ثواب المظلوم في الآخرة أكثر مما جرى عليه من الظلم في الدنيا. ثم إن معين الظالم، والراضي بفعله، والساعي له في قضاء حوائجه وحصول مقاصده، كالظلم بعينه في الإثم والعقوبة. قال الصادق عليه السلام: العامل بالظلم، والمعين له، والراضي به، شركاء ثلاثتهم . وقال (ع): من عذر ظالما بظلمه، سلط الله عليه من يظلمه، فإن دعا لم يستجب له، ولم يأجره الله على ظلامته . وقال رسول الله (ص): شر الناس المثلث؟ قيل: وما المثلث؟ قال: الذي يسعى بأخيه إلى السلطان، فيهلك نفسه، ويهلك أخاه، ويهلك السلطان . وقال (ص) من مشى مع ظالم فقد أجرم . وقال (ص): إذا كان يوم القيامة، نادى مناد: أين الظلمة وأعوان الظلمة ومن لاق لهم دواة أو ربط لهم كيسا أو مدهم بمدة قلم؟ فاحشروهم معهم .

وصل العدل بالمعنى الأخص up

ضد الظلم بالمعنى الأخص هو العدل بالمعنى الأخص، وهو الكف عنه، ورفعه، والاستقامة، وإقامة كل أحد على حقه. والعدل بهذا المعنى هو المراد عند إطلاقه في الآيات والأخبار، وفضيلته أكثر من أن تحصى. قال الله سبحانه:

ص ١٧٢
إن الله يأمر بالعدل والاحسان... (٣٧). وقال: إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل

(٣٨). وقال رسول الله (ص): عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة قيام ليلها وصيام نهارها . وقال الصادق عليه السلام: من أصبح ولا يهم بظلم أحد، غفر له ما اجترم . وقال عليه السلام: من أصبح لا ينوي ظلم أحد غفر الله تعالى له ذنب ذلك اليوم، ما لم يسفك دما أو يأكل مال يتيم حراما . وقال عليه السلام: العدل أحلى من الماء يصيبه الظمآن. ما أوسع العدل إذا عدل فيه، وإن قل . وقال عليه السلام: العدل أحلى من الشهد، وألين من الزبد، وأطيب ريحا من المسك . وقال (ع): إتقوا الله واعدلوا، فإنكم تعيبون على قوم لا يعدلون (٣٩). ومما يدل على فضيلة العدل بهذا المعنى ما ورد في ثواب رد المظالم. قال رسول الله (ص): درهم يرده العبد إلى الخصماء، خير له من عبادة ألف سنة، وخير له من عتق ألف رقبة، وخير له من ألف حجة وعمرة . وقال (ص): من رد درهما إلى الخصماء، أعتق الله رقبته من النار، وأعطاه بكل دانق ثواب نبي، وبكل درهم ثواب مدينة في الجنة من درة حمراء . وقال (ص): من رد أدنى شيء إلى الخصماء، جعل الله بينه وبين النار سترا كما بين السماء والأرض، ويكون في عداد الشهداء . وقال (ص): من أرضى الخصماء من نفسه، وجبت له الجنة بغير حساب ويكون في الجنة رفيق إسماعيل بن إبراهيم . وقال (ص): إن في الجنة مدائن من نور، وعلى المدائن أبواب من ذهب مكللة بالدر والياقوت، وفي جوف المدائن قباب من مسك وزعفران، من نظر إلى تلك المدائن يتمنى أن تكون له مدينة منها .

قالوا: يا نبي الله، من هذه المدائن؟ قال: للتائبين النادمين، المرضين الخصماء من أنفسهم. فإن العبد إذا رد درهما إلى الخصماء، أكرمه الله كرامة سبعين شهيدا. فإن درهما يرده العبد إلى

(هامش)

(٣٧) النحل، الآية: ٩٠. (٣٨) النساء، الآية: ٥٧. (٣٩) صححنا الأحاديث هنا على (أصول الكافي): باب الظلم وباب الإنصاف والعدل. (*)

ص ١٧٣

الخصماء خير له من صيام النهار وقيام الليل، ومن رد درهما ناداه ملك من تحت العرش: استأنف العمل، فقد غفر لك ما تقدم من ذنبك . وقال (ص): من مات غير تائب، زفرت جهنم في وجهه ثلاث زفرات، فأولاها لا تبقى دمعة إلا جرت من عينيه، والزفرة الثانية لا يبقى دم إلا خرج من منخريه، والزفرة الثالثة لا يبقى قيح إلا خرج من فمه. فرحم الله من تاب، ثم أرضى الخصماء، فمن فعل فأنا كفيله بالجنة . وقال (ص): لرد دانق من حرام يعدل عند الله سبعين ألف حجة مبرورة (٤٠). ومنها:

• إخافة المؤمن up

وإدخال الكرب في قلبه. وهما شعبتان من الإيذاء والإضرار، فيترتبان غالبا على العداوة والحسد، وقد يترتبان على مجرد الغضب أو سوء الخلق أو الطمع، وهما من رذائل الأفعال، والأخبار الواردة في ذمهما كثيرة، كقول النبي (ص): من نظر إلى مؤمن نظرة ليخيفه بها، أخافه الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله . وقول الصادق عليه السلام: من روع مؤمنا بسلطان ليصيبه منه مكروه فلم يصبه فهو في النار، ومن روع مؤمنا بسلطان ليصيبه منه مكروه فأصابه فهو مع فرعون وآل فرعون في النار . وقوله عليه السلام: من أدخل السرور على مؤمن فقد أدخله على رسول الله (ص) ومن أدخله على رسول الله (ص) فقد وصل ذلك إلى الله، وكذلك من أدخل عليه كربا (٤١). والأخبار الواردة في هذا المعنى كثيرة.

وصل إدخال السرور في قلب المؤمن up

وضد ذلك إزالة الخوف عنه، وتفريج كربه، وإدخال السرور في قلبه. وهي من أعظم شعب النصيحة، ولأحد للثواب المترتب عليها، كما نطقت

(هامش)

(

٤٠) صححنا الأحاديث النبوية هذه كلها على (جامع الأخبار): الباب ٧ الفصل ٧. ولم نعثر لها على أثر في الكتب المعتبرة. (٤١) صححنا الأحاديث هنا على (أصول الكافي): باب إدخال السرور على المؤمن، وباب من أخاف مؤمنا. (*)

ص ١٧٤

به الأخبار. قال رسول الله (ص): من حمى مؤمنا من ظالم، بعث الله له ملكا يوم القيامة يحمي لحمه من نار جهنم . وقال (ص): من فرج عن مغموم أو أعان مظلوما غفر الله له ثلاثا وسبعين مغفرة . وقال (ص): أنصر أخاك ظالما أو مظلوما ، فقيل: كيف ينصره ظالما؟ قال: تمنعه من الظلم . وقال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: من أغاث أخاه المؤمن اللهفان اللهثان عند جهده، فنفس كربته وأعانه على نجاح حاجته، كتب الله تعالى له بذلك اثنتين وسبعين رحمة من الله، يعجل له منها واحدة يصلح بها أمر معيشته، ويدخر له إحدى وسبعين رحمة لإفزاع يوم القيامة وأهواله . وقال عليه السلام: من نفس عن مؤمن كربة، نفس الله عنه كرب الآخرة، وخرج من قبره وهو ثلج الفؤاد . وقال الرضا عليه السلام: من فرج عن مؤمن فرج الله قلبه يوم القيامة . وقال رسول الله (ص): من سر مؤمنا فقد سرني، ومن سرني فقد سر الله . وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله (ص): إن أحب الأعمال إلى الله عز وجل إدخال السرور على المؤمنين . وقال الباقر عليه السلام: تبسم الرجل في وجه أخيه حسنة، وصرفه القذى عنه حسنة، وما عبد الله بشيء أحب إلى الله من إدخال السرور على المؤمن . وقال عليه السلام إن فيما ناجى الله عز وجل به عبده موسى عليه السلام: قال: إن لي عبادا أبيحهم جنتي وأحكمهم فيها، قال: يا رب، ومن هؤلاء الذين تبيحهم جنتك وتحكمهم فيها؟ قال: من أدخل على مؤمن سرورا...

ثم قال: إن مؤمنا كان في مملكة جبار، فولع به، فهرب منه إلى دار الشرك، فنزل برجل من أهل الشرك فأظله وأرفقه وأضافه، فلما حضره الموت، أوحى الله إليه: وعزتي وجلالي! لو كان لك في جنتي مسكن لأسكنتك فيها، ولكنها محرمة على من مات بي مشركا، ولكن يا نار هيديه ولا تؤذيه، ويؤتى برزقه طرفي النهار ، قلت (٤٢): من الجنة؟ قال: من حيثما شاء الله . وقال عليه السلام: لا يرى أحدكم إذا أدخل على مؤمن سرورا إنه عليه أدخله فقط، بل والله علينا، بل والله على رسول الله (ص): . عن أبان ابن تغلب، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن حق المؤمن على المؤمن

(هامش)

(٤٢) القائل الراوي، والمجيب أبو جعفر - عليه السلام -. (*)

ص ١٧٥

فقال: حق المؤمن على المؤمن أعظم من ذلك، لو حدثتكم لكفرتم، أن المؤمن إذا خرج من قبره خرج معه مثال من قبره يقول له: أبشر بالكرامة من الله والسرور، فيقول له: بشرك الله بخير. قال: ثم يمضي معه يبشره بمثل ما قال، وإذا مر بهول قال: ليس هذا لك، وإذا مر بخير قال: هذا لك. فلا يزال معه، يؤمنه مما يخاف ويبشره بما يحب، حتى يقف معه بين يدي الله عز وجل. فإذا أمر به إلى الجنة، قال له المثال: أبشر فإن الله عز وجل قد أمر بك إلى الجنة. قال: فيقول: من أنت رحمك الله؟ تبشرني من حين خرجت من قبري، وآنستني في طريقي، وخبرتني عن ربي! قال: فيقول: أنا السرور الذي كنت تدخله على إخوانك في الدنيا، خلقت منه لأبشرك وأونس وحشتك . وروي ابن سنان، قال: كان رجل عند أبي عبد الله عليه السلام، فقرأه هذه الآية: والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا ٤٣ فقال أبو عبد الله عليه السلام: فما ثواب من أدخل عليه السرور؟ فقلت: جعلت فداك! عشر حسنات. قال: أي والله وألف ألف حسنة! (٤٤). ومنها:

• ترك إعانة المسلمين up

وعدم الاهتمام بأمورهم. فإن من يعادي غيره أو يحاسده يترك إعانته ولا يهتم بأموره، وربما كان ذلك من نتائج الكسالة بها، أو ضعف النفس أو البخل. وبالجملة: لا ريب في كونه من رذائل الصفات، ودليلا على ضعف الإيمان. وما ورد في ذمه من الأخبار كثير، قال الباقر عليه السلام: من بخل بمعونة أخيه المسلم والقيام له في حاجة، إلا ابتلى بالقيام بمعونة من يأثم عليه ولا يؤجر . وقال الصادق عليه السلام: أيما رجل من شيعتنا أتاه رجل من إخوانه، فاستعان به في حاجة فلم يعنه، وهو يقدر،

(هامش)

(٤٣) الأحزاب، الآية: ٥٨. (٤٤) صححنا الأحاديث كلها هنا على (أصول الكافي): باب إدخال السرور على المؤمن، باب تفريج كرب المؤمن. (*)

ص ١٧٦
إلا ابتلاه الله تعالى بأن يقضي حوائج عدة من أعدائنا، يعذبه الله عليها يوم القيامة . وقال عليه السلام: أيما مؤمن منع مؤمنا شيئا مما يحتاج إليه وهو يقدر عليه من عنده أو من عند غيره، إقامة الله عز وجل يوم القيامة مسودا وجهه، مزرقة عيناه، مغلولة يداه إلى عنقه، فيقال: هذا الخائن الذي خان الله ورسوله، ثم يؤمر به إلى النار . وقال عليه السلام: من كانت له دار، فاحتاج مؤمن إلى سكناها، فمنعه إياها، قال الله تعالى: ملائكتي، أبخل عبدي على عبدي بسكنى الدنيا؟ وعزتي وجلالي! لا يسكن جناتي أبدا . وقال عليه السلام لنفر عنده: ما لكم تستخفون بنا؟ ، فقام إليه إليه رجل من أهل خراسان، فقال: معاذ لوجه الله أن نستخف بك أو بشيء من أمرك! فقال: إنك أحد من استخف بي ، فقال: معاذ لوجه الله أن استخف بك! فقال له: ويحك! ألم تسمع فلانا، ونحن بقرب الجحفة، وهو يقول لك: احملني قدر ميل، فقد والله اعييت. والله ما رفعت به رأسا، لقد استخففت به. ومن استخف بمؤمن فبنا استخف، وضيع حرمة الله عز وجل (٤٥). وقال عليه السلام: من أتاه أخوه في حاجة يقدر على قضائها فلم يقضها له، سلط الله عليه شجاعا ينهش إبهامه في قبره إلى يوم القيامة مغفورا له أو معذبا . وقال أبو الحسن عليه السلام: من قصد إليه رجل من إخوانه مستجيرا به في بعض أحواله، فلم يجره بعد أن يقدر عليه، فقد قطع ولاية الله عز وجل . وقال رسول الله (ص): من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم . وقال (ص): من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلا ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم (٤٦).
(هامش)
(٤٥) صححنا هذا الحديث بالخصوص على (الوسائل): كتاب الحج، باب تحريم الاستخفاف. وهو يرويه عن (الكافي). (٤٦) صححنا الأحاديث هنا على (أصول الكافي): باب من استعان أخوه به فلم يعنه، وباب قضاء حاجة المؤمن، وباب من منع مؤمنا شيئا من عنده، وباب الاهتمام بأمور المسلمين (*)
ص ١٧٧
وصل قضاء حوائج المسلمين up
ضد هذه الرذيلة: قضاء حوائج المسلمين والسعي في إنجاح مقاصدهم. وهو من أعظم أفراد النصيحة، ولا حد لمثوبته عند الله. قال رسول الله (ص): من قضى لأخيه المؤمن حاجة، فكأنما عبد الله دهره (٤٧) وقال (ص): من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار، قضاها أو لم يقضها، كان خيرا له من اعتكاف شهرين . وقال أبو جعفر عليه السلام: أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: إن من عبادي من يتقرب إلي بالحسنة فأحكمه في الجنة، فقال موسى: يا رب، وما تلك الحسنة؟ قال يمشي مع أخيه المؤمن في قضاء حاجته، قضيت أم لم تقض . وقال (ع): من مشى في حاجة أخيه المسلم، أظله الله بخمسة وسبعين ألف ملك، ولم يرفع قدما إلا كتب الله له حسنة، وحط عنه بها سيئة، ويرفع له بها درجة، فإذا فرغ من حاجته كتب الله عز وجل له بها أجر حاج ومعتمر . وقال (ع): إن المؤمن لترد عليه الحاجة لأخيه فلا تكون عنده فيهتم بها قلبه، فيدخله الله تبارك وتعالى بهمه الجنة . وقال الصادق (ع): من قضى لأخيه المؤمن حاجة، قضى الله تعالى له يوم القيامة مائة ألف حاجة، من ذلك أولها الجنة، ومن ذلك أن يدخل قرابته ومعارفه وأخوانه الجنة، بعد أن لا يكونوا نصابا . وقال (ع): إن الله تعالى خلق خلقا من خلقه، إنتجبهم لقضاء حوائج فقراء شيعتنا، ليثيبهم على ذلك الجنة. فإن استطعت أن تكون منهم فكن . وقال (ع): قضاء حاجة المؤمن خير من عتق ألف رقبة، وخير من حملان ألف فرس في سبيل الله . وقال (ع): لقضاء حاجة امرئ مؤمن أحب إلى الله تعالى من عشرين حجة، كل حجة ينفق فيها صاحبها مائة ألف . وقال (ع): من طاف بالبيت طوافا واحدا كتب الله له ستة آلاف حسنة، ومحى عنه ستة آلاف سيئة، ورفع له ستة آلاف درجة - وفي رواية: وقضى له ستة
(هامش)
(
٤٧) صححناه على (الوسائل). كتاب الأمر بالمعروف، باب استحباب قضاء حاجة المؤمن، رواه عن (مجالس الطوسي). ولم نعثر على

مصدر للنبوي الثاني. ج: ٢ (*)
ص ١٧٨
آلاف حاجة - حتى إذا كان عند الملتزم، فتح له سبعة أبواب من الجنة ، قلت له: جعلت فداك! هذا الفضل كله في الطواف؟ قال: نعم! وأخبرك بأفضل من ذلك: قضاء حاجة المؤمن المسلم أفضل من طواف وطواف وطواف... حتى بلغ عشرا . وقال (ع): تنافسوا في المعروف لأخوانكم، وكونوا من أهله، فإن للجنة بابا يقال له المعروف، لا يدخله إلا من اصطنع المعروف في الحياة الدنيا، فإن العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن، فيوكل الله عز وجل به ملكين، واحدا عن يمينه وآخر عن شماله، يستغفران له ربه، ويدعوان بقضاء حاجته ... ثم قال: والله لرسول الله (ص) أسر بقضاء حاجة المؤمن إذا وصلت إليه من صاحب الحاجة . وقال (ع): ما قضى مسلم لمسلم حاجة إلا ناداه الله تعالى: علي ثوابك، ولا أرضى لك بدون الجنة . وقال (ع): أيما مؤمن أتى أخاه في حاجة فإنما ذلك رحمة من الله ساقها إليه وسببها له، فإن قضى حاجته كان قد قبل الرحمة بقبولها، وإن رده عن حاجته وهو يقدر على قضائها فإنما رد عن نفسه رحمة من الله عز وجل، ساقها إليه وسببها له، وذخر الله تلك الرحمة إلى يوم القيامة، حتى يكون المردود عن حاجته هو الحاكم فيها، إن شاء صرفها إلى نفسه، وإن شاء صرفها إلى غيره ... ثم قال (ع) للراوي: فإذا كان يوم القيامة، وهو الحاكم في رحمة من الله تعالى قد شرعت له، فإلى من ترى يصرفها؟ ، قال: لا أظن يصرفها عن نفسه، قال: لا تظن! ولكن استيقن، فإنه لن يردها عن نفسه . وقال (ع): من مشى في حاجة أخيه المؤمن يطلب بذلك ما عند الله حتى تقضى له، كتب الله عز وجل له بذلك مثل أجر حجة وعمرة مبرورتين، وصوم شهرين من أشهر الحرم واعتكافهما في المسجد الحرام، ومن مشى فيها بنية ولم تقض، كتب الله له بذلك مثل حجة مبرورة. فارغبوا في الخير .
وقال (ع): لئن أمشي في حاجة أخ لي مسلم، أحب إلي من أن أعتق ألف نسمة، وأحمل في سبيل الله على ألف فرس مسرجة ملجمة . وقال (ع): من سعى في حاجة أخيه المسلم، وطلب وجه الله، كتب الله عز وجل له ألف ألف حسنة، يغفر فيها لأقاربه
ص ١٧٩
وجيرانه وأخوانه ومعارفه، ومن صنع إليه معروفا في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة، قيل له: أدخل النار، فمن وجدته فيها صنع إليك معروفا في الدنيا فأخرجه بأذن الله عز وجل، إلا أن يكون ناصبيا . وقال أبو الحسن (ع): إن لله عبادا في الأرض يسعون في حوائج الناس، هم الآمنون يوم القيامة. ومن أدخل على مؤمن سرورا، فرح الله قلبه يوم القيامة (٤٨). والأخبار الواردة بهذه المضامين كثيرة، وما ذكرناه كاف لتحريك الطالبين على قضاء حوائج المؤمنين. ومما يدل على مدحه وشرافته، ما ورد في ثواب إطعام المؤمن وسقيه وكسوته، كما يأتي. ومنها:
• التهاون والمداهنة up
في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهو ناش أما من ضعف النفس وصغرها، أو من الطمع المالي ممن يسامحه، فيكون من رذائل القوة الغضبية من جانب التفريط، أو من رذائل القوة الشهوية من جانب الإفراط. وهو من المهلكات التي يعم فسادها وضرها، ويسري إلى معظم الناس أثرها وشرها. كيف ولو طوى بساط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إضمحلت الديانة، وتعطلت النبوة، وعمت الضرة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، وضاعت أحكام الدين، واندرست آثار شريعة رب العالمين، وهلك العباد، وخرجت البلاد. ولذا ترى وتسمع أن في كل عصر نهض بإقامة هذه السنة بعض المؤيدين، من غير أن تأخذهم في الله لومة لائمين، من أقوياء العلماء المتكفلين لعلمها والقائها، ومن سعداء الأمراء الساعين في إجرائها وإمضائها، رغب الناس إلى ضروب الطاعات والخيرات، وفتحت عليهم بركات الأرض والسماوات. وفي كل قرن لم يقم بإحيائها عالم عامل ولا سلطان عادل، إستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، واسترسل الناس في أتباع الشهوات والهوى، وانمحت أعلام الهداية والتقوى. ولذا ترى في عصرنا - لما اندرس من هذا القطب الأعظم عمله وعلمه،
(هامش)
(٤٨) صححنا الأحاديث - ابتداء من الحديث عن أبي جعفر عليه السلام - على (أصول الكافي): باب قضاء حاجة المؤمن، وباب السعي في حاجة المؤمن. (*)

ص ١٨٠
وانمحت بالكلية حقيقته واسمه، وعز على بسيط الأرض دين يحرس الشريعة، واستولت على القلوب مداهنة الخليقة - أن الناس في بيداء الضلالة حيارى، وفي أيدي جنود الأبالسة أسارى، ولم يبق من الإسلام إلا اسمه ومن الشرع إلا رسمه. ولأجل ذلك ورد الذم الشديد في الآيات والأخبار على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمداهنة فيهما، قال الله سبحانه: لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الآثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون (٤٩). وقال رسول الله (ص): ما من قوم عملوا بالمعاصي، وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل، إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده . وقال (ص): إن الله تعالى ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له ، فقيل له وما المؤمن الذي لا دين له؟ قال: الذي لا ينهى عن المنكر . وقيل له صلى الله عليه وآله: أتهلك القرية وفيها الصالحون؟ قال: نعم! قيل: بم يا رسول الله؟ قال: بتهاونهم وسكوتهم عن معاصي الله . وقال صلى الله عليه وآله: لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر، أو ليستعملن عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم (٥٠). وقال (ص): إن الله تعال ليسأل العبد: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكر؟ . وقال (ص): إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة، حتى يظهر المنكر بين أظهرهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه . وقال أمير المؤمنين (ع) في بعض خطبه: إنما هلك من كان قبلكم، حيث عملوا بالمعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك، وإنهم لما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك، نزلت بهم العقوبات، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر... .
وقال (ع):
(هامش)
(٤٩) المائدة، الآية: ٦٦. (٥٠) روي في (فروع الكافي) - باب الأمر بالمعروف - هذا الحديث عن أبي الحسن الرضا - عليه السلام -. وصححنا الحديث الذي قبل الأخير على (فروع الكافي) في الموضع المذكور أيضا. (*)
ص ١٨١
من ترك إنكار المنكر بقلبه ويده ولسانه، فهو ميت بين الإحياء . وقال عليه السلام: أمرنا رسول الله (ص) أن نلقي أهل المعاصي بوجوه مكفهرة .. وقال (ع): إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم ثم بألسنتكم، ثم بقلوبكم، فمن لم يعرف بقلبه معروفا ولم ينكر منكرا قلب، فجعل أعلاه أسفله . وقال الباقر (ع): أوحى الله عز وجل إلى شعيب النبي (ع): إني معذب من قومك مائة ألف: أربعين ألفا من شرارهم، وستين ألفا من خيارهم. فقال (ع): يا رب، هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عز وجل إليه: داهنوا أهل المعاصي، ولم يغضبوا لغضبي . وقال الصادق (ع): ما قدست أمة لم يؤخذ لضعيفها من قويها بحقه غير متعتع . وقال (ع): ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقال (ع): إن الله تعالى بعث ملكين إلى أهل مدينة ليقلبها على أهلها، فلما انتهيا إلى المدينة وجدا رجلا يدعو الله ويتضرع إليه، فقال أحد الملكين لصاحبه: أما ترى هذا الداعي؟ فقال: قد رأيته، ولكن أمضى ما أمر به ربي. فقال: لا، ولكن لا أحدث شيئا حتى أراجع ربي. فعاد إلى الله تبارك وتعالى، فقال: يا رب إني انتهيت إلى المدينة، فوجدت عبدك فلانا يدعوك ويتضرع إليك. فقال: امض ما أمرتك به، فإن ذا رجل لم يتمعر وجهه غيظا لي قط . وقال (ع) لقوم من أصحابه: حق لي أن آخذ البرئ منكم بالسقيم، وكيف لا يحق لي ذلك وأنتم يبلغكم عن الرجل منكم القبيح فلا تنكرون عليه، ولا تهجرونه ولا تؤذونه حتى يتركه . وقال (ع): لأحملن ذنوب سفهائكم على علمائكم... إلى أن قال: ما يمنعكم إذا بلغكم عن الرجل منكم ما تكرهون وما يدخل علينا به الأذى، أن تأتوه فتؤنبوه وتعذلوه، وتقولوا له قولا بليغا! ، قيل له: إذن لا يقبلون منا، قال: أهجروهم واجتنبوا مجالستهم . وفي بعض الأخبار النبوية: إن أمتي إذا تهاونوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليأذنوا بحرب من الله .
وقد وردت أخبار بالمنع عن حضور مجالس المنكر إذا لم يمكنه دفعه والنهي عنه، ولو حضر نزلت عليه
ص ١٨٢
اللعنة. وعلى هذا لا يجوز دخول بيت الظلمة والفسقة، ولا حضور المشاهد التي يشاهد فيها المنكر ولا يقدر على تغييره، إذ لا يجوز مشاهدة المنكر من غير حاجة، اعتذارا بأنه عاجز. ولهذا أختار جماعة من السلف العزلة، حذرا من مشاهدة المنكر في الأسواق والمجامع

والأعياد، مع عجزهم عن التغيير. ثم إذا كان الأمر في المداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذه المثابة، فيعلم أن الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف كيف حاله. قال رسول الله (ص): كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ ، فقيل له (ص): ويكون ذلك يا رسول الله؟! قال: نعم! وشر من ذلك! كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟! ، فقيل له: يا رسول الله، ويكون ذلك؟! قال: نعم! وشر من ذلك! كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا؟! ، وفي رواية: وعند ذلك يبتلى الناس بفتنة، يصير الحليم فيها حيران (٥١). ومن تأمل في الأخبار والآثار، وأطلع على التواريخ والسير وقصص الأمم السالفة والقرون الماضية، وما حدثت لهم من العقوبات، وضم ذلك إلى التجربة والمشاهدة في عصره، من ابتلاء الناس ببعض البلايا السماوية والأرضية، يعلم أن كل عقوبة سماوية وأرضية، من الطاعون والوباء، والقحط والغلاء، وحبس المياه والأمطار، وتسلط الظالمين والأشرار، ووقوع القتل والغارات، وحدوث الصواعق والزلازل، وأمثال ذلك، تكون مسبوقة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس.

وصل السعي في الأمر بالمعروف up

ضد المداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو السعي فيهما والتشمير لهما. وهو أعظم مراسم الدين، والمهم الذي بعث الله لأجله

(هامش)

(

٥١) صححنا الأحاديث هنا على (فروع الكافي): باب الأمر بالمعروف. وعلى (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف، وعلى (المستدرك): ٢ / ٣٦٠ - ٣٦١ كتاب الأمر بالمعروف. (*)

ص ١٨٣

النبيين، ونصب من بعدهم الخلفاء والأوصياء، وجعل نوابهم أولي النفوس القدسية من العلماء. بل هو القطب الذي تدور عليه أرحية الملل والأديان، وتطرق الاختلال فيه يؤدي إلى سقوطها عن الدوران. ولهذا ورد في مدحه والترغيب عليه مما لا يمكن إحصاؤه من الآيات والأخبار، قال الله سبحانه: ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . وقال: كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر (١). وقال: فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون (٢). وقال: لا خير في كثير من نجواهم، إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما . وقال: يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط (٣). والقيام بالقسط هو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقال رسول الله (ص): ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لجي، وما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجي . وقال (ص): إياكم والجلوس على الطرقات! ، قالوا: ما لنا بد منها، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها. قال: فإذا أبيتم إلا ذلك، فأعطوا الطريق حقه ، قالوا: وماحق الطريق؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر . وقال (ص): ما بعث الله نبيا إلا وله حواري، فيمكث النبي بين أظهرهم ما شاء الله، يعمل فيهم بكتاب الله وبأمره وسنة نبيهم، فإذا انقرضوا، كان من بعدهم قوم يركبون رؤس المنابر، يقولون ما يعرفون يعلمون ما ينكرون.

فإذا رأيتم ذلك، فحق على كل مؤمن جهادهم بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع

(هامش)

(١) آل عمران، الآية: ١٠٤، ١١٠. (٢) الأعراف، الآية: ١٦٤. (٣) النساء، الآية: ١١٣، ١٣٥. (*)

ص ١٨٤

فبقلبه. وليس وراء ذلك إسلام (٤). وقال أمير المؤمنين (ع): إن من رأى عدوانا يعمل به ومنكرا يدعى إليه فأنكره بقلبه، فقد سلم وبرئ ومن أنكره بلسانه فقد أجر، وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله العليا وكلمة الظالمين السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق، ونور في قلبه اليقين (٥). وقال عليه السلام: فمنهم المنكر للمنكر بقلبه ولسانه ويده، فذلك

المستكمل لخصال الخير. ومنهم المنكر بلسانه وقلبه، التارك بيده، فذلك متمسك بخصلتين من خصال الخير ومضيع خصلة. ومنهم المنكر بقلبه، والتارك بيده ولسانه، فذلك الذي ضيع أشرف الخصلتين من الثلاث وتمسك بواحدة. ومنهم تارك لإنكار المنكر بلسانه وقلبه ويده، فذلك ميت الأحياء. وما أعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجي، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق، وأفضل من ذلك كلمة عدل عند إمام جائر . وفي خبر جابر عن الباقر (ع): إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة، بها تقام الفرائض، وتأمن المذاهب، وتحل المكاسب، وترد المظالم، وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر. فأنكروا بقلوبكم، والفظوا بألسنتكم، وصكوا بها جباههم، ولا تخافوا في الله لومة لائم. فإن اتعظوا وإلى الحق رجعوا فلا سبيل عليهم: إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم (٦). هنالك فجاهدوهم بأبدانكم، وأبغضوهم بقلوبكم، غير طالبين سلطانا ولا باغين مالا، ولا مريدين لظلم ظفرا، حتى يفيئوا إلى أمر الله ويمضوا

(هامش)

(

٤) صححنا هذه النبويات الثلاثة على (إحياء العلوم): ٢ / ٢٧١، ٢٧٢. (٥) صححنا الحديث على (المستدرك): كتاب الأمر بالمعروف، الباب ٣. وعلى (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف، الباب ٣ وكذا الحديث بعده، صححناه على (الوسائل) في الموضع المذكور. (٦) الشورى، الآية: ٤٢. (*)

ص ١٨٥

على طاعته (٧).

فصل وجوب الأمر بالمعروف وشروطه up

مقتضى الآيات والأخبار المذكورة، وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولا خلاف فيه أيضا، إنما الخلاف في كون وجوبهما كفائيا أو عينيا. والحق الأول، كما يأتي. ثم الواجب إنما هو الأمر بالواجب والنهي عن الحرام، وأما الأمر بالمندوب والنهي عن المكروه فمندوب، وإنما يجب بشروط أربعة: الأول - العلم بكونهما معروفا ومنكرا، ليأمن من الغلط، فلا يجبان في المتشابه، فمن علم بالقطع الوجوب أو الحرمة، وعدم جواز الاختلاف فيه من ضرورة الدين أو المذهب أو الإجماع القطعي النظري أو الكتاب والسنة أو من قول العلماء، فله أن يأمر وينهى ويحتسب به على كل أحد، ومن لم يعلمها بالقطع، بل علمها بالظن الحاصل من الاجتهاد أو التقليد، وجوز الاختلاف فيه، فليس له الأمر والنهي والحسبة، إلا على من كان على هذا الاعتقاد من مجتهد أو مقلد، أو لزم عليه أن يكون هذا الاعتقاد وإن لم يكن عليه بالفعل للجهل، كالمقلد المطلق المجتهد إذا لم يعلم بعض العقائد الاجتهادية لمجتهده، فيتأتى لغيره أن يحتسب به عليه. وحاصل ما ذكر: إن القطعيات الوفاقية تتأتى لكل أحد أن يحتسب بها على كل أحد بعد علمها، وغير القطعيات الجائز فيها الاختلاف والمرجح أحد طرفيها الاجتهاد لا يتأتى لمجتهدها ومقلده فيها الاحتساب، أي الأمر والنهي، الأعلى من كان موفقا في الاعتقاد أو يلزم أن يكون موفقا. الثاني - تجويز التأثير. فلو علم أو غلب على ظنه أنه لا يؤثر فيه، لم يجب، لعدم الفائدة. الثالث - القدرة والتمكن منه، وعدم تضمنه مفسدة. فلو ظن توجه الضرر إليه أو إلى أحد من المسلمين بسببه سقط، إذ لا ضرر ولا ضرار في الدين. (٧) صححنا الحديث على (فروع الكافي): كتاب الجهاد، باب الأمر بالمعروف. (*)

ص ١٨٦

الرابع - أن يكون المأمور أو المنهي مصرا على الاستمرار. فلو ظهر منها أمارة الاقلاع سقط، للزوم العبث. ثم هذه الشروط يختلف اشتراطها بسبب اختلاف درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما يأتي. ويدل على اشتراط الثلاثة الأول ما روي: إنه سئل مولانا الصادق عليه السلام: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أواجب على الأمة جميعا؟ فقال: لا. فقيل له: ولم؟ قال: إنما هو على القوي المطاع، العالم بالمعروف من المنكر، لا على الضعيف الذي لا يهتدي سبيلا إلى أي من أي يقول من الحق إلى الباطل. والدليل على ذلك كتاب الله عز وجل، قوله: ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر (٨). فهذا خاص غير عام، كما قال الله عز وجل. ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (٩). ولم يقل على أمة موسى، ولا على كل قوم، وهم

يومئذ أمم مختلفة. والأمة واحد فصاعدا، كما قال الله عز وجل: (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله) يقول مطيعا لله عز وجل. وليس على من يعلم ذلك في هذه الهدنة من حرج، إذا كان لا قوة له ولا عذر ولا طاقة . قال مسعدة: سمعت أبا عبد الله عليه السلام - وسئل عن الحديث الذي جاء عن النبي (ص): إن أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر ما معناه - قال: هذا على أن يأمره بعد معرفته، وهو مع ذلك يقبل منه، وإلا فلا . وفي خبر آخر: إنما يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر مؤمن فيتعظ أو جاهل فيتعلم. فأما صاحب سوط أو سيف فلا . وفي خبر آخر: من تعرض لسلطان جائر وإصابته بلية، لم يؤجر عليها ولم يرزق الصبر عليها (١٠). ومن

(هامش)

(٨) آل عمران، الآية: ١٠٤. (٩) الأعراف، الآية: ١٥٨. (١٠) صححنا الأحاديث على (فروع الكافي): باب الأمر بالمعروف. وباب إنكار المنكر بالقلب. أسقط المؤلف من الحديث الأول قسما فأكملناه. (*)

ص ١٨٧

الشرائط أن يظهر المنكر على المحتسب من غير تجسس، فلا يجب، بل لا يجوز التجسس، كفتح الباب المغلق، ووضع الأذن والأنف لاحتباس الصوت والريح، وطلب إراءة ما تحت الثوب، وأمثال ذلك، لنص الكتاب والسنة.

فصل عدم اشتراط العدالة فيه up

لا تشترط فيه العدالة وائتمار الأمر بما يأمر به وانتهاء الناهي عما ينهى عنه، لإطلاق الأدلة، ولأن الواجب على فاعل الحرام المشاهد فعله من غيره أمران: تركه وإنكاره، ولا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر، كيف ولو شرط ذلك لاقتضى عدم وجوب ذلك إلا على المعصوم، فينسد باب الحسبة بالكلية. وأما الإنكار في قوله تعالى: أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم (١١) وقوله تعالى: لم تقولون ما لا تفعلون؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (١٢). وما في حديث الأسرى من قرض مقاريضهم بالنار، فإنما هو على عدم العمل بما يأمر به ويقوله، لا على الأمر والقول. وكذلك ما روي: إن الله تعالى أوحى إلى عيسى: عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستحي مني (١٣). وقس على ذلك جميع ما ورد من هذا القبيل. وما قيل إن هداية الغير فرع الاهتداء، وتقويم الغير فرع الاستقامة ففيه أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة يكون بالوعظ وتارة بالقهر، ومن لم يكن مهتديا مستقيما، تسقط عنه الحسبة بالوعظ، لعلم الناس بفسقه، فلا يتضمن وعظه وكلامه فائدة، ولا يؤثر في العالم بفسقه، ولا يخرج ذلك وعظه وقوله عن الجواز، كما لا تخرج حسيته القهرية عن

(هامش)

(١١) البقرة، الآية: ٤٤. (١٢) الصف، الآية: ٢ - ٣. (١٣) صححنا الأحاديث كلها على (فروع الكافي): باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعلى (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف. وعلى (المستدرك): ٢ / ٣٦٠، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. (*)

ص ١٨٨

التأثير والفائدة أيضا. إذ الفاسق إذ منع غيره قهرا عن الزنا واللواط وشرب الخمر، وأراق الخمور، وكسر آلات الملاهي، حصل التأثير والفائدة بلا شبهة. والحاصل: إن أحد نوعي الاحتساب - أعني الوعظي - يتوقف تأثيره على العدالة، وأما نوعه الآخر - أعني القهري - فلا يتوقف عليه مطلقا. فإن قيل: إذا أتى رجل امرأة إكراها، وهي مستورة الوجه، فكشفت وجهها باختيارها، فما أشنع وأقبح أن ينهاها الرجل في أثناء الزنا عن كشف وجهها، ويقول لها: أنت مكرهة في الزنا ومختارة في كشف الوجه لغير المحرم وما أنا بمحرم لك، فاستري وجهك. قلنا: القبح والاستنكار إنما هو لأجل أنه ترك الأهم واشتغل بما هو الأهون، كما إذا ترك المشتبه وأكل الحرام، أو ترك الغيبة وشهد بالزور، لا لأن هذا النهي هو حرام في نفسه، أو خرج عن الوجوب إلى الإباحة أو الكراهة. ولأن نهيه هذا خرج بفسقه عن التأثير والفائدة، فالاستنكار عليه وتقبيح نهيه عن هذا من حيث إنه نزل نفسه مقام من يؤثر قوله، مع أنه لا يؤثر، كما تقدم آنفا. ثم ما ذكرناه من عدم اشتراط العدالة في العمل بما يأمر به وينهى عنه إنما هو في آحاد الحسبة الصادرة من أفراد الرعية المطلعين على المنكر، وأما من نصب نفسه لإصلاح الناس ونصحهم، وبيان الأحكام الإلهية نيابة عن رسول الله (ص) والأئمة المعصومين عليهم السلام، فلا بد فيه من العدالة والتقوى والعلم بالكتاب والسنة، وغير ذلك من شرائط الاجتهاد. وعلى هذا يحصل جواب آخر

عن الآيات والأخبار الواردة في الإنكار على الواعظ غير المتعظ بتخصيصها به دون أفراد الرعية. وعليه يحمل قول الصادق (ع) في (مصباح الشريعة) (١٤): من لم ينسلخ عن هواجسه، ولم يتخلص من آفات نفسه وشهواتها، ولم يهزم الشيطان، ولم يدخل في كنف الله وأمان عصمته، لا يصلح له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه إذا لم يكن بهذا الصفة، فكلما أظهر أمرا كان حجة عليه، ولا ينتفع الناس به. قال الله عز وجل:

(
هامش)

(١٤) الباب ٦٤. وقد صححنا الحديث عليه وعلى (بحار الأنوار): ٢١ / ١١٤، باب الأمر بالمعروف. وعلى (مستدرك الوسائل): ٢ / ٣٦٣ - ٣٦٥. (*)

ص ١٨٩

أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم (١٥). ويقال له: يا خائن! أتطالب خلقي بما خنت به نفسك وأرخيت عنه عنانك! . وكذا حمل عليه قول الصادق عليه السلام (١٦): صاحب الأمر بالمعروف يحتاج إلى أن يكون عالما بالحلال والحرام، فارغا من خاصة نفسه مما يأمرهم به وينهاهم عنه، ناصحا للخلق، رحيما لهم، رفيقا بهم داعيا لهم باللطف وحسن البيان، عارفا بتفاوت أخلاقهم، لينزل كلا منزلته بصيرا بمكر النفس ومكائد الشيطان، صابرا على يلحقه، لا يكافيهم بها ولا يشكو منهم ولا يستعمل الحمية ولا يغتاظ لنفسه، مجردا نيته لله، مستعينا به ومبتغيا لوجهه، فإن خالفوه وجفوه صبر، وإن وافقوه وقبلوا منه شكر، مفوضا أمره إلى الله، ناظرا إلى عيبه . (تنبيه) إعلم أن المحتسب عليه - أعني من يؤمر به أو ينهى عنه - وإن اشترط كونه عاقلا بالغا، إلا أن هذا الشرط إنما هو في غالب الأوامر والنواهي، وبعضها لا يشترط فيه ذلك. إذ من رأى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر، وجب عليه أن يمنعه ويريق خمره. وكذا إن رأى مجنونا يزني بمجنونة أو بهيمة، فعليه أن يمنعه منه، ولا يلزم منه أن يكون منع بهيمة عن إفساد زرع إنسان حسبة ونهيا عن منكر، إذ لا يصدق اسم المحتسب عليه والمنهي إلا على من كان الفعل الممنوع عنه في حقه منكر، وهو لا يكون إلا الإنسان دون سائر الحيوانات.

وصل مراتب الأمر بالمعروف up

إعلم أن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب: الأولى - الإنكار بالقلب: بأن يبغضه على ارتكاب المعصية. وهذا مشروط بعلم الناهي وإصرار المنهي، ولا يشترط بالشرطين الأخيرين. الثانية - التعريف: بأن يعرف المرتكب للمنكر بأنه معصية، فإن بعض الناس قد يرتكب بعض المعاصي لجهلهم بأنه معصية، ولو عرف كونه معصية تركه.

(هامش)

(

١٥) البقرة، الآية: ٤٤ (١٦) (مصباح الشريعة): الباب المتقدم. (*)

ص ١٩٠

الثالثة - إظهار الكراهة والإعراض والمهاجرة. الرابعة - الإنكار باللسان: بالوعظ، والنصح، والتخويف، والزجر مرتبا الأيسر فالأيسر، إلى أن يصل إلى التعنيف بالقول والتغليظ في الكلام. كقوله: يا جاهل! يا أحمق! لا تخالف ربك! وههنا شبكة عظيمة للشيطان ربما يصطاد بها أكثر الوعاظ. فينبغي لكل عالم ناصح أن يراها بنور البصيرة، وهي أن يحضره عند الوعظ والإرشاد، ويلقي في قلبه تعززه وشرافته بالعلم، وذلة من يعظه بالجهل والخسة. فربما يقصد بالتعريف والوعظ الإذلال والتجهيل، وإظهار شرف نفسه بالعلم، وهذه آفة عظيمة تتضمن كبرا ورياء. وينبغي لكل واعظ دين ألا يغفل عن ذلك، ويعرف بنور بصيرته عيوب نفسه وقبح سريرته. وعلامة براءة نفسه من هذه الآفة أن يكون اتعاظ ذلك العاصي بوعظ غيره أو امتناعه من المعصية بنفسه أحب إليه من اتعاظه بوعظه. الخامسة - المنع بالقهر مباشرة: ككسر آلات اللهو، وإراقة الخمر واستلاب الثوب المغصوب منه ورده إلى صاحبه، وأمثال ذلك. السادسة - التهديد والتخويف: كقوله: دع عنك هذا، وإلا ضربتك أو كسرت رأسك! أو غير ذلك مما يجوز له أن يفعل لو لم ينته عن معصيته ولا يجوز أن يهدده بما لا يجوز فعله، كقوله: دع هذا وإلا أضرب عنقك! أو أضرب ولدك، أو أستبين زوجتك، وأمثال ذلك. السابعة - مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك، من دون أن ينتهي إلى شهر سلاح وجراح. الثامنة - الجرح بشهر بعض الأسلحة. وجوزه سيدنا المرتضى - رضي الله عنه - من أصحابنا وجماعة، والباقون اشترطوا إذن الإمام في ذلك. إذ ربما لا يقدر عليه بنفسه،

ويحتاج فيه إلى أعوان وأنصار يشهرون السلاح، وربما يستمد الفاسق أيضا بأعوانه، فيؤدي إلى المقاتلة والمحاربة وحدوث فتنة عظيمة.
ص ١٩١
وصل معنى وجوبهما كفائيا up
إذا اجتمعت الشرائط، وكان المطلع منفردا، تعين عليه، وإن كان ثمة غيره، وشرع أحدهما في الأمر والنهي، فإن ظن الآخر أن لمشاركته أثرا في تعجيل ترتب الأثر ورسوخ الانزجار وجب عليه أيضا، وإلا فلا. لأن الغرض وقوع المعروف وارتفاع المنكر، فمتى حصلا بفعل واحد، كان السعي من الآخر عبثا. وهذا معنى كون وجوبهما كفائيا.
فصل ما ينبغي في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر up
ينبغي لكل من الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون حسن الخلق صابرا حليما قويا في نفسه، لئلا ينزعج، ولا يضطرب إذا قيل في حقه ما لا يليق به. فإن أكثر الناس أتباع الهوى، فإذا نهوا عما يميلون إليه شق ذلك عليهم، فربما أطلقوا ألسنتهم في حق الناهي، ويقولون فيه ما لا يليق بشأنه، وربما تجاوزوا إلى سوء الأدب قولا وفعلا بالمشافهة. وأن يكون رفيقا بالناس، فإن الوعظ بالرفق والملاءمة أوقع وأشد تأثيرا في قلوب أكثر الناس. وأن يكون قاطعا للطمع عن الناس، فإن الطامع من الناس في أموالهم أو إطلاق ألسنتهم بالثناء عليه لا يقدر على الحسبة، ولذا نقل: إن بعض المشايخ كان له سنور، وكان أخذ من قصاب في جواره كل يوم شيئا من القد لسنوره، فرأى على القصاب منكرا، فدخل الدار أولا، وأخرج السنور ثم جاء ووعظ القصاب وشدد عليه القول، فقال القصاب: لا يأكل سنورك شيئا بعد ذلك، فقال: ما احتسبت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع عنك! .
تتميم أنواع المنكرات up
إعلم أن المنكرات إما محظورة أو مكروهة، والمألوفة منها في العادات أكثر من أن تحصى. فمنها - ما يكون غالبا في المساجد: كإساءة الصلاة، والإخلال ببعض
ص ١٩٢
أفعالها، والتأخير عن أوقاتها، وإدخال النجاسة فيها، والتكلم فيها بأمور الدنيا والبيع والشراء، ودخول الصبيان والمجانين فيها مع اشتغالهم باللهو واللعب، وقراءة القرآن فيها باللحن أو الغناء، ودخول النسوان فيها مع ظن تطرق الريبة، ونظر الأجانب إليهن أو نظرهن إليهم، ودخول الجنب أو الحائض فيها، وتغني المؤذنين بالأذان أو غيره مما يقرؤن، وتقديمهم الأذان على الوقت، ووعظ من لا ينبغي أن يتمكن من الموعظة، كمن يكذب في حديثه أو يفتي بالمسائل وليس أهلا لها، أو يظهر من وعظه كونه مرائيا طالبا للجاه، وأمثال ذلك. فإن كل ذلك من المنكرات، بعضها محظورة وبعضها مكروهة، ينبغي لكل مطلع أن ينهى عنها. ومنها - ما يكون غالبا في الأسواق: من الكذب في المحاولات والمعاملات وإخفاء العيب، والأيمان الكاذبة، والمنازعة بالضرب والشتم والطعن واللعن وأمثال ذلك، والتبخس في الكيل والميزان، والمعاملات الفاسدة بأقسامها على ما هو مقرر في الفقهيات. ومنها - ما يكون في الشوارع: كوضع الأساطين، وبناء الدكات متصلة بالأبنية المملوكة، وتضيق الطرق على المارة بوضع الأطعمة والأحطاب وربط الدواب فيها، وسوق الدواب فيها وعليها الأشواك والنجاسات - إذا تأذى الناس منها وأمكن العدول بها إلى موضع واسع، وإن لم يمكن فلا منع إذ حاجة أهل البلد ربما تمس إلى ذلك - وتحميل الدواب ما لا يطيقها من الحمل، وذبح القصاب على الطريق أو على باب دكانه بحيث تلوث الطريق بالدم، وطرح الكناسة على جواد الطريق، ورش الماء على الطرق بحيث يخشى منه الزلق والسقوط، وإرسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط إلى الطرق الضيقة، وغير ذلك. وقس على ذلك منكرات الحمامات، والخانات، والأسواق، ومجالس العامة، ومجامع القضاة، ومدارس الفقهاء ورباطات الصوفية، ودواوين السلاطين، وغيرها.
فإن أمثال ما ذكر من المنكرات يجب أن ينهي عنها، فلو قام بالاحتساب والنهي عنها أحد سقط الحرج على البواقي، وإلا عم الحرج أهل البلد جميعا. وأمثال ما ذكر إنما هو من المنكرات اليسيرة الجزئية.
ص ١٩٣
وأما المنكرات العظيمة: من البدعة في الدين، والقتل، والظلم، والزنا واللواط، وشرب الخمر، وأنواع الغناء، والنظر إلى غير المحارم، وأكل الحرام، والصلاة في الأماكن المغصوبة، والوضوء والغسل من المياه المحرمة والتصرف في أموال الأوقاف وغصبها، والمعاملة مع

الظالمين، والجهل في الأصول الاعتقادية والفروع الواجبة، وآفات اللسان، فلا يمكن حصرها لكثرتها، لا سيما في أمثال زماننا. فلو أمكن لمؤمن دين أن يغير هذه المنكرات كلا أو بعضا بالاحتساب، فليس له أن يقعد في بيته، بل يجب عليه الخروج للنهي والتعليم. بل ينبغي لكل مسلم أن يبدأ بنفسه، فيصلحها بالمواظبة على الطاعات وترك المحرمات، ثم يعلم ذلك أهله وأقاربه، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلته، ثم أهل بلده، ثم أهل السواد المكتنف بلده، ثم إلى غيرهم، وهكذا الأقرب فالأقرب إلى أقصى العالم. فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد، وإلا لزم الحرج على كل قادر عليه، قريبا كان أو بعيدا. ولا يسقط الحرج ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل يعرض عن فروض دينه وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعلمه فريضة. وهذا شغل شاغل لمن يهمه أمر دينه يشغله عن سائر المشاغل. إلا أن إعراض الناس عن أمور دينهم في عصرنا لم يبلغ حدا يقبل الإصلاح، إلى أن تتعلق به مشيئة الله، فينهض بعض عباده السعداء الأقوياء، فيدفع هذه الوصمة، ويسد هذه الثلمة، ويتلافى هذه الفترة. ومنها:

• الهجرة والتباعد up

ولا ريب في كونه من نتائج العداوة والحقد، أو الحسد أو البخل. فيكون من رذائل قوة الغضب أو الشهوة. وهو من ذمائم الأفعال. قال رسول الله (ص): أيما مسلمين تهاجرا، فمكثا ثلاثا لا يصطلحان، إلا كانا خارجين من الإسلام، ولم يكن بينهما ولاية. فأيهما سبق الكلام لأخيه كان السابق إلى الجنة يوم الحساب . وقال (ص): لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث.. وقال الصادق عليه السلام: لا يفترق رجلان على الهجران، إلا استوجب أحدهما البراءة واللعنة، وربما استحق ذلك ج: ٢

ص ١٩٤

كلاهما ، فقال له معتب: جعلني الله فداك! هذا للظالم، فما بال المظلوم؟! قال: لأنه لا يدعو أخاه إلى صلته، ولا يتعامس له عن كلامه. سمعت أبي عليه السلام يقول: إذا تنازع اثنان، فعاد أحدهما الآخر، فليرجع المظلوم إلى صاحبه، حتى يقول لصاحبه: أي أخي، أنا الظالم، حتى يقطع الهجران بينه وبين صاحبه، فإن الله تبارك وتعالى حكم عدل، يأخذ للمظلوم من الظالم . وقال عليه السلام: لا يزال إبليس فرحا ما اهتجر المسلمان، فإذا التقيا اصطكت ركبتاه وتخلعت أوصاله، ونادى: يا ويله! ما لقي من الثبور . وقال الباقر عليه السلام: إن الشيطان يغري بين المؤمنين ما لم يرجع أحدهم عن دينه، فإذا فعلوا ذلك استلقى على قفاه وتمدد، ثم قال: فزت. فرحم الله امرأ ألف بين وليين لنا. يا معشر المؤمنين تآلفوا وتعاطفوا (١٧) والأخبار الواردة في ذم الهجرة والتباعد كثيرة. فيجب على كل طلب لنجاة الآخرة أن يتأمل في أمثال هذه الأخبار، ثم يتذكر ثواب ضد ذلك وفوائده، أعني التآلف والتزاور بين الأخوان بنفسه، فيحافظ نفسه من حصول الانقطاع والتباعد مع إخوانه، ولو حصل ذلك كلف نفسه المبادرة إلى زيارته وتألفه، حتى يغلب على الشيطان ونفسه الأمارة، ويفوز بما يرجوه المتقون من عظيم الأجر وجزيل الثواب.

فصل التزاور والتآلف up

قد أشير إلى أن ضد التباعد والهجران هو التزاور والتآلف، وهو من ثمرات النصيحة والمحبة، وثوابه أكثر من أن يحصى. عن أبي جعفر - عليه السلام - قال: قال رسول الله (ص): حدثني جبرئيل (ع): أن الله عز وجل أهبط إلى الأرض ملكا، فأقبل ذلك الملك يمشي حتى وقع إلى باب عليه رجل يستأذن على رب الدار، فقال له الملك: ما حاجتك إلى رب هذه الدار؟ قال: أخ لي مسلم زرته في الله تبارك وتعالى. فقال له الملك: ما جاء بك إلا ذاك؟ فقال: ما جاء بي إلا ذاك. قال: فإني

(هامش)

(١٧) صححنا الأخبار كلها على (الكافي): باب الهجران. (*)

ص ١٩٥

رسول الله إليك، وهو يقرئك السلام، ويقول: وجبت لك الجنة. وقال الملك: إن الله عز وجل يقول: أيما مسلم زار مسلما فليس إياه زار، بل إياي زار، وثوابه علي الجنة . وقال أمير المؤمنين (ع): لقاء الأخوان مغنم جسيم، وإن قلوا . وقال أبو جعفر الباقر (ع): إن لله عز وجل جنة لا يدخلها إلا ثلاثة: رجل حكم على نفسه بالحق، ورجل زار أخاه المؤمن في الله، ورجل آثر أخاه المؤمن في الله . وقال (ع): إن المؤمن ليخرج إلى أخيه يزوره، فيوكل الله عز وجل به ملكا فيضع جناحا في الأرض وجناحا في السماء يظله، فإذا

دخل إلى منزله، ناداه الجبار تبارك وتعالى: أيها العبد المعظم لحقي، المتبع لآثار نبيي، حق علي إعظامك، سلني أعطك، أدعني أجبك، أسكت أبتدئك. فإذا انصرف شيعه الملك يظله بجناحه حتى يدخل إلى منزله، ثم يناديه تبارك وتعالى: أيها العبد المعظم لحقي، حق علي إكرامك، قد أوجبت لك جنتي، وشفعتك في عبادي . وقال (ع): أيما مؤمن خرج إلى أخيه يزوره عارفا بحقه، كتب الله له بكل خطوة حسنة، ومحيت عنه سيئة، ورفعت له درجة، فإذا طرق الباب فتحت له أبواب السماء، فإذا التقيا وتصافحا وتعانقا، أقبل الله عليهما بوجهه، ثم باهى بهما الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبدي تزاورا وتحابا في، حق علي ألا أعذبهما بالنار بعد ذا الموقف. فإذا انصرف شيعه ملائكة عدد نفسه وخطاه وكلامه، يحفظونه عن بلاء الدنيا وبوائق الآخرة إلى مثل تلك الليلة من قابل، فإن مات فيما بينهما أعفي من الحساب، وإن كان المزور يعرف من حق الزائر ما عرفه الزائر من حق المزور كان له مثل أجره . وقال الصادق (ع): من زار أخاه لله لا لغيره، التماس موعد الله وتنجز ما عند الله، وكل الله به سبعين ألف ملك ينادونه: ألا طبت وطابت لك الجنة! . وقال (ع): من زار أخاه في الله، قال الله عز وجل: إياي زرت، وثوابك علي، ولست أرضى لك ثوابا دون الجنة .

وقال - عليه السلام -: من زار أخاه في الله في مرض أو صحة، لا يأتيه خداعا ولا استبدالا، وكل الله به سبعين ألف ملك، ينادون في قفاه: أن

ص ١٩٦

طبت وطابت لك الجنة! فأنتم زوار الله، وأنتم وفد الرحمن، حتى يأتي منزله ، فقال له بشير: جعلت فداك! فإن كان المكان بعيدا؟ قال: نعم يا بشير! وإن كان المكان مسيرة سنة، فإن الله جواد، والملائكة كثير، يشيعونه حتى يرجع إلى منزله . وقال (ع): من زار أخاه في الله تعالى ولله، جاء يوم القيامة يخطر بين قباطي من نور (١٨)، لا يمر بشيء إلا أضاء له، حتى يقف بين يدي الله عز وجل، فيقول الله له: مرحبا! وإذا قال مرحبا، أجزل الله عز وجل له العطية . وقال (ع): لزيارة مؤمن في الله خير من عتق عشر رقاب مؤمنات، ومن أعتق رقبة مؤمنة وقى بكل عضو عضوا من النار، حتى أن الفرج يقي الفرج . وقال (ع) لأبي خديجة: كم بينك وبين البصرة؟ قال: في الماء خمس إذا طابت الريح، وعلى الظهر ثمان ونحو ذلك، فقال: ما أقرب هذا، تزاوروا وتعاهدوا بعضكم بعضا، فإنه لا بد يوم القيامة يأتي كل إنسان بشاهد شهد له على دينه . وقال: إن المسلم إذا رأى أخاه، كان حياة لدينه إذا ذكر الله . وقال رسول الله (ص): مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى، ما لقي المؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيرا . والأخبار الواردة بهذه المضامين كثيرة. والسر في هذا الترغيب الشديد على تزاور المؤمنين وملاقاتهم، كونه دافعا للحسد والعداوة، جالبا للتأليف والمحبة. وهو أعظم ما يصلح به أمر دنياهم وعقباهم. ولذا ورد الثناء والمدح في الآيات والأخبار على نفس الألفة وانقطاع الوحشة، لا سيما إذا كانت الرابطة هي التقوى والدين. وورد الدم في التفرقة والتوحش، قال الله سبحانه في مقام الامتنان على المؤمنين بنعمة الألفة: لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم (١٩).

وقال: فأصبحتم بنعمته إخوانا : أي بنعمة الألفة. وقال

(هامش)

(١٨) القبط - بالكسر -: أهل مصر. وإليهم تنسب الثياب البيض القبطية. والجمع (قباطي). (١٩) الأنفال، الآية: ٦٣. (*)

ص ١٩٧

سبحانه: واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا (٢٠). وقال رسول الله (ص): المؤمن ألف مألوف، ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف . وهذا هو السر في الترغيب على التسليم والمصافحة والمعانقة. قال رسول الله (ص): أولى الناس بالله وبرسوله من بدأ بالسلام . وقال أمير المؤمنين (ع): لا تغضبوا ولا تقبضوا، أفشوا السلام، وأطيبوا الكلام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام . وقال الباقر - عليه السلام -: إن الله يحب إفشاء السلام . وقال (ع): من التواضع أن تسلم على من لقيت . وقال الصادق (ع) تصافحوا، فإنها تذهب بالسخيمة ، وقال: مصافحة المؤمن أفضل من مصافحة الملائكة . وقال الباقر (ع): إن المؤمنين إذا التقيا فتصافحا، أدخل الله تعالى يده بين أيديهما، وأقبل بوجهه على أشدهما حبا لصاحبه. فإذا أقبل الله تعالى بوجهه عليهما، تحاتت عنهما الذنوب كما

تتحاتت الورق من الشجر . وقال رسول الله (ص): إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم وليصافحه فإن الله تعالى أكرم بذلك الملائكة، فاصنعوا صنع الملائكة . وقال الصادق - عليه السلام -: إن المؤمنين إذا اعتنقا غمرتهما الرحمة، فإذا التزما لا يريدان بذلك إلا وجه الله ولا يريدان غرضا من أغراض الدنيا، قيل لهما: مغفورا لكما فاستأنفا، فإذا أقبلا على الماء، قالت الملائكة بعضها لبعض: تنحوا عنهما، فإن لهما سرا وقد ستر الله عليهما (٢١). ومنها:

• قطع الرحم up

وهو إيذاء ذوي اللحمة والقرابة، أو عدم مواساتهم بما ناله من الرفاهية والثروة والخيرات الدنيوية، مع احتياجهم إليه. وباعثه إما العداوة أو البخل والخسة، فهو من رذائل القوة الغضبية أو الشهوية، ولا ريب في كونه من أعظم المهلكات المفسدة لدنيا والدين، قال الله سبحانه.

(

هامش)

(٢٠) آل عمران، الآية: ١٠٣. (٢١) صححنا الأحاديث كلها على (الكافي): باب زيارة الأخوان، وباب المصافحة، وباب المعانقة. وعلى (سفينة البحار): ١ / ٥٦٨. (*)

ص ١٩٨

والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار (٢٢). وقال رسول الله (ص): أبغض الأعمال إلى الله: الشرك بالله، ثم قطيعة الرحم، ثم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف . وقال (ص): لا تقطع رحمك وإن قطعتك . وقال تعالى: أنا الرحمن، وهذه الرحم شققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته . وقال (ص): حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة، فإذا مر الوصول للرحم المؤدي للأمانة نفذ إلى الجنة، وإذا مر الخائن للأمانة القطوع للرحم لم ينفعهما معه عمل (٢٣) وتكفا به الصراط في النار . وقال أمير المؤمنين - عليه السلام - في خطبة: أعوذ بالله من الذنوب التي تعجل الفناء فقام إليه عبد الله بن الكوى اليشكري، فقال: يا أمير المؤمنين، أو تكون ذنوب تعجل الفناء؟ فقال: نعم، ويلك! قطيعة الرحم. إن أهل البيت ليجتمعون ويتواسون وهم فجرة فيرزقهم الله، وإن أهل البيت ليتفرقون ويقطع بعضهم بعضا فيحرمهم الله وهم أتقياء . وقال (ع): إذا قطعوا الأرحام، جعلت الأموال في أيدي الأشرار . وقال الباقر (ع): في كتاب علي - صلوات الله عليه -: ثلاثة خصال لا يموت صاحبهن أبدا حتى يرى وبالهن: البغي، وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة يبارز الله بها. وإن أعجل الطاعات ثوابا لصلة الرحم. وإن القوم ليكونون فجارا فيتواصلون فتنمي أموالهم ويثرون. وإن اليمين الكاذبة وقطيعة الرحم لتذران الديار بلاقع من أهلها. وتنقل الرحم، وإن نقل الرحم انقطاع النسل . وقال الصادق (ع): اتقوا الحالقة (٢٤)، فإنها تميت الرجال ، قيل: وما الحالقة؟ قال: قطيعة الرحم .

وجاء رجل إليه، فشكى أقاربه، فقال له: إكظم وافعل : إنهم يفعلون ويفعلون، فقال: أتريد أن

(هامش)

(٢٢) الرعد، الآية: ٢٧. (٢٣) قال في (الوافي): لم ينفعهما معه عمل، أي لم ينفع الخائن ولا القطوع مع الخيانة أو القطع عمل. وفي نسخة من (الكافي): لم ينفعه معهما. (٢٤) قال في (مجمع البحرين) - مادة حلق -: وفي الحديث: اتقوا الحالقة. قال بعض الشارحين: الحالقة هي الخصلة التي من شأنها أن تحلق، أي تهلك وتستأصل الدين كما يستأصل الموسى الشعر . (*)

ص ١٩٩

تكون مثلهم فلا ينظر الله إليكم؟ (٢٥). وكتب أمير المؤمنين (ع) إلى بعض عماله: مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا (٢٦)، وذلك لأن التجاور يورث التزاحم على الحقوق، وذلك ربما يورث التحاسد والتباغض وقطيعة الرحم، كما هو مشاهد في أكثر أبناء عصرنا، وليس الخبر كالمعاينة وإذا لم يتجاوروا وتزاحمت (٢٧) ديارهم، كان أقرب إلى التحابب، كما قيل بالفارسية: دوري ودوستي (٢٨).

وصل ضد قطيعة الرحم: صلة الرحم up

وهو تشريك ذوي اللحمة والقرابات بما ناله من المال والجاه وسائر خيرات الدنيا، وهو أعظم القربات وأفضل الطاعات، قال الله سبحانه: واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى... (٢٩). وقال: واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا (٣٠). وقال: الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب - إلى قوله - أولئك لهم عقبى الدار (٣١). وقال رسول الله (ص): أوصي الشاهد من أمتي والغائب، ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء، إلى يوم القيامة: أن يصل الرحم وإن كانت منه على مسيرة سنة، فإن ذلك من الدين . وقال (ص): إن اعجل الخير ثوابا صلة الرحم وقال: من سره النساء في الأجل، والزيادة في الرزق، فليصل رحمه . وقال (ص): إن القوم ليكونون فجرة

(هامش)

)

٢٥) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): باب قطيعة الرحم، وباب صلة الرحم. (٢٦) لم نعثر على مصدر لهذا الحديث. (٢٧) كذا في النسخ، والظاهر أن الصحيح وتباعدت . (٢٨) يعني: التباعد معه التحابب (٢٩) النساء، الآية: ٣٦. (٣٠) النساء، الآية: ١. (٣١) الرعد الآية ٢١، ٢٢. (*)

ص ٢٠٠

ولا يكونون بررة، فيصلون أرحامهم، فتنمى أعمالهم وتطول أعمارهم، فكيف إذا كانوا أبرارا بررة . وقال (ص): الصدقة بعشرة، والقرض بثمانية عشر، وصلة الأخوان بعشرين، وصلة الرحم بأربعة وعشرين . وقيل له (ص): أي الناس أفضل؟ فقال: اتقاهم لله، وأوصلهم للرحم، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر . وقال (ص): إن أهل البيت ليكونون فجارا، تنمي أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم . وقال (ص): أفضل الفضائل: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك . وقال (ص): من سره أن يمد الله في عمره، وأن يبسط في رزقه، فليصل رحمه. فإن الرحم لها لسان يوم القيامة ذلق، تقول: يا رب، صل من وصلني، واقطع من قطعني. فالرجل ليرى بسبيل خير إذا أنته الرحم قطعها، فتهوى به إلى أسفل قعر في النار . وقال أمير المؤمنين (ع): صلوا أرحامكم ولو بالتسليم، يقول الله تعالى: واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيبا . وقال الباقر (ع): إن الرحم متعلقة يوم القيامة بالعرش، تقول: اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني . هذا تمثيل للمعقول بالمحسوس، وإثبات لحق الرحم على أبلغ وجه، وتعلقها بالعرش كناية عن مطالبة حقها بمشهد من الله. وقال (ع): صلة الأرحام تحسن الخلق، وتسمح الكف وتطيب النفس، وتزيد في الرزق، وتنسئ في الأجل . وقال: صلة الأرحام تزكي الأعمال، وتنمي الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب وتنسئ في الأجل . وقال الصادق (ع): صلة الرحم والبر ليهونان الحساب ويعصمان من الذنوب، فصلوا أرحامكم وبروا بأخوانكم، ولو بحسن السلام ورد الجواب .

وقال (ع): صلة الرحم تهون الحساب يوم القيامة، وهي منسأة في العمر، وتقي مصارع السوء . وقال (ع): صلة الرحم وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار . وقال - عليه السلام -: ما نعلم شيئا يزيد في العمر إلا صلة الرحم، حتى أن الرجل يكون أجله ثلاث سنين، فيكون وصولا للرحم، فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة، فيجعلها ثلاثا وثلاثين سنة. ويكون أجله ثلاثا وثلاثين

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

## ٢٠٨ جامع السعادات (ج2)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ٢٠١

سنة، فيكون قاطعا للرحم، فينقصه الله تعالى ثلاثين سنة، ويجعل أجله إلى ثلاث سنين (٣٢). والأخبار الواردة في فضيلة صلة الرحم وعظم مثوباته أكثر من أن تحصى، وما ذكرناه كاف لتنبيه الغافل. المراد بالرحم الذي يحرم قطعه وتجب صلته، ولو وهب له شيء لا تنبيه المراد بالرحم المراد بالرحم الذي يحرم قطعه وتجب صلته، ولو وهب له شيء لا يجوز الرجوع عنه، هو مطلق القريب

المعروف بالنسب، وإن بعدت النسبة وجاز النكاح. والمراد بقطعه أن يؤذيه بالقول أو الفعل، أو كان له شدة احتياج إلى ما يقدر عليه زيادة على قدر حاجته، من سكنى وملبوس ومأكول فيمنعه، أو أمكنه أن يدفع عنه ظلم ظالم ولم يفعله، أو هاجره غيظا وحقدا من دون أن يعوده إذا مرض، أو يزوره إذا قدم من سفر، وأمثال ذلك. فإن جميع ذلك وأمثالها قطع للرحم. وأضدادها، من دفع الأذية ومواساته بماله، وزيارته، وإعانته باللسان واليد والرجل والجاه وغير ذلك، صلة. ثم الظاهر تحقق الواسطة بين القطع والصلة، إذ كل إحسان، ولو كان مما لا يحتاج إليه قريبه وهو محتاج إليه، يسمى صلة، وعدمه لا يسمى قطعا. ومنها:

• عقوق الوالدين up

وهو أشد أنواع قطيعة الرحم، إذ أخص الأرحام وأمسها ما كان بالولادة، فيتضاعف تأكد الحق فيهما، فهو كقطيعة الرحم، إما يكون ناشئا من الحقد والغيظ، أو من البخل وحب الدنيا، فيكون من رذائل إحدى قوتي الغضب والشهوة. ثم جميع ما يدل على ذم قطيعة الرحم يدل على ذم العقوق، ولكونه أشد أنواع القطيعة وأفظعها، وردت في خصوص ذمه آيات وأخبار أخر كثيرة، كقوله تعالى:

(هامش)

(٣٢) صححنا الأخبار هنا كلها على (أصول الكافي): باب صلة الرحم. وعلى (سفينة البحار): ١ / ٥١٤. (*)

ص ٢٠٢

وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما (٣٣). وقول رسول الله (ص): كن بارا واقصر على الجنة وإن كنت عاقا فاقصر على النار. وعن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص) في كلام له: إياكم وعقوق الوالدين، فإن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام، ولا يجدها عاق، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان، ولا جار إزاره خيلاء. إنما الكبرياء لله رب العالمين. وقوله (ص): من أصبح مسخطا لأبويه، أصبح له بابان مفتوحان إلى النار. وعن أبي جعفر (ع) قال: إن أبي (ع) نظر إلى رجل ومعه ابنه يمشي والابن متكئ على ذراع الأب، قال: فما كلمه أبي مقتا له حتى فارق الدنيا. وقال الصادق (ع): من نظر إلى أبويه نظر ماقت، وهما ظالمان له، لم يقبل الله له صلاة. وقال الصادق (ع): إذا كان يوم القيامة، كشف غطاء من أغطية الجنة فوجد ريحها من كانت له روح من مسيرة خمسمائة عام، إلا صنفا واحدا فقيل له: من هم؟ قال: العاق لوالديه. وقال (ع): لو علم الله شيئا هو أدنى من أف لنهى عنه، وهو من أدنى العقوق. ومن العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه فيحد النظر إليهما (٣٤). وسئل الكاظم (ع) عن الرجل يقول لبعض ولده: بأبي أنت وأمي! أو بأبوي أنت! أترى بذلك بأسا؟ فقال: إن كان أبواه حيين فأرى ذلك عقوقا وإن كانا قد ماتا فلا بأس. والأخبار في ذم العقوق أكثر من أن تحصى، وورد في بعض الأخبار القدسية: بعزتي وجلالي وارتفاع مكاني! لو أن العاق لوالديه يعمل بأعمال الأنبياء جميعا لم أقبلها منه وروي أيضا: أن أول ما كتب الله في اللوح المحفوظ: إني أنا الله لا إله إلا أنا، من رضي عنه والداه فأنا منه راض، ومن سخط عليه والداه فأنا عليه ساخط. وقد ورد عن رسول

(هامش)

)

٣٣) الإسراء، الآية: ٢٣. (٣٤) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): باب العقوق. وعلى (مستدرك الوسائل): ٢ / ٦٣١ كتاب النكاح، وعلى (الوسائل): كتاب النكاح. (*)

ص ٢٠٣

الله أنه قال: كل المسلمين يروني يوم القيامة، إلا عاق الوالدين، وشارب الخمر، ومن سمع اسمي ولم يصلي علي. وقد ثبت من الأخبار والتجربة أن دعاء الوالد على ولده لا يرد ويستجاب ألبتة. ودلت الأخبار على أن من لا ترضى عنه أمه تشتد عليه سكرات الموت وعذاب القبر. وكفى للعقوق ذما أنه ورد في الاسرائيليات: أنه تعالى أوحى إلى موسى: أن من بر والديه وعقني كتبته برا، ومن برني وعق والديه كتبته عاقا.

وصل بر الوالدين up

ضد العقوق (بر الوالدين) والاحسان إليهما، وهو أفضل القربات، وأشرف السعادات. ولذلك ورد ما ورد من الحث عليه، والترغيب

إليه. قال الله سبحانه: وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب أرحمهما كما ربياني صغيرا (٣٥). وقال: واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا (٣٦). وقال رسول الله (ص): بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله . وقال (ص): من أصبح مرضيا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة . وعن أبي عبد الله (ع) لا تشرك بالله شيئا وإن حرقت بالنار وعذبت إلا وقلبك مطمئن بالإيمان، ووالديك فأطعهما وبرهما حيين كانا وإن أمراك، أن تخرج من أهلك ومالك فافعل، فإن ذلك من الإيمان . وعن أبي عبد الله (ع): قال: جاء رجل وسأل النبي (ص) عن بر الوالدين. فقال: أبرر أمك، أبرر أمك أبر أمك أبرر أباك أبرر أباك وبدا بالأم قبل الأب. وعن أبي عبد الله - عليه السلام - قال: جاء رجل إلى النبي (ص)، فقال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال:

(هامش)

(٣٥) بني إسرائيل، الآية: ٢٤. (٣٦) النساء، الآية: ٣٦. (*)

ص ٢٠٤

أمك. قال: ثم من؟ قال: أباك . وأتاه رجل آخر وقال: إني رجل شاب نشيط، وأحب الجهاد، ولي والدة تكره ذلك. فقال له (ص): أرجع فكن مع والدتك، فوالذي بعثني بالحق! لأنسها بك ليلة خير من جهاد في سبيل الله سنة . وقال أبو عبد الله (ع): إن رسول الله (ص) أنته أخت له من الرضاعة، فلما نظر إليها سربها، وبسط ملحفته لها، فأجلسها عليها، ثم أقبل يحدثها ويضحك في وجهها، ثم قامت فذهبت وجاء أخوها، فلم يصنع به ما صنع بها، فقيل له: يا رسول الله، صنعت بأخته ما لم تصنع به وهو رجل، فقال: لأنها كانت أبر بوالديها منه . وقيل للصادق (ع): أي الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة لوقتها، وبر الوالدين، والجهاد في سبيل الله . وقال له (ع) رجل: إن أبي قد كبر جدا وضعف، فنحن نحمله إذا أراد الحاجة. فقال: إن استطعت أن تلي ذلك منه فافعل، ولقمه بيدك، فإنه جنة لك غدا . وقال له (ع) رجل: إن لي أبوين مخالفين. فقال: برهما كما تبر المسلمين ممن يتولانا . وقال رجل للرضا (ع): أدعو لوالدي إذا كانا لا يعرفان الحق؟ قال: ادع لهما وتصدق عنهما، وإن كانا حيين لا يعرفان الحق فدارهما، فإن رسول الله (ص) قال: إن الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق . وقد وردت أخبار أخر في الأمر بالبر والاحسان إلى الوالدين، وإن كان على خلاف الحق. وقال (ع): ما يمنع الرجل منكم أن يبر والديه حيين وميتين، ويصلي عنهما، ويتصدق عنها، ويحج عنهما، ويصوم عنهما، فيكون الذي صنع لهما وله مثل ذلك، فيزيده الله عز وجل ببره وصلاته خيرا كثيرا (٣٧). والأخبار في ثواب بر الوالدين غير محصورة. فينبغي لكل مؤمن أن يكون شديد الاهتمام في تكريمهما وتعظيمهما واحترامهما، ولا يقصر في خدمتهما، ويحسن صحبتهما، وألا يتركهما حتى يسألاه شيئا مما يحتاجان

(هامش)

(

٣٧) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): باب بر الوالدين. وعلى (الوسائل): كتاب النكاح أبواب أحكام العشرة، باب وجوب بر الوالدين، وباب وجوب بر الوالدين برين كانا أو فاجرين، وباب جملة من حقوق الوالدين، وعلى (المستدرك) ٢ / ٦٢٨. كتاب النكاح. (*)

ص ٢٠٥

إليه، بل يبادر إلى الاعطاء قبل أن يفتقر إلى السؤال، كما ورد في الأخبار، وإن أضجراه فلا يقل لهما أف، وإن ضرباه لا يعبس وجهه، وقال لهما: غفر الله لكما، ولا يملأ عينيه من النظر إليهما إلا برحمة ورقة، ولا يرفع صوته فوق صوتهما، ولا يده فوق أيديهما، ولا يتقدم قدامهما، بل مهما أمكن له لا يجلس عندهما، وكلما بالغ في التذلل والتخضع كان أجره أزيد وثوابه أعظم. وبالجملة: إطاعتهما واجبة وطلب رضاهما حتم، فليس للولد أن يرتكب شيئا من المباحات والمستحبات بدون إذنهما، ولذا أفتى العلماء بأنه لا تجوز المسافرة في طلب العلم إلا بأذنهما، إلا إذا كان في طلب علم الفرائض، من الصلاة والصوم وأصول العقائد، ولم يكن في بلده من يعلمه، ولو كان في بلده من يعلمه لم تجز المسافرة. وقد روي: أن رجلا هاجر من اليمن إلى رسول الله (ص) وأراد الجهاد، فقال له: ارجع إلى

أبويك فاستأذنهما، فإن أذنا فجاهد، وإلا فبرهما ما استطعت، فإن ذلك خير مما كلف به بعد التوحيد . وجاء آخر إليه للجهاد، فقال: ألك والدة؟ قال: نعم! قال: فالزمها، فإن الجنة تحت قدمها . وجاء آخر، وطلب البيعة على الهجرة إلى الجهاد، وقال: ما جئتك حتى أبكيت والدي. قال: ارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما . ولو وقعت بين الوالدين مخالفة، بحيث توقف رضى أحدهما على سخط الآخر، فينبغي أن يجتهد في الإصلاح بينهما بأي طريق أمكن، ولو بالعرض إلى فقيه البلد حتى يطلبهما ويعظهما ويقيمهما على الوفاق، لئلا ينكسر خاطر أحدهما منه. وأعلم أن حق كبير الأخوة على صغيرهم عظيم، فينبغي محافظته.

قال رسول الله (ص): حق كبير الأخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده .

ص ٢٠٦

تذنيب حق الجوار up

حق الجوار قريب من حق الرحم، إذ الجوار يقتضي حقا وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام، فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة، فمن قصر في حقه عداوة أو بخلا فهو آثم. قال رسول الله (ص): الجيران ثلاثة: فمنهم من له ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق الإسلام، وحق القرابة. ومنهم من له حقان: حق الإسلام، وحق الجوار. ومنهم من له حق واحد: الكافر له حق الجوار . فأنظر كيف أثبت للكافر حق الجوار. وقال (ص): أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنا . وقال (ص): من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره . وقال (ص): لا إيمان لمن لم يأمن جاره بوائقه . وقيل له (ص): فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتتصدق، وتؤذي جارها بلسانها. فقال (ص): لا خير فيها، هي من أهل النار . وعن علي عليه السلام: أن رسول الله (ص) كتب بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من أهل يثرب: إن الجار كالنفس، غير مضار ولا آثم، وحرمة الجار على الجار كحرمة أمه وقال الصادق عليه السلام حسن الجوار زيادة في الأعمار وعمارة في الديار وقال عليه السلام: ليس منا من لم يحسن مجاورة من جاوره . وقال عليه السلام: قال رسول الله (ص): ما آمن بي من بات شبعانا وجاره جائع . وقال: إن يعقوب عليه السلام لما ذهب عنه بنيامين، نادى: يا رب أما ترحمني، أذهبت عيني وأذهبت ابني؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: لو أمتهما لأحييتهما لك، أجمع بينك وبينهما، ولكن تذكر الشاة التي ذبحتها وشويتها وأكلت، وفلان إلى جانبك صائم لم تنله منها شيئا . وفي رواية أخرى: فكان بعد ذلك يعقوب ينادي مناديه كل غداة ومساء من منزله على فرسخ: ألا من أراد الغداء أو العشاء فليأت إلى يعقوب! (٣٨).

(هامش)

(

٣٨) صححنا الأحاديث هنا على (أصول الكافي): باب حسن الجوار. وعلى (المستدرك): ٢ / ٧٨ و٧٩. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ٨٥ - ٨٨. (*)

ص ٢٠٧

وفي بعض الأخبار (٣٩): إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة، ويقول: سل يا رب هذا لم منعني معروفه وسد بابه دوني؟ .

تتميم حدود الجوار وحقه up

معرفة الجوار موكولة إلى العرف، فأي دار يطلق عليها الجار عرفا يلزم مراعاة حقوق أهلها. والمستفاد من بعض الأخبار: إن كل أربعين دارا من كل واحد من الجوانب الأربعة جيران، ثم لا ينحصر حق الجار في مجرد كف الأذى، إذ ذلك يستحقه كل أحد، بل لا بد من الرفق وإهداء الخير والمعروف، وتشريكه فيما يملكه ويحتاج إليه من المطاعم، كما ظهر من بعض الأخبار المتقدمة. وينبغي أن يبدأه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويصفح عن زلاته، ويستر ما اطلع عليه من عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا في صب الماء في ميزابه، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا في المرور عن طريقه، ولا يمنعه ما يحتاج إليه من الماعون، ويغض بصره عن حرمه، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ويتلطف لأولاده في كلمته، ويرشده إلى ما يصلحه من أمر دينه ودنياه، وإن استعان به في أمر أعانه، وإن استقرضه أقرضه، ولا يستطيل عليه بالبناء فيحجب عنه الريح، إلا بإذنه، وإذا اشترى شيئا من لذائذ المطاعم وطرفها فليهد له، وإن لم يفعل فليدخلها بيته سرا، ولا يخرج بها أولاده حتى يطلع عليها بعض أولاد جاره، فيشتهيه وينكسر لذلك خاطره. ومنها:

• طلب العثرات up
وتجسس العيوب والعورات وإظهارها. ولا ريب في كونه من نتائج العداوة والحسد، وربما حدث في القوة الشهوية رداءة توجب الاهتزاز والانبساط، من ظهور عيب بعض المسلمين، وإن لم يكن عداوة وحقدا، كما قيل:
(هامش)
)
٣٩) هذا كلام ذكره في (إحياء العلوم): ٢ / ١٨٩ بعد قوله: إذ يقال . (*)
ص ٢٠٨
وعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدي المساويا ومن تصفح الآيات والأخبار، يعلم إن من يتبع عيوب المسلمين ويظهرها بين الناس أسوأ الناس وأخبثهم، قال الله تعالى: ولا تجسسوا (٤٠). وقال: إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم (٤١). وقال رسول الله (ص): من أذاع فاحشة كان كمبتدئها، ومن غير مؤمنا بشيء، لم يمت حتى يرتكبه . وقال (ص): كل أمتي معافى، إلا المجاهرين والمجاهرة أن يعمل الرجل سوءا فيخبر به. وقال (ص): من استمع خبر قوم وهم له كارهون صبت في أذنيه الآنك يوم القيامة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله (ص): يا معشر من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه! لا تتبعوا عثرات المسلمين، فإنه من يتبع عثرات المسلمين يتتبع الله عثراته، ومن تتبع الله عثراته يفضحه . وقال الباقر عليه السلام: من أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يؤاخي الرجل الرجل على الدين، فيحصي عليه زلاته ليعيره بها يوما ما . وقال الصادق (ع) من أنب مؤمنا أنبه الله عز وجل في الدنيا والآخرة . وقيل للصادق (ع) شيء يقوله الناس، عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ فقال: ليس حيث تذهب، إنما عورة المؤمن أن يراه يتكلم بكلام يعاب عليه فيحفظه عليه ليعيره به يوما إذا غضب . وقال الباقر عليه السلام: قال رسول الله (ص): إن أسرع الخير ثوابا البر، وأسرع الشر عقوبة البغي. وكفى بالمرء عيبا أن يبصر من الناس ما يعمى عنه، وأن يعير الناس بما لا يستطيع تركه، وأن يؤذي جليسه بما لا يعينه (٤٢). والأخبار الواردة بأمثال هذه المضامين كثيرة.
(هامش)
)
٤٠) الحجرات، الآية: ١٢. (٤١) النور، الآية: ١٩. (٤٢) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): باب من طلب عثرات المؤمنين وعوراتهم وعلى (الوسائل): أبواب أحكام العشرة، الباب ١٥٠. وعلى (المستدرك): ٢ / ١٠٤. وعلى (البحار): ٤ مج ١٥ / ١٧٥، باب تتبع عيوب الناس وإفشائها. (*)
ص ٢٠٩
وصل ستر العيوب up
ضد كشف العيوب سترها وإخفاؤها، وهو من أعظم شعب النصيحة، ولا حد لثوابه، كما يستفاد من الأخبار الكثيرة. قال رسول الله (ص): من ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة . وقال (ص): لا يستر عبد عيب عبد إلا ستره الله يوم القيامة . وقال (ص): لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه، إلا دخل الجنة . وكفى بستر العيوب فضلا أنه من أوصاف الله سبحانه، ومن شدة اعتنائه بستر الفواحش أناط ثبوت الزنا - وهو أفحشها - بما لا يمكن اتفاقه إلا نادرا، وهو مشاهدة أربعة عدول كالميل في المكحلة. فانظر إلى أنه تعالى كيف أسبل الستر على العصاة من خلقه في الدنيا، بتضييق الطرق المؤدية إلى كشفه. ولا تظنن أنك تحرم هذا الستر يوم تبلى السرائر، فقد ورد في الحديث: إن الله تعالى إذا ستر على عبد عورته في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها في الآخرة، وإن كشفها في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها أخرى . وورد أيضا: إنه يؤتى يوم القيامة بعبد يبكي، فيقول الله سبحانه له: لم تبكي؟ فيقول: أبكي على ما سينكشف عني من عوراتي وعيوبي عند الناس والملائكة. فيقول الله: عبدي ما افتضحتك في الدنيا بكشف عيوبك وفواحشك، وأنت تعصيني وتضحك! فكيف أفضحك اليوم بكشفها وأنت تعصيني وتبكي! . وفي خبر آخر: إن رسول الله (ص) يطلب يوم القيامة من الله سبحانه ألا يحاسب أمته بحضرة من الملائكة والرسل وسائر الأمم، لئلا تظهر عيوبهم عندهم، بل يحاسبهم بحيث لا يطلع على معاصيهم غيره سبحانه، وسواه (ص) فيقول الله سبحانه: يا حبيبي، أنا أرأف بعبادي منك، فإذا كرهت كشف عيوبهم عند غيرك،

فأنا أكره كشفها عندك أيضا، فأحاسبهم وحدي بحيث لا يطلع على عثراتهم غيري . فإذا كانت عناية الله سبحانه في ستر عيوب العباد بهذه المثابة، فأنى لك أيها المسكين المبتلى بأنواع العيوب والمعاصي، تسعى في كشف عيوب عباد الله، مع إنك مثلهم في الاتصاف بأنواع العيوب والعثرات! وتأمل أنه ج: ٢
ص ٢١٠
لو أظهر أحد بعض فواحشك عند الناس كيف يكون حالك، فقس عليه حال غيرك ممن تكشف أنت بعض فواحشه. وقد ثبت ووضح من الأخبار والتجربة: إن من يفضح يفتضح، فيا حبيبي، ترحم على نفسك وتأس بربك فاسبل الستر على عيوب غيرك. ومنها:
• إفشاء السر up
وإذاعته، وهو أعم من كشف العيب، إذ السر قد يكون عيبا وقد لا يكون بعيب، ولكن في إفشائه إيذاء وإهانة بحق الأصدقاء أو غيرهم من المسلمين، وهو من رذائل قوة الغضب إن كان منشأه العداوة، ومن رذائل قوة الشهوة إن كان منشأه تصور نفع مالي، أو مجرد اهتزاز النفس بذلك لخباثتها، وهو مذموم منهي عنه قال رسول الله (ص): إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت، فهي أمانة وقال (ص): الحديث بينكم أمانة . وورد: إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك . وقال عبد الله بن سنان للصادق عليه السلام: عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ فقال: نعم! قلت: يعني سفلته؟ قال: ليس حيث تذهب، إنما هو إذاعة سره (٤٣)
فصل كتمان السر up
ضد إفشاء السر كتمانه، وهو من الأفعال المحمودة، وقد أمر به في الأخبار. قال رسول الله (ص): طوبى لعبد نومة، عرفه الله ولم يعرفه الناس، أولئك مصابيح الهدى وينابيع العلم تتجلى عنهم كل فتنة مظلمة ليسوا بالمذابيع البذر، ولا الجفاة المرائين . وقال أمير المؤمنين عليه السلام: طوبى لعبد نومة، لا يؤبه له، يعرف الناس ولا يعرفه الناس يعرفه الله منه برضوان، أولئك مصابيح الهدى، تتجلى عنهم كل فتنة، ويفتح لهم باب كل رحمة، ليسوا بالبذر المذابيع ولا الجفاة المرائين . وقال أمير المؤمنين عليه السلام: قولوا الخير تعرفوا به، واعملوا الخير
(هامش)
(٤٣) صححنا الأحاديث على البحار: ٤ / ١٧٥ مج ١٥، باب تتبع عيوب الناس. (*)
ص ٢١١
تكونوا من أهله، ولا تكونوا عجلا مذابيع. فإن خياركم الذين إذا نظر إليهم ذكر الله، وشراركم المشاؤن بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، المبتغون للبراء المعايب (٤٤).
تنبيه النميمة up
النميمة تطلق في الأكثر على أن ينم قول الغير إلى المقول فيه، كأن يقال: فلان تكلم فيك بكذا وكذا، أو فعل فيك كذا وكذا. وعلى هذا تكون نوعا خاصا من إفشاء السر وهتك الستر، وهو الذي يتضمن فسادا أو سعاية. وقد تطلق على ما لا يختص بالمقول فيه، بل على كشف ما يكره كشفه، سواء كره المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث، وسواء كان الكشف بالقول أو الكتابة أو بالرمز والايماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، وسواء كان ذلك عيبا ونقصانا على المنقول عنه أو لم يكن وعلى هذا يكون مساومة لإفشاء السر وهتك الستر. وحينئذ فكل ما يرى من أحوال الناس ولم يرضوا بإفشائه، فإذاعته نميمة. فاللازم على كل مسلم أن يسكت عما يطلع عليه من أحوال غيره، إلا إذا كان في حكايته نفع لمسلم أو دفع لمعصية. كما إذا رأى أحدا يتناول مال غيره، فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له، وأما إذا رآه يخفي مالا لنفسه، فحكايته نميمة وإفشاء للسر. ثم الباعث على النميمة يكون غالبا إرادة السوء بالمحكى عنه، فيكون داخلا تحت الإيذاء، وربما كان باعثه إظهار المحبة للمحكى له، أو التفريح بالحديث، أو الخوض في الفضول. وعلى أي تقدير، لا ريب في أن النميمة أرذل الأفعال القبيحة وأشنعها. وما ورد في ذمها من الآيات والأخبار لا يحصى كثرة، قال الله سبحانه: هماز مشاء بنميم. مناع للخير معتد أثيم. عتل بعد ذلك زنيم (٤٥).
(هامش)
(٤٤) صححنا الأحاديث كلها على (البحار): ج ٤ مج ١٥: باب فضل كتمان السر. وعلى (أصول الكافي): باب كتمان السر، وباب الرواية على المؤمن. (٤٥) القلم، الآية: ١١ - ١٢. (*)

ص ٢١٢
والزنيم: هو ولد الزنا. فيستفاد من الآية: إن كل من يمشي بالنميمة فهو ولد الزنا. وقال سبحانه: ويل لكل همزة لمزة (٤٦): أي النمام المغتاب. وقال رسول الله (ص): لا يدخل الجنة نمام . وفي خبر آخر: لا يدخل الجنة قتات : أي النمام. وقال (ص): أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلى الله المشاؤن بالنميمة المفرقون بين الأحبة، الملتمسون للبراء العثرات (٤٧) وقال (ص): ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: المشاؤن بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراء المعايب (٤٨). وقال (ص): من أشار على مسلم كلمة ليشينه بها في الدنيا بغير حق، شانه الله في النار يوم القيامة . وقال (ص): أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برئ ليشينه بها في الدنيا، كان حقا على الله أن يدينه بها يوم القيامة في النار . وقال (ص): إن الله لما خلق الجنة قال لها: تكلمي قالت: سعد من دخلني. قال الجبار جل جلاله: وعزتي وجلالي! لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس: لا يسكنك مدمن خمر، ولا مصر على الزنا، ولا قتات - وهو النمام -، ولا ديوث ولا شرطي ولا مخنث ولا قاطع رحم ولا الذي يقول علي عهد الله أن أفعل كذا وكذا ثم لم يف به . وقال الباقر عليه السلام: الجنة محرمة على المغتابين المشائين بالنميمة . وقال عليه السلام: يحشر العبد يوم القيامة وما ندا دما (٤٩)، فيدفع إليه شبه

(هامش)

(
٤٦) الهمزة، الآية: ١. (٤٧) صححنا الحديث على (المستدرك): ١١١ كتاب الحج. (٤٨) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ١٦٤، وعلى (المستدرك): ١١٠ كتاب الحج. وعلى (أصول الكافي): باب النميمة. (٤٩) قال في مجمع البحرين - مادة (نداء) -: فلان ما ندا دما ولا قتل قتلا: أي ما سفك دما . وقد كتبت كلمة (ندا) في جميع ما وجدناه من الكتب بالألف، وعسى أن تكون بالياء هكذا (ندى) كرضى. واحتمل في الوافي أن تكون (ندى) بتشديد الدال، وذكر احتمالات كثيرة، فراجعه وقد روي في (الوسائل) - كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب

ص ٢١٣
المحجمة أو فوق ذلك فيقال له: هذا سهمك من دم فلان، فيقول: يا رب، إنك لتعلم أنك قبضتني وما سفكت دما، فيقول: بلى، سمعت من فلان رواية كذا وكذا فرويتها عليه، فنقلت حتى صار إلى فلان الجبار فقتله عليها، وهذا سهمك من دمه . وقال الصادق عليه السلام: من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله تعالى من ولايته إلى ولاية الشيطان، ولا يقبله الشيطان (٥٠). وروي: أنه أصاب بني إسرائيل قحط، فاستسقى موسى مرات، فما أجيب. فأوحى الله تعالى إليه: إني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة. فقال موسى: يا رب، من هو حتى نخرجه من بيننا؟ فقال: يا موسى، أنهاكم عن النميمة وأكون نماما؟! فتابوا بأجمعهم، فسقوا . وروي: أن ثلث عذاب القبر من النميمة . ومن عرف حقيقة النميمة، يعلم أن النمام شر الناس وأخبثهم، كيف وهو لا ينفك من الكذب، والغيبة والغدر والخيانة والغل والحسد والنفاق والافساد بين الناس والخديعة. وقد قال الله سبحانه: ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض (١). والنمام يسعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسد في الأرض وقال الله إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق (٢). والنمام منهم. وقال رسول الله (ص): لا يدخل الجنة قاطع : أي قاطع بين الناس، والنمام قاطع بينهم. وقال (ص): شر الناس من اتقاه الناس نشره : والنمام منهم، والنمام أعظم شرا من كل أحد.

(هامش)

١٦٣ - مثل هذا الحديث عن (الشيخ الطوسي)، وقد جاء فيه: وما أدمى دما . أما الحديث المذكور هنا، فقد صححناه على (أصول الكافي) باب الإذاعة. (٥٠) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ١٥٧. وعلى (أصول الكافي): باب الرواية على المؤمن. (١) البقرة، الآية: ٢٧. (٢) الشورى، الآية: ٤٠. (*)

ص ٢١٤
نقل: أن رجلا باع عبدا، فقال للمشتري: ما فيه عيب إلا النميمة، قال رضيت. فاشتراه، فمكث الغلام أياما، ثم قال لزوجة مولاه:

إن زوجك لا يحبك، وهو يريد أن يتسرى عليك، وأنا أسحره لك في شعره فقالت: كيف أقدر على أخذ شعره؟ فقال: إذا نام فخذي الموسى واحلقي من قفاه عند نومه شعرات. ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلا وتريد أن تقتلك، فتناوم لها حتى تعرف. فتناوم فجاءته المرأة بالموسى، فظن أنها تقتله، فقام وقتلها، فجاء أهلها وقتلوا الزوج، فوقع القتال بين القبيلتين، وطال الأمر بينهم. ثم يلزم على ما تحمل إليه النميمة ألا يصدق النمام، لأنه فاسق والفاسق مردود الشهادة بقوله تعالى: إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا (٣). وأن ينهاه عن ذلك، وينصحه ويقبح له فعله، لقوله تعالى: وأمر بالمعروف وإنه عن المنكر (٤). وأن يبغضه في الله، لكونه مبغوضا عنده تعالى، وألا يظن بأخيه سوءا بمجرد قوله، لقوله تعالى: وألا يحمل عمله على التجسس والبحث لتحقيق ما حكى له، لقوله تعالى: ولا تجسسوا . وألا يرضى لنفسه ما نهى عنه النمام، فلا يحكي نميمته، فيقول: فلان قد حكى كذا وكذا، فيكون به نماما ومغتابا. وروى محمد بن فضيل عن الكاظم عليه السلام: إنه قال له عليه السلام جعلت فداك! الرجل من إخواني يبلغني عنه الشيء الذي أكرهه، فأسأله عنه فينكر ذلك، وقد أخبرني عنه قوم ثقات. فقال لي: يا محمد، كذب سمعك وبصرك عن أخيك، فإن شهد عندك خمسون قسامة، فقال لك قولا

(هامش)

(٣) الحجرات، الآية: ٦. (٤) لقمان، الآية: ١٧. (٥) الحجرات، الآية: ١٢. (*)

ص ٢١٥

فصدقه وكذبهم، ولا تذيعن عليه شيئا تشينه به وتهدم مروته، فتكون من الذين قال الله: إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب شديد (٦). وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: إن رجلا أتاه يسعى إليه برجل، فقال: يا هذا، نحن نسأل عمن قلت، فإن كنت صادقا مقتناك، وإن كنت كاذبا عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك. قال: أقلني يا أمير المؤمنين . ونقل: أن رجلا زار بعض الحكماء، وأخبره بخبر عن غيره فقال: قد أبطأت عني الزيارة، وبغضت إلي أخي، وشغلت قلبي الفارغ واتهمت نفسك الأمينة .

تتمة السعاية

السعاية هي النميمة، بشرط كون المحكى له من يخاف جانبه، كالسلاطين والأمراء والحكماء والرؤساء وأمثالهم، فهي أشد أنواع النميمة إثما ومعصية، وهي أيضا تكون من العداوة ومن حب المال وطمعه، فتكون من رداءة القوتين وخباثتهما. قال رسول الله (ص): الساعي بالناس إلى الناس لغير رشده : يعني ليس ولد حلال. وذكرت السعاة عند بعض الأكابر، فقال: ما ظنك بقوم يحمد الصدق من كل طبقة إلا منهم؟ ومنها:

• الافساد بين الناس up

وهو في الأكثر يحصل بالنميمة، وإن لم يوجب كل نميمة إفسادا. ولا ريب في كونه من المهلكات المؤدية إلى النار، قال الله سبحانه: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون (٧).

(هامش)

(٦) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ١٥٧. والآية من سورة النور: ١٩. (٧) البقرة، الآية: ٢٧. (*)

ص ٢١٦

وقال رسول الله (ص): إن فساد ذات البين هي الحالقة .

وصل الإصلاح up

وضده الإصلاح بين الناس، وهو أعظم أفراد النصيحة، ولا غاية لمثوبته عند الله. قال رسول الله (ص): أفضل الصدقة إصلاح ذات البين وقال (ص): إتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة . وقال (ص): ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا . وقال (ص): كل الكذب مكتوب، إلا أن يكذب الرجل في الحرب، فإن الحرب خدعة، أو يكذب بين اثنين ليصلح بينهما .. وقال الصادق عليه السلام: صدقة يحبها الله تعالى إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقارب بينهم إذا تباعدوا . وقال عليه السلام للمفضل: إذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة، فافتدها من مالي . وقال (ع) لابن عمار: أبلغ عني كذا وكذا في أشياء أمر بها. فقال له ابن عمار: فأبلغهم عنك، وأقول عني ما قلت لي وغير الذي قلت؟ قال: نعم! إن المصلح ليس بكذاب . وقال

عليه السلام: المصلح ليس بكاذب (٨): يعني إذا تكلم بما لا يطابق الواقع فيما يتوقف عليه الإصلاح لم يعد كلامه كذبا. وهذا يدل على وجوب الإصلاح بين الناس، لأن ترك الكذب واجب ولا يسقط الواجب إلا بواجب آكد منه. ومنها:

• الشماتة up

وهو إظهار أن ما حدث بغيره من البلية والمصيبة إنما هو من سوء فعله وإساءته، والغالب صدوره عن العداوة أو الحسد. وعلامته أن يكون مع فرح ومسرة، وربما صدر عن رداءة القوة الشهوية، بأن يهتز به ويميل إليه، مع جهله بمواقع القضاء والقدر، وإن لم يكن معه حقد وحسد.

(هامش)

(٨) صححنا الأحاديث عن الصادق - عليه السلام - على (أصول الكافي): باب الإصلاح بين الناس. وصححنا النبويات على (كنز العمال): ٢ / ١٤، ١٢٨. (*)

ص ٢١٧

والتجربة والأخبار شاهدان على أن كل من شمت بمسلم في مصيبة لم يخرج من الدنيا حتى يبتلى بمثلها ويشمت به غيره فيها. قال الصادق عليه السلام لا تبدي الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويحلها بك . وقال عليه السلام: من شمت بمصيبة نزلت بأخيه لم يخرج من الدنيا حتى يفتتن (٩). على أن كل بلية ومصيبة ترد على مسلم يمكن أن تكون كفارة لذنوبه أو باعثا لرفع درجاته واعتلاء مرتبته في دار الآخرة. والدليل على ذلك: أن أعظم البلايا والمصائب موكلة بالأنبياء، ثم بالأولياء، ثم بالأمثل فالأمثل في درجات الاعتلاء. ولا ريب في أن ورود المصائب والمحن عليهم ليس من سوء فعلهم وإساءتهم. فينبغي لكل عاقل أن يتأمل (أولا) أن الشماتة بمسلم بمصيبة لا ينفك في الدنيا من ابتلائه بمثلها، (وثانيا) إنها إيذاء لأخيه المسلم، فلا ينفك عن العذاب في الآخرة (وثالثا) إن نزول هذه المصيبة به لا يدل على سوء حاله عند الله، بل الأرجح دلالته على حسن حاله وتقربه عند الله سبحانه. فليحافظ على نفسه عن إبداء الشماتة لأحد من المسلمين، ويخوف من يراه من الشامتين عن عقوبة العاجل وعذاب الآجل. ومنها:

• المراء والجدال والخصومة up

إعلم أن المراء طعن في كلام الغير لإظهار خلل فيه، من غير غرض سوى تحقيره وإهانته، وإظهار تفوقه وكياسته. والجدال مراء يتعلق بإظهار المسائل الاعتقادية وتقريرها. والخصومة لجاج في الكلام لاستيفاء مال أو حق مقصود، وهذه تكون تارة ابتداءا وتارة اعتراضا، والمراء لا يكون إلا اعتراضا على كلام سبق، فالمراء داخل تحت الإيذاء، ويكون ناشئا من العداوة أو الحسد. وأما الجدال والخصومة، فربما صدرا من أحدهما أيضا، وربما لم يصدرا منه. وحينئذ، فالجدال إن كان بالحق - أي تعلق بإثبات إحدى العقائد

(هامش)

(٩) صححنا الحديثين على (أصول الكافي): باب الشماتة. (*)

ص ٢١٨

الحقة - وكان الغرض منه الإرشاد والهداية، ولم يكن الخصم لدودا عنودا، فهو الجدال بالأحسن، وليس مذموما، بل ممدوح معدود من الثبات في الإيمان الذي هو من نتائج قوة المعرفة وكبر النفس، قال الله سبحانه: ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن (١٠). وإن لم يكن بالحق، فهو مذموم اقتضته العصبية أو حب الغلبة واو الطمع المالي، فيكون من رذائل القوة الغضبية أو الشهوية، وربما أورث شكوكا وشبهات تضعف العقيدة الحقة، ولذا نهى الله سبحانه عنه وذم عليه، فقال: ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير (١١). وقال: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره (١٢). والخصومة أيضا إن كانت بحق، أي كانت مما يتوقف عليه استيفاء مال أو حق ثابت، فهي ممدوحة معدودة من فضائل القوة الشهوية، وإن كانت بباطل، أي تعلقت بما يدعيه كذبا أو بلا علم ويقين، فهي مذمومة معدودة من رذائلها. فالخصومة المذمومة تتناول المخاصمة فيما يعلم قطعا عدم استحقاقه، وفيما لا علم له بالاستحقاق، كخصومة وكيل القاضي، فإنه قبل أن يعرف أن الحق في أي جانب، يتوكل في الخصومة من أي جانب كان، ويخاصم من غير علم وإيقان، فمثله خباط العثرات وركاب الشبهات، يضر بالمسلمين بلا غرض، ويتحمل أوزار الغير بلا عوض، فهو أخسر الناس أعمالا وأعظمهم في الآخرة أوزارا ونكالا. وتتناول أيضا مخاصمة من يطلب حقه

ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة، بل يظهر اللدد والعناد في الخصومة قصدا للتسلط والإيذاء، ومن يمزج بخصومته كلمة مؤذية لا يحتاج إليها في إظهار الحق وبيان الحجة، ومن يحمله على الخصومة محض العناد بقهر الخصم وكسره مع استحقاره لذلك القدر من المال، وربما صرح بأن قصدي العناد والغلبة عليه وكسر عرضه، وإذا أخذت منه هذا المال رميته، ولا
(هامش)
(١٠) العنكبوت، الآية: ٤٦. (١١) الحج، الآية: ٨. (١٢) الأنعام، الآية: ٦٨. (*)
ص ٢١٩
أبالي، فمثله غرضه اللدد واللجاج. فتنحصر الخصومة الجائزة بمخاصمة المظلوم الذي يطلب حقه وينصر حجته بطريق الشرع من غير قصد عناد وإيذاء، مع الاقتصار على قدر الحاجة في الخصومة من دون أن يتكلم بالزائد ولا بكلمات مؤذية، ففعله ليس بحرام وإن كان الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا، إذ ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر أو متعسر، لأنها توغر الصدر، وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب ذهب المتنازع فيه من البين، واشتد الحقد بين المتخاصمين حتى يحزن كل واحد بمسرة صاحبه ويفرح بمساءته. فالخصومة مبدأ كل شر، فينبغي ألا يفتح بابها إلا عند الضرورة على قدر الضرورة، ولا يتعدى عن الواجب، إذ أقل درجاتها تشوش الخاطر، حتى إنه في الصلاة ليشتغل بمخاصمة الخصم، ويتضمن الطعن والاعتراض، أي التجهل والتكذيب، إذ من يخاصم غيره إما يجهله أو يكذبه، فيكون آتيا بسوء الكلام، ويفوت به ضده، أعني طيب الكلام، مع ما ورد فيه من الثواب. وكذا الحال في المراء والجدال. وبالجملة: المراء والجدال والخصومة، سوى ما استثنى، من ذمائم الأفعال ومبادئ أكثر الشرور والفتن، ولذا ورد بها الذم الشديد في الأخبار قال رسول الله (ص): من جادل في خصومة بغير علم، لم يزل في سخط حتى ينزع . وقال (ص): إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم . وقال (ص): ما أتاني جبرئيل قط إلا وعظني، فآخر قوله لي: إياك ومشادة الناس، فإنها تكشف العورة وتذهب بالعز . وقال أمير المؤمنين (ع): إياكم والمراء والخصومة، فإنهما يمرضان القلوب على الأخوان، وينبت عليهما النفاق . وقال علي بن الحسين عليهما السلام: ويل أمة فاسقا من لا يزال مماريا! ويل أمة فاجرا من لا يزال مخاصما! ويل أمة آثما من كثر كلامه في غير ذات الله! . وقال الصادق (ع): لا تمارين حليما ولا سفيها، فإن الحليم يغلبك والسفيه يؤذيك . وقال: إياك والمشادة، فإنها تورث المعرة وتظهر العورة .
وقال (ع): إياكم والخصومة، فإنها تشغل القلب، وتورث النفاق، وتكسب
ص ٢٢٠
الضغائن (١٣). فمن تأمل في ما يدل على ذمها وسوء عاقبتها عقلا ونقلا - فمع عدم ترتب فائدة عليها، وتذكر ما ورد في مدح تركها وفوائد ضدها، أعني طيب الكلام - يسهل عليه أن يتركها ولا يحوم حولها.
تذنيب علاج المراء up
طريق المعالجة في إزالة المراء والجدال والخصومة: أن يعلم أنها توجب التباغض والمباينة، وتزيل الألفة والمحبة، وتقطع الالتيام والوحدة. ولا ريب في أن قوام النظام الأصلح بالالتيام والوحدة، كما اقتضته العناية الإلهية والحكمة الأزلية، والمباينة الراجعة إلى الكثرة ينافيهما، ولا ينبغي للعاقل أن يرتكب ما يضاد فعل الله وحكمته. وهذا هو العلاج العلمي. وأما العملي، فليواظب على ضد هذه الثلاثة، أعني طيب الكلام، ويكلف نفسه عليه، حتى يصير ملكة له وترتفع أضدادها عنه بالمرة.
وصل طيب الكلام up
قد أشير إلى أن ضد الرذائل الثلاث طيب الكلام، وما ورد في مدحه وفي ثواب تركها أكثر من أن يحصى. قال رسول الله (ص): ثلاث من لقي الله تعالى بهن دخل الجنة من أي باب شاء: من حسن خلقه، وخشي الله في المغيب والمحضر، وترك المراء وإن كان محقا . وقال (ص): يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام . وقال (ص): إن في الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام . وقال (ص): الكلمة الطيبة صدقة . وروي: أن عيسى - عليه السلام - مر به خنزير. فقال: مر بسلامة. فقيل له: يا روح الله، تقول هذا للخنزير! فقال: أكره أن أعود لساني الشر . وقال بعض الحكماء: الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة

(هامش)
(١٣) صححنا الأحاديث على (الكافي): باب المراء والخصومة. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ١٣٥ و١٣٦. وعلى (إحياء العلوم): ٢ / ١٠٢. (*)
ص ٢٢١
في الجوارح . ومنها:
• السخرية والاستهزاء up
وهو محاكاة أقوال الناس أو أفعالهم أو صفاتهم وخلقهم، قولا وفعلا، أو إيماءا وإشارة، على وجه يضحك منه. وهو لا ينفك عن الإيذاء والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص. وإن لم يكن ذلك بحضرة المستهزأ به. فيتضمن الغيبة أيضا. وباعثه إما العداوة أو التكبر واستصغار المستهزأ به، فيكون من رذائل القوة الغضبية، أو قصد ضحك الأغنياء وتنشيط قلوبهم، طمعا في بعض أوساخهم الملوثة، وأخذ النبذ من حطامهم المحرمة، ولا ريب في أنه صفة من لا حظ له في الدين، وشيمة أراذل أحزاب الشياطين، لأنهم يظهرون أكاذيب الأقوال ويرتكبون أعاجيب الأفعال، يخلعون قلائد الحرية عن الرقاب، ويهتكون أستار الحياء بمرأى من أولي الألباب، يبتغون عيوب المؤمنين وعوراتهم، ويظهرون نقائص المسلمين وعثراتهم، يقلدون أفعال الأخيار على وجه يضحك الأشرار، ويحاكون صفات الأبرار على أفضح الوجوه في الأنظار. ولا ريب في أن المرتكب لهذه الأفعال بعيد عن الإنسانية بمراحل، ومستوجب لعقوبة العاجل وعذاب الآجل، ولا يخلو ساعة عن الصغار والهوان، ولا وقع له في قلوب أهل الإيمان، وكفاه ذما أنه جعل تلك المعاصي الخبيثة وسيلة لتحصيل المال أو الواقع في قلوب أبناء الدنيا، ويلزمه عدم اعتقاده بأن الله سبحانه هو المتكفل لأرزاق العباد. والطريق في دفعه - بعد التأمل في سوء عاقبته، ووخامة خاتمته، وفيما يلزمه من الذلة والهوان في الدنيا - أن يبادر إلى إزالة العداوة والتكبر إن كان باعثه ذلك، وإن كان باعثه تنشيط قلوب أهل الدنيا طمعا في مالهم، فليعلم أن لكل نفس ما قدر لها من الأموال والأرزاق، يصل إليها من الله سبحانه ألبتة، فإن من يتق الله ويتوكل عليه يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ويكون في الآخرة سعيدا، وإن أغواه الشيطان وحثه على تحصيلها من المداخل الخبيثة، لم يصل إليه أكثر مما قدر له، وكان في الآخرة شقيا.
ص ٢٢٢
وليعلم أيضا أن المتوكل على الله والمتصف بالحرية، لا يبدل التوكل والحرية بهذه الأفعال لأجل الوصول إلى بعض خبائث الأموال، فليعاتب نفسه ويزجرها بالمواعظ والنصائح، ويتذكر ما ورد في الشريعة من ذم المستهزئين وتعذيبهم يوم القيامة بصورة الاستهزاء، قال الله جل شأنه: لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم (١٤). وقال (ص): إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة، فيقال: هلم هلم! فيجئ بكربه وغمه، فإذا أتى أغلق دونه، ثم يفتح له باب آخر، فيقال: هلم هلم! فيجئ بكربه وغمه، فإذا أتى أغلق دونه. فما يزال كذلك، حتى يفتح له الباب، فيقال له: هلم هلم! فما يأتيه . وقال ابن عباس في قوله تعالى: يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها (١٥). الصغيرة: التبسم بالاستهزاء بالمؤمن، والكبيرة: القهقهة بذلك . وفيه إشارة إلى أن الضحك على الناس من الجرائم العظيمة. ثم جميع ما ذكر إنما هو في حق من يؤذي الناس ويهينهم باستهزائه وسخريته، وأما من جعل نفسه مسخرة ويسر بأن يهزل ويسخر به، وإن كان هو ظالما لنفسه خارجا عن شعار المؤمنين، حيث أهان نفسه وأذلها، إلا أن سخرية الغير به من جملة المزاح، ويأتي ما يذم منه وما يحمد، وإنما المحرم منه ما يؤدي إلى إيذائه وتحقيره: بأن يضحك على كلامه إذا يخبط ولم ينتظم، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيرا أو طويلا أو ناقصا بعيب من العيوب. فالضحك على جملة ذلك داخل في السخرية المنهي عنها. وطريق علاجه - بعد تذكر ما تقدم - أن استهزاءه يوجب خزي نفسه يوم القيامة عند الله وعند الملائكة والنبيين وعند الناس أجمعين، فلو تفكر في حسرته وحيائه ونجله وخزيه يوم يحمل سيئات من استهزأ به ويساق إلى النار، لأدهشه ذلك عن إخزاء غيره، ولو عرف حقيقة حاله يوم القيامة،
(هامش)
(١٤) الحجرات، الآية: ١١. (١٥) الكهف، الآية: ٥٠. (*)
ص ٢٢٣

لكان الأولى له أن يضحك على نفسه تارة ويبكي عليها أخرى، لأنه باستهزائه به عند بعض أراذل الناس عرض نفسه لأن يأخذ بيده ذلك الغير يوم القيامة على ملأ من الناس ويسوقه تحت السياط، كما يساق الحمار، إلى النار، مستهزئا به مسرورا بخزيه وتمكين الله تعالى إياه على الانتقام منه. فمن تأمل في ذلك، ولم يكن عدوا لنفسه، اجتنب عن السحرية والاستهزاء كل الاجتناب. ومنها:

• المزاح up

وأصله مذموم منهي عنه، وسببه إما خفة في النفس، فيكون من رذائل القوة الغضبية، أو ميل النفس وشهوتها إليه، أو تطييب خاطر بعض أهل الدنيا طمعا في مالهم، فيكون من رذائل القوة الشهوية. وسبب الذم فيه: أنه يسقط المهابة والوقار، وربما أدى إلى التباغض والوحشة والضغينة، وربما انجر إلى الهزل والاستهزاء، وأدخل صاحبه في جملة المستهزأ بهم، وربما صار باعثا لظهور العداوة - كما قيل - وربما جر إلى اللعب، قال رسول الله (ص): لا تمار أخاك، ولا تمازحه ، وقال بعض الأكابر لابنه: يا بني، لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدني فيجترئ عليك ، وقال آخر: إياكم والممازحة، فإنها تورث الضغينة وتجر إلى القطيعة . وقال آخر: المزاح مسلبة للبهاء، ومقطعة للأصدقاء . وقيل: لكل شيء بذر، وبذر العداوة المزاح . ومن مفاسد المزاح: أنه سبب للضحك، وهو منهي عنه. قال الله تعالى: فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا (١٦). وقال رسول الله (ص): إن الرجل ليتكلم بالكلمة فيضحك بها جلساءه، يهوي بها أبعد من الثريا ، وقال: لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا ، وهو يدل على أن الضحك علامة الغفلة عن الآخرة وقال بعض: من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن

(هامش)

(١٦) التوبة، الآية: ٨٣. (*)

ص ٢٢٤

أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه . وخاطب عارف نفسه وقال: أتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار؟! وقال رجل لأخيه: يا أخي، هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم! قال: وهل أتاك أنك خارج منها؟ فقال: لا، قال: ففيم الضحك؟ فما رئي بعد ذلك ضاحكا حتى مات . ونظر بعضهم إلى قوم يضحكون في يوم الفطر، فقال: إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين، وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين . ثم المذموم من الضحك هو القهقهة، والتبسم الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع الصوت ليس مذموما، بل محمود لفعل النبي (ص) (١٧).

تذنيب المذموم من المزاح up

الحق أن المذموم من المزاح هو الإفراط فيه والمداومة عليه، أو ما يؤدي إلى الكذب والغيبة وأمثالهما، ويخرج صاحبه عن الحق. وأما القليل الذي يوجب انبساط خاطر وطيبة قلب، ولا يتضمن إيذاءا ولا كذبا ولا باطلا، فليس مذموما، لقول رسول الله (ص): إني لأمزح ولا أقول إلا حقا . ولما روي: أنهم قالوا له (ص): يا رسول الله، إنك تداعبنا! فقال: إني وإن داعبتكم، فلا أقول إلا حقا . ولما روت العامة: أنه (ص) كان كثير التبسم، وكان أفكه الناس . وورد: أن رسول الله (ص) كسا ذات يوم واحدة من نسائه ثوبا واسعا، وقال لها: البسيه واحمدي، وجري منه ذيلا كذيل العروس . وقال (ص): لا تدخل الجنة عجوز. فبكت العجوز. فقال: إنك لست يومئذ بعجوز وجاءت امرأة إليه، وقالت: إن زوجي يدعوك. فقال (ص): زوجك هو الذي بعينه بياض؟ قالت: والله ما بعينه بياض! فقال: بلى، إن

(هامش)

(١٧) راجع أخبار - المزاح والضحك والتبسم: كتاب (الوسائل): الباب ٨٠ - ٨٤ من أبواب أحكام العشرة، والظاهر أن المؤلف لم يرجع إلى أخبارنا التي فيها غنى عن النقل عن أناس مجهولين. (*)

ص ٢٢٥

بعينه بياضا. فقالت: لا والله! فقال: ما من أحد إلا بعينه بياض . وأراد به البياض المحيط بالحدقة. وجاءته امرأة أخرى، وقالت: احملني يا رسول الله على بعير. فقال: بل نحملك على ابن البعير. فقالت: ما أصنع به، إنه لا يحملني، فقال (ص): هل من بعير إلا وهو ابن بعير؟ . وكان (ص) يدلع لسانه للحسين (ع)، فيرى لسانه فيهش له. وقال لصهيب - وبه رمد وهو يأكل التمر -: أتأكل التمر

وأنت أرمد؟ فقال: إنما آكل بالشق الآخر. فتبسم رسول الله حتى بدت نواجذه . وروي: أن خوات ابن جبير كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة، وكان ذلك قبل إسلامه، فطلع عليه رسول الله (ص) فقال له: مالك مع النسوة؟ قال: يفتلن ضفيرا لجمل لي شرود. فمضى رسول الله لحاجته ثم عاد، فقال: يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟ قال: فسكت واستحييت، وكنت بعد ذلك استخفى منه حياء، حتى أسلمت وقدمت المدينة، فاطلع علي يوما وأنا أصلي في المسجد، فجلس إلي، فطولت الصلاة، فقال: لا تطول فإني أنتظرك، فلما فرغت قال: يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟ قلت: والذي بعثك بالحق نبيا! ما شرد منذ أسلمت! فقال: الله أكبر الله أكبر، اللهم أهد أبا عبد الله. فحسن إسلامه . وكان نعيمان الأنصاري، رجلا مزاحا، فإذا دخل المدينة شيء نفيس من اللباس أو المطاعم اشترى منه، وجاء به إلى رسول الله (ص) ويقول: هذا أهديته لك. فإذا جاء صاحبه يطالبه بثمنه، جاء به إلى رسول الله (ص)، وقال: يا رسول الله، اعطه ثمن متاعه، فيقول له النبي (ص): أو لم تهده لنا؟ فيقول: لم يكن عندي والله ثمنه، وأحببت أن تأكل منه، فيتبسم رسول الله ويأمر لصاحبه بثمنه.

وأمثال هذه المطايبات مروية عن رسول الله (ص) وعن الأئمة عليهم السلام وأكثرها منقولة مع النسوان والصبيان، وكان ذلك معالجة لضعف قلوبهم، من غير ميل إلى هزل ولا كذب ولا باطل، وكان صدور ذلك عنهم أحيانا وعلى الندرة، ومثلهم كانوا يقدرون على المزاح مع عدم خروجهم عن الحق والاعتدال، وأما غيرهم فإذا فتح باب المزاح فربما وقع في الإفراط والباطل. ج: ٢
ص ٢٢٦
فالأولى لأمثالنا تركه مطلقا. ومنها:
• الغيبة up
وهي أن يذكر الغير بما يكرهه لو بلغه، سواء كان ذلك بنقص في بدنه أو في أخلاقه أو في أقواله، أو في أفعاله المتعلقة بدينه أو دنياه، بل وإن كان بنقص في ثوبه أو داره أو دابته. والدليل على هذا التعميم - بعد إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه إذا سمعه فهو مغتاب - ما روي عن رسول الله (ص) أنه قال: هل تدري ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره ، قيل له: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته . وما روي: إنه ذكر رجل عنده، فقالوا: ما أعجزه! فقال (ص): إغتبتم أخاكم، قالوا: يا رسول الله، قلنا ما فيه. قال: إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه . وما روي عن عائشة: دخلت علينا امرأة، فلما ولت، أومأت بيدي أنها قصيرة، فقال (ص): اغتبتها . وما روي أنها قالت: إني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي (ص): إن هذه لطويلة الذيل. فقال لي: الفظي الفظي! فلفظت مضغة لحم . وقد روي أن أحد الشيخين قال للآخر إن فلانا لنؤم، ثم طلبا أدما من رسول الله ليأكلا به الخبز. فقال (ص): قد ائتدمتما. فقالا: ما نعلمه، فقال: بلى! إنكما أكلتما من لحم صاحبكما . وأما ما روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: صفة الغيبة أن تذكر أحدا بما ليس هو عند الله بعيب ويذم ما يحمده أهل العلم فيه. وأما الخوض في ذكر الغائب بما هو عند الله مذموم وصاحبه فيه ملوم، فليس بغيبة، وإن كره صاحبه إذا سمع به وكنت أنت معافى عنه وخاليا منه، وتكون في ذلك مبينا للحق من الباطل ببيان الله ورسوله، ولكن على شرط ألا يكون للقائل بذلك مراد غير بيان الحق والباطل في دين الله عز وجل، وأما إذا أراد به نقص المذكور بغير ذلك المعنى، فهو مأخوذ بفساد مراده
ص ٢٢٧
وإن كان صوابا (١٨) فهو مخصوص بما إذا لم يكن صاحبه عالما بقبحه، أو كان ساترا على نفسه كارها لظهوره. ويدل على ذلك ما روي عنه عليه السلام أيضا، أنه سئل عن الغيبة، فقال: هو أن تقول لأخيك في دينه ما لم يفعل، وتبث عليه أمرا قد ستره الله عليه لم يقم عليه فيه حد . وقال عليه السلام: الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه، وأما الأمر الظاهر فيه، مثل الحدة والعجلة، فلا . وقال الكاظم عليه السلام: من ذكر رجلا من خلفه بما هو فيه مما عرفه الناس، لم يغتبه، ومن ذكره من خلفه بما هو فيه مما لا يعرفه الناس، اغتابه، ومن ذكره بما ليس فيه فقد بهته (١٩). ويأتي أن المجاهر بمعصيته غير سائر لها، لا غيبة له فيها. والحاصل: إن الإجماع والأخبار متطابقان على أن حقيقة الغيبة هو أن يذكر الغير بما يكرهه إذا سمعه، سواء كان ذلك بنقص في نفسه أو بدنه، أو في دينه أو دنياه، أو فيما يتعلق به من الأشياء، وربما قيل أنه لا غيبة فيما يتعلق بالدين، لأنه ذم من ذمه الله ورسوله، فذكره بالمعاصي

وذمه جائز. وأيد ذلك بما روي: أنه ذكر عند رسول الله امرأة وكثرة صومها وصلاتها ولكنها تؤذي جيرانها. فقال: هي في النار. وذكرت امرأة أخرى بأنها بخيلة، فقال: فما خيرها إذن؟ . ولا ريب في بطلان هذا القول، لما عرفت من عموم الأدلة. وما ورد من ذم الأشخاص المعينة في كلام الله وكلام حججه إنما هو لتعريف الأحكام وتبيينها، وسؤال الأصحاب عنهم وذكرهم بالمعاصي، إنما كان لحاجتهم إلى معرفة الأحكام لا للذم وإظهار العيب، ولذا لم يكن ذلك إلا في مجلس الرسول (ص) أو الأئمة (ع).

(هامش)

(

١٨) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ٤٩. وقد تقدم الشك في صحة (مصباح الشريعة) في الجزء الأول. (١٩) صححنا الأحاديث الثلاثة على (الوسائل): كتاب الحج، أبواب الحكام العشرة، الباب ١٥٤، وعلى (أصول الكافي): باب الغيبة والبهت. وعلى (البحار) ٤ مج ١٥ / ١٨٤ باب الغيبة، وقال في الموضوع المذكور عن الحديث الأول: الغيبة هو أن تقول : الضمير للغيبة، وتذكيره بتأويل الاغتياب أو باعتبار الخبر. (*)

ص ٢٢٨

فصل لا تنحصر الغيبة باللسان up

إعلم أن الغيبة لا تنحصر باللسان، بل كل ما يفهم نقصان الغير، ويعرف ما يكرهه فهو غيبة، سواء كان بالقول أو الفعل، أو التصريح أو التعريض، أو بالإشارة والايماء أو بالغمز والرمز، أو بالكتابة والحركة ولا ريب في أن الذكر باللسان غيبة محرمة، لتفهيمه الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه، لا لكون المفهم والمعرف لسانا، فكل ما كان مفهما ومعرفا فهو مثله. فالغيبة تتحقق بإظهار النقص بالفعل والمحاكاة، كمشية الأعرج، بل هو أشد من الغيبة باللسان، لأنه أعظم في التصوير والتفهيم منه، وبالإيماء والإشارة، وقد روي: أنه دخلت امرأة على عائشة، فلما ولت، أومأت بيدها أنها قصيرة. فقال رسول الله (ص): قد اغتبتها . وبالكتابة إذ القلم أحد اللسانين، وبالتعويض، كأن يقول: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على الظلمة، والتبذل في طلب الجاه والمال، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء، ونسأله أن يعصمنا منه، معرضا في كل ذلك بمن ارتكب ذلك، فيذكره بصيغة الدعاء. وربما قدم مدح من يريد غيبته، ثم اتبعه بإظهار عيبه، كأن يقول: لقد كان فلان حسن الحال ولكنه ابتلى بما ابتلى به كلنا من سوء الحال، وهو جمع بين الرياء والغيبة، ومدح نفسه بالتشبه بالصلحاء في ذم أنفسهم. ومن المغتابين المنافقين من يظهر في مقام غيبة مسلم الاغتمام والحزن من سوء حاله، كأن يقول: لقد ساءني ما جرى على صديقنا فلان من الإهانة والاستخفاف، أو ارتكابه معصية كذا، فنسأل الله أن يجعله مكرما أو يصلح حاله، أو يقول: قد ابتلي ذلك المسكين بآفة عظيمة، تاب الله علينا وعليه. وهو كاذب في ادعائه الحزن والكآبة، وفي إظهار الدعاء، إذ لو اغتم لاغتم بإظهار ما يكرهه أيضا، ولو قصد الدعاء لأخفاه في خلواته فإظهار الحزن والدعاء ناش عن خبث سريرته، وهو يظن أنه ناش عن صفاء طويته.

هكذا يلعب الشيطان بمن ليس له قوة البصيرة بمكائد اللعين وتلبيساته، فيسخر بهم ويضحك عليهم، ويحبط أعمالهم بمكائده، وهم

ص ٢٢٩

يحسبون أنهم يحسنون صنعا. وربما ذكر بعض المغتابين عيب مسلم ولم يتنبه له بعض الحاضرين، فيقول إسماعا له وإعلاما لما يقوله: سبحان الله! ما أعجب هذا! حتى يتوجه إليه ويعلم ما يريد، فيستعمل اسم الله آلة لتحقيق خبثه. ثم المستمع للغيبة أحد المغتابين، كما ورد به الخبر (٢٠). وقد دل على ذلك أيضا ما تقدم من حديث الشيخين، وما روي: أنه (ص) لما رجم ماعزا في الزنا، قال رجل لآخر: هذا أقعص كما يقعص الكلب. فمر النبي (ص) معهما بجيفة، فقال: إنهشا من هذه الجيفة. فقالا: يا رسول الله، ننهش جيفة! فقال: ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه . فجمع بينهما، مع إن أحدهما كان قائلا والآخر مستمعا. وهو إما لا يسر باستماعها، إلا أنه لا ينكرها باللسان ولا يكرهها بالقلب، أو يسر ويفرح باستماعها، إلا أن النفاق والتزهد حملاه على عدم التصديق، وربما منع منها رياء وتزهدا، مع كونه مشتهيا لها بقلبه وربما توصل بالحيل المرغبة للمغتاب في زيادة الغيبة، مع التباس الأمر عليه بأنه يشتهيها، مثل أن يظهر التعجب ويقول: عجبت منه ما علمت أنه كذلك، وما عرفته إلى الآن إلا بالخير، وكنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه. فإن ذلك تصديق للمغتاب، وباعث لزيادة نشاطه في الغيبة، فكأنه يستخرج منه الغيبة بهذا الطريق. والحاصل: إن المستمع لا

يخرج عن إثم الغيبة إلا بأن ينكر بلسانه أو يقطع الكلام بكلام آخر. أو يقوم من المجلس، وإن لم يقدر على شيء من ذلك، فلينكر بقلبه، وإن قال بلسانه: اسكت، وهو يشتهيه بقلبه فذلك نفاق، ولا يخرجه من الإثم ما لم يكرهه بقلبه. ومع عدم الخوف لا يكفي أن يشير باليد أو حاجبه أو جبينه، أي اسكت، إذ ذلك استحقار للمذكور، مع إنه ينبغي أن يعظمه فيذب عنه صريحا. قال النبي (ص):
(هامش)
)
٢٠) إشارة إلى ما رواه الشيخ أبو الفتوح الرازي في تفسيره، عن رسول الله (ص) أنه قال: المستمع أحد المغتابين . وإلى قول أمير المؤمنين (ع): السامع للغيبة أحد المغتابين . (بحار الأنوار): ٤ مج ١٥ / ١٧٩. (*)
ص ٢٣٠
من أذل عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينتصر له فلم ينصره، أذله الله يوم القيامة على رؤس الخلائق . وقال: من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة . وقال (ص): من ذب عن عرض أخيه بالغيب، كان حقا على الله أن يعتقه من النار . وقال (ص): من رد عن عرض أخيه، كان له حجابا من النار . وقال (ص) ما من رجل ذكر عنده أخوه المسلم، وهو يستطيع نصره ولو بكلمة ولم ينصره إلا أذله الله - عز وجل - في الدنيا والآخرة. ومن ذكر عنده أخوه المسلم فنصره، نصره الله في الدنيا والآخرة وقال (ص): من حمى عرض أخيه المسلم في الدنيا بعث الله له ملكا يحميه يوم القيامة من النار وقال (ص) من تطول على أخيه في غيبته، سمعها عنه في مجلس فردها، رد الله عنه ألف ألف باب من الشر في الدنيا والآخرة، وإن لم يردها وهو قادر على ردها، كان عليه كوزر من اغتابه سبعين مرة ، وقال الباقر عليه السلام من اغتيب عنده أخوه المؤمن فنصره وأعانه، نصره الله في الدنيا والآخرة ومن لم ينصره ولم يدفع عنه وهو يقدر على نصرته وعونه، إلا خفضه الله في الدنيا والآخرة . وبهذه المضامين أخبار كثيرة أخر.
فصل بواعث الغيبة up
إعلم أن باعث الغيبة - غالبا - إما الغضب أو الحقد أو الحسد، فيكون من نتائجها، ومن رذائل قوة الغضب، وله بواعث أخر: الأول - السخرية والاستهزاء: فإن ذلك كما يجري في الحضور يجري في الغيبة أيضا، وقد عرفت أن منشأهما ماذا. الثاني - اللعب والهزل والمطايبة: فيذكر غيره بما يضحك الناس عليه على سبيل التعجب والمحاكاة. ويأتي أن باعث الهزل والمزاح ماذا، وإنه متعلق بالقوة الشهوية. الثالث - إرادة الافتخار والمباهاة: بأن يرفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول: فلان لا يعلم شيئا. وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه وإنه أفضل منه. وظاهر أن منشأ ذلك التكبر أو الحسد، فيكون أيضا من رذائل القوة الغضبية.
ص ٢٣١
الرابع - أن ينسب إلى شيء من القبائح، فيريد أن يتبرأ منه بذكر الذي فعله، وكان اللازم عليه أن يبرئ نفسه منه، ولا يتعرض للغير الذي فعله، وقد يذكر غيره بأنه كان شاركا له في الفعل، ليتمهد بذلك عذر نفسه في فعله، وربما كان منشأ ذلك صغر النفس وخبثها. الخامس - مرافقة الأقران ومساعدتهم على الكلام، حذرا عن تنفرهم واستثقالهم إياه لولاه، فيساعدهم على إظهار عيوب المسلمين وذكر مساويهم ظنا منه أنه مجاملة في الصحبة، فيهلك معهم. وباعث ذلك أيضا صغر النفس وضعفها. السادس - أن يستشعر من رجل أنه سيذكر مساوية، أو يقبح حاله عند محتشم، أو يستشهد عليه بشهادة، فيبادره قبل ذلك بإظهار عداوته، أو تقبيح حاله، ليسقط أثر كلامه وشهادته. وربما ذكره بما هو فيه قطعا، بحيث ثبت ذلك عند السامعين ليكذب عليه بعده، فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد به ويقول: ليس الكذب من عادتي، فإني أخبرتكم قبل ذلك من أحواله كذا وكذا، فكان كما قلت، فهذا أيضا صدق كسابقه. وهذا أيضا منشأه الجبن وضعف النفس. السابع - الرحمة، وهو أن يحزن ويغتم بسبب ما ابتلي به غيره فيقول المسكين فلان قد غمني ما ارتكبه من القبح، أو ما حدث به من الاهانة والاستخفاف! فيكون صادقا في اغتمامه، إلا أنه لما ذكر اسمه وأظهر عيبه صار مغتابا، وقد كان له الاغتمام بدون ذكر اسمه وعيبه ممكنا، فأوقعه الشيطان فيه ليبطل ثواب حزنه ورحمته.
الثامن - التعجب من صدور المنكر والغضب لله عليه، بأن يرى منكر من إنسان أو سمعه، فيقول عند جماعة: ما أعجب من فلان أن

يتعارف مثل هذا المنكر! أو يغضب منه، فيظهر غضبه واسمه ومنكره، فإنه وإن كان صادقا في تعجبه من المنكر وغضبه عليه، لكن كان اللازم أن يتعجب منه ويغضب عليه، ولكنه لا يظهر اسمه عند من لم يطلع على ما صدر عنه من المنكر بل يظهر غضبه عليه بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف من غير أن يظهره لغيره، فلما أوقعه الشيطان في ذكره بالسوء صار مغتابا، وبطل ثواب تعجبه وغضبه، وصار آثما من حيث لا يدري.

ص ٢٣٢

وهذه الثلاثة الأخيرة مما يغمض دركها، لأن أكثر الناس يظنون أن الرحمة والتعجب والغضب إذا كان لله كان عذرا في ذكر الاسم، وهو خطأ محض، إذ المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها من ذكر الاسم دون غيرها، وقد روي: أن رجلا مر على قوم في عصر النبي (ص) فلما جاوزهم، قال رجل منهم: إني أبغض هذا الرجل لله فقال القوم: ولله لبئس ما قلت! وإنا نخبره بذلك، فأخبروه به، فأتى الرجل رسول الله (ص) وحكى له ما قال، وسأله أن يدعوه فدعاه، وسأله عما قال في حقه، فقال: نعم قد قلت ذلك. فقال رسول الله: ولم تبغضه؟ فقال: أنا جاره وأنا به خبير والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه المكتوبة! فقال: يا رسول الله، فاسأله هل رآني أخرتها عن وقتها لو أسأت الوضوء لها والركوع والسجود؟ فسأله فقال: والله ما رأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذي يصومه كل بر وفاجر قال: فاسأله يا رسول الله هل رآني أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيئا؟ فسأله، فقال: لا! فقال: والله ما رأيته يعطي سائلا قط ولا مسكينا، ولا رأيته ينفق من ماله شيئا في سبيل الخير إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر! قال: فاسأله هل رآني نقصت منها شيئا أو ماكست فيها طالبها الذي يسألها فسأله فقال: لا: فقال رسول الله (ص) للرجل: قم، فلعله خير منك ولا ريب في أن إنكار القوم عليه بعد قوله أبغضه لله يفيد عدم جواز إظهار المنكر الصادر من شخص لغيره، وإن كان في مقام الغضب والبغض لله.

فصل ذم الغيبة up

لما علمت حقيقة الغيبة وبواعثها، فاعلم أنها أعظم المهلكات وأشد المعاصي وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه، وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة، فقال: ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه (٢١). وقال: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول

(هامش)

(٢١) الحجرات، الآية: ١٢. (*)

ص ٢٣٣

إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما (٢٢). وقال: ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (٢٣). وقال رسول الله (ص) المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه . والغيبة تتناول العرض. وقال (ص) إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشد من الزنا فإن الرجل قد يزني ويتوب فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه وقال (ص) مررت ليلة أسري بي على قوم يخمشون وجوههم بأظافيرهم، فقلت: يا جبرئيل، من هؤلاء؟ قال: الذين يغتابون الناس، ويقعون في أعراضهم وخطب (ص) يوما حتى اسمع العوائق في بيوتها، فقال: يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه! لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه يتتبع الله عورته حتى يفضحه في جوف بيته . وخطب (ص) يوما فذكر الربا وعظم شأنه، فقال: إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم . ومر (ص) على قبرين يعذب صاحباهما، فقال: إنهما ليعذبان في كبيرة، أما أحدهما فكان يغتاب الناس، وأما الآخر فكان لا يستبري من بوله . ودعا بجريدة رطبه أو جريدتين فكسرهما، ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبره، وقال: أما إنه يهون من عذابهما ما كانتا رطبتين . وروي: أنه (ص) أمر الناس بصوم يوم، وقال: لا يفطرن أحد حتى آذن له. فصام الناس، حتى إذا أمسوا، جعل الرجل يجيئ، فيقول: يا رسول الله، ظللت صائما فأذن لي لأفطر، فيأذن له، والرجل، حتى جاء رجل، فقال: يا رسول الله لتفطرا. فأعرض عنه. ثم عاوده فأعرض عنه. ثم عاوده، فقال: إنهما لم تصوما، وكيف صام من ظل هذا اليوم يأكل لحوم الناس، إذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا.

فرجع إليهما، فأخبرهما، فاستقاءتا، فقاءت كل واحدة منهما حلقة من دم. فرجع إلى النبي (ص) فأخبره، فقال
(هامش)
(٢٢) النساء، الآية: ١٤٧. (٢٣) ق، الآية: ١٨. (*)
ص ٢٣٤
والذي نفس محمد بيده! لو بقيتا في بطنيهما لأكلتهما النار. وأوحى الله تعالى إلى موسى (ع): من مات تائبا من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ومن مات مصرا عليها فهو أول من يدخل النار. وقال (ع): من مشى في غيبة أخيه وكشف عورته كانت أول خطوة خطاها وضعها في جهنم، فكشف الله عورته على رؤوس الخلائق. ومن اغتاب مسلما، بطل صومه ونقض وضوءه، فإن مات وهو كذلك مات وهو مستحل لما حرم الله وقال (ص): الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الأكلة في جوفه (٢٤) وقال (ص) الجلوس في المسجد انتظار للصلاة عبادة، ما لم يحدث ، فقيل: يا رسول الله، وما الحدث؟ قال: الاغتياب. وقال (ص): من اغتاب مسلما أو مسلمة لم يقبل الله صلاته ولا صيامه أربعين يوما وليلة، إلا أن يغفر له صاحبه وقال - (ص) من اغتاب مسلما في شهر رمضان لم يؤجر على صيامه وقال (ص) من اغتاب مؤمنا بما فيه، لم يجمع الله بينهما في الجنة أبدا، ومن اغتاب مؤمنا بما ليس فيه، انقطعت العصمة بينهما، وكان المغتاب في النار خالدا فيها وبئس المصير. وقال (ص) كذب من زعم أنه ولد من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة فإنها أدام كلاب النار. وقال (ص) ما عمر مجلس بالغيبة إلا خرب بالدين، فنزهوا أسماعكم من استماع الغيبة، فإن القائل والمستمع لها شريكان في الإثم. وقال (ص): ما النار في التبن بأسرع من الغيبة في حسنة العبد (٢٥) وقال الصادق (ع) من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه، فهو من الذين قال الله عز وجل: (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم).
(هامش)
(
٢٤) الرواية مذكورة في (البحار): ٤ مج ١٥ / ١٧٧. قال في الموضع المذكور: بيان: الأكلة - كقرحة - داء في العضو يأتكل منه، وقد يقرأ بعد الهمزة على وزن فاعلة، أي العلة التي تأكل اللحم. والأول أوفق باللغة. وقيل الأكلة - بالضم - اللقمة، وكلاهما محتملات إلى أن ذكر الجوف يؤيد الأول وإرادة الإضافة والإذهاب يؤيد الثاني والأول أقرب وأصوب، وتشبيه الغيبة بأكل اللقمة أنسب، لأن الله سبحانه شبهها بأكل اللحم. (٢٥) صححنا الأحاديث هنا على (الوسائل): كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ١٥٢. وعلى (البحار): ٤ مج ١٥ / ١٧٧. وعلى (المستدرك): ٢ / ١٠٦ وعلى (إحياء العلوم): ٣ / ١٢٣. (*)
ص ٢٣٥
وقال (ع): من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروته ليسقط من أعين الناس، أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان. وقال (ع): من اغتاب أخاه المؤمن من غير ترة بينهما فهو شريك شيطان (٢٦) وقال (ع) الغيبة حرام على كل مسلم، وإنها لتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والأخبار الواردة في ذم الغيبة مما لا يكاد يمكن حصرها، وما ذكرناه كاف لإيقاظ الطالبين. والعقل أيضا حاكم بأنها أخبث الرذائل، وقد كان السلف لا يرون العبادة في الصوم والصلاة، بل في الكف عن أعراض الناس، لأنه كان عندهم أفضل الأعمال، ويرون خلافة صفة المنافقين، ويعتقدون أن الوصول إلى المراتب العالية في الجنة يتوقف على ترك الغيبة، لما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله - أنه قال: من حسنت صلاته وكثرت عياله، وقل ماله ولم يغتب المسلمين، كان في الجنة كهاتين وما أقبح بالرجل المسلم أن يغفل عن عيوب نفسه، ويتجسس على عيوب أخوانه، ويظهرها بين الناس، فما باله يبصر القذى في عين أخيه، ولا يبصر الجذع في عين نفسه. فيا حبيبي، إذا أردت أن تذكر عيوب غيرك، فاذكر عيوبك، وتيقن بأنك لن تصيب حقيقة الإيمان، حتى لا تعيب الناس يعيب هو فيك، وحتى تبدأ بإصلاح ذلك العيب. وإذا كان شغلك إصلاح عيوب نفسك، كان شغلك في خاصة نفسك، ولم تكن فرصة للاشتغال بغيرك، وحينئذ كنت من أحب العباد إلى الله لقول النبي (ص) طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس. واعلم أن عجز غيرك في الاجتناب عن ذلك العيب وصعوبة إزالته عليه كعجزك عن الاجتناب عنه إن كان ذلك

العيب فعلا اختياريا، وإن كان أمرا خلقيا فالذم له ذم للخالق تعالى. فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها. قيل لبعض الحكماء يا قبيح الوجه! فقال: ما كان خلق وجهي إلي فأحسنه ولو فرض براءتك عن جميع العيوب، فلتشكر الله، ولا تلوث نفسك بأعظم العيوب. إذ أكل لحوم الميتات أشد العيوب وأقبحها، مع إنك لو ظننت خلوك عن جميع العيوب لكنت أجهل الناس، ولا عيب أعظم من مثل هذا الجهل.

(هامش)

(٢٦) صححنا الأحاديث الثلاثة على (الوسائل) في الموضع المتقدم. وعلى (أصول الكافي) باب الغيبة والبهت. وعلى (المستدرك). (*)

ص ٢٣٦

ثم ينبغي أن يعلم المغتاب أن الغيبة تحبط حسناته وتزيد في سيئاته، لما ثبت من الأخبار الكثيرة: أن الغيبة تنقل حسنات المغتاب يوم القيامة إلى من اغتابه، وإن لم تكن له حسنة نقل إليه من سيئاته. قال رسول الله (ص): يؤتى بأحدكم يوم القيامة، فيوقف بين يدي الله تعالى، ويدفع إليه كتابه، فلا يرى حسناته، فيقول: إلهي ليس هذا كتابي، فإني لا أرى فيه طاعتي، فيقول له: إن ربك لا يضل ولا ينسى، ذهب عملك باغتياب الناس. ثم يؤتى بآخر ويدفع إليه كتابه، فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول: إلهي ما هذا كتابي، فإني ما عملت هذه الطاعات، فيقول له: إن فلانا اغتابك فدفعت حسناته إليك . وفي معناه أخبار أخر. ولا ريب في أن العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته، وربما تنقل إليه سيئة واحدة مما اغتاب به مسلما، فيحصل به الرجحان ويدخل لأجله النار. وأقل ما في الباب أن ينقص من ثواب صالحات أعماله، وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والمناقشة في الحساب. وروي عن بعضهم: أن رجلا قيل له: إن فلانا قد اغتابك، فبعث إليه طبقا من رطب، وقال: بلغني أنك قد أهديت إلي من حسناتك، فأردت أن أكافيك عليها، فاعذرني، فإني لا أقدر أن أكافيك على التمام . والحاصل: أن العاقل ينبغي أن يتأمل في أن من يغتابه إن كان صديقا ومحبا له، فإظهار عيوبه وعثراته بعيد من المروة والإنصاف، وإن كان عدوا له، فتحمل خطاياه ومعاصيه ونقل حسناته إلى ديوانه غاية الحماقة والجهل.

فصل علاج الغيبة up

الطريق في علاج الغيبة وتركها، أن يتذكر أولا ما تقدم من مفاسدها الأخروية، ثم يتذكر مفاسدها في الدنيا، فإنه قد تصل الغيبة إلى من اغتيب، فتصير منشأ لعداوته أو لزيادة عداوته، فيتعرض لإيذاء المغتاب وإهانته، وربما انجر الأمر بينهما إلى ما لا يمكن تداركه من الضرب والقتل وأمثال ذلك. ثم يتذكر فوائد أضدادها - كما نشير إليها - وبعد

ص ٢٣٧

ذلك فليراقب لسانه، ويقدم التروي في كل كلام يريد أن يتكلم به، فإن تضمن غيبة سكت عنه، وكلف نفسه ذلك على الاستمرار، حتى يرتفع عن نفسه الميل الجلي والخفي إلى الغيبة. والعمدة في العلاج أن يقطع أسبابها المذكورة، وقد تقدم علاج الغضب والحقد والحسد والاستهزاء والسخرية، ويأتي طريق العلاج في الهزل والمطايبة والافتخار والمباهاة. وأما تنزيه النفس بنسبة ما نسب إليه من الجناية إلى الغير، فمعالجته أن يعلم أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوق، ومن اغتاب تعرض لمقت الله وسخطه قطعا، ولا يدري أنه يتخلص من سخط الناس أم لا، فيحصل بعمله ذم الله وسخطه تقديرا، وينظر دفع ذم الناس نسيئة، وهذا غاية الجهل والخذلان. وأما تعرضه لمشاركة الغير في الفعل تمهيدا لعذر نفسه، كان يقول إني أكلت الحرام، لأن فلانا أيضا أكل، وقبلت مال السلطان، لأن فلانا أيضا قبل، مع أنه أعلم مني، فلا ريب في أنه جهل وسفه، لأنه اعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به. فإن من خالف الله لا يقتدي به كائنا من كان، فلو دخل غيره النار وهو يقدر على عدم الدخول فهل يقتدي به في الدخول ولو دخل عد سفيها أحمق، ففعله معصية، وعذره غيبة وغباوة، فجمع بين المعصيتين والحماقة، ومثله كمثل الشاة، إذا نظرت إلى العنز تردى نفسها من الجبل فهي أيضا تردى نفسها، ولو كان لها لسان ناطق واعتذرت عن فعلها بأن العنز أكيس مني وقد أهلكت نفسها فكذلك فعلت أنا، لكان هذا المغتاب المعتذر يضحك عليها، مع أن حاله مثل حالها ولا يضحك على نفسه. والعجب أن بعض الأشقياء عن العوام، لما صارت قلوبهم عش الشيطان وصرفوا أعمارهم في المعاصي، واشتغلت ذممهم بمظالم الناس بحيث لا يرجى لهم الخلاص،

مالت نفوسهم الخبيثة إلى ألا يكون معاد وحساب وحشر وعقاب، ولما وجد ذلك الميل منهم اللعين، خرج من الكمين، ووسوس في صدورهم بأنواع الشكوك والشبهات، حتى ضعف بها عقائدهم أو أفسدها.

ودعاهم في مقام الاعتذار عن أعمالهم الخبيثة ألا يصرحوا ارتكز في قلوبهم

ص ٢٣٨

ويشتهونه، خوفا من القتل وإجراء أحكام الكفار عليهم، ولم يدعهم أيضا تلبيسهم وتزويرهم وغلبة الشيطنة عليهم أن يعترفوا بالنقص وسوء الحال فحملهم الشيطان بإغوائه على أن يعتذروا من سوء فعالهم بأن بعض العلماء يفعلون ما نفعل ولا يجتنبون عن مثل أعمالنا، من طلب الرئاسة وأخذ الأموال المحرمة، ولم يدروا أن هذا القول ناش من جهلهم وخباثتهم. إذ نقول لهم: إن فعل هذا البغض إن صار منشأ لزوال إيمانكم بالمعاد والحساب، فأنتم كافرون، وباعث أعمالكم الخبيثة هو الكفر وعدم الإذعان بأحوال النشأة الآخرة. وإن لم يصر منشأ له، بل إيمانكم ثابت، فاللازم عليكم العمل بمقتضاه، من غير تزلزل يعمل الغير كائنا من كان. فما الحجة في عمل هذا البعض، مع اعتقادكم بأنه على باطل؟!. وأيضا لو كان باعث أعمالكم الخبيثة فعل العلماء، فلم اقتديتم بهذا البعض مع عدم كونه من علماء الآخرة وعدم اطلاعه على حقيقة العلم؟ ولو كنتم صادقين فيما تنسبون إليه، فهو المتأكل بعلمه، وإنما حصل نبذ من علوم الدنيا لتوسل بها إلى حطامها، ولا يعد مثله عند أولي الألباب عالما، بل هو متشبه بالعلماء. ولم ما اقتديتم بعلماء الآخرة المتخلفين بشراشرهم عن الدنيا وحطامها؟ وإنكار وجود مثلهم، والقدح في الكل مع كثرتهم في أقطار الأرض غاية اللجاج والعناد. ولو سلمنا منكم ذلك، فلم ما اقتديتم بطوائف الأنبياء والأوصياء، مع أنهم أعلم الناس باتفاق الكل، وحقيقة العلم ليس إلا عندهم؟ فإن أنكروا أعلميتهم وعصمتهم من المعاصي، واحتملوا كونهم أمثالا لهم، ظهر ما في بواطنهم من الكفر الخفي. وأما موافقة الأقران، فعلاجه أن يتذكر إن الله يسخط عليه ويبغضه إذا اختار رضا المخلوقين على رضاه، وكيف يرضى المؤمن أن يترك رضا ربه لرضا بعض أرذال الناس؟ وهل هذا إلا كونه تعالى أهون عنده منهم؟ وهو ينافي الإيمان.

وأما استشعاره من رجل أنه يقبح عند محتشم حاله أو يشهد عليه بشهادة فيبادره بالغيبة إسقاطا لأثر كلامه، فعلاجه أن يعلم: (أولا) إن مجرد الاستشعار لا يستلزم الوقوع، فلعله لا يقبح حاله ولا يشهد عليه،

ص ٢٣٩

فالمؤاخذة بمحض التوهم تنافي الديانة والإيمان. و(ثانيا) إن اقتضاء قوله سقوط أثر كلام من اغتابه في حقه مجرد توهم، والتعرض لمقت الله يقينا بمجرد توهم ترتب فائدة دنيوية عليه محض الجهل والحماقة. و(ثالثا) أن تؤدي فعل الغير - أعني تقبيح حاله عند محتشم مع فرض وقوعه - إلى إضراره في حيز الشك، إذ ربما لم تقبل شهادته شرعا، فتقبيح حاله وتحمل معاصيه بدون الجزم بصيرورته سببا لإيذائه محض الجهل والخذلان. وأما الرحمة له على إثمه والتعجب منه والغضب لله عليه، وإن كان كل منها حسنا، إلا أنه إذا لم تكن معه غيبة، وأما إذا كانت معه غيبة، أحبط أجره وبقي إثمها. فالعلاج أن يتأمل أن باعث الرحمة والتعجب والغضب هو الإيمان وحماية الدين، وإذا كان معها غيبة أضرت بالدين والإيمان، وليس شيء من الأمور الثلاث ملزوما للغيبة لإمكان تحققه بدونها فمقتضى الإيمان وحماية الدين أن يترحم ويتعجب ويغضب لله، مع ترك الغيبة وإظهار الإثم والعيب، ليكون مأجورا غير آثم.

فصل مسوغات الغيبة up

لما عرفت أن الغيبة ذكر الغير بما يكرهه لو سمعه، فاعلم أن ذلك إنما يحرم إذا قصد به هتك عرضه، والتفكه به، أو إضحاك الناس منه. وأما إذا كان ذلك لغرض صحيح لا يمكن التوصل إليه إلا به، فلا يحرم. والأغراض الصحيحة المرخصة له أمور: الأول - التظلم عند من له رتبة الحكم وإحقاق الحقوق، كالقضاة والمفتين والسلاطين، فإن نسبة الظلم والسوء إلى الغير عندهم لاستيفاء الحق جائز، لقول النبي (ص): لصاحب الحق مقال ، وقوله (ص): لي الواجد يحل عرضه وعقوبته . وعدم إنكاره (ص) على قول هند بحضرته: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني إياي وولدي، أفآخذ من غير علمه؟ وقوله - صلى الله عليه وآله - لها: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف . الثاني - الاستعانة على رفع المنكر ورد المعاصي إلى الصلاح، وإنما

ص ٢٤٠

يستباح بها ذكر مساءته بالقصد الصحيح لا بدونه. الثالث - نصح المستشير في التزويج، وإيداع الأمانة، وأمثالهما. كذلك جرح الشاهد والمفتي والقاضي إذا سئل عنهم، فله أن يذكر ما يعرفه من عدم العدالة والأهلية للافتاء والقضاء، بشرط صحة القصد واردة الهداية وعدم باعث حسد أو تلبيس من الشيطان، وكذلك توفي المسلمين من الشر والضرر أو سراية الفسق والبدعة، فإن من رأى عالما أو غيره من المؤمنين يتردد إلى ذي شر أو فاسق أو مبتدع، وخاف أن يتضرر ويتعدى إليه الفسق والبدعة بمصاحبته، يجوز له أن يكشف له ما يعرفه من شره وفسقه وبدعته، بشرط كون الباعث مجرد خوف وصول الشر والفساد أو سراية الفسق والبدعة إليه. قال رسول الله (ص): أترعوون عن ذكر الفاجر حتى لا يعرفه الناس؟ أذكروه بما فيه يحذره الناس . ومن جملة ما يدخل في تحذير المسلمين وتوقيعهم من الشر والضرر، وإظهار عيب يعلمه في مبيع، وإن كره البايع، حفظا للمشتري من الضرر. مثل أن يشتري عبدا، وقد عرفه بالسرقة أو الفسق أو عيب آخر، أو فرسا، وقد عرفه بكونه مال الغير، فله أن يظهر ذلك، لاستلزام سكوته ضررا على المشتري. الرابع - رد من ادعى نسبا ليس له. الخامس - القدح في مقالة أو دعوى باطلة في الدين. السادس - الشهادة على فاعل المحرم حسبة. السابع - ضرورة التعريف، فإنه إذا كان أحد معروفا بلقب يعرب عن عيب، وتوقف تعريفه عليه، ولم يكن أثم في ذكره، بشرط عدم إمكان التعريف بعبارة أخرى، لفعل الرواة والعلماء في الأعصار والأمصار فإنهم يقولون: روى الأعمش والأعرج وغير ذلك، لأن الغالب صيرورته بحيث لا يكرهه صاحبه. الثامن - كون المقول فيه مستحقا للاستخفاف، لتظاهره وتجاهره بفسق، كالظلم والزنا وشرب الخمر وغير ذلك، بشرط عدم التعدي عما يتظاهر به، إذ لو ذكره بغير ما يتظاهر به لكان آثما، وأما إذا ذكر منه

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

## ٢٠٩ جامع السعادات (ج2)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ٢٤١

مجرد ما يتجاهر به فلا إثم عليه، إذ صاحبه لا يستنكف من ذكره، وربما يتفاخر به ويقصد إظهاره. ومع قطع النظر عن ذلك، فالأخبار دالة عليه، كما تقدم جملة منها. وقال رسول الله (ص): من ألقى جلباب الحياء من وجهه فلا غيبة له . وقال (ص): ليس لفاسق غيبة . والظاهر أن ذكر ما يتجاهر به من العيوب ليس غيبة، لا شرعا ولا لغة، لا أنه غيبة استثنى جوازها شرعا، قال الجوهري: الغيبة أن يتكلم خلف إنسان مستور بما يغمه لو سمعه، فإن كان صدقا سمي غيبة، وإن كان كذبا سمي بهتانا . هذا وقد صرح جماعة بجواز الغيبة في موضعين آخرين: أحدهما: أن يكون اثنان أو أكثر مطلعين على عيب رجل، فيقع تحاكيه بينهم من غير أن يظهروه لغيرهم ممن لم يطلع عليه، وفي بعض الأخبار المتقدمة دلالة على جوازه، كما لا يخفى. وثانيهما: أن يكون متعلقها - أعني المقول فيه - غير محصور، كأن يقال: قال قوم كذا، أو أهل البلد الفلاني كذا . ومثله إذا قال: بعض الناس يقول أو يفعل كذا، أو من مر بنا اليوم شأنه كذا ، إذا لم يتعين البعض والمال عند المخاطب، ولو انتقل إلى شخص معين لقيام بعض القرائن، كانت غيبة محرمة، وكذا لو قال: بعض من قدم من السفر، أو بعض من يدعي العلم ، إن كان معه قرينة يفهم عين الشخص فهو غيبة وإلا فلا. وكذا ذكر مصنف في كتابه فاضلا معينا، وتهجين كلامه بلا اقتران شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره غيبة، وأما لو ذكره بدون تعيينه، كأن يقول: ومن الفضلاء من صدر عنه في المقام هفوة أو عثرة فليس غيبة، ثم السر في اشتراط الغيبة بكونه تعريضا لشخص معين وعدم كون التعرض بالمبهم وغير المحصور غيبة، عدم حصول الكراهة مع الإبهام وعدم الانحصار، كما لا يخفى.

وربما كان في بعض الأخبار أيضا إشعار به، وقد كان رسول الله (ص) إذا كره من إنسان شيئا يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا من دون تعيين للفاعل. ج: ٢

ص ٢٤٢

تذنيب كفارة الغيبة up

كفارة الغيبة - بعد التوبة والندم للخروج عن حق الله - أن يخرج من حق من اغتابه. وطريق الخروج من حقه، إن كان ميتا أو غائبا لم يمكن الوصول إليه، أن يكثر له من الاستغفار والدعاء، ليحسب ذلك يوم القيامة من حسناته ويقابل بها سيئة الغيبة، وإن كان حيا

يمكن الوصول إليه ولم تبلغ إليه الغيبة، وكان في بلوغها إليه مظنة العداوة والفتنة، فليكثر له أيضا من الدعاء والاستغفار، من دون أن يخبره بها، وإن بلغت إليه أو لم تبلغه، ولم يكن في بلوغها ظن الفتنة والعداوة، فليستحله معتذرا متأسفا مبالغا في الثناء عليه والتودد إليه، وليواظب على ذلك حتى يطيب قلبه ويحله فإن لم يطب قلبه من ذلك ولم يحله، كان اعتذاره وتوددة حسنة يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة. والدليل على هذا التفصيل قول الصادق (ع): وإن اغتبت فبلغ المغتاب، فاستحل منه، فإن لم تبلغه لم تلحقه، فاستغفر الله (٢٧)، وذلك لأن في الاستحلال مع عدم البلوغ إليه إثارة للفتنة وجلب الضغائن، وفي حكم من لم يبلغه من لم يقدر على الوصول إليه بموت أو غيبة، وعلى هذا فقول النبي (ص): كفارة من اغتبته أن تستغفر له ، محمول على صورة عدم إمكان الوصول إليه، أو إمكانه مع إيجاب الأعلام والاستحلال لإثارة الفتنة والعداوة. وقوله (ص): من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال، فليتحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم، إنما يؤخذ من حسناته، فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته ، محمول على صورة البلوغ أو عدم البلوغ، مع عدم إيجاب الإعلام والاستحلال فتنة وعداوة.

(هامش)

(٢٧) هذا جزء من الحديث المتقدم عن مصباح الشريعة : ٢٨٩، الباب ٤٩ فصححناه عليه. (*)

ص ٢٤٣

تتميم البهتان up

قد ظهر مما تقدم أن البهتان أن تقول في مسلم ما يكرهه ولم يكن فيه، فإن كان ذلك في غيبته كان كذبا وغيبة، وإن كان بحضوره كان أشد أنواع الكذب. وعلى أي تقدير، فهو أشد إثما من الغيبة والكذب، قال الله سبحانه: ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا (٢٨). وقال رسول الله (ص): من بهت مؤمنا أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه، أقامه الله على تل من نار، حتى يخرج مما قاله فيه . وقال الصادق (ع): من بهت مؤمنا أو مؤمنة بما ليس فيه، بعثه الله عز وجل في طينة خبال، حتى يخرج مما قال ، قلت: وما طينة خبال؟ قال: صديد يخرج من فروج المومسات (٢٩). ثم ما ورد في ذم اللسان وكونه شر الأعضاء ومنع أكثر المعاصي - كما يأتي في موضعه - يدل على ذم الغيبة والبهتان، كما يدل على ذم جميع آفات اللسان مما تقدم، من الفحش، واللعن، والطعن، والسخرية، وغير ذلك، وما يأتي: من الكذب، والمزاح، والخوض في الباطل. وفضول الكلام، وغير ذلك.

وصل المدح ومواضع حسنه وقبحه up

الغيبة لما كانت راجعة إلى الذم، فضدها المدح ودفع الذم، والبهتان لما كان كذبا، فضده الصدق. وكما أن لكل واحدة من آفات اللسان مما مر ومما يأتي ضدا خاصا، فكذلك لجميعها ضد واحد عام هو الصمت - كما أشير إليه فيما سبق أيضا. وضد البهتان - أعني الصدق - يأتي

(هامش)

(٢٨) النساء، الآية: ١١١. (٢٩) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): باب الغيبة والبهتان. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، باب تحريم البهتان في المؤمن. وعلى (المستدرك): ١٠٧، كتاب الحج، باب تحريم البهتان للمؤمن. (*)

ص ٢٤٤

في مقام بيان الكذب. وأما الضد العام للكل، فقد يأتي في موضعه مع ما يدل بعمومه على ذم جميع آفات اللسان، فهنا نشير إلى بيان المدح وما يحمد منه، حتى يكون ضدا لها وفضيلة للقوة الغضبية أو الشهوية، وما يذم منه حتى يكون رذيلة لإحداهما، فنقول: لا ريب في أن مدح المؤمن في غيبته وحضوره ممدوح مندوب إليه، لكونه إدخالا للسرور عليه، وقد علم مدحه وثوابه، ولما ورد من أن رسول الله (ص) أثنى على أصحابه، وأنه قال لجماعة - لما أثنوا على بعض الموتى -: وجبت لكم الجنة، وأنتم شهداء الله في الأرض . ولما ورد من أن لبني آدم جلساء من الملائكة، فإذا ذكر أحد أخاه المسلم بخير، قالت الملائكة: ولك مثله، وإذا ذكره بسوء، قالت الملائكة: يا ابن آدم المستور عورته، أربع على نفسك! وأحمد الله إذ ستر عورتك ولكنه ليس راجحا مندوبا على الإطلاق، بل إذا سلم من آفاته، وهي أن يكون صدقا لا يفرط المادح فيه، بحيث ينتهي إلى الكذب، وألا يكون المادح فيه مرائيا منافقا، بأن يكون غرضه إظهار الحب مع عدم كونه محبا في الواقع سواء كان صادقا فيما ينسبه إليه من المدح أم لا، وألا يمدح الظالم والفاسق وإن كان صادقا فيما يقول

في حقه، لأنه يفرح بمدحه، وإدخال الفرح على الظالم أو الفاسق غير جائز، قال رسول الله (ص): إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق . فالظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح، وألا يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الإطلاع عليه. وهذه الآفة إنما تتطرق في المدح، بالأوصاف المطلقة والخفية، كقولك: إنه تقي ورع زاهد خير، أو قولك: إنه عدل رضي، وأمثال ذلك، لتوقف الصدق في ذلك على قيام الأدلة والخبرة الباطنة، وتحققهما في غاية الندرة.

فالغالب أن المدح بأمثال ذلك يكون من غير تحقق وثبت، وألا يحدث في الممدوح كبرا أو إعجابا يوجبان هلاكه، ولا رضى عن نفسه وجب فتوره عن العمل، إذ من أطلقت الألسنة بالثناء عليه يرضى عن نفسه ويظن أنه قد أدرك، وهذا يوجب فتوره عن العمل، إذ المتشمر له إنما هو من يرى نفسه مقصرا، ولذلك قال رسول الله (ص) لرجل مدح بحضرته

ص ٢٤٥

رجل آخر: ويحك! قطعت عنق صاحبك، لو سمعها ما أفلح وقال (ص): إذا مدحت أخاك في وجهه، فكأنما أمررت على حلقه الموسى . وقال أيضا لمن مدح رجلا: عقرت الرجل عقرك الله! . وقال (ص): لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف، كان خيرا له من أن يثني عليه في وجهه . والسر في هذه الأخبار: أن المدح يوجب الفتور عن العمل، أو الكبر أو العجب، وهو مهلك، كقطع العنق والعقر وإمرار الموسى أو السكين على الحلق، فإن سلم المدح عن الآفات المذكورة المتعلقة بالمادح والممدوح كان ممدوحا، وإلا كان مذموما. وبذلك يحصل الجمع بين ما ورد في مدحه - كما تقدم - وما ورد في ذمه. فاللازم على المادح أن يحترز عما تقدم من الآفات المتعلقة به، وعلى الممدوح أن يحترز من آفة الكبر والعجب والفتور والرياء، بأن يعرف نفسه ويتذكر خطر الخاتمة، ولا يغفل عن دقائق الرياء، ويظهر كراهة المدح، وإليه الإشارة بقوله (ص): أحثوا التراب في وجوه المداحين . وبالجملة: اللازم على الممدوح ألا يتفاوت حاله بالمدح، وهذا فرع معرفة نفسه، وتذكر ما لا يعرفه المادح من عثراته. وينبغي أن يظهر أنه ليس كما عرفوه، قال بعض الصالحين لما أثنى عليه: اللهم إن هؤلاء لا يعرفون وأنت تعرفني . وقال أمير المؤمنين (ع) لما أثنى عليه: اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيرا مما يظنون . ثم الظاهر عدم المؤاخذة والإثم بالانبساط والارتياح بالمدح، لكون النفوس مجبولة على الفرح والسرور بنسبة الكمال إليها، ولكن بشرط أن يكره من نفسه ذلك الارتياح، ويقهر نفسه ويعاتبها على ذلك، ويجتهد في إزالة ذلك عنها، إذ مقتضى العقل الفرح بوجود الكمال فيه لا بنسبته إليه، فما ينسب إليه منه إن كان موجودا فيه، فينبغي أن يكون فرحه به لا بنسبته إليه، إذ الانبساط بتصريح رجل بأنك صاحب هذا الكمال حمق وسفه. وإن لم يكن موجودا فيه، فاللازم أن يحزن ويغضب، لكونه استهزاء لا مدحا.

والحاصل: أن العاقل ينبغي ألا يسر بمدح الغير ولا يحزن بذمه،

ص ٢٤٦

إذ من ملك ياقوتة شريفة حمراء أي ضرر عليه إذا قال رجل إنها خرزة، وإذا ملك حرزة أي فائدة له إذا قال إنها ياقوتة ومنها:

• الكذب up

وهو أما في القول، أي الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه، وصدوره إما عن العداوة أو الحسد أو الغضب، فيكون من رذائل قوة الغضب، أو من حب المال والطمع، أو الاعتياد الحاصل من مخالطة أهل الكذب، فيكون من رذائل قوة الشهوة. أو في النية والإرادة، وهو عدم تحيضها بالله، بألا يكون الله سبحانه بانفراده باعث طاعاته وحركاته، بل يمازجه شيء من حظوظ النفس. وهذا يرجع إلى الرياء، ويأتي كونه من رذائل أي قوة. وأما في العزم، أي الجزم على الخير، وذلك بأن يعزم على شيء من الخيرات والقربات، ويكون في عزمه نوع ميل وضعف وتردد يضاد الصدق في العزيمة، وهذا أيضا من رداءة قوة الشهوة. وأما في الوفاء بالعزم، فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، لعدم مشقة في الوعد، فإذا حقت الحقائق، وحصل التمكن، وهاجت الشهوات، انحلت العزيمة، ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا أيضا من رذائل قوة الشهوة ومن أنواع الشره. وأما في الأعمال، وهو أن تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، أي لا يكون باطنه مثل ظاهره ولا خيرا منه. وهذا غير الرياء، لأن المرائي هو الذي يقصد غير الله تعالى في أعماله، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس بقصد به مشاهدة غيره سبحانه، ولكن قلبه غافل عن الله وعن الصلاة فمن نظر إلى ما يصدر عن ظاهره من الخشوع والاستكانة، يظن أنه بشراشره منقطع إلى جناب ربه، وحذف ما سواه عن صحيفة قلبه،

وهو بكليته عنه تعالى غافل، وإلى أمر من أمور الدنيا متوجه. وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة الطمأنينة والوقار، بحيث من يراه يجزم بأنه صاحب السكينة والوقار، من أن باطنه ليس موصوفا
ص ٢٤٧
بذلك. فمثل ذلك كاذب في عمله، وإن لم يكن مرائيا ملتفتا إلى الخلق، ولا نجاة من هذا الكذب إلا باستواء السريرة والعلانية، أو كون الباطن أحسن من الظاهر. وهذا القسم من الكذب ربما كان من رذائل قوة الشهوة وربما كان من رذائل قوة الغضب، وربما كان من رداءة القوة المدركة، بأن كان باعثه مجرد الوسواس. وأما في مقامات الدين، كالكذب في الخوف والرجاء، والزهد والتقوى والحب والتعظيم، والتوكل والتسليم، وغير ذلك من الفضائل الخلقية. فإن لها مبادئ يطلق الاسم بظهورها، ثم لها حقائق ولوازم وغايات والصادق المحقق من نال حقائقها ولوازمها وغاياتها، فمن لم يبلغها كان كاذبا فيها. مثلا الخوف من الله تعالى له مبدأ هو الإيمان به سبحانه، وحقيقة هو تألم. الباطن واحتراقه، ولوازم وآثار هي اصفرار اللون وارتعاد الفرائص وتكدر العيش وتقسم الفكر وغير ذلك، وغايات هي الاجتناب عن المعاصي والسيئات والمواظبة على الطاعات والعبادات، فمن آمن بالله تعالى صدق عليه كونه خائفا يطلق عليه الاسم، إلا أنه لم تكن معه حرقة القلب وتكدر العيش والتشمر للعمل كان خوفا كاذبا، وإن كان معه ذلك كان خوفا صادقا، أي بالغا درجة الحقيقة، قال أمير المؤمنين (ع): إياكم والكذب فإن كل راج طالب، وكل خائف هارب (٣٠): أي لا تكذبوا في ادعائكم الرجاء والخوف من الله، وذلك لأن كل راج طالب لما يرجو ساع في أسبابه، وأنتم لستم كذلك، وكل خائف هارب مما يخاف منه، مجتنب مما يقربه منه، وأنتم لستم كذلك، وهذا مثل قوله (ع) في نهج البلاغة: كذب والله العظيم ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله! وكل من رجا عرف رجاؤه إلا رجاء الله، فإنه مدخول، وكل خوف محقق إلا خوف الله، فإنه معلول... (٣١) ثم الكذب في كل مقام لما كان راجعا إلى عدمه، فيكون رذيلة متعلقة
(هامش)
)
٣٠) صححنا الرواية على (أصول الكافي): باب الكذب، وعلى البحار ٣ مج ١٥ / ٣٩، باب الكذب. (٣١) هذا الكلام مروي في (الوافي): ٣ / ٤٠٩ باب الكذب وفي البحار ٣ مج ١٥ / ٣٥. وهو مروي عن (نهج البلاغة) كما صرح به العلامة المجلسي - قدس سره - في الموضع المذكور. (*)
ص ٢٤٨
بالقوة التي في هذا المقام فضيلة متعلقة بها. وبما ذكر يظهر: إن من له مبدأ الإيمان، أعني الإقرار بالشهادتين، وكان فاقدا لحقيقته، أعني اليقين القطعي بالمبدأ والمعاد، أو للوازمه وغاياته، أعني الخوف الصادق منه تعالى والتعظيم الحقيقي له سبحانه والاهتمام البالغ في امتثال أوامره ونواهيه، كان كاذبا في دعوى الإيمان.
فصل ذم الكذب up
الكذب أقبح الذنوب وأفحشها، وأخبث العيوب وأشنعها، قال الله سبحانه: إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون (٣٢). فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون (٣٣). وقال رسول الله (ص) إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار. وقال المؤمن إذا كذب من غير عذر لعنه سبعون ألف ملك، وخرج من قلبه نتن حتى يبلغ العرش فيلعنه حملة العرش، وكتب الله عليه بتلك الكذبة سبعين زنية، أهونها كمن زنى مع أمه (٣٣). وسئل (ص) يكون المؤمن جبانا؟ قال: نعم! قيل: ويكون بخيلا؟ قال نعم! قيل ويكون كذابا؟ قال: لا! وقال (ص): كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب. وقال (ص): الكذب ينقص الرزق وقال (ص) ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم! ويل له ويل له وقال (ص) رأيت كأن رجلا جاءني فقال لي: قم، فقمت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس، وبيد القائم كلوب من حديد يلقمه في شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله، فيلقمه الجانب الآخر فيمده، فإذا مده رجع الآخر كما كان، للذي أقامني: ما هذا؟ فقال: هذا رجل كذاب، يعذب في قبره إلى يوم القيامة. وقال (ص) ألا أخبركم بأكبر الكبائر: الاشراك
*(الهامش)*(٣٢) النحل، الآية: ١٠٥. (٣) التوبة الآية: ٧٨. (٣٤) صححنا هذين الحديثين على (جامع الأخبار): الباب ١٢

الفصل ٧
ص ٢٤٩
بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور : أي الكذب. وقال (ص): إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك منه مسيرة ميل من نتن ما جاء به . وقال صلى الله عليه وآله: إن للشيطان كحلا ولعوقا ونشوقا. فأما لعوقه فالكذب وأما نشوقه فالغضب، وأما كحله فالنوم (٣٥) وقال روح الله لأصحابه: من كثر كذبه ذهب بهاؤه . وقال أمير المؤمنين (ع) لا يجد العبد طعم الإيمان حتى يترك الكذب، هزله وجده . وقال (ع) أعظم الخطايا عند الله اللسان والكذب، وشر الندامة ندامة يوم القيامة . وقال علي بن الحسين (ع): اتقوا الكذب الصغير منه والكبير في كل جد وهزل، فإن الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير . وقال أبو جعفر (ع): إن الله عز وجل جعل للشر أقفالا، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شر من الشراب وقال (ع): الكذب هو خراب الإيمان . وقال (ع) إن أول من يكذب الكذاب الله عز وجل، ثم الملكان اللذان معه، هو يعلم أنه كاذب . وقال الإمام الزكي العسكري (ع): جعلت الخبائث كلها في بيت وجعل مفتاحها الكذب والأخبار الواردة في ذم الكذب أكثر من أن تحصى. وأشد أنواع الكذب إثما ومعصية الكذب على الله وعلى رسوله وعلى الأئمة، وكفاه ذما أنه يبطل الصوم، ويوجب القضاء والكفارة على الأقوى. قال الصادق (ع): إن الكذبة لتفطر الصائم قال الراوي: وأينا لا يكون ذلك منه، قال: ليس حيث ذهبت، إنما الكذب على الله تعالى وعلى رسوله وعلى الأئمة - عليهم السلام - . وقال (ع): الكذب على الله وعلى رسوله وعلى الأوصياء - عليهم السلام - من الكبائر . وذكر عنده (ع) الحائك، وكونه ملعونا، فقال: إنما ذلك الذي يحوك الكذب على الله وعلى رسوله وقال الباقر (ع): لا تكذب علينا كذبة، فتسلب الحنيفية (٣٦). *(الهامش)*(٣٥) مثل مضمون هذه الرواية ورد في الوسائل في الموضع الآتي الباب ١٣٨. وفي (المستدرك) في الموضع الآتي.
وفي سفينة البحار : ٢: ٤٧٣، وفيه اختلاف عما في نسخ (جامع السعادات) فإن الموجود بهذه الكتب بهذا النص: إن لإبليس كحلا ولحوقا وسعوطا، فكحله النعاس، ولعوقه الكذب، وسعوطه الكبر . (٣٦) صححنا أكثر الأحاديث هنا على (الوسائل): الباب ١٣٨ - ١٤٠
ص ٢٥٠
فصل مسوغات الكذب up
الكذب حرام، لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره، أو لإيجابه اعتقاد المخاطب خلاف الواقع، فيصير سببا لجهله. وهذا القسم مع كونه أهون الدرجات وأقلها إثما، محرم أيضا، إذا القاء خلاف الواقع على الغير وسببية جهله غير جائز، إلا أنه إذا كان مما يتوقف عليه تحصيل مصلحة مهمة، ولم يمكن التوصل إليها بالصدق، زالت حرمته وارتفع إثمه فإن كانت المصلحة مما يجب تحصيلها، كإنقاذ مسلم من القتل والأسر، أو حفظ عرضه أو ماله المحترم، كان الكذب فيه واجبا. وإن كانت راجحة غير بالغة حد الوجوب، فالكذب لتحصيلها مباح أو أو راجح مثلها، كالإصلاح بين الناس والغلبة على العدو في الحرب، وتطييب خاطر امرأته واسترضائها وقد وردت الأخبار المتكثرة بجواز الكذب إذا توقف عليه تحصيل هذه المقاصد الثلاثة، كما روي إن رسول الله (ص) لم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها وقال (ص) ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا . وقال (ص): كل الكذب يكتب على ابن آدم، إلا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما وقال (ص): كل الكذب مكتوب كذبا لا محالة إلا أن يكذب الرجل في الحرب، فإن الحرب خدعة، أو يكون بين رجلين شحناء فيصلح بينهما أو يحدث امرأته يرضيها . وقال (ص): لا كذب على المصلح . وقال الصادق (ع): كل كذب مسؤول عنه صاحبه يوما، إلا كذبا في ثلاثة: رجل كايد في حروبه، فهو موضوع عنه. أو رجل لصلح بين اثنين يلقي هذا بغير ما يلقي به هذا، يريد بذلك الإصلاح ما بينهما.
أو رجل وعد أهله شيئا وهو لا يريد أن يتم لهم . وقال (ع): الكلام ثلاثة: صدق وكذب، وإصلاح بين الناس ، قيل له: ما الإصلاح بين الناس؟ قال: تسمع في الرجل كلاما يبلغه فيخبث نفسه، فتلقاه وتقول: قد
(هامش)

من أبواب أحكام العشرة، وعلى المستدرك : ٢ / ١٠٠ - ١٠٢ وعلى (أصول الكافي): باب الكذب، وعلى (البحار): ٣ مج ١٥ / ٣٥، باب الكذب (*)
ص ٢٥١
سمعت من فلان فيك من الخير كذا وكذا، خلاف ما سمعت منه (٣٧). وقد تقدمت أخبار أخر في هذا المعنى. وهذه الأخبار وإن اختصت بالمقاصد الثلاثة، إلا أن غيرها من المقاصد الضرورية التي فوقها أو مثلها في المصلحة يلحقها من باب الأولوية أو اتحاد الطريق. والأخبار التي وردت في ذم هتك السر وكشف العيوب والفواحش تفيد وجوب القول بعدم الإطلاع، وإن كان مطلعا مع كونه كذبا، فلا إثم على أحد بصدور الكذب عنه إذا كان وسيلة إلى شيء من المقاصد الصحيحة الضرورية له أو لغيره من المسلمين، فإن أخذه ظالم وسأله عن ماله فله أن ينكر، وأخذه سلطان وسأله عن فاحشة ارتكبها بينه وبين الله فله أن ينكر وإن سئل عما يعلمه عن عيب أخيه وسره فله أن ينكر ولو وقع بين اثنين فساد فله أن يكذب، توسلا إلى الإصلاح بينهما وكذا يجوز له للإصلاح بين الضرات من نسائه أن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه، وإن كانت امرأته لا تطيعه إلا بوعد ما لا يقدر عليه، يجوز أن يعدها في الحال تطييبا لقلبها وإن لم يكن صادقا في وعده. ويلحق بالنساء الصبيان، فإن الصبي إذا لم يرغب فيما يؤمر به من الكتابة وغيرها إلا بوعد أو وعيد وتخويف، كان ذلك جائزا، وإن لم يكن في نيته الوفاء به. وكذا لو تكدر منه إنسان، وكان لا يطيب قلبه إلا بالاعتذار إليه، بإنكار ذنب وإظهار زيادة تودد، كان ذلك جائز وإن لم يكن صدقا. والحاصل: أن الكذب لدفع ضرر أو شر أو فساد جائز، بشرط صحة القصد. وقد ورد: أن الكذب المباح يكتسب ويحاسب عليه التصحيح قصده، فإن كان قصده صحيحا يعفى عنه، وإلا يؤاخذ به. فينبغي أن يجتهد في تصحيح قصده، وأن يحترز عنه ما لم يضطر إليه، ويقتصر فيه على حد الواجب، ولا يتعدى إلى ما يستغني عنه. ولا ريب في أن ما يجب ويضطر إليه هو الكذب لأمور في فواتها
(هامش)
)
٣٧) صححناه هذه الأخبار على (أصول الكافي): باب الكذب. و الوسائل : كتاب الحج، الباب ١٤١ من أبواب العشرة، و(كنز العمال) ٢ / ٠١١٩. (*)
ص ٢٥٢
محذور وأضرار، وليس كل الكذب لزيادة المال والجاه وغير ذلك مما يستغنى عنه، فإنه محرم قطعا، إذ فواته لا يوجب ضررا وفسادا وإعداما للموجود بل إنما يوجب فوات حظ من حظوظ النفس. وكذلك فتوى العالم بما لا يحققه وفتوى من ليس له أهلية الافتاء، إظهارا للفضل أو طلبا للجاه والمال، بل هو أشد أنواع الكذب إثما وحرمة، لأنه مع كونه كذبا لما يستغنى عنه، كذب على الله وعلى رسوله. فالكذب إذا كان وسيلة إلى ما يستغنى عنه حرام مطلقا، وإذا كان وسيلة إلى ما لا يستغنى عنه ينبغي أن يوازن (٣٨) محذور الكذب مع محذور الصدق، فيترك أشدهما وقعا في نظر الشرع. وبيان ذلك: أن الكذب في نفسه محذور، والصدق في المواضع المذكورة يوجب محذورا، فينبغي أن يقابل أحد المحذورين بالآخر، ويوازنا بالميزان القسط، فإن كان محذور الكذب أهون من محذور الصدق فله الكذب، وإن كان محذور الصدق أهون وجب الصدق، وقد يتقابل المحذور أن بحيث يتردد فيهما، وحينئذ فالميل إلى الصدق أولى، إذ الكذب أصله الحرمة، وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة، وإذا شك في كون الحاجة مهمة، لزم الرجوع إلى أصل التحريم.
تنبيه التورية والمبالغة up
كل موضع يجوز فيه الكذب، إن أمكن عدم التصريح به والعدول إلى التعريض والتورية، كان الأولى ذلك. وما قيل: إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب، وإن فيها ما يغني الرجل عن الكذب، ليس المراد به أنه يجوز التعريض بدون حاجة واضطرار، إذ التعريض بالكذب يقوم مقام التصريح به، لأن المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه، وهذا موجود في الكذب بالمعاريض. فالمراد أن التعريض
(هامش)
)
٣٨) لم يثبت لهذه الموازنة على عمومها دليل من الشرع، وكل ما ثبت منه تلك المواضع المذكورة آنفا، التي جاز فيها الكذب، وهي:

الإصلاح والحرب والزوجة، وفي الحصر بالمواضع الثلاثة في الروايات المتقدمة دليل على عدم جواز الكذب في غيرها، لا سيما مثل قوله - عليه السلام -. كل كذب مسؤل عنه صاحبه يوما، إلا كذبا في ثلاثة.. ولكن ثبت استثناء بعض المواضع كدفع الظلم، فلا يتعداها.

ص ٢٥٣

يجوز إذا اضطر الإنسان إلى الكذب، ومست الحاجة إليه، واقتضته المصلحة في بعض الأحوال في تأديب النساء والصبيان ومن يجري مجراهم، وفي الحذر عن الظلمة والأشرار في قتال الأعداء. فمن اضطر إلى الكذب في شيء من ذلك فهو جائز له، لأن نطقه فيه إنما هو على مقتضى الحق والدين، فهو في الحقيقة صادق، وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه، لصدق نيته وصحة قصده وإرادته الخير والصلاح، فمثل هذا النطق لا يكون خارجا عن حقيقة لصدق، إذ الصدق ليس مقصودا لذاته، بل للدلالة على الحق، فلا ينظر إلى قالبه وصورته، بل لى معناه وحقيقته. نعم، ينبغي له في هذه المواضع أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلا يصدق اللفظ حينئذ أيضا وإن كان متشاركا مع التصريح في تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في الواقع. وقد كان رسول الله (ص) إذا توجه إلى سفر وراه بغيره، لئلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصدونه. ومما يدل على جواز التعريض مع صحة النية، ما روي في الاحتجاج: أنه سئل الصادق (ع) عن قول الله تعالى في قصة إبراهيم (ع): قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون (٣٩). قال: ما فعله كبيرهم وما كذب إبراهيم. قيل: كيف ذلك؟ فقال: إنما قال إبراهيم فاسألوهم إن كانوا ينطقون، أي إن نطقوا فكبيرهم فعل، وإن لم ينطقوا فلم يفعل كبيرهم شيئا، فما نطقوا وما كذب إبراهيم (ع)، وسئل عن قوله تعالى: أيتها العير إنكم لسارقون (٤٠). قال: إنهم سرقوا يوسف من أبيه، ألا ترى أنه قال لهم حين قالوا: ماذا تفقدون؟ قالوا: تفقد صواع الملك، ولم يقولوا: سرقتم صواع الملك. إنما سرقوا يوسف من أبيه . وسئل عن قول إبراهيم: فنظر نظرة في النجوم. فقال إني سقيم (٤١).

(هامش)

(٣٩) الأنبياء، الآية: ٦٣ (٤٠) يوسف، الآية: ٧٠ (٤١) الصافات، الآية: ٨٨، ٨٩

ص ٢٥٤

قال: ما كان إبراهيم سقيما، وما كذب، إنما عني سقيما في دينه، أي مرتادا . وطريق التعريض والتورية: أن يخبر المتكلم المخاطب بلفظ ذي احتمالين أحدهما غير مطابق للواقع وأظهر في المقام، فيحمله المخاطب عليه، وثانيهما مطابق له يريده المتكلم، كما ظهر من خبر الاحتجاج. ومن أمثلته: أنه إذا طلبك ظالم وأنت في دارك ولا تريد الخروج إليه، أن تقول لأحد أن يضع إصبعه في موضع ويقول: ليس ههنا. وإذا بلغ عنك شيء إلى رجل، وأردت تطييب قلبه من غير أن تكذب، تقول له: إن الله ليعلم ما قلت من ذلك من شيء، على أن يكون لفظة (ما) عندك للابهام، وعند المستمع للنفي. وقد ظهر مما ذكر: إن كل تعريض لغرض باطل كالتصريح في عدم الجواز، لأن فيه تقريرا للغير على ظن كاذب. نعم، قد تباح المعاريض لغرض خفيف، كتطييب قلب الغير بالمزاح، كقول النبي (ص): لا تدخل الجنة عجوز و في عين زوجك بياض و نحملك على ولد بعير ... وقس عليه أمثال ذلك. ومن الكذب الذي يجوز ولا يوجب الفسق، ما جرت به العادة في المبالغة، كقولك: قلت لك كذا مائة مرة، وطلبتك مائة مرة، وأمثال ذلك لأنه لإيراد بذلك تفهيم المرات بعددها، بل تفهيم المبالغة. فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذبا، وإن طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة فلا يأثم، وإن لم تبلغ مائة. ومن الكذب الذي لا إثم عليه ما يكون في أنواع المجاز والاستعارات والتشبيهات، إذ الغرض تفهيم نوع من المناسبة والمبالغة، لا دعوى الحقيقة والمساواة من جميع الجهات. ومن الكذب الذي جرت العادة به، ويتساهل فيه، قول الرجل إذا قيل له: كل الطعام: (لا أشتهيه)، مع كونه مشتهيا له. وهذا منهي عنه كما تدل عليه بعض الأخبار، إلا إذا كان فيه غرض صحيح، وما جرت العادة به قول الرجل: (الله يعلم) فيما لا يعلمه، وهو أشد أنواع الكذب، قال عيسى (ع): إن من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد:

ص ٢٥٥

إن الله يعلم لما لا يعلم . ومن الكذب الذي عظم ذنبه ويتساهل فيه، الكذب في حكاية المنام، قال رسول الله (ص): إن من أعظم الفرية أن يدعي الرجل إلى غير أبيه، أو يرى عينيه في المنام ما لم ير، أو يقول على ما لم أقل . وقال (ص): من كذب في حلم، كلف

يوم القيامة أن يعقد بين شعرتين .
تذنيب شهادة الزور، اليمين الكاذب، خلف الوعد up
من أنواع الكذب وأفحشها: شهادة الزور، واليمين الكاذب، وخلف الوعد. ويدل على ذم الأول قوله تعالى في صفة المؤمنين: والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما (٤٢). وقول النبي (ص): شاهد الزور كعابد الوثن . وعلى ذم الثاني قول النبي (ص): والتجار هم الفجار! فقيل: يا رسول الله، أليس الله قد أحل البيع؟ فقال: نعم! ولكنهم يحلفون فيأثمون، ويحدثون فيكذبون . وقوله (ص): ثلاث نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم: المنان بعطيته، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر، والمسبل إزاره . وقوله (ص): ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة، إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة . وقوله (ص): ثلاث يشنأهم الله: التاجر أو البايع الحلاف، والفقير المختال والبخيل المنان . وعلى ذم الثالث قول النبي (ص): من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فليف إذا وعد . وقول الصادق (ع): عدة المؤمن أخاه نذر لا كفارة له، فمن أخلف فبخلف الله تعالى بدأ ولمقته تعرض، وذلك قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٤٣).
(هامش)
(٤٢) الفرقان، الآية: ٧٢ (٤٣) الصف الآية: ٢ - ٣ (*)
ص ٢٥٦
وقال رسول الله (ص): أربع من كن فيه كان منافقا ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من النفاق، حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر . فمن وعد وكان عند الوعد عازما على ألا يفي، أو كان عازما على الوفاء وتركه بدون عذر فهو منافق. وأما إن عن له عذر من الوفاء، لم يكن منافقا وآثما. وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق، فالأولى أن يحترز عن صورة النفاق أيضا كما يحترز عن حقيقته، وذلك بألا يجزم في الوعد، بل يعلقه على المشية ومثلها.
إيقاظ علاج الكذب up
طريق معالجة الكذب: أولا: أن يتأمل في ما ورد في ذمه من الآيات والأخبار، ليعلم أنه لو لم يتركه لأدركه الهلاك الأبدي. ثم يتذكر أن كل كاذب ساقط عن القلوب في الدنيا ولا يعتني أحد بقوله، وكثيرا ما يفتضح عند الناس بظهور كذبه. ومن أسباب افتضاحه أن الله سبحانه يسلط عليه النسيان، حتى أنه لو قال شيئا ينسى أنه قاله، فيقول خلاف ما قاله، فيفتضح. وإلى ذلك أشار الصادق (ع) بقوله: إن مما أعان الله به على الكذابين النسيان . ثم يتأمل في الآيات والأخبار الواردة في مدح ضده، أعني الصدق كما يأتي، وبعد ذلك إن لم يكن عدوا لنفسه، فليقدم التروي في كل كلام يريد أن يتكلم به، فإن كان كذبا يتركه وليجتنب مجالسة الفساق وأهل الكذب، ويجالس الصلحاء وأهل الصدق.
وصل الصدق ومدحه up
ضد الكذب، وهو أشرف الصفات المرضية، ورئيس الفضائل النفسية، وما ورد في مدحه وعظم فائدته من الآيات والأخبار مما لا يمكن إحصاؤه، قال الله سبحانه: رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه (٤٤). وقال: اتقوا الله وكونوا
(هامش)
(٤٤) الأحزاب، الآية ٢٣ (*)
ص ٢٥٧
مع الصادقين (٤٥). وقال: الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار (٤٦). وقال سبحانه: إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا - إلى قوله - أولئك هم الصادقون (٤٧). وقال عز وجل: ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر. ثم قال: والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا (٤٨). وقال رسول الله (ص) تقبلوا إلي بست أتقبل لكم بالجنة: إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا ائتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم واحفظوا فروجكم . وعن الصادقين - عليهما السلام -: إن الرجل ليصدق حتى يكتبه الله صديقا . وعن الصادق (ع) قال: كونوا دعاة الناس بالخير بغير ألسنتكم، ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع . وعنه (ع): من صدق لسانه زكي عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن

حسن يره بأهل بيته مد له في عمره . وعنه (ع) قال: لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإن ذلك شيء اعتاده، ولو تركه لاستوحش لذلك، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته . وقال (ص) لبعض أصحابه: انظر إلى ما بلغ به علي (ع) عند رسول الله (ص) فالزمه، فإن عليا (ع) إنما بلغ ما بلغ به عند رسول الله بصدق الحديث وأداء الأمانة . وعنه (ع) قال: إن الله لم يبعث نبيا إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البر والفاجر (٤٩). وقال (ع): أربع من كن فيه كمل إيمانه ولو كان ما بين قرنه إلى قدمه ذنوب لم ينقصه ذلك - قال -: هي الصدق، وأداء الأمانة، والحياء، وحسن الخلق . وقد وردت بهذه المضامين أخبار كثيرة أخر. ومن أنواع الصدق الصدق في

(هامش)

(٤٥) التوبة، الآية: ١٢٠ (٤٦) آل عمران الآية ١٧ (٤٧) الحجرات، الآية ١٥ (٤٨) البقرة الآية ١٧٧ (٤٩) صححنا أغلب الأحاديث على أصول الكافي : باب الصدق وأداء الأمانة. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، باب وجوب الصدق وعلى المستدرك ٢ / ٨٤ - ٨٩ ج: ٢ (*)

ص ٢٥٨

الشهادة، وهو ضد شهادة الزور والصدق في اليمين، وهو ضد الكذب فيه، والوفاء بالعهد، وهو ضد خلف الوعد، وهذا القسم من الصدق، أعني الوفاء بالعهد، أفضل أنواع الصدق القولي وأحبها، ولذا أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل به، وقال: إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا (٥٠). قيل: إنه واعد إنسانا في موضع فلم يرجع إليه، فبقي اثنين وعشرين يوما في انتظاره. وروي: أنه بايع رجل رسول الله (ص) ووعده أن يأتيه من مكانه ذلك، فنسي وعده في يومه وغده، وأتاه في اليوم الثالث وهو في مكانه . وقال رسول الله: العدة دين . وقال (ص): الوأي - أي الوعد - مثل الدين أو أفضل .

تكميل أقسام الصدق up

الصدق كالكذب له أنواع ستة: الأول - الصدق في القول، وهو الإخبار عن الأشياء على ما هي عليه، وكمال هذا النوع بترك المعاريض من دون ضرورة، حذرا من تفهيم الخلاف وكسب القلب صورة كاذبة، ورعاية معناه في ألفاظه التي يناجي بها الله سبحانه، فمن قال: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض وفي قلبه سواه، أو قال: إياك نعبد وهو يعبد الدنيا بتقيد قلبه بها إذ كل من تقيد قلبه بشيء فهو عبد له، كما دلت عليه الأخبار، فهو كاذب الثاني - الصدق في النية والإرادة، ويرجع ذلك إلى الإخلاص، وهو تمحيض النية وتخليصها لله، بألا يكون له باعث في طاعاته، بل في جميع حركاته وسكناته، إلا الله. فالشوب يبطله ويكذب صاحبه. الثالث - الصدق في العزم أي الجزم على الخير: فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل، ويقول في نفسه: إن رزقني الله كذا تصدقت منه كذا، وإن خلصني الله من تلك البلية فعلت كذا. فإن كان في باطنه جاز ما على هذا العزم، مصمما على العمل بمقتضاه، فعزمه صادق وإن كان في

(هامش)

(٥٠) مريم، الآية ٥٤ (*)

ص ٢٥٩

عزمه نوع ميل وضعف وتردد، كان عزمه كاذبا، إذ التردد في العزيمة يضاد الصدق فيها، وكان الصدق هنا بمعنى القوة والتمامية، كما يقال: لفلان شهوة صادقة، أي قوة تامة، أو شهوة كاذبة، أي ناقصة ضعيفة. الرابع - الصدق في الوفاء بالعزم: فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لا مشقة في الوعد، فإذا حان حين العمل بمقتضاه، هاجت الشهوات وتعارضت مع باعث الدين، وربما غلبته بحيث انحلت العزيمة ونم يتفق الوفاء بمتعلق الوعد، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال الله سبحانه: رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه (١). الخامس - الصدق في الأعمال: وهو تطابق الباطن والظاهر، واستواء السريرة والعلانية، أو كون الباطن خيرا من الظاهر، بألا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال، بل بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر. وهذا أعلى مراتب الإخلاص، لإمكان تحقق نوع من الإخلاص بما دون ذلك، وهو أن يخالف الباطن الظاهر من دون قصد، فإن ذلك ليس رياء. فلا يمتنع صدق اسم الإخلاص عليه. توضيح ذلك: إن الرياء هو أن تقصد غير الله سبحانه في الأعمال، وقد تصدر عن إنسان

أعمال ظاهرة تدل على أنه صاحب فضيلة باطنة، من التوجه إلى الله والأنس به، أو السكينة والوقار، أو التسليم والرضا وغير ذلك، مع أنه فاقد لها، لحصول الغلبة المانعة عن تحققها، أو اتفاق صدور الأعمال الظاهرة بهذه الهيئة من دون أن يقصد بها مشاهدة غيره سبحانه، فهذا غير صادق في عمله، كاذب في دلالة الظاهر على الباطن. وإن لم يكن مرائيا ولا ملتفتا إلى الخلق، فإذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت من قصد سميت رياء، ويفوت بها الإخلاص، وإن كانت من غير قصد سميت كذبا ويفوت بها الصدق، وربما لم يفت بها بعض مراتب الإخلاص.

وهذا النوع من الصدق - أعني مساواة السر والعلانية أو كونه خيرا منها - أعز من الأنواع السابقة عليه، ولذلك كرر طلبه من الله سيد الرسل (ص) في دعواته بقوله: اللهم اجعل سريرتي خيرا من علانيتي، واجعل علانيتي

(هامش)

(١) الأحزاب، الآية ٢٣ (*)

ص ٢٦٠

صالحة . وورد: أنه إذا ساوت سريرة المؤمن علانيته، باهى الله به الملائكة، يقول: هذا عبدي حقا! . وكان بعض الأكابر يقول: من يدلني على بكاء بالليل بسام بالنار؟ . ولنعم ما قيل: إذا السر والإعلان في المؤمن استوى * فقد عز في الدارين واستوجب الثنا وإن خالف الإعلان سرا فما له * على سعيه فضل سوى الكد والعنا كما خالص الدينار في السوق نافق * ومغشوشه المردود لا يقتضي المنى ومن جملة هذا الصدق: موافقة القول والفعل، فلا يقول ما لا يفعل ولا يأمر بما لا يعمل. فمن وعظ ولم يتعظ في نفسه كان كاذبا. ومن هنا قال أمير المؤمنين (ع): إني والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها .

السادس - الصدق في مقامات الدين: من الصبر، والشكر، والتوكل، والحب، والرجاء، والخوف، والزهد، والتعظيم، والرضا والتسليم، وغير ذلك. وهو أعلى درجات الصدق وأعزها، فمن اتصف بحقائق هذه المقامات ولوازمها وآثارها وغاياتها فهو الصديق الحق، ومن كان له فيها ما يطلق عليه الاسم دون اتصافه بحقائقها وآثارها وغاياتها فهو كاذب فيها. أما ترى أن من خاف سلطانا أو غيره كيف يصفر لونه ويتعذر عليه أكله ونومه ويتنغص عليه عيشه ويتفرق عليه فكره وترتعد فرائصه وتتزلزل أركانه وجوانبه؟ وقد ينزح عن وطنه ويفترق عن أهله وولده، فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالراحة التعب والمشقة، فيعترض للأخطار ويختار مشقة الأسفار، كل ذلك من درك المحذور. فمثل هذا الخوف هو الخوف الصادق المحقق. ثم إن من يدعي الخوف من الله أو من النار، ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند إرادة المعصية وصدورها عنه، نخوفه خوف كاذب.

قال النبي (ص): لم أر مثل النار نام هاربها، ولم أر مثل الجنة نام طالبها . ثم لا غاية لهذه المقدمات حتى يمكن لأحد أن ينال غايتها، بل لكل عبد منها حظ بحسب حاله ومرتبته، فمعرفة الله وتعظيمه والخوف منه غير متناهية، فلذلك لما رأى (ص) جبرئيل على صورته الأصلية، خر مغشيا

ص ٢٦١

عليه، وقال - بعد عودته إلى صورته الأولى وإفاقته -: ما ظننت أحدا من خلق الله هكذا! قال له: فكيف لو رأيت إسرافيل؟ إن العرش على كاهله، وإن رجليه قد مرقتا تخوم الأرضين السفلى، وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع! : أي كالعصفور الصغير. وقال (ص): مررت ليلة أسري بي - أنا وجبرئيل - بالملأ الأعلى كالحلس البالي من خشية الله : أي كالكساء الذي يلقى على ظهر البعير. فأنظر إلى أعاظم الملائكة والنبيين، كيف تصير حالهم من شدة الخشية والتعظيم، وهذا إنما هو لقوة معرفتهم الله وجلاله، وفرق ما لم يدركوه من عظمته وقدرته مراتب غير متناهية. فاختلاف الناس في مراتب الخوف والتعظيم والحب والأنس إنما هو بحسب اختلافهم في معرفة الله، وليس يمكن أن يوجد من بلغ غايتها، فاختلاف الناس إنما هو في القدر الذي يمكن أن يبلغ إليه، والبلوغ إليه في الجميع أيضا نادر، فالصادق في جميع المقامات عزيزا جدا. ومن علامات هذا الصدق: كتمان المصائب والطاعات جميعا، وكراهة اطلاع الخلق عليها. وقد روي: أن الله تعالى أوحى إلى موسى (ع): أني إذا أحببت عبدا ابتليته ببلايا لا تقوى لها الجبال، لأنظر كيف صدقه، فإن وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا، وإن وجدته جزوعا يشكوني إلى خلقي خذلته ولم أبال . وقال الصادق (ع): إذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب، فانظر في صدق معناك وعقد دعواك، وغيرهما بقسطاط من الله عز وجل كأنك في القيامة،

قال الله عز وجل: والوزن يومئذ الحق (٢). فإذا اعتدل معناك بغور دعواك ثبت لك الصدق.
وأدنى حد الصدق ألا يخالف اللسان القلب ولا القلب اللسان، ومثل الصادق الموصوف بما ذكرنا كمثل النازع لروحه، إن لم ينزع فماذا يصنع (٣).
(هامش)
(٢) الأعراف، الآية: ٧ (٣) هذا الحديث في مصباح الشريعة : الباب ٧٥ فصححناه عليه (*)
ص ٢٦٢
تنبيه اللسان أضر الجوارح up
إعلم أن أكثر ما تقدم من الرذائل المذكورة في هذا المقام: من الكذب والغيبة، والبهتان، والشماتة، والسخرية، والمزاح وغيرها، وفي المقام الثالث - أعني التكلم بما لا يعني والفضول والخوض في الباطل - من آفات اللسان وهو أضر الجوارح بالانسان، وأعظمها إهلاكا له، وآفاته أكثر من آفات سائر الأعضاء، وهي وإن كانت من المعاصي الظاهرة، إلا أنها تؤدي إلى مساوئ الأخلاق والملكات. إذ الأخلاق إنما ترسخ في النفس بتكرير الأعمال، والأعمال إنما تصدر من القلب بتوسط الجوارح، وكل جارحة تصلح لأن تصدر منها الأعمال الحسنة الجالبة للأخلاق الجميلة، وأن تصدر منها الأعمال القبيحة المورثة للأخلاق السيئة، فلا بد من مراعاة القلب والجوارح معا بصرفهما إلى الخيرات ومنعهما من الشرور. وعمدة ما تصدر منه الذمائم الظاهرة المؤدية إلى الرذائل الباطنية هو اللسان، وهو أعظم آفة للشيطان في استغواء نوع الإنسان، فمراقبته أهم، ومحافظته أوجب وألزم. والسر فيه - كما قيل -: إنه من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فإنه وإن كان صغيرا جرمه، عظيم طاعته وجرمه، إذ لا يتبين الإيمان والكفر إلا بشهادته، ولا يهتدي إلى شيء من أمور النشأتين إلا بدلالته، وما من موجود أو معدوم إلا وهو يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي، إذ كل ما يتناوله العلم يعبر عنه اللسان إما بحق أو باطل، ولا شيء إلا والعلم يتناوله.
وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، إذ العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والأذن لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء، واللسان رحب الميدان وسيع الجولان، ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى ولا حد، فله في الخير مجال رحب، وفي الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وإهماله مرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان، وأوقعه في أودية الضلالة والخذلان، وساقه الله شفا جرف هار، إلى أن يضطره إلى الهلاك والبوار، ولذلك قال سيد
ص ٢٦٣
الرسل (ص): هل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟ (٤). فلا ينجى من شر اللسان إلا أن يقيد بلجام الشرع، ولا يطلق إلا فيما ينفع في الدنيا والآخرة، ويكف عن كل ما يخشى غائلته في العاجلة والآجلة، وعلم ما يحمد إطلاق اللسان فيه أو يذم غامض عزيز، والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير، وهو أعصى الأعضاء على الإنسان، إذ لا تعب في تحريكه ولا مؤنة في إطلاقه، فلا يجوز التساهل في الاحتراز عن آفاته وغوائله، وفي الحذر عن مصائده وحبائله. والآيات والأخبار الواردة في ذمه وفي كثرة آفاته وفي الأمر بحافظته والتحذير عنه كثيرة، وهي بعمومها تدل على ذم جميع آفاته مما ممر ومما يأتي. قال الله سبحانه: ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (٥). وقال: لا خير في كثير من نجواهم، إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس (٦).
وقال رسول الله (ص): من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه، أتكفل له بالجنة . وقال (ص): من وقي شر قبقبه وذبذبه ولقلقه، فقد وقي (٧): والقبقب: البطن، والذبذب: الفرج، واللقلق: اللسان. وقيل له (ص): ما النجاة؟ قال: أملك عليك لسانك . وقال (ص): أكبر ما يدخل الناس النار إلا جوفان: الفم، والفرج ، والمراد بالفم: اللسان. وقال (ص): وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟ . وقال له رجل: ما أخوف ما يخاف علي؟ فأخذ بلسانه، وقال: هذا . وقال (ص): لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه . وقال (ص): إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا (٨).
(هامش)
(٤) رواه في أصول الكافي : باب الصمت وحفظ اللسان، فصححناه عليه (٥) ق، الآية: ١٨. (٦) النساء، الآية: ١١٣ (٧)

تقدم هذا الحديث في ٢ / ٤ (٨) صححناه الحديث على كنز العمال : ٢ / ١١١ (*)
ص ٢٦٤
وقال له رجل: أوصني! فقال (ص): أعبد الله كأنك تراه وعد نفسك في الموتى، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله - وأشار بيده إلى لسانه . وقال (ص): إن الله عند لسان كل قائل، فليتق الله امرؤ على ما يقول . وقال (ص): من لم يحسب كلامه من عمله، كثرت خطاياه وحضر عذابه . وقال (ص): يعذب الله اللسان بعذاب لا يعذبه به شيئا من الجوارح، فيقول: أي رب! عذبتني بعذاب لم تعذب به شيئا من الجوارح. فيقال له: خرجت منك كلمة بلغت مشارق الأرض ومغاربها، فسفك بها الدم الحرام، وانتهب بها المال الحرام، وانتهك بها الفرج الحرام. وعزتي وجلالي! لأعذبنك بعذاب لا أعذب به شيئا من جوارحك! . وقال (ص): إن كان في شيء شوم ففي اللسان . وقال أمير المؤمنين (ع) لرجل يتكلم بفضول الكلام: يا هذا! إنك تملي على حافظيك كتابا إلى ربك، فتكلم بما يعنيك، ودع ما لا يعنيك (٩). وقال أمير المؤمنين (ع): المرء مخبوء تحت لسانه، فزن كلامك، واعرضه على العقل والمعرفة، فإن كان لله وفي الله فتكلم، وإن كان غير ذلك فالسكوت خير منه، وليس على الجوارح عبادة أخف مؤنة وأفضل منزلة وأعظم قدرا عند الله كلام فيه رضى الله عز وجل ولوجهه ونشر آلائه ونعمائه في عباده، ألا إن الله لم يجعل فيما بينه وبين رسله معنى يكشف ما أسر إليهم من مكنونات علمه ومخزونات وحيه غير الكلام، وكذلك بين الرسل والأمم، فثبت بهذا أنه أفضل الوسائل (والكلف والعبادة) (١٠). وكذلك لا معصية أثقل على العبد وأسرع عقوبة عند الله وأشدها ملامة وأعجلها سآمة عند الخلق منه، واللسان ترجمان الضمير وصاحب خبر القلب، وبه ينكشف ما في سر الباطن، وعليه يحاسب الخلق يوم القيامة، والكلام خمر يسكر العقول ما كان منه لغير الله، وليس شيء أحق بطول السجن من اللسان (١١). وقال السجاد (ع): إن لسان ابن آدم يشرف في
(هامش)
(
٩) صححنا الأحاديث الأربعة على أصول الكافي : باب الصمت وحفظ اللسان وعلى (الوافي): ٢ / ٣٤٠ وعلى (البحار) ٢ مج ١٥ / ١٨٨، ١٨٩ باب السكوت والصمت (١٠) وفي نسخ جامع السعادات : وألطف العبادات (١١) صححنا الحديث على مصباح الشريعة : الباب ٤٦ (*)
ص ٢٦٥
كل يوم على جوارحه كل صباح، فيقول: كيف أصبحتم؟ فيقولون بخير إن تركتنا! ويقولون: الله الله فينا! ويناشدونه ويقولون: إنما نثاب ونعاقب بك . وقال الصادق (ع): ما من يوم إلا وكل عضو من أعضاء الجسد يكفر اللسان، يقول: نشدتك الله أن نعذب فيك! (١٢).
تتميم الصمت up
لما علمت كون اللسان شر الأعضاء وكثرة آفاته وذمه، فاعلم أنه لا نجاة من خطره إلا بالصمت، وقد أشير فيما سبق: أن الصمت ضد لجميع آفات اللسان، وبالمواظبة عليه تزول كلها، وهو من فضائل قوة الغضب أو الشهوة، وفضيلته عظيمة وفوائده جسيمه، فإن فيه جمع ألهم، ودوام الوقار، والفراغ للعبادة والفكر والذكر، وللسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسناته في الآخرة، ولذا مدحه الشرع وحث عليه، قال رسول الله (ص): من صمت نجا . وقال: الصمت حكم، وقليل فاعله . وقال (ص): من كف لسانه ستر الله عورته . وقال (ص): ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن: الصمت وحسن الخلق . وقال (ص): من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو وليسكت . وقال (ص): رحم الله عبدا تكلم خيرا فغنم، أو سكت عن سوء فسلم . وجاء إليه (ص) أعرابي وقال: دلني على عمل يدخلني الجنة. قال: أطعم الجائع واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وإنه عن المنكر، فإن لم تطق، فكف لسانك إلا من خير . وقال (ص): أخزن لسانك إلا من خير، فإنك بذلك تغلب الشيطان وقال (ص): إذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فأدنوا منه، فإنه يلقن الحكمة . وقال صلى الله عليه وآله: الناس ثلاثة: غانم، وسالم، وشاحب، فالغانم: الذي يذكر الله، والسالم: الساكت، والشاحب: الذي يخوض في الباطل . وقال (ص): إن لسان المؤمن وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره ثم أمضاه بلسانه. وإن

لسان المنافق أمام قلبه،
(هامش)
(١٢) الحديثان الأخيران مرويان في الكافي : ج ٢ باب الصمت. قال في (الوافي) ٢ / ٣٤٠: يكفر اللسان: أي يذل ويخضع، والتفكير: هو أن ينحني الإنسان ويطأطئ رأسه قريبا من الركوع (*)
ص ٢٦٦
فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه . وقال (ص): أمسك لسانك، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك .. ثم قال: ولا يعرف عبد حقيقة الإيمان حتى يخزن من لسانه . وقال (ص) لرجل أتاه: ألا أدلك على أمر يدخلك الله به الجنة؟ قال: بلى يا رسول الله! قال: أنل مما أنالك الله! قال: فإن كنت أحوج ممن أنيله؟ قال: فانصر المظلوم. قال: فإن كنت أضعف ممن أنصره، قال: فاصنع للأخرق - يعني أشر عليه -. قال: فإن كنت أخرق ممن أصنع له. قال: فاصمت لسانك إلا من خير، أما يسرك أن تكون فيك خصلة من هذه الخصال تجرك إلى الجنة؟ . وقال (ص): نجاة المؤمن حفظ لسانه . وجاء رجل إليه (ص): يا رسول الله أوصني! قال: احفظ لسانك. قال: يا رسول الله أوصني! قال: احفظ لسانك. قال: يا رسول الله أوصني! قال: احفظ لسانك. ويحك! وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟ . وقيل لعيسى بن مريم (ع): دلنا على عمل ندخل به الجنة. قال: لا تنطقوا أبدا. قالوا: لا نستطيع ذلك. قال: فلا تنطقوا إلا بخير . وقال (ع) أيضا: العبادة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت، وجزء في الفرار عن الناس . وقال: لا تكثروا الكلام في غير ذكر الله، فإن الذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله قاسية قلوبهم ولكن لا يعلمون . وقال لقمان لابنه: يا بني، إن كنت زعمت أن الكلام من فضة، فإن السكوت من ذهب . وقال أبو جعفر الباقر (ع): كان أبو ذر يقول: يا مبتغي العلم، إن هذا اللسان مفتاح خير ومفتاح شر، فاختم على لسانك كما تختم على ذهبك وورقك . وقال (ع): إنما شيعتنا الخرس . وقال الصادق عليه السلام لمولى له يقال له (سالم) - بعد أن وضع يده على شفتيه -: يا سالم، احفظ لسانك تسلم، ولا تحمل الناس على رقابنا . وقال عليه السلام: في حكمة آل داود: على العاقل أن يكون عارفا بزمانه، مقبلا على شأنه، حافظا للسانه . وقال (ع): لا يزال العبد المؤمن
ص ٢٦٧
يكتب محسنا ما دام ساكتا، فإذا تكلم كتب محسنا أو مسيئا . وقال عليه السلام: النوم راحة للجسد، والنطق راحة للروح، والسكوت راحة للعقل . وقال (ع): الصمت كنز وافر، وزين الحليم، وستر الجاهل . وقال أبو الحسن الرضا (ع): إحفظ لسانك تعز، ولا تمكن الناس من قيادك فتذل رقبتك . وقال (ع): من علامات الفقه: الحلم، والعلم، والصمت، إن الصمت باب من أبواب الحكمة، إن الصمت يكسب المحبة، إنه دليل على كل خير . وقال (ع): كان الرجل من بني إسرائيل إذا أراد العبادة صمت قبل ذلك بعشر سنين (١٣). وفي (مصباح الشريعة) عن مولانا الصادق (ع) قال: الصمت شعار المحققين بحقائق ما سبق وجف القلم به، وهو مفتاح كل راحة من الدنيا والآخرة، وفيه رضا الرب، وتخفيف الحساب والصون من الخطايا والزلل وقد جعله الله سترا على الجاهل وزينا للعالم، ومعه ومعه عزل الهوى، ورياضة النفس، وحلاوة العبادة، وزوال قسوة القلب، والعفاف والمروة والظرف. فأغلق باب لسانك عما لك منه بد، لا سيما إذا لم تجد أهلا للكلام والمساعد في المذاكرة لله وفي الله. وكان ربيع بن خيثم يضع قرطاسا بين يديه، فيكتب كل ما يتكلم به ثم يحاسب نفسه عشية، ما له وما عليه، ويقول: آه آه! نجا الصامتون وبقينا. وكان بعض أصحاب رسول الله (ص) يضع الحصاة في فمه، فإذا أراد أن يتكلم بما علم أنه لله وفي الله ولوجه الله أخرجها. وإن كثيرا من الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يتنفسون تنفس الغرقى، ويتكلمون شبه المرضى. وإنما سبب هلاك الخلق ونجاتهم الكلام والصمت. فطوبى لمن رزق معرفة عيب الكلام وهوائه، وعلم قدر الكلام أحسن صحبة الصمت ومن أشرف على ما في لطائف الصمت واؤتمن على خزائنه كان كلامه وصمته كله عبادة، ولا يطلع على عبادته
(هامش)
(
١٣) صححنا الأحاديث هنا على أصول الكافي : باب الصمت، وعلى الوسائل كتاب الحج، الباب ١١٧ من أحكام العشرة، وعلى

المستدرك ٢ / ٨٨، ٨٩، وعلى سفينة البحار ٢ / ٥٠، ٥١ وعلى البحار ٢ مج ١٥ / ١٨٩ باب السكوت والصمت، وعلى إحياء العلوم ٣ / ٩٣ - ٩٥، وعلى كنز العمال ٢ / ٧٢ و١١١ (*)

ص ٢٦٨

هذه إلا الملك الجبار (١٤). وقد ظهر من هذه الأخبار، أن الصمت مع سهولته أنفع للانسان من كل عمل، وكيف لا يكون كذلك، وخطر اللسان الذي هو أعظم الأخطار وآفاته التي هي أشد المهلكات لا ينسد إلا به؟ والكلام وإن كان في بعضه فوائد وعوائد، لا أن الامتياز بين الممدوح والمذموم منه مشكل، ومع الامتياز فالاقتصار على مجرد الممدوح عند أطلاق اللسان أشكل، وحينئذ فالصمت عما لا جزم بتضمنه للخير والثواب من الكلام أولى وأنفع. وقد نقل: إن أربعة من أذكياء الملوك - ملك الهند، وملك الصين وكسرى، وقيصر - تلاقوا في وقت، فاجتمعوا على ذم الكلام ومدح الصمت فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل. وقال الآخر: إني إذا تكلمت بالكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني. وقال الثالث: عجبت للمتكلم، إن رجعت عليه كلمته ضرته، وإن لم ترجع لم تنفعه. وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت . ومنها:

• حب الجاه والشهرة up

والمراد بالشهرة: انتشار الصيت، ومعنى الجاه: ملك القلوب وتسخيرها بالتعظيم والاطاعة والانقياد له. وبعبارة أخرى: قيام المنزلة في قلوب الناس، وإنما تصير القلوب مملوكة مسخرة للشخص، باشتمالها على اعتقاد اتصافه بكمال حقيقي، أو بما يظنه كما لا، من علم وعبادة، أو ورع وزهادة، أو قوة وشجاعة، أو بذل وسخاوة، أو سلطنة وولاية، أو منصب ورياسة، أو غنى ومال، أو حسن وجمال، أو غير ذلك مما يعتقده الناس كمالا. وتسخير القلوب وانقيادها على قدر اعتقادها، وبحسب درجة ذلك الكمال عندها، فبقدر ما يعتقد أرباب القلوب تذعن له قلوبهم، وبقدر إذعانها تكون قدرته عليهم، وبقدر قدرته يكون فرحه وحبه للجاه. ثم تلك القلوب تبعث أربابها على المدح والثناء، فإن المعتقد للكمال لا يسكت

(هامش)

(١٤) مصباح الشريعة: الباب ٢٧ (*)

ص ٢٦٩

عن ذكر ما يعتقده فيثني عليه، وعلى الخدمة والإعانة، فإنه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده، وعلى الإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير والابتداء بالسلام وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد. (تنبيه): حب الجاه والشهرة إن كان من حيث إيجابهما الغلبة والاستيلاء حتى ترجع حقيقة إلى حبهما، وكان طالبهما طالبا لهما، فهو من رذائل قوة الغضب، وإن كان من حيث التوصل بهما إلى قضاء الشهوات وحظوظ النفس البهيمية، فهو من رذائل قوة الشهوة، وإن كان من الحيثيتين فهو من رذائلهما بالاشتراك، بمعنى مدخلية كل منهما في حدوث خصوص هذه الصفة. والأصل اشتراك القوتين في حدوث حب الجاه والشهرة - كما ذكرناه في جملة ما يتعلق بهما معا - بخلاف حب المال، فإن الغالب أن حبه من حيث التوصل به إلى قضاء حظوظ القوة الشهوية، وكونه لمجرد الاستيلاء عليه بالمالكية والتمكن على التصرف فيه نادر، ولذا ذكرناه فيما يتعلق بقوة الشهوة.

فصل ذم حب الجاه والشهرة up

إعلم أن حب الجاه والشهرة من المهلكات العظيمة، وطالبهما طالب الآفات الدنيوية والأخروية، ومن اشتهر اسمه وانتشر صيته لا يكاد أن تسلم دنياه وعقباه، إلا من شهره الله لنشر دينه من غير تكلف طلب للشهرة منه. ولذا ورد في ذمهما ما لا يمكن إحصاؤه من الآيات والأخبار: قال الله سبحانه: تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا (١٥). وقال: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون (١٦). وهذا بعمومه متناول لحب الجاه، لأنه أعظم لذة من لذات الحياة

(هامش)

(١٥) القصص، الآية: ٨٣. (١٦) هود، الآية: ١٥ - ١٦ (*)

ص ٢٧٠

الدنيا وأكبر زينة من زينتها. وقال رسول الله (ص): حب الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل . وقال (ص): ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فسادا من حب الجاه والمال في دين الرجل المسلم . وقال (ص): حسب امرئ من الشر

إلا من عصمه الله أن يشير الناس إليه بالأصابع . وقال أمير المؤمنين (ع): تبذل ولا تشتهر، ولا ترفع شخصك لتذكر، وتعلم واكتم، واصمت تسلم، تسر الأبرار وتغيظ انفجار . وقال الباقر عليه السلام. لا تطلبن الرياسة ولا تكن ذنبا، ولا تأكل الناس بنا فيفقرك الله وقال الصادق (ع): إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون، فوالله ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك! وقال (ع): ملعون من هم بها، ملعون من حدث بها نفسه! . وقال (ع): من أراد الرياسة هلك . وقال (ع): أترى لا أعرف خياركم من شراركم؟ بلى والله! إن شراركم من أحب أن يوطأ عقبه، إنه لا بد من كذاب أو عاجز الرأي (١٧). والأخبار بهذه المضامين كثيرة، ولكثرة آفاتها لا يزال أكابر العلماء وأعاظم الأتقياء يفرون منهما قرار الرجل من الحية السوداء، حتى أن بعضهم إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام من مجلسه، وبعضهم يبكي لأجل أن أسمه بلغ المسجد الجامع، وبعضهم إذا تبعه أناس من عقبه التفت إليهم وقال: على م تتبعوني، فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما تبعني منكم رجلان . وبعضهم يقول: لا أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح . وآخر يقول: لا يجد حلاوة الآخر رجل يحب أن يعرفه الناس . وآخر يقول: والله ما صدق الله عبد إلا سره ألا يشعر بمكانه . ومن فساد حب الجاه: أن من غلب على قلبه حب الجاه، صار مقصور الهم على مراعاة، الخلق، مشغوفا بالتودد إليهم والمراءاة لأجلهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله متلفتا إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر

(هامش)

(

١٧) الأحاديث الخمسة الأخيرة صححناها على أصول الكافي : باب طلب الرياسة و الوسائل : كتاب الجهاد، الباب ٤٩ من أبواب جهاد النفس (*)

ص ٢٧١

النفاق وأصل الفساد، ويجر لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها، وإلى اقتحام المحظورات للتوصل بها إلى اقتناص القلوب، ولذلك شبه رسول الله حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين، وقال: إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل ، إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول والفعل، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس يضطر إلى النفاق معهم، وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها، وذلك عين النفاق.

فصل الجاه أحب من المال up

إن لملك القلوب ترجيح على ملك المال بوجوه: الأول - أن المال معرض التلف والزوال، لأنه يغصب ويسرق وتطمع فيه الملوك والظلمة، ويحتاج فيه إلى الحفظ والحراسة ٤ وتتطرق إليه أخطار كثيرة. وأما القلوب إذا ملكت، فهي من هذه الآفات محفوظة نعم إنما يزول ملك القلوب بتغيير اعتقادها فيما صدقت به من الكمال الحقيقي أو الوهمي. الثاني - إن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو الزاهد الذي تقرر له جاه في القلوب، لو قصد اكتساب المال تيسر له بسهولة، لأن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب، ومبذولة لمن أذعنت له بالانقياد واعتقدت فيه أوصاف الكمال، وأما الخسيس العاري عن الكمال إذا ظفر بكثرة من المال ولم يكن له جاه يحفظ به ماله وأراد أن يتوصل به إلى الجاه، لم يتيسر له. الثالث - أن ملك القلوب يسري وينمو ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومشقة، إذ القلوب إذا أذعنت بشخص واعتقدت اتصافه بعلم أو عمل أو غيره، أفصحت الألسنة بما فيها لا محالة، فيصف ما يعتقده لغيره وهو أيضا يذعن به ويصفه لآخر، فلا يزال يستطار في الأقطار، ويسري من واحد إلى واحد، إلى أن يجتمع معظم القلوب على التعظيم والقبول. وأما المال، فمن ملك شيئا منه فلا يقدر على استنمائه إلا بتعب ومقاساة. ولهذه الوجوه تستحقر الأموال في مقابلة عظم الجاه وانتشار الصيت وانطلاق

ص ٢٧٢

الألسنة بالمدح والثناء.

فصل لا بد للانسان من جاه up

كما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة المطعم والملبس والمسكن ومثله ليس بمذموم، فكذلك لا بد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، إذ الإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام والمال الذي يباع به الطعام فكذلك لا يستغني عن خادم

يخدمه ورفيق بعينه وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار، فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المنزلة ما يدعوه إلى الخدمة وفي قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته، وفي قلب السلطان من المحل ما يدفع به الشر عنه، ليس بمذموم. إذ الجاه كالمال وسيلة إلى الأغراض، فلا فرق بينهما، إلا أن هذا يقضي إلى ألا يكون المال والجاه محبوبين بأعيانهما بل من حيث التوصل بهما إلى غيرهما. ولا ريب في أن كل ما يراد به التوصل إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوسل إليه دون الوسيلة. ومثل هذا الحب مثل حب الإنسان أن يكون في داره بيت الخلاء لقضاء حاجته ولو استغنى عن قضاء الحاجة، ولم يضطر إليه كره اشتمال داره على بيت الخلاء ومثل أن يحب زوجته ليدفع بها فضلة الشهوة، ولو كفي مؤنة الشهوة لأحب مهاجرتها، وإذا كان حبهما لضرورة البدن والمعيشة لا لذاتهما لم يكن مذموما، والمذموم أن يحبهما لذاتهما. وفيما يجاوز ضرورة البدن كحب زوجته لذاتها حب العشاق حتى لو كفي مؤنة الشهوة لبقي مستصحبا لحبها. ثم حبهما بأعيانهما وإن كان مذموما مرجوحا، لكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمله الحب على مباشرة معصية، وما لم يتوصل إلى اكتسابهما بكذب وخداع وتلبيس، كأن يظهر للناس قولا أو فعلا اعتقدوا لأجله اتصافه بوصف ليس فيه، مثل العلم والورع أو علو النسب وبذلك يطلب قيام المنزلة في قلوبهم، وما لم يتوصل إلى اكتسابهما بعبادة، إذ التوصل إلى المال والجاه بالعبادة جناية على الدين وهو حرام، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور، كما يأتي. وأما طلبهما بصفة هو متصف بها، فهو مباح غير مذموم، وذلك

ص ٢٧٣

كقول يوسف (ع): إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم (١٨). حيث طلب المنزلة في قلب الملك بكونه حفيظا عليما، وكان صادقا في قوله. وكذا طلبهما بإخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه، حتى لا يعلمه فلا تزول به منزلته في قلبه مباح غير مذموم، إذ حفظ الستر على القبائح جائز، بل لا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح، وهذا ليس فيه كذب وتلبيس بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة للعلم به، كالذي يخفي عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقي إليه أنه ورع، فإن قوله إنه ورع تلبيس، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع، بل يمنع العلم بالشرب، وهو جائز شرعا وعقلا.

فصل دفع إشكال في حب المال والجاه up

إن قيل: الوجه في حبهما بالعرض وفي حب قدر ما يضطر إليهما في المعيشة وضرورة البدن ظاهر، فما الوجه في حبهما بأعيانهما وفي حب الزائد عن قدر الضرورة منهما؟ كحب جمع المال، وكنز الكنوز، وادخار الذخائر، واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات، وحب اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصي البلاد التي يعلم قطعا أنه قط لا يطؤها ولا يشاهد أهلها ليعظموه ويعينوه على غرض من أغراضه، فإنه مع ذلك يلتذ به غاية الالتذاذ ويسر به غاية السرور، حتى لا يجد في نفسه لذة أقوى منه، ويراه فوق جميع لذاته وابتهاجاته. قلنا: الوجه في ذلك أمران: الأول - دفع ألم الخوف الناشئ من سوء الظن وطول الأمل. فإن الإنسان وإن كان له من المال ما يكفيه في الحال، إلا أنه لطول أمله قد يخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره، فإذا خطر ذلك بباله، هاج الخوف في قلبه، ولا يزول ألم الخوف إلا بالأمن الحاصل من وجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال آفة، فهو أبدا لحبه

(هامش)

(١٨) يوسف الآية: ٥٥ ج: ٢ (*)

ص ٢٧٤

للحياة وشفقته على نفسه يقدر طول الحياة وهجوم الحاجات، ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال ويستشعر الخوف من ذلك، فيطلب ما يدفع خوفه، وهو كثرة المال، حتى إن أصيب بطائفة من ماله يفزع إلى الأخرى. وهذا خوف لا موقف له عند مقدار مخصوص من المال، ولذلك لم يكن لميله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا، ولذلك قال (ص): منهومان لا يشبعان: منهوم العلم، ومنهوم المال . ومثل هذه العلة تطرد في حب قيام المنزلة والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده، فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن، أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه، ويحتاج إلى الاستعانة بهم ومهما كان ذلك ممكنا، كان للنفس لذة وسرور بقيام المنزلة في قلوبهم، لما فيه من الأمن من هذا الخوف. الثاني - أن الإنسان مركب من أصول مختلفة: هي القوة الشهوية، والقوة السبعية، والقوة الشيطانية، والروح الذي هو أمر رباني، ولذلك له ميل إلى صفات بهيمية، كالأكل والوقاع، وإلى صفات سبعية، كالقتل

والإيذاء، وإلى صفات شيطانية، كالمكر والخديعة والإغواء، وإلى صفات ربوبية، كالعلم والقدرة والكبر والعز والفخر والاستعلاء. فهو لما فيه من الأمر الرباني يحب الربوبية بالطبع، ومعنى الربوبية التوحد بالكمال، والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال، والاستيلاء على جميع الأشياء بالغلبة، واستناد الكل إليه بالصدور منه والمعلولية. وبالجملة: مقتضى الربوبية التفرد بالوجود والكمال ورجوع كل وجود وكمال إليه، إذ هو التام فوق التمام، ولا يتحقق ذلك إلا بالتفرد بالوجود والكمال والقدرة والاستيلاء على جميع ما عداه.

إذ المشاركة في الوجود نقص لا محالة، فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها، فلو كانت معها شمس أخرى كان ذلك نقصانا في حقها، إذ لم تكن متفردة بكمال معنى الشمسية فإذا كان معنى الربوبية هو التفرد بالوجود والكمال، وكل إنسان كان فيه أمر رباني، فالتفرد بالوجود والكمال محبوب له بالطبع، وضده - أعني العبودية - قهر على نفسه، لأنه علم أن المتفرد بالوجود والكمال هو الله تعالى، إذ ليس معه موجود سواه، فإن ما سواه أثر من آثار قدرته

ص ٢٧٥

لا قوام له بذاته، بل هو قائم به، وليس له معية بالوجود بالنسبة إليه تعالى، إذ المعية توجب المساواة في الرتبة، وهي نقصان في الكمال، إذ الكامل الحقيقي من لا نظير له في الوجود، والكمال بوجه من الوجوه وإن كان لغيره وجود وكمال بعد كونه صادرا منه معلولا له، إذ تحقق الموجودات وذوات الممكنات لا يوجب نقصانا في ذاته سبحانه بعد استنادها جميعها إليه، وكونها أضعف منه بمراتب غير متناهية في الوجود والكمال شدة وقوة، فكما إن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصانا في الشمس، بل هو من جملة كمالها، وإنما نقصانها بوجود شمس أخرى مساوية لها في الرتبة مستغنية عنها، فكذلك وجود كل ما في العالم إذا كان من أشراق نور القدرة الإلهية تابعا لها، لم يكن ذلك نقصانا في الواجب سبحانه، بل كان كمالا له. ولما علم ذلك، وتيقن بأن التفرد بالوجود والكمال والاستيلاء التام على جميع الأشياء لا يليق به، لأنه عبد مملوك مقهور تحت القدرة الإلهية، عرف أنه عاجز عن درك منتهى الكمال الذي هو التفرد بالوجود والاستيلاء أي كون وجود غيره منه. إلا أنه لم تسقط شهوته للكمال، بل هو محب له ملتذ به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال، وطالب لتحصيل ما يتمكن منه. فمطلق الكمال محبوب عنده، إلا أن طلبه إنما يتعلق بالكمال الممكن في حقه ومن الكمال الممكن في حقه أن يحصل له نوع استيلاء على كل الموجودات، فكان ذلك محبوبا عنده ومطلوبا له.

ولما كانت الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغير، كذات الواجب وصفاته وعالم المجردات، وإلى ما يقبل التغيير ولكن لا تستولي عليه قدرة الخلق بالتصرف، كالأفلاك والكواكب وملكوت السماوات ونفوس الملائكة والجن والشياطين والجبال والبحار وغير ذلك، وإلى ما يقبل التغير وتستولي عليه قدرة العباد، كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان، ومن جملتها قلوب الآدميين ونفوسهم لكونها قابلة للتغيير والتأثير مثل أجسادهم وأجساد سائر الحيوانات - فلم يكن للانسان أن يتصور إمكان استيلائه على الكل بالتصرف فيه، فلم يتعرض لطلب ذلك، بل أحب في كل منها نوع الاستيلاء

ص ٢٧٦

الذي يمكن في حقه والاستيلاء، الذي يمكنه في حقه بالنظر إلى القسمين الأولين هو الإحاطة عليه بالعلم والاطلاع على أسراره، لأن ذلك نوع استيلاء. إذ المعلوم المحاط به تحت القدرة، والعالم كالمستولي عليه. ولذلك أحب الإنسان أن يعرف الواجب تعالى والملائكة والأفلاك والكواكب وعجائب الملك والملكوت، لأن ذلك نوع استيلاء، والاستيلاء نوع كمال. وأما القسم الثالث، فيمكنه أن يستولي عليه بالتصرف فيه كيف يريد فيقدر على الأراضي والأملاك بأن يتصرف فيها بالحيازة والضبط والزرع والغرس، وعلى الأجساد الأرضية الحيوانية والنباتية والجمادية بالركوب والضبط والحمل والرفع والوضع والتسليم والمنع، وعلى نفوس الآدميين وقلوبهم بأن تكون مسخرة متصرفة تحت إشارته وإرادته وصيرورتها محبة له باعتقاد الكمال فيه. ولكون هذا النوع من الاستيلاء نوع كمال، أحب الإنسان هذا الاستيلاء على الأموال والقلوب، وإن كان لا يحتاج إليهما في ملبسه ومطعمه وفي شهوات نفسه، ولذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأحرار ولو بالقهر والغلبة. وقد ظهر مما ذكر: إن محبوب النفس بذاتها هو الكمال بالعلم والقدرة، والمال والجاه محبوب لكونه من أسباب القدرة. ولما كانت المعلومات والمقدورات غير متناهية، فلا يكاد أن تقف النفس إلى حد من العلم والقدرة، ولهما درجات غير متناهية، فسرور كل نفس ولذتها بقدر الدرجة التي تدركها.

فصل الكمال الحقيقي في العلم والقدرة والمال والجاه up

لما عرفت أن المحبوب عند الإنسان هو العلم والقدرة والمال والجاه لما عرفت أن المحبوب عند الإنسان هو العلم والقدرة والمال والجاه لكونها كمالا، فاعلم أنه اشتبه الأمر عليه بإغواء الشيطان، حيث التبس عليه الكمال الحقيقي بالوهمي، وتيقن بكون جميع ذلك كمالا وأحبه. إذ التحقيق أن بعضها كمال حقيقي وبعضها كمال وهمي لا أصل له، والسعي في طلبه جهل وخسران وتضييع وقت وخذلان. بيان ذلك: إنه لا ريب في عدم كون المال والجاه كمالا، لأن القدرة والاستيلاء على أعيان الأموال بوجوه التصرف وعلى القلوب والأبدان
ص ٢٧٧
بالتسخير والانقياد ينقطع بالموت، فمن ظن ذلك كمالا فقد جهل. فالخلق كلهم في غمرة هذا الجهل، فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال. ولما اعتقدوا كون ذلك كمالا أحبوه، ولما أحبوه طلبوه، ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه، فنسوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله، أعني العلم والحرية كما يأتي. فهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى: المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا (١٩). فالعلم والحرية وفضائل الأخلاق هي الباقيات الصالحات التي تبقى كمالا للنفس بعد خراب البدن، والمال والجاه هو الذي ينقضي على القرب، وهو كما مثله الله تعالى، حيث قال: إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض... (٢٠). وكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا، وكل ما لا يقطعه الموت فهو من الباقيات الصالحات. فقد ظهر أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال وهمي لا أصل له، وإن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصودا فهو جاهل، إلا قدر البلغة منها إلى الكمال الحقيقي. وأما العلم، فلا ريب في كون ما هو حقيقة العلم كمالا حقيقيا، إذ الكمال الحقيقي هو الذي يقرب من يتصف به من الله ويبقى كمالا للنفس بعد الموت. ولا شك في أن العلم بالله وبصفاته وأفعاله وحكمته في ملكوت السماوات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو المقرب للعبد
(هامش)
(١٩) الكهف، الآية: ٤٧ (٢٠) يونس، الآية: ٢٤ (*)
ص ٢٧٨
إلى الله، إذ هو علم ثابت لا يقبل التغيير والانقلاب، إذ معلوماته أزلية أبدية وليس لها تغيير وانقلاب، حتى يتغير العلم بتغيرها مثل التغيرات التي يتغير العلم بها بتغيرها وانقلابها، كالعلم بكون زيد في الدار. فهو علم ثابت أزلا وأبدا من دون تغير واختلاف، كالعلم بجواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات. فهذا العلم - أعني معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله - هو الكمال الحقيقي الذي يبقى بعد الموت وينطوي فيه العلم بالنظام الجملي الأصلح وجميع المعارف المحيطة بالموجودات وحقائق الأشياء، إذ الموجودات كلها من أفعاله، فمن عرفها من حيث هي فعل الله ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة، كانت هذه المعرفة من تكملة معرفة الله التي تبقى كمالا للنفس بعد الموت، وتكون نورا للعارفين بعد الموت يسعى بين أيديهم وأيمانهم: يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ، وهي رأس مال يوصل إلى كشف ما لم ينكشف في الدنيا، كما أن من معه سراج خفي، فإنه يجوز أن يصير ذلك سببا لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه، فيكمل النور بذلك النور الخفي على سبيل الاستتمام، ومن ليس معه أصل السراج لا مطمع له في ذلك. فمن ليس له أصل معرفة الله لم يكن له مطمع في هذا النور، بل هو في ظلمات في بحر لجي، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض . وما عدا هذه المعرفة من المعارف، إما لا فائدة فيه أصلا، كمعرفة الشعر وأنساب العرب ومثلها، أو له منفعة في معرفة الله، كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار، ومعرفة طريق تزكية النفس التي تفيد استعدادا لقول الهداية إلى معرفة الله، كما قال تعالى: قد أفلح من زكاها (٢١). وقال: والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (٢٢). فهو من حيث إنه وسيلة إلى معرفة الله وإلى تحصيل الحرية مما لا بد منه بالعرض.
(هامش)
(٢١) الشمس، الآية: ٩ (٢٢) العنكبوت، الآية: ٦٩ (*)
ص ٢٧٩

ثم إن المعرفة التي هي كمال حقيقي للانسان ليس كمال العلم وغايته، إذ لا يتصور كمال العلم ونهايته إلا للواجب تعالى، إذ كمال العلم إنما يتحقق بأمور ثلاثة: الأول - أن يحيط بكل المعلومات، ولا يتحقق ذلك في علم البشر. إذ ما أوتي من العلم إلا قليلا، بل العلم الذي يحيط بجميع المعلومات هو علم الله تعالى، وعلم العبد إنما يتحقق ببعض المعلومات، وكلما كانت معلوماته أكثر كان علمه أقرب إلى علم الله تعالى. الثاني - أن يتعلق بالمعلوم على ما هو به، ويكون المعلوم منكشفا واضحا في غاية الانكشاف والوضوح، بحيث لا يقبل انكشافا أتم منه. وهذا أيضا غير ممكن التحقيق في حق الإنسان، إذ علمه لا يخلو عن كدرة وإبهام، بل الكشف التام الذي هو غاية الظهور والانجلاء مختص بعلم الله تعالى: إذ معلوماته مكشوفة بأتم أنواع الكشف على ما هي عليها، وعلم العبد له ببعض مراتب الانكشاف، فكلما كان أجلى وأوضح وأتقن وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفاته، كان أقرب إلى علم الله. الثالث - أن يكون باقيا أبدا الآباد، بحيث لا يتغير ولا يزول. وهذا أيضا مختص بعلم الله تعالى، إذ علمه تعالى باق لا يتصور أن يختلف ويتغير ويزول وعلم الإنسان يتغير ويزول فكلما كان علمه بمعلومات لا تقبل التغير والانقلاب كان أقرب إلى علم الله تعالى. هذا، ومن الكمالات للانسان: التحلي بفضائل الأخلاق والصفات، لإيجابها صفاء النفس المؤدي إلى البهجة الدائمة والحرية، أعني الخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر، تشبها بالملائكة الذين لا تستغرقهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب، إذ رفع آثار الشهوة الغضب من النفس كمال حقيقي، لأنه من صفات الملائكة، ومن صفات الكمال لله سبحانه عدم تطرق التغيير والتأثير على حريم كبريائه، فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان إلى الله أقرب.

وأما القدرة، فقد قال بعض العلماء: أما القدرة فليس فليس فيها كمال حقيقي للعبد، إذ القدرة الحقيقية لله، وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته، فهي حادثة بأحداث الله تعالى. نعم له كمال من جهة

ص ٢٨٠

القدرة بالإضافة إلى الحال، وهي وسيلة إلى كمال العلم، كسلامة أطرافه وقوة يده للبطش، ورجله للمشي، وحواسه للادراك، فإن هذه القوى آلة للوصول به إلى حقيقة كمال العلم، وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه للتوصل به إلى المطعم والملبس، وذلك إلى قدر معلوم: فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة الله فلا خير فيه البتة، إلا من حيث اللذة الحالية التي تنقضي على القرب، ولا طريق للعبد إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته، إذ قدرته على كل شيء من الأرضيات، كالمال والأبدان والنفوس، تنقطع بالموت . وأنت خبير بأن تحقق نوع قدرة للعباد مما لا ريب فيه، وإن كانت أسبابها وأصلها من الله سبحانه، إلا أن القدرة على الأمور الدنيوية الفانية كالمال والأشخاص وغير ذلك، ليست كمال حقيقيا، لزوالها بالموت. نعم، الحق ثبوت القدرة النفسية للعبد - أعني تأثير نفسه في الغير من الكائنات تأثيرا روحانيا كما هو ظاهر من تأثير بعض النفوس في الإنسان والحيوان والنبات والجماد بأنواع التأثيرات، ومثل هذه القدرة تبقى للنفوس بعد الموت ولذا ترى أن من يستغيث ببعض النفوس الكاملة من الأموات يرى منها عجائب التأثيرات والاستفاضات، فما ذكره بعض العلماء من عدم بقاء قدرة للنفوس بعد الموت محل النظر. وقد ظهر بما ذكر: إن الكمال الحقيقي للانسان هو العلم الحقيقي وفضائل الأخلاق والحرية والقدرة

فصل علاج حب الجاه up

إعلم أن علاج حب الجاه مركب من علم وعمل. وعلاجه العلمي: أن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الجاه - وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم إن صفا وسلم - فآخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات بل لو سجد له كل من على وجه الأرض إلى خمسين سنة أو أكثر لا بد بالآخرة من موت الساجد والمسجود له، ويكون حاله كحال من مات قبله من ذوي

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

## ٢٠١٠ جامع السعادات (ج2)

الصفحة السابقة ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ٢٨١
الجاه مع المتواضعين له. ولا ينبغي للعاقل أن يترك بمثل ذلك الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها. ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي - كما سبق - صغر الجاه في عينه، إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحقر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده، وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب، كما قال الله تعالى: بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى (٢٣). وقال: كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة (٢٤). فمن هذه مرتبته، فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بمعرفة الآفات العاجلة، وهو أن يفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا فإن كل ذي محسود مقصود بالإيذاء، وخائف على الدوام على جاهه، ولا يزال في الاضطراب والخوف من أن تتغير منزلته في القلوب. مع أن قلوب الناس أشد تغيرا وانقلابا من القدر في غليانه، وهي مرددة بين الإقبال والإعراض، فكلما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر فإنه لا ثبات له. والإشغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء اشتغال عن الله وتعرض لمقته في العاجل والأجل كل ذلك غموم عاجلة مكدرة للذة الجاه، فلا يبقى في الدنيا أيضا مرجوها بمخوفها، فضلا عما يفوت في الآخرة. فبهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة وأما من نفذت بصيرته وقوي إيمانه فلا التفات له إلى الدنيا.
فهذا هو العلاج العلمي وأما العلاج العملي: فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بالأنس بضد الجاه الذي هو الخمول ويقنع بالقبول من الخالق، وأقوى العلاج لقطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة إلى مواضع الخمول، لا مجرد الاعتزال في بيته في البلدة التي هو فيها مشهور، لأن المعتزل في بيته في البلدة التي هو فيها مشهور عند أهلها لا يخلو بسبب عزلته عن حب المنزلة التي تترسخ له في القلوب، فربما يظن أنه ليس محبا لذلك الجاه وهو مغرور، وإنما سكنت
(هامش)
(٢٣) الأعلى، الآية: ١٦ - ١٧ (٢٤) القيامة: ٢٠ - ٢١ (*)
ص ٢٨٢
نفسه لأنها ظفرت بمقصودها، ولو تغير الناس عما اعتقدوا فيه وذموه أو نسبوه إلى أمر غير لائق، ربما جزعت نفسه وتألمت وتوصلت إلى الاعتذار من ذلك وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ولا يبالي به، وبه يتبين أنه بعد محب للجاه والمنزلة، ولا يمكنه إلا يحب المنزلة في قلوب الناس ما دام يطمع في الناس، ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة. فمن قنع استغنى عن الناس، وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب وزن عنده، بل من لم يطمع في الناس وكان من أهل المعرفة، كان الناس عنده كالبهائم، فكيف يكون طالبا لقيام منزلته في قلوبهم؟ والحاصل: إن الغالب والباعث على قيام المنزلة في قلوب الناس هو الطمع منهم، ولذا ترى أنك لا تطلب قيام منزلتك في قلوب من في أقصى المشرق أو المغرب، لعدم طمع لك فيهم، ثم ينبغي أن يستعين على المعالجة بالأخبار الواردة في ذم الجاه - كما مر - وفي مدح الخمول، كما يأتي.
فصل حب الخمول up
ضد حب الجاه والشهرة حب الخمول، وهو شعبة من الزهد، كما أن حب الجاه شعبة من حب الدنيا. فحب الدنيا والزهد ضدان. ثم الخمول من صفات المؤمنين وخصال الموقنين، وقد كانت طوائف العرفاء المتوحدين ومن يماثلهم من سلفنا الصالحين محبين له طالبين إياه. وكل من عرف الله وأحبه وأنس به، كان محبا للخمول متوحشا من الجاه وانتشار الصيت، كما تنادي به كتب السير والتواريخ. قد وردت بمدحه أخبار كثيرة، كقول رسول الله (ص): إن اليسير من الرياء شرك، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى، يتحول من كل غبراء مظلمة . وقوله (ص): رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، لو قال: اللهم أسألك الجنة! لاعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا . وقوله (ص): ألا أدلكم على أهل الجنة؟ كل ضعيف مستضعف، لو أقسم على الله لأبره . وقوله
ص ٢٨٣
- صلى الله عليه وآله: إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لم ينصت لهم. حوائج أحدهم تتخلخل في صدره، لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم . وقوله

(ص): إن من أمتي من لو أتى أحدكم يسأله دينارا لم يعطه إياه، أو يسأله درهما لم يعطه إياه ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاها إياه، ولو سأله الدنيا لم يعطها إياه وما منعها إياه لهوانه عليه . وقوله (ص): قال الله عز وجل: إن من أغبط أوليائي عندي رجلا حفيف الحال، ذا خط من صلاة، أحسن عبادة ربه بالغيب، وكان غامضا في الناس، جعل رزقه كفافا فصبر عليه، عجلت منيته فقل تراثه وقل بواكيه (٢٥). وورد: إن الله تعالى يقول في مقام الامتنان على بعض عبيده: ألم أنعم عليك؟ ألم أسترك؟ ألم أنحمل ذكرك؟ . وقال بعض خيار الصحابة: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب: تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض . ومن اطلع على أحوال أكابر الدين والسلف الصالحين من إيثارهم الخمول والذل على الجاه والشهرة والغلبة، ثم في ما ورد في مدحهما من الأخبار، تيقن بأنهما من أوصاف المؤمنين، ولا بد للمؤمن من الاتصاف بهما، ولذا ورد: أن المؤمن لا يخلو عن ذلة أو علة أو قلة . ومنها:

• حب المدح up

وكراهة الذم. وهما من نتائج حب الجاه، ومن المهلكات العظيمة، إذ كل محب للمدح والثناء خائف من الذم، يجعل أفعاله وحركاته على ما يوافق رضا الناس، رجاءا للمدح وخوفا من الذم. فيختار رضا المخلوق على رضا الخالق، فيرتكب المحظورات ويترك الواجبات، ويتهاون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتعدى عن الإنصاف والحق، وكل ذلك من المهلكات، وليس للمؤمن أن يحوم حولها، بل المؤمن من لم يؤثر قط

(هامش)

(٢٥) تقدم الحديث في ٢ / ٥٩، وذكرنا في التعليقة تفسير معنى حفيف (*)

ص ٢٨٤

رضا المخلوق على رضا الخالق، ولا تأخذه في الله لومة لائم. ولعظم فساد حب المدح وبغض الذم ورد في ذمهما ما ورد في الأخبار، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - إنما هلك الناس باتباع الهوى وحب الثناء . وقال - صلى الله عليه وآله -: رأس التواضع أن تكره أن تذكر بالبر والتقوى . وقال (ص) لرجل أثنى على آخر بحضرته: لو كان صاحبك حاضرا فرضي بالذي قلت فمات على ذلك، دخل النار . وقال (ص) لما مدح آخر: ويحك! قطعت ظهره! ولو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة . وقال (ص): ألا لا تمادحوا! وإذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب . وقال (ص): ويل للصائم! وويل للقائم! وويل لصاحب التصوف! إلا من... فقيل: يا رسول الله، إلا من؟ فقال: لا من تنزهت نفسه عن الدنيا، وأبغض المدحة واستحب المذمة .

فصل مراتب حب المدح وكراهة الذم up

إعلم أن لحب المدح وكراهة الذم مرتبتين: أولاهما: أن يفرح بالمدح ويشكر المادح، ويغضب من الذم ويحقد على الذام، ويكافيه أو يحب مكافأته. وهذا حال أكثر الخلق، ولا حد لأتمها. وأخراهما: أن يفرح باطنه ويرتاح للمادح، ولكن يحفظ ظاهره من إظهار السرور، ويتبغض في الباطن على الذام، ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته. وهذه وإن كانت نقصانا، إلا أنها بالنظر إلى الأولى كمال. وباعتبار آخر، لحب المدح درجات: الأولى - أن يتمنى المدح وانتشار الصيت بحيث يتوصل إلى نيلهما بكل ممكن، حتى يرائي بالعبادات ولا يبالي بمفارقة المحظورات، لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح. وهذا من الهالكين. الثانية - أن يريد ذلك ويطلبه بالمباحات لا بالعبادات وارتكاب المحضورات، وهذا على شفا جرف الهلاك. إذ حدود الكلام والأعمال التي يستميل بها القلوب لا يمكنه أن يضبطها، فيوشك أن يقع فيما لا يحل له ليتوصل به إلى نيل المدح. فهو قريب من الهالكين. الثالثة - ألا يريد المدح ولا يسعى لطلبه، ولكن إذا مدح سر وارتاح

ص ٢٨٥

من غير وجدان كراهة في نفسه لهذا السرور والارتياح. وهذا أيضا نقصان وإن كان أقل إثما بالإضافة إلى ما قبله. الرابعة - أن يسر ويرتاح، ولكن كره هذا السرور والارتياح، وكلف قلبه كراهة المدح وبغضه، وهو في مقام المجاهدة، ولعل الله يسامحه إذا بذل جهده. ومع ذلك لم يقدر على ربط نفسه على كراهة المدح دائما.

فصل أسباب حب المدح up

حب المدح والثناء له أسباب. الأول - شعور النفس بكمالها، فإن الكمال لما كان محبوبا فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها، فإن كان ما به المدح وصفا مشكوكا فيه صادر عن خبير بصير لا يجازف في القول، كالوصف بكمال العلم والورع وبالحسن المطلق، فاللذة فيه عظيمة لأن الإنسان ربما كان شاكا في كمال علمه وكمال حسنه ويكون شائقا لزوال هذا الشك، فإذا ذكره غيره، (لا) سيما إذا كان من أهل البصيرة أورث ذلك طمأنينة وثقة بوجود ذلك الكمال، فعظمت لذته، ولو كان صادرا ممن لا بصيرة له، كانت لذته أقل لقلة الاطمئنان بقوله. وإن كان ما به المدح وصفا جليا، كاعتدال القامة وبياض اللون، كانت لذته في غاية القلة، لأن ثناءه لا يورث ما ليس له من الطمأنينة والثقة، إلا أنه لا يخلو عن لذة ما، إذ النفس قد تغفل عنه فتخلو عن لذته، فتنبهها عليه بالمدح يورث لذة ما. ولضد هذه العلة يبغض الذم أيضا، لأنه يشعر بنقصان في نفسه، والنقصان ضد الكمال. الثاني - إن المدح يدل على أن قلب المادح ملك الممدوح، وأنه مريد له معتقد فيه ومسخر تحت مشيته، وملك القلوب محبوب، والشعور بحصوله لذيذ، ولذلك تعظم اللذة مهما صدرت ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص كان المادح ممن يعتنى بقوله، وهذا يختص بمدح يقع على الملأ. الثالث - إن المدح سبب اصطياد قلب كل من يسمعه، لا سيما إذا قلبه كالملوك والأكابر، ولضد هذه العلة يكره الذم ويتألم القلب به.

ص ٢٨٦

الرابع - أن المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء عليه طوعا أو قهرا، والحشمة محبوبة لما فيها من الغلبة والقدرة، فشعور النفس بها يورث لذة، وهذه اللذة تحصل وإن علم الممدوح أن المادح لا يعتقد بما يقوله، إذ ما يطلبه يحصل منه، ولضد هذه العلة يبغض الذم أيضا. وهذه الأسباب قد تجتمع في مدح واحد فيعظم به الالتذاذ، وقد تفترق فينتقص ويندفع استشعار الكمال، بأن يعلم الممدوح أن المادح غير صادق في مدحه، فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله بطلت اللذة الثانية أيضا، وهو استيلاءه على قلبه، وبقيت لذة الاستيلاء بالحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالمدح.

فصل علاج المدح وكراهة الذم up

إذا علم أن حب المدح وكراهة الذم من المهلكات، فيجب أن يبادر إلى العلاج. وعلاج الأول، أن يلاحظ أسبابه، ويعلم أن شيئا منها لا يصلح حقيقة لأن يكون سببا له. أما استشعار الكمال بالمدح، فلأن المادح إن صدق فليكن الفرح من فضل الله حيث أعطاه هذه الصفات، وإن كذب فينبغي أن يغمه ذلك ولا يفرح به لأنه استهزاء به، مع أن الفرح مطلقا في صورة الصدق من السفاهة، إذ الوصف الذي مدح به إن كان مما لا يستحق الفرح به، كالثروة والجاه وغيرهما من المطالب الدنيوية، فالفرح به من قلة العقل، لأنها كمالات وهمية لا أصل لها، وإن كان مما يستحق الفرح به كالعلم والورع، فالفرح إنما هو لكونه مقربا إلى الله، وهذا فرع حسن الخاتمة وهو غير معلوم. ففي الخوف من خطر الخاتمة شغل شاغل من الفرح بكل شيء. وأما دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سببا لتسخير قلب من يسمعه، فحب ذلك يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب، وقد سبق طريق معالجته. وأما دلالته على الحشمة، فإنها ليست إلا قدرة عارضة ناقصة لا ثبات لها، والعاقل لا يفرح بمثلها.

ص ٢٨٧

وأما علاج الثاني: - أعني كراهة الذم - فيعلم بالمقايسة على علاج حب المدح. والقول الوجيز فيه: إن من يذمك إن كان صادقا وقصده النصح والإرشاد، فلا ينبغي أن تبغضه وتغضب عليه، بل ينبغي أن تفرح وتجتهد في إزالة الصفة المذمومة عن نفسك، وما أقبح بالمؤمن أن يغضب على من يحسن إليه ويريد هدايته وإن كان قصده الإيذاء والتعنت، فلا ينبغي لك أيضا أن تبغضه وتكره ذلك، لأنه أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلا به، وذكرك إياه إن كنت غافلا عنه، وقبحه في عينك إن كنت متذكرا له. وعلى التقادير قد استفدت منه ما تنتفع به، وينبغي لك أن تغتنمه وتبادر إلى إزالة عيبك. وإن كان كاذبا مفتريا عليك بما أنت منه برئ، فينبغي لك أيضا ألا تكره ذلك ولا تشتغل بذمه، لأنك وإن خلوت من ذلك العيب إلا أنك لا تخلو من عيب آخر مساوية له وأفحش منها، فاشكر الله تعالى على أنه سترها ولم يطلع أحدا عليها، ودفعها بذكر ما أنت منه برئ، مع أنه كفارة لبقية مساويك. ومن ذمك أهدى إليك حسناته وجني على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه عليك، فما بالك تحزن بحط ذنوبك وإهداء الحسنات إليك؟ ولم

تغضب عليه، مع أن الله سبحانه غضب عليه وأبعده من رحمته؟ فإن ذلك كاف لانتقامك منه.
وصل ضد حب المدح up
ضد حب المدح وكراهة الذم: إما كراهة المدح وحب الذم، أو مساواتهما عنده بحيث لا تسره المدحة ولا تغمه المذمة. وقد تقدم بعض الأخبار الدالة على ذم من لم يتصف بالحالة الأولى. وهي وإن كانت نادرة الوجود، إذ ما أقل على بسيط الأرض - (لا) سيما في هذه الأعصار - من تستوي عنده المدحة والمذمة، فضلا عمن يكره المدح ويسر بالذم، إلا أن تحصيلها ممكن إذ كل من عرف أن المدح مضر بدينه وقاصم لظهره، فلا بد أن يكرهه ويبغض المادح، لو كان عاقلا مشفقا على نفسه. وكذا من عرف أن الذام له يرشده إلى عيوبه ويهدي إليه بعض حسناته، لا بد أن يحبه ويسر بذمه. وأما الحالة الثانية، فهي أولى درجات الكمال، ومن لم يتصف بها
ص ٢٨٨
فهو ناقص. فالاتصاف بها لازم على كل مؤمن. وربما ظن بعض الناس اتصافه بها، مع كونه فاقدا لها. فمن ظن ذلك من نفسه، فلا بد أن يمتحن نفسه بعلاماتها، حتى يظهر له صدق ظنه وكذبه، وعلاماته: ألا يكون سعيه ونشاطه في قضاء حوائج المادح أكثر منهما في قضاء حوائج الذام، وألا يتفاوت همه وحزنه لأجل موتهما وابتلائهما بمصيبة، وألا تكون ذلة المادح أخف في قلبه وعينه من ذلة الذام، وألا يكون جلوس الذام عنده أثقل ولا قيامه أهون من جلوس المادح وقيامه. وبالجملة: أن يستويا عنده من كل وجه. فمن وجد نفسه استواءهما في جميع الجهات، فهو ممن يتساوى عنده المدح والذم. ومنها:
• الرياء up
وهو طلب المنزلة في قلوب الناس بخصال الخير أو ما يدل عليها من الآثار. فهو من أصناف الجاه، إذ هو طلب المنزلة في القلوب بأي عمل اتفق، والرياء طلب المنزلة بأدائه خصال الخير أو ما يدل على الخير. ثم خصال الخير يشمل أعمال البر بأسرها، وهي أعم من العادات إن خصت العبادة بمثل الصلاة والصوم والحج والصدقة وأمثال ذلك ومساوقة لها إن أريد بالعبادة كل فعل يقصد به التقرب ويترتب عليه الثواب. إذ على هذا كل عمل من أعمال الخير، سواء كان من الواجبات أو المندوبات أو المباحات في الأصل إذا قصد به القربة كان طاعة وعبادة، وإن لم يقصد به ذلك لم يكن عبادة ولا عمل خير، ولو كان مثل الصلاة. وربما خص الرياء عادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة بالمعنى الأخص. والمراد بالآثار الدالة على الخيرية هي كل فعل ليس في ذاته بر أو خيرا، وإنما يستدل به على الخيرية. وهي إما متعلقة بالبدن، كإظهار النحول والصفار ليستدل بهما على قلة الأكل أو الصوم وسهر الليل، ويوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة الخوف من الله ومن أهوال الآخرة، وتخفض الصوت ليستدل به على أن وقار الشرع قد خفض صوته... وقس عليها غيرها من
ص ٢٨٩
الأمور المعلقة بالبدن، الدالة على الخيرية قصدا إلى تحصيل المنزلة في قلوب الناس، وكل ذلك يضر بالدين وينافي الورع واليقين، ولذا قال عيسى (ع): إذا صام أحدكم، فليدهن رأسه، ويرجل شعره، ويكحل عينيه ، خوفا من نزع الشيطان بالرياء. ثم هذه مراءاة أهل الدين بالبدن، وأما أهل الدنيا فيراؤن في البدن بإظهار السمن وصفاء اللون ونظافة البدن وحسن الوجه وأمثال ذلك. أو متعلقة بالزي والهيئة كحلق الشارب وإطراق الرأس في المشي، والهدوء في الحركة، وإبقاء أثر السجود في الجبهة، ولبس الصوف أو الثواب الخشن أو الأبيض وتعظيم العمامة ولبس الطيلسان والدراعة، وأمثال ذلك مما يدل على العلم والتقوى أو الانخلاع عن الدنيا. والمراؤن من أهل الدين بالزي واللباس على طبقات: منهم من يرى طلب المنزلة بالثياب الخشنة، ومنهم من يرى بالثياب الفاخرة، ومنهم من يرى بالوسخة، منهم من يراه بالنظيفة، وللناس فيما يعشقون مذاهب. وأما أهل الدنيا فلا ريب في أنهم يراؤن في اللباس بلبس الثياب النفيسة وركوب المراكب الرفيعة وأمثال ذلك. أو متعلقة بالقول والحركات كإظهار الغضب والأسف على المنكرات ومقارفة الناس للمعاصي، ليستدل بها على حمايته للدين وشدة اهتمامه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع أن قلبه لم يكن متأثرا عن ذلك، وكإرخاء الجفون وتنكيس الرأس عند الكلام وإظهار الهدوء والسكون في المشي، ليستدل بذلك على وقاره، وربما أسرع المرائي في المشي إلى حاجة فإذا اطلع عليه واحد رجع إلى الوقار خوفا من أن ينسب إلى عدم الوقار، فإذا غاب الرجل عاد إلى عجلته. أو متعلقة بغير ذلك كمن يتكلف أن يكثر الزائرون له والواردون عليه (لا) سيما من العلماء والعباد والأمراء ليقال إن أهل الدين والعظماء يتبركون بزيارته.

فصل ذم الرياء up
الرياء من الكبائر الموبقة والمعاصي المهلكة وقد تعاضدت الآيات والأخبار ج: ٢
ص ٢٩٠
على ذمه، قال سبحانه: فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن ويمنعون الماعون (٢٦). وقال سبحانه: فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا (٢٧). وقال سبحانه يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا (٢٨) وقال: كالذي ينفق ماله رئاء الناس (٢٩). وقال رسول الله (ص): إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول الله عز وجل يوم القيامة للمرائين إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن لهم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء . وقال (ص): استعيذوا بالله من جب الحزن قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: واد في جهنم أعد للقراء المرائين . وقال (ص): يقول الله تعالى: من عمل لي عملا أشرك فيه غيري فهو له كله، وأنا منه برئ، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك . وقال - صلى الله عليه وآله وسلم -: لا يقبل الله تعالى عملا فيه مثقال ذرة من رياء . وقال (ص): إن أدنى الرياء الشرك . وقال (ص): إن المرائي ينادي عليه يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائي ضل عملك وحبط أجرك إذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له . وكان (ص) يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ قال إني تخوفت على أمتي الشرك أما إنهم لا يعبدون صنما ولا شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولكنهم يراؤن بأعمالهم . وقال (ص): سيأتي على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم وتحسن فيه علانيتهم طمعا في الدنيا لا يريدون به ما عند ربهم، يكون دينهم رياء لا يخالطهم خوف، يعمهم الله بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم وقال: إن الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجا به فإذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل: اجعلوها في سجين إنه ليس إياي أراد به (٣٠) وقال (ص): إن الحفظة تصعد بعمل
(هامش)
(
٢٦) الماعون، الآية: ٤ - ٧ (٢٧) الكهف، الآية: ١١٠ (٢٨) النساء، الآية: ١٤٢ (٢٩) البقرة، الآية: ٢٦٤ (٣٠) صححنا الحديث وكذا ما قبله على أصول الكافي باب الرياء وباقي الأحاديث النبوية على إحياء العلوم ج ٣ ص ٢٥٤ (*)
ص ٢٩١
العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة واجتهاد وورع، لها دوي كدوي الرعد وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك، فيجاوزون به إلى السماء السابعة، فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به جوارحه، اقفلوا به على قلبه، إني أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجه ربي، إنه أراد بعمله غير الله، إنه أراد رفعة عند الفقهاء وذكرا عند العلماء وصيتا في المدائن، أمرني أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، وكل عمل لم يكن لله خالصا فهو رياء، ولا يقبل الله عمل المرائي، قال (ص): وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر الله تعالى وتشيعه ملائكة السماوات حتى يقطع الحجب كلها إلى الله فيقفون به بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله، قال: فيقول الله تعالى لهم أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على نفسه، إنه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري فعليه لعنتي فتقول الملائكة كلهم عليه لعنتك ولعنتنا، وتقول السماوات كلها على لعنة الله ولعنتنا، وتلعنه السماوات السبع ومن فيهن . وقال أمير المؤمنين (ع): أخشوا الله خشية ليست بتعذير (٣١) واعملوا بغير رياء ولا سمعة فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى عمله يوم القيامة وقال الباقر (ع): الإبقاء على العمل أشد من العمل قيل: وما الإبقاء على العمل؟ قال: يصل الرجل بصلة وينفق نفقة لله وحده لا شريك له فتكتب له سرا ثم يذكرها فتمحى فتكتب له علانية ثم يذكرها فتمحى فتكتب له رياء . وقال الصادق (ع): قال الله تعالى أنا خير شريك فمن عمل لي ولغيري فهو لمن عمل له غيري .
وقال (ع): قال الله تعالى: أنا أغنى الأغنياء عن الشريك فمن أشرك معي غيري في عمل لم أقبله إلا ما كان لي خالصا . وقال (ع): كل رياء شرك، إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله . وعن أبي عبد الله (ع) في قول الله عز وجل:
(هامش)

(٣١) قال في الوافي في باب الرياء ٣ / ٤٠٠: بيان (بتعذير) بحذف المضاف - أي ذات تعذير، وهو بالعين المهملة والذال المعجمة بمعنى التقصير. (*)
ص ٢٩٢
فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا . قال: الرجل يعمل شيئا من الثواب لا يطلب به وجه الله إنما يطلب تزكية الناس، يشتهي أن يسمع به الناس فهذا الذي أشرك بعبادة ربه ثم قال: ما من عبد أسر خيرا فذهبت الأيام أبدا حتى يظهر الله له خيرا، وما من عبد يسر شرا فذهبت الأيام أبدا حتى يظهر الله له شرا . وقال (ع): ما يصنع أحدكم إن يظهر حسنا ويسر سيئا أليس يرجع إلى نفسه فيعلم أن ذلك ليس كذلك والله عز وجل يقول: بل الإنسان على نفسه بصيرة . إن السريرة إذا صحت قويت العلانية . وقال (ع): من أراد الله بالقليل من عمله أظهر الله له أكثر مما أراده به ومن أراد الناس بالكثير من عمله في تعب من بدنه وسهر من ليله أبى الله إلا أن يقلله في عين من سمعه . وقال (ع): لعباد البصري: ويلك يا عباد! إياك والرياء فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى من عمل له . وقال (ع): إجعلوا أمركم هدا لله ولا تجعلوه للناس فإنه ما كان لله فهو لله وما كان للناس فهو لا يصعد إلى الله . وقال الرضا (ع) لمحمد بن عرفة: ويحك يا بن عرفة أعملوا لغير رياء ولا سمعة فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل، ويحك ما عمل أحد عملا إلا أراده الله به إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا (٣٢). وكفى للرياء ذما أنه يوجب الاستحقار لله وجعله أهون من عباده الضعفاء الذين لا يقدرون نفعا ولا ضرا، إذ من قصد بعبادة الله عبدا من عبيده فلا ريب في أن ذلك لأجل ظنه بأن هذا العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنه أولى بالتقرب إليه منه تعالى وأي استحقار بمالك الملوك أشد من ذلك.
فصل أقسام الرياء up
الرياء إما في العبادات أو غيرها (والأول) حرام مطلقا وصاحبه ممقوت
(هامش)
(٣٢) صححنا الأحاديث عن آل البيت عليهم السلام على أصول الكافي باب الرياء وعلى البحار مج ١٥: ٣ / ٤٣ وعلى الوسائل - ج ١ الباب ١١، ١٢، ١٤ من أبواب مقدمة العبادات - (*)
ص ٢٩٣
عند الله وهو يبطل أصل العبادة ولأن الأعمال بالنيات، والمرائي بالعبادة لم يقصد امتثال أمر الله بل قصد أدراك مال أو جاه أو غرض آخر من الأغراض فلا يكون ممتثلا لأمر الله خارجا من عهدة التكليف، ثم مع بطلان عبادته وعدم خروجه عن عهدة التكليف يكون له أثم على حدة لأجل الرياء، كما دلت عليه الآيات والأخبار، فيكون أسوأ حالا ممن ترك العبادة رأسا، كيف لا والمرائي بالعبادة جمع بين الاستهزاء بالله والتلبيس والمكر لأنه خيل إلى الناس أنه مطيع لله من أهل الذين وليس كذلك. وأما الرياء بغير العبادات، فقد يكون مذموما، وقد يكون مباحا، وقد يكون مستحبا، وقد يكون واجبا، إذ يجب على المؤمن صيانة عرضه وألا يفعل ما يعاب عليه، فلا يليق بذوي المروات أن يرتكبوا الأمور الخسيسة بأنفسهم عند مشاهدة الناس وإن جاز لهم ذلك في الخلوة، ومن زين نفسه باللباس أو غيره في أعين الناس حذرا من لومهم واستثقالهم أو استقذارهم إياه كان ذلك مباحا له، إذ الحذر من ألم الذم غير مذموم، إلا أن ذلك يختلف باختلاف الأزمنة والبلاد والأشخاص من العباد، فربما كان بعض أقسام الرياء بغير العبادات مذموما بالنظر إلى وقت أو شخص أو بلد غير مذموم بالنظر إلى آخر. روي: أن رسول الله (ص) أراد يوما أن يخرج على أصحابه، فكان ينظر في حب من الماء ويسوي عمامته وشعره، فقيل له: أو تفعل ذلك يا رسول الله؟ فقال: نعم، إن الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم . وقال أمير المؤمنين عليه السلام: يتزين أحدكم لأخيه المسلم كما يتزين للغريب الذي يحب أن يراه في أحسن الهيئة ، وقال الصادق (ع): الثوب النقي يكبت العدو .
وروي: أنه (ع) نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئا وهو يحمله، فلما رآه الرجل استحى منه، فقال (ع): اشتريته لعيالك وحملته إليهم، أما والله لولا أهل المدينة لأحببت أن أشتري لعيالي الشيء ثم احمله إليهم (٣٣) أراد (ع) لولا مخافة أن يعيبوه على
(هامش)

(٣٣) تقدم هذا الحديث ١ / ٣٥٨ والأحاديث الثلاثة الأخيرة صححناها على الوسائل - كتاب الصلاة، أبواب أحكام الملابس، الباب ٤ - ٦ (*)
ص ٢٩٤
ذلك لفعل مثل فعله، إلا أنه لما كان في زمان يعاب عليه بمثله لم يجز له أن يرتكبه، ولما لم يكن ذلك مما يعاب عليه في زمن أمير المؤمنين (ع) كان يرتكبه وكان ذلك منقبة له وتعليما. فظهر أن ارتكاب بعض الأمور وعدم ارتكاب بعض الأفعال قد يكون رياء محبوبا وقد يكون رياء مذموما.
فصل تأثير الرياء على العبادة up
الرياء إما أن يكون مجردا عن قصد القربة والثواب بحيث لولاه وانفرد صاحبه لترك العمل وهو أشد درجات الرياء وأعظمها إثما، أو يكون مع قصدهما فإن كان قصدا ضعيفا مرجوحا بحيث لو كان خاليا عن قصد الرياء لم يبعثاه على العمل، ولو كان قصد الرياء خاليا عنهما بعثه عليه، كان قريبا من سابقه وإن كان مساويا لقصد الرياء بحيث لو كان كل واحد خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل، فالحق كونه مفسدا للعمل أيضا لظواهر الأخبار. وإن كان راجحا على قصد الرياء غالبا عليه بأن يكون قصد الرياء واطلاع الناس مرجحا ومقويا لنشاطه بحيث لو لم يكن لم يترك العمل، ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم على العمل، (فبعض العلماء) على أنه لا يحبط أصل العمل والثواب بل ينقص من الثواب أو يعاقب صاحبه على مقدار قصد الرياء، ويثاب على مقدار قصد الثواب و(فيه نظر) إذ ظواهر الأخبار تفيد أبطاله أصل العمل والثواب لصدق الرياء عليه وصدق المرائي على صاحبه، لقول أمير المؤمنين عليه السلام ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس، ويكمل إذا كان وحده، ويحب أن يحمد في كل أموره وما تقدم من الأخبار الدالة على أن كل عمل أشرك مع الله تعالى غيره، كان الله منه بريئا ولم يقبله، صريح في المطلوب. وحملها على ما إذا تساوى القصد أو كان قصد الرياء أرجح خلاف الظاهر. ثم الظاهر أن البطلان في هذه الصورة إنما هو إذا رجع قصده إلى حبه اطلاع الناس عليه لتقع منزلة له في قلوبهم، ليتوسل بها إلى نيل غرض من الأغراض الدنيوية، وأما إذا كان سروره وقصده من
ص ٢٩٥
اطلاع الناس لأحد المقاصد الصحيحة الآتية فلا بأس به ولا يبطل العمل.
تنبيه السرور بالاطلاع على العبادة up
من كان قصده أخفاء الطاعة والاخلاص لله، فإذا أتفق اطلاع الناس على طاعته فلا بأس بالسرور به، من حيث علمه بأن الله أطلعهم عليه وأظهر الجميل من حاله، فيستدل به على حسن صنع الله به من حيث إنه ستر الطاعة والمعصية، والله تعالى أبقى معصيته على الستر وأظهر طاعته، فيكون فرحه بجميل نظر الله وفضله له لا بمدح الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، وقد قال الله تعالى: قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا (٣٤). وكأنه ظهر له بظهور طاعته أنه عند الله مقبول ففرح به. أو من حيث استدلاله بإظهار الله الجميل وستره القبيح في الدنيا أنه كذلك يفعل به في الآخرة، قال رسول الله (ص): ما ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستر الله عليه في الآخرة . فالأول فرح بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل وهذا التفات إلى المستقبل. أو من حيث ظنه رغبة المطلعين في الاقتداء في الطاعة، فيتضاعف بذلك أجره. إذ يكون له أجر السر بما قصده أولا، وأجر العلانية بما أظهره آخرا، ومن اقتدى الناس به في طاعة فله أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء. أو من حيث فرحه بطاعة المطلعين لله في مدحهم وحبهم للمطيع، وميل قلوبهم إلى الطاعة، إذ من الناس من يمقت أهل الطاعة ويحسدهم أو يستهزئ بهم وينسبهم إلى الرياء، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله، وعلامة الإخلاص فيه: أن يكون سروره بمدحهم غيره مثل سروره بمدحهم إياه. ويدل على عدم البأس بالسرور فيما ذكر ما روي: أن رجلا قال لرسول الله (ص): إني أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه أحد فيطلع عليه فيسرني! قال: لك أجران: أجر السر وأجر العلانية . وما روي: أنه سئل الباقر (ع) عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنسان فيسره
(هامش)
(٣٤) يونس الآية: ٥٨ (*)
ص ٢٩٦
ذلك، قال: لا بأس، ما من أحد إلا وهو يحب أن يظهر الله له في الناس الخير إذا لم يكن صنع ذلك لذلك . وهذان الخبران

بإطلاقهما يدلان على نفي البأس بالسرور لأجل المقاصد المذكورة، ويخصص منهما ما هو المذموم من الفرح الحاصل من اطلاع الناس، وإن كان قصده الإخفاء أولا، وهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بحوائجه، وإنما يخصص ذلك منهما مع شمول إطلاقهما له أيضا لمعارض أقوى. هذا وقد تقدم أن قصده أولا - أي في حال عقد الطاعة - اطلاع الناس عليه وارتياحه به لأحد المقاصد المذكورة لا بأس به أيضا، فعدم البأس لا يختص بطرو القصد والارتياح بعد العقد أو بعد تمام العمل. ثم كما لا بأس بالسرور من ظهور الطاعات للمقاصد المذكورة، فكذلك لا بأس بكتمان المعاصي واغتمامه باطلاع الناس عليها لأسباب نذكرها، بل الحق رجحان الكتمان ومزيته بعد ارتكابها، وإن كان الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية. ولذا قال بعض الأكابر: عليك بعمل العلانية وهو ما إذا ظهر لم تستح منه . وقال بعضهم: ما عملت عملا أبالي أن يطلع الناس عليه إلا إتياني أهلي والبول والغائط . إلا أن ذلك درجة عظيمة ليست شرعة لكل وارد، ولا يصل إليها إلا واحد بعد واحد. إذ كل إنسان - إلا من عصمه الله - لا يخلو من ذنوب باطنة، (لا) سيما ما يختلج بباله من الأماني الباطلة والأمور الشهوية، والله مطلع عليها وهي مخفية عن الناس، والسعي في إخفائها وكراهة ظهورها جائز بل راجح، بشرط ألا يكون باعث إخفائها قصد أن يعتقدوا فيه الورع والصلاح، بل كان الباعث: ١ - إما كون السر مأمورا به. ٢ - أو كون الهتك وإظهار المعاصي منهيا عنه. قال رسول الله (ص): من أرتكب شيئا من هذه القاذورات فليستره بستر الله تعالى .

ويعرف صدق ذلك بكراهة ظهورها عن الغير، أو كون ستر الله عليه في الدنيا دليلا على ستره في الآخرة، لما ورد في الخبر: أن من ستر الله عليه في الدنيا ستر الله عليه في الآخرة .

ص ٢٩٧

٣ - أو كون ظهور المعاصي موجبا لذم الناس، والذم يؤلم القلب ويشغله عن طاعة الله، ويصده عن الاشتغال بتحصيل ما خلق لأجله، ولكون التألم بالذم جبليا غير ممكن الدفع بسهولة يكون أخفاء ما ظهوره يؤدي إلى حدوثه جائزا. نعم، كمال الصدق استواء المدح والذم، إلا أن ذلك قليل جدا، وأكثر الطباع تتألم بالذم، لما فيه من الشعور بالنقصان. وربما كان التألم بالذم ممدوحا إذا كان الذام من أهل البصيرة في الدين، فإن ذمه يدل على وجود نقصان فيه، فينبغي أن يتألم منه ويتشمر لدفعه. ٤ - أو كون الناس شهداءه يوم القيامة، كما ورد فيجوز الإخفاء لئلا يشهدوا عليه يوم القيامة. ٥ - أو خوف أن يقصد بشر أو بسوء إذا عرف ذنبه. ٦ - أو خوف صيرورة الذام عاصيا بذمه، وهذا من كمال الإيمان، ويعرف بتسوية ذمه وذم غيره. ٧ - أو خوف سقوط وقع المعاصي من نفسه واقتداء الغير به فيها وهذه العلة هي المبيحة لإظهار الطاعة، ويختص ذلك بمن يقتدى به من الأئمة وأمثالهم ولهذه العلة ينبغي أن يخفي العاصي معصيته من أهله وولده أيضا، لئلا يقتدوا به فيها. ٨ - أو حبة محبة الناس له للتوسل بها إلى الأغراض الدنيوية، بل ليستدل بها على محبة الله تعالى له، لأن من أحبه الله تعالى جعله محبوبا في قلوب الناس. ٩ - أو مجرد الحياء من ظهور قبائحه وهو غير خوف الذم والقصد بالشر، إذ هو من فضائل الأخلاق ومن كريم الطبع قال رسول الله (ص): الحياء خير كله . وقال الصادق (ع): الحياء شعبة من الإيمان . وقال (ص): الحياء لا يأتي إلا بالخير . وقال (ص): إن الله تعالى يحب الحي الحليم .

ومن صدر عنه فسق ولم يبال بظهوره للناس، فقد جمع إلى الفسق الهتك وعدم الحياء - أعني الوقاحة - فهو أسوأ حالا ممن يفسق ويستحي فيستره.

ص ٢٩٨

ثم كثيرا ما يشتبه الحياء بالرياء، فيدعي من يرائي بأنه يستحي، وإن تركه السيئات أو إخفاءها أو تحسينه للعبادات إنما هو لأجل الحياء من الناس دون الرياء، وذلك كذب. وبيان ذلك: إن الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم، ويمكن أن يهيج عقيبه داعية الرياء فيرائي معه، ويمكن أن يهيج داعية الإخلاص فيجمعه إليه. مثلا من طلب من صديقه قرضا، فإن رده صريحا من غير مبالاة ومن دون أن يتعلل ارتكب الوقاحة وعدم الحياء وإن أعطاه بمجرد انقباض نفسه من استشعار قبح رده مشافهة من دون رغبة في الثواب ولا خوف من ذمه أو حب إلى مدحه حتى لو طلبه مراسلة أو بتوسط غيره من الأجانب لرده، فإعطاؤه هذا صادر عن مجرد الحياء من دون ترتب رياء أو إخلاص عليه. وإن تعسر عليه الرد للحياء وكان ما في نفسه من البخل مانعا من الاعطاء فحدث خاطر الرياء،

ويخاطب نفسه بأنه ينبغي أن تعطيه حتى يمدحك بالسخاء ولا يذمك بالبخل فأعطاه لذلك فهو مزج الرياء بالحياء، والمحرك للرياء هو هيجان الحياء.

وإن تعسر عليه الرد للحياء والإعطاء للبخل، فهيج باعث الإخلاص، ويقول له الصدقة بواحدة والقرض بثمانية، ففيه أجر عظيم، وإدخال السرور على قلب مسلم صديق من أقرب القربات، فسخت نفسه بالاعطاء، فهو جمع بين الحياء والاخلاص ثم الحياء لا يكون إلا في القبائح الشرعية أو العقلية أو العرفية، كالبخل ومقارفة الذنوب والظلم وصدور بعض الحركات القبيحة عرفا في المحافل، والرياء يكون في المباحات أيضا، حتى أنه لو عاد الضحك إلى الانقباض والمستعجل في المشي إلى الهدوء بعد اطلاع الناس كان مرائيا، وربما ظن أن باعث ذلك هو الحياء وهو الجهل، إذ باعثه مجرد الرياء وما قيل: إن بعض الحياء ضعف، فالمراد أن الحياء مما ليس بقبيح ناش من ضعف النفس، كالحياء من وعظ الناس وإقامة الصلاة ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا إذا وجد عذر يحسن الحياء معه، كأن يشاهد معصية من شيخ فيستحي من شيبته أن ينكر عليه، لأن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم، ولو استحيى من الله ولا يضيع الأمر بالمعروف لكان أحسن. وأقوياء النفوس من أهل الإيمان يؤثرون الحياء من الله على الحياء من الخلق، وأما ضعفاء النفوس منهم فقد لا يقدرون

ص ٢٩٩

على ذلك.

فصل متعلقات الرياء up

الرياء إما بأصل الإيمان، وهو إظهار الشهادتين مع التكذيب باطنا، وهذا هو النفاق، وقد كان في صدر الإسلام كثيرا، وقل ما يوجد في أمثال زماننا، وإن كثر فيه إنكار بعض ضروريات الدين، كالجنة والنار والثواب والعقاب واعتقاد في بساط أحكام الشرع باطنا، ميلا إلى قول الملاحدة وأهل الإباحة، مع إظهار الخلاف ظاهرا، وهذا أيضا معدود من كفر النفاق، وصاحبه ينسل عن الدين مخلد بالنار. وصاحب كفر النفاق مطلقا أسوأ حالا من الكافر المحارب، لأنه جمع بين الكفر الباطن والنفاق مطلقا أسوأ حالا من الكافر المحارب، لأنه جمع بين الكفر الباطن والنفاق الظاهر. أو بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين، كأن يصلي في الملأ دون الخلوة، ويصوم مع اطلاع الناس عليه ويفطر بدونه، ومثله وإن لم ينسل من أصل الدين، إلا أنه شر المسلمين، لترجيحه الخلق على الخالق، وكون التقرب إليهم أحب من التقرب لديه، وكون خوفه من ذمهم أشد من خوفه من عقابه سبحانه. أو بالنوافل والسنن، وهذا أيضا مذموم مهلك، ولكنه دون ما قبله، لأن صاحبه وإن قدم مدح الخلق على مدح الخالق، لا أنه لم يقدم خوف ذمهم على خوف عقابه، لعدم ترتب عقاب على ترك النافلة. أو بأوصاف العبادة الواجبة أو المستحبة، كفعل ما في تركه نقصان أو كراهة أو ترك ما في فعله أحدهما أو بزيادات خارجة عن نفس النوافل، كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده الصف الأول، وأمثال ذلك. وكل ذلك مذموم، إلا أن بعضه أشد من بعض.

فصل بواعث الرياء up

باعث الرياء إما التمكن من المعصية، كإظهار الورع والتقوى لتفوض إليه الحكومة والقضاء، لينال الجاه والاستيلاء، ويحكم بالجور، ويأخذ الرشا، أو تسلم إليه الودائع والصدقات وأموال اليتامى وأمثال ذلك، فيأخذ

ص ٣٠٠

لنفسه منها ما يقدر عليها، وكحضوره مجالس العلم والوعظ والتعزية لملاحظة النسوان والصبيان، وهذا أشد درجات الرياء إثما، ويقرب منه إظهار الديانة والتقوى ليدفع عن نفسه تهمة ما اقترفه من الجرائم، أو نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا، كالاشتغال بالوعظ والتذكير والإمامة والتدريس وإظهار الصلاح والورع، لتستبذل له الأموال وترغب في تزويجه النسوان أو خوف أن ينظر إليه بعين النقص والحقارة، أو ينسب إلى الكسالة والبطالة كترك العجلة والضحك بعد اطلاع الناس عليه، خوفا من أن يعرف باللهو والهزل فيستحقر، وكالقيام للتهجد وأداء النوافل إذا وقع بين المجتهدين والمتنفلين لئلا ينسب إلى الكسالة، ولو خلى بنفسه لم يتنفل مطلقا، وكذا الامتناع من الأكل والشرب في اليوم الذي يصام فيه تطوعا، وتصريحه بأني صائم، خوفا من أن ينسب إلى البطالة، وربما لم يصرح بكونه صائما، بل يقول: لي عذر، وحينئذ قد جمع بين رياءين: الرياء بكونه صائما، والرياء بكونه مخلصا غير مراء. ثم إن ألجأته الكسالة

والشهوة إلى عدم القيام إلى النوافل وعدم الصبر عن الأكل والشرب، ذكر لنفسه عذرا، تصريحا أو تعريضا، كأن يتعلل الترك بمرض أو ضعف أو شدة العطش أو تطييب خاطر فلان، وقس عليها غيرها من الكلمات والأعذار، فإنها لا تسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في النفس، والمخلص لا يريد غير الله والتقرب إليه، ولا يعتني بالخلق وحصول المنزلة في قلوبهم، فإن لم يصم لم يحب أن يعتقد غيره فيه ما يخالف علم الله ليكون ملبسا، وإن صام قنع بعلم الله ولم يشرك فيه غيره. ثم هذه البواعث لما كان بعضها صادرا من رداءة قوة الغضب وبعضها من رداءة قوة الشهوة، فيكون بعض أنواع الرياء من رذائل الأولى وبغضها من رذائل الثانية.

تنبيه الرياء الجلي والخفي up

الرياء جلي وخفي، والجلي: ما يبعث على العمل لولا قصد الثواب والخفي: ما لا يبعثه بمجرده إلا أنه يخفف العمل الذي أريد به التقرب في الخلوة، ويعرف بالسرور إذا أطلع عليه الناس، لا للمقاصد المتقدمة، بل

ص ٣٠١

لطلب نوع منزلة في قلوب الناس، ويتوقع التعظيم والتوقير وقضاء الحوائج منهم ووجدان الاستبعاد من نفسه لو قصر في احترامه، كأن نفسه تتقاضى الاكرام والاحترام على الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه أحد. ولا شك أن هذا التقاضي لا ينفك عن شوب خفي من الرياء أخفى من دبيب النمل، ولو كان عنده وجود الطاعة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق وقنع بعلم الله فيها لم يكن لهذا التوقع وجه. فعلامة خلوص العمل من الرياء ألا يجد تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة، ومهما وجد تفرقة في ذلك فلا يكون منفكا عن توقع ما (عن) (٣٥) الناس في طاعته، وذلك مما يحبط العمل. قال أمير المؤمنين (ع): إن الله تعالى يقول للفقراء يوم القيامة: ألم يكن يرخص عليكم السعر؟ ألم تكونوا تبدأون بالسلام؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج؟ فلا أجر لكم، قد استوفيتم أجوركم!

فصل كيف يفسد الرياء العمل up

لو عقد العمل على الإخلاص واستمر إلى الفراغ، لم يحبطه السرور بظهوره بعده، لا من قبله كما دل عليه بعض الظواهر السالفة. ولا يعصى به أيضا إن كان لأجل أحد المقاصد السالفة، ويكتب له معصية إن كان لظنه حصول منزلة له في القلوب. ولو كان ظهوره بعده من نفسه بالتحدث مع الرغبة والسرور بذلك، فربما قيل بإحباطه العمل، إذ حب التحدث به يدل على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد خفي من الرياء. وقد أيد ذلك بما روي: أن رجلا قال للنبي (ص): إني صمت الدهر. فقال صلى الله عليه وآله: لا صمت ولا أفطرت! . وما روي: أن ابن مسعود سمع رجلا يقول: قرأت البارحة سورة البقرة. فقال: ذلك حظه منها . والظاهر أنه لا يحبط عمله، بل يثاب عليه، وإن عوقب على ما صدر منه بعد الفراغ من الرياء. والتعليل لو تم لا يفيد البطلان، إذ العقد الذي لم يشعر به صاحبه لا يؤاخذ به، وإلا لزم التكليف بالمحال. والخبر لو صح

(هامش)

(٣٥) كذا في النسخ، ولعل عند مكان عن (*)

ص ٣٠٢

فإنكاره (ص) لأجل كراهية صوم الدهر لا لإظهاره. وقول ابن مسعود لو ثبت لا حجية فيه. ولو عقد العمل على الإخلاص، وورد في أثنائه وارد السرور بأطلاع بعض الناس عليه، فإن لم يكن باعثا على العمل ومؤثرا فيه بحيث لو لم يحدث لأتم العمل على الإخلاص من غير فتور، وكان أيضا لأحد المقاصد الصحيحة المتقدمة، فلا بطلان ولا إثم، لما تقدم من الأخبار. وإن لم يكن باعثا ولكن لم يكن لشيء من المقاصد المذكورة، بل كان لظنه نيل الجاه أو المال بالظهور، فالحق بطلان العمل وكونه آثما للعمومات السالفة. وإن كان باعثا ومؤثرا فهو الرياء المحرم، سواء كان غالبا على قصد التقرب أو مساويا له أو مغلوبا عنه، فيحبط العمل وعليه الإعادة لو كان فريضة، لما تقدم من العمومات، ولقوله (ص): العمل كالوعاء، إذا طاب آخره طاب أوله . وقوله (ص): من راءى بعمله ساعة، حبط عمله الذي كان قبله . ثم هذا في العمل المركب الذي له أجزاء، ويتوقف صحته على صحة كل واحد منها، كالصوم والصلاة والحج. وأما العمل الذي كل جزء منه منفرد، كالصدقة والقراءة، فما يطرأ من الرياء في أثنائه إنما يفسد الباقي دون الماضي فطروءه فيه في الأثناء بالنسبة إلى الماضي كطروئه بعد الفراغ في الأول. وهذا حكم الرياء الطاري بعد عقد الطاعة على الإخلاص أو قبله،

سواء لم يرجع عنه حتى يتمها، أو ندم بعده في الأثناء أيضا ورجع واستغفر وأما المقارن حال العقد، بأن يبتدي بالصلاة مثلا على قصد الرياء، فإن أتمها عليه فلا خلاف في كونه آثما وعدم الاعتداد بها. وإن ندم عليه في الأثناء ورجع واستغفر، فإن مجرد القصد إلى الغير الباعث إلى اطلاع الناس لبعض المقاصد المتقدمة وارتياحه به فلا بأس به ولا يحبط العمل، وإن كان غير ذلك أفسده، سواء في ذلك جميع شقوقه المتقدمة، كما علم وجهه.

فائدة شوائب الرياء مبطلة للعمل up

لما كان المناط في الأعمال، صحة وفسادا، هو القصد والنية، إذ

ص ٣٠٣

الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فكل عمل تدخله شوائب الرياء فهو فاسد، سواء وقع سرا أو علانية، وكل عمل كان خالصا لله وأمن صاحبه من دخول الرياء فيه فلا بأس بإسراره ولا بإظهاره. ثم لو تعلق قصد صحيح بإظهار نفس العمل أو التحدث به بعد الفراغ عنه، كترغيب الناس في الخير وتنبيههم على الاقتداء به فيه، كان إظهاره أفضل من أسراره بشرط عدم اشتماله على رياء أو فساد آخر، كإهانة الفقير في التصدق، ولو اشتمل على شيء من ذلك، كان أسراره أفضل من إعلانه، وبذلك يجمع بين الأقوال والأخبار. والحاصل: أنه متى انفك القلب عن شوائب الرياء، بحيث يتم الإخلاص على وجه واحد في الحالتين، فما فيه القدوة وهو العلانية أفضل ومهما حصلت فيه شوائب الرياء لم ينفعه اقتداء غيره، لكونه مهلكا له، فالسر أفضل منه. فعلى من يظهر العمل أن يعلم أو يظن أنه يقتدى به، وأن يراقب قلبه لئلا يكون فيه حب الرياء الخفي، فربما أظهر العمل لعذر الاقتداء وكان في نفسه قصد التجمل بالعمل وكونه مقتدى به، وهذا حال كل من يظهر العمل، إلا من أيده الله بقوة النفس وخلوص النية، فلا ينبغي لضعيف النفس أن يخدع نفسه فيضل ويضل ويهلك من حيث لا يشعر. فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يعلم سباحة ضعيفة، فينظر إلى جماعة من الغرقى فيرحمهم، وأقبل عليهم لينجيهم، فتشبثوا به، وهلك وهلكوا. وهذه المواضع مزال أقدام العلماء والعباد، فإنهم يتشبهون بالأقوياء في الإظهار ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص، فتحبط أجورهم بالرياء. ودرك ذلك غامض جدا لا يبلغه إلا الخائضون في غمرات علم الأخلاق. ويعرف الخلوص في ذلك بألا يتفاوت حاله باقتداء الناس به وبغيره من أقرانه وأمثاله، فإن كان قلبه أميل إلى أن يكون هو المقتدى به، فإظهاره العمل غير خال عن شوائب الرياء.

إيقاظ :

لما عرفت أن المناط في صحة الأعمال وفسادها هو القصد والنية، تعلم أن كل عمل لم يكن خالصا لوجه الله وأريد به غيره سبحانه ينبغي أن يترك

ص ٣٠٤

ويعرض عنه، وإن كان خالصا له تعالى مقصودا على قصد صحيح، لا ينبغي تركه لمجرد بعض الوساوس والخواطر الشيطانية. فإن الشيطان يدعو أولا إلى ترك العمل فإن لم يجب يدعو إلى الرياء، فإذا أيس منه يقول: هذا العمل ليس خالصا، بل هو رياء، فأي فائدة منه؟!. ثم الأعمال إما من الطاعات اللازمة التي لا تعلق لها بالغير، كالصلاة والصوم والحج وأمثالها، أو من الطاعات المتعدية التي لها تعلق بالخلق، كالإمامة والقضاء والحكومة والإفتاء الوعظ والتذكير والتعليم والتدريس وإنفاق المال وغير ذلك. والقسم الأول: إن دخله الرياء قبل الفعل، بأن يكون باعثه الرياء دون الخلوص والقربة، فينبغي أن يترك ولا يشرع فيه، وإن دخله بعد العقد أو معه، فلا ينبغي أن يترك، لأنه وجد له باعث ديني، وإنما طرأه باعث الرياء، فليجاهد في دفع الرياء وتحصيل الإخلاص، ويرد نفسه إليه قهرا بالمعالجات التي نذكرها. ومهما كان في مقام المجاهدة مع نفسه معاتبا لها قاهرا عليها في ميلها إلى الرياء، ووجد عن طبعه كراهية هذا الميل، فالنجاة في حقه مرجوة، ولعل الله يسامحه بعظيم رحمته. وأما إذا لم يكن في مقام المجاهدة، ولم يكن كارها مما يجد في نفسه من الميل إلى الرياء، بل أعطى زمام الاختيار إلى النفس الأمارة، وهي ترائي في الأعمال، وهو يتبعها في ذلك من غير قهر عليها وكراهية لفعلها، فلا ريب في فساد أعماله وأولوية تركها، وإن كان باعثها ابتداء محض القربة ودخلها الرياء مع العقد أو بعده. وأما القسم الثاني: المتعلق بالخلق - أعني أمامة الصلاة والقضاء والتدريس والإفتاء والوعظ والإرشاد وأمثال ذلك - فأخطارها عظيمة، ومثوبتها جسيمة.

فمن له أهلية ذلك من حيث العلم - إن كان ذا نفس قوية لا يعتني بالناس ولا تزعجها وساوس الخناس وله معرفة تامة بعظمة ربه وقدرته وسائر صفاته الكمالية، بحيث شغله ذلك عن الالتفات إلى الخلق وما في أيديهم حتى يرائي لأجلهم أو يختار رضاهم على رضا ربه - فالأولى لمثله ألا يترك هذه المناصب ليفوز بمثوبتها العظيمة. وإن كان ذا نفس
ص ٣٠٥
ضعيفة، نحيط مرسل في الهواء تفيئها (٣٦) الريح مرة هكذا ومرة هكذا، فهو لا يأمن الرياء وسائر أخطارها. فاللازم لمثله تركها. ولذلك كان أهل اليقين من السلف يتدافعون هذه المناصب ما وجدوا إليه سبيلا. وورد ما ورد من الأخبار في عظيم خطرها كثرة آفاتها ولزوم التثبت والاحتياط لمن يزاولها وما ورد من الوعيد الشديد في حق علماء السوء يكفي للزوم الحذر عن فتن العلم وغوائله. ومما يقصم ظهور أمثالنا من الذين يقولون ما لا يعلمون ويأمرون بما لا يفعلون، قول عيسى بن مريم - عليهما السلام -: يا علماء السوء! تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون: وتدرسون ما لا تعلمون فيا سوء ما تحكمون! تتوبون بالقول والأماني، وتعملون بالهوى، وما يغني عنكم أن تتقوا جلودكم وقلوبكم دنسة! بحق أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة! كذلك أنتم! تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم! يا عبيد الدنيا! كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته! بحق أقول لكم: إن قلوبكم تبكي من أعمالكم، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم: أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة! فأي ناس أخس منكم لو تعلمون! ويلكم! حتى متى تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون في محلة المتحيرين كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم! مهلا مهلا! ويلكم! ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم! كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة. يا عبيد الدنيا! توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم، ثم تكبكم على مناخركم، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم! يدفعكم العلم من خلفكم، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى! فيوقفكم على سوآتكم، ثم يخزيكم بسوء أعمالكم!! (٣٧) هذا ويعرف الصادق المخلص من أهل هذه المناصب بأنه إذا ظهر من هو
(هامش)
(٣٦) وفي نسختنا الخطية (تعليها). (٣٧) روي هذا الحديث في (إحياء العلوم): ٣ / ٢٨١، فصححناه عليه. وهو يرويه عن (الحارث المحاسبي). ج: ٢ (*)
ص ٣٠٦
أعدل وأحسن وعظا وأكثر علما منه وأشد قبولا للناس فرح به ولم يحسده، وإذا حضر الأكابر والأعاظم مجلسه أو اقتدوا به لم يتغير كلامه ولم يتفاوت حاله، بل يبقى على ما كان عليه، وينظر إلى عباد الله بعين واحدة.
(تنبيه):
لما عرفت حقيقة الرياء، تعلم أنه إذا صار عمل بعض الصالحين أو قولهم محركا لغيرهم على الاشتغال بالطاعة لم تكن هذه الطاعة رياء إذا عقدت على الخلوص، وإن لم يكن هذا الغير ليفعل هذه الطاعة إذا لم يشاهدها من بعض الصالحين أو لن يسمعها منه. فمن لم تكن عادته التهجد وباب مع قوم متهجدين في موضع، فإذا قاموا للتهجد انبعث نشاطه للموافقة ووافقهم في التهجد، ولم يكن ذلك رياء بعد أن يكون قصده منه الثواب والتقرب إلى الله، إذ كل مؤمن راغب في عبادة الله وفي قيام الليل، ولكن قد تعوقه العوائق وتمنعه الغفلة، فإذا شاهد قوما يتهجدون ربما صارت مشاهدة طاعتهم سببا لزوال غفلته، كما يصير قولهم ووعظهم سببا لذلك فيتحرك باعث الدين دون الرياء ويدعوه إلى موافقتهم. وربما كان الموضع مما ليس فيه عائق، فيغتنم الفرصة ويبعثه ما فيه من الإيمان إلى الطاعة. وقس على التهجد غيره: من الصوم، والتصدق، والقراءة، والذكر، وغيرها من أعمال البر.
فصل علاج الرياء
لما كانت الأسباب الباعثة على الرياء هي حب لذة المدح والفرار من ألم الذم والطمع بما في أيدي الناس، فالطريق في علاجه أن يقطع هذه الأسباب وقد تقدم طريق العلاج في قطع الأولين، ويأتي طريق إزالة الثالث. وما نذكره هنا من العلاج العلمي للرياء، هو أن يعلم أن الشيء إنما يرغب فيه لكونه نافعا، وإذا علم أنه ضار ليعرض عنه البتة. وحينئذ، فينبغي لكل مؤمن أن يتذكر مضرة الرياء وما يفوته

من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من المقت والعذاب ومتى تذكر ذلك وقابل ما يحصل له في الدنيا من الناس الذين راءى لأجلهم بما يفوته في الآخرة من ثواب الأعمال، لترك الرياء لا محالة. مع أن العمل
ص ٣٠٧
الواحد ربما تترجح به كفة حسناته لو خلص، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات، فتترجح به ويهوي إلى النار، هذا مع أن المرائي في الدنيا متشتت الهم متفرق البال بسبب ملاحظة قلوب الناس، فإن رضاهم غاية لا تدرك، وكلما يرضى به فريق يسخط به فريق، ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم أيضا. ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل مدحهم ولا يزيده مدحهم رزقا ولا إجلالا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة؟! ومن كان رياؤه لأجل الطمع بما في أيدي الناس، ينبغي أن يعلم أن الله هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وإن الخلق مضطرون فيه، ولا رازق إلا الله، ومن طمع في الخلق لم يخل عن الذل والخسة، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة، وإذا قرر ذلك في نفسه ولم يكن منكرا لأمسه، زالت غفلته وفترت عن الرياء رغبته وأقبل على الله بقلبه، وانقطع بشراشره إلى جناب ربه. ويكفيه أن يعلم أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه، وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إليهم، ولو أخلص لله لكشف لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له، وأطلق ألسنتهم بمدحه وثنائه، مع أنه لا يحصل له كمال بمدحهم ولا نقصان بذمهم. ثم من تنور قلبه بنور الإيمان وانشرح صدره باليقين والعرفان، وعرف معنى الواجب وحقيقة الممكن، وتيقن بأن الواجب - أي الحقيقة التي تقتضي بنفس ذاته التحقق والبقاء، وهم صرف الوجود - يجب أن يكون تاما فوق التمام، ولا يتصور حقيقة أتم كمالا منه، والحقيقة التي هذا شأنها يجب أن يكون ما سواها بأسره مستندا إليها وصادرا عنها على أشرف أنحاء الصدور وأقواها.

وهذا النحو الأشرف الأقوى الذي لا يتصور نحوه أقوى منه في الاختراع وأدل منه على كمال عظمة الموجد وقدرته، وهو كون ما سواه سبحانه من الموجودات، إما اعتبارات وشؤونات لدرجات ذاته وإشراقات لتجليات صفاته، كما ذهب إليه قوم، أو كونها ماهيات إمكانية اختراعية علما وعينا، صادرة عنه سبحانه بوجودات خاصة متعددة ارتباطية
ص ٣٠٨
بمحض أرادته ومشيته، كما ذهب إليه آخرون (٣٨). ولو لم يكن غيره من الموجودات مستندا إليه على أقوى أنحاء الاستناد، لم يكن تاما فوق التمام إذ تكون الذات التي يستند الكل إليها بأحد النحوين أكمل منه وأشرف. وإذا عرف أنه سبحانه كذلك، يعرف أنه ليس في الوجود حقيقة أحد سواه وغيره حقيقته العدم وما له من الوجود والظهور منه سبحانه، وبعد هذه المعرفة لا يختار غيره تعالى عليه، ويعلم أن العباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا يملكون موتا ولا حياة، فلا يتغير قلبه بمشاهدة الخلق، ولا يلتفت إليهم إلا بخطرات ضعيفة لا يشق عليه إزالتها، فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمله. وأما العلاج العملي، فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عبادته، ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به. وذلك وإن شق في بداية المجاهدة، لكن إذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه بتواصل ألطاف الله وما يمده به عبادة من حسن التوفيق والتأييد: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (٣٩). فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية: إن الله لا يضيع أجر المحسنين (٤٠).

تتميم

القالع مغارس الرياء من قلبه يقطع الطمع واستحقار مدح الناس وذمهم

(هامش)

)

٣٨) القول الأول مبني على أصالة الوجود، والثاني على أصالة الماهية. وهذا البحث الذي ذكره المؤلف من دقائق الفلسفة الإلهية وأعلاها، ولقد أحسن فيه البيان جدا. فإنه مبني على فهم معنى واجب الوجود لذاته، وهو الذي يكون ذاته بذاته، مع قطع النظر عن كل ما عداه، ومن حيث هو هو منشأ لانتزاع أنه موجود، فلذلك يجب أن يكون صرف الوجود أنه لا شيء له الوجود وإلا

لكان ممكنا، ويجب أن يكون متصفا بجميع الكمالات بل أكمل الكمالات ومن جملتها أن تكون الموجودات مستندة إليه على أقوى أنحاء الاستناد وإذا لم يتصف بجميع الكمالات لا يتصف بإعدامها، فيدخل في حقيقته العدم، فلم يكن صرف الوجود، فلم يكن واجب الوجود لذاته، وهذا خلاف الفرض، أو بهذه الطريقة يستدل على اتصافه بجميع صفات الجمال والجلال. (٣٩) الرعد الآية: ١١. (٤٠) التوبة، الآية: ١٢ (*)

ص ٣٠٩

ربما يتركه الشيطان، (لا) سيما في أثناء العبادة فعارضه بخطرات الرياء ونزعاته، حتى أحدث في قلبه ميلا خفيا إلى الرياء وحبا له. والحق أن ذلك ليس من الرياء المحرم، ولا تفسد به العبادة، مع كونه كارها لهذا الميل والحب وقاهرا على نفسه ماقتا لها في تأثرها وتغيرها عن نزعات الشيطان ومنازعا للشيطان ومجاهدا إياه لدفع خطراته، لأن الله لم يكلف عباده إلا ما يطيقون، وليس في وسعهم منع الشيطان عن نزعاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى شهواته، وغاية ما يقدرون عليه أن يقابلوا نزعاته وميل الطبع بالكراهة والقهر على النفس في هذا الميل، مع المجاهدة في دفع ذلك بتذكر المعالجات المقررة لدفع الرياء والوساوس، وإذا فعلوا ذلك أدوا ما يجب عليهم. ويدل على ذلك أيضا ما تقدم من الأخبار الدالة على عدم المؤاخذة بمجرد الوسوسة، وقول النبي (ص): الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة . فوسوسة الشيطان وميل النفس لا يضران مع ردهما بالكراهية والإباء، إذ الوساوس والخواطر والتذكرات والتخيلات المهيجة للرياء من الشيطان، والميل والرغبة بعد تلك الخواطر من النفس، والإباء والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل فلا يضر ما من النفس والشيطان إذا قوبل بما من العقل والإيمان. ولذا قال بعض الأكابر: ما كان من نفسك فكرهته نفسك لنفسك، فلا يضرك ما هو من عدوك، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه . ثم الطرق المتصورة في دفع خطرات الرياء في أثناء العبادات مع كراهتها أربع: الأولى - أن يشتغل بمجادلة الشيطان في رد نزعاته، ويطيل معه الجدال الثانية - أن يقتصر من تكذيب الشيطان ودفعه من غير اشتغال بمجادلته الثالثة - ألا يشتغل بتكذيبه أيضا، بل يكتفي بما قرر في عقد ضميره من كراهة الرياء وكذب الشيطان، فيستمر على ما كان عليه مستصحبا له غير مشتغل بالمخاصمة والتكذيب.

الرابعة - أن يزيد فيما هو من الإخلاص والاشتغال بالله، أو ما يؤدي إليهما، كإخفاء العبادة والصدقة غيظا للشيطان، لأن ذلك يغيظ الشيطان

ص ٣١٠

ويوجب يأسه، ومهما عرف من العبد هذه العادة، كف عنه خوفا من أن يزيد في حسناته. ولا ريب في أن الاشتغال بالمجادلة والتكذيب وإطالتهما يمنع الحضور ويصد عن التوجه إلى الله، وهو نقصان لأهل السلوك، فالصواب لكل مؤمن أن يقرر دائما في عقد ضميره كراهية الرياء وتكذيب الشيطان، ويعزم أبدا على أنه إذا تهجم عليه الشيطان وعارضه بنزعات الرياء زاد ما هو فيه مما يغيظ الشيطان ويوجب يأسه، فإذا حدثت خطرات الشيطان في الأثناء، اكتفى بما عقد عليه أولا مستصحبا له، وزاد في الإخلاص وما يؤدي إليه فإن ذلك يوجب قنوط الشيطان. وإذا عرف العبد بهذه الصفة لا يتعرض له لئلا يزيد فيما يغيظه وينبغي لكل مؤمن أن يكون هذا ديدنه في جميع الصفات والملكات، مثلا إذا حصل اليقين والعقيدة الجازمة بالمبدأ وصفاته الكمالية، وقرر ذلك في نفسه وأثبت في قلبه كراهية الشك وخطور الوساوس، في أثناء عبادة أو غيرها، ينبغي ألا يشتغل بطول المجاهدة مع الشيطان، ويكفي بما تقرر في قلبه من اليقين وكراهية الشك والوسوسة، معتقدا بأن هذه الوساوس لا أصل لها ولا عبرة بها. وكذا إذا قرر في نفسه النصيحة للمسلمين وكراهية الحسد، فإذا أوقع الشيطان نزعات الحسد في قلبه، ينبغي ألا يلتفت إليها، ويستصحب ما كان عليه من النصيحة والكراهة، وقس عليها سائر الصفات والأخلاق. ثم مثل من يشتغل بطول المجاهدة مع الشيطان مثل من قصد مجلسا من مجالس العلم والوعظ لينال فائدة وهداية فعارضه ضال فاسق ودعاه إلى مجلس فسق فأبى وأنكر عليه، فإذا عرف الضال أباه، اشتغل بالمجادلة معه، وهو أيضا يساعده على ذلك ليرد ضلاله، ظانا أن ذلك مصاحبته، مع أنه غرض الضال إذ قصده من المجادلة أن يؤخره عن نيل مقصوده.

ومثل من يشتغل بالتكذيب مثل من لا يشتغل بالقتال مع الضال بعد دعوته إلى مجلس الضلال بل وقف بقدر أن يدفع في منحره، وذهب مستعجلا، ففرح الضال بقدر توقفه للدفع. ومثل من يكتفي بعقد الضمير مثل من لم يلتفت إلى الضال بعد دعوته أصلا،

واستمر على ما كان عليه من المشي. ومثل من يزيد فيما كان له من الإخلاص أو ما يؤدي إليه مثل من يزيد في عجلته بعد دعوته ليغيظه. ولا ريب في أن الضال
ص ٣١١
يمكن أن يعاود الجميع في الدعوة إلى الضلالة إذا مروا عليه مرة أخرى إلا الأخير، مخافة أن يزداد فائدة باستعجاله.
وصل الإخلاص وحقيقته up
ضد الرياء الإخلاص، وهو تجريد القصد من الشوائب كلها. فمن عمل طاعة رياء فهو مراء مطلق، ومن عملها وانضم إلى قصد القربة قصد غرض دنيوي انضماما غير مستقل فعله مشوب غير خالص، كقصد الانتفاع بالحمية من الصوم، وقصد التخلص من مؤنة العبد أو سوء خلقه من عتقه، وقصد صحة المزاح أو التخلص من بعض الشرور والأحزان من الحج، وقصد العزة بين الناس أو سهولة طلب المال من تعلم العلم، وقصد النظافة والتبرد وطيب الرائحة من الوضوء والغسل، والتخلص عن إبرام السائل من التصدق عليه، وهكذا. فمتى كان باعث الطاعة هو التقرب ولكن انضافت إليه خطرة من هذه الخطرات، خرج عمله من الإخلاص. فالإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها، كثيرها وقليلها. والمخلص من يكون عمله لمحض التقرب إلى الله سبحانه، من دون قصد شيء آخر أصلا. ثم أعلى مراتب الإخلاص. وهو الإخلاص المطلق وإخلاص الصديقين إرادة محض وجه الله سبحانه عن العمل، دون توقع غرض في الدارين. ولا يتحقق إلا لمحب لله تعالى مستهترا به، مستغرق الهم بعظمته وجلاله، بحيث لم يكن ملتفتا إلى الدنيا مطلقا. وأدناها - وهو الإخلاص الإضافي - قصد الثواب والاستخلاص من العذاب، وقد أشار سيد الرسل (ص) إلى حقيقة الإخلاص بقوله: هو أن تقول ربي الله ثم تستقم كما أمرت (٤١) تعمل لله، لا تحب أن تحمد عليه! أي لا تعبد هواك ونفسك، ولا تعبد إلا ربك، وتستقيم في عبادتك كما أمرت . وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله سبحانه عن مجرى النظر، وهو الإخلاص حقا. ويتوقف تحصيله على كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد في الآخرة، بحيث ما
(هامش)
(٤١) إشارة إلى قوله تعالى مخاطبا لنبيه صلى الله عليه وآله: فاستقم كما أمرت . (*)
ص ٣١٢
يغلب ذلك على القلب والتفكر في صفات الله تعالى وأفعاله والاشتغال بمناجاته حتى يغلب على قلبه نور جلاله وعظمته، ويستولي عليه حبه وأنسه، وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله تعالى، ويكون فيها مغرورا لعدم عثوره على وجه الآفة فيها، كما حكي عن بعضهم أنه قال: قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد جماعة في الصف الأول، لأني تأخرت يوما لعذر وصليت في الصف الثاني، فاعترتني نخلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف الأول كان يسرني، وكان سبب استراحة قلبي من ذلك من حيث لا أشعر . وهذا دقيق غامض، وقلما تسلم الأعمال من أمثاله، وقل من يتنبه له، والغافلون عنه يرون حسناتهم في الآخرة كلها سيئات، وهم المرادون بقوله تعالى: وبدا لهم سيئات ما عملوا (٤٢). وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (٤٣). وبقوله: قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (٤٤).
فصل مدح الإخلاص up
الإخلاص منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين. وهو الكبريت الأحمر، وتوفيق الوصول إليه من الله الأكبر، ولذا ورد في فضيلته ما ورد من الآيات والأخبار، قال الله تعالى. وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين (٤٥) وقال: لا لله الدين الخالص (٤٦). وقال: إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله (٤٧). وقال: فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا
(هامش)
(٤٢) الجاثية، الآية: ٣٣ (٤٣) الزمر الآية: ٤٧. (٤٤) الكهف الآية: ١٠٣، ١٠٤ (٤٥) البينة الآية: ٥. (٤٦) الزمر الآية: ٣ (٤٧) النساء، الآية: ١٤٦ (*)
ص ٣١٣
صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا (٤٨). نزل فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه. وفي الخبر القدسي: الإخلاص سر من أسراري،

استودعته قلب من أحببت من عبادي وقال رسول الله (ص) أخلص العمل يجزيك منه القليل . وقال (ص): ما من عبد يخلص العمل الله تعالى أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه . وقال (ص): ثلاث لا يغل عليهن : وعد منها قلب رجل مسلم أخلص العمل لله عز وجل. وقال أمير المؤمنين (ع): لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول . وقال أمير المؤمنين (ع): طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أعطى غيره! . وقال الباقر (ع): ما أخلص عبد الإيمان بالله أربعين يوما - أو قال: ما أجمل عبد ذكر الله أربعين يوما - إلا زهده الله تعالى في الدنيا وبصره داءها ودواءها، وأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه . وقال الصادق (ع) في قول الله عز وجل: ليبلوكم أيكم أحسن عملا (٤٩): ليس يعني أكثركم عملا، ولكن أصوبكم عملا. وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة .. ثم قال: الايفاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل، والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله عز وجل، والنية أفضل من العمل، ألا وإن النية هي العمل .. ثم تلا قوله عز وجل قل كل يعمل على شاكلته : يعني على نيته. وقال الصادق (ع): الإخلاص يجمع فواضل الأعمال، وهو معنى مفتاحه القبول وتوفيقه الرضا، فمن تقبل الله منه ورضي عنه فهو المخلص وإن قل عمله، ومن لا يتقبل الله منه فليس بمخلص وإن كثر عمله، واعتبارا بآدم (ع) وإبليس. وعلامة القبول وجود الاستقامة يبذل كل المحاب مع

(هامش)

(٤٨) الكهف، الآية: ١١٠ (٤٩) صححنا الأخبار المروية عن أهل البيت - عليهم السلام - على (الكافي): باب الإخلاص. وعلى (الوافي): ٣ / ٣٢٨، ٣٢٩ باب الإخلاص (*)

ص ٣١٤

إصابة علم كل حركة وسكون، والمخلص ذائب روحه باذل مهجته في تقويم ما به العلم والأعمال والعامل والمعمول بالعمل، لأنه إذا أدرك ذلك فقد أدرك ذلك الكل، وإذا فاته ذلك فاته الكل، وهو تصفية معاني التنزيه في التوحيد كما قال الأول: هلك العاملون إلا العابدون، وهلك العابدون إلا العالمون وهلك العالمون إلا الصادقون، وهلك الصادقون إلا المخلصون، وهلك المخلصون إلا المتقون، وهلك المتقون إلا الموقنون، وإن الموقنين لعلى خطر عظيم! قال الله لنبيه (ص): اعبد ربك حتى يأتيك اليقين. وأدنى حد الإخلاص بذل العبد طاقته، ثم لا يجعل لعمله عند الله قدرا فيوجب به على ربه مكافأة بعمله، لعمله أنه لو طالبه بوفاء حق العبودية لعجز، وأدنى مقام المخلص في الدنيا السلامة في جميع الآثام، وفي الآخرة النجاة من النار والفوز بالجنة (٥٠). ومن تأمل هذه الأخبار وفي غيرها مما لم يذكر، يعلم أن الإخلاص رأس الفضائل ورئيسها، وهو المناط في قبول الأعمال وصحتها، ولا عبرة بعمل لا إخلاص معه، ولا خلاص من الشيطان إلا بالإخلاص، لقوله: إلا عبادك منهم المخلصين (٥١). وما ورد في الاسرائيليات من حكاية العابد والشيطان والشجرة مشهور وفي الكتب مسطور (٥٢).

فصل آفات الإخلاص up

الآفات التي تكدر الإخلاص وتشوشه لها درجات في الظهور والخفاء أجلاها الرياء الظاهر. ثم تحسين العبادة والسعي في الخشوع فيها في الملأ دون الخلوة ليتأسى به الناس، ولو كان عمله هذا خالصا لله لم يتركه في الخلوة، إذ من يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرتضي لغيره

(هامش)

(٥٠) صححنا الرواية على مصباح الشريعة : الباب ٧٧ وعلى (البحار): مج ١٥: ٢ / ٨٦ باب الإخلاص عن مصباح الشريعة .

(٥١) الحجر الآية: ٤٠ (٥٢) راجع إحياء العلوم . ٤ / ٣٢٢ (*)

ص ٣١٥

تركه، فكيف يرتضي ذلك لنفسه في الخلوة؟ ثم تحسينها في الخلوة أيضا بقصد التسوية بين الخلوة والملأ، وهذا من الرياء الغامض، لأنه حسن عبادته في الخلوة ليحسنها في الملأ، فلا يكون فرق بينهما في التفاته فيهما إلى الخلق، إذ الإخلاص الواقعي أن تكون مشاهدة الخلق لعبادته كمشاهدة البهائم لها، من دون تفاوت أصلا، فكأن نفسه لا تسمع بإساءة العبادة بين أظهر الناس، ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول باستواء عبادته في الخلوة والملأ، وليس كما ظنه، إذ زوال ذلك موقوف على عدم

التفاته إلى الخلق في الملأ والخلوة كما لا يلتفت إلى الجمادات فيهما مع أنه مشغول الهم بالخلق فيهما جميعا. وأخفاها أن يقول له الشيطان - وهو في العبادة في الملأ بعد يأسه عن المكائد السابقة -: أنت واقف بين يدي الله سبحانه، فتفكر في جلاله وعظمته، واستحى من أن ينظر إلى قلبك وهو غافل عنه! فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه . وهذا أخفى مكائد الشيطان وخداعه، ولو كانت هذه الخطرة ناشئة عن الإخلاص لما انفكت عنه في الخلوة ولم يخص خطورها بحالة حضور غيره، وعلامة الأمن من هذه الآفة: أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ، ولا يكون حضور الغير سببا لحضوره، كما لا يكون حضور بهيمة سببا له، فما دام العبد يفرق في أحواله وأعماله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة، فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء، وهذا الشكر أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، كما ورد به الخبر ولا يسلم منه إلا من عصمه الله يخفي لطفه، إذ الشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله، لا يغفل عنهم لحظة ليحملهم على الرياء في كل واحد من أفعالهم وأعمالهم.

تتميم

الحق - كما أشير إليه - أن الشوب الممزوج بالاخلاص إن كان من المقاصد الصحيحة الراجحة شرعا، لم يبطل العمل والاخلاص ولم ينقص الأجر والثواب. إذ نية الخيرات المتعددة توجب تضاعف الثواب بحسبها

ص ٣١٦

وإن كان من الأغراض الدنيوية الراجعة إلى حب جاه أو طمع مال فهو مبطل للعمل والثواب، سواء كان الباعث الديني أضعف من الباعث النفسي أو مساويا له أو أقوى منه، لظواهر الأخبار المتقدمة. ومع إبطاله العمل، يترتب عليه عقاب على حدة أيضا، إذ الرياء في العبادة في نفسه منهي عنه محرم، سواء كان هو الباعث وحده أو انضم إلى نية التقرب انضماما مستقلا أو غير مستقل، فمن ارتكبه كان آثما لأجل الرياء في نفسه وتاركا للعبادة من حيث دخول الرياء فيها، فإن كانت واجبة ترتب إثم آخر على تركها إلا أن يسقطه بقضائها، وإن كانت مستحبة لم يلزم قضاؤها ولم يترتب إثم على تركها، بل كان إثمها منحصرا بما يترتب على الرياء في نفسه. ثم الإثم المترتب على الرياء المحض أشد وأغلظ من المترتب على الرياء الممزوج بالقربة ويتزايد إثم الممزوج بحسب ازدياد قوة باعث الرياء بالنظر إلى باعث الإخلاص وينقص بحسب نقصان ذلك. وعلى ما ذكرناه، فما انعقد عليه إجماع الأئمة من أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه، مع أن سفره ليس خالصا للحج، فالوجه فيه أن التجارة تعرض للرزق، وهو أيضا عبادة. وقد تقدم أن نية الخيرات المتعددة موجبة لتضاعف الثواب بحسبها، فلا حاجة إلى ما قيل: إن التاجر إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص، وإنما المشترك طول المسافة، ولا ثواب فيه مهما قصد تجارة ، ولا إلى ما قيل: مهما كان الحج هو المحرك الأصلي، وكان غرض التجارة كالمعين والتابع، فلا ينفك نفس السفر عن الثواب .

نعم، إذا كانت التجارة للجمع والادخار من غير حاجة، فلا يبعد أن يقال ذلك، وكذا إذا انضم إلى قصد الحج قصد التفرج ودفع التوحش عن الأهل انضماما غير مستقل، ومثله إذا انضم إلى نية الوضوء التبرد، وإلى نية الصوم قصد الحمية، وإلى نية العتق الخلاص من المؤنة وسوء الخلق، إلى غير ذلك، إذا لم تكن المنضمات مستقلة. ومن العلماء من قال: إن الباعثين إن تساويا تساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أقوى لم يكن العمل نافعا، بل كان

ص ٣١٧

مضرا وموجبا للعقاب، وإن كان عقابه أخف من عقاب الذي تجرد للرياء وإن كان باعث التقرب أقوى فله ثواب بقدر ما فضل من قوته، لقوله تعالى: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٥٢). وقوله تعالى: إن الله لا يظلم مثال ذرة (٥٣). فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان قصد التقرب غالبا على الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد والسر: أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها، فداعية الرياء من المهلكات، وقوة هذا المهلك بالعمل على وفقه، وداعية الخير من المنجيات، وقوته بالعمل على وفقه، فإذا اجتمعت الصفات في القلب فهما متضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء قويت تلك الصفة، وإن عمل على وفق داعية الخير قويت أيضا تلك الصفة، وأحدهما

مهلك والآخر منج. فإن كانت تقويته لهذا بقدر تقويته للآخر فقد تقاوما، وإن كان أحدهما غالبا زاد تأثيره بقدر الفاضل من قوته، كما في تأثير الأدوية والأغذية المتضادة إنتهى (٥٥). وفيه: أن إطلاق الظواهر يفيد كون شوب الرياء محبطا للعمل والثواب وقد تقدم بعضها. ومنها ما روي: أن رجلا سأل النبي (ص): عمن يصطنع المعروف - أو قال يتصدق - فيجب أن يحمد ويؤجر، فلم يدر ما يقول له، حتى نزل قوله تعالى: فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا (٥٦).
(هامش)
)
٥٢) الزلزال الآية: ٧، ٨ (٥٤) النساء الآية: ٤٠ (٥٥) أبو حامد الغزالي: إحياء العلوم : ٤ / ٣٢٨ ونقله المؤلف باختصار وتصرف قليلين. (٥٦) هذه مروية في البحار : مج ١٥، ٣ / ٥٩، باب ذم السمعة والاعترار بمدح الناس، عن عدة الداعي بمضمون يقارب ما هنا ونصه عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وآله - فقال: إني أتصدق وأصل الرحم ولا أصنع ذلك إلا لله فيذكر عني وأحمد عليه، فأسر في ذلك وأعجب به. فسكت رسول الله (ص) ولم يقل شيئا، فنزل قوله تعالى إنما أنا بشر.. الآية . (*)
ص ٣١٨
ولا ريب في أنه قصد الحمد والأجر جميعا، ومع ذلك نزلت في حقه هذه الآية. ومنها ما روي: أن أعرابيا أتاه (ص) وقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله! فقال (ص): من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله . وحملها على صورة تساوي القصدين أو غلبة قصد الرياء خلاف الظاهر. وما ذكره من أن لكل قصد وفعل تأثيرا خاصا على حدة، ففيه أن ذلك إذا لم يبطله ضده. ونحن نقول: إن مقتضى الأخبار كصريح العقل يدل على أن قصد الرياء يبطل قصد القربة إذا تواردا على فعل واحد، فلا يبقى لقصد التقرب تأثير حتى يتصف بالزيادة على تأثير قصد الرياء. ومنها:
• النفاق up
وهو مخالفة السر والعلن، سواء كان في الإيمان أو في الطاعات أو في المعاشرات مع الناس، وسواء قصد به طلب الجاه والمال أم لا. وعلى هذا فهو أعم من الرياء مطلقا، وإن خص بمخالفة القلب واللسان أو بمخالفة الظاهر والباطن في معاملة الناس ومصاحبتهم، فبينهما عموم وخصوص من وجه وعلى التقادير، إن كان باعثه الجبن فهو من رذائل قوة الغضب من جانب التفريط، وإن كان باعثه طلب الجاه فهو من رذائلها من جانب الإفراط وإن كان منشأ تحصيل مال أو منكح فهو من رداءة قوة الشهوة. ولا ريب في أنه من المهلكات العظيمة، وقد تعاضدت الآيات والأخبار على ذمه. وأشد أنواع النفاق - بعد كفر النفاق - كون الرجل ذا وجهين ولسانين، بأن يمدح أخاه المسلم في حضوره ويظهر له المحبة والنصيحة، ويذمه في غيبته ويؤذيه بالسب والسعاية إلى الظالمين وهتك عرضه وإتلاف ماله وغير ذلك، وبأن يتردد بين متعاديين ويتكلم لكل واحد بكلام يوافقه، ويحسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه ويمدحه (٥٧) على ذلك، أو يعد كل واحد منهما أنه ينصره، أو ينقل كلام كل واحد إلى الآخر. وهذا
(هامش)
(٥٧) وفي النسخ أثناه بدل (يمدحه)، ولم نر لها وجها. (*)
ص ٣١٩
شر من النميمة التي هي النقل من أحد الجانبين. وبالجملة: هو بجميع أقسامه مذموم محرم، قال رسول الله (ص): من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة . وقال (ص): تجدون من شر عبد الله يوم القيامة ذا الوجهين: الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه . وقال (ص): يجيئ يوم القيامة ذو الوجهين دالعا لسانه في قفاه وآخر من قدامه يلتهبان نارا حتى يلتهبان خده، ثم يقال: هذا الذي كان في الدنيا ذا وجهين وذا لسانين، يعرف بذلك يوم القيامة . وورد في التوراة: بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين، يهلك الله يوم القيامة كل شفتين مختلفتين وعن علي بن سباط، عن عبد الرحمن بن حماد، رفعه قال: قال الله تبارك وتعالى لعيسى: يا عيسى، ليكن لسانك في السر والعلانية لسانا واحد، وكذلك قلبك، إني أحذرك نفسك، وكفى بي خبيرا! لا يصلح لسانان في فم واحد، ولا سيفان غمد واحد، ولا قلبان في صدر واحد، وكذلك الأذهان! . وقال الباقر (ع): لبئس العبد عبد يكون ذا وجهين

وذا لسانين، يطري أخاه شاهدا ويأكله غائبا، إن أعطي حسده وإن ابتلي خذله . ثم لا يخفى أن الدخول على المتعاديين والمجاملة مع كل منهما قولا وفعلا لا يوجب كونه منافقا ولا ذا لسانين إذا كان صادقا، إذ الواحد قد يصادق متعاديين، ولكن صداقة ضعيفة، إذ الصداقة التامة تقتضي معاداة الأعداء وكذا من ابتلى بذي شر يخاف شره، يجوز أن يجامله ويتقيه ويظهر له في حضوره من المدح والمحبة ما لم يعتقد به قلبه، وهو معنى المداراة، وهو وإن كان نفاقا إلا أنه جائز شرعا للعذر، قال الله سبحانه: ادفع بالتي هي أحسن السيئة (٥٨). وروي: أنه استأذن رجل على رسول الله (ص) فقال: إئذنوا له فبئس رجل العشيرة. فلما دخل، ألان له القول، حتى ظن أن له عنده منزلة. فلما خرج، قيل له: لما دخل قلت الذي قلت، ثم ألنت له القول؟!

(هامش)

(٥٨) المؤمنون، الآية: ٩٦. (*)

ص ٣٢٠

فقال: إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من أكرمه الناس اتقاء لشره . ويدل على جواز ذلك جميع أخبار التقية وأخبار المداراة. وفي خبر: ما وقي المرء به عرضه فهو له صدقة . وقال بعض الصحابة: كنا نبشر في وجوه أقوام نلعنهم بقلوبنا ثم جواز ذلك إنما إذا اضطر إلى الدخول على ذي الشر ومدحه مظنة الضرر، أما لو كان مستغنيا عن الدخول والثناء أو عن أحدهما، ومع ذلك أبدى بلسانه ما ليس في قلبه من المدح، فهو نفاق محرم. ثم ضد النفاق استواء السر والعلانية، أو كون الباطن خيرا من الظاهر، وهو من شرائف الصفات، وكان الاتصاف به والاجتناب من النفاق أهم مقاصد المؤمنين من الصدر الأول. ومن تأمل في ما ورد في ذم النفاق وفي مدح موافقة الباطن مع الظاهر، وتقدم الروية في كل قول وفعل لم يصعب عليه أن يحافظ نفسه من رذيلة النفاق. إنتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث وأوله (ومنها: الغرور)

الصفحة السابقة ... up ... جامع السعادات (ج٢) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

# ٣ جامع السعادات (ج3)

## ٣٠١ جامع السعادات (ج3)

فهرس الكتب
كتاب جامع السعادات (ج٣)
:: العنوان
:: بقية المقام الرابع المتعلق بالقوى الثلاث.. من الرذائل والفضائل وهي ثلاثة عشر نوعاً:
١: الغرور
ذم الغرور
طوائف المغرورين، وهم سبعة:
١: الكفار
٢: العصاة والفساق من المؤمنين
٣: أهل العلم
٤: الوعاظ
٥: أهل العبادة والعمل
٦: المتصوفة
٧: الأغنياء وأرباب الأموال
ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد
٢: طول الأمل
علاج طول الأمل

قصر الأمل
اختلاف الناس في طول الأمل
ذكر الموت مقصر للأمل
العجب ممن ينسي الموت
الموت أعظم الدواهي
مراتب الناس في ذكر الموت
المبادرة إلى الحسنات
٣: العصيان
٤: الوقاحة
٥: الاصرار على المعصية
التوبة وتعريفها
هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟
وجوب التوبة
تحقيق في وجوب التوبة
عموم وجوب التوبة
تذنيب
لابد من العمل بعد التوبة
فضيلة التوبة
قبول التوبة
طرق التوبة عن المعاصي
تكفير الصغائر ومعنى الكبائر
الصغائر قد تكون كبائر
شروط كمال التوبة
هل يصبح التبعيض في التوبة
أقسام التائبين
مراتب التوبة
عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة
علاج الإصرار على الذنوب
الانابة
المحاسبة والمراقبة
المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة
حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا
مقامات مرابطة العقل للنفس وهي أربع مقامات: لا يوجد ارتباط
١: المشارطة
٢: المراقبة
٣: المحاسبة
٤: معاتبة النفس
٦: الغفلة
الغفلة موجبة للحرمان
ضد الغفلة: النية
تأثير النية على الأعمال
النية روح الأعمال والجزاء بحسبها
عبادة الأحرار والأجراء والعبيد
نية المؤمن خير من العمل
النية غير اختيارية

الطريق في تخليص النية
٧: الكراهة
الشوق
أفضل مراتب الشوق الشوق إلى الله
تعلق الحب بجميع القوى
أقسام الحب بحسب مباديه
لا محبوب حقيقة إلا الله
الشهود التام هو نهاية درجات العشق
سريان الحب في الموجودات
رد المنكرين لحب الله
معرفة الله أقوى سائر اللذات
تحقق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه
الطريق إلى الرؤية واللقاء
تفاوت المؤمنين في محبة الله
الواجب أظهر الموجودات
علائم محبة الله
معنى حب الله لعبده
الحب في الله والبغض في الله
الوفاء في الحب
الانس بالله
الانس قد يثمر الادلال
العزلة
٨: السخط
الرضا
فضيلة الرضا
رضا الله
رد إنكار تحقق الرضا
هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا
طريق تحصيل الرضا
التسليم
٩: الحزن
١٠: عدم الاعتماد
التوكل
فضيلة التوكل
درجات التوكل
السعي لا ينافي التوكل
الأسباب التي لا ينافي السعي إليها التوكل
اعقل وتوكل
درجات الناس في التوكل
تفنيد زعم
طريق تحصيل التوكل
١١: الكفران

الشكر
فضيلة الشكر
الشكر نعمة يجب شكرها
المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه
أقسام النعم واللذات
تنبيه
الأكل
لا فئادة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل
عجائب المأكولات
حاجة تحضير الطعام إلى آلاف الأسباب
تسخير الله التجار لجلب الطعام
نعم الله في خلق الملائكة للإنسان
الأسباب الصارفة للشكر
طريق تحصيل الشكر
الصحة خير من السقم
١٢: الجزع
الصبر
مراتب الصبر
أقسام الصبر
فضيلة الصبر
الصبر على السراء
اختلاف مراتب الصبر في الثواب
طريق تحصيل الصبر
التلازم بين الصبر والشكر
القانون الكلي في معرفة الفضائل
تفضيل الصبر على الشكر
١٣: الفسق
الطهارة
حقيقة الطهارة
ما ينبغي للمؤمن في الطهارة
إزالة الأوساخ
آداب الحمام
السر في إزالة الأوساخ
الصلاة
حقيقة الصلاة
حضور القلب
دفع إشكال
شرائط الصلاة
طريق تحصيل المعاني الباطنة
أسرار الصلاة
الوقت
آداب الصلاة
آداب المصلي

الاستقبال
القيام
التكبيرات
فصل النية
فصل تكبيرة الاحرام
فصل دعاء الاستفتاح
فصل الاستعاذة
فصل الركوع
فصل السجود
فصل التشهد
فصل التسليم
فصل إفاضة الأنوار على المصلي على قدر صفاته
فصل ما ينبغي في إمام الجماعة
فصل ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين
فصل ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات
المقصد الثالث الذكر - فضيلة الأذكار - الدعاء
فصل الذكر
تتميم فضيلة الأذكار
فصل الدعاء
المقصد الرابع تلاوة القرآن
المقصد الخامس الصوم
فصل ما ينبغي للصائم
فصل ما ينبغي للصائم عند الافطار
فصل درجات الصوم
المقصد السادس الحج
فصل الغرض من إيجاد الإنسان
فصل ما ينبغي في الحاج
فصل الميقات
فصل ما ينبغي في الميقات
فصل ما ينبغي عند دخول مكة
فصل ما ينبغي عند الطواف.
فصل ما ينبغي عند استلام الحجر
فصل السعي
فصل ما ينبغي عند الوقوف بعرفات
فصل المشعر
فصل ما ينبغي عند الرمي والذبح
تتميم أسرار الحج
خاتمة زيارة المشاهد
فصل ما ينبغي للزائر عند دخول المدينة المنورة
فصل ما ينبغي للزائر عند دخول النجف وكربلاء

## ٣٠٢ جامع السعادات (ج3)

الصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب
ص ١
جامع السعادات
للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى محمد مهدي النراقي
المتوفى ١٢٠٩ هـ
الجزء الثالث
حققه وعلق عليه
العلامة
السيد محمد كلانتر
عميد جامعة النجف الدينية
قدم له
الشيخ محمد رضا المظفر
عميد كلية الفقه
الطبعة الرابعة

## ٣٠٣ جامع السعادات (ج3)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب
ص ٢
بسم الله الرحمن الرحيم
بقية المقام الرابع ومنها (١)
• الغرور up
معنى الغرور - ذمة - طوائف المغرورين من الكفار والعصاة والفساق من المؤمنين - المغترون - أهل العلم وفرقهم - المغترون من الوعاظ كثيرون - المغرورون من أهل العبادة فرق كثيرة - المغترون من المتصوفة أكثر - المغترون من الأغنياء أكثر من سائر الطوائف - ضد الغرور والفطانة والعلم والزهد. وهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان. فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة، فهو مغرور. ولما كان أكثر الناس ظانين بأنفسهم خيرا، ومعتقدين بصحة ما هم عليه من الأعمال والأفعال وخيريته، مع أنهم مخطئون فيه فهم مغرورون، مثلا من يأخذ المال الحرام وينفقها في مصارف الخير، كبناء المساجد والمدارس والقناطر والرباطات وغيرها، يظن أن هذا خير له وسعادة، مع أنه محض الغرور، حيث خدعه الشيطان وأراه ما هو شر له خيرا، وكذا الواعظ الذي غرضه الجاه والقبول من موعظته، يظن أنه في طاعة الله، مع إنه في المعصية بغرور الشيطان وخدعته. ثم لا ريب في أن سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل الطبع إليه عن شبهة ومخيلة، مركب من أمرين (أحدهما) اعتقاد النفس بأن هذا خير له مع كونه خلاف الواقع، (وثانيهما) حبا وطلبا باطنا لمقتضيات الشهوة أو الغضب. فإن الواعظ إذا قصد بوعظه طلب الجاه والمنزلة معتقدا أنه يجلب به الثواب، تكون له رغبة إلى الجاه واعتقاد بكونه خيرا له، إذ الغني إذا أمسك ماله ولم ينفقه في مصارفه اللازمة، وواظب على العبادة معتقدا أن مواظبته على العبادة تكفي لنجاته وإن كان له حب
(هامش)
(١) أي من الرذائل المتعلقة باثنتين من القوى الثلاث أو يجمعها: وهي القوة العاقلة والغضبية والشهوية، وهذه الرذيلة (الواحدة والعشرون) منها (*)
ص ٣
للمال واعتقاد بأنه على الخير ثم الاعتقاد المذكور راجع إلى نوع معين من الجهل المركب، وهو الجهل الذي يكون المعتقد فيه شيئا يوافق الهوى، فيكون من رذائل القوة العاقلة، والحب والطلب للجاه والمال من رذائل قوتي الغضب والشهوة. فالغرور يكون من رذائل القوى الثلاث، أو من رذائل العاقلة مع أحدهما.

فصل ذم الغرور up

الغرور والغفلة منبع كل هلكة وأم كل شقاوة، ولذا ورد فيه الذم الشديد في الآيات والأخبار، قال الله - سبحانه -: (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) (٢). وقال - عز وجل (ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) (٣). وقال رسول الله (ص): (حبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين). وقال الصادق (ع): (المغرور في الدنيا مسكين، وفي الآخرة مغبون، لأنه باع الأفضل بالأدنى، ولا تعجب من نفسك، فربما اغتررت بمالك وصحة جسدك أن لعلك تبقى. وربما اغتررت بطول عمرك وأولادك وأصحابك لعلك تنجو بهم. وربما اغتررت بجمالك ومنيتك وإصابتك مأمولك وهواك، فظننت أنك صادق ومصيب. وربما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة، ولعل الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك. وربما أقمت نفسك على العبادة متكلفا والله يريد الإخلاص. وربما افتخرت بعلمك ونسبك. وأنت غافل عن مضمرات ما في غيب الله تعالى. وربما توهمت أنك تدعو الله وأنت تدعو سواه. وربما حسبت أنك ناصح للخلق وأنت تريدهم لنفسك أن يميلوا إليك وربما

(هامش)

(٢) لقمان، الآية: ٣٣ فاطر، الآية: ٥ (٣) الحديد، الآية: ١٤ (*)

ص ٤

ذممت نفسك وأنت تمدحها على الحقيقة (٤)

فصل طوائف المغرورين up

إعلم أن فرق المغترين كثيرة، وجهات غرورهم ودرجاته مختلفة، وما من طائفة في العالم مشتركين في وصف مجتمعين على أمر، إلا ويوجد فيهم فرق من المغترين. إلا أن بعض الطوائف كلهم مغترون، كالكفار والعصاة والفساق، وبعضهم يوجد فيهم المغرور وغير المغرور، وإن كان معظم كل طائفة أرباب الغرور. ونحن نشير إلى مجاري الغرور، وإلى غرور كل طائفة، ليتمكن طالب السعادة من الاحتراز عنه، إذ من عرف مداخل الآفات والفساد ومجاريهما يمكنه أن يأخذ منها حذره ويبني على الجزم والبصيرة أمره. فنقول:

الطائفة الأولى الكفار up

وهم مغرورون بأسرهم، وهم ما بين من غرته الحياة الدنيا، وبين من غره الشيطان بالله، وأما الذين غرتهم الحياة الدنيا، فباعث غرورهم قياسان نظمهما الشيطان في قلوبهم (أولهما) أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة، والنقد خير من النسيئة (وثانيهما) أن لذات الدنيا يقينية ولذات الآخرة مشكوكة فيها، اليقيني خير من المشكوك، فلا يترك به. وهذه أقيسة فاسدة، تشبه قياس إبليس، حيث قال: (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) (٥) وعلاج هذا الغرور - بعد تحصيل اليقين بوجود الواجب تعالى وبحقية النبي (ص)، وهو في غاية السهولة لوضوح الطرق والأدلة - إما أن يتبع مقتضى إيمانه ويصدق الله تعالى في قوله: (ما عندكم ينفذ وما عند الله باق) (٦). وفي قوله تعالى (والآخرة خير

(هامش)

(٤) صححناه على مصباح الشريعة: الباب ٣٦. (٥) الأعراف الآية: ١١، ص الآية ٧٦ (٦) النحل الآية: ٩٦ (*)

ص ٥

وأبقى (٧). وقوله (وما عند الله خير وأبقى) (٨). وقوله: (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (٩). وقوله تعالى: (فلا تغرنكم الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) (١٠. وإما أن يعرف بالبرهان فساد القياسين، حتى يزول عن نفسه ما تأديا إليه من الغرور. وطريق معرفة الفساد في (القياس الأول): أن يتأمل في أن كون الدنيا نقدا والآخرة نسيئة صحيح، إلا أن كون كل نقد خير من النسيئة غير صحيح، بل هو محل التلبيس، إذ المسلم خيرية النقد على النسيئة إن كان مثلها من المقدار والمنفعة والمقصود والبقاء، وأما إن كان أقل منها في ذلك وأدون، فالنسيئة خير، ألا ترى أن هذا المغرور إذا حذره الطبيب من لذائذ الأطعمة يتركها في الحال خوفا من ألم المرض في الاستقبال ويبذل درهما في الحال ليأخذ درهمين نسيئة، ويتعب في الأسفار ويركب في الحال لأجل الراحة والربح نسيئة. وقس عليه جميع أعمال الناس وصنائعهم في الدنيا: من الزراعة والتجارة والمعاملات، فإنهم يبذلون فيها المال نقدا ليصلوا إلى أكثر منه نسيئة،

فإن كان عشرة في ثاني الحال خيرا من واحد في الحال، فانسب لذة الدنيا من حيث الشدة والمدة والعدة إلى لذة الآخرة من هذه الحيثيات، فإن من عرف حقيقة الدنيا والآخرة، يعلم أنه ليس للدنيا قدر محسوس بالنسبة إلى الآخرة، على أن لذة الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات، ولذة الآخرة صافية غير ممتزجة بشيء من المكدرات وأما طريق معرفة فساد (القياس الثاني) بأصليه: هو أن يعرف أن كون لذة الآخرة مشكوكا فيها خطأ، وأن كل يقتني خير من المشكوك غلط: (أما الأول) فلأن الآخرة يقينية قطعية عند أهل البصيرة. وليقينهم مدركان: - أحدهما - ما يدركه عموم الخلق، وهو اتفاق عظماء الناس

(هامش)

(٧) الأعلى، الآية: ١٧ (٨) القصص الآية: ٦٠ الشورى الآية: ٣٦ (٩) آل عمران، الآية: ١٨٥. الحديد الآية ٢٠ (١٠) لقمان، الآية: ٣٣، فاطر الآية: ٥ (*)

ص ٦

من الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء، فإن ذلك يورث اليقين والطمأنينة بعد التأمل، كما أن المريض الذي لا يعرف دواء علته إذا أتفق جميع أرباب الصناعة على أن دواءه كذا، فإنه تطمئن نفسه إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين، بل يثق بقولهم ويعمل به، وإن كذبهم صبي أو معتوه أو سوادي. ولا ريب في أن المنكرين للآخرة المغترين بالحياة الدنيا من الكفار والبطالين بالنظر إلى المخبرين عن أحوال الآخرة المشاهدين لها من الأنبياء والأولياء أدون حالا وأقل رتبة من صبي أو معتوه أو سوادي فالنظر إلى أطباء بلد أو مملكة. - وثانيهما - ما لا يدركه إلا الأنبياء والأولياء، وهو الوحي والإلهام، فالوحي للأنبياء والإلهام والكشف للأولياء فإنه قد كشفت لهم حقائق الأشياء كما هي عليها، وشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر، فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد، ولا تظنن أن معرفة النبي (ص) لأمر الآخرة ولأمور الدين مجرد تقليد لجبرئيل بالسماع منه، كما أن معرفتك لها تقليد للنبي، هيهات! فإن الأنبياء يشاهدون حقائق الملك والملكوت، وينظرون إليها بعين البصيرة واليقين، وإن أكد ذلك بإلقاء الملك والسماع منه. وأما المغرورون بالله، وهم الذين يقدرون في أنفسهم ويقولون بألسنتهم: أن كان لله معاد فنحن فيه أوفر حظا وأسعد حالا من غيرنا كما أخبر الله - سبحانه - عن قول الرجلين المتحاورين، إذ قال: (وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) (١١) وباعث ذلك: ما ألقى الشيطان في روعهم من نظرهم مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة وينظرون إلى تأخير الله العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة، كما قال الله - تعالى -: (ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم يصلونها فبئس المصير) (١٢).

ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء محتاجون، فيقولون: لو أحبهم الله لأحسن إليهم في الدنيا ولو لم يحبنا لما أحسن إلينا فيها، فلما لم يحسن

(هامش)

(١١) الكهف، الآية: ٣٧. (١٢) المجادلة الآية: ٨ (*)

ص ٧

إليهم في الدنيا وأحسن إلينا فيها فيكون محبا لنا ولا يكون محبا لهم، فيكون الأمر في الآخرة كذلك، كما قال الشاعر: كما أحسن الله فيما مضى * كذلك يحسن فيما بقي ولا ريب في أن كل ذلك خيالات فاسدة وقياسات باطلة، فإن من ظن أن النعم الدنيوية دليل الحب والاكرام فقد أغتر بالله، إذ ظن أنه كريم عند الله، بدليل لا يدل على الكرامة بل يدل عند أولي البصائر على الهوان والخذلان، لأن نعيم الدنيا ولذاتها مهلكات ومبعدات من الله، وأن الله يحمي أحباءه الدنيا كما يحمي الوالد الشفيق ولده المريض لذائذ الأطعمة، ومثل معاملة الله - سبحانه - مع المؤمن الخالص والكافر والفاسق، حيث يزوي الدنيا عن الأول ويصيب نعمها ولذاتها على الثاني، مثل من كان له عبدان صغيران يحب أحدهما ويبغض الآخر، فيمنع الأول من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلمه الأدب ويمنعه من لذائذ الأطعمة والفواكه التي تضره ويسقيه الأدوية البشعة التي تنفعه، ويهمل الثاني ليعيش كيف يريد ويلعب ويأكل كلما يشتهي، فلو ظن هذا العبد المهمل أنه محبوب كريم عند سيده لتمكنه من شهواته ولذاته، وأن الآخر مبغوض عنده لمنعه عن مشتهياته، كان مغرورا أحمق، فقد كان الخائفون من ذوي البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا: ذنب عجلت العقوبة، وإذا أقبل عليهم الفقر

قالوا: مرحبا بشعار الصالحين! وأما المغرورون فعلى خلاف ذلك، لظنهم أن إقبال الدنيا عليهم كرامة من الله وأن إدبارها عنهم هوان لهم، كما أخبر الله - تعالى - عنه بقوله: (فأما الإنسان إذ ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن) (١٣).

وعلاج هذا الغرور: أن يعرف أن أقبال الدنيا دليل الهوان والخذلان دون الكرامة والاحسان، والتجرد منها سبب الكرامة والقرب إلى الله - سبحانه - والطريق إلى هذه المعرفة: إما ملاحظة أحوال الأنبياء والأولياء

(هامش)

(١٣) الفجر الآية: ١٥ - ١٦ (*)

ص ٨

وغيرهما من طوائف العرفاء وفرق الأتقياء، أو التدبر في الآيات والأخبار. قال الله - سبحانه -: (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) (١٤). وقال الله - سبحانه - (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) (١٥) وقال تعالى: (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغية فإذا هم مبلسون) (١٦). وقال - تعالى -: (إنما نملي لهم ليزدادوا إثما) (٧).. إلى غير ذلك من الآيات والأخبار. ومنشأ هذا الغرور: الجهل بالله وبصفاته، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر به بأمثال هذه الخيالات الفاسدة، وينظر إلى قارون وفرعون وغيرهما من الملوك والجبابرة، كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا، وقد حذر الله عباده عن مكره واستدراجه فقال: (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) (١٨) وقال: (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) (١٩).

الطائفة الثانية العصاة والفساق من المؤمنين up

وسبب غرورهم وغفلتهم: أما بعض بواعث غرور الكافرين - كما تقدم - أو ظنهم أن الله - تعالى - كريم ورحمته واسعة ونعمته شاملة، وأين معاصي العباد في جنب بحار رحمته، ويقولون: إنا موحدون ومؤمنون، فكيف يعذبنا مع التوحيد والإيمان، ويقررون ظنهم بما ورد في فضيلة الرجاء - كما تقدم -. وربما أغتر بعضهم بصلاح آبائهم وعلو رتبتهم، كاغترار بعض العلويين بنسبهم مع مخالفتهم سيرة آبائهم الطاهرين في الخوف

(هامش)

(

١٤) المؤمنون، الآية: ٥٦ - ٥٧ (١٥) الأعراف، الآية: ١٨١، القلم الآية: ٤٤ (١٦) الأنعام، الآية: ٤٤ (١٧) آل عمران، الآية: ١٨٧ (١٨) الأعراف، الآية: ٩٩ (١٩) لا عمران، الآية: ٥٤ (*)

ص ٩

والورع. علاج هذا الغرور: أن يعرف الفرق بين الرجاء الممدوح والتمني المذموم، ويعلم أن غروره ليس رجاء ممدوحا، بل هو تمن مذموم، كما قال رسول الله (ص): (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله). فإن الرجاء لا ينفك عن العمل، إذ من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه، وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولدا وهو لم ينكح، أو نكح ولم يجامع، أو جامع ولم ينزل، فهو مغرور أحمق، كذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن، أو آمن ولم يترك المعاصي، أو تركها ولم يعمل صالحا، فهو مغرور جاهل كيف وقد قال الله - سبحانه -: (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) (٢٠) يعني أن الرجاء يليق بهم دون غيرهم وذلك، لأن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال، كما قال - تعالى -: (جزاء بما كانوا يعملون) (٢١). وقال: (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) (٢٢). وقال: (وأن ليس للانسان إلا ما سعى، وإن سعيه سوف يرى) (٢٣) وقال: (كل نفس بما كسبت رهينة) (٢٤). أفترى أن من استؤجر على صلاح أوان وشرط له أجرة عليها، وكان الشارط كريما يفي بوعده وشرطه، بل كان بحيث يزيد على ما وعده وشرطه، فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسدها جميعا، ثم جلس ينتظر الأجر زعما منه أن المستأجر كريم، أفيراه العقلاء في انتظاره راجيا أو مغرورا متمنيا؟ وبالجملة: سبب هذا الغرور الجهل بين الرجاء والعزة، فليعالجه بما ذكر هنا وفيما سبق. ثم إن المغرور بعلو رتبة آبائه، ظانا أن الله تعالى يحب آباءه، ومن

(هامش)
)
٢٠) البقرة، الآية: ٢١٨ (٢١) السجدة الآية: ١٧، الأحقاف الآية: ١٤. الواقعة، الآية ٢٤ (٢٢) آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٢٣) النجم الآية: ٣٩ - ٤٠ (٢٤) المدثر الآية: ٣٨
ص ١٠
أحب إنسانا أحب أولاده، أشد حمقا من المغرور بالله، لأن الله - سبحانه - يحب المطيع ويبغض العاصي من غير ملاحظة لآبائهما، فكما أنه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للأب المطيع، وليس يمكن أن يسري من الأب إلى الابن شيء من الحب والبغض والمعصية والتقوى، إذ لا تزر وازرة أخرى، فمن زعم أنه ينجو بتقوى أبيه، كان كمن زعم أنه يشبع بأكل أبيه، أو يصير عالما بتعلم أبيه، أو يصل إلى الكعبة بمشي أبيه، فهيهات هيهات! إن التقوى فرض عين على كل أحد، فلا يجزى والد عن ولده شيئا، وعند الجزاء يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، ولا ينفع أحد أحدا إلا على سبيل الشفاعة، بعد تحقيق شرائطها.
ثم العصاة المغرورن، أما ليست لهم طاعات، فتمنيهم المغفرة غاية الجهل - كما مر -، أو لهم طاعات ولكن معاصيهم أكثر، وهم عالمون بأكثرية المعاصي، ومع ذلك يتوقعون المغفرة وترجح حسناتهم على سيئاتهم، وهو أيضا غاية الجهل، إذ مثله مثل من وضع عشرة دراهم على كفة ميزان وفي الكفة الأخرى ألفا أو الفين، وتوقع أن تميل الكفة الثقيلة بالخفيفة، ومن الذين معاصيهم أكثر من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه، لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها، كالذي يحج طول عمره حجة ويبني مسجدا، ثم لا يكون شيء من عباداته على النحو المطلوب، ولا يجتنب من أخذ أموال المسلمين، فينسى ذلك كله ويكون حجه وما بناه من المسجد في ذكره، ويقول: كيف يعذبني الله وقد حججت وبنيت مسجدا وكالذي يسبح الله كل يوم مئة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول نهاره من غير حصر وعدد، ويكون نظره إلى عدد سبحته مع غفلته عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة، وقد كتبه الكرام الكاتبون، فهو يتأمل دائما في فضيلة التسبيحات، ولا يلتفت إلى ما ورد في عقوبة الكذابين والمغتابين والنمامين والفاحشين، ولو كان كتبة أعماله يطلبون منه أجرة الزايد من هذيانه على تسبيحاته، لكان عند ذلك يسعى في كف لسانه
ص ١١
عن آفاته وموازنتها بتسبيحاته، حتى لا يكون لها زيادة عليها ليؤخذ منه أجرة نسخ الزائد. فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا أن يفوته مقدار قيراط ولا يحتاط خوفا من فوت العليين ومجاورة رب العالمين!
الطائفة الثالثة أهل العلم up

والمغترون منهم فرق: (فمنهم) من أقتصر من العلم على علم الكلام والمجادلة ومعرفة آداب المناظرة، ليتفاخر في أندية الرجال ويتفوق على الأقران والأمثال، من غير أن يكون له في العقائد قدم راسخ أو مذهب واحد، فليختار تارة ذاك وتارة هذا، وتكون عقيدته تخيط مرسل في الهواء تفيئه الريح مرة هكذا ومرة هكذا، ومع ذلك يظن بغروره أنه أعرف الناس وأعلمهم بالله وبصفاته. و(منهم) من أقتصر من العلم على علم النحو واللغة، أو الشعر أو المنطق، واغتر به وأفنى عمره فيها، وزعم أن علم الشريعة والحكمة موقوف عليها، ولم يعلم أن ما ليس مطلوبا لذاته ويكون وسيلة إلى ما هو مقصود لذاته يجب أن يقتصر عليه بقدر الضرورة، والتعمق فيه إلى درجات لا تتناهى فضول مستغنى عنها، وموجب للحرمان عما هو مقصود لذاته. و(منهم) من أقتصر على فن المعاملات من الفقه، المتضمن لكيفية الحكم والقضاء بين الناس، واشتغل بإجراء الأحكام، وأعرض عن علم العقائد والأخلاق، بل عن فن العبادات من الفقه، وأهمل تفقد قلبه ليتخلى عن رذائل الأخلاق ويتحلى بفضائل الملكات وتفقد جوارحه وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات. و(منهم) من حصل فن العبادات أيضا، بل أحكم العلوم الشرعية بأسرها وتعمق فيها واشتغل، ولكن ترك العلم الإلهي وعلم الأخلاق، ولم يحفظ الباطن والظاهر عن المعاصي، ولم يعمرها بالطاعات. و(منهم) من أحكم جميع العلوم من العقلية والشرعية، وتعمق فيها واشتغل بها، إلا أنه أهمل العمل رأسا، أو واضب على الطاعات الظاهرة

ص ١٢
وأهمل صفات القلب، وربما تفقد صفات القلب وأخلاق النفس أيضا، وجاهد نفسه في التبري عنها، وقلع من قلبه منابتها الجلية القوية، ولكن بقيت في زوايا قلبه خفايا من مكائد الشيطان، وخبايا وتلبيسات النفس ما دق وغمض مدركه فلا يتفطن بها. وجميع هؤلاء غافلون مغرورون، إذا كان اعتقادهم أنهم على خير وسعادة، وأن كان بينهم تفاوت من حيث الضعف والشدة، إذ سعادة النفس وخلاصها من العذاب لا تحصل إلا بمعرفة الله - تعالى - ومعرفة صفاته وأفعاله وأحواله النشأة الآخرة، والعمل برذائل الأخلاق وشرائفها، ثم تهذيب الباطن بفضائل الأخلاق وعمارة الظاهر بصوالح الطاعات والأعمال، فكل من يعلم بعض العلوم وترك ما هو المهم من العلم - أعني معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات النفس التي هي الصفات المذمومة المانعة عن الوصول إلى الله - وظن أنه على خير كان مغرورا، إذا مات ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله، فمن ترك العلم المهم واشتغل بغيره، فهو كمن له مرض خاص مهلك فاحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله، فأشتغل بتعلم مرض آخر يضاد مرضه في المعالجة، كما أن من أحكم العلوم بأسرها وترك العمل، مثل المريض الذي تعلم دواء مرضه وكتبه، وهو يقرأه ويعلمه المرضى ولا يستعمله قط لنفسه، فإنه لا ريب في أن مجرد تعلم الدواء لا يشفيه، بل لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفي جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة لم ينفعه ذلك من مرضه شيئا، حتى يشتري هذا الدواء ويشربه كما تعلم في وقته، ومع شربه واستعماله يكون على خطر من شفائه، فكيف إذا لم يشربه أصلا، فلو ظن أن مجرد تعلم الدواء يكفيه ويشفيه فهو مغرور، فكذلك من أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق ولم يزل نفسه عن رذائلها ولم يتصف بفضائلها، فهو في غاية الغرور، إذ قال الله تعالى: (قد أفلح من زكاها) (٢٥)
(هامش)
(٢٥) الشمس الآية: ٩ (*)
ص ١٣
ولم يقل: قد أفلح من علم طريق تزكيتها. ثم من هذه الطائفة فرقة متصفة برذائل الأخلاق والغرور، أدى بهم إلى حيث ظنوا أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بها، وإنما يبتلي بها العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم. ثم إذا ظهرت عليه مخايل الكبر والرئاسة وطلب العلو والشرف قال: ما هذا تكبرا، إنما هو طلب إعزاز الدين، وإظهار شرف العلم، وإرغام أنف المخالفين. ومهما ظهرت منه آثار الحسد، وأطلق لسانه بالغيبة في أقرانه ومن رد عليه شيئا من كلامه، لم يظن بنفسه أن ذلك حسد، بل يقول: أن هذا غضب للحق ورد على المبطل في عداوته وظلمه، مع أنه لو طعن في غيره من أهل العلم، ورد عليه قوله، ومنع من منصبه، لم يكن غضبه مثل غضبه الآن، بل ربما يفرح به، ولو كان غضبه للحق لا للحسد على أقرانه وخبث باطنه، لاستوى غضبه في الحالين. وإذا خطر له خاطر الرياء قال: غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي، ليهتدوا إلى دين الله ويتخلصوا من عقاب الله. ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به، ولو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان، وربما يتذكر هذا ومع ذلك لا يخليه الشيطان، بل يقول: إنما ذلك لأنهم إذا اهتدوا بي كان الأجر والثواب لي، ففرحي إنما هو بثواب الله لا بقبول الخلق، هذا ما يظن بنفسه، والله مطلع على سريرته، إذ ربما كان باطنه في الخباثة بحيث لو علم قطعا بأن ثوابه في الخمول وإخفاء العلم والعمل أكثر من ثوابه في الإظهار، لاحتال مع ذلك في إظهار رئاسة، من تدريس أو وعظ أو إمامة أو غير ذلك.
وإذا كان بحيث يدخل على السلاطين والأمراء الظلمة ويثني عليهم ويتواضع لهم، وخطر له أن مدحهم والتواضع لهم حرام، قال له الشيطان: أن ذلك عند الطمع في مالهم، وغرضك من الدخول عليهم دفع الضرر عن المسلمين دون الطمع، والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان، وكان بحيث يقبل شفاعته في كل أحد، وهو لا يزال يستشفع ويدفع الضرر عن المسلمين، يثقل ذلك عليه، بحيث لو قدر أن يقبح حاله عند السلطان لفعل. وربما انتهى الغرور في بعضهم
ص ١٤
إلى أن يأخذ من أموالهم المحرمة، وإذ خطر له أنها حرام، قال له الشيطان: هذا مال مجهول المالك يجب أن يتصدق به أمام المسلمين

وأنت إمامهم وعالمهم، وبك قوام دين الله، فيحل لك أن تأخذ منها قدر حاجتك وتصرف الباقي على مصالح المسلمين، فيغتر بهذا التلبيس، ولا يزال يأخذها من غير أن يبذل شيئا منها في مصرف غيره. وربما انتهى الغرور في بعضهم إلى حيث أنه إذا حضرت مائدتهم وأكل طعامهم وقيل له: إن هذا لا يليق بمثلك. قال: الأكل جائز بل واجب، إذ هذا مال لا يعلم مالكه، فيجب التصدق له على الفقراء، ويجب على مثلي بقدر القوة والاستطاعة أن يجتهد في استخلاصه من يد الظالم وإيصاله إلى أهله - أعني الفقراء - وأكلي منها نوع قدرة على استخلاصه، فآكل منه وأتصدق بقيمته على الفقراء، والله يعلم من باطنه أنه لا يتصدق بقيمته ولا يعتقد بحقيقة ما يقول، وإنما هو تلبيس ألقاه الشيطان في روعه، لئلا يضعف اعتقاد العامة في حقه، وربما كان بحيث لا يبالي من أخذ مالهم وأكل طعامهم خفية، ولو علم أنه يطلع عليه واحد من صويلح العامة المعتقدين به، امتنع منه غاية الامتناع. وربما كان بعضهم في الباطن مائلا إلى الدخول على السلاطين والأمراء وتاركا له في الظاهر، وكان الباعث في ذلك طلب المنزلة في قلوب العامة، ومع ذلك يظن أن الاجتناب عنهم عين ورعه وتقواه. وربما كان بعضهم إمام قوم يظن أنه على خير وباعث لترويج الدين وإعلاء الكلمة ومقيم بشعار الإسلام، ومع ذلك لو أم غيره ممن هو أعلم وأورع منه في مسجده، أو يتخلف بعض من يقتدي به عن الاقتداء به، قامت عليه القيامة، وربما لم يكن باعثه على الحركة إلى المسجد للإمامة مجرد التقرب والامتثال لأمر الله، بل كان الباعث محض حب الجاه والرياسة واعتقاد العامة، أو مركبا منه ومن نية الثواب.

وربما أتخذ بعضهم الإمامة شغلا ووسيلة لأمر المعاش، ومع ذلك يظن أنه مشتغل بأمر الخير، والظاهر في أمثال زماننا ندور الإمام الذي كان قصده من الإمامة مجرد التقرب إلى الله، من دون وجود شيء من حب طلب المنزلة في القلوب، أو تحصيل المال، أو دفع بعض الشرور عن نفسه في زوايا قلبه، ولو وجد مثله فهو القدوة الذي يجب أن تشد

ص ١٥

الرحال من المواضع البعيدة إليه ليقتدي به، ومثله كلما وجد في نفسه قصد التقرب والثواب في الذهاب إلى المسجد للإمامة ذهب ولو لم يجد ذلك من نفسه تخلف، وصلى منفردا، وهو الذي يستوي عنده اقتداء الناس به وعدمه، ويستوي عنده كثرة المقتدين وقلتهم، بل يكون حاله عند صلاته وهو إمام لجم غفير كحاله عند صلاته منفردا، من دون أن يجد في نفسه تفاوتا في الحالين. وبالجملة: أصناف غرور أهل العلم - (لا) سيما في هذه الأعصار - كثيرة، والتأمل يعلم أن الغرور أو التلبيس أو غيرهما من ذمائم الأفعال انتهى في بعضهم إلى أن وجودهم مضر بالإسلام والمسلمين وموتهم أنفع للإيمان والمؤمنين، لأنهم دجالو الدين وقوامو مذهب الشياطين، ومثلهم كما قال عيسى ابن مريم (ع): (العالم السوء كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يتخلص إلى الزرع).

الطائفة الرابعة الوعاظ up

والمغترون منهم كثيرون: (فمنهم) من يتكلم في وعظه في أخلاق، النفس وصفات القلب، من الخوف، والرجاء، والتوكل، والرضاء، والصبر، والشكر، ونظائرها، ويظن أنه إذ ا تكلم بهذه الصفات ودعا الخلق إليها صار موصوفا بها، وهو منفك عنها في الواقع، إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين، ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق دون أمر آخر، ومع ذلك لو أقبل الخلق على أحد من أقرانه وصلحوا على يديه، وكان أقوى منه في الإرشاد والاصلاح لمات غما وحسدا، ولو أثنى أحد المترددين عليه على بعض أقرانه، لصار أبغض خلق الله إليه. و(منهم) من أشتغل بالشطح والطامات، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل، وربما كلف نفسه بالفصاحة والبلاغة، وتصنع التشبيهات والمقدمات، وشغف بطيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها، طلبا للأعوان والأنصار، وشوقا إلى تكثر البكاء والرقة والتواجد والرغبات

ص ١٦

في مجلسه، والتذاذا بتحريك الرؤوس على كلامه والبكاء عليه، وفرحا بكثرة الأصحاب والمستفيدين والمعتقدين به، وسرورا بالتخصيص بهذه الخاصة من بين سائر الأقران، وربما لم يبال بالكذب في نقل الأخبار والآثار، ظنا منه أنه أوقع في النفوس وأشد تأثيرا في رقة العوام وتواجدهم. ولا ريب في أن هؤلاء شر الناس، بل شياطين الإنس، ظلوا وأظلوا عن سواء السبيل، إذ الأولون أن لم يصلحوا أنفسهم، فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم، وأما هؤلاء فإنهم يصدون عن سبيل الله، ويجرون الخلق إلى الغرور بالله،

لأن سعيهم في ذكر ما يسر به العامة، ليصلوا به منهم إلى أغراضهم الفاسدة، فلا يزالون يذكرون ما يقوي الرجاء، ويزيدهم جرأة على المعاصي ورغبة في الدنيا، (لا) سيما إذا كان هذا الواعظ أيضا ممن يرغب في الدنيا، ويسر بوصول المال إليه، ويتزين في الثياب الفاخرة والمراكب الفارهة، وغيرهما من زينة الدنيا. فمثله ممن يضل ويكون إفساده أكثر من إصلاحه، ومع ذلك يظن أنه مروج الشرع والدين ومرشد الضالين، فهو أشد المغرورين والغافلين.

و(منهم) من هذب أخلاقه، وراقب قلبه، وصفاه عن جميع الكدورات، وصغرت الدنيا في عينه، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم، ودعته الرحمة والشفقة على عباد الله إلى نصحهم واستخلاصهم عن أمراض المعاصي بالوعظ، فلما أستقل به وجد الشيطان مجال الفتنة، فدعاه إلى الرئاسة دعاء خفيا - أخفى من دبيب النملة - لا يشعر به، ولم يزل ذلك في قلبه يربو وينمو حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق: بتحسين الألفاظ والنغمات والحركات، والتصنع في الزي والهيئة والشمائل، وأقبل الناس إليه يعظمونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك، إذ رأوه شافيا لأمراضهم بمحض الرحمة والشفقة من غير طمع، فآثروه بأبدانهم وأموالهم، وصاروا له كالخدم والعبيد، فعند ذلك انتشر طبعه وارتاحت نفسه، وذاق لذة يا لها من لذة، وأصاب من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة، فوقع في أعظم لذات الدنيا بعد قطعه بأنه تاركا للدنيا، فقد غره الشيطان على ما لا يشعر به. وعلامة ثوران حب الرئاسة في باطنه: أنه لو ظهر من أقرانه

ص ١٧

من مالت القلوب إلى قبوله، وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه، شق ذلك عليه، إذ لولا أن النفس قد استبشرت واستلذت بالرئاسة لكان يغتنم ذلك. وعلى هذا فينبغي ألا يشتغل أحد بالنصح والوعظ إلا إذا وجد من نفسه أنه ليس له قصد سوى هدايتهم إلى الله - تعالى -، وكان يسره غاية السرور ظهور من يعينه على إرشادهم أو اهتدائهم من عند أنفسهم، وانقطع طمعه بالكلية عن ثنائهم وأموالهم، واستوى عنده حمدهم وذمهم، ولم يبالي بذمهم إذا كان الله يمدحه، ولم يفرح بمدحهم إذا لم يقترن به مدح الله، ونظر إليهم كما ينظر إلى من هو أعلم منه وأورع، حيث لا ينكر عليه ويراه خيرا من نفسه، لدلالة الظاهر على ذلك وجهله بالخاتمة وإلى البهائم من حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم، فإنه لا يبالي كيف يراه البهائم، فلا يتزين لها، إذ راعي الماشية إنما غرضه رعايتها ودفع الذئب عنها، دون نظر الماشية إليه بعين المدح والثناء. ثم لو ترقى الواعظ، وعلم بهذه المكيدة من الشيطان، واشتغل بنفسه وترك النصح، أو نصح مع رعاية شرط الصدق والاخلاص، لخيف عليه الاعجاب بنفسه في فراره عن الغرور، فيكون إعجابه بنفسه في الفرار عن الغرور غاية الغرور، وهو المهلك الأعظم من كل ذنب، ولذلك قال الشيطان: (يا ابن آدم! إذا ظننت أنك بعملك تخلصت مني فبجهلك قد وقعت في حبائلي). ثم لو دفع عن نفسه العجب، وعلم أن ذلك من الله تعالى لا منه، وأن مثله لا يقوى على دفع الشيطان عنه إلا بتوفيق الله، وأنه ضعيف عاجز لا يقدر على شيء أصلا، فضلا عن دفع الشيطان، لخيف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل.

ولا ريب أن الآمن من مكر الله خاسر مغرور، فسبيل النجاة بعد تهذيب النفس وخلوص القصد والانقطاع عن الدنيا ولذاتها، أن يرى ذلك كله من فضل الله، وكان خائفا على نفسه من سلب حاله في كل لحظة، وغير آمن من مكر الله، وغير غافل عن خطر الخاتمة. وهذا خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه، إلا بمجاوزة الصراط والدخول في الجنة، ولذلك

ص ١٨

لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزع - وكان قد بقي له نفس - قال: (أفلت مني يا فلان!؟)، فقال: (لا! بعد).

الطائفة الخامسة أهل العبادة والعمل up

والمغرورون منهم فرق كثيرة: (فمنهم) من غلبت عليه الوسوسة في إزالة النجاسة وفي الوضوء، فيبالغ فيه ولا يرتضي الماء المحكوم بالطهارة في فتوى الشرع، ويقدر الاحتمالات البعيدة الموجبة للنجاسة، وإذا آل الأمر إلى الأكل وأخذ المال قدر الاحتمالات الموجبة للحل، بل ربما أكل الحرام المحض وقدر له محملا بعيدا لحله ولو انقلب هذا الاحتمال من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة أكابر الأولياء. ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف في صبه الماء وربما بالغ عند الوضوء في التخليل وضرب إحدى يديه على وجهه أو يده الأخرى ولا

يدري هذا المغرور أن هذا العمل أن كان مع اليقين بحصول ما يلزم شرعا فهو تضييع للعمر الذي هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه، وإن كان بدونه بل يحتاط في التخليل ليحصل الجزم بوصول الماء إلى البشرة، فما باله يتيقن بوصول الماء إلى البشرة في الغسل بدون هذه المبالغة والاحتياط مع أن حصول القطع بإيصال الماء إلى البشرة في الغسل ألزم وأوجب. ثم ربما لم يكن له مبالغة واحتياط في الصلاة وسائر العبادات، وانحصر احتياطه ومبالغته بالوضوء، زاعما أن هذا يكفي لنجاته، فهو مغرور في غاية الغرور. و(منهم) من أغتر بالصلاة فغلبت عليه الوسوسة في نيتها فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة، بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة أو فضيلة الوقت، وقد يوسوس في التكبير حتى يغير صيغتها لشدة الاحتياط فيه، يفعل ذلك في أول صلاته ثم يغفل في جميع صلاته، ولا يحضر قلبه، ويغتر بذلك، ويظن أنه إذا أتعب نفسه في تصحيح النية فهو على خير. وربما غلبت على بعضهم الوسوسة في دقائق القراءة، وإخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار عن مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات وتصحيح المخارج

ص ١٩

والتمييز بين مخارج الحروف المتقاربة من غير اهتمام فيما عدا ذلك، من حضور القلب والتفكير في معاني الأذكار، ضنا منه أنه إذا صحت القراءة فالصلاة مقبولة، وهذا أقبح أنواع الغرور. و(منهم) من أغتر بالصوم، وربما صام الأيام الشريفة، بل صام الدهر، ولم يحفظ لسانه عن الغيبة، ولا بطنه عن الحرام عند الافطار، ثم يظن بنفسه الخير، وذلك في غاية الغرور. (ومنهم) من اغتر بالحج، فيخرج إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون وطلب الزاد الحلال، ويضيع في الطريق الصلاة، ويعجز عن طهارة الثوب والبدن، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذمائم الصفات، ومع ذلك يظن أنه على خير. فهو في غاية الغرور. و(منهم) من أغتر بقراءة القرآن، فيهذ هذا، وربما يختم في اليوم والليلة مرة، فيجري به لسانه، وقلبه مرددا في أودية الأماني، وربما أسرع في القراءة غاية السرعة، ويظن أن سرعة اللسان من الكمالات، ويتفاخر به على الأمثال والأقران. (ومنهم) من أغتر ببعض النوافل، كصلاة الليل، أو مجرد غسل الجمعة أو أمثال ذلك، من غير اعتداد بالفرائض، زاعما أن المواظبة على مجرد هذه النافلة ينجيه في الآخرة، فهو أيضا من المغرورين. (ومنهم) من تزهد وقنع بالدون من المطعم والملبس والمسكن، ظانا أنه أدرك رتبة الزهاد، ومع ذلك راغب في الرئاسة باشتهاره بالزهد، فهو ترك أهون المهلكين بأعظمها، إذ حب الجاه أشد فسادا من حب المال. ولو ترك الجاه وأخذ المال لكان أقرب إلى السلامة، فهو مغرور إذ ظن أنه من الزهاد، ولم يعرف أن منتهى لذات الدنيا الرئاسة، وهو يحبها، فكيف يكون زاهدا؟

الطائفة السادسة المتصوفة up

والمغترون فيهم أكثر من أن يحصى: (فمنهم) أرباب البوقات، وهم القلندرية الذين لا يعرفون معنى

ص ٢٠

التصوف ولا شيئا من مراسم الدين، وصرفوا أوقاتهم في التكدي والسؤال من الناس، ويظنون أنهم تاركون للدنيا مقبلون على الآخرة، مع أنهم لو ظفروا بشيء من أمور الدنيا لأخذوه بجميع جوارحهم، فهؤلاء أرذل الناس بوجوه كثيرة لا تخفى. (ومنهم) من أغتر بالزي، والمنطق وليس الصوف، وإطراق الرأس وإدخاله في الجيب. وخفض الصوت، وتنفس الصعداء، وتحريك البدن في الطول والعرض، والسقوط إلى الأرض، (لا) سيما إذا سمعوا كلاما في الوحدة والعشق، مع عدم اطلاعهم على حقيقة شيء منها. وربما تجاوز بعضهم من ذلك إلى الرقص والتصفيق، وإبداء الشهيق والنهيق، واختراع الأذكار، والتغني بالأشعار... وغير ذلك من الحركات القبيحة والهيئات الشنيعة، ويظن أن العبد بهذه الحركات والأفعال يصل إلى الدرجات العالية، ولم يعلم المغرور أنها تقرب العبد إلى سخط الله وعذابه. (ومنهم) من وقع في الإباحة، وطوى بساط الشرع والأحكام، وترك الفصل بين الحلال والحرام، يتكالب على الحرام والشبهات، ولا يحترز عن أموال الظلمة والسلاطين. وربما قال: المال مال الله والخلق عيال الله، فهم فيه سواء. وربما قال: أن الله مستغن عن عملي، فأي حاجة إلى أن أتعب نفسي فيه؟ وربما قال: لا وزن لأعمال الجوارح، وإنما النظر إلى، القلوب، وقلوبنا والهة إلى حب الله واصلة إلى معرفة الله. وربما خاضوا في الشهوات الدنيوية، وقالوا: إنها لا تصدنا عن طريق الله. لقوة نفوسنا وقوة أقدامنا فيها، وإنما يحتاج العوام إلى تهذيب النفس بالأعمال. البدنية، ونحن مستغنون عنه. فهؤلاء يرفعون درجتهم عن درجة الأنبياء عليهم السلام إذ كانوا يصرحون بأن ارتكاب الأمور المباحة فضلا عن الخطايا والمعاصي يصدهم عن طريق الله، حتى يبكون سنين

متوالية على ترك الراجح وفعل المرجوح، فهم أشد الناس غرورا، وأعظم الخلق حماقة وجهلا. (
ومنهم) من يدعي غاية المعرفة واليقين والوصول إلى درجات المقربين، ومشاهدة المعبود، ومجاورة المقام المحمود، والملازمة في عين الشهود، وتلقف من الطامات كلمات يرددها، ويظن أنه يتكلم عن الوحي
ص ٢١
ويخبر عن السماء، وينظر إلى العباد والفقهاء والمحدثين وسائر أصناف العلماء بعين الحقارة والازدراء، يقول في العباد: إنهم أجراء مبعوثون، وفي العلماء: إنهم بالحديث عن الله لمحجوبون، ويدعي لنفسه من الكرامات ما لا يدعيه نبي ولا ولي، ويدعي كونه واصلا إلى الحق فارغا عن أعباء التكليف، لا علما أحكم ولا عملا هذب، لم يعرف من المعارف إلا أسماء يتفوه بها عند الأغنياء للوصول إلى بعض حطامهم الخبيثة، فهو عند الله من الفخار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين مع ظنه أنه من المقربين، فهو أشد الغافلين المغرورين. و(منهم) ملامية يرتكبون قبائح الأعمال وشنائع الأفعال الموجبة للعبد عن طريق المروة، ظنا منهم أن هذا موجب لكسر النفس وإزالة ذمائم الأخلاق، ولم يعلموا أن هذه الأفعال من الذمائم، وقد نهى صاحب الشرع عنه.
ومنهم (من أشتغل بالرياضة والمجاهدة، فقطع بعض المنازل، ووصل إلى بعض المقامات على قدر سعيه ومجاهدته، إلا أنه لم يتم سلوكه وانقطع عن سائر المقامات إما لاعتراض مفسد في أثناء السلوك، أو لوقوعه في الأثناء ظنا منه أنه وصل إلى الله ولم يصل بعد، فإن لله سبعين حجابا من نور، ولا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل، وإليه الإشارة في حكاية الخليل، حيث رأى أولا كوكبا، فقال: (هذا ربي)، ثم انتقل إلى القمر، ثم عنه إلى الشمس، فإنه ليس المراد بالكوكب والقمر والشمس هذه الأجسام المضيئة، فإن شأن مثل الخليل أعظم من أن يظن كونها آلهة، بل هذا ينافي شأنه ورتبته، فالمراد بها الأنوار التي هي من حجب الله، ويراها السالك في الطريق، ولا يتصور الوصول إلى الله إلا بالوصول إلى هذه الحجب، وهي حجب من النور بعضها أعظم من بعض، فاستعير لفظ الكوكب لصغره لأقل مراتبها، والقمر لأوسطها، والشمس لأعظم مراتبها، والخليل (ع) لم يزل عند سيره في الملكوت يصل إلى نور بعد نور، ويتخيل إليه في أول ما يلقاه أنه قد وصل، ثم انكشف له أن وراءه أمر، فيترقى إليه حتى وصل إلى
ص ٢٢
الحجاب الأقرب، فقال: هذا أكبر، فلما ظهر أنه مع عظمته غير خالي عن الهوى في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال، قال: (لا أحب الآفلين. إني وجهت وجهي...) (٢٦). فسالك هذا الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب، وربما يغتر بالحجاب الأول، وأول الحجاب بين الله وبين العبد هو قلبه، فإنه أيضا أمر رباني ونور من أنوار الله، تتجلى فيه حقيقة الحق كله، حتى يتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل، وعند ذلك يشرق نوره إشراقا عظيما، إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه، وهو في أول الأمر كان محجوبا، فإذا تجلى نوره وانكشف فيه جماله بعد إشراق نور الله - تعالى - ربما التفت صاحب القلب إلى القلب، فيرى من جماله الفائق ما يدهشه، فربما يسبق لسانه في الدهشة، فيقول: أنا الحق! فإن لم يتضح له ما وراء ذلك، اغتر به ووقف عليه وهلك، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية، ولم يصل بعد إلى القمر، فضلا عن الشمس، فهو مغرور. وهذا محل الالتباس، إذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه، كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة فيظن أنه لون المرآة، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج فيظن أنه لون الزجاج، كما قيل: رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها وتشاكل الأمر فكأنما خمر ولا قد وكأنما قدح ولا خمر وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح، فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه، فغلطوا فيه، كمن يرى كوكبا في مرآة أو في ماء، فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء، فيمد اليد إليه، فهو مغرور. وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله كثيرة لا تخفى على أرباب البصيرة. ثم أكثر المتلبسين بلباس العارفين - مع كذبهم فيما يدعونه، ونقصانهم في طريق السلوك، وجهلهم بحقيقية الأمر، وعدم قطعهم جل المقامات - يتشبهون بالصادقين من العرفاء في زيهم وهيأتهم وآدابهم ومراسمهم وألفاظهم، ظانين أنهم بهذا التشبه يصلون إلى مراتبهم، فهيهات هيهات! إن الوصول إلى درجة
(هامش)
(
٢٦) الأنعام، الآية: ٧٦ و٧٩ (*)

ص ٢٣
كل أحد إنما تحصل بالاتصاف بأوصافه الباطنة والتخلق بأخلاقه النفسية دون التشبه به في حالاته الظاهرة، وقد شبههم بعض الأكابر بامرأة عجوز سمعت أن الشجعان من المقاتلين تثبت أسمائهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة فتاقت نفسها إلى أن تكون مثلهم، فلبست درعا، ووضعت على رأسها مغفرا، وتعلمت من رجز الأبطال أبياتا وتعلمت كيفية جولانهم في الميدان، وتلقفت جميع شمائلهم في الزي والمنطق والحركات والسكنات، وتوجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان، فلما وصلت إليه، انفذت إلى ديوان العرض، وأمرت بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر إلى حقيقتها وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر شجاعتها فلما جردت فإذا هي عجوز ذات منة ضعيفة لا تقدر على شيء فقيل لها: أجئت للاستهزاء بالملك وأهل حضرته؟ خذوها وألقوها قدام الفيل، فداسها ونحتها فهكذا يكون حال المدعين للتصوف والعرفان في القيامة، إذا كشف عنهم الغطاء وصفاته. وعرضوا إلى القاضي الحق الذي لا ينظر إلى الزي واللباس بل إلى سر القلب

الطائفة السابعة الأغنياء وأرباب الأموال up
والمغترون فيهم أكثر من المغترين من سائر الطوائف: (فمنهم) من يحرص على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وسائر ما يظهر للناس بالأموال المحرمة، وربما غصب أرض المساجد والمدارس وربما صير لها موقوفات أخذها من غير حلها، ولا باعث له على ذلك سوى الرياء والشهوة ولذا يسعى في كتابة اسمه على أحجارها ليتخلد ذكره ويبقى بعد الموت أثره، ويظن المسكين أنه قد استحق المغفرة بذلك، وإنه مخلص فيه، ولم يدر أنه تعرض لسخط الله في كسب هذه الأموال وفي إنفاقها، وكان الواجب عليه الامتناع عن أخذها من أهله، وإذا عصى الله وأخذها، كان الواجب عليه التوبة وردها إلى أهلها، فإن لم يبق من أخذها منهم ولا ورثته، كان الواجب أن يتصدق بها على المساكين مع إنه ربما كان في بلده أو في جواره
ص ٢٤
مسكين يكون في غاية الفقر والمسكنة ولا يعطيه درهما. و(منهم) من ينفق الأموال في الصدقات، إلا أنه يطلب الفقراء الذين عادتهم الشكر والإفشاء للمعروف، ويكره التصدق في السر، بل يطلب المحافل الجامعة ويتصدق فيها، وربما يكره التصدق على فقراء بلده ويرغب أن يعطي أهل البلاد الأخر مع أكثرية استحقاق فقراء بلده، طلبا لاشتهاره بالبذل والعطاء في البلاد الخارجة البعيدة، وربما يصرف كثيرا منه إلى رجل معروف في البلاد وإن لم يكن مستحقا، ليشتهر ذلك في البلاد، ولا يعطي قليلا منه إلى فقير له غاية الاستحقاق إذا كان، خامل الذكر، يفعل هذا ويظن أنه يجلب بذلك الأجر والثواب، ولم يدر المغرور أن هذا القصد أحبط عمله وأضاع ثوابه. ومنهم) من يجمع مالا من غير حله، ولا يبالي بأخذ المال من أي طريق كان، ثم يمسكه غاية الامساك، إلا أنه لا يبالي بصرف بعضه في طريق الحج، إما لنفسه فقط، أو لأولاده وأزواجه أيضا، إما للاشتهار، أو لما وصل إليه: إن تارك الحج يبتلى بالفقر و(منهم) من غلب عليه البخل، فلا تسمح نفسه بإنفاق شيء من ماله، فيشتغل بالعبادة البدنية من الصوم والصلاة، ظنا منه أن ذلك يكفي لنجاته، ولم يدر أن البخل صفة مهلكة لا بد من إزالتها، وعلاجه: بذل المال دون العبادات البدنية. ومثله مثل من دخلت في ثوبه حية، وقد أشرف على الهلاك، وهو مشغول بطبخ السكنجبين لسكن الصفراء، وغافل بأن الحية تقتله الآن ومن قتلته الحية فأي حاجة له إلى السكنجبين؟
وصل ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد up

قد عرفت أن الغرور مركب من الجهل وحب مقتضيات الشهوة والغضب فضده الفطانة والعلم والزهد فمن كان فطنا كيسا عارفا بربه ونفسه وبالآخرة والدنيا وعالما بكيفية سلوك الطريق إلى الله وبما يقربه إليه وبما يبعده عنه، وعالما بآفات الطريق وعقباته وغوائله، لاجتنب عن الغرور ولم يغره الشيطان في شيء من الأمور، إذ من عرف نفسه بالذل والعبودية وبكونه غريبا في هذا العالم أجنبيا من هذه الشهوات البهيمية، عرف كون هذه الشهوات مضرة له
ص ٢٥
وإن الموافق له طبعا هو معرفة الله والنظر إلى وجهه، فلا يسكن نفسه إلى شهوات الدنيا ومن عرف الدنيا والآخرة ولذاتهما وعدم النسبة بينهما ثار في قلبه حب الله والرغبة إلى دار الآخرة والانزجار عن الدنيا ولذاتها، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها، فإن أكل - مثلا أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة، واندفع عنه كل غرور

منشأه تجاذب الأعراض والنزوع إلى الدنيا وإلى الجاه والمال، وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضاء الله، لم يمكنه الخلاص من الغرور. فالأصل في علاج الغرور: أن يفرغ القلب من حب الدنيا، ويغلب عليه حب الله، حتى تتقوى به الإرادة وتصح به النية ويندفع عنه الغرور. قال الصادق (ع): (واعلم أنك لن تخرج من ظلمات الغرور والتمني إلا بصدق الإنابة إلى الله، والإخبات له، ومعرفة عيوب أحوالك من حيث لا يوافق العقل والعلم، ولا يحتمله الدين والشريعة. وسنن القدوة وأئمة الهدى، وإن كنت راضيا بما أنت فيه فما أحد أشقى بعملك منك وأضيع عمرا، فأورثت حسرة يوم القيامة). (٢٧) ومنها:

• طول الأمل up

معنى طول الأمل ومرجعه - علاجه - ضد قصر الأمل - اختلاف الناس في طول الأمل - ذكر الموت مقصر للأمل - التعجب ممن ينسى الموت - الموت أعظم الدواهي - مراتب الناس في ذكر الموت. وهو أن يقدر ويعتقد بقاءه إلى مدة متمادية، مع رغبته في جميع توابع البقاء: من المال والأهل والدار وغير ذلك، وهو من رذائل قوتي العاقلة والشهوة إذ الاعتقاد المذكور راجع إلى الجهل المتعلق بالعاقلة، وحبه لجميع توابع البقاء وميله إليه من شعب حب الدنيا. وجهله راجع إلى تعويله: أما على شبابه، فيستبعد قرب الموت مع الشباب، ولا يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر عشير أهل البلد، وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر، وإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب،

(هامش)

(٢٧) صححناه على مصباح الشريعة - الباب ٣٦. (*)

ص ٢٦

أو على صحته وقوته، ويستبعد مجئ الموت فجأة، ولا يتأمل في أن ذلك غير بعيد ولو سلم بعده فالمرض فجأة غير بعيد، إذ كل مرض إنما يقع فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا. ولو تفكر هذا الغافل، وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص، من شباب وشيب وكهولة، ومن شتاء وخريف وصيف وربيع، وليل ونهار، وحضر وسفر، لكان دائما مستشعرا غير غافل عنه، وعظم اشتغاله بالاستعداد له، لكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا بعثاه على الغفلة وطول الأمل، فهو أبدا يظن أن الموت بين يديه، ولا يقدر نزوله ووقوعه فيه، ويشيع الجنائز ولا يقدر أن تشيع جنازته، لأن هذا قد تكرر عليه، وألفه بتكرر مشاهدة موت غيره. وأما موت نفسه، فلم يألفه ولا يتصور أن يألفه، لأنه لم يقع، وإذا وقع لا يقع دفعة أخرى بعده، فهو الأول وهو الآخر! وأما حبه لتوابع البقاء: من المال والدار والمراكب والضياع والعقار، فراجع إلى الأنس بها والالتذاذ بها في مدة مديدة، فيثقل على قلبه مفارقتها، فيمنع قلبه عن التفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، إذ كل من كره شيئا يدفعه عن نفسه. والانسان لما كان مشغوفا بالأماني الباطلة، وبالدنيا وشهواتها ولذاتها وعلائقها، فتتمنى نفسه أبدا ما يوافق مراده، ومراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقرره في نفسه، ويقدر توابع البقاء من أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه، فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدر قربه، فإن خطر له في بعض الأحيان أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له، سوف ووعد نفسه إلى أن يكبر فيتوب.

وإذا كبر أخر التوبة إلى أن يصير شيخا وإذا صار شيخا يؤخرها إلى أن يفرغ من عمارة هذه الضيعة أو يرجع من سفر كذا أو يفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له، ولا يزال يسوف ويؤخر إلى أن يخطفه الموت في وقت لا يحتسبه، فتعظم عند ذلك بليته وتطول حسرته، وقد ورد أن أكثر أهل النار صياحهم من سوف، يقولون واحزناه من سوف! والمسوف المسكين لا يدري إن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدا، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا، إذ الخائض في الدنيا

ص ٢٧

لا يتصور له الفراغ منها قط، إذ ما قضى من أخذ لبانته، وإنما فرغ منها من أطرحها.

فصل علاج طول الأمل up

لما عرفت أن طول الأمل منشأه الجهل وحب الدنيا، فينبغي أن يدفع الجهل بالفكر الصافي من شوائب العمى، وبسماع الوعظ من النفوس الطاهرة، فإن من تفكر يعلم أن الموت أقرب إليه من كل شيء، وإنه لا بد أن تحمل جنازته ويدفن في قبره، ولعل اللبن الذي يغطي به لحده قد ضرب وفرغ منه، ولعل أكفانه قد خرجت من عند القصار وهو لا يدري به، وأما حب الدنيا فينبغي أن يدفع

من القلب بالتأمل في حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة، وما ورد في الأخبار من الذم والعقاب في حب الدنيا والرغبة إليها، ومن المدح والثواب على تركها والزهد عنها، وقد تقدم ما يكفي لهذا البيان وينبغي - أيضا - أن يتذكر ما ورد في مدح ضد طول الأمل - أعني قصر الأمل كما يأتي - وما ورد في ذنب طول الأمل، كقوله (ص): (إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان: أتباع الهوى، وطول الأمل. فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا - ثم قال -: إن الله يعطي الدنيا من يحب ويبغض وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان، ألا إن للدين أبناء وللدنيا أبناء، فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية، ألا إن الآخرة قد أتت مقبلة، ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب، ألا وإنكم يوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل) (٢٨). وقوله صلى الله عليه وآله: (نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل). وقول أمير المؤمنين عليه السلام: (ما أطال عبد الأمل إلا أساء الأمل).

(هامش)

(٢٨) صححنا الحديث على إحياء العلوم: ٤ / ٣٨٤، وهو يرويه عن على عليه السلام عن النبي (ص) ولكن في كنز العمال: ٢ / ١٦٩، يرويه: إنه من كلام علي (ع) نفسه، مع اختلاف يسير عن عبارة الأحياء وعبارة الكنز أبلغ وأرصن، وفيه كلمة (الآخرة) بدل (الدين)، ونفس الكلام مع اختلاف يسير (أيضا وهو أبلغ وأعلى من العبارتين) مروي في نهج البلاغة: رقم ٤١ من باب الخطب، فراجع (*)

ص ٢٨

وصل قصر الأمل up

ضد طول الأمل قصره، وهو من شعار المؤمنين ودثار الموقنين، ولذ ا ورد في الأمر به والنهي عن ضده ما ورد، قال رسول الله (ص): (إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من دنياك لآخرتك، ومن حياتك لموتك، ومن صحتك لسقمك، فإنك لا تدري ما اسمك غدا). وقال (ص) بعدما ما سمع أن أسامة اشترى وليدة بمائة دينار إلى شهر: (إن أسامة لطويل الأمل، والذي نفسي بيده! ما طرقت عيناي إلا ظننت أن شفري لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي، ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعه حتى أقبض، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أني لا أسيغها حتى أغص بها من الموت)، ثم قال: (يا بني آدم! إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده! أن ما توعدون الآن وما أنتم بمعجزين) وروي: (أنه (ص) قد اطلع ذات عشية إلى الناس، فقال: أيها الناس! أما تستحيون من الله تعالى؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله! قال: تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، وتبنون ما لا تسكنون). (وقال) ص): أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟ قالوا: نعم يا رسول الله! قال: قصروا من الأمل، واجعلوا آجالكم بين أبصاركم، واستحيوا من الله حق الحياة). وكان (ص) يقول في دعائه: (اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل). وكان (ص) يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول لعلي لا أبلغه. وقال عيسى (ع): (لا تهتموا برزق غد، فإن لم يكن غدا من آجالكم فستأتي أرزاقكم مع آجالكم، وإن لم يكن غدا من آجالكم فلا تهتموا لأرزاق غيركم).

فصل اختلاف الناس في طول الأمل up

الناس في طول الأمل وقصره مختلفون: (فمنهم) من يأمل البقاء ويشتهيه أبدا، كما قال الله - سبحانه -:

ص ٢٩

(

يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) (٢٩) وهو الذي انغمر في الدنيا وخاض في لذاتها، وليس له من الآخرة نصيب. (ومنهم) من يأمل البقاء إلى أقصى مدة العمر الذي يتصور لأهل عصره، وهو الذي يحب الدنيا حبا شديدا، ويشتغل بجمع ما يمكنه في هذه المدة، وربما يجتهد بجمع الأزيد منه. (ومنهم) من يأمل أقل من ذلك إلى أن ينتهي إلى من لا يأمل أزيد من سنة، فلا يشتغل بتدبير ما وراءها، ولا يقدر لنفسه وجوده في عام قابل، فإن بلغه حمد الله على ذلك، ومثله يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف، وإذا جمع ما

يكفيه السنة أشتغل بالعبادة. (ومنهم) من يأمل أقل من السنة إلى أن ينتهي إلى من لا يأمل أزيد من يوم وليلة، فلا يستعد إلا لنهاره دون غده. (ومنهم) من يكون الموت نصب عينيه، كأنه واقع به وهو ينتظره، ومثله يصلي دائما صلاة المودعين. وروي: (أن النبي (ص) سئل بعض الصحابة عن حقيقة إيمانه، قال: ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى). وكان بعضهم إذا يصلي يلتفت يمينا وشمالا، ولما قيل له: ما هذا الالتفات؟ قال: (انتظر ملك الموت من أي جهة يأتيني). ثم أكثر الخلق - (لا) سيما في أمثال زماننا - قد غلبهم طول الأمل، بحيث يأمل أقل من أقصى مدة السن، وقل فيهم من قصر أمله، والعجب أنه كلما يزداد السن يزداد طول الأمل وفي عصرنا أكثر المشايخ والمعمرين حرصهم وطول أملهم أكثر من الشبان، ومن هنا قال رسول الله (ص): (يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان: الحرص، وطول الأمل). وقال صلى الله عليه وآله: حب الشيخ شاب في طلب الدنيا، وإن التفت ترقوتاه من الكبر، إلا الذين اتقوا، وقليل ما هم). ثم يعرف طول الأمل وقصره بالأعمال: فمن اعتنى بجمع أسبابها لا يحتاج إليها في سنة فهو طويل الأمل، وكذلك من انتشرت أموره، بأن يكون له مع الناس معاملات ومحاسبات إلى مدة معينة، كالسنة وأزيد منها، وكان (هامش)
(٢٩) البقرة، الآية ٩٦ (*)
ص ٣٠
عليه ديون من الناس كذلك، ومع ذلك لم يكن مضطربا ولا خائفا فهو طويل الأمل. فعلامة قصر الأمل: أن يجمع أمره بحيث لا يكون عليه من الناس شيء، ولا يسعى بطلب قوت الزائد على أربعين يوما، ويصرف أوقاته في الطاعة والعبادة، ويرى نفسه كمسافر يجتهد في تحصيل الزاد

فصل ذكر الموت مقصر للأمل up

ذكر الموت يقصر الأمل ويدفع طوله، ويوجب التجافي عن دار الغرور والاستعداد لدار الخلود في فضيلته والترغيب فيه أخبار كثيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله -: (أكثروا ذكر هادم اللذات)، قيل، وما هو يا رسول الله!؟ قال: (الموت، فما ذكره عبد على الحقيقة في منعه إلا ضاقت عليه الدنيا، ولا في شدة إلا اتسعت عليه). وقال رسول (ص) -: (تحفة المؤمن الموت). وقال (ص) الموت كفارة لكل مسلم). وقيل له (ص): هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال: (نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة). وقال (ص): (أكثروا من ذكر الموت، فإنه يمحص الذنوب، ويزهد في الدنيا). وقال (ص): (كفى بالموت واعظا). وقال (ص): (الموت الموت، ألا ولا بد من الموت، جاء الموت بما فيه، جاءا بالروح والراحة والكرة المباركة إلى الجنة عالية لأهل دار الخلود الذين كان لها سعيهم وفيها رغبتهم) وقال (ص) (إذا استحقت ولاية الله والسعادة، جاء الأجل بين العينين وذهب الأمل وراء الظهر، وإذا استحقت ولاية الشيطان والشقاوة، جاء الأمل بين العينين وذهب الأجل وراء الظهر) وذكر عنده (ص) رجل فأحسن الثناء عليه فقال (ص) (كيف ذكر صاحبكم للموت؟) قالوا: ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال: (فإن صاحبكم ليس هنالك). وسئل: أي المؤمنين أكيس وأكرم؟ فقال: (أكثرهم ذكرا للموت، وأشدهم استعدادا له، أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة). وقال الباقر (ع): (أكثروا ذكر الموت فإنه لم يكثر ذكره إنسان إلا زهد في الدنيا). وقال الصادق (ع): (إذا أنت حملت جنازة فكن كأنك أنت المحمول وكأنك سألت ربك الرجوع إلى
ص ٣١
الدنيا ففعل، فانظر ماذا تستأنف) ثم قال (ع) (عجبا لقوم حبس أولهم عن آخرهم، ثم نودي فيهم بالرحيل وهم يلعبون). وقال (ع) لأبي بصير بعد ما شكى إليه الوسواس -: (أذكر يا أبا محمد تقطع أوصالك في قبرك ورجوع أحبائك عنك إذا دفنوك في حفرتك وخروج، بنات الماء من منخريك وأكل الدود لحمك، فإن ذلك يسلي عليك ما أنت فيه)، وقال أبو بصير: فوالله! ما ذكرته إلا سلى عني ما أنا فيه من هم الدنيا وقال (ع): (من كان كفنه معه في بيته لم يكتب من الغافلين، وكان مأجورا كلما نظر إليه) (٣٠). وقال (ع): (ذكر الموت يميت الشهوات في النفس، ويقلع منابت الغفلة، ويقوي القلب بمواعد الله، ويرق الطبع، ويكسر أعلام الهوى، ويطفئ نار الحرص، ويحقر الدنيا، وهو معنى ما قال النبي (ص): (فكر ساعة خير من عبادة سنة)، وذلك عندما يحل أطناب خيام الدنيا ويشهدها في الآخرة، ولا ينكر نزول الرحمة عند ذكر الموت بهذه الصفة، ومن لا يعتبر بالموت، وقلة حيلته، وكثرة عجزه، وطول

مقامه في القبر، وتحيره في القيامة: فلا خير فيه. وقال النبي (ص): (أكثر ذكر هادم الذات..) ثم ذكر تمام الحديث كما مر.. ثم قال (ع): والموت أول منزل من منازل الآخرة وآخر منزل من الدنيا، فطوبى لم أكرم عند النزول بأولها، وطوبى لمن أحسن مشايعته في آخرها، والموت أقرب الأشياء من بني آدم، وهو بعده أبعد، فما أجرأ الإنسان على نفسه، وما أضعفه من خلق، وفي الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين، ولذلك اشتاق من اشتاق إلى الموت وكره من كره، قال النبي (ص) (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) (٣١)

فصل العجب ممن ينسى الموت up

عجبا لقوم نسوا الموت وغفلوا عنه وهو أظهر اليقينيات والقطعيات في العالم وأسرع الأشياء إلى بني آدم، وقال الله - سبحانه تعالى - (هامش)

(

٣٠)* صححنا أكثر الأحاديث على الوسائل - ج ١: الباب ٢٣ من أبواب الاستحضار في كتاب الطهارة -، وعلى إحياء العلوم: ٤ / ٢٨٣. (٣١) صححنا الحديث على مصباح الشريعة: الباب ٨٤ (*)

ص ٣٢

(أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) (٣٢). وقال - (كل نفس ذائقة الموت وأنما يتوفون أجورهم يوم القيامة فيمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (٣٣). وقال الصادق (ع): (ما خلق الله يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت). وقال أمير المؤمنين (ع) (ما أنزل الموت حق منزلته من عد غدا من أجله) وقال (ع): (لو رأى العبد أجله وسرعته إليه، لأبغض العمل من الدنيا). وقال الصادق (ع) (ما من أهل بيت شعر ولا وبر إلا وملك الموت يتصفحه كل يوم خمسة مرات). وقد تقدمت أخبار أخر في هذا المعنى.

فصل الموت أعظم الدواهي up

إعلم أن الموت داهية من الدواهي العظمى، ومن كل داهية أشد وأدهى وهو من الأخطار العظيمة والأهوال الجسيمة، فمن علم أن الموت مصرعه والتراب مضجعه والقبر مقره وبطن الأرض مستقره، والدود أنيسه والعقارب والحيات جليسه، فجدير أن تطول حسرته وتدوم عبرته، وتنحصر فيه فكرته وتعظم بليته، وتشتد لأجله رزيته، ويرى نفسه في أصحاب القبور ويعدها من الأموات، إذ كلما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت وحقيقة ألا يكون ذكره وفكره وغمه وهمه وقوله وفعله وسعيه وجده إلا فيه وله، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله -: (لو أن البهائم يعلمون ما تعلمون ما أكلتم منه سمينا). وقال (ص) لقوم يتحدثون ويضحكون: (أذكروا الموت أما والذي نفسي بيده! لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا). ومر (ص) بمجلس قد استعلاه الضحك، فقال: (شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات). قالوا: وما مكدر اللذات؟ قال: (الموت). ثم غفلة الناس عن الموت لقلة فكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ، بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا وعلائقها، فلا

(هامش)

(٣٢) النساء، الآية: ٧٧. (٣٣) آل عمران، الآية: ١٨٥ (*)

ص ٣٣

ينفع ذكره في قلبه، فالطريق فيه: أن يفرغ القلب عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى بلد بعيد ما بينهما مفازة مخطرة، أو بحر عظيم لا بد أن يركبه، فإنه لا يتفكر إلا فيه، ومن تفكر في الموت بهذا الطريق وتكرر منه، لا ترى ذكره في قلبه، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وتنزجر نفسه عنها، وينكسر قلبه، ويستعد لأجله. وأوقع طريق فيه أن يكثر ذكر أقرانه الذين مضوا قبله، ونقلوا من أنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مصاحبة الهوام والديدان، ويتذكر مصرعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ثم يتفكر كيف محي التراب الآن حسن صورتهم، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم، وكيف أملوا نسائهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساكنهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم وأوحشت ديارهم، فهما تذكر رجلا وفصل في قلبه حاله وكيفية صيانة وتوهم صورته، وتذكر نشاطه، وأمله في العيش والبقاء، ونسيانه للموت، وانخداعه بمؤثثات الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو، وغفلته عما

بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله، وكيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه، وكيف دبر لنفسه الأمور وجمع من حطام الدنيا ما لا ينفق احتياجه إليه على مر الأعوام والشهور وذكر الأزمنة والدهور.

ثم يتأمل أن مثلهم، وغفلته كغفلتهم وسيصير حاله في القبر كحالهم، فملازمة هذه الأفكار وأمثالها، مع دخول المقابر وتشييع الجنائز ومشاهدة المرضى، تجدد ذكر الموت في قلبه، حتى يغلب عليه بحيث يصير الموت نصب عينيه وذلك ربما يستعد له ويتجافى عن دار الغرور، وأما الذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان فقيل الجدوى في النية والايقاظ ومهما طاب قلبه بشيء من أسباب الدنيا، فينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقته كما نقل: أن بعض الأكابر نظر يوما إلى داره فأعجبه حسنها فبكى وقال: والله لولا الموت لكنت مسرورا بها.

ص ٣٤

فصل مراتب الناس في ذكر الموت up

الناس بين منهمك في الدنيا خائض في لذاتها وشهواتها. وبين تائب مبتدئ، وعارف منتهي. (فالأول): لا يذكر الموت، وأن ذكره فيذكر ليذمه لصده عما يحبه في الدنيا، وهو الذي يفر منه، وقال الله - تعالى - فيه (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم)... (٣٤) وهذا يزيده ذكر الموت بعدا من الله، إلا إذا استفاد منه التجافي عن الدنيا، ويتنغص عليه نعيمه، ويتكدر صفو لذته، وحين إذ ينفعه، لأن كل ما يكدر على الإنسان اللذات فهو من أسباب نجاته. (والثاني): يكثر ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف والخشية، ففي بتمام التوبة، وربما يكرهه خيفة من أن يختطفه قبل الاستعداد وتهيئة لزاد وتمام التوبة، وهو معذور في كراهة الموت، ولا يدخل تحت قوله (ص): (من كره لقاء الله كره الله لقاءه)، لأن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره، وهو الذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقاءه على وجه يرضاه، فلا يعد كارها للقاءه. وعلامة هذا: أن يكون دائم الاستعداد للموت لا شغل له سواه، وإن لم يكن مستعدا له عاملا بما ينفعه في الآخرة التحق بالأول. (وأما الثالث): فإنه يذكر الموت دائما، لأنه موعد للقاء حبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وهذا في الغالب الأمر يستبطئ مجئ الموت ويحب مجيئه، ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين كما روي: (أن حذيفة لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من رده، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلي من الغنى، والسقم أحب إلي من الصحة، والموت أحب إلي من الحياة، فسهل علي الموت حتى ألقاك).

وأعلى رتبة منه: من يفوض أمره إلى الله، ولا يختار لنفسه شيئا: من الموت

(هامش)

(٣٤) الجمعة، الآية: ٨ (*)

ص ٣٥

أو الحياة، والفقر والغنى، والمرض والصحة، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، وهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى درجة التسليم والرضا، وهو الغاية والانتهاء.

تتميم المبادرة إلى الحسنات up

من علامات قصر الأمل وذكر الموت: المبادرة إلى الحسنات واشتياق الخيرات، ولذا ورد فيه الترغيب والحذر عن آفة التأخير، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله -: (اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك). وقال (ص): (من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة) (٣٥). وكان (ص) إذا أحس من أصحابه غفلة وغرة، نادى فيهم بصوت عال: (أتتكم المنية، إما بشقاوة أو سعادة). وروي: أنه ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي: أيها الناس! الرحيل الرحيل!. وقال بعض الأكابر: التؤدة في كل شيء خير، إلا في أعمال الآخرة. ومنها:

• العصيان up

ولا ريب في كونه من رذائل قوتي الغضب والشهوة معا، لأن بعض أنواعه من رذائل إحداهما من جانب الإفراط أو التفريط، أو من باب رداءتها وبعض آخر من أنواعه من رذائل الأخرى. وضده (التقوى والورع)، وبالمعنى الأعم: أعني الاجتناب عن مطلب

المعصية خوفا من سخط الله، وقد تقدم ما ورد في فضيلتهما، فتذكر. ومنها:
• الوقاحة up
وهو عدم مبالاة النفس، وعدم انفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية أو العرفية، وكونه من رداءة قوتي الغضب والشهوة ظاهر.
(هامش)
(٣٥) صححنا الحديث على إحياء العلوم: ٤ / ٣٩٠. وفي نسخ الكتاب (أولج ومن أولج). (*)
الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

## ٣٠٤ جامع السعادات (ج3)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب
ص ٣٦
وضدها (الحياء)، وهو انحصار النفس وانفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية والعادية حذرا من الذنب واللوم، وهو أعم من التقوى، إذ التقوى اجتناب المعاصي الشرعية، والحياء يعم ذلك واجتناب ما يقبحه العقل والعرف أيضا، فهو من شرائف الصفات النفسية، ولذا ورد في فضله ما ورد، قال الصادق (ع): (الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة). وقال (ع): (الحياء والعفاف والعي - أعنى عي اللسان لا عي القلب - من الإيمان). وقال (ع): (الحياء والإيمان مقرونان في قرن، فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه). وقال (ع): (لا إيمان لمن لا حياء له). ثم حقيقة الحياء - كما عرفت - هو الانفعال عن ارتكاب ما يذم شرعا أو عقلا أو عرفا، فالانفعال عن غير ذلك حمق، فإن الانفعال عن تحقيق أحكام الدين أو الخمود عما ينبغي شرعا وعقلا لا يعد حياء بل حمقا، ولذا قال رسول الله (ص): (الحياء حياءان: حياء عقل وحياء حمق، فحياء العقل هو العلم وحياء الحمق هو الجهل) (٣٦). ومنها:
• الإصرار على المعصية up
رجوع رذيلة الإصرار إلى أي القوى وذمها - ضد الإصرار التوبة وتعريفها - هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟ - وجوب التوبة - تحقيق في وجوبها - عموم وجوبها - لا بد من العمل بعدها فضيلتها - قبولها - طريقة التوبة من المعاصي - تكفير الصغائر ومعنى الكبائر - الصغائر قد تكون كبائر - شروط كمال التوبة - هل يصح التبعيض فيها؟ - أقسام التأبين - . مراتب التوبة - عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة - علاج الإصرار على الذنوب - الإنابة - المحاسبة والمراقبة - المعنى الظاهر لهما حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا - مقامات مرابطة الفعل للنفس.
(هامش)
(٣٦) صححنا الأحاديث هنا على أصول الكافي (باب الأحياء). (*)
ص ٣٧
وهو إما ناشئ من رداءة إحدى القوتين وخروجها عن إطاعة العاقلة أو عن رداءتها معا، فيكون من رذائل القوتين، وكل ما يدل على ذم مطلق المعصية أو على ذم خصوص أفرادها المعينة يدل على ذم الإصرار على المعصية بطريق أولى وأوكد. والأخبار الواردة في ذم خصوص أفراد المعاصي ربما يظفر بجملة منها في هذا الكتاب عند ذكر كل معصية، وما الأخبار الواردة في ذم مطلق الذنب والمعصية فكثيرة جدا، كقول النبي (ص): (ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يناديان بأربعة أصوات، يقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا، ويقول الآخر: يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فيقول الآخر: فيا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا، فيقول الآخر: ويا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا. واعلموا أن العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام، وإنه لينظر إلى أزواجه في الجنة يتنعمن). وقال أمير المؤمنين (ع): (لا تبدين عن واضحة وقد عمتك الأعمال الفاضحة، ولا تأمن البيات وقد عملت السيئات). وقال الباقر (ع): (إن الله قضى قضاء حتما ألا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنبا يستحق بذلك النقمة) وقال (ع): (ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة، إن القلب ليواقع الخطيئة، فما يزال به حتى يغلب عليه، فيصير أعلاه أسفله). وقال (ع): (إن العبد ليذنب الذنب فيزوى عنه الرزق). وقال الصادق (ع): (يقول الله - تعالى -: إن أدنى ما أصنع

بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي). وقال (ع): (من هم بسيئة فلا يعملها، فإنه ربما عمل العبد السيئة فيراه الرب - تعالى - فيقول: وعزتي وجلالي! لا أغفر لك بعد ذلك أبدا). وقال (ع): (أما إنه ليس من عرق يضرب، ولا نكبة ولا صداع ولا مرض، إلا بذنب، وذلك قول الله - عز وجل - في كتابه: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير) (٣٧). قال (ع): وما يعفوا الله أكثر مما يؤاخذ به).

وقال (ع): (أن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل، وإن العمل السئ أسرع في صاحبه

(هامش)

(٣٧) الشورى، الآية: ٣٠ (*)

ص ٣٨

من السكين في اللحم) وقال الكاظم (ع): (حق على الله ألا يعصى في دار إلا أضحاها للشمس حتى يطهرها) ٣٨. والأخبار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى، ولا يتوهم أحد أنه يمكن ألا يصل إليه أثر الذنب ووباله، فإن هذا محال. فإنه لم يتجاوز عن الأنبياء في تركهم الأولى. يتجاوز عن غيرهم في كبائر المعاصي. نعم، كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثما، ويعذبوا في الآخرة عذابا أكبر وأشد، أما سمعت أن أباك آدم قد أخرج من الجنة بتركه الأولى؟ حتى روي: (أنه لما أكل الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته، وجاء جبرئيل (ع) وأخذ التاج من رأسه وخلا الإكليل عن جنبيه، ونودي من فوق العرش إهبطا من جواري، فإنه لا يجاورني من عصاني فالتفت آدم إلى حواء باكيا، وقال: هذا أول شؤم المعصية، أخرجنا من جوار الحبيب). وروي: (أنه - تعالى - قال: يا آدم! أي جار كنت لك؟ قال: نعم الجار يا رب! قال يا آدم! أخرج من جواري وضع عن رأسك كرامتي، فإنه لا يجاورني من عصاني). وقد روي: (أن آدم بكى على ذنبه مائتي سنة، حتى قبل الله توبته وتجاوز عما ارتكبه من ترك الأولى). فإن كانت مؤاخذته في نهي تنزيهه مع حبيبه وصفيه هكذا، فكيف معاملته مع الغير في ذنوب لا تحصى.

وصل التوبة وتعريفها up

ضد الإصرار (التوبة)، وهي الرجوع من الذنب القولي والفعلي والفكري، وبعبارة أخرى: هي تنزيه القلب عن الذنب والرجوع من البعد إلى القرب، وبعبارة أخرى: ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير. وكما أن الإصرار على العصيان من رذائل قوتي الغضب والشهوة، فالرجوع عنه وتركه من فضائلهما، بمعنى

(هامش)

(٣٨) صححنا الأحاديث هنا على أصول الكافي (باب الذنوب) (*)

ص ٣٩

أن العزم على ترك كل معصية يكون من عمل كليهما أو إحداهما، ومن فعل النفس بإعانتهما وانقيادهما للعاقلة، وأن كان الباعث على الرجوع وتهيج النفس والقوتين على مباشرة الرجوع والترك هو معرفة عظم ضرر الذنوب، وكونها حجابا بين العبد وبين المحبوب، ويمكن أن يقال: إن التوبة هو الرجوع عن الذنب، وهو من ثمرات الخوف والحب، فإن مقتضى الحب أن يمتثل مراد المحبوب ولا يعصى في شيء مما يريده ويطلب من الحب، فتكون من فضائل القوتين أيضا. ويمكن أن يقال: أن التوبة عبارة عن مجموع العلم بضرر الذنوب، وكونها حجابا بينه وبين الله والندم الحاصل منه، والقصد المتعلق بالترك حالا واستقبالا، والتلافي للماضي والندم، والقصد بالترك والتلافي من فعل القوتين أو فعل النفس بواسطة القوتين وانقيادهما للعاقلة، والعلم المذكور من العاقلة، فتكون التوبة من فضائل القوى الثلاث. وتوضيح حقيقة التوبة: أنه إذا علم العبد علما يقينيا أن ما صدر عنه من الذنوب حائلة بينه وبين محابه، ثار من هذا العلم تألم القلب بسبب فوات المحبوب، وصار متأسفا على ما صدر عنه من الذنوب، سواء كانت أفعالا أو تروكا للطاعات، ويسمى تألمه - بسبب فعله أو تركه المفوت لمحبوبه - ندما. وإذا غلب هذا الندم على القلب، انبعثت منه حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال بترك الذنب الذي كان ملابسا له، وبالاستقبال بعزمه على ترك الذنب المفوت لمحبوبه إلى آخر عمره، وبالماضي بتلافيه ما فات بالجبر والقضاء.

فالعلم - أعني اليقين بكون الذنوب سموما مهلكة - هو الأول، وهو مطلع البواقي، إذ مهما أشرق نور هذا اليقين على القلب أثمر نار الندم

على الذنب، فيتألم به القلب، حيث ينظر بإشراق نور الإيمان واليقين أنه صار محجوبا عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب، فيرى محبوبه قد أشرف على الهلاك، فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبعث بتلك النيران إرادته للانتهاض للتدارك. فالعلم، والندم، والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي: ثلاثة معاني مرتبة في
ص ٤٠
الحصول، يطلق أسم (التوبة) على مجموعها. وربما أطلقت التوبة على مجرد الندم، وجعل العلم كالسابق والمقدمة، والترك كالثمرة والتابع للمتأخر، وإلى هذا الاعتبار يشير قوله (ص): (الندم توبة)، إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره، أو عن عزم يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوفا بطرفيه، أعني ثمرته ومثمره ٠ وبهذا الاعتبار قيل في حدها: إنها ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ، أو نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب، وربما أطلقت على مجرد ترك الذنوب حالا والعزم على تركها استقبالا، وبهذا الاعتبار قيل في حدها: إنها خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء، وإنها تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، أو إنها ترك اختيار الذنب حالا وتوطين القلب وتجريد العزم على عدم العود إليه استقبالا. وعلى هذا لا يكون الندم داخلا في حقيقة التوبة وقد صرح بعض الأعاظم بخروجه عنها، محتجا بأن الندم - وهو تألم القلب وحزنه على الذنب - غير مقدور، ولذا ترى تقع الندامة على أمور في قلبه وهو يريد ألا يكون ذلك فلا يكون الندم مقدورا، وأنما المقدور تحصيل أسبابه، أعني الإيمان والعلم بفوات المحبوب وتحقيقها في قلبه. وعلى هذا فلا يكون الندم من التوبة، إذ التوبة مقدورة للعبد ومأمور بها فاللازم فيها التندم دون الندم. وغير خفي بأن الندم كغيره من صفات النفس، فإن أمكن إزالة الصفات النفسية وكسبها فالندم كذلك، وإلا لزم بطلان علم الأخلاق بالكلية وأيضا إذا أمكن تحصيل سبب الندامة - أعني العلم بفوات المحبوب - لزم ترتب المسبب - أعني الندامة عليه - فما معنى عدم كونه مقدورا، فالندامة في الإزالة والتحصيل لا يكون أصعب من كثير من الأخلاق النفسية وبعضهم يعد ما عدا التندم من شرائط التوبة، قال (وأما الندم المحبوب - لزم ترتب المسبب - أعني الندامة عليه - فما معنى عدم كونه التوبة حقيقة، وإنما المقدور تحصيل أسبابه من العلم والإيمان وتحقيقهما في قلبه) إنتهى.

وفيه ما لا يخفى بعلاوة ما سبق، قال الصادق (ع): (التوبة حبل الله ومدد عنايته، ولا بد للعبد من مداومة التوبة على كل حال وكل فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السر وتوبة
ص ٤١
الأولياء من تلوين الخطرات، وتوبة الأصفياء من التنفيس، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله، وتوبة العام من الذنوب، ولكل واحد منهم معرفة وعلم في أصل توبته ومنتهى أمره، وذلك يطول شرحه هنا. وأما توبة العام فإن يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة، والاعتراف بجنايته دائما، واعتقاد الندم على ما مضى، والخوف على ما بقي من عمره ولا يستصغر ذنوبه فيحمله ذلك إلى الكسل، ويديم البكاء والأسف على ما فاته من طاعة الله، ويحبس نفسه عن الشهوات، ويستغيث إلى الله تعالى ليحفظه على وفاء توبته ويعصمه عن العود إلى ما سلف، ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعبادة، ويقضي عن الفوائت من الفرائض، ويرد المظالم، ويعتزل قرناء السوء، ويسهر ليله ويظمأ نهاره، ويتفكر دائما في عاقبته، ويستعين بالله سائلا منه الاستقامة في سرائه وضرائه، ويثبت عند المحن والبلاء كي لا يسقط عن درجة التوابين، فإن في ذلك طهارة من ذنوبه، وزيادة في عمله، ورفعة في درجاته. قال الله - عز وجل -: (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) (٣٩ - ٤٠).

تتمة هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟ up

التوبة إنما تكون عن ذنب سبق مثله، (أما) () ٤١) ترك ذنب لم يسبق مثله حالا والعزم على تركه استقبالا لا يسمى توبة، بل يسمى تقوى، ويسمى صاحبه متقيا لا تائبا، ولذا يصح القول بأن النبي (ص) كان متقيا عن الكفر، ولا يصح القول بأنه كان تائبا عنه. ثم المراد بالمثل السابق أعم من أن يكون مثلا في الصورة أو المنزلة، فالشيخ الهرم الذي سبق منه الزنا وقطع الطريق، ولم يقدر الساعة على فعلهما إذا أراد التوبة عنهما، ينبغي أن يتوب عما يماثلهما منزلة ودرجة، كالقذف والسرقة وأمثالهما، إذ لا معنى للتوبة عما يماثلهما

صورة - أعني نفس الزنا وقطع الطريق
(هامش)
(٣٩) العنكبوت الآية: ٣ (٤٠) صححنا هذه الرواية على (مصباح الشريعة: الباب ٨٠). (٤١) وفي النسخ (أو) بدل (أما)، والصحيح ما ثبتناه. (*)
ص ٤٢
مع عدم قدرته عليهما، ولو لم تكن التوبة عما يماثل الشيء في المنزلة والدرجة توبة عن هذا الشيء، لزم أن يكون باب التوبة مسدودا بالنسبة إلى مثل الشيخ الهرم وكل من صدر منه معصية والآن لا يقدر عليها، وهو باطل، لانفتاح باب التوبة إلى الموت، ولما ذكر، قال بعض المشايخ في حد التوبة: (إنها ترك اختيار ذنب سبق مثله منه منزلة لا صورة تعظيما لله وحذرا من سخطه). فقوله: (سبق مثله) احتراز عن ترك ذنب لم يسبق مثله، فإنه لا يسمى توبة بل تقوى، وقوله: (منزلة لا صورة) لإدخال التوبة عما سبق ولا يقدر الآن على فعله، وعلى هذا فتوبة العنين عن النظر واللمس وأمثال ذلك يكون توبة عن الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة، والظاهر أن بناء ذلك على دلالة توبته عما يقدر عليه الآن، على أنه لو كان قادرا على الزنا لتركه أيضا، لإشعاره بأن توبته صدرت عن معرفة ويقين بضرر الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة، فلو كان قادرا عليه لتركه أيضا.
قال أبو حامد الغزالي: (إن قلت: هل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة؟ قلت: لا: لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله، فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه)، ثم قال: (ولكني أقول: لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه، وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها، فإني أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحيا عنه سيئته، إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين، وإن لم تطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده، فإذن لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه، فإن كل من لا يشتهي شيئا يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف، والله مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه، فعساه يقبله منه، بل الظاهر أنه يقبله والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة
ص ٤٣
المعصية تمحي عن القلب بشيئين: - أحدهما - حرقة الندم، و- الآخر - شدة المجاهدة بالترك بالمستقبل، وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة، ولكن ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة، ولولا هذا لقلنا: أن التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة، وذلك مما يدل ظاهر الشرع على اشتراطه.
فصل وجوب التوبة up
التوبة عن الذنوب بأسرها واجبة: الإجماع، والنقل، والعقل،: أما الإجماع - فلا ريب في انعقاده. وأما النقل - فكقوله تعالى: (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) (٤٢). وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم) (٤٣) ومعنى النصوح: الخالص لله خاليا عن شوائب الأغراض، من مال أو جاه أو خوف من سلطان أو عدم أسباب، والأمر للوجوب، فتكون التوبة واجبة بمقتضى الآيتين. وأما العقل - فهو أن من علم معنى الوجوب ومعنى التوبة فلا يشك في ثبوته لها. (بيان ذلك): أن معنى الواجب وحقيقته هو ما يتوقف عليه الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك السرمد، ولولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن معنى لوجوبه، فالواجب ما هو وسيلة وذريعة إلى سعادة الأبد. ولا ريب في أنه لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله والأنس به، فكل من كان محجوبا عن اللقاء والوصال محروما عن مشاهدة الجلال والجمال، فهو شقي لا محال، محترق بنار الفراق ونار جهنم. ثم لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات النفسية والغضب والأنس بهذا العالم الفاني، والإكباب على حب ما لا بد من مفارقته قطعا، ويعبر عن
(هامش)
(٤٢) التحريم، الآية: ٨. (٤٣) النور، الآية: ٣١ (*)
ص ٤٤

ذلك بالذنوب. ولا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب من زخرف هذا العالم، والاقبال بالكلية على الله، طلبا للأنس به بدوام الذكر، والمحبة له بدوام الفكر في عظمته وجلاله وجماله على قدر طاقته، ولا ريب في أن الانصراف عن طريق البعد الذي هو الشقاوة واجب للوصول إلى القرب الذي هو السعادة، ولا يتم ذلك إلا بالتوبة التي عبارة عن العلم والندم والعزم، ولا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، فالتوبة واجبة قطعا.

تذنيب تحقيق في وجوب التوبة up

كيف لا تكون التوبة عن المعاصي واجبة، مع أن العلم بضرر المعاصي وكونها مهلكة من أجزاء الإيمان ووجوب الإيمان ومما لا ريب فيه، والعالم بهذا العلم إذا لم يعمل به فكما لا يعلمه أو ينكره فلا يكون له هذا الجزء من الإيمان، لأن كل علم يراد ليكون باعثا على العمل، فلا يقع التفصي عن عهدته ما لم يصير باعثا، فالعلم بضرر الذنوب إنما، أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقول النبي (ص): (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)، وما أراد به نفي الإيمان بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله، فإن ذلك لا ينافي الزنا والمعاصي، وإنما أراد به نفي الإيمان بالله لكون الزنا مبعدا عن الله وموجبا لسخطه، وليس الإيمان بابا واحدا، بل هو - كما ورد - نيف وسبعون بابا، أعلاها الشهادتان وأدناها إماطة الأذى عن الطريق،، ومثاله قول القائل: ليس الإنسان موجودا واحدا، بل هو نيف وسبعون موجودا، أعلاها الروح والقلب وأدناها إماطة الأذى عن البشرة، بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظافر نقي البشرة عن الخبث، حتى يتميز عن البهائم المرسلة المتلوثة بأرواثها، المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظافرها، فالإيمان كالانسان، وفقد الشهادتين كفقد الروح الذي يوجب البطلان بالكلية، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة ويترك سائر أجزائه من الأعمال، فهو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوء العينين، فاقد لجميع أعضائه الظاهرة والباطنة،

ص ٤٥

إلا أصل الروح. وكما أن من هذا حاله قريب من الموت ومزايلة الروح الضعيفة المنفردة التي تخلفت عنها الأعضاء التي تمدها وتقويها، فكذلك من ليس له أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال، قريب من أن تنقلع شجرة أيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت وورود، فكل إيمان لم يثبت في النفس أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه، لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة، فالمحجوب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل، كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي فروع لسياق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل، فلا بقاء للأصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد، وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعي وجود الأصل، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع ولكن بقاءه يستدعي وجود الفرع، فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل، كمساواة العاصي والمطيع في اسم المؤمن كمساواة شجرة القرع وشجرة الصنوبر في اسم الشجرة، وإنما يظهر الفرق إذا عصفت الرياح القوية، فعند ذلك تنقطع أصول شجرة القرع وتتناثر أوراقها، وتبقى شجرة الصنوبر ثابته على أصلها وفرعها.

ومثل العاصي الذي لا يخاف الخلود في النار لأجل معصيته اتكالا على إيمانه بالتوحيد والرسالة، كمثل الصحيح الذي يأكل الأغذية المضرة والسمومات ولا يخاف الموت اتكالا على صحته، فكما يؤدي صحة هذا الصحيح بتناوله السمومات والأغذية إلى المرض والمرض إلى الموت، فكذلك تؤدي ذنوب العاصي إلى سوء الخاتمة إلى الخلود في إلى الموت، فكذلك تؤدي ذنوب العاصي إلى سوء الخاتمة إلى الخلود في النار، فالمعاصي للإيمان كالسمومات والمأكولات المضرة للأبدان فكما أن مضرة السمومات لا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة، فكل آثار المعاصي لا تزال تتراكم في النفس حتى يفسد مزاجها فيسلب عنها أصل الإيمان، فالخائف من الموت في هذه النشأة القصيرة إذا وجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب ترك

ص ٤٦

الذنوب، ومن تناول السم وندم إذا وجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإخراجه عن المعدة، فتناول سموم الإيمان وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ما دام مهلة التدارك. فالبدار البدار معاشر أخواني إلى التوبة! قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح إيمانكم عملا لا ينفع بعده الاحتماء، ويخرج الأمر فيه عن أيدي أطباء القلوب، فلا ينفع حين إذ وعظ الواعظين ونصح

الناصحين، وتحق عليكم كلمة العذاب. وتدخلون تحت عموم قوله - تعالى -: (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) (٤٤) وقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) (٤٥)... وغير ذلك من الآيات. ثم مقتضى الأدلة المذكورة: كون التوبة على الفور، فيجب على كل مسلم أن يتوب عن ذنوبه فورا، ولا يجوز له التأخير. قال لقمان لابنه: (يا بني! لا تؤخر التوبة، فإن الموت يأتي بغتة). ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين: - أحدهما - أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير دينا وطبعا فلا يقبل المحو - والثاني - أن يعالجه المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو. ولذلك ورد: أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، فما هلك من هلك إلا بالتسويف.

فصل عموم وجوب التوبة up

وجوب التوبة يعم الأشخاص والأحوال، فلا ينبغي أن ينفك عنه أحد في حالة، قال الله تعالى -: (وتوبوا إلى الله جميعا) (٤٦). وهو يعم الكل في الكل. ومما يدل على وجوبها على الكل: إن كل فرد من أفراد الناس إذا بلغ سن التمييز والتكليف قام القتال والنزاع في مملكة

(هامش)

(٤٤) يس، الآية: ٩ (٤٥) البقرة، الآية: ٧ (٤٦) النور، الآية: ٣١ (*)

ص ٤٧

بدنه، بين الشهوات جنود الشياطين، وبين العقول أحزاب الملائكة: إذ لا تكمن غريزة العقل في أحد إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة، وإذا قام القتال بينهما لا بد بحكم العقل والشرع والشرع أن يغلب جنود الله على جنود الشيطان بقمعها بكسر الشهوات، ورد النفس على سبيل القهر والغلبة على الصفات المحمودة والعبادات، ولا معنى لوجوب التوبة إلا هذا. مما يدل على وجوبها على الدوام وفي كل حال هو أن كل عبد لا يخلو عن معصية بجوارحه، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن رذائل النفس والهم بالذنوب بالقلب فإن خلا عن ذلك أيضا فلا يخلو عن وسوسة الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وآثاره، وكل ذلك نقص يجب الرجوع عنه وهو معنى التوبة. ولعدم خلو أحد من الخلق من نوع هذا النقص وأصله في حالة، وإن تفاوتوا في المقادير، يلزم وجوب التوبة على كل عبد في كل حالة، ولو خلا عن التوبة عن جميع الذنوب في لحظة واختطفه الموت، لزم خروج روحه بلا توبة، ولعدم انفكاكه قبل موته ولو بلحظة عن فرد من المعاصي المذكورة فالتوبة واجبة على كل عبد سالك في كل نفس من أنفاسه، قال بعض العرفاء (٤٧): (لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على فوت ما مضى من عمره في غير طاعة الله، لكان حقيقا أن يخزيه (٤٨) ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله).

ومن عرف قدر العمر وفائدته وما يكتسب به من سعادة الأبد يعلم أن ما يصنع منه في المعصية وغير التوبة أي حسرة وندامة يترتب عليه، فإن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة، فإن ضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محال، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منه أشد، وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها لا يصلها لعبد إلى سعادة الأبد وإنقاذها إياه من شقاوة السرمد، وأي جوهر أنفس من هذا، فمن ضيعها في غفلة خسر خسرانا مبينا، ومن صرفها في

(هامش)

(٤٧) هو أبو سليمان الدرائي فيما نقل عنه في إحياء العلوم: ٤ / ١٠. (٤٨) في نسخ جامع السعادات (يجزيه). (*)

ص ٤٨

معصية فقد هلك هلاكا أبديا. وقد قيل: إن الله - تعالى - عبده سرين؟؟؟ يسرهما إليه على سبيل الإلهام: - أحدهما - إذا خرج من بطن أمه يقول له عبدي! قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا لطيفا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقاني. - والثاني - عند خروج روحه يقول: عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك، هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟. وإليه الإشارة بقوله - تعالى: (أوفوا بعهدي أوف بعهدكم) (٤٩) وبقوله تعالى: (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) (٥٠) وقد روي: أن ملك الموت إذا ظهر للعبد عند موته أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة لا تستأخر

عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الحزن والحسرة والأسف ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لأعطاها بدل أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليتدارك فيها تفريطه، ولا يجد إليها سبيلا. وقد روي - أيضا - أنه إذا كشف الغطاء للعبد قال لملك الموت: أخرني يوما اعتذر فيه إلى ربي وأتوب، وأتزود صالحا لنفسي، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول: أخرني ساعة، فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة، فيغرغر بروحه، وتتردد أنفاسه في شراسيفه، ويجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأهوال، فإذا زهقت نفسه، فإن سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد، وذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقوة - والعياذ بالله - خرجت روحه على الشك والاضطراب، وذلك سوء الخاتمة.

تذنيب

التوبة عن بعض المعاصي المذكورة - أعني المحرمات وترك الواجبات - واجب بفتوى الشرع، بمعنى أن التارك لهذه التوبة والمرتكب لهذه المعاصي يكون معذبا بالنار، وهذا الوجوب يشترك فيه كافة الخلق، وتكليف الجميع

(هامش)

(٤٩) البقرة، الآية: ٤٠ (٥٠) المؤمنون الآية ٨، المعارج الآية: ٣٢ (*)

ص ٤٩

به لا يوجب فسادا في النظام الكلي. أما التوبة عن بعض آخر منها كالخواطر والهمم الطارية على القلب والقصور عن معرفة كنه جلال الله وعظمته وأمثال ذلك، فليس واجبا بهذا المعنى، لمنافاته انتظام العالم. إذ لو كلف الخلق كلهم أن يتقوا الله حق تقاوته، لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية، وذلك يؤدي إلى بطلان التقوى رأسا، لأنه إن فسدت المعايش لم يتفرغ أحد للتقوى. فالتوبة عن كل ما هو المرجوح ليست واجبة بهذا الاعتبار، بل هي واجبة بمعنى آخر، وهو ما لا بد منه للوصول به إلى غاية القرب إلى الله، وإلى المقام المحمود والدرجات العالية، فمن رضى بأصل النجاة وقنع به لم تكن هذه التوبة واجبة عليه، ومن طلب الوصول إلى ما ذكر وجبت عليه هذه التوبة وجوبا شرطيا، بمعنى توقف مطلوبه عليه، كما جرت عليه طوائف الأنبياء والأولياء وأكابر العرفاء والعلماء، ولأجله رفضوا لذات الدنيا بالكلية. وعلى هذا فما ورد من استغفار الأنبياء والأوصياء وتوبتهم إنما هو من ترك دوام الذكر وغفلتهم عن مقام الشهود والاستغراق لأجل اشتغالهم بالمباحات لا عن ذنوب كذنوبنا، لتعاليهم وتقديسهم عن ذلك. قال الصادق (ع): (إن رسول الله كان يتوب إلى الله ويستغفره في كل يوم وليلة مئة مرة من غير ذنب. إن الله تعالى يخص أولياءه بالمصائب، وليأجرهم عليها من غير ذنب كذنوبنا، فإن ذنب كل أحد إنما هو بحسب قدره ومنزلته عند الله). وبمضمونه أخبار أخر.

فصل لا بد من العمل بعد التوبة up

لا يكفي في تدارك الشهوات والتوبة عن الذنوب مجرد تركها في المستقبل بل لا بد من محو آثارها التي انطبعت في جوهر النفس بنور الطاعات، إذ كل شهوة ومعصية صدرت من الإنسان ارتفعت منها ظلمة إلى قلبه، كما ترتفع من نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات والمعاصي صارت رينا، كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثا، كما قال - تعالى -: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) (١)

(هامش)

(١) المطففين، الآية: ١٤ (*)

ص ٥٠

فإذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه، كما إن الخبث في وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده، وصار بحيث لا يقبل التصقيل بعده فالتائب من الذنوب لا بد له من محو تلك الآثار التي انطبعت منها في نفسه، ولا يكفي مجرد تركها في المستقبل، كما لا يكفي في تصقيل المرآة وظهور الصور فيها قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل، ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الآثار، وكما ترتفع إلى النفس ظلمة من المعاصي والشهوات فتظلمها، فكذلك يرتفع نور من الطاعات وترك الشهوات فينورها، ولهذا النور تمحي ظلمة المعاصي والشهوات، وإليه الإشارة بقوله (ص) (اتبعوا السيئة الحسنة تمحها). فأذن لا يستغني العبد في حال من أحواله من محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات، في معنى أن تكون الحسنة التي ترتكب لمحو السيئة مناسبة لتلك السيئة، لقوله (ص) (اتق الله حيث كنت) ولأن المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب،

فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليه من حسنة تضادها، إذ الضد إنما يرتفع بالضد، فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبحضور مجالس الذكر، ويكفر القعود في المسجد جنبا بالعبادة فيه، ويكفر مس المصحف محدثا بإكرامه وتقبله وكثرة قراءته، ويكفر شرب الخمر بالتصدق لكل شراب حلال هو أحب إليه.. إلى غير ذلك وليس ذلك - أي إيقاع المناسبة - شرطا في المحو، فقد روي: (أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس، فاقض عليه بحكم الله فقال: أما صليت معنا؟ قال: بلا! فقال: إن الحسنات يذهبن السيئات). وينبغي أن تكون التوبة عن قرب عهد بالخطيئة، بأن يتندم عليها ويمحو آثارها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو، قال الله تعالى -: (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) (٢) أي عن قرب عهد بعمل السوء.

وقال: (وليس التوبة للذين يعملون السيئات

(هامش)

(٢) النساء، الآية: ١٦ (*)



حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن) (٣) قال الصادق (ع): (ذلك إذا عاين أمر الآخرة) وقد ورد مثله عن رسول الله (ص) أيضا.

فصل فضيلة التوبة up

إعلم أن التوبة أول مقامات الدين، ورأس مال السالكين، ومفتاح استقامة السائلين، ومطلع التقرب إلى رب العالمين، ومدحها عظيم، وفضلها جسيم، قال الله - تعالى -: (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) (٤). وقال رسول الله (ص): (التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له). وقال الباقر (ع): (إن الله تعالى أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشد فرحا بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها). وقال (ع): (التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزئ). وقال الصادق (ع): (إن الله يحب من عباده المفتن التواب): يعني كثير الذنب كثير التوبة. وقال (ع): (إذا تاب العبد توبة نصوحا، أحبه الله فستر عليه)، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: (ينسي ملكيه ما كأنه يكتبان عليه، ويوحي إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه، فيلقى الله - عز وجل - حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب). وقال الصادق (ع): (إن الله - عز وجل - أعطى التائبين ثلاث خصال لو أعطى خصلة منها جميع أهل السماوات والأرض لنجوا بها: قوله - عز وجل -: (إن الله يحب التوابين...) إلى آخره (٥) وقوله: (الذين يحملون

(هامش)

(٣) النساء، الآية: ١٧ (٤) البقرة، الآية: ٢٢٢ (٥) البقرة، الآية: ٢٢٢ (*)



العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا - إلى قوله - وذلك هو الفوز العظيم) (٦) وقوله: (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما، يضاعف، له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا، لا من تاب وآمن - إلى قوله - وكان الله غفورا رحيما) (٧). وقال أبو الحسن - عليهما السلام -: (أحب العباد إلى الله المنيبون التوابون).

فصل قبول التوبة up

التوبة المستجمعة لشرائطها مقبولة الإجماع، ويدل عليه قوله تعالى: (هو الذي يقبل التوبة عن عباده) (٨) وقوله - تعالى -: (غافر الذنب وقابل التوب) (٩). وقوله - تعالى -: (ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) (١٠). وقول النبي (ص): (إن الله تعالى يبسط يده بالتوبة لمسئ الليل إلى النهار ولمسئ النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)، وبسط اليد كناية عن طلب التوبة، وطالب التوبة يقبله ألبتة. وقوله (ص): (إن الحسنات يذهبن السيئات، كما يذهب الماء الوسخ). وقوله (ص): ( (لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم، لتاب الله عليكم). وقوله (ص): (إن العبد ليذنب الذنب فيدخل في الجنة)، قيل: كيف ذلك يا رسول الله!؟ قال (يكون نصب عينيه تائبا منه فارا حتى يدخل الجنة). وقوله (ص): (كفارة الذنب الندامة). وقوله

صلى الله عليه وآله: (من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته. ثم قال:
(هامش)
(٦) المؤمن، الآية: ٧ - ٩. (٧) الفرقان، الآية: ٦٨ - ٧٠ (٨) الشورى، الآية: ٢٥ (٩) المؤمن الآية: ٣ (١٠) النساء، الآية: ١٠٩. (*)
ص ٥٣
إن السنة لكثير، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته،. ثم قال: إن الشهر لكثير، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته. ثم قال: إن الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته. ثم قال: إن يوما لكثير، من تاب قبل أن يعاين ملك الموت قبل الله توبته).
وقال الباقر (ع) لمحمد بن مسلم: (ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله إنها ليست إلا لأهل الإيمان)، فقال له: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب، وعاد في التوبة؟ قال: (يا محمد بن مسلم! أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته؟)، قال: فإنه فعل ذلك مرارا، يذنب ثم يتوب ويستغفر، فقال: (كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فإياك أن تقنط المؤمن من رحمة الله). وقوله (ع): (إذا بلغت النفس هذه - وأهوى بيده إلى حلقه - لم تكن للعالم توبة، وكانت للجاهل توبة). وقوله (ع): (إن آدم (ص) قال: (يا رب! سلطت علي الشيطان وأجريته مني مجرى الدم، فاجعل لي شيئا، فقال: يا آدم! جعلت لك: إن من هم من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه، فإذا عملها كتبت عليه سيئة، ومن هم منهم بحسنة، فإذا لم يعملها كتبت له حسنة، فإن هو عملها كتبت له عشرا، قال: يا رب! زدني، قال: جعلت لك: إن من عمل منهم سيئة ثم استغفر غفرت له، قال: يا رب! زدني، قال: جعلت التوبة، وبسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه، قال يا رب حسبي). وقول الصادق (ع): (إن الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة)، قيل: يدخله الله بالذنب الجنة؟ قال: (نعم! إنه ليذنب فلا يزال منه خائفا ماقتا لنفسه، فيرحمه الله فيدخله الجنة).
وقوله عليه السلام: (العبد المؤمن إذا ذنب ذنبا أجله الله سبع ساعات، فإن إستغفر الله لم يكتب عليه شيء، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت، عليه سيئة وإن المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له، وإن الكافر لينسى من ساعته)). وقوله (ع): (ما من مؤمن يقارف
ص ٥٤
في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم: استغر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم بديع السماوات والأرض ذا الجلال والاكرام وأسأله أن يصلي على محمد وآل محمد وأن يتوب علي إلا غفرها الله له، ولا خير فيمن يقارف في يومه أكثر من أربعين كبيرة) (١١).
وروي: (أن الله تعالى لما لعن إبليس سأله النظرة، فأنظره إلى يوم القيامة، فقال: وعزتك لأخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى: بعزتي لأحجبت عنه التوبة ما دام فيه الروح). وورد في الاسرائيليات: (أن شابا عبد الله عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة، فرأى الشيب في لحيته، فساءه ذلك، فقال: إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلا يقول: أجبتنا فأجبناك، فتركتنا فتركناك وعصيتنا فأمهلناك فإن رجعت إلينا قبلناك) والأخبار والآثار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى، وفي بعض الأخبار المتقدمة دلالة عليه أيضا ثم الناظر بنور البصيرة لا يحتاج في هذا المعنى إلى بيان، إذ يعلم أن التوبة توجب سلامة القلب، وكل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله، ويعلم أن القلب خلق في الأصل سليما صافيا، إذ كل مولود يولد على الفطرة، وإنما مرض واسود بأمراض الذنوب وظلماتها ودواء التوبة يزيل هذه الأمراض، ونور الحسنات يمحو هذه الظلمات، ولا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار، ولكدورة الوسخ مع بيان الصابون والماء الحار.
نعم إذا تراكمت الذنوب بحيث صارت رينا وطبعا، وأفسدت القلب بحيث لا يقبل الصفاء والنورانية بعد ذلك، فمثل هذا القلب لا تفيده التوبة، بمعنى أنه لا يرجع ولا يتوب، وإن قال باللسان تبت، إذ أوساخ الذنوب غاصت في تجاويفه وتراكمت فيه بحيث لا يقبل التطهير، ولو بولغ فيه أدى إلى انخراق القلب
(هامش)

(١١) صححنا الأحاديث الواردة في هذا الباب على أصول الكافي: باب الاعتراف بالذنوب، وباب من يهم بالحسنة أو السيئة، وباب التوبة، وباب الاستغفار من الذنوب، وباب فيما أعطى الله - عز وجل - آدم وقت التوبة. صفحة
ص ٥٥
وهلاكه، لصيرورة الأوساخ جزءا من جوهره، كما أن الثواب الذي غاص الوسخ في تجاويفه وخلله وتراكم فيه، لو بولغ في تطهيره بالماء والصابون أدى ذلك إلى انخراقه. وهذا حال أكثر الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله، فإنهم لا يرجعون ولا يتوبون، لصيرورة ذمائم الأخلاق ورذائلها ملكات راسخة في نفوسهم وغاصت أوساخها في تجاويف قلوبهم، بحيث لا يتنبهون ولا يتيقظون حتى يقصدوا التوبة، ولو قصدوها فإنما هو بمجرد اللسان، والقلب غافل خال عن الإيمان، بل تتعذر عليه التوبة لبطلان حقيقتها.
فصل طرق التوبة عن المعاصي up
إعلم أن ما عنه التوبة هي الذنوب التي علمت تفاصيلها في هذا الكتاب، وهي - كما ذكرناها - لا تخلو عن الصفات والأفعال الشيطانية المتعلقة بالوهم، والصفات والأفعال السبعية المتعلقة بالقوة السبعية، والصفات والأفعال البهيمية المتعلقة بالقوة البهيمية. ومن حيث تعلق التوبة بها وكيفية الخروج عنها ينقسم إلى أقسام ثلاثة: أحدها - ترك الطاعات الواجبة: من الصلاة، والصوم، والزكاة، والخمس، والكفارة وغيرها. وطريق التوبة عنها: أن يجتهد في قضائها بقدر الإمكان. وثانيها - المحرمات التي بين العبد وبين الله، أعني المنهيات التي هي حقوق الله: كشرب الخمر، وضرب المزامير، والكذب، والزنا بغير ذات بعل. وطريق التوبة عنها: أن يندم عليها، ويوطن قلبه على ترك العود إلى مثلها أبدا. وثالثها - الذنوب التي بينه وبين العباد، وهي المعبر عنها بحقوق الناس، والأمر فيها أصعب وأشكل، وهي إما في المال، أو في النفس، أو في العرض أو في الحرمة، أو في الدين: فما كان في (المال): يجب عليه أن يرده إلى صاحبه إن أمكنه، فإن عجز عن ذلك لعدم أو فقر، وجب أن يستحل منه، وإن لم يحل أو
ص ٥٦
عجز عن الايصال لغيبة الرجل غيبة منقطعة أو موته وعدم بقاء وارث له، فليتصدق عنه إن أمكنه، وإلا فعليه بالتضرع والابتهال إلى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة، وعليه بتكثير حسناته وتكثير الاستغفار له، ليكون يوم القيامة عوضا عن حقه، إذ كل من له حق على غيره لا بد أن يأخذ يوم القيامة عوضا عن حقه، إما بعض طاعاته أو بتحمل هذا الغير بعض سيئاته. وما كان في (النفس): فإن كانت جناية جرت عليه خطأ وجب أن يعطي الدية، وإن كان عمدا وجب عليه أن يمكن المجني عليه أو أولياءه مع هلاكه من القصاص حتى يقتص منه، أو يجعل في حل، وإن عجز عن ذلك فعليه بكثرة إعتاق الرقاب، لأن ذلك نوع إحياء وإيجاد لا يقدر لانسان على أكثر منه، فيقابل به الإعدام والإماتة، وعليه الرجوع أيضا إلى الله بالتضرع والابتهال أن يرضيه عنه يوم القيامة. وما كان في (العرض): بأن شتمه، أو قذفه، أو بهته، أو اغتابه، فحقه أن يكذب نفسه عند من قال ذلك لديه، ويستحل من صاحبه مع الإمكان، أن لم يخف تهديده وزيادة غيضه وهيجان فتنته من إظهاره، فإن خاف ذلك، فليكثر الاستغفار له، ويبتهل إلى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة.
وما كان في (الحرمة): بأن خان مسلما في أهله وولده أو نحوهما، فلا وجه للاستحلال إذ إظهار ذلك يورث الغيض والفتنة لأن من له شوب الرجولية لا يمكن أن يحل من خان في حرمته ووطئ زوجته، كيف ولو أحله ورضي بذلك كان فيه عرق من الدياثة، فاللازم لمثله أن يكثر التضرع والابتهال إلى الله المتعال، ويواضب على الطاعات والخيرات الكثيرة لمن خانه في مقابلة خيانته، وإن كان حيا فليفرحه بالاحسان والإنعام وبذل الأموال، ويكرمه بالخدمة وقضاء الحوائج ويسعى في مهماته وأغراضه، ويتلطف به، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه، فربما سمحت نفسه في القيامة بالحلال، فإن أبى أن يكون إنعامه وتلطفه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة خيانته، فإن كل ظلم وإيذاء وحق من حقوق العباد إذا لم يحصل صاحبه يوم القيامة
ص ٥٧
يقتص من الظالم في يوم القيامة بالحكم العدل القهري بأخذ العوض، سواء رضا الظالم أم لا، وسواء امتنع صاحب الحق عن القبول والابراء أم لا، كما أنه يحكم في الدنيا على من أتلف مال غيره بإعطاء المثل، ويقهر على ذلك، ويحكم على هذا الغير بقبوله، ويجبر عليه إن امتنع عن الابراء، وعن القبول، فكذلك يحكم أحكم الحاكمين وأعدل العادلين في محكمة القيامة، فيقتص من كل ظالم مؤذي بأخذ

حسناتهم ووضعها في موازين أرباب المظالم، فإن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم، فيهلك المسكين بسيئات غيره. وبذلك يعلم: أنه لا خلاص لأحد في القيامة إلا برجحان ميزان الحسنات على ميزان السيئات: ومع الرجحان - ولو بقدر مثقال - تحصل النجاة، فيجب على كل معتقد في يوم الحساب أن يسعى في تكثير الحسنات وتقليل السيئات، حتى لا ترجح سيئاته يوم القيامة على حسناته ولو بمثقال فيكون من الهالكين وعلى كل حال لا يغفل عن التضرع والابتهال في الليل والنهار إلى الله سبحانه، لعله بعميم لطفه لا يفضحه يوم تبلى السرائر، ويرضي خصمه بخفي ألطافه. وما كان في (الدين): بأن نسب مسلما إلى الكفر أو الضلالة أو البدعة ، فليكذب نفسه بين يديه من قال ذلك عنده، ويستحل من صاحبه مع الإمكان، وبدونه فليستغفر له ويكثر الابتهال إلى الله ليرضيه عنه يوم القيامة. ومجمل ما يلزم في التوبة عن حقوق الناس: إرضاء الخصوم مع الإمكان، وبدونه التصدق وتكثير الحسنات والاستغفار، والرجوع إلى الله بالتضرع والابتهال، وليرضيهم عنه يوم القيامة، ويكون ذلك بمشية الله، فلعله إذا علم الصدق من قلب عبده. ووجد ذله وانكساره، ترحم عليه وأرضى خصماءه من خزانة فضله، فلا ينبغي لأحد أن ييأس من روح الله.

فصل تكفير الصغائر ومعنى الكبائر up

إعلم أن صاحب الشرع قسم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة، وحكم بأن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر، وأن الصلوات الخمس لا تكفر الكبائر وتكفر ج: ٣

ص ٥٨

الصغائر، قال الله - تعالى -: (أن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) (١٢). وقال: (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) (١٣). وقال رسول الله (ص): (الصلوات الخمس والجمعة تكفر ما بينهن إن اجتنبت الكبائر) واجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها، فيكف نفسه عن الوقاع ويقتصر على نظر ولمس، فإن مجاهدته نفسه في الكف عن الوقاع أشد تأثيرا في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه، فهذا معنى تكفيره فإن كان امتناعه لعجز أو خوف أو نحو ذلك، فلا يصلح للتكفير، فكذلك من يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه، فاجتنابه لا يكفر عن الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي والأوتار ومثله. ثم الكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوعا خاص في اللغة ولا في الشرع والعرف، لأن الكبير والصغير من المصافات، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه. وقد اختلف العلماء في تعيين الكبائر اختلافا لا يكاد يرجى زواله واختلفت الروايات فيها أيضا. والأظهر بالنظر إلى الروايات وإلى الجمع بينها كون الكبيرة عبارة عما توعد بالنار على فعله أو ما ورد في نص الكتاب النهي عنه، ويعني بوصفه بالكبيرة: إن العقوبة بالنار عظيمة، أو إن تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه. ويمكن أن يقال: إن الشرع لم يعينها، وأبهمها ليكون العباد على وجل منها، فيجتنبون جميع الذنوب، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها، ويواظبوا في ليال على العبادات،، وكما أبهم الاسم الأعظم ليواظبوا على جميع أسماء الله. والحاصل: أن كل ما يتعلق به حكم في الدنيا أجاز أن يتطرق إليه الإبهام، والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث أنها كبيرة، فإن موجبات الحدود معلومة بأساميها،

(هامش)

النساء، الآية: ٣٠ (١٣) النجم، الآية: ٣٢ (*)

ص ٥٩

وإنما حكم الكبيرة أن اجتنابها يكفر الصغائر وأن الصلوات الخمس لا تكفرها، وهذا أمر يتعلق بالآخرة، والابهام أليق به، حتى يكون الناس على وجل وحذر، فلا يتجرؤن على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس واجتناب الكبائر.

فصل الصغائر قد تكون كبائر up

إعلم أن الصغيرة قد تكبر بأسباب: أحدها - الإصرار والمواظبة، ولذلك قال الصادق (ع): (لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار). والسر فيه: أن الصغيرة لقلة تأثيرها لا تؤثر في القلب بإظلامه مرة أو مرتين، ولكن إذا تكررت وتراكمت آثارها الضعيفة صارت قوية وأثرت على التدريج في القلب، وذلك كما أن قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة لم يؤثر، ولذلك قال رسول الله (ص): (خير الأعمال أدومها، وأن قل). وإذا كان النافع هو الطاعة الدائمة وأن

قلت، فكذلك الضار هو السيئة الدائمة وأن قلت. ثم معرفة الإصرار موكول إلى العرف، قال الباقر (ع) في قوله تعالى: (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) (١٤): (الإصرار: أن يذنب الذنب، فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة، فذلك الإصرار). وثانيها - استصغار الذنب، فإن العبد كلما استعظمه من نفسه صغر عند الله، وكلما استصغره كبر عند الله، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به، واستصغاره يصدر عن الألف به، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنوره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات، ولذلك لا يؤخذ بما يجري عليه في الغفلة، لعدم تأثره به، ولذلك ورد في الخبر: (إن المؤمن

(هامش)

(١٤) آل عمران، الآية: ١٣٥. (*)

ص ٦٠

يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره). وقال رسول الله (ص) (إتقوا المحقرات من الذنوب، فإنها لا تغفر)، قيل: وما المحقرات؟ قال: (الرجل يذنب الذنب، فيقول طوبى لي لو لم يكن غير ذلك). وروي: (أنه (ص) نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه: أئتونا بالحطب، فقالوا: يا رسول الله! نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب، قال: فليأت كل إنسان بما قدر عليه فجاؤا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض، فقال (ص): هكذا تجمع الذنوب إياكم والمحقرات من الذنوب فإن لكل شيء طالبا، ألا وإن طالبها يكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين). وقال أمير المؤمنين عليه السلام (لا تصغر ما ينفع يوم القيامة ولا تصغر ما يضر يوم القيامة، فكونوا فيما أخبركم الله كمن عاين) وقال الباقر (ع): (إتقوا المحقرات من الذنوب فإن لها طالبا، يقول أحدكم: أذنب واستغفر الله. إن الله - تعالى - يقول: (ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) (١٥). وقال عز وجل -: (إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) (١٦). وقال الصادق (ع): إن الله يحب العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم، ويبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير). وقال الكاظم (ع): (لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب، فإن قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيرا، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من أنفسكم النصف) (١٧). والسر في عظم الذنب في قلب المؤمن: كونه عالما بجلال الله وكبريائه، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغير كبيرا، وقد أوحى الله إلى بعض أنبيائه: (لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها،

(هامش)

(١٥) يس، الآية: ١٢ (١٦) لقمان، الآية: ١٦ (١٧) صححنا الأحاديث كلها على أصول الكافي (باب التوبة وباب تفسير الذنوب). (*)

ص ٦١

ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها) ولذلك قال بعض الصحابة للتابعين:، (إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، وكنا نعدها على رسول الله من الموبقات) إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله كبائر. وثالثها - أن يأتي بالصغائر ولا يبالي بفعلها، اغترارا بستر الله عليه، وحلمه عنه، وإمهاله إياه، ولا يعلم أنه إنما يمهل مقتا ليزداد بالإمهال إثما، فتزهق أنفسهم وهم كافرون، فمن ظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله به، فهو جاهل بمكامن الغرور، وآمن من مكر الله الذي لا يأمن منه إلا الكافرون. ورابعها - السرور بالصغيرة واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونها نقمة وسبب الشقاوة فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت وعظم قلبه في تسويد قلبه، فمن مزق عرض مسلم وفضحه ونجله، أو غبنه في ماله في المعاملة، ثم فرح به، ويقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه؟ وكيف فضحته؟ وكيف روجت عليه الزيف؟ كانت معصيته أشد مما إذا لم يفرح بذلك وتأسف عليه، إذ الذنوب مهلكات، وإذا ابتلى بها العبد فينبغي أن يتأسف من حيث أن العدو - أعني الشيطان - ظفر به وغلب عليه، لا أن يفرح بغلبة العدو عليه، فالمرض الذي يفرح بانكسار إنائه الذي فيه دواؤه لتخلصه من ألم شربه، لا يرجى شفاءه. وخامسها - أن يذنب ويظهر ذنبه بأن يذكره بعد إتيانه، أو يأتي به في مشهد غيره، فإن ذلك خيانة منه على الله الذي أسدله عليه، وتحريك الرغبة والشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما خيانتان انضمتا إلى خيانته فتغلظت به، فإن انضاف

إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت خيانته رابعة، وتفاحش الأمر.
وهذا لأن من صفات الله أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر، فالإظهار كفران لهذه النعمة، قال رسول الله (ص): (المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة، والمذيع بالسيئة مخذول، والمستتر بها مغفور له). وقال الصادق (ع): (من جاءنا يلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه ومن جاءنا يبدي عورة قد سترها الله فنحوه) وسادسها - أن يكون الآتي بالصغيرة عالما يقتدي به الناس، فإذا فعله
ص ٦٢
بحضرة الناس أو بحيث اطلعوا عليه، كبر ذنبه، وذلك كلبسه الذهب والإبريسم وأخذه مال الشبهة، وإطلاقه اللسان في أعراض الناس، ونحو ذلك. فهذه ذنوب يقتدي العالم فيها ويتبع عليها، فيموت ويبقى شره مستطيرا في العالم، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، وفي الخبر: (من سن سنة سيئة فعليه وزرها من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء) قال الله تعالى (ونكتب ما قدموا وآثارهم) (١٨). والآثار: ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل. فعلى العالم وظيفتان: إحداهما ترك الذنب، والأخرى - إخفاءه، وكما تتضاعف أوزار العالم على السيئات إذا اتبع فيها، فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات إذا اتبع.
فصل شروط كمال التوبة up
يشترط في تمام التوبة وكمالها بعد تدارك كل معصية بما مر: من طول الندم، وقضاء العبادات، والخروج عن مظالم العباد، وطول البكاء والحزن والحسرة، وإسكاب الدموع، وتقليل الأكل، وارتياض النفس، ليذوب عن بدنه كل لحم نبت من الأغذية المحرمة والمشتبهة، قال أمير المؤمنين (ع) لمن قال بحضرته: أستغفر الله: (ثكلتك أمك! أتدري ما الاستغفار؟ إن الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معاني: أولها: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك العود عليه أبدا، والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة، والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها تؤدي حقها، والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ منها لحم جديد، والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك نقول: استغفر الله)،
فصل هل يصح التبعيض في التوبةup
إعلم أن التوبة عن بعض الذنوب دون بعض ممكن ويصح، بشرط لا
(هامش)
(٢٨) يس، الآية: ١٢. (*)
ص ٦٣
تكون الذنوب التي يتوب عنها مخالفة بالنوع للذنوب التي لا يتوب عنها، كأن يتوب عن الكبائر دون الصغائر، أو عن القتل والظلم ومظالم العباد دون بعض حقوق الله، أو عن شرب الخمر دون الزنا أو بالعكس، أو عن شرب الخمر دون أكل أموال الناس بالباطل خيانة وتلبيسا أو غصبا أو قهرا أو عن بعض الصغائر دون بعض الكبائر، كالذي يتوب عن الغيبة مع إصراره على شرب الخمر. والدليل على إمكان ذلك وصحته: أن العبد إذا علم أن الكبائر أعظم إثما عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها، فلا يبعد أن يتوب عن الأعظم دون الأصغر، وكذا إذا تصور أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله من بعض، فلا يبعد أن يتوب عن الأغلظ دون الأخف، وقد تكون ضراوة أحد بنوع معصية شديدة، فلا يقدر على الصبر عنها، وتكون ضراوته بنوع آخر منها أقل، فيمكنه الترك بسهولة، فيتوبوا عنه دون الأول، وأن كان الأول أغلظ وأشد إثما، كالذي شهوته بالخمر أشد من شهوته بالغيبة، فيترك الغيبة ويتوب عنها دون الخمر، فالتوبة عن بعض المعاصي دون بعض مع اختلافها نوعا بأي نحو كان ممكن وصحيح، ومعها يندفع عنه إثم ما تاب عنه، ويكتب عليه إثم ما لم يتب عنه، بل ربما كان أكثر ما وقع من التوبة من هذا القبيل إذ كثر التائبون في الأعصار الخالية والقرون الماضية، ولم يكن أحد منهم معصوما، فيكون كل منهم جازما بأنه يصدر عنه معصيته البتة. ويدل على الصحة قوله (ع): (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)، حيث لم يقل: التائب من الذنوب. نعم التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تماثلهما غير صحيح وغير معقول، لاستوائهما في حق الشهوة وحق التعرض لسخط الله، فلا معنى للتوبة عن أخذ الخبز الحرام، أو عن أخذ الدرهم الحرام دون الدينار الحرام، أو عن ترك صلاة الظهر دون العصر، إذ لو كان ذلك صحيحا لصح أن يتوب عن أخذ هذا الخبز

دون ذلك الخبز، أو عن أن أخذ هذا الدرهم دون ذلك الدرهم... وهكذا.

والحاصل: أن التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تفاوتها في العقاب واقتضاء الشهوة صحيح، ومع تماثلهما فيهما غير معقول. ومن العلماء من قال: إن التوبة عن البعض

ص ٦٤

دون البعض لا تصح مطلقا، واستدل على ذلك بأن التوبة عبارة عن الندم وإنما يندم على السرقة - مثلا - لكونها معصية لا لكونها سرقة، ولا يعقل أن يندم عليها دون الزنا أن كان توجعه لأجل المعصية، إذ العلة شاملة لهما، لأن من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين، لأن التوجع إنما هو بفوات المحبوب، سواء كان بالسيف أو بالسكين، وكذلك توجع التائب إنما هو لفوات المحبوب بالمعصية. سواء عصى بالسرقة أو بالزنى، وجوابه قد ظهر مما ذكرناه.

فصل أقسام التائبين up

التائبون بين من سكنت نفسه عن الشروع إلى الذنوب فلا يحوم حومها وبين من بقي في نفسه الشروع إليها والرغبة فيها وهو يجاهدها ويمنعها. والأول بين من سكون النزوع وبطلانه فيه لأجل قوة اليقين وصدق المجاهدة، ومن سكونه وانقطاعه بفتور في نفس الشهوة فقط: والأول من الأول أفضل من الثاني، والثاني منه أدون من الثاني، والوجه ظاهر. وأيضا التائبون بين من نسي الذنب من دون اشتغال بالتفكر فيه، وبين من جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه. ولا ريب في أن التذكر والاحتراق بالنظر إلى المبتدي ومن يخاف عليه العود أفضل، لأنه يصده عنه، والنسيان بالنظر إلى المنتهى السالك والواصل إلى مرتبة الحب والأنس الواثق من نفسه أنه لا يعود أفضل، لأنه شغل مانع عن سلوك الطريق، وحاجب من الحضور بلا فائدة ولا ينافيه بكاء الأنبياء وتناجيهم من الذنوب، لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بالأمة، فإنهم بعثوا لإرشادهم فعليهم التلبس بما تنتفع الأمة بمشاهدته، وأن كان نازلا عن ذروة مقامهم. ولذا قال رسول الله (ص): (أما إني لا أنسى، ولكن أنسى لأشرع) (١٩). ولا تعجب من هذا، فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء، وكالمواشي في كنف الرعاة، والأب إذا أراد (هامش)

(١٩) الحديث نبوي مروي في إحياء العلوم: ٤ / ٣٨. (*)

ص ٦٥

أن يستنطق ولده الصغير ينزل إلى درجة نطق الصبي، والراعي لشاة أو طائر يصوت به رغاء أو صفيرا شبيها بالبهيمة والطائر تلطفا في تعليمه.

فصل مراتب التوبة up

إعلم أن التائب أما يتوب عن المعاصي كلها ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط، ولا يعود إلى ذنوبه، ولا يصدر عنه معصية إلا الزلات التي لا يخلو عنها غير المعصومين، وهذه التوبة النصوح، والنفس التي صاحبها هي النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية، أو يتوب عن كبائر المعاصي والفواحش ويستقيم على أمهات الطاعات، لا أنه ليس ينفك عن ذنوب تصدر عنه في مجاري أحواله غفلة وسهوة وهفوة، لا عن محض العمد وتجريد القصد، وإذا أقدم على ذنب لام نفسه وندم وتأسف، وجدد عزمه على ألا يعود إلى مثله، ويتشمر للاحتراز عن أسبابه التي تؤدي إليه، والنفس التي هذه مرتبتها هي النفس اللوامة التي خيرها يغلب على شرها، فولها حسن الوعد من الله تعالى بقوله: (الذين يجتنبون كبائر الإثم من الفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة) (٢٠) وإلى مثلها الإشارة بقوله (ص): (خياركم كل مفتن تواب). وفي خبر آخر: (المؤمن كالسنبلة، يفيئ أحيانا ويميل أحيانا). وفي خبر آخر: (لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة) (٢١): أي الحين بعد الحين. وكل ذلك شاهد صدق على أن هذا القدر من الذنوب لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبه بدرجة المصرين، ومن يؤيس مثل هذا عن النجاة ووصوله إلى درجة التائبين فهو ناقص، ومثله مثل الطبيب الذي يؤيس الصحيح من دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه مرة أو مرتين، ومثل الفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار في أوقات نادرة. ولا ريب في نقصانه، فالعالم حق العالم هو الذي لا يؤيس الخلق (هامش)

(٢٠) النجم الآية: ٣٢ (٢١) صححنا النبويات الثلاث على إحياء العلوم: ٤ / ٣٩ (*)

ص ٦٦

من درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومفارقة السيئات المقتطفات، إذ أمثال الفترات ما يصدر عن السهو والغفلات لا يفسد النفس ولا يبطلها بحيث لا يقبل الإصلاح، أو يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب، فيقدم عليه عمدا وقصدا، لعجزه عن قهر الشهوة وقمعها، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وتارك لأكثر الذنوب مع القدرة والشهوة، وأنما قهره بعض الشهوات بحيث يغفل عند هيجانها ويرتكب مقتضاها من دون مجاهدة وندامة، وعند قضاء هذه الشهوة والفراغ عنها يتندم، ويقول سأتوب عنها، لكنه يسول نفسه ويسوف توبته يوما بعد يوم، والنفس التي هذه درجتها هي التي تسمى النفس المسؤولة المسؤول صاحبها، وإليها الإشارة بقوله تعالى: (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) (٢٢). فنجاتها من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما يتعاطاه مرجو، فعسى الله أن يتوب عليها، ولكن يخاف عليها من حيث تسويفها وتأخيرها، فربما اختطفها الموت قبل التوبة، ويقع أمرها في المشيئة، فيدخل في زمرة السعداء، أو يسلك في سلك الأشقياء، أو يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود إلى الذنوب عمدا وقصدا، من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف ويتندم، بل ينهمك انهماك الغافل في الذنوب واتباع الشهوات وهذا معدود من المصرين، ونفسه محسوبة من النفوس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير، ومثله أن مات على التوحيد وختم له بالحسنى وغلبت طاعاته على سيئاته كان من أهل الجنة، وأن ختم له بالسوء كان من أهل النار، وأن مات على التوحيد ولكن ترجحت سيئاته على حسناته فأمره إلى الله، ولعله يعذب في النار مدة بقدر زيادة سيئاته على حسناته، ثم يخلص منها بعميم لطفه.

فصل عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة up

إعلم أن من تاب ولا يثق من نفسه الاستقامة على التوبة فلا ينبغي

(هامش)

(٢٢) التوبة الآية: ١٠٣ (*)

ص ٦٧

أن يمنعه ذلك عن التوبة علما منه أنه لا فائدة فيه، فإن ذلك من غرور الشيطان، ومن أين له هذا العلم، فلعله يموت تائبا قبل أن يعود إلى الذنب. وأما الخوف من العود، فليتداركه بتجريد القصد وصدق العزم، فإن وفى به فقد نال مطلبه، وإلا فقد غفرت ذنوبه السابقة كلها وتخلص منها، وليس عليه إلا هذا الذنب الذي أحدثه الآن. وهذا من الفوائد العظيمة والأرباح الجسيمة، فلا يمنعك خوف العود من التوبة فإنك من التوبة أبدا بين إحدى الحسنيين: - أحداهما - العظمى: وهي غفران الذنوب السابقة وعدم العود إلى ذنبه في الاستقبال. - وثانيتهما - وهي الصغرى: غفران الذنوب الماضية، وأن لم يمنع العود إلى الذنب في المستقبل. ثم إذا عاد إلى الذنب ينبغي أن يتوب عنه دفعة، ويتبعه بحسنة لتمحوها، فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا. والحسنات المكفرة للذنوب أما متعلقة بالقلب: وهي الندم، والتضرع إلى الله، والتذلل له، وإضمار الخير للمسلمين، والعزم على الطاعات، أو باللسان: وهي الاعتراف بالظلم والإساءة، وكثرة الاستغفار، أو بالجوارح: وهي أنواع الطاعات والصدقات. وينبغي ملاحظة المناسبة بين السيئة التي صدرت عنه والحسنة التي يتبعها لتمحوها. وفي الخبر: أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو مرجوا: أربعة من أعمال القلوب، وهي: التوبة أو العزم على التوبة، وحب الاقلاع عن الذنب، وتخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة. وأربعة من أعمال الجوارح، وهي: أن تصلي عقب الذنب ركعتين، ثم تستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة، ثم تتصدق بصدقة، ثم تصوم يوما. وفي بعض الأخبار: تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين، وفي بعضها: تصلي أربع ركعات.

ولا تظن أن الاستغفار باللسان بدون حل عقدة الإصرار لا فائدة فيه أصلا، بل هو توبة الكذابين، لما ورد من أن المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله لأن الاستغفار الذي هو توبة الكذابين ولا فائدة فيه أصلا هو الاستغفار بمجرد اللسان وبحكم العادة وعلى سبيل الغفلة، أي ما يكون مجرد حركة

ص ٦٨

اللسان من دون مدخلية للقلب، كما إذا سمع شيئا مخوفا، فيقول على الغفلة: أستغفر الله، أو نعوذ بالله، من غير شركة للقلب فيه وتأثره منه، وأما إذا انضاف إليه تضرع القلب وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص رغبة وميل قلبي إلى انقلاعه عن هذا

الذنب فهي حسنة في نفسها، وإن علم أن نفسه الأمارة ستعود إلى هذا الذنب فتصلح هذه الحسنة لأن يدفع بها السيئة، فالاستغفار بالقلب وأن خلا عن حل عقدة الإصرار لا يخلو عن الفائدة، وليس وجوده كعدمه. وقد عرف أرباب القلوب بنور البصيرة معرفة قطعية يقينية لا يعتريها ريب وشبهة صدق قوله تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (٢٣). ولذا جزموا وقطعوا بأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر، ولو كانت كل شعيرة خالية عن أثر لكان لا يرجح الميزان باجتماع الشعيرات، فميزان الحسنات يترجح بذرات الخيرات إلى أن يثقل فتسل كفة السيئات، فإياك وأن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها، وتستحقر ذرات المعاصي فلا تتقيها، كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللا بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد، وأي غنى يحصل منه، وما وقع ذلك في الثياب، ولا تدري أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة، وربما ترتب على عمل قليل ثواب جزيل، فلا ينبغي تحقير شيء من الطاعات. قال الصادق عليه السلام: (أن الله تعالى خبأ ثلاثا في ثلاث: رضاه في طاعته، فلا تحقروا منها شيئا فلعل رضاه فيه. وغضبه في معاصيه، فلا تحقروا شيئا فلعل غضبه فيه. وخبأ ولايته في عبادته، فلا تحقروا منهم أحدا فلعله ولي الله).

فإذا الاستغفار بالقلب حسنة لا يضيع أصلا، بل ربما قيل: الاستغفار بمجرد اللسان أيضا حسنة، إذ حركة اللسان بها غفلة خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالنظر إلى السكوت عنه، وأن كان نقصا بالإضافة إلى عمل القلب، فينبغي ألا تترك حركة اللسان بالاستغفار، ويجتهد في أضافة حركة

(هامش)

(٢٣) الزلزال، الآية: ٧ - ٨ (*)

ص ٦٩

القلب إليها، ويتضرع إلى الله أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير.

فصل علاج الإصرار على الذنوب up

إعلم أن الطريق إلى تحصيل التوبة، والعلاج لحل عقدة الإصرار على الذنوب: أن يتذكر ما ورد في فصلها - كما مر - وتذكر قبيح الذنوب وشدة العقوبة عليها، وما ورد في الكتاب والسنة من ذنب المذنبين والعاصين، ويتأمل في حكايات الأنبياء وأكابر العباد، وما جرى عليهم من المصائب الدنيوية، بسبب تركهم الأولى وارتكابهم بعض صغائر المعاصي، وأن يعلم أن كل ما يصيب العبد في الدنيا من العقوبة والمصائب فهو بسبب معصيته كما دل عليه الأخبار الكثيرة ويتذكر ما ورد من العقوبات على أحاد الذنوب: كالخمر ، والزنا، والسرقة، والقتل، والكبر، والحسد، والكذب، والغيبة وأخذ المال الحرام... وغير ذلك من آحاد المعاصي مما لا يمكن حصره، ثم يتذكر ضعف نفسه وعجزها عن احتمال عذاب الآخرة وعقوبة الدنيا، ويتذكر خساسة الدنيا وشرف الآخرة، وقرب الموت ولذة المناجاة مع ترك الذنوب، ولا يغتر بعدم الأخذ الحالي، إذ لعله كان من الإملاء والاستدراج. فمن تأمل في جميع ذلك وعلم ذلك على سبيل التحقيق انبعثت نفسه للتوبة البتة، إذ لو لم ينزعج إلى التوبة بعد ذلك، فهو أما معتوه أحمق أو غير معتقد بالمعاد، وينبغي أن يجتهد في قلع أسباب الإصرار من قلبه: أعني الغرور، وحب الدنيا، وحب الجاه، وطول الأمل... وغير ذلك.

فصل الإنابة up

إعلم أن الإنابة هو الرجوع عن كل شيء مما سوى الله، والاقبال على الله تعالى بالسر والقبول والفعل، حتى يكون دائما في فكره وذكره وطاعته، فهو غاية درجات التوبة وأقصى مراتبها، إذ التوبة هو الرجوع عن الذنب إلى الله، والإنابة هو الرجوع عن المباحات أيضا إليه سبحانه، فهو من المقامات العالية والمنازل السامية. قال الله سبحانه:

ص ٧٠

(وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) (٢٤). وقال - سبحانه -: (وما يتذكر إلا من ينيب) (٢٥) وقال: (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب، أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود، لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد) (٢٦). وإنابة العبد تتم بثلاثة أمور: الأول - أن يتوجه إليه بشراشر باطنه حتى يستغرق قلبه في فكره. الثاني - ألا يكون خاليا عن ذكره وذكر نعمته ومواهبه وذكر أهل حبه وتقربه. الثالث - أن يواظب على طاعاته وعباداته مع خلوص النية.

المحاسبة والمراقبة (تذنيب) up
- إعلم أن المحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة في ضديتها من وجه الإصرار على الذنوب. ومثلها في كونها من ثمرات الخوف والحب وتعلقهما بقوتي الشهوة والغضب وكونهما من فضائلها، فنحن نشير هنا إلى ما يتعلق بهما من بيان حقيقتهما وفضيلتهما والأعمال التي يتوقف تماميتها عليهما في فصول.
فصل المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة up
(المحاسبة): أن يعين في كل يوم وليلة وقتا يحاسب فيه نفسه بموازنة طاعاته ومعاصيه، ليعاتب نفسه، ويقهرها لو وجدها في هذا اليوم والليلة مقصرة في طاعة واجبة، أو مرتكبة المعصية، ويشكر الله سبحانه لو أتت بجميع الواجبات ولم يصدر منه معصية، ويزيد الشكر لو صدر منها شيء من الخيرات والطاعات المندوبة. (والمراقبة): أن يلاحظ ظاهره وباطنه دائما، حتى لا يقدم على شيء
(هامش)
(٢٤) الزمر، الآية: ٥٤ ٢٥) المؤمن، الآية: ١٣ (٢٦) ق، الآية: ٣١ - ٣٥. (*)
الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

## ٣٠٥ جامع السعادات (ج3)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب
ص ٧١
من المعاصي، ولا يترك شيئا من الواجبات ليتوجه عليه اللوم والندامة وقت المحاسبة. هذا هو المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة، ويأتي اعتبار أمور وأعمال أخر فيه عرفا.
فصل حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا up
إعلم أن الكتاب والسنة وإجماع الأمة دالة على ثبوت المحاسبة يوم القيامة، وحصول التدقيق والمناقشة في الحساب، والمطالبة بمثاقيل الذر من الأعمال والخطرات واللحظات، قال الله سبحانه: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيء وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) (٢٧) وقال: (يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد) (٢٨). وقال: (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا) (٢٩). وقال: (يوم إذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (٣٠). وقال: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) (٣١). وقال: (ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) (٣٢). وقال: (فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون) (٣٣). وقال رسول الله (ص): (ما منكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان). وورد بطرق متعددة: أن كل أحد في يوم القيامة لا يرفع قدما عن قدم حتى يسأل عن عمرة فيما أفناه، وعن
(هامش)
(٢٧) الأنبياء، الآية: ٤٧. (٢٨) المجادلة، الآية: ٦ (٢٩) الكهف، الآية: ٥٠ (٣٠) الزلزال، الآية: ٦ - ٨ (٣١) آل عمران، الآية: ٣٠ (٣٢) البقرة، الآية: ٢٨١. لا عمران، الآية: ١٦١. (٣٣) الحجر، الآية: ٩٢. (*)
ص ٧٢
جسده فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه. والآيات والأخبار الواردة في محاسبة الأعمال والسؤال عن القليل والكثير والنقير والقطمير أكثر من أن تحصى، وبإزائها أخبار دالة عن الأمر بالمحاسبة والمراقبة في الدنيا والترغيب عليها، وعلى كونها سببا للنجاة والخلاص عن حساب الآخرة. وخطره ومناقشته. فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب، وطالبها في الأنفاس والحركات، وحاسبها في الخطرات واللحظات، ووزن بميزان الشرع أعماله وأقواله: خف في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه. ومن لم يحاسب نفسه: دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي سيئاته قال الله سبحانه: (ولتنظر نفس ما قدمت لغد) (٣٤). والمراد بهذا النظر: المحاسبة على الأعمال وقال رسول الله (ص): (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها

قبل أن توزنوا). قال الصادق (ع): (إذا أراد أحدكم ألا يسأل ربه شيئا إلا أعطاه فلييأس من الناس كلهم، ولا يكون له رجاء إلا من عند الله - تعالى - فإذا علم الله - تعالى - ذلك من قلبه لم يسأله شيئا إلا أعطاه فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها فإن للقيامة خمسين موقفا. وكل موقف ألف سنة ثم تلا: (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) (٣٥) وتفريع المحاسبة على الأمر باليأس عن الناس والرجاء من الله، يدل على أن الإنسان أنما يرجو الناس من دون الله في عامة أمره وهو غافل عن ذلك، وإن عامة المحاسبات إنما ترجع إلى ذلك، وذكر الوقوف في مواقف يوم القيامة على الأمر بمحاسبة النفس يدل على أن الوقفات هناك إنما تكون للمحاسبات، فمن حاسب نفسه في الدنيا يوما فيوما لم يحتج إلى تلك الوقفات في ذلك اليوم، وقال (ع): (لو لم يكن للحساب مهول إلا حياء العرض على الله - تعالى - وفضيحة هتك الستر على المخفيات، لحق للمرء ألا يهبط من رؤوس الجبال، ولا يأوي إلى عمران، ولا يأكل، ولا يشرب، ولا ينام إلا

(هامش)

(

٣٤) الحشر، الآية: ١٨. (٣٥) المعارج، الآية: ٤. (*)

ص ٧٣

عن اضطرار متصل بالتلف: ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها شدائدها قائمة في كل نفس، ويعاين بالقلب الوقوف بين يدي الجبار، حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة، كأنه إلى عرصاتها مدعو وفي غمراتها مسؤل، قال الله - تعالى -: (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) (٣٦). (٣٧). وقال الكاظم (ع): (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسنة استزاد الله - تعالى - وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب إليه). وفي بعض الأخبار: ينبغي أن يكون للعاقل أربع ساعات: ساعة يحاسب فيها نفسه..

فصل مقامات مرابطة العقل للنفس up

إعلم أن العقل بمنزلة تاجر في طريق الآخرة، ورأس ماله العمر، وقد استعان في تجارته هذه بالنفس، فهي بمنزلة شريكه أو غلامه الذي يتجر في ماله، وربح هذه التجارة تحصيل الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة الموصولة إلى نعيم الأبد وسعادة السرمد، وخسرانها المعاصي والسيئات المؤدية إلى العذاب المقيم في دركات الجحيم، أو نقول: رأس مال العبد في دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة مدة العمر، وكما أن التاجر يشارط شريكه أولا، ويراقبه ثانيا، ويحاسبه ثالثا وإن قصر في التجارة - بالخيانة والخسران وتضييع رأس المال - يعاتبه ويعاقبه ويأخذ منه الغرامة، كذلك العقل يحتاج في مشاركة النفس إلى أن يرتكب هذه الأعمال، ومجموع هذه الأعمال يسمى بـ(المحاسبة والمراقبة) تسمية الكل باسم بعض أجزائه، وقد يسمى (مرابطة) أيضا.

فأول الأعمال في المرابطة (المشارطة): up

وهي أن يشارط النفس ويأخذ منها العهد والميثاق في كل يوم وليلة مرة ألا يرتكب المعاصي، ولا

(هامش)

(٣٦) الأنبياء الآية: ٤٧. (٣٧) صححنا الحديث على مصباح الشريعة: باب ٨٥، ص ١٨٦. (*)

ص ٧٤

يصدر منها شيء يوجب سخط الله، ولا يقصر في شيء من الطاعات الواجبة، ولا يترك ما تيسر له من الخيرات والنوافل. والأولى أن يكون ذلك بعد الفراغ عن فريضة الصبح وتعقيباتها، فيخاطب النفس ويقول لها: يا نفس مالي بضاعة سوى العمر، ومهما فنى رأس المال، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد، وقد أمهلني الله فيه بعظيم لطفه ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوما واحدا لأعمل صالحا فاحسبي أنك توفيت ثم رددت، فإياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفسية لا عوض لها، يمكن أن يشتري بها كنزا من الكنوز لا يتناهى نعيمها أبدا الآباد. ويتذكر ما ورد في بعض الأخبار: من أن كل عبد خلقة له بأزاء كل يوم وليلة من عمره أربع وعشرون خزانة مصفوفة.

فإذا مات تفتح له هذه الخزائن، ويشاهد كل واحد منها ويدخلها، فإذا فتحت له خزانة خلقت بإزاء الساعة التي أطاع الله فيها،

يراها مملوءة نورا من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيناله من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسائل عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الاحساس بألم النار، وإذا فتحت له خزانة خلقت بإزاء الساعة التي عصى الله فيها، يراها سوداء مظلمة يفوح نتنها ويتغشأ ظلامها، فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لينقص عليهم نعيمها، فإذا فتحت له خزانة بإزاء الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا لم يشاهد فيها ما يسره ولا ما يسوؤه، وهكذا يعرض عليه عدد ساعات عمره الخزائن، وعند ذلك يتحسر العبد على إهماله وتقصيره، وينال من الغبن ما لا يمكن وصفه، وبعد هذا التذكر يخاطب نفسه ويقول: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزائنك، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تركني إلى الكسل والبطالة فيفوتك من درجات العليين ما يدركه غيرك فتدركك الحسرة والغبن يوم القيامة إن دخلت الجنة، إذ ألم الغبن والحسرة وانحطاط الدرجة مع وجود ما فوقها من الدرجات الغير المتناهية التي نال إليها أبناء نوعك مما لا يطاق، ثم يستأنف لها وصية في أعضائه السبعة: أعني العين، والأذن، واللسان، والفرج، والبطن، واليد، والرجل، ويسلمها

ص ٧٥

إليها، لأنها رعايا خادمة لها في التجارة ولا يتم أعمالها هذه التجارة إلا بها، فيوصيها بحفظ هذه الأعضاء عن المعاصي التي تصدر عنها، وبأعمال كل منها فيما خلق لأجله، ثم يوصيها بالاشتغال بوظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة، وبالنوافل والخيرات التي تقدر عليها، وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم، لكن إذا اعتادت النفس بتكرار المشارطة والمراقبة بالعمل بها والوفاء بحقها استغنى عن المشارطة فيها، وإن اعتادت بالعمل في بعضها لم تكن حاجة إلى المشارطة فيه، وبقيت الحاجة إليها في الباقي، وكل من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا: من ولاية أو تجارة أو تدريس، أو أمثال ذلك: لا يخلو كل يوم منه من مهم جديد، وواقعة حادثة لها حكم جديد، ولله عليه فيها حق، فعليه أن يجدد الاشتراط على نفسه بالاستقامة عليها والانقياد للحق في مجاريها، وينبغي أن يوصلها بالتدبر في عاقبة كل أمر يرتكبه في هذا اليوم والليلة. وهذه الوصية عمدت الوصايا ورأسها، وقد روي: (أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وآله وقال: يا رسول الله أوصني، فقال له: فهل أنت مستوص إن أنا أوصيتك؟ - حتى قال له ذلك ثلاثا، وفي كلها يقول الرجل نعم يا رسول الله! فقال له رسول الله (ص): إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن يك راشدا فامضه وإن يك غيا فانته). ويظهر من هذا الخبر: إن التأمل في عاقبة كل أمر أعظم ما يحصل به النجاة، فينبغي أن يؤكد العهد والميثاق في ذلك على النفس ويحذرها عن الإهمال، ويعضها كما يوعظ العبد المتمرد الآبق، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات، مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فهذا وما يجري مجراه هو المشارطة، وهو أول مقامات المرابطة.

وثانيها (المراقبة): up

وهو أن يراقب نفسه عند الخوض في الأعمال، فيلاحظها بالعين الكالئة، فإنها إن تركت طغت وفسدت، ثم يراقب في كل حركة وسكون، بأن يعلم أن الله تعالى مطلع على الضمائر، عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف، كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف، بل أشد من ذلك، قال الله سبحانه:

ص ٧٦

(

إن الله كان عليكم رقيبا) (٣٦). وقال: (ألم يعلم بأن الله يرى) (٣٧). وقال رسول الله (ص): (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تراه فإنه يراك). وفي الحديث القدسي: ((إنما يسكن جنات عدن، الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني، والذين انحنت أصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي! إني لأهم بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب). وحكي: (أن زليخا لما خلت بيوسف، فقامت وغطت وجه صنمها، فقال يوسف: مالك؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحيي من مراقبة الملك الجبار؟!). وهذه المعرفة - أعني معرفة اطلاع الله على العباد وأعمالهم وسرائرهم وكونه رقيبا عليهم - إذا صارت يقينا - أي خلت عن الشك - ثم استولت على القلب سخرت القلب وقهرته على مراعات جانب الرقيب وصرفت الهمة إليه، والموقنون بهذه المعرفة مراقبتهم على درجتين: إحداهما مراقبة المقربين، وهي مراقبة التعظيم والاجلال، وهي أن يصير القلب مستغرقا

بملاحظة الجلال، ومنكسرا تحت الهيبة، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير، وهذا هو الذي صار همه هما واحدا، وكفاه سائر الهموم، وأخراهما مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم غلب عليهم يقين اطلاع الله على ظهورهم وبواطنهم، ولكن لا تدهشهم ملاحظة الجلال والجمال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للالتفات إلى الأحوال والأعمال والمراقبة فيها، وغلب عليهم الحياء من الله، فلا يقدمون ولا يجمعون إلا بعد التثبت، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة، فإنهم يرون الله مطلعا عليهم، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة. ثم ينبغي للعبد ألا يغفل عن مراقبة نفسه والتضييق عليها في لحظة من حركاتها وسكناتها وخطراتها وأفعالها. وحالاته لا تخلو عن ثلاثة، لأنه إما أن تكون في طاعة، أو معصية، أو مباح. فمراقبته في الطاعة، بالقربة، والاخلاص، والحضور، والاكمال

(هامش)

(

٣٦) النساء، الآية: ١ (٣٧) العلق الآية: ١٤. (*)

ص ٧٧

وحراستها عن الآفات، ومراعاة الأدب. ومراقبته في المعصية: بالتوبة، والندم، والاقلاع، والحياء، والاشتغال بالتكفير. ومراقبته في المباح: بمراعاة الأدب، بأن يأكل بعد التسمية، وغسل اليدين، وسائر الآداب المقررة في الشرع للأكل، ويقعد مستقبل القبلة، وينام بعد الوضوء على اليد اليمنى مستقبل القبلة، وبالصبر عند ابتلائه ببلية ومصيبة، وبالشكر عند كل نعمة، ويتذكر عند شهود المنعم وحضوره، ويكف النفس عن الغضب وسوء الخلق عند حدوث أمر تميل النفس عنده إلى الغضب والتضجر والتكلم بما لا يحسن من الأقوال، فإن لكل واحد من أفعاله وأقواله حدودا لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه. وينبغي ألا يخلو عند اشتغاله بالمباحات عن عمل هو الأفضل، كالذكر والفكر وتخليص النية، فإن الطعام الذي يتناوله من عجائب صنع الله، فلو تفكر فيه وتدبر في فوائده وحكمه وما فيه من غرائب قدرة الله لكان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح، والناس عن الأكل على أقسام: (قسم) ينظرون فيه بعين التبصر والاعتبار، فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به، وكيفية تقدير الله لأسبابها وخلق الشهوة الباعثة عليها وخلق الآلات المسخرة للشهوة وأمثال ذلك، وهؤلاء هم أولو الألباب. (وقسم)، ينظرون فيه بعين المقت والكراهة، ويلاحظون وجه الاضطرار إليها ويتمنون الاستغناء عنه، وعدم كونهم مقهورين مسخرين بشهوته، وهؤلاء هم الزهاد. (

وقسم) يرون فيه خالقه، ويشاهدون في الصنع الصانع ويترقون منه إلى صفات الخالق، من حيث أن كل معلول أثر العلة، ورشحة من رشحات ذاته وصفاته، فمشاهدته تذكر العلة بل التأمل يرشدك إلى أن دلالة كل ذرة ترى من ذرات العالم على ربك وخالقك وإيجابها لحضوره عندك وظهوره لديك وتوجهه إليك وقربه منك أشد وأقوى من دلالة مشاهدتك بدن زيد وصورته وحركاته وسكناته على وجوده وحضوره عندك، وسر ذلك ظاهر واضح. وهؤلاء المشاهدون الصانع في كل مصنوع، والخالق في كل مخلوق، هم العرفاء المحبون، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وتصنيفه وآثاره وما ينتسب إليه اشتغل قلبه

ص ٧٨

بالمحبوب، وكل ما يتردد العبد فيه وينظر إليه من الموجودات هو صنع الله تعالى، فله في النظر منها إلى الصانع مجال إن فتحت له أبواب الملكوت. (وقسم) ينظرون فيه بعين الحرص والشهوة، وليس نظرهم إلى الطعام إلا من حيث يوافق شهوتهم وتلتذ به ذائقتهم، ولذلك يذمونه لو لم يوافق هواهم، وهؤلاء أكثر أهل الدنيا.

وثالثها - أي ثالث مقامات المرابطة وأعمالها - هو (المحاسبة) up

بعد العمل، فإن العبد كما يختار وقتا في أول كل يوم ليشارط في النفس على سبيل التوصية بالحق، ينبغي له أن يختار وقتا آخر كل يوم ليطالب النفس فيه بما أوصى به، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في آخر كل سنة مع الشركاء. وهذا أمر لازم على كل سالك لطريق الآخرة معتقد للحساب في يوم القيامة، وقد ورد في الأخبار: أن العاقل ينبغي أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر في صنع الله، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب. ولذلك كان الصدر

الأول من الخائفين ومن تقدمنا من سلفنا الصالحين في غاية السعي والاهتمام في محاسبة النفس بحيث كانت عندهم من الطاعات الواجبة: وكانوا أشد محاسبة لنفوسهم من سلطان غاشم: ومن شريك شحيح، ويعتقدون أن العبد لا يكون من أهل التقوى والورع حتى يحاسب نفسه أتم من محاسبة شريكه وأن من لا يحاسب نفسه إما معتوه أحمق أو لا يعتقد بحساب يوم القيامة، إذ العاقل المعتقد به مع أهواله وشدائده وما يوجبه من الخجلة والحياء والافتضاح، إذا علم أن محاسبة النفس في الدنيا تسقطه أو توجب خفته، كيف يجوز له أن يتركها؟ ثم كيفية المحاسبة بعد العمل: أن يطالب نفسه أولا بالفرائض التي هي بمنزلة رأس ماله، فإن أدتها على وجهها شكر الله عليه ورغبها في مثلها، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أدتها ناقصة كلفها بالجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية أشتغل بعتابها وتعذيبها ومعاقبتها، واستوفى منها ما يتدارك به ما فرط به، كما يصنع التاجر بشريكه. وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط والنقير والقطمير، فيحفظ مداخل الزيادة

ص ٧٩

والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها، كذلك ينبغي أن يفتش عن أفعال النفس ويضيق عليها وليتق غائلتها وحيلتها، فإنها خداعة مكارة ملبسة، فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب قبل أن يتولاه غيره في صعيد القيامة، ثم بتصحيح الجواب عن جميع أفعاله وأحواله: من نظره، وقيامه، وقعوده، ونومه، وأكله، وشربه، حتى عن سكوته لم سكت، وعن سكونه لما سكن، وعن خواطره، وأفكاره، وصفاته النفسية، وأخلاقه القلبية، فإن خرجت عن عهدة الجواب عن الجميع، بحيث أدت الحق في الجميع، ولم تترك شيئا مما يجب عليها، ولم ترتكب شيئا من المعاصي: حصل لها الفراغ من حساب هذا اليوم، ولم يكن شيئا باقيا عليها، وإن أدت الحق في البعض دون البعض، كان قدر ما أدت الحق فيه محسوبا لها، ويبقى غيره باقيا عليها فيثبته عليها، وليكتب على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي على شريكه على قلبه وعلى جريدته، ثم النفس غريم يمكن أن تستوفى منها الديون، أما بعضها فبالغرامة والضمان، وبعضها برد عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك، ولا يمكن شيئا من ذلك إلا بعد تحقق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك أشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء.

ورابعها - وهو آخر مقامات المرابطة - (معاتبة النفس) up

ومعاقبتها على تقصيرها، والمجاهدة بتكليفها الطاعات الشاقة، وإلزامها الرياضات الشديدة، فإنه إذا حاسب نفسه، فوجدها خائنة في الأعمال، مرتكبة للمعاصي، مقصرة في حقوق الله، متوانية بحكم الكسل والبطالة في شيء من الفضائل، فلا ينبغي أن يهملها، إذ لو أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي، وأنس بها بحيث عثر بعد ذلك فطامها عنها. فينبغي للعاقل أن يعاتبها أولا، ويقول: أف لك يا نفس! هلكتيني وعن قريب تعذبين في النار مع الشياطين والأشرار، فيا أيتها النفس الأمارة الخبيثة! أما تستحين وعن عيبك لا تنتهين؟! فما أعظم جهلك وحماقتك! أما تعرفين أن بين يديك الجنة والنار وأنت صائرة إلى إحداهما عن قريب؟ فما لك تضحكين وتفرحين وباللهو والعصيان تشتغلين؟ أما علمت أن الموت يأتي بغتة من غير إخبار، وهو

ص ٨٠

أقرب إليك عن كل قريب؟ فما لك لا تستعدين له؟ أما تخافين من جبار السماوات والأرض، ولا تستحيين منه؟ تعصين بحضرته وأنت عالمة بأنه مطلع عليك؟! ويحك يا نفس! جرأتك على معصية الله إن كانت لاعتقادك أنه لا يراك فما أعظم كفرك، وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياؤك، وما أعجب نفاقك، وكثرة دعاويك الباطلة! فإنك تدعين الإيمان بلسانك، وأثر النفاق ظاهر عليك! فتنهي عن رقدتك وخذي حذرك! لو أن يهوديا أخبرك في ألذ أطعمتك بأنه يضرك لصبرت وتركتيه! ولو أخبرك طفل بعقرب في ثوبك نزعتيه! فقول الله وقول أنبيائه المؤيدين بالمعجزات وقول الأولياء والحكماء والعلماء أقل تأثيرا عندك من قول يهودي أو طفل؟!... فلا يزال يكرر عليها أمثال هذه المواعظ والتوبيخات والمعاتبات، ثم يعاقبها ويلزمها ما يشق عليها من وظائف العبادات والتصدق بما يحبه، جبرا لما فات منها وتداركا لما فرط فيها، فإذا أكل لقمة مشتبهة ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم يعاقب العين بمنع النظر، وإذا اغتاب مسلما يعاقب اللسان بالصمت والذكر مدة كثيرة، وكذلك يعاقب كل عضو من أعضائه إذا صدرت منه معصية بمنعه من شهواته، وإذا استخف بصلاة ألزم نفسه بصلاة كثيرة بشرائطها وآدابها، وإذا استهان بفقير أعطاه صفو ماله، وهكذا الحال في سائر المعاصي والتقصيرات.

وطريق العلاج في إلزام النفس - بعد تقصيرها في العمل على هذه العقوبات وربطها على تلك الطاعات الشاقة والرياضات - أمران: الأول - تذكر ما ورد في الأخبار من فضيلة رياضة النفس ومخالفتها، والاجتهاد في الطاعة والعبادة ووظائف الخيرات، قال الصادق (ع): (طوبى لعبد جاهد في الله نفسه وهواه! ومن هزم جند هواه ظفر برضاء الله، ومن جاوز عقله نفسه الأمارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله تعالى فقد فاز فوزا عظيما، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله تعالى من النفس والهوى، وليس لقتلهما وقطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار إلى الله، والخشوع، والجوع والظماء بالنهار، والسهر

ص ٨١

بالليل، فإن مات صاحبه مات شهيدا، وإن عاش واستقام أداه عاقبته إلى الرضوان الأكبر، قال الله عز وجل: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) (٣٨). وإذا رأيت مجتهدا أبلغ منك في الاجتهاد، فوبخ نفسك ولمها وعيرها، تحثيثا على الازدياد عليه، واجعل لها زماما من الأمر، وعنانا من النهي، وسقها كالرابض للفارة الذي لا يذهب عليه خطوه من خطواته إلا وقد صح أولها وآخرها، وكان رسول الله (ص) يصلي حتى تورمت قدماه، ويقول: (أفلا أكون عبدا شكورا)، أراد أن يعتبر به أمته. فلا تغفلوا عن الاجتهاد والتعبد والرياضة بحال. ألا وإنك لو وجدت حلاوة عبادة الله، ورأيت بركاتها واستضأت بنورها، لم تصبر عنها ساعة واحدة ولو قطعت أربا أربا، فما أعرض عنها من أعرض إلا بحرمان فوائد السلف من العصمة والتوفيق) (٣٩). قيل لربيع بن خيثم: ما لك لا تنام بالليل؟ قال: (لأني أخاف البيات). والأخبار الواردة في فضل السعي والاجتهاد ومخالفة النفس والهوى أكثر من أن تحصى. الثاني - مصاحبة أهل السعي، والاجتهاد في العبادة، ومجالسة المجاهدين المرتاضين الذين لا ينفكون ساعة من مشاق الطاعات والعبادات وإلزام نفوسهم على ضروب النكال والعقوبات، فملاحظة أحوالهم ومشاهدة أعمالهم أقوى باعث للاقتداء بآثارهم وأفعالهم، حتى قال بعضهم: (إذا اعترتني فترة في العبادات، نظرت إلى بعض العباد واجتهاده في العبادة فكنت بعد ذلك أعمل أسبوعا)، إلا أن ذلك غير مرجو في أمثال زماننا، إذ لم يبق في عباد الله من يجتهد في العباد ة اجتهاد الأولين، وليس فينا من تقرب عبادته عبادة أدنى رجل من سلفنا الصالحين. فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى سماع أحوالهم، ومطالعة حكاياتهم وأخبارهم، ومن لاحظ حكاياتهم وسمع أحوالهم وأطلع على كيفية اجتهادهم في طاعة الله، يعلم أنهم

(هامش)

(

٣٨) العنكبوت، الآية ٦٩. (٣٩) الحديث بطوله مروي عن (مصباح الشريعة): باب ٨١ ص ١٨٤، مع اختلاف يسير هنا، فصححناه عليه كما كان هناك. (*)

ص ٨٢

عباد الله وأحباؤه وأنهم ملوك الجنة، قال بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام: (صلينا خلفه الفجر، فلما سلم انتقل إلى يمينه وعليه كآبة، فمكث حتى طلعت الشمس، ثم قلب يديه وقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد (ص) وما أرى اليوم شيئا شبههم، وكانوا يصبحون شعثا غبرا صفرا، فقد باتوا لله سجدا وقياما، يتلون كتاب الله عز وجل، ويراوحون بين أقدامهم وجباههم، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، وكأن القوم باتوا غافلين). وكان أويس القرني يقول في بعض الليالي: (هذه ليلة الركوع) فيحيي الليل كله في ركعة، ويقول في بعضها: (هذه ليلة السجود) فيحيي كله في سجدة. وقال ربيع بن خثيم: (أتيت أويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر، فجلست موضعا، وقلت: لا أشغله عن التسبيح. فمكث مكانه حتى صلى الظهر ولم يقم حتى صلى العصر، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب، ثم ثبت حتى صلى العشاء، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح، ثم جلس فغلبته عيناه، فقال: اللهم إني أعوذ بك من عين نوامة وبطن لا تشبع). وروي: (أن رجلا من العباد كلم امرأة ووضع يده على فخذاها، ثم ندم فوضع يده في النار حتى نشت (٤٠) عقوبة لها. وبعضهم نظر إلى امرأة فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش. ومر بعضهم بغرفة فقال: متى بنيت هذه الغرفة؟ ثم أقبل على نفسه وقال: تسألين عما لا يعنيك؟! لأعاقبنك بصوم سنة، فصامها) وروي: (أن أبا طلحة الأنصاري شغل قلبه في الصلاة طين في الحائطة،

فتصدق بالحائطة جبرا لما فاته من الحضور في الصلاة). وكان بعضهم اعتلت إحدى قدميه فيصلي على قدم واحدة حتى يصلي الصبح بوضوء العشاء.
وكان بعضهم يقول: (ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين صلاة الليل). وحكى رجل: (أنه *(هامش) (٤٠) النشيش: صوت غليان الماء.
ص ٨٣
نزل بعض أهل الله عندنا بالمحصب (٤١) وكان له أهل وبنات، وفي كل ليل يقوم ويصلي إلى السحر، فإذا كان السحر ينادي بأعلى صوته: أيها الركب المعرسون! (٤٢) أكل هذا الليل تنامون فكيف ترحلون؟ فيسمع صوته كل من كان بالمحصب، فيتواثبون بين باك وداع، وقارئ ومتوضئ وإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السري). وهكذا كان عمل عمال الله وسلوك سالكي طريق الآخرة، وحكاياتهم غير محصورة خارجة عن الاحصاء، أشرنا إلى أنموذج منها ليعلم الطالبون كيفية سيرة الرجال في مرابطة النفس ومراقبتها، ويعلمون أن عباد الله ليسوا أمثالنا، بل هم قوم آخرون. قال بعض الحكماء: (أن لله عبادا أنعم عليهم فعرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين، وبيوتا للحكمة، وتوابيت للعظمة وخزائن للقدرة، فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون، وقلوبهم تجول في الملكوت، وتلوز (٤٣) بحجب العيوب، ثم ترجع ومعها طوائف من طوائف الفوائد ما لا يمكن لواصف أن يصفها، فهم في باطن أمورهم كالديباج حسنا، وفي الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعا، وطريقهم لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء). فعليك يا حبيبي بمطالعة أحوالهم وحكاياتهم، لينبعث نشاطك وتزيد رغبتك، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك ولعمري! قل في أمثال زماننا من يذكر الله رؤيته، ويعينك في طريق الدين صحبته، فإن تطع أكثر من في بلدي وعصرك يضلوك عن سبيل الله. ومنها:
• الغفلةup
وهي فتور النفس عن الالتفات والتوجه إلى ما فيه غرضها ومطلبها، إما عاجلا أو آجلا. وضدها: النية، وترادفها: الإرادة والقصد، وهي انبعاث
(هامش)
)
٤١) المحصب - بالمهملتين وضم الميم وتشديد الصاد -: موضع بمكة على طريق منى، ويسمى (بطحاء). (٤٢) التعريس نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة، من أقوالهم: عرس القوم. (٤٣) في القاموس: اللوز - بالزاي: الملاذ والملجأ. (*)
ص ٨٤
النفس وميلها وتوجهها إلى ما فيه غرضها ومطلبها حالا أو مآلا والموافق لغرض النفس إن كان خيرا لها وسعادة في الدنيا أو الدين، فالغفلة عنه وعدم انبعاث النفس إلى تحصيله رذيلة، والنقصان والنية له والقصد إليه فضيلة وكمال، وإن كان شرا وشقاوة، فالغفلة عنه وكف النفس منه فضيلة، والنية له وإرادته رذيلة. ثم باعث النفس إلى النية أو الغفلة والكف، أن كان من القوة الشهوية كانت النية أو الغفلة متعلقة بها فضيلة أو رذيلة، وإن كان من قوة الغضب كانت النية أو الغفلة متعلقة بهذه القوة كذلك. فالنية والعزم على التزويج متعلقة بالقوة الشهوية، وعلى دفع كافر يؤذي المسلمين متعلقة بقوة الغضب والنية في العبادات مع انضمام التقرب إليها تسمى إخلاصا. ثم المتبادر من الموافق للغرض والمطلوب لما كان ما هو كذلك عند العقلاء وأرباب البصيرة، فيكون المراد منه ما هو مرغوب ومطلوب في نفس الأمر وما تحصيله خير وسعادة، وبهذا الاعتبار تكون الغفلة بإطلاقها مذمومة والنية ممدوحة، فلو ذمت الغفلة بإطلاقها ومدحت النية كذلك، كان بهذا الاعتبار والآيات والأخبار الواردة في ذم الغفلة خارجة بهذا الاعتبار، كما وصف الله الغافلين وقال: (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) (٤٤). وقال: (أولئك هم الغافلون) ٤٥. (تنبيه): الغفلة بالمعنى المذكور أعم من أن يكون فتور النفس وخمودها عن الانبعاث إلى ما يراه موافقا للغرض مع الجهل بالمواقف والملائم، أو مع العلم به ومع النسيان عنه، أو مع التذكر له، وربما خص في عرف أهل النظر بصورة الذهول وعدم التذكر. ثم الكسالة والبطالة قريب من الغفلة بالمعنى العام، وربما فرق بينهما ببعض الاعتبارات.
تتميم الغفلة موجبة للحرمان up

الغفلة والكسالة عما ينبغي تحصيله من أمور الدنيا والدين توجب الحرمان
(هامش)
(٤٤) الفرقان الآية: ٤٤. (٤٥) الأعراف، الآية: ١٧٨
ص ٨٥
عن سعادة الدارين، وتؤدي إلى شقاوة النشأتين، إذ الإهمال في رعاية أمر المعيشة ومصالحها يؤدي إلى هلاكة الشخص وانقطاع النوع، والغفلة عن اكتساب المعارف والأخلاق الفاضلة وعن أداء الفرائض والنوافل تنجر إلى إبطال غاية الايجاد - أعني بلوغ كل شخص إلى كماله المستعد له - وهو مع كونه - صريح المضادة والمنازعة لخالق العباد يوجب الهلاكة والشقاوة أبد الآباد.
وصل ضد الغفلة النية up
- تأثير النية على الأعمال - النية روح الأعمال والجزاء بحسبها - عبادة الأحرار والاجراء والعبيد - نية المؤمن من العمل - النية غير اختيارية - الطريق في تخليص النية. * * * قد عرفت أن ضد الغفلة النية، وهي انبعاث النفس وتوجهها إلى ما يراه موافقا لغرضها، وقد عرفت أيضا أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهي واسعة بين العلم والعمل، إذ ما لم يعلم أمر لم يقصد وما لم يقصد لم يفعل، فالعلم مقدم على النية وشرطها، والعمل ثمرتها وفرعها إذ كل فعل وعمل يصدر عن فاعل مختار فإنه لا يتم إلا بعلم وشوق وإرادة وقدرة، إذ كل إنسان خلق بحيث يوافقه بعض الأمور ويلائم غرضه ويخالفه بعض الأمور، فاحتاج إلى جلب الموافق ودفع المخالف المنافي، وهو موقوف على إدراك الملائم النافع والمنافي الضار، إذ ما لم يعرف الشيء لم يعقل طلبه أو الهرب عنه، وهو العلم، وعلى الميل والرغبة والشهوة الباعثة عليه، وهو الشوق إذ من أدرك الغذاء أو النار لا يكفيه ذلك للتناول والهرب، ما لم يكن شوق إلى التناول والهرب، وعلى القصد والشروع والتوجه إليه، وهو النية، إذ كم شاهد للطعام راغب فيه شائق إليه لا يريده لكونه مؤذيا أو حراما أو لعذر آخر، وعلى القدرة المحركة للأعضاء إليه - أي إلى جلب الملائم أو دفع المضار - وبها يتم الفعل فهي الجزء الأخير للعلة التامة التي بها يتم فعل الفاعل المختار فالأعضاء لا تتحرك إلى جانب الفعل ولا توجده إلا بالقدرة والقدرة تنتظر النية، والنية تنتظر الداعية الباعثة - أعني الشوق - والشوق ينتظر العلم أو الظن بكون ما يفعل موافقا له، فإن كان الشوق صادرا عن القوة
ص ٨٦
البهيمية، بأن يكون الفعل مما تقتضيه هذه القوة: كأكل، وشرب، وجماع وكسب مال، وأمثال ذلك من الالتذاذات الشهوية، كانت النية والقصد أيضا متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها أو رذائلها، وإن كان مما تقتضيه القوة السبعية: من دفع مؤذ، أو طلب الاستعلاء، أو تفوق، وأمثال ذلك كانت النية أيضا متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها أو رذائلها. وقد ظهر بما ذكر: إن المحرك الأول هو الغرض المطلوب - أعني المقصود المنوي بعد تعلق العلم به - وهو الباعث الأول وينبعث منه الشوق وهو الباعث الثاني ويتولد منه القصد والنية وهو الباعث الثالث المحرك للقدرة الباعث لانتهاضها على تحريك الأعضاء إلى جانب العمل.
فصل تأثير النية على الأعمال up
العمل غرضه الباعث، أي باعثه الأول، إما واحد: كالقيام للإكرام، أو للهرب من السبع المتهجم عليه، أو متعدد مع استقلال كل واحد بالباعثية متساويا أو متفاوتا: كالتصدق للفقر والقرابة بالنظر إلى من ينتهض فيه كل واحد بانفراده سببا للاعطاء، أو بدون استقلال واحد لو انفرد، بل المستقل المجموع، كالمثال المذكور بالنظر إلى من يعطي ماله قريبه الفقير ويمتنع عند الانفراد، أي لا يعطيه قريبه الغني، ولا الأجنبي الفقير، أو مع استقلال بعض دون بعض: بأن يكون للثاني تأثير بالإعانة والتسهيل دون البعث والتحصيل، ثم يتعدد الجزاء بتعدد البواعث، إن خيرا فخير: كالدخول في المسجد لزيارة الله، ولانتظار الصلاة، والاعتكاف والانزواء والتجرد للذكر. وترك الذنوب، وملاقاة الأتقياء وإخوانه المؤمنين واستماع المواعظ وأحكام الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن شر فشر: كالقعود فيه للتحدث بالباطل، وملاحظة النساء، والمناظرة للمباهاة والمراءاة، وربما كان بعض البواعث خيرا وبعضها شرا: كالتصدق للثواب والرياء، ودخول المسجد لبعض البواعث الأول، وبعض البواعث الثانية، والعمل الذي باعثه من هذا القسم قد ظهر حكمه في باب الإخلاص. ثم باعث
ص ٨٧
العمل المباح إن كان خيرا بجعله عبادة، كالتطيب يوم الجمعة لإقامة السنة، وتعظيم المسجد واليوم، ودفع الأذى بالنتن، والأكل لقوة

العبادات، والجماع للولد وتطييب خاطر الزوجة: والترفه بنومة أو دعابة مباحة لرد نشاط الصلاة، وإن كان شرا بجعله معصية، كالتطيب للتفاخر بإظهار الثروة والتزين للزنا، ولا يؤثر في الحرام، فلا يباح شرب الخمر لموافقة الأقران، والإخوان، فالمعاصي لا تتغير موضوعاتها بالنية، بخلاف الطاعات والمباحات فإنها بالنية الصحيحة تصير أقرب القربات، وبالمفاسدة تصير أعظم المهلكات فما أعظم خسران من يغفل عن النية، ويتعاطى الأعمال تعاطي البائن المهملة على قصد حظوظ النفس أو على السهو والغفلة، وقد كانت غاية سعي السلف أن يكون لهم في كل شيء نية صحيحة، حتى في أكلهم وشربهم ونومهم ودخولهم الخلاء. ولا ريب في إمكان تصحيح النية في كل مباح، بحيث يترتب عليه الثواب، بل يمكن تصحيح النية في كل نقصان مالي وعرضي، فإن من تلف له مال، فإن قال: هو في سبيل الله، كان له أجرا، وإن سرقه أحد أو غصبه يمكن أن ينوي كونه من ذخائر الآخرة، وإذا بلغه اغتياب غيره له فيمكن أن يطيب خاطره بأنه سيحمل عليه سيئاته وينقل إلى ديوان حسناته فإياك أن تستحقر شيئا من نياتك وخطرات قلبك، ولا تقدم على عمل إلا بالنية صحيحة، فإن لم تحضرك النية توقف، إذ النية لا تدخل تحت الاختيار، وقد قيل: (إن من دعا أخاه إلى طعام بدون رغبة باطنة في اجتنابه، فإن أجابه فعليه وزران: النفاق، وتعريضه أخاه لما يكرهه لو علمه، وإن لم يجبه ولم يأكل فعليه وزر واحد هو النفاق!). فلا بد للعبد من خالص النية في كل حركة وسكون، لأنه إذا لم يكن كذلك غافلا، والغافلون قد وصفهم الله - تعالى - فقال: (إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا) (٤٦). وصاحب خالص النية صاحب القلب السليم، قال الصادق (ع):

(هامش)

(٤٦) الفرقان، الآية: ٤٤. (*)

ص ٨٨

))

صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم، لأنه سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخليص النية لله في الأمور كلها، قال الله - عز وجل -: (يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم) (٤٧). ثم النية تبدو من القلب على قدر صفاء المعرفة وتختلف على حسب اختلاف الأوقات في معنى قوته وضعفه، وصاحب النية الخالصة نفسه وهواه مقهورتان تحت سلطان تعظيم الله - تعالى - والحياء منه، وهو من طبعه وشهوته ومنيته نفسه، في تعب، والناس منه في راحة) ((٤٨).

فصل النية روح الأعمال، والجزاء بحسبها up

النية روح الأعمال وحقيقتها، والجزاء يكون حقيقة عليها، فإن كانت خالصة لوجه الله - تعالى - كانت ممدوحة، وكان جزاؤها خيرا وثواب، وأن كانت مشوبة بالأغراض الدنيوية كانت مذمومة، وكان جزاؤها شرا وعقابا، قال الله - سبحانه -: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) (٤٩). والمراد بالإرادة: النية، لترادفهما - كما تقدم -. وأوحى الله إلى داود: (يا داود! لا تطاول على المريدين، لو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضا يمشون عليها، يا داود! لئن تخرج مريدا من كربة هو فيها تستعده، كتبتك عندي حميدا، ومن كتبته حميدا لا يكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين). وقال رسول الله (ص): (أنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى الدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه)، وأنما قال ذلك حين قيل له: أن بعض المهاجرين

(هامش)

)

٤٧) الشعراء الآية: ٨٨ / ٨٩. (٤٨) هذا بعض الحديث المذكور في مصباح الشريعة / الباب الرابع ص ١٣٥ -، وفي البحار - الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر، باب النية وشرائطها ومراتبها، ص ٧٧، ط أمين الضرب -. لكن المذكور في البحار فيه اختلاف يسير عما في المصباح، / فصححناه على البحار، لكون المذكور في البحار أصح مما في المصباح. (٤٩) الأنعام، الآية: ٥٢. (*)

ص ٨٩

إلى الجهاد ليست نيته من تلك الهجرة إلا أخذ الغنائم من الأموال والسبايا أو نيل الصيت عند الاستيلاء، فبين (ص): أن كل أحد ينال في عمله ما يبغيه، ويصل إلى ما ينويه، كائنا ما كان، دنيويا كان أو أخرويا وهذا الخبر مما يعده المحدثون من المتواترات وهو

أول ما يعلمونه أولادهم، وكانوا يقولون: إنه نصف العلم. وقال (ص): (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، وأنما ينظر إلى القلوب لأنها مظنة النية). وقال (ص): (إن العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختتمة، فتلقى بين يدي الله - تعالى -، فيقول: ألقوا هذه الصحيفة، فإنه لم يرد بما فيها وجهي، ثم ينادي الملائكة: اكتبوا له كذا وكذا، فيقولون: يا ربنا! إنه لم يعمل شيئا من ذلك، فيقول الله - تعالى -: إنه نواه) وقال (ص): (الناس أربعة: رجل آتاه الله - عز وجل - علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله، فيقول رجل: لو آتاني الله - تعالى - مثل ما آتاه لعملت كما يعمل، فهما في الآجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما، فهو يتخبط بجهله في ماله فيقول الرجل: لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملت كما يعمل، فهما في الوزر سواء، ألا ترى كيف شاركه بالنية في محاسن عمله ومساويه؟!) ولما خرج (ص) إلى غزوة تبوك، قال: (إن بالمدينة أقواما، ما قطعنا واديا، ولا وطأنا موطئا يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة، لا شاركونا في ذلك وهم في المدينة)، قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟! فقال (حسبهم العذر، فشاركونا بحسن النية). وفي الخبر: (أن رجلا من المسلمين قتل في سبيل الله بأيدي الكفار، وكان يدعي بين المسلمين قتيل الحمار، لأنه قاتل رجلا من الكافرين نية أن يأخذ حمارة وسلبه، فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته.
وهاجر رجل إلى الجهاد مع أصحاب النبي (ص)، وكانت نيته من المهاجرة أن يأخذ امرأة كانت في عساكر الكفار ويتزوجها - وتسمى أم قيس - فأشتهر هذا الرجل عند أصحاب النبي بمهاجر أم قيس). وفي أخبار كثيرة: (من هم بحسنة ولم يعملها كتب له حسنة) كما تقدم، وقد ورد: أنه إذا التقى المسلمان

ص ٩٠

بسيفهما، فالقاتل في النار، وكذا المقتول، لأنه أراد قتل صاحبه. وقال - صلى الله عليه وآله -: (إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم: فلا يقاتل للدنيا، لأن يقاتل حمية، فلا يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا قتل فلان في سبيل الله إلا لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا) وقال (ص): (من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان، ومن استدان دينا وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق، ومن تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة (٥٠)، وكل ذلك مجازات على حساب النية. وقال الصادق (ع): (إن العبد المؤمن الفقير ليقول: يا رب! أرزقني حتى أفعل كذا وكذا من البر ووجوه الخير، فإذا علم الله - عز وجل - ذلك منه بصدق النية كتب له من الأجر مثلما يكتب له لو عمله، إن الله واسع كريم،). وسئل (ع) عن حد العبادة التي إذا فعلها فاعلها كان مؤديا، فقال: (حسن النية بالطاعة). وقال (ع): (وإنما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله - تعالى - أبدا، وأنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبدا، فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء، ثم تلا قوله - تعالى -: (قل كل يعمل على شاكلته) (١).
قال: على نيته) (٢) وأمثال هذه الأخبار أكثر من أن تحصى، وأي شبهة في أن عماد الأعمال النيات، والعمل مفتقر إلى النية ليصير خيرا، والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل، وعون الله - تعالى - للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له، وإن نقصت نقص بقدره، فرب عمل صغير تعظمه، النية، ورب عمل كبير تصغره النية وكذلك كان السلف يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل، ونقل: (أن بعض المرتدين يطوف على العلماء ويقول: من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملا لله - تعالى -، فإني لا أحب أن

(هامش)

(٥٠) صححنا النبويات كلها على إحياء العلوم: ٤ / ٣١٠، ٣١١، ٣١٧، باب فضيلة النية. (١) الإسراء الآية: ٨٤. (٢) صححنا الأخبار كلها على أصول الكافي - الجزء الثاني، باب النية -. (*)

ص ٩١

تأتي علي ساعة من ليل أو نهار ألا وأنا عامل من عمال الله - تعالى -. فقال له بعض العلماء: أنت قد وجدت حاجتك، فاعمل الخير ما استطعت، فإذا فترت أو تركته فهم بعمله، إذ من هم بعمل الخير كمن يعمل به). ثم السر في مجازاة الأعمال على حسب النية، وكون النية حقيقة العمل وعمادا وروحا له: إن العمل من حيث هو عمل لا فائدة فيه، وإنما فائدته للأثر الذي يصل منه إلى النفس من النورانية والصفاء ولا يزال يتكرر وصول هذا الأثر من الأعمال إليها حتى تحصل لها غاية الضياء والصفاء، فيحصل لها التجرد التام

ويخرط في سلك الملائكة، ولا ريب في أن وصول هذا الأثر من الأعمال إنما هو مع صحة النية وخلوصها، وكونها لله - سبحانه - من دون شوب الأغراض، بل التأمل يعطي أن هذا الأثر إنما هو حقيقة من محض النية، وإن كانت حادثة لأجل العمل.

فصل عبادة الأحرار والاجراء والعبيد up

قد ظهر مما ذكر: أنه لا يحسب من عبادة الله ولا يعد من طاعة الله بحيث يترتب عليه الأجر في الآخرة إلا ما يراد التقرب إلى الله والدار الآخرة أي يراد به وجه الله من حيث هو، من دون غرض آخر من الأغراض الدنيوية، أو يراد به التوصل إلى ثوابه، أو الخلاص من عقابه، فمن أراد بعبادته محض وجه الله وأخلصها له لكونه أهلا للعبادة، ولمحبته له لما عرفه بجلاله وجماله وعظمته ولطف فعاله، فأحبه واشتاق إليه، ولا يريد سواه ولا يبتهج بغير حبه وأنسه والاستغراق في لجة شهوده، فيفرح بعبادته وتوجيه قلبه إليه بطاعته: فجزاءه أن يحبه الله ويجتبيه، ويقربه إلى نفسه وبدنه قربا معنويا ودنوا روحانيا، كما قال في حق بعض من هذا صفته: (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) (٣). وإلى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين (ع) بقوله: (إلهي ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا في جنتك، ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك).

(هامش)

(٣) ص، الآية: ٢٥، ٤٠. (*)

ص ٩٢

وأما من غرضه نيل الثواب والخلاص من العقاب، نظرا إلى أنه لم يعرف من الله سوى كونه إلها صانعا للعالم قادرا قاهرا عالما، وإن له جنة ينعم بها المطيعين، ونارا يعذب بها العاصين، فعبده ليفوز بجنته أو يتخلص من ناره: فجزاءه بمقتضى نيته أن يدخل جنته، وينجيه من ناره، لأن جزاء الأعمال حسب النيات، كما أخبر الله - تعالى - عنه في غير موضع من كتابه، فإن لكل امرء ما نوى، ولا تصغي إلى قول من ذهب إلى بطلان العبادة إذا قصد بفعلها الثواب أو الخلاص من العقاب زعما منه أن هذا القصد منافي للخلاص الذي هو أراد وجه الله وحده، أن من قصد ذلك أنما قصد جلب النفع إلى نفسه، ودفع الضرر عنها، لا وجه الله - سبحانه -، فإن هذا قول من لا معرفة له بحقائق التكاليف ومراتب الناس فيها، بل ولا معرفة له بمعنى النية وحقيقتها، فإن حقيقة النية عبارة من انبعاث النفس وميلها وتوجهها إلى ما فيه غرضها ومطلبها، إما عاجلا أو آجلا، لا مجرد قول الناوي عند العبادة: أفعل كذا قربة إلى الله، ومجرد تصور هذا القول بخاطره وملاحظته بقلبه وأن لم يكن لنفسه انبعاث إلى التقرب، هيهات هيهات! أنما هذا تحريك لسان وحديث نفس، وما ذلك إلا كقول الشبعان: أشتهي هذا الطعام، قاصدا حصول الاشتهاء، وهذا الانبعاث إذا لم يكن حاصلا للنفس لا يمكنها اختراعه واكتسابه لمجرد القول والتصور، وأكثر الناس تتعذر منهم العباد ابتغاء لوجه الله وتقربا إليه، لأنهم لا يعرفون من الله - تعالى - إلا المرجو والمخوف، فغاية مرتبتهم أن يتذكروا النار ويحذروا أنفسهم عقابا، ويتذكروا الجنة ويرغبوا أنفسهم ثوابها، وخصوصا من كان ملتفتا إلى الدنيا، فإنه قل ما تنبعث له داعية إلى فعل الخيرات لينال بها ثواب الآخرة، فضلا عن عبادته على نية أجلال الله - تعالى - لاستحقاقة الطاعة والعبودية، فإنه قل من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها، فلو كلف بها لكان تكليفا بما لا يطاق، وليس معنى الإخلاص في العبادة إلا

عدم كونها مشبوهة بشوائب الدنيا والحضور العاجلة للنفس، كمدح الناس، ونيل المال، والخلاص من النفقة لعتق العبد ونحو ذلك، وظاهر أنه لا تنافيه إرادة الجنة والخلاص من النار بما وعد في الآخرة، وإن

ص ٩٣

كان من جنس المألوف في الدنيا، ولو كان مثل هذه النيات مفسدة للعبادات لكان الترغيب والترهيب والوعد والوعيد عبثا، إذ كل ما وعد به الجنة وأوعد عليه النار مما رغب ووعد به ورهب وأوعد عليه، وما ورد في الترغيب والترهيب والوعد والوعيد من الآيات والأخبار أكثر من أن يحصى قال الله - سبحانه -: (ويدعوننا رغبا ورهبا) (٤). ثم كيف يمكن للعبد الضعيف الذليل المهين الذي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا شيئا مما ينفعه ويؤذيه، أن يستغني عن جلب النفع لنفسه أو دفع الضرر عنها من مولاه. ومن تأمل يجد أن القائل ببطلان العبادة بإحدى النيتين ترجع النية الصحيحة في عبادته إلى إحداهما وهو لا يشعر به. ومما يدل صريحا على ما ذكرناه قول الصادق (ع): (العباد ثلاثة: قوم عبدوا الله - عز وجل - خوفا، فتلك عبادة العبيد. وقوم عبدوا

الله - تبارك وتعالى - طلب الثواب، فتلك عبادة الأجراء. وقوم عبدوا الله - عز وجل - حبا له فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة) (٥). وهذا يدل على أن العبادة على الوجهين الأولين لا تخلو من فضل أيضا، فضلا عن أن تكون صحيحة.
نعم لا ريب في أن العبادة على الوجه الأخير لا نسبة لمنزلتها ودرجتها إلى درجة العبادة على الوجهين الأولين، فإن من تنعم بلقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم، يسخر ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى وجه الحور العين بالملتفت إلى الصور المصنوعة من الطين، وكما يسخر المتنعم بالنظر إلى وجه النساء الجميلة بالخنفساء التي تعرض عن النظر إلى وجوههن وتلتفت إلى صاحبتها وتألف بها، بل هذه أمثلة أوردناها من باب الاضطرار، إذ التفاوت بين جمال الحضرة الربوبية وجمال الحور العين أو النسوان الجميلة أعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين وبين جمال
(هامش)
الأنبياء، الآية: ٩٠. (٥) صححنا الرواية على أصول الكافي: الجزء الثاني، باب العبادة (*)
ص ٩٤
النسوان الجميلة والخنفساء، كيف والتفاوت في الثاني متناه وفي الأول غير متناه، وأي نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي؟
فصل نية المؤمن خير من العمل up
لما عرفت أن النية روح العمل وحقيقته، وتوقف نفع العمل عليها دون العكس، وكون الغرض الأصلي من العمل تأثير القلب بالميل إلى الله تعالى وتوقفه على النية، فهي خير من العمل، بمعنى أن العمل إذا حلل إلى جزئية يكون جزؤه القلبي - أعني النية - خيرا من جزئه الجسماني - أعني ما يصدر من الجوارح -، والثواب المترتب عليه أكثر من الثواب المترتب عليه، ولذا قال الله - سبحانه: (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) (٦). فإن المقصود من إراقة دم القربان ميل القلب عن حب الدنيا، وبذلها إيثارا لوجه الله، دون مجرد الدم واللحم، وميل القلب إنما يحصل عند جزم النية والهم، وإن عاق عن العمل عائق، (فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم)، والتقوى صفة القلب، ولذا ترى أن المجامع امرأته على قصد أنها غيرها آثم، بخلاف المجامع غيرها على أنها امرأته، ولذا ورد: أن من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى، وهو غاية الأعمال الحسنة، وإنما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيدا. وبما ذكر ظهر معنى الحديث المشهور: (نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله). وكل عامل يعمل على نيته. وحاصله: إن كل طاعة تتضمن نية وعملا، وكل منهما من جملة الخيرات، وله أثر في المقصود، وتكون النية خيرا من العمل وأثرها أكثر من أثره. والغرض: أن للمؤمن اختيارا في النية وفي العمل، فهما عملان، والنية من الجملة خيرهما، أي النية التي هي جزء من طاعته خير من عمله الذي هو جزؤها الآخر.
(هامش)
(٦) الحج، الآية: ٣٧. (*)
ص ٩٥
فإن قيل: ما ذكرت لا يفيد أزيد من أن العمل إذا كان مع النية يكون كل من العمل والنية خيرا وذا ثواب، وإذا كان بدونها لا يكون خيرا ولا يكون له ثواب، والمقصود كون النية خيرا من العمل في الصورة الأولى وكون ثوابها أعظم، ولم يظهر وجه الخيرية مما ذكرت. قلت: ذلك وإن ظهر إجمالا، إلا أنه لا بد لتوضيحه لتظهر جلية الحال، فنقول: الوجه في كون النية خيرا من العمل وراجحة عليه في الثواب: أنه لا ريب في أن المقصود من الطاعات شفاء النفس وسعادتها في الآخرة وتنعمها بلقاء الله - سبحانه -، والوصول إلى اللقاء موقوف على معرفة الله وحبه وأنسه، وهي موقوفة على دوام الفكر والذكر الموجبين لانقطاع النفس من شهوات الدنيا وتوجهها إلى الله - سبحانه -، فإذا حصل بمجرد المعرفة الحاصلة من الفكر ميل وتوجه إلى الله - تعالى - كان ضعيفا غير راسخ وإنما يترسخ ويتأكد بالمواظبة على أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح لأن بين النفس وبين الجوارح علاقة يتأثر لأجلها كل واحد منها عن الآخر، فيرى أن العضو إذا أصابته جراحة تتألم بها النفس، وإن النفس إذا تألمت بعلمها بموت عزيز أو بهجوم أمر مخوف تأثرت الأعضاء وارتعدت الفرائص، فالطاعات التي هي فعل الجوارح إنما شرعت للتوصل بها إلى صفة النفس - أعني التوجه والميل إلى الله سبحانه -، فالنفس هو الأصل المتبوع والأمير، والجوارح كالخدم والأتباع، وصفات القلب هي المقصود لذاتها، وأفعال الجوارح هي المطلوبة

بالعرض، لكونها مؤكدة وموجبة لرسوخ النفس - أعني الميل والنية والتوجه - ولا ريب في أن ما هو المقصود بالذات خير مما هو مقصود بالعرض، وثوابه أعظم من ثوابه.

ومن المعاني الصحيحة للحديث: إن المؤمن بمقتضى إيمانه ينوي خيرات كثيرة لا يوفق لعملها، إما لعدم تمكنه من الوصول إلى أسبابها، أو لعدم مساعدة الوقت على عملها، أو لممانعة رذيلة نفسانية عنها بعد الوصل إلى أسبابها، كالذي ينوي إن آتاه الله مالا ينفقه في سبيله، ثم لما آتاه يمنعه البخل عن الإنفاق، فهذا نيته خير من عمله، وأيضا المؤمن ينوي دائما أن

ص ٩٦

تقع عباداته على أحسن الوجوه، لأن إيمانه يقتضي ذلك، ثم إذا اشتغل بها لا يتيسر له ذلك، ولا يأتي بها كما يريد، فما ينويه دائما خير مما يعمل به في كل عبادة. وإلى هذا أشار الباقر (ع) حيث قال: (نية المؤمن خير من عمله وذلك لأنه ينوي الخير ما لا يدركه، ونية الكافر شر من عمله، وذلك لأن الكافر ينوي الشر ويأمل من الشر ما لا يدركه). وقيل للصادق (ع): سمعتك تقول: نية المؤمن خير من عمله، فكيف تكون النية خير من العمل؟ قال عليه السلام: (لأن العمل إنما كان رياء للمخلوقين، والنية خالصة لرب العالمين، فيعطي - عز وجل - على النية ما لا يعطي على العمل)، ثم قال: (إن العبد لينوي من نهاره أن يصلي بالليل فتغلبه عينه فينام، فيثبت الله له صلاته ويكتب نفسه تسبيحا ويجعل نومه صدقة). وبعض الأخبار المتقدمة يعضد ذلك ويؤكده أيضا. وقيل: معنى الحديث: (إن النية بمجردها خير من العمل بمجرده بلا نية). وفيه: إن العمل بدون النية لا يتصف بالخيرية أصلا، فلا معنى للترجيح في الخيرية، وقيل: سبب الترجيح: (إن النية سر لا يطلع عليه إلا الله، والعمل ظاهر، وفعل السر أفضل) وهذا وإن كان في نفسه صحيحا، إلا أنه ليس مرادا من الحديث، لأنه لو نوى أحد أن يذكر الله - تعالى - بقلبه أو يتفكر في مصالح المؤمنين، كانت نيته بمقتضى عموم الحديث خيرا من العمل الذي هو الذكر والتفكر مع اشتراك النية والعمل في السرية، وبداهة كون الذكر والتفكر خيرا من نيتهما.

فصل النية غير اختيارية up

النية غير داخلة تحت الاختيار، وذلك لما عرفت من أنها انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ملائم ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا أو آجلا، وهذا الميل إذا لم يكن حاصلا للنفس لم يكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإخطار بالبال والاجراء على اللسان، بل ذلك كقول الشبعان: نويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه، أو قول الفارغ: نويت أن أعشق فلانا وأحبه، فلا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه، إلا باكتساب أسبابه،

ص ٩٧

وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه، وأنما قد تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث، الموافق للنفس الملائم لها، وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه قصده نحوها، وذلك مما لا يقدر على اعتقاده دائما، وإذا أعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه، وذلك لا يمكن في كل وقت، والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها، تجتمع وتختلف ذلك بالأشخاص والأحوال والأعمال فإذا غلبت شهوة النكاح ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد لم يمكنه أن يتزوج على نية الولد، بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة، إذ النية إجابة الباعث، ولا باعث إلا الشهوة فكيف ينوي الولد، ولذا كان أهل السلوك من السلف كثيرا ما يمتنعون عن جملة من الطاعات إذا لم تحضرهم النية، وكانوا يقولون: ليس تحضرني نية، وذلك لعلمهم بأن النية روح الأعمال وقوامها، وإن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وسبب مقت لا سبب قرب وروي: (أنه أتى الصادق (ع) مولى له، فسلم عليه وجلس، فلما انصرف (ع) انصرف معه الرجل، فلما انتهى إلى باب داره دخل وترك الرجل فقال له ابنه إسماعيل يا أبة! ألا كنت عرضت عليه الدخول؟ فقال: لم يكن من شأني إدخاله، قال: فهو لم يكن يدخل، قال: يا بني! إني أكره أن يكتبني الله عراضا).

تتميم الطريق في تخليص النية up

الطريق في تخليص النية في الطاعات تقوية أيمانه بالشرع، وتقوية أيمانه بعظم ثواب الطاعات مع خلوص النية، وإذا قوي إيمانه فربما انبعث من نفسه رغبة إلى فعل الطاعة مع خلوص النية مثلا من لم تكن له نية الولد في النكاح بل كانت نيته فيه مجرد قضاء الشهوة فينبغي له أن يقوي أيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد (ص)، ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد، كثقل المؤونة

وطول المتعب وغيره، وإذا فعل ذلك انبعث من نفسه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب.
ص ٩٨
ومنها:
• الكراهة up
وهي نفرة الطبع عما لا يخلو عن إيلام وأتعاب، فإذا قويت سميت مقتا. وضدها الحب، وهو ميل الطبع إلى الشيء الملذ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقا. إعلم أن عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد أمور متناسبة مترتبة بعضها على بعض، وكذا أضدادها - أعني الشوق والنية والحب والأنس - أمور متناسبة يترتب بعضها على بعض، فنحن هنا نشير إجمالا إلى معانيها والفرق بينها، ثم نذكرها مفصلة على الترتيب. فنقول: قد عرفت أن الغفلة والنية ضدان، وهما عبارتان عن عدم انبعاث النفس وانبعاثها إلى ما فيه غرضها الملائم إما عاجلا أو آجلا، وأما عدم الرغبة والشوق فهما أيضا ضدان ومبدآن للغفلة والنية. بيان ذلك: إن معنى عدم الرغبة ظاهر، والشوق عبارة عن الرغبة إلى الشيء الذي لم يصل إليه وكان مفقودا عنه بوجه، فالشوق لا يخلو عن ألم المفارقة، ولو زالت المفارقة وحصل الوصال انتفى الشوق. ثم فرق الشوق عن النية ظاهر، فإن الشوق مجرد الرغبة إلى الشيء من دون اعتبار انبعاث النفس إلى طلبه في مفهومه، والنية هي الانبعاث المذكور، فالشوق مبدأ النية، والنية مترتبة عليه، وبذلك يظهر الفرق بين ضديهما أيضا - أعني عدم الرغبة والغفلة. وأما (الكراهة والحب): فقد عرفت أنهما عبارتان عن نفرة الطبع عن المؤلم، وعن ميله إلى الملذ، سواء انبعثت النفس عن طلبه أم لا، وبهذا يفترق الحب عن النية، فإن النية هي انبعاث النفس، وهو مغاير لمجرد الميل بل الميل منشأ للانبعاث، وسواء حصل الوصول إلى الملذ أم لا، وبهذا يفترق عن الشوق فإن الشوق يعتبر في مفهومه عدم الوصول، فالشوق والنية والإرادة لا ينفكان عن الحب والحب يكون مقارنا لهما البتة، فإذا حصل الوصول إلى المطلوب زال الشوق والإرادة وبقي الحب بدونهما. وبما ذكر يظهر الفرق بين الكراهة وبين عدم الرغبة والغفلة.
وأما (الأنس): فهو عبارة عن استبشار النفس بما يلاحظ من المطلوب المحبوب بعد الوصول واستحكامه ورسوخه والبعد عبارة عن عدم
ص ٩٩
الوصول إلى المحبوب أو الوصول إلى ما لا يستبشر ولا يبتهج بملاحظته، لعدم الرغبة إليه أو للتنفر عنه، فالحب منشأ الأنس، والأنس يترتب عليه وهو غاية المحبة فلا يخلو أنس عن المحبة والمحبة قد تكون بدونه، ثم المطلوب المحبوب قد يكون مطلوبا للقوة العاقلة، كالعلم بحقائق الأشياء، وقد يكون مطلوبا للقوة الغضبية، كالاستيلاء والغلبة، وقد يكون مطلوبا للقوة الشهوية كالمال والأزواج، وعلى كل تقدير تكون الأمور - أعني عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد - وأضدادها - أعني الشوق والإرادة والحب والأنس - متعلقة بتلك القوة، معدودة من رذائلها أو فضائلها. ثم المحبوب إن كان مما يستحسن حبه وطلبه شرعا وعقلا، كان ما يتعلق به من الشوق والإرادة والحب والأنس من الفضائل وأضدادها من الرذائل، إن كان مما يذم حبه وطلبه شرعا وعقلا كان بالعكس.
فصل الشوق up
- أفضل مراتب الشوق الشوق إلى الله - تعلق الحب بجميع القوى - أقسام الحب بحسب مباديه - لا محبوب حقيقة إلا الله - الشهود التام هو نهاية درجات العشق - سريان الحب في الموجودات - رد المنكرين لحب الله - معرفة الله أقوى سائر اللذات - تحقيق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه - الطريق إلى الرؤية واللقاء - تفاوت المؤمنين في محبة الله - الواجب أظهر الموجودات - علائم محبة الله - معنى حب الله لعبده - الحب في الله والبغض في الله - الوفاء في الحب - الأنس - الأنس قد يثمر الإدلال. قد تقدم تفصيل الكلام في النية والغفلة. * * * وأما الشوق، فنقول في بيانه: قد عرفت أن الشوق عبارة عن الميل والرغبة إلى الشيء عند غيبته، فإن الحاصل الحاضر لا يشتاق إليه، إذ الشوق طلب يسوق إلى نيل أمر، والموجود لا يطلب، فالشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه، فما لا يدرك أصلا لا يشتاق إليه، إذ لا يتصور أن يشتاق أحد إلى شخص لم يره ولم يسمع وصفه، وما أدرك بكماله لا يشتاق إليه أيضا، إذ المداوم لمشاهدة المحبوب والواصل إليه من
ص ١٠٠
جميع الوجوه لا يتصور أن يكون له شوق، فالشوق يختص تعلقه بما أدرك من وجه دون وجه، وهذا إنما يكون بأحد وجهين: (أحدهما)

أن يتضح الشيء اتضاحا ما، ولم يستكمل الوضوح، فاحتاج إلى استكماله فيكون الشوق إلى ما بقي من المطلوب مما لم يحصل. مثال ذلك: إن من غاب عنه معشوقه، وبقي في قلبه خياله، يشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية، ومن رأى معشوقه في ظلمة، بحيث لا تنكشف له حقيقة صورته، يشتاق إلى استكمال رؤيته بإشراق الضوء عليه، فلو رآه بتمام الرؤية انتفى الشوق، كما إنه لو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يعقل وجوده. (وثانيهما) أن يدرك بعض كمالات المحبوب، ووصل إليه، وعلم إجمالا أن له كمالات أخر، ولم يدركها ولم يصل إليها، فيكون له شوق إلى إدراك تلك الكمالات. مثال ذلك: أن يرى وجه محبوبه، ولا يرى شعره ولا سائر أعضائه، فيشتاق إلى رؤية ذلك.

فصل أفضل مراتب الشوق الشوق إلى الله up

أفضل مراتب الشوق هو الشوق إلى الله - سبحانه - وإلى لقائه، وهي المضنة إلى الوصول إليه، وإلى حبه وأنسه والتقرب لديه، وهو رأس مال السالكين، ومفتاح أبواب السعادة للطالبين، والوجهان الموجبان للشوق متصوران في حق الله، بل هما ثابتان وملازمان لجميع العارفين، فلا يخلو عارف من الشوق إلى الله: أما الوجه الأول، فلأن ما اتضح للعارفين مع الأمور الآلهية وأن بلغ غاية الوضوح، فكأنه من وراء ستر رقيق، فلا يكون متضحا غاية الاتضاح بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات المكدرة للمعلومات والمانعة عن ظهورها اليقيني، (لا) سيما إذا انضاف إليها شواغل الدنيا، فكمال الوضوح في الأمور الآلهية إنما هو بالمشاهدة وإشراق التجلي، ولا يكون ذلك في هذا العالم، بل يكون في الآخرة، فهذا أحد الموجبين لشوق العارفين إلى الله

ص ١٠١

- سبحانه - وهو الشوق إلى استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا ما. وأما الثاني، فلأن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما ينكشف لكل عارف، بعضها، وتبقى أمور متناهية خفية عنه، والعارف إجمالا وجودها وكونها معلومة لله - تعالى - ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر، فلا يزال متشوقا إلى أن يحصل له من المعلومات المتعلقة بعظمة الله وجلاله وصفاته وأفعاله بما لا يعرفها أصلا، لا مع الوضوح ولا مع الإبهام والاجمال.

والشوق الأول ربما انتهى في الآخرة إذا حصل الشهود واللقاء المعنوي لأجل استخلاص النفس من موانع الطبيعة وقشوراتها وحصول التجرد التام لها، وأما الشوق الثاني فلا يمكن أن ينتهي في الدنيا ولا في الآخرة، إذ نهاية ذلك أن ينكشف للعبد في الآخرة من عظمة الله وكبريائه وجلاله وصفاته وأحكامه وأفعاله ما هو معلوم لله - تعالى - وهو محال، إذ معلومات الله المتعلقة بذاته وصفاته وأفعاله غير متناهية قوة وشدة وعدة، فتمتنع إحاطة الإنسان بها، فلا يزال العبد عالما بأنه قد بقي من جلال الله وعظمته ومن صفته وفعله ما لم يتضح له، فلا يسكن قط شوقه وما من عبد إلا ويرى فوق درجته درجات كثيرة لا نهاية لها فيشتاق إليها ألبتة، وإذا كان أصل الوصال واللذة حاصلا، فربما كان الشوق إلى المراتب التي فوق مرتبتها شوقا لذيذا لا يظهر فيه ألم، وربما كانت لطائف الكشف والبهجة ودرجاتهما متوالية إلى غير نهاية وتحصل للعبد هذه الدرجات في الآخرة على التدريج، فلا يزال العبد يتصاعد ويترقى إليها، ولا يزال النعيم واللذة تتزايد له أبد الآباد من غير انقطاع له، وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلا له عن الاحساس بالشوق إلى ما لم يحصل له ألمه، فإن أمكن في الآخرة حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا، لكان حصول المعارف والابتهاجات والأنوار وتجددها في الآخرة ممكنا، وإن لم يكتسب أصلها في الدنيا فيتجدد ويتوارد على العبد في الآخرة على الدوام والاستمرار من دون أن ينتهي إلى حد. وربما كان قوله - تعالى -: (نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا) (٧): إشارة إلى هذا المعنى، ويكون المراد به إتمام النور في عين ما استنار

(هامش)

(٧) التحريم، الآية: ٨. (*)

ص ١٠٢

في الآخرة استنارة محتاجة إلى الظهور، ثم إلى زيادة الاستكمال والإشراق وأن أختص حصول نعم للآخرة وأنوارها وابتهاجاتها على النعم التي تزود من أصلها ولم يحصل للعبد ما لم يكتسب في الدنيا أصله من الأنوار والابتهاجات، فيكون ترقي العبد في الآخرة في

ازدياد الابتهاج والإشراق فيما حصل له أصله، وعلى هذا، فربما انتهى إلى حد ووقف هناك ولا يتضاعف، وقوله تعالى: (نورهم يسعى... إلى آخر الآية) يحتمل لهذا المعنى أيضا، بأن يكون المراد طلب إتمام نور تزود من الدنيا أصله. (قيل): وقوله تعالى: (أنظرونا نقتبس من نوركم قيل أرجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) (٨): يدل على أن الأنوار لا بد أن يتزود أصلها في الدنيا، ثم يزداد في الآخرة إشراقا، فأما أن يتجدد نور لم يكتسب أصله في الدنيا فلا.

ثم لا يخفى أن تعيين الأصل والفرع الأنوار والابتهاجات ومراتب الآخرة عندنا مشكل، وليس لنا طريق إلى القطع بأن أي شيء أصل لأي نور وبهجة، وربما كان المضنون عندنا: إن أصل كل نور وسعادة وبهجة هو اليقين القطعي الإجمالي بأن الواجب سبحانه في غاية العظمة والجلال والقدرة والكمال، وأنه تام فوق التمام، وكل ما سواه من المهيات الموجودة صادرة عنه على أشرف أنحاء الصدور وأقواها وأدلها على العظمة، وأنه لا موجود ولا شيء إلا الواجب وصفاته وأفعاله، وإن ذاته الأقدس ذات لا يمكن أن يكون لذهن من الأذهان العالية، ولا لمدرك من المدارك المتعالية عقلا كان أو نفسا أو غيرهما، لو أمكن أن يكون مدركا، أن يدرك في لحاظ التعقل ذاتا يمكن أن تكون فوقه أو مثله، بل كلما تصور أجمالا فهو فوقه، وكذا صفاته الكمالية وأفعاله، وأن صفاته الكمالية: من عظمته، وجلاله، وقدرته، وجماله، وعلمه، وحكمته، وغير ذلك غير متناهية، وليس لها حد وغاية، وما تعلق به علمه من مخلوقاته لا نهاية له كثرة وقوة وكمالا، وأن له من المراتب الغير متناهية من العظمة والجلال ما لا يطيق أشرف الموجودات وأقواها لإدراك أولها، فمن عرف ذلك وتيقن به، وعلم

(هامش)

(٨) الحديد، الآية: ١٣. (*)

ص ١٠٣

إن هذا العالم وما فيه لا نسبة له إلى عالم الآخرة وما فيه ، وأن ألطافه ومزاياه إلى عباده الذين عرفوا نسبتهم إليه ، وتيقنوا بأن لا شرافة ولا كمال للنفوس والعقول فوق معرفة ربهم والتقرب إليهم والوصول إلى حبه وأنسبه ، فقد وصل إلى أصل كل سعادة ونور وبهجة ، لا سيما إذا دفع عن نفسه ذمائم الأخلاق واتصف بفضائله . وقد ظهر مما ذكر : أنه لا ريب في ثبوت الشوق للعباد إلى الله سبحانه . والعجب ممن أنكر حقيقة الشوق إلى الله سبحانه لإنكاره المحبة له كما يأتي ، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى المحبوب ، وقد عرفت ثبوته من حيث النظر والاعتبار . ولا ريب في ثبوته أيضا من الآيات والأخبار : قال الله سبحانه : ( فمن كان يرجو لقاء ربه . . . ) إلى آخر الآية ( ٩ ) . فإن الرجاء لا ينفك عن الشوق . وقال رسول الله ( ص ) في دعاءه : ( اللهم إني أسئلك الرضاء بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت . ولذة النظر إلى وجهك الكريم ، وشوقا إلى لقائك ) . وفي بعض الكتب السماوية : ( طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم لأشد شوقا ) . وفي أخبار داود ( ع ) : ( إني خلقت قلوب المشتاقين من نوري ، ونعمتها بجلالي ) . وفيها أيضا : ( أنه تعالى أوحى إلى داود : يا داود ! إلى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق إلي ؟ قال : يا رب ! من المشتاقون إليك ؟ قال : أن المشتاقين إلي الذين صفيتهم من كل كدر ، ونبهتهم بالحذر ، وخرقت من قلوبهم إلي خرقا ينظرون إلي ، وإني لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي ، ثم أدعو بملائكتي ، فإذا اجتمعوا سجدوني ، فأقول : إني لم أجمعكم لتسجدوني ، ولكن دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلي ، وأباهي بهم إياكم ، فإن قلوبهم لتضئ في سمائي لملائكتي كما تضئ الشمس لأهل الأرض ، يا داود ! إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ، ونعمتها بنور وجهي فاتخذتهم لنفسي محدثين ، وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض ، وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلي ، يزدادون في كل يوم شوقا ) . وأوحى الله إليه أيضا : ( يا داود ! لو يعلم المدبرون عني كيف

(هامش)

( ٩ ) الكهف ، الآية : ١١١ . ( * )

ص ١٠٤

انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم ، لماتوا شوقا إلي ، وتقطعت أوصالهم عن محبتي ) . وفي بعض الأخبار القدسية : ( إن لي عبادا يحبونني وأحبهم ، ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم ، ويذكرونني وأذكرهم وأول ما أعطيتهم أن أقذف من نوري في قلوبهم

، فيخبرون عني كما أخبر عنهم ، ولو كانت السماوات والأرض وما فيهما في موازينهم لاستعد بها لهم ، وأقبل بوجهي عليهم ، لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه ) . وقال الصادق عليه السلام : ( المشتاق لا يشتهي طعاما ، ولا يلتذ شرابا ، ولا يستطيب رقادا ، ولا يأنس حميا ، ولا يأوي دارا ، ولا يسكن عمرانا ، ولا يلبس ثيابا ، ولا يقر قرار ، ويعبد الله ليلا ونهارا راجيا بأن يصل إلى ما يشتاق إليه ، ويناجيه بلسان الشوق معبرا عما في سريرته ، كما أخبر الله تعالى عن موسى بن عمران في ميعاد ربه بقوله : ( وعجلت إليك رب لترضى ) ، وفسر النبي ( ص ) عن حاله : ( إنه ما أكل ولا شرب ولا نام ، ولا اشتهى شيئا من ذلك في ذهابه ومجيئه أربعين يوما شوقا إلى ربه ) ، فإذا دخلت ميدان الشوق ، فكبر على نفسك ومرادك من الدنيا ، وودع جميع المألوفات ، واصرفه عن سوى مشوقك ، ولب بين حياتك وموتك : لبيك اللهم لبيك ! أعظم الله أجرك ، ومثل المشتاق مثل الغريق ، ليس له همة إلا خلاصه ، وقد نسي كل شئ دونه ) ( ١٠ ) . وما ورد في الأدعية المعصومية من طلب الشوق أكثر من أن يحصى ، والظواهر الآتية المثبتة للمحبة والأنس تثبت الشوق أيضا . وأما ( الكراهة والبغض وضدهما أعني الحب ) فنقول : قد عرفت أن الكراهة والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، والحب الذي هو ضدهما عبارة عن ميل الطبع إلى الملائم الملذ . وتوضيح ذلك : أنه لا يتصور حب إلا بعد معرفة وإدراك ، وكذلك لا يتصف بالحب جماد ولا يحب الإنسان ما لا يعرفه ولم يدركه ، فالحب من خاصية الحي الدراك ، بعد حصول الإدراك بالفعل .

ثم لما كانت المدركات منقسمة إلى ما يوافق طبع المدرك ويلذه ، وإلى

(هامش)

( ١٠ ) صححنا الحديث على مصباح الشريعة : باب ٩٩ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ . ( * )

ص ١٠٥

ما يخالفه ويؤلمه ، وإلى ما لا يؤثر فيه بالذاذ وإيلام ، فالقسم الأول يكون مرغوبا عند المدرك ، ويسمى رغبة ، وميله إليه حبا ، والقسم الثاني يكون منفورا عنده ، وتسمى نفرته عنه كراهة وبغضا ، والثالث لا يوصف بميل وكراهة ، فلا يوصف بكونه محبوبا ، ولا مكروها . ثم اللذة لما كانت عبارة عن إدراك الملائم الملذ ونيله ، فالحب الذي هو الميل والرغبة إليه لا يخلو عن لذة محققة أو خيالية ، وعلى هذا فيمكن أن تعرف المحبة بأنها ابتهاج النفس بإدراك الملائم ونيله ، هذا فإنك قد عرفت أن المدرك إن كان مما يستحسن حبه شرعا وعقلا ، كان كراهته وبغضه من الرذائل وحبه من الفضائل وإن كان مما يذم حبه ، كان بالعكس من ذلك .

فصل تعلق الحب بجميع القوى up

والحب والكراهة لما كانا تابعين للادراك ، فينقسمان بحسب انقسام القوة المدركة ، التي هي الحواس الظاهرة ، والحواس الباطنة ، والقوة العاقلة . فمن الحب ما يتعلق بالحواس الظاهرة ، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها ، كالصور الجميلة المرئية ، والنغمات الموزونة ، والروائح الطيبة ، والمطاعم النفيسة ، والملبوسات اللينة بالنظر إلى الخمس الظاهرة . ومنه ما يتعلق بالحواس الباطنة ، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها ، كالصور الملائمة الخيالية ، والمعاني الجزئية الملائمة بالنسبة إلى المتخيلة والواهمة . ومنه ما يتعلق بالعاقلة ، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها ، كالمعاني الكلية ، والذوات المجردة . ولا ريب في أن العقلي من الحب واللذات أقوى اللذات وأبلغها ، إذ البصيرة الباطنة أقوى من البصيرة الظاهرة والعقل أقوى إدراكا وأشد غوصا ونفوذا في حقائق الأشياء وبواطنها من الحس ، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصورة الظاهرة الحسنة ، فتكون لذة العقل وحبه بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي جلت عن إدراك الحواس أتم وأبلغ ، ولذا جعل رسول الله ( ص ) الصلاة أبلغ المحبوبات عنده في الدنيا ، حيث قال : ( حبب إلي من دنياكم ثلاث : ج : ٣

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

## ٣٠٦ جامع السعادات (ج3)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ١٠٦

الطيب ، والنساء ، وجعلت قرة عيني في الصلاة ) ، فإن الالتذاذ بالصلاة لذة عقلية ، كما أن الالتذاذ بالطيب لذة شمية ، وبالنساء نظرية ولمسية . فإن قيل : حقيقة الإنسان نفسه الناطقة ، ولها ثلاث قوى ، وهي : العاقلة ، الشهوية ، والغضبية ، وقوى أخرى هي : الحواس الظاهرة والحواس الباطنة ، وشأن العاقلة - كما ذكرت - إدراك المعاني الكلية ، والحقائق المجردة ، وشأن الحواس الظاهرة إدراك المبصرات والمسموعات والمشمومات والمذوقات والملموسات ، وشأن الحواس الباطنة إدراك المعاني الجزئية ، والصور المدركة بالحواس الظاهرة وضبطها ، ومن جملة ما يدرك بالحواس ما يتعلق بقوتي الغضب والشهوة ، من الغلبة والاستيلاء والوصول إلى المناكح والمطاعم وضدهما ، فالمحب لهذه المدركات والملتذ بها ماذا من النفس وقواها المذكورة ، وهل المحب والملتذ هو المدرك بعينه أو غيره ؟ قلنا : المحب والملتذ أولا في كل من هذه المدركات هو المدرك ، وثانيا واسطة النفس ، إذ كل أدراك يتعلق بإحدى القوى ، ليصل بالآخرة إلى النفس ، فيحدث فيها ما يقتضيه من اللذة والألم ، إلا أن ما يدرك بالحواس مما يتعلق بقوتي الشهوة والغضب لا بد أن يصل إليهما أيضا ، فيحصل لهما اللذة أو الألم ، وبواسطتهما يصل إلى النفس ، فالمدرك أولا للغلبة أو العجز هو الوهم ، فيلتذ أو يتألم ، ثم يصل منه أثر الإدراك والالتذاذ والألم إلى القوة الغضبية ويصل منها الأثر إلى النفس فيلتذ أو يتألم ، والمدرك للطعم والريح واللين والنعومة هي الذائقة والشامة واللامسة فالالتذاذ والتألم لها أولا وبواسطتها للقوة الشهوية ، وهذا إن كانت الشهوية قوة على حدة سوى الذائقة والشامة واللامسة وسائر الحواس الظاهرة ، وإن كانت معنى جنسيا شاملا لجميعها فالأمر ظاهر . وبما ذكر ظهر وجه تعلق الحب بجميع القوى .

فصل أقسام الحب بحسب مباديه up

إعلم أن أسباب الحب ومباديها لما كانت متعددة مختلفة فينقسم الحب لأجلها على أقسام :

ص ١٠٧

الأول - حب الإنسان وجود نفسه وبقاءه وكماله ، وهو أشد أقسام الحب وأقواها ، لأن المحبة أنما تكون بقدر الملاءمة والمعرفة ، ولا شئ أشد ملائمة لأحد من نفسه ، ولا هو بشئ أقوى معرفة منه بنفسه ، ولهذا جعلت معرفة نفسه مفتاحا لمعرفة ربه ( ١١ ) . وكيف لا يكون حب الشئ لذاته أقوى المراتب ، مع أن الحب كلما صار أشد جعل الاتحاد بين المحب والمحبوب أوكد وأبلغ ؟ وأي اتحاد أشد من الوحدة ورفع الإثنينية بالمرة ، كما بين الشئ ونفسه ، فالمحب والمحبوب واحد ، وسبب الحب غريزة فيه الطباع بحكم سنة الله : ( ولن تجد لسنة الله تبديلا ) ( ١٢ ) . ومعنى حبه لنفسه كونه محبا لدوام وجوده ، ومكرها لعدمه وهلاكه فالبقاء ودوام الوجود محبوب ، والعدم ممقوت ، ولذا يبغض كل أحد الموت لا بمجرد ما يخافه بعده ، أو لمجرد ما يلزمه من سكراته ، بل لظنه أنه يوجب انعدام كله أو بعضه ، ولذا لو اختطف من غير ألم وتعب ، وأميت من غير ثواب وعقاب ، كان كارها لذلك وكما أن دوام الوجود محبوب فكذلك كمال الوجود محبوب ، لأن فاقد الكمال ناقص ، والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود ، فالوجود محبوب في أصل الذات وبقائه وفي صفات كماله ، والعدم ممقوت فيها جميعا . والتحقيق : أن المحبوب ليس إلا الوجود ، والمبغوض ليس إلا العدم ، وجميع الصفات الكمالية راجعة إلى الوجود ، وجميع النقائص راجعة إلى العدم ، إلا أن كل فرد من الموجود لما كان له نحو خاص من الوجود ، وكانت تمامية نحو وجوده بوجود بعض الصفات الكمالية التي هي من مراتب الموجودات ، فكان وجوده مركب من وجودات متعددة ، فإذا فقد بعضها فكأنه فاقد لبعض أجزاء وجوده ، وبذلك يظهر : أن الموجود كلما كان أقوى وكان نحو وجوده أتم ، كان أجمع لمراتب الوجودات في القوة والشدة

(هامش)

(

١١ ) كما قال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام : ( من عرف نفسه فقد عرف ربه ) . ( ١٢ ) الأحزاب ، الآية : ٦٢ . الفتح ، الآية : ٢٣ . ( * )

ص ١٠٨

والعدة وكانت صفاته الكمالية أقوى وأكثر ، لكونها من مراتب الوجودات فالوجود الواجبي الذي هو التام فوق التمام والقائم بنفسه المقوم لغيره ينطوي في جميع الوجودات ، ويكون محيطا بالكل ، ثم محبة الأولاد من التحقيق يرجع إلى هذا القسم ، لأن الرجل إنما يحب ولده ويتحمل المشاق لأجله ، وأن لم يصل منه إليه نفع وحظ ، لعلمه بأنه خليفته في الوجود بعد عدمه ، فكأن بقاءه نوع بقاء له

، فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وبمنزلة جزء منه ، لما عجز من الطمع في بقاء نفسه ، ولعدم كون بقائه هو بقاؤه بعينه يكون بقاء نفسه أحب إليه من بقاء ولده لو كان طبعه باقيا على اعتداله ، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه ، فإنه يرى نفسه كبيرا قويا لأجلهم ، متجملا بسببهم ، إذ العشيرة كالجناح المكمل للانسان ( ١٣ ) . والثاني - حبه لغيره لأجل أنه يلتذ من لذة حيوانية كحب كل من الرجل والمرأة للآخر لأجل الجماع ، وحب الإنسان المأكولات والملبوسات ، والسبب الجامع في هذا القسم هو اللذة ، وهو سريع الحصول وسريع ، الزوال ، وأضعف المراتب ، لخساسة سببه وسرعة زواله . الثالث - حبه للغير لأجل نفعه وإحسانه ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها ، ولذا قال رسول الله ( ص ) : ( اللهم لا تجعل لفاجر علي يدا فيحبه قلبي ) . فالسبب الجامع في هذا القسم هو النفع والاحسان ، وهذان القسمان عند التحقيق يرجعان إلى القسم الأول ، لأن المحسن من أمد بالمال المعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود ، وسبب اللذة باعث لحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود .

والفرق أن الأعضاء ، والصحة ، والعلم ، والطعام ، والشراب ، والجماع : محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال ، وأما الطبيب (هامش)

( ١٣ ) كما قال أمير المؤمنين - عليه الصلاة والسلام - في جملة ما أوصى به ولده الإمام المجتبى - عليهما الصلاة السلام : ( وأكرم عشيرتك ) فإنهم جناحك الذي تطير به ، وأصلك الذي إليه تصير ، ويدك التي بها تصول ) نهج البلاغة : ٣ / ٦٣ ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة . ( * )

ص ١٠٩

الذي هو سبب الصحة، والعالم الذي هو سبب العلم، ومعطي الطعام والشراب والمرأة التي هي آلة الوقاع: محبوبة لا لذواتها، بل من حيث أنها وسائل إلى ما هو محبوب لذاته، فإذن يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة، والكل يرجع إلى محبة الإنسان نفسه، فمن أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاته تحقيقا، بل أحب إحسانه، ولو زال إحسانه زال حبه مع بقاء ذاته، ولو نقص نقص الحب، ولو زاد زاد. وبالجملة: يتطرق إلى حبه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه. الرابع - أن يحب الشيء لذاته، لا لحظ يناله منه وراء ذاته، بل تكون ذاته عين حظه، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق به، وذلك كحب الجمال والحسن، فإن كل جمال محبوب عند مدركه، وذلك لعين الجمال، لأن إدراك الجمال عين اللذة، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها. ولا تظن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة، فإن قضاء الشهوة لذة حيوانية، وقد يحب الإنسان الصور الجميلة لأجلها، وإدراك نفس الجمال لذة أخرى روحانية يكون محبوبا لذاتها، ولا ريب في أن حب الصور الجميلة بالجهة الأولى مذموم، وبالجهة الثانية ممدوح، والعشق الذي يقع لبعض الناس من استحسان الصور الجميلة يكون مذموما أن كان سببه اللذة الشهوية الحيوانية، ويكون ممدوحا أن كان سببه الابتهاج بمجرد أدراك الجمال، ولأجل التباس السبب في هذا العشق أختلف العقلاء في مدحه وذمه، وكيف ينكر حب الصور الجميلة لنفس جمالها من دون قصد حظ آخر، مع أن الخضرة والماء الجاري محبوبان لا لتؤكل الخضرة ويشرب الماء، أو ينال منهما حظ سوى نفس الرؤية، وقد كان رسول الله (ص) تعجبه الخضرة والماء الجاري والطباع الصافية السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النفس المناسبة الشكل، حتى الإنسان لتتفرج عنه الغموم بمجرد النظر إليها من دون قصد حظ آخر منها.

وبما ذكرناه ظهر ضعف ظن بعض ضعفاء العقول، حيث زعموا أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته، ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته، ولم يعلموا أن الحسن والجمال

ص ١١٠

ليس مقصورا على مدركات البصر، ولا على تناسب الخلقة، إذ يقال: هذا صوت حسن، وهذا طعم حسن، وهذا ريح طيب، وليس شيء من هذه الصفات مدركة بالبصر، وكذا ليس الحسن والجمال مقصورا على مدركات الحواس لوجودهما في غيرها، فإن أكثر خصال الخير يدرك بالعقل بنور البصيرة الباطنة، إذ يقال: هذا خلق حسن، وهذا علم حسن. وهذه سيرة حسنة، ولا يدرك شيء من هذه الصفاة بالحواس، بل يدرك بالبصيرة الباطنة، وكل هذه الخصال المدركة حسنها بالعقل محبوبة بالطبع، والموصوف بها أيضا محبوب عند من عرف صفاته. ومما يدل على تحقق الجمال المدرك بالعقل وكونه محبوبا: أن الطباع السليمة مجبولة على حب الأنبياء والأئمة - عليهم

السلام - مع أنهم لم يشاهدوهم، حتى أن الرجل قد تجاوز حبه لصاحبه مذهبه حد العشق، فيحمله ذلك على أن ينفق جميع أمواله في نصرة مذهبه والذب عنه، ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في أمامه أو متبوعه، مع أنه لم يشاهد قط صورته ولم يسمع كلامه، فما حمله على الحب هو استحسانه بصفاتها الباطنة: من الورع، والتقوى، والتوكل، والرضا، وغزارة العلم، والإحاطة لمدارك الدين، وانتهاضه لإفاضة علم الشرع، ونشره هذه الخيرات في العالم، وجملتها ترجع إلى العلم والقدرة، إذ جميع الفضائل لا تخرج عن معرفة حقائق الأمور والقدرة على حمل نفسه عليها بقهر الشهوات، وهما - أعني العلم والقدرة - غير مدركين بالحواس، مع أنهما محبوبان بالطبع.

ومن الشواهد على المطلوب: أن الناس لما وصفوا (حاتما) بالسخاء و(انوشيروان) بالعدالة، أحبتهما القلوب حبا ضروريا، من دون نظرهم إلى صورهما المحسوسة، ومن غير حظ ينالونه منهما، بل كل من حكي عنه بعض خصال الخير وصفات الكمال غلب على القلوب حبه، مع عدم مشاهدته ويأس المحبين من انتشار خيره وإحسانه إليهم، ومن كانت بصيرته الباطنة أقوى من حواسه الظاهرة، ونور العقل أغلب عليه من آثار الحواس الحيوانية، كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة، فشتان بين من يحب نقشا على الحائط لجمال صورته الظاهرة، وبين من يحب سيد الرسل (ص) لجمال صورته

ص ١١١

الباطنة. الخامس - محبته لمن بينه وبينه مناسبة خفية، أو مجانسة معنوية، فرب شخصين تتأكد المحبة بينهما من غير ملاحظة جمال، ولا طمع في جاه ومال، بل بمجرد تناسب الأرواح، كما قال النبي (ص): الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها أختلف). السادس - محبته لمن حصل بينه وبينه الألف والاجتماع في بعض المواضع لا سيما إذا كان من المواضع الغريبة، كالسفن والأسفار البعيدة. والسبب فيه: كون أفراد الإنسان مجبولة على المؤانسة مع التلاقي والاجتماع، ولكون المؤانسة مركوزة في طبيعة الإنسان سمي إنسانا، فهو مشتق من الأنس دون النسيان - كما ظن -، والمؤانسة لا تنفك عن المحبة، وربما كان حصول المؤانسة والحب بين أهل البلد، أو بينهم وبين أهل القرى، وبين أهل البلاد المتباعدة والمواضع المختلفة، من جملة أسرار الأمر بالجمعة والجماعة، وصلاة العيدين، والحج الباعث لاجتماع عموم الخلائق في موقف واحد. السابع - محبته لمن يشاركه في وصف ظاهر، كميل الصبي إلى الصبي لصباه، والشيخ إلى الشيخ لشيخوخته، والتاجر إلى التاجر لتجارته وهكذا.. فإن كل شخص مائل إلى من يشاركه في وصفه وصنعته وشغله وحرفته، والسبب الجامع فيه هو الاشتراك في الوصف والصنعة. الثامن - حب كل سبب وعلة لمسببه ومعلوله وبالعكس، فإن المعلول لما كان مثالا من العلة، ومترشحا عنها ومنبجسا منها، ومناسبا لها لكونه من سنخها، فالعلة تحبه لأنه فرعها وبمنزلة بعض أجزائها التي كانت منطوية فيها، والمعلول يحبها لأنها أصله وبمنزلة كله الذي كان محتويا عليه، فكان كل منهما في حبه للآخر يحب نفسه. ثم السبب أن كان علة حقيقة موجودة، تكون سببية أقوى في حصول المحبة والاتحاد مما إذا كان علة معدة.

فأقوى أقسام المحبة ما يكون للواجب - سبحانه - بالنسبة إلى عباده، وبعد ذلك لا محبة أقوى من محبة العباد العارفين بالنسبة إليه - سبحانه فإن محبتهم له من حيث كونه موجودا مخرجا لهم من العدم الصرف إلى الوجود ومعطيا لهم ما احتاجوا إليه في النشأتين

ص ١١٢

ومن حيث أنه - تعالى - تام فوق التمام في الذات والصفات الكمالية، والنفس بذاتها مشتاقة إلى الكمال المطلق، وهذه المحبة فرع المحبة ولا تحصل بدونها، ولذا قال سيد الرسل (ص): (ما اتخذ الله وليا جاهلا قط). وحب الأب لابنه وبالعكس نسبة هذا القسم، من حيث أن الأب سبب ظاهر لوجود الابن، وإن لم يكن سببا حقيقيا، بل علة معدة له، فيحبه لأنه يراه بمنزلة نفسه، ويظنه مثالا من ذاته، ونسخة نقلتها الطبيعة من صورته ويعد وجوده بعده بمنزلة البقاء الثاني لنفسه، فيظنه أنه جزؤه وفي الخلق والخلق مثله، وكذا كل ما يريد لنفسه من الكمالات يريد أفضله له ويفرح بترجيحه عليه، وتفضيله عليه عنده بمثابة أن يقال: إنه في الآن أفضل من السابق، ومما يؤكد محبته له: إنه يرجو منه إنجاح مقاصده ومطالبه في حياته ومماته، وليست محبة الابن للأب كمحبة الأب للابن، بل هو أضعف، لفقد بعض الأسباب الباعثة له، ولذا أمر الأولاد في الشريعة بحب الآباء دون العكس، وكذا المحبة التي بين المعلم والمتعلم من هذا القسم، لأن المعلم كالسبب القريب للحياة الروحاني للمتعلم وإفاضة الصورة الإنسانية عليه، كما إن الأب كالسبب لحياته الجسمانية ورتبته الصورية، فهو والد روحاني له، وبقدر شرافة الروح على الجسم يكون المعلم أشرف من الأب وعلى هذا ينبغي أن تكون محبة المعلم أدون من محبة الموجد الحقيقي وأكثر من محبة الأب، وقد ورد في الحديث: (إن آبائك ثلاثة: من ولدك، ومن علمك، ومن زوجك،

وخير الآباء من علمك). وسئل عن ذي القرنين: أن أباك أحب إليك أم معلمك؟ قال: (معلمي أحب إلي، لأنه سبب لحياتي الباقية، وأبي سبب لحياتي الفانية).

وقال أمير المؤمنين (ع): (من علمني حرفا فقد صيرني عبدا). وعلى هذا ينبغي أن يكون حب النبي (ص) وأوصياؤه الراشدين - عليهم السلام - أوكد من جميع أقسام الحب بعد محبة الله - سبحانه -، لأنه المعلم الحقيقي والمكمل الأول، ولذا قال (ص) (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وولده). التاسع - محبة المتشاركين في سبب واحد بعضهم لبعض، كمحبة

ص ١١٣

الأخوان والأقارب. وكلما كان السبب أقرب كانت المحبة أوكد، ولذا تكون محبة الأخوين أشد من محبة أبناء الأعمام مثلا، ومن عرف الله وانتساب الكل إليه، وبلغ مقام التوحيد، وعرف النسبة والربط الخاص الذي بين الله وبين مخلوقاته، يحب جميع الموجودات من حيث اشتراكه معها في الموجد الحقيقي. ثم قد يجتمع بعض أسباب المحبة أو أكثرها في شخص واحد، فيتضاعف الحب، كما لو كان لرجل ولد جميل الصورة، حسن الخلق، كامل العلم، حسن التدبير، محسن إلى والده وإلى الخلق كان حب والده له في غاية الشدة، لاجتماع أكثر أسباب الحب فيه، وربما أحب شخصا آخر لوجود بعض أسباب الحب فيه من دون عكس، لعدم تحقق سبب من أسباب الحب فيه، وقد تختلف فيهما أسباب الحب، فيحب كل منهما الآخر من جهة، وتكون قوة الحب بقدر قوة السبب، فكلما كان السبب أكثر وأقوى كان الحب أشد وأوكد.

فصل لا محبوب حقيقة إلا الله up

إعلم أنه لا مستحق للحب غير الله - سبحانه -، ولا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا هو، ولو كان غيره - تعالى - قابلا للحب وموضعا له فإنما هو من حيث نسبته إليه - تعالى -، فمن أحب غيره - تعالى - لا من حيث نسبته إليه، فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله، وكيف يكون غيره - سبحانه - من حيث هو: لا من جهة انتسابه إليه، مستحقا للحب وهو في نفسه مع قطع النظر عنه - تعالى - وعن انتسابه إليه ليس إلا العدم، والعدم كيف يصلح للحب، فينبغي أن يكون حبه لعموم الخلق بعموم النسبة، أي من حيث أنها منه - تعالى -، وآثاره، ومعلولاته، وأضواؤه وأظلاله، ولخصوص بعض الخواص الذين لهم خصوصية نسبة إليه - تعالى -، كالحب، والأنس، والمعرفة، والاطاعة لخصوص النسبة أيضا. ومما يوضح المطلوب: إن جميع أسباب الحب مجتمعة في حق الله - تعالى -، ولا توجد في غيره حقيقة، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل

ص ١١٤

ومجاز محض لا حقيقة له. أما السبب الأول - أعني محبة النفس: فمعلوم أن وجود كل أحد فرع لوجود ربه وظل له، ولا وجود له من ذاته، بل هو من حيث ذاته ليس محض وعدم صرف، فوجوده ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وبالله وإلى الله، فهو الموجود المخترع له، وهو المبقي له، وهو المكمل لوجوده بإيجاد صفات الكمال فيه، فهو صرف العدم لولا فضل الله عليه بالإيجاد، وهالك بعد وجوده لولا فضله عليه بالإبقاء، وناقص بعد بقائه لولا فضله عليه بالتكميل، فليس في الوجود شيء له قوام بنفسه إلا القيوم المطلق الذي هو قائم بذاته ومقوم لغيره. وحينئذ، فمحبة كل شيء لنفسه ترجع إلى محبة ربه، وإن لم يشعر المحب به، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟ مع أن من أحب الظل أحب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل، ومن أحب النور أحب لا محالة الشمس التي بها قوام النور، وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله - تعالى - كالظل بالإضافة إلى الشجرة والنور بالإضافة إلى الشمس، إذ الكل من آثار قدرته، ووجوده تابع لوجوده، كما أن وجود الظل تابع لوجود الشخص، ووجود النور تابع لوجود الشمس، بل هذا المثال إنما هو للتفهيم، وبالإضافة إلى أوهام العوامل، حيث يتوهمون أن الظل والنور تابعان للشاخص والشمس وفايضان عنهما، وعند التحقيق ليس الظل والنور أثرين للشخص والشمس وموجودين بهما، بل هما فايضان من الله - تعالى - موجودان به بعد حصول الشرائط، كما أن أصل الشخص والشمس وشكلهما وسائر صفاتهما منه - تعالى -. وأما السبب الثاني، والثالث - أعني الالتذاذ والاحسان، سواء كان متعديا إلى المحب أم لا: فمعلوم أنه لا لذة ولا إحسان إلا من الله - تعالى - ولا محسن سوى الله، فإنه خالق الإحسان وذويه، وفاعل أسبابه ودواعيه وكل محسن فهو حسنة من حسنات قدرته وحسن فعاله، وقطرة من

بحار كماله وأفضاله.
وأما الرابع - أعني الحسن والجمال والكمال: فلا ريب في أنه تعالى
ص ١١٥
هو الجميل بذاته والكامل بذاته، وهو الجمال الخالص، والكمال المطلق، وحقيقتهما منحصرة به - تعالى -، وما يوجد في غيره - تعالى - من الجمال والكلام لا يخلو من شوائب الخلل والنقصان، إذ النقص شامل لجميع الممكنات، وإنما تتفاوت في درجات النقص. وقد عرفت أن الجمال المعنوي أقوى من الجمال الصوري: ومن كان أهل البصيرة والكمال يكون حبه للجمال الباطن المعنوي أكثر وأقوى من حبه للجمال الصوري، وحقيقة الجمال المعنوي الذي هو وجوب الوجود، وكمال العلم والقدرة، والاستيلاء على الكل، واستناد الجميع إليه، منحصر بالله - تعالى -، فإذا كان الجمال المشوب بالنقص محبوبا، فكيف لا يكون الجمال الخالص البحت الذي لا يتصور جمال فوقه محبوبا، بل المحبوب حقيقة ليس إلا هو. باده خاك آلودتان مجنون كند * صاف اگرباشد ندانم جون كند (١١) على أن كل جميل بالجمال الظاهر الصوري أو بالجمال الباطن المعنوي رشحة من رشحات جماله، وكل كامل فكماله فرع كماله، فكل من أحب جميلا أحب خالقه، وما أحب أحدا غير الله - تعالى -، لكنه أحتجب عنه تحت وجوه الأحباب وأستار الأسباب، هذا مع أن عمدة جمال المخلوقين إنما هو علمهم بالله وبصفاته وأفعاله، وقدرتهم على إصلاح نفوسهم بإزالة الرذائل والخبائث الشهوية المانعة عن التقرب إلى الله - تعالى - وباتصافهم بمعالي الصفات وشرائفها المقربة إلى الله، وعلى إصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة، ومعلوم أن هذه الأمور إضافات إلى الله - سبحانه -، فحبها يرجع إلى حبه - تعالى -. وأما الخامس - أعني المناسبة الخفية والمجانسة المعنوية: فلا ريب في أن للنفس الناطقة الإنسانية مناسبة مجهولة خفية مع باريها وموجدها، إذ هي شعلة من شعلات جلاله، وبارقة من بوارق جماله، ولذا قال الله سبحانه: (قل الروح من أمر ربي) (١٥). وقال: (إني جاعل في الأرض
(هامش)
)
١٤) إن خمركم الملوث بالغبار يجنني!! فلست أدري ما هو مفعوله إن كان صافيا!!؟ (١٥) بني إسرائيل، الآية: ٨٥. (*)
ص ١١٦
خليفة) (١٦). إذ لم يستحق آدم خلافة الله إلا بتلك المناسبة، وبهذه المناسبة ينقطع العبد إلى ربه، ويعرفه عند ابتلائه بمصيبة وبلية، وهذه المناسبة لا تظهر ظهورا تاما إلا بالمواضبة على النوافل بعد أحكام الفرائض، كما قال الله - تعالى -: (لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به). وهذا موضع تزل فيه الأقدام، حتى وقع قوم في التشبيه الظاهر، وآخرون في الحلول والاتحاد، وأهل الحق الذين انكشفت لهم استحالة التشبيه والاتحاد، وفساد طرفي التفريط والافراط، واتضحت لهم حقيقة السر، وعرفوا تلك المناسبة واستقاموا عليه: هم الأقلون. ثم من المناسبة الظاهرة التي بين العبد وبين ربه هو قرب العبد من الله في الصفاة الربوبية والأخلاق الإلهية كالعلم، والبر، والاحسان، واللطف، وإفاضة الخير والرحمة على الخلق، وإرشادهم إلى الحق... إلى غير ذلك من الصفات الإلهية، ولذا قيل: تخلقوا بأخلاق الله. ولا ريب في أن كل ذلك يقرب العبد إلى الله، ويصيره ناسبا له. وأما العلية والمعلولية فالأمر فيه ظاهر، وباقي الأسباب أسباب ضعيفة نادرة، اعتبارها في حق الله نقص. وقد ظهر مما ذكر: أن أسباب الحب بجملتها متظاهرة في حق الله - تعالى - تحقيقا لا مجازا، أو في أعلى الدرجات لا أدناها، ثم كل من يحب أحدا من الخلق بسبب هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه في السبب.
والشركة نقصان في الحب، لا يتصف أحد بوصف محبوب إلا ويوجد شريك له فيه، والله - سبحانه - هو الذي لا يشاركه غيره في أوصاف الكمال والجمال، لا وجودا ولا إمكانا فلا جرم لا يكون في حبه شركة، فلا يتطرق إليه نقصان، كما لا تتطرق الشركة والنقصان إلى أوصاف كماله، فهو المستحق لأصل المحبة وكمالها، ولا متعلق للمحبة إلا هو، إلا أنه لا يعرف ذلك إلا العارفون من أوليائه وأحبائه، كما قال
(هامش)
(١٦) البقرة، الآية: ٣٠. (*)
ص ١١٧

سيد الشهداء (ع) في دعاء عرفة بقوله: (أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك، حتى لم يحبوا سواك، ولم يلجأوا إلى غيرك)) ٠
تكميل الشهود التام هو نهاية درجات العشق up
قد صرح أساطين الحكمة: (أن الأشياء المختلفة لا يمكن أن يحصل بينها تشاكل وتآلف تام حتى بينها الاتحاد والمحبة ببعض، ويحصل بينها التآلف والحب والوحدة والاتحاد)٠ والتوضيح: إن الجواهر البسيطة لتشاكلها وتماثلها يحن بعضها إلى بعض فيحصل بينها التآلف التام، والتوحد الحقيقي في الذوات والحقائق بحيث يرتفع عنها التغاير والاختلاف، إذ التغاير من لوازم المادية. وأما الماديات فلا يمكن أن يحصل بينها هذا التآلف والتوحد، ولو حصل بينهما تآلف وشوق، فإنما هو بتلاقي السطوح والنهايات دون الحقائق والذوات وليس يمكن أن يبلغ مثل هذه الملاقاة إلى درجة الاتحاد والاتصال فيحصل بينها الانفصال. فالجوهر البسيط المودع في الإنسان - أعني النفس الناطقة - إذا صفي عن الكدورات الطبيعية، وتظهر الأخباث الجسمانية، وتخلى عن حب الشهوات والعلائق الدنيوية، انجذب بحكم المناسبة إلى عالم القدس، وحدث فيه شوق تام إلى أشباهه من الجوهر المجردة، ويرتفع منها إلى ما هو فوق الكل ومنبع جميع الخيرات، فيستغرق في مشاهدة الجمال الحقيقي، ومطالعة جمال الخير المحض، وينمحي في أنوار تجلياته القاهرة، ويصل إلى مقام التوحيد الذي هو نهاية المقامات، فيفيض عليه من أنواره ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على خاطر، فيحصل له من البهجة واللذة ما يضمحل عنده كل بهجة ولذة والنفس التي بلغت هذا المقام لا يتفاوت حالها كثيرا في حالتي التعلق بالبدن والتجرد عنه، وما يحصل لغيرها من السعادة في الآخرة يحصل لها في هذه النشأة امروز در آن كوش كه بينا باشي
ص ١١٨
حيران جمال آن دلارا باشى شرمت بادا چو كودكان در شب عيد تا چند در انتظار فردا باشي؟ (١٧) نعم، الشهود التام، والابتهاج الصافي عن الشوب، يتوقف على تجردها الكلي عن البدن، فإنها وإن لاحظت بنور البصيرة في هذه النشأة جمال الوحدة الصرفة، إلا أن ملاحظتها لا تخلو من شوائب الكدرة الناشئة من الطبيعة: فالصفاء التام يتوقف على التجرد الكلي، ولذا تشتاق أبدا إلى رفع هذا الحجاب: ويقول: حجاب جهرة جان ميشود غبار تنم خوشادمي كه از اين چهرة برده بر فكنم چنين قفس سراي چومن خوش الحاني است روم بروضة رضوان كه مرغ آن چمنم (١٨) وهذه المحبة نهاية درجات العشق، وغاية الكمال المتصورة لنوع الإنسان، وذروة مقامات الواصلين، وغاية مراتب الكاملين، فما بعدها مقام إلا وهو ثمرة من ثمراتها كالأنس والرضا والتوحيد، ولا قبلها مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالصبر والزهد وسائر المقامات. وهذا العشق هو الذي أفرط العرفاء وأرباب الذوق في مدحه، وبالغوا في الثناء عليه نثرا ونظما، وصرحوا بأنه غاية الاتحاد والكمال المطلق، ولا كمال إلا هو، ولا سعادة إلا به، كما قيل: عشق است هرچه هست بكفيتم وكفته اند عشقت بوصل دوست رساند بضرب دست (١٩)
(هامش)
(١٧) أسع سعيك اليوم لتكون على بصيرة. ولتكون متلهفا لجمال ذلك الحبيب الفتان! أما تستحي أنك على غرار الأطفال في ليلة العيد؟!! إلى متى تنتظر اليوم الغد؟!! (١٨ * أن غبار الجيد يكون حجابا لروحي ونقابا! فما أحلى اللحظة التي أطرح فيها عن وجهي هذا الستار!! إن هكذا قفصا لا يليق لذي تغريد بهيج مثلي!! سأذهب إلى روضة الرضوان)... فإني من طيور ذلك المرج والبستان!! (١٩) كل ما يكون هو العشق كما قالوا وقلنا -... (*)
ص ١١٩
وقيل: جز محبت هرجه بردم سود در محشر نداشت دين ودانش عرض كردم كس بچيزي برنداشت (٢٠)
فصل سريان الحب في الموجودات up
أكثر أقسام المحبة فطرية طبيعية، كمحبة المتناسبين والمتجانسين، والعلة والمعلول، ومحبة الجمال وغير ذلك، والإرادي الكسبي منها قليل، كمحبة المتعلم للمعلم، وربما أمكن إرجاعه أيضا إلى الطبيعي. وإذا كان الحب طبيعيا، فالاتحاد الذي من مقتضياته يكون أيضا طبيعيا، فيكون لذلك أفضل من العدالة التي تقتضي الاتحاد الصناعي. ثم مع وجود المحبة لا حاجة إلى العدالة، إذ هي فرع الكثرة المحوجة إلى الاتحاد القشري، فمع وجود الاتحاد الطبيعي لا يقع الاحتياج إليه، وقد صرح قدماء الحكمة بأن أقوام الموجودات خاليا عنها، كما أنه ليس شيء منها خاليا عن الوجود والوحدة وقد صرحوا بأنه كل الوحدة، فهو سار في جميع الكائنات: في الأفلاك والعناصر والمركبات،

إذ الحب والشوق إلى التشبه بالفاعل رقص الأفلاك وأدار رحاها، (بسم الله مجراها ومرساها)، والحب هو سبب ميل العناصر إلى أجسادها وميل المركبات بعضها على بعض: سر حب ازلي بر همه اشيا ساريست وزنه بر گل نزدي بلبل بيدل فرياد (٢١) ثم لما كانت المحبة التي هي ظل الوحدة مقتضية للبقاء والكمال، وضدها موجبا للفساد والاحتلال، ولكل منهما مراتب ودرجات، فتختلف الموجودات بحسبها في درجات الكمال والنقصان والمتأخرون خصصوا الحب بذوي العقول، فلا يطلقون اسم الحب على ميل العناصر إلى مراكزها،
(هامش)
فعشقك يوصلك إلى الحبيب بالجهد والشطارة!! (٢٠) سوى الحب لم يفد في الحشر مما صحبته!! عرضت الدين والعلم. فلم يعرها أحد اهتماما!! (٢١) إن (سر الحب الأزلي) لسار في جميع الموجودات! وإلا لم تغرد البلابل على الأزهار والأوراد!! (*)
ص ١٢٠
وميل المركبات بعضها إلى بعض، كميل الحديد إلى المغناطيس، ولا لسم الكراهة والبغض على المنافرة التي بينها، كمنافرة الحجر الباغض الحل من الحل، بل يسمونها بالميل والهرب، وكذا الموافقة والمعاداة اللتين بين العجم من الحيوانات، ولا يطلقون عليها اسم الحب والبغض، بل يسمونها بالألف والنفرة
فصل رد المنكرين لحب الله up
قد ظهر مما ذكر: ثبوت حقيقة المحبة ولوازمها من الشوق والأنس لله تعالى، وأنه المستحق للحب دون غيره، وبذلك ظهر فساد رغم من أنكر إمكان حصول محبة العبد لله - تعالى - وقال: (لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثل). ولما أنكروا المحبة، أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه، ويدل على فساد هذا القول مضافا إلى ما ذكر إجماع الأمة على كون الحب لله ولرسوله فرضا، وما ورد في الآيات والأخبار والآثار من الأمر به والمدح عليه، وإنصاف الأنبياء والأولياء به، وحكايات المحبين، وقد بلغت من الكثرة والصراحة حدا لا يقبل الكذب والتأويل، فمن شواهد القرآن قوله تعالى: (يحبهم ويحبونه) (٢٢). وقوله: (والذين آمنوا أشد حبا لله) (٢٣) وقوله - تعالى -: (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم... إلى قوله -: (أحب إليكم من الله ورسوله...) إلى آخر الآية (٢٤) وأما الأخبار الواردة والآثار، فقد قال رسول الله (ص): (لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما). وقال (ص): الحب من شروط الإيمان). قال (ص) (أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمة، وأحبوني لحب الله). وقد نظر (ص) إلى بعض أصحابه * هامش)*(٢٢) المائدة، الآية: ٥٧. (٢٣) البقرة، الآية: ١٦٥ (٢٤) التوبة، الآية: ٢٥. (*)
ص ١٢١
مقبلا وعليه إهاب كبش، فقال (ص): (انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه، لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون). وقال (ص) في دعائه: (اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك وحب من يقربني إلى حبك، واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد). وفي الخبر المشهور: (إن إبراهيم (ع) قال لملك الموت، إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلا يميت خليله؟ فأوحى الله تعالى إليه: هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت! الآن فاقبض) وأوحى الله إلى موسى (ع): (يا ابن عمران! كذب من زعم أنه يحبني فإذا جنه الليل نام عني، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه، ها أنا ذا يا ابن عمران مطلع على أحبائي، إذا جنهم الليل حولت أبصارهم إلي من قلوبهم، ومثلت عقوبتي بين أعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة، ويكلموني عن الحضور، يا ابن عمران! هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينك الدموع في ظلم الليل، فإنك تجدني قريبا). وروي: (أن عيسى (ع) مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم، فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الخوف من النار، فقال: حق على الله أن يؤمن الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاثة أخرى، فإذا هم أشد نحولا وتغيرا، فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الشوق إلى الجنة، فقال: حق على الله أن يعطيكم ما ترجون. ثم جاوزهم إلى ثلاثة أخرى، فإذا هم أشد نحولا وتغيرا، كأن على وجوههم المرايا من النور، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: حب الله عز وجل، فقال: أنتم المقربون). وفي بعض

الروايات: (إنه (ع) قال للطائفتين الأوليين: مخلوقا خفتم، ومخلوقا رجوتم. وقال للطائفة الثالثة: أنتم أولياء الله حقا، معكم أمرت أن أقيم).

وقال رسول الله (ص): (إن شعيبا (ع) بكى من حب الله عز وجل حتى عمى، فرد الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمى، فرد الله عليه بصره، فلما كانت الرابعة أوحى الله إليه: يا شعيب! إلى متى يكون هذا أبدا منك، إن يكن هذا خوفا من النار أجرتك، وإن يكن شوقا إلى الجنة فقد

ص ١٢٢

أبحتك. فقال: إلهي وسيدي! أنت تعلم أني ما بكيت خوفا من نارك، ولا شوقا إلى جنتك، ولكن عقد حبك على قلبي، فلست أصبر أو أراك. فأوحى الله: أما إذا كان هذا هكذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران). وروي: (أنه جاء أعرابي إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله! متى الساعة؟ فقال (ص): (ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال له النبي: المرء مع من أحب). وفي أخبار داود: (قل لعبادي المتوجهين إلى محبتي: ما ضركم إذا احتجبتم عن خلقي إذ رفعت الحجاب بيني وبينكم حتى تنظروا إلي بعيون قلوبكم، وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا إذ بسطت ديني لكم، وما ضركم مسخطة الخلق إذ التمستم رضاي). وفيها أيضا: (يا داود! إنك تزعم أنك تحبني، فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا عن قلبك، فإن حبي وحبها لا يجتمعان في قلب). وقال أمير المؤمنين (ع) في دعاء كميل: (فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك، فكيف اصبر على فراقك). وقال (ع): (إن لله - تعالى - شرابا لأوليائه، إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طربوا، وإذا طربوا طابوا وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلصوا، وإذا خلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا وإذا وصلوا اتصلوا وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم) (٢٥) وقال سيد الشهداء في دعاء عرفة: (أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك). وقال (ع) يا من أذاق أحبائه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين).

وفي المناجاة الإنجيلية المنسوبة إلى سيد الساجدين (ع): (وعزتك لقد أحببتك محبة استقرت في قلبي حلاوتها، وتنست نفسي ببشارتها، ومحال في عدل اقتضيتك أن تسد أسباب رحمتك، ورحمتك عن معتقدي محبتك). وفي مناجاته الأخرى: (إلهي فاجعلنا من الذين توشحت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بجامع قلوبهم)... ثم قال: (وألحقنا بعبادك الذين هم

(هامش)

(٢٥) لم نعثر على مصدر لهذه الرواية في كتب أصحابنا الإمامية - رضوان الله عليهم -. (*)

ص ١٢٣

بالبدار إليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون، وإياك في الليل والنهار يعبدون، وهم من هيبتك مشفقون، الذين صفيت لهم المشارب، وبلغتهم الرغائب، وأنجحت لهم المطالب، وقضيت لهم من وصلك المآرب، وملأت لهم ضمائرهم من حبك ورويتهم صافي شرابك، فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا ومنك على أقصى مقاصدهم حصلوا)... ثم قال: (فقد انقطعت إليك همتي، وانصرفت نحوك رغبتي، فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا سواك سهري وسهادي، ولقاؤك قرة عيني، ووصلك منى نفسي، وإليك شوقي وفي محبتك ولهي، وإلى هواك صبابتي، ورضاك بغيتي ورؤيتك حاجتي وجوارك طلبي، وقربك غاية مسألتي، وفي مناجاتك روحي وراحتي، وعندك دواء علتي، وشفاء غلتي، وبرد لوعتي، وكشف كربتي). ثم قال: (ولا تقطعني عنك، ولا تباعدني منك، يا نعيمي وجنتي! ويا دنياي وآخرتي) وقال (ع) أيضا: إلهي! من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدنا، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا، إلهي! فاجعلني ممن اصطفيته لقربك وولايتك، وأخلصته لودك ومحبتك، وشوقته إلى لقائك، ورضيته بقضائك، ومنحته بالنظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعذته من هجرك ثم قال: (وهميت قلبه لإرادتك، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك وفرغت فؤاده لحبك)... ثم قال: (اللهم أجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين، وجباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك وقلوبهم معلقة بمحبتك وأفئدتهم منخلعة من مهابتك، يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة وسبحان نور وجهه لقلوب عارفيه شائقة! يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال تجعلك أحب إلي ممن سواك).

وقال (ع) أيضا: إلهي! ما ألذ خواطر النظر إلى وجهك، وقراري لا يقر دون دنوي منك، ولهفتي لا يردها إلا روحك المحبين! أسئلك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يوصل إلى قربك، وأن الإلهام بذكرك على القلوب، وما أحلى المسير إليك في مسالك الغيوب، وما أطيب طعم حبك، وما أعذب شرب قربك،). وقال (ع) أيضا: (وغلتي لا يبردها ألا وصلك، ولوعتي لا يطفيها ألا لقاؤك، وشوقي إليك لا يبله إلا (...)

ص ١٢٤

وسقمي لا يشفيه ألا طبك، وغمي لا يزيله إلا قربك، وجرحي لا يبرؤه ألا صفحك، ورين قلبي لا يجلوه إلا عفوك، ووسواس صدري لا يزيحه إلا أمرك (٢٦). وقال الصادق (ع): (حب الله إذا أضاء على سر عبد أخلاه من كل شاغل وكل ذكر سوى الله، والمحب أخلص الناس سرا لله، وأصدقهم قولا، وأوفاهم عهدا، وأزكاهم عملا، وأصفاهم ذكرا، وأعبدهم نفسا، تتباهى الملائكة عند مناجاته، وتفتخر برؤيته، وبه يعمر الله بلاده، وبكرامته يكرم الله عباده، ويعطيهم إذا سألوه بحقه، ويدفع عنهم البلايا برحمته، ولو علم الخلق ما محله عند الله ومنزلته لديه ما تقربوا إلى الله إلا بتراب قدميه) وقال أمير المؤمنين (ع): (حب الله نار لا يمر على شيء إلا احترق، ونور الله لا يطلع على شيء إلا أضاء وسماء الله ما ظهر من تحته شيء إلا غطاه، وريح الله ما تهب في شيء إلا حركته، وماء الله يحيي به كل شيء، وأرض الله ينبت منها كل شيء، فإن أحب الله أعطاه كل شيء من الملك والملك) وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا أحب الله عبدا من أمتي قذف في قلوب أصفيائه وأرواح ملائكته وسكان عرشه محبته ليحبوه، فذلك المحب حقا طوبى له ثم طوبى له! وله عند الله شفاعة يوم القيامة) (٢٧) إلى هنا كلام الصادق. عليه السلام - وما ورد في الحب من الأخبار والأدعية المعصومية أكثر من أن يحصى، وحكايات العشاق والمحبين لم تبلغ من الكثرة والتواتر حدا يمكن إنكاره، وقد روي: (أن داود (ع) سئل ربه أن يريه بعض أهل محبته، فقال له: ائت جبل لبنان، فإن فيه أربعة عشر نفسا، فيهم شبان وكهول ومشايخ، وإذا أتيتهم فاقرأهم مني السلام، وقل لهم: يقول ربكم لا تسألوني حاجة، فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم. فأتاهم داود، فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله وملكوته، فلما نظروا إلى داود، نهضوا ليتفرقوا عنه فقال لهم داود أنا رسول الله إليكم، جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم.

فأقبلوا نحوه، وألقوا

(هامش)

(٢٦) صححنا فقرات المناجاة الإنجيلية والمناجاة الأخرى على (البحار): باب أدعية المناجاة: مج ١٩ / ١٠٧ - ١١٤، ط أمين الضرب. (٢٧) صححنا الأحاديث الثلاثة على (مصباح الشريعة) - الباب السابع والتسعون، ص ١٩٣ -. (*)

ص ١٢٥

أسماعهم نحو قوله، وألقوا أبصارهم إلى الأرض، فقال داود: ربكم يقرؤكم السلام، ويقول لكم: ألا تسألوني حاجة، ألا تنادوني فأسمع صوتكم وكلامكم؟ فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم، وانظر إليكم في كل ساعة نظرة الوالدة الشفيقة الرفيقة. ولما قال داود ذلك جرت الدموع على خدودهم وسبح الله كل واحد منهم ومجده، وناجاه بكلمات تدل على احتراق قلوبهم من الحب والشوق).

فصل معرفة الله أقوى سائر اللذات up

قد عرفت أن الحب هو الميل إلى الشيء الملذ الملائم للمدرك والابتهاج بإدراك الملائم ونيله، واللذة هي نفس إدراك الملائم الملذ ونيله، وهذا الإدراك إن كان متعلقا بالقوة العاقلة - أي إن كان المدرك هو القوة العاقلة - عبر عنه بالعلم والمعرفة، وقد عرفت أنه أقوى وأشد وأشرف من الإدراكات الحسية التي هي الأبصار والاستماع والذوق والشم واللمس. ثم هذا الإدراك - أعني العلم والمعرفة - يختلف أيضا في الشرافة والكمال بحسب شرافة المدرك، أي المعلوم، فكلما كان المدرك أجل وأشرف كان الإدراك - أي المعرفة - أجل وأعلى. ولا ريب في أن الواجب - سبحانه - أشرف الموجودات وأجلها، فالمعرفة به أعلى المعارف وأشرفها، ويثبت من ذلك: إن أجل اللذات وأعلاها هو معرفة الله - تعالى - والنظر إلى وجهه الكريم، ولا يتصور أن يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه

اللذة. وبيان ذلك بوجه أوضح: أن اللذات تابعة للإدراكات، والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة وغريزة لذة، ولذاتها عبارة عن نيلها مقتضى طبعها الذي خلقت له، فغريزة الغضب لما خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام، وغريزة الشهوة لما خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام فلا جرم لذتها في نيل الغذاء وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الاستماع والأبصار والاستشمام، وغريزة العقل المسماة بالبصيرة الباطنة خلقت لتعلم بها حقائق الأشياء كلها، فلذتها في العلم والمعرفة، والعلم لكونه منتهى الكمال وأخص صفات الربوبية، يكون أقوى اللذات والابتهاجات

ص ١٢٦

ولذلك يرتاح الطبع إذا أثني عليه بالذكاء وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وجمال علمه، فيعجب بنفسه ويلتذ به. والتحقيق: إن الإدراك والنيل الذي هو الكمال ليس إلا العلم، وسائر الإدراكات - أعني نيل الغلبة والغذاء والاستماع والأبصار والاستشمام - لا تعد كمالات، ثم ليست لذة كل حلو واحدة، فإن لذة العلم بالحراثة والخياطة والحياكة ليست كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمور الخلق، ولا لذة العلم بالنحو والشعر والتواريخ كلذة العلم بالله وصفاته وملائكته وملكوت السماوات والأرض، بل لذة العلم بقدر شرف العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأشرف الأجل والأعظم والأكمل فالعلم به ألذ العلوم وأشرفها وأكملها وأطيبها، وليت شعري هل في الوجود شيء أعلى وأجمل وأشرف وأكمل من خالق الأشياء كلها وقيومها، ومكملها ومربيها مبدئها ومعيدها، ومديرها ومرتبها، وهل يتصور أن يكون أحد في الملك والكمال والعظمة والجلال والقدرة والجمال والكبرياء والبهاء أعظم ممن ذاته في صفات الكمال ونعوت الجلال فوق التمام، وقدرته وعظمته وملكه وعلمه غير متناهية فإن كنت لا تشك في ذلك فينبغي ألا تشك في أن لذة المعرفة به أقوى من سائر اللذات لمن له البصيرة الباطنة وغريزة المعرفة فإن اللذات مختلفة بالنوع أولا، كمخالفة لذة الوقاع ولذة السماع ولذة المعرفة ولذة الرئاسة، وكل نوع مختلف بالضعف والقوة، كمخالفة لذة الشبق المغتلم (٢٨) من الجماع، ولذة الفاتر الشهوة منه، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل ولذة النظر إلى الوجه الأجمل ومخالفة لذة العلم باللغات ولذة العلم بالسماويات، وإنما يعرف أقوى اللذتين من أضعفهما، بأن يؤثر عليه، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة وبين استنشاق روايح طيبة، إذا أختار الأول كان عنده ألذ من الثاني، والمخير بين الأكل واللعب بالشطرنج، إذا أختار الثاني كانت لذة الغلبة

(هامش)

(

٢٨) الغلمة - وزان غرفة -: شدة الشهوة وغلم غلما: من باب تعب، إذا اشتد شبقه. المغتلم: المنقاد للشهوة. (*)

ص ١٢٧

في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل، وهذا معيار في الكشف عن ترجيح اللذات. وحين إذ نقول: لا ريب في أن المعاني واللذات الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة، فلو خير الرجل بين لذة أكل المطاعم الطيبة ولذة الرئاسة والاستيلاء، فإن كان عالي الهمة كامل العقل، أختار الرئاسة وترك الأكل، وصبر على الجوع أياما كثيرة فضلا عن مدة قليلة، نعم، إن كان خسيس الهمة ميت القلب، ناقص العقل والبصيرة، كالصبي والمعتوه ربما أختار لذة الأكل، وفعل مثله ليس حجة.

ثم كما أن لذة الرئاسة والكرامة أغلب وأرجح من اللذات الحسية عند من جاوز نقصان الصبي والسفاهة، فكذلك لذة المعرفة بالله ومطالعة جمال الحضرة الربوبية ألذ عنده من لذة الرئاسة، بشرط أن يكون ممن ذاق اللذتين وأدركهما، فلو كان ممن لم يذق لذة المعرفة بالله لم يكن أهلا للترجيح ومحلا للكلام، لاختصاص لذة المعرفة بمن نال رتبتها وذاقها، ولا يمكن إثبات ذلك عند من ليس له قلب، كما لا تثبت لذة الإبصار عند الأعمى، ولذة الاستماع عند الأصم، ولذة الوقاع عند العنين، ولذة الرئاسة عند الصبي والمعتوه، وليت شعري من لا يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمر بلذة النظر إلى وجه الله تعالى، وليس له شبه وشكل وصورة، فحقيقة الحال كما قيل: (من ذاق عرف)، فمن ذاق اللذتين يترك لذة الرئاسة قطعا، ويستحقر أهلها لكونها مشوبة بالكدورات ومقطوعة بالموت، ويختار لذة المعرفة بالله، ومطالعة صفاته وأفعاله، ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، فإنها خالية عن الانقطاع والمكدرات، متسعة للمتواردين عليها، لا تضيق بكثرتهم دائما وعرضها من حيث التفهيم والتمثيل أعظم من السماوات والأرض، ومن حيث الواقع ونفس

الأمر فلا نهاية لعرضها، فلا يزال العارف بمطالعتها ومشاهدتها في جنة غير متناهية الأطراف والأقطار، يرتع في رياضها، ويركع (٢٩) في حياضها، ويقطع من أثمارها، وهو آمن من انقطاعها، إذ ثمارها غير مقطوعة ولا ممنوعة بل هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت، إذ الموت لا يهدم

(هامش)

(٢٩) كرع - من باب نفع -: هو الشرب بفيه من موضعه. (*)

ص ١٢٨

النفس الناطقة التي هي محل المعرفة، وإنما يقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من جنسها، فأذن جميع أقطار ملكوت السماوات والأرض، فالأقطار عالم الربوبية التي هي غير متناهية، ميدان للعارفين، يتبوؤن منها حيث يشاؤن، من غير حاجة إلى حركة أجسامهم، ومن غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا، إلا أنهم يتفاوتون في سعة ميادينهم بحسب تفاوتهم في اتساع الأنظار وسعة المعارف: (ولكل درجات مما ملوا) (٣٠). ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم، ومن عرف هذه اللذة انمحت همومه وشهواته، وصار قلبه مستغرقا بنعيمها، ولا يشغله عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغله عنه لذات الدنيا وعلائقها، وكان في الدنيا والآخرة مشغولا بربه، فلو ألقي في النار لم يحس به لاستغراقه، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية، ولعل سيد الرسل ص) عبر عن هذه اللذة - أي لذة مطالعة جمال الربوبية - حيث قال حاكيا عن الله سبحانه: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر). وهذه اللذة هي المراد من قوله تعالى: (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) (٣١). وربما تعجل بعض هذه اللذات لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية، ومع ذلك لا يخلو عن توسط بعض الحجب المانعة عن الوصل إلى كنهها، ما لم يحصل التجرد الكلي وخلع البدن العنصري، ولذلك قال بعضهم: أني أقول: (يا رب يا الله! فأجد ذلك أثقل على قلبي من الجبال، لأن النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليسا ينادي جليسه). ثم من عرف الله وعرف حقيقة هذه اللذة، عرف أن اللذات المقرونة في الشهوات المختلفة منطوية تحت هذه اللذة، كما قيل: كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي

(هامش)

(٣٠) الأنعام الآية: ١٣٢. الأحقاف، الآية: ١٩. (٣١) السجدة، الآية: ١٧. (*)

ص ١٢٩

فصار يحسدني من كنت أحسده * وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي تركت للناس دنياهم ودينهم * شغلا بذكرك يا ديني ودنيائي

فصل تحقق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه up

إعلم أن معرفة الله إذا حصلت في الدنيا لم تكن خالية عن كدرة ما كما أشير إليه، إلا أنه إذا اكتسب أصلها في الدنيا فيزيدها في الآخرة انكشافا وجلاء بقدر صفاء القلوب وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية، إلى أن يصير أجلى وأظهر من المشاهدة بمراتب، فالاختلاف بين ما يحصل في الدنيا من المعرفة وما يحصل في الآخرة من مشاهدة ولقاء إنما هو بزيادة الانكشاف وجلاء. مثال ذلك: إن من رأى إنسانا، ثم غض بصره، وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها، ولكن إذا فتح العين وأبصر، أدرك تفرقة بين حالتي غض العين وفتحها، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين بين الصورتين لاتحادهما، بل الافتراق إنما هو بمزيد الكشف والوضوح، فالصورة المتخيلة صارت بالرؤيا أتم انكشافا، فإذا الخيال أول الإدراك، والرؤيا استكمال لإدراك الخيال، وهي غاية الكشف، لا لأنها في العين، بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المتجلي في الصدر أو الجهة أو أي عضو فرض، استحق أن يسمى رؤية. وإذا فهمت هذا في المتخيلات - أي المدركات التي تدخل في الخيال من الصور والأجسام - فقس عليه الحال في المعلومات - أي ما يدرك بالعقل -، ولا يدخل في الخيال كذات الباري وكل ما ليس بجسم، كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها، فإن لمعرفتها وإدراكها أيضا درجتين: إحداهما: أولى، والثانية: استكمال لها، وبينهما من التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئي، فتسمى الثانية بالإضافة إلى الأولى لقاء ومشاهدة ورؤية، وهذه التسمية حق، لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف، وكما أن سنة الله جارية بأن تطبق الأجفان يمنع من تمام الكشف الذي هو الرؤية في المتخيلات، فكذلك سنته أن النفس ما دامت محجوبة بالبدن وعوارضه وشهواته، لم يحصل لها

تمام
ص ١٣٠
الكشف الذي هي المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجية عن الخيال، فإذا ارتفع بالموت حجاب البدن، وخلصت النفس، لم يكن بعد في غاية التنزه عن كدورات الدنيا، بل كانت ملوثة بها، إلا أن النفوس مختلفة في ذلك: فمنها: ما تراكم عليه الخبث والصدى، فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث وجوهرها، فلا تقبل الإصلاح والتصقيل، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد، نعوذ بالله من ذلك. ومنها: ما لم ينتهي إلى حد الرين والطبع، ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل، وهذه النفوس غير متناهية الدرجات والمراتب، إذ المتلوث بالكدورات عرض عريض في (الواقع) بين الرين والطبع، وبين التزكية التامة والتجرد الكلي الذي لم يكن فيه شوب من الكدورات، وهذه النفوس المتلوثة على اختلاف درجاتها ومراتبها تحتاج إلى التطهير لتستعيد للمشاهدة واللقاء بتجلي الحق فيها، وتطهيرها إنما هو بنوع عقوبة من العقوبات الأخروية، وهي كمراتب التلوث غير متناهية الدرجات، أولها سكرة الموت، وآخرها الدخول في النار، وما بينهما عقوبات البرزخ وأهوال القيامة بأنواعها، فكل نفس لا بد لها من عقوبة من هذه العقوبات لتتطهر من كدوراتها: فمنها: ما يتطهر بمجرد سكرة الموت وشدة النزع، ومنها ما يتطهر بها، وينقص عقوبات البرزخ، ومنها ما لا يتطهر إلا بأن يذوق بعض عقوبات الآخرة، ومنها ما لا يحصل تطهيره إلا بالعرض على النار عرضا يقمع منها الخبث الذي تدنست به، فربما كان ذلك لحظة حقيقية، وربما كان سبعة آلاف سنة - كما وردت به الأخبار - وربما كان أقل أو أكثر، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا الله سبحانه، والمحجوبون الذين بلغوا حد الرين والطبع يكونون مخلدين في النار.

ثم النفوس القابلة للتطهير إذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها، وبلغ الكتاب أجله، استعدت حينئذ لصفائها ونقائها عن الكدورات لأن تتجلى فيه جلية الحق، فتتجلى فيها تجليا يكون انكشاف تجلية بالإضافة إلى ما علمته وعرفته كانكشاف تجلي المرئيات بالإضافة إلى المتخيلات، وهذه المشاهدة والتجلي تسمى رؤية، لأنه في الظهور والجلاء والوضوح والانكشاف كالرؤية بالبصر، بل هو فوقه بمراتب شتى، إذ الرائي في الأول العقل،
ص ١٣١
وفي الثاني البصر، وشتان ما بينهما، فإن الاختلاف في مراتب الإدراك والرؤية بحسب اختلاف نورية المدرك، وأي نسبة لنورية البصر إلى نورية العقل وإشراقه، وما للعقل من النفوذ في حقائق الأشياء وبواطنها أنى يكون للبصر. وقد ظهر مما ذكر: أنه لا يفوز بدرجة الرؤية والمشاهدة إلا العارفون في الدنيا، لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة، كما تنقلب النواة شجرة والبذر زرعا، ومن لا نواة له كيف يحصل له النخل، ومن لم يلق البذر كيف يحصد الزرع، فمن لم يعرف الله في الدنيا فكيف يراه في الآخرة، ومن لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في العقبى، إذ لا يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا، فلا يحصد المرء إلا ما زرع، ولا يحشر إلا على ما مات عليه، ولا يموت إلا على ما عاش عليه. ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة، يكون التجلي أيضا على درجات متفاوتة، فاختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذور، إذ يختلف لا محالة: بكثرتها وقلتها، وجودتها، ورداءتها، وضعفها. ثم كلما كان التجلي والمشاهدة أقوى، كان ما يترتب عليه من حب الله والأنس به أشد وأقوى، وكلما كان الحب والأنس أزيد، كان ما يترتب عليه من البهجة واللذة أعلى وأقوى، وتبلغ هذه اللذة مرتبة لا تؤثر عليها لذة أخرى من نعيم الجنة، بل ربما بلغت حدا تتأذى من كل نعيم سوى لقاء الله ومشاهدته، فالنعمة والبهجة في الجنة بقدر حب الله، وحب الله بقدر معرفته، فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنه بـ(الإيمان). فإن قيل: اللقاء والمشاهدة إن كانت زيادة كشف للمعرفة حتى تتحقق بين لذة الرؤية ولذة المعرفة نسبة، لكانت لذة اللقاء والرؤية قليلة، وإن كانت أضعاف لذة المعرفة، إذ هي في الدنيا ضعيفة، فتضاعفها إلى أي حد فرض لا ينتهي في القوة، إلا أن يستحقر في جنبها سائر لذات الجنة ونعيمها.

قلنا: هذا الاستحقاق والتقليل للذة المعرفة باعثه عدم المعرفة أو ضعفها
ص ١٣٢
فإن من خلا عن المعرفة، أو كانت له معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا، لا يدرك لذتها، فمن كملت معرفته وصفت عن علائق الدنيا سريرته، قويت بهجته واشتدت لذته، بحيث لا توازنها لذة، فإن للعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله عز وجل ابتهاجات

ولذات لو عرضت عليهم الجنة ونعيمها في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوها بها. ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلا إلى لذة اللقاء والمشاهدة، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته، ولا للذة استنشاق روائح الأطعمة الطيبة إلى ذوقها وأكلها، ولا للذة اللمس باليد إلى لذة الوقاع. ومما يوضح ذلك أن لذة النظر إلى وجه المعشوق تتفاوت بأمور: أحدها - كمال جمال المعشوق ونقصانه. وثانيها - كمال قوة الحب والشهوة وضعفه. وثالثها - كمال الإدراك وضعفه، فإن الالتذاذ برؤية المعشوق في ظلمة، أو من بعد، أو من وراء ستر رقيق، ليس كالالتذاذ برؤيته على قرب من غير ستر عند كمال الضوء.

ورابعها عدم الآلام الشاغلة والعوائق المشوشة ووجودها، فإن التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق ليس كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم، أو المشغول قلبه بهم من المهمات، فلو كان العاشق ضعيف الحب، ناظرا إلى معشوقه على بعد ومن وراء ستر رقيق، مشغول القلب بمهمات، مجتمعة عليه حيات وعقارب تؤذيه وتلدغه، لم يكن خاليا عن لذة ما في هذه الحالة من مشاهدة معشوقه، إلا أنه إذا فرض ارتفاع الستر وإشراق الضوء، واندفاع الحيات والعقارب المؤذية، وفراغ قلبه من المهمات، وحدوث عشق مفرط، وشهوة قوية، بحيث بلغت أقصى الغايات ، تضاعفت لذته، بحيث لم تكن للذته الأولى نسبة إليها بوجه، فكذلك الحال في نسبة لذة المعرفة في الدنيا مع حجاب البدن والاشتغال بمهماته، ومع تسلط حيات الشهوات وعقاربها: من الجوع، والعطش والشبق، والغضب، والحزن، والهم، ومع ضعف النفس وقصورها ونقصانها في الدنيا عن التشوق إلى الملأ الأعلى، لالتفاتها إلى أسفل السافلين.

ص ١٣٣

إلى لذة اللقاء والمشاهدة التي يندفع فيها جميع ذلك عن النفس، فالعارف لعدم خلوه في الدنيا عن هذه العوائق والمشوشات وإن قويت معرفته لا يمكن أن تكمل لذته وتصفو بهجته، وإن ضعفت عوائقه ومشوشاته في بعض الأحوال وبقي سالما، لاح له من جمال المعرفة ما تعظم لذته وبهجته ويدهش عقله، بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته، إلا أن ذلك كالبرق الخاطف، ولا يمكن أن يدوم، إذ الخلو عن العوائق والمشوشات ليس يمكن أن يدوم بل هو آني، ويعرض بعد الآن من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينقصه، وهذه ضرورة قائمة في هذه الحياة الفانية، فلا تزال هذه اللذة منقصة إلى الموت، وإنما الحياة الطيبة بعده، وإنما العيش عيش الآخرة، فإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون، ولذا كل عارف كملت معرفته في الدنيا وأحب لقاء الله يحب الموت ولا يكرهه، إلا من حيث إرادة زيادة استكمال في المعرفة، فإن المعرفة كما عرفت بمنزلة البذر، وكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وبأفعاله وبأسرار مملكته، قويت المشاهدة واشتدت، وكثر النعيم في الآخرة وعظم، كما إنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن. ولا ريب في أن المعرفة لا تنتهي إلى مرتبة لا تكون فوقها مرتبة، إذ بحر المعرفة لا ساحل له، والإحاطة بكنه جلال الله محال، فالعارف وإن قويت معرفته، ربما أحب طول العمر وكره الموت لتزداد معرفته.

ثم أهل السنة قالوا: (إن الرؤية في الآخرة مع تنزهها عن التخيل والتصوير والتقدير بالشكل والصورة والتحديد بالجهة والمكان: تكون بالعين دون القلب): (وهو عندنا باطل): إذ الرؤية بالعين محال في حق الله تعالى، سواء كانت في الدنيا أو في الآخرة، فكما لا تجوز رؤية الله سبحانه في الدنيا بالعين والبصر، فكذلك لا تجوز في الآخرة، وكما تجوز رؤيته في الآخرة بالعقل والبصيرة لأهل البصائر - أعني غاية الانكشاف والوضوح بحيث تتأدى إلى المشاهدة واللقاء - فكذلك تجوز رؤيته في الدنيا بهذا المعنى، والحجاب بينه وبين خلقه ليس إلا الجهل وقلة المعرفة دون الجسد، فإن العارفين وأولياء الله يشاهدونه في الدنيا في جميع أحوالهم ومنصرفاتهم،

ص ١٣٤

وإن كان الحاصل في الآخرة أزيد انكشافا وأشد انجلاء بحسب زيادة صفاء النفوس وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية - كما تقدم مفصلا -، وقد ثبت ذلك من أئمتنا الراشدين العارفين بأسرار النبوة، روى شيخنا الأقدم (محمد بن يعقوب الكليني) وشيخنا الصدوق (محمد بن علي بن بابويه) رحمهما الله بإسنادهما الصحيح عن الصادق (ع): (أنه سئل عما يرون من الرؤية، فقال: الشمس جزء من سبعين جزء من نور الكرسي، والكرسي جزء من سبعين جزء من نور العرش، والعرش جزء من سبعين جزء من نور الحجاب، والحجاب جزء من سبعين جزء من نور الستر، فإن كانوا صادقين فليملأوا أعينهم من نور الشمس ليس دونها سحاب). وبإسنادهما عن أحمد بن إسحاق قال: (كتبت إلى أبي الحسن الثالث (ع) أسأله عن الرؤية وما أختلف فيه الناس، فكتب: لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر فإذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئي لن تصح الرؤية وكان في ذلك الاشتباه، لأن الرائي متى ساوى المرئي

فالسبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه، وكان ذلك التشبيه لأن الأسباب لا بد من اتصالها بالمسببات). وعن أبي بصير عن الصادق (ع) قال (قلت له: أخبرني عن الله - عز وجل - هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال: نعم! وقد راوه قبل يوم القيامة. فقلت: متى؟ قال: حين قال لهم ألست بربكم، قالوا بلا... ثم سكت ساعة، ثم قال: وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة، ألست تراه في وقتك هذا؟! قال أبو بصير فقلت له: جعلت فداك! فأحدث بهذا عنك؟ فقال: لا! فإنك إذا حدثت به فأنكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله، ثم قدر أن ذلك تشبيه كفر، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين، تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون). وسئل أمير المؤمنين (ع): (هل رأيت ربك حين عبدته؟ فقال: ويلك! ما كنت اعبد ربا لم أره.

قيل: وكيف رأيته؟ قال: ويلك! لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان) (٣٢). وقال سيد

(هامش)

(٣٢) صححنا الأحاديث كلها على أصول (الكافي): الجزء الأول، باب إبطال الرؤية. وعلى (الوافي): ١ / ٦٩، باب إبطال الرؤيا. (*)

ص ١٣٥

الشهداء (ع): (كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك ، عميت عين لا تراك عليها رقيبا، وخسرت صفقة عبد لهم تجعل من حبك نصيبا). وقال (ع) أيضا: (تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء) وقال: (وأنت الذي تعرفت إلي في كل شيء، فرأيتك ظاهرا في كل شيء، وأنت الظاهر لكل شيء) (٣٣). وأمثال ذلك مما ورد عنهم - عليهم السلام - أكثر من أن تحصى.

فصل الطريق إلى الرؤية واللقاءup

الطريق إلى تحصيل محبة الله وتقويتها ثم استعداد الرؤية واللقاء أمران أحدهما - تطهير القلب من شواغل الدنيا وعلائقها، والتبتل إلى الله بالذكر والفكر، ثم إخراج حب غير الله من القلب، إذ القلب مثل الإناء الذي لا يسع الماء - مثلا - ما لم يخرج منه الخل. وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وكمال الحب في أن يحب الله بكل قلبه، وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره، وبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حب الله إلى أن يكون التفاته إلى الغير من حيث أنه صنع الله - تعالى وفعله ومظهر من مظاهر أسماء الله - تعالى -، وإلى التجريد والتفريد الإشارة بقوله تعالى: (قل الله ثم ذرهم) (٣٤) وثانيهما - تحصيل معرفة الله وتقويتها وتوسيعها وتسليطها على القلب والأول، أعني قطع العلائق، بمنزلة تنقية الأرض من الحشائش، والثاني أي المعرفة، بمنزلة البذر فيها، ليتولد منه شجر المحبة. ثم لتحصيل المعرفة طريقان: أحدهما - الأعلى، وهو الاستدلال بالحق على الخلق، وذلك بأن

(هامش)

(

٣٣) صححنا فقرات دعاء عرفة على (مفاتيح الجنان): ص ٢٧٢ - ٢٧٤ طبعة الكراوري (٣٤) الأنعام، الآية: ٩١ (*)

ص ١٣٦

يعرف الله بالله، وبه يعرف غيره، أي أفعاله وآثاره. وإلى هذا أشير في الكتاب الإلهي بقوله: (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) (٣٥) وهذا الطريق غامض، وفهمه صعب على الأكثرين. وقد أشرنا إلى كيفيته في بعض كتبنا الإلهيات. وثانيهما - وهو الأدنى، الاستدلال بالخلق على الحق - سبحانه - وهذا الطريق في غاية الوضوح، وأكثر الأفهام يتمكن من سلوكه، وهو متسع الأطراف، ومتكثر الشعوب والأكناف، إذ ما من ذرة من أعلى السماوات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات وغرائب آيات وغرائب بينات تدل على وجود الواجب وكمال قدرته وغاية حكمته ونهاية جلاله وعظمته، وذلك مما لا يتناهى. (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي) (٣٦) وعدم وصول بعض الأفهام من هذا الطريق إلى معرفة الله مع وضوحه، إنما للإعراض عن التفكير والتدبر والاشتغال بشهوات الدنيا وحظوظ النفس. ثم سلوك هذا الطريق، أي الاستدلال على الله - تعالى - وعلى كمال قدرته وعظمته، بالتفكر في الآيات الآفاقية والأنفسية، خوض في بحار لا ساحل لها، إذ عجائب ملكوت السماوات والأرض مما لا يمكن أن تحيط به الأفهام، فإن القدر الذي تبلغه أفهامنا القاصرة من عجائب حكمته الباهرة تنقضي الأعمار دون إيضاحه ولا نسبة لما أحاط

به علمنا إلى ما أحاط به علم العلماء، ولا نسبة له إلى ما أحاط به علم الأنبياء، ولا نسبة له إلى ما أحاط به علم الخلائق كلهم، ولا نسبة له إلى ما استأثر الله بعلمه، بل كلما عرفه الخلائق جميعا لا يستحق أن يسمى علما في جنب علم الله، ونحن قد أشرنا إلى لمعة يسيرة من عجائب حكمته المودعة في بعض مخلوقاته في مبحث التفكر.

(هامش)

(٣٥) فصلت، الآية: ٥٣. (٣٦) الكهف، الآية: ١١٠ (*)

ص ١٣٧

فصل تفاوت المؤمنين في محبة الله up

إعلم أن المؤمنين جميعا مشتركون في أصل محبة الله لاشتراكهم في أصل الإيمان، ولكنهم متفاوتون في قدرها، وسبب تفاوتهم أمران: أحدهما - اختلافهم في المعرفة وحب الدنيا فإن أكثر الناس ليس لهم من معرفة الله إلا ما قرع أسماعهم من كونه متصفا بصفات كذا وكذا، من دون وصول إلى حقيقة معناها، وإلى اعتقادهم بأن الموجودات المشاهدة صادرة عنه، من غير تدبر في عجائب القدرة وغرائب الحكمة المودعة فيها. وأما العارفون: فلهم الخوض في بحر التفكر والتدبر في أنواع المخلوقات، واستخراج ما فيها من الحكم الخفية، والمصالح العجيبة، التي كل واحد منها كمشعلة في إزالة ظلمة الجهل، والهداية إلى كمال عظمة الله، ونهاية جلاله وكبريائه، فمثل الأكثرين كمثل عامي أحب عالما بمجرد استماعه أنه حسن التصنيف، من دون علم ودراية بما في تصانيفه، فتكون له معرفة مجملة ويكون له بحسنه ميل مجمل، ومثل العارفين كمثل عالم فتش عن تصانيفه وأطمع على ما فيها من دقائق المعاني وبلاغة العبارات. ولا ريب في أن العالم بجملته صنع الله وتصنيفه، فمن عرف ذلك مجملا تكون له بحسبه محبة مجملة، ومن وقف على ما فيه من عجائب القدرة ودقائق الحكمة تكون له غاية الحب، وكلما ازدادت معرفته بوجوه الحكم والمصالح المودعة في كل مخلوق ازداد حبه فمن اعتقد أن ما تبنيه النحل من البيوت المسدسة إنما هو بإلهام الله - تعالى - إياها، من غير استعداد لفهم الحكمة في اختيار الشكل المسدس على سائر الأشكال، لا يكون في معرفة الله وإدراك عظمته وحكمته كمن يفهم ذلك ويتيقنه. ثم، كما إن دقائق الحكم وعجائب القدرة غير متناهية، ولا يمكن لأحد أن يحيط بها، وإنما ينتهي كل إلى ما يستعد له، فينبغي أن تكون مراتب الحب أيضا غير متناهية، وكل عبد ينتهي إلى مرتبة تقتضيها معرفته.

وثانيهما - اختلافهم في الأسباب المذكورة للحب، فإن من يحب الله لكونه منعما عليه ومحسنا إليه، ضعفت محبته لتغيرها بتغير الإنعام والاحسان

ص ١٣٨

ولا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرخاء والنعماء. وأما من يحبه لذاته، أو بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته، فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه.

فصل الواجب أظهر الموجودات up

عجبا لأقوام عميت قلوبهم عن معرفة الله - سبحانه -، مع أن الله - تعالى - أظهر الموجودات وأجلاها، لأن البديهة العقلية قاضية بأنه يجب أن يكون في الوجود موجود قائم بذاته، أي ما هو صرف الوجود، ولولاه لم يتحقق موجود أصلا، يتحقق صرف الوجود القائم بذاته المقوم لغيره أظهر وأجلى من تحقق كل موجود بغيره عند البصيرة الصافية، قال الله - سبحانه -: (الله نور السماوات والأرض) (٣٧) والنور هو الظاهر لنفسه المظهر لغيره، ومبدأ الإدراك من المدرك إنما هو الوجود، فكلما أدركته إنما تدرك أولا وجوده، وإن لم تشعر بذلك. ولا ريب في أن الظاهر لنفسه أظهر من الظاهر بغيره، وأيضا كل موجود سوى الله - سبحانه - يعلم وجوده بقليل من الآثار، فإن وجود الحياة لزيد - مثلا - لا يدل عليه إلا حركته وتكلمه وبعض أخر من إعراض نفسه، ولا يدل عليه شيء آخر من سائر الموجودات، وكذا وجود السماء - مثلا - لا يدل عليه سوى وجود ظهور جسمها وحركتها، ولا يدل عليه شيء آخر من الموجودات التي تحتها وفوقها. وأما وجود الواجب - تعالى - فيدل عليه كل شيء إذ ليس الوجود مدرك محسوس أو معقول، وحاضر أو غائب، إلا وهو شاهد ومعرف لوجوده فالسبب في خفائه مع كونه أجلى وأظهر من كل شيء غاية وضوحه وظهوره، فإن شدة ظهور الشيء قد يكون سببا لخفائه، لأنه يكل المدارك ويحسرها، فشدة ظهوره - سبحانه - بلغت حدا بهرت العقول وأدهشتها

(هامش)
(٣٧) النور الآية ٣٥ (*)
ص ١٣٩
فضعفت عن إدراكه. وهذا كما إن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره، بل لشدة ظهوره وضعف بصر الخفاش، فإن بصره ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرق، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع أبصاره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج بالضوء الظلام وضعف ظهوره، فكذلك عقولنا ضعيفة، وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الاشراق والاستنارة، وفي غاية الاستغراق والشمول، حتى لم تشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السماوات والأرض، فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى عن العقول والبصائر بشدة ظهوره! ولا تتعجب من اختفاء شيء بسبب شدة ظهوره، فإن الأشياء إنما تستبان بأضداده، وما عم وجوده حتى لا ضد له عسر إدراكه، فلو اختلفت الأشياء، فدل بعضها على الله - تعالى - دون بعض، أدركت التفرقة على قرب، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد، أشكل الأمران، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض، فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض، ويزول عند غيبة الشمس، فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لا غرب لها، لكنا نظن أن لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها، وهي السواد والبياض وغيرهما، وأما الضوء فلا ندركه وحده لكن لما غابت الشمس واظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالتين، فعلمنا أن الأجسام قد استضاءت بضوء فارقها عند الغروب، فعرفنا وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في النور والظلام.
وهذا مع أن النور أظهر المحسوسات، إذ به تدرك سائر المحسوسات، فما هو ظاهر في نفسه مظهر لغيره انظر كيف استبهم أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده، فإذن واجب الوجود لذاته هو أظهر الأشياء وبه ظهرت الأشياء كلها ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير، لانهدت في السماوات والأرض وبطل الملك والملكوت، وأدركت التفرقة بين الحالتين، ولو كان بعض الأشياء موجودا به، وبعضها موجودا بغيره، لأدركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة، ولكن دلالته عامة في الأشياء على نسق واحد، ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه، فلا جرم أورثت شدة ظهوره خفاء كما قيل:
ص ١٤٠
خفي لإفراط الظهور تعرضت * لإدراكه أبصار قوم أخافش وحظ عيون الزرق من نور وجهه * لشدته حظ العيون العوامش قال أمير المؤمنين (ع): (لم تحط الأوهام، بل تجلى لها بها، وبها امتنع منها) وقال (ع): (ظاهر في غيب، وغائب في ظهور). وقال (ع): (لا تجنه البطون عن الظهور، ولا تقطعه الظهور عن البطون، قرب فنأى وعلا فدنا، وظهر فبطن وبطن فعلن، ودان ولم يدن): أي ظهر وغلب، ولم يغلب. ومن هناك قيل: (عرفت الله بجمعه بين الأضداد).
فصل علائم محبة الله up
محبة العبد لله - سبحانه - له علامات: الأولى - أن يحب لقاؤه بطريق المشاهدة والعيان في دار السلام، ولتوقفه على الموت يحب الموت ويتمناه، إذ كل من يحب شيئا يحب لقاؤه ووصله، وإذا علم أنه يمتنع الوصول إليه إلا بالارتحال من الدنيا بالموت لأحب الموت لا محالة، وكيف يثقل على المحب أن يسافر من وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته، ولذا قال (حذيفة عند موته: (حبيب جاء على فاقة، لا أفلح اليوم من ندم). قال بعض الأكابر: (لا يكره الموت إلا مريب، لأن الحبيب لا يكره لقاء الحبيب على كل حال). ثم من يكره الموت، فإن كانت كراهته له لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والأولاد والأموال، وكان حبه للدنيا وتأسفه على مفارقتها في غاية الكمال، بحيث لم يحب الموت ولم يسر قلبه أصلا بما يترتب عليه من لقاء الله - تعالى -، ولم يجد في قلبه شوقا إليه مطلقا فلا ريب في كون مثل هذه الكراهة منافيا لأصل الحب، ولو لم يكن حبه للدنيا في غاية الكمال، بحيث لم يجد في قلبه ميلا إلى ما يترتب على الموت من لقاء الله، بل كان محبا للدنيا إلا أنه كان له شوق إلى لقاء الله - تعالى - أيضا أو كان لذلك كراهته للموت ضعيفة، فمثل هذا الحب للدنيا ينافي كمال حب الله، لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب، ولا يبعد أن تكون معه شائبة ضعيفة من حب الله، فإن الناس متفاوتون في حب الله،

## ٣٠٧ جامع السعادات (ج3)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ١٤١

فمنهم من يحبه بكل قلبه. ومنهم من لا يحبه بكل قلبه، بل يحب معه غيره أيضا من الأهل والولد والمال، فلا جرم يكون فرحه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وكراهته لفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها، وإن كانت كراهته للموت لأجل إرادته الاستعداد والتهيؤ للقاء الله، ومشاهدته بتحصيل زيادة العلم والعمل، لا لحب الأهل والمال، ولا للتأسف على فراق الدنيا، فهو لا يدل ضعف الحب ولا ينافي أصله، وهو كالمحب الذي وصل إليه خبر قدوم حبيبه، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليعمر داره ويفرشها ويهيأ أسبابها، ليلقاه فارغ القلب عن الشواغل، وعلامة ذلك الجد في العمل، واستغراق الهم في تحصيل المعرفة، والاستعداد للآخرة. الثانية - أن يؤثر مراد الله - سبحانه - على مراده، إذ المحب لا يخالف هوى محبوبه لهوى نفسه، كما قيل: أريد وصاله ويريد هجري * فأترك ما أريد لما يريد فمن كان محبا لله: يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه، ويحترز عن اتباع الشهوات، ويدع الكسالة والبطالة، ولا يزال مواضبا على طاعته وانقياده ويكون مبتهجا متنعما بالطاعة ولا يشغلها، ويسقط عنه تعبها. وقد روي: (أن زليخا لما آمنت، وتزوج بها يوسف (ع)، انفردت عنه، وتخلت للعبادة، وانقطعت إلى الله - تعالى -، وكان يوسف يدعوها إلى فراشه نهارا فتدافعه إلى الليل، وإذا دعاها ليلا سوفت إلى النهار، فعاتبها في ذلك فقالت يا رسول الله! إنما كنت أحبك قبل أن أعرف ربك، فأما إذ عرفته فلا أؤثر على محبته محبة من سواه، وما أريد به بدلا). ثم الحق أن العصيان يضاد كمال المحبة لا أصلها، ولذا قد يأكل الرجل المريض ما يضره، ويزيد في مرضه مع أنه يحب نفسه، ويحب صحته، والسبب ضعف المعرفة وغلبة الشهوة، فيعجز عن القيام بحق المحبة.

الثالثة - ألا يغفل عن ذكر الله - سبحانه -، بل يكون دائما مستهترا بذكره، إذ من أحب شيئا أكثر ضرورة ذكره وذكر ما يتعلق به فمحب الله لا يخلو عن ذكر الله وذكر رسوله وذكر القرآن وتلاوته، لأنه كلامه، ويكون محبا للخلوة ليتفرد بذكره وبمناجاته، ويكون له كمال

ص ١٤٢

الأنس والالتذاذ بمناجاته، وفي أخبار داود: (كذب من ادعى محبتي وإذا جنه الليل نام عني، أليس كل محب يحب لقاء حبيبه، فها أنا ذا موجود لمن طلبني). الرابعة - ألا يحزن ولا يتألم عن فقد شيء، ولا يفرح بوجود شيء سوى ما يقربه إلى الله أو يبعده عنه، فلا ينبغي أن يحزن ويجزع في المصائب، ولا يسر بنيل المقاصد الدنيوية، ولا يتأسف على ما يفوته إلا على ما فات منه من طاعة مقربة إلى محبوبه، أو على صدور معصية مبعدة، أو على ساعة خلت عن ذكر الله والأنس به. الخامسة - أن يكون مشفقا رؤفا على عباد الله، رحيما على أولياءه وشديدا على أعداء الله، كارها لمن يخالفه ويعصيه، إذ مقتضى الحب الشفقة والمحبة لإحياء المحبوب والمنسوبين إليه، والبغض لأعدائه ومخالفيه. السادسة - أن يكون في حبه خائفا متذللا تحت سلطان العظمة والجلال، وليس الخوف مضادا للحب، كما ظن، إذ إدراك العظمة يوجب الهيبة وإدراك الجمال يوجب الحب، ولخصوص المحبين خوف الأعراض، وخوف الحجاب وخوف الإبعاد، وخوف الوقوف، وسلب المزيد وقال بعض العرفاء: (من عبد الله بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ومن عبده عن طريقهما أحبه الله، فقربه ومكنه وعلمه). السابعة - كتمان الحب والشوق من إظهاره ومن إظهار الوجد واجتناب الدعوى، تعظيما للمحبوب وإجلالا له، وهيبة منه وغيرة على سره، فإن الحب سر من أسرار المحبوب، فلا ينبغي إفشاؤه، ولأنه ربما يدخل في الدعوى ما يجاوز حد الواقع، فيكون من الافتراء، والتعظم به العقوبة في العقبى والبلية في الدنيا.

نعم، ربما غشيته سكرة في حبه، حتى يدهش فيها، وتضطرب أحواله، فيظهر عليه حبه من دون اختيار وتحمل. فمثله معذور، لأنه تحت سلطان المحبة مقهور ومن عرف أن حصول حقيقة المعرفة والمحبة التي تنبغي أن تكون في حق الله يستحيل أن يحصل لأحد وأن يطلع على ما اعترف عظماء الإنسان - أعني الأنبياء والأولياء - من

ص ١٤٣

العجز والقصور، وإن صنفا واحدا من الأصناف الغير المتناهية من ملائكته ملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء، هم أهل المحبة

لله، ما خطر على قلوبهم مذ خلقهم الله - وهو ثلاثمائة ألف سنة قبل خلق العالم - سوى الله - سبحانه -، وما ذكروا غيره، لاستحيي منه حق الحياء أن يعد ما عليه من المعرفة والمحبة معرفة ومحبة، وخرس لسان عن التظاهر بالدعوى. وروي في بعض الأخبار: (أن بعض أهل الله سأل بعض الصديقين أن يسأل الله - تعالى - أن يعطيه ذرة من معرفته، ففعل ذلك، فخار عقله وذهل لبه، ووله قلبه، وهام في الجبال، وبقي شاخصا سبعة أيام، لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء، فسأل له الصديق ربه أن ينقص بعض الذرة من المعرفة التي أعطاه، فأوحى الله - تعالى - إليه: (إنا أعطيناه جزءا من مئة ألف جزء من ذرة من المعرفة، وذلك أن مئة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذي سألني هذا، فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيتك، فقسمت ذرة من المعرفة بين مئة ألف عبد، فهذا ما أصابه من ذلك). فقال: سبحانك سبحانك! أنقصه مما أعطيته، فأذهب الله عنه جملة ما أعطاه، وأبقى فيه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مئة ألف جزء من ذرة، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه، وسكن، وصار كسائر الكمل من العارفين) (٣٨).

والحق أن حقائق الصفات الإلهية أجل وأعظم من إدراك العقول البشرية، ولا يطيق أحد من الكمل أن يتحمل لفهم جزء من الأجزاء الغير المتناهية منها فالوصول إلى ما عليه الحضرة الربوبية من العظمة والجلال وسائر صفات الكمال في حيز المحال، (وما قيل أو يقال فيه) وهم أو خيال فأين يحصل لأحد ما يليق به من المعرفة والمحبة؟ فلو أمكن أن تدخل أمثال هذه العوالم المخلوقة من السماوات والأرضين وما فوقهما وأضعافهما بقدر غير متناه في جوف خردلة، لأمكن أن تدخل في أعظم العقول ذرة من عظمته وجلاله، وغاية المعرفة أن يعرف عظمته وقدرته وجلاله وعزته وسائر أوصافه الكمالية بأمثال هذه العنوانات وتمثيلات، وهي أيضا لو ضوعفت إلى

(هامش)

(٣٨) صححنا الرواية على (إحياء العلوم): ٤ / ٢٨٨. (*)

ص ١٤٤

غير النهاية في أزمنة غير متناهية، لكانت بيانات قاصرة، بل وهمية خيالية، فسبحان من لا سبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته!.

ومن علامات المحبة الأنس والرضا كما يأتي. وقد جمع بعض العارفين علامات المحب في أبيات، فقال: لا تخدعن فللمحب دلائل * ولديه من تحف الحبيب وسائل منها تنعمه بمر بلائه * وسروره في كل ما هو فاعل فالمنع منه عطية مقبولة * والفقر أكرم وبر عاجل ومن الدلائل أن ترى من عزمه * طوع الحبيب وإن ألح العاذل ومن الدلائل أن يرى متبسما * والقلب فيه من الحبيب بلابل ومن الدلائل أن يرى متفهما * لكلام من يحظى لديه سائل ومن الدلائل أن يرى متقشفا * متحفظا عن كل ما هو قائل ومن الدلائل أن تراه مشمرا * في خرقتين على شطوط الساحل ومن الدلائل حزنه ونحيبه * خوف الظلام فما له من عاذل ومن الدلائل أن تراه باكيا * أن قد رآه على قبيح فاعل ومن الدلائل أن تراه راضيا * بمليكه في كل حكم نازل ومن الدلائل زهده فيما ترى * من دار ذل والنعيم الزائل ومن الدلائل أن تراه مسلما * كل الأمور إلى المليك العادل ومن الدلائل ضحكه بين الورى * والقلب محزون كقلب الثاكل ومن الدلائل أن تراه مسافرا * نحو الجهاد وكل فعل فاضل

فصل معنى حب الله لعبده up

إعلم أن شواهد الكتاب والسنة ناطقة بأن الله سبحانه يحب العبد، كقوله تعالى: (يحبهم ويحبونه) (٣٩) وقوله تعالى -: (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله) (٤٠). وقوله - تعالى -: (إن الله يحب التوابين ويحب

(هامش)

(٣٩) (المائدة، الآية: ٥٧ (٤٠) الصف الآية: ٤ (*)

ص ١٤٥

المتطهرين) (٤١) وقوله - تعالى -: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) (٤٢). وقال رسول الله (ص): (إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب). وقال (ص): ((إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب). وقال (ص): (إذا أحب الله عبدا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه). وقال (ص): (من أكثر ذكر الله أحبه الله). وقال (ص) حاكيا عن الله: (لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي

يبصر به، ولسانه الذي ينطق به). وقال (ص): (إذا أحب الله عبدا، جعل له واعظا من نفسه، وزاجرا من قلبه، يأمره وينهاه)... وأمثال ذلك أكثر من أن تحصى. ثم حقيقة الحب - وهو الميل إلى موافق ملائم - غير متصور في حق الله تعالى، بل هذا أنما يتصور في حق نفوس ناقصة، والله سبحانه صاحب كل جمال وكمال وبهاء وجلال، وكل ذلك حاضر له بالفعل أزلا وأبدا، إذ لا يتصور تجدده وزواله، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث أنه غير، بل ابتهاجه بذاته وصفاته وأفعاله، وليس في الوجود إلا ذاته وصفاته وأفعاله ولذلك قال بعض العرفاء - لما قرأ قوله - تعالى -: (يحبهم ويحبونه): (نحن نحبهم، فإنه ليس يحب إلا نفسه)، على معنى أنه الكل، وإنه في الوجود ليس غيره، فمن لا يحب إلا ذاته، وصفات ذاته، وأفعال ذاته، وتصانيف ذاته، فلا يجاوز حبه وذاته وتواضع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته، فهو إذن لا يحب إلا ذاته. وليس المراد من محبة الله لعبده هو الابتهاج العام الذي له تعالى بأفعاله له، إذ المستفاد من الآيات والأخبار: أن له تعالى خصوصية محبة لبعض عباده ليست لسائر العباد والمخلوقات، فمعنى هذه المحبة يرجع إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وإلى تمكينه إياه من القرب إليه، وإلى إرادته ذلك به في الأزل، وإلى تطهير باطنه عن

(هامش)

(٤١) البقرة الآية: ٢٢٢. (٤٢) آل عمران، الآية: ٣١

ص١٤٦

حلول الغير به، وتخليته عن عوائق تحول بينه وبين مولاه، حتى لا يسمع إلا بالحق ومن الحق، ولا يبصر إلا به، ولا ينطق إلا به - كما في الحديث القدسي، فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه، وارتفاع الحجاب عن قلبه، وحصوله في درجة القرب من ربه، وكل ذلك من فضل الله تعالى ولطفه به ثم قرب العبد من الله لا يوجب تغيرا وتجددا في صفات الله تعالى إذ التغير عليه سبحانه محال، لأنه لا يزال في نعوت الكمال والجلال والجمال على ما كان عليه في أزل الآزال، بل يوجب مجرد تغيير العبد بترقيه في مدارج الكمال، والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الآلهية، فكلما صار أكمل صفة وأتم علما وإحاطة بحقائق الأمور، وأثبت قوة في قهر الشياطين وقمع الشهوات، وأظهر نزاهة عن الرذائل، وأقوى تصرفا في ملكوت الأشياء صار أقرب إلى الله، ودرجات القرب غير متناهية، لعدم تناهي درجات الكمال، فمثل تقرب العبد إلى الله ليس كتقرب أحد المتقاربين إلى الآخر، إذا تحركا معا، بل كتقرب أحدهما مع تحركه إلى الآخر الذي كان ساكنا، أو كتقرب التلميذ في درجات الكمال إلى أستاذه، فإن التلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى بقاء العلم، ويطلب القرب من أستاذه في درجات العلم والكمال، والأستاذ ثابت واقف، وإن كان التلميذ يمكن أن يصل إلى مرتبة المساواة لأستاذه لتناهي كمالاته، وأما العبد، كائنا من كان، لا يمكن أن يصل إلى كمال يمكن أن تكون له نسبة إلى كمالاته سبحانه، لعدم تناهي كمالاته شدة وقوة وعدة وعلامة كون العبد محبوبا عن الله: أن يكون هو محبا له تعالى، مؤثرا إياه على غيره من المحاب، وأن يرى من بواطن أموره وظواهره أنه تعالى يهيئ له أسباب السعادة فيها، ويرشده إلى ما فيه خيره ويصده عن المعاصي بأسباب يعلم حصولها منه سبحانه، وأنه تعالى يتولى أمره، ظاهرة وباطنه، وسره وجهره، فيكون هو المشير عليه، والمدبر لأمره، والمزين لأخلاقه، والمستعمل لجوارحه، والمسدد لظاهره

وباطنه، والجاعل لهمومه هما واحدا، والمبغض للدنيا في قلبه، والموحش له من غيره، والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته،

ص ١٤٧

والمكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته.

تذنيب الحب في الله والبغض في الله up

إعلم أن الأخبار متظاهرة في مدح الحب في الله والبغض في الله وعظم فضيلته وثوابه، ومعناه لا يخلو عن إبهام، فلا بد أن نشير إلى بعض هذه الأخبار، ثم نبين حقيقته ونكشف عن معناه: أما الأخبار: كقول النبي (ص): (ود المؤمن في الله أعظم شعب الإيمان، ألا ومن أحب في الله، وأبغض في الله، ومنع في الله، فهو من أصفياء الله). وقال (ص) لأصحابه: (أي عرى الإيمان أوثق؟) فقالوا الله ورسوله أعلم فقال بعضهم: الصلاة، وقال بعضهم: الزكاة، وقال بعضهم: الصيام وقال بعضهم: الحج والعمرة، وقال بعضهم الجهاد فقال رسول الله (ص): (لكل ما قلتم فضل وليس به، ولكن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وتوالي أولياء الله والتبري من أعداء الله). وقال (ص): (المتحابون في الله يوم القيامة على أرض زبرجدة خضراء في ظل عرشه عن يمينه - وكلتا

يديه يمين - وجوههم أشد بياضا وأضوأ من الشمس الطالعة، يغبطهم بمنزلتهم كل ملك مقرب وكل نبي مرسل، يقول الناس: من هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء المتحابون في الله). وقال سيد الساجدين (ع): (إذا جمع الله عز وجل الأولين والآخرين، قام مناد فنادى ليسمع الناس، فيقول: أين المتحابون في الله؟ قال: فيقوم عنق من الناس، فيقال لهم: إذهبوا إلى الجنة بغير حساب. قال: فتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة بغير حساب، فيقولون: أي حزب أنتم من الناس فيقولون نحن المتحابون في الله. قال: فيقولون: وأي شيء كانت أعمالكم؟ قالوا: كنا نحب في الله ونبغض في الله. قال: فيقولون: نعم أجر العالمين).

وقال الباقر (ع): (إذا أردت أن تعلم إن فيك خيرا، فانظر إلى قلبك، فإن كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك، وإذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك والمرء مع من أحبه) وقال (ع):

ص ١٤٨

(لو أن رجلا أحب رجلا لله، لأثابه الله على حبه إياه، وأن كان المحبوب في علم الله من أهل النار، ولو أن رجلا أبغض رجلا لله، لأثابه الله على بغضه إياه، وإن كان المبغض في علم الله من أهل الجنة). وقال الصادق (ع): (من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، فهو ممن كمل إيمانه). وقال (ع): (إن المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور، قد أضاء نور وجوههم ونور أجسادهم ونور منابرهم كل شيء، حتى يعرفوا به فيقال: هؤلاء المتحابون في الله). وقال (ع): (وهل الإيمان إلا الحب في الله والبغض في الله؟ ثم تلا هذه الآية: (حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) (٤٣) وقال (ع): (ما التقى المؤمنان قط إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لأخيه). وقال (ع): (من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له) والأخبار بهذه المضامين كثيرة (٤٤).

وإذا عرفت ذلك، فلنشر إلى معنى الحب في الله والبغض في الله فنقول: الحب الذي بين إنسانين، إما يحصل بمجرد الصحبة الاتفاقية، كالصحبة بحسب الجوار، أو بحسب الاجتماع في سوق، أو مدرسة، أو سفر، أو باب سلطان، أو أمثال ذلك، ومعلوم أن مثل هذا الحب ليس من الحب في الله بل هو الحب بحسب الاتفاق، أو لا يحصل بمجرد ذلك، بل له سبب وباعث آخر، وهذا على أربعة أقسام: الأول - أن يحب إنسان إنسانا لذاته، لا ليتوصل به إلى محبوب ومقصود وراءه، بأن يكون هو في ذاته محبوبا عنده، بمعنى أنه يلتذ برؤيته ومعصيته ومشاهدة أخلاقه، لاستحسانه له، فإن كل جميل لذيذ في حق من أدرك جماله، وكل لذيذ محبوب واللذة تتبع الاستحسان، والاستحسان يتبع المناسبة والموافقة والملائمة بين الطباع. ثم ذلك المستحسن،

(هامش)

(٤٣) الحجرات، الآية: ٧ (٤٤) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): ج ٢، باب الحب في الله والبغض في الله وعلى (الوافي): ٣ / ٣٤٤، باب الحب في الله والبغض في الله. (*)

ص ١٤٩

إما أن يكون جمال الصورة، وكمال العقل، وغزارة العلم، وحسن الأخلاق والأفعال، وكل ذلك يستحسن عند الطباع السليمة، وكل مستحسن مستلذ به ومحبوب، ومن هذا القسم أن يحبه لأجل مناسبة خفية معنوية بينهما، فإنه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير حسن في خلق وخلق. ومن دون ملاحة في صورة. ولا غيرها من الأعضاء، بل المناسبة باطنة توجب الألفة والموافقة والمحبة، فإن شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع، والأشياء الباطنة خفية، ولها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر أن يطلع عليها، وإلى هذا القسم من الحب والموافقة أشار رسول الله (ص) بقوله: (الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منهما ائتلف، وما تناكر منها اختلف). فالحب نتيجة التناسب الذي هو التعارف، والبغض نتيجة التناكر. ومعلوم أن هذا القسم من الحب لا يدخل في الحب لله، بل هو حب الطبع وشهوة النفس، لذا يتصور ممن لا يؤمن بالله، إلا أنه إن اتصل به غرض مذموم صار مذموما، وإلا فهو مباح لا يوصف بمدح وذم. الثاني - أن يحبه لا لذاته، بل لينال منه محبوبا وراء ذاته، وكانت لهذا المحبوب فائدة دنيوية. ولا ريب في أن كلما هو وسيلة إلى المحبوب محبوب، وعدم كون هذا الحب من جملة الحب في الله ظاهر. الثالث - أن يحبه لا لذاته، بل لغيره، وذلك الغير راجع إلى حظوظه

في الآخرة دون الدنيا، وذلك كحب التلميذ الأستاذ، لأن يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل، ومقصوده من العلم والعمل سعادة الآخرة. وهذا الحب من جملة الحب في الله، وصاحبه من محبي الله، وكذلك حب الأستاذ للتلميذ، لأنه يتلقف منه العلم، وينال بواسطته مرتبة التعليم، ويترقى به إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء. قال عيسى (ع): ((من علم وعمل وعلم، فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء). ولا يتم التعليم إلا بمتعلم، فهو إذن آلة في تحصيل هذا الكمال، فإن أحبه لأنه آلة إذ جعل صدره مزرعة لحرثه فهو محب لله.

بل التحقيق: أن كل من يحب أحدا لصنعته، أو فعله الذي يوجب تقربه إلى الله، فهو من جملة المحبين في الله، كحب من يتولى له إيصال

ص ١٥٠

الصدقة إلى المستحقين، وحب طباخ يحسن صنعته في الطبخ لأجل طبخه لمن يضيفه تقربا إلى الله، وحب من ينفق عليه ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع مقاصده التي يقصده في الدنيا، ومقصوده من ذلك الفراغ لتحصيل العلم والعبادة، وحب من يخدمه بنفسه من غسل ثيابه وكنس بيته وطبخ طعامه وأمثال ذلك من حيث أنه يفرغه لتحصيل العلم والعمل... وقس على ما ذكر أمثاله، والمعيار أن كل من أحب غيره من حيث توسله لأجله إلى فائدة أخروية فهو محب لله وفي الله. الرابع - أن يحبه لله وفي الله، لا لينال منه علما أو عملا، أو يتوسل به إلى أمر وراء ذاته، وذلك بأن يحبه من حيث أنه متعلق بالله ومنسوب إليه، أما بالنسبة العامة التي ينتسب بها كل مخلوق إلى الله، أو لأجل خصوصية النسبة أيضا، من تقربه إلى الله، وشدة حبه وخدمته له تعالى. ولا ريب في أن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق به ويناسبه، ولو من بعد، فمن أحب إنسانا حبا شديدا، أحب محب ذلك الإنسان وأحب محبوبه ومن يخدمه ومن يمدحه ويثني عليه أو يثني عليه محبوبه، وأحب من يتسارع إلى رضاء محبوبه، كما قيل: أمر على الديار ديار ليلى * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا وما حب الديار شغفن قلبي * ولكن حب من سكن الديارا وأما البغض في الله، فهو أن يبغض إنسان إنسانا لأجل عصيانه لله ومخالفته له تعالى، فإن من يحب في الله لا بد وأن يبغض في الله، فإنك إن أحببت إنسانا لأنه مطيع لله ومحبوب عنده، فإن عصاه لا بد أن تبغضه، لأنه عاص فيه وممقوت عند الله، قال عيسى (ع): (تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إلى الله بالتباعد عنهم، والتمسوا رضاء الله بسخطهم.

وروي: (أنه تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة، وأما انقطاعك إلي فقد تعززت بي، ولكن هل عاديت في عدوا، أو واليت وليا؟). ثم للمعصية درجات مختلفة، فإنها قد تكون بالاعتقاد، كالكفر والشرك والبدعة، وقد تكون بالقول والفعل، وهذا إما أن يكون مما يتأذى به

ص ١٥١

غيره، كالقتل والغضب والضرب وشهادة الزور وسائر أنواع الظلم، أو لا يكون مما يتأذى به غيره، وهذا إما يوجب فساد الغير، كالجمع بين الرجال والنساء، وتهيئة أسباب الشر والفساد على ما هو دأب صاحب الماخور، أو لا يوجب فساد الغير، كالزنا وشرب الخمر، وهذا أيضا إما كبيرة أو صغيرة. وإظهار البغض أيضا له درجات مختلفة، كالتباعد والهجران، وقطع اللسان عن المكالمة والمحادثة والتغليظ في القول، والاستخفاف والإهانة، وعدم السعي في طاعته، والسعي في إساءته وإفساد مآربه، وبعض هذا أشد من بعض، كما أن درجات الفسق والمعصية أيضا كذلك. فينبغي أن يكون الأشد من درجات البغض بإزاء الأشد من درجات المعصية والفسق، والوسط بإزاء الوسط، والأضعف بإزاء الأضعف. وينبغي ألا يترك أولا النصيحة، والأمر بالمعروف. والنهي عن المنكر وتغليظ القول في الوعظ والإرشاد، لا سيما إذا كان العاصي ممن بينه وبينه صحبة متأكدة. ثم العاصي إن كان ممن له صفات محمودة، كالإيمان والعلم والسخاء والعبادة والطاعة أو أمثال ذلك، ينبغي أن يكون مبغوضا لأجل معصيته ومحبوبا لأجل صفته المحمودة، وهذا كما أن من وافقك في غرض وخالفك في آخر تكون معه على حالة متوسطة بين التردد إليه والتوحش عنه فلا تبالغ في إكرامه مبالغتك في إكرام من يوافقك في جميع أغراضك ولا تبالغ في إهانته مبالغتك في إهانة من خالفك في جميع أغراضك.

تتميم الوفاء في الحب up

إعلم أن من تمام الحب للأخوان في الله (الوفاء)، وهو الثبات على الحب ولوازمه وإدامته إلى الموت وبعده مع أولاده وأصدقائه، وضده (الجفاء)، وهو قطع الحب أو بعض لوازمه في أيام الحياة أو بعد الموت بالنسبة إلى أولاده وأحبته، ولولا الوفاء في الحب لما كانت فيه فائدة، إذ الحب إنما يراد للآخرة، فإن انقطع قبل الموت لضاع السعي وحبط العمل، ولذلك قال رسول الله في السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة: (وأخوان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه). وروي: (أنه (ص) كان
ص ١٥٢
يكرم بعض العجائز كلما دخلت عليه، فقيل له في ذلك، فقال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن كرم العهد من الدين). فمن الوفاء مراعاة جميع الأصدقاء والأقارب والمتعلقين، ومراعاتهم أوقع في القلب من مراعاة الأخ المحبوب في نفسه، فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر من فرحه بتفقد نفسه، إذ لا تعرف قوة المحبة والشفقة إلا بتعديها من المحبوب إلى كل من يتعلق به، حتى أن من قوي حبه لأخيه تميز في قلبه كلبه الذي على باب داره من سائر الكلاب. ولا ريب في أن المحبة التي تنقطع - ولو بعد الممات - لا تكون محبة في الله، إذ المحبة في الله دائمة لا انقطاع لها. فما قيل من أن (قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره حال الحياة) إنما هو لدلالته على كون الحب في الله. وبالجملة: الوفاء بالمحبة تمامها. ومن آثار الوفاء أن يكون شديد الجزع من مفارقته، وألا يسمع بلاغات الناس عليه، وأن يحب صديقه وبغض عدوه، ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين، بل من الوفاء المخالفة له وإرشاده إلى الحق.

هذا وأما البعد والأنس، فقد عرفت أن الأنس عبارة عن استبشار القلب بما يلاحظه من المحبوب بعد الوصول، والبعد خلافه، والأنس والخوف والشوق، كلها من آثار المحبة، وكل واحد منها يرد على المحب بحسب نظره، ومما يغلب عليه في وقته، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال، واستشعر قصوره من الإطلاع على كنه الجلال، انبعثت النفس وانزعجت له، وهاجت إليه، فسميت هذه الحالة في الانزعاج (شوقا)، وهو بالإضافة إلى أمر غايب، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف، وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف، غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد، استبشر القلب بما يلاحظه فيه، فيسمى استبشاره (أنسا)، وإن كان نظره إلى صفات العز والجلال والاستغناء وعدم المبالاة، واستشعر إمكان الزوال والبعد، تألم قلبه بهذا الاستشعار، فيسمى تألمه (خوفا)، وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات، فإن غلب الأنس وتجرد عن ملاحظة
ص ١٥٣
ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال، عظم نعيمه ولذته، وغلب عليه الأنس بالله، ولم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله، بل كلما يعوق من الخلوة يكون أثقل الأشياء على القلب، كما روي: (أن موسى (ع) لما كلمه ربه، مكث دهرا لا يسمع كلامه أحد من الخلق إلا أخذه الغشيان)، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره، فيخرج عن القلب عذوبة ما سواه فإن خالط الناس كان كمنفرد في جماعة، ومجتمع في خلوة، وغريب في حضر، وحاضر في سفر، وشاهد في غيبة، وغائب في حضور، ومخالط بالبدن، متفرد بالقلب المستغرق في عذوبة الذكر، قال أمير المؤمنين (ع) في وصفهم: (هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما أستوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها متعلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه).

فصل الأنس بالله up

من أنكر وجود الحب والشوق أنكر وجود الأنس أيضا، ظنا أنه يدل على التشبيه، وهو ناش عن الجهل بالابتهاجات العقلية واللذات الحقيقية وعن القصور في طريق المعرفة، والجمود على أحكام الحس، والغفلة عن عالم العقل والبصيرة، وقد ظهر ثبوت الأنس من بعض الأخبار السابقة، ويدل عليه ما ورد في أخبار داود: (إن الله عز وجل أوحى إليه: يا داود! أبلغ أهل أرضي: إني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسني، ومؤنس لمن أنس بذكري. وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسي، وأحببته حبا لا يتقدمه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها، وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي، وآنسوا بي أوانسكم، وأسارع إلى محبتكم). ج: ٣

ص ١٥٤
فصل الأنس قد يثمر الإدلال up
قال أبو حامد الغزالي: (الأنس إذا دام وغلب واستحكم، ولم يشوشه قلق الشوق، ولم ينغصه خوف البعد والحجاب، فإنه يثمر نوعا من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجات مع الله سبحانه، وقد يكون منكرا بحسب الصورة، لما فيه من الجرأة وقلة الهيبة، ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الأنس، ومن لم يقم في ذلك المقام وتشبه بهم في الفعل والكلام، هلك وأشرف على الكفر. ومثاله مناجات (برخ الأسود) الذي أمر الله تعالى كليمه موسى (ع) أن يسأله ليستسقي لبني إسرائيل، بعد أن قحطوا سبع سنين، وخرج موسى في سبعين ألفا، فأوحى الله عز وجل إليه: كيف استجيب لهم وقد أظلت عليهم ذنوبهم؟ سرائرهم خبيثة، يدعونني على غير يقين، ويأمنون مكري، إرجع إلى عبد من عبادي يقال له (برخ)، فقل له: يخرج حتى أستجيب له. فسأل عنه موسى، فلم يعرف، فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق، إذا بعبد أسود قد استقبله، بين عينيه تراب من أثر السجود، في شملة قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى بنور الله عز وجل، فسلم عليه وقال له: ما اسمك؟ فقال: اسمي برخ، قال: فأنت طلبتنا منذ حين، أخرج فاستسقي لنا، فخرج، فقال في كلامه: ما هذا من فعالك، ولا هذا من حلمك، وما الذي بدا لك؟ أتعصت عليك غيومك؟ أم عاندت الرياح عن طاعتك؟ أم نفذ ما عندك؟ أم اشتد غضبك على المذنبين؟ ألست كنت غفارا قبل خلق الخاطئين؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعفو، أم ترينا أنك ممتنع؟ أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة؟!... قال: فما برح حتى اخضل بني إسرائيل بالمطر، وأنبت الله عز وجل العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب، ثم رجع (برخ)، فاستقبله موسى فقال: كيف رأيت حين خاصمت ربي، كيف أنصفني؟! فهم به موسى، فأوحى الله إليه: إن برخا يضحكني كل يوم ثلاث
ص ١٥٥
مرات))!! (٤٥). ولا ريب في أن أمثال هذه الكلمات الصادرة عن الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون البعض، فمن انبساط الأنس قول موسى: (أن هي إلا فتنتك) (٤٦) وقوله في التعلل والاعتذار، لما قيل له: (إذهب إلى فرعون إنه طغى) (٤٧): (ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون) (٤٧). وقوله: (ويضيق صدري) (٤٩). وقوله: (إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) (٥٠). وهذا من غير موسى سوء الأدب، لأن الذي أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل منه ما لا يحتمل من غيره، كيف ولم يحتمل من يونس النبي (ع) ما دون هذا الحال، أقيم مقام القبض والهيبة، فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث، فنودي عليه إلى يوم الحشر، لولا أن تداركته نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم، ونهي نبينا أن يقتدي به، فقيل له: واصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم)) (١). وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف المقامات والأحوال، وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد، قال الله سبحانه: تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) (٢) فالأنبياء والأولياء مختلفون في الصفات والأحوال، ألا ترى أن عيسى
(هامش)
(٤٥) هذا من عجائب المنقولات الخرافية، والغريب من (أبي حامد الغزالي) أن يركن إلى مثله، وقد أشار المصنف - قدس سره - إلى بطلان ما نقله بقوله: (ولا ريب)). (٤٦) الأعراف، الآية: ١٥٤. (٤٧) طه، الآية: ٢٤ النازعات، الآية ١٧. (٤٨) الشعراء، الآية: ١٤ (٤٩) الشعراء الآية: (١٣) (٥٠) طه، الآية: ٤٥ (١) القلم، الآية:) ٤٨ (٢) البقرة، الآية ٢٥٣ (*)
ص ١٥٦
بن مريم (ع) كان في مقام الانبساط والإدلال، ولإدلاله له سلم على نفسه، فقال: (والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) (٣). وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس. وأما يحيى عليه السلام فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء، فلم ينطق حتى سلم عليه خالقه، فقال: (والسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) (٤) وانظر كيف أحتمل لأخوة يوسف ما فعلوا به، وقد قال بعض العلماء: (قد عددت من أول قوله تعالى): (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا) (٥). إلى رأس العشرين آية من أخباره تعالى عنهم، فوجدت به نيفا وأربعين خطيئة، بعضها أكبر من بعض، وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع،

فغفر لهم وعفا عنهم، ولم يحتمل لعزيز في مسألة واحدة سأل عنها في القدر، حتى قيل: لئن عاد محي اسمه عن ديوان النبوة). ومن فوائد هذه القصص في القرآن: أن تعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل، فما في القرآن شيء إلا وفيه أسرار وأنوار يعرفها الراسخون في العلم.

تذنيب العزلة up

إعلم أن من بلغ مقام الأنس، غلب على قلبه حب الخلوة والعزلة عن الناس، لأن المخالطة مع الناس تشغل القلب عن التوجه التام إلى الله. فلا بد لنا من بيان أن الأفضل من العزلة والمخالطة أيهما، فإن العلماء في ذلك مختلفون، والأخبار أيضا في ذلك مختلفة، ولكل واحد منهما أيضا

(هامش)

(٣) مريم، الآية: ٣٣ (٤) مريم، الآية: ١٤ (٥) يوسف، الآية: ٨ (*)

ص ١٥٧

فوائد ومفاسد، فنقول: الظاهر من جماعة: تفضيل العزلة على المخالطة مطلقا. والظاهر من الأخرى: عكس ذلك. نظر الأولين إلى أطلاق ما ورد في مدح العزلة، وإلى فوائدها وما ورد في مدحها، كقول النبي (ص): (أن الله يحب العبد التقي الخفي)، وقوله (ص): (أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب)، وقوله (ص) لمن سأله عن طريق النجاة: (ليسعك بيتك، وأمسك عليك دينك، وابك على خطيئتك)، وقول الصادق (ع): (فسد الزمان، وتغير الأخوان، وصار الانفراد أسكن للفؤاد)، وقوله (ع): (أقلل معارفك، وأنكر من تعرف منهم)، وقوله (ع): (صاحب العزلة متحصن بحصن الله تعالى، ومحرس بحراسته، فيا طوبى لمن تفرد به سرا وعلانية! وهو يحتاج إلى عشر خصال: علم الحق والباطل، وتحبب الفقر، واختيار الشدة، والزهد، واغتنام الخلوة، والنظر في العواقب، ورؤية التقصير في العباد مع بذل المجهول، وترك العجب، وكثرة الذكر بلا غفلة، فإن الغفلة مصطاد الشيطان ورأس كل بلية وسبب كل حجاب، وخلوة البيت عما لا يحتاجه إليه في الوقت. قال عيسى بن مريم عليهما السلام: (أخزن لسانك لعمارة قلبك، وليسعك بيتك، واحذر من الرياء وفضول معاشك، واستح من ربك، وابك على خطيئتك وفر من الناس فرارك من الأسد والأفعى فإنهم كانوا دواء فصاروا اليوم داء ثم الق الله متى شئت) قال ربيع بن خثيم: (إن استطعت أن تكون اليوم في موضع لا تعرف ولا تعرف فافعل ففي العزلة صيانة الجوارح وفراغ القلب وسلامة العيش، وكثر سلاح الشيطان، والمجانبة من كل سوء وراحة القلب، وما من نبي ولا وصي إلا واختار العزلة في زمانه، إما في ابتدائه وإما في انتهائه) (٦) وأما فوائد العزلة، فكالفراغ للعبادة، والذكر والفكر، والاستيناس بمناجاة الله والاشتغال باستكشاف أسرار الله في ملكوت السماوات والأرض

(هامش)

(

٦) صححنا هذا القول، وكذا الحديث السابق على (مصباح الشريعة) باب ٢٤، وعلى (البحار): باب العزلة عن شرار الخلق -: مج ١٥ / ٥١ ط أمين الضرب (*)

ص ١٥٨

والتخلص عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالبا بالمخالطة: كالغيبة والرياء وسائر آفات اللسان ومسارقة الطبع الأعمال الخفية، والأخلاق الردية من الناس والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاستخلاص من الفتن والخصومات وأخطارها أو من شر الناس وإيذائهم قولا وفعلا وقطع طمعه عن الناس وقطع طمعهم عنه، والخلاص من مشاهدة الظلمة، والفسقة والجهال والثقلاء والحمقى، ومقاسات أخلاقهم. ونظر الآخرين - أعني القائلين بتفضيل المخالطة على العزلة - إلى إطلاق الظواهر الواردة في مدح المخالطة والمؤالفة والمؤانسة وإلى فوائدها، أما ما ورد في مدحها، كقول النبي (ص): (المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف). وقوله (ص): (من فارق الجماعة مات ميتة الجاهلية) وكالأخبار الواردة في ذم الهجرة عن الأخوان، وقوله (ص): (إياكم والشعاب وعليكم بالعامة والجماعة والمساجد). وأما فوائد المخالطة: كالتعليم والتعلم وكسب الأخلاق الفاضلة من مجالسة المتصفين بها واستماع المواعظ والنصائح ونيل الثواب بحضور الجمعة والجماعة والجنازة وعيادة المرضى وزيارة الأخوان وقضاء حوائج المحتاجين ورفع الظلم عن المظلومين وإدخال السرور على المؤمنين والاستيناس بالأخوان وبأهل الورع والعبادة والتقوى وهو يروح القلب ويهيج داعية النشاط

في العبادة وإيصال النفع إلى المسلمين بالمال والجاه واللسان واستفادة مزيد الأجر والثواب بتحصيل المعاش والكد على العيال وارتياض النفس بمقاساة الناس في تحمل أذاهم، وكسر النفس وشهواتها وإدراك صفة التواضع لتوقفه على معاشرة الناس ومخالطتهم وعدم حصوله في الوحدة، واستفادة التجارب والكياسة في مصالح الدنيا والدين فإنها لا تحصل إلا من مخالطة الخلق ومشاهدة مجاري أحوالهم.

هذه هي فوائد كل من العزلة والمخالطة، وفوائد كل منهما مفاسد وغوائل للآخر. وأنت - بعد ما عرفت فوائد كل منهما وغوائله - تعلم أن الحكم بترجيح أحدهما على الآخر على الإطلاق خطأ. كيف يجوز أن يقال: أن العزلة أفضل لشخص جاهل لم يتعلم شيئا من أصوله وفروعه، ولم يقرع سمعه علم الأخلاق ولم يميز بين فضائل الصفات ورذائلها

ص ١٥٩

فضلا عن أن تحصل له التخلية والتحلية ومع ذلك يمكن أن يحصل ذلك بالمخالطة مع العلماء وأولي الأخلاق الفاضلة؟ وكيف يجوز أن يقال: أن المخالطة أفضل لمن حصل ما في وسعه وقدرته من العلم والعمل، ووصل إلى مرتبة الابتهاج والالتذاذ بالطاعات والمناجاة، ولم يترتب على مخالطته مع الناس شيء من الفوائد الدينية والدنيوية، بل تترتب عليه المفاسد الكثيرة؟ فالصحيح أن يقال: إن الأفضلية فيهما تختلف بالنظر إلى الأشخاص والأحوال والأزمان والأمكنة. فينبغي أن ينظر إلى كل شخص وحاله، وإلى خليطه وإلى باعث مخالطته وإلى ما يحصل بمخالطته من فوائد المخالطة وما يفوت لأجلها من فوائد العزلة ويوازن بين ذلك، حتى يظهر الأفضل والأرجح. ولاختلاف ذلك في حق الأشخاص بملاحظة الأحوال والفوائد والآفات، بما يظهر - بعد التأمل - أن الأفضل لبعض الخلق العزلة التامة ولبعضهم المخالطة ولبعضهم الاعتدال في العزلة والمخالطة وبما ذكر يظهر أن الأفضل لمن بلغ مقام الأنس والاستغراق: الخلوة والعزلة إذ لا ريب في أن المخالطة توجب السقوط عن مرتبة الشهود والأنس، ولا يتصور من فوائدها شيء يقاوم ذلك. ولذلك كان المحبون المستأنسون بالله يعتزلون عن الخلق. يؤثرون الخلوة. قال أويس القرني: (ما كنت أرى أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره). وقال بعضهم: (إذا رأيت الصبح أدركني استرجعت كراهية لقاء الناس).

وقال بعضهم: (سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه) وقال بعض الصالحين: (رأيت في بعض البلاد عابدا خرج من بعض قلل الجبال، فلما رآني تنحى عني وتستر بشجرة، فقلت له: سبحان الله! أتبخل علي بالنظر إليك؟ فقال: يا هذا! إني قمت في هذا الجبل دهرا طويلا أعالج قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها فطال في ذلك تعبي وفنى فيه عمري، فسألت الله - تعالى - أن يعطيني ذلك فسكن قلبي عن الاضطراب وألف الوحدة والانفراد، فلما نظرت إليك خفت أن أوقع في الأول فإني أعوذ من شرك برب العالمين وحبيب القانتين ثم صاح وقال: واغماه من طول المكث في الدنيا! ثم حول وجهه عني وقال: سبحان من ذاق قلوب العارفين من لذة الخلوة وحلاوة الانقطاع إليه! ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور

ص ١٦٠

الحسان). وقال بعض الأكابر: إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة فبملاقاة الناس ومخالطتهم يفرح ويطرد الوحشة من نفسه فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة، ويستخرج العلم والحكمة ومن هنا قيل: (الاستيناس بالناس من علامات الافلاس). فمن تيسر له منزلة بدوام الذكر والأنس بالله، وبدوام الفكر والتحقيق في معرفة الله، فالتجرد والخلوة أفضل له من كل ما يتعلق بالمخالطة، فإن غاية العبادات وثمرة المجاهدة أن يموت الإنسان محبا لله عارفا بالله، ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر، ولا معرفة إلا بدوام الفكر، وفراغ القلب شرط لكل منهما، ولا فراغ مع المخالطة. فإن قلت: لا منافاة بين المخالطة مع الناس والأنس بالله، ولذا كان الأنبياء مخالطين بالناس مع غاية استغراقهم في الشهود والأنس. قلنا: لا يتسع للجمع بين مخالطة الخلق ظاهرا، والاقبال التام على الله سرا، إلا قوة النبوة. فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه، فيطمع في ذلك. ثم، بما ذكرناه يظهر وجه الجمع بين الأخبار الواردة من الطرفين فإن ما ورد في فضيلة العزلة إنما هو بالنظر إلى بعض الناس، وما ورد في فضيلة المخالطة أنما هو بالنظر إلى بعض آخر. ومنها:

• السخطup

السخط فيما يخالف هواه من الواردات الإلهية والتقديرات الربانية، ويرادفه الإنكار والاعتراض، وهو من شعب الكراهة لأفعال

الله، وهو ينافي الإيمان والتوحيد. وما للعبد العاجز الذليل المهين الجاهل بمواقع القضاء والقدر، والغافل عن موارد الحكم والمصالح، والاعتراض والانكار والسخط لأفعال الخالق الحكيم العليم الخبير، وأنى للعبد ألا يرضى بما يرضى به ربه، ولعمري! أن من يعترض على فعل الله فهو أشد الجهلاء، ومن لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء. وقد ورد في الخبر القدسي: (خلقت الخير والشر، فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه، وويل ثم ويل لمن قال لم

ص ١٦١

وكيف!). وفي خبر قدسي آخر: (أنا الله لا إله إلا أنا، من لم يصبر على بلائي، ولم يشكر على نعمائي، ولم يرض بقضائي، فليتخذ ربا، سواي). وفي مناجاة موسى: ((أي رب! أي خلقك أحب إليك؟ قال: من إذا أخذت منه المحبوب سالمني. قال: فأي خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: من يستخيرني في الأمر، فإذا قضيت له سخط قضائي). وفي الخبر القدسي : (قدرت المقادير، ودبرت التدبير، وأحكمت الصنعة، فمن رضي فله الرضا مني حين يلقاني، ومن سخط فله السخط مني حين يلقاني). وقال الباقر (ع): (من سخط القضاء مضى عليه القضاء، وأحبط الله أجره). وقال الصادق (ع): (كيف يكون المؤمن مؤمنا، وهو يسخط قسمته، ويحقر منزلته، والحاكم عليه الله، وأنا الضامن لمن لم يهجس في قلبه إلا الرضا أن يدعو الله فيستجاب له) وفي بعض الأخبار: (أن نبيا من الأنبياء شكى إلى الله - عز وجل - الجوع والفقر والعرى عشر سنين فما أجيب إليه، ثم أوحى الله - تعالى - إليه: كم تشكو؟ وهكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض، وهكذا سبق لك مني، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد أن أبدل ما قدرته عليك، فيكون ما تحب فوق ما أحب، ويكون ما تريد فوق ما أريد؟ وعزتي وجلالي! لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى، لأمحونك من ديوان النبوة) (٧). وروي أنه: (أوحى الله - تعالى - إلى داود (ع): تريد وأريد وإنما يكون ما أريد، فإن أسلمت لما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد) (٨). وبالجملة: من عرف أن العالم بجميع أجزائه، من الجواهر والأعراض صادرة عنه على وجه الحكمة والخيرية، وإنها النظام الأصلح الذي لا يتصور

(هامش)

(

٧) صححنا هذا الحديث، وكذا الأخبار القدسية، السابقة، على (إحياء العلوم): ٤ / ٢٩٥ - ٢٩٦ (٨) صححنا هذا الحديث، وكذا ما روي قبله عن أهل البيت - عليهم السلام - على (أصول الكافي): ج ٢ - باب الرضا بالقضاء وعلى (سفينة البحار): ١ / ٢٢٤ (*)

ص ١٦٢

فوقه نظام، ولو تغير جزء منه على ما هو اختلت الأصلحية والخيرية، وعرف الله بالربوبية، وعرف نفسه بالعبودية، يعلم أن السخط والإعراض وعدم الرضا بالشئ مما يرد، ويكون غاية الجهل والخطر، ولذلك لم يكون أحد من الأنبياء أن يقول قط في أمر: ليت كان كذا، حتى قال بعض أصحاب النبي (ص): (خدمت رسول الله (ص) عشر سنين، فما قال لي لشيء فعلته: لما فعلت، ولا لشيء لم أفعله لم لم تفعله، ولا قال في شيء كان: ليته لم يكن، ولا في شيء لم يكن: ليته كان، وكان إذا خاصمني مخاصم من أهله، يقول: دعوه، لو قضى شيء لكان). وروي: (أن آدم (ع) كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون، ويجعل أحدهم رجليه على أضلاعه كهيئة الدرج، فيصعد إلى رأسه، ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق، ولا يرفع رأسه، فقال له بعض ولده: يا أبت! أما ترى ما يصنع هذا بك؟ لو نهيته عن هذا، فقال: يا بني! أني رأيت ما لم تروا، وعلمت ما لم تعلموا، أني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان، ومن دار الشقاء، فأخاف أن أتحرك حركة أخرى فيصيبني ما لا أعلم) (٩).

فصل الرضا up

- فضيلة الرضا - رضا الله - رد إنكار تحقق الرضا - هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا - طريق تحصيل الرضا - التسليم. ضد السخط (الرضا)، وهو ترك الاعتراض والسخط باطنا وظاهرا قولا وفعلا، وهو من ثمرات المحبة ولوازمها، إذ المحب يستحسن كلما يصدر عن محبوبه، وصاحب الرضا يستوي عنده الفقر والغنا، والراحة والعناء، والبقاء والفناء، والعز والذل، والصحة والمرض، والموت والحياة ولا يرجح بعضها على بعض، ولا يثقل شيء منها على طبعه، إذ يرى صدور الكل من الله - سبحانه -، وقد رسخ حبه في قلبه، بحيث

يحب أفعاله ويرجح على مراده مراده - تعالى -، فيرضى لكل ما يكون ويرد، وروي: (أن واحدا من أرباب الرضا عمر سبعين سنة، ولم يقل
(هامش)
(٩) صححنا الحديث على (إحياء العلوم): ٤ / ٢٩٥ (*)
ص ١٦٣
في هذه المدة لشيء كان: ليته لم يكن، ولا لشيء لم يكن: ليته كان). وقيل لبعضهم: (ما وجدت من آثار الرضا في نفسك؟ فقال: ما في رائحة من الرضا، ومع ذلك لو جعلني الله جسرا على جهنم، وعبر علي الأولون والآخرون من الخلائق ودخلوا الجنة، ثم يلقوني في النار، وملأ بي جهنم لأحببت ذلك من حكمه، ورضيت به من قسمه، ولم يختلج ببالي أنه لما كان كذا، وليت لم يكن كذا، ولم هذا حظي وذاك حظهم)). وصاحب الرضا في روح وراحة وسرور وبهجة، لأنه يشاهد كل شيء بعين الرضا وينظر في كل شيء إلى نور الرحمة الإلهية، وسر الحكمة الأزلية فكأن كل شيء حصل على وفق مراده وهواه. وفائدة الرضا، عاجلا، فراغ القلب للعبادة والراحة من الهموم، وآجلا، رضوان الله والنجاة من غضبه - تعالى -.
فصل فضيلة الرضا up
الرضا بالقضاء أفضل مقامات الدين وأشرف منازل المقربين، وهو باب الله الأعظم من دخله دخل الجنة. قال الله - سبحانه -: (رضي الله عنهم ورضوا عنه) (١٠) وعن النبي (ص): (أنه سئل طائفة من أصحابه: ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون و، فقال: ما علامة إيمانكم؟ فقالوا: نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال: مؤمنون ورب الكعبة!)، وفي خبر آخر، قال: (حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء). وقال (ص): (إذا أحب الله عبدا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه). وقال (ص): (أعطوا الله الرضا من قلوبكم، تظفروا بثواب فقركم). وقال (ص): (إذا كان يوم القيامة، أنبت الله - تعالى - لطائفة من أمتي أجنحة، فيطيرون من قبورهم إلى الجنان، يسرحون فيها، ويتنعمون فيها كيف شاؤوا، فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون
(هامش)
(١٠) المائدة، الآية: ١٢٢ التوبة، الآية: ١٠١ المجادلة، الآية: ٢٢ البينة الآية: ٨.
ص ١٦٤
ما رأينا حسابا، فنقول لهم: هل جزتم الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطا، فتقول لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئا، فتقول الملائكة: من أمة من أنتم؟ فيقولون: من أمة محمد (ص)، فتقول: ناشدناكم الله! حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا فيقولون: خصلتان كانتا فينا، فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه، ونرضى باليسير مما قسم لنا، فتقول الملائكة: يحق لكم هذا). وقال الصادق (ع): (أن الله بعدله وحكمته وعلمه، جعل الروح والفرح في اليقين والرضا عن الله - تعالى - وجعل الهم والحزن في الشك والسخط). وروي: (أن موسى (ع) قال: يا رب! دلني على أمر فيه رضاك. فقال - تعالى -: إن رضاي في رضاك بقضائي). وروي: (أن بني إسرائيل قالوا له (ع): سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى عنا، فقال موسى (ع): إلهي! قد سمعت ما قالوا، فقال: يا موسى! قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم) (١١). وقال سيد الساجدين (ع): (الصبر والرضا رأس طاعة الله، ومن صبر ورضي عن الله فيما قضى عليه فيما أحب أو كره، لم يقض الله - عز وجل - له فيما أحب أو كره إلا ما هو خير له). وقال - صلوات الله عليه -: (الزهد عشرة أجزاء، أعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا). وقال الباقر (ع): (أحق خلق الله أن يسلم لما قضى الله - عز وجل -، من عرف الله - عز وجل - ومن رضي بالقضاء، أتى عليه القضاء وعظم الله أجره). وقال الصادق (ع): (أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله). وقال (ع): (قال الله - عز وجل -: عبدي المؤمن، لا أصرفه في شيء إلا جعلته خيرا له، فليرض بقضائي، وليصبر على بلائي وليشكر نعمائي اكتبه يا محمد من الصديقين عندي).
وقال (ع): (عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله - عز وجل - له قضاء إلا كان خيرا له، أن قرض بالمقاريض كان خيرا له، وأن ملك

مشارق الأرض ومغاربها كان خيرا له). وقال (ع):
(هامش)
(١١) صححنا الأحاديث على (إحياء العلوم): ٤ / ٢٩٥ - ٢٩٦. (*)
ص ١٦٥
(إن فيما أوحى الله - عز وجل - إلى موسى بن عمران (ع): يا موسى ابن عمران! ما خلقت خلقا أحب إلي من عبدي المؤمن، وأني إنما أبتليه لما هو خير له، وأعافيه لم هو خير له، وأزوي عنه لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبد، فليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، وليرض بقضائي، اكتبه في الصديقين عندي، إذا عمل برضاي وأطاع أمري). وقيل له (ع): بأي شيء يعلم المؤمن أنه مؤمن؟ قال: (بالتسليم لله، والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط). وقال الكاظم (ع) (ينبغي لمن غفل عن الله، ألا يستبطئه في رزقه، ولا يتهمه في قضائه) (١٢).
وصل رضاء الله up
قد ظهر من بعض الأخبار المذكورة: أن رضا الله - سبحانه - من العبد يتوقف على رضا العبد عنه - تعالى -، فمن فوائد رضا العبد بقضاء الله وثمراته رضا الله - سبحانه - عنه، وهو أعظم السعادات في الدارين، وليس في الجنة نعيم فوقه، كما قال - سبحانه -: (ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر) (١٣) وفي الحديث: (أن الله يتجلى للمؤمنين في الجنة، فيقول لهم: سلوني فيقولون: رضاك يا ربنا!)، فسؤالهم الرضا بعد التجلي، يدل على أنه أفضل كل شيء. وورد في تفسير قوله - تعالى -: (ولدينا مزيد): أنه يؤتى لأهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ليس في الجنان مثلها: إحداها هداية الله، ليس عندهم في الجنان مثلها، وذلك قوله تعالى: (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) (١٤) والثانية: السلام عليهم من ربهم فتزيد ذلك على الهداية، وهو
(هامش)
)
١٢) صححنا الأحاديث على (أصول الكافي) ج ٢ - باب الرضا بالقضاء وعلى (سفينة البحار): ١ / ٥٢٤. (١٣) التوبة، الآية: ٧٣
(١٤) السجدة الآية: ١٧ (*)
ص ١٦٦
قوله - تعالى -: (سلام قولا من رب رحيم) (١٥) والثالثة: يقول الله - تعالى -: (إني عنكم راض)، وهو أفضل من الهدية والتسليم، وذلك قوله - تعالى -: (ورضوان من الله أكبر) (١٦): أي من النعيم الذي هم فيه. ومعنى رضا الله عن العبد قريب من معنى حبه له، إلا أنه في الآخرة سبب لدوام النظر والتجلي في غاية ما يتصور من اللقاء والمشاهدة. ولهذا ليست رتبة في الجنة فوقه. ويروه أهل الجنة أقصى الأماني، وغاية الغايات
فصل رد أنكار تحقق الرضا up
من الناس من أنكر إمكان تحقق الرضا في أنواع البلاء وفيما يخالف الهوى، وقال المتمكن فيهما: هو الصبر دون الرضا، وهو إنما أتى من ناحية إنكار المحبة، إذ بعد ثبوت إمكان الحب لله واستغراق الهم به لا يخفى إيجابه للرضا بأفعال المحبوب. وذلك يكون من وجهين: أحدهما - أن يوجب الاستغراق في الحب إبطال الاحساس بالألم، حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس به، وتصيبه جراحة ولا يدرك المها. ولا تستبعدن ذلك، فإن المحارب عند خوضه في الحرب، وعند شدة غضبه أو خوفه، قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها فإذا رأى الدم استدل به على الجراحة، بل الذي يعدو في شغل مهم قد تصيبه شوكة في قدمه، ولا يحس بألمها لشغل قلبه. والسر: أنا القلب إذا صار مستغرقا بأمر من الأمور، لم يدرك ما عداه. فالعشق المستغرق الهم بمشاهدة المعشوق أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم، لولا عشقه، ولا يدرك ألمه وغمه لاستيلاء الحب على قلبه، وهذا إذا أصابه من غير حبيبه، فكيف إذا أصابه من حبيبه.
(هامش)
(١٥) يس، الآية: ٥٨ (١٦) التوبة، الآية ٧٣ (*)
ص ١٦٧

ولا ريب في أن حب الله - تعالى - أشد من كل حب، وشغل القلب به أعظم الشواغل، إذ جمال الحضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال، فمن ينكشف له شيء منها، فقد يبهره بحيث يدهش ويخشى عليه، ولا يحس بما يجري عليه. وثانيهما - - ألا يبلغ الاستغراق في الحب بحيث لا يحس بالألم ولا يدركه، ولكن يكون راضيا به، بل راغبا فيه، مريدا له بعقله، وإن كان كارها له بطبعه، كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة، فإنه يدرك ألمه، إلا أنه راض به وراغب فيه. فالمحب الخالص لله إذا أصابته بلية من الله، وكان على يقين بأن ثوابها الذي ادخر له فوق ما فاته، رضي بها ورغب فيها، وأحبها وشكر الله عليها. هذا إن كان نظره إلى الثواب والأجر الذي يجازى به على ابتلائه بالمصائب والبلايا، وربما غلب الحب بحيث يكون حظ المحب ولذته وابتهاجه في مراد حبيبه ورضاه لا لمعنى آخر فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده مطلوبا، وكل ذلك مشاهد محسوس في حب الخلق، فضلا عن حب الخالق والجمال الأزلي الأبدي الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط والخطأ، فإن القلوب إذا وقفت بين جماله وجلاله، فإذا لاحظوا جلاله هابوا، وإذا لاحظوا جماله تاهوا ويشهد بذلك حكايات المحبين، على ما هو في الكتب مسطورة، وفي الألسنة والأفواه مذكور. فإن للحب عجائب من لم يذق طعمها لا يعرفها. وقد روينا: أن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق (ع)، كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه، فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع. بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك، وهو قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله، حتى ما أحسسن بذلك.

وروي (أن عيسى (ع) مر برجل أعمى وأبرص، مقعد مفلوج، وقد تناثر لحمه من الجذام، وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من الناس فقال عيسى: يا هذا! أي شيء من البلاء تراه مصروفا عنك؟ فقال: يا روح الله! أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفة، فقال: صدقت! هات يدك، فناوله يده، فإذا هو أحسن الناس وجها، وأفضلهم

ص ١٦٨

هيئة، قد أذهب الله عنه ما كان به، وصحب عيسى وتعبد به).

فصل هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا up

إعلم أن الدعاء غير مناقض للرضا، وكذلك كراهية المعاصي، ومقت أهلها، وحسم أسبابها، والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي. وقد زعمت طائفة من أهل البطالة والغرور: إن جميع ذلك يخالف الرضا. إذ كل ما يقصد رده بالدعاء وأنواع المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره، فيجب للمؤمن أن يرضى به. وقد رأوا السكوت على المنكرات مقاما من مقامات الرضا، وسموه حسن الخلق، وهذا جهل بالتأويل، وغفلة من أسرار الشريعة ودقائقها. أما الدعاء، فلا ريب في أنا قد تعبدنا به، وقد كثرت أدعية الأنبياء والأئمة، وكانوا على أعلى مقامات الرضا، وتظاهرت الآيات وتواترت الأخبار في الأمر بالدعاء وفوائده وعظم مدحه، وأثنى الله - سبحانه - على عباده الداعين، حيث قال: (ويدعوننا رغبا ورهبا) (١٧). وقال (أدعوني أستجب لكم) (١٧). وقال: (أجيب دعوة الداع إذا دعان) (١٩). وهو يوجب صفاء الباطن، وخشوع القلب، ورقة النظر، وتنور النفس وتجليها. وقد جعله الله - تعالى - مفتاحا للكشف، وسببا لتواتر مزايا اللطف والاحسان. وهو أقوى الأسباب لإفاضة الخيرات والبركات من المبادي العالية. فإن قيل: ما يرد على العبد من المكاره والبلايا يكون بقضاء الله وقدره، والآيات والأخبار ناطقة بالرضا بقضاء الله مطلقا، فالتشمر لرده في الدعاء يناقض الرضا. قلنا أن الله - سبحانه - بعظيم حكمته، أوجد الأشياء على التسبيب

(هامش)

(١٧) الأنبياء، الآية: ٩٠ (١٨) المؤمن، الآية ٦٠ (١٩) البقرة الآية: ١٨٦ (*)

ص ١٦٩

والترتيب بينهما فربط المسببات بالأسباب، ورتب بعضها على بعض، وجعل بعضها سببا وواسطة لبعض آخر، وهو مسبب الأسباب. والقدر عبارة عن حصول الموجودات في الخارج من أسبابها المعينة بحسب أوقاتها، مطابقة لما في القضاء، والقضاء عبارة عن ثبوت صور جميع الأشياء في العالم العقلي على الوجه الكلي، مطابقة لما في العناية الإلهية المسماة بالعناية الأولى والعناية عبارة عن إحاطة علم الله - تعالى - بالكل على ما هو عليه إحاطة تامة فنسبة القضاء إلى العناية كنسبة القدر إلى القضاء. ثم، من جملة الأسباب لبعض

الأمور الدعاء والتصدق وأمثالهما. فكما أن شرب الماء سبب رتبه مسبب الأسباب لإزالة العطش، ولو لم يشربه لكان عطشه باقيا إلى أن يؤدي إلى هلاكه، وشرب المسهل سبب لدفع الأخلاط الردية، ولو لم يشربه لبقيت على حالها، وهكذا في سائر الأسباب، وكذلك الدعاء سبب رتبه الله - تعالى - لدفع البلايا ورفعها، ولو لم يدع لنزل البلاء ولم يندفع. فلو قيل: لو كان في علم الله - تعالى - وفي قضائه السابق، أن زيدا - مثلا - يدعو الله، أو يتصدق، عند ابتلائه ببلية كذا، وتندفع به بليته لدعاء أو تصدق، ودفع بليته، ولو كان فيهما أنه لا يدعو الله ولا يتصدق ويبتلي بتلك البلية، لم يدع الله ولم يتصدق، ولم تندفع عنه البلية. والحاصل: إن كل ما تعلقت به العناية الكلية والقضاء الأزلي يحصل مقتضاه في الخارج وعالم التقدير، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر فأي فائدة في سعي العبد واجتهاده قلنا: هذه من جملة شبهات الجبرية على كون العبد مجبورا في فعله ونفي الاختيار عنه، ولا مدخلية لها بكون الدعاء غير مناقض للرضا، وكونه من جملة الأسباب المرتبة منه - تعالى - لحصول مسبباتها، كالتزويج لتحصيل الولد، والأكل والشرب لدفع الجوع والعطش، ولبس الثياب لدفع الحر والبرد، وغير ذلك. ثم الجواب من الشبهة المذكورة وأمثالها مذكور في موضوعها.

وأما إنكار المعاصي وكراهتها، والفرار من أهلها ومن البلد الذي شاعت فيه، فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا بها، فقال:

ص ١٧٠

(ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) (٢٠). وقال: (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم) (٢١) وفي بعض الأخبار: (من شهد منكرا ورضي به فكأنه قد فعله). وفي آخر: (لو أن عبدا قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر بالمغرب، كان شريكا في قتله). وفي آخر: (أن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه)، قيل وكيف ذلك؟ قال (فيبلغه فيرضى به). وأما بعض الكفار والفجار والفساق، ومقتهم والانكار عليهم، فما ورد فيه من شواهد الكتاب والسنة أكثر من أن يحصى. قال الله سبحانه: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء) (٢٢). وقال: ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) (٢٣). وفي الخبر: (إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق). وقال (ص): (أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله). وقد تقدمت جملة من شواهد هذا في باب الحب في الله والبغض في الله. فإن قيل: المعاصي إن لم تكن بقضاء الله وقدره فهو محال وقادح في التوحيد، وإن كانت بقضاء الله مطلقا فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله. والآيات والأخبار مصرحة بوجوب الرضا بقضاء الله مطلقا، وذلك تناقض، فكيف السبيل إلى الجمع؟ وأنى يأتي الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد؟ قلنا: المقرر عند بعض الحكماء: أن الشرور الواقعة في العالم، من المعاصي وغيرها، راجعة إلى الإعدام دون الموجودات، فلا تكون مراده له - تعالى -، ولا داخلة في قضائه، وعند بعضهم أنها داخله في قضائه بالعرض لا بالذات، ولا ضيرة في كراهة ما ليس في قضاء الله - تعالى - بالذات. وعند بعضهم: أنها شرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة. وعلى هذا

(هامش)

(٢٠) يونس الآية: ٧. (٢١) التوبة، الآية ٨٨، ٩٤ (٢٢) آل عمران، الآية: ٢٨ (٢٣ المائدة، الآية: ٥٤ (*)

ص ١٧١

فينبغي أن تكون مكروهة من حيث ذاتها، وبهذه الحيثية لا تكون من قضاء الله والرضا به، وفرضه من خبث كونها باعثة لخيرات كثيرة. والتحقيق: أن الأوصاف الثلاثة ثابتة للشرور الواقعة في العالم، أعني أنها راجعة إلى الإعدام وداخلة في قضائه - تعالى - بالعرض، وشرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة. وعلى هذا فوجه الجمع أظهر. ثم لأبي حامد الغزالي هنا وجه جمع آخر، لا يروي الغليل ولا يشفي العليل. فإن قيل: بعض أهل المعاصي ومقتهم موقوف على ثبوت الاختيار لهم وتمكنهم من تركها، وإثبات ذلك مشكل. قلنا: لا إشكال فيه، إذ البديهة قاضية بثبوت نوع اختيار للعباد في أفعالهم، لا سيما فيما يتعلق به التكليف والخوض في هذه المسألة مما لا ينبغي. فالأولى فيها السكوت، والتأدب بآداب الشرع، والرجوع إلى ما ورد من العترة الطاهرة. وما يمكن أن يقال فيها قد ذكرناه في كتابنا المسمى بـ(جامع الأفكار).

فصل طريق تحصيل الرضا up

الطريق إلى تحصيل الرضا، أن يعلم أن ما قضى الله - سبحانه - له هو الأصلح بحاله، وإن لم يبلغ فهمه إلى سيره فيه. مع أن السخط

والكراهة لا يفيد شيئا ولا يتبدل به القضاء. فإن ما قدر يكون، وما لم يقدر لم يكن، وحسرة الماضي وتدبير الآتي يذهبان بتركه الوقت بلا فائدة، وتبقى تبعة السخط عليه. فينبغي أن يدهشه الحب لخالقه عن الاحساس بالألم، كما للعاشق، وأن يهون عليه العلم بعظم التعب والعناء - كما للمريض والتاجر المتحملين شدة الحجامة والسفر - فيفوض أمره إلى الله، إن الله بصير بالعباد.

تتميم التسليم up

إعلم أن التسليم، ويسمى تفويضا أيضا، قريب من الرضا، بل هو فوق الرضا، لأنه عبارة عن ترك الإعراض في الأمور الواردة عليه، وحوالتها

ص ١٧٢

بأسرها إلى الله، مع قطع تعلقه عليها بالكلية، بمعنى ألا يكون طبعه متعلقا بشيء منها. فهو فوق الرضا، إذ في مرتبة الرضا كلما يفعل الله به يوافق طبعه، فالطبع ملحوظ ومنظور له، وفي مرتبة التسليم يجعل الطبع وموافقته ومخالفته كلها موكلة إلى الله - سبحانه -، وفوق مرتبة التوكل أيضا، إذ التوكل - كما يأتي - عبارة عن الاعتماد في أموره على الله، فهو بمنزلة توكيل الله في أموره، وكأنه يجعل الله - تعالى - بمثابة وكيله، فيكون تعلقه بأموره باقيا، وفي مرتبة التسليم بقطع العلاقة من الأمور المتعلقة به بالكلية ومنها:

• الحزن up

وهو التحسر والتألم، لفقد محبوب، أو فوت مطلوب. وهو أيضا، كالاعتراض والانكار، ومترتب على الكراهة للمقدرات الإلهية. والفرق: إن الكراهة في الاعتراض أشد من الكراهة في الحزن، كما أن ضد الكراهة - أعني الحب في ضدهما - بعكس ذلك، أي ظهوره في السرور الذي ضد الحزن أشد من ظهوره في الرضا الذي هو ضد الاعتراض. فإن الرضا هو منع النفس في الواردات من الجزع مع عدم كراهة وفرح، والسرور هو منعها فيها عن الجزع مع الابتهاج والانبساط. فالسرور فوق الرضا في الشرافة، كما أن الحزن تحت الاعتراض في الخسة والرذالة، وسبب الحزن وشدة الرغبة في المشتهيات الطبيعية، والميل إلى مقتضيات قوتي الغضب والشهوة، وتوقع البقاء للأمور الجسمانية. وعلاجه: أن يعلم أن ما في عالم الكون والفساد من: الحيوان، والنبات، والجماد، والعروض، والأموال، في معرض الفناء والزوال، وليس فيها ما يقبل البقاء وما يبقى ويدوم هو الأمور العقلية، والكمالات النفسية المتعالية عن حيطة الزمان وحوزة المكان وتصرف الأضداد وتطرق الفساد. وإذا تيقن بذلك زالت عن نفسه الخيالات الفاسدة، والأماني الباطلة. فلا يتعلق قلبه بالأسباب الدنيوية، ويتوجه بشراشره إلى تحصيل الكمالات العقلية، والسعادات الحقيقية الموجبة للاتصال بالجواهر النورية الباقية، والمجاورة للأنوار القادسة الثابتة، فيصل إلى مقام البهجة والسرور، ولا تلحقه أحزان

ص ١٧٣

عالم الزور، كما أشير إليه في الكتاب الإلهي بقوله: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٢٤) وفي أخبار داود (ع): (يا داود! ما لأوليائي والهم بالدنيا؟ إن الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم، إن محبي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون). والحاصل: أن حب الفانيات والتعلق بما من شأنه الفوات خلاف مقتضى العقل، وحرام على العاقل أن يفرح بوجود الأمور الفانية، أو يحزن بزوالها. ولقد قال سيد الأوصياء - عليه آلاف التحية والثناء -: (ما لعلي وزينة الدنيا؟ وكيف أفرح بلذة تفنى، ونعيم لا يبقى؟!). بل ينبغي أن يرضي نفسه بالموجود، ولا يغتم بالمفقود، ويكون راضيا بما يرد عليه من خير وشر. وقد ورد في الآثار: (إن الله - تعالى - بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين)، ومن رضي بالموجود ولا يحزن بالمفقود، فقد فاز بأمن بلا فزع، وسرور بلا جزع، وفرح بلا حسرة، ويقين بلا حيرة، وما لطالب السعادة أن يكون أدون حالا من سائر طبقات الناس، فإن كل حزب بما لديهم فرحون، كالتاجر بالتجارة، والزارع بالزراعة، بل الشاطر بالشطارة، والقواد بالقيادة، مع أن ما هو السبب والموجب المفرح في الواقع ونفس الأمر ليس إلا لأهل السعادة والكمال وما لغيرهم محض التوهم ومجرد الخيال. فينبغي لطالب السعادة أن يكون فرحانا بما عنده من الكمالات الحقيقية والسعادات الأبدية، ولا يحزن على فقد الزخارف الدنيوية، والحطام الطبيعية، ويتذكر ما خاطب الله به نبيه (ص): (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) (٢٥) ومن تصفح فرق الناس، يجد أن كل فرقة منهم فرحهم بشيء من الأشياء، وبه اهتزازهم وقوامهم ونظام أمرهم. فالصبيان فرحهم باللعب وتهيئة أسبابه، وهو في غاية القبح والركاكة عند من جاوز مرتبتهم. والبالغون

(هامش)
(٢٤) يونس، الآية: ٦٢. (٢٥) طه، الآية: ١٣١ (*)
ص ١٧٤
حد الرجولة، بعضهم فرحان بالدرهم والدينار، وبعضهم بالضياع والعقار وأخر بالاتباع والانصهار، وفرقة بالنسوان والأولاد، وطائفة بالحرف والصنايع، وبعضهم بالحسب والنسب، والآخر بالجاه والمنصب، وبعضهم بالقوة الجسمانية، وأخر بالجمال الصوري، وطائفة بالكمالات الدنيوية: كالخط والشعر، وحسن الصوت، والطب، والعلوم الغريبة، وغير ذلك، حتى ينتهي إلى من لا يفرح إلا بالكمالات النفسية والرياسات المعنوية وهم أيضا مختلفون، فبعضهم غاية فرحه بالعبادة والمناجاة، وآخر بمعرفة حقائق الأشياء، حتى يصل إلى من ليس فرحه إلا بالأنس بحضرة الربوبية، والاستغراق في لجة أنواره، وسائر المراتب عنده فيئ زائل وخيال باطل. ولا ريب في أن العاقل يعلم أن ما ينبغي أن يفرح ويبتهج به حصول هذه المرتبة وسائر الأمور، كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء. فلا ينبغي للعاقل أن يحزن بفقدها ويفرح بوجودها. ثم من تأمل، يجد أن الحزن ليس أمرا وجوديا لازما، بل هو أمر اختياري يحدثه الشخص في نفسه بسوء اختياره. إذ كلما يفقد من شخص ويحزن لأجله ليس موجودا لكثير من الناس، بل ربما لم يملكوه في مدة عمرهم أصلا، ومع ذلك لا تجدهم محزونين على هدمه، بل فرحون راضون، ولو كان الحزن لازما لفقد هذا الأمر، لكان كل من فقده محزونا، وليس كذلك. وأيضا كل حزن يعرض لأجل مصيبته يزول بعد زمان ويتبدل بالسرور، ولو كان الحزن لأجلها أمر ضروريا لازما لما زال أصلا. ثم العجب من العاقل أن يحزن من فقد الأمور الدنيوية، مع أنه يعلم أن الدنيا دار فناء، وزخارفها متنقلة بين الناس، ولا يمكن بقاؤها لأحد، وجميع الأسباب الدنيوية ودائع الله ينتقل إلى الناس على سبيل التبادل والتناوب. ومثلها مثل شمامة تدار في مجلس بين أهله على التناوب، يتمتع بها في كل لحظة واحد منهم، ثم يعطيها غيره.
فطامع البقاء للحطام الدنيوية كمن طمع في ملكية الشمامة واختصاصها به إذا وصلت إليه نوبة الاستمتاع، وذا استردت منه عرض له الحزن والخجلة. وما المال والأهلون إلا ودائع، ولا بد يوما أن ترد الودائع. فلا ينبغي للعاقل أن
ص ١٧٥
يغتم ويحزن لأجل رد الوديعة، كيف والحزن بردها كفران للنعمة؟ إذ أقل مراتب الشكر أن ترد الوديعة إلى صاحبها على طيب النفس، لا سيما إذا استرد الأخس - أعني الخبائث الدنيوية - وبقي الأشرف - أعني النفس وكمالاتها العلمية والعملية -، فينبغي لكل عاقل ألا يعلق قلبه بالأمور الفانية، حتى لا يحزن بفقدها. قال سقراط: (إني لم أحزن قط، إذ ما أحببت قط شيئا حتى أحزن بفوته، ومن سره ألا يرى ما يسوؤه، فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا). ومنها:
• عدم الاعتماد up
أو ضعفه في أموره على الله، والوثوق بالوسائط، والنظر إليها فيها. وسببه: إما ضعف اليقين أو ضعف القلب، أو كلاهما. فهو من رذائل الإيمان، بل هو من شعب الشرك. ولذا ورد في ذمة من الآيات والأخبار ما ورد، قال الله - سبحانه -: (إن الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم) (٢٦) وقال: (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه) (٢٧) وقال: (ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون) (٢٨) وفي أخبار داود (ع): (ما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماوات من يديه، وأسخطت الأرض من تحته، ولم أبال بأي واد هلك). وقال رسول الله (ص): من اغتر بالعبيد أذله الله). وقيل (مكتوب في التوراة: ملعون من ثقته بإنسان مثله). فينبغي للمؤمن أن يتخلى عنه باكتساب ضده، أعني التوكل، كما يأتي.
وصل التوكل up
- فضيلة التوكل - درجات للتوكل - السعي لا ينافي التوكل - الأسباب التي لا ينافي السعي إليها التوكل - اعقل وتوكل - درجات
(هامش)
)
٢٦) الأعراف، الآية: ١٩٣ (٢٧) العنكبوت، الآية: ١٧. (٢٨) المنافقون، الآية: ٧. (*)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

## ٣٠٨ جامع السعادات (ج3)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ١٧٦

في التوكل تفنيد زعم طريق تحصيل التوكل. * * * التوكل اعتماد القلب في جميع الأمور على الله وبعبارة أخرى: حوالة العبد جميع أموره على الله، وبعبارة أخرى: هو التبري من كل حول وقوة، والاعتماد على حول الله وقوته. وهو موقوف على أن يعتقد اعتقاد جازما بأنه لا فاعل إلا الله، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله وأن له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى عنايته عناية. فمن اعتقد ذلك اتكل قلبه لا محالة على الله وحده، ولم يلتفت إلى غيره، ولا إلى نفسه أصلا. ومن لم يجد ذلك من نفسه، فسببه إما ضعف اليقين، أو ضعف القلب، ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه. فإن القلب الضعيف ينزعج تبعا للوهم، وطاعة له من غير نقصان في اليقين، كانزعاجه أن يبيت مع ميت في قبر أو فراش، مع يقينه بأنه جماد في الحال لا يتصور منه أضرار، فلا ينبغي أن يخاف منه ويفر عنه، كما لا يفر من سائر الجمادات. وكذا من كان ضعيف القلب وتناول العسل - مثلا -، فشبه العسل بين يديه بالعذرة، فربما نفر طبعه لضعف قلبه وتعذر عليه أن يتناوله، مع يقينه بأنه عسل ولا مدخلية للعذر فيه. فالتوكل لا يتم إلا بقوة اليقين وقوة القلب جميعا، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته. فالسكون في القلب شيء آخر، واليقين شيء آخر. فكم من يقين لا طمأنينة معه، كما قال تعالى: (أو لم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي) (٢٩). فالتمس أن يشاهد إحياء الميت بعينه ليثبت اليقين في خياله، فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به، ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمره إلى أن تبلغ درجة النفس المطمئنة، وذلك لا يكون في البداية. وكم من مطمئن لا يقين له، كأرباب الملل والمذاهب الباطلة.

فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده، وكذا النصراني، ولا يقين لهما أصلا، وإنما يتبعون الظن وما

(هامش)

(٢٩) البقرة، الآية: ٢٦٠ (*)

ص ١٧٧

تهوى الأنفس. وإذا توقف التوكل على اليقين وقوة القلب، وارتفع بضعف أحدهما، يظهر أن التوكل من الفضائل المتعلقة بقوتي العاقلة الغضبية معا، وضده - أعني عدم التوكل - من رذائل أحدهما أو كليهما. ثم، إنك قد عرفت في باب التوحيد، أن عماد التوكل وما يبتني عليه، هو المرتبة الثالثة من التوحيد، وهي أن ينكشف للعبد بإشراق نور الحق، بأنه لا فاعل إلا هو، وإن ما عداه من الأسباب والوسائط مسخرات مقهورات تحت قدرته الأزلية. فطالب التوكل يلزم عليه أن يحصل هذه المرتبة من التوحيد ليحصل له التوكل. وقد عرفت - أيضا - أن المرتبة الثانية منه - أعني التوحيد الاعتقادي - إذا قويت ربما أورثت حال التوكل، إلا أن التوكل كما ينبغي موقوف على المرتبة الثالثة منه.

فصل فضيلة التوكل up

التوكل منزل من منازل السالكين ومقام من مقامات الموحدين، بل هو أفضل درجات الموقنين. ولذا ورد في مدحه وفضله وفي الترغيب فيه ما ورد من الكتاب والسنة، قال الله - تعالى -: (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) (٣٠) وقال: (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (٣١). وقال: (إن الله يحب المتوكلين) (٣٢). وقال: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (٣٣). وقال: (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) (٣٤): أي عزيز لا يذل من استجار به، فلا يضع من لاذ بجنابه، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره. وقال رسول الله (ص): (من انقطع إلى الله، كفاه الله كل مؤنة، ورزقه من حيث لا يحتسب. ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها). وقال (ص): (من سره أن يكون

(هامش)

(
٣٠) المائدة، الآية: ٢٦ (٣١) آل عمران، الآية: ١٢٢، ١٦٠، المائدة الآية: ١٢، التوبة، الآية ٥٢ إبراهيم، إبراهيم، الآية: ١١ المجادلة، الآية ١٠ التغابن الآية: ١٣. (٣٢) آل عمران، الآية ١٥٩ (٣٣) الطلاق، الآية: ٣ (٣٤) الانفعال، الآية: ٥٠ (*)
ص ١٧٨
أغنى الناس، فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده). وقال (ص): (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقتم كما ترزق الطيور تغدو خماصا وتروح بطانا). وعن علي بن الحسين - عليهما السلام - قال: (خرجت حتى انتهيت إلى هذا الحائط، فاتكأت عليه، فإذا رجل عليه ثوبان أبيضان ينظر في تجاه وجهي، ثم قال: يا علي بن الحسين! ما لي أراك كئيبا حزينا؟ أعلى الدنيا؟ فرزق الله حاضر للبر والفاجر. قلت: ما على هذا أحزنت، وإنه لكما تقول. قال: فعلى الآخرة؟ فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر قادر. قلت: ما على هذا أحزن، وإنه لكما تقول. فقال: مم حزنك؟ قلت مما نتخوف من فتنة ابن الزبير وما فيه للناس. قال: فضحك، ثم قال: يا علي بن الحسين! هل رأيت أحدا دعا الله فلم يجبه؟ قلت: لا! قال: فهل رأيت أحدا توكل على الله فلم يكفه؟ قلت: لا! قال: فهل رأيت أحدا سأل الله فلم يعطه؟ قلت: لا!... ثم غاب عني)، ولعل الرجل كان هو الخضر - على نبينا وعليه السلام - وقال الصادق (ع): (أوحى الله إلى داود: ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي، عرفت ذلك من نيته، ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن، إلا جعلت له المخرج من بينهن).
وقال (ع): (إن الغنى والعز يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا) وقال (ع): (من أعطى ثلاثا لا يمنع ثلاثا: من أعطى الدعاء أعطى الإجابة، ومن أعطى الشكر أعطى الزيادة، ومن أعطى التوكل أعطى الكفاية ثم قال: أتلوت كتاب الله - عز وجل - (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقال: (ولئن شكرتم لأزيدنكم)، وقال: (ادعوني استجب لكم)؟) وقال (ع): (إيما عبد أقبل قبل ما يحب الله - تعالى - أقبل الله قبل ما يحب ومن اعتصم بالله عصمه الله، ومن أقبل الله قبله وعصمه، لم يبالي لو سقطت السماء على الأرض، أو كانت نازلة نزلت على أهل الأرض فتشملهم بلية، كان في حزب الله بالتقوى من كل بلية، أليس - تعالى - يقول: (إن المتقين في مقام أمين)؟). وقال (ع) (إن الله - تعالى - يقول: وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي! لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس في غيري باليأس، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس، ولأنحينه من قربي
ص ١٧٩
ولأبعدنه من وصلي، أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي؟ ويرجو غيري؟ ويقرع بالفكر باب غيري، وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة؟ وبابي مفتوح لمن دعاني، فمن ذا الذي أملني لنوائبه فقطعته دونها، ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني؟ جعلت آمال عبادي عندي محفوظة، فلم يرضوا بحفظي، وملأت سماواتي ممن لا يمل من تسبيحي، وأمرتهم ألا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي، فلم يثقوا بقولي، ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي أنه لا يملك كشفها أحد غيري إلا من بعد أذني؟ فما لي أراه لاهيا عني؟ أعطيته بجودي ما لم يسألني، ثم انتزعته عنه فلم يسألني رده، وسأل غيري، أفتراني أبدأ بالعطاء قبل المسألة؟ ثم أسأل فلا أجيب سائلي؟ أبخيل أنا فيبخلني عبدي؟ أو ليس الجود والكرم لي؟ أو ليس العفو والرحمة بيدي؟ أولست أنا محل الآمال؟ فمن يقطعها دوني؟ أفلا يخشى المؤملون أن يؤملوا غيري؟ فلو أن أهل سماواتي وأهل أرضي أملوا جميعا، ثم أعطيت كل واحد منهم مثلما أمل الجميع، ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة، وكيف ينقص ملك أنا قيمه؟ فيا بؤسا للقانطين من رحمتي! ويا بؤسا لمن عصاني ولم يراقبني! (٣٥)
فصل درجات التوكل up
للتوكل في الضعف والقوة ثلاث درجات: الأول - أن يكون حاله في حق الله والثقة بعنايته وكفالته كحاله بالثقة بالوكيل، وهذه أضعف الدرجات ويكثر وقوعها ويدوم مدة مديدة، ولا ينافي أصل التدبير والاختيار بل ربما زاول كثيرا من التدبيرات بسعيه واختياره. نعم ينافي بعض التدبير، كالتوكل على وكيله في الخصومة، فإنه يترك تدبيره من غير جهة الوكيل، ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه (هامش)
)

٣٥) صححنا الأحاديث على (أصول الكافي): ج ٢، باب التفويض إلى الله والتوكل عليه وعلى (البحار): باب التوكل والتفويض والرضا: مج ١٥ ٢ / ١٥٣، ط (أمين الضرب). وللعلامة (المجلسي) - قدس سره - في الموضع المذكور، في الحديث الخامس، تحقيق دقيق وبيان لطيف، لا يسع المقام ذكره هنا، فمن أراد الوقوف عليه، فعليه بمراجعة الموضع المذكور. (*)

ص ١٨٠

وكيله، ولا التدبير الذي عرفه من عادته وسنته دون تصريح إشارته. الثانية - أن تكون حاله مع الله كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها، ولا يفزع إلا إليها، ولا يعتمد إلا عليها. فإن رآها تعلق في كل حال بذيلها، وإن ورد عليه أمر في غيبتها كان أول سابق لسانه يا أماه!. والفرق بين هذا وسابقه، إن هذا متوكل قد فنى في موكله عن توكله، أي ليس يلتفت قلبه إلى التوكل، بل التفاته إنما هو إلى المتوكل عليه فقط، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه. وأما الأول فتوكل بالكسب والتكلف، وليس فانيا عن توكله، أي له التفات إلى توكله، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده. وهذا أقل وقوعا ودواما من الأول إذ حصوله إنما هو للخواص، وغاية دوامه أن يدوم يوما أو يومين، وينافي التدبيرات، إلا تدبير الفزع إلى الله بالدعاء والابتهال، كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط. الثالثة - وهي أعلى الدرجات، أن يكون بين يدي الله في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل، بأن يرى نفسه ميتا، وتحركه القدرة الأزلية كما يحرك الغاسل الميت. وهو الذي قويت نفسه، ونال الدرجة الثالثة من التوحيد. والفرق بينه وبين الثاني، أن الثاني لا يترك الدعاء والتضرع ، كما إن الصبي يفزع إلى أمه، ويصيح ويتعلق بذيلها، ويعدو خلفها، وهذا ربما يترك الدعاء والسؤال ثقة بكرمه وعنايته، فهذا مثال صبي علم أنه لم يرض بأمه، فالأم تطلبه، وإن لم يتعلق بذيلها فهي تحمله، وإن لم يسأل اللبن فهي تسقيه. ومن هذا القسم توكل إبراهيم الخليل (ع) لما وضع في المنجنيق ليرمى به إلى النار، وأشار إليه روح الأمين بسؤال النجاة والاستخلاص من الله سبحانه - فقال: (حسبي من سؤالي علمه بحالي). وهذا نادر الوقوع، عزيز الوجود، فهو مرتبة الصديقين، وإذا وجد فدوامه لا يزيد على صفرة الوجل، أو حمرة الخجل، وهو ينافي التدبيرات ما دام باقيا، إذ يكون صاحبه كالمبهوت.

ثم، توكل العبد على الله قد يكون في جميع أموره، وقد يكون في بعضها. وتختلف درجات ذلك بحسب كثرة الأمور المتوكل فيها وقلتها. وقال الكاظم (ع) في قوله

ص ١٨١

عز وجل -: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ٣٦ التوكل على الله درجات، منها أن تتوكل على الله في أمورك كلها فما فعل بك كنت عنه راضيا، تعلم أنه لا يألوك خيرا وفضلا، وتعلم أن الحكم في ذلك له، فتوكل على الله بتفويض ذلك إليه، وثق به فيها وفي غيرها. ولعل سائر درجات التوكل أن يتوكل على الله في بعض أموره دون بعض، وتعدد الدرجات حينئذ بحسب كثرة الأمور المتوكل فيها وقلتها.

فصل السعي لا ينافي التوكل up

إعلم أن الأمور الواردة على العباد إما أن تكون خارجة عن قدرة العباد ووسعهم، بمعنى أنه لا تكون لها أسباب ظاهرة قطعية أو ظنية لجلبها أو دفعها أو تكون لها أسباب جالبة لها أو دافعة إياها، إلا أن العبد لا يتمكن منها. فمقتضى التوكل فيها ترك السعي بالتمحلات والتدبيرات الخفية، وجوالتها على رب الأرباب، ولو دبر في تغييرها بالتمحلات والتكلفات، لكان خارجا عن التوكل رأسا، أو لا تكون خارجة عن قدرتهم، بمعنى أن لها أسبابا قطعية أو ظنية يمكن للعبد أن يحصلها ويتوصل بها إلى جلبها أو دفعها. فالسعي في مثلها لا ينافي التوكل، بعد أن يكون وثوقه واعتماده بالله دون الأسباب. فمن ظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالعقل رأسا، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، فقد أبعد عن الحق، لأن ذلك محرم في الشرع الأقدس، فإن الشارع كلف الإنسان بطلب الرزق بالأسباب التي هداه الله إليها، من زراعة، أو تجارة، أو صناعة، أو غير ذلك مما أحله الله، وبإبقاء النسل بالتزويج، وكلفه بأن يدفع عن نفسه الأشياء المؤذية بالتوسل إلى الأسباب المعينة لدفعها. وكما أن العبادات أمور أمر الله - تعالى - عباده بالسعي فيها، ليحصل لهم بها التقرب إليه والسعادات في دار الآخرة، فكذلك طلب الحلال ودفع الضرر والألم عن النفس والأهل والعيال أمور أمرهم الله - تعالى - ليحصل لهم

(هامش)

(٣٦) الطلاق، الآية: ٣ (*)
ص ١٨٢
بها التوسل إلى العبادات وما يؤدي إلى التقرب والسعادة. ولكنه - سبحانه - كلفهم أيضا بالا يثقوا إلا به، ولا يعتمدوا على الأسباب. كما إنه - سبحانه - كلفهم بالا يتكلوا على أعمالهم الحسنة، بل على فضله ورحمته. فمعنى التوكل المأمور به في الشريعة: اعتماد القلب على الله في الأمور كلها، وانقطاعه عما سواه. ولا ينافيه تحصيل الأسباب إذا لم يسكن إليها، وكان سكونه إلى الله - سبحانه - دونها مجوزا في نفسه أن يؤتيه الله مطلوبه من حيث لا يحتسب، دون هذه الأسباب التي حصلها، وأن يقطع الله هذه الأسباب عن مسبباتها.
فصل الأسباب التي لا ينافي السعي إليها التوكل up
الأسباب التي لا ينافي تحصيلها ومزاولتها للتوكل، هي الأسباب القطعية أو الظنية، وهي التي يقطع أو يظن بارتباط المسببات بها بتقدير الله ومشيته ارتباطا مطردا لا يتخلف عنها، سواء كانت لجلب نفع أو لدفع ضر منتظر أو لإزالة آفة واقعة، وذلك كمد اليد إلى الطعام للوصول إلى فيه، وحمل الزاد للسفر، واتخاذ البضاعة للتجارة، والوقاع لحصول الأولاد، وأخذ السلاح للعدو، والادخار لتجدد الاضطرار، والتداوي لإزالة المرض، والتحرز عن النوم في ممر السيل ومسكن السباع وتحت الحائط المائل، وغلق الباب، وعقل البعير، وترك الطريق الذي يقطع أو يظن وجود السارقين أو السباع الضارة فيه... وقس عليها غيرها. وأما الأسباب الموهومة، كالرقية، والطيرة، والاستقصاء في دقائق التدبير، وإبداء التحلات لأجل التبديل والتغيير، فيبطل بها التوكل، لأن أمثال ذلك ليست بأسباب عند العقلاء، وليست مما أمر الله - تعالى - بها، بل ورد النهي عنها، على أن المأمور به الإجمال في الطلب وعدم الاستقصاء قال رسول الله (ص): (إلا أن الروح الأمين نفت في روعي: أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله - تعالى - وأجملوا في طلب). وقال (ص): (ما أجمل في الطلب من ركب البحر). وقال الصادق (ع): (ليكن طلب المعيشة فوق كسب المضيع، ودون طلب
ص ١٨٣
الحريص، الراضي بدنياه، المطمئن إليها، ولكن أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف، ترفع نفسك عن منزلة الواهن الضعيف، وتكتسب ما لا بد منه، إن الذين أعطوا المال ثم لم يشكروا لا مال لهم). وقال (ع): (إذا فتحت بابك، وبسطت بساطك، فقد قضيت ما عليك).
فصل اعقل وتوكل up
إعلم أن التوكل لا يبطل بالأسباب المقطوعة والمظنونة، مع أن الله قادر على إعطاء المطلوب بدون ذلك، لأن الله - سبحانه - ربط المسببات بالأسباب، وأبى أن يجري الأشياء إلا بالأسباب. ولذا لما أهمل الأعرابي بعيره، وقال: توكلت على الله، قال له النبي (ص): اعقلها وتوكل) وقال الصادق (ع): أوجب الله لعباده أن يطلبوا منه مقاصدهم بالأسباب التي سببها لذلك وأمرهم بذلك) وقال الله تعالى: (خذو حذركم (٣٧). وقال في كيفية صلاة الخوف: (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) ٢٨ وقال: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قود ومن رباط الخيل) ٣٩. وقال لموسى: (فاسر بعبادي ليلا) ٤٠ والتحصين بالليل اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر. وفي الإسرائيليات: إن موسى بن عمران (ع) اعتل بعلة، فدخل عليه بنو إسرائيل، فعرفوا علته، فقالوا له: لو تداويت بكذا لبرئت، فقال لا أتداوى حتى يعافني الله من غير دواء. فطالت علته، فأوحى الله إليه: وعزتي وجلالي! لا أبرؤك حتى تتداوى بما ذكروه لك. فقال لهم داووني بما ذكرتم فداووه فبرئ. فأوجس في نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه: أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك على، فمن أودع العقاقير منافع الأشياء غيري؟) وروي: (أن زاهدا من الزهاد، فارق الأمصار وأقام في سفح جبل، فقال لا أسأل شيئا حتى يأتيني ربي برزقي. فقعد سبعا، فكاد
(هامش)
(٣٧) النساء الآية: ٧٠ (٣٨) النساء الآية: ١٠١ (٣٩) الأنفال، الآية ٦١. (٤٠) الدخان الآية: ٢٣ (*)
ص ١٨٤
يموت ولم يأته رزق، فقال: يا رب! إن أحييتني فأتني برزقي الذي قسمت لي، وإلا فاقبضني إليك. فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي وجلالي لا أرزقك حتى تدخل الأمصار، وتقعد بين الناس. فدخل المصر فأقام، فجاء هذا بطعام، وهذا بشراب، فأكل وشرب

فأوجس في نفسه ذلك، فأوحى الله له: أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا: أما علمت أني أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلي من أن أرزقه بيد قدرتي لا)

فصل درجات الناس في التوكل up

إعلم أن درجات الناس - كما عرفت - في التوكل مختلفة، بحسب تفاوت مراتبهم في قوة اليقين وضعفه، وفي قوة التوحيد وضعفه: فمنهم: من كمل إيمانه ويقينه، بحيث سقط وثوقه عن الأسباب بالكلية، وتوجه بشراشره إلى الواحد الحق، ولا يرى مؤثرا إلا هو، وليس نظره إلى غيره أصلا، وقلبه مطمئن ساكن بعنايته بحيث لا يختلج بباله احتمال أن يكله ربه إلى غيره، ولا يعتري نفسه اضطراب أصلا. فلا بأس لمثله أن يعرض عن الأسباب المقطوعة أو المظنونة بالكلية، لأن الله سبحانه يحفظه ويحرسه ويصلح أموره، ويرزقه من حيث لا يحتسب، سواء حصل الأسباب أم لا، وسواء كسب أم لم يكتسب، إلا أنه ربما لم يترك السبب والكسب ويتبع أمر الله فيه، إلا أنه ليس وثوقه إلا بالله دون السبب والكسب. وما ورد من حكايات بعض الكمل من الأولياء، من أنهم يسافرون في البوادي التي لا يطرقها الناس بغير زاد ثقة بالله، ويصل إليهم الرزق، أو لا يحترزون من السباع الضارة، أو يغلظون القول بالنسبة إلى أهل الاقتدار من الملوك والسلاطين من دون خوف ومبالاة، اعتمادا على الله، والله - سبحانه - ينجيهم منهم، كانوا منهم أي من الكاملين في التوكل. قال الصادق (ع): (أبى الله - عز وجل - أن يجعل أرزاق المؤمنين إلا من حيث لا يحتسبون) وإنما خصه بالمؤمنين، لأن كمال الإيمان يقتضي ألا يثق صاحبه بالأسباب وأن يتوكل على الله - عز وجل وحده. وكمال الإيمان إنما يكون

ص ١٨٥

لصاحب العلم المكنون من الأنبياء والأولياء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. ومنهم: من لم يبلغ قوة إيمانه ويقينه حدا تغيب عن نظره الأسباب والوسائط، ويكون مقصور الالتفات إلى جانب الحق. فهذا هو الذي لا ينبغي له أن يعرض عن الأسباب ويتركها، لأن مثله ليس له المظنة التي توصله إلى المقصد بدون الوسائط: أعني قوة التوكل على الله واليقين به سبحانه

فصل تفنيد زعم up

بعض الناس زعم: أن حق التوكل أن يكتفي بالأسباب الخفية عن الأسباب الجلية، كأن يسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس بغير زاد بعد أن راض نفسه على جوع الأسبوع وما يقاربه، بحيث يصبر عنه من غير ضيق قلب، واضطراب نفس، وتشويش خاطر وفتور في ذكر الله، وبعد أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق له، وأن يوطن نفسه على أنه مات جوعا كان خيرا له في الآخرة وكأن يجلس في مسجد أو بيته ويترك الكسب، ويتفرغ للعبادة والفكر والذكر، واستغراق وقته بها، بحيث لا يستشرف نفسه إلى الناس في انتظاره ومن يدخل فيحمل إليه شيئا، بل يكون قوي القلب في الصبر والاتكال على الله. وهذا محض الخطأ، إذ من جاهد نفسه وراضها بحيث يصبر على جوع الأسبوع، ويمكنه التقوت بالحشيش، صارت الأسباب له جليه فإن عدم الحاجة أحد الغنائين. ثم إن كان اعتماده - حينئذ - على صبره وتمكنه من التقوت بالحشيش، فأين التوكل؟ وإن كان وثوقه بالله وحده فليقم في بلده مع الأسباب، كما أمر الله به في الشرع. وأما توطين نفسه باختياره على الموت، فممنوع عقلا، ومحرم شرعا. قال الله - سبحانه -: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة)

(هامش)

(٤١) البقرة الآية ١٩٥. (*)

ص ١٨٦

وأما الجالس في بيته التارك لكسبه، يعبد الله من دون طلب، فهو أيضا قد ترك متابعة أمر الله. قال الصادق (ع): (إن من يقوته أشد عبادة منه) وربما يكون مثله كلا على الناس، فإن حاله ينادي بالبؤس واليأس، بل هو ضرب على تواطن الناس وتعرض للذل. وبالجملة لا مدخل لخفاء الأسباب وجلائها في التوكل، بعد ما تقرر أن معناه الثقة بالله وحده لا بالأسباب، فسواء وجود الأسباب وفقدها وجلاؤها وخفاؤها.

فصل طريق تحصيل التوكل up

الطريق إلى تحصيل التوكل - بعد تقوية التوحيد والاعتقاد، بأن الأمور بأسرها مستندة إليه سبحانه، وليس لغيره مدخلية فيها - أن

يتذكر الآيات والأخبار المذكورة الدالة على فضيلته ومدحه، وكونه باعث النجاة والكفاية، ثم يتذكر أن الله - سبحانه - خلقه بعد أن لم يكن موجودا وأوجده من كتم العدم، وهيأ له ما يحتاج إليه، وهو أرأف بعباده من الوالدة بولدها، وقد ضمن بكفايته من توكل عليه، فيستحيل أن يضيعه بعد ذلك ولا يكفيه مؤنته، ولا يوصل إليه ما يحتاج، ولا يدفع عنه ما يؤذيه، لتقدسه من العجز والنقص والخلف والسهو. وينبغي أن يتذكر الحكايات التي فيها عجائب صنع الله في وصول الأرزاق إلى صاحبها وفي دفع البلايا والأسواء عن بعض عبيده، والحكايات التي فيه عجائب قهر الله في إهلاك أموال الأغنياء وإذلال الأقوياء، وكم من عبد ليس له مال وبضاعة ويرزقه الله بسهولة، وكم من ذي مال وثروة هلكت بضاعته أو سرقت وصار محتاجا، وكم من قوي صاحب كثرة وعدة وسطوة صار عاجزا ذليلا بل سبب ظاهر، وكم من ذليل عاجز صار قويا واستولى على الكل. ومن تأمل في ذلك، يعلم أن الأمور بيد الله فيلزم الاعتماد عليه والثقة به. والمناط أن يعلم أن الأمور لو كانت بقدرة الله - سبحانه - من غير مدخلية للأسباب والوسائط فيها، فعدم التوكل عليه - سبحانه - والثقة بغيره غاية الجهل، وإن كانت لغيره - سبحانه من الوسائط والأسباب مدخلية، فالتوكل من جملة أسباب الكفاية وإنجاح الأمور، إذ السمع

ص ١٨٧

والتجربة شاهدان بأن من توكل عليه وانقطع إليه كفاه الله كل مؤنه. فكما أن شرب الماء سبب لإزالة العطش، وأكل الطعام سبب لدفع الجوع، فكذا التوكل سبب رتبه مسبب الأسباب لإنجاح المقاصد وكفاية الأمور. وعلامة حصول التوكل، ألا يضطرب قلبه، ولا يبطل سكونه بفقد أسباب نفسه وحدوث أسباب ضره. فلو سرقت بضاعته، أو خسرت تجارته، أو تعوق أمر من أموره، كان راضيا به، ولم تبطل طمأنينته، ولم تضطرب نفسه، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا. فإن من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب بفقده، ومن اضطر لفقد شيء فقد سكن إليه واطمأن به. ومنها:

• الكفران up

وضده الشكر الشكر - فضيلة الشكر - الشكر نعمة يجب شكرها - المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه - أقسام النعم واللذات - الأكل - لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل - عجائب المأكولات - حاجة تحضير الطعام إلى آلاف الأسباب - تسخير الله التجار لجلب الطعام - نعم الله في خلق الملائكة للانسان - الأسباب الصارفة للشكر - طريق تحصيل الشكر - الصحة خير من السقم. * * * وبعد ما تعرف حقيقة الشكر، وكونه متعلقا بأي القوى، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران وكونه من رذائل القوى. فنقول:

الشكر up

هو عرفان النعمة من المنعم، والفرح به، والعمل بموجب الفرح بإضمار الخير، والتحميد للمنعم، واستعمال النعمة في طاعته. أما المعرفة، فبأن تعرف أن النعم كلها من الله، وأنه هو المنعم، والوسائط مسخرات من جهته. ولو أنعم عليك أحد، فهو الذي سخره لك، وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات ما صار به مضطرا إلى الايصال إليك، فمن عرف ذلك، حصل أحد أركان الشكر لله، وربما كان مجرد ذلك شكرا، وهو الشكر بالقلب. كما روي: (أن موسى قال في مناجاته: إلهي

ص ١٨٨

خلقت آدم بيدك، وأسكنته جنتك، وزوجته حواء أمتك، فكيف شكرك؟ فقال: علم أن ذلك مني، فكانت معرفته شكرا). ثم هذه المعرفة فوق التقديس وفوق بعض مراتب التوحيد، وهما داخلان فيها. إذ التقديس تنزيهه - سبحانه - عن صفات النقص، والتوحيد قصر المقدس عليه، والاعتراف بعدم مقدس سواه وهذه المعرفة هي اليقين بأن كل ما في العالم موجود منه، والكل نعمة منه، فينطوي فيه مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل، ولذلك قال رسول الله (ص): (من قال: سبحانه الله، فله عشر حسنات، ومن قال: لا إله إلا الله، فله عشرون حسنة ومن قال: الحمد لله، فله ثلاثون حسنة). فسبحان الله: كلمة تدل على التقديس، ولا إله إلا الله: كلمة تدل على التوحيد، والحمد لله: كلمة تدل على معرفة النعم من الواحد الحق. ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير عقد القلب بمعانيها، بل هي بإزاء الاعتقاد بمعانيها التي هي المعارف المعدودة من أبواب الإيمان واليقين. وأما الفرح بالمنعم، مع هيئة الخضوع والتواضع، فهو أيضا من أركان الشكر. بل كما أن المعرفة شكر قلبي برأسه، فهو أيضا في نفسه شكر

بالقلب، وإنما يكون شكرا إذا كان فرحه بالمنعم أو بالنعمة لا من حيث أنه نعمة ومال ينتفع به ويلتذ منه في الدنيا، بل من حيث أنه يقدر بها على التوصل إلى القرب من المنعم والنزول في جواره، والنظر إلى وجهه على الدوام. وأمارته ألا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة الآخرة ومعينة عليها، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله وتصده عن سبيله، لأنه ليس يريد النعمة لذاتها، بل من حيث أنها توصله إلى مجاورة المنعم وقربه ولقائه. وأما العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم، هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه، وهو يتعلق بالقلب واللسان والجوارح. أما المتعلق بالقلب فقصده الخير وإضماره لكافة الخلق. وأما المتعلق باللسان فإظهار الشكر لله من تحميدات الدالة عليه.

وأما المتعلم بالجوارح، فاستعمال نعم الله في طاعته ولتوقي من الاستعانة بها على معصيته حتى أن من جملة شكر العينين أن يستر كل عيب يراه من مسلم، ومن جملة شكر الأذنين

ص ١٨٩

أن يستر كل عيب يسمعه من مسلم، فيدخل هذا وأمثاله في جملة شكر نعمة هذه الأعضاء بل قيل: من كفر نعمة العين ولم يستعملها فيما خلقت لأجله كفر نعمة الشمس أيضا، إذ الأبصار إنما يتم بها، وإنما خلقتها ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه، ويقي بهما ما يضره فيهما. بل المراد من خلق السماء والأرض وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين بها على الوصول إلى الله ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا، والتجافي عن الدنيا وغرورها ولذاتها وعلائقها، ولا أنس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الذكر والفكر إلا ببقاء البدن، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء والنار، ولا يتم ذلك إلا بخلق الأرض والسماء وخلق سائر الأشياء وكل، ذلك لأجل البدن. والبدن مطية النفس. والنفس الراجعة إلى الله هي المطمئنة بطول العبادة والمعرفة. فكل من استعمل شيئا بغير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه على تلك المعصية. وإذا عرفت حقيقة الشكر، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران، فإنه عبارة عن الجهل بكون النعم من الله، أو عدم الفرح بالمنعم والنعمة من حيث إيصالها إلى القرب منه، أو ترك استعمال النعمة فيما يحبه المنعم، أو استعمالها في ما يكرهه. ثم، بما ذكرناه، وإن ظهر أن حقيقة الشكر ملتئمة من الأمور الثلاثة، إلا أنه قد يطلق الشكر على كل واحد أيضا، كما قال الصادق (ع): (شكر كل نعمة، وإن عظمت، أن تحمد الله)، وقال (ع): (شكر النعم اجتناب المحارم، وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله رب العالمين).

وسئل عنه (ع): (هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكرا؟ قال: نعم! قيل: ما هو؟ قال: يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال، وإن كان فيما أنعم عليه في ماله حق أداه. ومنه قوله - جل وعز -: (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (٤٢). ومنه قوله تعالى (رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) (٤٣). وقوله: (رب أدخلني

(هامش)

(٤٢) الزخرف، الآية: ١٣ (٤٣) المؤمنون، الآية: ٢٩. (*)

ص ١٩٠

مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) (٤٤) وقال - (ع): (كان رسول الله (ص) إذا ورد عليه أمر يسره، قال: الحمد لله على هذه النعمة. وإذا ورد عليه أمر يغتم به، قال: الحمل لله على كل حال). وقال (ع). (إذا أصبحت وأمسيت، فقل عشر مرات: اللهم ما أصبحت بي من نعمة أو عافية في دين أو دنيا، فمنك وحدك لا شريك لك لك الحمد ولك الشكر بها علي يا رب، حتى ترضى وبعد الرضا. فإنك إذا قلت ذلك، كنت قد أديت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم وفي تلك الليلة). وفي رواية: (كان نوح (ع) يقول ذلك إذا أصبح، فسمي بذلك عبدا شكورا). وقال (ع): (إذا ذكر أحدكم نعمة الله، فليضع خده على التراب شكرا لله، فإن كان راكبا فلينزل وليضع خده على التراب وإن لم يكن يقدر على النزول للشهرة فليضع خده على قربوسه (٤٥)، وإن لم يقدر فليضع خده على كفه، ثم ليحمد الله على ما أنعم عليه). وروي: (أن الصادق (ع) قد ضاعت دابته، فقال: لئن ردها الله علي لأشكرن الله حق شكره) قال الرواي: فما لبث أن أتي بها، فقال: (الحمد لله). فقال قائل له جعلت فداك! أليس قلت

لأشكرن الله حق شكره؟ فقال أبو عبد الله (ع) (ألم تسمعني قلت: الحمد لله؟) (٤٦). ثم الشكر باللسان لإظهار الرضا من الله، ولذا أمر به. وقد كان السلف يتسائلون بينهم، ونيتهم استخراج الشكر لله، ليؤجر كل واحد من الشاكر والسائل. وقد روي: (أن رسول الله (ص) قال لرجل: كيف أصبحت؟ فقال: بخير. فأعاد عليه السؤال فأعاد عليه الجواب، فأعاد السؤال ثالثة، فقال: بخير، أحمد الله وأشكره. فقال (ص): هذا الذي أردت منك) (تنبيه) لا ريب في أن الجزء الأول من الشكر - أعني معرفة النعم من الله - من متعلقات العاقلة وفضائلها. والثاني - أعني الفرح للنفس -

(هامش)

(

٤٤) الإسراء، الآية: ٨٠ (٤٥) القربوس - بفتحتين -: حنو السرج، أي قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره. (٤٦) هذه الرواية مذكورة في (أصول الكافي) ج ٢ - باب الشكر. وفي (الوافي: ٣ / ٣٢٤ - باب الشكر. إلا أن المنقول في نسخ (جامع السعادات) فيه اختلاف كثير عما في الموضوعين فصححناها عليهما. (*)

ص ١٩١

إن كان من النعم العقلية الروحانية، يكون متعلقا بالعاقلة أيضا، وإن كان لأجل وصول نعمة الغلبة والاستيلاء - مثلا - على عدو ظالم، يكون متعلقا بالقوة الغضبية، وإن كان من نعمة المال والأولاد، يكون متعلقا بالقوة الشهوية. والجزء الثالث - أعني العمل بمقتضى الفرح الحاصل من معرفة المنعم - فهو من ثمرات الحب للمنعم والخوف من زوال نعمته. وبهذا يظهر: أن الشكر والكفران من متعلقات القوى الثلاث، الأول من فضائلها إذا امتزجت وتسالمت، والثاني من رذائلها.

فصل فضيلة الشكر up

الشكر أفضل منازل الأبرار، وعمدة زاد المسافرين إلى عالم الأنوار، وهو موجب لدفع البلاء وازدياد النعماء. وقد ورد به الترغيب الشديد، وجعله الله سببا للمزيد. قال الله - سبحانه -: (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) (٤٧). وقال: (لئن شكرتم لأزيدنكم) (٤٨) وقال: فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) (٤٩). وقال (وسنجزي الشاكرين)) ٥٠ ولكونه غاية الفضائل والمقامات، ليس لكل سالك أن يصل إليه، بل ليس الوصول إليه إلا لأوحدي من كمل السالكين. ولذا قال الله رب العالمين: (وقليل من عبادي الشكور) ٥١ وكفى به شرفا وفضلا، أنه خلق من أخلاق الربوبية، كما قال الله - سبحانه -: (والله شكور حليم) ١. وهو فاتحة كلام أهل الجنة وخاتمته، كما قال الله - تعالى -: (وقالوا الحمد

(هامش)

(٤٧) النساء، الآية: ١٤٦ (٤٨) إبراهيم، الآية: ٧. (٤٩) البقرة، الآية ١٥٢ (٥٠) لا عمران، الآية: ١٤٥ (٥١) سبأ، الآية: ١٣ (١) التغابن، الآية: ١٧. (*)

ص ١٩٢

لله الذي صدقنا وعده) (٣). وقال: (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) ٣ وقال رسول الله (ص): (الطاعم الشاكر، له من الأجر كأجر الصائم المحتسب. والمعافى الشاكر، له من الأجر كأجر المبتلى الصابر. والمعطى الشاكر، له من الأجر كأجر المحروم القانع). وقال (ص): (إن للنعم أوابد كأوابد الوحش، فقيدوها بالشكر). وقال (ص): (ينادي مناد يوم القيامة: ليقوم الحمادون! فيقوم زمرة. فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة) فقيل: من الحمادون؟ فقال: (الذين يشكرون الله على كل حال) وقال السجاد (ع): (إن الله - سبحانه - يحب كل عبد حزين، ويحب كل عبد شكور). وقال الباقر (ع): (كان رسول الله (ص) عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله! لم تتعب نفسك وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة! ألا أكون عبدا شكورا؟... قال: وكان يقوم على أطراف أصابع رجليه، فأنزل الله - تعالى -: طه! ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى). وقال الصادق (ع): (ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهرا بلسانه، فتم كلامه، حتى يؤمر له بالمزيد). وقال (ع): ((ثلاث لا يضر معهن شيء): الدعاء عند الكرب، والاستغفار عند الذنب، والشكر عند النعمة) (٤). وقال (ع): (في كل نفس من أنفاسك شكر لازم لك، بل ألف أو أكثر، وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله - تعالى - من غير علة يتعلق القلب بها دون الله - عز وجل - أو الرضا بما أعطى، وألا

تعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب نعمته. فكن لله عبدا شاكرا على كل حال، تجد الله ربا كريما على كل حال، ولو كان عند الله - تعالى - عبادة تعبد بها عباده المخلصون أفضل من الشكر على كل حال، لأطلق لفظة منهم على جميع الخلق بها، فلما لم يكن أفضل منها، خصها من بين العبادات، وخص أربابها، فقال:
(هامش)
)
٢) الزمر، الآية: ٧٤ (٣) يونس الآية: ١٠ (٤) صححنا الأحاديث على (أصول الكافي): ج ٢، باب الشكر. وعلى (البحار): مج ١٥: ٢ / ١٣٢ / ١٣٥، باب الشكر. (*)
ص ١٩٣
(وقليل من عبادي الشكور). وتمام الشكر الاعتراف بلسان السر، خاضعا لله بالعجز عن بلوغ أدنى شكره، لأن التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها، وهي أعظم قدرا وأعز وجودا من النعمة التي من أجلها وفقت له، فليزمك على كل شكر شكر أعظم منه، إلى ما لا نهاية له، مستغرقا في نعمه، قاصرا عاجزا عن درك غاية شكره، وأنى يلحق العبد شكر نعمة الله، ومتى يلحق صنيعه بصنيعه، والعبد الضعيف لا قوة له أبدا إلا بالله - عز وجل - والله غني عن طاعة العبد قوي على مزيد النعم على الأبد، فكن لله عبدا شاكرا على هذا الأصل، ترى العجب (٥) ثم كما إن الشكر من المنجيات الموصلة إلى سعادة الأبد وزيادة النعمة في الدنيا، فضده أعني الكفران - من المهلكات المؤدية إلى شقاوة السرمد وعقوبة الدنيا وسلب النعم. قال الله - سبحانه -: (فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) ٦. وقال تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ٧ وقال الصادق (ع) إشكر من أنعم عليك. وانعم على من شكرك، فإنه لا زوال للنعماء إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت. الشكر زيادة في النعم وأمان من الغير، أي من التغيير).
فصل الشكر نعمة يجب شكرها up
لما كانت حقيقة الشكر عبارة عن عرفان كل النعم من الله مع صرفها في جهة محبة الله، فالشكر على كل نعمة على أن تعرف كونها من الله وتصرفها في جهة محبته. ولا ريب في أن هذه المعرفة والصرف أيضا نعمة من الله، إذ جميع ما يتعاطاه باختيارنا نعمة من الله، لأن جوارحنا، وقدرتنا، وإرادتنا، ودواعينا، وإفاضة المعارف علينا، وسائر الأمور التي هي أسباب حركاتنا، بل نفس حركاتنا، من الله. وعلى هذا، فالشكر على كل نعمة
(هامش)
)
٥) صححنا الحديث على مصباح (الشريعة): الباب السادس. وعلى (سفينة البحار) ١ / ٧١٠ (٦) النحل الآية: ١١١ (٧) الرعد: ١٢ (*)
ص ١٩٤
نعمة أخرى من الله يحتاج إلى شكر آخر. وهو أن يعرف أن هذا الشكر أيضا نعمة من الله - سبحانه - فيفرح به ويعمل بمقتضى فرحه. وهذه المعرفة والفرح تحتاج إلى شكر آخر. وهكذا فلا بد من الشكر في كل حال، وليس يمكن أن تنتهي سلسلة الشكر إلى ما لا يحتاج إلى شكر. فغاية شكر العبد أن يعرف عجزه عن أداء حق شكره - تعالى - إذ عرفان عجزه مسبب عن عرفان جميع النعم، حتى شكره من الله وهذا غاية ما يمكن للعبد. ويشهد بذلك ما روي: (أن الله - عز وجل - أوحى إلى موسى (ع): يا موسى! اشكرني حق شكري. فقال: يا رب! كيف أشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلا وأنت أنعمت به علي؟ قال: يا موسى! الآن شكرتني، حيث علمت أن ذلك مني) وكذلك أوحى ذلك إلى داود، فقال: (يا رب! كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك). وفي لفظ آخر: (وشكري لك نعمة أخرى منك ويوجب علي الشكر لك، فقال: إذا عرفت هذا فقد شكرتني). وفي خبر آخر: (إذا عرفت أن النعم مني، رضيت عنك بذلك شكرا). وروي: (أن السجاد (ع) كان إذا قرأ هذه الآية (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يقول: سبحان من لم يجعل في أحد من معرفة نعمه إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها!) كما لم يجعل في أحد من معرفة إدراكه أكثر من العلم أن لا يدركه فشكره - تعالى - معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره، فجعل معرفتهم بالتقصير شكرا، كما علم

علم العارفين بأنهم لا يدركونه، فجعله إيمانا علما منه أنه قد وسع العباد فلا يتجاوز ذلك فإن شيئا من خلقه لا يبلغ مدى عبادته، فكيف يبلغ مدى عبادته من لا مدى له ولا كيف؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وقال أبو الحسن (ع): (من حمد الله على النعمة فقد شكره، وكان الحمد لله أفضل من تلك النعمة (٨) يعني أنه نعمة فوق تلك النعمة، يستدعي شكرا آخر.

(
هامش)

(٨) صححنا الروايات على (أصول الكافي) ج ٢، باب الشكر. وعلى (الوافي) ٣ / ٣٢٤ باب الشكر (*)

ص ١٩٥

فصل المدرك لتمييز محاب الله عن مكارهه up

لما عرفت أن الشكر عبارة عن استعمال نعم الله فيما يحبه، والكفران عبارة عن نقيض ذلك - أعني ترك استعمالها فيه أ استعمالها فيما يكرهه - فلا بد من معرفة ما يحبه وما يكرهه، وتمييز محابه عن مكارهه، حتى يتمكن من أداء الشكر وترك الكفران، لتوقفهما على معرفتهما وتمييزها. وهذا التمييز والتعريف له مدركان: أحدهما - الشرع، فإنه كشف عن جميع ما يحبه وما يكرهه، عبر عن الأول بالواجبات والمندوبات، وعن الثاني بالمحرمات والمكروهات. فمعرفة ذلك موقوفة على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمن لم يطلع على حكم الشرع في جميع أفعاله، ولم يمكنه القيام بحق الشكر. وثانيهما - العقل والنظر بعين الاعتبار، فإن العقل متمكن - في الجملة - من أن يدرك بعض وجوه الحكم في بعض الموجودات. فإن الله سبحانه ما خلق شيئا في العالم إلا وفيه حكم كثيرة، وتحت كل حكمه مقصود ومصلحة وهذا المقصود والمصلحة هو محبوب الله تعالى. فمن أستعمل كل شيء على النحو الذي يؤدي إلى المقاصد المطلوبة وعلى الجهة التي خلق لها فقد شكر نعم الله تعالى، وإن استعمل شيئا على النحو الذي لم يؤد إلى المقصود منه أو في جهة غير الجهة التي خلق لها، فقد كفر نعمة الله). ثم العقل لا يتمكن من معرفة كل حكمة مطلوبة من كل شيء، إذ الحكم المقصودة من الأشياء، إما جلية أو خفية. أما الجلية: كحكمة حصول الليل والنهار في وجود الشمس، وحكمة انتشار الناس وسكونهم في وجود الليل والنهار، وحكمة انشقاق الأرض بأنواع النبات في وجود الغيم ونزول الأمطار وحكمة الأبصار في العين، والبطش في اليد، والمشي في الرجل، وحصول الأولاد، وبقاء النسل في الآت التناسل وخلق الشهوة، وحكمة المضغ والطحن في خلق الأسنان وأمثال ذلك.

وأما الحكم الخفية: كالحكم التي في خلق الكواكب السيارة والثابتة، واختصاص كل منها بقدر معين وموضع خاص، والحكم التي في بعض الأعضاء الباطنية للحيوان، من

ص ١٩٦

الأمعاء والمرارة والكلية وأحاد العروق والأعصاب والعضلات، وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظة وغير ذلك. فهذه الحكم وأمثالها لا يعرفها كل أحد، ومن يعرف منها شيئا فلا يعرف إلا قدرا يسيرا. فإن جميع أجزاء العالم، سماءه وكواكبه، وما فيها من الأوضاع والحركة والاختصاصات، وعناصره من كثرة النار والهواء والماء والأرض، وما فيها من البحار والجبال والرياح، والمعدن والنبات والحيوان، لا تخلو ذرة من ذراته من حكم كثيرة من عشرة إلى ألف أو أكثر، وقليل منها جلية، وأكثرها دقيقة خفية، وبعضها متوسطة في الجلاء والخفاء، يعرفها المتفكرون في خلق السماوات والأرض، وأكثر الحكم الدقيقة مما لا يعرفها غير خالقها وموجودها. ثم ما عدا الإنسان من الأشياء المجردة والمادية، الروحانية والجسمانية، جارية على وفق الحكمة، ومستعملة ذواتها وأجزاؤها وما يتعلق بها على الوجه الذي هو مقتضى المصلحة المقصودة منها وأما الإنسان فلكونه محل الاختيار ومجراه فقد يجري ويستعمل الأشياء التي يتمكن من استعمالها على خلاف ذلك، فيكون كافرا بنعمة الله سبحانه. فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة الله في اليد، إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه، ويأخذ ما ينفعه، لا ليهلك به غيره. ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين، لأنها خلقت ليبصر بها ما ينفعه في دينه ودنياه، ويتقي بها ما يضره فيهما. ومن أدخر الدراهم والدنانير وحبسهما فقد كفر نعمة الله فيهما، لأنهما حجران لا منفعة ولا عوض في أعيانهما، وإنما خلقهما الله تعالى ليكونا حاكمين يحصل بهما التعديل والمساواة والتقدير بين سائر الأموال من الأعيان المتناثرة المتباعدة، فهما عزيزان في أنفسهما.

ولا غرض في أعينهما. ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة. فمن ملكهما فكأنه ملك، كل شيء لا كمن ملك ثوبا، فإنه لا يملك إلا الثوب. فإن أحتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب، إذ لا غرض له في ذاته، بخلاف النقدين، فإنهما من حيث الصورة كأنهما ليسا بشيء، ومن حيث المعنى كإنهما كل الشيء. والأشياء إنما تستوي نسبتها إلى المختلفات - إذا لم يكن لها صورة خاصة تقيدها
ص ١٩٧
بخصوصها - كالمرآة لا لون لها وتحكي كل لون، وكالحرف لا معنى لها في نفسها بل تظهر لها المعاني في غيرها، وكذلك النقدان، لا غرض فيهما مع كونهما وسيلة إلى كل غرض. فالحكمة في خلقهما أن يحكما بين الأموال بالعدل، وتعرف بهما المقادير المختلفة، وتقوم بهما الأشياء المتباينة، ويحصل التوسل بهما إلى سائر الأموال. فيلزم إطلاقهما لتداولهما الأيدي، وتحصل بهما التسوية في تبادل الأعيان والمنافع المتخالفة، فمن ادخرهما وحبسهما فقد ظلمهما، وأبطل الحكمة فيهما، وكفر نعمة الله فيهما، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن، ومن لم يدخرهما ولم يتصرف أزيد مما يحصل به التوصل إلى ما يحتاج، وأنفق الزائد في سبيل الله، فهو الذي استعملهما على وفق الحكمة وشكر نعمة الله فيهما. ولما عجز أكثر الناس عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحاتها في فائدتهما وحكمتهما بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت، أخبرهم الله عن ذلك بقوله: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) ٩ وبما ذكرنا من وجه الحكمة فيهما، يظهر أن من أتخذ الأواني منهما فقد كفر نعمة الله فيهما أيضا، وكذا من عاملة معاملة الربا فيهما فقد كفر النعمة وظلم، لأنها أنما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما، إذ لا غرض في عينيهما، فإذا أتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصودا لأنفسهما على خلاف وضع الحكمة، وكذلك الحكمة في خلق الأطعمة أن يتغذى بها فلا ينبغي أن تصرف عن جهتها وتقيد في الأيدي، بل اللازم أن تخرج عن يد المستغني عنها إلى المحتاج. ولذا ورد في الشرع حرمة الاحتكار والمنع عن معاملة الربا في الأطعمة، لأن ذلك يوجب صرفها عن الحكمة المقصودة منها. وإذا عرفت ذلك، فقس عليه جميع أفعالك وأعمالك وحركاتك وسكناتك، فإن كل فعل يصدر منك أما شكر أو كفران لا يتصور أن ينفك عنهما، مثلا لو استنجيت باليمين، فقد كفرت نعمة اليدين، إذ خلق الله اليدين وجعل
(هامش)
(
٩) التوبة، الآية: ٣٥ (*)
ص ١٩٨
إحداهما أقوى، واستحق الأقوى لرجحانه التفضيل، وتفضيل الناقص عليه عدول عن العدل، وهذا التفضيل إنما يتصور بأن تصرف الأقوى في الأفعال الشريفة، كأخذ المصحف وأكل الطعام، وتصرف الأضعف في الأعمال الخسيسة، كإزالة النجاسة، فمن خالف ذلك فقد عدل عن العدل وأبطل الحكمة وكفر النعمة، وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت، لأن الخف وقاية للرجل، فللرجل فيه حظ، والبداءة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالأشرف، وهو العدل والعمل على وفق الحكمة، فخلافه ظلم وكفران. وكذلك إن استقبلت القبلة عند قضاء الحاجة، فقد كفرت نعمة الله في خلق الجهات وخلق سعة العالم، لأنه خلق الجهات متعددة متسعة، وشرف بعضها بأن وضع فيه بيته، فينبغي استقباله بالأفعال الشريفة، كالصلاة والجلوس للذكر والاغتسال والوضوء دون الأفعال الخسيسة، كقضاء الحاجة ورمي البزاق، فمن قضى حاجته أو رمى بزاقه إلى جهة القبلة فقد ظلمها وكفر نعمة الله. وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة مهمة، ومن غير غرض صحيح، فقد كفر نعمة الله في خلق الأشجار وفي خلق اليد. أما اليد فلأنها لم تخلق للعبث، بل للطاعة المعينة عليها. وأما الشجر، فلأن الله تعالى خلقه، وخلق له العروق وساق إليه الماء، وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده، فكسره قبل منتهى نشوه لأعلى وجه ينتفع به عباده، مخالفة المقصود الحكمة وعدول عن العدالة. نعم أن كان له غرض صحيح في كسره فله ذلك. إذ الشجر والحيوان جعلا فداءين لأغراض الإنسان، فإنهما جميعا فانيان هالكان. فإفناء الأخس في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعا. وإليه الإشارة بقوله تعالى: (وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا) ١٠ ثم هذه الأفعال المتصفة بالكفران، بعضها يوجب نقصان القرب وانحطاط المنزلة، وبعضها

يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد
(هامش)
(
١٠) الجافية الآية: ١٢ (*)
ص ١٩٩
الذي هو أفق الشياطين. ولذلك يوصف بعضها - في لسان الفقه - بالكراهة وبعضها بالحضر. وقد سومح في الفقه حيث جعل فيه بعض هذه المكاره مكروهة غير محضورة، مع أن جميعها عدول عن العدل، وكفران للنعمة، ونقصان عن الدرجة المبلغة إلى القرب، لأن الخطاب به إنما هو إلى العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام، وقد انغمسوا في ظلمات أعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها. فإن المعاصي كلها ظلمات، إلا أن بعضها فوق بعض، فيتمحق بعضها في جنب البعض. ولذا ترى أن السيد يعاتب عبده إذا استعمل سكينه بغير أذنه، ولكن لو قتل، بهذا السكين أعز أولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير أذنه حكم ونكاية في نفسه. ولذا جميع هذه المكاره موصوفة عند أرباب القلوب بالحضر، ولا يتسامحون في شيء مما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب. حتى نقل: (أن بعضهم جمع أكرارا من الحنطة يتصدق بها، فسئل عن سببه فقال: لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا، فأريد أن أكفره بالصدقة).
فصل أقسام النعم واللذات up
إعلم أن النعمة عبارة عن كل خير ولذة وسعادة، بل كل مطلوب ومؤثر. وهي تنقسم إلى مؤثر لذاته لا لغيره، أي تكون غاية مطلوبة لذاتها ليس فوقها غاية أخرى، وهي مخصوصة بسعادة الآخرة التي لا انقضاء لها، أعني لذة النظر إلى وجه الله، وسعادة لقائه، وسائر لذات الجنة، من البقاء الذي لا فناء له، والسرور الذي لا غم فيه، والعلم الذي لا جهل معه، الغنى الذي لا فقر بعده وغير ذلك. فإنها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها، بل تطلب لذاتها، وهذه هي النعمة الحقيقية واللذة الواقعية، ولذلك قال رسول الله (ص): (لا عيش إلا عيش الآخرة)، وغالب هذه النعمة والسعادة وأقواها وأشرفها هي اللذة والبهجة المرضية العقلية دون الجسمانية - كما لا يخفى -، فيختص بإدراكها العقل، ولاحظ للسمع والبصر والشم والبطن والفرج فيها. وإلى ما يقصد لغيره، أي تكون مطلوبة لأجل الغاية المطلوبة لذاتها ووسيلة إليها، سواء أكانت مقصودة
ص ٢٠٠
لذاتها أيضا أم لا. وهي تنقسم إلى أربعة أقسام: القسم الأول - وهو الأقرب الأخص: الفضائل النفسية المذكورة في هذا الكتاب، ويجمعها العلم والعفة والشجاعة والعدالة، وهذه مع كونها لذيذة في نفسها، تكون وسيلة إلى النعمة التي هي غاية الغايات بلا توسط وسيلة أخرى. ولذلك قلنا: هي أقرب الوسائل وأخصها. وأشرفها العلم وأشرف أفراد العلم: العلم بالله وصفاته وملائكته ورسله، وأحوال النشأة الآخرة، وسائر أفعاله، وعلم المعاملة الراجع إلى علم الأخلاق، إذ هو الذي يؤدي إلى السعادة الحقيقية بلا توسط شيء آخر، وسائر العلوم إنما هي مقصودة من حيث كونها وسائل إلى هذا العلم، وهذه الفضائل لذيذة في الدنيا والآخرة نافعة فيهما، أي تؤدي إلى الراحة فيهما، وجميلة على الإطلاق، أي تستحسن في جميع الأحوال. ضدها - أعني الجهل والأخلاق السيئة - ضارة مؤلمة في الدارين، قبيحة على الإطلاق. وسائر الصفاة ليست جامعة لهذه الأوصاف. فإن أكل لذائذ الأطعمة وطيباتها يوجب اللذة والنفع، أي حصول الراحة في الحال، ولكنه ضار في المال، وترك الشهوات بعكس ذلك. ثم لذة المعرفة وفضائل الأخلاق دائمة لازمة لا تزول أبدا، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وعقلية يختص بإدراكها العقل دون سائر الحواس. وأما غيرها من اللذات، فبعضها مما يشترك فيه الإنسان وبعض الحيوانات، كلذة الرئاسة والغلبة والاستيلاء، وهذه اللذة موجودة في الأسد والنمر وبعض أخر من الحيوانات وبعضها مما يشترك فيه الإنسان وسائر الحيوانت ا، كلذة البطن والفرج وهي أخس اللذات ولذلك اشترك فيها كلما ما دب ودرج، حتى الديدان والحشرات. فمن جاوز هذه اللذة، تشبثت به لذة الغلبة والاستيلاء، فإن جاوزها أيضا ارتقى إلى اللذة العقلية، فصار أقرب اللذات عليه لذة المعرفة، لا سيما لذة معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله.
وهذه مرتبة الصديقين، ولا ينال تمامها إلا بخروج حب الرئاسة من القلب، وآخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرئاسة والجاه،

ولذلك قمعها بالكلية، بحيث لا يقع بها الاحساس قط، يشبه أن يكون
ص ٢٠١
خارجا عن مقدرة البشر. نعم ربما غلبت لذة المعرفة في أحوال، بحيث لا يقع معها الاحساس بلذة الجاه والرئاسة، إلا أن ذلك لا يدوم، بل تعتريه الفترات، فتعود إلى الحالة البشرية. وعلى هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام: لا يحب إلا الله، ولا يستريح إلا إليه، وليس فرحه إلا بزيادة المعرفة والفكر فيه، ولا يسكن إلا بحبه وأنسه، وقلب: أغلب أحواله الأنس بالله والتلذذ بمعرفته والفكر فيه، ولكن في بعض الأوقات والأحوال يعتريه الرجوع إلى أوصاف البشرية. وقلب: أغلب أحواله التلذذ بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشهوات البدنية، وفي بعض الأوقات يتلذذ بالعلم والمعرفة وحب الله والأنس به. وقلب: لا يدري ما لذة المعرفة وما معنى الأنس بالله، وإنما لذته بالرئاسات والشهوات. والأول - أن كان ممكنا في الوجود فهو في غاية الندور. والثاني - أيضا نادر. والسر في ندور هذين القسمين: أن من انحصرت لذاته بمعرفة الله وحبه وأنسه، أو غلب عليه ذلك، فهو من ملوك الآخرة، والملوك هم الأقلون ولا يكثرون فكما لا يكون الفائق في الملك والاستيلاء في الدنيا إلا نادرا، وأكثر الناس دونهم، فكذا في ملك الآخرة فإن الدنيا مرآة الآخرة. إذ الدنيا عالم الشهادة وفي الآخرة عالم الغيب، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب، كما إن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة، وهي وإن كانت الثانية في رتبة الوجود، إلا أنها في أمر الرؤية أولى، لأنك ترى صورتك في المرآة أولا، ثم ترى نفسك، فتعرف بالصورة القائمة بالمرآة صورتك التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة، فانقلب التابع في الوجود متبوعا في حق الرؤيا والمعرفة، وانقلب المتأخر متقدما.
وهذا النوع من الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم. وكذا عالم الملك والشهادة يحاكي عالم الغيب والملكوت، فمن الناس من لا ينظر في مرآة عالم الشهادة إلا بنظر الاعتبار، فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت، فيسمى عبوره عبرة، وقد أمر الخلق به، فقيل: (فاعتبروا يا أولي الأبصار) ١١
(هامش)
(١١) الحشر الآية: ٢ (*)
ص ٢٠٢
ومنهم من عميت بصيرته، فلم يعتبر، فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستفتح إلى حبسه له أبواب جهنم. وأما الثالث - فأكثر وجودا منه. وأما الرابع - فدار الدنيا طافحة به، لقصور أكثر الناس عن إدراك لذة العلم، إما لعدم الذوق، إذ من لم يعرف ولم يشتق، إذ الشوق فرع الذوق وذلك إما لقصور فطرتهم وعدم اتصافهم بعد بالصفة التي بها يستلذ العلم، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل، ولا يستلذ إلا باللبن، فهؤلاء ممن يحيي باطنه بعد كالطفل. وإما لمرض قلوبهم أو موتها بسبب أتباع الشهوات، كالمريض الذي لا يدرك لذة الشكر، أو الميت الذي سقط عنه الإدراك، وهؤلاء كالمرضى أو الأموات بسبب اتباع الشهوات. القسم الثاني - الفضائل البدنية: وهي أربعة: الصحة، والقوة، وطول العمر، والجمال. الثالث - النعم الخارجة المضيفة بالبدن: وهي: المال، والجاه، والأهل، وكرم العشيرة. الرابع - الأسباب التي تناسب وجه الفضائل النفسية، ويعبر عنها بالنعم التوفيقية: وهي هداية الله، ورشدة، وتسديده، وتأييده وهذه الجملة مما يتوقف بعضها على بعض، إلى أن ينتهي إلى السعادة التي هي مطلوبة لذاتها. والتوقف إما على سبيل اللزوم والضرورة، كتوقف سعادة الآخرة على الفضائل النفسية والبدنية، وتوقف الفضائل النفسية على صحة البدن، أو على سبيل النفع والإعانة، كتوقف الفضائل النفسية والبدنية على النعم الخارجة. ووجه كونها معينة نافعة في تحصيل العلم وتهذيب الأخلاق وصحة البدن ظاهر. وإعانة الجمال في كسب الفضائل النفسية والبدنية مبني على أن القبيح مذموم، والطباع عنه نافرة، فحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب، وجاهه في الصدور أوسع. وأيضا الغالب دلالة الجمال على فضيلة النفس، لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن. ولذلك عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن.
ثم إنا لا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة، فإن ذلك أنوثة، بل نعني به البراءة عن العيوب والنقص والزيادة، وارتفاع القامة على الاستقامة، مع الاعتدال
ص ٢٠٣

في اللحم، وتناسب الأعضاء، وتناسب خلقة الوجه، بحيث لا تنبو الطباع عن النظر إليه. وأما احتياج الفضائل الخلقية والجسمية والخارجية إلى النعم التوقيفية، فلأن المراد بالتوقيفية هو التآلف بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره، بشرط كون المراد والمقضى سعادة. وبعبارة أخرى: هو توجيه الأسباب نحو المطلوب. وأما الهداية، فلها مراتب: أولاها: الهداية العامة، وهي إراءة طريق الخير وتعريفه. وثانيتها: الخاصة، وهي الإفاضات المتتالية الواردة من الله على بعض عبيده، نظرا إلى مجاهدتهم. وثالثتها: الهداية المطلقة، وهي النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية فيهتدى بهما إلى ما لا يهتدى إليه بالعقل. وتوقف تحصيل كل خير وفضيلة، كائنا ما كان، على مساعدة القضاء والقدر، وعلى العلم بطريق الخير، ظاهر. وأما الرشد، فالمراد به العناية الإلهية، التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده، فيقويه على ما فيه صلاحه، ويفتره عما فيه فساده، ويكون ذلك من الباطن. وبعبارة أخرى: هو هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها. وقد ظهر احتياج تحصيل الخير والسعادة إليه من مفهومه. وأما التسديد، فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه، ليصل إليه في أسرع وقت. فالهداية محض التعريف، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء إلى صوب الصواب والسداد. وقد ظهر وجه كون التسديد معينا في طلب الخير أيضا من حاق معناه. وأما التأييد، فإنه جامع للكل، بل هو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة فكأنه من داخل، وبقوة البطش ومساعدة الأسباب من خارج.

وتقرب منه العصمة، وهي عبارة عن وجود إلهي يسنح في الباطن يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر، حتى يصير كمانع باطني غير محسوس يمنع عن الشر. وهو المراد من برهان الرب في قوله تعالى: (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) (١٢) (هامش)

(١٢) يوسف، الآية: ٢٤. (*)

ص٢٠٤

تنبيه up

إعلم أن النعم الأخروية، التي هي الغايات المطلوبة لذواتها، وتفاصيلها وأسبابها وما يتوقف وجودها عليه، إلى أن ينتهي إلى مسبب الأسباب، مما لا يمكن دركها، والعقول البشرية قاصرة عن درك قليلها فضلا عن كثيرها. وأما الوسائل الأربعة من النعم التي انقسم كل منها أيضا إلى أربعة أقسام، وصار مجموعها ستة عشر قسما، فيستدعي كل قسم من الستة عشر أسبابا، وتلك الأسباب أسبابا، حتى تنتهي بالآخرة إلى مسبب الأسباب وموجود الكل. والمتفكر يعلم، أن كلا منها يتوقف على نعم وأسباب أخرى متسلسلة خارجة عن حد الاحصاء. فإن نعمة الصحة التي من النعم الواقعة في المرتبة المتأخرة تتوقف على أسباب ونعم من جملتها نعمة الأكل، فإن إحصاءها وإن لم يكن ممكنا، إلا أنا نشير إلى بعضها على سبيل التلويح دون الاستقصاء، لتقاس عليها البواقي. فنقول: نعمة الأكل تتوقف على إدراك الغذاء وأسبابه، وعلى شهوة الطعام وميله وإرادته وأسبابه، وعلى القدرة إلى تحصيله وأسبابه، وعلى وجود أصل الغذاء المأكول وتكونه، وعلى إصلاحه بعد وجوده وتكونه، وعلى الأسباب الموصلة له إلى كل إنسان أو كان بعيدا عنه، وعلى أسباب الطحن والجذب والهضم والدفع وسائر الأفعال الباطنة إلى أن يصير جزء للبدن، وعلى الملائكة الموكلين على فعل من الأفعال المذكورة. فها هي نذكرها إجمالا وتلويحا في فصول:

فصل الأكل up

الأكل يتوقف أولا على إدراك الغذاء المأكول رؤية ولمسا واستشماما وذوقا، إذ ما لم يبصره لم يمكنه تمييزه وطلبه، وما لم يلامسه لم يتمكن من درك بعض أوصافه اللازمة في الأكل، وما لم يشمه لم يتشخص ما يكرهه رائحته عما تطيب رائحته، وربما توقف تحصيله على استشمام رائحته من بعد، لا سيما لبعض الحيوانات، وما لم يذقه لم يدرك أنه موافق أو مخالف له، وبذلك ظهر توقفه على خلق الحواس المدركة الظاهرة، فخلقها الله

ص ٢٠٥

سبحانه. ثم، الأسباب التي يتوقف عليها خلق هذه الحواس مما لا تتناهى، فلا نتعرض لبيانها. وبعد إدراك الغذاء - على ما ذكر - لا بد له من قوة أخرى يعرف بها كون الغذاء الذي ذاقه سابقا ورآه مرة أخرى موافقا أو مخالفا، وهذه القوة هي الحس المشترك، الذي يتأدى إليه جميع المحسوسات ويجتمع فيه، فإنك إذا أكلت شيئا أصفر مثلا فوجدته مرا مخالفا لك فتركته فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر ما لم تذقه، لولا الحس المشترك، إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة، والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة، فلا بد

من حاكم يجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعا، حتى إذا أدرك الصفرة حكم بأنه مر، فيمتنع عن تناوله ثانيا. وهذه القوة - أعني الحس المشترك - يتوقف خلقه على أسباب ونعم لا يمكن إحصاؤها، فلتذرها على سنابلها. ثم الإدراك بالحواس الظاهرة والحس المشترك، مما تشترك فيه سائر الحيوانات، ولو انحصر إدراك الإنسان أيضا به لكان ناقصا. إذ البهيمة تأكل ما تستلذ به في الحال ويضرها في ثاني الحال، فتمرض وتموت، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر، وأما إدراك العواقب فليس لها إليه سبيل. فيتوقف تمييز صلاح العواقب وفسادها على قوة أخرى. فخلق الله للانسان العقل، به يدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها في المآكل، وبه يدرك كيفية طبخ الأطعمة وتركيبها وأعداد أسبابها، فينتفع بعقله في الأكل الذي هو سبب صحته وهو أخس فوائد العقل وأقل الحكم فيه، إذ الحكم والفوائد المترتبة عليه أكثر من أن تحصى، وأعظم الحكم فيه معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله. والعقل بمنزلة السلطان في مملكة البدن، والحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار والموكلين بنواحي المملكة، وقد وكل كل واحدة منها بأمر خاص. فواحدة بأخبار الألوان، وأخرى بأخبار الأصوات وأخرى بأخبار الروائح، وأخرى بأخبار الطعون، وأخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة.
فهذه الجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة، ويسلمونها إلى الحس المشترك، وهو قاعد في مقدمة الدماغ، مثل صاحب الكتب والقصص على باب الملك، يجمع
ص٢٠٦
القصص والكتب الواردة من نواحي العالم، ويأخذها ويسلمها إلى العقل الذي هو السلطان مختومة، إذ ليس له إلا أخذها وحفظها، وأما معرفة حقائق ما فيها فليس إليه. ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلم، لأنها آتية إليه مختومة، فيفتشها الملك ويطلع على أسرار المملكة، ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها. وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود - أعني الأعضاء - في الطلب أو الهرب أو إتمام التدبيرات التي تعن له. ثم عجائب حكم العقل والأسباب التي يتوقف خلقه عليها ليس دركها في مقدرة البشر، وهذه ما يتوقف عليه الأكل من الإدراكات وأسبابها.
فصل لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل up
إذا أدرك الغذاء، لم يفد فائدة ما لم تكن شهوة له وميل وشوق إليه. إذ لولا الميل إليه لكان إدراكه بأي حس وقوة فرضا معطلا. ألا ترى أن المريض يرى الطعام ويدرك أنه أنفع الأشياء له، وقد سقطت شهوته، فلا يتناوله، فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه؟ فيتوقف الأكل على ميل إلى الموافق، ويسمى شهوة، ونفرة عن المخالف، ويسمى كراهة. فخلق الله شهوة الطعام وسلطها على الإنسان كالمتقاضي الذي يضطره إلى التناول، وهذه الشهوة لو لم تسكن بعد أخذ قدر الحاجة لأسرفت وأهلكت نفسه، فخلق الله الكراهة عند الشبع لترك الأكل بها، ولم يجعلها كالزرع الذي لا يزال يجتذب الماء إذا أنصب في أسافله حتى يفسد، ولذلك يحتاج إلى آدمي يقدر غذاءه بقدر الحاجة، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى. ثم مجرد الميل والشهوة لا يكفي، ما لم تنبعث الداعية إلى تناول الغذاء، فخلق الله تعالى له الإرادة أعني انبعاث النفس إلى تناوله. وربما حصل الاحتياج إلى قوة الغضب أيضا ليندفع عن نفسه المؤذي وما يضاده ويخالفه، ومن أراد أن يأخذ منه ما حصله من الغذاء. ثم لكل واحد من الشهوة، والكراهة، والإرادة، والغضب، أسباب لا يمكن إحصاؤها. ثم بعد أدراك الغذاء وميله وشهوته وإرادته، لا يفيد شيئا من ذلك ما لم يتحقق الطلب والأخذ بالفعل بآلاتهما. فكم من زمن شائق إلى شيء بعيد منه مدرك له مائل
ص ٢٠٧
إليه مريد له، لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفلج أو عذر فيهما. فلا بد من آلات للحركة، وقدرة في تلك الآلات على الحركة، لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها. فمنها ما هو آلة للطلب، كالرجل للانسان، والجناح للطير، والقوائم للدواب. ومنها ما هو آلة لدفع المؤذي والمانع من طلب الغذاء، كالقرن لبعض الحيوانات، والأنياب لبعض أخر منها، والمخلب لبعض آخر منها، والأسلحة للانسان القائمة مقام هذه الآلة. ومنها ما هو آلة للأخذ والتناول، فاليدين للانسان. ثم لهذه الأعضاء أسباب وحكم خارجة عن الحد والحصر، وقد تقدم قليل من حكمها وعجائبها في باب التفكر.

فصل عجائب المأكولات up
عمدة ما يتوقف عليه الأكل وأصله ومناطه، هي الأغذية والأطعمة المأكولة، ولله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى، وأسباب متوالية لا تتناهى. والأغذية والأدوية من الأطعمة لم يبلغ عددها من الكثرة حدا يمكن إحصاؤها وحصرها، فضلا عن بيان عجائبها وأسبابها. فنحن نترك الجميع، ونأخذ من جملتها حبة من الحنطة، ونبين بعض أسبابها وحكمها وعجائبها. فنقول: قد خلق الله في حبة الحنطة من القوى ما يتغذى به كما خلق فيك، فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة دون الاغتذاء، لأنه يتغذى بالماء. ولا نتعرض لذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه، بل نشير إلى لمعة من كيفية اغتذاء الحبة. فنقول: أن الحبة لا تغتذي بكل شيء، بل يتوقف اغتذاؤها على أرض فيها ماء. ولا بد أن تكون أرضها رخوة متخلخلة بتغلغل الهواء إليها، فلو تركتها في أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء. ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه، فلا بد من حصول أسباب الريح حتى تحرك الهواء وتضربه وينفذ فيها بقهر وعنف، وإليه الإشارة بقوله تعالى:
ص ٢٠٨
(
وأرسلنا الرياح لواقح) ١٣ وإلقاحها إنما هو إيقاعها الازدواج بين الهواء والماء والأرض. ثم لا يكفي ذلك في إنباته في برد مفرط، فيحتاج إلى حرارة الصيف والربيع. فهذه أربعة أسباب، فإن الماء لا بد أن ينساق إلى أرض الزراعة من البحار والشطوط والأنهار والعيون والسواقي، فانظر كيف خلق الله جميع ذلك. ثم الأرض ربما تكون مرتفعة لا ترتفع إليها مياه العيون والقنوات، فخلق الله الغيوم، وهي سحب ثقال حاملات للماء، وسلط عليها الرياح لتسويقها بإذنه إلى أقطار العالم من المرتفعات والمنخفضات، وترسلها مدرارا على الأراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة، ثم خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجا على قدر الحاجة، ولو خرجت دفعة لغرقت البلاد، وهلك الزرع والمواشي. ونعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته في السحاب والبحار والجبال والأمطار لا يمكن إحصاؤها. وأما الحرارة، فإنها لا يمكن أن تحصل في الماء والأرض، لكونهما باردين. فخلق الله الشمس، وسخرها، وجعلها - مع بعدها عن الأرض - مسخنة لها في وقت دون وقت، ليحصل الحر عند الحاجة إليه، والبرد عند الافتقار إليه، وهذه أخس حكم الشمس، والحكم فيها أكثر من أن تحصى. ثم النبات إذا أرتفع على الأرض كان في الفواكه انعقاد وصلابة، فتفتقر إلى رطوبة تنضجها، فخلق الله القمر، وجعل من خاصيته الترطيب، كما يظهر لك ذلك إذا كشفت رأسك له في الليل، فإنه تغلب على رأسك الرطوبة المعبر عنها بـ(الزكام)، فهو بترطيبه ينضج الفواكه ويرطبها، ويصبغها بتقدير الخالق الحكيم. وهذا أيضا أخس فوائد القمر وحكمه، وما فيه من الحكم والفوائد لا مطمع في استقصائه، بل كل كوكب في السماء فقد سخر لفوائد كثيرة لا تفي القوى البشرية بإحصائها. وكما أنه ليس في أعضاء البدن عضو لا فائدة فيه، فكذلك ليس عضو من أعضاء بدن العالم لا تكون فيه فائدة أو فوائد كثيرة. والعالم كله كشخص واحد، وآحاد أجسامه
(هامش)
(
١٣) الحجرة الآية: ٢٢ (*)
ص ٢٠٩
كالأعضاء له، وهي متفاوتة تفاوت أعضاء البدن، وشرح ذلك ليس في مقدرة البشر وكلها مسخرات لله سبحانه، وآثار من قدرته الكاملة، ورشحات من أبحر عظمته الباهرة، وليست في أنفسها إلا أعدام صرفة. فأرباب القلوب العارفون بالله المحبون له، إذا نظروا إلى ملكوت السماوات والأرض، والآفاق والأنفس، والحيوانات والنباتات، لا ينظرون إليها إلا من حيث أنها آثار قدرة ربهم، ورشحات صفاته، ويكون تفكرهم وسعيهم في العثور على عجائبها وحكمها، وابتهاجهم وشغفهم لأجل ذلك. كما أن من أحب عالما لم يزل مشغوفا بطلب تصانيفه، فيزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبا له. فكذلك الأمر في عجائب صنع الله، فإن العالم كله من تصنيفه تعالى، بل جميع المصنفين أيضا من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده. فإن تعجبت من تصنيف، فلا تتعجب من المصنف، بل من الذي سخر المصنف لتأليفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه. كما إذا رأيت لعب المشعوذ (١٤) يترقص ويتحرك حركات

موزونة متناسبة، فلا تتعجب من اللعب، فإنها خرق محركة لا متحركة، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة عن الأبصار. وقد ظهر أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب، ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها، ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها، وكذلك تتسلسل الأسباب إلى أن تنتهي إلى مسبب الأسباب وغاية الكل، وليس لنا سبيل إلى إدراك تفاصيلها واستنباط عجائب حكمها ودقائق مصالحها.

فصل حاجة تحضير الطعام إلى آلاف الأسباب up

ثم ما ينبت من الأرض من النبات، وما يحصل من الحيوانات، لا يمكن أن تقضم وتؤكل كذلك، بل لا بد في كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف، بإلقاء البعض وإبقاء البعض، إلى غير ذلك من الأعمال التي لا تحصى، وكل من الأطعمة يتوقف إصلاحها على أمور خاصة كثيرة،

(هامش)

(

١٤) المشعوذ: الرجل الحيال الذي يصنع الشعبذة. (*)

ص ٢١٠

واستقصاء ذلك في كل طعام طويل. فلنأخذ رغيفا واحدا، وننظر إلى بعض ما يحتاج إليه حتى يستدير ويصلح للأكل، إذ بيان جميع ما يحتاج إليه حتى يستدير الرغيف الواحد ليس ممكنا، فنقول: أول ما يتوقف عليه هذا الرغيف الأرض، ثم القاء البذر فيها، ثم الثور الذي يثير الأرض مع آلته، كالفدان وغير ذلك، ثم تنقية الأرض من الحشائش، والتعهد بسقي الماء إلى أن يعقد الحب ويبدو صلاحه، ثم الحصاد، ثم الفرك، ثم التنقية والتصفية، ثم الطحن، ثم العجن، ثم الخبز. فتأمل عدد هذه الأفعال، واستحضر سائر الأفعال التي لم نذكرها، ثم تذكر عدد الأشخاص القائمين بها، وعدد الآلات التي يحتاج إليها. من الحديد والخشب والحجر وغيرها. وانظر إلى أعمال الصناع في إصلاح آلات الحراثة والتصفية والطحن والخبز من تجارة وحدادة وغيرهما، واحتياج كل منها إلى آلات كثيرة. ثم انظر كيف ألف الله سبحانه بين قلوب هؤلاء الصناع المصلحين، وسلط عليهم الأنس والمحبة، حتى ائتلفوا واجتمعوا وبنوا المدن والبلاد، ورتبوا المساكن والدور متجاورة متقاربة، وبنوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع، ولو تفرقت آراؤهم، وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحوش، لتبددوا وتباعدوا، ولم ينتفع بعضهم ببعض. ثم لما كان في جبلة الإنسان الغيظ والعداوة، والحسد والمنافسة، والانحراف عن الحق، ربما زالت المحبة بين البعض لأعراض، فيزدحمون عليها، ويتنافسون فيها، وربما أدى إلى التنافر والتقابل. فبعث الله الأنبياء بالشرائع والقوانين ليرجعوا إليها عند التنازع، فيرتفع نزاعهم. ثم بعث الله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء لحفظ هذه الشرائع والعلم بها. وبعث الله السلاطين حتى يقيموا الناس قهرا عليها لو أرادوا التخلف عنها، فسلط الله السلاطين أولى القوة والعدة على الناس، وألقى رعبهم في قلوبهم، وألهمهم إصلاح العبادة، بأن رتبوا الرؤساء والقضاة والحكام والسجن والأسواق واضطروا الخلق إلى قانون الشرع والعدل، وألزموهم التآلف والتعاون، ومنعوهم عن التفرق والتباغض فإصلاح الرعايا والصناع بالسلاطين، وإصلاح السلاطين بالعلماء، وإصلاح العلماء بالأنبياء، وإصلاح الأنبياء بالملائكة

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

## ٣٠٩ جامع السعادات (ج3)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ٢١١

وإصلاح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية، التي هي ينبوع كل نظام، ومطلع كل حسن وجمال، ومنشأ كل ترتيب وتأليف وقد ظهر مما ذكر: إن من فتش يعلم أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح للأكل ما لم يعمل عليه آلاف ألوف من الملائكة وصناع الإنس.

فصل تسخير الله التجار لجلب الطعام up

ثم جميع الأطعمة لما لم يمكن أن يوجد في كل مكان وبلد، إذ لكل واحد شروط مخصوصة لأجلها، لا يمكن إلا أن يوجد في بعض الأماكن دون بعض، والناس منتشرون على وجه الأرض، وقد يبعد عنهم بعض ما يحتاجون إليه من الأطعمة، بحيث تحول بينهم وبينها البراري والبحار، فسخر الله - تعالى - التجار، وسلط عليهم حرص المال وشره الربح حتى يقاسوا الشدائد، ويركبوا الأخطار في قطع المفاوز وركوب البحار فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق. فانظر كيف علمهم الله صناعة السفن وكيفية الركوب فيها، وكيف خلق الحيوانات وسخرها للحمل والركوب في البوادي والجبال من الجمال وكيفية قطعها البراري والمراحل تحت الأعباء الثقيلة وصبرها على الجوع والعطش، ومن الخيل وكيفية سرعته سيرها وحركتها، ومن الحمار وصبره على التعب وانظر كيف خلق الله ما يحتاج إليه السفن وهذه الحيوانات من الأسباب والغذاء، وينتهي إلى حد لا يمكن تحديده.

فصل نعم الله في خلق الملائكة للانسان up

ثم مجرد وجود الغذاء وحضوره وإصلاحه لا يفيد فائدة ما لم يؤكل ويصير جزء للبدن. وهذا موقوف على أعمال كثيرة، محتاجة إلى أسباب كثيرة، من الطحن، والجذب، والهضم المعدي والكبدي، وغير ذلك من الأفعال التي يحتاج كل منه إلى أسباب كثيرة. وقد أشرنا إلى لمعة من كيفية ذلك في باب التفكر، فرجع إليه. وهنا تشير إلى أنموذج من نعمة الله في خلق الملائكة. فنقول:

ص ٢١٢

أن كثرة الملائكة لم تبلغ حدا يمكن تصوره تفصيلا أو أجمالا. ولهم طبقات وأصناف: منها: طبقات الملائكة الأرضية. ومنها الملائكة السماوية. ومنها: حملة العرش العظيم ومنها: المسلسلون. ومنها: المهيمنون.. وغير ذلك مما لم نسمع اسمهم ورسمهم، ولا يحيط بهم إلا الله - سبحانه - فكل صنع من صنائع الله في الأرض والسماء لا يخلو عن ملك أو ملائكة موكلين به. فانظر كيف وكلهم الله بك فيما يرجع إلى الأكل والاغتذاء الذي كلامنا فيه، دون ما يجاوز، وذلك من صنائع الله وأفعاله، ومن الوحي إلى الأنبياء والهداية والإرشاد وغيرها، فإن استقصاء ذلك ليس من مقدورات البشر. فنقول: إن كل جزء من أجزاء بدنك، بل من أجزاء النبات، لا يغتذي إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة، هم أقل الأعداد إلى عشرة إلى مائة، إلى أكثر من ذلك بمراتب. بيان ذلك: إن معنى الاغتذاء: أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء تلف من بدنك. وهذا موقوف على حركات وتغيرات واستحالات للغذاء، حتى يصير جزء للبدن كالجذب والهضم وصيرورته لحما وعظما. ومعلوم أن الغذاء والدم واللحم أجسام ليست لها قدرة ومعرفة واختيار حتى تتحرك وتتغير بأنفسها، ومجرد الطبع لا يكفي في ترددها في أطوارها، كما أن البر بنفسه لا يصير طحينا وعجينا وخبزا مطبوخا إلا بصناع، والصناع في الباطن هم الملائكة، كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد.

فالغذاء، بعد وضعه في الفم إلى أن يصير دما لا بد له من صناع من الملائكة، ولا نتعرض لهم ولبيان عددهم، ونقول: بعد صيرورته دما إلى أن يصير جزء للبدن، ويتوقف على سبعة من الملائكة، إذ لا بد من ملك يجذب الدم إلى جوار اللحم والعظم إذ الدم لا يتحرك بنفسه، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره، ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم، ومن رابع يكسوه صورة اللحم والعظم والعرق، ومن خامس يدفع الفضل الزائد من الحاجة، ومن سادس يلصق ما اكتسب صفة اللحم باللحم، وما اكتسب صفة العظم بالعظم، وما اكتسب صفة العرق بالعرق حتى لا يكون منفصلا، ولا بد من سابع يراعي المقادير في الالصاق، فيلحق بالمستدير على ما لا يبطل استدارته، وبالعريض

ص ٢١٣

على ما لا يبطل عرضه، وبالمجوف على ما لا يبطل تجويفه، وهكذا... ويراعى في الالصاق لكل عضو ما يليق به ويحتاج إليه. فلو جمع لأنف الصبي - مثلا - من الغذاء ما يجمع على فخذه، لكبر أنفه، وبطل تجويفه وتشوهت صورته، بل ينبغي أن يسوق إلى الأجفان مع رقتها، وإلى الأفخاذ مع غلظتها، وإلى الحدقة مع صفائها، وإلى العظم مع صلابته، ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل، ويراعي العدل في القسمة والتقسيط وإلا بطلت الصورة، وتشوهت الخلقة، ورق بعض المواقع وضعف البعض فمراعاة هذه الهندسة مفوضة إلى ملك من الملائكة. وإياك وأن تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه، فإن من أحال هذه الأمور إلى الطبع جاهل ولا يدري ما يقول. فإن أراد من الطبع قوة عديمة الشعور ويقول: أن كل فعل من هذه الأفعال موكول إلى قوة لا شعور لها، فنقول

ذلك أدل على عظمة الله وحكمته وقدرته، إذ لا ريب في أن ما لا شعور له ليس له في نفسه أن يفعل فعلا ما، فضلا عن أن يفعل أفعالا متقنة محكمة مشتملة على الحكم الدقيقة، والمصالح الجليلة والخفية. فتكون هذه شروطا ناقصة لإيجاد الله - سبحانه - هذه الأفعال بلا واسطة أو بواسطة عدد هذه القوى من الملائكة. وعلى أي تقدير، لا بد من سبعة أشخاص من مخلوق الله سبحانه - مسخرين في باطنك، موكلين بهذه الأفعال قد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح، وفي الغفلة تتردد، وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم، وكذلك في كل جزء من أجزائك التي لا تتجزأ، حتى يفتقر بعض الأجزاء - كالعين والقلب - إلى أكثر من مائة ملك. ثم الملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم، لا يحيط بكنهه إلا الله، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش، والمنعم على جميعهم بالتأييد والتسديد والهداية المهيمن القدوس، المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت.

ومن أراد أن يعلم - إجمالا - كثرة الملائكة الموكلين بالسماوات والأرضين، وأجراء النبات والحيوانات، والسحب والهواء والبحار والجبال والأمطار وغير ذلك، فليرجع في ذلك إلى الأخبار الواردة من الحجج - عليهم السلام -. ثم لا بد أن يفرض كل فعل من الأفعال السبعة المذكورة

ص ٢١٤

إلى ملك من الملائكة، ويكون الموكل به ملكا واحدا على حدة، ولا يمكن أن يفوض جميعها إلى ملك واحد، كما لا يمكن أن يتولى إنسانا واحدا سبعة أعمال في الحنطة، كالطحن وتمييز النخالة، ودفع الفضلة عنه، وصب الماء عليه، والعجن، وقطعها كسرات مدورة، وترقيقها رغفانا عريضة، وإلصاقها بالتنور. إذ الملك وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب من المتضادات. فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد، كما أشير إليه بقوله - تعالى -: (وما منا إلا له مقام معلوم) ١٥ ولذلك، ليس بينهم تحاسد وتنافس. ومثالهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وعدم مزاحمة الآخرين له مثال الحواس الخمس، وليس كالانسان الذي يتولى بنفسه أمورا مختلفة، وسبب ذلك اختلاف صفاته ودواعيه، فإنه لما لم يكن وحداني الصفة لم يكن وحداني الفعل، ولذلك ترى أنه يطيع الله تارة ويعصيه أخرى. وذلك غير موجود في الملائكة، فإنهم مجبولون على الطاعة لم تتصور في حقهم معصية، ولكل منهم طاعة خاصة معينة. فالراكع منهم راكع أبدا، والساجد منهم ساجد دائما، والقائم منهم قائم أبدا، لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور، ولكل واحد منهم مقام معلوم. وإذ قد ظهر لك عدد ما يحتاج إليه بعض أفعال مجرد الاغتذاء من الملائكة الأرضية المستمدين من الملائكة السماوية، فقس عليه سائر أفعال الاغتذاء، وسائر أفعالك الباطنة والظاهرة، فإن بيان ذلك ليس ممكنا.

ثم قس على ذلك إجمالا جملة صنائع الله وأفعاله الواقعة في عالمي الجبروت والملكوت، وعالم الملك والشهادة، فسماواته وأرضه وما بينهما وما تحتهما وما فوقهما فإن أعداء الملائكة الموكلين بها غير متناهية، كيف ومجامع طبقات الملائكة وقد ظهر مما عرف من توقف كل نعمة على نعم كثيرة متسلسلة، إلى أن ينتهي إلى الله، واتصال البعض بالبعض ووقوع الارتباط والترتب

(هامش)

(١٥) الصافات، الآية: ١٦٤ (*)

ص ٢١٥

بينهما: إن من كفر نعمة الله فقد كفر كل نعمة في الوجود، فمن نظر إلى غير محرم - مثلا - فقد كفر، ففتح العين نعمة الله في الأجفان، ولا تقوم الأجفان إلا بالعين، ولا العين إلا بالرأس، ولا الرأس إلا بجميع البدن، ولا البدن إلا بالغذاء، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر وسائر الكواكب، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسماوات ولا السماوات إلا بالملائكة. فإن الكل كالشئ الواحد، يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض. فإذا قد كفر كل نعمة في الوجود، من ابتداء الثرى إلى منتهى الثريا. وحينئذ لا يبقى جماد ولا نبات ولا حيوان، ولا ماء ولا هواء، ولا كوكب ولا فلك ولا ملك، إلا يلعنه. ولذلك ورد في الأخبار: (أن البقعة التي يجتمع فيها الناس، إما تلعنهم إذا تفرقوا، أو تستغفر لهم). وكذلك ورد: (إن الملائكة يلعنون العصاة). وورد: (أن العالم يستغفر له كل شيء، حتى الحوت في البحر). وأمثال هذه الأخبار الدالة على ما يفيد المراد خارجة بطرفه عن الاحصاء، وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة يجني على جميع الملك والملكوت. ثم جميع ما ذكرناه إنما يتعلق بجزء من المطعم، فاعتبر ما سواه. ثم تأمل هل يمكن أن يخرج أحد عن عهدة الشكر؟ كيف ولله في كل طرفة على كل عبد من

عبيده نعم كثيرة خارجة عن الاحصاء؟ فإن في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب، ولو لم يخرج لهلك، وبانقباضه يجتمع روح الهواء إلى القلب، ولو لم يدخل نسيم الهواء فيه لا نقطع قلبه وهلك. ولم كان اليوم والليلة أربعا وعشرين ساعة وفي كل ساعة يوجد ألف نفس تخمينا، وإذا اعتبرت ذلك وقست عليه سائر النعم، يكون عليك في كل يوم وليلة آلاف ألوف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك، بل في كل جزء من أجزاء العالم، وكيف يمكن إحصاء ذلك ولذلك قال الله - تعالى -: (وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ١٦

(هامش)

)

١٦) إبراهيم، الآية: ٣٤ النحل، الآية: ١٨ (*)

ص ٢١٦

وورد: (أن من لم يعرف نعمة الله إلا في مطعمه ومشربه، فقد قل علمه وحضر عذابه). فالبصير لا تقع عينه في العالم على شيء، ولا يلم خاطره بموجود إلا ويتحقق أن الله فيه نعمة عليه. ولذلك قال موسى بن عمران: (إلهي! كيف أشكرك ولك علي في كل شعرة من جسدي نعمتان: أن لينت أصلها، وإن طمست رأسها).

فصل الأسباب الصارفة للشكر up

إعلم أن السبب الصارف لأكثر الخلق عن الشكر، إما قصور معرفتهم بأن النعم كلها من الله - سبحانه -، أو قصور معرفتهم وإحاطتهم بصنوف النعم وآحادها، أو جهلهم بحقيقة الشكر وكونه استعمال النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وظنهم أن حقيقة الشكر مجرد أن يقولوا بلسانهم: الحمد لله، أو الشكر لله، أو الغفلة الناشئة عن غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان، بحيث لا يتنبهون للقيام بالشكر، كما في سائر الفضائل والطاعات أو عدم احتسابهم للجهل ما يعم الخلق ويشملهم في جميع الأحوال من النعم نعمة. ولذلك لا يشكرون على جملة من النعم، لكونها عامة للخلق، مبذولة لهم في جميع الحالات. فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصا بها، فلا يعدها نعمة. وتأكد ذلك بالفهم واعتيادهم بها، فلا يتصورون خلاف ذلك، ويظنون إن كل إنسان يلزم أن يكون على هذه الأحوال. فلذلك تراهم لا يشكرون الله على روح الهواء، ووفور الماء، وصحة البصر والسمع وأمثال ذلك. ولو أخذ يحقهم، حتى انقطع عنهم الهواء، وحبسوا في بيت حمام فيه هواء حار، أو بئر فيها هواء تقبل رطوبة الماء، ماتوا. فإن ابتلى واحد بشيء من ذلك، ثم نجى منه، ربما قدر ذلك نعمة وشكر لله عليه. وكذا البصير، إذا عميت عينه، ثم أعيد عليه بصره، عده نعمة وشكره، ولو لم يبتل بالعمى وكان بصيرا دائما كان غافلا عن الشكر. وهذا غاية الجهل، إذ شكرهم صار موقوفا على أن تسلب منهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، مع أن النعمة في جميع الأحوال أولى بالشكر.

ص ٢١٧

فلما كانت رحمة الله واسعة قد عمت الخلق في جميع أحوالهم لم يعدها الجاهلون نعمة. ومثلهم كمثل العبد السوء الذي لو لم يضرب بطر وترك الشكر، وإذا ضرب في غالب الأحوال ترك ساعة شكر المولى على ذلك. ومن تأمل يعلم أن نعمة الله عليه في شربة ماء عند عطشه أعظم من ملك الأرض كلها. كما نقل: (أن بعض العلماء دخل على بعض الخلفاء، وفي يده كوز ماء يشربه، فقال له: عظني. فقال: لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل أموالك وملكك كله، ولو لم تعطه بقيت عطشانا، فهل تعطه؟ قال: نعم! قال: فكيف تفرح بملكك لا يساوي شربة ماء!) هذا مع أن كل عبد لو أمعن النظر في حاله، لرأى من الله نعمة أو نعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها أحد، أو يشاركه يسير الناس، إما في العقل، أو في الخلق، أو في الورع والتقوى، أو الدين أو في صورته وشخصه، أو أهله وولده أو مسكنه وبلده، أو رفاقه وأقاربه، أو عزه وجاهه، أو طول عمره وصحة جسمه، أو غير ذلك من محابه. بل نقول: لو كان أحد لا يكون مخصوصا بشيء من ذلك، فلا ريب في أنه يعتقد في نفسه اختصاصه ومزيته في بعض هذه على سائر الخلق. فإن أكثر الناس يعتقدون كونهم اعقل الناس، أو أحسن أخلاقا منهم، مع أن الأمر ليس كذلك ولذلك لا يشكون من نقصان العقل كما يشكون من قلة المال، ولا يسألون الله أن يعطيهم العقل كما يسألون منه زيادة المال ويرى من غير عيوبا يكرهها وأخلاق يذمها، ولا يرى ذلك من

نفسه. وبالجملة: كل أحد يقدر في نفسه من المحاب وصفة الكمال ما لا يراه في غيره، وإن لم يكن مطابقا للواقع. ولذلك لو خير بأن يسلب منه ماله ويعطي ما خصص به غيره، لكان لا يرضى به. بل التأمل يعطي أن كل واحد من أكثر الناس لا يرضى أن يكون في جميع الصفات والأفعال والدين والدنيا مثل شخص آخر من الناس كائنا من كان، بل لو وكل إليه الاختيار وقيل له: أنت مخير في صيرورتك مثل من شئت وأردت من أفراد الناس لم يخير إلا نفسه.

وإلى هذا أشار الله - سبحانه - بقوله: ج / ٣
ص ٢١٨
(كل حزب بما لديهم فرحون) ١٧ وإذا كان الأمر هكذا، فأنى له لا يشكر الله على ذلك مع قطع النظر عن النعم العامة؟ ولو لم يكن لشخص من نعم الله إلا الأمن والصحة والقوة لعظمت النعمة في حقه، ولم يخرج عن عهدة الشكر. قال رسول الله (ص): (من أصبح آمنا في سربه، معافى في بدنه، وعنده قوت يومه، فكأنما خيرت له الدنيا بحذافيرها). ومهما فتشت الناس، لوجدتهم يشكون عن أمور وراء هذه الثلاث، مع أنها وبال عليهم. بل لو لم تكن للانسان نعمة سوى الإيمان الذي به وصوله إلى النعيم المقيم والملك العظيم، لكان جديرا به أن يستعظم النعمة ويصرف في الشكر عمره. بل ينبغي للعاقل ألا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان. ونحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت ملوك الأرض من الشرق إلى الغرب، من أموال وأتباع، وأنصار وبلدان وممالك، بدلا عن عشر عشير من علمه لم يأخذه، لرجائه أن نعمة العلم تفضي به إلى قرب الله - تعالى - بالآخرة. بل لو سلم إليه جميع ذلك عوضا عن لذة العلم في الدنيا، مع نيله في الآخرة إلى ما يرجوه، لم يأخذه ولم يرض به، لعله بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع، وثابتة لا تسرق ولا تغصب، وصافية لا كدورة فيها بخلاف لذات الدنيا.

فصل طريق تحصيل الشكر up

الطريق إلى تحصيل الشكر أمور: الأول - المعرفة والتفكر في صنائعه - تعالى -، وضروب نعمه الظاهرة والباطنة والعامة والخاصة. الثاني - النظر إلى الأدنى في الدنيا وإلى الأعلى في الدين. الثالث - أن يحضر المقابر، ويتذكر أن أحب الأشياء إلى الموتى وأهم سؤالهم ودعواهم من الله أن يردوا إلى الدنيا، ويتحملوا ضروب الرياضات ومشاق العبادات في الدنيا، ليتخلصوا في الآخرة من العذاب،

(هامش)
(١٧) المؤمنين الآية: ٥٤. الروم، الآية ٣٢ (*)
ص ٢١٩
أو يزيد ثوابهم وترفع درجاتهم. فليقدر نفسه منهم مع إجابة دعوته ورده إلى الدنيا، فليصرف بقية عمره فيما يشتهي أهل القبور العودة لأجله. الرابع - أن يتذكر بعض ما ورد عليه في بعض أيام عمره من المصائب العظيمة والأمراض الصعبة التي ظن هلاك نفسه بها، فليتصور أنه هلك بها ويغتنم الآن حياته وماله من النعم، فليشكر الله على ذلك، ولا يتألم ولا يحزن من بعض ما يرد عليه مما ينافي طبعه. الخامس - أن يشكر في كل مصيبة وبلية من مصائب الدنيا من حيث إنه لم تصبه مصيبة أكبر منها، وإنه لم تصبه مصيبة في الدين. ولذلك قال عيسى (ع) في دعائه: (اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني!). وقال رجل لبعض العرفاء: (دخل اللص في بيتي وأخذ متاعي)، فقال له: (اشكر الله لو كان الشيطان يدخل بدله في قلبك ويفسد توحيدك، ماذا كنت تصنع؟). ومن حيث أن كل مصيبة إنما هي عقوبة لذنب صدر منه، فإذا حلت به هذه العقوبة حصلت له النجاة من عقوبة الآخرة، كما قال رسول الله (ص): (إن العبد إذا أذنب ذنبا فإصابته شدة أو بلاء في الدنيا، فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا). وقد ورد هذا المعنى بطرق متعددة من أئمتنا - عليهم السلام - أيضا، فليشكر الله على تعجيل عقوبته وعدم تأخيرها إلى الآخرة. ومن حيث أن هذه المصيبة كانت مكتوبة آتية إليه ألبتة، فقد أتيت وفرغ منها. ومن حيث أن ثوابها أكثر منها وخير له، لما يأتي في باب الصبر من عظم مثوبات الابتلاء بالمصائب في الدنيا ومن حيث أنها تنقص في القلب حب الدنيا والركون إليها، وتشوق إلى الآخرة وإلى لقاء الله سبحانه. إذ لا ريب في أن من آتاه النعم في الدنيا على وفق المراد، من غير امتزاج ببلاء ومصيبة، يورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأنسا بها، حتى تصير كالجنة في حقه، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يأنس بها، وصارت الدنيا سجنا عليه وكانت نجاته

منها كانخلاص من السجن.
ولذلك قال رسول الله (ص): (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) فمحن الدنيا ومصائبها ورياضاتها توجب انزعاج النفس عنها، والتفاتها إلى عالمها الأصلي، وتشوقها إلى
ص ٢٢٠
الخروج عنها إليه ورغبتها إلى لقاء الله وما أعد في دار الآخرة لأهلها. فإن قلت: غاية ما يتصور في البلاء أن يصبر عليه، وأما الشكر عليه فغير متصور، إذ الشكر إنما يستدعي نعمة وفرحا، والبلاء مصيبة وألم فكيف يشكر عليه؟ وعلى هذا ينبغي ألا يجتمع الصبر والشكر على شيء واحد، إذ الصبر يستدعي بلاء وألما، والشكر يستدعي نعمة وفرحا، فهما متضادان غير مجتمعين، فكيف حكمتم باجتماعهما في المصائب والبلايا الدنيوية؟ قلنا: كل واحد من النعمة والبلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد. فالنعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم والإيمان والأخلاق الحسنة في الدنيا، والنعمة المقيدة في الدنيا - أي ما هو نعمة وصلاح من وجه وبلاء وفساد من وجه - كالمال الذي يصلح الدين من وجه، ويفسده من وجه. والبلاء المطلق، كشقاوة الآخرة والكفر والجهل والأخلاق السيئة والمعاصي في الدنيا، والبلاء المقيد، كمصائب الدنيا، من الفقر والخوف والمرض وسائر أقسام المحن والمصائب، فإنها وإن كانت بلاء في الدنيا، ولكنها نعم في الآخرة. وعنه التحقيق لا تخلو عن تكفير الخطيئة، أو رياضة النفس، أو زيادة التجرد أو رفع الدرجة. فالنعمة المطلقة بإزائها الشكر المطلق، ولا معنى لاجتماع الصبر معه، والصبر الذي يجتمع معه لا ينافيه، كما يأتي. والبلاء المطلق لم يؤمر بالصبر عليه، إذ لا معنى للصبر على الكفر والمعصية، بل يجب عدم الصبر عليه والسعي في تركه. وأما البلاء المقيد، فهو الذي يجتمع فيه الصبر والشكر، وليس اجتماعهما من جهة واحدة حتى يلزم اجتماع الضدين، بل الصبر من حيث إيجابه الاغتمام والألم في الدنيا، والشكر من حيث أدائه إلى سعادة الآخرة وغيرها مما ذكر.
ثم لو لم يصبر على جهة شريفة، ولم يشكر على جهة خيرية، صار بلاء مطلقا لزم تركه بالرجوع إلى الصبر والشكر. وأما النعمة المقيدة، كالمال والثروة، فإن أدت إلى إصلاح الدين كانت نعمة مطلقة يجب عليها الشكر، ولم يكن محلا للصبر، وإن أدت إلى فساده كانت بلاء مطلقا واجب الترك، وإن أدت إلى بلاء الدنيا، كأن يصير ماله سببا لهلاك أولاده، وفساد مزاجه ويصير فوته باعثا لابتلائه ببعض المصائب الدنيوية، كان حكمه حكم البلاء
ص ٢٢١
المقيد ثم يأتي في باب الصبر: إن الصبر قد يكون على الطاعة وعلى المعصية، وفيهما يتحقق الشكر والصبر، إذ الشكر - كما عرفت - هو - عرفان النعمة من الله والفرح به، وصرف النعمة إلى ما هو المقصود منها بالحكمة، والصبر - كما يأتي - وهو ثبات باعث الدين، أعني العقل النظري، في مقابلة باعث الهوى، أعني القوة الشهوية. ولا ريب في أنه في أداء الطاعة وترك المعصية يتحقق الثبات المذكور، إذ هو صرف النعمة إلى ما هو المقصود، إذ باعث الدين إنما خلق لحكمة دفع باعث الهوى، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة. وأنت خبير بأنه وأن تحقق الشكر والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية، إلا أن ما تصبر عليه هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية، إذ الصبر إنما هو عليهما، وأما الشكر فعلى باعث الدين أعني العقل الباعث لهذه الطاعة وترك هذه المعصية، فالمشكور عليه هو باعث الدين دون نفس الطاعة وترك المعصية، فاختلف فيهما الصبر والشكر في المتعلق، أي ما يصبر عليه وما يشكر عليه، واتحدا في فعل الصبر والشكر إذ فعل الصبر هو الثبات والمقاومة، وهو عين الطاعة وترك المعصية، وفعل الشكر هو صرف النعمة في مقصود الحكمة، وهو أيضا عين الطاعة وترك المعصية. ويمكن أن يقال: إن من فعل هذه الطاعة، وترك هذه المعصية عرف كونهما من الله وفرح به، ويعمل طاعة أخرى شكرا له. وعلى هذا فيتحد متعلقا الشكر والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية، أعني المشكور عليه وما يصبر عليه، إذ هما نفس هذه الطاعة وترك هذه المعصية بعينها، ويختلف فعلاهما. إذ فعل الصبر هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية، وفعل الشكر تحميد أو طاعة أخرى.
فصل الصحة خير من السقم up
لا تظنن مما قرع سمعك من فضيلة البلاء وأدائه إلى سعادة الأبد أنه خير من العافية في الدنيا، بل مع ذلك كله العافية في الدنيا خير من البلاء والمصيبة فيها فإياك أن تسأل من الله البلايا والمصائب في الدنيا، فإن رسول الله (ص) كان يستعذ في دعائه من بلاء الدنيا

ومن بلاء الآخرة، وكان يقول هو
ص ٢٢٢
والأنبياء والأوصياء - عليهم السلام -: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة)، وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وسوء القضاء. وقال (ص): (سلوا الله العافية، فما أعطي عبد أفضل من العافية إلا اليقين)، وأشار باليقين إلى عافية القلب من الجهل والشك، وهو أعلى وأشرف من عافية البدن، وقال (ص) في دعائه: (والعافية أحب إلي). وبالجملة: هذا أظهر من أن يحتاج إلى الاستشهاد. إذ البلاء إنما يصير نعمة بالإضافة إلى ما هو أكثر منه في الدنيا والآخرة، وبالإضافة إلى ما يرجى من الثواب في الآخرة، ومن حيث يوجب تجرد النفس وانقطاعها من الدنيا وميلها إلى الآخرة. فينبغي أن يسأل تمام النعمة في الدنيا، والثواب في الآخرة على شكر المنعم، والتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، فإنه قادر على إعطاء الكل، وما نقل عن بعض العارفين، من سؤالهم المصائب والبلاء، كما قال بعضهم: (أود أن أكون جسرا على النار يعبر علي الخلق كلهم فينجون، وأكون أنا في النار) وقال سمنون المحب ((وليس لي في سواك حب فكيفما شئت فاختبرني) فمبناه على غلبة الحب، بحيث يظن المحب بنفسه أنه يحب البلاء. ومثل ذلك حالة تعتريه وليس لها حقيقة. فإن من شرب كأس المحبة سكر، ومن سكر توسع في الكلام، ولما زال سكره علم أن ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقة. فما تسمعه من هذا القبيل فهو كلام العشاق الذين أفرط حبهم، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه. وقد روي: (أن فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه، فقال: ما الذي يمنعك عني، ولو أردت أن أقلب لك ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لأجلك؟ فسمع ذلك سليمان (ع)، فطلبه وعاتبه في ذلك فقال: يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى). ونقل: (أن سمنون المحب بعد ما قال البيت المذكور، ابتلى بمرض الحصر، فكان يصيح ويجزع ويسأل الله العافية، ويظهر الندامة مما قال، ويدور على أبواب المكاتب، ويقول للصبيان: أدعوا لعمكم الكذاب).

والحاصل: أن صيرورة البلاء أحب عند بعض المحبين من العافية، لاستشعارهم رضا المحبوب لأجله، وكون رضاه عندهم أحب وألذ من العافية إنما يكون في غليان الحب، فلا يثبت ولا يدوم. ومع ذلك كله، فأعلم أن الظاهر من بعض الأخبار الآتية
ص ٢٢٣
في باب الصبر: أن في الجنان درجات عالية لا يبلغها أحد إلا بالمصائب الدنيوية والصبر والشكر عليها، ويؤيده ابتلاء أكابر النوع، من الأنبياء والأولياء بالمصائب العظيمة في الدنيا، وما ورد من أن أعظم البلاء موكل بالأنبياء ثم بالأولياء، ثم بالأمثل فالأمثل في درجات العلاء والولاء. وعلى هذا فالظاهر اختلاف أصلحية كل من البلاء والعافية باختلاف مراتب الناس. فمن كان قوي النفس صابرا شاكرا في البلاء، ولم يصده عن الذكر والفكر والحضور والأنس والطاعات والاقبال عليها، ولم يصر باعثا لنقصان الحب لله، فالبلاء في حقه أفضل في بعض الأوقات، إذ بأزائه في الآخرة من عوالي الدرجات ما لا يبلغ بدونه. ومن كان له ضعف نفس يوجب ابتلائه بالمصائب جزعا أو كفرانا، أو منعه شيء مما ذكر، فالعافية أصلح في حقه، وربما كان البلاء مما منعه من الوصول إلى المراتب العظيمة، فلا ريب في أن العافية وعدم هذا البلاء أفضل وأعلى منه.

فإن البصير الذي توسل بعينيه إلى النظر إلى عجائب صنع الله، وتوصل به إلى معرفة الله، وتمكن لأجل العينين إلى مطالعة العلوم وتصنيف الكتب الكثيرة من أنواع العلوم، وتبقى آثاره العلمية على مر الدهور، وينتفع من علومه الناس أبدا، وربما بلغ لأجل العينين إلى غاية درجات المعرفة والقرب والحب والأنس والاستغراق، ولولا وجود العينين له لم يبلغ إلى شيء من ذلك، فلا ريب في أن وجود البصر لمثله أفضل وأصلح من عدمه، ولولا ذلك لكان رتبة شعيب مثلا - وقد كان ضريرا من بين الأنبياء - فوق رتبة موسى وإبراهيم وغيرهما - عليهم السلام - لأنه صبر على فقد البصر، وموسى لم يصبر عليه، ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلحم على وضم. وهذا باطل، فإن كل واحد من الأعضاء آلة في الدين، فيفوت بفواتها ركن من الدين. ويدل على ذلك ما ورد في عدة من الأخبار: (أن كل ما يرد على المؤمن من البلاء أو عافية أو نعمة أو بلية، فهو خير له وأصلح في حقه) وما ورد في بعض الأحاديث القدسية: (أن بعض عبادي لا يصلحه إلا الفقر والمرض، فأعطيته ذلك، وبعضهم لا يصلحه إلا الغنى والصحة، فأعطيته ذلك). وبذلك يجمع بين أخبار العافية وأخبار البلاء.

ص ٢٢٤
ومنها:
• الجزع up
وهو إطلاق دواعي الهوى، من الاسترسال في رفع الصوت، وضرب الخدود، وشق الجيوب، أو ضيق الصدر والتبرم والتضجر. وهو وأن كان من نتائج ضعف النفس وصغرها الذي من رذائل القوة الغضبية فقط، إلا أنه لما كان ضده الصبر، وله أقسام بعضها من متعلقات القوة الشهوية - كما يأتي - فلذلك لم نذكره في متعلقات قوة الغضب فقط، بل ذكرناه هنا. ثم الجزع في المصائب من المهلكات، لأنه في الحقيقة إنكار لقضاء الله، وإكراه لحكمه، وسخط على فعله. ولذا قال رسول الله (ص): (الجزع عند البلاء تمام المحنة) وقال (ص): (أن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط). وفي الخبر القدسي: (من لم يرض بقضائي، ولم يشكر على نعمائي، ولم يصبر على بلائي، فليطلب ربا سواي). وروي: (أن زكريا لما هرب من الكفار، واختفى في الشجرة، وعرفوا ذلك، جاؤا بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار رأس زكريا، فأن أنة، فأوحى الله إليه: يا زكريا! لئن صعدت منك أنة ثانية لأمحونك من ديوان النبوة! فعض زكريا (ع) على أصبعه حتى قطع شطرين) وبالجملة: العاقل يعلم أن الجزع في المصائب لا فائدة فيه، إذ ما قدر يكون، والجزع لا يرده. ولا ريب في أنه يترك الجزع بعد مضي مدة، فليتركه أولا حتى لا يضيع أجره. وقد نقل: (أنه مات ابن لبعض الأكابر، فعزاه مجوسي، وقال له: ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام. فقال: اكتبوه عنه). وقال الصادق (ع): الصبر يظهر ما في بواطن العباد من النور والصفاء، والجزع يظهر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة. والصبر يدعيه كل أحد وما يثبت عنده إلا المختبون، والجزع ينكره كل أحد وهو أبين على المنافقين، لأن نزول المحنة والمصيبة يخبر عن الصادق والكاذب. وتفسير الصبر ما يستمر مذاقه، وما كان عن اضطراب لا يسمى صبرا. وتفسير الجزع اضطراب القلب وتحزن الشخص، وتغير اللون
ص ٢٢٥
والحال. وكل نازلة خلت أوائلها من الاخبات والإنابة والتضرع إلى الله فصاحبها جزوع غير صابر. والصبر ما أوله مر وآخره حلو، من دخله من أواخره فقد دخل، ومن دخله من أوائله فقد خرج، ومن عرف قدر الصبر لا يصبر عما منه الصبر، وقال الله تعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام: فكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا، فمن صبر كرها، ولم يشك إلى الخلق، ولم يجزع بهتك ستره، فهو من العام ونصيبه ما قال الله غز وجل: وبشر الصابرين: أي بالجنة والمغفرة. ومن استقبل البلاء بالرحب، وصبر على سكينة ووقار، فهو من الخاص، ونصيبه ما قال الله عز وجل: أن الله مع الصابرين) (١٨).
فصل الصبر up
- مراتب الصبر - أقسام الصبر - فضيلة الصبر - الصبر على السراء - اختلاف مراتب الصبر في الثواب - طريق تحصيل الصبر - التلازم بين الصبر والشكر - القانون الكلي في معرفة الفضائل - تفضيل الصبر - على الشكر. * * * ضد الجزع (الصبر)، وهو ثبات النفس وعدم اضطرابها في الشدائد والمصائب، بأن تقاوم معها، بحيث لا تخرجها عن سعة الصدر وما كانت عليه قبل ذلك من السرور والطمأنينة، فيحبس لسانه عن الشكوى، وأعضائه عن الحركات الغير متعارفة. وهذا هو الصبر على المكروه، وضده الجزع. وله أقسام أخر لها أسماء خاصة تعد فضائل أخر: كالصبر في الحروب، وهو من أنواع الشجاعة، وضده الجبن والصبر في كظم الغيظ، وهو الحلم ، وضده الغضب. والصبر على المشاق، كالعبادة، وضده الفسق، أي الخروج عن العبادات الشرعية. والصبر على شهوة البطن والفرج من قبائح اللذات، وهي العفة، وإليه أشير في قوله سبحانه:
(هامش)
(١٨) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): باب ٩٢ وعلى (البحار) باب الصبر واليسر بعد العسر، مج ١٥: ٢ / ١٤٣ (*)
ص ٢٢٦
)
وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى) ١٩ وضده الشره. والصبر عن فضول العيش، وهو الزهد، وضده الحرص. والصبر في كتمان السر، وضده الإذاعة، والأولان، كالصبر على المكروه من فضائل قوة الغضب. والرابع، من نتائج

المحبة والخشية. والبواقي، من فضائل قوة الشهوة كما يأتي. وفي ذلك: أن من عد الصبر مطلقا من فضائل القوة الشهوية أو القوة الغضبية إنما أراد به بعض أقسامه. ويظهر من ذلك: أن أكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر. ولذلك لما سئل رسول الله (ص) عن الإيمان، قال: (هو الصبر، لأنه أكثر أعماله وأشرفها)، كما قال: (الحج عزم). وقد عرف مطلق الصبر بأنه مقاومة النفس مع الهوى، وبعبارة أخرى: إنه ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى. والمراد بباعث الدين هو العقل النظري الهادي إلى طريق الخير والصلاح، والعقل العملي المنفذ لأحكامه المؤدية إلى الفوز والفلاح. والمراد بباعث الهوى هو قوة الشهوة الخارجة عن طاعة العقل، والقتال دائما بين الباعثين قائم، والحرب بينهما أبدا سجال (٢٠)، وقلب العبد معركته، ومدد باعث الدين من الملائكة الناظرين لحزب الله، ومدد باعث الهوى من الشياطين الناصرين لأعداء الله، فإن ثبت باعث الدين بأمداد الملائكة حتى قهر باعث الهوى واستمر على مخالفته، غلب حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تحاول وضعف حتى سلب باعث الهوى بأمداد الشياطين ولم يصبر على دفعه، التحق بأتباع الشياطين. وعمدة ما يثبت به باعث الدين هي قوة المعرفة، أي اليقين لكون الهوى عدوا قاطعا لطريق الوصول إلى الله مضادا لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة. ثم باعث الدين إما يقهر داعي الهوى بالكلية، بحيث لا تبقى له قوة المنازعة، فيدوم الصبر، وتستقر النفس في مقام الاطمينان، وتنادي من وراء سرادقات الجمال بخطاب: (يا أيتها النفس

(هامش)

)

١٩) النازعات، الآية: ٤٠ - ٤١ (٢٠) (الحرب بينهم سجال): مثل مشهور، أي تارة لهم وتارة عليهم (*)

ص ٢٢٧

المطمئنة! ارجعي إلى ربك راضية مرضية)، فتدخل في زمرة الصديقين السابقين، وتنسلك في سلك عباده الصالحين، أو يغلب داعي الهوى وينقهر باعث الدين، بحيث لا تبقى له قوة المنازعة، ويأس عن المجاهدة والمقاومة، فتسلم نفسه الشريفة الملكوتية التي هي سر الله ووديعته إلى حزب الشيطان. ومثله مثل من أخذ أعز أولاده المتصف بجميع الكمالات، ويسلمه إلى الكفار من أعدائه، فيقتلونه لديه، ويحرقونه بين يديه، بل هو أسوأ حالا منه بمراتب كما لا يخفى. إذ لا يكون لأحدهما الغلبة التامة، بل يكون بينهما تنازع وتجاذب، فتارة يغلب هذا، وتارة يغلب ذاك، فتكون النفس في مقام المجاهدة إلى أن يغلب أحد الباعثين، فتدخل في حزب الله أو حزب الشيطان. ثم غلبت أحد الباعثين على الآخر إما أن تكون في جميع مقتضياته أو بعضها، وتخرج من القسمين ثلاثة أحوال: الأولى - أن يغلب باعث الدين على جميع الشهوات في جميع الأوقات. الثانية - أن يغلب عليه الجميع في الجميع. الثالثة - أن يغلب على بعض دون بعض في الجميع، أو يغلب عليها كلا أو بعضا دون بعض. وقد أشير إلى أهل الحالة الأولى في الكتاب الإلهي بقوله تعالى: (يا أيتها النفس المطمئنة... إلى آخر الآية) ٢١ وإلى الثانية بقوله: (ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) ٢٢ وإلى الثالثة بقوله: (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) ٢٣

فصل مراتب الصبر up

الصبر على المكروه ومشاق العبادات وعن ترك الشهوات، أن كان بيسر وسهولة فهو الصبر حقيقة، وأن كان بتكلف وتعب فهو التصبر مجازا. وإذا أدام التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى،

(هامش)

(٢١) الفجر، الآية: ٢٧ - ٢٨ (٢٢) السجدة، الآية: ١٣ (٢٣) التوبة الآية: ١٠٣ (*)

ص ٢٢٨

تيسر الصبر ولم يكن له تعب ومشقة، كما قال الله سبحانه: (فأما من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى) ٢٤ ومتى تيسر الصبر وصار ملكة راسخة أورث مقام الرضا، وإذا أدام مقام الرضا أورث مقام المحبة. وكما أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا، فكذلك مقام الرضا أعلى من مقام الصبر. ولذلك قال رسول الله (ص): (أعبد الله على الرضا، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير). قال بعض العارفين: (أهل الصبر على ثلاث مقامات: الأول: ترك الشكوى، وهذه درجة التائبين. الثاني: الرضا بالمقدر، وهذه درجة الزاهدين. الثالث: المحبة لما يصنع به مولاه، وهذه درجة الصديقين). وكأن هذا الانقسام مخصوص بالصبر على المكروه

بالمصائب والمحن. ثم باعث الصبر إما إظهار الثبات وطمأنينة القلب عند الناس، ليكون عندهم مريضا، كما نقل عن معاوية: أنه أظهر البشاشة، وترك الشكوى في مرض موته وقال: وتجلدي للشامتين أريهم * أني لريب الدهر لا أتزعزع وهذا صبر العوام، وهم الذين يعملون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، أو توقع الثواب ونيل الدرجات الرفيعة في دار الآخرة، وهذا صبر الزهاد والمتقين، وإليه إشارة بقوله تعالى: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ٢٥ أو الالتذاذ والابتهاج بورود المكروه من الله سبحانه. إذ كل ما يريد من المحبوب محبوب، والمحب يشتاق إلى التفات محبوبه، ويرتاح به، وإن كان ما يؤذيه ابتلاء وامتحانا له، وهذا صبر العارفين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: (وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا أنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) ٢٦

(هامش)

(٢٤) الليل، الآية: ٥ / ٧ (٢٥) الزمر، الآية: ١٠ (٢٦) البقرة، الآية: ١٥٥ - ١٥٧. (*)

ص ٢٢٩

وقد ورد: أن الإمام محمد بن علي الباقر عليهما السلام قال لجابر ابن عبد الله الأنصاري - وقد اكتنفته علل وأسقام، وغلبه ضعف الهرم -: (كيف تجد حالك؟) قال: أنا في حال الفقر أحب إلي من الغنى، والمرض أحب إلي من الصحة، والموت أحب إلي من الحياة. فقال الإمام (ع): (أما نحن أهل البيت فما يرد علينا من الله من الفقر والغنى والمرض والصحة والموت والحياة، فهو أحب إلينا). فقام جابر، وقبل بين عينيه، وقال: صدق رسول الله (ص) حيث قال لي: (يا جابر! ستدرك واحدا من أولادي أسمه اسمي، يبقر العلوم بقرا).

تذنيب أقسام الصبر up

الصبر باعتبار حكمه ينقسم إلى الأقسام الخمسة، فالصبر عن الشهوات المحرمة وعلى مشاق العبادات الواجبة فرض، وعلى بعض المكاره وأداء المندوبات نفل، وعلى الأذية التي يحرم تحملها حرام، كالصبر على قطع يده، أو يد ولده، أو قصد حريمه بشهوة محضورة، وعلى أذى تناله بجهة مكروهة في الشرع. وبذلك يظهر أن كل صبر ليس محمودا، بل بعض أنواعه ممدوح، وبعض أنواعه مذموم، والشرع محكم، فما حسنه حسن، وما قبحه قبيح.

فصل فضيلة الصبر up

الصبر منزل من منازل السالكين، ومقام من مقامات الموحدين. وبه ينسلك العبد في سلك المقربين، ويصل إلى جوار رب العالمين. وقد أضاف الله أكثر الدرجات والخيرات إليه، وذكره في نيف وسبعين موضعا من القرآن. ووصف الله الصابرين بأوصاف، فقال عز من قائل: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) ٢٧ وقال: (وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا) ٢٨ وقال: (ولنجزين الذين

(هامش)

(٢٧) السجدة، الآية: ٢٤ (٢٨) الأعراف الآية: ١٣٦ (*)

ص ٢٣٠

صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ٢٩ وقال: (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ٣٠. فما من فضيلة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولذا قال: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) ٣٢. ووعد الصابرين بأنه معهم، فقال: (واصبروا أن الله مع الصابرين) ٣٢ وعلق النصرة على الصبر، فقال: (بلا أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) ٣٣ وجمع للصابرين الصلوات والرحمة والهدى، فقال: (أولئك عليهم صلوات من ربهم فرحمة وأولئك هم المهتدون) ٣٤ والآيات الواردة في مقام الصبر خارجة عن حد الاستقصاء، والأخبار المادحة له أكثر من أن تحصى. قال رسول الله (ص): (الصبر نصف الإيمان). وقال (ص): (من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمته الصبر، ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولئن تصبروا على مثل ما أنتم عليه أحب إلي من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم، ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضا، وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه)... ثم قرأ قوله تعالى: (ما عندكم ينفذ وما عند الله باق) ٣٥ وقال (ص): (الصبر كنز من كنوز الجنة). وقال (ص): (أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس).

ولا ريب في أن الصبر مما تكرهه النفوس، ولذا قيل: (الصبر صبر). وقال (ص): (في الصبر على تكره خير كثير). وقال (ص): (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له، ولا أيمان لمن لا صبر له). وسئل (ص) عن الإيمان، فقال: (الصبر والسماحة). وقال (ص):

(هامش)

(٢٩) النحل الآية: ٩٦ (٣٠) القصص، الآية: ٥٤ (٣١) الأنفال، الآية ٤٧ (٣٢) آل عمران، الآية: ١٢٥ (٣٣) البقرة، الآية: ١٥٧ (٣٤) الزمر، الآية: ١٠ (٣٥) النحل، الآية: ٩٦ (*)

ص ٢٣١

)

ما تجرع عبد قط جرعتين، أحب إلى الله من جرعة غيض ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها، ولا قطرت بقطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم أريقت في سبيل الله، وقطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى الصلاة الفريضة، وخطوة إلى صلة الرحم). وروي: (أنه تعالى أوحى إلى داود (ع): يا داود! تخلق بأخلاقي، وأن من أخلاقي أني أنا الصبور). وروي: (أن المسيح قال للحواريين: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون) (٣٦). وقال (ص): (ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأعقبني خيرا منها، إلا وفعل الله ذلك). وقال (ص): (قال الله عز وجل: إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل، إستحييت منه أن أنصب له ميزانا وأنشر له ديوانا) (٣٧). وقال (ص): (الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية. فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاث مائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى درجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر على المعصية كتب الله له ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش). وقال (ص): (سيأتي على الناس زمان لا ينال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر، ولا الغني إلا بالغصب والبخل، ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العز، آتاه الله ثواب خمسين صديقا ممن صدق بي) (٣٨). وقال (ص): (أن الله تعالى قال لجبرائيل: ما جزاء من سلبت كريمته؟ فقال: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا.

(هامش)

)

٣٦) صححنا النبويات على (إحياء العلوم): ٤ / ٥٣، كتاب الصبر (٣٧) صححنا الرواية على (البحار): مج ١٥: ٢ / ١٤٨، باب الصبر واليسر بعد العسر (*)

ص ٢٣٢

قال: جزاؤه الخلود في داري، والنظر إلى وجهي). وقال (ص) لرجل قال له: ذهب مالي وسقم جسمي: لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا بسقم جسمه، أن الله إذا أحب عبدا ابتلاه، وإذا ابتلاه صبره). وقال (ص): (إن الرجل يكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبتلي ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك). وقال (ص): (إذا أراد الله بعبد خيرا، وأراد أن يصافيه، صب عليه البلاء صبا وثجه عليه ثجا، فإذا وعاه، قالت الملائكة صوت معروف، وإذا دعاه ثانيا: فقال: يا رب! قال الله تعالى: لبيك عبدي وسعديك! لا تسألني شيئا إلا أعطيتك، أو رفعت لك ما هو خير، وادخرت لك عندي ما هو أفضل منه. فإذا كان يوم القيامة جيئ بأهل الأعمال فوزنوا أعمالهم بالميزان، أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج، ثم يؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا، فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لم يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب، فذلك قوله تعالى: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب). وقال (ص): إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب، وهو مقيم على معصيته، فاعلموا أن ذلك استدراج)... ثم قرأ قوله تعالى: (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء) ٣٩ يعني: لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخيرات حتى إذا فرحوا بما أوتوا - أي بما أعطوا من الخير - أخذناهم بغتة.

وروي: (أن نبيا من الأنبياء شكى إلى ربه، فقال: يا رب، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرضه للبلاء، ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجتري على معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا! فأوحى الله تعالى إليه: إن العباد إلي والبلاء لي، وكل يسبح بحمدي.

فيكون المؤمن عليه من الذنوب، فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة

(هامش)

(٣٨) صححنا الرواية، وكذا ما قبلها، على (أصول الكافي): ج ٢، باب الصبر وعلى (الوافي): ٣ ٣٢١ - - ٢٢٣، باب الصبر. (٣٩) الأنعام، الآية: ٤٤ (*)

ص ٢٣٣

لذنوبه حتى يلقاني، فأجزيه بحسناته، ويكون الكافر له من الحسنات، فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته وعن أبي عبد الله (ع) قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عز وجل: إني جعلت الدنيا بين عبادي قرضا، فمن أقرضني منها قرضا أعطيته بكل واحدة منهن عشرا إلى سبعمائة ضعف وما شئت من ذلك، ومن لم يقرضني منه قرضا فأخذت منه شيئا قسرا، أعطيته ثلاث خصال لو أعطيت واحدة منهن ملائكتي لرضوا بها مني. قال: ثم تلا أبو عبد الله (ع) قوله عز وجل (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا أنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم)، فهذه واحدة من ثلاث خصال، (ورحمة) اثنتان، (فأولئك هم المهتدون) ثلاث. ثم قال أبو عبد الله (ع): هذا لمن أخذ الله منه شيئا قسرا). وقال أمير المؤمنين (ع): (بني الإيمان على أربعة دعائم: اليقين، والصبر، والجهاد، والعدل). وقال أمير المؤمنين (ع) (الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن جميل، وأحسن من ذلك الصبر عندما حرم الله عز وجل عليك) وقال على (ع): (الصبر وحسن الخلق والبر والحلم من أخلاق الأنبياء). وقال أمير المؤمنين (ع): ((أيما رجل حبسه السلطان ظلما فمات، فهو شهيد، وإن ضربه فمات، فهو شهيد) ٤١). وقال أمير المؤمنين (ع): (من إجلال الله ومعرفة حقه ألا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك).

وقال أمير المؤمنين (ع) (ألا أخبركم بأرجى آية في كتاب الله؟) قالوا: بلا! فقرأ عليهم: (وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير) ٤٢ فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار، فإذا عافاه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا، وأن عفا عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة). وقال الباقر (ع): (الجنة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن

(هامش)

(٤٠) صححنا الأحاديث الأربعة على (إحياء العلوم): ٤ / ١١٤، باب الصبر (٤١) صححنا الروايات الثلاث على (أصول الكافي): ج ٢، باب الصبر وعلى ((الوافي): ٣ / ٣٢١ - ٣٢٣، باب الصبر (٤٢) الشورى، الآية: ٣٠ (*)

ص ٢٣٤

صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة. وجهنم محفوفة باللذات والشهوات فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار). وقال (ع): (مروءة الصبر في حال الفاقة والحاجة والتعفف والغنى، أكثر من مروءة الإعطاء) (٤٣) وقال (ع): (لما حضرت أبي علي بن الحسين عليهما السلام الوفاة، ضمني إلى صدره، ثم قال: يا بني! أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة، وبما ذكر أن أباه أوصاه به، قال: يا بني أصبر على الحق وأن كان مرا). وقال الصادق (ع): (إذا دخل المؤمن قبره، كانت الصلاة عن يمينه، والزكاة عن يساره، والبر مطل عليه، ويتنحى الصبر ناحيته. فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته، قال الصبر للصلاة والزكاة والبر: دونكم صاحبكم، فإن عجزتم عنه فأنا دونه). وقال (ع): (إذا كان يوم القيامة، يقوم عنق من الناس، فيأتون باب الجنة، فيضربونه، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصي الله، فيقول الله تعالى: صدقوا! ادخلوهم الجنة. وهو قول الله تعالى: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب). وقال (ع): (من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه، كان له مثل أجر ألف شهيد). وقال (ع): (إن الله عز وجل أنعم على قوم فلم يشكروا، فصارت عليهم وبالا، وأبتلي قوما بالمصائب فصبروا، فصارت عليهم نعمة) وقال عليه السلام: (من لا يعد الصبر لنوائب الدهر يعجز). وقال (ع): (أن من صبر

صبر قليلا، وأن من جزع جزع قليلا... ثم قال: عليك بالصبر في جميع أمورك، فإن الله عز وجل بعث محمدا (ص) فأمره بالصبر والرفق، فقال: (واصبروا على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا) ٤٤ وقال أبو الحسن (ع) لبعض أصحابه: (أن تصبر تغتبط، وإلا (هامش)
)
٤٣) قال العلامة (المجلسي) - قدس سره في (بحار الأنوار): مج ١٥ ج ٢، في باب الصبر على المصيبة، في ذيل هذا الخبر: (بيان المروة: هي الصفاة التي بها تكمل إنسانية الإنسان) (٤٤) المزمل، الآية: ١٠ (*)
ص ٢٣٥
تصبر يقدر الله مقاديره، راضيا كنت أم كارها) (٤٥). والأخبار في فضيلة الصبر على البلاء وعظم ثوابه وأجر ه أكثر من أن تحصى. ولذلك كان الأتقياء والأكابر محبين طالبين له، حتى نقل: (أن واحدا منهم دخل على ابن مريض له، فقال: يا بني! لئن تكن في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك. فقال: يا أبة! لئن يكن ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب). وقال بعضهم: (ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة، ما علم به أحد).
فصل الصبر على السراء up
كل ما يلقى العبد في الدنيا، وما يوافق هواه، أو لا يوافقه، بل يكرهه، وهو في كل منهما محتاج إلى الصبر. إذ ما يوافق هواه، كالصحة الجسمية، واتساع الأسباب الدنيوية، ونيل الجاه والمال، وكثرة الأولاد والأتباع، لو لم يصبر عليه، ولم يضبط نفسه عن الانهماك فيه والاغترار به، أدركه الطغيان والبطر. (فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى). وقال بعض الأكابر: (البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليه إلا الصديق). وقال بعض العرفاء: (الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء). ولذ لما توسعت الدنيا على الصحابة وزال عنهم ضيق المعاش، قالوا: (ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلا نقدر على الصبر عليها). ومن هنا قال الله سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) ٤٦. وقال (إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم) ٤٧. ومعنى الصبر على متاع الدنيا: لا يركن إليه، ويعلم أنه مستودع عنده، وعن قريب يسترجع عنه، فلا ينهمك في التنعم والتلذذ، ولا يتفاخر (هامش)
)
٤٥) صححنا الأحاديث الواردة عن أهل البيت - عليهم السلام - في باب الصبر على الجزء الثاني من أصول الكافي باب الصبر، وعلى الوافي: ٣ / ٣٢١ - ٣٢٣، كتاب الصبر (٤٦) المنافقون، الآية: ٩ (٤٧) التغابن، الآية: ١٤ (*)
ص ٢٣٦
به على فاقده من أخوانه المؤمنين، ويرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق، وفي منصبه بإعانة المظلومين، وكذلك في سائر ما أنعم الله به. والسر في كون الصبر عليها أشد من الصبر على البلاء: أنه ليس مجبورا على ترك ملاذ الدنيا، بل له القدرة والتمكن على التمتع بها، بخلاف البلاء، فإنه مجبور عليه، ولا يقدر على دفعه، فالصبر عليه أسهل. ولذا ترى أن الجائع إذا لم يقدر على الطعام أقدر على الصبر منه إذا قدر عليه. وأما ما لا يوافق هواه وطبعه، فله ثلاثة أقسام: الأول - ما يكون مقدورا للعبد، كالطاعات والمعاصي. أما الطاعة، فالصبر عليها شديد، لأن النفس بطبعها تنفر عنها، وتشتهي التقهر والربوبية كما يأتي وجهه، ومع ذلك يثقل عليها بعض العبادات باعتبار الكسل، وبعضها باعتبار البخل، وبعضها باعتبارهما، كالحج والجهاد، فلا تخلو طاعة من اعتبار يشق على النفس أن تصبر عليه، ومع ذلك يحتاج المطيع فيها إلى الصبر في حالات ثلاثة تتضاعف لأجلها الصعوبة، إذ يحتاج إليها قبل العمل في تصحيح النية والاخلاص، وتطهيرها عن شوائب الرياء، وفي حالة العمل لئلا يغفل عن الله في أثنائه، ولا يخل بشيء من وظائفه وآدابه، ويستمر على ذلك إلى الفراغ وبعد الفراغ عنه، لئلا يتطرق إليه العجب، ولا يظهر رياء وسمعة. والنهي عن إبطال العمل وعن إبطال الصدقات بالمن والأذى أمر بهذا القسم من الصبر. وأما المعاصي، فلكون جميعها مما تشتهيها النفس.
فصبرها عليها شديد، وعلى المألوفة المعتادة أشد، إذ العادة كالطبيعة الخامسة، ولذا ترى أن كل معصية شاعت وتكررت ثقل استنكارها، فإن الاستبعاد في مثل لبس الحرير أكثر من الاستبعاد في أطلاق اللسان طول النهار في أعراض الناس، مع أن الغيبة أشد من الزنا،

كما نطقت به الأخبار. فإذا انضافت العادة إلى الشهوة، ظهر جندان من جنود الشيطان على جند الله، فيصعب تركها. ثم المعصية أن كانت مما يسهل فعلها، كان الصبر عنها أشد، كمعاصي
ص ٢٣٧
اللسان من الغيبة والكذب، ولو كانت مع ذلك مشتملة على تمام ما تقتضيه جبلة النفس من الاستعلاء والربوبية، كالكلمات التي توجب نفي الغير، والقدح فيه، والثناء على ذاتها تصريحا أو تعريضا، كان الصبر عنا أشد. إذ مثل ذلك - مع كونه مما تيسر فعله وصار مألوفا معتادا - انضافت إليه شهوتان للنفس فيه: إحداهما نفي الكمال من غيرها، وأخراهما إثباته لذاتها. وميل النفس إلى مثل تلك المعصية في غاية الكمال، إذ به يتم ما تقتضيه جبلتها من التفوق والعلو، فصبرها عنها في غاية الصعوبة. وقد ظهر مما ذكر: أن أكثر ما شاع وذاع من المعاصي إنما يصدر من اللسان. فينبغي من كل أحد أن يجتهد في حفظ لسانه بتقديم التروي على كلام يريد أن يتكلم به، فإن لم يكن معصية تكلم به، وإلا تركه، ولو لم يقدر على ذلك، وكان لسانه خارجا عن إطاعته في المحاورات وجبت عليه العزلة والانفراد، وتركه التكلم مع الناس، حتى تحصل له ملكة الاقتدار على حفظه. ثم صعوبة الصبر وسهولته لما كانت تختلف في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعاصي قوة وضعفا، فينبغي لكل طالب السعادة أن يعلم أن داعية نفسه إلى أي معصية أشد، فيكون سعيه في تركها أكثر. ثم حركة الخواطر باختلاج الوساوس أيسر بكثير من حركة اللسان بقبائح الكلمات، فلا يمكن الصبر عنها أصلا، إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه، كمن أصبح وهمومه هم واحد. وأكثر جولان الخاطر إنما يكون في فائت لا تدارك له، أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدور. وكيف كان، فهو تصور باطل، وتضييع وقت. إذ آلة استكمال العبد قلبه، فإذا غفل القلب في لحظة من ذكر يستفيد به أنسا بالله، أو فكر يستفيد به معرفة بالله، ويستفيد بالمعرفة حب الله، فهو مغبون.
الثاني - ما ليس حصوله مقدورا للعبد، ولكنه يقدر على دفعه بالتشفي، كما لو أوذي بفعل أو قول، أو جني عليه في نفسه أو ماله، فإن حصول الأذية والجناية وإن لم يرتبط باختياره، إلا أنه يقدر على التشفي من المؤذي أو الجاني بالانتقام منه، والصبر على ذلك بترك المكافات. وهو قد يكون واجبا، وقد يكون فضيلة، وهو أعلى مراتب الصبر.
ص ٢٣٨
ولأجل ذلك خاطب الله نبيه (ص) بقوله: (واصبروا كما صبر أولو العزم من الرسل) ٤٨ وبقوله: (فاصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا) ٤٩. وبقوله: (ودع أذاهم وتوكل على الله ٥٠ وقال: (ولتسمعن من الذين أوتو الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور) ٥١. وقال (وأن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) ٥٢ وقال رسول الله (ص) (صل من قطعك، واعط من حرمك، واعف عمن ظلمك) وروي: (أنه (ص) قسم مرة مالا، فقال بعض الأعراب من المسلمين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله! فأخبر به رسول الله، فاحمرت وجنتاه ثم قال: رحم الله أخي موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر، الثالث - ما ليس مقدورا للعبد مطلقا، كالمصائب والنوائب. والصبر عليه شديد في غاية الصعوبة، ولا ينال إلا ببضاعة الصديقين، والوصول إليه يتوقف على اليقين التام. ولذا قال النبي (ص): (أسألك من اليقين ما يهون علي مصائب الدنيا). وقد تقدم بعض الأخبار الواردة في فضيلة هذا القسم من الصبر. وقال (ص): (قال الله: إذا ابتليت عبدي ببلائي فصبر، ولم يشكني إلى عواده، أبدلته لحما خيرا من لحمه، ودما خيرا من دمه، فإن أبرأته أبرأته ولا ذنب له، وأن توفيته فإلى رحمتي). وقال صلى الله عليه وسلم: (من إجلال الله ومعرفة حقه: لا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك). وقال (ص): (من ابتلي فصبر، وأعطي فشكر، وظلم فغفر أولئك لهم الأمن وهم مهتدون). وقال (ص): (أن الله - تعالى قال لجبرائيل: ما جزاء من سلبت كريمته؟ فقال: سبحانك!! لا علم لنا إلا ما علمتنا. قال: جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي). وقال داود (ع): (يا رب! ما جزاء الحزين يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟
(هامش)
(٤٨) الأحقاف، الآية ٣٥ (٤٩) المزمل، الآية: ١٠ (٥٠) الأحزاب، الآية: ٤٨ (٥١) لا عمران، الآية: ١٨٦ (٥٢) النحل، الآية: ١٢٦ (*)

ص ٢٣٩
قال: جزاؤه أن ألبسه الأمان، لا أنزعه عنه أبدا). وقال لابنه سليمان (ع) (يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل في ما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات). وروي: (أن من ابتلي بموت ثلاثة أولاد. لم يرد على النار أصلا).
تذنيب اختلاف مراتب الصبر في الثواب up
لما كان الصبر على العافية بمعنى ترك الشهوات المحرمة وعدم الانهماك فيها فهو راجع إلى الصبر عن المعصية. وعلى هذا فأقسام الصبر ثلاثة: الصبر على المصائب والنوائب، والصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية. ثم ما تقدم من الخبر النبوي صريح في كون الأول أقل ثوابا، والآخر أكثر ثوابا، والوسط وسطا بينهما. وربما ظهر من بعض الأخبار: كون الأول أكثر ثوابا. وأبو حامد الغزالي رجح الأول أولا، وبه صرح بعض المتأخرين من أصحابنا للخبر النبوي، ثم رجح الثاني ثانيا محتجا بما روي عن ابن عباس أنه قال: (الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء فرائض الله - تعالى - فله ثلاثمائة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى - وله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، فله تسعمائة درجة). وبأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم، وأما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه إلا ببضاعة الصديقين، لكونه شديدا على النفس. وعندي: أن القول بكون أحدهما أكثر ثوابا على الإطلاق غير صحيح إذ القول بأن الصبر عن كلمة كذب أو لبس ثوب من الحرير لحظة، أكثر ثوابا من الصبر على موت كثير من أعز الأولاد بعيد، وكذا القول بأن الصبر على فقد درهم أكثر ثوابا من كف النفس عن كبائر المعاصي، وفطامها عن ألذ اللذات والشهوات مع القدرة عليها أبعد، فالصواب: التفضيل بأن كل صبر من أي قسم كان من الثلاثة إذا كان على النفس أشد وأشق فثوابه أكثر مما كان أسهل وأيسر، كائنا ما كان، لما ثبت وتقرر أن أفضل الأعمال أحمزها، وبه يحصل الجمع والتلاؤم بين الأخبار.
ص ٢٤٠
فصل طريق تحصيل الصبر up
الطريق إلى تحصيل الصبر: تقوية باعث الدين، وتضعيف باعث الهوى والأول: إنما يكون بأمور: الأول - أن يكثر فكرته فيما ورد من فضل الصبر وحسن عواقبه في الدنيا والآخرة، وأن يعلم أن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات، وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة، إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة في الدنيا، وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر، فيجازى على المدة القصيرة الفانية بالمدة الطويلة الخالدة، وعلى الغاية القريبة الزائلة بالغاية المديدة الباقية. ومن أسلم خسيسا في نفيس، فلا ينبغي أن يحزن بفوات الخسيس في الحال. الثاني - أن يتذكر قلة قدرة الشدة الدنيوية ووقتها واستخلاصه عنها عن قريب، مع بقاء الأجر على الصبر عليها. الثالث - أن يعلم أن الجزع قبيح مضر بالدين والدنيا، ولا يفيد ثمرة إلا حبط الثواب وجلب العقاب، كما قال أمير المؤمنين (ع): (أن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور الرابع - أن يعود مصارعة هذا الباعث باعث الهوى تدريجا حتى يدرك لذة الظفر بها فيتجرى عليها، ويقوى متنه في مصارعتها. فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة يؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال. ولذا تزيد قوة الممارسين للأعمال الشاقة - كالحمالين والفلاحين - على قوة التاركين لها فمن عود نفسه مخالفة الهوى غلبه مهما شاء وأراد. وأما الثاني: أعني تضعيف الهوى، إنما يكون بالمجاهدة والرياضة، من الصوم والجوع وقطع الأسباب المهيجة لشهوة من النظر إلى مظانها وتخيلها، وبالتسلية بالمباح من الجنس الذي يشتهيه بشرط ألا يخرج عن القدر المشروع.
ص ٢٤١
تتميم أن قيل: الصبر في المصائب إن كان المراد به ألا تكون في نفسه كراهة المعصية، فذلك داخل تحت الاختيار، إذ الإنسان مضطر إلى الكراهة، فبماذا ينال درجة الصبر في المصائب؟ قلت: من كان عارفا بالله وبأسرار حكمته وقضائه وقدره، بأن يعلم يقينا بأن كل أمر صدر من الله وأبتلي به عباده من ضيق أو سعة، وكل أمر مرهوب أو مرغوب على وفق الحكمة والمصلحة بالذات، وما عرض من ذلك ممن يعده شرطا، فأمر عرضي لا يمكن نزع الخير المقصود منه، وإن ذلك إذا كان متيقنا له، استعدت نفسه للصبر ومقاومة الهوى في الغم والحزن، وطابت بقضائه وقدره، وتوسع صدره بمواقع حكمه، وأيقن بأن قضاءه لم يجر إلا بالخيرة. وقد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين (ع) بقوله: (اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين). ومن بلغ بهذه الدرجة، يتلذذ وبكل ما يرد عليه. ومثله يتمتع بثروة لا تنفد، ويتأيد بعز لا يفقد، فيسرح في ملك الأبد، ويعرج إلى قضاء السرمد. هذا مع أن العبد إنما يخرج عن مقام

الصابرين بالجزع، وشق الجيوب، وضرب الخدود، والمبالغة بالشكوى، وإظهار الكآبة، وتغيير العادة في الملبس والمطعم ونحوها، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره، فينبغي أن يجتنب عنها، ويظهر الرضا بقضاء، ويبقى مستمرا على عادته، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت، ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب وجريان الدمع، لأن ذلك مقتضى البشرية. لما مات إبراهيم ولد النبي (ص) فاضت عيناه بالدمع، فقيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ قال: (هذه رحمة، إنما يرحم الله من عباده الرحماء). وقال أيضا (ص): (العين تدمع والقلب يحزن، ولا يقول ما يسخط الرب). بل ذلك لا يخرج عن مقام الرضا أيضا، فإن المقدم على الفصد والحجامة راض به، مع أنه متألم بسببه لا محالة. نعم، من كمال الصبر كتمان المصائب، لما ورد من أن كتمان المصائب والأوجاع والصدقة من كنوز البر. وقد ورد المدح في كثير من الأخبار على عدم الشكاية من الأمراض والمصائب. وقال الباقر (ع) (الصبر الجميل، صبر ليس به شكوى إلى الناس). وفي بعض الأخبار:

ص ٢٤٢

(أن الشكاية أن تقول: ابتليت بما لم يبتل به أحد، وأصابني ما لم يصب أحدا، وليس الشكوى أن تقول سهرت البارحة، وحميت اليوم، ونحو ذلك). وقال الصادق (ع): (من اشتكى ليلة، فقبلها بقبولها، وأدى إلى الله شكرها، كانت كعبادة ستين سنة)، قيل له: ما قبولها؟ قال: (يصبر عليها ولا يخبر بما كان فيها، فإذا أصبح حمد الله على ما كان).

تتميم التلازم بين الصبر والشكر up

إعلم أنه اختلف في أفضلية كل من الصبر والشكر على الآخر، فرجح كلا منهما على الآخر طائفة. والظاهر أنه لا ترجيح لأحدهما على الآخر، لأنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر. إذ الصبر على الطاعة وعلى المعصية هو عين الشكر، لكون أداء الطاعة وترك المعصية شكرا، كما مر في باب الشكر. والصبر على الشدائد والمصائب يستلزم الشكر، لما مر من أن الشدائد والمصائب الدنيوية تتضمن نعما، فالصبر على هذه الشدائد يستلزم الشكر على تلك النعم ولأن الصبر على المصائب هو حبس النفس عن الجزع تعظيما لله سبحانه -. وهذا هو الشكر بعينه، لأنه تعظيم لله يمنع عن العصيان، والشاكر يمنع نفسه عن الكفران مع ميل النفس إليه، وهذا هو عين الصبر عن المعصية. وأيضا، توفيق الصبر والعصمة من الجزع نعمة يشكر عليها الصابر، فكل صبر يستلزم الشكر، وبالعكس. وبالجملة: لا ريب في استلزام كل من الصبر والشكر للآخر، فإن اجتماعهما في الطاعة وترك المعصية، بل اتحادهما فيهما، أمر ظاهر، كما تقدم. وفي البلاء المقيد الدنيوي، إذا حصل فيه الصبر، فلا ريب في عدم انفكاكه عن تصور النعم اللازمة له، ومن الثواب الأخروي، وحصول الانزعاج عن الدنيا والرغبة إلى الآخرة، فيشكر على ذلك. فهو لا ينفك عن الشكر، لأنه يعرف هذه النعم من الله، كما يعرف البلاء أيضا من الله فيفرح بالنعم، ويعمل بمقتضى فرحه من التحميد وغيره. وفي النعمة المقيدة مثل المال، إذا توسل به إلى تحصيل الدين، فلا ريب في أنه كما تحقق فيه الشكر تحقق فيه الصبر أيضا. إذ في إنفاق المال وبذله في تحصيل الدين

ص ٢٤٣

حبس النفس عما تحبه وتميل إليه، وثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى. وفي البلاء المطلق، كالكفر والجهل، لا معنى لتحقق الشكر أو الصبر فيه، وفي النعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم وحسن الأخلاق، كما يتحقق فيها الشكر يتحقق فيها الصبر أيضا. إذ تحصيل السعادة، والعلم، والأخلاق الفاضلة، والابقاء عليها، لا ينفك عن مقاومته مع الهوى ومنع النفس عما تميل إليه. مع أن الشكر عليهما يستلزم منع النفس عن الكفر وهو الصبر على المعصية. حتى أن شكر العينين بالنظر إلى عجائب صنع الله يستلزم الصبر عن الغفلة والنوم، والنظر إلى ما تميل إليه النفس من النظر إلى غير المحارم وأمثال ذلك. فإن قيل: استلزام كل من الصبر والشكر للآخر مما لا ريب فيه، إلا أن الكلام في أنه إذا لم يتحقق الاتحاد بينهما في فعل، كما في فعل الطاعة وترك المعصية لكونهما متحدين فيهما، بل تحقق الاستلزام الموجب لتحقق جهتين، فأي الجهتين أفضل؟ مثل أن يبتلى أحد بمصيبة دنيوية، فصبر عليها، بمعنى أنه عرف إنها من الله وحبس نفسه عن الجزع والاضطراب، وشكر عليها أيضا، بمعنى أنه عرف أن النعم اللازمة لها من الثواب الأخروي وغيرها من الله، وفرح بها، وعمل بمقتضى فرحه من التحميد أو طاعة أخرى، فهل الأفضل حينئذ جهة الصبر، أو جهة الشكر؟ قلنا: التأمل يعطي: أن كل صبر هو شكر بعينه، وبالعكس. فلا تتحقق بينهما جهتان مختلفتان حتى يتصور الترجيح بينهما. فإن الصبر على البلاء إنما هو حبس النفس

عن الجزع تعظيما لله. وهذا هو عين الشكر إذ كل طاعة لله - سبحانه - شكر، وفي الشكر على النعم المطلقة منع النفس عن الكفران، وهو عين الصبر عن المعصية. فإن قلت: فعلى هذا، يجتمع الصبر والشكر في محل واحد بجهة واحدة، وقد تقدم أنهما متضادان، إذ الصبر يستدعي ألما، والشكر يستدعي فرحا، وقد ذكرت أن اجتماع الصبر والشكر في محل واحد إنما يكون من جهتين متغايرتين لا من جهة واحدة.
قلنا: امتناع الاتحاد فيهما إنما هو في الصبر والشكر على ما هو كان
ص ٢٤٤
نعمة وبلاء بعينه، فإنه لا يمكن أن يكون الصبر على موت ولد - أعني حبس النفس عن الجزع - هو عين الشكر على النعمة إذ موت الولد بعينه ليس نعمة بل هو مستلزم للنعمة. فالشكر على اللازم، والصبر على الملزوم. فاختلفت جهتا الصبر والشكر، فلا اتحاد. وما ذكرنا من الاتحاد إنما هو الشكر والصبر على النعمة وترك المعصية، أو على البلاء والطاعة. وندعي أن من وصلت إليه نعمة، فشكر عليها بعرفانها من الله، ففرح بها وعمل بمقتضى الفرح، من التحميد أو طاعة أخرى، كان هذا الشكر عين الصبر عن المعصية هي الكفران، أو على الطاعة التي هي التحميد وغيره. كذا من ابتلي ببلية، فصبر عليها بحبس نفسه عن الجزع، فهذا الصبر. عين الشكر بأداء الطاعة التي هي تعظيم الله بكف النفس عن الجزع، أو عن المعصية التي هي الجزع والاضطراب. وهذا الاتحاد والعينية يطرد في كل صبر وشكر، ولا يتحقق شكر لا يكون عن الصبر من هذا الوجه، وبالعكس. وليس بينهما تضاد وتغاير أصلا، واستلزم واختلاف الجهة إنما هو في ٥٦ الصبر على البلاء والشكر على ما يستلزمه من النعم، ولا يمكن هنا اتحادهما لتضادهما، وفي هذه الصورة يكون كل من الصبر والشكر المتميزين عن الآخر باختلاف الجهة عين الآخر، من حيث ملاحظة الاعتبار السابق فلا يمكن الترجيح في هذه الصورة مع اختلاف الجهة أيضا. فإن قيل عرفان النعم من الله داخل في حقيقة الشكر، وليس داخلا في الصبر، فينبغي أن يكون الشكر لذلك أفضل من الصبر. قلنا: في الشق الأول من صورة العينية والاتحاد، يكون عرفان النعمة داخلا في الصبر وفي الشق الثاني منهما، وفي صورة الاستلزام، يدخل عرفان البلاء من الله في الصبر. فكما أن الشاكر يرى نعمة العينين من الله، فكذا الصابر يرى العمى من الله، فهما في المعرفة متساويان.
ثم جميع ما ذكر في الفرق بين الصبر والشكر إنما إذا كانت حقيقة الصبر حبس النفس عن الشكوى في البلاء مع الكراهة والتألم (١)، وعلى هذا يكون
(هامش)
(١) قال أستاذ البشر المحقق (الطوسي) - قدس سره - في تعريف الصبر (الصبر حبس النفس عن الجزع عند المكروه، وهو يمنع الباطل عن الاضطراب واللسان عن الشكاية، والأعضاء عن الحركات غير المعتادة.) (*)
ص ٢٤٥
الرضا فوقه، لو قطع النظر عن كون الصبر شكرا أيضا، ويكون الشكر فوق الرضا، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح، والشكر لا يمكن إلا على محبوب يفرح به، ولو لم يعتبر في مفهوم الصبر الكراهة والتألم، لصار الرضا والشكر في بعض درجاته، إذ يمكن أن يصل حال العبد في الحب مرتبة لا يتألم من البلاء أو يفرح به، لأنه يراه من محبوبه. وحينئذ، فترك الشكوى في البلاء مع الكراهة صبر، وبدونها رضا، ومع الفرح به شكر.
تنبيه القانون الكلي في معرفة الفضائل up
إعلم أن المعيار والقانون الكلي في معرفة فضائل الأعمال والأحوال وترجيح بعضها على بعض عند أرباب القلوب: أن العمل كلما كان أكثر تأثيرا في إصلاح القلب وتصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا، وأشد إعدادا له لمعرفة الله وانكشاف جلاله في ذاته وصفائه وأفعاله، كان أفضل. وعلى هذا القانون، لولا الاتحاد والعينية والتلازم بينهما، لكان اللازم أن يوازن بين كل درجة درجة من درجات الصبر والشكر وترجيح أحدهما، إذ لكل منهما درجات مختلفة في تنوير القلب وتصفيته، وسبب الاختلاف أسباب: منها - الاختلاف بين أقسام النعم وأقسام البلاء. ومنها - اختلاف مراتب المعرفة والفرح المأخوذين في الشكر، واختلاف الطاعة التي تفعل في كل منهما صعوبة وسهولة. فربما كان بعض درجات الصبر أشد تنويرا وأكثر إصلاحا للقلب من بعض درجات الشكر، وربما كان الأمر بعكس ذلك في بعض آخر من درجاتهما. فإن الأعمال والأحوال المندرجة تحت كل منهما كثيرة، وباختلافها - كثرة وقلة - تختلف

درجاتهما. فمن الأمور والأحوال التي تندرج تحت الشكر: حياء العبد من تتابع نعم الله عليه، ومعرفته بتقصيره عن الشكر، واعتذاره من قلة الشكر، واعترافه بأن النعم ابتداء من الله - تعالى - من غير استحقاقه لها، وعلمه بأن الشكر أيضا نعمة من نعمه ومواهبه، وحسن تواضعه بالنعم، والتذلل، وقلة اعتراضه، وحسن أدبه بين يدي المنعم وتلقي النعم بحسن القبول، واستعظام

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

## ٣٠١٠ جامع السعادات (ج3)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ٢٤٦

صغيرها، وشكر الوسائط، لقوله (ص): (من لم يشكر الناس لم يشكر الله). وقال السجاد (ع): (أشكركم لله أشكركم للناس). وقال (ع): (يقول الله - تعالى - لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلانا؟ فيقول: بل شكرتك يا رب! فيقول: لما تشكرني إذ لم تشكره). وقال الصادق (ع): (اشكر من أنعم عليك وانعم على من شكرك). ولا ريب في أنه كلما ازدادت هذه الأحوال في الشكر، وطال زمانه، ازداد فضله. وقد نقل:) أن رجلا (كان يهوى ابنة عم له، وهي أيضا تهواه، فاتفقا مزاوجتهما فقال الرجل ليلة الزفاف لها: تعالي حتى نحيي هذه الليلة شكرا لله على ما جمعنا، فقالت: نعم! فصليا تلك الليلة بأسرها، ولم يتفرغ أحدهما إلى صاحبه. فلما كانت الليلة الثانية، قالا مثل ذلك، فصليا طول الليل... فهكذا يفعلان في ثمانين سنة، وبقيا على تلك الحالة في ثمانين سنة في كل ليلة، من دون رجوع لأحدهما ومن دون اتفاق مضاجعة بينهما، فضلا عن شيء آخر). ولا يخفى أن هذا الشكر أفضل مراتب من صبرهما على بلاء العزوبة لو لم يحصل بينهما الجمع والوصول.

تتميم تفضيل الصبر على الشكر up

إعلم أن الظاهر من بعض الأخبار: أن الصبر أفضل وأكثر ثوابا من الشكر. كما روي: (أنه يؤتى يوم القيامة بأشكر أهل الأرض، فيجزيه الله جزاء الشاكرين. ويؤتى بأصبر أهل الأرض، فقال له: أترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر؟ فيقول: نعم يا رب! فيقول الله تعالى: كلا! أنعمت عليه فشكر، وابتليتك فصبرت، لأضعفن عليك الأجر عليه! فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين). وكقوله (ع): (الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر). وهذا يدل على أفضلية الصبر من الشكر، لأن المشبه به أعلى رتبة من المشبه. وكقول الباقر (ع): (مروءة الصبر في حال الحاجة والفاقة والتعفف والغنى، أكثر من مروءة الإعطاء). ويؤيد ذلك قوله تعالى: (إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب). وينبغي أن يرتكب في أمثال هذه الأخبار تقييدان:

ص٢٤٧

٢٤٧ أحدهما - التقييد ببعض المراتب، بأن يقال: المراد أن بعض مراتب الصبر أفضل من بعض مراتب الشكر. وهذا مما لا ريب فيه، فإن من سلب أعز أولاده وابتلي بالفقر والمرض، ومع ذلك صبر ولم يجزع، فهو أفضل البتة ممن أعطي مالا كثيرا فقال: شكرا لله، الحمد لله، من دون إبداء عمل آخر من الطاعات لا وليس المراد أن كل ما يسمى صبرا أفضل من كل درجة من درجات الشكر. إذ البديهة حاكمة بأن الشكر على نعمة بالاشتغال بالطاعة والعبادات، وترك المعاصي سنين كثيرة متتالية، من دون فتور، أفضل وأعلى رتبة من منع النفس عن الجزع لأجل عشرة دراهم سرقت منه. وثانيهما - التقييد بخروجها على ما هو الظاهر عند جمهور الناس من الانفكاك بين الصبر والشكر. فإن الجمهور لا يفهمون من حبس النفس عن الجزع عند الابتلاء ببلية إلا الصبر، ولا يلتفتون إلى أن هذا الحبس نوع عبادة حصلت تعظيما لله، وهو عين الشكر. وكذا لا يفهمون من إظهار التحميد والاشتغال بالصلاة عند وصول نعمة إلا الشكر، ولا يلتفتون إلى أن هذا العمل عين منع النفس عن الكفران، وهو الشكر بعينه. ومنها:

• الفسق up

وهو الخروج عن طاعة المبدأ الحقيقي وعبادته. وضده الطاعة، وهي تمجيد المبدأ والتخضع له بأداء ضروب العبادات المقررة في الشريعة. وعمدة العبادات الموظفة في الشريعة هي: الطهارة، والصلاة، والذكر، والدعاء، وتلاوة القرآن، والصوم، والحج، وزيارة النبي (ص)

والأئمة عليهم السلام: والجهاد في سبيل الله، وأداء المعروف، الشامل للزكاة، والخمس، والصدقة المندوبة، وغيرها. والأخير - أعني أداء المعروف بأقسامه - قد تقدم. والجهاد في هذا الزمان ساقط. فنشير إلى بعض الأسرار والدقائق والآداب الباطنة المتعلقة بالبواقي، في مقاصد وخاتمة. وأما آدابها وأحكامها وشرائطها الظاهرة، فهي مذكورة في الفقهيات.

المقصد الأول الطهارة up

- حقيقة الطهارة - ما ينبغي للمؤمن في الطهارة - إزالة

ص ٢٤٨

الأوساخ - آداب الحمام - السر في إزالة الأوساخ. إعلم أن الطهارة والنظافة أهم الأمور للعباد. إذ الطهارة الظاهرة وسيلة إلى حصول الطهارة الباطنة، وما لم تحصل الأولى لم تحصل الثانية. ولذا ورد في مدحها ما ورد، قال الله سبحانه: (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين) (٢). وقال: (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم) (٣). وقال رسول الله (ص): (بني الدين على النظافة). وقال (ص): (الطهور نصف الإيمان). وقال (ص): (مفتاح الصلاة الطهور). وقال (ص): بئس للعبد القاذورة). وقال (ص): ((من اتخذ ثوبا فلينظفه). وقال أمير المؤمنين (ع): (النظيف من الثياب يذهب الهم والحزن، وهو طهور للصلاة). ثم للطهارة أربع مراتب: الأولى - تطهير الظاهر من الأحداث والأخباث والفضلات. الثانية - تطهير الجوارح من الجرائم والآثام والتبعات. الثالثة - تطهير القلب من مساوي الأخلاق ورذائلها. الرابعة - تطهير السر عما سوى الله تعالى، وهي تطهير الأنبياء والصديقين. والطهارة في كل مرتبة نصف العمل الذي فيها، إذ الغاية القصوى في عمل السر أن ينكشف له جلال الله وعظمته، وتحصل له المعرفة التامة، والحب والأنس. ولا يمكن حصول ذلك ما لم يرتحل عن ما سوى الله، ولذلك قال الله تعالى: (قل الله ثم ذرهم) ٤. فإن الله وغيره لا يجتمعان في قلب واحد: (وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) (٥). فتطهير السر عما سوى الله نصف عمله، والنصف الآخر شروق نور

(هامش)

(٢) التوبة، الآية: ١٠٩ (٣) المائدة، الآية: ٧ (٤) الأنعام الآية: ٩١. (٥) الأحزاب الآية: ٤ (*)

ص ٢٤٩

الحق فيه. والغاية القصوى في عمل القلب عمارته بالأخلاق المحمودة، والعقائد الحقة المشروعة. ولا يتصف بها ما لم ينظف عن نقائضها، من الأخلاق المذمومة، والعقائد الفاسدة. فتطهيرها عنها أحد الشطرين، والشطر الآخر تحليته بالفضائل والعقائد الحقة. وأما عمل الجوارح، فالمقصود منه عمارتها بالطاعات. ولا يمكن ذلك ما لم يطهر عن المعاصي والمناهي. فهذا التطهير نصف عملها، ونصفه الآخر عمارتها بالطاعات. وقس على ذلك الحال في المرتبة الأولى. وإلى ذلك الإشارة بقول النبي (ص): (الطهور نصف الإيمان). فإن المراد: أن تطهير الظاهر، والجوارح، والقلب، والسر، من النجاسات والمعاصي ورذائل الأخلاق وما سوى الله نصف الإيمان، ونصفه الآخر عمارتها بالنظافة والطاعات ومعالي الأخلاق، والاستغراق في شهود جمال الحق وجلاله. ولا تظنن أن مراده (ص) إن مجرد تطهير الظاهر عن النجاسات بإضافة الماء نصف الإيمان، مع تلوث الجوارح بأخباث المعاصي، وتنجس القلب بأقذار مساوي الأخلاق، وتشوش السر وتكدره بما سوى الله. فالمراد التطهير في المراتب الأربع، التي هي من مقامات الدين، وهي مرتبة يتوقف بعضها على بعض، ولا يمكن أن ينال العبد ما هو الفوق، ما لم يتجاوز ما دونه، فلا يصل إلى طهارة السر مما سوى الله، وعمارته بمعرفة الله، وانكشاف جلاله وعظمته، ما لم يفرغ عن طهارة القلب عن الأخلاق المذمومة، وتحليته بالملكات المحمودة. ولا يصل إلى ذلك ما لم يفرغ عن طهارة الجوارح من المعاصي وعمارتها بالطاعات. ولا يصل إلى ذلك ما لم يفرغ عن إزالة الخبث والحدث عن الظاهر، وعمارته بالنظافة والنزاهة.

فصل حقيقة الطهارة up

طهارة الظاهر، إما عن الخبث، أو عن الحدث، أو عن فضلات البدن، وما يتعلق بها من الأحكام الظاهرة الواجبة والمحرمة والمندوبة والمكروهة، مستقصاة في كتب الفقه. وأما الآداب الباطنة لطهارة الخبث وإزالته عند التخلي لقضاء الحاجة،

ص ٢٥٠

أن يتذكر عنده نقصه وحاجته، وخبث باطنه، وخسة حاله، وما يشتمل عليه من الأقذار، وكونه حامل النجاسات، ويتذكر باستراحة

نفسه عند إخراجها، وسكون قلبه عن دنسها، وفراغه للعبادات والمناجات، وأن الأخلاق الذميمة التي في باطنها نجاسات باطنة، وأقذار كامنة، لتستريح نفسها عند إخراجها، ويطمئن قلبه من إزالة دنسها، وعند إخراجها يصلح للوقوف على بساط الخدمة، ويتأهل للقرب والوصول إلى حريم العزة. فكما يسعى أخراج النجاسات الظاهرة لاستراحة البدن مدة قليلة في الدنيا، فينبغي أن يجتهد أيضا في إخراج الأقذار الباطنة، والنجاسات الداخلة الغائضة (٦) في الأعماق، المفسدة على الإطلاق، لتستريح الروح والبدن في الدنيا والآخرة أبد الآباد. قال الصادق (ع): (إنما سمي المستراح مستراحا لاستراحة النفس من أثقال النجاسات، واستفراغ الأقذار والكسافات فيها. والمؤمن يعتبر عندها أن الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته، فيستريح بالعدول عنها وتركها، ويفرغ نفسه وقلبه عن شغلها، ويستنكف عن جمعها وأخذها استنكافه عن النجاسة والغائط والقذر، ويتفكر في نفسه المكرمة في حال كيف تصير ذليلة في حال، ويعلم أن التمسك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين. فإن الراحة في هوان الدنيا، والفراغ من التمتع بها، وفي إزالة النجاسة من الحرام والشبهة. فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته إياها، ويفر من الذنوب، ويفتح باب التواضع والندم والحياء، ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه، طلبا لحسن المآب، وطيب الزلفى. ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات، إلى أن يتصل بأمان الله تعالى في دار القرار، ويذوق طعم رضاه، فإن المعلول على ذلك، وما عداه فلا شيء) (٧). وينبغي أن يتأمل في أن ما دفع عنه من الغائط والقذر هو ما كان يشتهيه، ويحترص في طلبه من لذائذ الأطعمة وكلما كانت ألذ عفونتها أشد، فما

(هامش)

(

٦) الغائضة: الغائر. غيض الدمع حبسه وأخفاه (٧) الحديث مذكور في (مصباح الشريعة)، الباب التاسع وفي (مستدرك الوسائل): ١ / ٣٧ - ٣٨، كتاب الطهارة. وفي الموضوعين اختلاف كثير عما ذكر هنا، فصححناه كما كان في الموضوعين. (*)

ص ٢٥١

كانت عاقبة ذلك، فليحذر من أن يأخذه من غير حله، فيعذب أبد الآباد لأجله

فصل ما ينبغي للمؤمن في الطهارة up

ينبغي لكل مؤمن أن يستحضر عند اشتغاله بالطهارة عن الحدث: أن تكليفه بها للدخول في العبادات والمناجات مع خالق البريات إنما هو لكون أعضائه التي أمر بغسلها مباشرة للأمور الدنيوية، منهمكة في الكدورات الطبيعية، فخرجت عن أهلية القيام بين يدي الله سبحانه، والاشتغال بعبادته. فالأمر بغسلها، لتتطهر عن هذه الكدورات، فيتأهل للمناجاة. ولا ريب في أن مجرد غسلها لا يطهرها عن الأدناس الدنيوية والكدورات الجسمانية، ما لم يطهر قلبه عن الأخلاق الذميمة، والعلائق الدنيوية، ما لم يعزم على الرجوع إلى الله، والانقطاع عن الدنيا وشهواتها. فينبغي أن يكون قلبه عند الطهارة مطهرا عن ذمائم الصفات وخبائث الشهوات، جازما على فطام الأعضاء التي هي أتباعه وخدامه عن شهوات الدنيا، لتسري نوريته وطهارته إلى تلك الأعضاء، ثم أمر في الوضوء أولا: بغسل الوجه، الذي هو مجمع أكثر الحواس الظاهرة، التي هي أعظم الأسباب الباعثة على مطالب الدنيا، ليتوجه ويقبل بوجه للقلب على الله، وهو خال من تلك الأدناس، وثانيا: بغسل اليدين، له مباشرتهما أكثر الأمور الدنيوية والمشتهيات الطبيعية المانعة من الإقبال على الآخرة، وثالثا: بمسح الرجلين، للتوصل بهما إلى أكثر المطالب الدنيوية، والمقاصد الطبيعية. فأمر بتطهير جميعهما ليسوغ له الدخول بها في العبادات والاقبال عليها. وأمر في الغسل بغسل جميع البشرة، لأن أدنى حالات الإنسان وأشدها تعلقا بالملكات الشهوية حالة الوقاع، ولجميع بدنه مدخل في تلك الحالة. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (تحت كل شعرة جنابة) فحيث كان جميع بدنه بعيدا عن المرتبة العلية، منغمسا في اللذات الدنية، كان غسله أجمع من أهم المطالب الشرعية، ليتأهل لمقابلة الجهة الشريفة، والدخول في العبادة المنيفة. وأمر في التيمم بمسح الأعضاء بالتراب، عند تعذر غسلها بالماء، وضعا لتلك

ص ٢٥٢

الأعضاء الرئيسة، وهضما لها بملاقاتها أثر التربة الخسيسة. ثم لما كان القلب هو الرئيس الأعظم لهذه الجوارح والأعضاء، والمستخدم لها في تلك الأمور المبعدة عن جنابه تعالى، وهو الموضع لنظر الله سبحانه، كما قال (ص): (إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم)، فله من ذلك الحظ الأوفر والنصيب الأكمل. فيكون الاشتغال بتطهيره من الرذائل والتوجهات المانعة من درك الفضائل

أولى من تطهير الأعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل. وإذا لم يمكن تطهيره من الأخلاق الرذيلة، وتحليته بالأوصاف الجميلة، لرسوخه على حب الدنيا الدنية، فليقمه في مقام الهضم والإزراء، ويسقيه بسياط الذل والاغضاء. كما إنه عند تعذر غسل الأعضاء بالماء يهضمها ويذللها بالوضع على التراب، عسى أن يرحم ربه تواضعه وانكساره، فيهبه نفحة من نفحات نوره اللامع، فإنه عند المنكسرة قلوبهم، كما ورد في الأثر، فترق من هذه الإشارات ونحوها إلى ما يوجب لك الإقبال، ويتدارك سالف الإهمال. ثم ما ذكر من السر في الطهارة، يمكن استنباطه - مع زيادة - من كلام مولانا الصادق (ع) في (مصباح الشريعة)، حيث قال: (إذا أردت الطهارة والوضوء، فتقدم إلى الماء تقدمك إلى رحمة الله، فإن الله تعالى قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته، ودليلا إلى بساط خدمته، وكما أن رحمة الله تطهر ذنوب العباد كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لا غيره، قال الله تعالى: (وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا) (٨). وقال الله - تعالى -: (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) (٩). فكما أحيى به كل شيء من نعيم الدنيا، كذلك برحمته وفضله جعل حياة القلوب بالطاعات. وتفكر في صفاء الماء ورقته، وطهره وبركته، ولطيف امتزاجه بكل شيء. واستعمله في تطهير الأعضاء التي أمرك الله

(هامش)

(٨) الفرقان، الآية: ٤٨ (٩) الأنبياء، الآية: ٣٠ (*)

ص ٢٥٣

بتطهيرها، وتعبدك بآدابها في فرائضه وسنته فإن تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة، فإذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب. ثم عاشر خلق الله تعالى كامتزاج الماء بالأشياء، يؤدي كل شيء حقه، ولا يتغير عن معناه، معتبرا لقول الرسول (ص): (مثل المؤمن الخالص كمثل الماء). ولتكن صفوتك مع الله تعالى في جميع طاعاتك كصفوة الماء حين أنزله من السماء وسماه طهورا، وطهر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء) (١٠) ومن الأسرار الواردة في الطهارة وتخصيص بعض الأعضاء بالتطهير في الوضوء، ما أشار إليه مولانا الرضا (ع) بقوله: (إنما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهرا إذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته إياه مطيعا له، فيما أمره، نقيا من الأدناس والنجاسة، مع ما فيه من ذهاب الكسل، وطرد النعاس، وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبار. وإنما وجب ذلك على الوجه واليدين والرأس والرجلين، لأن العبد إذا قام بين يدي الجبار، فإنما ينكشف من جوارحه ويظهر ما يجب فيه الوضوء، وذلك أنه بوجهه يسجد ويخضع، وبيده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتل، وبرأسه يستقبل في ركوعه وسجوده، وبرجليه يقوم ويقعد. وأمر بالغسل من الجنابة دون الخلاء، لأن الجنابة من نفس الإنسان، وهو شيء يخرج من جميع جسده والخلاء ليس هو من نفس الإنسان، إنما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب) (١١)

(هامش)

(

١٠) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) الباب العاشر وعلى المستدرك): ١ / ٥١ - ٥٢ كتاب الطهارة (١١) هذه الرواية نقلها العلامة المجلسي قدس سره في (البحار) ١٨ / ٥٦، باب علل الوضوء وثوابه وعقاب تركه، وعن (العيون والعلل) لشيخ المحدثين مولانا (الصدوق) - رضوان الله عليه - ولم أعثر عليها إلا في الموضع المذكور من (بحار الأنوار). ولا يخفى لأن ما نقله العلامة (المجلسي) - قدس الله روحه - في الوضع المذكور فيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات) الخطية والمطبوعة، بحيث لا يمكن تصحيح الرواية إلا بنقلها من (البحار) وذكرها في هامش الكتاب وذلك غير ممكن، لضيق المقام، فلأجله تركنا تصحيحها، لعل القارئ الكريم يقف على مصدر آخر لها فمن أراد الإطلاع على الرواية، فعليه بمراجعة (البحار) في الموضع المذكور (*)

ص ٢٥٤

فصل في إزالة الأوساخ up

ينبغي لكل مؤمن أن يطهر بدنه من فضلاته ودرنه وأوساخه، كشعر الرأس بالحلق، وشعر الأنف والشارب وما طال من اللحية بالقبض، وشعر الإبط والعانة وسائر الأعضاء بالنورة، وكأظافر اليدين والرجلين بالقلم، وما يجتمع من الوسخ والقمل في شعر الرأس واللحية بالغسل والتسريح بالمشط، وما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذنين بالمسح ومثله، وما يجتمع منه على الأسنان وأطراف اللسان

بالسواك والمضمضة، وما يجتمع في الأنف من الرطوبات الملتصقة بالاستنشاق، وما يجتمع من الوسخ تحت الأظافر بالطعام والغسل، وما يجتمع من الدرن على جميع بدنه، وترشيح العرق وغبار الطريق بالدخول في الحمام

تنبيه آداب الحمام up

ينبغي لمن يدخل الحمام، أن يتذكر بحرارته حر النار، ويقدر نفسه محبوسا في البيت ساعة، ويقيسه إلى جهنم، ويستعيذ بالله منها. قال الصادق (ع): (فإذا دخلت البيت الثالث، فقل: نعوذ بالله من النار ونسأله الجنة. وترددها إلى وقت خروجك من البيت الحار) وقال أمير المؤمنين (ع): نعم البيت الحمام، يذهب بالدرن، وتذكر فيه النار). وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للعاقل ألا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظة، فإنها مقره ومستقره. فيكون له في كل ما يراه، من ماء أو نار أو غيرهما، عبرة وموعظة. فإن المرء ينظر في كل شيء بحسب همته. فالبزاز إذا دخل دار معمورة مفروشة ينظر إلى الفرش ويتأمل في قيمتها. والحائك إذا دخلها ينظر إلى الثياب ويتأمل في كيفية نسجها، والنجار إذا دخلها ينظر إلى أبوابها وشبابيكها ويتأمل في كيفية نجرها وتركيبها، والبناء إذا دخلها ينظر إلى الحيطان والسقف وكيفية بنائها وأحكامها واستقامتها. فكذلك سالك طريق الآخرة، لا ينظر إلى شيء إلا وتكون له موعظة وعبرة من

ص ٢٥٥

الآخرة، فإن نظر إلى ظلمة تذكر ظلمة اللحد، وإن نظر إلى نار تذكر نار جهنم، وإن نظر إلى حية تذكر أفاعي جهنم، وإن سمع صوتا هائلا تذكر نفخة الصور، وإن نظر إلى صورة قبيحة تذكر صورة النكيرين والزبانية، وإن رأى المحاسبة بين قوم تذكر محاسبة الآخرة، وإن سمع كلمة رد أو قبول تذكر ما ينكشف له في آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول، وإن رأى شيئا حسنا تذكر نعيم الجنة... إلى غير ذلك.

تتميم السر في إزالة الأوساخ up

السر في إزالة الأوساخ المذكورة عن البدن ظاهر، فإنها توجب تنوير القلب، وانشراح الصدر، وطرد الشيطان. إذ هي كسافات مانعة عن النورية والتجرد، فتشمئز منها الملائكة، ويرغب إليها الشياطين. ومن تأمل في الأحكام والآداب التي جاء بها رسول الله (ص)، وكانت له بصيرة ناقدة، يعلم أن شيئا منها لا يخلو عن حكمة، حتى أن ما صدر عنه في الآداب والحركات والأفعال والأقوال، من ترتيب خاص، أو تخصيص بعدد معين، أو ابتداء من موضع خاص، أو بواحد معين من الأشياء المتماثلة، يتضمن حكما أو حكمة البتة. مثال ذلك: أنه (ص) كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثا وفي عينه اليسرى اثنين، والسر في هذا الترتيب وهذا التخصيص: أن اليمنى أشرف العينين فبدأ بها، وتفاوته بين العينين لتكون الجملة وترا، فإن للوتر فضلا على الزوج، لأن الله وتر يحب الوتر، فلا ينبغي أن يخلو فعل العبد عن مناسبة لوصف من أوصاف الرب، وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر، لأن اليسرى حين إذ لا تخصها إلا واحدة، والغالب أن الواحدة لا تستوعب أصول الأجفان بالكحل، وإنما خصص اليمين بالزيادة لأن التفضل لا بد منه للإيثار، واليمين أفضل، فهو بالزيادة أحق، وإنما اقتصر على الاثنين لليسرى مع كونه زوجا، إذ الزوجية في أحداهما لازمة ضرورية، إذ لو جعل لكل واحد وترا لكان المجموع زوجا إذ الوتر مع الوتر زوج، ورعاية الإيثار في مجموع الفعل وهو في حكم الخصلة الواحدة أحب من رعايته في الآحاد. مثال آخر. روى الجمهور

ص ٢٥٦

في تقليم الأظافر: (أن رسول الله (ص كان يبدأ) عند تقليم أظافره الشريفة بمسبحة اليمنى، ويختم بإبهام اليمنى، بأن يبتدأ من مسبحتها إلى خنصرها، ثم يبتدأ من خنصر اليسرى إلى إبهام اليمنى). وفي طريقنا روايتان: إحداهما أن يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى. وأخراهما بعكس ذلك، وهي أشهر. فالسر على رواية الجمهور - كما قيل - أن اليد اليمنى أشرف من اليسرى فيبتدأ بها، ثم على اليمنى خمسة أصابع والمسبحة أشرفها فيبتدأ بها، ثم ينبغي بما يبتدأ بما على يمينها لكون اليمنى أشرف، ولذا استحب في الشرع وضع الطهور وغيره على اليمنى. ولا ريب في أنه إذا وضعت الكف على الأرض فيمين مسبحة اليمنى هي الوسطى، ووضع ظهر اليد على الأرض وإن اقتضى كون الإبهام هو اليمنى، إلا أن الاعتبار الأول أولى، إذ اليد إذا تركت بطبعها كانت الكف مائلة إلى جهة الأرض، لأن جهة حركة اليد اليمنى إلى جهة اليسرى، واليسرى إلى جهة اليمنى، واستتمام حركة كل منها في جهة بجعل الكف على الأرض

وظهرها عاليا، وإذا كانت الكف مائلة إلى جهة الأرض فاعتبار ما يقتضيه الطبع أولى، فتكون يمين المسبحة هي الوسطى. ثم إذا وضعت الكف على الكف، صارت الأصابع في حكم حلقة دائرة، فيقتضي ترتيب الدور الذهاب من يمين المسبحة إلى أن يعود إلى المسبحة، فتقع البداءة بخنصر اليسرى والختم بإبهامها، ويبقى إبهام اليمنى، وإنما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الأصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها، وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف، فإن ذلك لا يقتضيه الطبع. هذا، وأما السر على الرواية الأولى من طريقنا، فكأنه اعتبار الأصابع العشرة في حكم صنف واحد ثابت على الأرض والابتداء باليمين، فاكتفى بما يرى بالنظر الجليل مع ترك اليد بطبعها. وأما الرواية الثانية، فلعل السر فيها تحصيل التيامن في كل إصبع بعد الأولى مع الترتيب فيها، ووضع اليدين على ما يقتضيه الطبع.

هذا، وأما أصابع الرجل، فلم نعثر على خبر يدل على كيفية الابتداء والترتيب فيها، فينبغي اعتبار أحد الطريقين

ص ٢٥٧

المرويين عندنا فيها، ولعل اعتبار الأولى لأظهرية سرها أولى، وينبغي أن يكون تقليم أظافرها بعد تقليم أظافر اليدين أن وقعا في وقت واحد، إذ اليد أشرف من الرجل. وقس على ما ذكر سائر ما ورد من الآداب والتخصيصات، فإنه لا يخلو شيء منها على سر حكمي، وان كانت عقولنا قاصرة عن أدراك أكثرها.

المقصد الثاني الصلاة up

- حقيقة الصلاة - حضور القلب - دفع إشكال - شرائط الصلاة - طريق تحصيل المعاني الباطنة - أسرار الصلاة - الوقت - آداب الصلاة - آداب المصلي - الاستقبال - القيام - التكبيرات - النية - تكبيرة الاحرام - دعاء الاستفتاح - الاستعاذة - الركوع - السجود - التشهد - التسليم - إفاضة الأنوار على المصلي على قدر صفائه - ما ينبغي في إمام الجماعة - ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين - ما ينبغي لمؤمن عند ظهور الآيات. إعلم أن الصلاة معجون سماوي وتركب إلهي، ركبت من أجزاء كثيرة مختلفة، متفاوتة في الفضل والاهتمام بها. فبعضها بمنزلة الروح، وبعضها بمثابة الأعضاء الرئيسة، وبعضها بمنزلة سائر الأعضاء. وتوضيح ذلك: إن الإنسان - مثلا - لما كان حقيقة مركبة من أجزاء معينة، فهو لا يكون إنسانا موجودا كاملا إلا بمعنى باطن هو الروح، وأعضاء محسوسة بعضها في جوفه وبعضها في ظاهرة. وهذه الأعضاء متفاوتة المراتب، إذ بعضها مما ينعدم الإنسان بعدمه وتزول الحياة بزواله، كالقلب والدماغ والكبد والمعدة وأمثالها، وبعضها وإن لم ينعدم بعدمه أصل الحياة، إلا أنه ترتفع به تمامية الإنسان ويصير ناقصا، كاليد والرجل والعين وأمثالها، وبعضها يفوت بفواته الحسن، كالحاجبين واللحية والأهداب وأمثالها، وبعضها يفوت بفواته كمال الحسن لا أصله، كاستقواس الحاجبين وتناسب الخلقة، وسواد شعر اللحية، وامتزاج البياض بالحمرة، وأمثال ذلك. وكذلك الصلاة حقيقة مركبة، وصورة صورها الشرع من أمور متفاوتة، وتعبدنا باكتسابها. فروحها: النية، والقربة، وحضور القلب،

ص ٢٥٨

والاخلاص. وأعمالها الأركانية: من تكبيرة الاحرام، والركوع، والسجود، والقيام، بمنزلة الأعضاء الرئيسية، فتفوت بفواتها الصلاة على الإطلاق، ولا يمكن تحققها وصحتها بدونها. وسائر الأعمال الواجبة: من الفتحة، والسور، وإذ كان الركوع، والسجدتين، والطمأنينة فيها، وفي رفع الرأس عنها، والتشهد، والتسليم، وغير ذلك من الأعمال الواجبة التي تبطل الصلاة بتركها عمدا لا سهوا، بمنزلة اليدين والرجلين وآلات التناسل وغير ذلك، مما قد تفوت الحياة بزوالها وقد لا تفوت به، والأعمال المسنونة والهيئات المندوبة، والآداب المستحبة: من القنوت، ودعاء الافتتاح، وغير تكبير الاحرام من التكبيرات والتعوذ عن زائد قدر الواجب في التشهد والتسليم من الأذكار، وغير ذلك مما لا تبطل الصلاة بتركها عمدا أو سهوا، ولكن تخرج بها عن الحسن والكمال وزيادة الأجر والثواب، فهي بمنزلة، الحاجبين واستقواسهما واللحية والأهداب وتناسب الخلقة وغير ذلك مما يفوت بعضها الحسن والجمال وبفوات بعض كمالها، ويصير الشخص بسببه مشوه الخلقة مذموما غير مرغوب فيه. وإذا عرفت ذلك: فاعلم - يا حبيبي - أن صلاتك قربة وتحفة تتقرب بها إلى حضرة ملك الملوك، كوصيفة يهديها طالب القرب والجاه من السلاطين إليهم. وهذه التحفة تعرض على الله ثم ترد إليك في يوم العرض الأكبر، فإليك الخيرة في تحسين صورتها أو تقبيحها، فمن أداها على النحو المأمور به، بأعمالها الواجبة والمندوبة، وشرائطها الظاهرة والباطنة، مع الإخلاص، وحضور القلب، كان كمن أهدى عبدا صحيحا سويا شابا جميلا عاقلا كاملا إلى ملك من الملوك.

ومن اقتصر على أعمالها الظاهرة، وغفل من الحضور والتوجه والقربة والاخلاص، كان كمن أهدى عبدا ميتا بلا روح إلى ملك من الملوك. ومن ترك عمدا شيئا من واجباته، كان كمن أهدى عبدا مقتولا إليه.
ومن اقتصر على أقل ما يجزي كان كمن أهدى إليه عبد حي أعمى، أو أصم، أو أبكم، أو مقطوع الأطراف، أو هرما، أو قبيح المنظر، أو مجروح الأعضاء، أو أمثال ذلك. فتنبه أيها الغافل، وتأمل في أنك إذا أهديت تحفة إلى ملك من ملوك الدنيا، بل إلى من دونه بمراتب كثيرة،
ص ٢٥٩
من الأمراء والحكام، كيف تجتهد وتسعى في تجويدها وتحسينها ليقبلها، فما بالك أيها المغرور تغفل وتتساهل من تحسين هديتك وتحفتك إلى ملك الملوك الذي منه بدؤك وإليه عودك؟! وقد ورد: أن كل صلاة لا يتم الإنسان ركوعها وسجودها فهي الخصم الأول على صاحبها يوم العرض الأكبر، وتقول (ضيعك الله كما ضيعتني!)
فصل حقيقة الصلاة up
لا بحث لنا عما يتعلق بظاهرها من الأجزاء والشرائط والأحكام، إذ بيانها على عهدة الفقه فالنشر إلى المعاني الباطنة التي بها تتم حياتها، وإلى الأسرار والآداب الخفية الباطنة المتعلقة بأجزائها وشرائطها الظاهرة، لتكون ملحوظة للعبد عن فعلها. فنقول: المعاني الباطنة التي هي روح الصلاة وحقيقتها، سبعة: الأول - الإخلاص والقربى، وخلوها من شوائب الرياء. وقد تقدم تفصيل القول في ذلك. الثاني - حضور القلب: وهو أن يفرغ القلب من غير ما هو ملابس له ومتكلم به، حتى يكون العلم مقرونا بما يفعله وما يقوله، من غير جريان الفكر في غيرها. فمهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه، وكان في قلبه ذكر لما هو فيه من غير غفلة عنه، فقد حصل حضور القلب. ثم حضور القلب قد يعبر عنه بالاقبال على الصلاة والتوجه، وقد يعبر عنه بالخشوع بالقلب فإن الخشوع في الصلاة خشوعان: خشوع القلب: وهو أن يتفرغ لجمع الهمة لها، والإعراض عما سواه، بحيث لا يكون في قلبه غير المعبود. وخشوع بالجوارح: وهو أن يغض بصره، ولا يلتفت، ولا يعبث، ولا يتثائب، ولا يتمطى، ولا يفرقع أصابعه وبالجملة: لا يتحرك لغير الصلاة ولا يفعل شيئا من المكروهات، وربما عبر ذلك بالخضوع. الثالث - التفهم لمعنى الكلام: وهو أمر وراء حضور القلب. فربما يكون القلب حاضرا مع اللفظ، ولا يكون حاضرا مع معناه فالمراد بالتفهم هو اشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ. وهذا مقام يتفاوت
ص ٢٦٠
فيه الناس، إذ ليس يشترك الناس في تفهم معاني القرآن والتسبيحات، فكم من معان لطيفة يفهمها بعض المصلين في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه قبل ذلك ولا يفهمها غيره. ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، فإنها تفهم أمورا تمنع تلك الأمور عن الفحشاء والمنكر لا محالة. الرابع - العظيم: وهو أمر وراء حضور القلب والتفهم. إذ الرجل ربما يخاطب غيره، وهو حاضر القلب فيه، ومتفهم لمعناه، ولا يكون معظما له. الخامس - الهيبة: وهي زائدة على التعظيم لأنها عبارة عن خوف منشأه التعظيم، لأن من لا يخاف لا يسمى هائبا. ثم كل خوف لا يسمى مهابة، بل الهيبة خوف مصدره الاجلال. السادس - الرجاء: ولا ريب في كونه زائدا عما ذكر. فكم من رجل يعظم ملكا من الملوك، ويهابه ويخاف سطوته، ولا يرجو بره وإحسانه، والعبد ينبغي أن يكون راجيا بصلاته ثواب الله، كما أنه خائف بتقصيره عقابه السابع - الحياء: ومستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب، وهو زائد على التعظيم والخوف والرجاء، لتصورها من غير حياء، حيث لا يكون توهم وتقصير ارتكاب ذنب.
فصل حضور القلب up
إعلم أن كون الأمور المذكورة روح الصلاة وحقيقتها، والمقصود الأصلي منها، أمر ظاهر. إذ الغرض الأصلي من العبادات والطاعات هي تصفية النفس وتصقيلها، فكل عمل يكون أشد تأثيرا فيهما يكون أفضل. ولا ريب في أن المقتضي لصفاء النفس وتجردها وتصقيلها عن الكدورات من الصلاة ليس إلا الأمور المذكورة، وليس لنفس الحركات الظاهرة كثير مدخلية فيها، وكيف لا يكون حضور القلب والخشوع روح الصلاة ولا يتوقف كمال الصلاة عليه، مع أن المصلي في صلاته ودعائه مناج ربه؟ ولا شك أن الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة، وأيضا الكلام إعراب عما في الضمير، ولا يأتي الإعراب عما في الضمير إلا بحضور القلب، فأي سؤال في قوله: (اهدنا السراط
ص ٢٦١

المستقيم) إذا كان القلب غافلا؟ ولا شك أيضا أن المقصود من القراءة والأذكار الثناء والحمد والتضرع والدعاء، والمخاطب هو الله - تعالى -، فإذا كان قلب العبد محجوبا عنه بحجاب الغفلة، ولا يراه ولا يشاهده، بل كان غافلا عن المخاطب، ويحرك لسانه بحكم العادة، فما أبعد هذا المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيل القلب، وتجديد ذكر الله، ورسوخ عقد الإيمان بها. هذا حكم القراءة والذكر. وأما الركوع والسجود، فالمقصود منهما التعظيم قطعا، والتعظيم كيف يجتمع مع الغفلة، وإذا خرج عن كونه تعظيما لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه المشقة ما يقصد الامتحان به، كما في أفعال الحج وإعطاء المال في الزكاة، وإمساك النفس عن الشهوات في الصوم. فكيف يجعل مجرد هذه الحركة مع خفتها وسهولتها عماد الدين، والفاصل بين الكفر والإسلام، وتقدم على سائر العبادات، ويجب القتل بسبب تركها على الخصوص، ولكون الحضور والخشوع والخشية عمدة ما يقصد به من الصلاة تظاهرت الآيات والأخبار على الترغيب عليها وفضيلتها ومدح أهلها وعلى ذم الغفلة والتفكر في أمور الدنيا والوساوس الباطلة عند الاشتغال بالصلاة، وقد تظاهرت الأخبار أيضا بأن الأنبياء والأوصياء وأكابر الأولياء كانوا عند اشتغالهم في الصلاة في غاية الإقبال والخشوع والخوف. قال الله - سبحانه -: (الذين هم في صلاتهم خاشعون) (١٢). وقال: (وأقم الصلاة لذكري) (١٣). والغفلة تضاد الذكر، فمن كان غافلا في صلاته لا يكون مقيما للصلاة لذكره. وقال: (ولا تكن من الغافلين) (١٤). وقال: (فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون) (١٥)، ذمهم على الغفلة عنها مع كونهم مصلين، لا لأنهم سهوا عنها وتركوها. وقال: (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) ١٦.

(هامش)

(١٢) المؤمنون، الآية: ٢. (١٣) طه، الآية: ١٤ (١٤) الأعراف، الآية: ٢٠٤ (١٥) الماعون، الآية: ٤ - ٥. (١٦) النساء، الآية: ٤٢. (*)

ص ٢٦٢

قيل المراد: سكارى من كثرة الهم، قيل: من حب الدنيا، ولو حمل على ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا، إذ بين فيه العلة، وقال: حتى تعلموا ما تقولون. وكم من مصل لم يشرب الخمر وهو لا يعلم ما يقول في صلاته وقال رسول الله (ص) (من صلى ركعتين، لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا، غفر له ما تقدم من ذنبه). وقال (ص): (إذا صليت صلاة فريضة، فصل لوقتها صلاة مودع يخاف ألا يعود فيها). وقال (ص): (لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه). وقال (ص): (إنما فرضت الصلاة، وأمر بالحج والطواف، وأشعرت المناسك، لإقامة ذكر الله، فإذا لم يكن في قلبك للمذكور الذي هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة، فما قيمة ذكرك،!). وعن أبي عبد الله (ع) قال: (قال الله - تبارك وتعالى -: إنما أقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، ويكف نفسه عن الشهوات من أجلي، ويقطع نهاره بذكري، ولا يتعاظم على خلقي ويطعم الجائع، ويكسو العاري، ويرحم المصاب، ويؤوي الغريب، فذلك يشرق نوره مثل الشمس، أجعل له في الظلمات نورا، وفي الجهالة علما، أكلأه بعزتي، وأستحفظه بملائكتي يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه. فمثل ذلك عندي كمثل جنات الفردوس لا تيبس ثمارها، ولا تتغير عن حالها) (١٧). وفي أخبار موسى: (يا موسى، إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تبغض أعضاءك، وكن عند ذكري خاشعا مطمئنا. وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك. وإذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل، وناجني بقلب وجل ولسان صادق). وأوحى إليه (ع): - (قل لعصاة أمتك: لا تذكروني، فإني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكرته، وإذا ذكروني ذكرتهم باللعنة). وفي بعض الأحاديث القدسية: (ليس كل مصل أتقبل صلاته، إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي، ولم يتكبر على عبادي، وأطعم الفقير الجائع لوجهي). وقال أمير المؤمنين: (طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يشتغل

(هامش)

(

١٧) الحديث مروي في (بحار الأنوار): ١٨ / ١٩٦ آداب الصلاة عن (المحاسن)، وفيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات) فصححناه على الموضع المذكور من (بحار الأنوار).

ص ٢٦٣

قلبه بما تراه عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أعطي غيره). وقال (ع): (لا تجتمع الرغبة والرهبة في قلب إلا وجبت له الجنة، فإذا صليت، فأقبل بقلبك على الله - عز وجل -، فإنه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله - عز وجل - في صلاته ودعائه، إلا أقبل عليه بقلوب المؤمنين، وأيده مع مودتهم إياه بالجنة). وقال الباقر (ع): (إن العبد ليرفع له من صلاته نصفها وثلثها وربعها وخمسها، فما يرفع له إلا ما أقبل عليه بقلبه، وإنما أمروا بالنوافل ليتم لهم ما نقصوا من الفريضة). وروي: (أن إبراهيم الخليل كان يسمع تأويله على حد ميل، وكان يسمع له في صلاته أزيز كأزيز المرجل) (١٨). وكذلك كان يسمع من صدر سيدنا رسول الله (ص) مثل ذلك. وقال بعض أزواجه: (كان النبي (ص) يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة، فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه). وكان أمير المؤمنين (ع) إذا أخذ في الوضوء، يتغير وجهه من خيفة الله. وكان (ع) إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون، فقيل له: مالك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: (جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان). وروي: (أنه وقع نصل في رجله (ع)، فلم يمكن أحدا من إخراجه. فقالت فاطمة - عليها السلام -: أخرجوه في حال صلاته، فإنه لا يحس حينئذ بما يجري عليه. فأخرج وهو في صلاته، فلم يحس به أصلا). وكانت الصديقة فاطمة - عليها السلام) تنهج (١٩) في الصلاة من خيفة الله. وكان الحسن ابن علي - عليهما السلام - إذا فرغ من وضوءه، تغير لونه، فقيل له في ذلك، فقال: (حق على من أرادا أن يدخل على ذي العرش أن يتغير لونه).

وكان الإمام علي بن الحسين - عليهما السلام - إذا توضأ أصفر لونه، فيقال له: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: (أني أريد الوقوف بين يدي ملك عظيم). وقال أبو حمزة الثمالي: (رأيته يصلي، فسقط رداؤه عن منكبه، فتركه حتى فرغ من صلاته، فسألته عن ذلك،

(هامش)

(١٨) الأزيز: صوت غليان القدر. والمرجل - وزان منبر -: القدر من الحجارة. (١٩) النهج - بالتحريك -: تتابع النفس واللهاث. (*)

ص ٢٦٤

فقال: ويحك! أتدري بين يدي من كنت؟ شغلني والله ذلك عن هذا! أتعلم أنه لا يقبل من صلاة العبد إلا ما أقبل عليه. فقلت له: يا ابن رسول الله، هلكنا إذا. قال: كلا! إن الله يتم ذلك بالنوافل). وروي: أنه (ع) إذا قام إلى الصلاة تغير لونه، وإذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقا). وروي: (أنه (ع) كان إذا قام إلى الصلاة كأنه ساق شجرة، لا يتحرك منه إلا ما حركت الريح منه). وسئل مولانا الصادق (ع) عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر مغشيا عليه، فقال: (ما زلت أكرر آيات القرآن حتى بلغت إلى حال كأنني سمعتها مشافهة ممن أنزلها) (٢٠). قيل: وكان لسان الإمام (ع) في تلك الحال كشجرة طور حين قالت: (أني أنا الله). وسئل بعض الأكابر عن صلاته، فقال: ((إذا جاءت الصلاة، أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم إلى الصلاة فأجعل الكعبة بين حاجبي، والصراط تحت قدمي والجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وملك الموت ورائي، وأظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف وأكبر تكبيرا بتحنن، وأقرأ القرآن بترتيل، وأركع ركوعا بتواضع، وأسجد سجودا بتخشع، وأقعد على الورك اليسرى، وأفرش ظهر قدميها، وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأتبعها الإخلاص، ثم لا أدري أقبلت مني أم لا!). ثم، على ما عرفت من كيفية صلاة الأنبياء والأولياء مع مشاهدة كيفية صلاتك وصلاة الناس، تعلم: أن الناس ينقسمون في صلاتهم: إلى غافل يتم صلاته ولا يحضر قلبه في لحظة. وإلى من يغفل في بعض صلاته ويحضر قلبه في بعض منها، وهذا تختلف حاله بحسب قلة كل من الحضور والغفلة وكثرتهما، وزيادة أحدهما على الآخر، فله مراتب غير متناهية. وإلى من يتم صلاته ولا يغيب قلبه لحظة، بل يكون حاضر القلب في جميع صلاته وربما كان مستوعب الهم بها، بحيث لا يحس بما يجري بين يديه كما لم يحس مولانا أمير المؤمنين (ع) بإخراج النصل من رجله الشريفة.

(هامش)

(

٢٠) صححنا الأحاديث الواردة في الصلاة على بحار الأنوار: ١٨ / ١٦٩ - ٢٠٢، باب آداب الصلاة. (*)

ص ٢٦٥
وبعضهم حضر الجماعة مدة، ولم يعرف قط من على يمينه ويساره. وكان وجيب الخليل يسمع على ميلين. وكان جماعة تصفر وجوههم، وترتعد فرائضهم عند الصلاة. وكل ذلك غير مستبعد، فإن إضعافه مشاهدة في هم الدنيا وخوف ملوك الدنيا، مع ضعفهم وعجزهم، وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم. وحتى يدخل الرجل على ملك أو وزير، ويحدثه بمهم ويخرج، ولو سئل عمن كان على حواليه، وعن ثوب الملك، لكان غير قادر على الإخبار عنه، لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حوله: (ولكل درجات مما عملوا) (٢١). فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه. فإن موضع نظر الله القلوب، دون ظاهر الحركات. ولذا قال بعض الصحابة: (يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة، من الطمأنينة والهدوء، ومن وجود النعم واللذة والبهجة بها) فالمحفوظ حال القلب لا حال الشخص. ولذا قيل (من صفات القلوب تصاغ الصور في دار الآخرة، ولا ينجو: (إلا من أتى الله بقلب سليم)) (٢٢)
تنبيه دفع إشكال up
إن قيل: المستفاد من الظواهر المذكورة، أن صلاة الغافل ليست مقبولة إلا بقدر ما أقبل عليه منها، والفقهاء لم يشترطوا إلا حضور القلب عند النية والتكبير، فكيف التوفيق؟ قلنا: فرق بين القبول والإجزاء، فإن المقبول من العبادة ما يقرب العبد إلى الله ويترتب عليه الثواب في الآخرة، والمجزي منها ما يسقط التكليف عن العبد، وإن لم يترتب عليه ثواب ولم يقربه إلى الله. والناس مختلفون في تحمل التكليف، فإن التكليف إنما هو بقدر الوسع والطاقة، فلا يمكن أن يكلف الجميع بإحضار القلب في جميع الصلاة، إذ لا يقدر على ذلك إلا الأقلون. وإذ لم يمكن اشتراط الإستيعاب الضرورية فلا
(هامش)
(٢١) الأنعام، الآية: ١٣٢. الأحقاف، الآية: ١٩ (٢٢) الشعراء، الآية: ٨٩ (*)
ص ٢٦٦
مرد له إلا أن يشترط ما ينطلق عليه الاسم، ولو في اللحظة الواحدة، وأولى اللحظات به لحظة التكبير والتوجه، فاقتصر على التكليف بذلك. ونحن - مع ذلك - نرجو ألا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية، فإنه على الجملة أقدم على الفعل ظاهرا، واحضر القلب لحظة، وكيف لا والذي صلى مع الحدث ناسيا صلاته باطلة عند الله، ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره؟ والحاصل: أن الإقبال والحضور هو روح الصلاة، وإن أقل ما يبقى به الروح الحضور عند التكبير، فالنقصان منه هلاك، وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في أجزاء الصلاة، وكم من حي لا حراك فيه قريب من الميت، فصلاة الغافل في جميعها، إلا عند التكبير، حي لا حراك فيه.
فصل شرائط الصلاة up
إعلم أن للمعاني الباطنة المذكورة أسبابا لا تتحقق بدونها. أما حضور القلب: فسببه الاهتمام. فإن قلت: كل واحد تابع لهمه، فلا يحضر إلا فيما يهمه، ومهما أهمه أمر حضر فيه قلبه، شاء أو لم يشأ، فهو مجبول عليه مسخر فيه، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلا، بل كان حاضرا فيما يهمه من أمور الدنيا. فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب في الصلاة إلا بصرف الهمة إليها، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتيقن أن الآخرة خير وأبقى، وإن الصلاة وسيلة إليها. وإذا أضيف إلى هذا العالم بحقارة الدنيا ومهانتها، حصل من مجموع ذلك حضور القلب في الصلاة. ولكون الباعث والسبب لإحضار القلب في أمر إنما هو الاهتمام والاعتناء بشأنه، ترى قلبك يحضر إذا حضرت بين يدي ملك من ملوك الدنيا، بل بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على نفعك وضرك. فإذا كان لا يحضر قلبك عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت، والنفع والضر، فلا تضنن أن له سببا سوى ضعف الإيمان واليقين. فينبغي حينئذ السعي في تقوية اليقين والإيمان. وأما التفهم: فسببه - بعد حضور القلب - أدمان الفكر، وصرف
ص ٢٦٧
الذهن إلى إدراك المعنى. وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب، مع الإقبال على الفكر، والتشمر لرفع الخواطر الشاغلة بقطع موادها، أعني النزوع عن الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها. وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر. فإن من أحب شيئا أو أبغض شيئا أو خاف من شيء، أكثر ذكره. فذكر المحبوب والمبغوض والمخوف يهجم على القلب بالضرورة. ولذا ترى أن من أحب غير الله

أو كان قلبه مشغولا بعداوة أحد أو بالخوف عنه، لا تصفو له صلاة عن الخواطر. وأما التعظيم: فهو حالة للقلب يتولد من معرفتين: إحداهما: معرفة جلال الله وعظمته، فإن من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه، وهذه المعرفة حقارة النفس وخستها وذلتها، وكونها عبدا مسخرا مربوبا لا يقدر شيئا من النفع والضر وتتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله، فيعبر عنه بالتعظيم، وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الرب لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع، فإن المستغني عن غيره الآمن على نفسه، يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة والجلال، ونعوت القدرة والكمال، ولا يكون خاشعا معظما له، لأن معرفة حاجة النفس وحقارتها لم تقترن إليه. وأما الهيبة والخوف: فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله تعالى وسطوته ونفوذ مشيته فيه، مع قلة المبالاة به، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم تنقص من ملكه ذرة، مع تذكر ما جرى على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع. وكلما زاد العلم بالله وبصفاته وأفعاله زادت الخشية والهيبة. وأما الرجاء: فسببها معرفة لطف الله تعالى وكرمه وعميم أنعامه ولطائف صنعه، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة. فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه، انبعث منها الرجاء.

وأما الحياء: فسببه استشعار التقصير بالعبادة، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله، ويقوى ذلك بمعرفة عيوب النفس وآفاتها، وقلة إخلاصها وخبث باطنها، وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها، مع

ص ٢٦٨

العلم بجميع ما يقتضيه جلال الله وعظمته، والعلم بأنه مطلع على السرائر وخطرات القلب، وإن دقت وخفيت. وهذه المعارف إذا حصلت يقينا، انبعثت منها - بضرورة - حالة تسمى بالحياء.

فصل طريق تحصيل المعاني الباطنة up

إعلم أن العلاج في تحصيل المعاني الباطنة المذكورة، أعني الحضور والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء، هو تحصيل أسباب هذه المعاني، وقد عرفت أسبابها. وطريق العلاج في تحصيل هذه الأسباب إنما يتم بأمرين: الأول - معرفة الله، ومعرفة جلاله وعظمته واستناد الكل إليه، ومعرفة كونه عالما بذرات العالم وبسرائر العباد. ويلزم أن تكون هذه المعرفة يقينية، ليترتب عليها الأثر. إذ ما لم يحصل اليقين بأمر، لا يحصل التشمر في طلبه والهرب عنه. وهذه المعرفة هي المعبر عنها بالإيمان. ولا ريب في كونها موجبة لحصول المعاني المذكورة وأسبابها. إذ المؤمن يكون البتة حاضر القلب مع ربه عند مناجاته، وتفهما لما يسأله عنه، معظما له، وخائفا منه، وراجيا منه، ومستحييا من تقصيره. الثاني - فراغ القلب، وخلوه من مشاغل الدنيا. فإن انفكاك المؤمن العارف، المتيقن بالله وبجلاله وعظمته، وباطلاعه عليه من المعاني المذكورة في صلاته، لا سبب له إلا تفرق الفكر، وتقسم الخاطر، وغيبة القلب عن المناجاة، والغفلة عن الصلاة، ولا تلهي عن الصلاة إلا الخواطر الردية الشاغلة. فالدواء في إحضار القلب هو دفع كل تلك الخواطر، ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه. وسبب توارد الخواطر، إما أن يكون أمرا خارجا، أو أمرا في ذاته باطنا. والأول: ما يظهر للبصر، أو يقرع على السمع. فإن ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه، ويتصرف فيه ثم ينجر منه الفكر إلى غيره، ويتسلسل فيكون الإبصار أو الاستماع سببا للافتكار، ثم يصير بعض تلك الأفكار سببا للبعض. ومن قويت رتبته وعلت همته، لم يلهه ما يجري

ص ٢٦٩

على حواسه. ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق فيه فكره. فعلاجه: قطع هذه الأسباب، بأن يغض بصره، أو يصلي في بيت مظلم، ولا يترك بين يديه ما يشغل حسه، ويقرب من حائط عند صلاته، حتى لا تتسع مسافة بصره، ويتحرز من الصلاة على الشوارع، وفي المواضع المنقوشة المصبوغة، والعمارات العالية المرتفعة. ولذلك كان المتعبدون يصلون في بيت مظلم صغير، سعته بقدر السجود، ليكون أجمع للهم. والأقوياء كانوا يحضرون المساجد، ويغضون البصر، ولا يجاوزونه موضع السجود، كما ورد الأمر به، ويرون كمال الصلاة في ألا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم. وأما الثاني: أعني الأسباب الباطنة، فهي أشد. فإن من تفرقت همومه وتشعبت خواطره في أودية الدنيا لم ينحصر فكره في فن واحد، بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب. وغض البصر لا يغنيه، فإن ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل. فهذا علاجه: أن يرد نفسه قهرا إلى فهم ما يقرؤه، ويشغلها به عن غيره، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم، بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة، وخطر المقام بين يدي الله تعالى، وهول المطلع، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه من أمر

الدنيا، فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره، فهذا طريق تسكين الأفكار فإن لم تسكن أفكاره بهذا الدواء المسكن، فلا ينجيه إلا المسهل الذي يقمع مادة الداء من أعماق العروق، وهو أن ينظر في الأمور الشاغلة الصارفة له عن إحضار القلب. ولا ريب في أنها تعود إلى مهماته، وهي إنما صارت مهمة لأجل شهواته ، فليعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق. فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه، وجند إبليس عدوه، فإمساكه أضر عليه من إخراجه، فيتخلص عنه بإخراجه. وهذا هو الدواء القامع لمادة العلة، ولا يغني غيره. فإن ما ذكر من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر، إنما ينفع في الشهوات الضعيفة والهم الذي لا يشغل إلا حواشي القلب.

وأما الشهوة القوية المرهقة، فلا ينفع معها التسكين، بل لا تزال تجاذبها وتجاذبك، ثم تغلبك وتقضي جميع صلاتك في شغل المجاذبة. ومثاله مثال رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره، فكانت أصوات

ص ٢٧٠

العصافير تشوش عليه، فلم يزل يطيرها بخشبة هي في يده ويعود إلى فكره، فتعود العصافير، فيعود إلى السفير بالخشبة، فقيل له: إن هذا سير الواني ولا يتقطع، فإن أردت الخلاص فأقطع الشجرة. فكذلك شجرة الشهوة، إذا استعملت وتفرعت أغصانها، إنجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار، وانجذاب الذباب إلى الأقذار، والشغل يطول في دفعها. فإن الذباب كلما ذب آب، ولأجله سمي ذبابا، وكذلك الخواطر. وهذه الشهوات كثيرة قلما يخلوا العبد منها، ويجمعها أصل واحد، وهو حب الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة، وأساس كل نقصان، ومنبع كل فساد. ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها لا يتزود منها ويستعين بها على الآخرة، فلا يطمعن في أن تصفو له لذة المناجاة في الصلاة. فإن من فرح بالدنيا فلا يفرح بالله وبمناجاته، وهمة الرجل مع قرة عينه، فإن كانت قرة عينه في الدنيا انصرف همه لا محالة إليها. ولكن - مع هذا - لا ينبغي أن تترك المجاهدة، ورد القلب إلى الصلاة، وتقليل الأسباب الشاغلة، فهذا هو الدواء، ولمرارته استبشعته الطباع، وبقيت العلة مزمنة، وصار الداء عضالا. حتى أن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثون أنفسهم فيهما بأمور الدنيا، فعجزوا عنه. فإذا لا مطمع فيه لأمثالنا، ويا ليت سلم لنا من الصلاة ثلثها أو ربعها من الوساوس، لنكون ممن خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا. وعلى الجملة: فهمة الدنيا وهمت الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح فيه خل، فبقدر ما يدخل فيه الماء يخرج منه الخل لا محالة، ولا يجتمعان. ثم جميع ما ذكر إنما هو في الخواطر المتعلقة بالأمور المهمة من الدنيا، حتى إذا خرجت هذه الأمور من القلب، خرجت منه هذه الخواطر أيضا.

وقد تكون الخواطر من مجرد الوساوس الباطنة والخيالات الفاسدة، من دون تعلقها بشغل وعمل دنيوي يكون لها، ومن دون اختيار للعبد في خطورها وعدم خطورها، والأمر فيها أصعب، وإن كان لقلع حب الدنيا وشهواتها عن القلب مدخلية عظيمة في زوالها أيضا، إذ مادة هذه الوساوس أيضا، إما حب المال وحب الجاه، أو حب غيرهما من الأمور الشهوية

ص ٢٧١

الدنيوية. وقد تقدم تفصيل القول فيها وفي طريق علاجها في بحث الوساوس.

فصل أسرار الصلاة up

في تحصيل كل واحد من شروط الصلاة وأفعالها وأركانها أسرار وتنبيهات، فينبغي للمؤمن المريد للآخرة ألا يغفل عنها، فها هي نذكرها: أما الأذان: فإذا سمعت نداء المؤذن، فأخطر في قلبك هول النداء يوم القيامة، وتشمر بباطنك وظاهرك للإجابة والمسارعة، فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر، فأعرض قلبك على هذا النداء، فإن وجدته مملوءا بالفرح والاستبشار، مشحونا بالرغبة إلى الابتداء، فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء، ولذلك قال سيد الأنبياء: (أرحنا يا بلال!) أي أرحنا بها وبالنداء إليها، إذا كانت قرة عينه فيها. واعتبر بفصول الأذان وكلماته كيف افتتحت بالله واختتمت بالله، واعتبر بذلك أن الله جل جلاله هو الأول والآخر والظاهر والباطن، ووطن قلبك بتعظيمه عند سماع التكبير، واستحقر الدنيا وما فيها لئلا تكون كاذبا في تكبيرك، وأنف عن خاطرك كل معبود سواه بسماع التهليل. وأحضر النبي (ص)، وتأدب بين يديه، وأشهد له بالرسالة مخلصا، وصل عليه وآله وحرك نفسك، واسع بقلبك وقالبك عند الدعاء إلى الصلاة، وما يوجب الفلاح، وما هو خير الأعمال وأفضلها. وجدد عهدك بعد ذلك بتكبير الله وتعظيمه، واختمه بذلك كما افتتحت به، واجعل مبدءك منه، وعودك إليه، وقوامك به،

واعتمادك على حوله وقوته. فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
فصل الوقت up
وإذا دخل الوقت، استحضر أنه ميقات جعله الله لك، لتقوم فيه بخدمته، وتتأمل للمثول في حضرته، والفوز بطاعته، وليظهر على قلبك السرور، وعلى وجهك البهجة عند دخوله، لكونه سببا لقربك ووسيلة إلى فوزك. فاستعد له بالطهارة والنظافة، ولبس الثياب الصالحة للمناجاة،
ص ٢٧٢
كما تتأهب عند القدوم على ملك من ملوك الدنيا، وتلقاه بالسكينة والوقار والخوف والرجاء، واستحضر عظمة الله وجلاله، وعدم تناهي قدرته وكماله ونقصان قدرك ومرتبتك، وعدم قابليتك للقيام بخدمته، وقصورك عن أداء وظائف طاعته.
فصل آداب الصلاة up
إذا أتيت بالطهارة في مكانك، وهو ظرفك الأبعد، ثم في ثيابك، وهو غلافك الأقرب، ثم في بشرتك، وهي قشرك الأدنى، فلا تفعل عن لبك وذاتك، وهو قلبك، فطهره بالتوبة والندم على ما فرط، وتصميم العزم على الترك في المستقبل، فطهر بها باطنك، فإنه موضع نظر ربك. ثم إذا سترت مقابح بدنك عن أبصار الخلق باللباس، فأخطر بالك فضائح سرك التي لا يطلع عليها إلا ربك، وطالب نفسك بسترها، وتحقق أنه لا يستر عن عين الله ساتر، وإنما يكفرها الخوف والندم والحياء، فتستفيد بإظهارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والندم والحياء من مكامنها، فتذل به نفسك، ويستكين تحت المجلة قلبك، وتقوم بين يدي الله تعالى قيام العبد المجرم المسئ الآبق، الذي ندم فرجع إلى مولاه، ناكسا رأسه من الخوف والحياء. قال الصادق (ع): (أزين اللباس للمؤمن لباس التقوى، وأنعمه الإيمان، قال الله تعالى: (ولباس التقوى ذلك خير) (٢٣) وأما اللباس الظاهر، فنعمة من الله تعالى تستر بها عورات بني آدم، وهي كرامة أكرم الله بها ذرية آدم ما لم يكرم بها غيره، وهي للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم. وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله عز وجل، بل يقربك من ذكره وشكره وطاعته، ولا يحملك على العجب والرياء والتزين والتفاخر والخيلاء، فإنها من آفات الدين، ومورثة للقسوة في القلب. فإذا لبست ثوبك، فأذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته، والبس باطنك بالصدق كما البست ظاهرك بثوبك، وليكن باطنك من الصدق في ستر
(هامش)
(٢٣) الأعراف، الآية: ٢٥. (*)
ص ٢٧٣
الهيبة، وظاهرك في ستر الطاعة. واعتبر بفضل الله، حيث خلق أسباب اللباس ليستر بها العورات الظاهرة، وفتح أبواب التوبة والإنابة والإغاثة ليستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء. ولا تفضح أحدا حيث ستر الله عليك ما أعظم منه. واشتغل بعيب نفسك واصفح عما لا يعنيك حاله وأمره. واحذر أن يفنى عمرك بعمل غيرك، ويتجر برأس مالك غيرك وتهلك نفسك، فإن نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله في العاجل، وأوفر أسباب العقوبة في الآجل. وما دام العبد منشغلا بطاعة الله تعالى، ومعرفة عيوب نفسه، وترك ما يشين في دين الله عز وجل، فهو بمعزل عن الآفات، خائض في بحر رحمة الله عز وجل، يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان. وما دام ناسيا لذنوبه، جاهلا بعيوبه، راجعا إلى حوله وقوته، لا يفلح إذا أبدا) (٢٤).
فصل آداب المصلي up
إذا أتيت مصلاك، فاستحضر فيه أنك كأن بين يدي ملك الملوك، تريد مناجاته، والتضرع إليه، والتماس رضاه، ونظره إليك بعين الرحمة. فاختر مكانا يصلح، كالمساجد الشريفة، والمشاهد المطهرة، مع الإمكان. فإنه تعالى جعل تلك المواضع محلا لإجابته، وموضع تنزل فيوضاته ورحمته، على مثال حضرة الملوك، الذين يجعلونها وسيلة لنيل المقاصد والمطالب. فأدخلها بالسكينة والوقار، ومراقبا للخشوع والانكسار. قال الصادق (ع): (إذا بلغت باب المسجد، فاعلم أنك قد قصدت باب ملك عظيم، لا يطأ بساطه إلا المطهرون، ولا يؤذن لمجالسته إلا الصديقون، فهب القدوم إلى بساط هيبة الملك، فإنك على خطر عظيم إن غفلت، فاعلم أنه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك. فإن عطف عليك برحمته وفضله، قبل منك يسير الطاعة، وأجزل لك عليها ثوابا كثيرا. وإن طالبك باستحقاقه الصدق والاخلاص عدلا بك، حجبك ورد طاعتك وإن كثرت. وهو فعال لما يريد. واعترف بعجزك وتقصيرك وانكسارك

وفقرك بين يديه، فإنك قد
(هامش)
(٢٤) صححنا الحديث على مصباح الشريعة: الباب ٧ ١٣٧ - ١٣٨ (*)
ص ٢٧٤
توجهت للعبادة له، والمؤانسة به. وأعرض أسرارك عليه، ولتعلم أنه لا تخفى عليه أسرار الخلائق أجمعين وعلانيتهم. وكن كأفقر عباده بين يديه. واخل قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك، فإنه لا يقبل إلا الأطهر والأخلص. وأنظر من أي ديوان يخرج اسمك، فإن ذقت حلاوة مناجاته ولذيذ مخاطباته، وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن إقباله عليك وأجابته، فقد صلحت لخدمته فادخل فلك الإذن والأمان، وإلا فقف وقوف من قد انقطع عنه الحيل، وقصر عنه الأمل، وقضى عليه الأجل. فإن علم الله عز وجل من قلبك صدق الالتجاء إليه نظر إليك بعين الرأفة والرحمة والعطف، ووفقك لما تحب وترضى، فإنه كريم يحب الكرامة لعباده المضطرين إليه، المقيمين على بابه لطلب مرضاته. قال الله تعالى: (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) (٢٥) (٢٦)
فصل الاستقبال up
وأما الاستقبال، فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله. وهذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يصرف وجه القلب عن سائر الأشياء إلى الله، فإن الأعمال الظاهرة تحريكات للبواطن على ما يناسبها، فضبط الجوارح وتسكينها بالاثبات في جهة واحدة، لأجل ألا تبقى على القلب، لأنها إذا توجهت إلى جهات متعددة يتبعها القلب بالتوجه إلى أشياء متعددة، فأمر الله بصرفها إلى شطر بيته، ليتذكر القلب صاحبه، ويتوجه إليه، ويثبت على ذلك كما تثبت الأعضاء على جهة واحدة. قال رسول الله (ص): (إن الله تعالى مقبل على المصلي ما لم يلتفت)، وهذا الإلتفات يشمل التفات القلب أيضا، فكما يجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات، فكذلك يجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الله وغير الصلاة، فإن التفت إلى غير الله وغير الصلاة، فذكره بأطلاع الله عليه، وقبح غفلة المناجي عمن يناجيه وعما يقول له حين المناجاة، لا سيما إذا كان
(هامش)
(٢٥) النحل، الآية: ٦٢ (٢٦) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٢ / ١٤٠ - ١٤١. (*)
ص ٢٧٥
من يناجيه ملك الملوك. والزم قلبك الخشوع، فإن الخلاص عن الالتفات ظاهرا وباطنا ثمرة الخشوع، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر، ولذا قال رسول الله (ص) وقد رأى مصليا يعبث بلحيته: (أما هذا، لو خشع قلبه لخشعت جوارحه، فإن الرعية بحكم الراعي). وفي الدعاء: (اللهم أصلح الراعي والرعية)، وهو القلب والجوارح. وبالجملة: ينبغي لكل مؤمن صرف وجهه إلى بيت الله للصلاة، أن يصرف وجه قلبه إلى صاحب البيت، وكما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالصرف عن غيرها، فكذلك لا ينصرف وجه القلب إلى الله إلا بالتفرغ عما سوى الله، وقد قال رسول الله (ص): (إذا قام العبد إلى صلاته، وكان هواه وقلبه إلى الله، انصرف كيوم ولدته أمه). وقال (ص): (أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار؟!) قيل: هذا نهي عن الالتفات عن الله، وملاحظة عظمته في حال الصلاة، فإن الملتفت يمينا وشمالا غافل عن الله وعن مطالعة أنوار كبريائه، ومن كان كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه، فيتحول وجه قلبه كوجه قلب الحمار في قلة عقله للأمور العلوية وعدم فهمه للمعارف. وقال الصادق (ع) (إذا استقبلت القبلة، فآيس من الدنيا وما فيها، والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله - تعالى -، وعاين بسرك عظمة الله - عز وجل -، واذكر وقوفك بين يديه، قال الله - تعالى -: (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق) (٢٧). وقف على قدم الخوف والرجاء) (٢٨).
فصل القيام up
وأما القيام، فهو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله - سبحانه - فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطوقا متطأطأ متنكسا، تنبيها للقلب على لزوم التواضع والتذلل والانكسار، والتبري عن التكبير والترؤس.
(هامش)
(٢٧) يونس، الآية: ٣٠. (٢٨) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) الباب ١٣ / ١٤١. (*)
ص ٢٧٦

وينبغي أن تتذكر هاهنا خطر المقام بين يدي الله في هول المطلع عند التعرض للسؤال، وتذكر في الحال أنك قائم بين يدي الله وهو مطلع عليك، فليكن قيامك بين يديه على ما يليق بعظمته وجلاله، وأن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله، فلا تجعل مالك الملك والملكوت أنزل من بعض ملوك عصرك، فقم بين يديه قيامك بين يدي ملك زمانك، بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ بعين كالئة من رجل صالح من أهلك، أو ممن ترغب أن يعرفك بالصلاح، فإنه تهد عند ذلك أطرافك، وتخشع جوارحك ويسكن جميع أجزائك، خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع. وبالجملة الخضوع والخشوع والاستحياء والانفعال، يقتضيها الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا، فكيف لا يقتضيها بين يدي ملك الملوك عند من يعرفه؟ فمن يكون بين يدي غير الله خاشعا، ولا يكون بين يدي الله كذلك، فذلك لقصور معرفته عن جلال الله وعن اطلاعه على سره وضميره، وعدم تدبره في قوله - تعالى -: (الذي يراك حين تقوم، وتقلبك في الساجدين) (٢٩). فتبا لمن يدعي معرفة الله والعلم بعظمته وجلاله وحبه والخشية منه، ومع ذلك يستحي من أحد عبيده المساكين الذي لا يقدر على نفع ولا ضر، ولا يستحي من الله، ويخشى الناس، ولا يخشاه!

فصل التكبيرات up

وأما التوجه بالتكبيرات، فينبغي أن تستحضر عندك عظمة الله وجلاله وصغر نفسك وذلتها في جنب عظمته، وقصورك عن القيام بوظائف خدمته. وإذا قلت: (اللهم أنك أنت الملك الحق) فتذكر عظيم ملكه، وعموم قدرته واستيلاءه على جميع العوالم، ثم ارجع على نفسك بالذل والانكسار. وإذا قلت: (لبيك وسعديك! والخير في يديك، والشر ليس إليك)، مثل نفسك بين يديه، وتيقن أنه أقرب منك من نفسك، يسمع نداءك، ويجيب دعاءك، وإن خير الدنيا والآخرة بيده لا بيد غيره، وإنه خير محض

(هامش)

(٢٩) الشعراء، الآية: ٢١٨ - ٢١٩. (*)

ص ٢٧٧

منزه عن الشر. وإذا قلت: (عبدك وابن عبديك، منك وبك ولك وإليك) فقد اعترفت له بالعبودية، وبأنه ربك وخالقك ومالكك، وموجدك ومخترعك وأنت أثره وفعله ومنه وجودك، وبه قوامك، وله ملكك، وإليه معادك فأنت منه، فلا يتركك ويرحمك، فألق نفسك الضعيفة العاجزة بين يديه، وكل أمورك في الدنيا والآخرة إليه، ولا تعتمد في مقاصدك إلا عليه فأحضر في ذهنك في هذه الفقرات وغيرها من الكلمات التي ينطق بها لسانك أمثال هذه الحقائق، وترق منها إلى ما يفتح عليك من الأسرار والدقائق، واحفظ نفسك عن الوقوع في أودية الوساوس والهوى، فتلق الفيض من العالم الأعلى.

فصل النية up

وأما النية، فحقيقتها القصد إلى الفعل، امتثالا لأمر الله، وطلبا لتقربه ورجاء لثوابه، وخوفا من عقابه. فينبغي أن تجتهد في خلوصها ألا يشوبها غرض دنيوي فتفسد، وحقيقة الإخلاص وما يتعلق بها قد تقدمت مفصلة في محلها. وينبغي أن تتذكر هاهنا عظيم لطفه ومنته عليك، حيث أذنك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة جنايتك، وعظم في نفسك قدر مناجاته. وانظر من تناجي، وكيف تناجي، وبماذا تناجي، وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجلة، وترتعد فرائصك من الهيبة، ويصفر وجهك من الخوف والخشية .

فصل تكبيرة الاحرام up

وإذا كبرت تكبيرة الاحرام، تذكر أن معناها: أنه - تعالى - أكبر من أن يوصف أو أكبر من كل شيء، أو أكبر من أن يدرك بالحواس، أو يقاس بالناس. فانتقل منه إلى غاية عظمته وجلاله، واستناد ما سواه إليه، بالإيجاد والاختراع والإخراج من كتم العدم. وينبغي أن تكون على يقين بذلك، حتى لا يكذب لسانك قلبك، فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله - تعالى - عندك، فالله يشهد أنك كاذب، وإن كان الكلام صدقا، كما

ص ٢٧٨

شهد على المنافقين في قولهم: أن النبي رسول الله. وإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله - تعالى - وأنت أطوع له منك لله ولأمره فقد اتخذته إلهك وكبرته، فيوشك، أن يكون قولك (الله أكبر) كلاما باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته، وما أعظم الخطر في ذلك، لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرمه - تعالى - وعفوه. قال الصادق (ع): فإذا كبرت فاستصغر ما بين السماوات

العلا والثرى دون كبريائه، فإن الله - تعالى - إذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر، وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره، قال: يا كذاب أتخدعني؟! وعزتي وجلالي! لأحرمنك حلاوة ذكري، ولأحجبنك عن قربي والمسرة بمناجاتي!) (٣٠) فاعتبر أنت قلبك حين صلاتك، فإن كنت تجد حلاوتها وفي نفسك سرورها وبهجتها وقلبك مسرور بمناجاته، وملتذ بمخاطباته، فاعلم أنه - تعالى - قد صدقك في تكبيرك، وإن سلبت لذة المناجاة، وحرمت حلاوة العبادة، فاعلم أنه تعالى كذبك في تكبيرك، وطردك عن بابه، وأبعدك عن جنابه، فابك على نفسك بكاء الثكلى، وبادر إلى العلاج قبل أن تدركك الحسرة العظمى.

فصل دعاء الاستفتاح up

وأما دعاء الاستفتاح، فأول كلماته: (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض)، ومعلوم أن المراد بالوجه هنا وجه القلب دون الوجه الظاهر، لأن الله سبحانه منزه عن الأمكنة والجهات حتى توجه إليه الوجه الظاهر. فأنت تدعي في هذا الكلام أن قلبك متوجه إلى فاطر السماوات والأرض، فإياك أن يكون أول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق، إذ لو كان قلبك متوجها إلى أمانيه، وهمه في البيت والسوق أو واقعا في أودية الوساوس، أو كان غافلا، لم يكن مقبلا على الله متوجها إليه، وكنت كاذبا في أول مخاطبتك مع ربك. فأجتهد أن ينصرف قلبك عما سواه، وتقبل عليه في هذا الوقت، وإن عجزت عنه على الدوام، لئلا تكون كاذبا في أول كلامك.

وإذا قلت: (حنيفا مسلما)، فأخطر

(هامش)

(٣٠) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٣ / ١٤١. (*)

ص ٢٧٩

ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من يده ولسانه، فإن لم تكن موصوفا بهذا الوصف، كنت كاذبا فأجتهد أن تعزم عليه في الاستقبال، وأن تندم على ما سبق من الأحوال. وإذا قلت: (وما أنا من المشركين، فأخطر ببالك الشرك الخفي، وكونه داخلا في الشرك، لإطلاق الشرك على القليل والكثير. فلو قصدت بجزء من عبادتك غير الله، من مدح الناس وطلب المنزلة في قلوبهم، كنت مشركا كاذبا في هذا الكلام. فأنف هذا الشرك عن نفسك، واستشعر الخجلة في قلبك، بأن وصفت نفسك بوصف ليست متصفة به في الواقع. وإذا قلت: (محياي ومماتي في الله رب العالمين)، فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه، موجود لسيده، فإن عن ذاته باق بربه، لا يرى لذاته من حيث هي قدرة وقوة، بل يعلم حياته وبقاءه من الله - تعالى -، ولا تكون حركاته وسكناته إلا لله تعالى. فالقائل بهذا الكلام، إذا رأى لنفسه من حيث هي قدرة وأثرا، أو صدر عنه فعل: من الرضا، أو الغضب، أو القيام، أو القعود، أو الرغبة في الحياة، أو الرهبة من الموت لأمور الدنيا، كان كاذبا.

فصل الاستعاذة up

فإذا قلت: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ينبغي أن تعلم أن الشيطان أعدى عدوك، مترصد لصرف قلبك عن الله، حسدا لك على مناجاتك مع الله وسجودك له مع أنه لعن وطرد عن مقام القرب بترك السجدة. وينبغي ألا تكون استعاذتك بالله منه بمجرد القول، لتكون مثل من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو يقتله، فقال: أعوذ منك بهذا الحصن الحصين، وهو ثابت على مكانه، فإن ذلك لا يفيده ولا ينفعه ما لم يتحرك ويدخل الحصن فكذلك مجرد الاستعاذة لا ينفعه ما لم يترك ما يحب الشيطان، وما لم يأت بما يحبه الله. فمن اتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن لا يغنيه مجرد القول، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عن شر الشيطان، وحصنه (لا إله إلا الله)، إذ قال: (لا إله إلا الله حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي). والدخول في حصن (لا إله إلا الله) ليس أيضا

ص ٢٨٠

بمجرد التكلم به، بل الإذعان القلبي واليقين القطعي بأن كل معبود سواه باطل، وكل شيء منه وله وبه وإليه، ولا مؤثر في الوجود إلا هو. فالمتحصن للتوحيد من لا معبود له سوى الله، وأما من اتخذ إلهه هواه، فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله. ومن مكائد اللعين أن يشغلك في الصلاة بفكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات، لتمنع من الحضور وفهم ما تقرأ، فاعلم أن كل ما يشغلك عن الإقبال

إلى الله وعن فهم معاني القرآن والأذكار، فهو وساوس، إذ حركة اللسان غير مقصودة، بل المقصود المعاني. وإذا قلت: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فانو به التبرك لابتدائك بقراءة كلام الله، والمراد بالاسم هنا المسمى، فمعناه: إن كل الأشياء والأمور بالله، فيترتب عليه انحصار (الحمد لله)، إذ المراد بالحمد الشكر، والشكر إنما يكون على النعم، فإذا كانت النعم بأسرها من الله فيكون منحصرا به، فمن يرى نعمة من غير الله أو يقصد غيره سبحانه بشكر لا من حيث أنه مسخر من الله، ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله سبحانه. وإذا قلت: (الرحمن الرحيم)، فأحضر في قلبك أنواع لطفه، وضروب إحسانه، لتتضح لك رحمته، فينبعث بها رجاؤك. وإذا قلت: (مالك يوم الدين)، فاستشعر من قلبك التعظيم والخوف، أما العظمة فلأنه لا ملك إلا هو، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه. ثم جدد الإخلاص بقولك: (إياك نعبد). وجدد العجز والافتقار والتبري من الحول والقوة بقولك: (وإياك نستعين)، وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بإعانته وأن له المنة، إذ وفقك لطاعته، واستخدمك لعبادته، وجعلك أهلا لمناجاته ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان الرجيم، واستحضر أن الإعانة لا تكون إلا منه، ولا يقدر غيره أن يعين أحدا، فأخرج عن قلبك الوسائل والأسباب إلا من حيث أنها مسخرة منه تعالى.

وإذا قلت: (إهدنا السراط المستقيم)، فاعلم أنه طلب لأهم حاجاتك، وهي الهداية إلى النهج الحق الذي يسوقك إلى جوار الله، ويفضي بك إلى مرضاته ويوصلك إلى مجاورة من أنعم الله عليهم نعمة الهداية من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، دون الذين غضب الله عليهم من الكفار والزائفين

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

## ٣٠١١ جامع السعادات (ج3)

الصفحة السابقةالصفحة التالية ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ٢٨١

من اليهود والنصارى والصابئين. وإذا تلوت (الفاتحة) كذلك، فيشبه أن تكون ممن قال الله فيهم بما أخبر عنه النبي (ص): (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي، ونصفها لعبدي. يقول العبد: الحمد لله رب العالمين، فيقول الله عز وجل -: حمدني عبدي وأثنى علي. وهو معنى قوله: سمع الله لمن حمده...) إلى آخر الحديث. فإن لم يكن لك من صلاتك حظ سوى التذاذك بذكر الله في جلاله وعظمته، فناهيك به غنيمة، فكيف ما ترجوه من ثوابه وفضله. وكذلك ينبغي أن تفهم وتخرج الحقائق مما تقرأه من السورة، فلا تفعل عن أمره ونهيه، ووعده ووعيده، ومواعظه وأخبار أنبيائه، وذكر مننه وإحسانه، فكل واحد حق: ففي الأمر والنهي العزم، وحق الوعد الرجاء، وحق الوعيد الخوف، وحق الموعظة الاتعاظ، وحق أخبار الأنبياء الاعتبار، وحق ذكر المنة الشكر، وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم، ويكون الفهم على حسب العلم وصفاء القلب، ودرجات ذلك لا تنحصر. والصلاة مفتاح القلوب، فيها تنكشف أسرار الكلمات. فهذا حق القراءة، وهو أيضا حق الأذكار والتسبيحات. واعلم أن الناس في القراءة ثلاثة: بعضهم يتحرك لسانه وقلبه غافل. وبعضهم يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان، فيسمع ويفهم منه كأنه يسمعه من غيره، وهو درجة أصحاب اليمين. وبعضهم يسبق قلبه إلى المعاني أولا، ثم يخدم اللسان قلبه ويترجمه، وفرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب، والمقربون ألسنتهم ترجمان تتبع القلب. ثم ينبغي أن تراعي الهيئة في القراءة، فترتل، ولا تسرد ولا تعجل، فإن ذلك أيسر للتأمل، وتفرق بين نعمائه في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد، والتمجيد والتعظيم، كان بعضهم إذا مر بمثل قوله: (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله) (٣١).

يغض صوته، كالمستحي عن أن يذكره بكل شيء وروي: (أنه يقال يوم القيامة لصاحب القرآن: اقرأ وأرق، فكلما قرأ آية صعد درجة). (هامش)

(٣١) المؤمنون، الآية: ٩٢. (*)

ص ٢٨٢

فصل الركوع up

وأما الركوع، فينبغي أن تجدد عنه ذكر كبرياء الله، وترفع بذلك معظما له منبها على غاية عظمته وارتفاعه، وكونه أرفع من أن تصل إليه أيدي العقول والأوهام، ومستجيرا بعفوه من عقابه، وتستأنف بهويك للركوع ذلا وتواضعا وتجهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك، وتستشعر ذلك وعزه، وضعفك وقوته، وعجزك وقدرته، واتضاعك وعلوه، وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك، فتسبحه وتشهد له بالعظمة، وإنه أعظم من كل عظيم، وتكرر ذلك في قلبك لتترسخ عظمته وجلاله، ثم ترفع عن ركوعك راجيا أنه راحم ذلك، وتؤكد الرجاء في نفسك بقولك: (سمع الله لمن حمد): أي أجاب الله لمن شكره، وتتبع ذلك بالشكر المتقاضي للمزيد، فتقول: (الحمد لله رب العالمين)، ثم تزيد في التذلل والخشوع وتعظيم ربك وإجلاله، فتقول: (أهل الكبرياء والعظمة والجود والجبروت). روي (الصدوق) - رضوان الله عليه - عن أمير المؤمنين (ع): (أنه سئل عن معنى مد العنق في الركوع، فقال (ع): تأويله: آمنت بك ولو ضربت عنقي). وقال الصادق (ع): (لا يركع عبد لله ركوعا على الحقيقة، إلا زينه الله بنور بهائه، وأظله في ظل كبريائه وكساه كسوة أصفيائه. والركوع أول، والسجود ثان. فمن أتى بمعنى الأول صلح للثاني. وفي الركوع أدب، وفي السجود قرب، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب. فاركع ركوع خاشع لله عز وجل بقلبه، متذلل وجل تحت سلطانه، خافض له بجوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين) (١). وحكي: (أن ربيع بن خيثم، كان يسهر بالليل إلى الفجر في ركعة واحدة، فإذا هو أصبح، فزفر وقال: آه! سبق المخلصون وقطع بنا). واستوف ركوعك باستواء ظهرك، وانحط عن همتك في

(هامش)

)

٣٢) صححنا الحديث على الباب ١٥ من (مصباح الشريعة). وعلى (٠ بحار الأنوار): ١٨ / ٣٥٦، باب الركوع وآدابه من كتاب الصلاة. وعلى المستدرك): ١ / ٣٢٥، باب نوادر ما يتعلق بالركوع من كتاب الصلاة أيضا (*)

ص ٢٨٣

القيام بخدمته إلا بتأييده وعونه، وفر بقلبك من وساوس الشيطان وخداعه ومكائده، فإن الله يرفع عباده بقدر تواضعهم له، ويهديهم إلى أصول التواضع والخشوع بقدر اطلاع عظمته على سرائرهم.

فصل السجود up

وإذا هويت إلى السجود، جدد على قلبك غاية الذل والعجز والانكسار إذ السجود أعلى درجات الاستكانة، فمكن أعز أعضائك وهو الوجه، لأذل الأشياء، وهو التراب، ولا تجعل بينهما حاجزا، بل اسجد على الأرض لأنه أجلب للخضوع، وأدل على الذل. فإذا وضعت نفسك موضع الذل وألقيتها على التراب، فاعلم أنك وضعتها موضعها، ورددت الفرع إلى أصله، فإنك من التراب خلقت، وإليه رددت. فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله، وقل: (سبحان ربي الأعلى وبحمده) وأكده بالتكرار إذ المرة الواحدة ضعيفة الآثار، فإن رق قلبك، وطهر لبك، فليصدق رجائك في رحمة ربك، فإن رحمته تتسارع إلى موضع الذل والضعف، لا إلى محل التكبر والبطر. فارفع رأسك مكبرا ومستغفرا من ذنوبك، وسائلا حاجتك، ثم أكد التواضع بالتكرار، وعد إلى السجود ثانية كذلك. وسئل مولانا أمير المؤمنين (ع) عن معنى السجدة الأولى، قال: (تأويلها: اللهم إنك منها خلقتنا): يعني من الأرض، وتأويل رفع رأسك: (ومنها أخرجتنا)، والسجدة الثانية: (وإليها تعيدنا، ورفع رأسك: (ومنها تخرجنا تارة أخرى). وقال مولانا الصادق (ع): (ما خسر والله - تعالى - قط من أتى بحقيقة السجود، ولو كان في العمر مرة واحدة، وما أفلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال شبيها بمخادع نفسه، غافل لاه عما أعد الله تعالى للساجدين من أنس العاجل وراحة الآجل، ولا بعد عن الله تعالى أبدا من أحسن تقربه في السجود، ولا قرب إليه أبدا من أساء أدبه، وضيع حرمته بتعليق قلبه بسواه في حال سجوده فاسجد سجود متواضع لله ذليل، علم أنه خلق من تراب يطأه الخلق، وإنه ركب من نطفة يستقذرها كل أحد، وكون ولم يكن، وقد جعل الله

ص ٢٨٤

معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب والسر والروح، فمن قرب منه بعد من غيره، لا ترى في الظاهر أنه لا يستوي حال السجود إلا بالتواري عن جميع الأشياء، والاحتجاب عن كل ما تراه العيون؟ كذلك أراد الله تعالى أمر الباطن. فمن كان قلبه متعلقا في

صلاته بشيء دون الله تعالى، فهو قريب من ذلك الشيء، بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته. قال الله تعالى: ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) وقال رسول الله (ص): (قال الله عز وجل: ما أطلع على قلب عبد فأعلم فيه حب الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي، إلا توليت تقويمه وسياسته، ومن اشتغل في صلاته بغيري فهو من المستهزئين بنفسه، واسمه مكتوب في ديوان الخاسرين) (٣٣).

فصل التشهد up

إذا جلست للتشهد - بعد هذه الأفعال الدقيقة والأسرار العميقة، المشتملة على الأخطار الجسيمة - فاستشعر الخوف التام والرهبة والوجل والحياء، أن يكون جميع ما سلف منك غير واقع على وجهه، ولا محصلا لوظائفه وشرائطه، ولا مكتوبا في ديوان القبول. فاجعل يدك صفرا من فوائدها، وارجع إلى مبدأ الأمر، وأصل الدين، أعني كلمة التوحيد وحصن الله الذي من دخله كان آمنا، فاستمسك به إن لم تكن لك وسيلة غيره، فاشهد لربك بالوحدانية، واحضر رسوله الكريم ونبيه العظيم ببالك واشهد له بالعبودية والرسالة وصل عليه وآله، مجددا عهد الله بإعادة كلمتي الشهادة، متعرضا بهما لتأسيس مراتب العبادة، فإنهما أول الرسائل وأساس الفواضل، ومتوسلا إلى رسول الله بالصلاة عليه، مترقبا بذلك عشرا من صلاته (ص) عليك - كما ورد في الخبر -، ولو وصل إليك منها واحدة أفلحت أبدا. قال الصادق (ع): (التشهد ثناء على الله. فكن عبدا له في السر، خاضعا له في الفعل، كما إنك عبد له في القول والدعوى.

(هامش)

(٣٣) صححنا الحديث على: الباب ١٦ من (مصباح الشريعة). وعلى (بحار الأنوار) ١٨ / ٣٦٣، باب السجود وآدابه. (*)

ص ٢٨٥

وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرك، فإنه خلقك عبدا، وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك، وإن تحقق عبوديتك له وربوبيته لك وتعلم أن نواصي الخلق بيده، فليس لهم نفس ولا لحظة إلا بقدرته ومشيته وهم عاجزون عن إتيان أقل شيء في مملكته إلا بإذنه وإرادته. قال الله عز وجل: (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحانه الله وتعالى عما يشركون) (٣٤). فكن لله عبدا شاكرا بالقول والدعوة، وصل صدق لسانك بصفاء سرك، فإنه خلقك فعز وجل أن تكون إرادة ومشية لأحد إلا بسابق إرادته ومشيته، فاستعمل العبودية في الرضا بحكمته، وبالعبادة في أداء أوامره وقد أمرك بالصلاة على حبيبه محمد (ص)، فأوصل صلاته بصلاته، وطاعته بطاعته، وشهادته بشهادته، وانظر ألا تفوتك بركات معرفة حرمته فتحرم عن فائدة صلاته، وأمره بالاستغفار لك، والشفاعة فيك، إن أتيت بالواجب في الأمر والنهي والسنن والآداب، والتعلم الجليل مرتبته عند الله عز وجل) (٣٥).

فصل التسليم up

وإذا فرغت عن التشهد، فاحضر بحضرة سيد المرسلين، والملائكة المقربين، وبقية أنبياء الله وأئمته - عليهم السلام - والحفظة لك من الملائكة المحصين لأعمالك، وأحضرهم جميعا في بالك. فسلم أولا على نبيك الذي هو أفضل الكل، وواسطة هدايتك وإيمانك، بقولك: ((السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته). ثم توجه إلى الجميع، وسلم عليهم بقولك: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته). ولا تطلق لسانك بصيغة الخطاب من غير حضور المخاطب في ذهنك، فتكون من العابثين واللاعبين، وكيف تسمع الخطاب لمن لا يقصد، لولا فضل الله في اجتزائه بذلك عن أصل الواجب وإن كان بعيدا عن درجات القبول، منحطا عن أوج القرب والوصول. وإن

(هامش)

(٣٤) القصص، الآية: ٦٨. (٣٥) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٧. وعلى (بحار الأنوار): ١٨ / ٤٠٣، باب التشهد وأحكامه. (*)

ص ٢٨٦

كنت إماما لقوم، فاقصدهم بالسلام من تقدم من المقصودين، وليقصدوا هم الرد عليك أيضا، وإذا فعلتم ذلك فقد أديتم وظيفة السلام، واستحققتم من الله مزيد الاكرام. قال الصادق (ع): (معنى التسليم في دبر كل صلاة: الأمان، أي من أتى أمر الله وسنة نبيه (ص) خاضعا خاشعا منه، فله الأمان من بلاء الدنيا والبراءة من عذاب الآخرة. والسلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه،

ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات والانصافات وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم، وصحة معاشرتهم. فإن أردت أن تضع السلام موضعه، وتؤدي معناه، فاتق الله ليسلم منك دينك وقلبك وعقلك ألا تدنسها بظلمة المعاصي، ولتسلم منك حفظتك ألا تبرمهم وتملهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم، ثم مع صديقك، ثم مع عدوك فإن من لم يسلم منه هو الأقرب إليه فالعبد أولى، ومن لا يضع السلام مواضعه هذه فلا سلام ولا إسلام ولا تسليم، وكان كاذبا في سلامه وأن أفشاه في الخلق) (٣٦).

فصل إفاضة الأنوار على المصلي على قدر صفاته up

إعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات، وإخلاصها لوجه الله، وأدائها بالشروط الباطنة المذكورة، من الحضور والخشوع، والتعظيم، والهيبة، والحياء: سبب لحصول أنوار في القلب، تكون تلك الأنوار مفاتيح للعلوم الباطنة، وإنما يفيض منه على كل مصل على قدرة صفائه من كدورات الدنيا ويختلف ذلك بالقلة والكثرة، والقوة والضعف، والجلاء والخفاء، ويختلف أيضا بما ينكشف من العلوم فينكشف لبعضهم من صفات الله وجلاله، ولبعضهم من عجائب أفعاله، ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة، ولبعضهم غير ذلك، وأولى بالظهور والإضافة لكل شخص ما يهمه ويكون في طلبه وإلى ما ذكرناه من ترتب الإفاضات العلوية على الصلاة الخالصة لوجه الله المؤداة بالشروط المذكورة، أشار النبي (ص) بقوله: (إن العبد إذا قام في الصلاة، رفع الله الحجاب بينه وبين عبده، وواجهه بوجهه وقامت الملائكة

(هامش)

(

٣٦) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٨ / ١٤٤. (*)

ص ٢٨٧

من لدن منكبيه إلى الهواء، يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه، وإن المصلي لينشر عليه البر من أعنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد: لو علم المصلي من يناجي ما التفت. وإن أبواب السماء تفتح للمصلين، وإن الله يباهي ملائكته بصدق المصلي). فإن رفع الحجاب وفتح أبواب السماء كناية عن إفاضة العلوم الباطنة عليه. وورد في التوراة: (يا ابن آدم، لا تعجز أن تقوم بين يدي مصليا باكيا، فأنا الله الذي اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيت نوري) وورد: (أن العبد إذا صلى ركعتين، عجبت منه عشرة صفوف من الملائكة، كل صف منهم عشرة آلاف، وباهى الله به مئة ألف). وذلك لأن العبد جمع في الصلاة بين القيام والقعود، والركوع والسجود، والذكر باللسان، وغير ذلك. وليس لملك من الملائكة هذا القسم من العبادة الجامعة بين الكل، بل هذه الأفعال موزعة عليهم، فبعضهم قائمون لا يركعون إلى يوم القيامة، وبعضهم ساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، وهكذا الراكعون والقاعدون، فإن ما أعطي الملائكة من القرب والرتبة لازم لهم، مستمر على حالة واحدة، لا تزيد ولا تنقص، وليس لهم مرتبة الترقي من درجة إلى أخرى، وباب المزيد مسدود عليهم، ولذلك قالوا: (وما منا إلا له مقام معلوم)، بخلاف الإنسان، فإن له الترقي في الدرجات، والتقلب في أطوار الكمالات، ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلاة، قال الله سبحانه: (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة، وهي المقرونة بالخشوع، ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضا، فقال في آخرها: (والذين هم على صلاتهم يحافظون)، ثم قال في ثمرة تلك الصفات: (أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) (٣٧). فوصفهم في بالفلاح أولا، وبوارثة الفردوس آخرا. فالمصلون هم ورثة الفردوس وورثة الفردوس هم المشاهدون لنور الله بقربه ودنوه بالقلب.

وكل عاقل يعلم أن مجرد حركة اللسان والجوارح مع غفلة القلب، لا تنتهي درجته إلى هذا الحد.

(هامش)

(٣٧) المؤمنون، الآية: ٩ / ١١. (*)

ص ٢٨٨

فصل ما ينبغي في إمام الجماعة up

ينبغي لإمام الجماعة: أن يختص من بين القوم بمزيد صفاء القلب. وإقباله إلى الله، والخشوع والتعظيم، وغير ذلك من الشرائط الباطنة،

لأنه القدرة والجاذب لنفوس الجماعة إلى الله، فما أقبح به أن يكون قلبه غافلا عن الله، أو واقعا في أودية الوساوس الباطلة في الصلاة، ويكون بعض من اقتدى به من القوم خاشعا حاضر القلب معظما لله سبحانه، وما أشنع به أن يكون التفات قلبه إلى من ورائه من الناس الذين لا يقدرون على شيء من النفع والضر أكثر من التفات قلبه إلى مالك الملك المحيط بالكل، الذي حدث بمجرد إرادته العوالم العلوية والسفلية والملك والملكوت، أو لا يستحي من علام الغيوب أن ينصب نفسه قدوة لأمة سيد الرسل (ص)، ويحمل محل رسول الله (ص) وأوصيائه الراشدين - عليهم السلام - وينوب عنهم، ويكون تغير قلبه وتأثر نفسه عن ضعفاء العوام الذين اقتدوا به أشد من أفعاله وتأثره من عظمة الله وجلاله؟! أو لا يخجل عند الله من تفاوت حاله بكثرة المأمومين وقلتهم؟ فينبغي لكل إمام قوم أن يمتحن نفسه، فإن لم تكن له هذه الصفات الخبيثة فليؤم، وإلا فليترك ولا يهلك نفسه، ويعرف ذلك بأن يكون فرحه بإمامة نفسه كفرحه بإمامة غيره من أمثاله وأقرانه بل إن كان قصده وفرحه بمجرد إقامة السنة، وإحياء رسوم الملة، فينبغي أن يكون فرحه بإمامة غيره ممن هو مرضي والاهتمام به أكثر من إمامة نفسه لحصول المقصود مع السلامة عن الغوائل المحتملة، ينبغي - أيضا - ألا يكون باعثه ومحركه إلى المسجد لإمامة القوم إلا القربة ورجاء الثواب، فلو كان في بعض زوايا قلبه باعث خفي من الشهرة والمنزلة في القلوب، أو الوصول إلى ما ينتظم به معاشه، فله الويل والثبور، ويكون ممن ظل وأظل وهلك وأهلك!

فصل ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين up

ينبغي للحاضر إلى صلاة الجمعة والعيدين: أن يستحضر أن هذه الأيام أيام شريفة عظيمة، وأعياد مباركة كريمة، قد خص الله بها هذه الأمة،

ص ٢٨٩

وجعلها أوقاتا شريفة، لعباده ليقربهم من جواره، ويبعدهم من عذابه وناره وحثهم فيها على الإقبال بصالح الأعمال، وتلافي ما فرط منهم في بقية الأيام والشهور من الإهمال. فلا جرم وجب الاهتمام بصلاتها زيادة على سائر الصلوات من التهيؤ والاستعداد للقاء الله، والوقوف بين يديه، والمثول في حضرته، والفوز بمخاطبته. فليجتهد بعد الاتيان بالوظائف الظاهرة، من التنظيف والتطييب، والتعمم وحلق الرأس، وقص الشارب والأظفار وغير ذلك من السنن في تخليص النية، وإحضار القلب، وإكثار الخشوع والابتهال إلى الله تعالى في صلاته وينبغي أن يحضر قلبه في العيدين من قسمة الجوائز وتفرقة الرحمة، وإضافة المواهب فيها على من قبل صومه وقربانه وقام بوظائفهما، فليكبر في صلاتهما وقبلها وبعدها في قبول أعماله والعفو عن تقصيراته، وليستشعر الخجلة والحياء من خسران الرد، وخذلان الطرد، فتخسر صفقته، وتظهر بعد ذلك حسرته، فيفوز الفائزون، ويسبق السابقون، وينجو المخلصون، وهو يكون من الخائبين الخاسرين.

فصل ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات up

إذا ظهرت الآيات، من الكسوف والخسوف والزلازل وغيرها، ينبغي لكل مؤمن من أن يستحضر عندها أهوال الآخرة وزلازلها، وتكور الشمس والقمر وظلمة القيامة، ووجل الخلائق، وخوفهم من الأخذ والنكال والعقوبة والاستيصال، فيكثر في صلاتها من الدعاء والابتهال بمزيد الخضوع والخشوع والهيبة والخوف في النجاة من تلك الشدائد ورد النور بعد الظلمة والمسامحة على الهفوة، وينبغي أن يكون منكسر النفس، مطرق الرأس، مستحيا من التقصير، مستشعرا بقلبه عظمة الله وجلاله. وبالجملة: حصول الخوف والخشية، والمبادرة إلى التضرع والابتهال، وأداء الصلاة بالاقبال والخشوع عند ظهور الآيات، من شعار أهل الإيمان. قال سيد الساجدين عليه السلام: (لا يفرغ للآيتين ولا يرهب، إلا من كان من شيعتنا، فإن كان ذلك منهما، فافزعوا إلى الله وراجعوه). وقال الرضا (ع) (إنما جعلت للكسوف صلاة لأنه من آيات الله تعالى، ولا يدري ألرحمة ظهرت

ص ٢٩٠

أم لعذاب فأحب النبي (ص) أن يفزع أمته إلى خالقه وراحمه عند ذلك ليصرف عنهم شرها، ويقيهم مكروها، كما صرف عن قوم يونس (ع) حين تضرعوا إلى الله تعالى).

المقصد الثالث الذكر - فضيلة الأذكار - الدعاء up

إعلم أنه ينبغي لكل مؤمن أن يكثر من الذكر والدعاء، لا سيما عقيب الصلاة المفروضة. وقد ورد في فضائلها من الآيات والأخبار ما يمكن إحصاؤه ولاشتهارها لا حاجة إلى ذكرها هنا.

فصل الذكر up

أما الذكر فالنافع منه هو الذكر على الدوام، أو في أكثر الأوقات، مع حضور القلب، وفراغ البال، والوجه الكلي إلى الخالق المتعال، حتى يتمكن المذكور في القلب، ويتجلى عظمته الباهرة عليه، وينشرح الصدر بشروق نوره عليه، وهو غاية ثمرة العبادات، وللذكر أول وآخر، فأوله يوجب الأنس والحب، وآخره يوجبه الأنس والحب، والمطلوب منه ذلك الحب والأنس. فإن العبد في بداءة الأمر يكون متكلفا بصرف قلبه ولسانه عن الوساس والفضول إلى ذكر الله، فإن وفق للمداومة أنس به وانغرس في قلبه حب المذكور، ومن أحب شيئا أكثر ذكره، ومن أكثر ذكر شيء، وإن كان تكلفا، أحبه. ومن هنا قال بعضهم: (كاءدت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة) ولا تصدر النعم من الأنس والحب، ولا يصدر الأنس والحب إلا من المداومة على المكاءدة والتكلف مدة طويلة، حتى يصير التكلف طبعا. وكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستبشعه أولا، ويكائد أكله، ويواضب عليه، فيصير موافقا لطبعه حتى لا يصبر عنه؟ فالنفس تصير معتادة متحملة لما تكفلت: (هي النفس ما عودتها تتعود) ثم إذا حصل الأنس بذكر الله انقطع عن غير الله، وما سوى الله يفارقه عند الموت، ولا يبقى إلا ذكر الله، فإن كان قد أنس به تمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه، إذ ضرورات الحاجات في الحياة تصد عنه

ص ٢٩١

ذكر الله ولا يبقى بعد الموت عائق، فكأنه خلى بينه وبين محبوبه، فعظمت غبطته، وتخلص من السجن الذي كان ممنوعا فيه عما به أنسه، وهذا الأنس يتلذذ به العبد بعد موته إلى أن ينزل في جوار الله، ويترقى من الذكر إلى اللقاء، قال الصادق (ع): (من كان ذاكرا لله على الحقيقة فهو مطيع، ومن كان غافلا عنه فهو عاص، والطاعة علامة الهداية، والمعصية علامة الضلالة، وأصلها من الذكر والغفلة، فأجعل قلبك قبلة للسانك، ولا تحركه إلا بإشارة القلب، وموافقة العقل، ورضا الإيمان، فإن الله تعالى عالم بسرك وجهرك، وكن كالنازع روحه، أو كالواقف في العرض الأكبر، غير شاغل نفسك عما عناك مما كلفك به ربك في أمره ونهيه ووعده ووعيده، ولا تشغلها بدون ما كلفك به ربك. واغسل قلبك بماء الحزن ، وأجعل ذكر الله تعالى من أجل ذكره تعالى إياك، فإنه ذكرك وهو غني عنك، فذكره لك أجل وأشهى وأثنى وأتم من ذكرك له وأسبق، ومعرفتك بذكره لك تورثك الخشوع والاستحياء والانكسار، ويتولد من ذلك رؤية كرمه وفضله السابق، وتصغر عن ذلك طاعتك وإن كثرت في جنب منته، وتخلص لوجهه، ورؤيتك ذكرك له، يورثك الرياء والعجب والسفه والغلظة في خلقه، واستكثار الطاعة ونسيان فضله وكرمه، ولا تزداد بذلك من الله تعالى إلا بعدا، ولا تستجلب به على مضي الأيام إلا وحشة. والذكر ذكران: ذكر خالص بموافقة القلب، وذكر صارف لك ينفي ذكر غيره، كما قال رسول الله (ص): (أنا لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك). فرسول الله (ص) لم يجعل لذكره الله عز وجل مقدارا عند علمه بحقيقة سابقة ذكر الله عز وجل من قبل ذكره، ومن دونه أولى، فمن أراد أن يذكر الله تعالى، فليعلم أنه ما لم يذكر الله العبد بالتوفيق لذكره، لا يقدر العبد على ذكره) (٣٨).

(هامش)

(

٣٨) الحديث مذكور في (مصباح الشريعة): الباب ٥ / ١٣٦. وفي المستدرك: ٤٠١، كتاب الصلاة، أبواب الذكر. وفي الموضعين اختلاف يسير فصححناه على (مصباح الشريعة)، الموضع المذكور. (*)

ص ٢٩٢

تتميم فضيلة الأذكار up

الأذكار كثيرة، كالتهليل، والتسبيح، والتحميد، والتكبير، والحوقلة والتسبيحات الأربع، وأسماء الله الحسنى، وغير ذلك، وقد وردت في فضيلة كل منها أخبار كثيرة، والمواظبة على كل منها توجب صفاء النفس وانشراح الصدر، وكلما كانت أدل على غاية العظمة والجلال والعزة والكمال، فهي أفضل. ولذا صرحوا بأن أفضل الأذكار التهليل، لدلالته على توحده في الألوهية، واستناد الكل إليه. وربما كان بعض أسماء الله تعالى في مرتبته أدل، والعارف السالك إلى الله يعلم: أنه قد ينبعث في القلب من عظمة الله وجلاله وشدة كبريائه وكماله ما لا يمكن التعبير عنه بأسم.

فصل الدعاء up

وأما الدعاء، فهو مخ العبادة، ولذا ورد في فضله ما ورد من الآيات والأخبار، ولا حاجة إلى ذكرها لاشتهارها. والأدعية المأثورة كثيرة مذكورة في كتب الدعوات، ولا يتصور مطلب من مطالب الدنيا والآخرة إلا وقد وردت به أدعية، فمن أراد شيئا منها فيأخذ من مواضعها. ومما ينبغي لكل داع، أن يراعي شرائط وآدابا في الدعاء، حتى يستجاب له، ويصل إلى فائدته، وتحصل لنفسه نورانية، وهي أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة، والأحوال الشريفة، والأماكن المتبركة المشرفة، وأن يدعو متطهرا، مستقبل القلبة، رافعا يديه بحيث يرى باطن إبطيه، وأن يخفض صوته بين الجهر والاخفات، ولا يتكلف السجع في الدعاء ويكون في غاية التضرع والخشوع والرهبة، وأن يجزم ويتيقن إجابة دعائه، ويصدق رجاءه فيه، وأن يلح في الدعاء، ويكرره ثلاثا، ويفتح الدعاء بذكر الله وتمجيده، ولا يبتدئ بالسؤال، وأن يتوب، ويرد مظالم العباد، ويقبل على الله بكنه الهمة، وهو السبب القريب للإجابة، وأن يكون مطعمه وملبسه من الحلال، وهو أيضا من عمدة الشرائط، وأن يسمي حاجته،

ص ٢٩٣

ويعم في الدعاء، ويبكي عنده، وهو أيضا سيد الآداب وأن يتقدم في الدعاء قبل الحاجة إليه، وألا يعتمد في حوائجه على غير الله تعالى، قال الصادق (ع): (إحفظ أدب الدعاء، وانظر من تدعو، وكيف تدعو، ولماذا تدعو، وحقق عظمة الله وكبرياءه، وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك، واطلاعه على سرك وما تكن فيه من الحق والباطل، وأعرف طرق نجاتك وهلاكك، كيلا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وأنت تظن أن فيه نجاتك قال الله تعالى: (ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا) (٣٩). وتفكر ماذا تسأل، ولماذا تسأل. والدعاء استجابة الكل منك للحق، وتذويب المهجة في مشاهدة الرب، وترك الاختيار جميعا، وتسليم الأمور كلها - ظاهرها وباطنها - إلى الله تعالى، فإن لم تأت بشرط الدعاء فلا تنتظر الإجابة، فإنه يعلم السر وأخفى، فلعلك تدعوه بشيء قد علم من سرك خلاف ذلك. واعلم أن لو لم يكن الله أمرنا بالدعاء، لكنا إذا أخلصنا الدعاء، تفضل علينا بالإجابة، فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرائط الدعاء وسئل رسول الله (ص) عن اسم الله الأعظم فقال: (كل اسم من أسماء الله أعظم). ففرغ قلبك من كل ما سواه، وادعه بأي اسم شئت، فليس في الحقيقة لله اسم دون، بل هو الله الواحد القهار. وقال النبي (ص): (إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب لاه). فإذا أتيت بما ذكرت لك من شرائط الدعاء، وأخلصت سرك لوجهه، فأبشر بإحدى ثلاث: إما أن يعجل لك بما سألت، وإما أن يدخر لك بما هو أفضل منه، وإما أن يصرف عنك من البلاء ما لو أرسله عليك لهلكت) (٤٠). وسئل من الصادق (ع): ما لنا ندعوا ولا يستجيب لنا؟ فقال: (لأنكم تدعون من لا تعرفونه، وتسألون من لا تفهمونه، فالاضطرار عين الدين، وكثرة الدعاء مع العمى عن الله من علامة الخذلان، لأن من لم يعرف ذلة نفسه وقلبه وسره تحت

(هامش)

)

٣٩) الإسراء الآية: ١١٠. (٤٠) الحديث المذكور في (مصباح الشريعة) الباب ١٩ / ١٤٥ - ١٤٦ وفية اختلاف كثير عما هنا، فصححناه على المصباح، الموضع المذكور. (*)

ص ٢٩٤

قدرة الله، حكم على الله بالسؤال، وظن أن سؤاله دعاء، والحكم على الله من الجرأة على الله تعالى).

المقصد الرابع تلاوة القرآن up

إعلم أنه لا حد لثواب تلاوة القرآن، والأخبار الواردة في عظم أجره ووفور ثوابه لا تحصى كثرة، وكيف لا يعظم أجره وهو كلام الله، حامله روح الأمين إلى سيد المرسلين، فتأمل أن الكلام الصادر من الله بلا واسطة إذا كان من حيث اللفظ معجزة لغاية فصاحته، ومن حيث المعنى متضمنا لأصول حقائق المعارف والمواعظ والأحكام، ومخبرا عن دقائق صنع الله، وعن مغيبات الأحوال والقصص الواقعة في سوالف القرون والأعوام، كيف يكون تأثيره للقلوب وتصفيته للنفوس؟ وبالجملة: العقل والنقل والتجربة، شواهد متظاهرة على عظم ثواب تلاوة القرآن، والأخبار الواردة فيه مشهورة، فلا حاجة إلى ذكرها، فلنشر إلى بعض ما يتعلق بالتلاوة من

الآداب الظاهرة والباطنة. أما الآداب الظاهرة، فالوضوء، والوقوف على هيئة الأدب، والطمأنينة إما قائما أو جالسا، مستقبل القلبة، مطرقا رأسه، غير متربع ولا متكأ. والترتيب والبكاء، والجهر المتوسط لو أمن من الرياء. وإلا فالسر أفضل، وتحسين القراءة وتنزيهها، ومراعاة حق الآيات، فإذا مر بآية السجود سجد، وإذا مر بآية العذاب استعاذ منه بالله، وإذا مر بآية الرحمة ونعيم الجنة سئل الله تعالى أن يرزقه، وإذا مر بآية تسبيح أو تكبير سبح وكبر، وإذا مر بآية دعاء أو استغفار دعا واستغفر، وافتتاح القراءة بقوله: (أعوذ بالله السميع العليم من من الشيطان الرجيم)، وأن يقول عند الفراغ من كل سورة: (صدق الله العلي العظيم وبلغ رسوله الكريم، اللهم أنفعنا به وبارك لنا فيه، والحمد لله رب العالمين). وأما الآداب والأعمال الباطنة: فمنها - فهم عظمة الكلام وعلوه، وفضل الله تعالى ولطفه بخلقه، في

ص ٢٩٥

نزوله عن عرش جلاله إلى درجة أفهام خلقه: فلينظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه، وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر، إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله إلا بوسيلة صفات نفسه، ولولا استتار كنه جمال كلامه بكسوة الحروف، لما ثبت لسماع كلامه عرش ولا ثرى، ولا شيء بينهما، من عظمة سلطانه وسبحات نوره، ولولا تثبيت الله موسى (ع) لما أطاق سماع كلامه، كما لم يطق الجبل مبادي تجلية حيث صار دكا، ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حد فهم الخلق، ولهذا عبر عنه بعض العارفين، فقال: (إن كل حرف من كلام الله في اللوح أعظم من جبل قاف، وإن الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن ينقلوه ما أطاقوه، حتى يأتي إسرافيل، وهو ملك اللوح، فيرفعه. فنقله بأذن الله ورحمته، لا بقوته وطاقته). وإيصال معاني الكلام مع علو درجته إلى فهم الإنسان مع قصور رتبته، تشابه من درجة تصويت الإنسان البهائم والطيور. فإن الإنسان لما أراد تفهيم بعض الدواب والطيور ما يريد من إقبالها وإدبارها وتقديمها وتأخيرها، وكان تمييزها قاصرا عن فهم كلامه الصادر عن عقله مع حسنه وترتيبه وبديع نظمه، فينزل إلى درجة تمييز البهائم، ويوصل مقاصده إليها بأصوات لائقة بها، من النفير والصفير والأصوات القريبة من أصواتها، يطيقون حملها. وكذلك الناس، لما كانوا عاجزين عن حمل كلام الله بكنه وكمال صفاته، فتنزل من عرش العظمة والجلال إلى درجة إفهامه، فتجلى في مظاهر الأصوات والحروف، وقد يشرف الصوت لأجل الحكمة المحبوة فيه. فكما أن بدن البشر يكرم ويعزز لمكان الروح، فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التي فيها.

والكلام عالي المنزلة، رفيع الدرجة، قاهر السلطان، نافذ الحكم في الحق والباطل، وهو القاضي العادل، يأمر وينهى، ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة، فلا يستطيع الظل أن يقوم قدام شعاع الشمس، ولا طاقة للناس أن ينفذوا غور الحكمة، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس، ولكنهم ينالون منها ما تقدم به أبصارهم ويستدلون به على

ص ٢٩٦

حوائجهم. فالكلام كالملك المحجوب الغائب وجهه، المشاهد أمره، فهو مفتاح الخزائن النفيسة، وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمت، ودواء الأسقام الذي من سقي منه لم يسقم. ومنها - تعظيم المتكلم: فينبغي للقارئ عند الابتداء بالتلاوة، أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم، ويعلم أنه ليس من كلام البشر، بل هو كلام خالق الشمس والقمر، وفي تلاوة كلامه غاية الخطر، إذ كما لا ينبغي أن تمس جلده وورقه وحروفه البشرة المستقذرة بخبث أو حدث، فكذلك لا ينبغي أن تقرؤه الألسنة المستخبثة بقبائح الكلمات، وألا تحوم حول معناه القلوب المكدرة برذائل الأخلاق والصفات، فكما أنه لا يصلح لمس ظاهر خطه كل يد، بل هو محروس عن ظاهر بشرة اللامس، إلا إذا كان متطهرا، فكذلك لا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان، ولا لنيل معانيه كل قلب، بل باطن معناه لعلوه وجلاله محجوب عن باطن القلوب، إلا إذا كانت منقطعة عن كل رجس، مستنيرة بنور التعظيم والتوقير. وبالجملة: ينبغي ألا يترك عند التلاوة تعظيم المتكلم له، ليتحقق تعظيم الكلام أيضا، إذ تعظيم الكلام بتعظيم المتكلم، ولو لم تحضره عظمة المتكلم لغفلة قلبه، فليرجع إلى التفكر في صفاته وأفعاله، ويستحضر أن المتكلم هو الذي أوجد وأظهر بمجرد أرادته كل ما يشاهده ويسمعه، من العرش والكرسي والسماوات والأرضين، وما فيها وما تحتها وما فوقها، وأنه الخالق والرازق للجميع، والكل في قبضة قدرته مسخر أسير، ومردد بين فضله ورحمته،

وبين نقمته وسطوته، وجميع ذلك لا نسبة له إلى عوالم المجردات. فالتفكر في أمثال ذلك يوجب استشعار القلب لعظمة المتكلم والكلام. ولمثل هذا التعظيم كان بعضهم إذا نشر المصحف للتلاوة غشي عليه، ويقول: (هو كلام ربي، هو كلام ربي!).

ومنها - الخضوع والرقة: قال الصادق (ع): (من قرأ القرآن، ولم يخضع ولم يرق قلبه، ولا ينشئ حزنا ووجلا في سره، فقد استهان بعظيم شأن الله تعالى، وخسر خسرانا مبينا، فقارئ القرآن محتاج إلى ثلاثة أشياء: قلب خاشع، وبدن فارغ، وموضع خال. فإذا خشع لله قلبه فر

ص ٢٩٧

منه الشيطان الرجيم، قال الله تعالى: (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) (٤١). فإذا تفرغ نفسه من الأسباب، تجرد قلبه للقراءة فلا يعرضه عارض فيحرمه بركة نور القرآن وفوائده. فإذا اتخذ مجلسا خاليا، واعتزل عن الخلق بعد أن أتى بالخصلتين: خضوع القلب وفراغ البدن، استأنس روحه وسره بالله عز وجل، ووجود حلاوة مخاطبات الله عز وجل عباده الصالحين، وعليم لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم، بفنون كراماته، وبدائع إشاراته، فإن شرب كأسا من هذا المشرب حين إذ، لا يختار على ذلك الحال حالا، ولا على ذلك الوقت وقتا، بل يؤثره على كل طاعة وعبادة، لأن فيه المناجاة مع الرب بل واسطة. فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولايتك، وكيف تجيب أوامره ونواهيه، وكيف تمثل حدوده: (وإنه لكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (٤٢). فرتله ترتيلا، وقف عند وعده ووعيده، وتفكر في أمثاله ومواعظه، واحذر أن تقع من إقامتك حروفه في إضاعة حدوده) (٤٣). ومنها - حضور القلب، وترك حديث النفس: وهو يترتب على التعظيم، فإن من يعظم شيئا، كلاما كان أو غيره، يستبشر ويستأنس به، ولا يغفل عنه. ولا ريب في أن القرآن يشتمل على ما يستأنس به القلب، وتفوح به النفس، أن كان التالي أهلا له. ومنها - التدبر: وهو زائد على حضور القلب، إذ التالي ربما لم يتفكر في غير القرآن، ولكنه أقتصر على سماعه من نفسه، ومن دون تدبر فيه. والمقصود من تلاوة القرآن التدبر فيه في الباطن، قال الله سبحانه: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (٤٤).

(هامش)

(

٤١) النحل، الآية: ٩٨. (٤٢) فصلت، الآية: ٤١ - ٤٢. (٤٣) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٤ / ١٤٢.

(٤٤) محمد - صلى الله عليه وآله -، الآية: ٢٤. (*)

ص ٢٩٨

وقال أمير المؤمنين (ع): (لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدبر فيها). وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بالترديد،، فليردد. ولذلك كان الأكابر كثيرا ما يكررون بعض الآيات مرات كثيرة للتدبر فيها، وربما يقفون عند آية مدة مديدة، وقال بعضهم: (لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولي ختمة منذ ثلاثين ما فرغت منها بعد!)، وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه. ومنها - التفهم: وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، إذ القرآن يشتمل على ذكر صفاته تعالى، وذكر أفعاله، وذكر الجنة والنار، وأحوال النشأة الآخرة، وذكر أحوال أنبيائه، وأحوال المكذبين، وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أحكامه وأوامره ونواهيه وغير ذلك. فإن مر بآيات صفاته تعالى، كقوله: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (٤٥). وكقوله تعالى: (الملك القدوس السلام...) إلى آخر الآية (٤٦) وغير ذلك. فليتأمل في معاني هذه الأسماء والصفات، لتنكشف له أسرارها المكنونة تحتها، ولا تنكشف هذه الأسرار إلا للمؤيدين في فهم كتاب الله. قال أمير المؤمنين (ع): (ما أسر إلي رسول الله (ص) شيئا كتمه عن الناس، إلا أن يؤتي الله عز وجل عبدا فهما في كتابه). وإن مر بآيات الأفعال، أي الآيات الحاكية عن خلقه السماوات والأرض، وما فيهما من الملائكة والكواكب والجبال والحيوان والنبات، وما بينهما من السحب والغيوم والرياح والأمطار وغير ذلك، فليفهم التالي منها عظمة الله وجلاله. إذ الفعل يدل على الفاعل، فعظمته تدل على عظمته.

وينبغي أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل، إذ من عرف الحق رآه في كل شيء، إذ كل شيء منه وبه وإليه وله، فهو الكل في وحده، ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل، وأن كل شيء هالك إلا

وجهه، وإن اعتبر من حيث هو، إذ مع قطع النظر عن الواجب
(هامش)
(٤٥) الشورى، الآية: ١١. (٤٦) الحشر، الآية: ٢٣. (*)
ص ٢٩٩
وإيجاده، لا ذات ولا وجود، بل محض العدم وعدم المحض. فذات كل شيء ووجوده وثباته وبقاؤه بالله العلي العظيم. فإذا قرأ التالي آية تدل على شيء من عجائب صنعه وغرائب فعله، فليتأمل في تلك العجائب، ثم يترقى منها إلى أعجب العجائب، وهي الصفة التي صدرت منها هذه الأعاجيب. وإذا سمع وصف الجنة والنار وسائر أحوال الآخرة، فليتذكر أن ما في هذا العالم من النعم والنقم لا نسبة له إلى ما في عالم الآخرة، فلينتقل من ذلك إلى عظمة الله تعالى، وينقطع إليه باطنا، ليخلصه من عقوبات تلك النشأة، ويوصله إلى نعيمها ولذاتها. وإذا سمع أحوال الأنبياء عليهم السلام، من تكذيبهم وضربهم وقتلهم، فليفهم منه صفة الاستغناء لله تعالى من الرسل والمرسل إليهم، وأنه لو أهلك جميعهم لا يؤثر في ملكه وإذا سمع نصرتهم في الأمر، فليفهم قدرة الله وإرادته لنصرته لنصرة الحق. وأما أحوال المكذبين وما جرى عليهم من العقوبات وضروب النكال، فليستشعر الخوف من سطوته ونقمته، ويعتبر في نفسه، ويعلم أنه غفل وأساء الأدب، واغتر بما أمهل، فربما تدركه النقمة. وكذلك إذا سمع الوعد والوعيد والأمر والتهديد، فلا يمكن استقصاء ما يفهم من القرآن، لأنه لا نهاية له، إذ (لا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي) (٤٧). ولكل عبد منه بقدر استعداده ومقدار فهمه وصفاء نفسه.
ومنها - التخلي عن موانع الفهم: وهي التقليد والتعصب لمذهب، فإن ذلك بمنزلة حجاب لمرآة النفس يمنعها عن انعكاس غير معتقدها فيها، والجمود على تفسير ظاهر، ظانا أن غيره تفسير بالرأي لا يجوز ارتكابه، وصرف الهمة والفهم إلى تحقيق الحروف وما يتعلق بها من الأمور المتداولة بين القراء، فإن قصر التأمل على ذلك مانع من انكشاف المعاني، والاصرار على الذنوب الظاهرة والباطنة، ومتابعة الشهوات المظلمة للقلب الموجبة للحرمان عن انكشاف الأسرار والحقائق فيه، وإشراق المعارف الحقة عليه.
(هامش)
(٤٧) الكهف، الآية: ١١٠.
ص ٣٠٠
قال رسول الله (ص): - (إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم تنزع منها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف، حرموا بركة الوحي). وقد شرط الله تعالى الإنابة في الفهم والتذكر، قال الله تعالى: (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) (٤٨). وقال تعالى: (وما يتذكر إلا من ينيب) (٤٩). وقال تعالى: (إنما يتذكر أولو الألباب) (٥٠). ومنها - التخصيص: وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن من الأمر والنهي والوعد والوعيد، حتى أنه لو سمع قصص الأولين يجزم بأن المقصود الاعتبار دون مجرد الحكاية والتشمر. فما من قصة في القرآن إلا وسياقها الفائدة في حق النبي وأمته، ولذلك قال سبحانه: (ما نثبت به فؤادك) (٥١). فإن القرآن جميعه هدى وشفاء ورحمة، ونور وموعظة وبصائر للعالمين فكل أحد إذا قرأه ينبغي أن تكون قراءة العبد كتاب مولاه الذي كتب إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه. قال بعض الأكابر: (هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده، فنتدبرها في الصلوات، ونقف في الخلوات، وننفذها في الطاعات بالسنن المتبعات). ومنها - التأثر: وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال: من الخوف، والحزن والوجل، والوجد، والفرح، والارتياح، والرجاء، والقبض، والانبساط فإذا سمع الوعيد فليضطرب قلبه، ويتضائل من الخوف كأنه يموت، وإن سمع وسعه الرحمة ووعد المغفرة، فليفرح ويستبشر كأنه يطير من الابتهاج، وإذا سمع وصف الجنة، فلينبعث باطنه شوقا إليها وإذا سمع وصف النار، فلترتعد فرائصه خوفا منها، وإذا سمع صفات الله وأسماءه ونعوت جلاله، فليتطأطأ خضوعا لجلاله واستشعارا لعظمته وكبريائه، وإذا سمع ذكر الكفار ما يستحيل على الله من اتخاذ الولد وأمثاله، فليغض صوته وينكسر في باطنه حياء من
(هامش)
(٤٨) ق، الآية: ٨. (٤٩) المؤمن، الآية: ١٣. (٥٠) الرعد الآية: ٢١. الزمر، الآية: ٩. (٥١) هود، الآية: ١٢٠. (*)
الصفحة السابقةالصفحة التالية ... up ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

## ٣٠١٢ جامع السعادات (ج3)

الصفحة السابقة ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب

ص ٣٠١

قبح مقالتهم.. وقس على ذلك غيره من الآيات المختلفة. ومهما تمت المعرفة كانت الخشية أغلب الأحوال على القلب، إذ التضيق غالب على آيات القرآن إذ لا ترى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقرونا بشروط يقصر الأكثرون عن نيلها، ولذلك كان في الخائفين من يصير مغشيا عليه عند استماع آيات الوعيد، ومنهم من مات بمجرد استماعها. وبالجملة: المقصود الأصلي من القرآن، استجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به وإلا فالمؤنة بتحريك اللسان بحروفه خفيفة. وحق تلاوة القرآن أن يشترك فيها اللسان والعقل والقلب فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل إدراك المعاني، وحظ القلب الاتعاض والتأثر بالحالات المذكورة. فاللسان واعظ القلب، والعقل مترجم، والقلب متعظ. ومنها - الترقي: وهو أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله تعالى لا من نفسه. فدرجات القراءة ثلاث: الأولى: وهي أدناها، أن يقدر العبد أنه يقرؤه على الله تعالى واقفا بين يديه، وهو ناظر إليه ومستمع منه، فتكون حاله - على هذا التقدير - التملق والسؤال والتضرع والابتهال. الثانية: أن يشهد بقلبه، كأن ربه يخاطبه باللطافة، ويناجيه بإحسانه وإنعامه فمقامه الهيبة والحياء والتعظيم والاصغاء. الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم ، وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه وإلى تلاوته، ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث أنه منعم عليه، بل يكون مقصود الهم على التكلم موقوف الفكر عليه. كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم من غيره. وهذه درجة المقربين والصديقين، وما قبله من درجات أصحاب اليمين وما خرج من ذلك فهو درجات الغافلين. وقد أخبر عن الدرجة العليا سيد الشهداء - أرواحنا فداه - حيث قال (ع): (الذي تجلى لعباده في كتابه بل في كل شيء، وأراهم نفسه في خاطبه، بل في كل نور). وأشار إليها الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام حيث قال: (والله لقد تجلى الله عز وجل بخلقه في كلامه! ولكن لا يبصرون). وروي: (أنه لحقته حالة في الصلاة، حتى خر مغشيا عليه، فلما سرى عنه، قيل له في ذلك، فقال (ع): ما زلت اردد الآية على قلبي، حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته). وفي مثل

ص ٣٠٢

هذه الدرجة تشتد البهجة، وتعظم الحلاوة واللذة. ولذلك قال بعض الحكماء (كنت أقرأ القرآن، فلا أجد له حلاوة، حتى تلوته كأني أسمعه عن رسول الله (ص) يتلوه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه، فكنت اتلوه كأني أسمعه من جبرئيل يلقيه على رسول الله (ص) فعندها وجدت لذة ونعيما لا أصبر عنه) وقال حذيفة: (لو طهرت القلوب، لم تشبع من قراءة القرآن) وذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام، بل التوحيد الخالص للعبد، ألا يرى في كل شيء إلا الله، إذ لو رأى غيره، لا من حيث أنه منه وله وبه وإليه، كان مشركا بالشرك الخفي. ومنها - التبري: وهو أن يتبرى من حوله وقوته، ولا يلتفت إلى نفسه بعين الرضا والتزكية. فإذا قرأ آيات الوعد ومدح الأخيار، فلا يشهد نفسه ولا يدخلها في زمرتهم، بل يشهد أهل الصدق واليقين، ويتشوق إلى أن يلحقه الله بهم. وإذا قرأ آيات المقت والوعيد، وذم العصاة والمقصرين شهد نفسه هناك، وقدر أنه المخاطب خوفا وإشفاقا. وإلى هذا أشار مولانا أمير المؤمنين (ع)، حيث قال في وصف المتقين: (وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم في آذانهم) فإذا رأى القارئ نفسه بصورة التقصير في القراءة كانت رؤيته سبب قربه. فإن من شهد البعد في القرب، لطف له بالخوف، حتى يسوقه إلى درجة أخرى في القرب وراءها، ومن شهد القرب في البعد مكر به بالأمن الذي يفيضه إلى درجة أخرى في البعد أسفل مما هو فيه. ومهما كان مشاهدا نفسه بعين الرضا، صار محجوبا بنفسه.

فإذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه، ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته، وكشف له سر الملكوت بحسب أحواله، فحيث يتلو آيات الرحمة والرجاء، ويغلب على حاله الاستبشار، وتنكشف له صورة الجنة، فيشاهدها كأنه يراها عيانا، وأن غلب عليه الخوف، كوشف بالنار، حتى يرى أنواع عذابها، وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف، والشديد العسوف، والمرجو والمخوف، وذلك بحسب أوصافه، إذ منها الرحمة واللطف. ومنه - القهر والبطش والانتقام: فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات

ص ٣٠٣

ينقلب القلب في اختلاف الحالات، وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة، ويمتنع أن يكون حال المستمع واحدا والمسموع مختلفا، إذ فيه كلام راض وكلام غضبان، وكلام منعم، وكلام منتقم، وكلام جبار متكبر لا يبالي، وكلام منان متعطف لا يهمل.

المقصد الخامس الصوم up

إعلم أن الصوم أجره عظيم، وثوابه جسيم، وما يدل على فضله من الآيات والأخبار أكثر من أن تحصى، وهي معروفة مشهورة فلا حاجة إلى ذكرها، فلنشر إلى ما يتعلق به من الأمور الباطنة:

فصل ما ينبغي للصائم up

ينبغي للصائم أن يغض بصره عن كل ما يحرم النظر إليه، أو يكرهه، أو يشغل القلب ويلهيه عن ذكر الله تعالى، ويحفظ اللسان عن جميع آفاته المتقدمة، ويكف السمع عن كل ما يحرم أو يكره استماعه، ويكف بطنه عن الحرام والشبهات، ويكف سائر جوارحه عن المكاره. وقد ورد في اشتراط جميع ذلك في الصوم في ترتب كمال الثواب عليه أخبار كثيرة. وينبغي أيضا ألا يستكثر من الحلال وقت الافطار بحيث يمتلئ، إذ ما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن ملئ من حلال، كيف والسر في شرع الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة والهوى، لتتقوى النفس على التقوى، وترتقي من حضيض وحظوظ النفس البهيمية إلى ذروة التشبيه بالملائكة الروحانية، وكيف يحصل ذلك إذا تدارك الصائم عند الافطار ما فاته ضحوة نهاره، لا سيما إذا زيد عليه في ألوان الطعام، كما استمرت العادات في هذه الأعصار، وربما يؤكل من الأطعمة في شهر رمضان ما لا يؤكل في عدة شهور. ولا ريب في أن المعدة إذا خليت من ضحوة النهار إلى العشاء، حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها، ثم أطعمت من اللذات، وأشبعت من ألوان المطاعم، وجمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما يأكل ليلا، وأكل جميع في الليل مرة أو مرتين أو أكثر زادت لذتها، وتضاعفت قوتها، وابعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة

ص ٣٠٤

لو تركت على عادتها، فلا يحصل ما هو المقصود من الصوم، أعني تضعيف القوى الشهوية التي هي وسائل الشيطان، فلا بد من التقليل، وهو أن يأكل في مجموع الليلة أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم، من دون ضم مما يأكل في النهار إليه، حتى ينتفع بصومه. والحاصل: إن روح الصوم وسره والغرض الأصلي منه: التخلق بخلق من أخلاق الله تعالى، أعني الصمدية والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بقدر الإمكان وهذا إنما يحصل بتقليل الأكل عما يأكله في غير وقت الصوم، فلا جدوى لمجرد تأخير أكله وجمع أكلتين عند العشاء، ثم لو جعل سر الصوم ما يظهر من بعض الظواهر من إدراك الأغنياء ألم الجوع والانتقال منه إلى شدة حال الفقراء، فيبعثهم ذلك على مواساتهم بالأموال والأقوات، فهو أيضا لا يتم بدون التقليل في الأكل .

فصل ما ينبغي للصائم عند الافطار up

ينبغي لكل صائم أن يكون قلبه بعد الافطار مضطربا، معلقا بين الخوف والرجاء، إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين، وليكن الحال كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها. روي: (أن الإمام أبا محمد الحسن المجتبى (ع) مر بقوم يوم العيد، وهم يضحكون، فقال (ع) إن الله تعالى جعل شهر رمضان مضمارا لخلقه، يستبقون فيه لطاعته، فسبق أقوام ففازوا، وتخلف أقوام فخابوا، فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه المسارعون وخاب فيه المبطلون، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه، والمسئ عن إساءته!)، أي كان سرور المقبول يشغله عن اللعب، وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك

فصل درجات الصوم up

للصوم ثلاث درجات: الأولى - صوم العموم: وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة، وهذا لا يفيد أزيد من سقوط القضاء والاستخلاص من العذاب.

ص ٣٠٥

الثانية - صوم الخصوص: وهو الكف المذكور، مع كف البصر والسمع واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن المعاصي، وعلى هذا الصوم تترتب المثوبات الموعودة من صاحب الشرع. الثالثة - صوم خصوص الخصوص -: وهو الكفان المذكوران، مع صوم القلب عن الهمم الدنية، والأخلاق الردية، والأفكار الدنيوية، وكفه عما سواه بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر في ما سوى الله

واليوم الآخر، وحاصل هذا الصوم إقبال بكنه الهمة على الله، وانصراف عن غير الله وتلبس بمعنى قوله تعالى: (قل الله ثم ذرهم)، وهذا درجة الأنبياء والصديقين والمقربين، ويترتب عليه الوصول إلى المشاهدة واللقاء، والفوز بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد. وإلى هذا الصوم أشار مولانا الصادق (ع) حيث قال: (قال النبي (ص): الصوم جنة. أي ستر من آفات الدنيا وحجاب من عذاب الآخرة، فإذا صمت فانو بصومك كف النفس عن الشهوات، وقطع الهمة عن خطرات الشياطين، وأنزل نفسك منزلة المرضى، ولا تشتهي طعاما ولا شرابا، وتوقع في كل لحظة شفاءك من مرض الذنوب، وطهر باطنك من كل كدر وغفلة وظلمة يقطعك عن معنى الإخلاص لوجه الله قال رسول الله (ص): قال الله تعالى: الصوم لي وأنا أجزي به. والصوم يميت مراد النفس وشهوة الطبع، وفيه صفاء القلب، وطهارة الجوارح، وعمارة الظاهر والباطن، والشكر على النعم والاحسان إلى الفقراء، وزيادة التضرع والخشوع والبكاء، وحبل الالتجاء إلى الله، وسبب انكسار الهمة. تخفيف الحساب، وتضعيف الحسنات، وفيه من الفوائد ما لا يحصى ولا يعد، وكفى بما ذكرناه لمن عقله ووفق لاستعماله) (٥٢) تتمم من صام شهر رمضان إخلاصا لله وتقربا إليه، وطهر باطنه من ذمائم الأخلاق، وكف ظاهره عن المعاصي والآثام، وأجتنب، عن الحرام، ولم يأكل إلا الحلال، ولم يفرط في الأكل، وواظب على جملة من النوافل

(هامش)

)

٥٢) صححنا الحديث على مصباح الشريعة: الباب ٢٠. وعلى المستدرك: ١ / ٥٨٩ - ٥٩٠، كتاب الصوم. (*)

ص ٣٠٦

والأدعية وسائر الآداب المسنونة فيه، استحق للمغفرة والخلاص عن عذاب الآخرة، بمقتضى الأخبار المتواترة. ثم إن كل من العوام، حصل له من صفاء النفس ما يوجب استجابة دعوته، وإن كان من أهل المعرفة، فعسى الشيطان لا يحوم على قلبه، فينكشف له شيء من الملكوت، وسيما في ليلة القدر، إذ هي الليلة التي تنكشف فيها الأسرار، وتفيض القلوب الطاهرة الأنوار، والمناط والعمدة في نيل ذلك تقليل الأكل بحيث يحسن ألم الجوع، إذ من جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام، فهو محجوب عن عوالم الأنوار، ويستحيل أن ينكشف له شيء من الأسرار.

المقصد السادس الحج up

إعلم أن الحج أعظم أركان الدين، وعمدة ما يقرب العبد إلى رب العالمين، وهو أهم التكاليف الإلهية وأثقلها، وأصعب العبادات البدنية وأفضلها، وأعظم بعبادة ينعدم بفقدها الدين، ويساوي تاركها اليهود والنصارى في الخسران المبين. والأخبار التي وردت في فضيلته وفي ذم تاركه كثيرة مذكورة في كتب الأخبار، والأحكام والشرائط الظاهرة له على عهدة الفقهاء، فلنشر إلى الأسرار الخفية، والأعمال الدقيقة والآداب الباطنة ، التي يبحث عنها أرباب القلوب:

فصل الغرض من إيجاد الإنسان up

إعلم أن الغرض الأصلي من إيجاد الإنسان معرفة الله والوصول إلى حبه والأنس به، والوصول إليه بالحب والأنس يتوقف على صفاء النفس وتجردها. فكلما صارت النفس أصفى وأشد تجردا، كان أنسها وحبها بالله أشد وأكثر. وصفاء النفس وتجردها موقوف على التنزه عن الشهوات والكف عن اللذات، والانقطاع عن الحطام الدنيوية، وتحريك الجوارح وإيقاعها لأجله في الأعمال الشاقة، والتجرد لذكره وتوجيه القلب إليه. ولذلك شرعت العبادات المشتملة على هذه الأمور إذ بعضها إنفاق المال وبذله، الموجب للانقطاع عن الحطام الدنيوية، كالزكاة والخمس والصدقات

ص ٣٠٧

وبعضها الكف عن الشهوات واللذات، كالصوم، وبعضها التجرد لذكر الله وتوجيه القلب إليه، وارتكاب تحريك الأعضاء وتعبها، كالصلاة، والحج من بينها مشتمل على جميع هذه الأمور مع الزيادة، إذ فيه هجران أوطان، وإتعاب أبدان، وإنفاق أموال، وانقطاع آمال، وتحمل مشاق. وتجديد ميثاق، وحضور مشاعر، وشهود شعائر، ويتحقق في أعماله التجرد لذكر الله، والإقبال عليه بضروب الطاعات والعبادات، مع كون أعماله أمورا لا تأنس بها النفوس، ولا تهتدي إلى معانيها العقول، كرمي الجمار بالأحجار، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار، إذ بمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية، فإن سائر العبادات أعمال وأفعال يظهر وجهها

للعقل، فللنفس إليها ميل، وللطبع بها أنس. وأما بعض أعمال الحج، كرمي الجمار وترددات السعي، فلاحظ للنفس ولا أنس للطبع فيها ولا اهتداء للعقل إلى معانيها، فلا يكون الإقدام عليها إلا لمجرد الأمر وقصد الامتثال له من حيث أنه أمر واجب الاتباع، ففيها عزل العقل عن تصرفه، وصرف النفس والطبع عن محل أنسه، فإن كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلا ما، فيكون ذلك الميل معينا للامتثال، فلا يظهر به كمال الرق والانقياد ولذلك قال النبي (ص) في الحج على الخصوص: (لبيك بحجة حقا وتعبدا ورقا!)، ولم يقل ذلك في غيره من العبادات.

فمثل هذه العبادات - أي ما لم يهتد العقل إلى معناه ووجه - أبلغ أنواع العبادات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضي الطبع والبغي إلى الاسترقاق، فتتعجب بعض الناس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الجهل بأسرار التعبدات، وهذا هو السر في وضع الحج، مع دلالة كل عمل من أعماله على بعض أحوال الآخرة، أو في بعض أسرار أخر - كما يأتي - ما فيه من اجتماع أهل العالم في موضع تكرر فيه نزول الوحي، وهبوط جبرئيل وغيره من الملائكة المقربين على رسوله المكرم، ومن قبله على خليله المعظم - عليهما أفضل الصلاة - بل لا يزال مرجعا ومنزلا لجميع الأنبياء، من آدم إلى خاتم، ومهبطا للوحي، ومحلا لنزول طوائف الملائكة. وقد تولد فيه سيد الرسل (ص) وتوطأت أكثر

ص ٣٠٨

مواضعه قدمه الشريفة وأقدام سائر الأنبياء، ولذلك سمي بـ(البيت العتيق) وقد شرفه الله تعالى بالإضافة إلى نفسه، ونصبه مقصدا لعباده، وجعل ما حواليه حرما لبيته، وتفخيما لأمره وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمه، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده، وقطع شجره، ووضعه على مثال حضرة الملوك، فقصده الزوار من كل فج عميق، ومن كل أوب سحيق، شعثاء غبراء، متواضعين لرب البيت، ومستكنين له، خضوعا لجلاله، واستكانة لعزته وعظمته، مع الاعتراف بتنزهه عن أن يحومه بيت أو يكتنفه بلد. ولا ريب في أن الاجتماع في مثل هذا الموضع، مع ما فيه من حصول الموالفة والمصاحبة، ومجاورة الأبدال والأوتاد والأخيار المجتمعين من أقطار البلاد، وتظاهر الهمم، وتعاون النفوس على التضرع والابتهال والدعاء الموجب لسرعة الإجابة بذكر النبي (ص) وإجلاله ونزول الوحي عليه، وغاية سعيه واهتمامه في إعلاء كلمة الله ونشر أحكام دينه، فتحصل الرقة للقلب، والصفاء للنفس. ثم لكون الحج أعظم التكليفات لهذه الأمة، جعل بمنزلة الرهبانية في الملل السالفة، فإن الأمم الماضية إذا أرادوا العمل لأصعب التكاليف وأشقها على النفس، انفردوا عن الخلق، وانحازوا إلى قلل الجبال، وآثروا التوحش عن الخلق بطلب الأنس بالله، والتجرد له في جميع الحركات والسكنات، فتركوا اللذات الحاضرة، وألزموا أنفسهم الرياضات الشاقة، طمعا في الآخرة وقد أثنى الله عليهم في كتابه، وقال: (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) (٥٣) وقال تعالى (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله) (٥٤).

ولما اندرس ذلك، وأقبل الخلق على أتباع الشهوات، وهجروا التجرد لعبادة الله تعالى، وفروا عنها، بعث الله تعالى من سرة البطحاء محمد (ص)، لإحياء طريق الآخرة، وتجديد سنة المرسلين في سلوكها، فمسألة أهل الملل من الرهبانية والسياحة في دينه فقال (ص): (أبدلنا بالرهبانية الجهاد،

(هامش)

)

٥٣) المائدة: الآية ٨٥. (٥٤) الحديد، الآية: ٢٧. (*)

ص٣٠٩

والتكبير على كل شرف - يعني الحج -، وأبدلنا بالسياحة الصوم). فأنعم الله على هذه الأمة، بأن جعل الحج رهبانية لهم، فهو بأزاء أعظم التكاليف والطاعات في الملل السابقة.

فصل ما ينبغي في الحاج up

ينبغي للحاج، عند توجهه إلى الحج، مراعاة أمور: الأول - أن يجرد نيته لله، بحيث لا يشوبها شيء من الأغراض الدنيوية، ولا يكون باعثه على التوجه إلى الحج إلا امتثال أمر الله ونيل ثوابه، والاستخلاص من عذابه، فليحذر كل الحذر أن يكون له باعث آخر، مكنون في بعض زوايا قلبه، كالرياء والحذر عن ذم الناس وتفسيقهم لولا يحج، أو الخوف من الفقر وتلف أموالهم لو ترك الحج، لما اشتهر

من أن (تارك الحج يبتلى بالفقر والإدبار)، أو قصد التجارة أو شغل آخر، فإن كل ذلك يخرج العمل من الإخلاص، ويحجبه عن الفائدة وترتب الثواب الموعود، وما أجهل من تحمل الأعمال الشاقة التي يمكن أن تحصل بها سعادة الأبد، لأجل خيالات فاسدة لا يترتب عليها سوى الخسران فائدة فيجتهد كل الجهد أن يجعل عزمه خالصا لوجه الله، بعيدا عن شوائب الرياء والسمعة ويتيقن أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص، وأن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الملك وحرمه والمقصود غيره، فليصحح في نفسه العزم، وتصحيحه بإخلاصه باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة. الثاني - أن يتوب إلى الله تعالى توبة خالصة، ويرد المظالم، ويقطع علاقة قلبه عن الالتفات إلى ما وراءه، ليكون متوجها إلى الله بوجه قلبه، ويقدر أنه لا يعود، وليكتب وصيته لأهله وأولاده، ويتهيأ لسفر الآخرة، فإن ذلك بين يديه على قرب، وما تقدمه من هذا السفر تهيئة لأسباب ذلك السفر، فهو المستقر وإليه المصير. فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك عند الاستعداد لهذا، فليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة.

الثالث - أن يعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت، ويعلم أنه ترك الأهل والأوطان، وفارق الأحبة والبلدان، للعزم على أمر رفيع شأنه،

ص ٣١٠

خطير أمره: أعني زيارة بيت الله الذي جعل مثابة للناس، فسفره هذا لا يضاهي أسفار الدنيا. فليحضر في قلبه ماذا يريد، وأين يتوجه، وزيارة من يقصد، وإنه متوجه إلى زيارة ملك الملوك في زمرة الزائرين إليه، الذين نودوا فأجابوا، وشوقوا فاشتاقوا، ودعوا فقطعوا العلائق. وفارقوا الخلائق، وأقبلوا على بيت الله الرفيع قدره والعظيم شأنه، تسليا بلقاء البيت عن لقاء صاحبه، إلى أن يرزقوا منتهى مناهم، ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم، فليحضر في قلبه عظم السفر، وعظمة البيت، وجلالة رب البيت، ويخرج معظما لها، ناويا إن لم يصل وأدركته المنية في الطريق لقي الله وافدا إليه بمقتضى وعده. الرابع - أن يخلي نفسه عن كل ما يشغل القلب، ويفرق الهم في الطريق، أو المقصود، من معاملة أو مثلها، حتى يكون الهم مجردا لله، والقلب مطمئنا منصرفا إلى ذكر الله وتعظيم شعائره، متذكرا عند كل حركة وسكون أمرا أخرويا يناسبه. الخامس - أن يكون زاده حلالا، ويوسع فيه ويطيبه، ولا يغتم ببذله وإنفاقه، بل كان طيب النفس به، إذ أنفاق المال في طريق الحج نفقة في سبيل الله، والدرهم منه بسبعمائة درهم، قال رسول الله (ص): (من شرف الرجل أن يطيب زاده إذا خرج في سفر). وكان السجاد (ع) إذا سافر إلى الحج، يتزود من أطيب الزاد، من اللوز والسكر والسويق المحمض والمحلى. وقال الصادق (ع): (إذا سافرتم، فاتخذوا سفرة وتنوقوا فيها). وفي رواية: (إنه يكره ذلك في زيارة الحسين (ع). نعم ينبغي أن يكون الإنفاق على الاقتصاد من دون تقتير ولا إسراف، والمراد بالإسراف التنعم بأطائب الأطعمة، والترفة بصرف أنواعها على ما هو عادة المترفين، وأما كثرة البذل على المستحقين، فلا إسراف فيه، إذ لا خير في السرف، ولا سرف في الخير.

وينبغي - أيضا - أن يكون له طيب النفس فيما أصابه من خسران ومصيبة في مال وبدن، لأن ذلك من دلائل قبول حجه، فإن ذهاب المال في طريق الحج يعد الدرهم منه سبعمائة في سبيل الله، فالمصيبة في طريق الحج بمثابة الشدائد في طريق الجهاد، فله بكل

ص ٣١١

أذى أحتمله وخسران أصابه ثواب، فلا يضيع منه شيء عند الله. السادس - أن يستحسن خلقه، ويطيب كلامه، ويكثر تواضعه، ويجتنب سوء الخلق والغلظة في الكلام، والرفث والفسوق والجدال، والرفث اسم جامع لكل فحش ولغو وخنى، والفسوق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله، والجدال هو المبالغة في الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن، ويفرق الهم ويناقض حسن الخلق. قال رسول الله (ص): (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) فقيل: يا رسول الله، ما بر الحج؟ قال: (طيب الكلام وإطعام الطعام). فلا ينبغي أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله، وعلى غيرهما من أصحابه، بل يلين جانبه، ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله، ويلزم حسن الخلق، وليس حسن الخلق مجرد كف الأذى، بل احتمال الأذى، وقيل: سمي السفر سفرا، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال. السابع - أن يكون أشعث أغبر، غير متزين ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر، فيكتب في المتكبرين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين، ويمشي أن قدر خصوصا بين المشاعر. وفي الخبر: (ما عبد الله بشيء أفضل من المشي). وينبغي ألا يكون الباعث للمشي تقليل النفقة، بل التعب والرياضة في سبيل الله، ولو كان القصد تقليل النفقة مع اليسار، فالركوب أفضل. وكذا الركوب

أفضل لمن ضعف بالمشي، وساء خلقه، وقصر في العمل، ففي الخبر: (تركبون أحب إلي، فإن ذلك أقوى على الدعاء والعبادة). وكان الحسين بن علي عليهما السلام يمشي وتساق معه المحامل والرحال. وإذا حضرت الراحلة ليركبها، فليشكر الله تعالى بقلبه على تسخيره له الدواب، للتحمل عنه الأذى، وتخف عنه المشقة. وينبغي أن يرفق بها، فلا يحملها ما لا تطيق.

فصل الميقات up

إذا خرج عن وطنه، ودخل إلى البادية، متوجها إلى الميقات، وشاهد العقبات، فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى الميقات يوم القيامة، وما بينهما من الأهوال والمطالبات، وليتذكر من هول قطاع الطريق

ص ٣١٢

هو منكر ونكير، ومن سباع البوادي وحياتها وعقاربها حيات القبر وأفاعيها وعقاربها وديدانها، ومن انفراده عن أهله وأقاربه وحشة القبر ووحدته وكربته، وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزودا لمخاوف القبر.

فصل ما ينبغي في الميقات up

إذا دخل الميقات، ولبس ثوبي الاحرام، فليتذكر عند لبسها لبس الكفن ولفه فيه، وأنه سيلقى الله ملفوفا في ثياب الكفن لا محالة، فكما لا يلقى بيت الله إلا بهيئة وزي يخالف عادته، فكذلك لا يلقى الله بعد الموت إلا في زي يخالف زي الدنيا وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب، إذ ليس مخيطا، كما أن الكفن أيضا ليس مخيطا. وإذا أحرم وتلبى، فليعلم أن الاحرام والتلبية إجابة نداء الله، فليرج أن يكون مقبولا، وليخش أن يكون مردودا، فيقال: لا لبيك ولا سعديك! فليكن بين الخوف والرجاء مترددا، وعن حوله وقوته متبرأ، وعلى فضل الله وكرمه متكلا. فإن وقت التلبية هو بداية الأمر، وهو محل الخطر. وقد روي: (أن علي بن الحسين - عليهما السلام - لما أحرم، واستوت به راحلته، أصفر لونه وانتقص، ووقعت عليه الرعدة، ولم يستطع أن يلبي. فقيل له: لم لا تلبي؟ فقال: أخشى أن يقول ربي: لا لبيك ولا سعديك! فلما لبى غشي عليه وسقط من راحلته، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه) فليتذكر الملبي عند رفع الأصوات في الميقات خائفا راجيا، أنه إجابة لنداء الله تعالى: إذ قال تعالى: (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا) (٥٥). ويتذكر من هذا النداء نداء الخلق بنفخ الصور، وحشرهم من القبور وازدحامهم في عرصات القيامة لنداء الله، فمنقسمين إلى مقربين ومبعدين، ومقبولين ومرددين في أول الأمر بين الخوف والرجاء، مثل تردد الحاج في الميقات، حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا.

(هامش)

(٥٥) الحج، الآية: ٢٧. (*)

ص ٣١٣

فصل ما ينبغي عند دخول مكة up

ينبغي أن يتذكر عند دخوله مكة: إنه قد انتهى إلى حرم من دخله كان آمنا، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله، وليضطرب قلبه من ألا يكون أهلا للقرب والقبول فيكون بدخول الحرم خائبا مستحقا لمقت، وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالبا، إذ شرف البيت عظيم، ورب البيت كريم، والرحمة واسعة، والفيوضات نازلة، وحق الزائر منظور، واللائذ المستجير غير مردود. وإذا وقع البصر على البيت، فليحضر في قلبه عظمته، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه، وليرج أن يرزقه لقاءه كما رزقه لقاء بيته، وليشكر الله على تبليغه إياه إلى بيته، وإلحاقه إياه بزمرة الوافدين إليه، ويتذكر عند ذلك إيصال الخلائق إلى جهة الجنة آمنين لدخولها كافة، ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين عنها، انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين.

فصل ما ينبغي عند الطواف.up

وينبغي عند الطواف أن يمتلئ قلبه من التعظيم والمحبة والخوف والرجاء ويعلم أنه في الطواف متشبه بالملائكة المقربين الطائفين حول العرش، وليعلم أن المقصود طواف قلبه بذكر رب البيت، دون مجرد طواف جسمه بالبيت فليبتدأ الذكر به ويختم به، كما يبتدأ الطواف من البيت ويختم بالبيت فروح الطواف وحقيقته هو طواف القلب بحضرة الربوبية، والبيت مثال ظاهر في عالم الشهادة لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر، وهو عالم الغيب وعالم الملك والشهادة، مدرجة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح له الباب وما ورد من البيت

المعمور في السماوات بأزاء الكعبة، وأن طواف الملائكة بها كطواف الإنس بهذا البيت، ربما كان إشارة إلى ما ذكرناه من المماثلة، ولما قصرت رتبة الأكثرين عن مثل ذلك الطواف، أمروا بالتشبه بهم بقدر الإمكان، ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم.

ص ٣١٤

فصل ما ينبغي عند استلام الحجر up

ينبغي أن يتذكر عند استلام الحجر الأسود، أنه بمنزلة يمين الله في أرضه، وفيه مواثيق العباد. قال رسول الله (ص): (استلموا الركن، فإنه يمين الله في خلقه، يصافح بها خلقه مصافحة العبد أو الدخيل، ويشهد لمن استلمه بالموافاة) ومراده (ص) بالركن: الحجر الأسود لأنه موضوع فيه، وإنما شبه باليمين لأنه واسطة بين الله وبين عباده في النيل والوصول والتحبب والرضا، كاليمين حين التصافح. وقال الصادق (ع) (إن الله تبارك وتعالى لما أخذ مواثيق العباد، أمر الحجر فالتقمها، فلذلك يقال: أمانتي أديتها، وميثاقي عاهدته، لتشهد لي بالموافاة). وقال (ع) (الركن اليماني باب من أبواب الجنة لم يغلقه الله منذ فتحه). وقال (ع) (الركن اليماني بابنا الذي يدخل منه الجنة، وفيه نهر من الجنة تلقى فيه أعمال العباد)، قيل: إنما شبه بباب الجنة لأن استلامه وسيلة إلى وصولها وبالنهر، لأنه تغسل به الذنوب ثم لتكن النية في الاستلام والالتصاق بالمستجار، بل المماسة لكل جزء من البيت، طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت، وتمسكا وتبركا بالمماسة ورجاء للتحصن عن النار في كل جزء لا في البيت، ولتكن نيته في التعلق بأستار البيت الالحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان، كالمقصر المتعلق بثياب من قصر في حقه، المتضرع إليه في عفوه عنه المظهر له أنه لا ملجأ منه إلا إليه، ولا مفزع إلا عفوه وكرمه، وإنه لا يفارق ذيله حتى يعفو عنه، ويعطيه الأمان في المستقبل.

فصل السعي up

السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائيا وذاهبا مرة بعد أخرى، إظهار للخلوص في الخدمة، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة، كالذي دخل على الملك وخرج، وهو لا يدري ما الذي يقضي به الملك في حقه من قبول أو رد، فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد

ص ٣١٥

أخرى، ويرجو أن يرحمه في الثانية إن لم يرحمه في الأولى، وليتذكر عند تردده التردد بين الكفتين، ناظرا إلى الرجحان والنقصان، مرددا بين العذاب والغفران.

فصل ما ينبغي عند الوقوف بعرفات up

وأما الوقوف بعرفات، فليتذكر بما يرى من ازدحام الخلق، وارتفاع الأصوات، واختلاف اللغات، واتباع الفرق أئمتهم في التردد على المشاعر عرصات يوم القيامة وأهوالها، وانتشار الخلائق فيها حيارى، واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة، واقتفاء كل أمة نبيهم، وطمعهم في شفاعته لهم وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول. وإذا تذكر ذلك، فليتضرع إلى الله تعالى ويبتهل إليه، ليقبل حجه ويحشره في زمرة الفائزين المرحومين وينبغي أن يحقق رجاءه إذ اليوم شرف والموقف عظيم والنفوس من أقطار الأرض فيه مجتمعة، والقلوب إلى الله سبحانه منقطعة والهمم على الدعاء والسؤال متظاهرة، وبواطن العباد على التضرع والابتهال متعاونة، وأيديهم إلى حضرة الربوبية مرتفعة، وأبصارهم إلى باب فيضه شاخصة، وأعناقهم إلى عظيم لطفه وبره ممتدة، ولا يمكن أن يخلو الموقف عن الأخبار والصالحين وأرباب القلوب والمتقين، بل الظاهر حضور طبقات الأبدال وأوتاد الأرض فيه، فلا تستبعدن أن تصل الرحمة من ذي الجلال بواسطة القلوب العزيزة والنفوس القادسة الشريفة، إلى كافة الخليقة ولا تظنن أنه يخيب آمال الجميع، ويضيع سعيهم ولا يرحم غربتهم وانقطاعهم عن الأهل والأوطان فإن بحر الرحمة أوسع من أن يظن به في مثل هذه الحالة، ولذا ورد: أنه من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله لم يغفر له.

فصل المشعر up

وإذا فاض من عرفات ودخل المشعر، فليتذكر عند دخوله فيه: إن الله سبحانه قد أذن له في الدخول حرمه بعد أن كان خارجا عنه، إذ المشعر من

ص ٣١٦

جملة الحرم، وعرفات خارجة عنه، فليتفاءل من دخول الحرم بعد خروجه عنه، بأن الله سبحانه قربه إليه وكساه خلع القبول، وأجاره

وآمنه من العذاب والعبد وجعله من أهل الجنة والقرب.
فصل ما ينبغي عند الرمي والذبح up
وإذ ورد منى، وتوجه إلى رمي الجمار، فليقصد به الانقياد والامتثال، إظهارا للرق والعبودية، وتشبيها بالخليل الجليل (ع)، حيث عرض له إبليس اللعين في هذا الموضع ليفسد حجه، فأمره الله تعالى أن يرميه بالحجارة طردا له وقطعا لأصله. وينبغي أن يقصد أنه يرمي الحصا إلى وجه الشيطان، ويقصم به ظهره، ويرغم به أنفه، إذ امتثال أمر الله تعالى تعظيما له يقصم ظهر اللعين ويرغم به أنفه. وإذا ذبح الهدي، فليستحضر أن الذبح إشارة إلى أنه بسبب الحج قد غلب وعلى الشيطان والنفس الأمارة وقتلهما، وبذلك استحق الرحمة والغفران، ولذا ورد أنه: يعتق بكل جزء من الهدي جزء منه النار. فليجتهد في التوبة والرجوع عما كان عليه قبل ذلك من الأعمال القبيحة، حتى يصير حاله أحسن من سابقه، ليصدق عليه إذلاله الشيطان والنفس الأمارة في الجملة، ولا يكون في عمله من الكاذبين. ولذلك ورد: أن علامة قبول الحج: أن يصير حاله بعد الحج: أحسن مما كان عليه قبله. وفي الخبر: أن علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصي، وأن يستبدل بإخوانه البطالين أخوانا صالحين، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة.
تتميم أسرار الحج up
قد ورد عن مولانا الصادق (ع) خبر يتضمن عمدة أسرار الحج ودقائقه فلنذكره تيمنا بكلماته الشريفة: قال (ع): (إذا أردت الحج، فجرد قلبك لله عز وجل، من قبل عزمك، من كل شغل شاغل وحجب كل حاجب، وفوض أمورك كلها إلى
ص ٣١٧
خالقك، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك، وسلم لقضائه وحكمه وقدره، وودع الدنيا والراحة والخلق، وأخرج من حقوق يلزمك من جهة المخلوقين، ولا تعتمد على زادك وراحلتك وأصحابك وقوتك وشبابك ومالك، مخافة أن يصير ذلك عدوا ووبالا، فإن من ادعى رضا الله، واعتمد على شيء ما سواه، صيره عليه عدوا ووبالا، ليعلم أنه ليس له قوة ولا حيلة ولا لأحد إلا بعصمة الله تعالى وتوفيقه، واستعد استعداد من لا يرجو الرجوع، وأحسن الصحبة، وراع أوقات فرائض الله تعالى وسنن نبيه (ص)، وما يجب عليك من الأدب، والاحتمال، والصبر، والشكر، والشفقة، والسخاوة، وإيثار الزاد على دوام الأوقات، ثم أغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك، والبس كسوة الصدق والصفاء والخضوع والخشوع ، وأحرم من كل شيء يمنعك عن ذكر الله عز وجل ويحجبك عن طاعته، ولب بمعنى إجابة صافية خالصة زاكية لله عز وجل في دعوتك له، متمسكا بالعروة الوثقى، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت.

وهرول هرولة فرا من هواك، وتبرأ من جميع حولك وقوتك، واخرج من غفلتك وزلاتك بخروجك إلى منى، ولا تتمن ما لا يحل لك ولا تستحقه، واعترف بالخطأ بالعرفات، وجدد عهدك عند الله تعالى بوحدانيته، وتقرب إليه، واتقه بمزدلفة، واصعد بروحك إلى الملأ الأعلى بصعودك على الجبل، واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة، وارم الشهوات والحساسة والدناءة والأفعال الذميمة عند رمي الجمرات، وأحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك، وأدخل في أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخول الحرم، وزر البيت متحققا لتعظيم صاحبه ومعرفته وجلاله، واستلم الحجر رضى بقسمته وخضوعا لعظمته، وودع ما سواه بطواف الوداع، وصف روحك وسرك للقاء الله تعالى يوم تلقاه بوقوفك على الصفا، وكن ذا مرة من الله بفناء أوصافك عند المروة، واستقم على شروط حجتك، ووفاء عهدك الذي عاهدت ربك، وأوجبت له إلى يوم القيامة، وأعلم بأن الله لم يفترض الحج، ولم يخصه من جميع الطاعات بالإضافة إلى نفسه بقوله تعالى:
ص ٣١٨
(ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) (٥٦). ولا شرع نبيه (ص) سنة في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه، إلا للاستعداد والإشارة إلى الموت والقبر والبعث والقيامة، وفضل بيان السبق من دخول الجنة أهلها ودخول النار أهلها، بمشاهدة مناسك الحج من أولها إلى آخرها، لأولي الألباب وأولي النهى) (٥٧).
خاتمة زيارة المشاهد up
في الإشارة إلى بعض الأمور الباطنة المتعلقة بزيارة المشاهد. إعلم أن النفوس القوية القدسية، لا سيما نفوس الأنبياء والأئمة - عليهم

السلام -، إذا نفضوا أبدانهم الشريفة، وتجردوا عنها، وصعدوا إلى عالم التجرد، وكانوا في غاية الإحاطة والاستيلاء على هذا العالم، فأمور هذا العالم عندهم ظاهرة منكشفة، ولهم القوة والتمكن على التأثير والتصرف في مواد هذا العالم، فكل من يحضر مقابرهم لزيارتهم يطلعون عليه، لا سيما ومقابرهم مشاهد أرواحهم المقدسة العلية، ومحال حضور أشباحهم البرزخية النورية، فإنهم هناك يشهدون. (بل أحياء عند ربهم يرزقون) (٥٨). وبما آتاهم الله من فضله فرحون. فلهم تمام العلم والاطلاع بزائري قبورهم، وحاضري مراقدهم، وما يصدر عنهم من السؤال والتوسل والاستشفاع والتضرع، فتهب عليهم نسمات ألطافهم، وتفيض عليهم من رشحات أنوارهم، ويشفعون إلى الله في قضاء حوائجهم، وإنجاح مقاصدهم، وغفران ذنوبهم، وكشف كروبهم. فهذا هو السر في تأكد استحباب زيارة النبي والأئمة - عليهم السلام - مع ما فيه من صلتهم وبرهم وإجابتهم، وإدخال السرور عليهم، وتجديد عهد ولايتهم. وإحياء أمرهم، وإعلاء كلمتهم، وتبكيت أعدائهم. وكل واحد من هذه الأمور مما لا يخفى عظيم أجره وجزيل ثوابه. وكيف لا تكون زيارتهم أقرب القربات، وأشرف الطاعات

(هامش)

(٥٧) صححنا الحديث على مصباح الشريعة): الباب ٢١. (٥٨) آل عمران، الآية: ١٦٩. (*)

ص٣١٩

مع أن زيادة المؤمن - من جهة كونه مؤمنا فحسب - عظيم الأجر جزيل الثواب، وقد ورد به الحث والتوكيد والترغيب الشديد من الشريعة الطاهرة، ولذلك كثر تردد الأحياء إلى قبور أمواتهم للزيارة، وتعارف ذلك بينهم، حتى صارت لهم سنة طبيعية، وأيضا قد ثبت وتقرر جلالة قدر المؤمن عند الله، وثواب صلته وبره وإدخال السرور عليه. وإذا كان الحال في المؤمن من حيث أنه مؤمن فما ظنك بمن عصمه الله من الخطأ، وطهره من الرجس، وبعثه الله إلى الخلائق أجمعين، وجعله حجة على العالمين، وارتضاه إماما للمؤمنين، وقدوة للمسلمين، ولأجله خلق السماوات والأرضين، وجعله صراطه وسبيله، وعينه ودليله، وبابه الذي يؤتى منه ونوره الذي يستضاء به، وأمينه على بلاده، وحبله المتصل بينه وبين عباده، من رسل وأنبياء وأئمة وأولياء. ثم، الأخبار الواردة في فضيلة زيارة النبي والأئمة - عليهم السلام - مما لا تحصى كثرة. قال رسول الله (ص): (من زار قبري بعد موتي. كان كمن هاجر إلي في حياتي، فإن لم تستطيعوا فابعثوا إلي بالسلام، فإنه يبلغني) وقال (ص) لأمير المؤمنين (ع): (يا أبا الحسن، إن الله تعالى جعل قبرك وقبر ولدك بقاعا من بقاع الجنة، وعرصة من عرصاتها، وإن الله جعل قلوب نجباء من خلقه وصفوة من عباده، تحن إليكم، وتحتمل المذلة والأذى فيكم، فيعمرون قبوركم، ويكثرون زيارتها، تقربا منهم إلى الله، ومودة منهم لرسوله، أولئك يا علي المخصوصون بشفاعتي، والواردون حوضي، وهم زواري وجيراني غدا في الجنة. يا علي، من عمر قبورهم وتعاهدها، فكأنما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس، ومن زار قبوركم عدل ذلك سبعين حجة بعد حجة الإسلام، وخرج من ذنوبه حتى يرجع من زيارتكم كيوم ولدته أمه.

فأبشر، وبشر، أولياءك ومحبيك من النعيم وقرة العين، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولكن حثالة من الناس يعيرون زوار قبوركم، كما تعير الزانية بزناها، أولئك شرار أمتي، لا تنالهم شفاعتي، ولا يردون

ص ٣٢٠

حوضي ) (٥٩). وقال الصادق (ع): (لو أن أحدكم حج دهره، ثم لم يزر الحسين بن علي - عليهما السلام -، لكان تاركا حقا من حقوق رسول الله (ص). لأن حق الحسين (ع) فريضة من الله واجبة على كل مسلم). وقال الرضا (ع): (إن لكل إمام عهدا في عنق أوليائه وشيعته، وإن من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم، وتصديقا بما رغبوا فيه، كان أئمته شفعاءه يوم القيامة). والأخبار في فضل زيارة النبي والأئمة المعصومين، لا سيما زيارة سيد الشهداء وأبي الحسن الرضا - عليهم أفضل التحية والثناء -، وفضل زيارتهما على الحج والعمرة والجهاد، أكثر من أن تحصى وهي مذكورة في كتب المزار لأصحابنا فلا حاجة إلى إيرادها هنا.

فصل ما ينبغي للزائر عند دخول المدينة المنورة up

وإذا عرفت فضل زيارتهم وسرها، وعظم قدرهم وجلالة شأنهم، فينبغي أن تكثر التواضع والتخضع والانكسار عن الدخول في

بلادهم، ومراقدهم المنورة، ومشاهدهم المكرمة، وتستحضر في قلبك عظمتهم وجلالهم، وتعرف عظيم حقهم، وغاية جدهم وسعيهم في إرشاد الناس وإعلاء كلمة الله. فإذا قربت المدينة المنورة، ووقع بصرك على حيطانها، تذكر أنها البلدة التي اختارها الله لنبيه (ص) وجعل إليها هجرته، وأنها البلدة التي فيها شرع فرائض ربه وسننه، وجاهد عدوه، وأظهر بها دينه، ولم يزل قاطنا بها إلى أن توفاه الله، وجعل تربته فيها. ثم مثل في نفسك أقدام رسول الله (ص) عند ترددات فيها، وتذكر أنه ما من موضع قدم تطأه إلا وهو موضع قدمه العزيز، فلا تضع قدمك عليه إلا على سكينة ووجل، وكن متذكرا لمشيه وتخطيه في سككها، وتصور سكينته ووقاره، وخشوعه وتواضعه لعظمة ربه، وما استودع الله في قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره، حتى قرنه بذكر نفسه، وأنزل عليه كلامه العزيز، وأهبط عليه روح الأمين وسائر ملائكته المقربين، وأحبط

(هامش)

(٥٩) صححنا الحديث على مستدرك الوسائل: ٢ / ١٩٥ - ١٩٦، كتاب الحج، ١٠، أبواب المزار وما يناسبه.

ص ٣٢١

عمل من هتك حرمته، ولو برفع صوته فوق صوته. ثم تذكر ما من الله به على الذين أدركوا صحبته، وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه، وأعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته، وتضرع إلى الله ألا تفوتك صحبته في الآخرة، ولتعظم رجائك في ذلك، بعد أن رزقك الله الإيمان، وأشخصك من أرضك لأجل زيارته، محبة له، وتشوقا إليه. ثم إذا دخلت مسجده، فتذكر أن أول موضع أقيمت فيه فرائض الله تلك العرصة، وأنها تضمنت أفضل خلق الله حيا وميتا، فارج الله غاية الرجاء أن يرحمك بدخولك إياه خاشعا معظما، وما أجدر ذلك المكان بأن يستدعي الخشوع من قلب كل مؤمن. ثم إذا أتيته للزيارة، فينبغي أن تقف بين يديه خاضعا خاشعا خائفا، وتزوره ميتا كما تزوره حيا، ولا تقرب من قبره إلا كما تقرب من شخصه الكريم لو كان حيا، إذ لا فرق بين ميته وحيه، ولو وجدت التفرقة في قلبك لما كنت مؤمنا، ولتعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك، وإنه يبلغه سلامك وصلواتك. فمثل صورته الكريمة في خيالك، جالسا على سرير العظمة بحذائك، وأحضر عظيم رتبته في قلبك، وقد ورد أن الله تعالى وكل بقبره ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته. وهذا في حق من لم يحضر قبره، فكيف بمن فارق الأهل والوطن، وقطع البوادي شوقا إلى لقائه، واكتفى وقنع بمشاهدته مشهده المنور، إذ فائته مشاهدة طلعته البهية، وغرته الكريمة. وقد قال (ص)،: (من صلى علي مرة، صليت عليه عشرا). فهذا جزاؤه عليه في الصلاة عليه بلسانه، فكيف بالحضور لزيارته ببدنه؟ وإذا فرغت من زيارته،، فأت المنبر وامسحه بيدك، وخذ برمانتيه، وامسح بهما وجهك وعينيك، وتضرع إلى الله، وابتهل إليه، واسأل حاجتك. وتوهم صعود النبي (ص) المنبر، ومثل في قلبك طلعته البهية، قائما على المنبر، وقد أحدق به المسلمون من المهاجرين والأنصار، وهو يحمد الله بأفصح الكلمات واللغات، ويحث الناس على طاعة الله.

واسأل الله ألا يفرق في القيامة بينه وبينك، ويجعلك في جواره، ويعطيك منزلا

ص ٣٢٢

في قرب داره.

فصل ما ينبغي للزائر عند دخول النجف وكربلاء up

وإذا دخلت أرض النجف لزيارة أمير المؤمنين وسيد الوصيين (ع)، تذكر أنها وادي السلام، ومجمع أرواح المؤمنين، وقد شرفها الله وجعلها أشرف البقاع، وجنة المؤمنين. فما من مؤمن خالص إلا وبعد الموت يأتي روحه إليها، ويتنعم فيها مع سائر المؤمنين، إلى أن يدخلوا دار كرامته العظمى في القيامة الكبرى. وقد أكد شرافتها وعظم قدرتها، بأن جعلها مدفن وصي رسوله، بعد أن كانت مدفن آدم أبي البشر، ونوح شيخ المرسلين - عليهما السلام -. فأسأل الله أن يأتي بروحك إليها، ويدخلك في زمرة المؤمنين، ويجعلها محل دفنك، لتنالك شفاعة مولاك (ع)، ولا يحشرك مع الكفار والعصاة في وادي برهوت. وإذا أتيت لزيارته، تذكر عظيم مرتبته عند الله وعند رسوله، وراع الآداب التي ذكرناها في زيارة رسول الله (ص). وإذا أردت أرض كربلاء، لزيارة سيد الشهداء (ع)، فتذكر أن هذه الأرض هي التي قتل فيها سبط الرسول وأولاده وأقاربه وأجناده، وأسرت فيها أهاليه وأهل بيته، فجدد الحزن على قلبك، وأدخلها أشعث أغبر، منكسر الحال، محزون القلب، كئيبا حزينا باكيا، وأحضر في قلبك حرمة هذه الأرض وشرافتها، فإنها الأرض

التي في تربتها شفاء، ولا يرد فيها الدعاء، وقد يجعلها الله يوم القيامة أرفع بقاع الجنة، فتردد فيها على سكينة ووجل. ثم إذا دخلت الحائر للزيارة، ووقع بصرك على ضريحه المنور، ثم على ضريح أصحابه المستشهدين معه، المجتمعين في موضع واحد في جواره، فمثل في قلبك أشخاصهم، وتذكر وقائعهم وما جرى عليهم من البلايا والمحن واحضر في نفسك أبا عبد الله الحسين (ع) واقفا في عرصة كربلاء، ويأتي أصحابه واحدا واحدا يستأذن منهم للجهاد، قائلا: السلام عليك يا أبا عبد الله وهو يأذن له، ويلقي نفسه في الميدان على الجم الغفير، فيقتل في سبيله،

ص ٣٢٣

وإذا أيس من حياته، ينادي بأعلى صوته: أدركني يا أبا عبد الله! هو (ع) يسرع إليه كالصقر المنقض، ويأخذ جثته من الميدان،، ويلحقه بسائر أخوانه الشهداء. فمثل في نفسك أمثال ذلك، وجدد عليهم الحزن والبكاء، وتمن كونك معهم في تلك العرصة، وقل: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما! ثم راع الآداب الباطنة لزيارته (ع) وقس على ذلك زيارة كل واحد من الأئمة - عليهم السلام -، فإنه ينبغي لك أن تستحضر، عند حضورك كل واحد منهم، وجلال شأنه، وعظمة قدرته، وعظيم حقه، وتتذكر ما يناسب حاله، وما جرى عليه، ثم تستشعر في قلبك ما يترتب عليه، من التعظيم، والاجلال، والخوف *، والحزن، والفرح، وأمثال ذلك. هذا آخر كتاب (جامع السعادات)، والحمد لله على إتمامه، وأسأل الله أن يجعلنا من العاملين به، وينفع به جميع عباده السالكين إليه. وقد وقع الفراغ من جمعه وتأليفه، في سلخ شهر ذي القعدة الحرام سنة ستة وتسعين ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية، على مهاجرها ألف ألف سلام وتحية.

هذا آخر ما كتبه المصنف (قدس سره)

الصفحة السابقة ... up ... جامع السعادات (ج٣) ... فهرسة الكتاب ... فهرس الكتب